

لعبة الغالب والمغلوب بين العرب.. وإيران.. والغرب

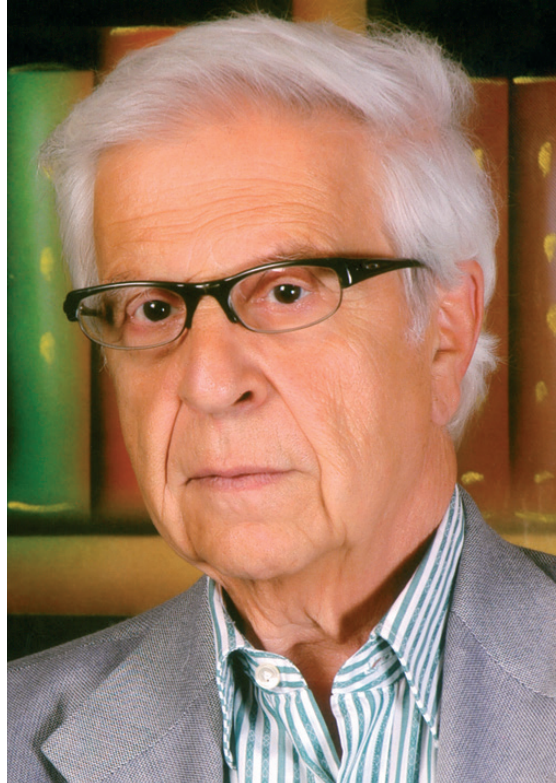
لعبة الغالب والمغلوب بين العرب.. وإيران.. والغرب

مقالات فؤاد مطر

في الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT جريدة العرب الدولية

صحيفة العرب الدولية - الأولى

المجلد الثاني: (2001-2005)



محتويات المجلد الثاني

35 في التآني.. السلامة

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 3 يناير (كانون الثاني) 2001
حول قمة فلسطينية - إسرائيلية كان مقرراً أن يستضيفها الرئيس حسني مبارك في شرم الشيخ يوم 28 ديسمبر/كانون الأول ولماذا كان من حُسن حظ القضية الفلسطينية أنها لم تتعقد

37 بعض زُرَّاع الفتنة... في أرض العرب

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 10 يناير (كانون الثاني) 2001
نظرة على 3 شخصيات أجنبية زرت الفتنة في الأرض العربية. والثلاثة هم: غلوب باشا واللورد كارادون ووليم روجرز. وما هي ملامح الفتنة التي زرعوها بين الخمسينات والسبعينات في شكل أو آخر

38 بماذا ينصح بوش الأب... بوش الابن!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 17 يناير (كانون الثاني) 2001
نصائح إفتراضية يمكن أن يوجهها الرئيس الأسبق جورج بوش الأب إلى الابن الذي بات رئيساً للولايات المتحدة... هذا إذا كان الأب يريد لإبنه رئاسة مستقرة

39 وبماذا تنصح (الحماة) باربرا... (الكثة) لورا؟

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 21 يناير (كانون الثاني) 2001
... ونصائح إفتراضية أيضاً يمكن أن تسديها باربرا زوجة الرئيس الأسبق إلى زوجة ابنها الذي بات رئيساً، وبذلك تكفّر من خلال هذه النصائح عن ذنوب السيدات السابقات للبيت الأبيض ومنهن باربرا نفسها

42 تسليفات مصرية وإيرانية... لديون لبنانية

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 24 يناير (كانون الثاني) 2001
معنى بادرة الرئيس حسني مبارك بمساعدة لبنان وذلك من خلال تأهيل محطة إستراتيجية لتوليد الكهرباء إعتدت عليها إسرائيل، ومعنى قرار الحُكم الإيراني بالمساعدة في إعادة إعمار لبنان وخصوصاً الجنوب

44 جنرالا السلام... على العرب

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 31 يناير (كانون الثاني) 2001
الجنرالان هما أرييل شارون و إيهود باراك وكلاهما لايسعى عملياً لتحقيق السلام وإنما يتطلعان إلى زمن يقال فيه: السلام على العرب

46 مفاهيم فرنسية منقوصة للإبادة

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 7 فبراير (شباط) 2001
حول إنصاف البرلمان الفرنسي ومجلس الشيوخ في فرنسا للأرمن في موضوع الإبادة التركية لهم وعدم إنصافهما بالمثل للفلسطينيين الذين يتعرضون لعملية إبادة من جانب إسرائيل

47 «لعنة الإنتفاضة» ... من جاکرتا إلى نواكشوط

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 14 فبراير (شباط) 2001
نظرة على إثنين من رموز التطبيع الإسلامي مع إسرائيل أصابتهما "لعنة الإنتفاضة" فباتا خارج السلطة. والإثنان هما الرئيس الأندونيسي عبد الرحمن واحد ووزير خارجية موريتانيا أحمد ولد سيد أحمد

49 الغزوي الكاميكازي الذي خرج على الإسرائيليين شاهراً «أوتوبيسه»!

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 فبراير (شباط) 2001
حول عملية جهادية ذات طابع كاميكازي قام بها مجاهد فلسطيني إسمه علاء أبو خليل إقتحم في لحظة غضب بـ"الأوتوبيس" الذي يعمل سائقاً له حشداً من الجنود الإسرائيليين في محطة قُرب تل أبيب

51 الدكتور حسن والمستر جون

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 28 فبراير (شباط) 2001
حول خطوة فاجأت السودانيين معارضين ونظاماً وتمثلت بإتفاق الدكتور حسن الترابي مع الدكتور جون قرنق... أو بين الشيخ حسن والمستر جون. فما الذي أوجب هذا؟

53 إنطباعات من الكويت: الولادة العسيرة... والولادة الأعسر (1 - 2)

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 7 مارس (آذار) 2001
الولادتان اللتان تتحدث عنهما هذه الإنطباعات هما ولادة الحكومة العشرين في تاريخ الكويت وكانت ولادتها عسيرة، والثانية، والتي هي الولادة الأعسر، تتعلق بمسعى لمصالحة الجارين اللدودين العراق والكويت

55 لماذا عمرو موسى؟

صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 8 مارس (آذار) 2001
قراءة في دواعي إختيار الرئيس حسني مبارك لوزير خارجيته عمرو موسى دون غيره من الشخصيات المصرية لكي يتولى منصب الأمين العام للجامعة العربية خلفاً للدكتور عصمت عبدالمجيد، وأيضاً في دواعي الترحيب العربي الملحوظ بهذا الإختيار

60 خشبة الخلاص لصالح طريف... وغيره

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 21 مارس (آذار) 2001
كيف يمكن أن ينجو الدرزي العربي صالح طريف الذي تم تعيينه وزيراً في الحكومة الإسرائيلية من ورطة أقحمه فيها أرييل شارون؟

62 قمة على مرمى حجر.. من الإنتفاضة

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 28 مارس (آذار) 2001
حول القمة العربية الدورية الأولى التي ستستضيفها العاصمة الأردنية بينما "إنتفاضة الأقصى" على مرمى حجر منها

64 قمة على مشارف النجاح

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 4 أبريل (نيسان) 2001
وقراءة في نتائج هذه القمة بالمقارنة مع قمم عربية سابقة وهل أن هذه القمة اخفقت أم وضعت نفسها على مشارف النجاح

66 إيران وغيرها... وروسيا الخطّافة

صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 11 أبريل (نيسان) 2001
نظرة على سياسة يتبّعها الرئيس فلاديمير بوتين بأمل أن ينتهي إلى خطف بعض الدول من قائمة أحلام أميركا في وضع اليد عليها من بينها إيران والعراق والجزائر وسوريا وليبيا

- 68 لبنان وسوريا... والفرصة الذهبية التي لا تتكرر
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 18 أبريل (نيسان) 2001
حول الفرصة التي أتيحت أمام كل من لبنان وسوريا لكي تكون العلاقة بينهما مستقرة، وهي فرصة ذهبية ومن الصعب أن تتكرر...
- 70 نحن وأميركا... بعد الدرس الصيني
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 25 أبريل (نيسان) 2001
تساؤل في شأن وقفة من أميركا تكون بمثل الوقفة الصينية التي جعلت الدولة الأعظم تتحني أمام غضب الصينيين وشروطهم وهذا أمر مستجد على قواعد الصراع
- 72 بوش المبتهج كثيراً... بالحريري
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 2 مايو (أيار) 2001
تأملات في وقائع حدثت في العام 2001 أفرزت حالات من الطمأنينة وجاءت بعد لقاءات واتصالات نوعية ووفق رؤى قام بها الرئيس رفيق الحريري
- 74 من متاعب الصحافة... إلى هموم الوزارة
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 16 مايو (أيار) 2001
حول تعيين إثنين من الإعلاميين في مناصب وزارية مرموقة: الأول هو ناجي الحديثي الذي عيّنه الرئيس صدام حسين وزيراً للخارجية. والثاني هو نبيل الحمر الذي عيّنه أمير دولة البحرين وزيراً للإعلام
- 76 من أجل بعض فلسطين... ودفاعاً عن النفس
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 23 مايو (أيار) 2001
كيف أن خطوة أقدمت عليها المملكة العربية السعودية وتوصيات للجنة المتابعة كانت حالة دفاع عن النفس
- 78 الحرب الأهلية الفلسطينية... بديل الرهان الشاروني؟!
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 30 مايو (أيار) 2001
من جملة بنود البرنامج العدواني لرئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون هو رهانه على حدوث حرب أهلية بين الفلسطينيين مستغلاً بعض الثغرات في الموقف العربي ومنها الثغرة الموريتانية...
- 80 موسكو تحاول إستعادة دورها الضائع
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 6 يونيو (حزيران) 2001
حول الدور الروسي الضائع والمنشودة إستعادته وكيف أوكل الرئيس بوتين إلى يفغيني بريماكوف الدبلوماسي والاستخباراتي ورئيس الحكومة الأسبق السعي من أجل تلك الإستعادة
- 82 الألماني الأخضر يجرب حظه
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 يونيو (حزيران) 2001
حول الدواعي التي تجعل وزير خارجية ألمانيا جوشكا فيشر يجرب حظه في إيجاد حلول للنزاع الفلسطيني - الإسرائيلي
- 84 هل هي الخاتمية بعد الخمينية؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 20 يونيو (حزيران) 2001
قراءة في معاني فوز مهبر للمرة الثانية حققه الرئيس محمد خاتمي في إنتخابات رئاسة الجمهورية في إيران التي جرت يوم الجمعة 8 يونيو/ حزيران 2001

- 87 القضية بين توغك يبدأ... وتوغك يتوارى
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 27 يونيو (حزيران) 2001
حول التوغك السياسي الناشئ عن العناد في وجه المباغطة، يقابله توغك على طريق أن يتوارى نتيجة للمرونة والتفهم...
- 89 هل الوقفة مع الصديق الأميركي آتية.. عاجلاً أم آجلاً؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 4 يوليو (تموز) 2001
تساؤلات في شأن وقفة مع الصديق الأميركي لآبد آتية عاجلاً أم آجلاً وذلك نتيجة إنحيازه المريع لإسرائيل
- 91 من يفوز لو كانت أميركا متفرجة ودارت المعركة بالتكاش والتلاكم؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 11 يوليو (تموز) 2001
حول فرضية تقوم على أن المعركة بين الفلسطينيين والإسرائيليين ربما لن تكسبها إسرائيل لو أن هذه المعركة دارت بالتكاش والتلاكم وكانت الإدارة الأميركية مجرد متفرجة على هذه المعركة
- 93 مصير خير أمة على كف أسوأ بلطجي!
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 18 يوليو (تموز) 2001
كيف وصلت الحال إلى أن مصير الأمة العربية الإسلامية باتت على كف أسوأ بلطجي هو رئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون، وكيف أن المنطقة تقترب نتيجة ذلك من مشارف حرب رابعة لن تكون قصيرة إن هي بدأت
- 95 على مشارف الإنصاف لنا... وعلى حافة الإدانة لها
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 25 يوليو (تموز) 2001
عندما أثمرت تحذيرات ونصائح من الأمير عبدالله بن عبدالعزيز (ولي عهد المملكة العربية السعودية) بتصريحات متوازنة لوزير خارجية الولايات المتحدة كولن باول
- 97 ياسر عرفات.. المشكلة والحل والرقم الصعب
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 1 أغسطس (آب) 2001
حول الرئيس ياسر عرفات الذي هو المشكلة والذي هو الحل والذي هو الرقم الصعب وذلك في ضوء تقرير للمخابرات الإسرائيلية نشرته صحيفة "معاريف" يوم الجمعة 6-7-2001 ثم بدأ الأخذ والرد العربي والدولي في شأنه يتوالى
- 99 لماذا لا تقتنع واشنطن بأن إسرائيل عنصرية؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 8 أغسطس (آب) 2001
تساؤل حول السر الذي يجعل الإدارة الأميركية لا تقتنع بأن إسرائيل ليست فقط عنصرية، وإنما هي عنصرية ونصف. على هذا الأساس فليست محقة في مقاطعة "مؤتمر مكافحة العنصرية" من 31-8-2001 إلى 7-9-2001
- 102 علي الجولاني... بطل آخر إنما ليس الأخير
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 15 أغسطس (آب) 2001
نظرة على عملية جهادية قام بها يوم الأحد 5-8-2001 بطل فلسطيني آخر إسمه علي الجولاني وإستهدفت جنوداً إسرائيليين أمام وزارة الدفاع في تل أبيب
- 105 بشّار الأسد... ذلك الوسيط الواقعي؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 22 أغسطس (آب) 2001
قراءة في الزيارة التي قام بها رئيس وزراء سوريا محمد مصطفى مورو إلى العراق يوم السبت 11-8-2001 وسبقت الزيارة التي قام بها الرئيس بشّار الأسد إلى الكويت مما ترك إنطباعاً بأن الرئيس بشّار سيكون الوسيط الواقعي المرغوب بوساطته أفضل ترحيب بين العراق والكويت

107 فلسطين النازحة... وفلسطين الصامدة

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 29 أغسطس (آب) 2001

تساؤلات في شأن أهمية صمود الفلسطينيين في أرضهم بدل النزوح وبحيث أنه كان من الصعب إلى حد كبير قيام دولة إسرائيل لو أنهم تحمّلوا في أواخر الأربعينات التحرشات والإستفزازات التي كانت تقوم بها العصابات الصهيونية على نحو تحمّلهم بعد ذلك في مطلع القرن الواحد والعشرين للعنوان الشاروني ولتجريف أرضهم وتدمير بيوتهم وإغتيال أطفالهم...

109 أميركا «الصديقة»... التي لا تريد

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 5 سبتمبر (أيلول) 2001

حول كيف تنقّض الإدارة الأميركية على أي محاولة تسلسل أوروبية للتعاطي مع الصراع المتواصل بين الشعب الفلسطيني والدولة العبرية وتقريب المواقف على أمل إيجاد حل، بدل أن تشجع هذه المحاولة لمصلحة إيجاد الحل العادل الشامل

111 تأملات في «الإنفاضة الأممية»

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 12 سبتمبر (أيلول) 2001

قراءة في «إنفاضة الأقصى» وتأثيرها على «الإنفاضة الأممية» التي شهدتها «المؤتمر الدولي لمناهضة العنصرية» التي إستضافتها مدينة دوربان في جنوب أفريقيا

113 أي أميركا... بعد «أم الكوارث»؟!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 19 سبتمبر (أيلول) 2001

تساؤل في ما ستكون عليه الدولة الأعظم أميركا في ضوء العملية الترويعية التي حدثت يوم 11 أيلول/ سبتمبر 2001 في نيويورك وواشنطن وهل أن الأميركيين شعباً وإدارة سيتعظون من الذي جرى

114 أما أن للجواز العربي أن يستقر؟!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 26 سبتمبر (أيلول) 2001

نظرة على سمعة جواز السفر العربي في نظر الدول الأجنبية وبالذات أميركا ودول أوروبا وذلك بعد حالات الفوضى أو الحروب الأهلية التي تعيشها المنطقة العربية، أو بعد عمليات غُف وتخریب تحدث في تلك الدول ويتم على الفور إصاق التهم بالعرب

116 الروح الرياضية في مواجهة قلة الأدب

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 3 أكتوبر (تشرين الأول) 2001

نظرة حول رد فعل أي مسؤول أجنبي يتعرض للإهانة من الإسرائيليين وكيف أنه على رغم هذه الإهانة يتصرف بروح رياضية في مواجهة قلة الأدب الإسرائيلي

118 لبنان: تأجلت قمة الأصدقاء... البركة بقمة الأشقاء

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 10 أكتوبر (تشرين الأول) 2001

حول القمة الفرنكوفونية التي كان مقرراً عقدها في لبنان من 26 إلى 28 أكتوبر 2001 ثم تسببت التداعيات الناشئة عن العملية الترويعية في نيويورك وواشنطن يوم 11 أيلول/ سبتمبر 2001 في الإعلان وضمّن صيغة توافقية عن تأجيل إنعقادها سنة كاملة

119 المستبعد الذي صار وارداً.. مسحة عروبية في «حزب الكتائب»!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 17 أكتوبر (تشرين الأول) 2001

قراءة في تطور نوعي حدث داخل "حزب الكتائب اللبنانية" ويتمثل في أن المحامي كريم بقرادوني اللبناني الأرمني الأصل تم انتخابه رئيساً للحزب الأمر الذي يضفي مسحة عروبية على الحزب المتهم بأنه إنعزالي عن المسلمين وعن العروبة وبالذات بعد حربه الشرسة على الوجود الفلسطيني في لبنان

126 آرييل شارون... عندما يهلع!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 24 أكتوبر (تشرين الأول) 2001

حول ملامح الهلع التي بدت واضحة على وجه رئيس وزراء إسرائيل أرييل شارون يوم الأربعاء 17 أكتوبر 2001 في أعقاب تلقيه نبأ تصفية وزير السياحة الإسرائيلي (المستقيل دون قبول إستقالته) رحبعام زئيفي في عملية إغتيال شجاعة نفذها ثلاثة من مناضلي "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" داخل فندق "حياة ريجنسي" في القدس المحتلة

128 نهاية المطاف الفلسطيني؟!!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 31 أكتوبر (تشرين الأول) 2001

تساؤل إفتراضي حول ما إذا كان الغرض بعيد المدى من الحرب التي خاضتها إدارة الرئيس جورج بوش الإبن وبالتعاون والتضامن مع الحكومة البريطانية التي يرأسها طوني بلير ضد أفغانستان هو إستحداث وطن للفلسطينيين على بقعة من الأرض الأفغانية

129 للضرورة أحكام... ولو بعد حين

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 7 نوفمبر (تشرين الثاني) 2001

قراءة في ضرورات إعادة النظر في المواقف وفي فرملة المفاهيم، وذلك في ضوء تصريحات صدرت عن الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى وتصريحات بعد إجتماعات عقدها الزعيم الدرزي وليد جنبلاط مع رئيس الجمهورية إميل لحود وآخرين

131 توأمة على المستوى الرئاسي!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 14 نوفمبر (تشرين الثاني) 2001

حول ما يمكن أن يصبح عليه وضع رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري في حال لم يتمكن صديقه الرئيس الفرنسي جاك شيراك من تجديد ولايته الرئاسية

134 الهجرة السياسية المعاكسة إلى السودان

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 21 نوفمبر (تشرين الثاني) 2001

نظرة على الهجرة السياسية المعاكسة إلى السودان بدءاً بعودة الرئيس السابق جعفر نميري ثم السيد الصادق المهدي ثم السيد أحمد الميرغني وعمر الطيّب وكثيرين آخرين من الذين تسبّب حكم "ثورة الإنقاذ" بقيادة الثنائي الفريق عمر حسن البشير والدكتور حسن الترابي في هجرتهم إلى دول مجاورة مارس بعضهم على أراضيها نشاطات معارضة

136 غول الإستهلاك... وصرخة مبارك

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 5 ديسمبر (كانون الأول) 2001

نظرة على وضع مالي خطير بسبب إرتفاع مذهب في نسبة الواردات على حساب الصادرات جعل الرئيس حسني مبارك يطلّق صرخة تحذيرية

138 العرب... والمستشار كريستوفر

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 12 ديسمبر (كانون الأول) 2001

حول ظاهرة تعيين دبلوماسي أميركي عريق ومتميز وشبه مستشرق ليكون مستشاراً لشؤون المنطقة العربية في وزارة الخارجية الأميركية. وكيف أن هذا المستشار، وهو كريستوفر روس، يمكن أن يفيد في دور من المؤسف أنه لا يقوم به

140 التصحيح المأمول... من بريطانيا 2002

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 19 ديسمبر (كانون الأول) 2001

قراءة بين سطور وعد بلفور الذي بموجبه أهدت بريطانيا الصهيونية وطناً على أرض فلسطين وكيف أن من واجب أحفاد ذلك الواعد لا سامحه الله تصحيح الأمر في العام 2002

142 «أسير العام»... مانديلا الفلسطيني؟

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 26 ديسمبر (كانون الأول) 2001
رؤية إفتراضية في شأن العدوان الشاروني كثير الشراسة على السلطة الوطنية الفلسطينية وتساؤل عما إذا كان رئيسها ياسر عرفات سينتهي "مانديلا الفلسطيني"...

144 أم القضايا العالقة... في سنة ولا كل السنين

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 29 ديسمبر (كانون الأول) 2001
كيف أن القضية الفلسطينية كانت أم القضايا العالقة في العام 2001، والموقف الأميركي هو السبب نتيجة عدم الحسم

147 أمنيات ضاعت... وتمنيات مؤجلة!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 2 يناير (كانون الثاني) 2002
حول أمنيات لم تتحقق في العام 2001 وكان إنجازها يحقق بعض الإستقرار، وآمال بتحقيقها في العام الذي يلي

149 مسيرة التنبيه السعودي: من دمشق إلى مسقط.. إلى قمة بيروت نجّاه الله

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 9 يناير (كانون الثاني) 2002
نظرة على زيارة كثيرة التميّز قام بها ولي العهد السعودي الأمير عبدالله إلى دمشق بادئاً منها جولة خارجية مهمة

151 ضجة أخرى في الأسرة المهدية

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 16 يناير (كانون الثاني) 2002
حول ضجة حدثت داخل أسرة آل المهدي في السودان وأهميتها في أن المتسبب بها هو مبارك الفاضل المهدي كاتم أسرار السيد الصادق

153 الأقارب... أولى بالخصوصة!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 23 يناير (كانون الثاني) 2002
مزيد من التحليل للضجة التي حدثت داخل أسرة آل المهدي وأثرها على طائفة "الأنصار" التي تعاني ظروفًا صعبة

155 تأملات في ما ينتظر قمة بيروت

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 30 يناير (كانون الثاني) 2002
حول القمة العربية الدورية الثانية التي أهداها إلى لبنان رئيس دولة الإمارات العربية الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

157 السعودية في مواجهة الأمر الواقع... غير الواقعي

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 6 فبراير (شباط) 2002
إضاءة في الذكرى العشرين لتولي الملك فهد مقاليد الحكم على أمور لافتة للإنتباه تحدثت في المملكة العربية السعودية

159 من يكون «بوتين الفلسطيني»؟

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 فبراير (شباط) 2002
تساؤلات حول احتمال أن يكون للفلسطينيين شخص يمثل "بوتين الروسي" وهو ما سعى إليه أرييل شارون من خلال التعامل بإستهانة مع الرئيس ياسر عرفات

161 من «نعيم» قاعدة بن لادن إلى مأوى «النفائات الثورية»

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 20 فبراير (شباط) 2002
حول المئات الذين وجدوا أنفسهم بعد سقوط نظام طالبان ضيوفاً في قاعدة "غوانتانامو" تلك الشوكة الموجهة في خاصرة الديناصور الثوري فيديل كاسترو

- 163 أمير ينادي بالحكمة ومتفقون ينشدون التفهم.....
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 26 فبراير (شباط) 2002
قراءة في مضمون كلام قاله وزير الخارجية الأميركية كولن باول وبيان أصدره ستون متفقاً أميركياً مقارنة مع الرؤية
الحكيمة والواقعية للأمير عبدالله بن عبد العزيز
- 166 كما زيمان... كذلك هيلاري كلينتون.....
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 5 مارس (آذار) 2002
أوجّه شبه بين كلام متجنّ عن الرئيس ياسر عرفات قاله رئيس وزراء تشيكيا بعد زيارة لإسرائيل وكلام من النوعية نفسها
صدر عن هيلاري كلينتون وهي في زيارة لإسرائيل
- 168 قمة الأمير عبدالله... و«الفيتو» الشاروني بعد «الفيتو» الأميركي.....
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 مارس (آذار) 2002
كيف أن هناك "فيتو" شاروني ضد أي خطوة نحو السلام بمثل "الفيتو" الأميركي أو كصدي له ومن دون وجه حق
- 170 ما الذي يمكن أن يصيب كوفي أنان؟.....
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 20 مارس (آذار) 2002
تساؤل حول ما الذي يمكن أن يصيب الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان لو أنه بفعل صحوة ضمير هذا حذو سلفه
الدكتور بطرس غالي عندما أدان إسرائيل على "مجزرة قانا"
- 173 إما الحل وإما العودة إلى ما قبل مؤتمر مدريد؟.....
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 27 مارس (آذار) 2002
كيف أن القمة العربية الدورية الثانية التي ستعقد في بيروت يمكن أن تكون قمة تاريخية ولمصلحة الأمتين
- 174 قمة إعلان السلام على أميركا وإسرائيل.. وتصحيح الوضع العربي.....
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 3 أبريل (نيسان) 2002
كيف أن التحديد الموضوعي للقمة العربية الدورية الثانية التي إستضافها لبنان كانت قمة إعلان السلام على أميركا وإسرائيل
- 176 بقية تأملات في القمة - الهدية.....
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 10 أبريل (نيسان) 2002
مزيد من التأملات في القمة العربية الدورية الثانية التي أهداها الشيخ زايد إلى لبنان وأثمرت إجماعاً على مبادرة للسلام
- 178 التحرك المسيحي... الغائب أم المغيّب؟.....
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 17 أبريل (نيسان) 2002
تساؤل في شأن التحرك المسيحي الذي يفقده السعي السياسي من أجل التسوية الشاملة والعادلة وهل أنه غائب أم مغيّب
- 180 «ضبط النفس» الأميركي... بنكهة عجمية!.....
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 24 أبريل (نيسان) 2002
عندما فاجأ وزير خارجية إيران كمال خرازي وهو في زيارة إلى لبنان الرأي العام اللبناني وكذلك الرأي العام الأجنبي
بالدعوة إلى "ضبط النفس"
- 182 التحرك العربي المأمول في أميركا.....
- صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 1 مايو (أيار) 2002
كيف أن الموقف يتطلب تحركاً نوعياً من جانب عدد من الشخصيات العربية في الكثير من دول الأمة لدى الإدارة الأميركية

- 184 **السلاح العاجل والسلاح الآجل.. وبينهما الزيارة**
 صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 8 مايو (أيار) 2002
 حول سلاح المؤازرة للشعب الفلسطيني الذي يمكن أن يشكل قوة ملحوظة في إنتظار السلاح الأهم.. أي سلاح النفط والأرصدة
- 185 **تُهم وتهجمات... وملفات غير نظيفة!**
 صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 مايو (أيار) 2002
 نظرة على بعض شيوخ الكونغرس الأميركي الذين يتهجمون على العرب من دون أن يكون لهم حق إعطاء النصائح
- 187 **أبو عمار... والتصحيح إتهاماً ومن دون عُسْر هُضم!**
 صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 22 مايو (أيار) 2002
 حول مفهوم التصحيح الذي إعتده عبدالناصر في أعقاب هزيمة 5 يونيو 1967 وهل يستلهم هذا المفهوم ياسر عرفات
- 189 **الديموقراطي العجوز في الجزيرة المحاصرة**
 صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 29 مايو (أيار) 2002
 نظرة على الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر الذي إنتهى يهتم بمزرعة الفستق التي يملكها مستحضراً من الذاكرة «أمجاد» مصالحة مصر مع إسرائيل في «كامب ديفيد»
- 191 **شبه مفاجآت مغربية**
 صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 5 يونيو (حزيران) 2002
 كلام في شأن مفاجآت قد تحدث ومصدرها المغرب العربي ومن شأن حدوثها التأثير على المسارات السياسية
- 193 **القعقور... «فلوريدا» اللبنانية!**
 صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 12 يونيو (حزيران) 2002
 كيف أن الذي جرى في فلوريدا بالنسبة إلى الرئيس جورج بوش الابن حدث مثله في بلدة صغيرة لبنانية
- 195 **محادثات الهواء الطلق**
 صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 19 يونيو (حزيران) 2002
 حول جدوى مشاورات الرئيس جورج بوش الابن مع ضيفه الأمير عبد الله بن عبد العزيز في مزرعة الرئيس الأميركي في "كروفورد" وكيف أن خلو التشاور من طقوس المحادثات الرسمية يعود بفوائد جيدة
- 197 **الحريري... وأيامه الرئاسية الزاهية**
 صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 26 يونيو (حزيران) 2002
 حول فترة وجد رئيس وزراء لبنان رفيق الحريري نفسه يعيش أياماً زاهية، الأمر الذي جعل إسرائيل تقف عليه
- 199 **المسألة الإسلامية المنطلقة من الخرطوم!**
 صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 10 يوليو (تموز) 2002
 قراءة في مؤتمر إسلامي إستضافته الخرطوم وبدا البيان المنمق الكلمات الصادر عنه وكأنما هو سرب من مليار ومئتي مليون مسلم من الحماة البيضاء علامة المسالمة وليس الإستسلام
- 201 **كيف يمكن النهوض بالسودان؟**
 صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 17 يوليو (تموز) 2002
 تأملات في الوضع السوداني وكيف أن الإسترشاد بالتجربة اللبنانية على صعيد إعادة البناء هو الحل الذي يناسب "الإنقاذ" لإنقاذ ما يمكن إنقاذه

- 203 التفاهم بعد التفهم بين شمال السودان وجنوبه.....
 صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 24 يوليو (تموز) 2002
 كيف أن التمرد الموروث في السودان بات قابلاً للحل بلغة الحوار بين أبناء الشعب الواحد بدلاً من إستمرار النزف البشري والمالي
- 205 سودان جديد.. سياسياً وجغرافياً؟.....
 صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 31 يوليو (تموز) 2002
 تساؤلات حول ما إذا كان ما يعيشه السودان من تطورات وتداعيات هو المؤشر إلى الخلاص وولادة سودان جديد سياسياً وجغرافياً موضع طمأنينة الأطياف السودانية
- 207 «الهولوكست الغزوي» بين الرامسفيلية وأختها الشارونية؟!
 صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 8 أغسطس (آب) 2002
 تساؤل عما إذا كان أمر أرييل شارون مرتكب المجازر البشرية سينتهي داخل القفص البلجيكي
- 209 شيوخ العدالة التي لا تريدها أميركا.....
 صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 14 أغسطس (آب) 2002
 عندما يصف أرييل شارون السلطة الوطنية الفلسطينية بأنها «زمرة من المجرمين الفاسدين والإرهابيين» وتلك مذمة تأتي من ناقص بامتياز
- 211 إيران: «مقايضة الطمأنينة» و«إستيراد المرونة» بعد «تصدير الثورة».....
 صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 21 أغسطس (آب) 2002
 مقارنة بين حالتين عاشتهما إيران. الأولى حالة "تصدير الثورة" طوال حياة آية الله الخميني، والثانية حالة "إستيراد المرونة" التي تواصل الأخذ بها
- 213 أهمية حياد الأمين العام للجامعة.....
 صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 29 أغسطس (آب) 2002
 نظرة على عامل السن الذي جعل عمرو موسى ماراتونياً إزاء الأزمات وجعل سلفه عصمت عبد المجيد يفضل المشي المتمهل
- 215 الإنتفاضة الحاخامية.....
 صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 4 سبتمبر (أيلول) 2002
 حول الإنتفاضة البروتستنتية التي حدثت في لندن وكيف أنها ستؤدي إلى إنتفاضة مماثلة يهودية بطلها كبير حاخامي بريطانيا
- 217 رسائل كثيرة الوضوح إلى بوش وصحبه.....
 صحيفة "الشرق الأوسط" - الإثنين 9 سبتمبر (أيلول) 2002
 حول معاني ثلاثة مواقف كثيرة التميز مصدرها الدبلوماسية العربية والكنيسة البريطانية والرئيس الأسبق جيمي كارتر
- 219 تمنيات وتوقعات لمناسبة السنوية الأولى.....
 صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 11 سبتمبر (أيلول) 2002
 كيف أن ضربة ضغرى إستعراضية محدودة للعراق وثغني عن الضربة الكبرى، من شأنها أن تريح الجميع
- 221 قراءة في خطاب بوش... الذي إستثنى العلة والسبب.....
 صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 19 سبتمبر (أيلول) 2002
 قراءة في خطاب للرئيس جورج بوش الابن... الذي إستثنى العلة والسبب في عدم تحمّل الأمم المتحدة المسؤولية

- 223 **الطباخ الأميركي الماهر وطبخته غير الشهية**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 25 سبتمبر (أيلول) 2002
نظرة على مسلسل من المفاجآت الأميركية كاد يجعل الأمر الواقع وارداً ثم إنتهى بمفاجأة عراقية
- 225 **فلسطيني عروبي في القلعة الشرقية**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الجمعة 27 سبتمبر (أيلول) 2002
شهادة في حق الصحفي والروائي نبيل خوري الذي قضى بعد غيبوبة طالت بضعة أشهر ونشأت عن واقعة مأساوية حدثت في مطار بيروت
- 226 **ماذا بعد المفاجآت والديون المتبادلة؟**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 2 أكتوبر (تشرين الأول) 2002
قراءة في مستجدات وخطوات لا بد منها بعد المفاجآت ومن بينها تجاوب بعض الحكومات العربية والأجنبية مع كواسر مؤثرين في القرار داخل الإدارة البوشية
- 228 **الحل السحري.. ربما بوفد القمطين**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 9 أكتوبر (تشرين الأول) 2002
حول محاولة للتوفيق العربي حدثت قبل 24 سنة في قمة إستضافها العراق تستحق التكرار قبل إشتعال الحرائق الماحقة
- 230 **كيف يستطيع الحريري حجب صواريخ العم سام؟**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 10 أكتوبر (تشرين الأول) 2002
حول أمور أساسية يمكن أن يحققها وفد يمثل القمطين العربية والإسلامية إن هو توجه برئاسة رفيق الحريري إلى بغداد ومنها بعد التشاور إلى واشنطن
- 233 **جريت الهولندية... هيرتا الألمانية... كليبر البريطانية**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 16 أكتوبر (تشرين الأول) 2002
كيف أن ثلاث سيدات أوروبيات إتخذن في عز المعمة مواقف ضد الظلم والظالمين لفلسطين والعرب وكان لمواقفهن الأثر الطيب
- 235 **حدثان عربيان مشرفان على هامش ضجيج الحرب**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 23 أكتوبر (تشرين الأول) 2002
الحدث الأول هو الإحتفال رسمياً وشعبياً في لبنان بإنجاز محطة ضخ مياه نبع الوزاني. أما الحدث الثاني فيتمثل في إعادة إفتتاح مكتبة الإسكندرية التي سبق أن أحرقت في القرن الرابع ميلادي
- 238 **رسالة من جاك شيراك البيروتي إلى الغرب المسيحي**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 30 أكتوبر (تشرين الأول) 2002
كيف أن الرئيس جاك شيراك تمسّى آمناً مطمئناً بصحبة صديقه رفيق الحريري في شوارع الوسط التجاري لبيروت وكأنه يقول لدول الغرب المسيحي إن لبنان ليس بلداً إرهابياً
- 240 **الموازنة العاجزة في أميركا.. إبناً عن أب**
صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 6 نوفمبر (تشرين الثاني) 2002
حول الموازنة الأميركية التي إنتهت عاجزة في عهد الرئيس جورج بوش الأب والتي يتكرر عجزها في عهد الرئيس جورج بوش الابن

- 242 إنطباعات عن قمة وردية على خط النار
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 نوفمبر (تشرين الثاني) 2002
حول "قمة المرأة العربية" التي إستضافتها ملكة الأردن رانيا وشاركت فيها زوجات بعض الحكام العرب
- 245 قصة علاقة متأرجحة بين عراق صدام وأميركا بوش
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 20 نوفمبر (تشرين الثاني) 2002
كيف أن المرء يختار في تحديد الحيشات التي جعلت الإدارة الأميركية تستدير مائة وثمانين درجة في موضوع العراق
- 247 من خسر الآخر: بوش أم صدام؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 27 نوفمبر (تشرين الثاني) 2002
تساؤلات مستتدة إلى وقائع حول العلاقة البوشية - الصدامية ومن منهما خسر الآخر: جورج بوش الابن أم صدام حسين
- 249 حكاية الرسم الموزايكي بين صدام وبوش
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 4 ديسمبر (كانون الأول) 2002
حول الرسم الموزايكي الذي يمثل جورج بوش الأب والذي وضعه الرئيس صدام حسين على مدخل فندق "الرشيد" لكي يدوس عليه الداخلون والخارجون
- 251 الزعامة التاريخية... والزعامة المضللة
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 12 ديسمبر (كانون الأول) 2002
حول زعامات لها صفة الزعامة التاريخية وزعامات تستسلم للتطبيقات المضللة، وفي نهاية الأمر تدفع الثمن
- 254 من العرب عدا الكويت إلى أميركا عبر بريطانيا
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 18 ديسمبر (كانون الأول) 2002
نظرة على تحرك أولي للرئيس بشار الأسد ولماذا إختار له والده التخصص في الطب في بريطانيا وليس في الإتحاد السوفياتي
- 256 الخروف التركي الأسمر في القطيع الأشقر
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 26 ديسمبر (كانون الأول) 2002
تأملات في محاولة ضم تركيا إلى الاتحاد الأوروبي بين مرحبين بالخطوة ومتحفظين عليها وما هي موجبات الترحيب والتحفظ
- 261 تحالف غير مقدس لتشويه الرموز الدينية
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 1 يناير (كانون الثاني) 2003
تساؤلات في شأن إرتضاء البروتستانتية السياسية لأساليب الإذلال التي تمارسها الصهيونية في حق المقدسات الإسلامية والمسيحية على السواء
- 263 الإلتفاتة التركية المترتبة نحو الجار العربي
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 8 يناير (كانون الثاني) 2003
حول الزعيم الإسلامي التركي رجب طيب أردوغان الذي هو في مرحلة تأمل للعلاقة مع أميركا وإسرائيل ولا يدري ما يفعلها بملفها
- 265 بشار الأسد... وحتمية أقدار يناير 1994
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 15 يناير (كانون الثاني) 2003
تأملات في ضوء الزيارة التي قام بها الأسد إلى بريطانيا التي أمضى فيها الرئيس بشار سنتين متدرباً في أحد مستشفيات طب العيون .. ثم متزوجاً من أسماء الأخرس

268 التغيير فرضاً... والتغيير طوعاً

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 22 يناير (كانون الثاني) 2003
كيف أن التغيير أمر لا بد منه وكيف أنه إذا كان طوعاً يفيد الشعب في أي بلد عربي في حين أنه إذا كان فرضاً سيكون لمصلحة خزائن أميركا وإسرائيل

لحظات مضيئة وسط الصخب الأميركي والضجة الأوروبية:

270 إستقبال الشيخ الجليل للحرية المحجوبة عنه

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 26 فبراير (شباط) 2003
نظرة على مغادرة رئيس دولة تشيكيا فاكلاف هافل الحكم طوعاً وتوجيه رسالة إلى الشعب حافلة بالمفردات الأدبية يعتذر فيها عن ممارسات قد يكون أساء بها إلى الشعب

272 سجادة حمراء على مشهد رئاسي ساخن

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 6 مارس (آذار) 2003
عندما غطى النظام الصّدّامي متأخراً الرسم الموزاييكي للرئيس الأسبق جورج بوش الأب بسجادة حمراء كي لا يداس كما في السابق على الرسم

273 صدّام الذي لا بد سيجدد.. إذا نجا من الواقعة وكاسترو المجدّد له.. إذا أوقف السيجار

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 12 مارس (آذار) 2003
نظرة حول ما سيفعله الرئيس صدّام حسين على صعيد تجديد النظام... إنما في حال نجا من الواقعة

276«أم الجوائز»... والحرب على العراق

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 19 مارس (آذار) 2003
عندما فوجئ العالم بأن "جائزة نوبل للسلام" قد تكون من نصيب الرئيس جورج بوش الابن الشغوف بالحروب

278 المسكينتان و... «قادسية بوش»

صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 22 مارس (آذار) 2003
حول الناشطة الأميركية راشيل كوري المجروفة بالجرافة الإسرائيلية، والأم العربية المظلومة متمثلة بالأم العراقية

280 الاجتياح الثاني في زمن العولمة وخط الدفاع الأول في وجه الهيمنة

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 26 مارس (آذار) 2003
نظرة فاحصة حول أسلوب الاجتياح الأميركي البوشي للعراق الذي هو الثاني في زمن العولمة والذي جاء بعد الاجتياح الأول.. أي الاجتياح الصّدّامي للكويت

282 من تضييع فلسطين... إلى تضييع العراق... إلى...؟

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 2 أبريل (نيسان) 2003
حول بريطانيا التي تتراجع عن قول كلمة الحق وثم تعتذر لإسرائيل وكيف أنها ستساهم في تضييع العراق بعدما كانت البائدة بتضييع فلسطين

284 بعد الحرب: كوارث اليورانيوم المنضب

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 17 أبريل (نيسان) 2003
حول حلقة تنويرية بثتها قناة "الجزيرة" عن مخاطر اليورانيوم المنضب وويلاته والذي سبق للقوات الأميركية إستعماله خلال الحرب من أجل تحرير الكويت

- 286 لغزان توأمان: 11 سبتمبر 2001 و 9 أبريل 2003
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 20 أبريل (نيسان) 2003
قراءة في لغز أحداث 11 سبتمبر 2001 الترويعية والسقوط المذهل لعاصمة الرشيد بغداد في 9 أبريل/ نيسان 2003
- 287 الصّحّاف «الإنترنتي».. والدوري «الدمعوي».. والسعدي «الإستسلامي»
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 23 أبريل (نيسان) 2003
حول نجوم حرب كسب بعضها التعاطف والإحترام.. وبعضها الكثير من السخرية
- 288 زمن طار.. وآخر هبط
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 27 أبريل (نيسان) 2003
حول مصادفة أن زمن صدام حسين وزمن طائرة "الكونكورد" الأسرع من الصوت بدءاً معاً وإنتهياً معاً في عام 2003
- 289 عرفات بين الملكة إليزابيث والملك حسين
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 30 أبريل (نيسان) 2003
نظرة على وضعية ياسر عرفات بين الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا والملك (الراحل) الحسين بن طلال بالمقارنة مع وضعية أحمد حسن البكر مع صدام حسين
- 290 العروبة المتأمركة في العراق
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 21 مايو (أيار) 2003
كيف أن ملامح من التأمرك بدأت تتضح معالمها في أوساط المجتمع العراقي بشقيّه السياسي والشعبي
- 292 أميركا المستجدة.. وبوش المستعرب
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 3 يونيو (حزيران) 2003
كيف أن حزب البعث العقائدي ناقض البعث السلطوي المسؤول عن الإحتلال وإرتكاب المجازر
- 293 المتجاورون العرب.. من النفور إلى التآزر
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 10 يونيو (حزيران) 2003
كيف أن النبي الكريم محمد (ص) يوصي بسابع جار بينما أهل التجاور العربي بعد أكثر من 1400 سنة يفضلون التنافر على التآزر
- 294 الجامعة المهمومة... وأمينها المختار
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 18 يونيو (حزيران) 2003
لماذا مع كل إضطراب سياسي يحدث في الأمة الإسلامية يستحضر القادة العرب الجامعة العربية ويضعونها في قفص الإتهام
- 296 البرلمان الأول لـ عبدالله الثاني
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 25 يونيو (حزيران) 2003
عندما سجّل الملك عبدالله الثاني نقلة نوعية في إتقان الممارسة في زمن التحديات، لافتاً بما فعل أنظار المراقبين
- 298 لا منطق و"خطب وداع" رسمية بلا اعتذارات
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الجمعة 4 يوليو (تموز) 2003
حول تصريحات ومواقف لشخصيات دولية تثير التساؤلات في هذا "الزمن العربي المائل"

- 300 نزار حمدون.. قتل جمود البعث وقتله المرض
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 17 يوليو (تموز) 2003
 ذكريات عن دبلوماسي عراقي كثير الرقي حاول كسّر جمود حزب البعث في التعامل مع المجتمع الدولي وبالذات الولايات المتحدة
- 301 هموم طوني بلير وممكناته في مواجهة شارون ومستحيلاته
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 23 يوليو (تموز) 2003
 حول متاعب وهموم طوني بلير الداخلية والخارجية في مواجهة زيارة أرييل شارون إلى لندن ومستحيلاته التي زادت عن الحد
- 303 إنقاذ ما يمكن إنقاذه من السودان الواحد
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 30 يوليو (تموز) 2003
 قراءة في وحدة صف مصرية - سودانية مباغته لمواجهة محاولة مستديمة لبعثرة الكيان السوداني وبالتالي إنقاذ ما يمكن إنقاذه قبل فوات الممكن
- 305 إنتفاضة أولى نقابية
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 6 أغسطس (آب) 2003
 حول أمثلة مصرية في التغيير الممكن جداً من دون أميركا حيث شكّلت إنتخابات نقابة الصحافة المصرية ما يمكن إعتبارها الإنتفاضة الأولى
- 306 عدم تمييز أميركي لا يستثني المقربين
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 أغسطس (آب) 2003
 كيف أن الإدارة الأميركية سحبت تأشيرة دخول إلى أراضيها من الرئيس السوداني الأسبق جعفر نميري ومن وزير المالية اللبنانية فؤاد السنيورة... وهكذا يكون "متأمركون عرب من بيت صديقهم يُمنعون"
- 308 الخميني الحفيد وشهادة الشاهد من أهله
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 21 أغسطس (آب) 2003
 نظرة على حالة من التمرّد إرتبطت بحفيد الخميني السيد حسن نجل الإبن المقتول مصطفى الذي كان قرّة عين الإمام
- 310 القذافي المخضرم يستبِق الخطر
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 27 أغسطس (آب) 2003
 كيف أن ترجيح كفة المرونة يفتح أمام رئيس دولة بوابة المصالحة والإتفاق وبذلك يستبِق حدوث المخاطر على نظامه
- 311 لماذا لا يجربان؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 2 سبتمبر (أيلول) 2003
 كيف أن التهدة غير المستحيلة في العراق من خلال سوريا أمر ممكن ومع ذلك لا يؤخذ بها
- 313 ظواهر على ضفاف الرافدين... ولا في الخيال
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 3 سبتمبر (أيلول) 2003
 حول الإطالة الأولى للعراق الذي يترأسه الشيعي إبراهيم الجعفري، وعن شياكة دائمة لبريمر في حقل الشوك الذي يدمي
- 315 رؤية بشّارية للتصحيح المتدرّج
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 21 سبتمبر (أيلول) 2003
 قراءة في رؤية الرئيس بشار الأسد التصحيحية حيث يعتمد التصحيح المتدرج. وأولى هذه الخطوات حكومة جديدة

- 316 من 9 و10 المصري 1967 .. إلى 9 و10 الفلسطيني 2003
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 25 سبتمبر (أيلول) 2003
قراءة في تاريخين: الأول مصري والثاني فلسطيني، وما هي ظروف كل من الإثنين
- 317 خشية مشروعة على دبي الجديدة
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 2 أكتوبر (تشرين الأول) 2003
قراءة للتطور الذي تشهده دبي.. مع الخشية من أن تصاب بالعين الإسرائيلية خاصة أن وفداً إسرائيلياً زار دبي خلال فعاليات مؤتمر صندوق النقد والبنك الدولي
- 319 هيكل في الثمانين - التنحي الأكبر... والتنحي الآخر
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الجمعة 3 أكتوبر (تشرين الأول) 2003
قراءة من منطلق الزمالة والصداقة لقرار محمد حسنين هيكل بالإتصاف لمناسبة بلوغه الثمانين
- 320 ستة أشهر على سقوط صدام.. هل ينتهي أمر العراق ولاية أميركية مثل هاواي؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 9 أكتوبر (تشرين الأول) 2003
كيف أن حرباً سيتوارثها حلفاء الرئيس جورج بوش مثلما ورث الرئيس بيل كلينتون والديمقراطيون المرحلة الأولى من المخطط الأمبراطوري
- 322 نظرة ميدانية على سوريا المتجددة
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 13 أكتوبر (تشرين الأول) 2003
حول ملامح إرتياح على وجوه الناس في دمشق وكما لو أن المواطن على موعد مع سوريا متجددة
- 324 مغارات تثير الدهشة
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الجمعة 17 أكتوبر (تشرين الأول) 2003
نظرة على ملامح نيات واضحة لطمس العراق العربي وإستبداله بعراق بابلي - كردي
- 326 «بريس.. بريس»... يا شيخ حسن
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 21 أكتوبر (تشرين الأول) 2003
حول إعتقال مدهش للقطب الإسلامي السوداني الدكتور حسن الترابي وإفراج عنه أقل إثارة للدهشة
- 328 عناق... وعقوبات
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الإثنين 10 نوفمبر (تشرين الثاني) 2003
كيف أن توصل الأطراف في السودان إلى إتفاق من شأنه أن يعوّض الرئيس جورج بوش الابن نصف مأزقه العراقي
- 329 مأدبة إفطار التراحم السياسي .. من المحيط إلى الخليج
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 18 نوفمبر (تشرين الثاني) 2003
مقاربة في مسألة الديمقراطية والنظرة إليها من جانب بعض الأنظمة والحكومات ومنها لبنان وإيران والسودان على سبيل المثال لا الحصر
- 331 عبد الناصر اليمني... وبوش العراقي
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 27 نوفمبر (تشرين الثاني) 2003
حول إمكانية أن يحصل للرئيس بوش الابن في العراق ما حصده الرئيس عبد الناصر عقب تدخّله في اليمن

332 الإنتفاضة المستحبة

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 7 ديسمبر (كانون الأول) 2003
كيف أن جورجيا إستستخت الحالة السودانية وكيف أن الرئيس بوش الأب وضع شخصاً فاسداً على رأس الحُكم فيها

334 هل ذابت «إنقاذ الانقلاب» في بحر الإنقاذ الأكبر؟

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 11 ديسمبر (كانون الأول) 2003
الطبعة المصححة من الإنقاذيين الجدد التي أجادت التكيف فضحت بقرائنين هما: حسن الترابي وغازي صلاح الدين

336 صدام المحبوب المبعوض من يذل يذل ولو بعد حين (1)

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 6 يناير (كانون الثاني) 2004
كيف أن من يذل يذل ولو بعد حين. وكيف إنتهى إنفجار التنمية إلى تفجير العراق. وكيف دُبلت المهابة وإنتعشت الدروشة الدينية. ولماذا إما العراق منارة... أو في الحضيض؟

337 صدام حسين.. من إنفجار التنمية إلى تفجير العراق (2)

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 7 يناير (كانون الثاني) 2004
مقارنة بين صدام حسين رمز "التنمية الانفجارية" التي من معالمها الهجرة المعكوسة من المدن إلى الريف وصدام حسين الذي تسببت غزوته للكويت بتفجير العراق

339 بدايات إنهيار العلاقة بين تكريت وتكساس (3)

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 8 يناير (كانون الثاني) 2004
حول وفد أميركي برئاسة بوب دول زار بغداد وسبقه لقاء دونالد رامسفيلد بالرئيس صدام حسين. وفي المرتين تحذير له إذا كان لن يترك الكويت

341 في القمة أو في الحضيض لماذا؟ (4)

صحيفة "الشرق الأوسط" - الجمعة 9 يناير (كانون الثاني) 2004
كيف أن الموقف الأكرم الذي يتخذه الرئيس صدام وينفذ به العراق هو كلام يقوله للسفيرة الأميركية أرييل غلاسبي

343 الخرطوم جواباً: الناظر الأميركي.. والإمتحان العسير للشقيقتين

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 18 يناير (كانون الثاني) 2004
تخرجة ذكية للوزير مصطفى عثمان إسماعيل في شأن مكان توقيع إتفاقية السلام بين النظام البشيرى والجنوبيين

344 الصفقة الكبرى على طريق الصفقة الأكبر

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 27 يناير (كانون الثاني) 2004
عندما نجح "حزب الله" في فك أسر عشرات الأسرى العرب مقابل رفات 3 جنود إسرائيليين

346 تأملات في لحظة خلاص عربية - دولية

صحيفة "الشرق الأوسط" - الإثنين 2 فبراير (شباط) 2004
حول تأملات في مواقف وتصريحات توحى بحدوث قريب للحظة خلاص في المنطقة العربية

347 أوجه شبه بين ثورتى الرجل الواحد في مصر وإيران

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 12 فبراير (شباط) 2004
عندما تتساقط الثورات أو تنتثر أو تتأقلم مع ظروف القاهرة... تاركة جماهيرها في مهب التساؤلات أو المساءلة عن جدوى الإنشغال سنوات طويلة بالتصدير الثوري على حساب القضايا الداخلية الأهم

349 جزائر بوتفليقة: تأملات في «أم المعارك» الرئاسية

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 19 فبراير (شباط) 2004
حول الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة الذي بدأ سياسياً شاباً بعقل شيخ.. ثم جاءت الظروف والتعقيدات الناشئة عن الصراعات
وعمليات العنف توصله إلى سدة الرئاسة ويحكم بحكمة الشيوخ وهمة الشباب

351 ضيوف الأمة... الذين لم يعودوا ثقلًا!...

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 2 مارس (آذار) 2004
تأملات في شأن قمة عربية يستضيفها الرئيس زين العابدين بن علي في تونس التي فازت كروياً على المغرب ببطولة
أمم أفريقيا في كرة القدم

352 «حكيم الثورة» الذي ضيعوا وطنه... وضاع بيته!...

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 9 مارس (آذار) 2004
نظرة وجدانية على ما آلت إليه أحوال الدكتور جورج حبش وكيف أنه بعد محنة ضياع الوطن فلسطين وجد بيته في البلد
حيث ولد ونشأ وترعرع يباع في مناقصة رست على يهودي مغربي

354 عاجل لقمة تونس: ثمة قضية تنكش.. ومشروع لإبقاء الفلسطيني منزوع القضية!...

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 16 مارس (آذار) 2004
كي لا يكون في "معاهدة كامب ديفيد" بند سري يتعلق بإعتبار سيناء بعد حين هي "الوطن الفلسطيني الموعود"

356 إنها محنة ثورية... عربياً وإسلامياً!...

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 23 مارس (آذار) 2004
كلام للرئيس الإيراني محمد خاتمي تؤيد بعض نواحي المحنة التي يعيشها الثوري العربي والمسلم، وكيف أن غياب
المرونة عند الحاكم الثوري جعلت المواطن يشعر أنه في غربة عن وطنه

357 ديمقراطية المشاكسة.. من واشنطن إلى بيروت ودمشق!...

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 30 مارس (آذار) 2004
نظرة على مسلسل من المشاكسة بين الحُكم السوري والإدارة الأميركية وإلى أي مدى سينتهي أمر هذه المشاكسة

359 موسم العودة إلى «كوبر»: ما أخزى الإعادة إليه!...

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 6 أبريل (نيسان) 2004
حول الذي يجري للدكتور حسن الترابي من الرئيس عمر البشير وما جرى في ماليزيا بين مهاتير محمد ووزير المالية

360 الرنتيسي المغدور.. وشارون الموعود.. وبوش المقايض

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 20 أبريل (نيسان) 2004
تأملات في ملامح الصراع العربي - الإسرائيلي (أي خطة مشتركة إسرائيلية - أميركية) في ضوء أحداث لها
صفة الصدمات من نوع إغتيال إسرائيل للدكتور عبدالعزيز الرنتيسي وارث قيادة حركة "حماس" بعد إغتيال مماثل
للشيخ أحمد ياسين

363 عراق المنشية و«فألوجتها» .. وعراق الرافدين و«فلوجته»!...

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 27 أبريل (نيسان) 2004
مقارنة في صيغة الإستحضار، لما حدث في "الفألوجة" و "النجف" تأكيداً للوطنية العراقية بعد إحتلال العراق ولما حدث
في "الفألوجة" الفلسطينية قبل أن تضيع فلسطين

- 364 إستعانة بريمر بالبعثيين العراقيين محاولة لتعديل الموازين
- صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 1 مايو (أيار) 2004
كيف أن خطوة أقدم عليها بول بريمر الحاكم الأميركي للعراق تبدو في بعض مراميها مثل عصا موسى عليه السلام
- 366 الجزائر .. واليونان: تأملات وإحتمالات
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 4 مايو (أيار) 2004
حول خيار الشعب الجزائري المتمثل بأن عبدالعزيز بوتفليقة هو رمز مرحلتين متميزتين في تاريخ الجزائر الثورة وما بعدها وهما: مرحلة بن بيللا ومرحلة بومدين
- 367 التنبه وقاية.. والعناد تورط
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 11 مايو (أيار) 2004
حول العربي الذي يمكن أن يرتضي كظماً للغضب عدواناً عليه ولكن من الصعب أن يغفر إهانة تأتيه من مُهين أياً كان
- 369 سلالة نهرو التي عادت.. وسلالة الصلح التي قد تعود!
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 18 مايو (أيار) 2004
نظرة على سلالة الزعيم الهندي جواهر لال نهرو التي تقوم زوجة ابنه بتنشيط الدور السياسي لإستمراريتها وكيف أن علياء الصلح قامت بخطوة شبيهة
- 371 حقيقة العقدة العرفانية!
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 25 مايو (أيار) 2004
عندما يروي الرئيس عرفات للكاتب (فؤاد مطر) كيف أن العرب يريدون منه ما تريده أميركا منهم وهو أن يعلن أمرين: إلغاء حق العودة وإعتبار القدس مسألة شكلية ومقابل ذلك تقوم دولة ويبدأ ضخ المساعدات الدولية لها
- 373 تأديب ثوري مستهجن.. وتقليد ملكي محترم
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 1 يونيو (حزيران) 2004
مقارنة بين موقف دبلوماسي إيراني ثوري يثير الإستغراب تزامناً مع تقليد ملكي إسباني يدعو إلى التقدير
- 375 تأملات وهوامش حول «حرب النجوم.. البوشية»
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 8 يونيو (حزيران) 2004
نظرة على أحوال بالغة القساوة يعيشها العراقيون على خلفية الذي حدث داخل زنانات سجن "أبو غريب" على أيدي عناصر تعذيب أميركيين
- 377 مجلس التعاون «الواسع»... ولم لا ؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 15 يونيو (حزيران) 2004
تساؤلات حول إمكانية أن يتسع مجلس التعاون الخليجي لعضوية دولة جديدة مثل اليمن وإيران والعراق
- 379 تأملات في ظاهرة عربية - أميركية لتضييع الفرص
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 22 يونيو (حزيران) 2004
حول أن المجادلة أياً كانت مقبولة.. إلا أنها لا تلغي المبدأ الذي يرى أن تضييع الفرص من أساسيات التعامل العربي
- 381 الطبعة الجديدة من صدام وربيعه
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 6 يوليو (تموز) 2004
كيف أن مقياس العدالة الحقيقية في محاكمة الرئيس العراقي صدام حسين ورفاقه هي في محكمة عدل عربية

- 382 خطوة إستباقية لـ «المغامرة الديمقراطية»
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 14 يوليو (تموز) 2004
إستحضار عبارات غير ودية تجاه السعودية ردها جون كيري عندما كان مرشحاً لرئاسة أميركا
- 384 عندما تدخل هموم الجنس في السياسة
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 20 يوليو (تموز) 2004
رصد تأملات في إهتمامات على الصعيد الجنسي تحدث على مستوى أهل القمة في كل من أميركا البوشية وإيران الخمينية - الخامنئية
- 385 ظاهرة العض... من دارفور إلى كوبر
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 27 يوليو (تموز) 2004
نظرة على "لوبي" أميركي - بريطاني ينشغل أعضاؤه بما يحدث في دارفور بينما لا إهتمام بالسودان الذي يعاني
- 387 مبادرة لإستباق «قادسية بوش»
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 3 أغسطس (آب) 2004
حول مبادرة العفو السعودية التي هي برسم أكثر من طرف أميركي وعربي
- 389 موعد للعرب مع لحظة زلزالية قريبة
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 10 أغسطس (آب) 2004
إفتراض حدوث زلزال أشد وقعاً من زلزال 11 سبتمبر 2001، وهذا أمر صادم للعرب في الدرجة الأولى
- 391 مقتدى الصدر.. الدور والمصير... بين كاريزما نصرالله ومصير صدام حسين
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 17 أغسطس (آب) 2004
حول الدور المأمول إكمال مقوماته للسيد مقتدى الصدر المقتون بـ "الكاريزما" التي للسيد حسن نصرالله
- 393 تحذيرات إيرانية... بنكهة صدامية!
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 24 أغسطس (آب) 2004
عندما عاشت الأمة أجواء حالة ثانية تحفل بتحضيرات لكارثة لن تساوي حرائق آبار النفط الكويتي وخطوطه في العراق شيئاً أمام كوارثها البيئية
- 395 الشاب العقيد... الشيخ العميد
- صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 4 سبتمبر (أيلول) 2004
نظرة على 35 سنة من ثورة الفاتح من سبتمبر وهي سنوات شكّلت ما يجوز إعتباره، للشاب العقيد الذي غدا في بدايات سن الشيوخ عميداً للحكام المعمّرين، عصراً من الصدمات القذافية
- 398 لبنان.. تأملات في ظاهرة الترنيس والترويس
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 7 سبتمبر (أيلول) 2004
ثلاث مقالات حول ظاهرة غير تقليدية ترتبط بلبنان دون غيره من الدول العربية وتتعلق بطقوس الترنيس والترويس وما يحدث خلالهما وعلى هامشهما
- 400 لبنان... الكبرياء والتكبر في الموضوع الرئاسي
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 14 سبتمبر (أيلول) 2004
عندما إقترحت إدارة الرئيس بوش الحالة اللبنانية - السورية ناقلة موضوع إنتخابات الرئاسة اللبنانية إلى مجلس الأمن

- 402 السعودية: إنشغال البال.. على مستوى الأمة
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 21 سبتمبر (أيلول) 2004
حتى عندما يحل اليوم الوطني فإن المملكة العربية السعودية تبقى منشغلة البال على أحوال تعيشها الأمة
- 403 لبنان.. من رئيس الإستقلال.. إلى رئيس الانفجار
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 28 سبتمبر (أيلول) 2004
ما الذي يمكن حدوثه في حال كان إنتخاب رئيس الجمهورية في لبنان يتم من خلال تصويت الشعب وليس فقط من خلال أعضاء البرلمان
- 406 من يدخل نادي الديناصورات الخمسة في مجلس الأمن؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 5 أكتوبر (تشرين الأول) 2004
تساؤل بعد 59 سنة حول ما إذا كانت العضوية الدائمة في مجلس الأمن ستبقى مقتصرة على الدول الخمس الكبرى
- 407 قضيتنا الضائعة بين أميركا الحمراء.. وأميركا الزرقاء
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 12 أكتوبر (تشرين الأول) 2004
حول مواقف تصدر عن رموز أميركية سياسية وكنسية تزيد من هوة عدم الثقة بالولايات المتحدة بجناحيها: الجمهوري الأحمر والديمقراطي الأزرق
- 409 بن لادن الطليق وإيران النووية: لغز مفهوم.. وآخر عسير الفهم
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 19 أكتوبر (تشرين الأول) 2004
نظرة على وضع يثير الدهشة طرفاه الإدارة الأميركية من جهة وإيران وظاهرة أسامة بن لادن من جهة أخرى
- 411 إستقالة الحريري.. أضعافه وأي فتى أضعافه
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الجمعة 22 أكتوبر (تشرين الأول) 2004
كيف أن عدم تمكين الحريري من تشكيل "حكومة كل اللبنانيين" كان بمثابة إضاعة لفرصة تستفيد منها سوريا أيضاً
- 413 مخاض الإنتخابات الأميركية.. موعد مع ولادتين
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 26 أكتوبر (تشرين الأول) 2004
تأملات قبل ستة أيام من "الماراتون الرئاسي الأميركي" الذي يتميز عن "ماراتونات" سابقة بين أصحاب الفيل (الحزب الجمهوري) وأصحاب الحمار (الحزب الديمقراطي)
- 414 ورحل زايد.. شيخ الحكمة وعيد الإخضرار
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 3 نوفمبر (تشرين الثاني) 2004
كلمة حق في رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان مستتبب علاجات لتخفيف الأزمات العربية والإقليمية بالحسن
- 415 من المحيط إلى الخليج.. مشهد أميركي عاصف.. و4 سنوات عجاف
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 9 نوفمبر (تشرين الثاني) 2004
تأملات في أحوال سياسية تتوزع على دول بين المحيط والخليج وإضاءة على رموز متميزة في هذه الأحوال
- 417 عرفات اللبناني... ولبنان العرفاتي
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 23 نوفمبر (تشرين الثاني) 2004
حول ظاهرة الرئيس ياسر عرفات الذي فارق الحياة على سرير المستشفى الفرنسي وكيف أنه كان "الرئيس اللبناني الرابع"

- 418 في يوم واحد: مفاجأة "التايمس" .. وإضاءة الأمير
- صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 30 نوفمبر (تشرين الثاني) 2004
حول مصادفة حدوث مفاجأة تتعلق بصحيفة "التايمس" البريطانية العريقة مع خطوة لافتة للأمير الدكتور فيصل بن سلمان بن عبدالعزيز من شأنها تعزيز الإعلام العربي
- 420 المفاجآت في موعد العرب مع «الجوهرة» البوشية
- صحيفة "الشرق الأوسط" – الأحد 12 ديسمبر (كانون الأول) 2004
حول "الجوهرة السوداء" كوندوليزا رايس التي مع سيدها الرئيس الأميركي جورج بوش الابن تزداد جنوحاً نحو الأخذ بالحلول الحربية
- 422 الكويت فلسطين: عودة صغرى.. في إنتظار العودة الكبرى
- صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 15 ديسمبر (كانون الأول) 2004
تساؤل حول ما إذا كانت فلسطين بطبعتها العباسية ستفتح من جديد البوابة الكويتية التي أغلقها شيوخ الدولة رداً على مناصرة فلسطين العرفاتية للعراق الصدامي
- 423 رئاسات مسكونة بالهواجس... ومخاوف التسميم
- صحيفة "الشرق الأوسط" – الأربعاء 22 ديسمبر (كانون الأول) 2004
كيف أن رؤساء كثيرين في العالم الثالث باتوا في ضوء ما جرى للرئيس الفلسطيني ياسر عرفات مسكونين بالهواجس ومخاوف التسميم كما يقال بأنه حدث له
- 425 بشّار وأردوغان: التصحيح المتبادل إقتباساً
- صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 28 ديسمبر (كانون الأول) 2004
أجواء وإحتمالات تزامنت مع زيارة رسمية يقوم بها أردوغان إلى سوريا، وهذا في زمن غسل العلاقات بين الرئيسين التركي والسوري
- 428 كي لا يصيب الفلسطينيين ما أصاب أوكرانيا
- صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 4 يناير (كانون الثاني) 2005
مقارنة بين حالة إنتخابية فلسطينية على مستوى القمة وحالة حديث في أوكرانيا بين فيكتور (بوتيني) وفكتور (بوش)
- 430 السودان جديد... والبقية تأتي
- صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 11 يناير (كانون الثاني) 2005
حول الذي إنتهى إليه "سودان الإنقاذ" و "سودان قرنق" ومن الخاسر قليلاً أو الراجح كثيراً من الإنفاق بين الجنرالين
- 432 أبو مازن.. وإقتباسات إضطرابية من السادات وعرفات
- صحيفة "الشرق الأوسط" – الثلاثاء 18 يناير (كانون الثاني) 2005
كيف أن الرئيس الفلسطيني محمود عباس إختار أسلوب مخاطبة وإدارة لواقع الحال فيه لمسات من أسلوب الرئيس السلف ياسر عرفات والرئيس المصري الراحل أنور السادات
- 433 المقايضة العادلة.. بين فلاديمير وبشّار
- صحيفة "الشرق الأوسط" – الخميس 27 يناير (كانون الثاني) 2005
حول زيارة قام بها إلى روسيا الرئيس بشّار الأسد وما هو المردود منها وتأثير نوايا إيران وإسرائيل.. وأميركا بطبيعة الحال على النتائج المأمولة من بوتين

- 435 سفراء... بلا حدود
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 1 فبراير (شباط) 2005
تساؤل في صيغة الإقتراح حول أن يكون هنالك "سفراء بلا حدود" مثل الأطباء والمراسلين والمحامين الـ "بلا حدود"
- 437 على هامش قمة شرم الشيخ: إجماعاً «الجهاد الدبلوماسي» و«المبادرة الإسلامية»
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 8 فبراير (شباط) 2005
عندما توافرت في شخص محمود عباس وريثاً للرئيس ياسر عرفات صفة المجاهد الدبلوماسي
- 438 إغتيال الحريري .. الزلزال اللبناني - «كربلاء سنّية» بعد الحريري؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 15 فبراير (شباط) 2005
حول ظاهرة إفتراضية من المرجح حدوثها في أوساط الطائفة السنّية اللبنانية بعد ونتيجة إغتيال الرئيس رفيق الحريري
مشابهة في بعض جوانبها للكربلاء الشيعية
- 439 مفاعيل القهر: من عبد الناصر إلى الحريري مروراً بعرفات
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 22 فبراير (شباط) 2005
كيف أن القهر كان الجامع المشترك لدى ثلاث زعامات عربية متميزة: جمال عبدالناصر، رفيق الحريري، ياسر عرفات
- 441 أخطار ما بعد إغتيال الحريري: يقظة سعودية حاضرة.. وفطنة سورية مغيّبة
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 1 مارس (آذار) 2005
تساؤلات حول مخاطر محتملة الحدوث بعد إغتيال الرئيس رفيق الحريري وتشخيص الأمير عبدالله بن عبدالعزيز (ولي العهد) لهذه المخاطر
- 443 آخر الدواء... الإنتفاضة
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 10 مارس (آذار) 2005
نظرة على إنتفاضات حدثت وتؤكد بأنه الدواء الذي لا بديل له لإنهاء ظواهر غير عادية وغير مقبولة من الناس
- 445 خطاب الأب إيذناً بالدخول.. وخطاب الابن إعلاناً بالخروج
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 15 مارس (آذار) 2005
مقارنة بين خطاب الرئيس حافظ الأسد الذي أعلن فيه رسمياً دخول قوات سورية إلى لبنان وبين خطاب وريثه الرئيس بشّار الأسد يوم 5 مارس 2005 الذي أعلن فيه قرار الإنسحاب العسكري من لبنان
- 447 حالات إستثنائية في قمة عادية
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 22 مارس (آذار) 2005
كيف أن القمة العربية الدورية التي إستضافتها الجزائر تتم في ظروف حالات إستثنائية كثيرة تعيشها الأمة
- 449 إنقضى الأربعون.. فمن بعد الحريري؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 29 مارس (آذار) 2005
تساؤل في أوساط متنوعة الإنتماءات حول من بعد رفيق الحريري زعيماً لبيروت ومن بعده زعيماً للطائفة السنّية
- 450 سوريا البشّارية.. خطوة خطوة
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 أبريل (نيسان) 2005
ما بعد إكتمال الإنسحاب السوري من لبنان هل نتوقع ولادة "سوريا البشّارية"، وهل يُقدّم الرئيس بشّار على ذلك

452 الرسالة السعودية - الفرنسية: لا لتأزم لبنان بعد الآن

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 19 أبريل (نيسان) 2005
كيف أن زيارة وليّ العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز (الملك بعد ذلك) إلى فرنسا شيراك حملت الرغبة في أن لا يحدث تأزم في لبنان

454 زمن الحريري يتواصل مع سعد الدين

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 26 أبريل (نيسان) 2005
نظرة على بداية إنتساب سعد الدين الحريري إلى النادي السياسي مواصلاً بذلك زمن والده الرئيس رفيق الحريري الذي إستشهد يوم 14 فبراير 2005 في أبشع وأخطر عملية تفجير لموكبه الرئاسي المحصّن

455 القيصر الصغير يجرب حظه

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 3 مايو (أيار) 2005
قراءة في محاولة للرئيس الروسي فلاديمير بوتين في إتجاه المنطقة العربية إعادة الشأن إلى الكرملين الذي ضعفت أهميته

457 بعد السودان: صيف الإستفزاز للبنان وإيران!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 10 مايو (أيار) 2005
حول صيف إستفزازي حارق تعيشه إيران ويأخذ الكثير من إهتمام أهل الحكم كما ينعكس خلخلة على "حزب الله" في لبنان

459 هل يقتبس بشّار تجربة مبارك؟

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 17 مايو (أيار) 2005
تساؤلات في شأن الحالة التي يعيشها الرئيس بشّار الأسد وما إذا كان من الأفضل له إقتباس تجربة الرئيس حسني مبارك المديدة في مصر

460 إطمئن: أنت من مالكي «المجموعة السعودية»

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 24 مايو (أيار) 2005
وجهة نظر حول خطوة للأمير الدكتور فيصل بن سلمان بن عبدالعزيز بتحويل "المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق" بإصداراتها المتنوعة إلى ملكية عامة

462 الكويتية بحقها السياسي: الأسلم هو أسلوب بهية وليس أسلوب توجان

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 31 مايو (أيار) 2005
حول مفاجأة أهل الحكم في الكويت بمنح المرأة حق ممارسة العمل السياسي وكيف أن الأفضل للكويتية هو الممارسة على طريقة بهية الحريري وليس بأسلوب توجان الفيصل التي أفلقت الجميع في الأردن: ملكاً وحكومة وإسلاميين

464 عاجل للجمهوريات العربية: أهمية أن يكون للرئيس نائب أو أكثر

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 7 يونيو (حزيران) 2005
كيف أن إستحداث نائب أو أكثر للرئيس يقطع الطريق على شهية توريث الأبناء فضلاً عن تثبيت الإستقرار

466 سوريا والبعث.. جدلية التغيير والمخاوف والإقتباسات!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 14 يونيو (حزيران) 2005
... وحول المؤتمر إياه أيضاً ثمة تساؤلات عما إذا كان الرئيس بشّار الأسد سيأخذ إقتباساً ببعض الخطوات المصرية والسعودية لتدعيم الوضع الداخلي

- 468 رئاسيات ساخنة عربياً وإسلامياً
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 21 يونيو (حزيران) 2005
 نظرة على حالات رئاسية عربية تعيش حالة من السخونة أبرزها حالة الرئيس اللبناني إميل لحود الممدّد له من جانب الرئيس بشار الأسد ثلاث سنوات
- 470 اليسار المستعرب شهيداً: من عبد الخالق محبوب.. إلى جورج حاوي
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 28 يونيو (حزيران) 2005
 نظرة على رموز يسارية عربية أبقت على هامش رحب من إحترام العروبة والعمل القومي ومصادفة إستشهاد إثنين من «السناتور» سعد... وسوار الذهب اللبناني! ..
- 472 صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 5 يوليو (تموز) 2005
 عندما إنتهت الأمور في لبنان إلى أن الرئيس نجيب ميقاتي مثل سوار الذهب السوداني وأن سعد الدين الحريري يتأهب للدور السياسي الأهم على طريقة "سناتورات" أميركا
- 473 لمسات تنويرية حريرية وشومانية
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 12 يوليو (تموز) 2005
 بعض أوجه التشابه لجهة قيام إثنين من رموز الثروة في العالم العربي بمبادرات تنويرية. والإثنان هما: رفيق الحريري وعبدالمجيد شومان
- 474 تأملات وجدانية: في الخميس الأسود و«الباص» الأحمر
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 19 يوليو (تموز) 2005
 حول العملية التروييعية في بعض محطات قطارات الأنفاق وبعض حافلات الركاب التي حدثت في لندن وجاءت تكمل ما سبق أن حدث في نيويورك عام 2001
- 476 الرئاسة العربية... بين الزهد والتعمير
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 28 يوليو (تموز) 2005
 نظرة على قرار حسني مبارك بتجديد رئاسته ولاية خامسة لمدة ست سنوات وكيف أن الرئيس اليمني علي عبدالله صالح الذي هو مثل مبارك من أصل عسكري أعلن فجأة أنه لن يرشح نفسه لولاية رئاسية جديدة
- 477 الأب والإبن... والكيان
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 2 أغسطس (آب) 2005
 حول رحيل الملك فهد بن عبدالعزيز يوم الإثنين الأول من أغسطس 2005 في ظروف صحية مماثلة للظروف التي واكبت رحيل والده الملك عبدالعزيز يوم الإثنين أيضاً 9 نوفمبر 1953
- 478 السودان: تأملات في المشهد العاصف
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 9 أغسطس (آب) 2005
 مقارنة لواقعة تصفية الزعيم الأبرز في جنوب السودان جون قرنق بواقعة من حيث الغرض منها إغتيال الزعيم السني الأبرز في لبنان رفيق الحريري
- 480 واشنطن وطهران: هل هي مقدّمات لحرب الخليج الرابعة...؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 16 أغسطس (آب) 2005
 تساؤلات عما إذا كانت بعض الإشارات الأميركية - الإيرانية هي بمثابة مقدمات لحرب تدور رحاها على أرض دول الخليج وتعصف بكياناته المزدهرة

- 482 العالم وسبتمبر.. غير ذاك الذي في البال
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 30 أغسطس (آب) 2005
تأملات في مناسبة ذكرى العملية الترويعية التي إستهدفت في سبتمبر 2001 مركز التجارة العالمية في نيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون) في واشنطن
- 483 وداعاً أيها الإستفتاء.. أهلاً أيها الإنتخاب
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 7 سبتمبر (أيلول) 2005
قراءة في المفاجأة المتمثلة بإنتخاب الجمهورية في مصر وفق قاعدة المنافسة بين أكثر من مرشح وليس الإستفتاء على الشخص الواحد كما درجت العادة منذ بدء العهد الجمهوري في مصر
- 485 قمة إستثنائية... عليها العوض
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 13 سبتمبر (أيلول) 2005
حول قمة عربية إستثنائية فاجأ الرئيس حسني مبارك الملوك والرؤساء بالدعوة إلى عقدها في شرم الشيخ لكن الإعتراض من جانب البعض أرجأ عقدها رغم أن الداعي إليها رئيس الدولة العربية الأكبر
- 487 من «تصدير الثورة».. إلى تصدير «المعرفة النووية»
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 22 سبتمبر (أيلول) 2005
كيف أن إيران التي إنشغلت طوال سنوات بتصدير الثورة بدأت تتحدث عن إمكانية تصدير "المعرفة النووية" إلى الأشقاء
- 489 تأملات في السودان الإنتقالي
- صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 1 أكتوبر (تشرين الأول) 2005
نظرة على أول حكومة للمرحلة الإنتقالية في السودان بعد إبرام إتفاق السلام بين حُكم الإنقاذ والحركة الشعبية التي يتزعمها جون قرنق والذي لم يهنأ بالإتفاق وبمنصب النائب الأول لرئيس الجمهورية، حيث قضى في واقعة سقوط طائرة هليكوبتر كان يستقلها وحل محله نائبه سيلفاكير
- 491 بوتين الصاروخي.. يكسر قاعدة الرئاسات العربية
- صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 8 أكتوبر (تشرين الأول) 2005
حول إعلان مباغت من جانب الرئيس الروسي فلاديمير بوتين من أنه لن يجدد الرئاسة، أورده في حديث تلفزيوني قال فيه أن روسيا ستضع في الخدمة أنظمة صواريخ لا تُقهر
- 493 ميجور والسنيرة: المفاجأة البريطانية.. والمفاجأة اللبنانية
- صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 22 أكتوبر (تشرين الأول) 2005
مقارنة بين رئيس الحكومة اللبنانية فؤاد السنيورة الذي إختاره سعد الدين الحريري بديلاً إنتقالياً لترؤس الحكومة، وجون ميجور الذي ترأس الحكومة البريطانية بعد الإنقلاب على تاتشر
- 494 العراق: أفق المصالحة والوفاق.. محل الشقاق والنفاق
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 8 نوفمبر (تشرين الثاني) 2005
كيف إن الوفاق بين العراقيين وعلى نحو ما يسعى إليه العرب في شخص الأمين العام للجامعة كفيل بتبريد الإنطباع السائد عن الشعب العراقي بأنه شعب الشقاق والنفاق
- 496 من دمشق وظهران.. إلى باريس وعمان: ما هذا الذي يحدث؟
- صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 22 نوفمبر (تشرين الثاني) 2005
تأملات في أحزان شهدتها باريس وعمان وتصريحات في صيغة خطب محزنة أبرزها خطاب الرئيس نجاد وآخر للرئيس الأسد

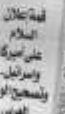
498 قمة السلام والسلامة للأمتين في رحاب مكة

صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 3 ديسمبر (كانون الأول) 2005
نظرة على القمة الإسلامية الإستثنائية التي دعا الملك عبدالله بن عبدالعزيز إلى عقدها في مكة المكرمة وما يمكن أن
ينتج عنها

500 كلام القادة في المنتديات: ما قلّ.. ولا دل!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 22 ديسمبر (كانون الأول) 2005
حول كلام لمسؤولين سابقين قالوه في "منتدى القادة" الذي إستضافه في دبي وليّ عهدا الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم
أواخر نوفمبر (تشرين الثاني) 2005

المقالات من يناير 2001 إلى ديسمبر 2002



[illegible]

1. **العلماء والباحثون**
 2. **المعلمون والطلاب**
 3. **الطلاب والطالبات**
 4. **الطلاب والطالبات**
 5. **الطلاب والطالبات**

Figure 10.13

قراءات في مستجدات وخطوات لا بد منها بعد الانتخابات

[illegible]

الصحاف: الإنترنيتي... والدوري... والعمومي... والاستعلامي

[illegible][illegible][illegible]

المسألة

لبناني، من دمشق
اليزوت لجها الله

[illegible]

قائمة اطلاق
السلام
على اميركا
واسرائيل-
واسمعيح الوضع
العربي

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله

في الثاني.. السلامة

نحمد الله أن قمة شرم الشيخ الفلسطينية - الإسرائيلية لم تتعقد كما كان مقرراً يوم الخميس 28 ديسمبر (كانون الأول) 2000، وأن كانت الخشية من معاودة عقدها خلسة في أي يوم.. واردة.

نحمده بصرف النظر عما إذا كان مضيفها الرئيس حسني مبارك أثر عدم الإستضافة كي لا يقال إنه شمل برعايته قمة انتهت إلى المزيد من التفريط بالقضية الفلسطينية ومتى؟ في اليوم الثاني لعيد الفطر المبارك! ونحمده بصرف النظر عما إذا كان المستضاف الفلسطيني الرئيس ياسر عرفات استدرك في اللحظة الأخيرة أن السلامة هي في الثاني وأنه من أجل ذلك عليه أن يتروى فلا يعتبر أن ما سيحصل عليه ينطبق عليه القول المأثور (خير البر عاجله) إذ ليس في الأمر مثل هذا البر الذي يؤمل الفلسطينيون النفس به، بل على العكس من ذلك أن الذي يعرضه الرئيس كلينتون عليهم يندرج القبول به تحت القول بأن (العجلة من الشيطان) أو (في الثاني السلامة وفي العجلة الندامة).

ونحمده أيضاً وأيضاً بصرف النظر عما إذا كان رئيس وزراء إسرائيل ايهود باراك خشي من إصرار الجانب الفلسطيني على ربط أي إتفاق مع إسرائيل بضمانات أميركية، وعلى أن موضوع حق اللاجئين في العودة هو من حيث النظرة الإنسانية والاجتماعية بأهمية إستعادة القدس مقصصة الأطراف وبأهمية السيادة على المسجد الأقصى (مع أنها لن تكون كاملة) من حيث النظرة الروحية والوجدانية.

ونحمده أيضاً وأيضاً بصرف النظر عما إذا كان الرئيس كلينتون وجد أن الفصل الأخير من العملية السلمية ليس بالسهولة التي يفترضها، وأن حلمه بتتويج ولايته الأولى والثانية بإنجاز تاريخي أو إنجاز العصر هو مثل حلم إبليس بالجنة. فما يفعله الرئيس الذي قاربت شمس حكمه على المغيب هو تقليسة لقضية أكبر منه بكثير هي القضية الفلسطينية بوجهيها: الوجه الذي يخص الفلسطينيين ويستطيع الرئيس عرفات أن يعتبر نفسه ممثلاً لنصفهم وعلى نحو تمثيل الرئيس جورج بوش الابن (وفي ضوء الإنتخابات الأخيرة) لنصف الشعب الأميركي. وفي ما يتعلق بهذا الوجه فإن الرئيس عرفات يستطيع أن يتخذ

من القرارات ما يحلو له أو يراه من وجهة نظره مناسباً ويتحمل وزر ما يفعله. أما الوجه الآخر والمتعلق بالمسجد الأقصى فهذا يخص الفلسطينيين بقدر ما يخص أي شعب مسلم سواء كان هذا الشعب بالملايين على نحو شعب إندونيسيا أو باكستان أو إيران أو السعودية أو مصر أو البحرين التي قررت تحويل نفسها من دولة إلى مملكة... وغيرها من الدول والشعوب الإسلامية.

ولأن الرئيس كلينتون تعامل ويصر على التعامل مع القضية وكما لو أنها تقليسة شركة يتولى أمر تصفيتها فإنه أخفق في إيجاد الحل وإستمرار الإخفاق يتواصل إلى أن قاربت شمس حكمه على المغيب. ومن أجل ذلك قد يكون هو نفسه إرتأى بعدما وصلته من السلطة الوطنية الفلسطينية جملة من الاستفسارات والتساؤلات حول مقترحاته لإنهاء موضوع النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي، أو التقليسة كما هو واقع الحال... قد يكون إرتأى أنه ما دام لا يملك الإجابة الشافية على الإستفسارات والتساؤلات الفلسطينية، فمن الأفضل أن ينهي الفصل الأخير من مسرحية تعاطيه غير النزيه وغير العادل مع العملية السلمية بالمقترحات التي نشرت ماكينة الاعلام الأميركية والصهيونية أجواء من الايحاءات بأنها خير المقترحات مع أنها في نظرنا ونظر أبناء القضية المعذبين في أرض فلسطين المكتوبين بنار الإحتلال الإسرائيلي المرضي عنه من الإدارات الأميركية، على طريق التصفية النهائية لقضية تخص في الجانب الأكبر منها مليار ومائتي مليون مسلم منتشرين في أرجاء الكرة الأرضية من لبنان إلى الصين. وبالتوقف عند طرح المقترحات التي تغلب عليها ملامح الترويج التي تشبه الترويج لسلعة مستحدثة الإنتاج، يُقنع الرئيس كلينتون نفسه - ولا يُقنعنا بالتأكيد - أنه بذل كل جهد ممكن وأنه يترك مقترحاته برسم التنفيذ عندما تقتنع الأطراف بجودها، على نحو ما فعل الرئيس (الراحل) الحبيب بورقيبة عندما طرح في منتصف الستينات مشروعه الشهير في شأن التقسيم، ولم يأخذ العرب والفلسطينيون به، وعلى نحو ما فعل الرئيس (الراحل) أنور السادات عندما حاول اشراك الفلسطينيين في مفاوضات صفقة التسوية الشهيرة في فندق «مينا هاوس» في القاهرة لكن هؤلاء قاطعوا وبقي وحده دافعاً باهظ الثمن على الذي فعله. والاثان، بورقيبة والسادات، تعاملوا مع القضية، وبجدة الواقعية، تماماً

القمة العربية الإستثنائية في القاهرة ثم في القمة الإسلامية التي جرى عقدها في الدوحة الدليل على أن بعض المروءة العربية - الإسلامية من شأنها افساد هذا السعي التأمري الذي قاده الرئيس كليتوتون.

والمستعجلون كثيرون لكن أكثرهم إستعجالاً هو الرئيس عرفات الذي نتفهم دواعي إستعجاله حيث أنه في الوضع الصحي والنفسي الذي يضغط عليه من أجل أن تولد الدولة الفلسطينية على يديه، ويقال تاريخياً إنه هو الذي جعل من الثورة سلطة وطنية ومن السلطة دولة. لكن هذا الإستعجال قد يؤدي إلى التهلكة في الحد الأقصى وبذلك لا تعود الندامة تنفع في شيء فضلاً عن أننا حتى بالنسبة إلى الجزء الذي يخص الفلسطينيين دون غيرهم من العرب والمسلمين لا ندري كيف سيجترح أبو عمار هذه المعجزة وكيف يمكن أن يرضى على نفسه أن يقال بأن رئيس دولة فلسطين - هذا افتراضاً بأنه نال الذي تمناه - هو عملياً رجل أرباع الحلول وأن الشعب الفلسطيني هو الشعب الوحيد في العالم الذي صارت له دولة إلا أنه من دون وطن.

ومع أن هذا الكلام هو من النوع الذي يدمي النفس والوجدان، إلا أنه الكلام الحقيقي الذي يجب قوله بعد هذه المسيرة المهينة منذ كامب ديفيد الأولى والتي ليس فيها محطة واحدة تؤكد أن قضايا الأوطان ليست سلعة تباع وتشتري سواء كان البيع في سوق النخاسة أو من خلال البورصات السياسية الدولية التي تدار عملياتها عبر المبعوثين والدبلوماسيين الذين كانوا في معظمهم يهوداً مؤيدين لإسرائيل أو غير يهود لكنهم بأفعالهم كانوا إسرائيليين أكثر من الإسرائيليين أنفسهم. ولا موجب لضرب الأمثلة. فالقائمة طويلة. والمواقف مسجلة بالصوت والصورة. والمكائد مزدهرة في السر وفي العلن. والسماسة على من يشيل... على نحو المثل المصري الشائع.

ونعود مرة أخرى إلى ما بدأنا به هذا المقال لنكرر الحمد لله بأن قمة الفصل الأخير من إعلان التقليسة لم تتعقد على نحو ما كان من المقرر عقدها في شرم الشيخ يوم الخميس الماضي ثاني أيام عيد الفطر المبارك، وإلا كان سيقال وبلهجة حازمة أن الفلسطينيين صاموا نصف قرن وفطروا على طبق من رمال شرم الشيخ. معاذ الله لمثل هكذا نهاية!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 3 يناير (كانون الثاني) 2001

على نحو تعامل كليتوتون، يريد كل منهم تتويع نفسه بطلاً تاريخياً، ولم ينظر أي منهم إلى أن جزءاً من القضية الفلسطينية لا يخص الفلسطينيين وحدهم وإنما يخص على نحو ما سبق وذكرنا المليار والمائتي مليون مسلم في العالم، بل لعل هذا الجزء هو نقطة التصاق هذه الكتلة البشرية الهائلة بالقضية الفلسطينية، والجزء الذي نعنيه هو المسجد الأقصى.

ونجد هنا من الضروري التوضيح بأن العرب والمسلمين وبأكثريه أنظمتهم وحكامهم وصلوا بالترج نزولاً إلى رؤية خلاصتها، على نحو ما جرى التعبير عنه، أنهم يوافقون على ما يوافق عليه الشعب الفلسطيني. وبصرف النظر عما إذا كانت هزيمة 1967 وإنصار 1973 الذي لم يكتمل وحرب لبنان وإجتياحه ثم اجتياح الكويت والحرب على العراق هي الدافع إلى هذه الرؤية من منطلق الضجر من القضية الفلسطينية أو العجز عن القيام تجاهها بالواجب على الوجه الأكمل... بصرف النظر عن التبريرات والحيثيات، فإن هذه الرؤية تحتاج إلى توضيح أو حاشية بحيث يشار إلى أن ما يخص المسجد الأقصى لا يدخل ضمن هذه الرؤية، وذلك لأن مصير المسجد يتطلب موافقة كل دول العالم الإسلامي ولا يحتمل تحفظاً من هذه الدولة عند التصويت، أو إمتناعاً من تلك عن التصويت، وبالذات إذا كان التصويت على سيادة إسلامية منقوصة على المسجد الأقصى، وهل تمنع في أن تكون لإسرائيل حصة فيه بمعنى أن يكون ما تحت المسجد لإسرائيل وما على الأرض للفلسطينيين على نحو ما تفتت عنه عبقرية المستشارين اليهود المتغلغلين في الإدارة الأميركية التي هي على أهبة الرحيل، ثم صاغ المستشارون فكرة الأرض وما تحتها بشكل مقترحات إنبر الرئيس كليتوتون بها كل الانبهار فعرضها على شريكه عرفات وباراك برسم الأخذ بها؟ ولا نظن بل ونجزم بأنه لن يكون في استطاعة أي دولة إسلامية أن تمارس مرونة في هذا الشأن، حتى إذا كانت هذه الدولة هي تركيا بكل علمانية نظامها المفروضة بقوة المؤسسة العسكرية.

يبقى أنه من الواضح أن الإستعجال في ايجاد صيغة للفصل الأخير من مسرحية التسوية هو ما نتابع تطوراتها وتداعياتها. والإستعجال هنا هو مثل الهرولة التي اتسمت بها بعض المواقف العربية والإسلامية وأدت في النهاية إلى علاقات خجولة ومخجلة بين البعض وإسرائيل سرعان ما تصدعت بفعل إنتفاضة الأقصى التي أحدثت تحولاً في التعامل العربي والإسلامي مع القضية. ولنا في

بعض زُرَّاع الفتنة... في أرض العرب

إستقرت في الذاكرة العربية شخصيات أجنبية كثيرة، إلا أن الأكثر أهمية بينها أربعة رحل ثلاثة منهم تاركين بصماتهم على صفحات تاريخ القضية العربية من الإستقلال إلى الإحتلال، وبقي الرابع يحاول جاهداً تذكير العالم به من خلال محاضرات يلقيها في جامعات أو منتديات أو مراكز دراسات أو من خلال إستشارات في الخفاء يؤكد فيها نواياه التي كانت في إستمرار ضد العرب ولمصلحة إسرائيل.

الثلاثة الراحلون هم حسب تسلسل الأدوار: الإنكليزي غلوب باشا الذي كان على رأس الجيش الأردني والذي لم يخاطبه أحد على نحو مخاطبة المفكر السعودي صاحب الرؤى الثاقبة الشيخ عبد العزيز التويجري له وذلك خلال لقاء تم بينهما في منزل غلوب باشا أو «أبو فارس» (كما هو معروف من قِبَل الأردنيين وبعض العرب والإنكليز) في إحدى قرى الريف البريطاني البعيدة حوالي مئة كيلومتر عن لندن. وفي ذلك اللقاء الودي طالبه الشيخ عبد العزيز بأن يحاسب نفسه ويحاسب السياسة ويقول بتجرد ما له على الأردن والعرب الذين أشبعوه في ذروة الحقبة الناصرية جراحاً واتهامات، وما للأردن والعرب عليه لكي ينتقل من دائرة الضوء الساطع في الخمسينات العربية إلى الظلال وسط الضباب في الستينات البريطانية وما تلاها من عقود. وقد أورد الشيخ عبد العزيز مضامين هذا اللقاء في كتاب جديد له يحمل تسمية «رسائل خُفْتُ عليها الضياع»، ويمكن اعتباره نموذجاً في مجال أدب الرسائل يذكّرنا بأدب التراسل المتبادل في العصور الغابرة وبالذات بكتاب طالما أعددنا غير مرة قراءته وهو «جمهرة رسائل العرب».

الشخصية الثانية الإنكليزي أيضاً هو اللورد كارادون الذي ابتكر بعد هزيمة 5 يونيو (حزيران) 1967 (وكان يمثل بلاده في مجلس الأمن) أفكاراً تبناها المجلس وجعل منها قراراً ما زالت الأمة تتوء تحت وطأة أثقاله حتى اليوم، وربما ستطول المعاناة سنوات جراً هذا القرار المعروف بالقرار 242. ويصعب على المرء الجزم بما إذا كان القرار هو لمصلحة العرب أم لمصلحة إسرائيل، إلا أنه في أي حال كان لمصلحة المجتمع الدولي وبالذات للدولتين الحليفتين الصامد تحالفهما حتى الآن وهما الولايات المتحدة وبريطانيا. وتجدر الإشارة إلى أن القرار الذي

أثارت كلمة واحدة خلافاً إستعصى إستنباط تسوية له لقي في البداية من الرفض العربي ما لم يلقه قرار دولي، ثم إنتهى الأمر بالدول العربية إلى أن هذا القرار بات مطلباً لها يكاد لا يخلو بيان عن مؤتمر قمة أو عن اجتماعات عربية موسعة أو ثنائية من الإشارة إليه والمطالبة بتنفيذه. وللتذكير، فإن الكلمة التي نشير إليها والتي وردت في سياق الفقرة التي تنص على الإنسحاب الإسرائيلي كانت «أراضٍ» بالنص الإنكليزي وكانت «الأراضي» بالترجمة الفرنسية للقرار. وقد تمسكت الدول العربية بمن في ذلك مَنْ عاطفتهم جياشة نحو الإنكليز وكل ناطق بالإنكليزية (أميركا في الدرجة الأولى) بالصيغة الفرنسية للقرار. وبطبيعة الحال رفضت إسرائيل ومن معها ذلك. واستمر الجدل في هذا الشأن بضعة عقود إلى أن باتت هنالك ترجمة عبرية (كممارسات) للمفهوم نلاحظ مع الأسف أنها هي المطروحة الآن على بساط التفاوض، بدليل أن إسرائيل تنسحب من أمتار وتترك كيلومترات في عهدها وتملاً الأرض التي احتلتها بالمستوطنات وتريد أن تكون هذه المستوطنات جزءاً من أراضي الدولة الفلسطينية التي تكاثرت المراوغة في شأنها وتزايدت حركة المقص الإسرائيلي في تقصيل جغرافيتها. وكل ذلك ومع الأسف الشديد بموافقة الذين إبتكروا القرار 242 وصاغوه على أساس أن يكون حلاً، فإذا به من الألغام التي إنفجرت بوجوه العرب وملأت الوجوه والأجساد والنوايا شظايا ليس بالأمر السهل تنظيف النظام العربي منها.

ومع أن اللورد كارادون حاول أن يتقرب من العرب ويكثر من اللقاءات بهم والزيارات لهم واللقاء المحاضرات حول قضايا تخصهم، وكل ذلك بعدما بات متقاعداً... مع أن كارادون حاول ذلك، إلا أن النظرة إلى قراره الشهير إستمرت في أذهان الكثيرين تبدو كما لو أنها مكملة للنظرة السوداوية من جانب العرب جميعاً إلى الوعد الذي أطلقه اللورد الآخر (بلفور). وكان بمثابة الحجر الأساس للكيان الإسرائيلي. ولكم كان عرب أواخر الستينات ومعظم سنوات السبعينات والثمانينات يتمنون لو أن اللورد كارادون يحاسب نفسه ويقول في معرض المحاسبة ما له وما عليه، أي على نحو مطالبة الشيخ عبد العزيز التويجري لغلوب باشا لكن كارادون غادر الدنيا ومن دون أن يسجل هذه المحاسبة ومن دون أن يوضح للعالم ولنا بالذات ما الذي كان يضيره لو أنه بدل هذا

اللغم النحوي واللغوي الذي زرعه وإستعمل بكل وضوح كلمة «الأراضي» وحتى يضيف إليها كلمة «كل» بحيث تصبح «كل الأراضي التي إحتلتها إسرائيل» بدل الإكتفاء بكلمة «أراضي»، معطياً بذلك إسرائيل مساحة رحبة لكي تراوغ وتماطل وينتهي بها الأمر إلى أنها تقصص الأرض الفلسطينية بحيث تحتفظ لنفسها بما يناسبها وتبقى للفلسطينيين من الأرض ما من شأنه أن يوقف مطالبهم ويُسكتهم وليس يرضيهم.

الشخصية الثالثة هو وليم روجرز وزير الخارجية الأميركي في عهد الرئيس (الراحل) ريتشارد نيكسون (من 1969 إلى 1973) والذي حدثت وفاته يوم الثلاثاء 2 يناير (كانون الثاني) 2001 عن 87 عاماً بعد معاناة ليست طويلة مع المرض. وهو كان بعد انسحابه من الحياة السياسية بزوال عهد نيكسون مثقناً بجراح معنوية ناشئة عن فضيحة «ووترجيت» عاد من حيث سبق أن أتى، أي إلى مكتب المحاماة الذي يملكه، تماماً على نحو ما فعل آخرون تركوا أيضاً بأفعالهم وأدوارهم غير النزيهة وغير العادلة حيزاً لهم في الذاكرة العربية أمثال جايمس بيكر (وزير خارجية عهد بوش الأول) ووارن كريستوفر (وزير خارجية الولاية الأولى للرئيس كلينتون). والاثنتان كما غلوب باشا واللورد كارادون يحتاجان إلى من يخاطبهما على نحو مخاطبة الشيخ عبد العزيز التويجري للباشا الإنكليزي (أبو فارس) ويطلبهما بمحاسبة النفس التي كانت أمانة بالسوء نحو العرب، وبذلك يقول كل منهما ما له وما عليه لأنهما التصقا بقضايانا وظروفنا وساهما في مأساة أمتنا. وبالنسبة إلى روجرز الذي كان اسمه بعد هزيمة 1967 يتردد على ألسنة المصريين والعرب كما لم يتردد اسم مسؤول أجنبي من قبل، فإن دوره كان زرع البذرة الأولى للسلام العربي . الإسرائيلي، بل قد يجوز القول إن المبادرة التي عُرفت بـ«مبادرة روجرز» والتي طرحها الرجل على الرئيس (الراحل) جمال عبد الناصر كانت بمثابة التمهيد للمبادرة التي قام بها الرئيس (الراحل) أنور السادات وتمثلت بزيارة القدس الشهيرة التي تتواصل تداعياتها حتى الآن. ونقول ذلك مع الأخذ في الاعتبار أن قبول عبد الناصر بمبادرة روجرز كان الغرض منها أن يستكمل عملية إعادة بناء القوات المسلحة وبالذات بناء حائط الصواريخ على جبهة قناة السويس، فضلاً عن إجراء اختبار عملي للنوايا الأميركية. ورغم ظروف هذا القبول فإن عبد الناصر لقي من الفلسطينيين ومن

النظاميين البعثيين في كل من العراق وسورية من التجريح والالتهامات ما لا يُحتمل. بل من الجائز الافتراض أن الضربة الثالثة الصحية والتي كانت القاضية على عبد الناصر يوم 28 سبتمبر (أيلول) 1970 بدأت بسبب التجريح والالتهامات وعدم إستيعاب ما أراده من قبول مبادرة روجرز. أما الضربة الصحية الأولى فكانت بعد انفصال سورية ثم جاءت الضربة الثانية الأكثر قساوة بعد هزيمة 5 يونيو (حزيران) 1967.

ويبقى من بين هؤلاء الدكتور هنري كيسينجر الذي كان دوره في العلن وفي السر وراء الكواليس تنفيذ مراحل مخطط تصفية القضية الفلسطينية. وهذا الرجل لا يحتاج فقط إلى من يخاطبه بأسلوب الشيخ عبد العزيز التويجري في مخاطبة «غلوب باشا» وإنما إلى من يحاكمه على الذي فعله. ولو تم الإفراج في المستقبل غير البعيد عن الأوراق السرية الخاصة بالحقبة الساداتية لتبين أي إساءة ألحقها بنا كيسينجر الذي سار وعلى طريقته على خطى اللورد الأول بلفور ثم اللورد الثاني كارادون وصولاً إلى ما نحن عليه اليوم مروراً بوليم روجرز الراحل حديثاً. والأربعة كانوا من بين زُرّاع الفتنة في أرض العرب. وما نعنيه بالفتنة... إسرائيل.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 10 يناير (كانون الثاني) 2001

بماذا ينصح بوش الأب... بوش الابن!

أكدت الإنتخابات الرئاسية الأميركية بضع حقائق لعل أهمها أن الخبرة في شؤون العالم الخارجي ليست شرطاً لمن يتطلع إلى المنصب الأول في الولايات المتحدة بدليل أن الذي استقر عليه أمر أن يكون هو الرئيس بدءاً من يوم 20 يناير (كانون الثاني) الجاري ونعني به جورج بوش الابن، قليل المعرفة بما يحدث خارج بلاده. كما أنه ليس على بيّنة من القضايا الخارجية. وهو في هذا الأمر مثل الرئيس الأسبق رونالد ريغان الذي جاء إلى رئاسة البيت الأبيض من الصف الثالث بين نجوم هوليوود مروراً بتجربة عابرة له في مجال العمل السياسي عندما شغل في العام 1970 منصب محافظ كاليفورنيا. وهو لم يستحوذ على حب الشعب الأميركي لأنه خبير في الشؤون

السياسية وبالذات ما يخص علاقات الولايات المتحدة مع بعض الدول التي لها مصالح حيوية أو إستراتيجية معها وإنما لأن الرأي العام الأميركي أحب فيه أسلوبه الحماسي في الخطابة وتركيزه على مسألة القوة والكرامة والوطنية، وهو ما تجسّد في ظاهرة «رامبو» التي سرعان ما اعتمدها في عدوانه على ليبيا.

ما فعله ريغان الذي يعاني منذ بضع سنوات مرض «الزهايمر» أو بالتعبير الشائع «الخرف» ربما جزء سياسته الخارجية الحمقاء طوال سنوات رئاسته (من 1981 إلى 1989)، هو أنه أحاط نفسه بخبرة المستشارين الذين كان يستمع إليهم أو بالأحرى كانوا بمثابة مدرسين خصوصيين لرئيس متخلف في دراسته. وقد أشاع بهذا الاختيار أجواء من الإعجاب في صفوف النخبة الأميركية. لكن هؤلاء المستشارين لم يكونوا في معظمهم مخلصين أو محايدين فأثقلوه بالنصائح التي أربكته وجعلته يتخذ قرارات تعكس شغفه بالرامبوية (نسبة إلى رامبو الذي طالما شاهدناه سينمائياً) وكأنما السياسة مجرد عضلات. ولنا في نصيحة المستشارين له كي يعتدي على ليبيا بالتعاون مع رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارغريت تاتشر ثم بمحاولة التدخل في لبنان عقب الغزو الإسرائيلي، والتي نتج عنها أن 241 جندياً أميركياً لقوا حتفهم في انفجار السفارة الشهير... لنا في هذين العدوانين المثال على أن المستشارين يفيدون من يحتاج إلى الرأي السديد إذا كان هؤلاء مخلصين وأنهم يسيئون إذا كانت نصائحتهم عشوائية أو لأغراض في نفس المستشار.

الآن وقد بات جورج بوش الابن هو رئيس الولايات المتحدة فإن ظاهرة المستشارين ستتجدد وذلك لعدم خبرة الرئيس الجديد في قضايا العالم مع أنه ابن رئيس سابق للبلاد وسبق له قبل أن يصل إلى سدة الرئاسة أن كان مديراً لوكالة الإستخبارات المركزية (C.I.A.).

ومن هنا فإنه إذا كان الرئيس الأميركي الجديد لن يتنبه سلفاً إلى نوعية المستشارين فهذا معناه أننا في المنطقة العربية على موعد مع رئيس قد يتخذ من القرارات ما من شأنه أن يجعل المنطقة ساحة صراعات وربما ساحة الحرب العالمية الثالثة المرجأة... إلا إذا كان والده الرئيس السابق سيقول له ناصحاً كأب وكصاحب تجربة رئاسية عاصفة ما معناه إنني يا بني اقترفت في حق المنطقة وشعوبها إساءة كبرى عندما إستدرجت العراق إلى غزو الكويت ومنعتُ القادة العرب من أن يضلعوا الحل العربي المناسب لتلك

المأساة وأكملتُ الإساءة بالحرب على العراق ونشر القوات والقواعد والأساطيل في المنطقة واستدرجتُ القادة العرب أيضاً إلى مؤتمر مدريد وبالغتُ في التهويل عليهم كي لا يعقدوا مؤتمر قمة ينتهي إلى نوع من التضامن بينهم. ويكفي أن تتأمل في أحوال المنطقة لتدرك أي لعنات تنصب على بلادنا يومياً من جرّاء العذاب الذي نحن السبب فيه من أجل أن تزدهر مصانعنا فلا يجتاحها الإفلاس والبطالة... وهكذا. ويا بني حاول أن تتكفئ لا أن تنتهور وحاول أن تترك شعوب المنطقة تنسى الإساءات التي ألحقها عهد والدك بالكثيرين، وبذلك يمكن أن تحكم وبحيث لا يصيبك ما أصاب والدك الذي أخفق في أن يفوز بولاية رئاسية ثانية على رغم كل المغامرات التي حققتها للشعب الأميركي الذي رد على «تضحيتي» في سبيله بأن أختار بيل كلينتون بدلاً مني، ولم يقتصر الأمر على ذلك وإنما منحوه ولاية رئاسية ثانية وكافأوا زوجته بأن تم انتخابها لعضوية مجلس الشيوخ عن نيويورك، مع أن فضيحة مونيكا التي جعل كلينتون من المكتب الرئاسي في البيت الأبيض عشاءاً لساعات من الغرام معها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 17 يناير (ك) 2001

* * *

... وبماذا تنصح (الحماة) باربرا...

(الكَنَّة) لورا؟

مثلاً أن الرئيس جورج بوش الابن يحتاج إلى النصيحة من والده الرئيس الأسبق جورج بوش فإن لورا زوجة الرئيس الابن هي الأخرى تحتاج إلى النصيحة من حماتها باربرا، هذا إذا كانت الحماة قررت أن تفعل ما يحدث للبشر عندما يتقدمون في السن ويجدون أن ما تبقى لهم من العمر يجب أن يكون للتعبد وطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى والإعتذار من الذين كانوا السبب مباشرة أو بشكل غير مباشر في إلحاق الأذى بهم.

وموجبات النصيحة كثيرة أهمها أنها ليست من زوجة رئيس سابق إلى زوجة رئيس جديد، وفي هذه الحال فإن الأولى تتحاشى إساءة النصيحة وأن الثانية لا تتقبلها وربما تبدي الإنزعاج ولسان حالها يقول

همساً إذا إستحال القول من خلال الصحافة أو إحدى محطات التلفزيون ما معناه: هذا ليس مطلوباً منك وبدلاً من إسداء النصيحة لي فإنه كان الأولى بك أن تتصحي نفسك عندما كنتِ السيدة الأولى في البيت الأبيض. ولكن النصيحة هنا له ضرورتها كونها تساعد على تلافي الضرر ولأنها تنطلق من مقتضيات أواصر القربى. فالسيدة باربرا هي جدة جينا وباربرا توأم ابنها الرئيس الذي دخل البيت الأبيض بعد معركة إنتخابية لا مثيل لها في التاريخ الأميركي. والكثّة لورا، وبحكم التماسك والعيش المشترك في عائلة بوش، كانت بمثابة الابنة لحمايتها. كما أن الحماة باربرا كانت المربية للتوأم الذي أمضى زمناً من الطفولة داخل البيت الأبيض وها هو اليوم في سن المراهقة يعود إلى هذا البيت. ولأن باربرا بوش (الأب) ولورا بوش (الابن) كانتا في إستمرار بعيدتين عن الأضواء والنشاطات الإجتماعية فإنهما إنشغلتا بالإهتمامات المنزلية وهذا معناه أن الحماة طالما أطعمت الكثّة من طيخها وأن الكنة بدورها طالما فعلت الشيء نفسه، هذا ناهيك عن عشاء ديك الحبش التقليدي الذي يكون عادة مناسبة لجمع الشمل العائلي وبالذات لمن هم يعيشون إلى حد ما تحت سقف واحد أمثال الحماة باربرا بوش والكثّة لورا بوش. وما نريد الوصول إليه من هذا الكلام هو أن الخبز والملح الذي بين الإثنتين، فضلاً عن أواصر القربى، تجيز لمن ذاق طعم لقب السيدة الأولى في أواخر الثمانينات وستنتن عاصفتين من التسعينات وبعدها باتت قريبة من الثمانين أن تتصح زوجة ابنها التي باتت وهي في أحلى سنوات العمر السيدة الأولى في الولايات المتحدة.

من باب الإفتراض الذي يجيزه الذين يتعاطون مهنة الكتابة لأنفسهم نقول إن الحماة باربرا ستقول للكثّة لورا ما معناه إنني وفي ضوء تجربة سنوات السيدة الأولى أنصحك بالآ تلهيك أبهة المكانة عن التأمل في مردود القرارات والخطوات التي تصدر عن ابننا زوجك فأنا يا إبنتي، وقد باتت المسافة بين دنياي ولحظة الرحيل بقدر المسافة بين مغادرتي البيت الأبيض وما أنا عليه اليوم، أشعر أن هنالك أموراً كان الضمير يوجب عليّ كأم وكجدة أن أنتبه لها فلا أبتهج بالعبارات الطنانة الرنانة يقولها زوجي الذي هو حماك بعد أن يقال له بأن الطائرات التي أعطاها الأوامر بالعردة في سماء الآخرين لتقصفت وتدّمّر وتتشر الخراب قد حققت أهدافها وبأن الصواريخ التي أمر بإطلاقها على بعض

الأهداف ربما بغرض الإختبار أو بمتعة الإبادة أصابت الهدف المرسوم بدقة بدليل أن هذا الصاروخ كان أكثر قدرة من الفيل الذي يصعب إدخاله من ثقب الإبرة على نحو ما يلخص التعبير الشعبي مثل هذا الوصف على المستحيلات. فقد نجحت الصواريخ التي أمر حماك بتوجيهها في وقت كنت في غرفة ثانية أنتظر وصوله لكي أتناول الطعام معه، في أن تخرق مدخنة في ملجأ العامرية. ويا لندمي لأنني شاركتة الإبتهاج بعدما أخبرني بأن كل الذين كانوا في الملجأ من أطفال ونساء وعجائز وحوامل ومعاقين مختبئين من نيران قصف طائراتنا وطائرات بعض حلفائنا، قد أبيدوا. وكان الأجدر بي أن أصرخ صرخة أم هلعاً على ابنها أو إبنيتها وأنتحب نحب جدة على حفيدها أو حفيدتها بدل ذاك الإبتهاج المخجل، وأقول لحماك ما هذا الذي تفعله وماذا سيقول التاريخ عنك وهل هو موضع التباهي إرسال صاروخ إلى ملجأ يبيد بضع مئات من الأرواح البريئة. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إنني بعدما بثّ خارج البيت الأبيض تساءلت بيني وبين نفسي: كيف أمكنني وأمكنه تناول الطعام بعد هذا الذي حدث؟ لا بد أن الشر هو الذي إستحكم فينا. وكيف لم أردعه كأم وجدة عن مثل هذا الإجرام؟

ويا إبنتي إنه بعد الذي جرى لحماك وكيف أن الشعب الأميركي خذله في الإنتخابات فلم يجدد له الولاية شعرث أن الله يجازينا على ما فعله وما لم أفعله رداً على فعله. وللمحاسبة الإلهية أشكال تأتي من حيث لا نتوقع ولا ندري.

وليس صحيحاً أن السيدة الأولى لا تملك من القدرات ما يجعل الرئيس يتنبه أو يترث. إنها لا تملك السلطة وليس في يدها القرار ولكنها زوجة وسيلوذ الرئيس إلى مخدتها وإلى صدرها وإلى مائدتها وإلى جلستها أو إلى أحد هذه الملاذات، وتلك مناسبة لكي تقول له ما تراه غير صحيح وتنشيه عن أمر هو على أهبة الإقدام عليه، وتلومه لأنه على الأقل كان من الأفضل أن يشاورها وهي بطبيعة الحال لن تتصح بما لا يفيد أو يكون السبب في غضب الله عليه.

كذلك ليس صحيحاً يا إبنتي أن كلام المستشارين والملتقين حول الرئيس يكفي وأن كلام السيدة الأولى لا فائدة منه. فالمستشارون يا إبنتي كما أظهرت لنا تجارب أهل الحكم في بلادنا حاذقون من دون عاطفة أو مندفعون من دون ضمير، وفي الحاليتين إنهم يلتقون على الرئيس بينما العاطفة عند السيدة الأولى

يجيز لرئيس الدولة الأعظم أن يضع النهاية السعيدة. لكنها هي الأخرى لم تفعل مع فارق إنني حريصة على زوجي بينما هي إمّا تريد أن يحترق زوجها كالفراشة انتقاماً من إهانة التحرش الجنسي الذي لوّث بها كبرياءها وإمّا لأنها مأكرة وربما تترك مثل هذه الخطوة للمستقبل تحققها عندما - على نحو ما هي تطلعاتها - تصبح هي رئيس البيت الأبيض. ومن الآن وحتى ذلك الحين ستشغل الناس بمذكراتها وبتصريحاتها وأحاديثها ولن تلوم الإسرائيليين على حرب الإبادة ضد الشعب الفلسطيني. أما زوجها الذي لم تحرك واقعة محمد الدرة مشاعره كأب مثلاً لم تحرك الواقعة مشاعر زوجته كأم فإنه إنتقل إلى الهامش يداوي جلده من التقرحات السرطانية، وربما تكون مثل هذه المداواة نافعة، لكنها لن تكون نافعة على الإطلاق لإنسان كان في قمة السلطة ولم تحرك تلك الواقعة وغيرها مشاعره مثلاً لم تحرك محرقة ملجأ العامرية مشاعري ومشاعر حماك (الرئيس الأسبق جورج بوش) وبذلك بتنا كلنا في مركب قلة الضمير متشابهين مع مشاعر نانسي ريغان التي إبتهجت بأن زوجها الرئيس الأسبق رونالد ريغان (الغائب عن الحياة الطبيعية منذ سنوات بسبب الخرف الذي أصابه) جاء يؤكد لها أن النجاح الذي حقّقه الطائرات الأميركية التي قصفت مواقع محددة في طرابلس كان منقطع النظير بدليل ان إبنة معمر القذافي (المتبناة) كانت بين ضحايا العدوان. يا لعظمة هذا «الرامبو» اللعين الذي عاقبه الله سبحانه وتعالى بالخرف على شر أفعاله.

إن كلاماً كثيراً يمكن أن أقوله يا إبنتي في شأن ما إقترفه أسياذ البيت الأبيض في حق العرب والمسلمين من جرائم يندى لها الجبين، ضمن حجج وتبريرات واهية خلاصتها إننا حريصون عليهم. وكل ذلك حدث من دون أن تكون لسيدة البيت الأبيض نصيحة تسديها أو رأي تبديه أو حتى ملاحظة تسجلها. ولذا حاولي يا إبنتي أن تتلافي أخطاء سيدات البيت الأبيض السابقات وأنا منهن. وبالذات إياك أن تبتهجي لأن طائراتنا تقصف دياراً عربية وقواتنا تستضيف نفسها على أراضٍ في تلك الديار وحاملات طائراتنا تمخر عباب مياه ليست لنا ولأن أصدقاءنا الإسرائيليين يمعنون قصصاً وقتلاً وسحلاً بأبناء الشعب الفلسطيني معتمدين على سلاحنا وأموالنا وخذلاننا وكرامتنا المرتهنة للصهيونية. ولا تفعلي كما كنا نفعل... كي لا تلاحقك في نومك كوابيس وصرخات أطفال أحرقتهم

هي الأساس والضمير عندها ليس غائباً ولا مستتراً. ومعنى ذلك أنها مخلصّة في الرأي الذي تبديه أو النصيحة التي تنطق بها عن حرص. والرئيس في أشد الحاجة إلى النصيحة الأخيرة يسمعها قبل أن يتخذ أي قرار. وحتى إذا هو سمعها من السيدة الأولى ولم يأخذ بها فعلى الأقل يكون عندما يخلد بينه وبين نفسه إلى بعض المحاسبة والنقد الذاتي يقول إن الزوجة (هنا هي باربرا) كانت على حق وهذا سيجعله يستمع إلى الرأي أو النصيحة في المرة المقبلة بغرض الأخذ بها، هذا إذا كان لن يطلب هو هذا الرأي أو تلك النصيحة. ومن هنا يا إبنتي لا تفعلي ما أنا فعلته، ذلك أنني منذ أن غادرت البيت الأبيض وأنا في أشد الندم لأنني لم أميز بين الحلال والحرام وبين الواجب والجريمة وبين حق الدفاع وجنون العدوان، ولم أذرف الدمع كأم وكجدة على أطفال أماتهم حصار حماك لبلادهم أو نساء وعجائز أنك الجوع وندرة الدواء بنيتمهم. ولم يخفف من قلقي وعذابي وتأنيب ضميري هذا سوى هيلاري كلينتون التي كانت تزايد على ما يقرره زوجها وتتفخ في نار ضلاله بدلاً من أن تسدي النصيحة أو تبدي الرأي. وما فعلته هيلاري واضح، ذلك أنها كانت تعيش كشريكة في الحكم أكثر من أن تعيش كشريكة في مخدة الزوجية ومن أجل ذلك تجاوزت خطيئة التحرش الجنسي الذي بات زوجها رمزاً له. وعندما قطعت ثلاثة أرباع الطريق بوصولها إلى مجلس الشيوخ باتت مفهومة تصرفاتها وردات الفعل عندها. وبات مفهوماً أيضاً أن مثل هكذا زوجة لا يمكن أن تسدي النصيحة ولا تبدي الرأي إلا في ما يخدم طموحها وتطلعاتها. وهي لو كانت غير ذلك لما ترددت في إسداء النصيحة إلى زوجها لكي يصحح مع الشعب العراقي ما إقترفه حماك من أخطار في حقه وما تسبّب به من ويلات للألوف ولكي يوقف (أي كلينتون) هذا التلاعب بالفلسطينيين بعد كل التنازلات التي قدّمها له عن طريق المتلاعبة جامعة «البروشات» مادلين أولبرايت، الرئيس ياسر عرفات وبطانة أوصلو. ولكانت بعد واقعة إستشهاد الفتى محمد الدرة وعشرات العمليات النازية المنطلقات من جانب قوات الاحتلال وقطعان المستوطنين قالت له ما معناه إنه إذا كنت تريد مكاناً لك في التاريخ فهذه فرصتك وتلك هي اللحظة التي قد لا تتكرر فإتكل على الله وأطرح على بساط التنفيذ بقوة سلطانك الحل النهائي للصراع العربي - الإسرائيلي الذي بلغ من النضوج ما

صواريخنا وهم في الملجأ وقتية أصابهم رصاص وفُرناءه للإسرائيليين، ونحيب فلسطينيات وعراقيات على الضنى الذين ماتوا من الجوع أو المرض، وإستغاثة عجائز أحرق الإسرائيليون لهم حقولهم وشجيرات زيتونهم وتينهم وبرتقالهم ودمروا لهم بيوتهم بجرافات. وبأسلحة من مصانعنا أنتجتها هذه المصانع بأموال ذات أصول عربية. ويا إبنتي إذا كنت لن تصرخي معترضة على الظلم والعدوان والتجبر فعلى الأقل إياك والإبتهاج، وتذكّري أن لك إبنتين وهو ما لم أتذكره لا أنا ولا هيلاري ولا اللواتي أوصلتهن الظروف إلى البيت الأبيض. وهذا لم يكن مجرد خطأ من جانبنا ومن جانبي بالذات... وإنما هي الخطيئة التي لا غفران لها والتي لا ينفع فيها حتى الإقرار بالذنب أمام الكهنة في ركن الإعتراف في الكنائس.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 21 يناير (كانون الثاني) 2001

* * *

تسليفات مصرية وإيرانية...

لديون لبنانية

عندما يبادر الرئيس حسني مبارك إلى مساعدة لبنان من خلال إعادة تأهيل «محطة الجمهور» الكهربائية (وهي محطة إستراتيجية على صعيد إنارة لبنان) فلأنه محب للبنان ويعرف مدى الآثار النفسية والمادية للعدوان الإسرائيلي وبالذات على المنشآت المدنية والمدارس ومحطات الكهرباء، وهو يعرف ذلك منذ أن كان ضابطاً خلال حرب الإستنزاف على الجبهة المصرية ثم بعدما بات قائداً للسلاح الجوي إلى أن دخل معترك العمل السياسي الرسمي نائباً لرئيس الجمهورية تقديراً لشجاعته ومكافأة له على نجاحه في الضربة الجوية الأولى التي أصابت بالهلع القوات الإسرائيلية على الضفة المحتلة من قناة السويس.

والى ذلك إن الرئيس مبارك عندما يتخذ قرار المساعدة بعدما سبق أن قام بزيارة خاطفة للبنان كان لها أبلغ الأثر في المعنويات اللبنانية، فإنه بذلك كان يبعث - إذا جاز القول - برسالة إستكار للإسرائيليين خلاصتها أن معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل لا تعني أن تكون مصر متفرجة على لبنان، وعلى أي

بلد عربي شقيق، في حال تعرّضه لعدوان. وهناك أيضاً المشاعر الدفينة في نفوس المصريين نحو لبنان واللبنانيين، وكيف أن هذا البلد الصغير كان على مدى أكثر من أربعة عقود كبيراً في وقفاته إلى جانب مصر. بل إنه كان في العام 1956 زمن العدوان الثلاثي على مصر بمثابة خط المواجهة السياسية الأولى للدفاع عن مصر منذ بدء العدوان. وليس مثل زميلنا في صفحات الرأي باسم الجسر من عاش تلك المرحلة بقلمه ومشاعره، حيث كان موقعه الصف الامامي في خط المواجهة الاعلامية المناصرة لمصر ضد ذلك العدوان.

وكان لبنان في زمن الانفصال المضيف السخي بعاطفته وحسن وفادة شعبه للأشقاء المصريين الذين رماهم الإنفصاليون على الحدود من دون أن يفتن هؤلاء إلى أن التاريخ لن يرحم فعلتهم تلك.

وأكثر من ذلك إن لبنان كان إحدى أوراق العمق الشعبي التي دعمت شأن الرئيس جمال عبد الناصر وبحيث إنه كان يخوض معاركه السياسية معتمداً على الورقة اللبنانية بالذات، وذلك للخصوصية التي يتميز بها هذا البلد وهو أنه موضع اهتمام دول العالم من أميركا إلى أوروبا مروراً بالإتحاد السوفياتي، ولأن لبنان هو الساحة الإعلامية لمن يريد أن يخوض معارك على نحو ما فعل عبد الناصر.

وحتى بعدما أبرم الرئيس أنور السادات معاهدة سلام مع إسرائيل إستمرت مصر تأخذ في القلب اللبناني موقع الصدارة وإن كان الغضب على رئيسها بلغ مداه وكانت خيبة الأمل بما فعله كبيرة جداً. هذا فضلاً عن أن لبنان استقبل ويواصل إستقبال ألوف المصريين للعمل ومن دون أن يتبرم أو يضيق بوجودهم.

ومن هنا فإن مصر عندما تساعد لبنان على إعادة تأهيل «محطة كهرباء الجمهور» فإنها بذلك كمن تقول للبنانيين: إنكم لم تقصروا ونحن لا ننسى. أو إن مصر ترد على التحية بمثلها وبأحسن منها في الوقت المناسب.

وما يقال عن مصر، يقال أيضاً عن إيران. فلبنان من خلال جنوبه وبقاعه وضاحيته هو العمق الشعبي الرئيسي للثورة الإيرانية. وللمرء أن يتصور حال هذه الثورة لولا وجود هذا العمق الذي هو بمثابة الرئة للثورة الإيرانية من جهة، وإحدى أبرز أوراق المواجهة التي تخوضها هذه الثورة ضد خصومها وأيضاً ضد

بـنصف مليار دولار كانت هدية للبنان لا نعتقد أنه سيتم التعامل معها ضمن مبدأ الإسترداد. كما أن المناسبة للقيام بالزيارة بهدف طلب المساعدة كانت جاهزة أكثر من أي وقت مضى. فالإحتلال الإسرائيلي للجنوب أزيل وبفعل ضربات المقاومة الفاعلة تساندها الدولة من خلال إعتبار هذه المقاومة أنها شبه رسمية. وبعد الإحتلال بات لا بد من تضميد الجراح وإعادة إعمار ما دمره العدوان الإسرائيلي تماماً على نحو إعادة الإعمار التي شهدتها المدن المصرية على ضفة قناة السويس وبالذات بور سعيد والإسماعيلية. كذلك لا بد من إعادة الألوف من أبناء قرى الجنوب إلى بيوتهم، وهذا يتطلب أموالاً لا قدرة للدولة على تأمينها. ومع أنه كان لافتاً توضيح الرئيس الحريري بأن المساعدة الإيرانية لن تكون للجنوب فقط، فإنها عملياً للجنوب والجنوبيين، ذلك أن الذي أصاب الجنوب من تهجير وتدمير جرّاء الإعتداءات الإسرائيلية اليومية هو في بعض جوانبه مسؤولية إيرانية. ولا نظن أن الثورة الإيرانية في حاجة إلى مثل هذا الإقناع بأمر هو من البدهيات، فضلاً عن أنها إذا كانت لن تساعد على مرحلة التعمير وإعادة البناء فإنها ستخسر، كما الثورة الفلسطينية من قبل، زخماً شعبياً جنوبياً لها هي في أشد الحاجة إليه حتى بعدما لم يعد تصدير الثورة هو الهاجس أو القضية.

ومن الجائز القول إن مسألة تطبيع المشاعر، وهو بأهمية تطبيع العلاقات مع الثورة الإيرانية، ليست مسألة مستحيلة. وفي ضوء تجربة التطبيع التي قام بها ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز وبموجبها انتقلت العلاقة السعودية - الإيرانية من أقصى التوتر إلى أفضل حالات الإنسجام، يمكن القول إن أسلوب التخاطب هو الذي يشكل العنصر الأكثر أهمية في هذا التطبيع. ومن هنا فإن الرئيس الحريري إستأنس بأسلوب الأمير عبدالله وأفاده هذا الاستئناس بدليل أنه لم يعامل خلال زيارته فقط على أنه رئيس السلطة التنفيذية في لبنان وإنما عومل على أساس أنه أحد الأرقام الصعبة في التركيبة اللبنانية وعلى أنه الرمز السياسي لطائفته وأيضاً على أساس حضوره العربي وبالذات الخليجي. وهذا التعامل معه من شأنه أن يتطور وبحيث أنه عندما سيعيد الرئيس الحريري تشكيل الحكومة فإن «حزب الله» لا بد أن يكون مشاركاً في الحكومة الثانية في عهد الرئيس إميل لحود، خصوصاً أن عدم مشاركة الحزب في

حسادها. ومن دون هذا العمق كانت ستبدو من دون حضور فاعل في الصراع العربي - الإسرائيلي، كما أنها بهذا العمق وضعت نفسها على خارطة هذا الصراع وباتت تحمل أحد الأرقام الأكثر صعوبة فيه. وإلى ذلك إن الدور الذي قام به «حزب الله» والمقاومة الشجاعة ضد الإحتلال الإسرائيلي التي ارتبطت باسم الحزب ومقاتليه والذي ما كان ليحدث لولا دعم إيران، كان أكثر عمليات التوظيف الثوري لإيران خارج حدودها. بل قد يجوز القول إن لبنان هو البلد الوحيد في المنطقة الذي حقق الطموح الإيراني في تصدير الثورة وأن أي تكلفة مقابل ذلك لا تبدو باهظة إزاء الشأن الذي بات لإيران.

ومع أن طبيعة الدور الإيراني متمثلاً في المقاومة الجدية والفاعلة التي قام بها مقاتلو «حزب الله» كانت من النوع الذي لا يلقى الاعتراض أو التحفظ، إلا أن تسليم لبنان الرسمي وبالذات من خلال الرئاسةتين الأولى والثالثة فيه أعطى الثورة الإيرانية أهمية إضافية بحيث أن الحضور الإيراني في العمل الوطني اللبناني بشقيه الرسمي والشعبي لم يعد مجرد أمر واقع وإنما حالة قبول وعن اقتناع عدا تحفظات خجولة في بعض الأحيان من جانب بعض المقامات الروحية والسياسية. ومن هنا فإنه عندما يقوم رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري بزيارة إيران يوم السبت 13 يناير (كانون الثاني) الجاري وتتم الزيارة عشية اذاعة مشروع الموازنة السنوية المثقلة بعجز 51 في المائة وفي أكثر الأزمات صعوبة في الوضع اللبناني بشقيه السياسي والمعيشي الإجتماعي ويلقى الرئيس الحريري من أهل الحكم الثوري في إيران بجناحيهم (المحافظ متمثلاً في شخص المرشد علي خامنئي والليبرالي متمثلاً في شخص الرئيس خاتمي الذي يختزن أحلى الذكريات عن لبنان) الإهتمام اللافت للإنتباه. وتنتهي الزيارة بقرار إيراني بالمساعدة على إعادة إعمار لبنان وخصوصاً الجنوب.. إنه عندما يحدث ذلك فهذا معناه أن الثورة الإيرانية كانت في إنتظار المناسبة التي تساعد فيها لبنان وكانت أيضاً في انتظار أن يطلب لبنان الرسمي وبالذات الرئاسة الثالثة فيه المساعدة. ويبدو أن هذا ما إستوعبه الرئيس الحريري قبل أن يقرر القيام بزيارة رسمية إلى إيران ربما ستكون من أقصر الزيارات ذات الجدوى للخزينة اللبنانية بعد تلك الزيارة التي قام بها إلى المملكة العربية السعودية (في عهد الرئيس اليااس الهراوي) وجنى لبنان منها وديعة

الحكومة الحالية مكتفياً بدور الراصد والمراقب والمتحفز كان لافتاً وكان مؤشراً إلى أن الحزب الذي هو الأقوى في الطائفة الشيعية يفضل التغريد خارج السرب الحاكم، إنما من دون أن يكون تغريده من النوع الذي يُربك أو يُقلق.. على الأقل في المرحلة الراهنة.

ويبقى أن المساعدة الإيرانية التي يتمنى الرئيس الحريري ألا يكون مصيرها مثل مصير المساعدة العربية للانتفاضة التي تقرر في القمة الإستثنائية في القاهرة والتي لم تصل بعد إلى أصحابها، من شأنها أن تجعل أطرافاً عربية ودولية تتحمس إلى مساعدة لبنان وخصوصاً إذا جاءت المساعدة الإيرانية على قدر الحرص على بقاء لبنان نقطة ارتكاز إستراتيجية للحكم الثوري في إيران أو جاءت على قدر محبة بعد أهل هذا الحكم للبنان، أو جاءت بحجم المساعدة التي لم يتأخر في تقديمها ومن دون تباطؤ أو إختزال للمقاومة في لبنان. ومن هنا يصبح الافتراض جائزاً بأن زيارة الحريري لإيران تتدرج تحت بند التكتيك وليس ذات منطلقات إستراتيجية. ونقول ذلك مع الأخذ في الاعتبار أن المساعدة الإيرانية للجنوب والجنوبيين هي تسديد ديون على الثورة الإيرانية شأنها شأن الديون التي للبنان واللبنانيين على مصر طوال سنوات بدءاً من العدوان الثلاثي عام 1956 وحتى تداعيات هزيمة يونيو 1967. وفي العرف السائد إن الدنيا دَيْنٌ وسَلَفٌ كما يقول المثل الشائع وإن المدين يسدد ما عليه من ديون... ولو بعد حين.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 24 يناير (كانون الثاني) 2001

* * *

جنرالا السلام... على العرب

حدث في أيام ترؤس سيئ الذكر بنيامين نتنياهو الحكومة الإسرائيلية أن الرئيس حسني مبارك والملك (الراحل) حسين والملك (الراحل) الحسن الثاني بدأوا يضيقون بالاعيب نتنياهو وبالذات من المفردات التي كان يستعملها عندما يتناول في حديثه العملية السلمية. وفي أكثر من مرة بلغ الضيق درجة عدم القدرة على التحمل، حتى أن الملك الحسن الثاني الذي كان عملياً أكثر القادة العرب تشجيعاً للسلام بين العرب وإسرائيل قرر عدم التعاطي مع نتنياهو وقرر أيضاً عدم

إستقبال أي مسؤول إسرائيلي في المغرب.

ولقد إستفاد حزب العمل وبالذات رئيس هذا الحزب شيمون بيريز (كان نتنياهو هزمه في الإنتخابات وانتزع بالتالي رئاسة الحكومة منه) الذي إخترق الأبواب العربية المقفلة في وجه نتنياهو، علماً بأن بيريز كان إقترب مذبحه قانا الشهيرة وفي إعتقاده أنها ستحقق له الفوز في الإنتخابات.

ولقد أفاد إختراق حزب العمل للأبواب العربية في أن الحزب إستعاد الحكم من نتنياهو. وعزز بيريز شأنه لدى الجانب العربي وبالذات لدى الحسن الثاني الذي أضفى بعداً حميمياً على العلاقة عندما بدأ يستقبل بيريز كصديق ترافقه عائلته في زيارته إلى المغرب. كما أن بيريز من خلال هذا الشأن والمكانة له في نفس من يترأس لجنة القدس (أي الحسن الثاني) نجح في أن يدخل قلوب حكام آخرين فكان الإنفاق مع عدد منهم على التطبيع الأولي من خلال مكاتب التمثيل التجاري.

بعد سقوط نتنياهو وفوز باراك إستبشر عرب التسوية بدءاً من مصر مروراً بالأردن والسلطة الوطنية الفلسطينية وصولاً إلى قطر وتونس وسلطنة عُمان والمغرب فموريتانيا، خيراً بفوز باراك الذي كان إستوقفهم حرصه في صيف العام 1996 (أيام كان يمني النفس برئاسة الحكومة ويهيئ نفسه لخوض غمار الرئاسة) على إنتقاد أسلوب نتنياهو وكيف أنه ينظر إلى العرب من فوق مع أن المطلوب - والكلام لباراك - هو التعامل مع العرب بإحترام إذا كانت إسرائيل تريد خلق أجواء الثقة. كما استوقفهم أيضاً كلامه الطيب عن القيادة السورية وإعجابه على مدى عشرين سنة بالرئيس حافظ الأسد الذي على حد تقييمه له «يتمتع بشخصية حاسمة في سوريا وبقوة التنسيق اللوجستي ويسهر بوضوح على مصالح سوريا ومن المستحيل خداعه بالشعارات...».

بعد فوز باراك سادت موجة من الإرتياح في صفوف بعض القادة العرب الذين شعروا بأن الإنفراج سيحدث مع هذا الرجل وأن بنيان التسوية غير المكتمل سيصمد ولن يتبعثر أو تهتز أساساته على نحو ما كان نتنياهو يخطط. وإعتبر هؤلاء أن باراك، الذي طالما أطلق التصريحات التفاؤلية عندما كان وزيراً للخارجية في حكومة شيمون بيريز، سيكون من الوداعة بحيث يزيل آثار الإمتعاض العربي الشامل من نتنياهو، وشيئاً فشيئاً تجد الإشكالات العالقة حلولاً لها

ويكون العام 2000 هو عام السلام العربي - الإسرائيلي. وإستند هؤلاء في تفاؤلهم هذا إلى أن باراك هو ابن المؤسسة العسكرية فضلاً عن أنه شغل قبل رئاسة الأركان منصب رئيس جهاز المخابرات ومن هنا فإنه مدعوم من المؤسسة التي حافظت على الكيان (المغتصب) طوال حوالي نصف قرن. من هنا أيضاً أن الخوف الذي يتحكم في نفس نتتياهو (لأنه من المدنيين وليس له تاريخ عسكري ومن أجل ذلك يتطرف لكي يبدو وكما لو أنه جنرال بشكيمة صقر) لا أثر له في نفس باراك الجنرال الذي كان له شأنه داخل المؤسسة العسكرية. وكان في اعتقاد بعض القادة العرب الذين يتأثرون نسبياً بتطبيقات مستشاريهم أنه عندما يكون باراك آتياً من المؤسسة العسكرية ويكون تاريخه العدواني على العرب (البطولي في نظر بني قومه وربما في نظر الإدارة الأميركية) حافلاً بالإغتيالات في جنح الظلام وبالنياشين، وفي الوقت نفسه يتحدث بلغة الحمايم وينشد التعامل باحترام مع العرب... إنه عندما تكون الحال على هذا النحو فهذا مؤشر إلى أن الرجل يمكن أن يصنع سلاماً مثالياً ويكمل بأمانة ما بدأه الجنرال الآخر إسحق رابين. وهذا الإعتقاد لم يأخذ في الإعتبار أن باراك يمكن أن يكون محتالاً لا سيما أنه إعتد أسلوب التحايل عندما إغتال بنفسه القادة الفلسطينيين في بيروت (يوسف النجار وكمال ناصر وكمال عدوان) حيث أنه تنكّر بثياب امرأة ونفذ ذلك الهجوم.

بعدما بات باراك في الحكم بدأ الريش الناعم الملمس في «الحمامة المسالمة» يتبدل بالريش الأكثر خشونة وتبدلت إبتسامة الرجل فلم تعد توهي بالطمأنينة وإنما باتت على درجة من المكر. وخلال أيام بات بعض قادة عرب التسوية يرون أمامهم شخصاً جديداً له جسم باراك وعقل نتتياهو وبات يعتمد الظهور في الصور عندما يلتقي بالفلسطينيين أو خلال زيارته إلى الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية بمظهر من يعيش في العلياء التي طالما إنتقد نتتياهو بسبب هذا العيش. ثم بات يقلل من الوعود ويكثر من التحايل. وبات أيضاً لا يلتزم بإتفاق حتى إذا كان هو سعى إليه وتم إبرامه في واشنطن أو غيرها. وانقلب الرجل على نفسه وإستدار عليها، أو بالأحرى انه لم ينقلب ولا حدثت الإستدارة، وإنما كان في الوقت الذي ساد إعتقاد بعض القادة العرب بأن هذا الجنرال هو من نسيج بعض الجنرالات العرب

الذين باتوا في الحكم والذين يلتزمون بما يتعهدون به، يمثل ويتحايل بدليل أن كل ما فعله بعدما بات في الحكم كان يؤكد مسألة التمثيل والتحايل.

الآن لا مجال أمام بعض القادة العرب سوى إعادة النظر في موضوع العملية السلمية، ذلك أن الإثنين اللذين يخوضان سباق الرئاسة هما الجنرالان ارييل شارون وإيهودا باراك. الأول لا سبيل للأخذ والرد معه لأن تاريخه لا يشجع على التعامل مع جنرال هدفه إذلال العرب ورمي الفلسطينيين خارج أسوار «مملكة إسرائيل». وهذا معناه أنه لا مجال للثأر من باراك بفتح الأبواب أمام شارون على نحو ما جرى فتح هذه الأبواب أمام باراك ثأراً من نتتياهو الذي تسببت أفعاله كما أردنا ملامحها في مقاطعته وكيف أن المقاطعة شملت حتى الملك الحسن الثاني على رغم حماسة العاهل المغربي الراحل للسلام العربي . الإسرائيلي.

أما الجنرال الثاني (أي باراك) فلا يمكن بعد الخداع الذي إعتد به نهجاً للتعامل مع مخطط التسوية والإحراج الذي تسبب به لزعماء عرب كثيرين، الوثوق به إذا كان هو الفائز. وأما إذا هو لم يفز فإنه من غير المعقول الإهتمام به وفتح بعض الأبواب العربية أمامه كبديل لمقاطعة شارون على نحو مقاطعة بعض القادة العرب لنتتياهو في الماضي.

وإزاء ذلك وفي حال أن إخواننا المفاوضين في السلطة الوطنية الفلسطينية لم يفاجئوا الأمة بإتفاق يبرمونه خلصة مع «أبناء عمومته» في حزب العمل على نحو الإتفاق الذي أبرمه الرئيس الراحل أنور السادات مع مناحيم بيغن... في هذه الحال لا بد من موقف عربي جديد لا يأخذ بصيغة المراهنة على زعامات معينة في إسرائيل ولا الكيد من جنرال إنتقاماً من مسلكية جنرال آخر، موقف يحافظ فيه القادة العرب على روحية قرارات القمة العربية الإستثنائية في القاهرة والقمة الإسلامية التاسعة في الدوحة وعلى النهج الذي لا بد من أن يتبلور في القمة العربية الأولى في سياق الإنعقاد الدوري والتي ستستضيفها العاصمة الأردنية الشهر المقبل. والقمة الثلاث كانت نتاج إنتفاضة الأقصى المستمرة والتي ستكون أكثر حيوية في حال وصل الدعم العربي الرسمي والشعبي إلى مستحقه الصابرين على الضيم الإسرائيلي الحالي من جانب العهد الباركي والأكثر صبراً على الضيم الذي يمكن أن يتسم به العهد الشاروني في حال سقط الجنرال باراك غير مأسوف عليه وفاز الجنرال شارون

غير مرحّب به، لأنّ الإثنين من طينة واحدة لا يعنيهما السلام مع العرب وإنما يتطلّعان إلى زمن يقال فيه: السلام... على العرب.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 31 يناير (ك) 2001

* * *

مفاهيم فرنسية منقوصة للإبادة

بعد سنتين من المثابرة، نجح اللوبي الأرمني في فرنسا، في إقناع البرلمان الفرنسي المعروف بتسمية «الجمعية الوطنية» ومجلس الشيوخ الفرنسي بـ «الإعتراف بعمليات الإبادة التي تعرّض لها الأرمن في تركيا عام 1915». ولقد أحدث الإعتراف الذي جرى يوم الخميس 18 يناير (كانون الثاني) الماضي، صدمة في نفوس أهل الحُكم التركي الذين توقعوا ألا تصدر مثل هذه الإدانة من جانب فرنسا لتركيا التي تتطلع إلى إكتساب هويتها الأوروبية الشاملة والانضمام إلى الإتحاد الأوروبي. كما أن الصدمة شملت أيضاً الرئيس جاك شيراك نفسه والحكومة الفرنسية التي يترأسها الاشتراكي ليونيل جوسبان، وكلاهما كان يرى إستبعاد إقرار المشروع تفادياً لتداعيات ستلي ذلك، وتملصاً من أمر قد ينظر إليه كثيرون على أنه سابقة، وما دام هو كذلك فلماذا لا تصدر عن المجلسين الفرنسيين (النواب والشيوخ) مستقبلاً اعترافات بادانات كثيرة، وعلى سبيل المثال إدانة فرنسا نفسها لأنها فعلت بالجزائريين ما فعله الأتراك بالأرمن لدى إنهيار الأمبراطورية العثمانية. كما أن مثل هذه السابقة تفسح في المجال أمام حق الفلسطينيين في الحصول من فرنسا على إعتراف بالإبادة الإسرائيلية المتقطعة لهم على مدى نصف قرن، خصوصاً أن الشواهد والوثائق كثيرة في هذا الشأن.

لا نظن أن حرص فرنسا على هذا الإنصاف المعنوي للأرمن، والذي يمهد الطريق إلى المطالبة بتعويضات مادية على نحو التعويضات التي تواصل ألمانيا دفعها لإسرائيل عن الادعاء بأن الحُكم النازي أباد أكثر من مليون يهودي في المحرقة، هو الدافع إلى إستصدار هذه الإدانة لتركيا من جانب إثنين من سلطات القرار في فرنسا، وإنما هي المماحكة السياسية

بين مراكز القوى من جهة والثقل الإنتخابي الأرمني من جهة أخرى. وبلغه الأرقام أن هنالك حوالي نصف مليون أرمني يعيشون في فرنسا التي قديموا إليها على ثلاث موجات، الأولى قبل حوالي ثلاثمئة سنة والثالثة والأخيرة حدثت قبل حوالي ثلاثين سنة وكان سببها الإضطرابات في بعض دول منطقة الشرق الأوسط وبالذات لبنان والعراق وإيران. لكن الموجة الثانية من الهجرة الأرمنية إلى فرنسا التي حدثت في أعقاب المحنة التي عاشها الأرمن في تركيا عام 1915، كانت هي الأكثر أهمية، ذلك أن أفراد هذه الموجة وبالذات صغار السن بينهم، حملوا معهم بذرة الإبادة فصارت تنمو شيئاً فشيئاً مع الوقت وباتت إذا جاز القول، رمز المحنة الأرمنية، فضلاً عن أن إكتساب هؤلاء القادمين الجنسية الفرنسية حق للأرمن مع الوقت حضوراً مهماً داخل فرنسا، يشبه في بعض جوانبه حضورهم في لبنان حيث بات لهم نواب في البرلمان ووزير أو إثنان في كل حكومة يجري تشكيلها. وفي فرنسا الآن نائبان أرمنيان يتصدران اللوبي الأرمني الذي نجح بفضل المثابرة واللعب على التناقضات في أوساط العاملين في حقل السياسة في فرنسا، في إستصدار الإعتراف الذي له فُعل إدانة تركيا.

وعند الحديث عن التناقضات والمماحكة والصراعات التي تحدث، وبالذات في مواسم الإنتخابات النيابية والرئاسية، لا بد من الإشارة إلى أن هذا الكم الملحوظ من الأرمن في فرنسا يثير لعاب أي مرشح للإنتخابات الرئاسية وبالذات عندما تبلغ حمى المعركة درجة الخطر على نحو ما حدث في السباق بين شيراك وجوسبان قبل سنوات، ثم على نحو ما جرى في الولايات المتحدة قبل بضعة أسابيع بين الثنائي الجمهوري جورج بوش الابن - ديك تشيني، والثنائي الديمقراطي آل جور - جوزف ليبرمان، وإنتهى السباق الذي كان أشبه بمباراة ملاكمة، لمصلحة الأول. ومن هنا يجوز القول ان إعتراف مجلسي النواب والشيوخ الفرنسيين بـ «إبادة الأرمن في تركيا» كان جزءاً من لعبة صراع مراكز القوى، وأن حرص كل من الرئيسين شيراك وجوسبان (الأول يطمح إلى تجديد رئاسته للجمهورية والثاني يتطلع إلى معاودة تجربة حظه في الفوز بهذه الرئاسة) على القبول مكرهين بهذه الخطوة من مجلسي النواب والشيوخ، هو من باب الحرص على عدم فقدان تأييد اللوبي الأرمني في معركة من

شأن بضعة ألوف من الأصوات أن تحسمها. أليس هذا ما فعله الألف صوت في مصير الثنائي الديمقراطي في الولايات المتحدة؟

ورثمة مفارقة لا بد من التوقف عندها وهي عامل الدين الذي جعل نواب فرنسا وشيوخها ينتصرون للأرمن ضد تركيا وجعل رئيس الجمهورية جاك شيراك ورئيس الحكومة ليونيل جوسبان يرتضيان الأمر الواقع. فالأرمن مسيحيون وتركيا دولة مسلمة وإن كان النظام فيها يحاول جاهداً تغريب نفسه. وفي ضوء ذلك يصبح من الطبيعي أن تكون العاطفة الفرنسية المسيحية مشدودة إلى الطرف المسيحي الذي هو الأرمن، ويصبح من الطبيعي حسم أمر الإعراف بالابادة والمؤجل منذ تقديم المشروع في شأنه ومن جانب النواب الاشتراكيين في 29 مايو (أيار) 1998، ربما رداً على التيار الأصولي المتنامي في تركيا والذي أمكنه تأمين وضع نجم الدين أربكان في موقع رئيس الحكومة.

من المؤكد أن هذه الخطوة الفرنسية ستتسبب في أزمة من النوع الكثير التعقيد بين فرنسا وتركيا وإن كان مشروع القانون الذي تضمن الإعراف بالابادة أخذ في الإعتبار أن تركيا القديمة (أواخر الأمبراطورية العثمانية) هي التي تتحمل وزر هذه الابادة وليست تركيا الحديثة (تركيا أتاتورك). وقد يكون إنفجار الأزمة مدوياً بعدما وضع الرئيس شيراك توقيعته على مشروع القانون يوم الاثنين الماضي. أما تداعيات الأزمة فإنها غير واضحة المعالم وإن كانت في معظمها سبباً على الرفض المطلق للإعراف الفرنسي، ذلك أن معنى القبول أن تركيا ستجد نفسها أسيرة التعويضات التي لا نهاية لها، فضلاً عن أن التسليم بما أرادته فرنسا معناه أن يتوقع النظام في تركيا إعرافاً لاحقاً يتعلق بابادة الأكراد وإن كان ذلك مستبعداً لأن الأكراد مسلمون وهؤلاء في نظر نواب فرنسا وشيوخها ليسوا قضية، وأن تركيا تستطيع خوض المطاردات ضدهم وأيضاً في أراضي الغير إن هي أرادت ذلك وحتى آخر كردي، وأن مناصرة هؤلاء لا تتجاوز ما فعلته في السابق السيدة دانييل زوجة الرئيس الراحل فرنسوا ميتران التي بدت في إهتماماتها الكردية لبضع سنوات وكما لو أنها كردية أكثر من الأكراد.

ونعود إلى النقطة التي وردت في مطلع هذا المقال لنقول ان الخطوة الفرنسية تحتاج إلى المصادقية ولن تكتسبها إلا في حال سمعنا أن المجلسين (مجلس

النواب ومجلس الشيوخ) في فرنسا أقر مشروع قانون يتعلق بابادة فرنسا للجزائريين وإبادة إسرائيل المتواصلة للفلسطينيين. وهو ما لا يمكن أن يحصل إلا إذا فوجئنا ذات يوم بصحوة ضمير فرنسية يؤكد فيها نواب فرنسا وشيوخها أنهم حريصون بالفعل على حقوق الإنسان وعلى تنظيف تاريخ القرن العشرين من حالات الظلم والإبادة وانتهاك حقوق الشعوب وسلب الأوطان، وأنهم في ذلك لا يميزون بين قضية وأخرى، كما أنهم في سبيل ذلك لا يتورعون عن إدانة من تجب إدانته... حتى إذا كان الطرف الواجبة إدانته هو فرنسا وإسرائيل.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 7 فبراير (شباط) 2001

* * *

«لجنة الإنتفاضة»...

من جاكارتا إلى نواكشوط

هذان رمزان آخران من الرموز العربية والإسلامية الذين أغواهم شيمون بيريز وزين لهم مكاسب التطبيع مع إسرائيل، يصابان بما يجوز تسميته «لجنة الإنتفاضة».

الأول هو الرئيس الأندونيسي عبد الرحمن واحد، الذي ما أن تساقط حكم سوهارتو لكثرة الفساد الذي إستشرى في البلاد وتقاسم مغانمه الأبناء وحلقات الحاشية السوهارتية حلقة بعد حلقة وبعض القادة العسكريين، حتى وجد الشعب الأندونيسي، الموزع على آلاف الجزر تتشكل منها خارطة البلاد، في هذا الشخص المتدين أنه الرجل المناسب في الزمن المناسب وأنه مقبول حتى رغم إعتلال صحته وضعف نظره.

وتربع الرجل في المنصب الأول وبدأ يكثر من الإطراء لإسرائيل التي تبين أنه زارها من قبل، ثم إتسعت لهجة الإطراء حيث بدأ يدعو إلى تطبيع العلاقة معها مستنداً في ذلك إلى أن هنالك بعض الدول العربية أقامت علاقات مع إسرائيل، وأن هنالك دولاً أخرى إفتتحت مكاتب للتمثيل التجاري معها، وأن هنالك دولاً تفكر جدياً في تطبيع العلاقات مع إسرائيل. كذلك إستند الرئيس الأندونيسي إلى الحالة التركية حيث العلاقات بين أحفاد أتاتورك وأحفاد هيرتزل وبن

غوريون باتت إستراتيجية، وإلى درجة أن التعاون العسكري بينهما وصل إلى حد القيام بالمناورات المشتركة والتنسيق في مجال التصنيع العسكري.

وكانت توجهات الرئيس الأندونيسي الجديد من النوع الذي أحدث صدمة في النفوس العربية والإسلامية، وذلك على أساس أنه إذا كان هذا المتدين يتصرف على هذا النحو تجاه إسرائيل، ولا يعير اهتماماً لأمر غير محسومة عربياً وإسلامياً، وبالذات ما يتعلق بالقدس والمسجد الأقصى، فكيف يلام من هم غير متدينين ومستعربين (نسبة إلى الغرب) إلى درجة يصعب التمييز بينهم وبين الأميركي أو الأوروبي في ما يتعلق بتفكيره ونظرته إلى الخطر الصهيوني.

كان الرئيس عبد الرحمن واحد في موضوع القدس والمسجد الأقصى ضعيف النظر أيضاً، وتبين أن علاقته الشخصية بإسرائيل وبصديقه شيمون بيريز قوية جداً، وأن دوره هو جعل العلاقة الرسمية بين أندونيسيا وإسرائيل بمثل علاقته الشخصية، وساعدته الولايات المتحدة من جانبها على ذلك لأن من شأن خطته فتح الثغرة الكبرى في الجدار الإسلامي المناهض للتطبيع مع إسرائيل من جانب بعض الدول، مثل باكستان، والرافض للإعتراف بإسرائيل، من جانب إيران على سبيل المثال. وعندما يضاعف الجدار الإسلامي بالنسبة إلى موضوع إسرائيل فإن الجبهة العربية المترددة في التطبيع أو المناهضة له ستتصدع في رأي المستشارين ذوي النيات الشريرة الذين إمتلأت بهم دهاليز الإدارة الأميركية السابقة، والذين ما زالت أفكارهم قائمة في الإدارة الجديدة التي لم تكتمل بعد عملية تنظيفها وإستبدال وجوها (الديمقراطية) بوجوه (جمهورية). وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لو كانت النظرة الأميركية إلى الرئيس عبد الرحمن واحد هي غير النظرة التي نشير إليها لكانت أمعنت في رئاسته تشويهاً، على نحو ما أصاب نجم الدين اربكان في تركيا، الذي كانت لواشنطن تحفظات حول توجهاته وخطته لتحويل تركيا إلى جزيرة إسلامية متماسكة في قلب القارة الأوروبية.

لم ينفذ الدعم الأميركي، سواء مباشرة أو بوسائل خجولة، في إقناع الشعب الأندونيسي برئيسه وبالصيغة التي تم إعتماها في تقاسم السلطة حيث جرى تعيين السيدة ميغاواتي (ابنة الرئيس الراحل سوكارنو) نائبة لرئيس الجمهورية. ولم يتحمل

الأندونيسيون هذا التوجه من جانب رئيسهم المتدين نحو إسرائيل، فناصره التحفظ وعدم المحبة وابتاتوا مستعدين لسحب الثقة منه مع أول فرصة مناسبة. وكان من شأن وقفة شجاعة من جانبه مع إنتفاضة الأقصى أن تنسي الأندونيسيين وأصدقاءهم هذا الهبوط المفاجيء بالمظلة الإسرائيلية لعبد الرحمن واحد عليهم، لكن العلاقة الوثيقة بين الرجل وإسرائيل حالت على ما يبدو دون حدوث الوقفة التي نشير إليها. وهنا أصابت «لجنة الإنتفاضة» الرئيس الأندونيسي. وجاءت اللحظة المناسبة لإظهار الرجل على أنه مثل غيره يمكن أن يسقط في بحر الفساد. وتمثلت اللحظة بإتهام الرئيس عبد الرحمن واحد بالتورط في عملية إختلاس بقيمة حوالي أربعة ملايين دولار لمصلحة المدلك الشخصي للرئيس، فضلاً عن هبة بقيمة مليوني دولار لم تتحدد بدقة كيفية إستخدامها.

بعد ذبوع هذه المعلومات بدأ الأندونيسيون المعارضون على رئيسهم، المنزعجون من إنفتاحه غير المبرر على إسرائيل، في النزول إلى الشارع في إنتظار أن يقول البرلمان كلمته ثم قال البرلمان الكلمة التي جاءت مهينة في حق من يتربع على قمة السلطة وبات على أهبة أن يفقدها. ففي الجلسة التي عقدها البرلمان الأندونيسي يوم الخميس الأول من فبراير (شباط) 2001 تمت المصادقة بأغلبية 393 نائباً ضد أربعة أصوات فقط على قرار قضى بتوبيخ الرئيس، ولوحظ أن نائبته لم تقف إلى جانبه، مكتفية بأن يتم قرار التوبيخ بطريقة ناعمة ولبقة. وشجعت المعارضين على مسلكية الرئيس الأندونيسي التطورات التي حدثت في الفلبين والتي انتهت بإسقاط رئيسها بتهمة الفساد وتسليم نائبته مهام الرئاسة خلفاً له، الأمر الذي يعني أن ابنة سوكارنو مرشحة لتكون رئيسة للبلاد ما دامت هي الآن نائبة الرئيس. وكما أن الجيش في الفلبين وقف على الحياد ولم يسعف الرئيس إسترداداً، فإن الجيش في أندونيسيا لا يملك إلا أن يفعل الشيء نفسه، هذا إذا لم يحدث تعطيل للعملية الدستورية السلسة بحيث أنه إذا غاب الرئيس أو سقط أو تساقط فإن من ينوب عنه يصبح بحكم الدستور رئيساً.

أما الرمز الثاني الذي أصابته «لجنة الإنتفاضة» في الصميم فإنه وزير خارجية موريتانيا، أحمد ولد سيد أحمد، الذي تم إخراجته من منصبه في تعديل وزاري أجراه الرئيس معاوية ولد سيد أحمد الطايع يوم الإثنين

29 يناير (كانون الثاني) الماضي، مع أنه كان في نظر البعض من الوزراء الذين يصعب الإستغناء عنهم لأنه رجل التطبيع بين موريتانيا وإسرائيل، أو - إذا جاز التوصيف - باعتباره ناظر مدرسة الإنفتاح على إسرائيل.

وكانت القمة الإسلامية التاسعة في الدوحة مناسبة لكي ينجو الوزير الموريتاني التطبيعي بجلده، وينصح رئيسه بالتجاوب مع توجهات تلك القمة وتجميد العلاقات مع إسرائيل على نحو ما فعلت قطر وسلطنة عُمان وتونس والمغرب. لكن الوزير الذي كان يشارك في تلك القمة إستهان بكل الحاضرين الذين كانوا في أكثريتهم في حالة إعتزاز بإنقضاة الأقصى وضرورة دعمها بالمال (وقد تقرر من دون أن يتم توزيعه حتى الآن) وبخطوة سياسية ملحوظة تتمثل في إنهاء العلاقة مع إسرائيل. وقد نفذ الجميع الخطوة بدرجات متفاوتة عدا موريتانيا بناء لنصيحة الوزير التطبيعي الذي لم يعط توجهات القمة الإسلامية التهييب المطلوب، مع أن تقريراً من بضعة أسطر عن أجواء القمة يرفعه الوزير إلى رئيسه أو اتصالاً هاتفياً ساخناً من مقر القمة الإسلامية في الدوحة إلى قصر الرئاسة في نواكشوط، كان من شأنهما توفير متاعب على موريتانيا لا حصر لها. وما التملل في صفوف بعض الضباط والآنزعاج الشامل في صفوف الموريتانيين لعدم وقوف نظامهم مع إنتفاضة الأقصى كما يجب أن تكون عليه الوقفة، سوى الجزء اليسير من ملامح المتاعب المرتقبة لنظام إستعجل التطبيع مع أنه في النقطة الأبعد عن خط المواجهة، ومع أنه مثل الرئيس عبد الرحمن واحد ليس مضطراً إلى أن يراهن على إسرائيل من أجل وعود بالإزدهار... غير مضمونة على الإطلاق.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 14 فبراير (شباط) 2001

* * *

الغزّاي الكاميكازي الذي خرج على الإسرائيليين شاهراً «أوتوبيسه»!

من أقوال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه التي ترددها الأجيال منسوبة إليه منذ أن وردت على لسانه وسمعتها المحيطون به وتناقلها الرواة بعد ذلك،

العبارة المأثورة: عجبت لامرئ جائع كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه.

ما فعله البطل الفلسطيني علاء خليل أبو علبة هو وضع القول المشار إليه موضع التنفيذ مع إختلاف الدافع وإختلاف الوسيلة. ولكن الهدف واحد وهو أشبه بالواجب إذا كنا لن نعتبره فريضة.

الدافع إلى العمل البطولي الذي قام به هذا الفلسطيني النقي التقي الشجاع هو فداحة الظلم الذي تلحقه إسرائيل ببني قومه وبوطنه ومن دون أن تخشى لومة تأنيها من راعية عدوانها على العرب الإدارة الأميركية أو خطوة فاعلة تصدر عن بريطانيا وفرنسا وروسيا والصين تلك الدول المتمنقة بسلاح الفيتو، فضلاً عن عشرات الدول التي تصمت حكوماتها دهرماً على الظلم الذي يلحق بالفلسطينيين وتتطق كفراً إذا أقدم شاب فلسطيني على التعبير عن غضبه عما تفعله إسرائيل بشعبه، أو إذا هو أطلق صرخة غضب أملاً في أن يسمعها العالم الأصم إذا جاءت الصرخة من فلسطيني أو عربي عموماً والأبكم في حال قام الإسرائيليون بعدوان على الشعب الفلسطيني وعلى أي شعب عربي يقرر مقارعة العدوان الإسرائيلي المضمون الرعاية من الطغيان الأميركي. ويكفي أن نتذكر ما جرى لنا في لبنان لتأكيد مثل هذه الحقيقة.

لم يستعمل البطل الفلسطيني في العملية الشجاعة التي قام بها رشاشاً ولا قنبلة، كما أنه لم يفخ «أوتوبيسه» الذي إقتحم به الجنود الإسرائيليون الذين تجمعوا في محطة قرب تل أبيب. بل إنه لم يستعمل حتى الحجارة التي بات فعلها النفسي بقوة الرصاصة، وإنما رمى هذا الحشد العدواني بـ «أوتوبيسه» تماماً على نحو ما كان يحصل في الزمن الغابر مع فرسان العرب الذين يقتحمون في لحظة الغضب أعداءهم بهجمة شجاعة وهم على ظهور جيادهم فيسقط العدو أرضاً مضرجاً بدمائه من شدة تأثير صدر الجواد عليه.

ما الذي يجعل ابن غزة البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً والأب لخمسة أولاد أكبرهم في التاسعة من العمر والذي تمنحه شركة النقل الإسرائيلية التي يعمل لديها بعض «الشيكلات» مقابل قيادته لـ «الأوتوبيس» يقرر في لحظة غضب تنفيذ العملية الشجاعة التي قام بها؟ إنه الظلم، وإنه الخوف، وإنه رفض المهانة، وإنه الإسترخاء العربي، وإنه إصرار يهود فلسطين، الذين أقيم لهم كيان ودولة على حساب

كرامة الأمة الكبرى ذات المليار نسمة والأمة الصغرى ذات المئتي مليون نسمة وعلى أنقاض وطن الآباء والأجداد العرب، على إختيار جنرال سفاح ليكون رئيساً للكيان المفروض بقوة الإرادة الدولية وخلافاً لكل قوانين العدالة الإنسانية والشرائع السماوية، على المنطقة.

ومن الجائز الافتراض أن البطل الغزاوي إعتبر إختيار شارون ليكون رئيساً لحكومة إسرائيل هو بمثابة اللحظة التي قرر فيها تنفيذ العملية وأنه هو صاحب القرار وهو المنفذ في الوقت نفسه. ومثل هكذا عملية لا تحتاج إلى تدريب ولا إلى ترشيح ولا حتى إلى شحن النفس. فهذه النفس مشحونة بالغضب. وما دامت الوسيلة بيد من قرر أن يطلق أقوى صرخات الإحتجاج فإنه لا يحتاج إلا إلى الهدف، وكان البطل الغزاوي علاء حكيماً لأنه إختار الهدف العسكري وبذلك لن تتكاثر صيحات الإستهجان والإحتجاج عليه لأنه قام بعملية إرهابية إستهدفت أبرياء. كذلك من الجائز أن نتصور الشريط الذي توالى صورته أمام عيني البطل الغزاوي وهو يرى عشرات الجنود في المحطة. إنه على الأرجح إفتراض أن كلاً من هؤلاء سيتوجه إلى موقع محدد له لكي يرمي برشاشه أي فتى فلسطيني يقذفه بحجر، أو إذا تيسر له (أي لهذا الجندي) محمد الدرة آخر يقنصه وهو في حضن والده المذعور، أو أنه سيتوجه إلى قاعدة من القواعد الصاروخية يطلق منها صاروخاً على حي في خان يونس أو رام الله أو غيرهما لأن كل حي في غزة والضفة الغربية هو هدف لمن يريد من الجنود والمستوطنين الإسرائيليين الإعتداء، أو إلى مريض مدفع ينظف فوهته إستعداداً لإطلاق داناته على مراكز فلسطينية، أو إلى زورقه البحري يرمي من البحر بحممه على الناس الأبرياء، أو أن هذا العسكري الإسرائيلي في طريقه إلى حيث قاعدة المروحيات يحلم بأوامر تأتية لقذف سيارة في داخلها مسؤول فلسطيني وإغتياله هكذا عمداً في وضح النهار.

إن صور هذا الشريط توالى في عيني البطل الغزاوي علاء وهو وراء مقود «أوتوبيسه» الذي هو بمثابة الحصان في الزمن العربي الفروسي الغابر فقرّر ببساطة أن يحجب عن شعبه حالات من العدوان كان سينفذها الجنود الذين قتلهم دهساً أو عطّل قدرتهم على العدوان نتيجة للذعر النفسي الذي أصاب بعضهم وللجراح التي أصابت البعض الآخر وربما بسببها سيهجرون العمل العسكري أو أن الحياة العسكرية هي التي ستبتذهم. وهو فعل ذلك ليس تنفيذاً لخطة ولا إلزاماً بأمر حزبي أو

تنظيمي وإنما لأن هاتفاً من داخل النفس قال له أن توكل على الله يا علاء ودع غضبك يتفجر في صدور هؤلاء الجنود الذين يرهبون وعلى مدار الساعة أطفالك في حي الشيخ رضوان وأطفال كل عائلة فلسطينية في كل الاحياء حيث يتكدسون فوق بعضهم البعض، ويحرمون شعبك لذة العيش وطعم الإستقرار ويفتكون حكومة وجيشاً ومستوطنين ورأياً عاماً بكل الكرامات العربية ويتصرفون - ونعني هؤلاء يهود الكيان الإسرائيلي - على أساس أنهم أسياد المنطقة وإن ما عداهم ليسوا سوى عبيد لهم.

لقد كانت عملية شجاعة بكل معنى الكلمة وعفوية وكانت من العمليات التي لا تشوبها شائبة. وكانت إذا جاز التوصيف من نوع العمليات الكاميكازية مع فارق أن الكاميكازي الياباني نفذها بطائرته وأن الكاميكازي الغزاوي نفذها بـ «أوتوبيسه». وعلى رغم المضاعفات المؤلمة للبطل الغزاوي وعدم إستشهاده في العملية، فإننا نفترض أن الله أكرمه لأنه وقع جريحاً وبذلك أمكنه ان يسمع هذا التقدير وعلى المستوى العربي والإسلامي لما قام به. ولن يقلل من فروسيته وبطولته أن الرئيس ياسر عرفات ادرج العمل في خانة «حوادث السير» وهو تصنيف قد يكون الهدف منه اغاظة الشارونيين الذين كانوا في صدد أن يطلقوا بعض الرصاصات على العملية السلمية ودفنها على المعابر التي أقفلوها فإذا بعملية الكاميكازي الغزاوي تقول لهؤلاء الشارونيين إن في النفس الفلسطينية مخزوناً من الغضب يكفي لجعلكم تتدمون ومن دون أن يفيدكم الندم في شيء وإن بين أيدي الفلسطينيين آباء الفتية الذين يقذفون جنودكم ومستوطنكم بالحجارة أوراقاً وأسلحة ستجعل أجيالكم لا تذوق طعم النوم، فكونوا عاقلين وتذكروا أن لكل فلسطيني ما زال على قيد الحياة وأي فلسطيني سيولد، عليكم حقاً إذا أنتم لم تقروا بها فإن الثأر هو الذي سيصبح سيد الموقف.

والأهم من هذا كله، أو في موازنته من حيث الأهمية، هو أن البطل الغزاوي الكاميكازي الأرضي علاء خليل أبو علبه وضع برسم بني قومه وبرسم كل عربي يعنيه أمر فلسطين في الحد الأقصى وأمر القدس وثالث الحرمين في الحد الواجب الذي لا تتأزل عنه، أمثلة بالغة الأهمية وهي أن الرصاص ليس هو وسيلة النضال الوحيدة وأنه إذا كنت أيها الفلسطيني لا تعرف إطلاق النار فعليك بالحجر وإذا كان هذا لا يكفي فعليك إقتحامهم بسيارتك، أو بـ «أوتوبيسك». كما أن الأمثلة ترى أن الغضب يجب أن يبقى قائماً في النفس لأنه بمثابة المنبه إلى إن العدوان الإسرائيلي ما زال مستمراً

بما لم يتوقعه منه وفاجأ جماهير «المؤتمر الوطني الشعبي» أي الحزب الذي يترأسه الشيخ حسن بما لم تصدقه هذه الجماهير، وفاجأ دول العالم التي تتابع التطورات في السودان وبههما الشأن السوداني بخطوة تبعت على الإنبهار في نفوس صانعي القرار في هذه الدول تمثلت باتفاق أقوى قطب سوداني إسلامي سياسياً مع أقوى قطب سوداني مسيحي سياسياً على مواجهة النظام بالوسائل السلمية والإقرار بخصوصية الجنوب (الذي يواصل الجيش السوداني الحرب ضد التمرد فيه) وحق الجنوبيين في تقرير مصيرهم. أما الذين يعرفون الترابي عن قرب ويتابعون إيقاع نشاطه السياسي ومواقفه على مدى ثلاثة عقود وعلى درجة من الفطنة في قراءة ما بين سطور التصريحات والأحاديث التي يدلي بها سواء لوسائل الإعلام أو في الدواوين المغلقة على غير الحواريين الذين هم أقرب المقربين إليه... أما هؤلاء (ونحن منهم بحكم الإهتمام المفرط بالشأن السوداني ومتابعة الانقلابات الشعبية والتقلبات المزاجية للزعامات المدنية الحزبية) فإننا لم نجد في ما فعله الترابي سوى التطبيق الحرفي لما يؤمن به ويمارسه وهو أنه لا حياء في السياسة وأن المصلحة السياسية تجيز أحياناً للخاصة القفز فوق ما يبدو للعامة انه من المحرمات.

وللتوضيح يمكن القول ان الترابي الذي لم يغفر لشريكه العسكري في حكم السودان منذ العام 1989 أنه إنقلب عليه ورماه على قارعة «ثورة الانقاذ» بعدما كان الملهم والأب الشرعي لهذه الثورة وأنه منذ إنقلاب الشريك (أي الفريق أول عمر حسن البشير) عليه في ديسمبر (كانون الأول) 1999 قرر أن يكون ذلك المنتقم الجبار الذي في إستطاعته أن يجعل النظام وبالذات أولئك الذين لم يقفوا إلى جانبه من المدنيين في عملية إنقلاب البشير عليه يندمون أشد الندم. وفي سبيل ذلك أنشأ حزب «المؤتمر الوطني الشعبي» ليواجه به الحزب الذي سبق أن أنشأه أيام كان الشريك الثاني في النظام وسماه «المؤتمر الوطني». وقد إستقطب الترابي إلى حزبه الجديد بعض القيادات إلا أن كفة من هو في السلطة بقيت هي الأقوى وتلك عموماً حال الولاء والحياة الحزبية في دول العالم الثالث.

خاض الترابي معارك كلامية كثيرة الشراسة ضد النظام معتمداً في ذلك على صدمة أصابت الإسلاميين في السودان مما جرى وكيف أن الرئيس

وان الظلم الدولي ما زال قائماً وأن العدالة مغيبية في إستمرار وأن المقدسات الإسلامية والمسيحية في الأسر الإسرائيلي وأن الصهيونية جاثمة على صدور أهل القرار في العالم. والغضب هو الذي جعل الجندي الأردني احمد التقماسة يلجأ إلى رشاشه عندما رأى بضع فتيات إسرائيليات يسرحن ويمرحن على أرض أجداده المغتصبة وجعل الصبيّة ليلي خالد تقرر دخول معترك التذكير بقضيتها والإشتراك في عملية خطف طائرة. والغضب هو الذي جعل - وللتشخيص الذي أوردناه - علاء خليل أبو علبة يقتحم بـ «أوتوبيسه» صبيحة يوم إنشغال العالم بعيد العشاق (الأربعاء 14 فبراير 2001) تجمعاً للجنود الإسرائيليين قرب تل أبيب فيقتل منهم حسب الرواية الرسمية تسعة ويصيب العشرات بجراح ويفاجيء بعملية البطولية هذه عائلته وأصدقائه ويخص بالمفاجأة المذهلة الشارونيين ورئيسهم بالذات أرييل الذي أفهمه البطل الغزاوي الكاميكازي أن البطولة هي أن تتحدى ومع شروق الشمس وليس أن تكون سقاًحاً في عتمة الليل في صبرا وشاتيلا وفي غيرها على نحو ما فعله باراك وآخرون وتفتكون بالأبرياء أطفالاً ونساء، وهم نيام في الفراش المهلهل وعلى الضيم.

وتبقى الإشارة إلى أن العملية البطولية للكاميكازي الغزاوي هي بمثابة وصية إلى كل فلسطيني قابح تحت الاحتلال أو يعيش في كنف السلطة الوطنية الفلسطينية التي فاجأت العملية رئيسها أبو عمار وهو في زيارة إلى أنقرة فطلع علينا بتصنيفه لها بأنها «حادث مروري» ومن دون تسجيل تحية إلى الكاميكازي الغزاوي وإبلاغ شارون بأن علاء خليل أبو علبة هو أحد الأبناء البررة لقضيته وللاّمة الكبرى أمة المليار مسلم والأمة الصغرى أمة المثني مليون. كان الله مع هذا البطل الشجاع الغاضب الذي خرج على العسكريين الإسرائيليين شاهراً «أوتوبيسه» فقتل سبعة جنود وأحد المستوطنين... ومن دون إراقة دم بريء هذه المرة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 21 فبراير (شباط) 2001

* * *

الدكتور حسن والمستر جون

فاجأ الدكتور الشيخ حسن الترابي يوم الثلاثاء 20 فبراير (شباط) الجاري نظام الرئيس عمر حسن البشير

البشير أثر أبهة السلطة على مبدئية العلاقة الشخصية والرباط العقائدي. لكن البشير وبسبب الإرتياح الذي أحدثه إنقلابه على الترابي لدى مصر وليبيا ومعظم دول الجوار الأفريقي وكذلك لدى الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية استطاع أن يلتف على تلك الصدمة فيرسخ سلطته ويلقى من الأطراف التي إرتاحت للتطورات في السودان الدعم الفعلي صدر عن البعض والدعم الشكلي صدر عن البعض الآخر فمضى إلى آخر الطريق في مواجهة الترابي معتمداً على ان الأطراف الداعمة تتوقع منه المزيد وتريد منه نتيجة حذرهما وضيقهما الشديدين من الترابي الإقدام على إنهاء الظاهرة الترابية وبذلك يتم فتح الأبواب أمام التعامل مع النظام كان الترابي يفترض أن رفّع درجة المعارضة لنظام الشريك السابق من شأنه إستقطاب قطاعات عريضة من الشعب السوداني إليه فضلاً عن زعزعة جماهير الحزب (أي «المؤتمر الوطني») الذي يشكل المظلة المدنية للنظام، لكن الرئيس عمر البشير، الذي إستفاد من فن المناورة السياسية الذي إشتهر الترابي بأنه أحد المجلبين فيه، إستعاد من خلال الوعود وليس الإتفاقات الواضحة الصادق المهدي من المنفى الإختياري - الاضطرابي فأحدث بذلك مناخاً سياسياً إرتاح له السودانيون، فضلاً عن أن علاقات الصادق وثيقة بكل من الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية الأمر الذي إفترض البشير أنه سيجعل دول الغرب عموماً تثق بنظامه وإن الرئيس حسني مبارك بالذات سيطمئن تماماً إلى الخاصرة السودانية التي طالما ملأها الترابي أيام كان يشكل العمود الفقري للنظام في السودان بالشوك الذي يدمي.

إنتهى رهان الترابي إلى أن الكفة إستمرت تميل لمصلحة الشريك السابق الذي عزز قبضته وامكنه خوض إنتخابات رئاسية لا غبار عليها ما دام خاضها عدة مرشحين ولم تقتصر عليه وحده وجاءت النتيجة لمصلحة جنرال «الإنقاذ». وهذا معناه أن البشير سيحكم بضع سنوات أخرى وأن على الدكتور الترابي أن يقرر إما التسليم بسلطان تلميذه (الفريق عمر البشير) الذي تفوق عليه أستاذه (الترابي نفسه) ويرتضي تقاعداً هادئاً لحياته السياسية وهذا يتطلب فك الإشتباك مع النظام وتسريح حزب «المؤتمر الوطني الشعبي» مقابل بعض المكاسب الوزارية والوظيفية يحصل عليها كمكرمة من سيد النظام الفريق عمر البشير، وإما ان يخوض في ما تبقى من العمر والهمة

مواجهة حاسمة مع النظام معتمداً في هذه المواجهة على عنصري الصدمة والإحراج. الصدمة بمعنى أن تكون الخطوة التي يتخذها من النوع الذي يثير الشؤون والشجون في الجبهة الداخلية ويجعل الأوراق عرضة للخلط بطريقة جديدة وفي ذلك يكسب لأنه سيعود في هذه الحال رقماً صعباً في المعادلة السودانية. والإحراج بمعنى أن يرتبك النظام من جرّاء هذه الخطوة فيعالجها بغير الحكمة أي بالقمع وفي ذلك مكسب له لأن النظام سيظهر أنه لا يؤمن بالتعددية وأن الذين إرتضوا مصالحته، وتحديداً الصادق المهدي، سيجدون أنفسهم أمام نظام لا يتحمل الرأي الآخر بصرف النظر عما إذا كان هذا الرأي موقفاً تحالفياً أو مجرد إجتهااد.

الذي حدث هو أن النظام لم يتحمل مشروع الملف الجديد بين الشيخ حسن الترابي والجنرال جون قرنق ورأى في هذا الحلف بين الدكتور المسلم والدكتور المسيحي نواة «ثورة جديدة» من شأنها إذا هي مارست العمل السياسي بمنظور واقعي أن تنهي النظام في فترة وجيزة. ولقد قرأ الرئيس عمر البشير والذين يحيطون به بالكثير من التآني «مذكرة التفاهم» بين حزب الترابي المعروف بإسم «المؤتمر الوطني الشعبي» وحزب قرنق المعروف بـ «الحركة الشعبية لتحرير السودان» والتي وقّعها الطرفان على أثر إجتماعات عُقدت في جنيف من 17 الى 19 فبراير 2001، ورأوا في ما بين سطورها ما يوجب إعتداد الدفاع عن النفس إذا جاز التعبير فكان تشكيل حكومة جديدة لا تخفف من القلق السوداني الشعبي وكان أيضاً إعتقال الدكتور حسن الترابي وبعض أركان حزبه وفتح أبواب «سجن كوبر» من جديد بعدما كان إغلاق هذا السجن من بين العلامات المضئية التي قرر الرئيس عمر البشير أن تتسم بها ولايته الرئاسية الجديدة. وبسبب قسوة الإجراءات وعدم الأخذ في الإعتبار الظروف التي أوجبت على «شيخ الإنقاذ» الإقدام على هذه الإستدارة التي هي بمثل إستدارة الزعيم السياسي اللبناني وليد جنبلاط الذي بات حليف الزعماء الموارنة الأكثر تشدداً ضد سوريا لأنه مثل الدكتور الترابي لا يمكنه أن يكون في الظل أو على الهامش... بسبب ذلك وجد النظام نفسه محرجاً لأنه في نظر أهل السودان وحكومات العالم إعتد الإفعال بالإجراءات بدل إعتداد الرويّة بالحوار. ولكن مثمناً أن الخطوة الجنبلاطية أفادت التعايش الوطني في لبنان لأنها خففت نسبة الإحتقان المتراكم في صدر المارونية

والحكومة». والثانية هي الولادة الأعسر، إذا جاز التوصيف، وهي مصالحة الجارين اللدوين الكويت والعراق، والتي هي مفتاح الانفراج الشامل في العلاقات العربية، ومن دون أن يكون واضحاً حتى إشعار آخر ما إذا كانت العملية الجوية المباشرة على مواقع قرب العاصمة العراقية بغداد مساء يوم الجمعة 16 فبراير والتي نفذتها 24 طائرة أميركية وبريطانية، وكانت العملية الأولى في عهد الإدارة الأميركية الجديدة، ستساعد على تحقيق هذا الانفراج، أو أن الرئيس بوش (الابن) أرادها بمثابة رسالة وإنذار لتعطيل الخطوات التي تتم على طريق الانفراج، والتي تتسارع وتيرتها قبل إنعقاد القمة العربية الدورية الأولى في العاصمة الأردنية عمان يوم 27 مارس (آذار) الحالي.

في الماضي، وعلى مدى تسعة وثلاثين عاماً بدأت بالحكومة الأولى عام 1962 في عهد الأمير الشيخ عبدالله السالم، والد الشيخ سعد ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء منذ العام 1978، شهدت الكويت ولادات صعبة للحكومات التي تشكلت، لكنها المرة الأولى التي تكون فيها الولادة بالعسر الذي تميزت به ولادة الحكومة العشرين في تاريخ الكويت، والتي يترأسها بدون إنقطاع الشيخ سعد، وهذا سببه الزمن من جهة، والعمر من جهة أخرى، فضلاً عن تداعيات الوضع الصحي لبعض أولي الأمر. وقد تكون هذه التداعيات الصحية ناشئة في الدرجة الأولى عن الإحتياح العراقي للكويت يوم الثاني من أغسطس (آب) 1990 وما تلا هذا الإحتياح من تطورات، وأيضاً عن إستمرار الوضع مع العراق عالقاً يراوح مكانه للسنة العاشرة على التوالي، ومن دون أن يكون مفهوماً تماماً ما إذا كانت الإدارة الأميركية تريده أن يبقى عالقاً دائماً وإلى ما شاءت هذه الإدارة أم أنها في صدد الحسم.

وفي سياق هذه التداعيات الصحية يشار إلى العملية الجراحية التي أجريت قبل أربع سنوات للشيخ سعد العبدالله، ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء، وهو الركيزة الثانية في مثلث آل الصباح في الحكم. وقد أوجب الوضع الصحي الناشئ عن هذه العملية (أجريت في مارس سنة 1997) أن يستكمل الشيخ سعد العلاج بين بريطانيا والولايات المتحدة. وبسبب هذا الغياب الذي لا بد منه إعتاد الكويتيون والعرب عموماً على الركيزة الثالثة الشيخ صباح الأحمد مدير الشؤون الحكومية بالكثير من الجدارة، التي رافقها

السياسية فإن الخطوة الترابية ستفيد التعايش الوطني في السودان خصوصاً بعدما تبين بموجب «مذكرة التفاهم» بين حزب الترابي وحزب قرنق أن الأول لم يقف إلى جانب الثاني ولا الثاني فعل الشيء نفسه وإنما إقترب الدكتور حسن من المستر جون (وعلى نحو إقترب الدكتور منصور خالد قبل سنوات من قرنق مع تباين الدواعي) وبحيث أن مذكرة التفاهم التي اتفقا عليها يمكن أن تشكل حلاً للمأزق السوداني ويمكن لقادة الأحزاب في السودان بمن فيهم قادة الحزب الحاكم وضع توافيقهم عليها بعد إجراء تعديلات بسيطة، هذا إذا كانوا بالفعل يريدون خيراً بالسودان وله.

وتلك حذاقة الأستاذ (الشيخ حسن الترابي) وعدم كياسة تلميذه (الرئيس عمر البشير) الذي ضرب المرحلة الثانية من الخطوة وهي إجتماع كان سيتم عقده بين القطبين الترابي وقرنق... إلا إذا كان هذان القطبان اللذان حققا خطوة أولية كانت تبدو مستحيلة، سيجمعهما لقاء ذات يوم وحولهما آخرون على شرفة قصر الرئاسة في الخرطوم. وتلك حال السودان الذي هو أكثر بلد يعيد فيه التاريخ السياسي نفسه بوجوه جديدة... وأحياناً بمن لا يزال على قيد الحياة من الوجوه السياسية المخضرمة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 28 فبراير (شباط) 2001

* * *

إنطباعات من الكويت: الولادة

العسيرة... والولادة الأعسر (2.1)

تسنى لي على مدى خمسة أيام أمضيته في الكويت أن أعيش على الطبيعة - ومن خلال لقاءات مع بعض المسؤولين والمتقنين ممن طال عدم اللقاء بهم من دون أن تنقطع الأواصر معهم - تعقيدات ولادتين. الأولى هي ولادة حكومة جديدة، وهي العشرون في تاريخ حكومات الكويت، والتي كانت ولادتها لافتة وبعد مخاض عسير، يوم الأربعاء 14 فبراير (شباط) 2001 (عيد العشاق أو الحب)، الأمر الذي جعل صحيفة «الرأي العام» تضع في اليوم التالي (الخميس) كعنوان رئيسي لصفحتها الأولى وباللون الأحمر عبارة «14 فبراير عيد الحب...»

شيء من الحساسية من جانب البعض داخل أسرة الصباح، ومن جانب تكتلات في البرلمان الكويتي. ومع أن الشيخ صباح يكبر الشيخ سعد بسنة من العمر إلا أن وضعه الصحي المتماثل جعله يبدو في نظر الكثيرين رئيساً تنفيذياً مناسباً للحكومة في انتظار أن يستعيد الرئيس الأصيل الشيخ سعد عافيته. وفي ظل هذا الواقع نشطت دعوة الداعين إلى فصل ولاية العهد عن رئاسة الحكومة، وهي دعوة لها مراميها الكثيرة، ولا تعني رغبة الشيخ صباح في تحقيقها، ودعوة بعض القوى البرلمانية إليها استندت إلى أن الجانبين على وفاق في هذه المسألة، ذلك أن الشيخ صباح بات يرى - مستنداً إلى الوضع العام من جهة، وأخذاً في الاعتبار مسألة العمر من جهة ثانية - أن حسم أمر فصل ولاية العهد عن رئاسة الحكومة يحقق له ترؤس الحكومة التي يديرها بصيغة التنفيذ، وأن الظرف الراهن هو المناسب لتحقيق هذه الرغبة، وقد لا يكون هنالك بعد ذلك ظرف مماثل على الإطلاق. بيد أن ثمة قوى أخرى لها نظرتها المختلفة تماماً، وهي عندما تدعو إلى فصل ولاية العهد عن رئاسة الحكومة فليس من أجل الشيخ صباح - علماً بأنها متأكدة من أنه إذا تم الأخذ بمبدأ الفصل فإن الشيخ صباح سيكون في هذه المرحلة هو رئيس الحكومة - وإنما من أجل أن تحدث السابقة تمهيداً في المستقبل غير البعيد لأن يكون رئيس الحكومة من خارج أسرة الصباح.

والذي يجعل مثل هذا الواقع مستبعداً هو الأمير الشيخ جابر، الذي ينتظر نضوج الجيل الثالث من شيوخ الأسرة لكي يبدأ تسليمهم المسؤوليات، وبحيث يقال إن الصيغة التقليدية بقيت على حالها في الحقبة التي كان فيها أميراً للدولة. وهو من أجل ذلك نجده أكثر حماساً للمعادلة التي إنتهت إليها الحكومة الجديدة، وهي أن يستمر الشيخ سعد هو الرئيس الفعلي للحكومة ويكون الشيخ صباح هو الرئيس التنفيذي، أو إذا جاز القول تكون الحكومة وديعة لدى الشيخ صباح، وتكون القوى البرلمانية راضية، فلا يتحول البرلمان إلى ساحة للمبارزة بالإستجابات بين الحكومة والبرلمان. وفي الوقت نفسه تكون هذه الحكومة هي ميدان تأهيل عناصر ينتمون إلى الجيل الثالث من أسرة الصباح (الشيخ أحمد الفهد الصباح الذي تسلم وزارة الاعلام، والشيخ محمد الصباح الذي أسندت إليه وزارة الدولة للشؤون الخارجية، وبذلك

باتت الشؤون الخارجية في الدولة صباحية وظيفياً مئة في المئة) لكي يتسلموا المسؤوليات الكبرى مستقبلاً وبما يحفظ الصيغة والتعايش بالإقتناع والرضا بين الكويت الصباحية وكويت العائلات الشريكة.

هذا الواقع هو الذي جعل ولادة الحكومة الكويتية العشرين عسيرة بعض الشيء، إذ ليس من الحكمة في شيء لدولة مثل الكويت أن تعيش بحكومة مستقيلة طوال ثلاثة أسابيع تكاثر خلالها الحديث عن الظروف السياسية، كما لو أن البلاد مقبلة على مفاجآت درامية، خصوصاً أن الشكوى من المشاكل الإقتصادية ومن الكساد متزايدة. وفي هذه الأسابيع الثلاثة كانت لافتة للانتباه ظاهرة جديدة على طقوس المشاورات من أجل تشكيل حكومة جديدة. فالذي كان يُجري المشاورات هو الشيخ صباح وليس الرئيس المكلف الذي هو الشيخ سعد. وفي الوقت نفسه كان لافتاً حرص الشيخ صباح على أن يبدو راضياً أكثر منه مقتنعاً بأنه مساعد الشيخ سعد في تشكيل الحكومة. وكان حريصاً على أن يقول «إن سمو ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء طلب مني أن يكون لي دور في التشكيل، وقد بذلت جهدي بدون أن أخرج عن مشورته...». وحرصه على هذا القول له ما يبرره، وذلك لتفادي من يمكن أن يسأله بأي صفة يُجري مثل هذه المشاورات. وبعد إعلان التشكيلة الجديدة بدت واضحة من خلال التصريحات الأولية لبعض الوزراء مسألة تقاسم التشكيل بين الشيخين سعد وصباح. وفي هذه التصريحات نلاحظ أن الشيخ جابر المبارك الحمد الصباح - الذي عاد إلى الموقع الرسمي نائباً لرئيس الوزراء وزيراً للدفاع - قال إنه يعتز بالثقة «التي أولاني إياها سيدي صاحب السمو أمير البلاد حفظه الله ورعاه وسيدي سمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء...». وفعل الشيء نفسه وزير المال الدكتور يوسف إبراهيم، ووزير التجارة والصناعة صلاح خورشيد (كلاهما لم يشر إلى الشيخ صباح)، في حين أن وزير الإعلام (الشيخ أحمد الفهد الصباح) ووزير النفط (الدكتور عادل الصبيح) ووزير العدل والأوقاف والشؤون الإسلامية (أحمد باقر) ووزير الأشغال/ وزير الدولة للإسكان (فهد الميع) سجلوا في تصريحاتهم الشكر والإعتزاز بالثقة للأمير ولولي العهد وأيضاً للنائب الأول، أي الشيخ صباح.

لماذا عمرو موسى؟

من الجائز الافتراض أن الرئيس حسني مبارك فوجئ بالتصريح الذي أدلى به وزير خارجية اليمن عبد القادر جمال يوم السبت 10 فبراير (شباط) وقال فيه جازماً: «إن اليمن سوف تقوم بترشيح محسن العيني رئيس الوزراء ووزير الخارجية الأسبق ونائب رئيس المجلس الاستشاري اليمني حالياً لشغل منصب الأمين العام للجامعة العربية». وفي الوقت نفسه كانت بورصة من سيخلف الدكتور عصمت عبد المجيد، الذي تنتهي ولايته يوم الخامس عشر من مايو (أيار) المقبل، تتضمن أسماء عبد الرحيم سوار الذهب (الجنرال العربي الوحيد الذي التزم بوعده قطعه على نفسه، بأن تكون رئاسته للسودان إنتقالية ولمدة سنة واحدة إنسحب بعدها طوعاً)، ورئيس وزراء لبنان السابق الدكتور سليم الحص، الذي يشغل الأوساط اللبنانية والسورية على حد سواء منذ أيام بما أمكنه الإفصاح عنه من مذكرات تنشرها «الشرق الأوسط»، ووزير خارجية الجزائر قبل أن تسقط في بحر العنف والقتل بالسواطير، الأخضر الإبراهيمي، الذي وجد الأمن والأمان في منصب دولي، وفي إقامة باريسية. وخشية أن تلقى الرغبة اليمنية قبولاً من بعض الدول الأعضاء، وبالذات تلك الدول التي ترى أنه بات لا بد من إعادة النظر في مسألة أن يكون الأمين العام هو أحد أبناء دولة المقر، وأنه بات من الضروري اعتماد مبدأ التناوب على المنصب، فإن الرئيس مبارك، الذي إستوضح من الدكتور عصمت عبد المجيد عما إذا كان الترشيح اليمني رسمياً، أم أن هنالك دولاً أخرى تقدمت بأسماء مرشحيها، قام بحركة إنقاذ بارعة على الرغبة اليمنية تمثلت بخطوة أولى بإختيار وزير الخارجية عمرو موسى كخلف لعصمت عبد المجيد، تلتها الخطوة الأهم وهي قيامه شخصياً وعبر الرسائل والمكالمات الهاتفية بتأمين القبول الشامل، أو شبه الشامل بأن يكون عمرو موسى هو الأمين العام للجامعة بدءاً من اليوم المفترض أن يتم فيه تعيينه في هذا المنصب يوم 28 مارس (آذار) الجاري خلال إنعقاد القمة العربية الدورية في العاصمة الأردنية عمان. ولقد فعل ذلك ومن دون إعلان إسم عمرو موسى كمرشح تقادياً منه لإخراج الملوك والرؤساء. وبعدما حصل على الموافقة تم الإعلان رسمياً عن ترشيح عمرو موسى يوم الخميس 15 فبراير، فإستقبل

كذلك كان لافتاً خلال هذه المشاورات أن النيبارية (نسبة إلى النائب الدكتور عبدالله النيباري) بدت في بعض الأحيان مثل الجنبلاطية (نسبة إلى النائب وليد جنبلاط) في لبنان. وما كان لا يقوله النيباري داخل البرلمان، أو تستكف الصحف عن نشره من باب مراعاة عدم إستفزاز الأسرة الحاكمة، أو من هم من الوزراء المحسوبين عليها، كان النيباري يقوله في ديوانيته، ويقول له آخرون في ديوانياتهم، وكان محوره دائماً أنه لا فائدة من حكومة برأسين. بل أن النيباري كان أحياناً يبدو مثل نجاح واكيم ومثل الراحل ريمون إده (في لبنان)، وهو يقارع الذين في قمة السلطة. وبعد إعلان التشكيلة أعاد النيباري النظر بعض الشيء في موقفه مستبشراً خيراً بالحكومة الجديدة لأنها ضمت على حد قوله «بعض الوجوه والعناصر الجيدة». أما التكتل النيابي الذي هو بمثابة «البولدوز» في مواجهة الحكومة والذي يتصدره رئيس مجلس النواب السابق النائب أحمد السعدون، ويضم في عضويته النائب سيد حسن القلاف (من الإسلاميين)، صاحب الإستجواب الشهير الذي قدمه ضد وزير العدل لأمساً فيه القضاء والنيابة العامة، وكان من الأسباب التي عجلت في إستقالة الحكومة التاسعة عشرة... أما هذا التكتل فإنه إعتد في فترة الإستشارات أسلوباً حاسماً حيث أنه صاغ ما يجوز إعتباره «البلاغ رقم واحد»، أو مشروع مسودة البيان الحكومي، وذلك عندما حدد هذا التكتل الذي ضم 12 نائباً مطالبه في بيان إستهلهو بالتذكير بالمادة 91 من الدستور التي تنص على الآتي: «أقسم بالله العظيم أن أكون مخلصاً للوطن وللأمير وأن أحترم الدستور وقوانين الدولة، وأدود عن حريات الشعب ومصالحه وأمواله، وأؤدي أعمالي بالأمانة والصدق». والقصد من هذا التذكير هو طمأنة الأمير إلى حسن نياتهم. لكن بيانهم كان موضع تساؤلات وتأملات، خصوصاً ما يتعلق بمطالبهم في أن يتم تشكيل الحكومة على أسس الكفاءة والنزاهة والماضي المشرف مع نهج عملي والإلتزام ببرنامج متكامل. ومثل هذه الأسس تم إعتمادها بنسبة ملحوظة عمراً وكفاءة وشهادات جامعية في التشكيلة الجديدة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 7 مارس (آذار) 2001

* * *

الرجل النبأ بتأثر بالغ. أما محسن العيني فإنه واسى نفسه بتصريح قال فيه: «إنني سعيد جداً لأن كابوس ترشيحي قد إنتهى على خير، فأنا لم أتصور منافسة مصر التي أعشقها كبدي...».

الذي ساعد على إنجاح حركة الالتفاف التي قام بها الرئيس مبارك هو ان الرئيس علي عبدالله صالح لم يكن ضمناً كثير الحماسة لخوض معركة سياسية إلى النهاية من أجل تأمين فوز محسن العيني، وأن الأخير قلبه مع الرضى المصري وعقله مع اليمن التي طال إبتعاده وتباعده عنها، ومن أجل ذلك فإنه لمجرد أن أعلنت مصر إصرارها على الإحتفاظ بمنصب الأمين العام، فإن العيني كان كثير التفهم، على عكس ما كانت بعض الدول العربية الأعضاء تحبذ ضمناً أن تبقى صفحة المنصب مفتوحة في كتاب الجامعة ما دامت اليمن تجرأت على إثارة أمر كان في الماضي من الأمور التي لا تستحق إثارتها.

وإلى ذلك أن الذي ساعد على إنجاح حركة الالتفاف التي قام بها الرئيس مبارك، هو أن عمرو موسى كفاءة دبلوماسية وسياسية عالية، وأنه بالتسقي مع الرئيس مبارك، أو بالإجتهد الشخصي، سجّل على مدى سنوات عمله العشر كوزير للخارجية وقفات وطنية (كادت أحياناً تصل إلى درجة الموقف) ضد إسرائيل والإدارة الأميركية، وهذا حقق له، وبالنظر إلى الرخاوة العربية الملحوظة والمبالغة من جانب البعض في الهرولة للتطبيع مع إسرائيل عمقاً شعبياً داخل مصر وخارجها، وإلى درجة إنه بات من الشخصيات السياسية العربية القليلة التي يرد إسمها على السنة الناس، وتلقى التقدير والإعجاب لهذه الصلابة في الموقف، وأحياناً في المواجهة السياسية، وبالذات عند التعليقات التي كان يدلي بها في مؤتمرات صحافية، أو في أحاديث مع الوسائل الإعلامية المرئية والمسموعة رداً على مواقف الذين تعاقبوا على رئاسة الحكومة الإسرائيلية، من اسحق رابين الى ايهود باراك، مروراً بشيمون بيريز ونتتياهو. وأمامه المزيد من الوقت لكي يدلي بالمزيد من التعليقات رداً على شارون والذين سينطقون كفرة وظلماً بلسانه من وزراء في حكومة العدوان الجديد الذي يستعد له. ولو ان عمرو موسى إستطاع أن يقول بلسانه عن تلاعبات الإدارة الأميركية ما يراه ضمناً في هذا الشأن لكان عمقه الشعبي المصري والعربي عموماً إزداد إتساعاً. وما يغفر له في نظر الناس على توازنه في هذا الجزء من

المواجهة (أي الرد الذي يوجع بعض الشيء على الإدارة الأميركية) هو أنه في موقع مسؤول لا يجيز له وبالذات عندما تتعلق الأمور بالسياسة الأميركية والعلاقة مع الإدارة الأميركية أن يكون غير متجانس مع السياسة المرسومة، أو أنه إذا كان لا بد من بعض التميز فان هذا يجب أن يكون محسوباً، وبحيث لا يصل إلى حالة التغريد خارج السرب. فضلاً عن ذلك فإن عدم التعرض الخشن من جانب عمرو موسى للسياسة الأميركية، هو أن الرجل ليس ضد هذه السياسة بالطلق، وأن تجربة عمله مندوباً لبلاده في الأمم المتحدة، ثم لقاءاته مع عشرات وزراء الخارجية الأميركيين ومساعدتهم، سواء في واشنطن أو القاهرة، جعلته يقف على خصوصية صناعة القرار في الولايات المتحدة وجعلته أيضاً يبني علاقات وصداقات من شأنها أن تقيد في عملية التطور المنصبي أو الوظيفي الرسمي عنده. كما أن طبيعة إنتقال مصر من دولة غير منحازة إلى دولة شبه منحازة إلى الولايات المتحدة، وما رافق هذا الإنحياز من علاقات إكتسبت البعد الإستراتيجي سياسياً وعسكرياً وإقتصادياً، جعلته وهو الذي يطمح إلى أن يكون نائباً لرئيس الجمهورية أو رئيساً للحكومة مستقبلاً، أن يكون كثير التفهم لهذه المسألة، فلا يصدر عنه من الكلام ضد السياسة الأميركية ما قد يحرق له أوراقه ويقضي على طموحه في المنصب الأعلى. وهذا ليس كل شيء، ذلك أن عمرو موسى قرأ جيداً طبيعة التأثير الأميركي على دول المنطقة العربية، والحضور الأميركي الملحوظ في بعض دول المنطقة، وبنى على هذا الواقع أسلوب تعاطيه مع المواقف الأميركية، وبحيث يبقى دائماً دون الخط الحذر، أي دون الخط الذي من شأن تصريح من نوع التصريحات التي يدلي بها عمرو موسى في المناسبات الدقيقة أن يكهرب هذا الخط. ولكن هذه الدقة من جانب عمرو موسى لم تمنعه من لمس الملف الشائك الذي يتعلق بما سمي «إعلان دول دمشق»، وهو تحالف إقليمي طالما تمتت الإدارة الأميركية صموده، إلا أنه كان في إستمرار هشاً وإنتهى مضرجاً بعدم رغبة دول الخليج في تحويله من ظرف طارئ إلى أمر دائم. وتحضرنا في هذا الشأن تعليقات عمرو موسى حول هذا التجمع والتي كانت بمثابة بيانات النعي تصدر عنه في أعقاب كل إجتماع تعقده هذه الدول، وهي مصر والسعودية وسوريا والكويت ودولة الإمارات ودولة قطر وسلطنة عُمان

ودولة البحرين.

لكن في المقابل أمكن عمرو موسى أن يؤسس لعلاقة متوازنة إرتاح لها حكام دول الخليج ووزراء الخارجية في هذه الدول. وهذه العلاقة التي لم تشهد يوماً أي توتر ولا قوُضت عواصف الخلاف الصامت أعمدة خيمتها، كانت بمثابة صندوق الإدخار للرجل عندما جاء الرئيس حسني مبارك يرشحه لمنصب الأمين العام للجامعة العربية، خلفاً للدكتور عصمت عبد المجيد، الذي يشغل هذا المنصب منذ الخامس عشر من مايو (أيار) 1991، منهياً بذلك التكهّنات حول أن الرئيس مبارك أبقى لعمرو موسى منصب نائب الرئيس، لكي يتم إشغاله قبل أشهر قليلة من إنتهاء الولاية الرابعة (والأخيرة) للرئيس، وذلك من أجل أن يبقى منصب الرئيس لمن تختاره المؤسسة العسكرية، أو تركي إختيار الرئيس مبارك لهذا المنصب. وهو في ذلك كمن يكرس عرفاً بأن يستمر رئيس الجمهورية من مؤسسة الجيش على نحو الرئيس الأول جمال عبد الناصر والرئيس الثاني أنور السادات (يرحمهما الله)، وهو شخصياً أي الرئيس مبارك أطال الله عمره.

من المؤكد أن شخصية عمرو موسى لعبت دوراً في القبول العربي به أميناً عاماً للجامعة، أي بما معناه أنه لو كان الترشيح لغيره من الذين يتطلعون إلى هذا المنصب أمثال الدكتور مصطفى الفقي لربما كانت اليمين لن تطوي رغبتها في أن تحظى بهذا المنصب، خصوصاً أنها، وعملاً بمبدأ دورية إنعقاد القمة مرة كل سنة، لن تستضيف هذه القمة قبل 22 سنة، وذلك لأن إسمها يبدأ بالحرف الأخير من الأبجدية. كما أنه لو كان الترشيح لغير عمرو موسى لربما كانت اليمين وجدت من الأشقاء العرب من يشد أزرها ويقف إلى جانبها في رغبتها هذه، ولربما كان محسن العيني نفسه أثر المضي قدماً عسى ولعل يحقق ما لم يحققه الدكتور غازي القصيبي، الذي خذله الحسد العربي، أو حسد بعض العرب، فلم يصل إلى رئاسة اليونيسكو، علماً بأنه كان يليق بهذا المنصب ويليق المنصب به.

سينال الرئيس مبارك ما أَراده وما يتمناه عمرو موسى، ولن يكون هنالك مرشح آخر ينافسه على منصب الأمين العام للجامعة العربية، وسيتركس العرف بأن يكون الأمين العام للجامعة من دولة المقر مرة أخرى، علماً بأن الظروف تبدلت وبات مثل هذا الأمر غير مستحب، وبالذات بعدما بات العالم العربي

حافلاً بالشخصيات التي تستحق إسناد هذا المنصب إليها، وبعدها لم يعد في العالم العربي دول متقاوتة الدرجات والأهمية وبحيث أن هنالك دولة أولى واحدة فقط لها الكلمة الأساس.

وقد يكون من الأفضل بعد أن يتأسس الامانة العامة للجامعة لمدة ست سنوات عمرو موسى أن تنتهي ظاهرة التجديد للشخص الذي يتسلم مثل هذا المنصب، بحيث لا يشغله سوى مرة واحدة، وذلك كي لا نصل ذات حقبة إلى ما حدث مع المرحوم عبد الخالق حسونة، الذي إستمر يشغل منصب الأمين العام طوال 21 عاماً، وهو أمر يثير الدهشة والإستغراب، خصوصاً أنه كان قبل ذلك ولسنوات قليلة محافظاً لمدينة الإسكندرية، ثم جاء تعيينه في هذا المنصب بعد بضعة اسابيع على قيام ثورة 23 يوليو (تموز) 1952 خلفاً للأمين العام الأول عبد الرحمن عزام، الذي إستقال بعدما أمضى ست سنوات في هذا المنصب. ولو أن الدول الأعضاء كسرت هذا العرف وإختارت غير تونسي (الشاذلي القليبي) ليكون أميناً عاماً بعد نقل مقر الأمانة إلى تونس عقاباً لمصر على تقرد الرئيس أنور السادات بعقد معاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل، وإضطرار محمود رياض إلى الإستقالة بعد الإستهانة من جانب العراق بمنصبه، لكننا الآن نشهد عملية إختيار غير تقليدية لمنصب الأمين العام للجامعة، كأن يتم ذلك بأحقية الترشح لجميع الدول الأعضاء، وبأن يتم إختيار الأصلح بصرف النظر عما إذا كان بمؤهلات من هو من دولة المقر أو من أي دولة عضو أخرى. كما أن كسر العرف كان ممكن الحدوث لو أن الدول الأعضاء بعد إستعادة مصر عضويتها وعودة الأمانة العامة إلى المقر في القاهرة إرتأت أن يتم إعتقاد حرية الترشح، وأن يكون هنالك أكثر من مرشح يتم من بينهم الأصلح، وأن يكون هنالك تعديل للميثاق ينص على ذلك ويحدد مدة شغل المنصب بدورة واحدة من ثلاث سنوات، وذلك لكي يتسنى لكل الدول الأعضاء، ان تتال فرصتها. ولكن الرئيس مبارك إختار الدكتور عصمت عبد المجيد الذي كان مثل عمرو موسى عند حسن ظن الدول الأعضاء التي إرتأت أن الوقت غير مناسب لإعادة النظر في العرف ولأن العقوبة الجائرة التي ألحقوها بمصر عندما أسقطوا عضويتها توجب عليهم مراعاة مشاعر الرئيس الجديد حسني مبارك، الذي لولا إغتيال الرئيس السادات من جهة، ومرونة

مبارك وكياسته من جهة أخرى، لما كان لمصر أن تستعيد عضويتها. لكن ذلك لا يعني أن القمة الدورية الأولى في عمان لن تكون مناسبة لمناقشة أمر العرف في ما يتعلق بمنصب الأمين العام للجامعة العربية، وبحيث تكون الصيغة المعتمدة في مجلس التعاون الخليجي، وفي منظمة المؤتمر الإسلامي، وفي منظمة الوحدة الأفريقية، هي الحل الذي يقطع الطريق على أي همسات في العلن أو وراء الكواليس، وإنطلاقاً من تعديل العرف بحيث أن المقر غير خاضع للإستبدال، أما الأمين العام فبال تداول ووفق قاعدة الإنتخاب بأكثرية الثلثين.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 8 مارس (آذار) 2001

* * *

إنطباعات من الكويت: الولادة

العسيرة... والولادة الأعسر (2 . 2)

إنتهى الجزء الأول من هذه الإنطباعات (مقال الأربعاء الماضي) بإلقاء نظرة على الأسلوب الذي إعتده خلال فترة إستشارات الولادة العسيرة للحكومة العشرين في تاريخ الكويت، التكتل النيابي الذي يتصدره رئيس مجلس النواب السابق النائب أحمد السعدون، ويضم في عضويته النائب سيد حسن القلاف (من الإسلاميين)، وقلنا إنه إعتد في فترة الإستشارات أسلوباً حاسماً حيث أنه صاغ ما يجوز إعتباره «البلاغ رقم واحد»، أو مشروع مسودة البيان الحكومي، وذلك عندما حدد هذا التكتل الذي ضم 12 نائباً مطالبه في بيان إستهلوه بالتذكير بالمادة 91 من الدستور، وأشرنا إلى أن القصد من هذا التذكير هو طمأنة الأمير إلى حسن نياتهم. أما الذي كان يلفت الإنتباه أكثر من أي أمر آخر خلال فترة الإستشارات، فهو العزوف عن التوزير وكثرة المعتذرين عن قبول المنصب الوزاري. ومثل هذا العزوف لم يسبق حدوثه من قبل، لا في الكويت نفسها، ولا في دول أخرى من بينها لبنان وتونس والأردن ومصر حيث المنصب الوزاري أمنية، وحيث الحصول على مثل هذا المنصب يستحق الكثير من الإشتراطات والتنازلات والمبالغات في الولاء. ولا يعني أن الذين استشسروا في الكويت لا يريدون مثل هذا الجاه، أو أن زهدهم إزاء الإنتساب

إلى مجتمع أهل الحكم هو ما يجعلهم يعتذرون عن قبول المنصب الوزاري، وإنما السبب في هذا العزوف هو سيف الإستجابات (من نوع إستجاب القلاف)، التي إشتهر بها برلمان الكويت، وبحيث بات أي وزير يخشى من أن يعصف به إستجاب من الإستجابات، ومن أجل ذلك أمكن ملاحظة تكاثر عدد المعتذرين عن عدم المشاركة في الحكومة. وتلك نقطة لمصلحة الحياة البرلمانية الكويتية، التي يبدو فيها البرلمان رقيباً على الحكومة، وبصرف النظر عما إذا كان وزراؤها من علية القوم أو من عائلات الكويت المشاركة في صيغة الحكم. كما أن هذه الظاهرة نقطة لمصلحة الأمير الشيخ جابر الذي لا يتدخل ولا ينحاز عندما تصل الأمور إلى نقطة التجبر نتيجة إستجاب يعصف بوزير فيضطره إلى الإنسحاب بهدوء، أو يعصف بحكومة فيضطرها إلى الإستقالة على نحو ما حدث مع ولي العهد ورئيس الحكومة الشيخ سعد، الذي أبلغ إستقالة حكومته إلى الأمير يوم الإثنين 29 يناير (كانون الثاني) الماضي، مبرراً ذلك «بسبب المعوقات والظروف التي تعرقل عمل الحكومة». وهي إستقالة كان لافتاً أن بيان الإستقالة لم يُرفق على نحو ما هو مألوف بتحديد إسم من سيتم تكليفه بتشكيل الحكومة الجديدة. ويصعب على المرء أن يجزم بمن هو المسبب للإستقالة، وما هو السبب: هل أن الشيخ صباح الأحمد بتقديمه إستقالته إلى الشيخ سعد في اليوم السابق (وتلاه وزراء آخرون) كان ينقذ سيناريو لمصلحة أن يكون هو الرئيس الفعلي والتنفيذي في آن واحد للحكومة التي يعاد تشكيلها، وهو ما لم يحصل عليه بالكامل في التشكيلة الجديدة التي جاءت من حيث تقاسم الحقائق كحصص وكنوعية يمثل التقاسم الذي حدث بين الرئيس اللبناني اميل لحود ورئيس الحكومة رفيق الحريري قبل ثلاثة أشهر بحيث باتت الحكومة تضم وزراء يخصصون الرئيس لحود ووزراء يخصصون الرئيس الحريري وبعض الوزراء الذين يحاولون أن يقال عنهم بأنهم يخصصون الإثنين في وقت واحد؟

أم ان السبب الحقيقي هو الوضع الوزاري غير المتناسك، من جهة، وزيادة نسبة هيبة السلطة التشريعية (البرلمان) يفرضها على السلطة التنفيذية (الحكومة)، فضلاً عن سيف الإستجابات المسلط فوق بعض الرؤوس الوزارية هو السبب الحقيقي؟ تبقى الإشارة إلى أن الحكومة الجديدة قد تحقق

الرغبة تحتاج إلى أسلوب تخاطب جديد، وإلى وقف الهجوم على الكويت، وعدم إستفزاز الأشقاء الكويتيين. وكان الرئيس مبارك يقصد بذلك ما صدر عن عدي صدام حسين النائب في البرلمان العراقي، والذي دعا إلى وضع اسم الكويت ضمن خارطة العراق، فأثار بذلك حفيظة الكويتيين، وأثار في الوقت نفسه عاصفة من الغبار حجبت رؤية الصفاء النسبي الناشئ عن المساعي النشطة لتحقيق مصالح عربية متدرجة، وهي مساعٍ قطعت شوطاً لا بأس به بفضل إنتفاضة الأقصى، بعدما جاءت المشاركة بالاجماع في القمة العربية الإستثنائية في القاهرة في أكتوبر (تشرين الأول) الماضي، والتي تمثل العراق فيها بنائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزت ابراهيم. وتلت هذه المشاركة إختراقات متدرجة للحصار الجوي، ووصول عشرات الطائرات المحملة بالوفود والأدوية إلى مطار صدام (مطار العاصمة العراقية) من دول عربية وأجنبية وصديقة. وبعد هذه التطورات جاء الإتفاق الإقتصادي البالغ الأهمية بين العراق ومصر، وتلاه إتفاق مماثل بين العراق وسوريا، وسبقهما إتفاق متقدم بين العراق والأردن، وفتح معبر عرعر الحدودي بين العراق والسعودية لتسهيل التوريد السعودي المنشأ والتصنيع وبكميات ملحوظة مبيعة من العراق. ثم كانت المصافحة الشهيرة في تونس بين وزيرى داخلية السعودية والعراق لتعزز الإنطباع بأن الأمور سائرة في إتجاه وفاقى.

ومن حق الرئيس مبارك في ضوء هذه التطورات الإيجابية أن يفاجأ ويأسف بأن تصدر في الوقت نفسه وبالذات عن ابن الرئيس العراقي دعوته إلى إدراج إسم الكويت ضمن خارطة العراق، الأمر الذي فتح جرح الإحتياج من جديد في النفوس، وأعاد التذكير بمقولة الفرع والأصل، وهي المقولة التي عادت على العراق بالتدمير والحصار المتواصل للسنة العاشرة على التوالي. ولولا الإتفاق الإقتصادي من جهة ودعوة عدي من جهة أخرى، علماً بأن أحد مراميها هو الضغط لا أكثر، لما كان الرئيس مبارك إستعجل زيارة الكويت التي جاءها من تونس، وهو الذي كان قرر على ما يبدو تعديل التقليد الذي درج عليه، وهو زيارة الكويت مرة وأحياناً مرتين في السنة.

وقد إرتاح البال الكويتي، على نحو ما لمسته خلال لقاءات لي مع شخصيات كويتية رسمية وعامة، لهذه الزيارة، لأن الرئيس المصري أثر أن تكون يومين،

توازناً مدروساً بين جناحي الصيغة الكويتية، خصوصاً بعدما لم يحصل ليراليو الكويت على الحقيقتين اللتين ركزوا الأنظار عليهما متمنين الإستثثار بهما، وهما وزارة الإعلام التي أنيطت بشيخ شاب تربطه علاقة طيبة بالإسلاميين (فهد الأحمد الصباح، ابن شقيق الأمير وأيضاً ابن شقيق النائب الأول الشيخ صباح)، ووزارة التربية والتعليم العالي التي أنيطت بالدكتور مساعد الهارون، وهو شخصية مستقلة عزز إستقلاليتها عمله كمنسوب لبلاده لدى منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) منذ العام 1998. كما أن من شأن التوازن المشار إليه أن يزيل الكثير من الإحتقانات، ويمهد السبيل أمام علاج جذري للوضع الإقتصادي المتردي، فضلاً عن أن الحكومة الجديدة قد تجعل أهل القرار أكثر إطمئناناً إلى أن أمور الدولة تسير في إتجاه الإستقرار وعودة الإزدهار، وأن الجيل الثالث من سلالة آل الصباح سيأخذ في ظل مناخ سياسي موضع القبول والترحيب فرصته الأولية من خلال الحكومة الجديدة التي كانت ولادتها عسيرة... لكنها ليست بصعوبة الولادة الأعسر وهي مصالحة الجارين اللودين العراق والكويت والتي جاء الرئيس حسني مبارك من أجلها زائراً ومستفسراً ومتمنياً.

جاء الرئيس مبارك إلى الكويت بعدما كان زار المملكة العربية السعودية وأجرى محادثات مع الملك فهد وولي العهد الأمير عبدالله ثم زار مسقط وتونس بعد ذلك قبل أن يحط به المقام في الكويت. وعلى رغم حرص الأوساط الرسمية على التأكيد بأن الرئيس مبارك لم يأت وسيطاً، فإن الرجل جاء ليقول لأصدقائه أهل الحكم الكويتي ما سمعه من طه ياسين رمضان نائب رئيس الجمهورية في العراق، الذي كان جاء إلى القاهرة على متن طائرة عراقية ولقي إستقبالاً رسمياً وترحيباً شعبياً ملحوظين، وما سمعه هذا بدوره من الرئيس صدام حسين، أي على نحو أسلوب عن فلان عن فلان عن فلان. وما سمعه من طه ياسين رمضان منقولاً عن الرئيس صدام أو منسوباً إليه رواه الرئيس مبارك بصيغة خلاصتها أن المسؤول العراقي الكبير (أي طه رمضان) قال للرئيس مبارك ما معناه أن النظام في العراق على إستعداد للحوار مع الحكومة في الكويت «وإنني انقل إلى سيادتك رغبة السيد الرئيس صدام والقيادة العراقية في هذا الشأن»، وأن الرئيس مبارك قال لضيفه العراقي ما معناه ان هذه

بوش الابن وحليفه طوني بلير رئيس وزراء بريطانيا
العرب ييلسمون في قمة عمان بعد بضعة أسابيع
جراحهم بأنفسهم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 14 مارس (آذار) 2001

خشبة الخلاص لصالح طريف... وغيره

عندما إختار «حزب العمل» في إسرائيل وزيراً عربياً لكي يكون ضمن التشكيلة الشارونية إبتهج بعض الفلسطينيين بهذا الإختيار. وكانت بعض أوساط الرئيس ياسر عرفات من بين هؤلاء المبتهجين لسبب يصعب فهمه. وفي الوقت نفسه كانت مثل هذه الخطوة حجة لدى الإدارة الأميركية لكي تقول عبر قنوات الإتصال غير المرئية مع الرئيس عرفات ما معناه، أنه إذا كانت الحكومة الإسرائيلية قد وصلت إلى وقت لا تمنع في أن يكون من بين أعضائها وزير عربي، وهذا أقصى درجات المرونة والتفهم والرغبة في التعاون، فلماذا لا تصدر عنكم خطوات مماثلة، وفي مقدمة هذه الخطوات وقف الإنتفاضة، وبذلك نفتح صفحة جديدة في الحالة التفاوضية بينكم وبين حكومة شارون.

هذا هو المنطق الأميركي، وذاك كان الغرض من توزيع العربي صالح طريف، الذي ينتمي إلى الطائفة الدرزية الكريمة، في حكومة شارون وزيراً من دون حقبة.

ما كان المرء يتمناه عندما رمى «حزب العمل» بهذا اللغم، الذي رحب به كل الترحيب أرييل شارون، هو أن ينتهز صالح طريف هذه المناسبة ويعتذر عن المشاركة في الحكومة، وبذلك يكفر عن الفترة التي أمضاها كضابط في الجيش الإسرائيلي، خصوصاً انه خطا الخطوة الأولى على طريق التكفير عندما قال في مقابلة أجراها التلفزيون الفلسطيني معه يوم 23 يناير (كانون الثاني) الماضي، أن زيارة شارون للحرم القدسي الشريف كانت تدنيساً للحرم، وأنه يحذر من إمكان إنتخابه رئيساً، كما انه «يأسف لأن الدروز يخدمون في الجيش الإسرائيلي ويحاربون اخوتهم، وأنه اذا لم تضع إسرائيل حداً للنزاع بإقامة دولة فلسطينية، فلن يكون أمام الطائفة العربية الدرزية بد سوى إعادة

وأبلغ اهل الحكم الكويتي بأن العلاقة الإقتصادية المتطورة، والتي بلغت الحد الأقصى بين العراق ومصر لن تكون على حساب الكويت، بل انها يمكن أن تقيد الكويت ما دام الإتجاه العام للمزاج الكويتي بدأ يتقبل الواقع الجديد للموقف العربي والدولي عموماً، والذي بات يرى ان تصبح «الحالة» وهي (التسمية الرسمية المستجدة) بين العراق والكويت، والتي كانت تحمل تسمية «العداوة» قبل ثلاثة أشهر مجرد أزمة ثنائية سياسية مستحكمة بينهما وترك الأمر لكل دولة عربية او صديقة تحدد المسافة بينها وبين هذه الأزمة، التي هي في بعض جوانبها مثل الأزمة التي كانت بين مصر والسودان في أعقاب محاولة اغتيال الرئيس مبارك في أديس ابابا على طريق المطار، ومثل الأزمة التي كانت بين سوريا والأردن وتلك التي لا تزال في إستمرار قابلة للإشتعال بين المغرب والجزائر و... والأمثلة كثيرة.

وفي ظل هذه الأزمة، وبالذات بعد ان تتزايد مشاركة العراق في القمم العربية ما دامت باتت دورية، يصبح من السهل على سعاة التوفيق بين المتخاصمين أن ينشطوا من أجل المزيد من الخطوات على طريق تحقيق حالة من التعايش تكون دون المصالحة وفوق الوضع الراهن، الذي بات يشكل عبئاً معنوياً ومادياً على الجميع دون إستثناء. وهذا تقريبا ما تلخصه روحية الرؤية المصرية - السورية المشتركة للوضع، وهي رؤية جاء الرئيس مبارك إلى الرياض يوم السبت 27 يناير (كانون الثاني) 2001 للحصول على مباركة القيادة السعودية لها، وفعل الشيء نفسه بعد ذلك (الإثنين 13 فبراير (شباط) الرئيس بشار الأسد، الذي كما الرئيس مبارك يعتبر أن هذه الرؤية، والتي تشكل الإتفاقات الإقتصادية مع العراق بعض ملامحها، لا يمكن ان تصمد اذا كانت لن تحظى بموافقة السعودية عليها او مباركتها على نحو ما يتمنى الرئيسان حسني مبارك وبشار الأسد. وإذا كانت الإدارة الأميركية الجديدة بعد العملية الجوية يوم الجمعة 16 فبراير الماضي التي قوبلت بإستهجان عربي شامل والتي حدثت ومن قبل أن تكتمل فرحة الكويتيين بولادة الحكومة لن ترد عليها بالمزيد من العمليات وبالكثير من المعوقات والإعتراضات والتحفيزات، فضلاً عن أن هذين الأمرين يمهدان الطريق أمام بعض التقدم على طريق تخفيف نسبة العسر في تطوير «الحالة العراقية - الكويتية» نحو الأفضل... شرط ان يترك

ترتيب أوراها، وتبني موقف شجاع مهما كلف الثمن»، وفي المقابلة نفسها وصف ناتان شيرانسكي وتسامي هنجبي (أصبحا أيضاً وزيرين في حكومة شارون) بأنهما فاشيان.

لكن الذي تمنيناه لم يحدث، وبات صالح طريف وزيراً في التشكيلة الشارونية. وعندما تعمدت صحيفة «يديعوت أحرونوت» تذكيره بموقفه الجيد المشار إليه، ونشرت مقتطفات من تلك المقابلة للتدليل على أنه ينطق بلسانين، وأنه صاحب وجهين، فاجأنا الوزير طريف بكلام إستدار منه على نفسه، محاولاً من أجل الحفاظ على المنصب الوزاري، التكرار لما قاله للتلفزيون الفلسطيني، وإعتبرناه بمثابة خطوة جيدة على طريق تصحيح موقف خاطئ أو التكفير عن خطيئة المشاركة في جيش يعتدي على العرب ومن دون التمييز بين طوائف ومذاهب هؤلاء مسلمين كانوا أو مسيحيين، شيعة أو موحدين، أطفالاً أو مقاتلين، نساء أو مسنين.

ولمجرد أن نشرت الصحيفة الإسرائيلية تلك المقتطفات التي تذكر فيها صالح طريف أصله، وما لا يمكن أن تسامح فيه طائفته، فإنه إتصل على الفور بالإذاعة الإسرائيلية طالباً كوزير في الحكومة إجراء حوار معه. وفي هذا الحوار قال إنه أدلى بأقواله إلى التلفزيون الفلسطيني ليقنع المواطنين العرب في إسرائيل بالتصويت لمصلحة باراك. وأضاف: «ولقد حصل لي ما يحصل لآخرين يتقوهون بتصريحات خلال معركة إنتخابية ثم يندمون عليها، ولو سئلت اليوم السؤال نفسه لما كنت أقول إن شارون دُس الاقصى بزيارته». وعندما سأله المحاور عما إذا كان يتخبط بين تعاطفه مع الفلسطينيين وتضامنه مع إسرائيل قال: «يبدو أنك نسيت انني كنت جزءاً من معركة الدفاع عن دولة إسرائيل مدة ثماني سنوات ضابطاً في الجيش، ولم أحجل ذات مرة في القول انني خدمت في الجيش الإسرائيلي، وانني على إستعداد لإرسال أبنائي إلى الجيش للدفاع عن الدولة، حتى إذا تعرضت حياتهم للخطر، فأقاربى جميعاً يخدمون في الجيش».

هذا الموقف المخجل من جانب صالح طريف، الوزير في التشكيلة الشارونية، يعكس مدى التمزق في الشخصية العربية، الذي يكابده عرب إسرائيل الذين اضطرتهم الظروف إلى أن يبقوا ويتناسلوا في ظلال الاحتلال الإسرائيلي لوطنهم، وهو بمثل التمزق في

شخصية الذين هم من أصل عربي ويخدمون في الجيش الأميركي، وتضطربهم الظروف إلى أن يخوضوا حرباً ضد بني قومهم. ومثل هذه الحالة الشاذة لا يمكن معالجتها بغير تعميق التربية الوطنية من جانب الأهل، وبحيث لا يتباهى هؤلاء بأن أولادهم يخدمون في جيش من مهامه قتل بني قومهم العرب أحياناً. ومن المؤكد لو أن أهل صالح طريف زرعوا في نفس ابنهم مثل هذه التربية لما كانت قد وصلت به الحال إلى هذه الإنتهازية التي وصل إليها، وجعلته يتباهى في حديث مع الإذاعة الإسرائيلية بأنه على إستعداد لإرسال أبنائه إلى الجيش الإسرائيلي للدفاع عن الدولة «حتى إذا تعرضت حياتهم للخطر». وإذا كان يظن أن هذا القول سيجعله مقبولاً في المجتمع الإسرائيلي، الذي هو في الاصل قائم على التناقضات، فإنه مخطئ. وثمة نقطة بالغة الأهمية، وهي أن مشاركة عربي في حكومة شارون معناها أن هذا الوزير ملزم بأي قرار تتخذه هذه الحكومة، حتى إذا كان هذا القرار هو بدء حرب إبادة ضد الشعب الفلسطيني، بما في ذلك عرب فلسطين جيران صالح طريف، وبالذات الذين إختاروا ما أوحى به ضميرهم الوطني عندما قاطعوا الإنتخابات، او عندما يشارك بعضهم في الإنتفاضة، ولو بشيء بسيط من الحيوية.

على رغم كل ما صدر عن صالح طريف سنبقى متقائلين بأن الرجل سيعود إلى مكانه الطبيعي، وذلك بعد صحوه يتذكر فيها أنه من الموحدين، وأن العمق الوطني والعروبي لهذه الطائفة لا يتحمل خروج أحد أبنائها عن الصراط المستقيم. والمكان الطبيعي الذي نقصده هو ما يلخصه الخيار الذي اوضحه الزعيم الدرزي وليد جنبلاط من خلال قوله لصحيفة «كل العرب»، التي تصدر في الناصرة تعليقاً على ظاهرة صالح طريف: «إن على طريف أن يختار، فإذا ان يكون درزياً صهيونياً أو درزياً عربياً، فإذا إختار الطريق الأول فلا فرق بينه وبين شارون، وإذا إختار الطريق الثاني فعليه ان يطالب بخروج الجنود الدروز من الجيش...»، ثم كرر جنبلاط القول امام وسائل الإعلام في بيروت تعميماً للتنبية والتحذير والتضحية. وفي هذا الكلام الذي له صفة الفتوى السياسية تصدر عن زعيم درزي مرموق ورث عن والده كمال جنبلاط صفاء الوطنية والعروبة، إلى جانب الموقع القيادي، ويدرك حقيقة مرامي الصهيونية، ويعرف أي توظيف شرير تمارسه إسرائيل مع أبناء الطائفة الدرزية... في

هذا الكلام يرمي وليد جنبلاط بخشبة خلاص لصالح طريف، ولكل درزي يخدم إسرائيل، بالإختيار أو الإضطرار سياسياً أو عسكرياً، لكي يسارع إلى انقاذ هيئته وسمعته، وذلك بأن يكون داخل حكومة شارون ذلك الصوت الذي يعترض بهدف التصحيح، أو يغادر المنصب مختاراً قبل أن يجد نفسه يغادره مطروداً ومُهَاناً.

في هذه الحال، سيبدو واضحاً كل الوضوح أن توزيع صالح طريف كان لغماً أو كان وزيراً طريفاً لا أكثر، وأن هذا التوزيع كان سيبدو مقنعاً ومقبولاً وعلى نحو ما يحصل لعشرات العرب في الولايات المتحدة وغيرها، الذين يصلون إلى أرفع المناصب، في ظل نجاح العملية السلمية وقيام دولة فلسطين وعاصمتها القدس، وليس تحت راية سفاح جيء به ليكمل العدوان على الفلسطينيين، ويلقي بالمزيد من الإهانات للهيبة العربية.

وهي حقيقة لن يلغيها تملق جنرال الخارجية الأميركية كولن باول لإسرائيل، وإعلانه أن القدس عاصمة لها، ولا يلغيها أيضاً تراجع صالح طريف عن إتهامه شارون بأنه دنس المسجد الأقصى عندما إقتحم الحرم الثالث بحماية بضعة ألوف من الجنود المدججين بالسلاح، أرسلهم إليه باراك من باب الإهتمام والمداينة، أو من باب التوريط... لا فرق.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 21 مارس (آذار) 2001

* * *

قمة على مرمى حجر.. من الإنتفاضة

من محاسن الصدف أن المملكة الأردنية الهاشمية كانت الدولة التي أتاحت لها الأبجدية إستضافة القمة العربية الدورية الأولى، فالأردن على خط التماس مع فلسطين الدولة المؤمل قيامها، والدولة بدورها على خط التماس مع إسرائيل التي إنتهى الأمر بعد نصف قرن من الحروب والتشريد والإقتتال وإهدار المال والسلاح على حساب التنمية والديمقراطية إلى التسليم بوجودها دولة شقية وسط تجمع دول شقيقة يغلب التنافر على معظمها مع أن عوامل القربى والتآلف كثيرة. ولأن القمة الدورية الأولى إختارت أن يكون الوضع الفلسطيني هو قضيتها الأولى أو يكون

الواجهة البراقة التي من ورائها وداخل الدهاليز والردهات سيتم في العلن أو في الكواليس التباحث في القضايا الأخرى ومنها المصالحة، فإن إنعقاد القمة في الأردن هو الإنعقاد الأفضل وذلك على أساس أن الملوك والرؤساء العرب سيكونون على مرمى حجر من إنتفاضة الأقصى المتواصلة بإصرار المؤمنين بقضيتهم المعبرين عن غضبهم ومرارتهم وأحزانهم وشقائهم وإهمالهم بالحجارة يرمون بها شذاذ الآفاق الذين يضيفون ساعة بعد أخرى المزيد من الإستهانة بأمة المنتني مليون عربي وأمة المليار مسلم.

ونعتقد انه مجرد أن يلتقي أهل القرار العربي في عمان على مرمى حجر من فتية فلسطين الشجعان رماة الجنود والمستوطنين الإسرائيليين بالحجارة، فإن شعوراً مزدوجاً بالمسؤولية سيحدث وسيكون حدوثه للمرة الأولى. شعور من جانب القادة العرب بأن عليهم نجدة هؤلاء الشجعان ونصرة قضيتهم ومؤازرة نضالهم النابع من ايمانهم، وشعور من جانب فتية الإنتفاضة بأن عليهم مواصلة النضال إلى أن يرفرف علم دولتهم فوق عاصمتهم القدس وتطمئن المقدسات الإسلامية والمسيحية إلى أنها باتت في منأى عن عريضة الجنود الإسرائيليين. ومثل هذا الشعور أحسوا به قليلاً بعد قمة الأقصى في القاهرة قبل خمسة أشهر، لكن الشعور به هذه المرة مختلف وذلك لأن بينهم وبين أهل القرار مرمى حجر ولأنهم يشعرون بأنهم عندما ستنعقد القمة العربية الدورية الأولى بيانها الختامي اليوم بأن عليهم أن يريحوا أيادهم من رمي الحجارة لبعض الوقت كي يصفقوا لأولي الأمر القادة العرب الذين كانوا عند حسن الظن كما لم يكونوا بهذا الفيض من الحماسة لهم في القمم السابقة.

ومن حُسن حظ الوضع العربي المتأزم أن القمة الدورية الأولى تتعقد في العاصمة الأردنية عمان، وأن مضيفها هو الملك عبدالله الثاني الذي أظهر في سنته الأولى من توليه المسؤولية أنه كان أهلاً لها وأن الإبن إكتسب من والده الراحل الملك حسين المرونة والحنكة والقدرة على ركوب الموجة العاتية عند الضرورة وعلى الانحناء امام العاصفة الهوجاء عند الإضطرار. ولقد توافرت في المملكة الأردنية وملكها شمائل ومواصفات تجعل مصادفة الإنعقاد الأول للقمة الدورية في عمان وكما لو أنه اللحظة التي يجب على أولي الامر إغتنامها وتوظيفها أفضل توظيف. فالأردن على علاقة طيبة بالجميع، وملكها الشاب أضاف المزيد من

في بحر الغضب الشعبي إذا كانت تلك الحكومة وبالذات شارونها لن ترد على الرغبة العربية بالسلام بالمزيد من المرونة ووقف الإستفزاز. وهي مصادفة تلتفت الإنتباه إلى أن القمة الدورية الأولى تتعقد مباشرة بعد تمكن شارون من الوصول إلى ترؤس الحكومة في إسرائيل وبعد زيارته الأولى كرئيس حكومة إلى الإدارة الأميركية الجديدة التي رحبت بمقدمه ايما ترحيب، وكأنما القمة في هذه الحال تتعقد لمواجهة بدء عهد جديد من العلاقة بين إسرائيل الليكودية واميركا الجمهورية، او في الحد الأدنى لاستتباط رؤية تقابل هذا التحالف المستهجن بين حكومة إسرائيلية يترأسها سفاخ هو آرييل شارون وإدارة جديدة في البيت الأبيض من المفترض في رئيسها جورج بوش والطاقم المساعد له، وبالذات وزير الخارجية كولن باول، جنرال حرب تحرير الكويت والعدوان على العراق ونائب الرئيس ديك تشيني ان تكون متقزمة للموقف العربي أكثر من اي إدارة في اميركا خلال اربعة عقود. وهنالك الكثير من الاسباب الموجبة للرد على التحية السيئة للعرب من جانب الإدارة الجمهورية بوقفة حازمة تجعلها تتأمل التطورات التي تحدث في العالم وكيف أن روسيا فلاديمير بوتين التي نجحت إلى حد ما في استقطاب إيران والعراق وربما سوريا قد تتجح في إصابة الوجود الأميركي في المنطقة في عمق قدراته، وقد تستقطب المزيد من الدول العربية إلى جانبها، خصوصاً أن الرئيس الروسي هو ابن مؤسسة الإستخبارات في بلده.. ومن تكون هذه حاله يصبح أكثر دراية بنقاط القوة والضعف عند الآخرين. وإذا إستمرت إدارة الرئيس جورج بوش على النهج الحالي فإن الذي يصيب أميركا في المنطقة هو نفسه ما اصاب الإتحاد السوفياتي عندما إستطاع الرئيس الراحل أنور السادات عام 1972 ان يهز هيئته وذلك بالغاء المعاهدة المعقودة معه وطرد الخبراء السوفيات وهما من أبرز الإجراءات التي إتخذها السادات إضطراراً رداً على تلكؤ القادة السوفيات في تفهم إحتياجات مصر ومطالبها على نحو عدم تفهم الإدارة الأميركية طوال أربعة عقود للمطالب والتمنيات العربية. وكانت الإجراءات الساداتية من بين الأسباب التي أدت إلى إنهيار الإتحاد السوفياتي بالكامل لاحقاً.

ويبقى أن القمة العربية الدورية الأولى قد لا تجتريح المعجزة ولا تحقق الإنجازات التي تكون في مستوى طموح الرأي العام العربي، ومنها المصالحة العربية -

التحسين إلى الهيبة الاردنية والمزيد من التصحيح للعلاقة مع الاضداد. ثم إن تجانساً كان مفقوداً في العلاقة السورية - الاردنية أيام المرحومين الملك حسين والرئيس حافظ الأسد، بات حاضراً ودائماً الإنتعاش في عهد القيادة الشابة في البلدين الجارين الشقيقين. وثمة مصادفة تدعو إلى التأمل، وهي ان غياب الرئيس حافظ الأسد جاء بعد أشهر من غياب الملك حسين.. وهكذا وجد الملك عبدالله الثاني والرئيس بشار الأسد أن عليهما بذل جهد إستثنائي لتصحيح مسار العلاقات ما دامت توافرت أمام هذه العلاقات رؤية يعززها طموح القائدين الشابين إلى أن يسود التفهم علاقتهما، ومتى وُجد التفهم بطل التأزم وتواري الخلاف.

وإلى ذلك ان الولايات المتحدة تطمئن إلى إحتضان الاردن للقمة الدورية الأولى مهما تنوعت مواد جدول أعمالها وتكاثرت، لأنها تدرك سلفاً أن من يترأس القمة وهو الملك عبدالله الثاني سيبقيها في منأى عن القرارات والتوصيات الصارخة التي يشعر، هُدياً بقاموس المفردات الذي ورثه عن والده، ان الإستراتيجية الأميركية ربما تنزعج منها. وهي لولا ذلك لكانت أمطرت القمة سلفاً بالكثير من التحذير والتهريب ولكانت ربما سعت إلى تعطيلها. وهكذا فإن القمة الدورية الأولى التي ترفع القضية الفلسطينية راية خفاقة لها لم تعد في نظر الإدارة الأميركية بمثل ما كانت عليه قمة بغداد عام 1990 التي دعا الرئيس ياسر عرفات إلى عقدها في بغداد فأنزعجت الإدارة الأميركية من الداعي ومن المستضيف وبعثت إلى القمة بشخص الأمين العام للجامعة العربية الشاذلي القليبي بمذكرة كانت من الخشونة بحيث أنها إستفزت الرأي العام العربي وأحرجت أصدقاء الولايات المتحدة الذين رأوا في هذا التحذير تدخلاً كثير البشاعة بالخصوصية العربية.

إلى ذلك أيضاً، ان القمة الدورية العربية الأولى تتعقد في دولة إرتبطت بمعاهدة سلام مع إسرائيل بينما نسبة الذين يعادون التطبيع بين السكان تصل إلى أكثر من 75 في المائة، ومع ذلك فإن المعاهدة صامدة، مما يجعل إسرائيل تتظر بعين الخشية إلى مثل هذا المؤتمر، وخصوصاً اذا وجد القادة العرب أن هذه القمة هي فرصتهم المضمونة النتائج لتوجيه تحذير إلى الحكومة الإسرائيلية الجديدة، خلاصته ان القبول العربي الراهن بالسلام مع إسرائيل قابل للذوبان

العربية، لكن مجرد أنها باتت دورية فإن ما لن يتحقق في القمة الأولى ربما يتحقق في القمة الدورية الثانية في مارس (آذار) المقبل، خصوصاً أنها ستعقد عملاً بالترتيب الأبجدي في دولة الإمارات حيث رئيسها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان يقرع الجرس ليلاً نهاراً منذ بضع سنوات داعياً إلى المصالحة.. إلا إذا أثمرت القمة التي سيستضيفها الرئيس حسني مبارك الخريف المقبل في القاهرة تحت المظلة الاقتصادية تحقيقاً لتلك المصالحة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 28 مارس (آذار) 2001

* * *

قمة على مشارف النجاح

لا أشاطر كصحافي مهتم بشؤون العالم العربي تسنى له ان يتابع ميدانياً مؤتمرات القمة منذ تلك التي دعا إليها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وعُقدت في القاهرة (13 - 17 يناير (كانون الثاني) 1964) وحتى القمة الدورية الأولى التي استضافتها العاصمة الأردنية الأسبوع الماضي (27 - 28 مارس (آذار) 2001) أولئك الذين أكثروا من الإستنتاجات التشاؤمية. فهذه القمة لم تكن بالسوء الذي إفترضه البعض، ولا هي أخفقت على نحو ما رأى البعض الآخر في نتائجها. بل من الجائز القول إن هذه القمة أضاءت ولم تطفئ، وأيقظت ضمائر ولم تذنب، وأثمرت وقفات مرشحة لأن تكون مواقف في حال إكتمل نمو الصحوحة العربية، كما أنها شكلت من خلال أجوائها وبعض قراراتها، وكذلك من خلال بعض المبادرات والأحاديث الجانبية، والمشاورات وراء الأبواب المغلقة، وفي كواليس قاعة المؤتمر، نوعاً من المصالحة بين الحكومات والمواطنين. والقصد من هذا القول إن عتب الرأي العام العربي على الحكومات كان كبيراً، لأنها لا تتعامل بالإهتمام الكافي والإيجابي مع القضايا العالقة، مثل الإنتفاضة والأزمة بين العراق والكويت، والحصار المستبد لبعض الدول العربية من جانب مجلس الأمن وقراراته المصاغة بإرادة التشفي الأميركية، والإمعان من جانب الإدارات الأميركية والحكومات البريطانية في مسايرة السياسة الإسرائيلية تجاه العملية السلمية. وبعد الذي قاله معظم رؤساء

الوفود في جلسات القمة، أو سمعته من بعضهم في مقر إقامتهم المحصن بالإجراءات الأمنية عن السياسة الإسرائيلية، وضرورة دعم الإنتفاضة، وتسهيل المسألة المالية التي بدت على جانب من التعقيد، وكذلك المطالبة برفع الحصار عن العراق، وعن ليبيا والسودان، إرتسمت في أجواء المؤتمر ملامح مصالحة بين الحكومات وجماهير الرأي العام العربي، التي شعرت أن أهل القرار بدأوا يقتربون من تفهم أمانيتها ومطالبها ومشاعرها، وأنها بعد الذي سمعته لا داعي للإكثار من النظاهرات، والإكثار من الشكوى والتأفف ما دام إقترب أولو الأمر من الرعاية المتباعدة نسبياً عنهم.

ونحن عند الإشارة إلى ما قاله معظم رؤساء الوفود نميز بين الكلام الذي قيل من منطلق العاطفة والتأثر، وبين الكلام الذي يشكل نقلة نوعية على صعيد الموقف، سواء من الإنتفاضة أو العملية السلمية أو الوجود الإسرائيلي، أو السياسة الإسرائيلية عموماً، أو الحصار المفروض على العراق أو المصالحة العربية. وفي هذا السياق تستوقف المتابع مثل حالنا عبارات من النوع الذي يمكن وضع خطوط تحتها، مثل دعوة مضيف القمة الملك عبدالله الثاني «إلى طي صفحة الماضي، وتجاوز الخلافات البينية، وفتح صفحة جديدة في العمل المشترك، ووضع حد لمعاناة العراق الشقيق، ورفع الحصار عن هذا البلد العربي، الذي كان على الدوام في طليعة الأمة في الدفاع عن قضاياها وحقوقها...»، وقول الرئيس حسني مبارك في معرض تسليمه رئاسة القمة إلى الملك عبدالله الثاني «أن الكيان العربي يعاني مصاعب غير مسبوقة، ولا بد من مضاعفة الجهود للم شمل، ونحن على اقتناع بأن الوقت قد حان لبدء تحرك نشط وفعال لتحقيق المصالحة العربية...»، وقول الرئيس ياسر عرفات «إننا سنواصل صمودنا الشعبي بكافة الوسائل المشروعة والمقررة دولياً، وإننا نأمل من القمة التأكيد على إستحالة الإستفراد بال فلسطينيين، أو التنازل عن حقوقهم...»، وقول الرئيس إميل لحود «إنه لا توجد عملية سلام بل خطة أمنية إسرائيلية برعاية دولية، وهذا الواقع يرتب علينا مسؤوليات متبادلة كل من خلال موقعه في مواجهة إسرائيل، وكل من خلال قدراته في هذه المواجهة، وكل من خلال كرامة الكل في هذه المواجهة، وإلاً صح فينا قول الآية الكريمة (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى)، فإن لم تكن كرزمة

الحطب المتراسة فإنه سيسهل كسرنا عوداً بعد عود...» (تجدر الإشارة إلى أن رئيس لبنان العماد إميل لحود ورئيس السودان الفريق عمر البشير، ورئيس جزر القمر العقيد غزالي عثمان كانوا الوحيدون الذين أنهوا كلماتهم بآيات قرآنية. والثلاثة عسكريون في الأصل).

كذلك يستوقف المتابع مثل حالنا قول الرئيس الدكتور بشّار الأسد انه «لا بد من القيام بحملة دولية لتثبيت شرعية الإنتفاضة، وأن رفع الحصار عن العراق لم يعد يحتمل أي تأخير، كما علينا أن نرتقي إلى مستوى طموحات شعبنا العربي وأن نتجاوز الخلافات، لأن ما يوحدنا أكثر مما يفرّقنا، والكل ينظر إلينا كعرب، أي اننا جميعاً في مركب واحد شئنا أم أبينا. ولقد اثبتت العقود القليلة الماضية ان الخلافات بين الدول العربية، مهما إشتدت وتعقدت، ستُحل عاجلاً أم آجلاً...» وقوله أيضاً: «إن حقيقة المجتمع الإسرائيلي هو مجتمع عنصري، وعنصري أكثر من النازية، ومن الضروري إعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية وتطبيق أحكام المقاطعة العربية لإسرائيل بإيقاف كل أشكال التعاون والتعامل معها من قبل الدول العربية، حتى تخضع لشروط السلام كلها، وتقوم بتطبيقه...» وقوله كذلك «إن حالة النهوض في الشارع العربي جاءت نتيجة للإنتفاضة، وعلينا دعمها، كما اننا نقول لإخواننا الفلسطينيين: عفا الله عما مضى، ونقف معكم في خدمة القضية الفلسطينية...». ويستوقف المتابع مثل حالنا أيضاً، وأيضاً مناشدة

الرئيس التونسي زين العابدين بن علي للمجتمع الدولي للإسراع برفع الحظر المفروض على العراق منذ عشر سنين، ورفع الحظر نهائياً وبصفة فورية عن ليبيا، لأنها أوفت بالتزاماتها، ودعوته القادة العرب إلى الإسراع في تنفيذ قرارات قمة القاهرة لدعم الشعب الفلسطيني، وقول الأمير سلطان بن عبد العزيز «إن فكرة الإنعقاد الدوري يجب ألا تكون غاية في حد ذاتها، بل وسيلة لتحقيق الإنجازات وبلوغ الأهداف المنشودة، وفي هذا الصدد يتعين علينا أن ندرك ضرورة تغيير أسلوبنا ومنهجيتنا في التعاطي مع القضايا التي تواجه أمتنا، وأول ما يتوجب علينا إدراكه وإستيعابه أهمية عدم الإستهانة بالأخطاء أو تجاوزها، وإنما التصدي لها ومعالجة الخلل الذي نجمت عنه هذه الأخطار والمزالق، التي حفل بها تاريخنا المعاصر، وأن أمتنا العربية بمشرقها ومغربها تتطلع

بآمال عريضة في أن تخرج هذه القمة، بإذن الله، بقرارات على مستوى التحديات، وعلى النحو الذي يعزز الأمن العربي، أو أن يتخذ خطوات فعالة وعملية نحو توسيع مجالات التعاون وتعميقها».

والى ما قاله وزير الدفاع السعودي هنالك قول وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل، وبصيغة التأكيد «إن المملكة العربية السعودية كانت دائماً ضد الأعمال العسكرية، وأعلنت مراراً وتكراراً، إنها لن تسمح بأن تكون أرضها منطلقاً لأي أعمال عسكرية ضد العراق، وهذا ما سيؤكدّه البيان الختامي إذا تم له التوفيق وتمت الموافقة علي...»، مضيفاً إلى ذلك القول «إن الخطاب السياسي العراقي لا يشجع ولا يطمئن، وإن عودة العراق إلى الصف العربي لن تأتي إلا بإجراءات سعودية...».

هذه الأقوال - المواقف وغيرها وردت في كلمات رؤساء آخرين أوجدت إنطباعاً بأن هنالك نقلة نوعية بالفعل في إتجاه البدء بترميم العلاقات العربية، بأمل المباشرة بخطوات متأنية ومدروسة على طريق تحقيق المصالحة، وأيضاً في إتجاه وقوف الدول العربية من خلال قرار موحد إلى جانب الإنتفاضة، خصوصاً انها في المحصلة النهائية تستهدف إنجاز العملية السلمية وفق المنظور الذي لا يخرج عن روحية مؤتمر مدريد، الذي هنالك إجماع عربي عليه بما في ذلك من جانب العراق في حال تم رفع الحصار عنه، وتطبيع العلاقات معه. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن تجيش العراق لسته ملايين عراقي لمواجهة إسرائيل لا يعني أن الرئيس صدام لا يمارس من خلال ذلك الضغط على المجتمع الدولي بهدف إلغاء الحصار المفروض على العراق منذ عشر سنين. وتجدر الإشارة في سياق الحديث عن هذا التصعيد المتواصل من جانب العراق إلى الرسالة التي تلاها بإسمه في اليوم الأول للقمة نائبه عزت إبراهيم، الذي ترأس الوفد إلى القمة ودعا فيها «إلى تجيش الجيوش من أجل تحرير فلسطين»، مؤكداً في معرض التركيز على أهمية «ضغط العروبة والإيمان وتلازمهما»، ان العراق «سيأتي بجيش آخره في بغداد وأوله يهز فرائص المحتلين الصهاينة...» وهذه المواقف، وغيرها بما في ذلك ما تضمنه البيان الختامي للقمة الملحق في اللحظة الأخيرة بفقرة تتعلق بتكليف الملك عبدالله الثاني كرئيس للقمة متابعة ملف الحالة بين العراق والكويت، وأخرى في «إعلان عمان» تدعو الجميع إلى

«تجاوز آثار أزمة الخليج، والتأكيد على ضرورة إنهاء معاناة العراق، والمطالبة برفع العقوبات المفروضة عليه، والتعامل مع المسائل الإنسانية الناشئة عن هذه الأزمة كقضية المفقودين والأسرى الكويتيين والعراقيين والسعوديين وغيرهم، إنطلاقاً من مبادئ تراثنا الديني والقومي والإنساني...».

إن هذه المواقف باتت سقفاً قد يصعب على أي طرف التنصل منها. وإذا كان الجانبان العراقي والكويتي تبادلًا تحميل كل منهما الآخر مسؤولية إلحاق فشل القمة - من منظورها - أو عدم إقبالها كما كان مؤملاً إلى مرتبة عالية من النجاح، فإن مجموعة الزعماء الستة التي تولت بذل المساعي الحميدة، وحاولت تقريب وجهات النظر بينهما، باتت تشكل مرجعية يمكن لها أن تقرر من هو المسؤول، أو تقرر عدم تحميل أي طرف المسؤولية بهدف بذل المزيد من الجهود لتحقيق وفاق بينهما. وبعد الوفاق تبدأ المصالحة، وربما قبل القمة الدورية الثانية في بيروت يومي 27 و28 مارس (آذار) 2002، أو خلال انعقاد تلك القمة التي فاجأ إختيار بيروت لها الرئيسين بشّار الأسد وإميل لحود. وما علينا سوى التفاوض بالخير على أمل أن نجد النجاح الكامل يحالف القمة المقبلة بعدما وصلت قمة عبدالله الثاني بتناقل ومشقة وتعقيدات... إلى مشارف النجاح.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 4 أبريل (نيسان) 2001

* * *

إيران وغيرها... وروسيا الخطّافة

على النحو الذي خطفت فيه الولايات المتحدة مصر من الإتحاد السوفياتي في السبعينات تحاول روسيا، الوريثة لتلك الدولة العظمى التي كانت تقود المعسكر الشيوعي وتنافس أميركا على زعامة العالم، إستدراج إيران إلى أن تكون نجمتها الساطعة في الشرق الأوسط مستغلة في ذلك الرغبة الإيرانية من جهة والخيبة الخاتمية من أميركا ودول الغرب عموماً من جهة أخرى.

كانت إيران الشاهانية في الستينات هي النجمة الساطعة للنفوذ الأميركي في المنطقة وكان السلاح الأميركي يأتيها على أهون السبل. وفي الحسابات

الأميركية زمناً أن إيران القوية عسكرياً هي الحصن الذي في إستطاعته أن يحد من إندفاع الشيوعية في إتجاه دول المنطقة خصوصاً أن الأصوليين لم يكونوا تناموا في بعض هذه الدول لكي يشاركوا من خلال الفكر الديني في مواجهة الماركسية. وبسبب هذا التركيز من جانب الولايات المتحدة على تسليح إيران جواً وبراً وإلى درجة أن المواقع الحدودية في إتجاه جمهوريات الإتحاد السوفياتي باتت بمثابة الجبهة الحقيقية التي فقط تنتظر شارة البدء لإطلاق الصواريخ... بسبب هذا التركيز إعتبر الشاه محمد رضا بهلوي أنه في المكانة التي تجيز له أن يملّي شروطاً على الإدارة الأميركية وأن يحدد مساحة الرقعة التي يمارس فيها دوره كشرطي للمنطقة. وقد ترتّب على ذلك أنه زاد في الوقت نفسه من شدة قبضته الحديدية داخلياً وأطلق يد «السافاك» في شؤون البلاد والعباد، وهذا كله أوجد حالة من الذعر في المخطط الأميركي وبحيث وجد راسمو الخطط في البنتاغون والأمن القومي والـ «سي. آي. اي» أن الإستغناء عن الشاه من شأنه أن يفسح في المجال أمام وصول بدائل إلى الحكم ومن بينها رجال الدين الذين كانوا بدأوا يستقطبون الشارع الإيراني، وأن التعامل مع هؤلاء قد يكون أفضل على أساس أن رجال الدين في إيران، بدءاً من كبيرهم آية الله الخميني الذي إتخذ من فرنسا مقراً مؤقتاً لقيادة الثورة ضد الشاه وصولاً إلى صغار الشيوخ في حوزات «قم» وبقية المدن الإيرانية، هم ضد الشيوعية وبالتالي لن يكونوا سوى القلعة الأكثر قوة في مواجهة التطلعات السوفياتية.

كانت تلك حسابات أهل القرار الإستراتيجي الأميركي ومن دون أن يخطر في بال هؤلاء أن رجال الدين في إيران لن يكونوا جزءاً من البديل للشاه، وإنما سيكون هؤلاء هم النظام بالكامل وهم الثورة التي ستنتم ليس فقط من الحكم الشاهاني وإنما من السياسة الأميركية في المنطقة انطلاقاً من اقتناع راسخ لديهم بأن سبب العلة في إيران هي أميركا وأنها في نظرهم «الشیطان الأكبر». ومنذ اليوم الأول لإسقاط حكم الشاه بعد العودة المضطربة للإمام الخميني من منفاه الفرنسي، والحكم الثوري في إيران يخوض صراعاً مع «الشیطان الأكبر» لم تهدأ حلقاته إلا بعد عملية ترويض سعودية لأهل الحكم في إيران شجع على تحقيق بعض النجاح فيها أن صحوة مفاجئة حدثت في الرأي العام الإيراني الذي إقترح بحماسة منقطعة

النظير لأحد رجال الصف الثاني في طبقة رجال الدين المسكين بزمام الأمور هو السيد محمد خاتمي الذي جاء فوزه بمنصب رئاسة الجمهورية مفاجأة غير متوقعة، وجاء الفوز لأن السيد الذي فيه بعض ملامح المهاتما غاندي يطرح أفكاراً اصلاحية تميل بعض الشيء إلى الليبرالية المدروسة والمتوازنة، وأنه يرى ضرورة فتح بعض النوافذ وتقليص مساحة المحرمات أو الممنوعات الثورية، وهي توجهات راقية كثيراً للجيل الشاب من الجنسين في إيران ونال خاتمي بسببها أكثرية الاصوات التي توجهته رئيساً مصلحاً ومصححاً. بدل أن تلقى التوجهات الخاتمية الترحيب من جانب الإدارة الأميركية وملاقة الرجل إلى منتصف الطريق، فإن إدارة الرئيس ك्लينتون التي كان النفوذ اليهودي عشت فيها وإستقر بدأت تتعامل مع هذه التوجهات بخفة ولا تزد على التحية الخاتمية بمثلها أو بأحسن منها، مع العلم أن التحية كانت واضحة كل الوضوح وأنها تطلب من أميركا ودأ على قاعدة الإحترام وتعاملأ على أساس مراعاة الخصوصية الإيرانية.

من الطبيعي أن هذا الموقف السلبي من جانب الإدارة الأميركية وعدم تجاوزها مع الرغبة في التطبيع التي أراها الرئيس خاتمي أخرجت الرجل كل الإحراج وبالذات في صفوف بعض آيات الثورة وشيوخها الذين ينتظرون على أحر من الجمر خطأ يقع فيه خاتمي، لكي يثأروا من الفوز المبين الذي حققه ويقطعوا الطريق على إمكانية فوزه بولاية رئاسية ثانية في مطلع صيف 2001. وجاءت رغبته في التطبيع مع أميركا وضمن الرؤية التي أشرنا إليها بمثابة الفرصة المناسبة للإنقضاض على هبة الرجل وتصوير الخاتمية على أنها مرحلة عابرة آن لها أن تتواری.

هذه المصيدة التي حاول خصوم الخاتمية وحسادها وقوع الرئيس خاتمي فيها تنبأ لها الرجل الذي جعلت منه سنوات رئاسته الأربع التي قاربت على الانقضاء شخصية تدرك دهاeliz العمل السياسي وأحابيل السياسيين حتى إذا كانوا معمميين ومجهدين، وجعلت منه ذلك الشخص الذي عليه إبتكار أساليب للمناورة تقيه مخاطر الإيقاع به. ومن هنا جاءت زيارته إلى موسكو يوم الثلاثاء 13 مارس (اذار) 2001 ثقل، بما حفلت به من نتائج على صعيد التسليح والتعاون النووي والعلاقة الإستراتيجية عموماً، الإدارة الأميركية، وترك الخصوم الذين يريدون الإيقاع به، وتجعل الحساد

يعيدون النظر في حساباتهم بعض الشيء. وكان إستقبال الرجل في موسكو تاريخياً من سيد الكرملين فلاديمير بوتين الذي بهر السيد الإيراني الزائر برقة غير معهودة في القادة السوفييات سابقاً والقادة الروس بعد ذلك مع زوارهم. وكان بوتين، الذي يحلم بأن يكون قيصر القرن الحادي والعشرين لبلاده، كمن هو في إنتظار هذه اللحظة يدخل فيها الكرملين السيد خاتمي رجل الدين الليبرالي التوجه وهو معمم وعلى كتفيه عباءته وفي جيبه سبخته ليسلمه نسخة فاخرة من كتابه عن حوار الحضارات مترجماً الى اللغة الروسية بدل أن يتم إرسالها اليه عبر مبعوث شخصي أو عن طريق السفير في طهران. وكان إنبهار الرئيس خاتمي بهذه اللفتة - الهدية من جانب الرئيس الروسي الشاب ملحوظاً، بل لعله كان المدخل الجيد للمحادثات التي تستهدف تقوية شأن إيران نووياً وعسكرياً.. وهو ما يتفق عليه الخاتميون وحساد الرئيس خاتمي على حد سواء.

ما فعله الرئيس خاتمي خلال زيارته إلى روسيا قبل شهر هو أنه فتح الباب بكثير من الرفق أمام قيادة روسية جديدة ربما تؤدي إلى تعاون عسكري أهم بكثير من ذلك التعاون بين الإتحاد السوفيياتي مع بعض العرب الذي إتسمت به مرحلة الستينات والسبعينات، وذلك على أساس أن من الممكن الإستفادة من أخطاء رافقت تلك المرحلة وعثرات وقعت فيها الأطراف بسبب التقديرات الخاطئة، او التفاعلات الإضطرابية، او عدم الرغبة في التوغل عميقاً في طبيعة تلك العلاقات. وفي الشهر المقبل سيزور وزير الدفاع الإيراني موسكو بهدف إبرام إتفاقات وفتح الباب أكثر وأكثر امام قدرات الجار الروسي المنهك إقتصادياً، لكنه ما زال على أتم الإستعداد لوضع خبرات علمائه في تصرف من يريد أو يحتاج من العرب في الدرجة الأولى ومن المسلمين وفي طليعتهم إيران في الدرجة الثانية، أو العكس. وما يلفت الإنتباه أنه منذ أن قام الرئيس خاتمي بزيارته إلى روسيا وبالذات بعدما زار مصنع «يورسكي» في سان بطرسبورغ حيث يقوم هذا المصنع العملاق في الصناعة الروسية الشهيرة بتوفير معدات المفاعل النووي الذي تبنيه روسيا في بوشهر جنوب إيران... ما يلفت الإنتباه أن الإدارة الأميركية منذ أن حدثت هذه الزيارة للرئيس خاتمي وهي تطلق التحذير تلو التحذير في السر وفي العلن،

لبنان وسوريا... والفرصة الذهبية التي لا تتكرر

أمضى اللبنانيون المحايدون الطيبون ومعهم بعض محبي بلدهم، وبالذات المملكة العربية السعودية، التي لولا الإتفاق الذي تم إنجازه في الطائف لما كان للحرب اللبنانية أن تتوقف، الأسبوعين الماضيين وهم على درجة من القلق بسبب الاجواء المفتعلة والمحمومة التي أوحى بأن البلد الذي بات آمناً هو على كف حرب أهلية جديدة. وما نقصده بقولنا «اللبنانيون المحايدون الطيبون» هو أن غالبية اللبنانيين ضد هذه الأجواء، ويريدون لبلدهم أن يستقر، ويفضلون مناقشة كل الأمور العالقة بعيداً عن التشنج ونبذ أساليب التلويح بالقوة والإحتكام إلى الفوضى والشغب بدل الإحتكام إلى العقل والضمير. وهؤلاء كانوا قبل الحرب التي إشتعلت يوم الثالث عشر من أبريل (نيسان) 1975، وطال إشتعالها وتشعبت فواجعها، مع أن يتم كل شيء تحت سقف الحوار والمناقشة المسؤولة، ولكن الغزباء إستحكموا ببعض الزعامات وإستعملوها كأدوات تقجير، وبات اللبنانيون في غالبيتهم وقوداً لحرب غير مفهومة كان يمكن أن تستمر حتى يومنا هذا لولا ان المملكة العربية السعودية بقيادتها الحكيمة والمخلصة رمت ببعض ثقلها المعنوي، وإستطاعت جمع رموز الصيغة اللبنانية على كلمة سواء. ونحن عندما نستحضر في الذكرى السادسة والعشرين لتلك الحرب ما الذي جرى على مدى شهر في الطائف ثم في جدة، نلاحظ أنها من المرات القليلة التي تقوم فيها قيادة بلد بكاملها في التعاطي مع موضوع بهدف إيجاد حل متوازن له، هذا فضلاً عن ان المملكة العربية السعودية لم تكن مجرد بلد مضيف، وإنما كانت، إذا جاز التوصيف وعلى مدى شهر كامل، بمثابة مستشفى أخذ على عاتقه نقل بلد بكامله إلى هذا المستشفى، الذي خصص غرفة عناية فائقة، وتولى العلاج طاقم متخصص يجمع إلى القدرة على العلاج مشاعر المحب للمريض الراقد في هذا المستشفى. ونقول ذلك لنؤكد ما معناه أن المملكة العربية السعودية لم تكن مجرد مضييفة مؤتمراً، وإنما كانت مهمومة ومهتمة في الوقت نفسه، مهمومة بالحال التي إنتهى إليها بلد أحبه أبناء الملك عبد العزيز وهم في طريقهم إلى تسلّم المسؤولية، وإستمروا على حبهم له بعدما

حتى أن جنرال الخارجية الأميركية كولن باول تحدث يوم زار خاتمي مصنع «يورسكي» عن مخاطر تدهور علاقات روسيا مع الولايات المتحدة بسبب تعاونها العسكري مع إيران.

ومن الطبيعي أن تقلق الإدارة الأميركية الجمهورية لعدة أسباب من بينها أن إيران هي بوابة روسيا إلى العالم العربي وأن كل الدول العربية ومن دون إستثناء تعيش حالة مريرة من خيبة الأمل بالصديق الأميركي، وهذا معناه أن أي تقدّم في العلاقة الإيرانية - الروسية قد يمهّد الطريق أمام تعزيز التعاون العسكري والتقني بين روسيا وكل من العراق وسوريا وربما السعودية بعد زيارة وزير الدفاع الأمير سلطان بن عبد العزيز المتوقعة إلى موسكو في الشهر المقبل، وهذا ما يتعلق بالجناح المشرقي من الأمة. كذلك قد يمهّد التقدم المشار إليه أمام تعاون روسيا الوثيق مع الجزائر التي تشكّل المفصل البالغ الأهمية في الجناح المغاربي، خصوصاً أن الرئيس عبد العزيز بوتفليقة الذي زار روسيا بعدما كان زارها خاتمي وجد من حُسن الإستقبال من جانب الرئيس بوتين ما يعكس حجم تطلعات روسيا إلى الضفاف المغربية من المتوسط والأطلسي على حد سواء. أما ليبيا فإنها جاهزة في الأصل وصار موقعها أكثر أهمية بعدما باتت بعد السودان البوابة الثانية لأفريقيا إلى العرب وبالعكس. وفي الوقت نفسه رأى الروس في قسّمات وجه بوتفليقة حجم خيبة أمله بالإدارة الأميركية التي تريد منه الكثير وإلى حد الإشتراط أن تصبح الجزائر مثل موريتانيا في موضوع العلاقة مع إسرائيل، مقابل حفنة من المساعدات وعلى طريقة مساعدة أميركا لكل من مصر والاردن.

تنجح روسيا في خطف إيران ثم تنجح في جذب مجموعة الذين خابت آمالهم بأميركا.. وهم يشكلون الأكثرية في العالمين العربي والإسلامي؟ ذلك هو السؤال. وأما الجواب فإنه في طور التكوين.. وإن كان من الجائز إفتراضاً أنه ممكن إذا حدث تصميم على ذلك من جانب المحتاجين.

وفي هذا الخصوص يختار المرء في تحديد من هو المحتاج أكثر: الجانب الروسي ام العرب... وتقريباً أكثرية العرب.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 11 أبريل (نيسان) 2001

* * *

باتوا يشغلون مواقع في مفاصل رئيسية في الدولة، وهي في تقديرنا حالة غير مطروحة خصوصاً أن لبنان ليس على حدود المملكة لكي يقال إن لهذه العاطفة موجبات بدافع المسيرة من أجل إحتواء خلاف حدودي.

وفي تقديرنا أيضاً انه لو كان المؤتمر الذي استضافته المملكة لم ينعقد فيها وإنما في بلد آخر، لما كان للحرب ان تتوقف، ولكانت ستستمر ويتساقط الضحايا بالعشرات يومياً، ويأتي التدمير على ما تبقى من معالم البنيان في البلد إلى أن ينتهي الأمر إلى غالب ومغلوب، بل ربما كانت وصلت الحال بلبنان إلى أنه مثل أفغانستان الآن وكانت . من يدري . ستنشأ نتيجة لذلك جماعات ترى أن يتم تدمير قلعة بعلبك وجبيل وبقية القلاع والتماثيل الاثرية والنواويس التي ترمز إلى حضارة مضت عليها الوف السنوات، وكذلك تماثيل رياض الصلح وبشارة الخوري وحبيب أبي شهلا (من رموز الإستقلال بين رجال السياسة) وجبران خليل جبران. كذلك ربما كان سيشهد لبنان جماعات تكفر المؤمنين وتبرئ المشركين وتحلل الحرام وتحرم الحلال.

في تقديرنا أيضاً، وأيضاً أنه لو لم يتابع الملك فهد بن عبد العزيز، وكذلك ولي عهده الأمير عبدالله، والنائب الثاني الأمير سلطان، وأمير الرياض سلمان بن عبد العزيز، ووزير الخارجية الأمير سعود الفيصل، على مدار الساعة طوال شهر ما يدور داخل إجتماعات رموز الصيغة اللبنانية، ويتم في اللحظة الحرجة التي تواجهها المناقشات، بذل المسعى المخلص والودي ومن دون أن يتخذ ذلك طابع التدخل، لكان ربما لن يصل مؤتمر الطائف الى نتيجة، ولكان النواب الذين شاركوا في المؤتمر ربما عادوا كل إلى المكان الذي جاء منه، إما في المنافي الإختيارية - الإضطرابية في لندن وباريس وجنيف وقبرص، وإما في لبنان المنقسم جناحين: شرقي وغربي.. هذا إذا كان لن يلقى العائدون من المؤتمر - او نفر منهم - جزاءهم على أيدي الذين يواصلون إشعال البيت ناراً، أو تستقطب الفوضى بعض هؤلاء العائدين بحيث ينتقلون إلى الحواجز بدل الشرعية.

وفي قولنا انه ما كان للحرب أن تتوقف لولا جغرافية مكان إنعقاد مؤتمر رموز الصيغة اللبنانية (أي أعضاء البرلمان)، ولولا نخوة القيادة المضيفة وحرصها على إيجاد الحل حياً بلبنان وليس من أجل

أن تضيف إلى إهتمامها بالأشقاء وقضاياهم مآثرة إهتمام جديدة... إننا في قولنا هذا لا نتحدث من فراغ، وإنما نستند إلى أمثلة واقعية حول مؤتمرات بهدف المصالحة جرى عقدها في دول كثيرة وأخفقت في التوصل الى حلول. بل أنه بالنسبة الى العضلة اللبنانية نفسها حدث قبل مؤتمر الطائف ان عقد رموز الصيغة اللبنانية اجتماعات لهم في لوزان على أساس أن هذه المدينة السويسرية، شأنها شأن جارتها جنيف، هي مكان محايد، وأن فيها من الهدوء ما من شأنه أن يجعل العقول تبتكر الحلول المناسبة، وفي لوزان يمكن الإستعانة بكل الأطراف الدولية المهمة بالوضع في لبنان. ومع ذلك فإن الإجتماعات إنتهت إلى لا شيء. وهذا سببه أنها لم تنعقد في رحاب من هم محبوبون للبنان وصادقون في حبيبهم عليه.

الذي اوجب هذا الكلام أن لبنان عاش، قبل أيام من الذكرى السادسة والعشرين للحرب، اجواء توحى كما لو أنه على أهبة أن تتكرر على أرضه وبين شعبه تلك الحرب اللعينة. تصريحات من هنا عبر الصحف أو شبكات الانترنت. ومسيرات من هناك. وتظاهرات تطلق هتافات من النوع الذي يحمل في طياته نيات خبيثة. وعرض عضلات في الشوارع يسير فيه مقنّعون يخفون وجوههم، ويرفعون عاليًا السواطير والسكاكين والفؤوس والسيوف غير الأصلية، وغرضهم من ذلك الإيحاء بأنهم سيجعلون من لبنان جزائر ثانية تشهد بعض قراها وبلداتها يومياً جرائم ذبح لنساء ورجال وفلاحين وأطفال، وأحياناً لعائلات بكامل أفرادها.

ولا يحتر المرء في تصنيف هذه الممارسات والذين يمارسونها، بصرف النظر عن مكانتهم ومقامهم ورؤاهم، فهم ضد بلدهم وضد الإستقرار وضد صيغة الطائف، لأنها كانت الصيغة المتوازنة التي إرتأت أن لا يكون هنالك في لبنان غالب ومغلوب. لكن من المهم أن يكون واضحاً للجميع أن صيغة الطائف، وعلى النحو الذي أوردنا ظروف الإنعقاد وأهمية جغرافية المكان ونخوة القيادة المضيفة وحرصها على لبنان مع أنه تكراراً، ليس على الحدود ولا مشاكل حدودية معه، ولا هو منافس للزعامة السعودية، وليس حاسداً للمملكة... أن صيغة الطائف هذه هي من نوع الفرص الذهبية. والفرصة الذهبية عادة لا تتكرر، كما أن تضییعها هو بمثابة الخسارة الكبرى. ويخطئ أولو الامر اللبنانيون والسوريون معاً إذا هم ظنوا أن الإستهانة بهذه الصيغة وعدم التعامل معها بواقعية

الشوائب معها.

ونحن لو جربنا مرة واحدة (ولو على الطريقة التي إعتدها الرئيس بشار الأسد خلال المكالمات الهاتفية التي أجراها الرئيس جورج بوش الابن معه) إتخاذ وقفة كتلك التي إتخذتها الصين وكيف تعاملت مع طائفة التجسس الأميركية، وتأملنا في إصرار القيادة الصينية على أن يصدر عن الرئيس الأميركي إعتذار واضح حول الذي جرى... إننا لو فعلنا ذلك لكانت بدأت الإدارة الأميركية أسلوباً جديداً من التعامل معنا، وهذا سيكون من مصلحتها في الدرجة الأولى لأن علاقة قائمة على حسن النية والصدق وإحترام الخصوصية ومراعاة المصلحة المشتركة تبقى أفضل بكثير من تلك العلاقة القائمة الآن والتي يحترق المرء في تصنيفها، بمعنى هل انها علاقة صديق بصديق أو علاقة طرف منتفع بطرف آخر، أو علاقة طرفها العربي يعتمد الصدق والمبدئية بينما طرفها الأميركي يكتفي بإعتماد أساليب التهويل.

الذي فعلته الصين جاء ينبع من حالة ضيق تعاني منها بمثل ما نعاني نحن وتعاني أيضاً دول كثيرة في العالم الثاني والعالم الثالث. والمعاناة سببها إصرار الإدارة الأميركية على أنها تملك حق الهيمنة على الغير ولا تريد أن يشاركها أحد الرأي والقرار في ما يجب أن تكون عليه أحوال العالم. وهي إصطفت من بين الدول الأوروبية بريطانيا وإعتبرت الإثنان أن مهمتهما هي ان تكون إسرائيل دائماً الدولة الأكثر تقوفاً في منطقة الشرق الأوسط والدولة التي عن طريقها يمكن منع العرب من أن يتفقوا على الحد الأدنى وقطع الطريق على حلم الأجيال العربية في أن تعيش في عالم عربي جديد يسود التفاهم والتضامن حكوماته ويصبح مع الوقت مثل الإتحاد الأوروبي.

وإذا نحن تأملنا في السبب الذي جعل الصين تفرج عن ضيقها وتعامل مع حادثة طائفة التجسس الأميركية بعنفوان وثقة في النفس تدعو إلى الإحترام، ثم تأملنا في الأسباب التي توجب علينا التفرج عن ضيقنا، لوجدنا أننا ضد أنفسنا وأن سكوتنا مرة على الاستهانة الأميركية بنا هو الذي جعل الاستهانات تتوالى، والتي وصلت إلى حد أن الإدارة الأميركية الجديدة التي إفترضنا من باب الأمل وإستناداً إلى بعض المعطيات أنها يمكن أن تكون أفضل بكثير من الإدارات المتوارية وآخرها إدارة الرئيس كلينتون، إنما هي أسوأ بكثير من السابقات وأنها لا ترى في التساهل

ومرونة وبعيداً عن العناد والتشدد، من شأنهما أن يفيدا. كذلك يخطئ هؤلاء إذا هم إعتقدوا أنه ما دامت المملكة العربية السعودية كانت الراعية لإتفاق الطائف، وكانت قيادتها هي المضيفة، وهي الباذلة بصدق كل الجهد المخلص، فإنها لا بد ستتدخل من جديد في حال تجددت المواجهة.

أما لماذا يخطئ هؤلاء جميعاً، ومن دون أن نخوض في تحديد الأسماء والمقامات ونوعية الولاءات والتحزبات، فلأن المملكة قامت بواجبها وأكثر (على نحو ما تفعل مع الفلسطينيين على صعيد المساندة المالية والسياسية، وبالذات بالنسبة إلى الإنتفاضة) وأن البقية تقع على عاتق الطرفين اللبناني والسوري، الأول بتشعباته وتقاطعاته، والثاني بشخص قيادته الوراثية الشابة، التي شجع نزوعها نحو الإفتتاح وإعادة النظر المتدرجة بهدف تحقيق إنفراجات في أكثر من موضوع داخلي، أطرافاً في لبنان على أن تطرح، بعشوائية وبروحية إنتقامية تفتقد الى التجرد، موضوع إتفاق الطائف، الذي يشكل الوجود العسكري السوري في لبنان أحد بنوده.

وليس منطقياً ولا هو مألوف على الإطلاق، أن يتم الإستتجاد بالمطافئ مرة ثانية لإطفاء حريق في بيت أشعله عمداً أصحاب هذا البيت. والمثل الشعري السائر يقول إن اللبيب من الإشارة يفهم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 18 أبريل (نيسان) 2001

* * *

نحن وأميركا... بعد الدرس الصيني

لسنا أقل شأناً من الصين، ولسنا أقل إحتياجاً منها لأميركا. ومع ذلك فإننا نرتضي إستهانة أميركا بنا ونتقبل برحابة صدر تحذيراتها وتهديداتها ونغفر لها ما تقتصره من أخطاء وخطايا في حقنا. وإذا أردنا أن نعرض هذه التصرفات الخسنة من جانبها في حقنا على مدى بضع سنوات لوجدنا أن هذه التصرفات بالعشرات وأن واحداً منها يكفي لإتخاذ وقفة نقول فيها لأميركا أن للصدقة أصولاً وللصبر حدوداً. ولكننا لا نفعل ذلك متكلين على أن الإدارة الأميركية لا بد ستكتشف ذات يوم عقم سياستها فتعيد النظر وتسلك طريق الهداية وبذلك تبدأ مرحلة الصداقة الخالية من

الأميركية؟

إن الجواب عن ذلك هو أن إدارة الرئيس جورج بوش الابن كانت عاجزة عن أن تفعل شيئاً، وهي من هذا المنطلق خفضت اللهجة وبدأت تخاطب الصين بأسلوب من يريد أن ينجو من الإحراج الذي أوقع نفسه فيه، ثم وجدت أن لا مناص من الاعتذار فاعتذرت. وعندما تعاود هذه الإدارة الكلام بأسلوب الغطرسة، لمجرد أن أفرجت الحكومة الصينية عن طاقم الطائرة بعد الاعتذار مبقية على الطائرة رهينة، فلأنها حافظت على بعض ماء الوجه بإستعادة الأشخاص وهو ما كان سيحرجها أشد الإحراج أمام الشعب الأمريكي لو أن ذلك لم يحدث. ولكن عدم الإفراج عن الطائرة ومواصلة خبراء التكنولوجيا الصينيين التتقيب فيها بهدف فك الرموز والوقوف على دقائق هذه التكنولوجيا المتقدمة هو في حد ذاته إحراج ما بعده إحراج. ومن الجائز الافتراض أن إعتقاد الحكومة الصينية أسلوب المماثلة من اليوم الأول في إستنباط حل للمسألة كان بهدف إستكشاف أسرار التكنولوجيا داخل الطائرة، وأن الإفراج عن الطاقم جاء بعد إستنفاد المرحلة الأولى من الإستكشاف من جهة ولتهذئة الثور الأمريكي الهائج من جهة أخرى. ثم تبين أن القلق الأمريكي من إستمرار إحتجاز الطائرة هو بأهمية قلق إدارة الرئيس جورج بوش الابن على أفراد الطاقم، وذلك لأن كشف أسرار تكنولوجيا الطائرة هو خسارة مزدوجة: خسارة مالية بملايين الدولارات، وخسارة على صعيد السباق التكنولوجي الذي هو في الألفية الثالثة بأهمية السباق النووي.

ما يهمنا من الأمر هو أن أيدي القادة العرب، أو بعضهم، ورقة يستطيعون، إذا هم لعبوها كما يجب، أو على نحو المحاولة الكريمة التي قام بها الرئيس بشّار الأسد، أن يجعلوا أميركا تخفف من غطرستها عليهم تماماً مثلما حدث مع الصين. والورقة التي نعينها هي أن الولايات المتحدة بنظامها العالمي الجديد لم تعد بالقوة التي كانت عليها بعدما بدأ الدب الروسي ينهض من سباته العميق وبدأ التتين الصيني يتخذ وقفة تأهب من شأنها جعل الآخرين يهابون الصين، التي قد تكون هي أو روسيا الجديدة مفاجأة القرن الحادي والعشرين. ويكفي أن نتأمل في جولات زعماء الصين على دول العالم وإختراقاتهم لدول أميركا اللاتينية، وكذلك في الصحوة الروسية وكيف تتقاطر إلى موسكو وفود ومسؤولون من إيران والعراق والجزائر

العربي مع العملية السلمية غير العادلة أصلاً سوى أنه تساهل الضعيف العاجز عن أن يأخذ بسيفه ما أخذته العصابات الصهيونية منه بالسلاح البريطاني ثم الأمريكي، وضمن صفقة دولية لم تأت على حساب الشعب الفلسطيني فقط ولا على حساب فلسطين كوطن، وإنما على حساب الأمة من المحيط إلى الخليج. ومثل هذه النظرة البينا والسكون الذي يتسم به رد الفعل العربي ازاء الإجتياح الأمريكي - الإسرائيلي لكل الأصول، هما السبب في أن الإدارة الأميركية لا تعير أي إهتمام لنا وفي الوقت نفسه تبدي كل الإهتمام بإسرائيل وتتفهم حتى العمليات العدوانية التي تقوم بها. ومن المؤكد أنه لو إتخذنا موقفاً حازماً من الإدارة الأميركية عندما تستعمل، دون غيرها من الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن، حق الفيتو على قرار هو من أبسط القرارات التي من واجب مجلس الأمن إصدارها وبالإجماع، ونعني بذلك القرار المتعلق بالحماية الدولية للفلسطينيين.. من المؤكد أننا لو فعلنا ذلك لما كان تجراً إرييل شارون على أن يفعل بالفلسطينيين ما يفعله، بل لما كان تجراً على أن يعاود إجتياح مناطق في غزة تابعة للسلطة الوطنية الفلسطينية، وكذلك لما كان تجراً على أن يمارس هتلريته ونازيته فيقصف ويغتال ويدمر، مطمئناً إلى أن وقوف الإدارة الأميركية إلى جانبه من شأنه أن يغطي على أي اعتراضات عربية، معتمداً على انه ما دام الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان (الذي قال الرئيس الأسد الابن عن إنحيازه إلى جانب إسرائيل ما يجب أن يقال وما تأخر صدوره عن حاكم عربي) يرى الباطل الإسرائيلي حقاً والحق الفلسطيني باطلاً، فما قيمة قرارات القمة العربية وإحتجاجات الأمين العام للجامعة العربية الدكتور عصمت عبد المجيد، وما قيمة أي بيانات شجب تصدر من هنا أو هناك أو هنالك؟

ما الذي كانت الإدارة الأميركية ستفعله بعدما رفضت الحكومة الصينية الطلبات والإنذارات والتحذيرات الأميركية؟

هل كانت ستعلن الحرب على الصين؟

وهل كانت ستوجه أساطيلها وحاملات طائراتها في إتجاه الشواطئ الصينية وتقصف وتدمر ما شاء لها القصف؟

وهل كانت ستجد القيادة الصينية تنهار وتستسلم ويرحب الشعب الصيني بالمارينز وبالأساطيل

وسوريا (ودول أخرى على الطريق)، ثم كيف بدأ الزعيم الروسي فلاديمير بوتين يستعد لجولات في الدول العربية... يكفي أن نتأمل لكي نعيد كعرب النظر في بعض تحالفاتنا وعلاقاتنا وبالذات مع الإدارة الأميركية، مستفيدين من فرصة تاريخية وهي أن هذه الإدارة قوية بنا، وعليها لكي تستمر العلاقة معها أن تستقيم هذه العلاقة، بحيث أنه إذا كانت ستستمر تستقوي بنا فإن أقل ما هو مطلوب منها هو أن لا تستقوي علينا مباشرة... أو عن طريق إسرائيل الشارونية وغير الشارونية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 25 أبريل (نيسان) 2001

* * *

بوش المبتهج كثيراً... بالحريري

باللقاء الذي تم في الصرح البطريركي في بركي يوم السبت (2001/4/21) متأخراً كثيراً بالمقارنة مع الظروف التي يعيشها لبنان، وبالذات ما يتعلق بالجدل الدائر حول العلاقة اللبنانية - السورية، بين الرئيس رفيق الحريري والبطريرك نصرالله صفير، كان رئيس الحكومة اللبنانية فعل كل ما في استطاعته أن يفعله. وعلى هذا الأساس بات في إمكانه أن يزور واشنطن مروراً بالفاتيكان مطمئناً إلى أن الشوك الماروني لن يستمر يوخز خاصرته.

كما باتت حجة الرئيس الحريري بعد الذي فعله، أقوى بكثير من ذي قبل سواء مع البابا يوحنا بولس الثاني أو مع الإدارة الأميركية، وهو يطرح أمامهما وبكل الموضوعية طبيعة الوضع اللبناني، وكيف أن الأمر المتعلق بوجود قوات سورية في لبنان هو مثل الأمر المتعلق بوجود قوات أميركية في الكويت ومنطقة الخليج. كلاهما وجود لا يمكن إنهاؤه بفعل المزاج أو المزايدة أو الإستسباب، أي بما معناه إن الطرف الذي استدعى قوات من دولة جارة (سوريا) أو صديقة (الولايات المتحدة) لا يمكنه أن يقرر وحده إنتهاء مهمة هذه القوات وضرورة مغادرتها، في حين أن الطرف الآخر يملك قرار الإنهاء ساعة يشاء نتيجة ظروف طارئة كتلك الظروف التي فاجأت الرئيس (الراحل) جمال عبد الناصر الذي استدعى القوات المصرية المرابطة في اليمن بعدما أوجبت المواجهة

مع إسرائيل عام 1967 هذا الإستدعاء. ونذكر كم أن صوت المعارضة اليمنية لوجود القوات المصرية كان عالياً، وكم أن شأنها الشعبي كان قوياً، ومع ذلك فإن عبد الناصر لم يقرر سحب هذه القوات إلا عندما داهمه الظرف الذي قد يكون حدث إفتعلاً لكي يسحب هذه القوات. وللتذكير فإن المعارضة اليمنية التي نشير إليها لم تقتصر على الملكيين أنصار الإمامة وإنما كانت هنالك مراكز قوى جمهورية كثيرة ممتعة كثير الإمتعاض من أن شأن بعض المسؤولين المصريين الذين يديرون الوجود المصري في اليمن كان في إستمرار فوق شأن قادة النظام الجمهوري، ربما للخشية من إنهيار هذا النظام الذي كان على شيء من الهشاشة وربما لأن من يقدم المساعدة يشعر أن له دالة على من يطلب المساعدة، وأنه نتيجة هذا الشعور لا يعود يستوقفه رجحان كفة الشأن في بعض الممارسات.

نعود إلى ما بدأناه، وقولنا إن الرئيس الحريري بلقاء بركي فعل خلال الأشهر الثلاثة كل ما في استطاعته أن يفعله. فهو كان قام بعملية ترويض شاقة لحليفه وليد جنبلاط. وهو كان خاض عملية تهدئة للخواطر وتقادى أسلوب القمع في التعامل مع التظاهرات التي كان يمكن أن تكون مقبولة لو أنها خلت من هتافات وممارسات غير عاقلة. وهو في لحظة تحفّظ على عملية «حزب الله» قبل أيام في مزارع شبعا أجاز لصحيفته نشر كلام فاجأ الذين ينظرون بتقدير إلى الحس الوطني لرفيق الحريري وإرتاح له الذين لا يحبذون إستمرار بقاء «حزب الله» يغرد خارج السرب الحكومي، ويملي على الدولة مواقف أو وقفات لا قدرة لها على إتخاذها ويقوم مقاتلوه الشجعان بعمليات جهادية يصعب عليها تنبئها عن إقتناع.

والذين فاجأهم الكلام الذي نشرته صحيفة الرئيس الحريري رأوا فيه أنه يخدم مهمة فؤاد السنيورة كوزير للمالية وباسل فليحان كوزير للإقتصاد، إلا أنه يلقي ظلالاً على رفيق الحريري كزعيم سياسي وطني. ولكن هذا الكلام نشرته الصحيفة وقوبل بكلام من النوع نفسه صدر عن «حزب الله» كان هو الآخر من جملة الأمور التي تتدرج في قائمة الأفعال التي أنجزها الرئيس الحريري. ومن دواعي الأسف أن الكلام الذي نشير إليه الصادر عن دولة الحريري لم يحفر تماماً في الجدار الصلب لـ «دولة بركي» التي تخوض المواجهة بالتصريحات والتظاهرات بين الحين والآخر

ضد الوجود السوري في لبنان. وعندما نقول إنه لم يحفر فلأن ما قيل عن نتائج اللقاء المطول بين الرئيس الحريري والبطيريك صفيّر لا يوحي بأن الاعتدال سيأخذ طريقه إلى جبهة المطالبين بالانسحاب السوري من لبنان. وهو كما سبق وذكرنا مثل دعوة بعض الأطراف العربية إلى انسحاب القوات الأميركية من الكويت. كلاهما ليس بذلك الأمر السهل في غياب موجبات إضطرارية تخص الطرف الذي ساعد أو الطرف الموجود.

لا ندري ما الذي في إستطاعة الرئيس الحريري أن يفعله أكثر من الذي قاله للرئيس جورج بوش الابن عندما إلتقى به يوم الثلاثاء (2001/4/24). لكن من المؤكد أن كل ما أمكنه أن يفعله خلال الأشهر الثلاثة الماضية وبالذات الكلام الذي نشرته صحيفته حول التوقيت الخطأ لعملية «حزب الله» في مزارع شبعا وحرصه على تواصل الحوار بشكل مباشر أو غير مباشر مع «دولة بركي» وسائر المعارضين للوجود السوري في لبنان بهدف التوصل إلى صيغة تساعد على الخروج السوري من دون ضغوط... من المؤكد أن الرئيس الحريري إستناداً إلى الذي فعله وجد من الإدارة الأميركية إستقبلاً إستثنائياً لا يخلو من الإبتهاج به، كما وجد في البيت الأبيض وهو مجتمع مع الرئيس جورج بوش الابن لمدة 45 دقيقة بدلاً من نصف ساعة، وبحضور رموز القرار الرئاسي الأميركي وبعض مساعدي القرار الرئاسي الحريري، أذاناً مصغية إليه ليس فقط كساع للحصول على المزيد من المساعدات والإستثمارات والودائع وإنما لأنه في نظر مضيفه وأيضاً كما يتمنى هو أو يتطلع، قادر على أن يكون فاعل خير لبعض القضايا العالقة. ولا نظن أنها مجرد مصادفة أن الزائر العربي الثالث بين الحكام العرب إلى البيت الأبيض بإدارته الجمهورية الحديثة العهد كان رفيق الحريري بعد الرئيس المصري حسني مبارك والعاقل الأردني عبدالله الثاني. وإنما هي زيارة طبخها وبكثير من العناية على نار هادئة رئيس البنك الدولي جايمس ولفنسون مع الرئيس الحريري عندما إجتمعا في بيروت يوم 2001/1/30 كما أنها زيارة لا تعوّض فقط إحجام وزير الخارجية الأميركية كولن باول عن شمل لبنان بجولته في بعض دول المنطقة قبل بضعة أسابيع، وإنما هدفها جعل الإدارة الأميركية تستوعب بعض الحقائق التي ترفض حتى الآن إستيعابها ومن بينها أن السياسة الأميركية

في المنطقة ستقود إلى تعقيدات تصبح فيها أميركا دولة ينفر منها العرب حكماً وشعوباً، وهذا رأي قاله بصيغة أخرى وبالمعنى نفسه جنرال الخارجية الأميركية كولن باول بعد الجولة الأولى له في المنطقة العربية قبل بضعة أسابيع.

كذلك أن هذه الزيارة لا بد ستساعد على تحقيق بعض التقهّم وذلك في ضوء العدوان الإسرائيلي على موقع الرادار السوري في لبنان وكذلك في ضوء الكلام الذي سمعه الرئيس جورج بوش الابن من الرئيس بشار الأسد عندما إتصل به الأول طالباً ضبط النفس فأسمعه الثاني كلاماً يعكس حجم الضيق السوري من الموقف الأميركي الداعم لإسرائيل إلى أبعد حدود الدعم، وتشجيع العدوان، والضاغط على الأمم المتحدة وأمنها العام إلى أبعد حدود الضغط. وعندما يقول الرئيس الحريري قبل أن يبدأ زيارته إن الإدارة الأميركية ستتدخل لمنع نشوب حرب جديدة في الشرق الأوسط، ويقول كلامه هذا بعد لقائه غير المثمر بما فيه الكفاية مع البطيريك صفيّر، ومن قبل أن يلتقي الرئيس جورج بوش الابن، فهذا معناه أن الحريري ذهب إلى واشنطن وهو يرى الحرب ماثلة أمامه، وأنه يرى أن تمنع أميركا حدوثها. اما كيف يتحقق المنع فمن خلال تنشيط العملية السلمية ودعمها ووضع ضوابط لإسرائيل الشارونية. ولا بد أن الحريري كان أكثر قدرة - بما يمثله وبمن يدعمه (ونقصد هنا المملكة العربية السعودية) - على أن يضيف وهو مع الرئيس بوش الابن ما بدأه الرئيس بشار الأسد خلال المكالمات الهاتفية، هذا مع الأخذ في الاعتبار أن ما قاله الرئيس السوري الشاب هو نفسه ما يراه ضمناً الرئيس مبارك والملك عبدالله الثاني، مع فارق أن خلو المساعدات الإقتصادية والعسكرية من العلاقة السورية - الأميركية، وضغوط هذه المساعدات على كل من مصر والاردن، والتهديدات الأميركية المستمرة بقطعها أو تخفيضها هو ما يجعل لهجة الرئيس مبارك والملك عبدالله الثاني في مخاطبة الرئيس الأميركي وأركان إدارته عموماً أقل حدة من لهجة الرئيس بشار، فضلاً عن أن الحكم السوري كان أيام الأسد الأب وما زال مع الأسد الابن يرى أن له على الإدارة الأميركية أكثر مما لهذه الإدارة على سوريا، ونعني بذلك انضمام الرئيس الأسد الأب إلى دول التحالف الذي قاده الرئيس جورج بوش الابن عام 1991 لتحرير الكويت. ومقابل هذا الإنضمام لم تتخذ الإدارة الأميركية أي بادرة حُسن نية تجاه سوريا، أو على الأقل تحذف إسمها من «الدول الداعمة للإرهاب».. إلا إذا

كان الرئيس جورج بوش الابن رأى أن ينوب الزائر العربي الثالث لإدارته في التصريح بأن الرئيس بشار الأسد رجل يمكن الإدارة الأميركية العمل معه وأنه - أي بوش الابن - معجب بالخطوات التي إتخذها الأسد الابن منذ توليه مقاليد الحكم.

يبقى أن هذه الخواطر حول الزائر العربي الثالث للإدارة الجمهورية التي خاب أمل الأصدقاء العرب بها، هي مجرد قراءة في ضوء ما هو معلن وظاهر للعيان من تصريحات واتصالات. وفي دنيا الحكام والحكومات تكون هنالك وراء الكواليس وفي الدهاليز أمور كثيرة من شأنها أن تجعل ما هو غير واضح واضحاً... وما هو غير مفهوم قابلاً للفهم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 2 مايو (أيار) 2001

* * *

من متاعب الصحافة... إلى هموم الوزارة

في تعديل وزاري طفيف في حكومة البحرين قبل ثلاثة اسابيع تم تعيين نبيل الحمير وزيراً للإعلام. وفي تعديل وزاري مماثل في العراق قبل أسبوعين تم تعيين ناجي الحديثي وزير دولة في وزارة الخارجية التي بات يتولاها رسمياً وبالوكالة طارق عزيز نائب رئيس الوزراء. أما محمد سعيد الصحاف الذي كان وزيراً للخارجية فإنه بات وزيراً للإعلام.

ما يستوقفنا هنا ليست الظروف ولا الحثيات التي أوجبت هذين التعديلين فهذه تحتل الكثير من الإجهادات والتفسيرات. ولكن الذي يستوقفنا هو أن أبناء صاحبة الجلالة السلطة الرابعة (وهو المصطلح الذي لا ندري من أطلقه على مهنة الصحافة، ولماذا كان مثل هذا الإطلاق) يواصلون التقدم في إتجاه المواقع الرسمية وضمن مقولة الشخص المناسب في المكان المناسب.

نبيل الحمير كان طوال عمله كصحافي تُوَجَّه بترؤس تحرير صحيفة محترمة وكثيرة الرقي هي «الأيام» بمثابة وزير إعلام غير رسمي، ومن دون أن يُقلق نشاطه وحيويته ودمائته الوزير الأصيل الرسمي. بل قد يجوز القول إن نبيل الحمير كان في المؤتمرات داخل البحرين وخارجها يكمل دور الوزير الأصيل من حيث التحليلات التي يسمعها الزملاء العرب والأجانب منه، مع فارق أن أفق التحليل عنده يأتي أكثر رحابة

كونه ليس في موقع المسؤولية الرسمية المباشرة. وإذا إستمر نبيل الحمير الوزير على الروحية نفسها التي عرفناها في نبيل الحمير الزميل الصحافي، الذي يملك القدرتين (قدرة الإدارة وقدرة الكتابة) وبجدارة، فإن صورة جديدة أكثر إشراقاً للإعلام في البحرين ستندرج بها المرحلة الميثاقية من هذه الدولة بسياسات وخيارات وإبتكارات تبدو فيها، وكأنما حجم مكانتها في الواقع هو أكبر من حجم مساحتها في خريطة المنطقة.

وفي العراق يأتي إلى وزارة الخارجية ناجي الحديثي كوزير دولة في الوزارة التي بات وزيرها بالوكالة طارق عزيز الذي هو عملياً المسؤول إلى يمين الرئيس صدام حسين عن السياسة الخارجية. وناجي الحديثي الذي سبق أن أدار وترأس تحرير الصحيفة الوحيدة التي تصدر بالإنكليزية في العراق «بغداد اوبزرفر» مثال للمتقف المتعالي عن الصغائر، المواظب على القراءة وتثقيف نفسه، المحترم للغة الإنكليزية التي برع فيها كمترجم قدر إحترامه للغة الأم، الحريص أشد الحرص على أن يكون كلامه رصيناً إذا تحدث وأن تكون ترجمته أمينة عندما يترجم، ومن أجل ذلك فإن مكتبته الشخصية ممتلئة بالمراجع القاموسية التي تصونه من العثرات اللغوية. وهو في تعامله أيام تسلم إدارة الإعلام الخارجي في العراق، وقبل أن يتم إختياره سفيراً في فيينا، كان يمزج بين موقعه كمسؤول وواقعه كزميل ترأس وفي ظروف إقتصادية تقشفية بالغة الصعوبة، الصحيفة الإنكليزية الوحيدة، وبذلك كان المراسلون الأجانب أقل تبرماً وأكثر إطمئناناً إلى أنهم أمام مسؤول يلاحظ بدل أن يزجر، ويتمنى بدل أن ينفعل، ويوصي بالتعقل بدل أن يوصي بالإبعاد، وينتزع برقة إبن مهنة الصحافة التي أمضى فيها أزهى سنوات شبابه، غضب زملاء شعروا بمهانة لحقت بهم من عناصر أمنية متشددة أو عناصر حزبية متزمتة. وقد يكون وضع ناجي الحديثي في المنصب الجديد، خطوة إنتقالية لتعيينه وزير إعلام مستقبلاً، أو خطوة أولى على طريق تثبيته وزيراً أصيلاً، ما دام طارق عزيز بات وزيراً بالوكالة، وأن لديه مسؤوليات قيادية كثيرة لا بد من إعطائها كل الوقت وكثير الإهتمام. كما أن وضع ناجي الحديثي في هذا المنصب هو تكرار لتجربة طارق عزيز نفسه الذي جاء إلى وزارة الخارجية من رئاسة تحرير صحيفة «الثورة».

ولكن ذلك لا يعني أنه ليس للإختيار موجبات أخرى من بينها أن المرحلة الجديدة تستوجب عملاً

دبلوماسياً أقل حدة وأكثر مرونة وتفهماً، وتتطلب لغة تخاطب خالية من مفردات التوعد والوعيد والتحذير.

وقبل نبيل الحمر في البحرين ومن ثم ناجي الحديثي في العراق، أوكل الرئيس عبد العزيز بوتفليقة إلى جندي آخر من جنود الصحافة - كتابة، وليس إدارة أو تحريراً - منصب وزير الإعلام في بلد المليون شهيد (أيام الثورة) وربع المليون قتيل وجريح (منذ بدأ العنف قبل 8 سنوات). وهذا الجندي هو الدكتور محيي الدين عميمور الذي تسلم وزارة الإعلام في الزمن المناسب، على أساس أن صورة الجزائر في الخارج كثيرة البشاعة لكثرة ما أريق من دم على جنابات مدنها وريفها، ولأن سمعتها لدى أشقائها العرب لم تعد على الهالة التي كانت عليها والتي إختصرتها التسمية توصيفاً بـ «بلد المليون شهيد». كما أن هيبتها أمام الأوروبيين، وبالذات أمام الفرنسيين الذين أنهكوا نسيجها الاجتماعي ولغتها وعروبها على مدى عشرات السنين، لم تعد على ما كانت عليه في سنوات العقد الإستقلالي الأول، وبات هؤلاء يقولون في مجالسهم، وأحياناً من خلال وسائل الإعلام ما معناه أن الجزائريين في غياب فرنسا عنهم باتوا يستعملون الخناجر والسواطير والفؤوس لغة تعامل في ما بينهم، وأن وضعهم أيام كانوا تحت الحكم الفرنسي كان أفضل بكثير. وهي في أي حال تخرصات الحاقدين الذين غادروا الجزائر طرداً تحت وطأة تضحيات الشهداء الذين ناهز عددهم المليون، وكانوا (الفرنسيون) يحملون بالبقاء إلى الابد في هذا البلد الذي هو بوابتهم الرحبة إلى كل أفريقيا، فضلاً عن أنهم وهم في الخمسينات تأكدوا من أن الجزائر ليست فقط كروم عنب يستخلصون منها أفضل أنواع النبيذ، وليست فقط بوابة إستراتيجية بالغة الأهمية إلى كل دول القارة الأفريقية، وإنما هي حقول غنية بالنفط والغاز، وصحراء غنية بالثروات الطبيعية، وأن كل هذا يحتاج فقط إلى ترسيخ الأقدام والبدء بإستخراج الثروات وجني خيراتها.

ومن الجائز الافتراض أنه لو أمكن فرنسا البقاء في الجزائر وبدأت عملية إستخراج الثروات المشار إليها لكانت الآن باهمية الولايات المتحدة، بل من المؤكد أنها كانت ستصبح أهم دولة في أوروبا لأنها أكثرها غنى. كذلك من الجائز الافتراض أن فرنسا، في شكل أو آخر، ليست بعيدة عن المحنة الهمجية التي تعصف منذ بضع سنوات بالجزائر بحيث لا يستقر

كرسي الرئاسة، فمن لا يتنحي طوعاً يتنحي قتلًا، أو يتنحي تشهيراً، أو يتم، وبهدف أن يتنحي، إشعال حرائق الهوية والتعريب والفرنسة والأمازيغية في وجه نوابه الطيبة لإستتهاض الجزائر من كبوتها، أي بمعنى آخر تعددت الوسائل والغرض واحد، وهو ألا يستقر كرسي الرئاسة. ولنا في حالات الرؤساء الشاذلي بن جديد ومحمد بو ضياف وعلي كافي واليمين زروال وعبد العزيز بوتفليقة المثال على ما نقوله، مع الأخذ في الإعتبار أن الرئيس بوتفليقة بذل ويواصل بذل جهود شاقة كي يواصل دوره الإنفاذي ويرد الكيد إلى نحر الكيادين. وهنا دور الإعلام الذي يمارس اللعبة بذكاء أو بدهاء لا فرق، وبحيث يفهم الإعلام الاجنبي بأن نوابه غير الطيبة نحو الجزائر واضحة ومكشوفة، ويحقق في الوقت نفسه إلتفافاً عربياً حول الحكم في الجزائر يقيه شر مخاطر الإلتفاف عليه. لكن الذي نلاحظه هو أن نوعاً من السكون يحيط بدور وزير الإعلام في الجزائر، فلا هو يجوب الديار العربية لإزالة البقع غير البيضاء عن صورة بلده لدى الأشقاء العرب، ولا هو يترجم قدراته، وهي كثيرة، إلى أفعال. وما قصدها بالزمن المناسب لتوزيع محيي الدين عميمور هو هذه الظروف المشار إليها وتتطلب صاحب عقلية إعلامية مستتيرة مثل عقلية. لكن الرجل - على ما يجوز إفتراض - يبدو وكأنه مكبل بسلاسل رئاسية، أو بتعقيدات بيروقراطية لا ندري بها، أو أنه مطوق بمجموعة من الحاسدين الذين لا يريدون للجزائر مغادرة الشرنقة التي هي فيها، أو ربما أن الرئيس بوتفليقة نفسه وضمن سياسة التوازنات يفضل تسيير الأمور على نحو ما هي عليه. وهذا ما أصاب كاتباً وصحافياً آخر هو زميلنا في صفحات الرأي في «الشرق الأوسط» صالح القلاب الذي ما أن بات يطرح بعد تعيينه وزيراً للإعلام رؤية جديدة تقوم على معادلة شبه متوازنة حتى أحاط به ديناصورات السياسة الأردنية فإستعجل بنفسه أمر العودة كاتباً يعرف الطريق، على البقاء وزيراً تائهاً في طرقات الحكم وطرأقه.

والنقطة الأخيرة تقودنا إلى القول بأن رائد ظاهرة الإستعانة بالصحافي ليكون وزيراً للإعلام أو في الوزارة التي يشكل الإعلام جزءاً من مهمتها كوزارة الخارجية على سبيل المثال، كان الاستاذ محمد حسنين هيكل. ويبدو أن بادرة توزيعه غير المقتنع بها - ربما لأن الحقيقة التي إختارها له عبد الناصر كانت الإعلام

من أجل بعض فلسطين...

ودفاعاً عن النفس

لا يكفي أن تعطي الإدارة الأميركية في شخص وزير الخارجية كولن باول الضوء الأخضر لكي يكون تقرير «لجنة ميتشيل» هو ما يمكن الأخذ به من جانب إسرائيل والفلسطينيين كإطار لوقف العنف على نحو ما حرص الوزير الأميركي على توضيحه في المؤتمر الصحفي الذي عقده قبل أمس. فالمسألة الأهم في نظر الدول العربية قبل أن تكون الأهم في نظر الفلسطينيين هي أن الحكومة الشارونية نفذت على مناطق السلطة الوطنية من «رفح» على الحدود مع مصر إلى «بيت جالا» المتاخمة لحدود القدس القديمة عدواناً بالمقاتلات الأميركية «F. 16» الأمر الذي يعني أن دولة مثل مصر أو مثل الأردن أو مثل سوريا وهي ثلاث دول لها في العنق الأميركي جمائل كثيرة يمكن أن تتعرض هي الأخرى في مرحلة لاحقة يتصاعد فيها الجنون الشاروني إلى إعتداءات مماثلة وبالطائرات الأميركية. ألم يلوح أحد الشارونيين بتدمير السد العالي؟ وإذا نحن إستبعدنا قليلاً حدوث ذلك على مصر والأردن لأسباب تتعلق بمعاهدات السلام المعقودة بينهما وبين إسرائيل فإن العدوان الشاروني المحتمل على سوريا وارد وأن القصف الجوي للمناطق الفلسطينية وبالطائرات الأميركية هو تجربة لما يمكن أن يحدث لسوريا في لبنان أو ربما داخل سوريا نفسها. وعندما لا تدين الإدارة الأميركية عمليات القصف الجوي ومنذ اللحظة الأولى لحدوث هذه العمليات فهذا معناه أنها إما مع مبدأ القصف وإما أنها عاجزة عن الإدانة، وفي الحالتين يبدو الأمر وكأنما سيخرج من بين أيديها وأن الذي يحدث للفلسطينيين سيتطور وربما تصل المنطقة إلى وقت تدور فيه رحى معارك بالطائرات والأسلحة الأميركية كمرحلة أولى ثم تدخل الأجواء وأرض المعركة الطائرات والأسلحة التي مصدرها بريطانيا وفرنسا وروسيا.

وحتى الآن يبدو الموقف الأميركي بعيداً جداً عن الواجب الذي على إدارة الرئيس جورج بوش الابن أن تقوم به. فالوزير كولن باول تحاشى حتى الطلب من إسرائيل التوقف عن إستخدام طائرات F.16 ضد الفلسطينيين. وبدلاً من أن يعلن في المؤتمر الصحفي وبكل الوضوح أن الإدارة الأميركية طلبت على الفور

وليس الخارجية - قد تكون هي السبب في أنه ما أن تسلم منصب وزير الاعلام بناء للتعيين المبالغ له في هذا المنصب من قبل الرئيس جمال عبد الناصر حتى بدأ يسعى من أجل مغادرة هذا المنصب عائداً إلى مكانه كصحافي وكاتب تحققت له مكانة لم تتحقق لغيره في الصحافة العربية. وما جرى لمحمد حسنين هيكل جرى لكاتب وإعلامي مرموق آخر في السودان هو محمد محبوب سليمان الذي أراد رئيسه وصديقه جعفر نميري أن يكافئه بتعيينه وزيراً للاعلام على نحو مكافأة عبد الناصر لهيكل، لكن الرجل الذي فاجأه هو الآخر التعيين سعى منذ اليوم الأول للإبتعاد عن المنصب الوزاري.

عموماً فإنه باستثناء طارق عزيز لم يصمد صحافي وكاتب في منصب وزير الإعلام، ولا حقق إنطلاقة من هذا المنصب، نحو المناصب الأعلى كما حدث لطارق عزيز. وما جرى مع غسان تويني وجورج نقاش ومحمد حسنين هيكل ومحمد محبوب سليمان يؤكد ذلك. فهل أن الظروف الراهنة باتت أفضل من الظروف التي سادت في أواخر الستينات والنصف الأول من السبعينات. وهل أن أربعة صحافيين عرب، أحدثهم ناجي الحديثي في العراق ونبيل الحمر في البحرين، سيصمدون وسيؤهلهم الصمود إلى الصعود بالترج إلى مناصب أعلى؟ وما يقال عن الحديثي والحمر يقال عن محيي الدين عميور في الجزائر وغازي العريضي، أكثر وزير اعلام لبناني رافقت ضجة الإصرار على التغيير مهمته منذ الشهر الأول لتوزيعه؟

ربما نعم. وربما لا. وفي أي حال إن توزيع الصحافيين وزراء إعلام هو نوع من التقليد غير مألوف بهذا الشمول خارج العالم العربي. وهو تقليد مستحب ونوع من التكريم للصحافة العربية، أو في معظم الأحيان للذين يتم توزيعهم بغرض أن يرتاحوا من مهنة البحث عن المتاعب، التي هي الصحافة، فإذا بهم يجدون أنفسهم يترحمون ومن شدة المعاناة على متاعب أيام الصحافة. وتبلغ بهم المعاناة حد الشوق إلى تلك الأيام والإسراع في العودة إليها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 16 مايو (أيار) 2001

* * *

من إسرائيل التوقف عن إستخدام هذه الطائرات فإنه إنتف على الأمر الخطير هذا وقال: «طلبنا من الطرفين عدم تصعيد الوضع إلى مستويات أعلى والبدء بتقليص العنف...». ومن قبله ببضع ساعات كان ديك تشيني نائب الرئيس الأميركي يقول في مقابلة تلفزيونية رداً على سؤال عما إذا كانت الإدارة الأميركية ستتخذ إجراءات خاصة لمنع إستخدام طائرات F.16 ضد الفلسطينيين «إن الوضع حساس جداً وإننا في صدد تقييم القرار المحدد الذي إتخذته القوات الإسرائيلية».

وهذه المفردات في التصريحات باتت تعني لأهل القرار العربي أنه لا أمل يرتجى من الإدارة الأميركية وأنه بات لا بد من خطوات تجاهها على الأقل بهدف التنبيه والتحذير. ومن هنا جاءت خطوة ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز المتمثلة في عدم الرد على دعوة من الإدارة الأميركية لزيارة واشنطن، وهي خطوة أفادت كثيراً وإلى درجة أنه من الجائز الإفتراض أنه بسبب هذه الخطوة الشجاعة وجد وزراء خارجية لجنة المتابعة المنبثقة عن القمة العربية الدورية الأولى في عمان انفسهم يتخذون خلال إجتماعهم في القاهرة يوم السبت 19 مايو (أيار) 2001 قرارات تنسجم مع بقايا الكبرياء العربي. ومن هذه القرارات «وقف جميع الإتصالات السياسية العربية مع الحكومة الإسرائيلية طالما إستمر العدوان والحصار على الشعب الفلسطيني وسلطته الوطنية» و«التمسك بوقف الإستيطان تماماً ووجوب وقف بناء أي مستوطنات جديدة أو توسيع مستوطنات قائمة والعمل على مطالبة جميع الدول بالمقاطعة الكاملة لأية منتجات لهذه المستوطنات تحاول إسرائيل تسويقها» و«دعوة مجلس الأمن أو الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى عقد إجتماع عاجل لتأمين حماية دولية للمدنيين الفلسطينيين» و«التأييد السياسي والمادي للصوص الفلسطينيين في مواجهة الإحتلال الإسرائيلي ودعم إنتفاضة الشعب الفلسطيني وتكليف الأمين العام بمتابعة وصول الدعم المادي اللازم فوراً إلى السلطة الفلسطينية، وفتح باب التبرع الشعبي لدعم الشعب الفلسطيني».

وبسبب الخطوة السعودية الشجاعة التي هي ترجمة لتنبهات سابقة من بينها قول الأمير عبدالله في قمة الأقصى التي عُقدت في القاهرة في أكتوبر (تشرين الأول) الماضي «إن الولايات المتحدة كراعية لعملية

السلام تتحمل مسؤولية خاصة في الإنهيار الذي تواجهه العملية، ذلك أن معنى الرعوية يقضي من الراعي التأكد من سلامة النهج الذي تسلكه العملية السلمية، ومحاسبة المسؤول عن إنحرافها.. بسبب الخطوة السعودية الشجاعة جاء قول ديك تشيني الذي كان محتاراً بين إرضاء إسرائيل وإسترضاء الأصدقاء العرب فتغلب الإرضاء على الإسترضاء، ثم جاء كلام كولن باول الذي إفترض أنه بدعم نسبي من الإدارة الأميركية للجنة ميتشيل يمكن أن يخفف من خيبة أمل الأصدقاء العرب بهذه الإدارة. ولكن كما سبق وأشرنا في مطلع هذا المقال أن الوقفة الأميركية هي دون المطلوب منها بكثير. فالذي يفعله شارون بالفلسطينيين مستعملاً طائرات الأميركية المتطورة ما كان ليجرؤ على فعله لو كانت الإدارة الأميركية ليست معه، أو ليست ساكتة عنه، أو ليست مبررة أفعاله، أو ليست داعمة له بسلح الفيتو الشهير في مجلس الأمن. وإذا كان شارون لن يرتدع ويتوقف عن مداواة خيبته الناشئة عن الإصرار الفلسطيني على مواصلة المقاومة، بتنوع وسائل العدوان يقابل ذلك المزيد من التفهم الأميركي، فهذا معناه أنه سينفذ وفي ظل الأجواء الناشئة عن حربه الجوية والبرية والبحرية على كل المناطق الفلسطينية بما في ذلك المراكز الرسمية مخططات شريرة من بينها التهويد الكامل للقدس، ومن هنا قوله يوم الإثنين الماضي بينما كولن باول يدلي بالتصريحات التي سمعناها «إن القدس يجب أن تبقى العاصمة الأبدية الموحدة لإسرائيل وعلينا أن نواصل البناء والتتمية في المستوطنات وإحتضان المهاجرين».. ومن بين المخططات الشريرة أيضاً بناء «مستوطنة دينية» (أي كنيس) داخل الحرم القدسي وكأنما إقتحامه قبل ثمانية أشهر لباحة الحرم وبسببه بدأت الإنتفاضة المتواصلة كان بمثابة إستكشاف المكان.

وفي تقديرنا أن الخطوة السعودية الشجاعة من جهة والتوصيات التي خرجت بها لجنة المتابعة في إجتماعها في القاهرة من جهة أخرى ستجعل شرائح من الرأي العام الأميركي تتساءل بينها وبين نفسها: إذا كان أصدقاؤنا وحلفاؤنا باتوا على حالة الضجر هذه من سياستنا فكيف إذا سنحافظ على مصالحنا في المنطقة؟ كما أن الخطوة إذا إستمرت على حالها ولم يطرأ عليها تعديل نتيجة مشاورات سياسية، من شأنها أن تشكل إحراجاً للإدارة الأميركية من واجبها توظيفه

لن تعود الأمم المتحدة في قبضة اليد الأميركية أيضاً أو تحت هيمنتها. وعندئذ ماذا يبقى من عظمة أميركا؟ يبقى القول أيضاً إن الخطوة السعودية وتوصيات لجنة المتابعة ليست فقط من أجل فلسطين التي تزايدت نسبة إحتزالها كقضية ومع ذلك يرضى القتل وليس يرضى القاتل، وإنما هي أيضاً حالة دفاع عن النفس لأن من يفعل ما يفعله بالفلسطينيين ويطمع بفلسطين كلها رافضاً أبقاء بعضها لشعبها الصابر، قد يجنح نحو المزيد من الجنون والغطرسة فيقرر العدوان على كل من يؤازره. وتلك صفة الخائف المرفوض من محيطه المسلح بأميركا المتصهينة وليست صفة الواثق من نفسه الساعي إلى أن يكون مقبولاً. وكيف سيكون مقبولاً وكيف لن يكون خائفاً ولن يكون معتدياً ما دام هو في الأصل إغتصب وطناً ليس له، وإنما هو لآباء وأجداد الذين يعتدي عليهم ليل نهار بالسلاح الأميركي والسكوت المريب من جانب بعض الدول شركاء أميركا في إغتصاب فلسطين قبل 53 عاماً وإستبدالها بكيان... هدفه بعثرة العرب وتشريد الفلسطينيين من أجل جمع الشتات اليهودي.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 23 مايو (أيار) 2001

الحرب الأهلية الفلسطينية...

بديل الرهان الشاروني؟!

عندما يقوم وزير خارجية عربي بزيارة إلى إسرائيل وفي هذه الظروف بالذات - على نحو ما فعل وزير خارجية موريتانيا «داه ولد عبيد» الذي وصل يوم الثلاثاء 22 مايو (أيار) 2001 إلى تل أبيب - فإنه يكون قصير النظر من جهة وخارجاً على الأصول من جهة أخرى. أما مسألة الخيانة وغير الخيانة فهذا أمر مختلف، ذلك أنه عندما يتم فتح هذا الموضوع وإطلاق التصنيفات فإن التهمة ستطال كثيرين ولن يكون دفاعهم مقنعاً في أي حال، كما أنه سيجوز التساؤل عند ذلك: مَنْ سيعاقب مَنْ؟! جاء الوزير الموريتاني إلى تل أبيب في وقت بلغ العدوان فيه ذروته على الشعب الفلسطيني ولم يعد يقتصر على قصص الفتية صغاراً أو كباراً أو حتى أطفالاً ما زالوا يرضعون، وإنما باتت القاذفات الأميركية من نوع F.16

لمصلحة هيبتها بالنسبة إلى أصدقائها العرب، وهي هيبة إهترت كثيراً ويمكن أن تشهد المزيد من الإهتزاز في حال إستمرار الجنون الإسرائيلي على حاله يقابله إنحسار إضطرابي في التعقل العربي. وهنا تجدر الإشارة إلى أن أصدقاء أميركا وحلفاءها العرب مقتنعون كل الإقتناع بأن العدوان الإسرائيلي حظي بمباركة الإدارة الأميركية عندما زار شارون واشنطن طالباً من إدارتها خدمة وحيدة وهي إعطاء حكومته فرصة مئة يوم لكي يضع الأمور في إطارها الإسرائيلي الذي ينهي المساجلة الدائرة عربياً وفلسطينياً حول العملية السلمية. ومن الواضح أنه حصل على ما طلبه إلا إذا كان إعتقادنا في غير محله، أي بما معناه أن شارون لم يحصل على مبتغاه فعاد ليشعل البيت الفلسطيني ناراً وليضع العلاقة العربية - الأميركية في موقع الإحراج الشديد، وعلى أساس أن الموقف الأمريكي التقليدي من إسرائيل هو أنه دائماً معها وبالذات عندما تكون معتدية.

يبقى القول إن الموقف العربي الجديد هو نوع من الإختبار لمصادقية الإدارة الأميركية التي ما زالت هنالك آمال لدى بعض أصدقائها العرب بأنها ستكون نزيهة. ولقد أثبت هذا الموقف بضع حقائق من بينها أن الخطوة السعودية وتوصيات لجنة المتابعة هي من جهة ترجمة لحالات الغضب الذي يتراكم في الصدور العربية من المحيط إلى الخليج، ومن جهة أخرى إختبار لمدى جدوى الضغط العربي على الإدارة الأميركية خصوصاً أنه يأتي من أصدقاء حريصين أشد الحرص على العلاقة والصداقة. إنما ليس أي علاقة وليس أي صداقة. ومن الحقائق أيضاً أنه إذا كان الضغط العربي بهذه النسبة التي جاء عليها مراعيّاً ألا تتأثر المصالح فكيف إذا إرتفعت نسبة الضغط وبحيث يلمس الصداقة والمصالح على حد سواء. هذا مع الأخذ في الإعتبار أنه إذا زار ولي العهد السعودي كندا قبل واشنطن فإن الإدارة الأميركية تنزعج أما إذا كان سيزور كندا ولن يزور واشنطن فإن الإنزعاج سيكون ثقيل جداً على نفس إدارة يتزأسها جورج بوش الابن الذي ما زال والده على قيد الحياة، وما زالت ذاكرته قوية لكي يوضح له أهمية أن تكون السعودية ومصر والأردن وسوريا إلى جانب أميركا، وتبقى الشرعية الفلسطينية ورقة في اليد الأميركية قبل أن تتجمع بقية صقور المجتمع الدولي، وبالذات روسيا والصين وفرنسا وتخطف هذه الورقة. وإذا حدث ذلك

مع الفلسطينيين لا يلوم فريق الفريق الآخر ولا يزايد حزب على تكتل أحزاب. وعندما نقول إن كل الاتجاهات العربية كانت ممثلة في توصيات لجنة المتابعة، فعلى أساس أن اللجنة تضم مصر والأردن المرتبطتين بعلاقات دبلوماسية مع إسرائيل، وسوريا التي تخوض صراعاً سياسياً حاداً تجاه إسرائيل وتضع نفسها في وضع المتأهب في استمرار لمواجهة عدوان إسرائيلي محتمل عليها يستهدف مواقع عسكرية لها في لبنان أو حتى مواقع داخل سوريا نفسها، والسعودية التي تتصدى بعزيمة قوية للموقف الأميركي الذي لا يقوم بواجبه نحو عملية السلام ويدعم إسرائيل في عدوانها على الشعب الفلسطيني، ومنظمة التحرير الفلسطينية التي تمثل الجانب المعتدى عليه من إسرائيل والتي هي في الأصل تخوض علاقات تفاوضية مع مغتصبي أرضها وحقوق شعب فلسطين التي هي مثله الشريعة. وجميع دول اللجنة تلتقي عند ضرورة إنجاح العملية السلمية ووضع حد للهمجية الإسرائيلية، وهو موقف موضوعي جاءت التوصيات تشكل الحد الأدنى مما يجب اتخاذه في هذه الظروف بهدف الضغط على إسرائيل وعلى أميركا في الوقت نفسه. كما أنه الموقف الذي لا يجوز لأي دولة عربية مهما كانت إرتباطاتها بإسرائيل ألا تتبناه، وذلك حرصاً على كرامتها في الدرجة الأولى. ولكن موريتانيا وحدها دون سائر الدول التي تبادلت مع إسرائيل العلاقات أو مكاتب التمثيل التجاري فاجأت الأمة بالموقف غير المحترم الذي تمثّل بوصول وزير الخارجية إلى تل أبيب ليلقى من أستاذه وملمه شيمون بيريز ومن أرييل شارون حفاوة، الغرض منها القول للجنة المتابعة ما معناه أن صديقنا الموريتاني «ولد عدي» جعل توصياتكم غير ذات أهمية.

ما هو أسوأ من الزيارة هو التبرير الموريتاني لها وهي أنها كانت مقررّة وأن الحكم الموريتاني صاحب مبدأ ويلتزم بالعهد والوعد، ومن أجل ذلك كان من الصعب عليه عدم القيام بالزيارة. أي عهد وأي مبدأ هذا الذي يجعل العربي يخلع جلده ويجعله وهو الضحية يزور قاتله؟! ونقول إن الموريتاني هو الضحية لأنه لا يستطيع أن يلغي حقيقة إنتمائه وهويته وعرقه ودينه. ولو أن الوزير الموريتاني جاء ليقوم بمسعى لمصلحة الأخ الفلسطيني وهو مسعى لم تقم به أي دولة في العالم عن تواطؤ مع إسرائيل أو عن كراهية للعرب أو عن جبن من الإدارة الأميركية...

تقذف الأحياء المدنية والمراكز الرسمية بعدما كانت طائرات الهليكوبتر الأميركية المتطورة تقوم بالقصف والمطاردة، وباتت الجرافات تجرف الأراضي الزراعية وتقتلع الأشجار المثمرة وتهدم البيوت على ساكنيها وتقطع الطرقات وتقوم بكل ما حرّمت القوانين والشرائع والأخلاق القيام به. كما أن الوزير الموريتاني جاء في وقت يتواصل فيه تشييع شهداء الإنتفاضة التي هي من أجل المسجد الأقصى في الدرجة الأولى، وذلك على أساس أنه إذا أمكن إنقاذ الحرم الثالث يصبح ممكناً إنقاذ ما يمكن إنقاذه من فلسطين التي إختزلوها إلى ما يشبه الربع بحيث يناله الفلسطينيون وفي صيغة كيان لا شأن له ولا حول ولا قوة وتبقى الأرباع الثلاثة لإسرائيل مدججة بكل أنواع السلاح الأميركي المتقدم وبوقوف ثابت من جانب الإدارة الأميركية إلى جانب إسرائيل المعتدية يقابله عمي بصيرة للرأي العام الأميركي الذي يفقد، نتيجة هذا السكوت من جانبه على الظلم، هيئته في نظر شعوب العالم العربي من المحيط إلى الخليج وإحترام هذه الشعوب له. وفي استطاعة لجنة لتقصي الحقائق ومعرفة اتجاهات الرأي العام العربي أن تجري على الطبيعة دراسة ميدانية، ومن المؤكد أنها ستخرج بنتيجة أن الكراهية العربية لكل ما هو أميركي إتسعت كما لم يحدث من قبل، مع أن مشاعر العرب تتمنى لو أن الإدارة الأميركية تكون منصفة وعاقلة وموضوعية لكي لا يتسع مدى الكراهية في النفوس العربية لأميركا. وهي، أي هذه الكراهية التي نشير إليها، لمسها وأقر بخطورتها وزير الخارجية كولن باول عندما قام بجولته الأولى إلى المنطقة بعد تعيينه وزيراً للخارجية وسمع من الكلام والتحذيرات والعتب ما جعله يصاب بالهلع، لكن موقف الإدارة التي ينتسب إليها إستمر على تصهينه.

والأهم من هذا كله أن الوزير الموريتاني جاء إلى تل أبيب بعد ساعات من صدور توصيات لجنة المتابعة التي عقدت إجتماعاً لها في القاهرة وتمثلت فيها كل الإتجاهات العربية بالنسبة إلى العملية السلمية وانتهت إلى قرار بتجميد كل الإتصالات السياسية وغير السياسية مع إسرائيل، وهي خطوة كان لها اثرها الطيب في نفوس الرأي العام العربي بما في ذلك الرأي العام في موريتانيا الذي يتألم كثيراً للذي يجري لبني قومه الفلسطينيين على أيدي حكومة شارون الذي نجح في إستتباط صيغة حكومة الإتحاد الوطني، وبذلك بات الجميع في إسرائيل عنصريين ونازيين في تعاملهم

الفلسطيني سيد الموقف فلا تصاب الإنتفاضة بسوء ولا يتوقف النضال الفلسطيني إلا إذا أنجبت الإنتفاضة في نهاية شهرها التاسع أو قبل ذلك بقليل الدولة الفلسطينية المرجوة وعاصمتها القدس، ويتزامن مع الولادة سقوط الرهان الشاروني الذي إعتبر أنه خلال مئة يوم يعاد الفلسطينيون إلى نقطة الصفر... ويعاد العرب تبعاً لذلك إلى ما تحت الصفر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 30 مايو (أيار) 2001

* * *

موسكو تحاول إستعادة دورها الضائع

من الواضح أن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين راغب في أن يكون لبلاده دور في الوضع الراهن في الشرق الأوسط، إلا أن الرجل إما متردد، وإما أن قراره مصادر، وإما أنه ينتظر.

في حال إفتراضنا أنه متردد يكون السبب هو أنه ما زال لم يكتسب الشعبية الكبرى في روسيا لكي يغامر ويتحول قيامه بالدور إلى مغامرة لا جدوى منها.

وفي حال إفتراضنا أن قراره مصادر يكون السبب هو أنه ورث من سلفه يلتسين إتفاقات ومواثيق مع الولايات المتحدة من بينها ما قد يكون سرياً ويقضي بعدم إقلاق اللاعب الأميركي الذي يمارس دوره وحيداً. والإقلاق بمعنى أن يدخل اللاعب الروسي على الخط فيحدث صدام أو إصطدام. وفي الحالتين لا تريد أميركا مثل هذا الأمر. ولا تريد روسيا من جانبها تحدي عدم تفهم الرغبة الأميركية.

وفي حال إفتراضنا أن الرئيس بوتين ينتظر حدوث أمر ما فهذا يجعلنا نعتقد أن الرجل، وهو الخريج الموهوب والشاطر من مدرسة المخابرات الروسية «كي. جي. بي»، يرصد بذكاء التحرك الأميركي والتخطيط الذي تتسم به السياسة الأميركية في المنطقة العربية، وفي الوقت نفسه يتدخل وبكثير من الرفق في شؤون القضايا العالقة ومنها بالذات ما يتعلق بالأزمة الساخنة بين الفلسطينيين وإسرائيل. كما أنه، وهو يرصد، يعزز قنوات الإتصال مع الدول العربية المعنية أكثر من غيرها بتلك الأزمة. ولعل أهم إتصال جرى حتى الآن هو ذلك الذي قام به يوم الثلاثاء

لو أن الوزير جاء لهذا الغرض وزار إسرائيل والسلطة الوطنية الفلسطينية لجازت تبرئة نواياه. لكن الوزير الموريتاني جاء فقط في زيارة لإسرائيل وجاء في الوقت الذي توظفه إسرائيل لمصلحتها. وهو غير قادر على ان يزور السلطة الوطنية ليس فقط لأنه غير مرحّب به وإنما لأنه لن يسلم من حجارة فتية الإنتفاضة.

يبقى أن زيارة الوزير الموريتاني تأتي في الوقت الذي بات شبه جاهز ذلك المخطط الإسرائيلي الشرير الذي يستهدف إفتعال حرب أهلية فلسطينية، وذلك كوسيلة لجعل الفلسطينيين يتقاتلون ويتذابحون ويرجمون بعضهم بعضاً وتتفرج هي عليهم يسجلون فصولاً مأساوية في هذه الحرب. وتقوم هذه الحرب وفق سيناريو يبدأ بالقبول الإسرائيلي ببعض المطالب الفلسطينية والإشتراط مقابل ذلك على الرئيس ياسر عرفات العمل على وقف الإنتفاضة، أي بما معناه تنفذ السلطة الوطنية الفلسطينية المهمات التي يقوم بها الإسرائيليون الآن فتعاقب كل من يرمي الإسرائيليين بالحجارة وتطارد كل من يقوم بعملية جهادية وتعتقل كل من يدعو إلى مواصلة الإنتفاضة. وبطبيعة الحال أن الرد على ذلك سيكون الرفض وعندئذ يتم بتشجيع من أميركا وإسرائيل وبعض الدول الأوروبية ترغيب السلطة الوطنية وتشجيعها لممارسة المزيد من العمل لضبط الشارع الفلسطيني عن طريق القمع، وربما تتلقى السلطة الوطنية كهدايا آليات خاصة متطورة لقمع الإنتفاضة على أساس أنها باتت، وبالذات بعد إعلان الأمين العام لـ «حزب الله» في لبنان السيد حسن نصرالله انه جندي في خدمة «حماس» و«الجهاد الإسلامي» والإنتفاضة، نوعاً من أعمال الشغب توجب مواجهتها بحزم وحتى بالإستعانة بالكلاب البوليسية الأميركية - الأوروبية - الإسرائيلية. وسينشأ عن ذلك أن الفلسطيني سيقاوم الفلسطيني. وشيئاً فشيئاً تتطور المواجهة إلى حرب أهلية تصل في النهاية إلى أن الفلسطينيين يقاتلون بعضهم البعض على نحو ما فعل اللبنانيون على مدى خمس عشرة سنة وخسروا في النهاية كل شيء. ونحن عندما نقول ذلك نأخذ في الإعتبار أن إسرائيل ترهن على الإستعداد الفلسطيني لخوض الإقتتال الأهلي، وذلك في ضوء حروب سابقة طالما حدثت بين حركة فتح ونفسها وبينها وبين حركات أخرى وتناثرت في هذه الحروب القدرات الفلسطينية.

لكن الذي يأمله المرء هو أن يكون الوعي

2001/5/29 وزير الخارجية السابق يفيغيني بريماكوف الذي خرج مبهوراً من إجتماع عقده في دمشق مع الرئيس بشار حافظ الأسد، بينما وزير الدفاع العماد مصطفى طلاس أنجز في موسكو نتائج طيبة على صعيد التسليح بالجديد، وأيضاً تحديث السلاح القديم. وهذا الإنجاز تم بصمت وكما لو أن زيارة العماد طلاس إنما هي زيارة مجاملة أو للعلاج على نحو علاج الأطباء السوفيات للرئيس جمال عبد الناصر في مصح «تسخا لطوبو» الشهير.

في الإطار نفسه يجيز المرء لنفسه الافتراض أن الرئيس بوتين ينتظر أيضاً أن تطرق زعامات منطقة الشرق الأوسط أبواب الكرملين بقوة الطرق نفسه في الزمن الذي كان الاتحاد السوفياتي مُهاب الجانب من أميركا وأوروبا وموئل الزعماء العرب ومعظم زعماء دول العالم الثالث. وحتى الآن زار موسكو الرئيس الإيراني محمد خاتمي والرئيس المصري حسني مبارك والرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة. وهناك ترتيبات لزيارة تاريخية سيقوم بها الرئيس بشار الأسد، وزيارة أخرى تاريخية سيقوم بها العقيد معمر القذافي، فضلاً عن أن زيارات الرئيس ياسر عرفات متواصلة. ولكن زيارات القادة الذين أشرنا إليهم ليست بالحماسة التي تجعل الرئيس بوتين يتخذ قرار التعاطي الفعال مع قضايا الشرق الأوسط من الجولان إلى العراق إلى إيران، مروراً بالقضية الأهم: الأزمة الفلسطينية - الإسرائيلية. فالذين زاروا موسكو لم يطرقوا باب الكرملين بالقوة المطلوبة، وإن كان الرئيس خاتمي ومن بعده الرئيس مبارك فتحا مع الرئيس بوتين ملفات نووية، وجاء فتح الملفات بمنطلقات مختلفة. فالرئيس خاتمي يريد تطويراً للعلاقات مع روسيا وكان صريحاً في ابلاغ الرئيس بوتين أن ما تحتاجه إيران هو العلاقة المتوازنة والوقف الثابتة عندما تدعو الحاجة، وأن هذه العلاقة تحتاج إلى الصديق المتفهم الذي يقوم بتأمين طلبات صديقه. وبالنسبة إلى إيران فإنها وفي ضوء تداعيات حربها مع العراق، وكذلك في ضوء إستحكام عداة أميركا لها على رغم أنها فتحت نوافذ كثيرة بهدف بناء علاقة على أساس حوار جدي وإيجابي، ومواصلة إحتجاز أموالها، وتشجيع الجماعات المعارضة للثورة... إن إيران في ضوء هذا كله، وليس بهدف بناء القوة التي تهيمن من خلالها أو تخيف الآخرين، تشعر أن أمنها مهدد، وأنه من دون أن تصبح دولة نووية وقوية عسكرياً لن تشعر بالأمان.

كما أن خاتمي كان واضحاً كل الوضوح بأن بلاده متمكنة مالياً بحيث تستطيع تسديد كل فواتير الطلبات ومهما بلغت إصفارها. وهو بهذا أراد أن يُسبل قليلاً لعاب الرئيس بوتين الحائر في الطريقة التي تمكّنه، إذا هو إعتدها، من إنقاذ الشعب الروسي من الضائقة الإقتصادية والمعيشية، وإعادة الهيبة إلى الدولة التي تستطيع إطلاقاً أعمار إلى الفضاء وخوض سباق السيطرة على هذا الفضاء، إلا أنها غير قادرة على تأمين العيش الكريم لشعبها الذي ليس بعيداً كثيراً عن خط الفقر والعوز، بإستثناء طبقة المافيات التي تعيث إفساداً في الحياة العامة. لكن في الوقت نفسه أن الثورة الإيرانية وهي تحاول إسالة اللعاب الروسي ترى كذلك أن على روسيا أن تكون عادلة في حال قررت إتخاذ الوقفة الثابتة وتلبية الطلبات العسكرية والتجاوب مع الطموحات النووية، أي بما معناه لا تعطي العراق أكثر مما ستعطي إيران لأنها بذلك تكون تمارس الدور الذي يتسم بالتلاعب.

وما قاله خاتمي قاله العراق لروسيا عبر طارق عزيز نائب رئيس الوزراء عندما زار موسكو، وقاله الرئيس صدام في بعض إستقبالاته لمسؤولين في الحكومة الروسية زاروا العراق... وقاله مستنداً إلى الورقة القوية نفسها وهي ورقة القدرة المالية التي تتطلع إليها روسيا الباحثة عن حل جذري لمشكلاتها الإقتصادية التي لم ولن تحلها لها أميركا لإعتبارات كثيرة.

ومن الجائز الافتراض أن الرئيس بوتين عندما قرر متأخراً ضخ بعض الحيوية إلى همته وإرتأى إيفاد مبعوث إلى منطقة الشرق الأوسط، فعلى أساس أنه أمضى بعض الوقت يتأمل في الوضع المتردي في تلك المنطقة، وكيف أن الشكوى من أميركا تزداد إنتشاراً في صفوف الحكام من الرئيس بوتفليقة في الجزائر إلى الرئيس خاتمي في إيران مروراً بالرئيس حسني مبارك والرئيس بشار الأسد. وبعد التأمل بدأ يسأل نفسه: أن بين أيادي هؤلاء القادة وآخرين غيرهم المواقع الإستراتيجية المهمة والثروات الكبيرة الموضوعة تحت اليد الأميركية. ولا يحتاج الأمر سوى إلى من يرفع اليد الأميركية قليلاً عن أيادي أولئك القادة. ولن يكون هنالك وقت مناسب أفضل من هذا الوقت.

إلى ذلك من الجائز الافتراض أن الرئيس بوتين وفي ضوء التأمل الذي أشرنا إليه أوكل إلى وزير

ستتحمل أميركا أن أربع دول مهمة في منظمة «أوبيك» باتت خارج الهيمنة الأميركية تماماً، أو أن مردود آبار هذه الدول بات يصب في الخزينة الروسية التي تريدها أميركا دائماً خاوية؟

إنها تساؤلات في محلها، خصوصاً في حال قرر الرئيس بوتين الذي يحلم بدور الزعيم القوي في بلده وخارجها أن يلعب الورقة الإسلامية حيث أن في روسيا 25 مليون مسلم من شأن تعزيز شأنهم أن يجعل الورقة المشار إليها ذات تأثير كبير... خصوصاً أنها لن تكون على حساب العاقلتين: روسيا الدولة والأرثوذكسية المذهب.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 6 يونيو (حزيران) 2001

الألماني الأخضر يجرب حظه

كان لافتاً للانتباه بعدما وصلت الحال بين الفلسطينيين والحكومة الشارونية إلى ما قبل نقطة الانفجار الكبير بقليل دخول هذا السياسي الأوروبي الأخضر وزير خارجية ألمانيا يوشكا فيشر الحقل الفلسطيني - الإسرائيلي المليء بالألغام وقيامه بمسعى يستهدف التهدئة. وقد زار لهذا الغرض القاهرة وعمان ورام الله وتل أبيب وعقد لقاءات مع أقطاب العملية السلمية ورموز الأزمة المستفحلة الرئيس حسني مبارك والملك عبدالله الثاني والرئيس ياسر عرفات ورئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون.

ولقد تزامن مع بدء الوزير الألماني مسعاه أن وزير الخارجية الأميركية كولن باول الذي هز مشاعره حادث تفجير الملهى الليلي، وهو الذي لم تهتز مشاعره لعشرات المشاهد المؤثرة على مدى ثمانية أشهر تصيب أطفال فلسطين وفتيتها ونساءها وشيوخها، قرر دعم الوزير الألماني أو ربما أنه أوحى اليه القيام بهذه المهمة لتقادي حوار خشن مع جنرال إسرائيل شارون المنزعج (أي جنرال أميركا) من إحراج له وكيف انه من باب الإضطراب أو خشية من الابتزاز الصهيوني لم يقف موقف جنرال يحترم قانون الشرف العسكري، عندما إستهان شارون به وببيته الأبيض وكذلك ببنتاغونه وبكل القيم والقوانين والكنائس الأميركية على أنواعها وطلب من قيادة

الخارجية السابق يفغيني بريماكوف مهمة أن يكون كبير مهندسي التلاقي مع الحكام الذين تخب آمالهم يوماً بعد آخر بأميركا. ويبدو إختيار «زميلنا» في «الشرق الأوسط» بريماكوف دون غيره هو الإختيار الذكي على أساس أن الرجل يعرف المنطقة تماماً، بل ويعرف إضافة إلى ما هو على السطح بعض ما يحدث في كواليس ودهاليز دواوين بعض حكام المنطقة (لا بد يتذكر الكثيرون فترة ترؤسه لجهاز الـ كي. جي. بي وتلك نقطة تجمعه بالرئيس بوتين). كما أن بريماكوف من الحذاقة بمكان، فضلاً عن شمائل كثيرة معروفة فيه، ومنها الصبر والقدرة على الابتكار والخوض في اعماق المشاكل وصولاً الى جذور الشكاوى والظهور امام القادة والمسؤولين العرب في مجالسهم على نحو ظهور ذلك الانكليزي «لورنس أوف ارابيا». وقد نسمع مع الوقت ان براءة بريماكوف، الذي استخف يلتسين بقدراته، ستعيده الى الموقع الحساس في صناعة القرار الروسي. ومن يتأمل كيف تعامل بريماكوف مع الرئيس بشار الأسد يتأكد له ان الرجل على طريق العودة القوية الى الكرملين والعودة عبر بوابات العرب الذين ضاق صدرهم بالتلاعب الأميركي وعدم تفهم الإدارة الأميركية الجديدة لبعض الحقائق وتعاملها بكثير من الخفة مع مسائل مصيرية. ومما قاله «زميلنا» بريماكوف عن الرئيس بشار: «ان الرئيس بشار الأسد ذو شخصية بارزة جداً وسياسي كبير جداً». وقال ايضاً عن المحادثات «انني اجريت معه محادثات مهمة ومفيدة جداً»، ثم اضاف: «لقد اجرينا مناقشة مهمة وممتعة جداً جداً وشعرت اثناء الحديث ان الرئيس يعلم الوضع الحالي بشكل ممتاز ويقرّر المخاطر الحالية بشكل صحيح، ومن وجهة نظري هو شخصية بارزة جداً وسياسي كبير جداً...». من المبكر أن نتصور الآفاق التي ستكون عليها العلاقات بين روسيا وبعض الدول العربية والإسلامية مستقبلاً، وهل ان الرئيس بوتين سيلبي مطالب نووية لأغراض سلمية لكل من إيران ومصر والعراق.

كذلك من المبكر الافتراض كيف ستكون عليه العلاقات الأميركية - العربية في حال إذا وجدت أميركا نفسها ذات يوم وقد جرّدها الرئيس بوتين وبنصائح وتحفيزات مدروسة من جانب «زميلنا» بريماكوف من مواقع لها في المنطقة مثل مصر والجزائر - واليمن مستقبلاً - ومواقع تخطط لوضع اليد عليها مثل ليبيا والسودان والعراق وإيران. وهل

اكمل وجهه؟.

تلك بعض التساؤلات التي إرتسمت في الأفق لمجرد أن بدأت مهمة الوزير الألماني الأخضر النحيل الذي يذكّرنا دوره ببطل المسلسل الشهير (incredible hulk) الذي تدور حلقاته حول شخص يخصّ كيانه نتيجة شحنة كهربائية تصيب هذا الكيان، وذلك عند حدوث خطر ماحق يتعرض له شخص ما وينجح في إنقاذ هذا الشخص قبل أن يعود إلى ما كانت عليه الحال من قبل. والذي زاد في وتيرة هذه التساؤلات أن الذي قام بالمسعى التوفيقي ليس وزير خارجية بريطانيا، ولا هو وزير خارجية فرنسا، وذلك لأن الإدارة الأميركية لن تحبذ إستقلالية يمارسها الأول، ولا دوراً يقوم به الثاني من شأن نجاحه سحب البساط من تحت الأقدام الأميركية. كما أن الذي زاد في وتيرة التساؤلات أن ما قام به الوزير الألماني كان بمثابة المسعى الذي أوقف إندفاع الوحش الإسرائيلي في إتجاه الرئيس الفلسطيني، الحائر بين إستحضار ماضيه كمناضل وبين واقع حاله كرمز للشرعية الفلسطينية، يريد الإنقضاض عليه وإلتهامه على نحو إتهام الذئب للخروف التائه عن أمه وقطيعه. ومثل هذا النجاح كان الحد الأقصى الذي ترتاح إلى إنجازه الإدارة الأميركية والذي يؤسس للمرحلة اللاحقة، وهي تلك التي تمثلت بقيام مدير الإستخبارات المركزية الأميركية جورج تينيت بزيارة إلى المنطقة يوم الأربعاء الماضي لرعاية إستئناف التنسيق الأمني الفلسطيني - الإسرائيلي كخطوة من شأنها التمهيد لإحياء العمل بتقرير لجنة ميتشيل. ولكن أسلوب التعامل الأمريكي - الإسرائيلي مع الجانب الفلسطيني لا يشجع على التقاؤل بإمكانية حدوث أي تقدّم، ذلك أنه تم إنجاز إتفاقات في الماضي معظمها على الأرض الأميركية لكن القبول بهذه الإتفاقات، وحتى التوقيع عليها من جانب الطرف الإسرائيلي، لم يكن يعني أن إسرائيل ستلتزم بها. وقد بات مألوفاً أنه بعد كل موافقة على صيغة أو خطة أمنية أو سياسية من جانب الطرف الفلسطيني يفتعل الطرف الإسرائيلي أسباب تفجير للموقف كي لا يصار إلى الإلتزام بما تم الإتفاق عليه. ومن هنا يخشى المرء أن يتم إستدراج الرئيس ياسر عرفات إلى إتخاذ مواقف حاسمة ضد فصائل الإنتفاضة بعدما تم إستدراجه إلى إعلان وقف إطلاق النار، وبدا في ذلك مثل آية الله الخميني الذي أطلق عبارته الشهيرة وخلاصتها أنه بموافقة على وقف

الجيش إستعمال أهم سلاحين يرمزان إلى أميركا. وكانت تلك القيادة جاهرة حيث بدأ على الفور قصف الفلسطينيين الأمنيين بطائرات الهليكوبتر المتطورة ثم بطائرات F.16 الأكثر تطوراً. وكان غرض شارون من ذلك هو القول إن لا البيت الأبيض ولا الخارجية الأميركية ولا البنناغون ولا أي مؤسسات أخرى في الإدارة الأميركية قادرة أن تمنع إسرائيل أو تدينها لإقدامها على مثل هذه الإعتداءات وبالسلاح الأميركي، وأنه ما دام الأمر كذلك فلماذا لا يرفع الفلسطينيون الراية البيضاء ويوقعون وثيقة الإستسلام وبذلك يسود السلام الصهيوني - الأمريكي.

كان دخول الوزير الألماني على الخط وبالشكل المفاجيء لافتاً للإنتباه، ولم يكن واضحاً ما هي الحثيات التي أوجبت على الرجل القيام بالمهمة؟، هذا إذا نحن إستبعدنا تكليف الإدارة الأميركية له القيام بها. هل ان الرجل يتطلع إلى مستشارية بلده مستقبلاً بعد جيرهارد شرودر، وهذا يستوجب قيامه بدور يكون بالأهمية التي تؤهله للمنصب الكبير؟ أم هل أن الرجل وهو العصامي الذي ذاق مرارة الدنيا قبل أن يصبح وزيراً للخارجية إنتابته مشاعر إنسانية ووجدانية وهو يرى ما تفعله الهمجية الإسرائيلية بطبعتها الشارونية بالفلسطينيين فقرر توظيف رصيد بلده في سبيل إيجاد تسوية صغرى تقود إلى التسوية الكبرى فالأكبر معتمداً على أن إفضال بلاده على إسرائيل كثيرة ومستمرة وآخرها مدها بالغواصات التي تريدها للحرب العربية - الإسرائيلية الرابعة التي ربما تخطط لها؟، أم هل أن الرجل يطمح في أن يكون الأمين العام للأمم المتحدة بعد كوفي أنان ومثل هذا الطموح يحتاج إلى التعاطي ميدانياً مع مشكلة التسوية الفلسطينية - الإسرائيلية التي هي «أم المشاكل» العالمية لمعرفة الحقائق على الطبيعة وليس فقط من خلال تصريحات المبعوثين وتقارير السفراء؟، أم أن الرجل بصفة كونه ينتمي إلى حزب الخضر في بلده راعه أن الإسرائيليين يعبثون ليس فقط بأرواح الناس وإنما بالأشجار يجرفونها وبالترية يصحّرونها ويحوّلون كل ما هو أخضر إلى يابس، فقرر لشعور منه بواجب إنقاذ بساتين المدن والقرى الفلسطينية من شر افعال الجرّافات الشارونية القيام بالمهمة والحضور على وجه السرعة إلى المنطقة؟، أم هل أن الممارسات الإسرائيلية بدت أمامه تمثل حالة إنبعاث سريع للنازية فارتأى أن يواجهها بالتحرك الدبلوماسي وبذلك يكون قام بالواجب على

خواطر وتأملات شجعنا على خوض غمار تسجيلها على الورق الوزير الألماني الأخضر الذي جاء يجرب حظه... فلم تحترق أصابعه حتى الآن.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 يونيو (حزيران) 2001

هل هي الخاتمية بعد الخمينية؟

أن يحقق المرء على مستوى القمة مفاجأة تاريخية فتلك صدفة أو أنها هبة من السماء خصت بها هذا المرء. أما أن يحقق المرء نفسه مفاجأة تاريخية ثانية وأكثر أهمية من الأولى، وخلال أربع سنوات، فتلك ظاهرة إستثنائية في تاريخ الحكام والحكومات.

وهذا المرء هو محمد خاتمي الذي فاز برئاسة الجمهورية الإسلامية في إيران في المرة الأولى يوم 23 مايو (أيار) 1997، ثم جاء الفوز وبشكل مبهر مرة ثانية في الإنتخابات التي جرت يوم الجمعة 8 يونيو (حزيران) 2001. وبين الفوزين كان حضوره مبهرًا في إنتخابات برلمانية وبلدية.

حول هذه الظاهرة الجديدة على دنيا الإنتخابات الرئاسية في العالم الثالث يجد المرء نفسه يسجل الملاحظات الآتية:

أولاً - إذا كان التجديد لخاتمي ولاية ثانية جاء تكريماً للرجل على الإنجازات التي تحققت في سنوات الولاية الأولى، فإن هذه الإنجازات لم تتحقق، بل أن المعوقات الداخلية والدولية التي إعتضت رغبة خاتمي في التغيير كانت أكثر من أن تحصي وأثقل من أن يكون في الإمكان تحمّلها. ولكن التجديد حدث على أساس برنامج الرجل وأفكاره التي هي مزيج من الإصلاح والتصحيح، وأيضاً على أساس أن الرجل كان صادقاً مع نفسه، وكان نزيهاً وكان يقينه قوياً في ضرورة إعادة النظر، وكان ثابت الرأي وصامداً من دون أن يقرن المشاكسة بأسلوب التخاطب، وإستطاع أن يستقطب الجيل الثاني من الثورة الإيرانية. ونقصد بهؤلاء من كان طفلاً عندما إنقلبت الأمبراطورية الشاهنشاهية وبانت في عهدة رجال الدين يتقدم صفوفهم آية الله الخميني، وكذلك أولئك الذين جاءت ولادتهم مع بداية قيام النظام الثوري في إيران. وهؤلاء باتوا، وفي خطوة تحدث للمرة الأولى في دول العالم

إطلاق النار مع العراق كان كمن يتجرع السم. وعندما يتحقق إستدراج عرفات إلى مواقف حاسمة يفتعل شارون أسباباً جديدة للتوصل من أي إتفاق أممي أو غير أممي يتوصل إليه ليس فقط مدير الاستخبارات المركزية وإنما الرئيس جورج بوش نفسه.

ومن الجائز الإفتراض ونحن نقول ذلك أن مهمة مدير ال «سي. آي. اي» قد تكون وضع لوائح بأسماء مناضلين فلسطينيين أمام عرفات والطلب إليه أن يقوم بواجبه كرئيس للسلطة. ولكن للرأي العام الفلسطيني أو بعضه وكذلك للرأي العام العربي أو بعضه ملء الثقة بأن عرفات الذي بات حاذقاً في كشف المزاوغات الأميركية - الإسرائيلية يستطيع القول إن مثل هذه المهمة إنما يتولاها رئيس الدولة التي لم يتم بعد قيامها وليس رئيس سلطة سبق أن دمر شارون بطائرات «الاباشي» وال F.16 مراكز لقوى الأمن الفلسطينية التي - إفتراضاً - ستقوم بالمهمة غير النظيفة. كذلك يستطيع الرئيس عرفات القول إن في إستطاعة الألماني الأخضر، إذا هو إرتأى إتخاذ وقفة ضميرية متجردة، أن يروي للعالم ومن على منبر الأمم المتحدة الحقائق التي بات ملماً بها ما من شأنها - إذا هو تجراً وتجرد ثم روى - أن تجعل الرأي العام العالمي يصحو من هذه الإغفاءة الطويلة الناشئة عن التتويم المغناطيسي الصهيوني للضمائر، ويتطلع بعين الإهتمام والتعاطف إلى المذبحة - بطبعها الشارونية . التي تنفذها إسرائيل على الأرض الفلسطينية. وهذه الطبعة لا تختلف عن سابقتها سوى ببعض التفاصيل. أما المضمون فمتشابه وهو إفناء قضية وطن وشعب ومن دون أن تحرك الأمم المتحدة ساكناً، وكأنما كان إعلان الرئيس الاسبق جورج بوش (والد الرئيس الحالي) قيام النظام العالمي الجديد هو إعلان إغتصاب المنظمة الدولية على نحو إغتصاب إسرائيل قبل 53 سنة. ومن هنا لا يعود من المبالغات في شيء إعتبار النظام العالمي الجديد بأنه بدعة صهيونية إستهوت فكرته أميركا على أساس أنها من خلاله تضع يدها على إرادة الدول الأخرى، ومن دون أن تنتبه هذه الدولة العظمى إلى أنها بهذه الخديعة فقدت سمعتها وستفقد أصدقاءها وحلفاءها. وقد يحدث مستقبلاً أن دول العالم قد تقف يوم إعلان بوش الأب لولادة النظام العالمي الجديد دقيقة صمت حداداً على الأمم المتحدة التي كان ذلك اليوم هو يوم إغتصابها. ويبقى أن ما أوردناه هو في مجمله مجموعة

تاركاً المعركة تدور، إذا جاز التصنيف، بين الإصلاحيين الذين يُعتبر خاتمي كبيرهم.

ومن المهم في موضوع نسبة الإقترع الإشارة إلى أن عدد الذين يحق لهم الإقترع في إيران يبلغ 42 مليوناً، الأمر الذي يعني أن هنالك أربعة عشر مليون إيراني إرتأوا عدم الإقترع ربما من شدة وطأة شعورهم بالإحباط نتيجة أن خاتمي وعد كثيراً وسعى أكثر لكن الذي حققته الولاية الأولى كان قليلاً جداً. لكن هؤلاء الأربعة عشر مليوناً هم في كفة خاتمي وإن كانوا لم يدلوا بأصواتهم. وعلى هذا الأساس فإن ما قاله خامنئي بالنسبة إلى الإرادة الشعبية يعزز احتمال، أو حتى ضرورة، تعاونه مع خاتمي، وبذلك تتحقق في الولاية الخاتمية الثانية إنجازات وخطوات تأجل إنجازها.

ثالثاً - لعل خاتمي هو الوحيد الذي جعل الرأي العام هو حزبه الذي ليس في حاجة إلى تسليح وتمويل واجتماعات حزبية ولجان وقيادات. بل قد يجوز القول إن الفوز المبين الذي حققه أوجد ما يجوز إعتباره «الخاتمية» بعد «الخمينية»، وما يجوز قوله إن «الخاتمية» هي السياج الواقعي للخمينية. ولولا المعادلة التي ابتكرها خاتمي لكانت إيران ربما ستعيش مخاضاً من نوع جديد يثير من التساؤلات الكثير في شأن المرحلة الخمينية وبالذات بالنسبة إلى رموز التشدد والتزمت والقمع في تلك المرحلة.

وأمام الرجل في الولاية الثانية عشرات المؤجلات التي يرى، ويرى معه الرأي العام الإيراني الذي إختاره لأنه يجمع بين منطق العلمانيين والتمسك بأهداف ثوابت المؤسسة الدينية التي ينتمي إليها، ضرورة حسمها في شكل أو آخر. وهو في الأسابيع التي سبقت الإنتخاب أثار بعضها مثل الدكتاتورية التي يجب إنهاؤها، والإعتدال الذي أن الاوان لإعتماده، والتسامح الذي يجب أن يحل كل العنف والتطرف، والإصلاحات الإقتصادية التي يجب أن تكون هي الإطار للإصلاحات السياسية للأعوام المقبلة، والعمل على جذب الإستثمارات التي لم يعد مقبولاً عدم جذبها، والشباب في إيران الذين بات ضرورياً حل مشاكلهم بالنسبة إلى العمل والسكن والإحترام والحرية والإستقلال والشرف، وهي مشاكل أخفقت القيادات المتشددة في إستنباط الحلول لها وكل ذلك تحت الإدعاء بأن ما يريده الشباب يصب في نهاية الأمر في مستنقعات الفساد.

الثالث وربما في دول العالم قاطبة، ناخبين من حقهم الإقترع والمشاركة في إختيار من سيحكم بلدهم. وهؤلاء بطبيعة الحال إختاروا خاتمي لأن الرجل فتح، وهو الشيخ المعمم، الأبواب التي أوصدها الفريق المتزمت من الشيوخ المعتمين، وحلل لهم بالمنطق وليس من خلال الفتاوى التي أطبقت على أرواحهم ومشاعرهم وإنسانيتهم طوال بضع سنوات، مباحج الحياة ضمن الأصول وإرتداء الثياب في إطار اللياقة، والمرح في منأى عن الإبتذال، والتعامل الإنساني في إطار القواعد التي تتسم بالرقى، والتعبير عن الرأي من خلال صحف ومجلات ناهز عددها الأربعمئة مطبوعة، لكن بما لا يחדش الكرامات وينال من المبادئ، ولا يتجاوز حريات الآخرين، ولا يقفز فوق خصوصية المجتمع. كما أن الرجل أتاح وبالمناطق ورحابة الصدر مناقشة سنوات الثورة في منأى عن الخطأ بين الأخطاء والخطايا، وإتاحة المجال أمام النقد وبما يؤكد على أن الثورة هي تراث وليست إرثاً، أي بما معناه أن التراث هو مُلك الجميع أو مُلك من يريد أن ينهل من ينابيعه وجداوله الرقراق، بينما الإرث هو ممتلكات ومقتنيات تقول إلى شرائح معينة وبحيث ينال منها الشاطر بين الورثة ما يحلو له ويبقى للآخرين ما لا يريده أو يناسبه.

ثانياً - إن خاتمي إعتبر الرئاسة تكليفاً لا تشريفاً وأبقى نفسه على مسافة من دائرة الكسب والإمتلاء، وبذلك إستقطب الذين يئنون من وطأة الذين حوّلوا الموقع الرسمي إلى حالة من حالات الإستثمار المضمون. وهذه المسلكية جعلت الناس يلتفون حوله ومن دون أن يشكل ذلك إلتفافاً على التراث الثوري لأنه هو في الاصل من أراد أن تكون الثورة تراثاً وليست إرثاً. كما أن هذا الإلتفاف الشعبي الذي تمثّل في أن خاتمي حاز 77 في المائة من أصل الذين إقترعوا ووصلت نسبتهم إلى 88 في المائة، من شأنه أن يجعل مرشد الثورة الإسلامية علي خامنئي يقرر دعم خاتمي إحتراماً من جانبه للإرادة الشعبية وإنسجاماً مع قوله في الخطاب الذي ألقاه لمناسبة الذكرى الثانية عشرة لوفاة الخميني، وكان ذلك قبل ثلاثة أيام من بدء الإنتخابات «إن تأييد الشعب هو اساس مشروعية النظام في الجمهورية الإسلامية». هذا مع الأخذ في الإعتبار أن خامنئي كان سجل في الوقت نفسه خطوة أراد منها الإيحاء بأنه على الحياد عندما لم يشجع احداً من رموز التيار المحافظ على أن يرشح نفسه

رابعاً - مع أن خاتمي فتح في ولايته الأولى الباب أمام دول الغرب، بدءاً من الولايات المتحدة لكي تبني مع الثورة الإيرانية علاقة جديدة متوازنة، إلا أن هذه الدول لم تكن متجاوبة بالشكل الكافي وتسببت نتيجة التباطؤ والتثاقل وعدم التفهم بإحراجات شديدة للرئيس خاتمي الذي بدا في نظر حساده وخصومه انه رجل الغرب، لكن الرجل استطاع، نتيجة نظافة الكف ونقاء السمعة وقوة الإستقلالية والإرادة عنده، الإلتفاف على هذه الإحراجات والإبقاء على رغبة الإنفتاح قائمة إنما من دون أن تعني انها رغبة الطرف الضعيف في وجه الطرف القوي وإنما هي الرغبة المستندة إلى ضرورة أن يتحقق الإستقرار في منطقة الشرق الأوسط التي يكفيها ما قاسته من ويلات الإضطرابات والحروب والعنف.

وصحيح ان خاتمي وضع العلاقة العربية - الإيرانية في غرفة العناية الفائقة بعدما كانت هذه العلاقة قاربت على ما يشبه الإحتضار، إلا أن هذه العلاقة ما زالت عرضة لإنتكاسات قوية نتيجة أن إيران ما زالت في نظر الدول العربية دولة تحتل أراضي دولة أخرى، ونعني بذلك الإحتلال الإيراني الموروث من أيام الشاه محمد رضا بهلوي للجزر الإماراتية الثلاث طمب الكبرى وطمب الصغرى وأبو موسى.

وإلى ذلك أن العلاقة الإيرانية - المصرية تشكل هي الأخرى ثغرة بات من السهل على خاتمي، المتجدد والحائز على ما يشبه الإجماع من النخبين في إيران بسبب إعتداله في الدرجة الأولى، أن يجد الحل المناسب لها، وبحيث يتوارى نهائياً الحذر المصري الذي نشأ نتيجة أن إيران الثورة إختارت إطلاق إسم الإسلامبولي، الذي إغتال الرئيس أنور السادات، على أحد شوارعها إنتقاماً من إستضافة الرئيس المصري (الراحل) للشاه المطارد من الثورة ثم دفنه في القاهرة. وهي في أي حال ثغرة بات من الواجب إعتبارها جزءاً من الماضي.

خامساً - أكدت الإنتخابات الإيرانية ان الديمقراطية ممكنة حتى في ظل نظام ثوري، والفضل في ذلك يعود إلى جوهر العقيدة الدينية وإلى المذهب الشيعي الذي يجيز الإجتهد إلى أبعد الحدود. والإجتهد هو مظهر بين مظاهر الممارسة الديمقراطية، فضلاً عن أن الغوص في أعماق القرآن الكريم والحديث الشريف وكل ما هو منسوب الى الذين حول الرسول صلى الله

عليه وسلم وإلى الذين كانوا بعد ذلك بمثابة منارات إسلامية فكرياً وقولاً وممارسة... أن الغوص الذي نشير اليه يجعلنا نرى أن الديمقراطية في الإسلام قوية وراسخة. وإذا كان بعض رموز السلطة الثورية في إيران مارسوا من التشدد ما لا يُحتمل وما يبدو انه الدكتاتورية بعينها، فإن التصحيح ممكن. والتصحيح هنا ليس للمعتقدات ولا للنهج وإنما هو للأساليب. وهذا ما قصده خاتمي بقوله قبل أن تبدأ الإنتخابات ببضع ساعات: «علينا أن نسير للتخلص من بقايا الدكتاتورية، وهذا المسار غير قابل للتغيير...».

ولقد جرت الإنتخابات في منأى عن أن تكون مسرحية. وكانت حرة ونزيهة خاضها العسكري إلى جانب المدني إلى جانب رجل الدين، وكانوا تسعة مقاربي السن ويستحق كل منهم أن يكون في موقع الرئاسة، إلا أن الرأي العام إختار من إبتكر مزيجاً يجمع بين رجل الدين والرجل العلماني، وبذلك إطمأن الإيراني إلى أن ثورته باقية وأن التغيير المرتجى هو في الأساليب.

يبقى القول إن رؤساء كثيرين في دول العالم يحسدون الرئيس محمد خاتمي على هذا الفوز التاريخي الذي تحقق له ويتمنون لو أنهم ينالون في بلدانهم ما ناله الرجل في إيران، حيث أنه تحول من شخص جاء من آخر الصفوف الخلفية في النظام الثوري في إيران، عام 1997 يجمع بين ملامح المهاتما غاندي وملاح تشي غيفارا، وأمكنه الجلوس في الصف الأمامي مع أن مكانه القمة. ونقول ذلك، على أساس أن منصب رئيس الجمهورية، عامذاك وخلال السنوات الأربع التي أعقبت ذلك كان باهتاً بسبب صراع مراكز القوى صقور الثورة الإيرانية، وأبرزهم هاشمي رافسنجاني الذي إعتبر رئاسته لهيئة تشخيص مصلحة النظام بأنها المنصب الثاني بعد منصب المرشد العام يلي ذلك منصب رئيس الجمهورية. وهذا الإعتبار أحدث خللاً طالما إكتوت جمهورية خاتمي به، إلى أن كانت إنتخابات 8 يونيو (حزيران) 2001 تحسم بنتائجها هذا الخلل، أو أننا وغيرنا نفترض ذلك. وفي ضوء هذه الإنتخابات والفوز المبهز الذي حققه خاتمي فيها بات الرجل ليس فقط مجرد رئيس جمهورية وإنما بات صاحب شرعية لم تتحقق بهذا الزخم لأحد بعد الخميني.

واستناداً الى هذه الشرعية يجوز الافتراض أن إيران الخاتمية ربما تتجح في إحتواء التدايعات التي كانت

السبب فيها مرحلة تصدير الثورة... أو إستعادة ما تم تصديره والبدء من جديد.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 20 يونيو (حزيران) 2001

* * *

القضية بين توغك يبدأ... وتوغك يتواری

يوم الاثنين 18 يونيو (حزيران) 2001 أنهت لجنة المتابعة العربية إجتماعاً لها في العاصمة الأردنية (عمان) التي كانت ما زالت تعيش حالة التوغك السياسي الناشئة عن إعتقاد العناد في وجه المباغطة، مع أن من شأن إسقاط التحدي عند حدوث مثل هذا الأمر تقادي الأزمات الكبرى وتقليل تأثير التوغك السياسي الذي أشرنا إليه.

وقبل الحديث عن أعمال تلك اللجنة وأعمال الدورة الرابعة والثلاثين لوزراء الإعلام العرب التي إنعقدت في اليوم التالي في العاصمة اللبنانية (بيروت) التي بدأت تعيش حالة إنفراج في المزاج العام بعد إعادة إنتشار القوات السورية وبحيث أن بيروت الكبرى باتت خالية من بضعة آلاف جندي سوري وهي حالة من شأنها أن تزيل مع الوقت آثار التوغك الذي أربك لبضع سنوات الوضع الداخلي اللبناني... إننا قبل الحديث عن أعمال تلك اللجنة وأعمال الدورة الرابعة والثلاثين لوزراء الإعلام العرب من الضروري إلقاء نظرة على التوغك الأردني الذي واكب إجتماع تسعة وزراء خارجية عرب، وعلى بداية إنتهاء التوغك اللبناني الذي في ظله إلتقى وزراء الإعلام العرب. ذلك أن هذين التوغكين هما جزء من قضية الوفاق الداخلي لدولتين عربيتين أحدهما على خط النار الذي جرى تبريده (أي الأردن) والثانية على خط النار القابلة للإشتعال في أي لحظة (أي لبنان). وقضايا الوفاق الداخلي تصب في نهاية الأمر في بحيرة القضية العربية العامة. الذي حدث هو أن إبراهيم غوشه المتحدث الرسمي بإسم حركة «حماس» وصل يوم الخميس 14 يونيو (حزيران) 2001 على متن طائرة الخطوط الجوية القطرية آتياً من الدوحة التي يعيش فيها وبرعاية وتكريم من جانب امير دولة قطر الشيخ حمد بن جاسم آل ثاني. ويبدو أن وصول غوشه وهو الأردني من أصل فلسطيني كان مباغتاً ومن دون أي

تنسيق مسبق بين السلطات المعنية في البلدين الأمر الذي جعل جماعة الأمن في مطار الملكة علياء يمنعون غوشه من دخول الأردن طالبين، وبعد التشاور مع المراجع العليا في المملكة، أن يعود الرجل إلى حيث كان وعلى الطائرة نفسها التي وصل على متنها إلى عمان. وعندما رفض قائد الطائرة، وبعد التشاور مع المراجع العليا في الدوحة، إعادة غوشه فإن سلطات مطار الملكة علياء منعت الطائرة من المغادرة.

قد تكون السلطات القطرية أرادت من إعادة غوشه إلى بلده وبالمباغطة التي إتسمت بها العودة إنهاء هذا الإشكال بين الحكم الاردني وحركة «حماس» الذي يعود إلى العام 1999، وأن يكون الإنهاء من خلال الصدمة الكهربائية التي هي أخت المباغطة إلى حد ما. كذلك قد تكون رأت، هذا إذا نحن أسقطنا سوء النية وإستبعدنا وجود أزمة صامته بين البلدين، أن إنهاء هذا الإشكال لن يتم بالتشاور وأنه ما دام الأمر كذلك فليتم وضع إبراهيم غوشه على متن طائرة قطرية وإرساله غير مخفور إلى بلاده وذلك خشية أن يبقى إلى ما لا نهاية في قطر ومعه بعض قادة «حماس» وهو ما من شأنه أن يتسبب بإرباكات لهذه الدولة التي سجلت خطوات متقدمة على صعيد الإنفتاح على إسرائيل أو العكس. ومن هذه الإرباكات أن تصبح إستضافة غوشه سنتين بمثابة سابقة تجعل من الدوحة «دوحة» لطلاب اللجوء السياسي، وبالذات أولئك المنتسبين إلى حركة «حماس» وغيرها. ومثلما أنه من المؤكد أن إستضافة قطر للحماسين خفت بعض الشيء من العتب العربي عليها نتيجة العلاقة التي تأسست بينها وبين إسرائيل، إلا أن هذه الإستضافة أوجدت في الوقت نفسه الكثير من التساؤلات في شأن هذه المعادلة العصبية على الفهم وهي أن المتحدث بإسم الفصيل الأكثر تشدداً في المقاومة الفلسطينية والذي له الفضل الأساسي في إنتفاضة الأقصى والذي قام بعض مناضليه بعمليات جهادية فاعلة ضد إسرائيل والذي هو حليف «حزب الله» في لبنان، مستضاف في عاصمة الدولة الأكثر إقتناعاً بجذوى الإنفتاح على إسرائيل. وهي تساؤلات مشروعة لأن معنى هذه الإستضافة هو إما إسكات صوت المتحدث بإسم حركة «حماس» الذي هو إبراهيم غوشه، وإما تبديل رؤية دولة قطر للعلاقة مع إسرائيل. وبالنسبة إلى الشق الأول فإن العلاج هو في تسفير إبراهيم

غوشه إلى عمان وتركه في مهب رياح المزاكين القطري والأردني مزمياً في صالة الترانزيت في مطار علياء وهو إجراء كثير الخسونة بكل المقاييس بما في ذلك المقياس الأمني.

واللافت للإنتباه أنه مع دخول بقاء غوشه في المطار ومنع الطائرة القطرية من المغادرة إلا إذا هي أعادته، الأسبوع الثالث، لم تعط المرونة فرصتها. وما سمعناه من وزير الإعلام الأردني (زميلنا العائد إلى الوزارة) صالح القلاب كان مفزعا وكان لا يبشر بإحتمال إيجاد المخرج المناسب، بل أن الوزير الأخ صالح تحدث في عمان، ثم في بيروت بعد ذلك وباستفاضة، بلهجة وزير الداخلية أو مدير الأمن العام وذلك لدوافع عصية على الفهم هي الأخرى من جانب سامعيها، مع أنه وزير للإعلام وصاحب عقلية متفتحة وغير تأريية. وما سمعناه تمثل بقوله عشية إنعقاد الدورة الرابعة والثلاثين لوزراء الإعلام العرب في بيروت التي هي إلى حد معقل بالغ الأهمية من معاقل «حزب الله» المناصر لإبراهيم غوشه والمتأثر بما جرى له: «إن زعماء حماس ليسوا أردنيين وسنتعامل معهم على هذا الأساس. كما أن الأردن لن يقبل وساطة الجامعة العربية بل يرفض أي وساطة مهما كانت بينه وبين حماس. والجامعة ليس لها علاقة في هذا الموضوع لا من قريب ولا من بعيد لأن هذه الأزمة ليست أزمة عربية...». أما الجهة المقبولة وساطتها فإنها، في نظر الوزير القلاب، ليبيا فقط. لماذا؟ يوضح: «إن المبادرة الليبية قد تكون متفكة مع بعض الشروط الأردنية، كما أننا نشكر ليبيا والأخ القائد معمر القذافي الذي عودنا أن يبادر إلى القضايا العربية، وهو قائد مرموق عود الأمة العربية على المبادرات الخيرة...». لكن الذي نخشاه ونتمناه في الوقت نفسه هو أن تفرض التطورات والمصلحة على الملك عبدالله الثاني الإقرار بأن إبراهيم غوشه أردني وأن مكانه ليس صالة الترانزيت في مطار الملكة علياء وإنما منزله أو إيداعه السجن بعد إصدار حكم عليه. كما أن المصلحة والظروف قد تفرض تعديلاً جذرياً في الشرط الأردني الذي على أساسه يتم السماح لإبراهيم غوشه بالدخول إلى بلده. وخلاصة هذا الشرط التعجيزي هو أن يعلن الرجل انه ليس عضواً في المكتب السياسي لحركة «حماس» وليس عضواً في الحركة ولا ناطقاً رسمياً بإسمها وليس له أي صفة في الحركة، أي بكلام أكثر وضوحاً أنهم يطلبون من الرجل أن ينزع جلده ويتنكر

لماضيه ويتبرأ من الحركة التي وجد فيها ذاته. بل قد يجوز القول من باب المقارنة أن هذا الطلب أو الشرط هو مثل ذاك المطلوب من الرئيس ياسر عرفات تنفيذه وهو إعتقال قادة حركة «حماس» وبعض مناضلي الحركة و«الجهاد الإسلامي» وإلا فالحصار الإسرائيلي للشعب الفلسطيني مستمر فضلاً عن العدوان والإذلال والتجوع.

أما لماذا الخشية وعلى من ولماذا التمني ومن من فإن الإجابة عن ذلك هي أن الخشية هي على الأخ صالح القلاب، لأن معنى إقرار الملك عبدالله بأردنية إبراهيم غوشه وما يستتبع ذلك من عفو أو إجراءات هو أن الوزير الأردني يستعجل التشدد واستبق الضرورات. أما التمني فهو أن يحذو الملك عبدالله الثاني حذو والده في ساعات تهب فيها على المملكة رياح من شأن غبارها إقلاق الوفاق الوطني. وفي تقديرنا انه لو كان الحسين يرحمه الله على قيد الحياة لكان طلب من السلطات المختصة إستقبال إبراهيم غوشه إستقبال الزوار الإستثنائيين فلا تكون هناك أزمة ولا تنشأ عن الأزمة منغصات داخلية وخارجية. هذا فضلاً عن أنه سيكون سجّل في المرمى الحماسي هدفاً لمصلحة السمعة الوطنية للمملكة وسجّل في المرمى القطري بضعة أهداف يمكن توظيفها لمصلحة الوضع الإقتصادي المتردي.

هذا بالنسبة إلى التوعك الذي حدث في عمان وللأردن. أما التوعك الذي بدأت الخطوة الأساسية على طريق تواريه، بأمل تحقيق حالة إنفراج جذرية في المزاج العام اللبناني، فيتمثل في إعادة إنتشار القوات السورية وإنسحاب سبعة آلاف من أصل عشرة آلاف جندي وضابط سوري من مناطق بيروت الكبرى في إتجاه منطقة البقاع وبذلك لم يعد الوجود السوري العسكري تلك المادة الوحيدة في جدول أعمال التداول لدى بعض المعنيين بهذا الوجود ولدى معظم الذين يعينهم كثيراً بقاء هذا الحشد الكبير من القوة العسكرية السورية وكذلك معظم المهمومين من إستمرار بقاء هذا الحشد.

والذي يلفت الإنتباه هو أن إعادة الإنتشار بدأت يوم الخميس 14 يونيو (حزيران) 2001 وجاء حدوثها مفاجئاً ومن دون مقدمات وأن إثنين من المؤسسات اللبنانية. واللذين هما عملياً أو في بعض جوانبهما مؤسسة واحدة هما فقط دون بقية المؤسسات - كانتا المعنيتين والعارفتين والساهرتين على عملية التنفيذ. وهاتان المؤسستان هما

محطة «بي. بي. سي» البريطانية وجاءت تدمغ هذا السفاح. ومع ذلك فإن الرئيس بوش إستقبله وتبادل الإبتسام معه وكأنما هذا الذي أمامه لم يقترب أبشع مجزرة في الربع القرن الأخير من القرن العشرين. وعندما إستفطع رجال الصحافة والإذاعات والفضائيات هذا الإستقبال وسألوا المتحدث الرسمي حول ما إذا كان الرئيس بوش يرى في زائره شارون أنه مجرم حرب جاء الرد بأن في إستقبال الرئيس الأميركي لهذا الشارون الجواب! وهذا معناه انه لو كان يعتبره مجرم حرب لما كان سيستقبله.

وبعد أن سَمع وزير الخارجية الأميركية الجنرال كولن باول من الرئيس حسني مبارك الكثير من العتب والإستهجان بسبب الموقف الأميركي الذي لا يضع حداً لمجون شارون وجنونه فإن الجنرال الأول (أي كولن باول) تعاطفاً منه مع الجنرال الثاني السفاح شارون قال إن شارون وحده يحدد موعد الخطوة التالية في خطة ميتشيل. ثم حاول ترطيب الأجواء بعد لقائه مع الرئيس ياسر عرفات في رام الله فأقر بضرورة وجود مراقبين دوليين الأمر الذي أثلج بعض الشيء الصدر العرفاتي. لكن جنرال الخارجية الأميركية وجد نفسه بعدما إنتقل إلى لقاء شارون الذي كان عاد للتو من واشنطن يقول الكلام الذي يرتاح شارون إلى سماعه ناسفاً فكرة المراقبين، وبذلك بات هناك موقفان أميركيان بينما المطلوب موقف واحد حاسم.

قد يظن البعض ومن منطلق حُسن النية أن جنرال الخارجية الأميركية يرمي بجوابه الذي سمعناه وقرأناه المسؤولية على جنرال الحكومة الإسرائيلية وأن هذه الإجابة هي نوع جديد من المفردات في قاموس الدبلوماسية يمكن اللجوء إليها في اللحظات التي يبلغ الحرج أشده على الإدارة الأميركية. وهذا أيضاً أسلوب لا يقَدِّم ولا يؤخر لأن الجواب الذي إفترضنا سماعه من كولن باول هو أن الإدارة الأميركية عندما بعثت الحيوية في خطة ميتشيل فليس لكي يلتزم بها الفلسطينيون وحدهم كما هو حاصل ولا ينفذ بنودها شارون كما هو حاصل أيضاً، وأن على الحكومة الإسرائيلية تنفيذ هذه الخطة التي باتت مثل القرار 242 والقرار 338 مقبولة دولياً ومن لا يوافق عليها يكون خارجاً على هذا القبول الدولي.

عسى ولعل يتأمل الجنرال باول ملياً بكلام ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز، وهو الكلام الصريح والناصح على عادة الأمير عند

رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش. أما الحكومة ومجلس النواب فإنهما علما بالأمر مثل بقية كل اللبنانيين. وقد يكون ذلك حدث عن سابق تصميم أو نتيجة أن الإنسجام بين الرئاسة هو الآخر متوقع ومن دون ظهور مؤشرات إلى أنه زال بفعل مساعي التوفيق السورية. من المؤكد أن التوعك الذي بدأ في الأردن لن يستمر، وقد يكون الحكم الأردني في إنتظار الوسيط العربي الذي يقلل بمسعاة نسبة التراجع في الإجراء الأردني الذي تم إتحاذه في حق مواطن أردني ما زال مؤمناً بتحرير فلسطين في الحد الأقصى وقيام الدولة وعاصمتها القدس في الحد الأدنى، بينما أهل الحكم في الأردن يرون أن مقياس السعي الفلسطيني هو فقط الذي يمثل الرئيس ياسر عرفات، وبقية أفراد طاقمه السياسي وكفى الفلسطينيين حسنات الإنتفاضة وشر العدوان الشاروني. كذلك من المؤكد أن التوعك الذي بدأ يتوارى بعد الإنسحاب السوري من بيروت الكبرى سيضع لبنان على مشارف الإستقرار بعدما كان على حافة الهاوية.

أما أعمال لجنة المتابعة العربية وتوصيات وزراء الإعلام العرب فإن القراءة المتأنية لها وما قد تعود به من خير على القضية تستوجب حديثاً آخر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 27 يونيو (حزيران) 2001

* * *

هل الوقفة مع الصديق الأميركي آتية.. عاجلاً أم آجلاً؟

نشك أن إدارة الرئيس جورج بوش الابن مارست بعض الخشونة وقلة المسايرة مع رئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون، ذلك أن أي كلام أميركي لا يصل إلى إبلاغ شارون أو غيره بأن على إسرائيل أن تتنقذ حرفياً ومن دون أي مناقشة القرار 242 والقرار 338 وإلا فلا لقاء معها، يبقى من نوع الكلام الذي لا يقَدِّم ولا يؤخر.

لقد ذهب شارون إلى واشنطن مجللاً بشهادات وإدانات متفجرة بأنه مجرم حرب إقترب أبشع الجرائم ومن بينها مجزرة صبرا وشاتيلا التي توجب على القضاء الدولي إنزال العقوبة به. ولم تأت هذه الشهادات والإدانات من محطة عربية لكي يكثر التملص الأميركي في هذا الشأن، وإنما جاءت من

من جهة وكردع بهدف الدفاع عن الهيبة وسيادة القرار وإستقلالية الإرادة من جهة أخرى تُشارك عملياً في هذه الحرب، ذلك أن إنتصار إسرائيل في الحرب هذه المرة يعني أنها باتت قادرة على التحكم بالإرادة العربية ونكاد نقول انها ستتضع يدها على هذه الإرادة وبالتالي على ثروات المنطقة. وعلى هذا الأساس فليس لأي دولة عربية وبالذات من أبرم إتفاقات سلام ومعاهدات مع إسرائيل مصلحة في حدوث ذلك.

وإذا كانت الإدارة الأميركية لن تستأنس بما فيه الكفاية بالتقرير الذي رفعه إليها رئيس «معهد الشرق الأوسط» وبطبيعة الحال لم يتضمن كل ما سمعه كاتبها التقرير السفيران ووكر وديفيد ماك فإن من مصلحتها الإستئناس بالذي صدر عن مؤتمر وزراء الإعلام العرب الذي عقد دورته الرابعة والثلاثين في بيروت يوم الثلاثاء 19 يونيو (حزيران) 2001 وأيضاً بالذي صدر عن لجنة المتابعة العربية التي عقدت إجتماعاً في عمان قبل ذلك بساعات (الإثنين 18). فاللجنة التي تتشكل من وزراء خارجية دول حريصة على العلاقة مع الولايات المتحدة قررت «التصدي الحازم لمحاولات إسرائيل التغلغل في العالم العربي تحت أي مسمى والتوقف عن إقامة أي علاقات مع إسرائيل ويحملونها مسؤولية الخطوات التي تُتخذ في صدد العلاقات معها من قبل الدول العربية بما في ذلك إلغاؤها» وقررت أيضاً «تفعيل المقاطعة العربية ضد إسرائيل من خلال إنتظام عقد مؤتمرات المقاطعة الدولية التي يدعو إليها المكتب الرئيسي للمقاطعة بهدف منع التعامل مع إسرائيل...». ونحن لن نتطرق إلى بقية التوصيات الداعمة للبنان وسوريا والفلسطينيين والإصرار على تطبيق قرارات مجلس الأمن على رغم أن هذه التوصيات صيغت بلهجة غير تقليدية. ونكتفي بالقرارين اللذين إتخذتهما اللجنة لنقول إن حديث إلغاء المعاهدات مع إسرائيل بات مطروحاً، وأهمية طرحه انه لم يكن يُطرح من قبل، كما انه جاء بصيغة قرار شاركت في اتخاذها الدول التي بينها وبين إسرائيل معاهدات سلام وهي مصر والاردن والسلطة الوطنية الفلسطينية، والدولة التي تحسم بنقلها المعنوي والمادي خيار المواجهة إذا بدأت، وهي المملكة العربية السعودية، والدولة التي ما زالت الرقم الصعب في عملية السلام والأكثر صعوبة في قرار المواجهة وهي سوريا. كذلك أن الجنوح نحو إحياء سلاح المقاطعة بات وارداً أكثر من أي وقت مضى. ومثل هذا التوجه، وفي زمن تعاني فيه العملية السلمية الكثير من جفاء التخطيط الإسرائيلي والعناد الشاروني،

التخاطب، الذي يوضح فيه بأن الموقف الأمريكي ما زال دون ما يتوقعه أصدقاء أميركا بكثير، والذي يجعل الصراحة التي لها طابع النصيحة تلقى من الإدارة الأميركية الأذن الصاغية. ولا بأس من إستئناس هذه الإدارة بالإنطباعات التي عاد بها من جولة في ديار الأصدقاء الخليجيين مساعد وزير الخارجية السابق رئيس «معهد الشرق الأوسط» الأمريكي إدوارد ووكر ونائبه ديفيد ماك وهي إنطباعات تشير إلى أن الصدر العربي على أهبة أن ينفجر غضباً على الإدارة الأميركية التي تسجل يوماً بعد آخر خيبة أمل لأصدقاء هذه الإدارة بالذات وللعالم العربي والإسلامي بشكل عام لأنها لا تفعل الحد الأدنى من الحد الأقصى الذي عليها أن تفعله. وأما الكلام الإسرائيلي الذي قيل على هامش إجتماع شارون ببوش وخلصته أن الرئيس الأمريكي وجه صفقة قوية لإسرائيل من خلال شارون، وأن شهر العسل بين أميركا وبوش وإسرائيل شارون قارب على الوصول إلى نهايته وأن شارون وقع في الفخ، وأن الخلاف أعمق مما يبدو، وأن... وأن... وأن... إلى آخر هذه الإستنتاجات التي ردها معارضون إسرائيليون ونشرت بعضها صحف إسرائيلية... إن هذا الكلام يبدو كما لو أنه خدمة تسديها هذه الأطراف إلى الإدارة الأميركية بغرض إطفاء مشاعر الغضب العربي الشامل وإمتصاص الإحراجات التي ألحقتها الإدارة الأميركية بأصدقائها العرب. والخدمة على أساس أنه إذا كانت هنالك أطراف إسرائيلية تقول ان شارون وقع في الفخ الأمريكي وأن شهر العسل بين أميركا وبوش وإسرائيل شارون قارب على الإنهاء، فعلى الأصدقاء العرب أن يوقفوا إنقذادهم للإدارة الأميركية ما دامت هذه الإدارة لم تعد على نحو ما يظنون. وكل هذا مجرد كلام قد يكون من إبتكار أميركي - إسرائيلي مشترك ولا نظن أن عربياً عاقلاً يمكن أن يقتنع به. فالكلام المقنع الوحيد هو الذي يضع النقاط على الحروف ويحدد بكل وضوح وعقلانية ان إسرائيل لا تريد السلام بعدما إرتضاه العرب وأن الذي يحدث هو أن الإدارة الأميركية تضغط على العرب في حين أن الضغط يجب أن يكون على إسرائيل. ولذا بات لا بد من تصحيح هذا الموقف خصوصاً أن الأمور تداخلت وبحيث أنه إذا أشعل شارون المنطقة حرباً على نحو تلميح الرئيس بشار الأسد إلى ذلك خلال زيارته الوقورة إلى فرنسا فإنها هذه المرة ستكون مختلفة تماماً، أي بما معناه أن دولاً عربية كثيرة لم تدخل الحروب الثلاث الماضية بشكل مباشر ستجد نفسها كواجب قومي

من يفوز لو كانت أميركا متفرجة ودارت المعركة بالتكاش وبالتلاكم؟

ما دامت الإدارة الأميركية لا تملك بعد كل عدوان إسرائيلي على دولة عربية سوى الدعوة إلى ضبط النفس.

وما دامت تستعمل الفيتو ضد أي قرار دولي يدين إسرائيل أو أنها تهدد به عندما تتجه دولة عربية معتدى عليها إلى تقديم شكوى فنقرر هذه الدولة صرف النظر عن تقديم الشكوى.

وما دامت في الوقت نفسه تواصل دعم إسرائيل قبل أي عدوان ودعمها بعد أي عدوان ودعمها بين الحالتين.

ما دامت هذه هي حال الإدارة الأميركية مع إسرائيل المعتدية، فإن العدوان لن يتوقف وبصرف النظر عما إذا كان هذا العدوان يستهدف راداراً سورياً في شهر البيدر أو سهل البقاع (وهما من المناطق اللبنانية القريبة من الحدود مع سوريا) أو ملاذاً للأمم المتحدة في بلدة «قانا» الجنوبية أو محطات لتوليد الكهرباء أو بيوتاً وحقولاً ومدارس ومستوصفات في قرى الجنوب وقرى بلدات في الضفة الغربية وقطاع غزة، ولو جربت الإدارة الأميركية مرة واحدة، ولا ندري ما الذي يجعلها لا تجرب، أن تقول لإسرائيل أنه سيتم إدانتك من جانبنا إذا أنت اعتديت، أو إننا لن نستعمل الفيتو ضد أي مشروع قرار إدانة، فإن هذه إسرائيل لن تجرؤ على مواصلة الإعتداءات، كما أنها كانت لن تجرؤ على ضرب المفاعل النووي في العراق والمراكز الفلسطينية في تونس وتغتيال القيادات الفلسطينية في لبنان، ولا حتى تجتاح الأراضي اللبنانية وصولاً إلى العاصمة بيروت ولا أيضاً وأيضاً تعتدي على مطار بيروت وتقوم طائراتها حتى اليوم بإخترق جدار الصوت في الأجواء اللبنانية من الجنوب إلى الشمال إلى البقاع بما في ذلك أجواء العاصمة بيروت. ومن المؤكد أنها كانت ستحسب ألف حساب لما يمكن حدوثه من مضاعفات فلا يمارس أرييل شارون في مخيم صبرا وشاتيلا متعة ذبح الناس من الوريد إلى الوريد، بصرف النظر عما إذا كان هو المخطط وبعض اللبنانيين هم المنفذون أو كان التخطيط والتنفيذ معاً من صنع إسرائيلي - لبناني.. لعنة الله على الطرفين وأذاقهما العذاب في ما تبقى من دنياهما وفي

سيجد قبولاً عربياً شاملاً ما دامت الدولة الأساسية التي تتشكل منها لجنة المتابعة باتت تتحدث فيه كاحتمال وارد وبقوة.

أما وزراء الإعلام العرب الذين تختلف حكوماتهم على أمور كثيرة فإنهم إتفقوا على أربعة أمور تكمل ما إتخذه وزراء خارجية لجنة المتابعة ومن شأنها تنبيه الإدارة الأميركية إلى ما قد تأتي به التطورات الناشئة عن إحتقانات الغضب من مفاجآت. الأمر الأول هو أن قانون الكونغرس الأميركي القاضي بنقل السفارة الأميركية إلى مدينة القدس غير قانوني وغير شرعي ويجب التصدي له من خلال رأي عام عربي وإسلامي. والأمر الثاني هو دعم الإنتفاضة الفلسطينية والمقاومة ضد الإحتلال والإستيطان في فلسطين والجولان. والأمر الثالث هو دعم المبادرات لمحاكمة مجرمي الحرب الإسرائيليين وتكليف الإدارة العامة لشؤون الإعلام بمتابعة تشكيل اللجنة العربية من الخبراء القانونيين في شأن محاكمة هؤلاء المجرمين. والأمر الرابع هو الإستفادة من التجربة اللبنانية في الإعلام المقاوم من حيث التركيز على مخاطبة الرأي العام الإسرائيلي في وقت أثبتت فيه هذه التجربة نجاحها.

ومثل هذه الأمور يتم الإتفاق عليها من قبل وزراء يمثلون حكومات تتبادل العلاقات مع إسرائيل، وحكومات بينها وبين إسرائيل تمثيل تجاري، وحكومات ترى أن الحل هو في تحرير فلسطين من النهر إلى البحر، وحكومات تسعى خفية إلى علاقة مع إسرائيل، وحكومات تدعم المقاومة في المواجهة المستمرة مع إسرائيل، وحكومات تتأصب الإدارة الأميركية العداء، إلى جانب حكومات تربطها علاقة إستراتيجية بالولايات المتحدة... ان مثل هذه الأمور يلتقي حولها 22 وزير إعلام عربياً تعني أن التفكير العربي بات متأهلاً لواقع سياسي جديد من مصلحة الإدارة الأميركية التنبيه له خشية أن تكون الوقفة التي بات لا بد منها مع الصديق الأميركي بنوعية وقفة مصر ذات يوم مع الصديق السوفياتي. ومنذ تلك الوقفة المصرية المحيرة بدأ العد العكسي لإنهاء الإتحاد السوفياتي الذي تحول إلى جمهوريات أشبه بالشظايا. وليس هناك ما يمنع إصابة زعيمة النظام العالمي الجديد بما أصاب زعيمة العالم الشيوعي.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 4 يوليو (تموز) 2001

* * *

آخرتهم حيث الحساب العسير .

إننا عند التأمل في الذي تفعله إسرائيل نستقطع الموقف الأميركي، خصوصاً أن هذا الموقف مستمر على حاله حتى بعدما بات خيار السلام موضع القبول العربي الشامل. وفي مثل هذا التبدل للمفاهيم وبحيث أن كل فلسطين لم تعد هي القضية وإنما الجزء اليسير منها هو القضية وهو المطلب، وأن الحل الطموح ليس هو ما سيحقق وإنما الحل الممكن والذي هو دون الطموح بكثير... أنه في مثل هذا التبدل للمفاهيم بات من واجب الإدارة الأميركية ومصلحتها دعم هذا التوجه بهدف تثبيته وليس السكوت على إسرائيل التي تعتدي على الفلسطينيين لأنهم يطالبون «الدولة» التي اكتسبت شرعية عربية ودولية، وتستبيح حرمة الأجواء اللبنانية يوماً وتعتدي على أراضي الآخرين.

لو كانت إسرائيل ليست مطمئنة إلى أن الإدارة الأميركية لن تتخلى عنها حتى في حال تزايدت التجاوزات والاختفاء ووصلت إلى حد ما وصلت إليه عام 1967 عندما ضرب الإسرائيليون عن سابق تصميم السفينة الأميركية «ليبرتي»، لما كانت تجرأت على هذا العهر الذي تمارسه. فالمسألة ليست مسألة شجاعة وإنما هي نزعة عدوانية دموية عنصرية تحتمي بالقوة الأعظم منذ أحد عشر عاماً التي هي الولايات المتحدة بعدما كانت في الخمسينات والستينات محتمية بحلف أوروبي يساند عدوانها وتتزعّم هذا الحلف وتتقاسم متطلبات مساندة العدوان كل من بريطانيا وفرنسا. وإذا جاز لنا تبسيط المسائل فإن المواجهة الفلسطينية - الإسرائيلية لو كانت من دون السلاح ومن دون الإتكال على الحامي الأكبر وخاضها بالأيدي وبقوة العضلات فلسطيني مقابل يهودي لجاء الفوز من حصة الفلسطيني في معظم جولات المعركة. بل حتى يجوز الافتراض بأنه لو كانت أميركا مجرد متفرجة على معركة عن طريق الملاكمة لفازت نساء فلسطينيات كثرات على قطعان المستوطنين وجنود الاحتلال الذين يخوضون المواجهة مع الفلسطينيين العزل من السلاح وهم مدججون بالسلاح تحميمهم الراجمات من بعيد والطائرات من فوق، وعلى مسافة قصيرة من كل قطيع من هؤلاء سيارات إسعاف هي عبارة عن مستشفيات طوارئ. وعندما نقول ذلك نستند إلى عشرات المشاهد التي طالما بثتها الفضائيات وظهرت فيها المرأة الفلسطينية جسورة على المستوطن أو الجندي. بل حتى أن هذه الفضائيات بثت المشاهد

الحية التي تعكس خوف الإسرائيلي المدجج بالسلاح من فتى أتنن القذف بالحجر.

كما أننا في سياق جواز الافتراض يمكننا القول إنه لو كانت أميركا متفرجة وكانت المواجهة الفلسطينية - الإسرائيلية تدور بالمكابشة لإستطاع أبو عمار أن يلوي وعلى رغم تراجع وضعه الصحي ذراع أرييل شارون على رغم هذا الإكتناز. أو فنقل إن المكابشة بالأيدي ربما كانت ستتتهي إلى تعادل.

وما يقال عن الثنائي عرفات - شارون يمكن أن يقال عن الثنائي صائب عريقات - بيريز وعن بقية الثنائيات مدنية كانت أو عسكرية أو مخابراتية، والقصد من هذا التشبيه هو القول إن الإدارة الأميركية من واجبها أن تدرك بأن التكافؤ غير قائم، وأن إسرائيل عندما تعتدي فإن حقيقة الأمر هي أن إنتصارها مهدى إلى تلك الإدارة التي لولاها وإستناداً إلى قاعدة المواجهة الخالية من المشجع والداعم والمغامر والمحرص... الخ الأميركي لكانت إسرائيل بكل هذه الخلطة الغريبة التي يتشكّل منها شعبها طريحة هزائم لا مثيل لها.

من هنا يجد المرء نفسه يتمنى على الإدارة الأميركية التأمل ملياً في جوهر المسألة والتصرف في ضوء هذا التأمل، ذلك أن شعور العربي والمسلم عموماً يزداد وضوحاً يوماً بعد يوم وبحيث أن الصورة، التي إكتملت ملامحها وعززت بالتالي المشاعر، باتت تؤكد أن مشكلة العرب مع إسرائيل إنما هي في حقيقة الأمر مشكلة مع الإدارة الأميركية وأن الإنتصار على إسرائيل بهدف إنهاء هذا الأمر الواقع العدواني الذي فرضته على الأمة يكون بإنهاء هذا الإنحياز غير القابل للنقاش من جانب الإدارة الأميركية إلى صف إسرائيل. وإذا كانت الأمور وصلت إلى التعقيد الذي نحن عليه فهذا سببه أن الإدارة الأميركية تريدنا معها نحمل بالسلام المنقوص إسرائيل في حين أن ما نريده كعرب أو ما إنتهى أمرنا إليه هو أنه إذا كانت إسرائيل على يمين هذه الإدارة من حيث الإهتمام والتعامل والتفهم فإن مكان العرب هو إلى يسار تلك الإدارة. أما أن يستمر الوضع على ما هو عليه فإن ذلك سينتهي إلى يوم قد تجد الإدارة الأميركية بحجة الدفاع عن إسرائيل عندما سيتفجر الإحتقان في الصدور العربية غضباً وحرماً توجه نيران مدافعها وصواريخ طائراتها وسفنها الحربية المحيطة بمنطقتنا نحو جيوشنا وشعوبنا، خصوصاً أن لها في هذا الخصوص سابقة

معالمها قبل أن تتكشف وثائق التعاون الأميركي - الإسرائيلي على العرب.. وتحت المظلة المخادعة التي إسمها العملية السلمية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 11 يوليو (تموز) 2001

مصير خير أمة على كف أسوأ بلطجي!

ليس من المألوف أن يقوم رئيس دولة إسرائيل بتسجيل مواقف سياسية وبالذات في وقت يكثر الأخذ والرد في شأن هذه المواقف. فهذا المسؤول هو تقريباً من دون مسؤولية سياسية لأن الرجل الأول عملياً في إسرائيل هو رئيس الحكومة وليس رئيس الدولة.

ولكن موشي كاتساف رئيس دولة إسرائيل الحالي إقتحم فجأة ميدان المباحكات السياسية ليقول ما معناه ان مزارع شبعاً هي أرض إسرائيلية وأن مقاتلي «حزب الله» خطفوا الجنود الإسرائيليين الثلاثة من أرض تخص إسرائيل. بل أنه وبالحرف الواحد أورد بضع كلمات إعتبر فيها ان إسرائيل مسكينة ومهيضة الجناح ومعتدى عليها. وهذه الكلمات هي: «لا يمكن أن تبقى الأمم المتحدة لا مبالية أمام خطف جنودنا في أرض إسرائيلية وهو خرق للقانون الدولي...». ويضيف قائلاً: «إن الدور الاساسي للأمم المتحدة هو الحؤول قدر الإمكان دون خرق القانون الدولي، ويتضمن هذا الخرق خطف أشخاص. إن الأمم المتحدة بحسب المعلومات المتوفرة عن وجود شريط فيديو، هي في وضع يمكنها من تقديم أجوبة إلى عائلات الرهائن وإلى دولة إسرائيل عن عملية الخطف هذه...». يضيف أيضاً: «لماذا منعت الأمم المتحدة إسرائيل من الوصول إلى هذه المعلومات حتى الآن؟ هل تعلم الأمم المتحدة وممثلوها أنه خُطِّط لعملية الخطف هذه؟ هل هي على علم بشروط إعتقال الرهائن؟ هل قامت بكل ما يلزم من أجل الحؤول دون حصول عملية الخطف؟ مع كل بساطتي أعتقد أن الأمم المتحدة هي مؤسسة كرّست نفسها لإعادة جنود سقطوا في الأسر إلى بلدهم...».

إنتهى هذا الكلام الذي يثير هو وقائله الدهشة. الدهشة من الكلام على أساس أن مضمونه هو أن أسر الجنود الثلاثة هو خرق للقانون الدولي، ومضمونه

مخزية لها وتتمثل في ما فعلته بالعراق. ومن المهم ألا يغيب عن البال أن ذلك لا بد سيحدث في حال أن الدول العربية وصلت إلى أنها وجدت نفسها مشاركة في مواجهة لا بد منها. وإستناداً إلى الهواجس وإلى التداعيات وتقديراً للمفاجآت غير السارة، ليس هنالك دولة تستطيع أن تقول بأنها ليست معنية أو أنها ليست من دول الطوق أو بعيدة عن خط المواجهة. فالذي ينتظرنا سيؤكد أن العمق أو خط النار واحد وأن مشارف الطوق وآخر نقطة حدود عربية هي واحدة.

ويصعب على المرء إيجاد تفسير لهذا الإصرار من جانب الإدارة الأميركية على عدم مراعاة المشاعر وعدم التأمل في المصير الذي تبدو العلاقة سائرة إليه. فإذا كانت هذه الإدارة تخشى أن تكشف إدانتها ولو مرة واحدة للتصرفات الإسرائيلية ضحالة التفكير الأميركي وكيف أن كل ما إتخذته هذه الإدارة من مواقف في الماضي محاباة منها لإسرائيل كان خطأ يصل إلى مرتبة الجريمة، فإن إستمرار التجاهل وإغماض العين على التجاوزات الإسرائيلية والإقفال بكل أنواع المفاتيح السحرية على الضمير وبحيث تأتي كل المواقف الأميركية على حساب هذا الضمير... إن إستمرار التجاهل لا يبدو أنه يلغي حقيقة أن أميركا هي مع إسرائيل في عدم شرعيتها وفي الباطل الذي تمارسه، وأنها معها ضد العرب الذين على رغم ترويضهم خلال أربعة عقود وعلى رغم إفتعال الخلافات والصراعات في ما بينهم وبما يجعلهم يتخاصمون بعيداً عن جوهر الأزمة المتمثل بمخاطر الوجود الإسرائيلي، إنتهوا إلى أن الأمور يجب أن تأخذ مساراً جديداً. وهذا المسار الجديد لن يكون إلا من خلال ممارسة الإدانة لإسرائيل ولو من التجربة خصوصاً أن التجاوزات الإسرائيلية التي تستوجب الإدانة أكثر من أن تحصى، وإلا من خلال عدم إستعمال الفيتو، ولو على سبيل التجربة، عندما تكون هنالك شكوى عربية ضد إسرائيل وما أكثر الشكاوى ضدها.

ومن المؤكد ان إسرائيل عندما ستري أي تعقل مفاجئ أصاب التفكير السياسي الأميركي لن تعود ذلك البلطجي الذي يزجج سكان الحي وتجاره وطمأنينة صغاره في ذهابهم صباح كل يوم إلى المدرسة وعودتهم وهم لا يدرون أي مصير ينتظر جيلهم. وشيئاً فشيئاً سيتبين أن هذه «المافيا» الفريدة من نوعها في العالم ستتدثر. ومن المصلحة اندثارها وتدوين

أيضاً أن المنظمة الدولية مقصورة في القيام بواجبها إزاء إسرائيل. اما الدهشة من قائل هذا الكلام فهو أن الرجل يقتحم ساحة سياسية يزايد فيها على جنرالات العدوان المبرمج اليومي على الشعب الفلسطيني. وبدل أن يسدي إلى هؤلاء الجنرالات المغامرين النصيحة بأن يتعقلوا ويوقفوا هذا الإنذفاع في اتجاه إيذاء شعب لا بد من التعايش معه والتعويض على ما أصابه، فإنه بمنطقه هذا يحرضهم على العدوان. وبدل أن يسكت على الصفقة الخسيسة والمتمثلة في أن الدول الكبرى تصهنت ذات فترة قبل أكثر من نصف قرن وتخلت عن الضمير والخلق وأقطعت يهود الشتات كيانياً على أرض وطن لا علاقة لهم به من قريب أو من بعيد، فإنه ينادي هو الآخر بالمزيد من التوسع من دون أن تستوقفه مهزلة جمع الشتات على أرض فلسطين، وكيف إلتقت الوجوه البيضاء والسمراء والصفراء وهي في مجملها وجوه شاحبة تصر الإرادة الدولية على أن تؤذي العرب بأصحاب هذه الخلطة العجيبة من الألوان اليهودية فلا تقوم لهذه الأمة قيامة، ولا يتم توظيف خيرات الدول العربية بما يجعلها بالفعل خير أمة... وأغنى أمة أخرجت للناس.

ومن الواضح أن الإرتضاء العربي بالسلام المخادع بدءاً من صفقة كامب ديفيد الشهيرة على يدي الرئيس المصري الراحل أنور السادات هو الذي يجعل هذا المسؤول الإسرائيلي يعتبر أرضاً لبنانية إنما هي أرض لإسرائيل وأن الأمم المتحدة لا تقوم بواجباتها وأن أسر ثلاثة جنود إسرائيليين هو خرق للقانون الدولي. وهو في منطقته هذا يبدو تماماً مثل المجرم القاتل، أو الساعي إلى إرتكاب جريمة، الذي يرى ان ضحيته على خطأ إذا هو تصدى له، وأن الشرطي مقصر إذا كان سيمسك به لأنه إرتكب الجريمة أو كي لا يرتكب الجريمة، وأن من واجب الشرطي، في نظره طبعاً عدم تلبية النداء في حال تلقاه وإصبعه على زناد مسدسه. كما أن هذا المسؤول الإسرائيلي هو مثل سارق تحميه قوة مستتبة من حقه أن يسطو على ممتلكات غيره وعلى أصحاب هذه الممتلكات التسليم بإدعائه أنه صاحب هذه الممتلكات وأنه لا يحق للمالك الشرعي سوى الإنصياح لهذا الإدعاء والتسليم به من دون أي رفض أو حتى مجادلة.

وفي إطار هذا الواقع السيئ تتصرف إسرائيل منذ صفقة كامب ديفيد الساداتية - البيغونية.. وهي صفقة مستمرة في زمن الإستشراء الشاروني. وهي تتصرف

وعلى أساس أنها تستأثر بحق لا يملكه غيرها ولا يجادلها فيه حاميتها الذي هو حرامي الإرادة العربية، أي الولايات المتحدة مدعومة من بريطانيا دون غيرها في هذا الباطل الذي يحدث يومياً.

وفي ظل هذا الواقع كان إجتياح لبنان وصولاً إلى بيروت ومن دون أن تردعها حاميتها أو الأمم المتحدة. وفي ظل هذا الواقع إختزقت إسرائيل جواً وبحراً سيادات عدة دول عربية وقامت بعملية تصفية لمناضلين يقيمون على أراضي هذه الدول ومن دون أن تردعها حاميتها أو الأمم المتحدة.

وفي ظل هذا الواقع ضربت الطائرات الإسرائيلية المفاعل الذري العراقي ومن دون أن تردعها حاميتها أو الأمم المتحدة. لكن هذه الدولة الحامية وتلك المنظمة الدولية التي وضعت الدولة الحامية اليد عليها وكبلتها بكل السلاسل إنفجرت في وجه العراق عندما أرسل بضعة صواريخ سقطت فوق المدن الإسرائيلية، وذلك على أساس أن ضرب المفاعل عمل شرعي أما إرسال الصواريخ فإنه خرق للقوانين الدولية.

وفي ظل هذا الواقع تقوم الطائرات الإسرائيلية يومياً بجولات في الأجواء اللبنانية وتخرق جدار الصوت ومن دون أن توقفها الدولة الحامية عند حدها أو تستصدر المنظمة الدولية القرار الذي يحرمها من عضويتها في المنظمة إذا هي واصلت عربيتها هذه.

في ظل هذا الواقع أجازت إسرائيل لنفسها تدمير طائرات ركاب تربض على أرض مطارات مدنية وقصف منشآت ومحطات كهرباء ومن دون أن يصدر عن الدولة الحامية والمنظمة الدولية، الموضوعة يد هذه الدولة عليها، ما من شأنه أن يضع حداً لهذه العردة وهذه الإستهانة بكل دول العالم.

وفي ظل هذا الواقع تخطف إسرائيل من تريد خطفهم وتقنص من تريد قنصهم أطفالاً وقتية وشيوخاً لا فرق، وتقتلع أشجار الزيتون والبرتقال وتجرف الأرض وتدمر المنازل منزلاً بعد منزل أو حياً بعد حي كما حصل قبل أيام في رفح عندما عمدت إلى تدمير حي سكني كامل يضم 125 منزلاً وألحقت أضراراً بنحو 2200 منزل، ومن دون أن يعني شيئاً للدولة الحامية أو للمنظمة الدولية هذا الزلزال الصناعي الذي هو إبتكار صهيوني. وما هو أسوأ من هذا العدوان هو تعليق المتحدث بإسم وزارة الخارجية الأميركية ريتشارد باوتشر الذي كل ما قاله هو «إن مثل هذه الأفعال إستفزازية للغاية».

وبطبيعة الحال فإنه عندما يكون هذا هو رد الفعل الأميركي يصبح هذا العدوان الإسرائيلي المتطور في اتجاه الأسوأ طبيعياً، ويصبح كلام رئيس دولة إسرائيل في الإطار العام صحيحاً. وقد نسمعه يقول إن هذه البيوت مصدر إزعاج لنا لذا من حق إسرائيل هدمها. أما ما الذي يصيب سكانها الذين باتوا في العراء فإلى جهنم وبئس المصير. وعند الحديث عن هذا العدوان نجد أنفسنا نرى أنه لم يكن عدواناً على سكان هذا المخيم المحاذي للحدود مع مصر بقدر ما كان عدواناً على مصر نفسها. وهو لم يصب بالأذى سكان 2325 منزلاً بقدر ما أنه أصاب سكان منازل مصر من القاهرة إلى الإسكندرية ومن القاهرة إلى اسوان ومن القاهرة إلى أقاصي الصعيد. وهو عدوان جاء رداً على الرئيس حسني مبارك الذي إعتبر شارون بلطجياً وليس رئيس حكومة يحترم الأصول والذي يسدي النصيحة تلو النصيحة إلى المسؤولين الإسرائيليين لكي يتعقلوا قبل أن يجرف الطوفان العربي هذا الشتات اليهودي، الذي بدل أن تشجع حكومته وبالذات الحكومة الشارونية أفراد هذا الشتات بألوانه البيضاء والصفراء والسمراء على أن يحمدا الله لأن هنالك أنظمة عربية إرتضت بوجود إسرائيل وقيادة فلسطينية لها شرعية عربية ودولية تخلت عن الحقوق والأحلام وإرتضت من الجمل أذنأ واحدة على نحو ما يلخص ذلك المثل العربي الشائع، فإنها تحوّل بممارسات الحكومة من جهة وتصريحات رئيس الدولة الذي تحدثنا عنها من جهة أخرى قطعان المستوطنين إلى وحوش بشرية يتبلطجوا هم أيضاً ليس من منطلق أن هذا الأسلوب يحميهم وإنما لأن المسألة منذ 53 سنة، أي منذ ولادة هذا الكيان بالقوة وعلى حساب شعب آخر ومستقبل وعقيدة أمة واحدة، هي في النهاية عملية بلطجة ببلطجة. ولأنها كذلك فإن البلطجي لا يتوقف عن ممارساته الشريرة إلا إذا واجهه فارس شجاع يلوي عنقه فلا تعود البلطجة هي شريعة الغاب الجديدة ولا يعود ارييل شارون يهدد بضرب إيران متكلأ على تلفيقات أميركية ولا يعود يزور الجولان ويعتبر بناء المستوطنات فيها «من أجمل الإنجازات الصهيونية» على نحو ما تعمّد أن يفعل يوم زيارة عاقلة وراقية وهدفها السلام قام بها الرئيس بشار الأسد إلى ألمانيا بعد زيارتين أكثر رقياً وسعيأ للسلام قام بهما إلى إسبانيا ثم فرنسا ممهداً بهذه الزيارات إلى زيارة بريطانيا وبعدها واشنطن ثم نيويورك خلال إنعقاد

الدورة السنوية للجمعية العامة للأمم المتحدة.

كذلك لا تعود عقلية البلطجي تتباهى، ويصفق لمفاهيمها شذاذ الآفاق، بأن الحل هو في إغتيال من لا يرفعون الراية البيضاء إستسلاماً لرموز البلطجة الإسرائيلية الذين كلما صبر القادة العرب على ممارساتهم وسكتت الإدارة الأميركية على هذه الممارسات مكنتية بالعبارات التلطيفية المخزية إزدادوا عهراً... وإقتربت المنطقة من مشارف الحرب الرابعة التي إن هي بدأت لن تكون قصيرة. وقد يتبين أنها الحل الذي لا حل غيره للأمة التي لا يجوز أن تبقى تحت رحمة البلطجة.. وهي خير أمة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 18 يوليو (تموز) 2001

* * *

على مشارف الإنصاف لنا... وعلى حافة الإدانة لها

من المؤكد أن التصريحات التي أدلى بها يوم السبت قبل الماضي وزير الخارجية الأميركية كولن باول لصحيفة «واشنطن بوست» خفضت الكثير من الإحتقانات المتراكمة في الصدور العربية. وتركت هذه التصريحات إنطباعاتاً مزدوجاً. الجانب الأول من هذا الإنطباع هو أن التحذيرات والنصائح السعودية للإدارة الأميركية بدأت تثمر، وأن الكلام الذي سمعه رئيس الدبلوماسية الأميركية من ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز وكذلك من الرئيس حسني مبارك والملك عبدالله الثاني، بدأ يتفاعل في نفوس أهل القرار الأميركي وبات هؤلاء يرون أن نصيحة الصديق في محلها. أما الجانب الثاني من الإنطباع فهو أن الإدارة الأميركية قادرة في الوقت المناسب أن تكون على شيء من التوازن، وهذا أمر جيد خصوصاً إذا حدث نوع من التطوير له.

وما قاله وزير الخارجية الأميركية في تصريحاته المشار إليها ويبعث على الإرتياح، كان بصيغة مخاطبة الإسرائيليين، وكان على النحو الآتي: «كيف يمكنكم الحصول على شراكة جيدة عندما تمعنون في خطاب يشير إلى أنكم لن تقبلوا الآخر ابداً كشريك (أي ياسر عرفات). وعندما تبدأون بدمير مبانٍ بالجرافات لا تتوقعوا ألا يرد الناس على مثل هذه

الأعمال. وعندما تبدأون بإعلان نشاطات فإن هذا لا يوجد الظروف التي تجعل الطرف الآخر يبدي ردوداً أقل عنفاً وجدة. إن المطلوب ليس وقف العنف ميدانياً فحسب، بل على المسؤولين في الجانبين أن يكفوا عن صب الزيت على النار...».

بالإضافة إلى هذا الكلام الذي يقترب من مشارف الإنصاف للجانب الفلسطيني، إستوقفنا في التصريحات نفسها كلام للوزير بأول يقترب من حافة الإدانة لإسرائيل، وتمثل ذلك بقوله في شأن سياسة التصفيات والإغتيالات التي ينفذها الجيش الإسرائيلي: «إن الولايات المتحدة لا تملك الكثير من النفوذ على إسرائيل في هذا المجال سوى إدانة مثل هذه العمليات...».

من شأن هذا الكلام لرئيس الدبلوماسية الأميركية أن يبعث بعض الآمال في النفوس، ونكاد نقول انه يثلج الصدر العربي قليلاً، كما من شأنه أن يزيل المرارة الناشئة عن الموقف السابق للوزير باول والتمثل بقوله قبل ثلاثة أسابيع أن ارييل شارون وحده هو الذي يقرر ما إذا كان العنف قد توقف في فلسطين. وهو كلام وظفه شارون على نحو ما يريد فأمعن عدواناً وتدميراً وتصفيات، وكما لو أنه زعيم «مافيا» وليس رئيس حكومة ملزمة بأصول ومواثيق واعراف. مستنداً في جرائمه هذه إلى أن كولن باول بايعه وأعطاه حقاً لا يتلاءم مع طبيعته. كما أن كلام الوزير الأميركي من شأنه ان يبدد من أهوال مواقف بعض رموز الدبلوماسية الأميركية ومن بينهم السفير مارتن انديك الأسترالي الصهيوني الذي سبق أن تم في عهد كلينتون تعيينه سفيراً في إسرائيل فكان أسوأ سفير للولايات المتحدة من وجهة نظرنا كعرب، بل من وجهة نظر أي مراقب محايد، وكان خير داعم للسياسة الصهيونية ولمطامعها في المنطقة. وكان مستغرباً كل الإستغراب، أن يدلي هذا السفير، الذي ولد في لندن وشب في أستراليا ودرس في الجامعة العبرية في القدس وأخذ فرصته الوظيفية الكبرى في الولايات المتحدة، وهو المفعم بولائه للصهيونية وليس للبلد الذي يمثله (أي للولايات المتحدة)، عشية مغادرته تل أبيب عائداً إلى واشنطن بعد إنتهاء مهمته كسفير، بتصريحات جاء فيها الآتي مخاطباً بني جلدته الإسرائيليين: «على إسرائيل أن ترغم عرفات على الإيفاء بالتزاماته وهي ربحت المعركة الآن. فقبول الفلسطينيين توصيات لجنة ميتشل يعني ببساطة أن الإنتفاضة إنتهت. ان إدارة بوش تشكك في قدرات

عرفات ودوره في السعي إلى حل دائم، وأوسلو جلبت الإزدهار لإسرائيل والفقر للفلسطينيين...».

وإلى ذلك سجل أنديك ثلاثة آراء لا يمكن أن يكون غرضه منها هو كسب الرضى الصهيوني عليه في حين أن المطلوب منه في هذه الحال هو رضى الإدارة الأميركية وذلك كي تبرر إختياره دون غيره لمنصب لا يجوز في أي حال لمن يشغله أن يتقدم الولاء للمعتقد الديني والسياسي (اي لليهودية والصهيونية) عنده على الولاء للوطنية (أي للبلد الذي يمثله هذا السفير)، وإلاً. في حال كان ذلك غير وارد. فإن انديك كان واحداً من أفراد الطابور الخامس الصهيوني في الإدارة الأميركية. والآراء الثلاثة التي نشير إليها هي:

- إنه يعتبر أن الفلسطينيين خسروا بسبب الإنتفاضة الشارع الإسرائيلي والجمهور الأميركي. وجوابنا على هذه النقطة هو التساؤل الآتي: وهل كان هذا الشارع وذاك الجمهور مع الفلسطينيين طوال أربعة عقود تلت نكبة 1948 لكي نقول إنهم خسروا هذين «السندين»؟ وإذا سلّمنا جدلاً بأن هذه الخسارة حدثت بالفعل فإن المكسب الذي تحقق للفلسطينيين وللأمة من الإنتفاضة كان كبيراً جداً سواء على صعيد عودة الروح إلى الأمة بصيغة الإستتهاز أو على صعيد تدعيم الجدار الفلسطيني بحيث لا ينهار. وهو على رغم كل ما يحدث بات جداراً كثير الصلابه وتتخطم عليه التصرفات الهوجاء للمجموعة الشارونية التي تمارس أساليب فاقت في شرستها الأساليب النازية.

- إن انديك يرى أن الإقتصاد الفلسطيني إنهار تماماً، وهذا إلى حد ما صحيح نتيجة الحصار الإسرائيلي الأحق. وهو حصار جعل مشاعر الكراهية تتعمق في النفوس الفلسطينية، أضف إلى ذلك أن الخسارة لم تقتصر على الجانب الفلسطيني فقط وذلك لأن الخسائر التي ألحقها الإنتفاضة بالإقتصاد الإسرائيلي كانت هي الأخرى كبيرة جداً. والفرق بين خسارتين أن الفلسطينيين لا يجدون من يعوّض لهم خسارتهم نتيجة أن المساعدات العربية تتقرر بعد مشقة، وهي بعد أن تتقرر تصل على مراحل متباطئة، في حين أن إسرائيل عندما تخسر تجد بإستمرار من يتولى تعويم وضعها المنهار، ويأتي التعويم بصيغة المساعدة الفورية.

- إن انديك في إساءة متعمدة منه إلى الرئيس جورج بوش الابن أو تبويضاً منه لصفحته الإسرائيلية (صفحة بوش)، والتأكيد على دعمه للكيان الصهيوني،

الأميركية، شرط أن يصمد ولا يحدث بعض التراجع عنه، وقرار الإدارة الأميركية يوم الثلاثاء 12 يونيو (حزيران) الماضي بتأجيل نقل السفارة الأميركية إلى القدس ستة أشهر أخرى، هما من الخطوات التي يرتاح إليها الرأي العام العربي. لعل هذه الخطوات تشجع الإدارة الأميركية على أن تكون الوسيط النزيه فترتاح ونرتاح ويطمئن الفلسطينيون إلى أنه بات في الإمكان أن يصبح لهم وطن.

ومن باب الافتراض نقول إن الإدارة الأميركية وفي ضوء الحلف الروسي - الصيني المتمثل بالمعاهدة التي وقعها يوم الإثنين 16 يوليو الجاري، وهي الأولى من نوعها منذ نصف قرن، الرئيس الصيني جيانغ زيمين والرئيس الروسي فلاديمير بوتين، باتت تخشى أن يسبقها هذا الثنائي المنافس والمقتدر إلى قلوب العرب والمسلمين المتعبة من الإنحياز الأمريكي الأعمى للباطل الإسرائيلي. وإذا وصل الثنائي إلى القلوب وإستقر فيها فإن المعايير ستتبدل... ولن تعود الولايات المتحدة هي وحدها سيدة العالم بلا منافس.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 25 يوليو (تموز) 2001

ياسر عرفات.. المشكلة

والحل والرقم الصعب

حتى ما قبل صدور توصيات قمة «مجموعة الثماني» التي أنهت أعمالها في المدينة الإيطالية الجميلة «جنوى» يوم السبت 21 يوليو (تموز) 2001 ومن بينها قيام قوات دولية بمراقبة المواجهة الفلسطينية - الإسرائيلية وتحديد مسؤولية من يقوم بأعمال العنف إنما شرط موافقة الطرفين... حتى ما قبل صدور هذه التوصيات، كانت الحالة العرفاتية لا تزال موضع جدال على المستويين العربي والدولي وستبقى هكذا إلى حين يستقر المتجادلون على رأي وتلتزم إسرائيل بالتوصية المشار إليها، بحيث تتخلى عن رغبتها التجبيرية في أن يكون المراقبون من ال C.I.A، وأن تكون تسميتهم «ملاحظين» وليس «مراقبين»، وأن يتخذوا من مقر ال C.I.A في تل أبيب مركزاً يقومون فيه بإعداد تقاريرهم. وهو تعجيز لن يوافق عليه أحد بما في ذلك الإدارة الأميركية نفسها.

قال الآتي: «إن شارون فاجأ جميع المراقبين الذين بنوا حساباتهم على ماضيه العسكري، وإنه بتبنيه سياسة ضبط النفس إنما يسلك الطريق الصحيح. وأنا معجب بكيفية تصرفه الأمور على رغم الضغوطات الداخلية. إنه يعي حدود اللجوء إلى القوة ويولي أهمية خاصة للرأي العام العالمي. وعلى رغم بعض الخلافات في وجهات النظر بين شارون والإدارة الأميركية نتيجة إصراره على تحقيق وقف تام للنار في المناطق العسكرية، لكنه يحظى بتقدير كبير في أوساط هذه الإدارة. وأنا مقتنع بأن صداقة الرئيس الأمريكي (جورج بوش الابن) وتعاطفه مع إسرائيل، حقيقتان بل بالفطرة. انه يذكّرني بالرئيس الأسبق رونالد ريغان. إنه كنز لإسرائيل وعليها الحذر لئلا تخسره...».

وغالب الإعتقاد أن انديك بكلامه هذا يعتمد الإساءة إلى الرئيس بوش الابن. والذي يؤكد لنا ذلك أن وزير الخارجية كولن باول أدلى في اليوم التالي لصدور تصريحات أنديك بتصريحاته التي أشرنا إليها في مطلع هذا المقال والتي كانت تصريحات على مشارف الإنصاف للجانب الفلسطيني وللعرب عموماً وعلى حافة الإدانة للممارسات الشارونية. كما أن الرئيس الأسبق جورج بوش (والد الرئيس الحالي) وطبقاً لمعلومة نشرتها في اليوم نفسه صحيفة «نيويورك تايمس»، إتصل (وكان ابنه الرئيس إلى جانبه في الغرفة التي تم منها الإتصال) بولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز ليقول له إن ابنه الرئيس «يضع قلبه في المكان الصحيح، وأنه بصدد عمل الشيء الصحيح». وذكرت الصحيفة نقلاً عن مسؤول رفيع المستوى في الإدارة الأميركية أن ولي العهد شكاً من أن هذه الإدارة (إدارة بوش الابن) أقرب كثيراً إلى شارون.. ولا بد أنه قال أكثر من ذلك وإلا لما كان الرئيس الأسبق الذي قاد التحالف الدولي لتحرير الكويت، إعتد أسلوب تطيب خاطر السعودي حاثاً الأمير عبدالله على القيام بالزيارة الرسمية غير المقبولة وغير المرفوضة حتى إشعار آخر للولايات المتحدة. وإلى ذلك إن ناقل المعلومات قال للصحيفة «إن المكالمات الهاتفية كانت دافئة وشخصية في نبرتها وكانت مصممة (من جانب بوش الوالد) بصورة تشجع الأمير عبدالله على أن يرى بأن الرئيس الابن يملك تفهماً مماثلاً لقضايا الشرق الأوسط مثل تفهم والده.

ونخلص إلى القول إن كلام وزير الخارجية

نشوب حرب أهلية فلسطينية وسيضعف الدعم العالمي للفلسطينيين كما سيضعف تأثير هؤلاء على العرب في فلسطين...».

هذا التقرير الذي إرتاح له إرييل شارون وكما لو أنه وجد فيه الخطة التي يتطلع إلى تنفيذها وهي توجيه ضربة قاضية إلى رمز القيادة الفلسطينية، أزجج أطرافاً عربية ودولية، خصوصاً أن شارون بدأ تسويقه كإحتمال سيحدث طالباً وقوف بعض الدول معه، وهو أمر يثير الإستغراب. ومن هؤلاء الرئيس الفرنسي جاك شيراك، الذي لام زائره الثقيل شارون، عندما زاره مباشرة بعد الزيارة الراقية لفرنسا التي قام بها الرئيس بشار الأسد - على هذا التوجه من جانبه، ورئيس الحكومة الفرنسية ليونيل جوسبان الذي سجّل تحفظاته على عدم واقعية شارون عندما جاءه هذا الأخير يوم الجمعة 6 يوليو الماضي زائراً وطالباً الدعم وتخفيف وطأة العقدة البلجيكية التي كانت بدأت حلقاتها تلف هيبته ومكانته، والتي بسببها لم يتمكن من زيارة بلجيكا مع أنه كان يتمنى لو يحدث ذلك بعد زيارته لكل من ألمانيا وفرنسا، لكي يزيل الإنطباع بأنه غير مرحب به، بل أنه نصف مطلوب للمثول أمام محاكمها، أو انه نصف بريء ونصف مجرم في نظر العدالة البلجيكية حتى إشعار آخر. وما قاله المستشار الألماني شرودر كان أكثر من نصيحة للزائر الثقيل نفسه شارون. ومما قاله المستشار: «إننا بدافع صداقتنا الحميمة لكم ورغبتنا الصادقة في أن تعيشوا بسلام ورفاه، نرى أن هناك حاجة لإحداث تغيير في سياستكم تجاه الفلسطينيين عموماً والرئيس ياسر عرفات وسلطته بشكل خاص. فأنتم لن تربحوا من إضعاف سلطة عرفات، وتصعيد التوتر لن يعود عليكم بأي فائدة، وإنما سيُلحق ضرراً بالمنطقة بأسرها، قد تصل أصداؤه إلى أوروبا والغرب عموماً...». وبدأ شرودر بكلامه هذا معبراً عن مشاعر كل الأوروبيين الذين يرون ان عرفات ضماناً للعملية السلمية، وان بقاءه بدعم سلطانه يُعتبر ضرورياً أكثر بكثير مما يتصور الشاباكيون (المخابرات الإسرائيلية) والشارونيون (الذين يسيرون في ركب شارون في إتجاه تقجير المنطقة).

وحتى الإدارة الأميركية فاجأها وأزعجها مثل هذا المنحى الشاباكي - الشاروني، إذ كيف يقابل موفدوها عرفات، وكيف يتصل كبار المسؤولين في تلك الإدارة هاتقياً بعرفات، وكيف يطلبون في معظم الأحيان

بدأت المجادلة بتقرير للمخابرات الإسرائيلية (الشاباك) أوصلته هذه على الطريقة المخابراتية (أي التسريب) إلى صحيفة «معاريف» فنشرت هذه يوم الجمعة 6 يوليو الماضي خلاصة له، ثم بدأ الأخذ بالرد العربي والدولي في هذا الشأن.

يشير التقرير أولاً الى فوائد الرئيس ياسر عرفات، وهي أنه إعترف بالكيان الصهيوني فضلاً عن إطلاق مفاوضات السلام مع الدولة العبرية والتزامه بالسلام. عدا ذلك أن مكانته مرموقة في أوساط الشعب الفلسطيني وقادر على صد التيار الأصولي والتصدي للنفوذ السوري - الإيراني. كما أن غيابه - والرأي ما زال للمخابرات الإسرائيلية - «قد يخلق فوضى عارمة تؤدي إلى تعاظم الإرهاب».

أما بالنسبة الى الضرر العرفاتي على إسرائيل فإن التقرير يورده على النحو الآتي: «ياسر عرفات قائد خطير، من شأنه أن يجر الساحة الى حرب شاملة بين إسرائيل والدول العربية. يهدد بتدمير الكنز الكامن في السلام بين إسرائيل ومصر والأردن. يهدد الإستقرار في أنظمة الحكم في الدول المجاورة. ما زال يرى في العنف والإرهاب أداة شرعية. لم يقبل بعد بدخله واقع دولة إسرائيل. ولا يرغب في التوصل إلى حلول وسط في القضايا الأساسية مثل القدس واللاجئين. ينجح في لعب لعبة مزدوجة إذ يقنع العالم بنياته الصادقة تجاه السلام وفي الوقت نفسه ما زال محارباً مقاتلاً. يزيد من عداة المواطنين العرب في إسرائيل لدولتهم ولا يكافح التيار الأصولي بصدق. فنان في السيطرة وتوجيه الإعلام ويحوّل كل هزيمة إلى نصر...».

أما ماذا هي الحال بعد التخلص من عرفات فإن التقرير يتضمن الآتي: «ينشأ صراع داخلي حول السلطة، ومن المحتمل أن يسيطر على الحكم تحالف العسكريين والسياسيين العلمانيين لأن قوتهم العسكرية أكبر من قوة الأصوليين. وبعد عرفات سينشغل الفلسطينيون بأنفسهم لفترة طويلة، وستتفرغ السلطة الجديدة لتثبيت حكمها، وبما أنه لا يوجد وريث جدي أو بارز لعرفات فمن المتوقع أن تضعف مكانة القيادة الفلسطينية في العالم. بعد عرفات سيتعاظم كثيراً تأثير مصر والأردن على الفلسطينيين وستكون القيادة الجديدة أكثر براغماتية وأقل تديناً وأكثر شباباً وإنفتاحاً وأكثر إستعداداً للتنازل، وقيادة كهذه ستحارب الأصولية بشكل أنجع. وبعد عرفات سيزداد إحتمال

الآخرين...».

ولقد خدم شيمون بيريز وزير الخارجية رئيسه ارييل شارون عندما إغتتم فرصة زيارته إلى مصر يوم الأحد 15 يوليو الماضي، وبعد المحادثات التي أجراها مع الرئيس مبارك، ليدلي بتصريحات تضمنت من جملة ما تضمنته القول: «إن إسرائيل ستستمر في التفاوض مع عرفات الزعيم المنتخب للشعب الفلسطيني. ولقد أكدْتُ للرئيس مبارك عدم وجود مواجهة بين شارون وعرفات وأكَّدْتُ له أيضاً إنه ليست لدينا النية لمهاجمة الفلسطينيين أو النية لشن هجوم بري عليهم أو قتل عرفات...».

ونصل من هنا إلى القول إن الرئيس عرفات هو في نظر جميع الأطراف العربية والدولية المشكلة بقدر ما أنه أيضاً الحل. أو بتعبير آخر طالما سمعناه منه وهو أنه الرقم الصعب وليس على الإطلاق صفرًا يمكن إسقاطه من أي عملية حسابية. ومن هنا فإن عرفات الذي طالما أُنقن فن المناورة السياسية حتى بات صاحب مدرسة في هذا الشأن، يتصرف من موقع القوي حتى في أكثر اللحظات ضعفًا وأكثر الظروف مأساوية متكلاً على أن الجميع يريدون إستمراره بمن في ذلك الذين لا يرتاحون إليه أو في نفوسهم الرغبة في الثأر من بعض أفعاله معهم.

ثم جاءت قمة «مجموعة الثماني» في «جنوى» لتؤكد هذه الحقيقة وإن كانت لم تعلنها صراحة. وقد نفاجأ بأن شارون توارى وهذا هو الإحتمال الوارد بينما عرفات لا يزال على قيد السلطة الفلسطينية يمارس دوره الروتيني في إنتظار أن تقوم قيامة الدولة الموعودة، مؤكداً من خلال ذلك أنه الرقم الصعب... بل لعله يحظى بإجماع عربي ودولي لم يحصل عليه قائد فلسطيني من قبل. فالمحبون يريدونه والكارهون يريدونه. أنه إذا جاز التعبير بالنسبة إليهم الداء... والدواء.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 1 أغسطس (آب) 2001

* * *

لماذا لا تقتنع واشنطن

بأن إسرائيل عنصرية؟

ليس هنالك موقف يدعو إلى الإستغراب مثل

مساندته أو نصيحته أو مرونته وكل ذلك من أجل مصلحة إسرائيل، بينما هذه الإسرائيل بطبيعتها الشارونية تخطط لإزالة هذا الرجل وتتهمك بالتقارير التي من شأنها وإستناداً إلى مضمونها، أن تقوي مكانته وتخفف نسبة التحفظات عليه من بني قومه ومن الرأي العام العربي الذي ينظر إليه على أنه إختصر فلسطين الى حالة بعدما كانت قضية. وحتى السفير مارتن انديك الذي تتغلب في إستمرار مشاعره كيهودي متصهين على واجبه كسفير للولايات المتحدة، لم يتحمل عشية مغادرته تل أبيب بعد إنتهاء عمله فيها كسفير لأميركا هذه التوجهات الشاباكية - الشارونية فقال مخاطباً الذين يشاركون في صنع القرار في إسرائيل «إن إسرائيل تخطيء إذا سعت إلى التخلص من عرفات. لا يوجد شريك آخر عداه، وعلى إسرائيل أن تواصل التفاوض معه حول كيفية وقف النار والعنف. وإذا سعت حكومة إسرائيل لإستبدال عرفات فإنها قد تجد نفسها تفاوض حماس وحزب الله. أعرف أنها لا تثق به لكنني لا أرى خياراً آخر حقاً...». وفي الجانب العربي نلاحظ أن الرئيس حسني مبارك هاله التوجه الإسرائيلي الذي نشير إليه فأختار مناسبة إحتفال تخريج دفعة جديدة من طلاب كلية الدفاع الجوي في مدينة الإسكندرية يوم الاثنين 9 يوليو الماضي، ليقول كلاماً حاسماً أمام هؤلاء الذين سيتصدون مستقبلاً للطائرات الإسرائيلية في حال قرر شارون أو أي شاروني لاحق، ممارسة لعبة الحرب وقصف السد العالي والآثار المصرية على نحو ما هو سائد في التفكير العقيم والمشوه لبعض القيادات الإسرائيلية وبالذات أولئك المقتنون بشارون. ومما قاله الرئيس مبارك «إن المقولات التي يريدها شارون ووزرائه من ان عرفات لم يعد شريكاً يمكن الوثوق به في عملية السلام وانه زعيم لعصابة إرهابية... إن هذه المقولات تعبر عن قصر نظر. ولو خُلعنا من عرفات حيطلح لهم 30 أو 40 عرفات آخر، وستصبح هناك 30 أو 40 منظمة. إن الحديث عن التخلص من عرفات مبدأ خطير جداً. ولو حدث له شيء فإن هذا سيؤدي إلى إثارة الرأي العام العالمي والعربي... إنهم هم الذين يرتكبون هذا الجرم. وإرتكاب هذا الجرم بالكف عن هذا الكلام ووقف التصريح بأنهم سيقتلون عرفات أو سيقتلون فلان.. الحكاية مش شغل بلطجة. وهم إذا كانوا فاهمين بأن قتل 25 من الناشطين سينهي المشكلة فإنه سيطلع لهم 150 من الناشطين

الموقف الأميركي إزاء «مؤتمر مكافحة العنصرية» الذي ستعقدّه الأمم المتحدة في مدينة دربان في جنوب أفريقيا من 8/31 إلى 2001/9/7. فقبل ستة أسابيع من الموعد المقرر لهذا المؤتمر أعلن مسؤولون في الإدارة الأميركية أن الولايات المتحدة ستقاطع المؤتمر في حال تم الأخذ بالإقتراح العربي الذي يرى أن إسرائيل دولة عنصرية.

هل هذا يليق بالدولة الأعظم التي تقود ما إصطلح على تسميته «النظام العالمي الجديد»؟ وهل في موقفها هذا أي منطق؟

نقول هل هذا يليق على أساس أنها بموقفها هذا، تتبنى أبشع ظاهرة عنصرية في القرن الواحد والعشرين بدأت في القرن الذي إنقضى. ونتساءل عن المنطق في موقفها هذا على أساس أن الفضائات العالمية تؤكد على مدار الأربع والعشرين ساعة ومن خلال ما تبثه حياً، مدى الوحشية التي تمارسها القوات الإسرائيلية مع الشعب الفلسطيني. وهي ممارسة من هو عنصري وبلغت عنصريته حد أن أحد حاخامات إسرائيل (عوفاديا يوسف)، وفي موعظة تزامن إلقاءه لها مع التهديد الأميركي بمقاطعة «مؤتمر مكافحة العنصرية»، يتحدث عن العرب بمفردات دخيلة على مفاهيم من كان رجل دين، وكلها من النوع الذي يزديري العربي فلسطينياً كان أو غير فلسطيني، مستعملاً في إزدرائه تعابير مستوحاة من روحية المحرقة، مثل قوله «فليذهب العرب إلى الجحيم. إنهم مثل النمل الذي يغزو مدينة القدس. اننا نثق بالقدوس بأنه سيرسل لنا مسيحاً لا يخاف من أحد، وسيقوم بإرسال كل هؤلاء العرب إلى جهنم...»، أو مثل قوله من قبل «إنهم مثل الأفاعي السامة».. الخ. وقد يكون هذا الإعجاب الأميركي المبالغ فيه بالممارسات الوحشية والعنصرية الإسرائيلية سببه ان النظام الأميركي كان حتى قبل بضعة عقود من النوعية نفسها. وفي التاريخ الأميركي وقائع حول تعامل البيض مع السود يندى لها الجبين. وبدلاً من أن يعمل أحفاد العم سام في بدايات القرن الواحد والعشرين على محو ذلك الخزي العنصري الذي كان من بين صفات الآباء والأجداد بدءاً من منتصف القرن العشرين ولبضع سنوات، فإنهم وبالذات في أشخاص الإدارة الأميركية الحالية، يستحضرون ذلك الخزي ويرون أنه من الصور الجميلة في المشهد الأميركي، وإلاّ فما معنى هذا الرفض غير المنطقي لإعتبار النظام في إسرائيل نظاماً عنصرياً.

وثمة أسئلة كثيرة يجد المرء نفسه يوجهها إلى هؤلاء المسؤولين في الإدارة الأميركية، الذين وصل بهم الإستخفاف بالحقائق التي لا جدال في صحتها، حد التهديد بنسف مؤتمر فقط لأن من بين الإتجاهات فيه تصنيف إسرائيل بأنها دولة عنصرية. ومن هذه الأسئلة على سبيل المثال لا الحصر، التي تحتاج منهم إلى إجابات مقنعة عليها، الأسئلة الآتية: هل أن مواجهة فتية يحتجون بالحجارة على إحتلال وطنهم، بأحدث وسائل القتل، هي حالة من حالات التوحش والعنصرية أم لا؟

وهل أن إغتيال فتى إحتفى ببقايا شجاعة في والده، هو حالة من حالات التوحش والعنصرية أم لا؟ وهل أن التدمير المبرمج لمؤسسات الشريك في عملية السلام، هو حالة من حالات التوحش والعنصرية أم لا؟

وهل أن تجريف الأرض وإقتلاع الأشجار المثمرة وإحراق البساتين، هو حالة من حالات التوحش والعنصرية أم لا؟

وهل أن ترويع الناس بالقنص أو بالتفخيخ أو بكسر عظام الشبان الذين هم الجيل الفلسطيني المقبل... جيل الألفية الثالثة، هو حالة من حالات التوحش والعنصرية أم لا؟

وهل أن قطع الطرقات أمام المواطنين وفرض الحصار عليهم وتضييق الخناق على الذاهبين إلى جامعاتهم ومدارسهم، هو حالة من حالات التوحش والعنصرية أم لا؟

وهل أن قتل الطفل الرضيع وهو في سريته والقضاء على عائلة بكامل أفرادها وهم يتناولون عشاءهم وتوجيه الرصاص القاتل إلى رأس فتى أو إلى قلبه بهدف قتله بدلاً من تنبيهه أو رده، هو حالة من حالات التوحش والعنصرية أم لا؟

وهل أن الإستهانة بكل القرارات والإتفاقيات والمواثيق حتى إذا كانت الإدارة الأميركية هي الشاهدة على إتفاقات أو الراعية لعملية سلام، هي حالة من حالات التوحش السياسي والعنصرية أم لا؟

وهل أن التهديد بتدمير السد العالي لأن الرئيس حسني مبارك لا يجاري إسرائيل في أهوائها، فضلاً عن أنه يرفض زيارتها، وبذلك يبدو أمام الناس وكما لو أنه ينتمي عملياً إلى المصريين غير الساداتيين الذين هم ضد التطبيع ما دامت إسرائيل لا تضع نفسها على الصراط المستقيم... هل أن التهديد الذي

نشير إليه، هو حالة من حالات الهذيان المتوحش والعنصرية أم لا؟

وهل أن تهوئش قطعان المستوطنين على الفلسطينيين الأمنيين وحماية هذه القطعان لكي تمارس شجاعة لا تملكها، وفي الوقت نفسه ممارسة أقصى درجات العنف مع الذين يتعرضون للقطعان التي جرى تهوئشها، هو حالة من حالات التوحش والعنصرية أم لا؟

وهل أن حماية مجموعة من المهوسين المشعوذين الذين يرون البدء ببناء «الهيكل الثالث» المزعوم فقط بهدف إستباحة المسجد الأقصى والعبث به، هو نوع من الدجل المتوحش والعنصرية أم لا؟

وهل أن لهذا الإنسجام إلى أبعد الحدود بين الكيان الصهيوني والنظام الأتاتوركي في تركيا، تفسيراً سوى أن الطرفين إلتقيا على نقطة مشتركة هي كراهية العرب، وأن الإدارة الأميركية التي تشاركهما ضمناً الكراهية، سعيدة كل السعادة بهذا الإنسجام؟ وهل أن هذا الذي نشير إليه، هو حالة من حالات الكراهية المتوحشة والعنصرية أم لا؟

وهل أن مجلس النواب الأميركي عندما يقر مشروع قانون يدعو إلى فرض عقوبات على منظمة التحرير الفلسطينية إذا هي لم توقف الإنتفاضة، لم يتصرف على النحو الذي يشجع توحش إسرائيل وعنصريتها؟ بل أن مشروع القانون الذي أقره نص على الآتي: «على الرئيس الأميركي جورج بوش أن يحدد ما إذا كانت منظمة التحرير إلتزمت بوعودها في شأن وقف العنف. وإن لم يتم التحقق من إلتزام المنظمة يتعين عندها إما إقفال مكتب المنظمة في واشنطن أو إعلان المنظمة أو أحد تشكيلاتها منظمة إرهابية أو خفض المساعدة للضفة الغربية وغزة...». ثم أضاف النائب الجمهوري جيم كولب رئيس اللجنة الفرعية المكلفة العمليات الخارجية في مجلس النواب إلى مشروع القرار التعليق الآتي: «أعتقد أن هذا البند المتوازن يوجه الرسالة الملائمة للفلسطينيين وقادتهم وهي: إحترموا إلتزاماتكم بالتخلي عن الإرهاب والعنف ولن تكون هناك عقوبات...». ومن المؤسف أنه بدل أن يكون هنالك صوت عاقل داخل مجلس النواب الأميركي يخفف من غلواء التوحش والعنصرية السائدين في إسرائيل، فإننا نرى أن العكس هو الذي يحدث، حيث أن القرار لا يرى مظاهر عنف إلا في الجانب الفلسطيني ولا يهدد بالعقوبات سوى منظمة

التحرير، وتلك مشاعر من كان شريكاً في هذا الإتجاه المتوحش والعنصري أو من كان لا يتحفظ عليه، وعلى الأقل على نحو ما صدر عن الرئيس الأسبق جيمي كارتر الذي حاول أن يكون منصفاً وهو يرد على أسئلة وجّهتها إحدى الصحف الأميركية إليه يوم الاثنين 2001/7/23. وفي هذه المقابلة إستوقفنا خروج الرئيس الأسبق على التقليد السائد وهو ألا يواجه رئيس سابق إنتقادات إلى رئيس في السلطة. وقد هاجم كارتر موقف الرئيس جورج بوش الابن من إسرائيل في ما يتعلق بإزالة المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة، وقارن بين سياسات بوش الابن تجاه الشرق الأوسط وبين سياسات والده الرئيس الأسبق قائلاً «إن جورج بوش الأب إتخذ موقفاً قوياً تجاه هذه القضية وكذلك فعلت أنا...». وإنتقد كارتر بشدة الرئيس بوش الابن أيضاً لأنه لم يضغط على إسرائيل بما فيه الكفاية للإنسحاب من المواقع التي إحتلتها مجدداً في قطاع غزة. وإلى ذلك إنتقد كارتر بشدة الرئيس بوش الابن لعدم ضمه معتدلين ديمقراطيين وجمهوريين إلى إدارته بعد فوزه في إنتخابات الرئاسة في العام 2000، موضحاً أن «معتدلين مثل وزير الخارجية كولن باول» جرت عملياً تنحيته عن عملية إتخاذ القرار منذ تولي بوش الابن السلطة. كما أنه وصف إقتراح الرئيس بوش الابن إقامة نظام جديد للدفاع الصاروخي بأنه «فكرة سخيفة من الناحية التكنولوجية وستفتح الباب أمام سباق التسلح النووي...». ولكن الضعف في منطق كارتر هو أن الرجل ينتقد السياسة الأميركية الراهنة مع إسرائيل بعدما بات سابقاً وبات أيضاً خارج دائرة الطموح في العودة إلى ساحة العمل السياسي تكليفاً أو تشريفاً. ومع أن الرئيس كارتر يحاول أن يكون ناقداً ومنصفاً فإن الذي إفتقدناه في كلامه الحاد نسبياً تجاه الرئيس بوش الابن، هو إلقاء اللوم عليه، لأنه بالموقف الذي تتخذه الإدارة الأميركية الحالية إنما يغذي روح التوحش في نفوس الذين يمسون بمقاليد الحكم في إسرائيل ويشجع الشارونيين على ترسيخ الأساليب العنصرية والنازية وهو ما لا يمكن أن يحقق سلاماً في المنطقة.

يبقى أن كل الممارسات الشارونية تؤكد أن إسرائيل حكومة ومجتمعاً، باتت بؤرة عنصرية، ومن واجب النظام العالمي الجديد تنظيف المنطقة من هذه البؤرة التي تفرز كل يوم المزيد من الشر. ونحن عندما نقول ذلك فإننا نعتد على الأسانيد وهي كثيرة. كما أن

ثلاثة أسابيع في جنوب أفريقيا يقول بالصوت العالي لإسرائيل الشارونية: «إنك عنصرية ونصف. وإنك طبعة القرن الواحد والعشرين من النازية.. وطبعة مزيدة وغير منقحة. وإنك بما تغليبه قد تحترق بشر أفعالك قبل أن يأتي الحريق على الآخرين». أما الإدارة الأميركية فإنها ستتكتوي بنار ذاك الحريق إذا هي لم تسجل إستدارة نحو الحق والعدل. ومن يعيش ير.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 8 أغسطس (آب) 2001

علي الجولاني... بطل آخر إنما ليس الأخير

... وهذا علي الجولاني بطل فلسطيني آخر ولن يكون الأخير، يخرج يوم الأحد 2001/8/5 على الجنود الإسرائيليين وفي عقر دارهم (وزارة الدفاع في تل أبيب) ساحباً وبكل الشجاعة وأخلاق الفرسان بنديته الـ M16 ومسدسه ومطلقاً النار عليهم فأصاب منهم على نحو ما أوردت المعلومات الرسمية الإسرائيلية عشرة جرحى. هذا مع الأخذ في الاعتبار أن الرواية الرسمية الإسرائيلية تختصر في استمرار حجم الخسائر الناجمة عن عملية فلسطينية، وذلك كي لا ترفع معنويات العرب والفلسطينيين منهم بشكل خاص وايضاً كي لا تمنع تهبيطاً في معنويات الإسرائيليين وبالذات الجنود الذين تُصورهم حكومتهم على أنهم الجنود الأشاوس الذين هم أكبر من أي بطولة عربية وأشد بأساً من أي عسكري عربي.

وأهمية العملية التي قام بها المجاهد علي الجولاني أنها في وضوح النهار وأنها ليست إستشهادية بمعنى أنه لم يزنر وسطه بالديناميت ولا هو إستعمل سيارة مفخخة. وأهميتها أيضاً في رباطة جأش هذا المجاهد. وتكفيه وتكفيها هذه الشهادة في حقه التي جاءت على لسان مجندة إسرائيلية إسمها «كلير هيرشبيرغ» شهدت الهجوم وقالت لراديو إسرائيل «أطلق النار برباطة جأش تامة وكانت هناك سيجارة بين شفتيه...».

أهمية العملية أيضاً أن علي الجولاني هذا المجاهد الذي ينتسب إلى عائلة تصادف أن إسمها هو نفس إسم لواء في الجيش الإسرائيلي (لواء الجولاني) الذي

وصول محاولة محاكمة شارون أمام القضاء البلجيكي كمجرم حرب إلى مرحلة إصدار الحكم وإلحاق السفير الإسرائيلي المعين لدى الدانمارك به، من شأنهما فضح المنطق الأميركي الذي بدل أن يترك مؤتمر جنوب أفريقيا يأخذ مداه وي طرح المشاركون، بهدف تصحيح مسار الفعل الإسرائيلي، ما شاء لهم الطرح، بما في ذلك ما يتعلق بالإقتراح في شأن إعتبار إسرائيل دولة عنصرية، فإن الإدارة الأميركية تهدد بمقاطعة المؤتمر. وهذا يقودنا إلى طرح التساؤل الآتي: ما الذي يمكن أن تفعله الإدارة الأميركية ومعها إسرائيل إذا قرر القضاء البلجيكي أن إحترام الذات والدستور هما أهم من أي ضغوط اميركية وتهديدات وإبتزازات إسرائيلية، وإعتبر شارون مجرم حرب، مشرعاً الباب البلجيكي أمام عشرات القضايا المشابهة المرفوعة على مجرمي حرب إسرائيليين؟

هل سيصدر عن مجلس النواب الأميركي قرار بإسقاط عضوية بلجيكا في حلف الأطلسي؟ وهل يدعو إلى معاقبتها على نحو معاقبة النمسا لأن حزباً لا ترتاح له إسرائيل هو «حزب الشعب»، فاز في الإنتخابات وبات من حق زعيمه هايدر ترؤس الحكومة، ويكون العقاب بنقل مقر الامانة العامة للحلف من بروكسل إلى إسرائيل؟

وإلى ذلك، ما الذي يجعل الإدارة الأميركية لا يستوفقها الكلام الذي نشرته صحيفة «هارتس» يوم الخميس 2001/7/26، وجاء فيه أن وزارة الخارجية الإسرائيلية شرعت بدراسة القوانين الجزائية في دول أوروبا بهدف إكتشاف «الدول الإشكالية» التي يمتلك فيها القضاء صلاحيات موسعة لإعتقال أشخاص وتقديمهم إلى المحاكمة بتهمة ارتكاب جرائم حرب، وحذرت من أن كبار الضباط في الجيش والمسؤولين في جهاز الأمن العام السابقين والحاليين والذين نُشرت أسماءهم بسبب خدمتهم إما في المناطق الفلسطينية المحتلة أو في لبنان، يمكن أن يتعرضوا لأخطار في هذه البلدان؟ أليس هذا الكلام إقرار من هو عنصري بالخوف وإعتراف بجرائم ارتكبها؟ ثم ما الذي ستفعله الإدارة الأميركية لو حدثت المفاجأة وتمت إعتقالات ومحاكمات لضباط ومدنيين إسرائيليين؟ هل أنها ستقاطع وتعاقب هذه الدول على نحو المقاطعة والعقاب للنمسا؟

إنقي الله أيتها الإدارة الأميركية في ما تغليبه، وأتركي «مؤتمر مكافحة العنصرية» الذي سينعقد بعد

تتباهى إسرائيل ببأس أفرادها وبالتالي فإن إسمه لن يغادر ذاكرة اليهودي الإسرائيلي بسهولة... أهمية العملية أيضاً هي أن هذا المجاهد الجديد هو من بسطاء الفلسطينيين يعمل في طلاء المنازل، وهو أب لثلاثة أولاد وينتظر رابعاً من زوجته الحامل وأنه في الثلاثين من العمر ومن سكان القدس الشرقية وأن سجله نظيف بمفهوم الأمن الإسرائيلي بما معناه أنه ليس متهماً بأي قضية ولم يشارك في السابق في هجمات ضد أهداف إسرائيلية، أي أن إسمه ليس وارداً في القوائم الإسرائيلية التي تحمل أسماء النشطاء الفلسطينيين الأمر الذي يعني أن سلالة جديدة من المجاهدين ستدقيق المحتلين الويل جزاء ما يفعلونه بوطنهم وشعبهم. وهذه السلالة لا تعرف الأجهزة الشارونية عنها شيئاً وقد تتطور رباطة جأش أفرادها بحيث لا نستبعد أن نسمع يوماً بعملية نفذها علي جولاني آخر على مدخل الكنيسة الذي سبق للرئيس أنور السادات أن ألقى متباهياً من على منصته خطاباً، أو على مدخل مجلس الوزراء الإسرائيلي كـ «تحية» لأرييل شارون الذي يتوعد ويتوعد معه الشارونيون بالمزيد من العدوان، ويتباهى ويتباهى معه الشارونيون الذين يحتمون بفتاوى أميركية من نوع فتوى ديك تشيني نائب رئيس أميركا حالياً ووزير دفاعها في حرب التحالف لتحرير الكويت وتدمير ما يمكن تدميره من مقومات الدولة في العراق. وقد تبرع تشيني وبصفة كونه نائب رئيس إدارة خاب أمل الأصدقاء العرب بها... إدارة ابن بوش، بإستصدار فتوى حلل فيها حرب الإغتيالات التي تنفذها إسرائيل تاركاً بهذه الفتوى المجال أمام صاعقة نزلت على الصواب المصري وجعلت وزير الخارجية أحمد ماهر يستدعي يوم الاثنين 2001/8/6 القائم بالأعمال الأميركي ويسمعه من الكلام أقساه إنما دون الخط الأحمر بكثير، ثم يقول للصحافيين بعد ذلك: «إنني ابغيت المسؤول الأميركي أن مصر مندهشة من أن الولايات المتحدة لا تقابل التصرفات الإسرائيلية بالحزم الواجب. إن سياسة إسرائيل تخالف كل القوانين والأعراف.. ولم يسبق أن حكومة أصبحت عصابة تغتال الناس وتتبع أساليب العصابات في الإغتيال. هذه التصرفات لا يمكن أن يُقدم عليها أو يقبلها أي نظام متمدن يؤمن بالقانون...».

وكان تشيني بفتواه المشار إليها أميناً وصادقاً مع نفسه لأنه عبّر بهذه الفتوى عن حقيقة مشاعره

ومشاعر رئيسه ومشاعر أقطاب هذه الإدارة وبالذات السمرء المدللة كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومي والتي أصابتها عقدة مادلين أولبرايت فقررت أن تبرزها في مسألة مداينة إسرائيل أملاً في أن تحقق لها المداينة الوصول إلى منصب وزيرة الخارجية الذي تتطلع إليه مستفيدة من بدايات تقاطعات وتناقضات في المواقف بين الرئيس جورج بوش الابن ووزير الخارجية المعتدل نسبياً في موضوع التعامل المطلوب إعتماده مع إسرائيل، قياساً بالمستر تشيني والسمرء المدللة كوندوليزا.

وثمة نقاط أخرى تضيفي المزيد من الأهمية على العملية الجهادية الجديدة وليست الأخيرة، من بينها أن هذا المقدسي البطل علي الجولاني وُلد بعد ثلاث سنوات من إحتلال القدس عام 1967 وأنه نما وأمضى الطفولة والفتوة في رحاب مدينة مقدسة واقعة تحت الأسر الإسرائيلي ومن دون أن ترف أسى على هذا الوضع جفون الأنظمة العربية والإسلامية. أما الأنظمة المسيحية فإنها قياساً بالمواقف السياسية وبالذفاع المستमित من جانبها عن إسرائيل المعتدية، كانت طوال هذه الأربع والثلاثين سنة مع هذا الأسر ضمناً وليست معه شكلاً، معتمدة في ستر عورات موقفها هذا على تظمينات كاذبة وعلى إفتعال خلافات بين الأشقاء وإرواء حقول العداوة بالمزيد من المياه السامة. ومن هنا فإن الجيل الفلسطيني الثالث الذي ينتسب إليه علي الجولاني هو أشد غضباً من جيل الآباء الذين كانوا أشد رفضاً لواقع الحال من جيل الأجداد. وهكذا فإن القضية الفلسطينية محروسة بإيمان خص الله سبحانه وتعالى به سلالات صالحة ترفض التسليم باللعبة الدولية غير النظيفة التي إعتمدت قرارات ألغت بموجبها واقعاً تاريخياً وقضت بأن تكون فلسطين كياناً لليهود ودولة للصهيونية العنصرية وليست وطناً للفلسطينيين، وأن يصبح إسمها إسرائيل بدل هذا الإسم المجلل بالقداسة والروحانيات.

ومن بين النقاط أيضاً أن علي الجولاني طرق بقوة المؤمن بحقه المؤسسة التي يستند إليها شارون الذي هو أحد جنرالاتها والمؤسسة التي يعتمد عليها رئيس الأركان الحالي شاوول موفاز في تطلعاته إلى أن يخلف شارون في رئاسة الحكومة ويكمل العدوان الذي بدأه. كما أن علي الجولاني طرق بقوة الايمان والمعاناة والغضب المؤسسة التي ينتسب إليها هؤلاء الذين ينقدون منذ سنة وعلى مدار الساعة أشنع أنواع العدوان

للأركان يقول إن إتفاق أوسلو مليء بالثغرات الأمنية مثل الجبهة السويسرية ومن دون أن يذكر أن إجلاء قسم من المستوطنات سيخفف من المشكلة كثيراً... إن هؤلاء الثلاثة قادوا عملياً إلى خطة شارون في تقطيع المناطق بشكل لا يسمح بسلطة فلسطينية متواصلة...»، وقول صحيفة «هآرتس» يوم 2001/7/3 «إنه لا يتوجب تقديم إرييل شارون للمحاكمة على دوره في مذبحه صبرا وشاتيلا وإنما يتوجب تقديمنا نحن مواطني دولة إسرائيل لأننا سمحنا له أن يتحول إلى رئيس وزراءنا. من يستطيع القول بشكل مؤكد أن صبرا وشاتيلا لن تحدث مرة أخرى؟ هل الفلسطينيون هم الوحيدون الذين يخرقون وقف إطلاق النار؟ إذا صدّقنا الرواية الإسرائيلية المسنودة بآراء الوزراء الطيعين والصحافة المنبثقة يبدو أن هذا هو الوضع السائد. ولكن مثلما نحاول طمس صبرا وشاتيلا نقوم أيضاً بطمس الخروقات المنهجية التي نقوم بها لوقف إطلاق النار. وإذا كان وقف إطلاق النار يدعو إسرائيل لعدم استخدام وسائل فتاكة لتفريق المظاهرات، فلماذا يُقتل الفلسطينيون يومياً؟ الأمر لا يُنقل ولا يُعطى تقريباً من قبل الصحافة الإسرائيلية. وإذا كان من المفترض بنا أن نعيد إنتشار قواتنا من جديد فلماذا عندما تتسحب بطارية دبابات عن خط دفاعي ما تقوم بطارية أخرى بإحتلال مكان غيره؟ وإذا كان علينا أن نخفف من الإغلاق ما زال هناك نقص في العلاج الطبي والأغذية والمياه؟ وإذا كان من المفترض بنا أن نسيطر على التحركات المستقلة الإفرادية من قبل المواطنين الإسرائيليين، فلماذا يستطيع المستوطنون إحراق حقول الفلسطينيين وقلب السوق في الخليل وإطلاق النار على بيوت الفلسطينيين من دون عقاب؟ هل يعقل أن تفسر كل هذا هو أن صبرا وشاتيلا أخرى بإنتظارنا على الجانب؟ ليس بالإمكان الصفح عن صبرا وشاتيلا وعلى شارون أن يقدم للمحكمة. ولكن إذا قُدم للمحكمة علينا أن نكون هناك معه إن كنا قد إنتخبناه...».

وهذه الكتابات فضلاً عن بعض المواقف الإحتجاجية الخجولة من قِبل إسرائيليين ينشدون السلام تؤكد أن علي الجولاني كان على صواب في الذي فعله وأن لا أحد غسل دماغه ضد ممارسات السلطات الإسرائيلية، وإنما الذي هز وجدانه كانت هذه السلطات نفسها وبالذات منظر التشييع اليومي للشهداء الملفوفين بعلم فلسطين الذي بات من الضروري أن

ضد الفلسطينيين. وعلى هذا الأساس يجوز القول إن هذه العملية الجهادية كانت ثأراً لكل فتى ورضيع وأم وأب إستشهدوا. كما أنها باتت المثل الأعلى لأفواج فلسطينية منظورة تريد أن تمارس وبرباطة جأش متناهية الذي مارسه علي الجولاني عندما أمسك برشاشه بينما في فمه سيجارة وأطلق النار يميناً ويساراً وحيث هنالك عساكر كانوا يستعدون للتوجه إلى مطاعم المجمع العسكري لتناول الغداء.

ويبقى أن المجاهد علي الجولاني نفّذ العملية الشجاعة التي لا يمكن أن يجد من يلومه عليها، عدا ربما الإدارة الأميركية وتحديداً ديك تشيني، في وقت كان مئات من الإسرائيليين يحاولون بكثير من التثاقل الإحتجاج على ما يفعله بهم شارون وكيف يجرحهم إلى عداوة لا ينهيها سوى المزيد من الدم، وفي وقت كانت بدأت تتكاثر الكتابات النقدية في الصحف الإسرائيلية للممارسات الشارونية ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر مقالة في صحيفة «يديعوت احرونوت» يوم 2001/7/29 تعليقاً مسبقاً على واقعة وضع الحجر الأساس للهيكل الثالث المزعوم من قِبل مجموعة «أمناء جبل الهيكل» جاء فيها «أيها المجانين إبتعدوا عن الأقصى. ان حجراً واحداً في الأقصى من شأنه أن يؤدي إلى حمام دماء...» وقول صحيفة «معاريف» يوم 2001/6/6 «إن مصلحة إسرائيل في منح دولة الفلسطينيين لا تكمن فقط في إدراكها لمصلحتهم بل أساساً في إدراكها لمصلحتها. فليس ثمة أي فائدة تجنيها الدولة لكونها محتلة لشعب آخر فضلاً عن أن هذا وضع لن يدوم طويلاً ذلك أنه لا يوجد شعب يوافق على العيش في ظل إحتلال شعب آخر...» وقول المعارض الإسرائيلي الشهير يوري أفنيري في الصحيفة نفسها يوم 2001/7/24 «إن غولدا مئير قتلت فرص السلام في مطلع سنوات السبعينات وتسببت في حرب 1967 التي سقط فيها الآلاف. كما إن إيهود باراك الذي تسبب في فشل محادثات كامب ديفيد جر وراءه الإنتفاضة التي سقط فيها حتى الآن مئات الإسرائيليين والفلسطينيين. ولو وجدت محكمة دولية لمجرمي السلام لحاكتم باراك بتهمة خداع ياسر عرفات وإيصال حكومة الأكاذيب المتطرفة، حكومة «الوحدة الوطنية» إلى السلطة...»، وقول صحيفة «يديعوت احرونوت» يوم 2001/7/11 «إن اقوال رابين في باطن قلبه، وببريز بحماسه الإنتهازية، ومن قبلهما باراك الذي عندما كان رئيساً

يرفرف عالياً كعلم للدولة الفلسطينية وليس كغطاء
لنعوش الشهداء الفلسطينيين... وبذلك تترتاح المنطقة
وينطلق الحمام الأبيض سعيها في سمائها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 15 أغسطس (آب) 2001

* * *

بشّار الأسد... ذلك الوسيط الواقعي؟

في ضوء الزيارة التي قام بها رئيس وزراء سوريا
محمد مصطفى مورو إلى العراق يوم السبت
2001/8/11 والتصريحات التي أدلى بها يوم وصوله
ثم بعد لقائه بالرئيس صدام حسين، فضلاً عن الكلام
الذي سمعه المسؤول السوري من الرئيس العراقي
بعدما كان أهده السيف السوري الأثري... في ضوء
ذلك لا يستبعد المرء أن يقوم الرئيس بشّار الأسد
بمبادرة تستهدف إيجاد ارضية جيدة لمصالحة واقعية
بين العراق والكويت، ولتطبيع واقعي في العلاقات بين
العراق وإيران الخاتمية بعدما إستقر أمر الوفاق
والتعايش بين صقور مؤسساتها، ولتطبيع مماثل بين
إيران ومصر ينهي ظاهرة التحديات التي تتسم بها
العلاقات بين الدولتين بسبب شارع في طهران أطلقت
عليه السلطات الثورية الإيرانية من باب النكاية إسم
«شارع الإسلامبولي» تكريماً منها للشخص الذي
إغتال الرئيس أنور السادات، رداً على إحتضان
السادات للشاه محمد رضا بهلوي الذي إستقر بجثمانه
المقام في تراب مصر بعدما رفضت إقامته كحاكم
معزول يتلوى من المرض ويقرب من الإحتضار كل
دول العالم وبالذات الولايات المتحدة التي كان رمز
قوتها في منطقة الشرق الأوسط. وقد تعمقت مشاعر
التحدي بحيث بات شارع الاسلامبولي مثل الفتوى
الخمينية في شأن سلمان رشدي، أي من الصعب
إعادة النظر فيها لأن معنى ذلك أن الفتوى كانت غير
ضرورية وهذا من الصعب حدوثه إلا بفتوى تلازم تلك
الفتوى تجيز إعتقاد المرونة في ما أراده الخميني أمراً
غير خاضع للنقاش والإجتihad. ووسط هذا التجاذب لا
تعيد مصر العلاقة مع إيران إلا إذا ألغت السلطة
الثورية في إيران تسمية ذلك الشارع.

جاءت زيارة رئيس الحكومة السورية إلى بغداد في
أعقاب خطوات نوعية على الصعيد الإقتصادي

وضمن رؤية جديدة تقوم على أن تكون العلاقات ذات
الطابع التجاري والإقتصادي هي المدخل إلى العلاقة
الجيدة على المستوى السياسي، أي بما معناه أنه بدل
الانتظار إلى أن يحدث تمثين روابط العلاقة على
المستوى السياسي وبعدها تبدأ ترجمة هذه الروابط
إقتصادياً وتجارياً، فإن العكس هو الأكثر يسراً. بل من
الممكن القول إن القيادة السياسية تبذل الجهد الخارق
للمحافظة على العلاقة إذا كان الوضع الإقتصادي
قوياً ويعود بأجزل الفوائد على الشعب، في حين أنه
في حال لم تكن العلاقة على الصعيد الإقتصادي
والتجاري جيدة فإن أزمة بسيطة يمكن أن تجعل هذه
القيادة أو تلك في هذا البلد أو ذاك، تتخذ قراراً من
بضع كلمات يؤدي إلى القطيعة وإقفال الحدود وربما
أكثر من ذلك. وبعد هذا القرار وفي ضوءه تتكاثر
التحديات والإستقرازمات والتحرشات والحملات
الإعلامية ويدفع الشعبان الثمن نتيجة ذلك. وهذا تماماً
ما حدث بين العراق وسوريا على مدى عقدين من
الزمن، فضلاً عن أن القطيعة السياسية جعلت الحذر
والريبة والشك هي الأرضية التي تُبنى عليها العلاقة
بين شقيقين.

كان التمهيد لزيارة رئيس الحكومة السورية مدروساً.
في البداية حدثت زيارات على مستوى رجال الصف
الثالث ثم على مستوى وزراء ينتسبون إلى «أهل الثقة»
في النظامين. وبعد فتح الحدود وكسر الحصار الجوي
تطورت الأمور نحو الأفضل إلى أن تم التوصل إلى
إتفاقات تجارية وإقتصادية شجعت القيادتان على
دعمها. وعندما زار طه ياسين رمضان نائب رئيس
الجمهورية العراقية دمشق ووقع إتفاقاً مماثلاً للإتفاق
الذي سبق أن عقده العراق مع مصر، تأكد أن البلدين
سائران نحو علاقة جديدة قد يكون من الصعب، في
حال إستكملت مقوماتها، فصم عراها. وأبرز المقومات
هو التعامل على قاعدة عريضة من الإقرار الواقعي
بالأحوال، والتواضع إلى أبعد الحدود، وتقديم مصلحة
الوطن على عنفوان الذات، وإعادة النظر في الكثير
من المفاهيم وحذف الكثير من المفردات وطي الكثير
من الصفحات.

ذهب رئيس الحكومة السورية محمد مصطفى مورو
إلى بغداد في شكل موكب وليس في شكل وفد. موكب
جوي نصفه رسمي ونصفه الآخر قطاع خاص وهو
أمر لم يكن يحدث في الماضي حيث كان الذين
يتزاورون هم فقط أهل الحكم مدنيين وعسكريين.

عليها مضمون البيت الشعري الذي يصور لقاء طرفين متباعدين إعترا من كثرة عمق الفراق «أن لا تلاقيا»، مهدت لها خطوة نوعية بالغة الأهمية هي تلك التي تمثلت بتصريحات وزير الدفاع السعودي الأمير سلطان بن عبد العزيز يوم الأربعاء 2001/8/8 إلى «الشرق الأوسط» وجاء فيها حول العراق قوله: «إن السعودية مع نسيان الماضي وتجاوز الوضع القائم. ونرحب بعودة العراق إلى الصف العربي ولا يوجد في أنفسنا عليه أو ضده شيء، بل نرجو أن يتمكن من رفع معاناته بإنصياحه لقرارات مجلس الأمن الدولي وتنفيذ هذه المقررات...».

ومن المؤكد أن هذه الخطوة من جانب المملكة العربية السعودية وبشخص الأمير سلطان والتي جاءت عشية زيارة رئيس الحكومة السورية إلى بغداد ساعدت على جعل هذه الزيارة تتم في معزل عن المحاذير والشكوك والتحفظات. ومن باب الإجهاد في الرأي يمكن القول إن المملكة قد تجد في الرئيس بشار، الذي قام يوم السبت الماضي بزيارته الأولى كرئيس للجمهورية إلى الكويت، خير طرف لكي يصحح مسار العلاقة العراقية - الخليجية بدءاً من الكويت على أساس أنها العقدة المستعصية وعلى أساس أن المملكة العربية السعودية أنارت الضوء الأخضر أمام أي مسعى متوازن ومخلص وحريص ومتهم. وليس مبالغة القول إنه إذا كانت الحال بين البعث في سوريا والبعث في العراق إنتهت إلى أن يتقاهم النظامان قبل أن يتقاهم الحزبان، أو أن تتقدم مصلحة البلدين والشعبين على عقيدة الحزبين الحاكمين... فإن مصلحة واقعية يخوض غمارها الرئيس بشار بين العراق والكويت وتطبيعاً واقعياً بين العراق وإيران وتطبيعاً مماثلاً بين إيران ومصر تصبح من الأمور الممكنة والمرحب بها، وبذلك تستقيم الأمور ويفكر قادة الأمة بمعزل عن الضغوط والمحاذير والمخاوف بما يجب القيام به لمواجهة مرحلة كثيرة الدقة من الصراع العربي - الإسرائيلي تعمل الصهيونية على أن ينتهي امر القضية الفلسطينية عند «بيت الشرق» مقابل وقف العدوان عليهم وإصطياد شبانهم الأبطال، وبما معناه أن إسترجاع هذا البيت هو الحد الأقصى لما يمكن للفلسطينيين والعرب الحصول عليه... وتأجيل الدولة الفلسطينية ومصير الحرم الثالث إلى نهاية القرن.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 22 أغسطس (آب) 2001

* * *

ومشاركة القطاع الخاص متمثلاً بتجار وصناعيين في زيارة رئيس الحكومة السورية اعادت إلى الازدهان ذلك الابتكار للرئيس حسني مبارك عندما بدأ قبل تسع عشرة سنة عملية تطوير الوضع الإقتصادي وكيف انه في معظم زيارته إلى الخارج كان يصطحب عدداً من ممثلي القطاع الخاص، فيضفي هؤلاء على الحكومات في الدول التي يزورها الرئيس أجواء مريحة، ويخرج المسؤولون في تلك الدول بإنطباعات خلاصتها أنه ما دام رئيس مصر يؤمن بدور القطاع الخاص وإلى درجة إصطحاب ممثلين عن هذا القطاع عندما يقوم بزيارات إلى دول العالم فهذا معناه أن الحكم سيستقر ويستوجب ذلك تشجيع هذا الإتجاه.

وقد يجوز القول إن فرحة المواطنين في كل من سوريا والعراق بهذا الترابط الإقتصادي بين القيادتين، تكاد تكون بأهمية فرحة السوريين والمصريين عندما قامت الوحدة بين الدولتين، مع الفارق أنه لو سبقت تلك الوحدة خطوات مدروسة على الصعيد الإقتصادي والتجاري لكان ربما من الصعب أن يجد الإنفصاليون مريدين لهم ومحبين لفعلهم الإنفصالي. ولولا ثقة القيادتين العراقية والسورية بأهمية هذا الترابط وإرتياح الرأي العام في البلدين إلى حدوثه، وبعد قطيعة إستمرت عقدين من الزمن لما كان من الممكن سماع هذه التصريحات يدلي بها رئيس الحكومة السورية الزائر وهذه الأقوال المنسوبة إلى الرئيس صدام حسين. ومن التصريحات التي يستوقف المرء سماعها قول رئيس وزراء سوريا «إن التعاون والعمل المشترك بين العراق وسوريا يصب في صالح البلدين وشعبيهما الشقيقين وفي تعزيز التضامن العربي وتقويته للوقوف مع الشعب الفلسطيني في إنتفاضته الباسلة...»، وقوله أيضاً «أن أي إعتداء على العراق هو إعتداء على سوريا...». وما يقصده من هذا القول هو أن الإعتداء على العراق سيضر بمصالح سوريا ومن أجل ذلك فهو إعتداء عليها. أما الأقوال المنسوبة إلى الرئيس صدام والتي سمعها ضيفه السوري الكبير منه والتي يستوقف المرء سماعها فإن أبرزها قوله «إن تقوية العلاقات بين الشعبين الشقيقين العراقي والسوري تُعد إنجازاً كبيراً لهما ولأمة...»، وقوله أيضاً «إن الأعداء سيبقون يعملون على إيذاء الأمة لأنهم يعرفون ماذا تعني العلاقة بين أقطارها وخاصة العلاقة بين العراق وسوريا...».

وهذه الخطوة النوعية تحدث بين العراق وسوريا والتي ينطبق عليها القول «وقد يجمع الله الشئتين» وينطبق

فلسطين النازحة... وفلسطين الصامدة

لو أن اخواننا الفلسطينيين تحملوا الإعتداءات والتحرشات والإستفزازات التي كانت تقوم بها العصابات الصهيونية ضدهم أواخر الأربعينات، لربما كان من الصعب قيام دولة إسرائيل، أو على الأقل أنها كانت ستقوم ضمن ميزان قوى لا يسمح لها بأن تتصرف على النحو الذي تتصرف به الآن ومنذ أربعين سنة.

ولكن الذي حدث هو أن اخواننا الفلسطينيين لم يصمدوا امام تلك الإعتداءات والإستفزازات والتحرشات وتركوا المقتدرون منهم البيت والمتجر وسفينة الصيد والبيارة وتوجهوا هلعين براً وبحراً إلى الدول الشقيقة حاملين معهم ما خف حمله وغلا ثمنه، فضلاً عن بعض الأوراق ومنها سندات التمليك والجوازات الصادرة عن سلطات الإنتداب البريطاني. أما غير المقتدرين فإنهم صمدوا وتحملوا وسلموا أمرهم إلى الله. وكان النوعان في ما فعلوه إعتبرا أن المسألة عابرة ولن تبقى أكثر من بضعة أسابيع، أو في الحد الأقصى بضعة أشهر.. فالجيش العربي لن تسمح بهذا الغزو الصهيوني لفلسطين التي على ترابها الحرم الثالث وكنيسة القيامة.

على ضوء هذا الإعتقاد إفترض الذين نزحوا أنهم سيعودون. وإعتبر الذين صمدوا أن شهامة الجيوش العربية ستعوضهم حياة الإذلال من جانب العصابات الصهيونية لعائلاتهم وكراماتهم.

طال الإنتظار وبعدما كان بالشهر بات بالسنة ثم بات بالعقد ثم بات بربع القرن إلى أن بات بنصف القرن. وفي هذه السنوات أصبحت فلسطين والشعب الفلسطيني رمزاً للعذاب والمعاناة. وهذا تماماً ما كان سيصيب الشعب اللبناني الذي قيص الله سبحانه وتعالى له إتفاق الطائف لكي يبقى وتحث الهجرة المعاكسة للبنانيين الذين كانوا في السنوات الثلاث الأولى للحرب تصرّفوا على نحو ما تصرّف إخوانهم الفلسطينيون قبل نصف قرن، ومن دون أن يستوقفهم الندم الفلسطيني لأنهم لم يبقوا في الدار والمتجر والبستان والبيارة.

ما نريد قوله الآن هو أن الذي يحدث على أيدي السفاح شارون وبإسم «الوحدة الوطنية» لم يحمل أي فلسطيني على أن يغادر الوطن المغتصب، هذا على رغم أن الذي فعلته العصابات الصهيونية أواخر

الأربعينات يبدو خفيف الوطأة قياساً بالذي فعلته الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة وبالذات حكومة هذا السفاح وعصابته الشارونية. ومنذ سنة والعدوان يتزايد بهدف أن يتصرف فلسطينيو مطلع القرن الواحد والعشرين على نحو ما فعله أجدادهم وآباؤهم فلسطينيو منتصف القرن العشرين. ولكن الأمثلة التي تعلّمها الأحفاد تتلخص في ان الصمود هو السلاح الأكثر فعالية في وجه المخطط الصهيوني، والمقاومة هي الوسيلة التي تعزز هذا السلاح سواء كانت مقاومة سلمية بالتظاهرات والحجارة أو مقاومة موجعة من خلال العمليات الإستشهادية الجسورة.

وعند التأمل في ما يحدث نرى أن العدوان الشاروني يدمر المنازل فيقيم أصحابها خيمة فوق الركام ينامون فيها، ويجرف العدوان الشاروني الارض فيحاول اصحابها حرثها من جديد، ويقطع العدوان الشاروني أشجار الزيتون والبرتقال فيقرر أصحاب الحقول غرس الشجر لكي يقطف ثمارها أولاد الاحفاد بعد أن يأتي الحق ويزهق الباطل الصهيوني المدعوم من الإدارات الأميركية والحكومات البريطانية. كما أننا عند التأمل في ما يحدث نرى أن عناصر المؤسسات الفلسطينية يزدادون تعلقاً بالمباني والمراكز التي تقصفها أسلحة الدمار الشاروني فيحاولون قدر الإمكان اعادة البناء وتأهيل المقاعد والطاولات وجمع الأرشيف الذي تبعثر.

وأما الرأي العام الفلسطيني فإنه ليس على ما كان عليه قبل نصف قرن. فالعائلة لا تهرب ولا تنزح خوفاً من أن يصاب الأبناء مكروه، والأبناء لا يضغطون على الأهل من أجل إنقاذهم من مخاطر العدوان. وإنما الذي يحدث هو سباق ماراثوني بين الأهل والأبناء نحو القيام بالواجب ايأ كان ثمنه، وإعتبار الحد الأقصى من الواجب والذي هو الإستشهاد بأنه شرف ووسام على الصدر، وإلأ فما تفسير ظاهرة الإستشهاديين الذين هم في عز الشباب والذين خصّهم الله سبحانه وتعالى، إلى جانب العزيمة والإرادة الوطنية القومية، بملاح فيها الكثير من ملاح فرسان الدعوة الذين أحاطوا بالرسول عليه الصلاة والسلام؟

وما تفسير ظاهرة التشييع الوطني للشهداء وكأنما كل من يسير في الجنزة يتمنى أن يحظى بهذا الشرف، وكأنما أيضاً الشهيد حتى إذا كان من الإستشهاديين أو من الرضع أو من الفتية البواسل المنتمين إلى كتيبة رماة الحجارة، هو شهيد كل

فلسطين وأنه فقيد الجميع وليس فقيد عائلته الصغيرة والأقارب والمعارف؟

كذلك ما تفسير ظاهرة أن أم الشهيد يغمى عليها بعد أن تدمع عيناها حزناً على ابن إستشهد، ثم عندما تفيق من الإغماء تزغرد فرحاً بأنها إنتسبت إلى عائلة أمهات الشهداء؟

أيضاً وأيضاً ما تفسير ظاهرة أن الآباء يتلقون خبر إستشهاد الأبناء، فيكون رد فعل هذا الأب أو ذاك انه فخور بما فعله الابن الشهيد وأنه مستعد لتقديم المزيد من الأبناء شهداء في سبيل الوطن؟

وما تفسير ظاهرة أن القيادة الفلسطينية على برودة الأعصاب التي هي عليها، تأتيها الإهانات والضربات من شارون وأفراد العصابة الشارونية فترد عليها بالقول إن الشعب الفلسطيني هو شعب الجبارين، أو بمطالبة الإدارة الأميركية بإرسال مراقبين والقيام بواجبها كراعية للسلام، وتبقي على نفسها متنبهة كي لا ترتكب خطأ سياسياً من خلال الإدلاء بتصريح أو رداً عسكرياً يستند إليه شارون السفاح وبيروز المحتال فينفضون اليد تماماً من العملية السلمية ومن كل التعهدات التي إلتزموا توقيماً بها وبحضور الشاهد الأميركي وتوقيعه، ومن دون أن تلغي تصرفاته أنه شاهد مسؤول وحقيقي وملتمزم ويجب أن يحترم توقيعه، وليس شاهد زور كما تريده إسرائيل وكما هو يتصرف بكل دقة؟

وما سر هاتين القدرتين عند الرئيس ياسر عرفات: القدرة على كتم الغيظ والصبر. والقدرة على السفر من عاصمة إلى عاصمة وهو الذي لا عاصمة له لأن لا دولة قامت لكي تكون ذات عاصمة. وفي هذه الأسفار سواء كانت إلى الإليزيه أو إلى الفاتيكان لا ينتقض بعد اللقاء غاضباً من الذين يزورهم لأنهم، وبالذات الرئيس شيراك والبابا يوحنا بولس الثاني، لا يرفعون درجة الضغط على أميركا وإسرائيل من أجل إعلان قيام الدولة الفلسطينية خصوصاً أن إستقبال الزعيمين له يتم بصفة كونه رئيس الدولة التي جرى التوافق العربي والدولي في شأن قيامها كحل نهائي للصراع العربي - الإسرائيلي؟

وما سر هذا الإصرار على ممارسة كل طقوس بروتوكول الرئاسة سواء عند مغادرة مطار غزة أو عند العودة، وممارسة الطقوس نفسها عند إستقبال المبعوثين وجلهم من الأوروبيين والأجانب عموماً لأن زيارات العرب والمسلمين إلى ديار السلطة الوطنية قليلة؟ وهل ان هذا الحرص هو مظهر من مظاهر

الصمود على مستوى القيادة وتأكيد بأن الدولة ستقوم مهما فعل شارون ومهما طغى وتجبر وإعتدى وإغتيال وجرف ودمّر، وأن هذا الصمود هو الصدى لصمود الفلسطينيين في أرضهم ومتاجرهم وبساتينهم المجروفة والسكن فوق الأنقاض وتحت الخيام بدلاً من النزوح مرة أخرى على نحو ما يتمنى الشارونيون؟

ان وقائع كثيرة يمكن سردها في مجال الكلام بالكثير من الإعجاب بهذا الصمود النفسي للشعب الفلسطيني. ومن المؤكد أن هذا الصمود هو الذي جعل إنتفاضة الأقصى تتواصل، وجعل الإستشهاديين يتكاثرون وجعل الشارونيين يتفنونون في العدوان، وجعل الإسرائيليين يتأملون وهم تحت وطأة الخوف والمكابرة في أي مصير ينتظرهم.

ومن المؤكد أنه لولا هذا الصمود لما كان عرب 1948 يعيشون الآن صحة وطنية، ولما كان هنالك أمل في المستقبل، ولكانت إسرائيل الكبرى قامت وقُضي الامر.

ونعود إلى ما بدأناه لنقول ان الولايات التي يواجهها الشعب الفلسطيني على أيدي العصابة الشارونية هي أعنف بكثير من ويلات عصابات «الهاجاناه» و«شتيرن» ومع ذلك فإن الأقدام ثابتة فوق الأرض الفلسطينية. ولو أن فلسطيني أواخر الأربعينات تصرفوا على نحو ما يفعله فلسطينيو الزمن الشاروني السيئ لما كانت النكبة ستحدث ومهما ساندت بريطانيا تلك العصابات التي يقودها إرهابيون أمثال مناحيم بيغن وإسحق شامير ومهما غضت الطرف عنها وغمرتها بالدعم المعنوي والمادي والعسكري على نحو ما تفعل في هذه الأيام وريبتها في مساندة الصهيونية، الإدارة الأميركية. وما أعطته بريطانيا لعصابات «شتيرن» و«اراغون» و«الهاجاناه» ليس شيئاً أمام الذي أعطته وتواصل الإدارة الأميركية تقديمه إلى عصابة «الوحدة الوطنية» التي يتصدرها بجدارة كبير السفاحين ارييل شارون. ولو أن فلسطيني الزمن الشاروني البشع قلدوا فلسطيني المحنة الأولى لما كان هنالك من يتحدث عن قضية إسمها القضية الفلسطينية بالملاحم المأساوية لهذه القضية.... ويا ليت ما فعله الفلسطينيون أواخر الأربعينات لم يحدث.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 29 أغسطس (آب) 2001

* * *

أميركا «الصديقة»... التي لا تريد

يلفت الإنتباه إلى أنه كلما حدثت محاولة تسلل أوروبية للتعاطي مع الصراع المتواصل بين الشعب الفلسطيني والدولة العبرية وتقريب المواقف على أمل إيجاد حل، فإن الإدارة الأميركية «الصديقة» تنقض على هذه المحاولة بدل أن تشجعها.

في الماضي جربت الدبلوماسية الفرنسية بدعم قوي من الرئيس جاك شيراك تقريب المواقف، ولكن إدارة الرئيس كلينتون وجهت الضربات المستترة والمعلنة لهذه المحاولة المخلصة من جانب الرئيس الفرنسي، بل أن أكثر من رسالة وجهتها «العين الأميركية الساهرة» إلى الرئيس الديغولي شيراك تضمنت تذكيره بما جرى لمعلمه من قبل عندما قرر أن يهز الهيبة الأميركية مستنداً في ذلك إلى القبول العفوي من الأنظمة ومن الشعوب على حد سواء في المنطقة العربية للعلاقة مع السياسة التي أطلق الجنرال ديغول ملامحها منذ وقته التاريخية من عدوان الخامس من حزيران (يونيو) عام 1967 عندما أعلن مستبقاً العدوان أن فرنسا ستكون مع المعتدى عليه ضد المعتدي. وما جرى للجنرال المتوازن وصاحب الضمير الحي هو التأمر عليه في إطار إفتعال التحرك الطلابي الشهير الذي قاده اليهودي كوهين بانديت.

بسبب هذه الرسائل - التهديدات، انكفأ الرئيس شيراك وبات دوره يقتصر على تأمين أفضل إستقبال بروتوكولي للرئيس عرفات عندما يزور فرنسا، بل أن أبواب «الايليزية» باتت مفتوحة أمام الرئيس الفلسطيني من دون أن تتجده فرنسا ذات مرة بموقف حاسم في مجلس الأمن. وآخر النجذات التي لم تحدث كانت قبل أيام عندما لم يصمد إقتراح فلسطيني كان من المؤمل أن يجد طريقه إلى المجلس ثم إضطر الفلسطينيون إلى سحبه تحت وطأة التهديد الأميركي بإستعمال الفيتو.

بعد فرنسا، حاولت ألمانيا وبفعل إجتهد من وزير خارجيتها يوشكا فيشر الآتي إلى هذا المنصب الرفيع في ألمانيا التي توحدت، من صفوف الحزب الذي يهتم بالبيئة (حزب الخضر). وقد جرب هذا الألماني الأخضر حظه في المرة الأولى في يونيو الماضي لكن الإدارة الأميركية ضربت مسعاه. مع ذلك لم ييأس الرجل على ما يبدو فجاء إلى تل أبيب يوم الثلاثاء 21 - 8 - 2001 الماضي ليجت مع رئيس الحكومة

الإسرائيلية أرييل شارون في إمكانية إستضافة الرئيس ياسر عرفات ووزير الخارجية الإسرائيلي شيمون بيريز في مكتبه في وزارة الخارجية في برلين. وبعد حصوله على الموافقة المشروطة طبعاً توجه إلى رام الله لإبلاغ الرئيس عرفات الذي رحب من دون شروط طبعاً. لمجرد أن باتت الفكرة وشيكة التحقيق، دخلت الإدارة الأميركية على الخط وجاء الدخول المريب يوم الجمعة الماضي وبشخص الرئيس جورج بوش الذي أطلق تصريحاً، وهو ما زال في إجازته التكسائية، قال فيه: «لقد أوضح الإسرائيليون تماماً أنهم لن يتفاوضوا تحت تهديد الإرهاب، وإذا كان السيد عرفات مهتماً بإقامة حوار، فإنني أدعوه بقوة إلى أن يحض الإرهابيين الفلسطينيين على وقف التفجيرات الانتحارية...». وبدا الرئيس الأميركي في كلامه هذا واضحاً كل الوضوح، وهو أن الإدارة الأميركية، إدارته الحالية وإدارة من كان قبله وربما إدارة من سيخلفه، لا تريد للتهدة أن تحدث وتفضّل أن تبقى المواجهة الفلسطينية - الإسرائيلية مشتعلة.

أما لماذا تريد ذلك فللحفاظ على مصالحها وعلى ألا تقلت خيوط اللعبة من أيديها. وهذا تماماً ما تفعله بالنسبة إلى المصالحة العربية الشاملة وتحقيق التضامن بعد حل الخلاف بين العراق والكويت. ونحن عند التأمل في تطورات هذا الخلاف نلاحظ أنه في كل مرة يصدر عن مسؤول عربي كلام يكون القصد منه فتح النوافذ أمام نسيم المصالحة والتآلف بين القلوب يحل محل دخان الخلاف، فإن الإدارة الأميركية ترد بتصريحات تستهدف تعقيد الأمور أو بإجراءات يكون الهدف منها ليس فقط قطع الطريق على أي مصالحة وإنما تصوير الوضع وكأنما هو على أهبة التفجير. وحتى عندما لاحظت أن في نفس الرئيس بشار الأسد رغبة مخلص في أن يقوم بمسعى للتوفيق بين العراق والكويت وضمن صيغة لا تكون لحساب طرف على حساب طرف آخر، فإنها نشطت في إتجاهين: حاولت الإدارة بوسائل مختلفة وعن طريق رموز سياسية مرئية وغير مرئية، إشعال البيت اللبناني ناراً سياسية ووصلت الحال معها إلى حد أن القائمة بالأعمال الأميركية في بيروت لم تكتف ببعض الإتصالات وإنما طرقت باب القصر الجمهوري لتعرف بعض الأمور من رئيس الجمهورية شخصياً، مع أن الأصول تقتضي معرفة ما تريد معرفته من وزير الخارجية وليس من الرئاسة الأولى والرئاستين

الأخريين، رئاسة مجلس النواب ورئاسة الحكومة. ووجهت الإدارة رسالة تحذير إلى الرئيس بشأن ذلك عندما طُلب من أحد طياريهما العاملين في «حماية أمن المنطقة» أن يتجول لمدة حوالي نصف ساعة في الأجواء السورية تائهاً. وفي تقديرنا أن الرئيس بشأن الذي قرأ جيداً الملعب الأميركي تعمّد الرد المدروس على هذا التحذير وذلك عندما إستقبل طه ياسين رمضان نائب رئيس الجمهورية العراقية العائد إلى بغداد من زيارة إلى اليمن، هدفها توسيع حلقة التعاون على الصعيد الإقتصادي. ومن الواضح أن الإستقبال كان رسالة جوابية عن رسالة التحذير وإكتسبت معنى عميقاً وتفسيرات كثيرة، كون الإستقبال جرى مباشرة بعد ساعات من وصول الرئيس بشأن من زيارته الأولى كرئيس للجمهورية إلى الكويت وما رافق هذه الزيارة من تكهنات حول انها كانت في سياق مسعى سوري لتحقيق التضامن العربي، بدءاً بحل الخلاف العراقي - الكويتي وإنطلاقاً منه. ولم تقلل بعض التصريحات الكويتية من أن الزيارة هي لدعم التعاون الإقتصادي من جدية تلك التكهانات وذلك على أساس بدهيات، خلاصتها أن المسألة لو كانت من أجل أمور إقتصادية لكان الرئيس بشأن أرسل رئيس حكومته محمد مصطفى ميرو ومعه نصف أعضاء الحكومة وعشرات رجال الأعمال من تجار وصناعيين على نحو الزيارة التي قام بها ميرو إلى العراق.

كما أن بعض جوانب الرسالة الجوابية البشّارية تستند إلى أن المسؤول العراقي ليس في زيارة رسمية وإنما هو زائر ترانزيت على أساس أن البوابة السورية هي التي باتت معتمدة بالنسبة للمسؤولين العراقيين يسافرون من خلالها إلى دول العالم. وفي مثل هذه الحال يصبح إستقبال رئيس الدولة - وهو هنا الدكتور بشار الأسد - للزائر العراقي الترانزيت - وهو هنا طه ياسين رمضان نائب رئيس الجمهورية - موقفاً سياسياً وليس لفئة بروتوكولية. ولا ندري كيف سيكون الرد الأميركي على الرسالة السورية الجوابية في حال إستكمل الرئيس بشأن مسعاه وزار بغداد على نحو ما هو قيد التداول كإحتمالات. وهل أن الرد سيكون بالمزيد من تيهان المقاتلات الأميركية في الأجواء السورية أم بالمزيد من محاولات إشعال البيت اللبناني، السوري الهوى، ناراً سياسية.

والذي تخشاه الإدارة الأميركية هو أن الرئيس بشأن في موضوع الخلاف العراقي - الكويتي ينطلق من

رؤية تقوم على أن سوريا وقفت مع الكويت المعتدى عليها عندما كانت في حاجة إلى هذه الوقفة لمواجهة الإجتياح العراقي وتحرير البلد. وكانت وقفة الأسد الأب حازمة وقوية وتشكل إحدى النقاط الأساسية في المعادلة الصعبة زمذاك، وأن سورية في ظل قيادة الأسد الابن ولدواع قومية تتعلق بالهجمة الإسرائيلية على القضية وعلى المنطقة بالكامل، فضلاً عن أن العراق في حاجة مماثلة لحاجة الكويت قبل إحدى عشرة سنة، تجد نفسها ومن المنطلقات والقناعات نفسها تقف مع العراق الذي بات العدوان عليه مسألة روتينية. ومعنى هذه الرؤية أن لا أحد، عدا الإدارة الأميركية فقط ومعها إسرائيل بنسبة كبيرة وبريطانيا بنسبة أقل، يعترض على هذا المسعى الذي أخذ الرئيس بشأن على عاتقه أمر القيام به.

وكما ان مثل هذا المسعى يمكن ان يشكل ضربة لمحاولات الهيمنة على المنطقة ولذا ستواجهه الإدارة الأميركية ولن تترك حجر عثرة إلا وتضعه في طريقه، فان المسعى الأوروبي لتهدة الصراع الفلسطيني . الإسرائيلي، الذي تشكل المحاولة الألمانية أحدث الحلقات فيه، هو الآخر بمثابة هدف دائم يرسم التقويض من جانب الإدارة الأميركية. فهذه الإدارة لا يمكن أن تتحمل الوفاق العربي، بدءاً بالمصالحة خشية أن يشكل هذا الوفاق دعوة لها لرفع اليد عن القرار العربي، وهذه الإدارة لا يمكن أن تتحمل حلاً دائماً وشاملاً للمواجهة الفلسطينية - الإسرائيلية، يبدأ بالتهدة خشية أن يشكل الحل إنحساراً لوجودها في المنطقة ولضغوطها التي كأنها كوابيس على الإرادة العربية.

من أجل ذلك فإنها غير صادقة في كل ما تفعله، وانها غير مخلصه في وعودها للفلسطينيين. كما أن وقوفها المتهور مع إسرائيل المعتدية كما لم تعدد دولة على شعب، وإلى درجة التلويح سلفاً بمقاطعة «المؤتمر العالمي لمناهضة العنصرية» الذي إستضافته مدينة دوربان طوال الأسبوع الأول من سبتمبر الجاري، في جنوب أفريقيا في حال أصر العرب على إعتبار الصهيونية حركة عنصرية، هو فقط للإبقاء على الصراع قائماً لأن بدعة ما يسمى «النظام العالمي الجديد» تتلاشى بتبريد هذا الصراع ولا تعود الولايات المتحدة الحاكم الفرد للعالم. ثم جاءت عملية إغتيال القائد الفلسطيني التاريخي أبو علي مصطفى الأمين العام لـ «الجبهة الشعبية لتحرير

فلسطين» يوم الإثنين 27 - 8 - 2001 بواسطة صاروخ شاروني من طوافة أميركية متطورة إستهدف مكتب القائد الفلسطيني في رام الله وكما لو أنها ترجمة لما يرى شارون أن الإدارة الأميركية تشاطره الرغبة في عدم حدوثها، وهو المصالحة بين الحكم السوري وياسر عرفات رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية المتفق على إعلانها خلال لقاء عرفات في دمشق بالرئيس بشار الأسد ومحادثاته مع القيادة السورية يومي 12 و 13 سبتمبر الجاري. ومثل هذه المصالحة معناها ولادة موقف فلسطيني شامل يتجسد في حكومة وحدة وطنية، من شأن ساعدها القوي مواجهة العدوان الشاروني والمؤازرة الأميركية للباطل الإسرائيلي... وهو أمر آخر من جملة أمور تؤدي بالتدرج إلى إنحسار الهيمنة الأميركية على الإرادة العربية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 5 سبتمبر (أيلول) 2001

* * *

تأملات في «الانتفاضة الأممية»

مثلاً إننا كعرب تداركنا ظاهرة الانتفاضة فأحطناها ببعض الاهتمام والرعاية والحماسة شعبياً ورسمياً ومن أجل ذلك فهي تحقق الكثير من النجاحات، فإننا كعرب أمام ظاهرة جديدة لم نكن نتوقع حدوثها بالشكل الذي حدثت فيه، وعلينا أن نستخلص منها الأمثولات وأن تدرجها الحكومات والشعوب على حد سواء في جدول أعمال الصراع العربي - الإسرائيلي المتواصل. والظاهرة الجديدة هي «الانتفاضة الأممية» التي ولدت في مدينة «دوربان».

لقد أثبتت «الانتفاضة الاقصى» جدارة لم تألفها حركات التحرر من قبل. وأثبتت الانتفاضة هذه الجدارة من خلال الفتية وحجارتهم، والنساء ومشاركتهن فضلاً عن الصبر الذي تحلت به الأم الفلسطينية، وفلاح فلسطين الذين ردوا على التحريف واقتلاع الأشجار بالإصرار على الصمود، ورجال الأمن الفلسطينيين وبذلهم وتحملهم للتدمير المبرمج لمراكزهم ومهاجعهم وقدرتهم على صد إقتحامات إسرائيلية لمناطقهم. كما أنها أثبتت الجدارة بالجهاديين الذين هم خير الرجال وبالعمليات الإستشهادية التي يشهد الله عليهم بأنهم لا يقومون بها إلا لتلقين الشارونيين الدرس الذي يصعب

على شارون وعلى الذين حوله فهمه. وفحوى هذا الدرس أنه ليس رجل الدولة الذي يمكن أن يحقق الأمن لليهود فيجلو بموجب الإتفاقات والقرارات الدولية عن الأرض ويترك الشعب الفلسطيني يبني دولته وعاصمتها القدس، كاطماً هذا الشعب المنكوب الغيظ متحملاً الندم وإيلام النفس لأنه في سبيل إستقرار المنطقة إرتضى القليل من الكثير وتخلى عن حلم إستعادة يافا وحيفا والجليل ومدن وقرى وبلدات كثيرة في فلسطين مقابل ان يعود ابناء هذه المناطق كل إلى مسقط رأس اجداده وأبائهم.

وعندما نشيد بهذه الجدارة لـ «انتفاضة الاقصى»، فإننا نستند في ذلك إلى المناخ العربي والدولي الذي أحدثته. فلولاها لكانت بحيرة السياسة العربية ساكنة، ولكان الإندفاع العربي في إتجاه الامر الواقع الإسرائيلي مستمراً، ولكانت إسرائيل حققت مخططاتها الجهنمي الذي لم يفتن بعض القادة العرب إليه والذي يستهدف قيام جامعة اوسطية تحل محل الجامعة العربية وتكون إسرائيل واحدة من الدول الأعضاء في هذه الجامعة وتترأس إحدى دورات الإنعقاد السنوي لهذه الجامعة.. أي أن شارون الحالي، أو شارون المستنسخ من الصهيونية، أو أي واحد منهم يترأس الدولة العبرية، سيكون بموجب إعتقاد الأبجدية قاعده، رئيساً للدورة التي نشير إليها يعطي الكلام لهذا الرئيس العربي أو ذاك. ولا داعي للإستغراب والإستهجان، فالمؤتمر الإقتصادي الأوسطي كان الهدف منه تحقيق الخطوة الأولى على طريق إلغاء الجامعة العربية ليس لأنها فشلت كتجربة وإنما من أجل جامعة جديدة تنضم إليها إسرائيل وهي المتوقعة على الآخرين.

ولولا الانتفاضة لما كنا سنرى أن الملوك والرؤساء يمكن أن يعقدوا قمة إستثنائية ويتفقوا على أن الانتفاضة تعني كل واحد منهم، ولما كنا سنجدهم في قمة الأقصى الإستثنائية في القاهرة قرروا أن تكون قمتهم دورية في شهر مارس (آذار) من كل سنة وقرروا مباشرة الإنعقاد بدءاً بالعاصمة الأردنية عمان، وذلك على أساس أن الأردن هو الأول بالترتيب الأبجدي تليه دولة الإمارات التي، إستلهاماً بالانتفاضة، قرر رئيسها الحكيم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان تجيير القمة الدورية الثانية في مارس المقبل إلى لبنان على أساس أن المقاومة التي تصدّرها «حزب الله» كانت بمثابة إنتفاضة وكانت الرائدة في تطبيق نظرية أن ما يُحتل بالقوة يُحرّر بالمقاومة. ولقد

كان التطبيق من جانب مقاتلي «حزب الله» للنظرية تطبيقاً مخلصاً وبالحدافير ومن دون أن يثنيهم عن الهدف الأسمى تساقط الشهداء في عمليات نوعية قاموا بها، وكان معناها ومغزاها كبيراً وعميقاً، وهو أن الهالة الترهيبية للجيش الإسرائيلي قابلة للإهتزاز في حال توافر الإيمان بالله والثقة بالنفس والاستعداد للتضحية. وفي مقبرة «روضة الشهداء» في الضاحية الجنوبية من العاصمة اللبنانية ومقابر عشرات البلدات والقرى في الجنوب ومنطقة بعلبك شواهد بالمئات تؤكد مسألة التضحية.

ونأتى إلى البعد الدولي لظاهرة «إنتفاضة الأقصى» فنرى أنه بسبب هذه الظاهرة بانث إسرائيل على حقيقتها، أو بكلام أكثر تحديداً أن حقيقة هذا الكيان كانت واضحة إلا أن ظاهرة الإنتفاضة كشفت النزعة العنصرية لدى إسرائيل شعباً وحكومة، وهو ما قاله الرئيس بشار الأسد أمام الملوك والرؤساء العرب في القمة العربية الدورية الأولى في عمان في مارس الماضي وإستمر مثابراً على قوله من دون أن يخشى لومة اللائمين ما دامت رؤيته وطنية ومن صميم الحقيقة. ولقد أظهرت الممارسات الشارونية أن اليهودي الذي يدّعي أنه ضحية العنصرية والممارسات الهتلرية في حقه هو في الوقت نفسه متأثر وإلى درجة الإعجاب فالإقتباس بتلك الممارسات. ويعود الفضل في كشف مسألة الإقتباس التي نشير إليها إلى الفضائيات العربية الدولية التي أظهرت للرأي العام العربي والدولي وفي القارات الخمس كيف أن الدولة التي يقال إن جيشها هو القوة العسكرية الرابعة في العالم يقتحم إحياء سكنية بسيطة ليدهرها، ويمهد الطريق أمام الجرافات العملاقة لكي تجرف الأرض الزراعية التي يعتاش منها الناس الذين يعيشون تحت الحصار على مدى ساعات الليل والنهار، ويقتلع أشجار الزيتون والبرتقال التي ينتظر الفلاح الفلسطيني الموسم بفارغ الصبر لكي يعيل أطفاله من مردود هذه الأشجار. كما أن هذه الفضائيات أظهرت للرأي العام الدولي والعربي على حد سواء كيف يتم إغتيال الناس وبموجب برنامج موثق بالأسماء والصور تنشره الصحف العبرية، وكيف أصبحت طائرات الهليكوبتر الأميركية المتطورة وسيلة من وسائل الإغتيال تطبيقاً حرفياً لما يحدث في أفلام «جايمس بوند» أو «رامبو» وأيضاً كيف أصبحت عمليات قنص الأطفال والنساء وسيلة تسلية للجنود الإسرائيليين. كما أن الفضائيات

أظهرت كيف أن المستوطن الإسرائيلي يعتدي على المرأة الفلسطينية أو الشيخ الفلسطيني مطمئناً إلى أن وراءه جندياً إسرائيلياً يحميه وأن هذا الجندي مطمئن إلى أن الإدارة الأميركية تحميه هو الآخر، لأن اللوبيات الصهيونية من جهة وبدءاً من مركزها الأول في الولايات المتحدة تفرض على رئيس هذه الإدارة، التي تعشش الرموز المتصهينة في المفاصل الرئيسية في إدارته، ان يحمي حكومة ذلك الجندي المعتدي ويبرر أفعالها بحيث يعتبرها مشروعة، ولأن الأمم المتحدة وبشخص أمينها العام تتعامى عن أي تجاوزات إسرائيلية، أو أنها تنتظر بالعين الأميركية - الصهيونية، أو المتصهينة لا فرق، إلى هذه التجاوزات فتبقيها متمعمة أو متآمرة أو عاجزة في منأى عن أي إدانة وأي عقاب.

ومن الجائز الإعتقاد أنه بسبب هذا الذي أظهرته الفضائيات، مع ملاحظة أن ما أظهرته الفضائيات الأجنبية عموماً والأميركية على وجه الخصوص، كان القليل جداً من الكثير وذلك لتخفيف نسبة صدمة الرأي العام في أميركا من هذا الذي يفعله الإسرائيليون فيقلبون عليهم... من الجائز الإعتقاد أنه بفعل التأثير والخوف الناشئ عما تابعه الناس في شتى أنحاء المعمورة على الفضائيات، كانت التظاهرات التي شهدتها مدينة «دوربان» التي إستضافت «المؤتمر الدولي لمناهضة العنصرية». وكان بيان الإدانة الصارخة لإسرائيل بأنها دولة عنصرية تعتمد أسلوب الإبادة الجماعية والصادر عن ثلاثة آلاف منظمة غير حكومية. وبسبب التظاهرات والبيان كان الهروب الأميركي - الإسرائيلي من المؤتمر من بعض الدواعي على نحو الهروب الأميركي من سايغون في الستينات وبواسطة طائرات الهليكوبتر التي كانت تحط على سطوح السفارة الأميركية، وعلى نحو الهروب الإسرائيلي من جنوب لبنان وقبل الموعد المحدد للإسحاب.

ونحن عندما نقول ان هذه التظاهرات والبيان الذي تلاها والذي يمثل 44 تجمعاً إقليمياً يتوزعون على قارات العالم الخمس جاءت نتيجة مشاعر التأثير والخوف بعد متابعة ما بثته الفضائيات على مدى حوالي سنة وكان منظر تشييع الجنازات اليومي هو أحد الدوافع إلى هذا التأثير والخوف... اننا عندما نقول ذلك فعلى أساس ان هذه الآلاف التي شاركت في التظاهرات ورفعت الياقات مكتوباً عليها باللغات التي

نتمنى للجرحى والمصعوقين براء الجراح وإستعادة الوعي من جراء الصدمة، والعودة من جديد إلى ممارسة حياتهم العادية... وفي الوقت الذي نتمنى إنحسار الذعر الناشئ عن العملية الإرهابية، وبذلك يغادر المواطن الأميركي الكابوس الذي انقضّ عليه كالصاعقة وفي إعتقاده أنه محصّن من أي كوابيس وأي إرهاب... في الوقت نفسه هنالك بعض الملاحظات والتمنيات التي نتمنى أن يأخذها الأميركي، حاكماً ومحكوماً، في الإعتبار وهو يللم الجراح النفسية والمعنوية والجسدية من بين الأنقاض الناشئة عن «أم الكوارث». وأبرز هذه التمنيات والملاحظات خمس، وهي على النحو الآتي:

أولاً: أن يتعظ الأميركي، حاكماً ومحكوماً، من الذي جرى، وأن يرى أن الذي أصابه هو ما كتبه الله له، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي يعطي وهو الذي يأخذ. وإذا إتعظ الأميركي، حاكماً ومحكوماً، مما حصل للولايات المتحدة يوم الثلاثاء، الموافق للحادي عشر من أيلول (سبتمبر) الجاري، وتأمل في أسبابه وما جرّته عليه الأبهة الناشئة عن الهيمنة والتمسك بأحادية القرار في العالم، وغض النظر عن سياسات حكومة مثل حكومة شارون وعدوانها على الشعب الفلسطيني، فهذا معناه أن أميركا تكون قد بدأت السير على الطريق الصحيح، وبدأت تجد العلاج للمحنة التي أصابتها.

ثانياً: إن المواطن الأميركي متقاعس عن واجب تنبيه حكامه لخطورة عمق تفكيرهم وخطأ مفاهيم سياستهم نحو الآخرين. ومن شأن التأمل في الكارثة التي ضربت الأميركيين وألحقت بهم رعباً لا مثيل له، أن يجعل هؤلاء يتذكرون انهم كانوا على خطأ عندما لم يقفوا في وجه مظالم إداراتهم في التعامل مع الآخرين. ولو أن الرأي العام الأميركي سجّل وقفة حازمة مرة واحدة في مواجهة مسلسل شارون في ارتكاب المجازر والأذى والقتل ضد الفلسطينيين لما كان لهذا المسلسل ان يتواصل. بل أنه لو إنتقدت الأم الأميركية السياسات الخارجية لحكومتها، بدل أن تنصرف كما لو أن الأمر لا يعينها... انها لو فعلت ذلك وإلى حد النظار امام البيت الأبيض إستكاراً لما فعله الرؤساء الذين تعاقبوا على الحكم من ريغان إلى بوش الابن، لكانت ستجد أن كل بيت فلسطيني، وكل بيت عربي، بل وكل بيت في العالم الإسلامي، يبدي الأسف والحزن على الذي حدث.

تفهمها اميركا وإسرائيل عبارات الإتهام والإستهجان للعنصرية الإسرائيلية، إنتابها الخوف من أن تسود العنصرية مجتمعات العالم ما دام لن يوضع حد لذلك وما دامت الدولة التي تحتكر إدارة شؤون العالم، أي أميركا، تشجع هذه العنصرية. بل ان هذه الآلاف المؤلفة إفترضت أن ما يعانيه الفلسطينيون الآن على أيدي العنصريين الإسرائيليين قد يعانون منه في بلادهم على أيدي عنصريين آخرين.. من يدرى؟

وفي أي حال ان أهمية تلك التظاهرات أنها كانت أممية، إذ نادراً ما التقى الأبيض إلى جانب الأسود إلى جانب الأسمر إلى جانب الأصفر إلى جانب الأشقر، أو المسيحي إلى جانب المسلم إلى جانب المسيحي إلى جانب اليهودي العاقل (الذي لا علاقة له بالشارونيين وأمثالهم) إلى جانب البوذي إلى جانب الهندوسي في مسيرة واحدة لم يكن هدفها بالكامل التعاطف مع الفلسطيني، وإنما من أهدافها أن تقول «لا» قوية للعنصرية الإسرائيلية أو النازية الجديدة المسموح بها من الإدارة الأميركية.

من أجل ذلك، فإن من واجبنا كعرب أن نكون في مستوى توظيف الإنتفاضة الاخرى التي حدثت في «دوربان»، وبما يجعل العنصرية الإسرائيلية تغيب وتتلاشى ويجعل «الصديق» الأميركي الذي أصابته أجواء مؤتمر «دوربان» بالذعر فغادر المؤتمر مطأطئ الرأس ربما من أجل ألا يكون شاهداً على إدانة إسرائيل وربما من أجل ألا يعتذر ويعوّض عما فعله بالسود الذين كانوا في نظر البيض حتى قبل أقل من أربعة عقود عبيداً على نحو ما تريد إسرائيل أن تفعل بالفلسطينيين، وربما بالعرب من المحيط إلى الخليج... إذا إستطاعت إلى ذلك سبيلاً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 12 سبتمبر (أيلول) 2001

* * *

أي أميركا... بعد «أم الكوارث»؟!

في الوقت الذي ندعو بالرحمة للأبرياء الذين سقطوا ضحية أخطر عملية إرهابية تعرضت لها مراكز صنع القرار السياسي والعسكري في الولايات المتحدة، والمركز التجاري الدولي الذي هو رمز الإزدهار المالي للولايات المتحدة... وفي الوقت الذي

لكن، مع ذلك، ليس في بيوت العرب والمسلمين من يشمت لما جرى للولايات المتحدة في نيويورك وواشنطن. لماذا؟ لأن في قلوب العرب والمسلمين مساحة من الروحانية تجعل المرء لا يشمت حتى من عدوه في لحظة الموت، وذلك على أساس أن الله هو الذي يحاسب، وهو الذي يرحم، وهو الذي يغفر.

ثم، وبدلاً من أن يستسلم الرأي العام الأمريكي للتحريض الصهيوني الذي بدأ على الفور إفتعال إستفتاءات الرأي التي يتقنها في حرب التحريض ضدنا، عليه أن يُهدى من روعه ويطلب من حكامه ومؤسساته التبصر والبحث في عمق الأسباب التي جعلت العملية الإرهابية تحدث على نحو ما حدث، بدلاً من التأهب للإنقضاض هنا أو هناك أو هنالك على أهداف قد يبدو الإنقضاض عليها بمثابة التأسيس لإرهاب جديد، هذا إلى جانب أنها قد يتبين لاحقاً أنها أهداف خاطئة، وعندها لا يصلح الاعتذار، ولا مجال حتى للندم.

ثالثاً: من المهم أن يتساءل الأمريكي حاكماً أو محكوماً عن السر في أن ما أصاب أميركا لم يصب أي أمة أو دولة أخرى. وهو إذا أطلق هذا التساؤل سيرى بالضرورة نفسه يعيد النظر في النهج والأسلوب والتعامل مع القضايا وبمعزل عن الحقد والنثار والإستبداد.

رابعاً: لقد تبين من خلال ردود الفعل أن هنالك شهية أطلسية لكي تنتهز كل دولة فرصة الكارثة الأميركية وتضع يدها على هذا البلد العربي أو ذاك بحجة الحرص على الديمقراطية ودرء الخطر الإرهابي عن أميركا والعالم الحر.

إن من واجب أميركا إستباق الأمور، وإلا تكون شريعة الغاب عادت تحكم العالم في القرن الحادي والعشرين، لينتهى العالم بحراً فيه أسماك القرش الأسماك الصغيرة. وسيحدث ذلك بحجة ما أصاب أميركا. ونجد أنفسنا، في هذا السياق، نشير إلى أن العرب والمسلمين هم أكثر شعوب العالم رغبة في العلاقة المتوازنة مع أميركا وأقلهم حسداً لها، مع أنهم في الوقت نفسه رمز التضرر منها، في حين أن دول الأطلسي هي في قرارة نفسها أكثر الدول حسداً لأميركا وغيره وإنزعاجاً منها لأنها تقطع الطريق على مكاسب يجنونها من العرب والمسلمين وتحتكر لنفسها هذه المكاسب.

خامساً: في تراثنا العربي والإسلامي قول مأثور

للإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، من مصلحة الأميركي حاكماً ومحكوماً التأمل فيه، وهو: ما أكثر العبر وأقل الإعتبار.

وترجمته بالإنكليزية:

كثيرة جداً الدروس، قليل جداً الإعتبارات.

وهناك قول مأثور آخر للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري هو:

عَجِبْتُ لِمَنْ لَا يَجِدُ الْقُوَّةَ فِي بَيْتِهِ كَيْفَ لَا يَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ شَاهِراً سَيْفَهُ.

وترجمته بالإنكليزية: إنه يدهش لي إذا كان الذين لا يجدون الطعام في بيته لا يخرج رسم سيفه على الناس.

ونخلص بعد هذه التمنيات والملاحظات إلى القول إنه يكفي أميركا والأميركيين والعالم ما فعله أولئك الذين نفذوا العملية الإرهابية. والمطلوب الآن من الجميع، وفي الدرجة الأولى من الأميركيين شعباً ورئيساً ومؤسسات، أن يُكثروا من التأمل في العبر، وهي كثيرة، فلعل من إعتاد على ألا يعتبر أن يقرر الإعتبار، ويبدأ العالم من جديد، وبصيغة تشاورية، عهداً أكثر نقاء وصفاء ومحبة، عهداً خالياً من أية موجبات لإستعادة الحقوق أو التذكير بها، بواسطة الإرهاب الأرضي أو الجوي... لا فرق.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 19 سبتمبر (أيلول) 2001

أما آن للجواز العربي أن يستقر؟!

بعد أن بدأت الحرب في لبنان منتصف عام 1975 وتطورت على النحو الذي باتت عليه، لم تبق دولة من دول العالم التي تتطلع إلى دور اقليمي أو دولي إلا ووضعت أصبعها في لبنان. ولم يبق تنظيم ثوري في العالم إلا ودخل على الخط وأوفد بالتوافق مع اللاعبين الأساسيين عناصر لكي تتدرب في معسكرات خاصة على الأرض اللبنانية.

وبسبب هذا الوضع الجديد بات اللبناني في نظر دول العالم متهماً حتى يثبت العكس، وبات جواز السفر اللبناني موضع شبهة. ولقد قاسى الولايات أولئك اللبنانيون العاقلون الذين قرروا الهجرة هرباً من حرب لا يريدونها ولا هم ينتمون إلى طرف من أطراف

هذه الحرب وينبذون حتى المسألة المذهبية، فضلاً عن أن ممارسات الميليشيات على أنواعها كانت في حد ذاتها سبباً لكي يحمل ألوف اللبنانيين جوازات سفرهم وما في حوزتهم من مال وترك الوطن المشتعل حرباً عشوائية ميممين الوجوه شطر أوطان ترحب بالذين يحترمون القوانين وينبذون العنف ويؤدون الواجب مقابل الحصول على الحقوق. والقول إن جواز السفر اللبناني كان موضع شبهة تؤكد طوابير اللبنانيين الذين كانوا يقفون أمام قنصليات بعض دول العالم من أجل الحصول على تأشيرة، وكيف أن هذه التأشيرة لا تُعطى إلا بعد التأكد من أن طالبها مستقيم وأنه بالفعل هارب من الفوضى إلى الاستقرار، ومن أجواء العنف إلى الطمأنينة، ومن الخوف على الحاضر إلى السعي لبناء مستقبل له ولأولاده، ومن المدارس والجامعات التي وضعت الميليشيات اليد عليها إلى رحاب الثقافة والعلم في بعض الدول العربية وفي الولايات المتحدة وأستراليا وكندا ومعظم الدول الأوروبية.

ولقد وجد اللبنانيون في معظم هذه الدول الملاذ الآمن وإستطاع معظمهم بناء حياة جديدة. ولم تمض سنوات قليلة إلا وبات هؤلاء يحملون جوازات السفر الأميركية والبريطانية والفرنسية والكندية والأسترالية والأوروبية بشكل عام، كل منهم حسب البلد الذي آواه وإستقر فيه. ولم تميز هذه الدول التي منحت الطمأنينة للبنانيين بين المسيحي بطوائفه المتعددة وبين المسلم بشتى طوائفه. عومل الجميع حسب الأصول وبات هنالك مجتمع لبناني جديد في الدول المشار إليها. كما أن الجميع باتوا بعدما حصلوا على جواز السفر الجديد يشعرون إلى جانب الطمأنينة بأنهم أصحاب حقوق وعليهم واجبات. كذلك بدأوا يشعرون أنهم محترمون وقادرون على أن يسافروا من أي مطار ضمن أفضل التسهيلات، وهذا أنساهم ذل الوقوف في الطوابير أمام القنصليات للحصول على تأشيرة مدتها شهر في الحد الأدنى وثلاثة أشهر في الحد الأقصى.

هذه التسهيلات والحقوق التي حصل عليها اللبنانيون حصل عليها من قبلهم المصريون الذين كان جواز سفرهم في إستمرار موضع شبهة، وحصل عليها الفلسطينيون والسوريون والعراقيون الذين كانت وثائق سفرهم أو جوازاتهم موضع شبهة. وهؤلاء جميعاً إضافة إلى اليمنيين باتوا جزءاً من لوحة الموازييك التي تتشكل منها المجتمعات الجديدة عليهم مثل المجتمع الأميركي والمجتمع البريطاني والمجتمع الكندي

والمجتمع الأسترالي والمجتمع الفرنسي ومجتمعات أوروبية أخرى كثيرة. وليس مبالغة القول إن ولاء كل عربي حصل على جواز السفر الثاني.. الجواز الذي يتيح له السفر محترماً إلى أي بلد، كان بمثل ولائه للجواز الوطني. وعدا قلة فإن الذين باتوا يحملون جواز السفر الثاني كانوا ملتزمين بالأصول وبالقوانين وصاروا يشعرون أن الأذى الذي يصيب النظام أو المؤسسات في البلد الذي يحملون جواز السفر المعطى لهم منه إنما يصيبهم شخصياً، بل أن رفضهم المساس بأمن الدولة التي يحملون جواز سفرها يتساوى مع رفض المواطن الأصلي لهذه الدولة.

الذي أوردناه من هذا التمهيد هو القول إن الحادث المروع والمستنكر الذي حدث يوم 11 سبتمبر (أيلول) الجاري في كل من نيويورك وواشنطن والذي هو مُدان من جميع جوانبه، وضع كل مسلم وكل عربي مسلماً أو مسيحياً في وضع لا يتمناه أحد، وبحيث أن الجواز الذي يحمله المرء والصادر عن هذه الدولة العربية أو تلك أو عن أي دولة مسلمة بات في نظر دول العالم الغربي موضع شبهة حتى يثبت العكس تماماً، على نحو ما كانت عليه الحال بالنسبة إلى جواز السفر اللبناني بعد عام 1975 والذي إستمر جوازاً موضع شبهة إلى أن جاء إتفاق الطائف بهمة المملكة العربية السعودية التي إستضافت ولا تزال ترعى، يزيل بعض الشوائب، وبحيث بات هذا الجواز لا يندرج في قائمة الجوازات المشكوك فيها.

ومثلما أن الأكثرية في لبنان دفعت الثمن على ذنب لا علاقة لها فيه وكان المسبب له زعماء الميليشيات وأيضاً الزعماء الذين يتصارعون على لبنان وفيه، فإن الأكثرية العربية بعد الحادثين المروعين في نيويورك وواشنطن ستدفع الثمن على ذنب لا علاقة لها فيه بصرف النظر عما إذا كان المسبب هو أسامة بن لادن المشتبه فيه أو أطراف أخرى غير مرئية وربما من غير الممكن الكشف عنها وتسميتها. وفي الحالتين فإن الثمن المدفوع الذي نشير إليه هو إعتبار جواز سفر العربي والمسلم جوازاً موضع شبهة حتى يثبت العكس أو حتى تستقر الأمور على حال في أعقاب الخيار الأميركي لعلاج ظاهرة الإرهاب والذي لخص طبيعته الرئيس جورج بوش الإبن في خطابه الطويل نسبياً على غير عادة رؤساء أميركا في إلقاء الخطب والذي ألقاه أمام الكونغرس يوم الجمعة 21 سبتمبر الجاري، وكان الثاني من نوعه في تاريخ

سيصل إلى تل أبيب في اليوم التالي تبعاً لجولته المقررة في بعض دول المنطقة. كذلك هذا رئيس الدولة موشيه كاتساف حذو شارون. والسبب كما أوضحه مكتب هذا الأخير هو أن تصريحات الوزير البريطاني المشار إليها تعتبر «مناهضة لإسرائيل وتتسم بالتحيز والتعاطف مع الإرهاب الفلسطيني...»، كما أن تعبير «فلسطين» بدلاً من «السلطة الفلسطينية» أثار على حد تعليق مكتب شارون إستياء المسؤولين الإسرائيليين الذين تناوبوا على مهاجمة الوزير البريطاني.

في الوقت نفسه كان أفراد من الشرطة الإسرائيلية يشتبكون بالأيدي مع الحراس الشخصيين لوزير خارجية فرنسا هوبير فيدرين الذي كان مجتمعاً في أحد فنادق القدس الشرقية المحتلة بوفد من الشخصيات الفلسطينية، محاولين إقحام الفندق، تماماً على نحو ما حدث مع الرئيس الفرنسي جاك شيراك عام 1996 عندما كان في زيارة إلى القدس المحتلة وأراد خلال سيره في أحد شوارع المدينة المنكوبة بالاحتلال الإسرائيلي مصافحة فلسطينيين، وإضطر الرئيس الفرنسي إلى دفع رجال الشرطة الإسرائيليين بقوة عندما حاولوا إبعاده عن المصافحة، وأيضاً على نحو ما جرى لوزير خارجية بريطانيا السابق روبن كوك عندما زار موقع مستوطنة «هاروما» على جبل «أبو غنيم» أيام حكومة بنيامين نتنياهو وذلك لإظهار رفض الاتحاد الأوروبي وإدانته لسياسة الإستيطان الإسرائيلية. ولم يكن رجال الشرطة وبتعليمات من نتنياهو بإزعاج وزير الخارجية البريطاني وإنما ألغى ذلك النتنياهو مآدبة عشاء مقررته تكريماً للوزير.

هذه التصرفات، التي تتسم بما يجوز إعتباره قلة أدب وفضاضة وعجرفة من جانب المسؤولين الإسرائيليين مع مسؤولين يمثلون دولاً كبرى، تدعو إلى الإستغراب. وتزيد من الإستغراب هذه الروح الرياضية التي تتعامل بها الدول الكبرى مع تلك التصرفات، وكيف أنه بدل تلقين المسؤولين الإسرائيليين دروساً في أصول التعامل وفي معرفة الحدود، فلا يتجاوز المسؤول الإسرائيلي حدوده ويعرف أن حجمه لا يعطيه القدرة على أن يتعامل بهذه الطريقة مع من هم أسياده والذين من دونهم ما كان للدولة العبرية أن تقوم، ولا مخاطبتهم بهذا الأسلوب اللفظي الذي يفنر إلى الادب، فضلاً عن أن المؤلف هو أن الكبار هم الذين يوقعون القصص والتأنيب بالصغار وليس العكس.

الخطب الرئاسية بعد خطاب سابق للرئيس روزفلت. وفي ضوء هذا الواقع فإن خطط سياحة العرب والإبتعاث الجامعي والطبابة الخارجية ونوعية الإستثمار ستشهد إستدارة ملحوظة بعد الآن وفي إنتظار أن يستقر جواز السفر العربي الذي ما أن يشهد بعض الإستقرار والتهيب حتى تباغته أفعال بعض المغامرين فتضطرب الأحوال وتتحسر أجواء الطمأنينة وكأنما مكتوب على هذا الجواز ألا يستقر. وفي الإستدارة الملحوظة المحتملة المشار إليها يبدو لبنان ومصر ببعض الجامعات التي فيهما وبالذات الجامعة الأميركية، وفرص الإستثمار المتوفرة فيهما، فضلاً عن الإمكانيات العلاجية والسياحية والترفيهية، بديلاً مؤقتاً وربما بديلاً دائماً وذلك على أساس بدهية خلاصتها أنه في النهاية لا كرامة للعربي إلا في بلده. وعندها يصح القول الشاعر: مصائب قوم عند قوم فوائد.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 26 سبتمبر (أيلول) 2001

* * *

الروح الرياضية في مواجهة قلة الأدب

في الوقت الذي كان فيه وزير خارجية بريطانيا جاك سترو يبدأ في طهران يوم الإثنين 24-9-2001 الماضي زيارة إلى إيران، هي الأولى يقوم بها وزير خارجية بريطاني منذ قيام الثورة عام 1979 ويلقى فيها إستقبالاً راقياً ويسمع من رئيسها محمد خاتمي كلاماً موضوعياً وتحليلاً منطقياً للوضع العام في منطقة الشرق الأوسط وفي العالم عموماً في أعقاب العملية الترويجية في نيويورك وواشنطن يوم 11 سبتمبر (أيلول) الماضي، فإن رئيس وزراء إسرائيل أرييل شارون الذي يضايقه مثل هذا الإنفتاح المتبادل بين إيران وبريطانيا كان في تل أبيب يرصد تحرك الوزير البريطاني ويراقب كل كلمة تصدر عن هذا الوزير. وعندما سمع قوله خلال مناقشة مع خاتمي حول مسببات ظاهرة الإرهاب «إنني أتفهم أن أحد العوامل التي تساعد على تغذية الإرهاب هو الغضب الذي يشعر به العديدون من السكان في هذه المنطقة إزاء الأحداث التي تقع على مدى سنين في فلسطين...»، فإن شارون قرر أنه لن يستقبل الوزير البريطاني الذي

ولقد فوجئنا وإلى درجة التعجب بأن الروح الرياضية وصلت إلى حد أن رئيس الحكومة البريطاني توني بلير إتصل بشارون وبعد الإصال أعاد هذا الأخير النظر في القرار الذي كان قد إتخذه وقضى بتأديب وزير خارجية البلد الذي لولا وعد وزير خارجيتها السيئ الذكر بلفور، لما كانت هنالك دولة اسمها إسرائيل، ولكانت فلسطين التي إحتج شارون لأنها وردت بشكل عفوي على لسان سترو بدل «السلطة الوطنية الفلسطينية» دولة قائمة الآن وذات سيادة وتمتد من الجليل إلى غزة بعد أن يكون شملها الجلاء البريطاني، على نحو ما حدث لليمن الجنوبي والأردن ومصر والسودان والعراق وليبيا في الأربعينات والخمسينات عندما كانت بريطانيا تستعمر هذه الدول وغيرها وحدث المد الإستقلالي بهمة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ومعاركه ضد الإستعمارين البريطاني والفرنسي، وهي معارك أثمرت إستقلالات حقيقية قبل أن تنتكس جزئياً بعد ذلك.

وبصرف النظر عما إذا كان بلير قد إعتذر من شارون على تصريحات وزير خارجيته خلال وجوده في إيران فقرر هذا الـ «شارون» العفو عن وزير خارجية بريطانيا، أو أن عنجهية شارون أرضاها مجرد الإتصال وبذلك منح جاك سترو «بركاته»، فإن الواقعة في حد ذاتها تعكس غرابة هذه الروح الرياضية في التعامل مقابل قلة الأدب. الروح الرياضية من جانب دول مثل بريطانيا وفرنسا تبدي من التسامح مع إسرائيل ما ترفض ان تبديه مع آخرين. وقلة الأدب من جانب رؤساء حكومات إسرائيلية يظنون أنفسهم بأهمية حكام الدول العظمى وأن هذا الإستعلاء المصطنع يعطيهم حق التجاوز لكل الأعراف والأصول.

ونجد أنفسنا هنا نتساءل: أليس من الطبيعي أن يكون وزير خارجية بريطانيا على درجة من الفطنة والكياسة عندما يقوم بزيارة إلى دولة إسلامية كبرى مثل إيران، منهيماً بذلك قطيعة بدأت مع قيام الثورة عام 1979 وإستمرت إلى عام 1998 عندما إستأنف البلدان العلاقات التي عكرها مهووس يدعى سلمان رشدي وتبتهت بريطانيا متأخرة إلى شر تفكيره وسوء مسلكه وأي ضرر ألحقته أفكار ضحلة وردت في كتاب له بالعلاقة البريطانية - الإيرانية؟ ثم أليس من الطبيعي أن وزير خارجية بريطانيا عندما يقوم بهذه الزيارة والتي هدفها تسويق الرغبة الأميركية -

البريطانية - الإسرائيلية في تجميع دول مهمة في العالم في صيغة تحالف ضد الإرهاب وتغطية الإجراءات الحربية في هذا الشأن، أن يقول وهو في إيران وفي شأن الموضوع الأساسي الذي هو الصراع العربي - الإسرائيلي كلاماً يبرر ما يريد التقدم به كمطلب من إيران؟ والجواب عن ذلك انه طبيعي جداً علماً أنه بالعبارة التي وردت في تصريحه قال الحد الأدنى الذي يجب أن يقوله، لكن رغم ذلك إعتبر شارون أن الوزير البريطاني خرج عن الخط العام وإقترب من النقطة الحمراء التي تتلخص في أن ذكر فلسطين من المحرمات وأن ما يريده شارون هو ما يجب أن يؤخذ به! ويا ليت الأصدقاء الإنكليز شاهدوا على الفضائيات الطريقة المهينة والإستعلائية التي إستقبل بها شارون، وكأنما هو أمبراطور زمانه، وزير خارجية بريطانيا التي - لا سامحها الله - ابتدعت عندما كانت عظمى، وبمثل أميركا قبل 11 سبتمبر الماضي، الكيان المصطنع الذي بات اسمه إسرائيل.

إلى متى سيبقى هذا الوضع الشاذ؟ وحتى متى ستبقى دول كبرى مثل بريطانيا وفرنسا تتقبل مثل هذه الإهانات تأتيتها من أشخاص يمتنون قلة الأدب في التعامل ولا يؤمنون بالسلوك القائم على الأصول فلا ترد عليها بحزم وإنما بروح رياضية وهو ما لا تفعل مع دول أخرى حتى إذا جاءتها من هذه الدول ملاحظات هي دون الإهانات الإسرائيلية بكثير؟

ويبقى أن هذه المسلكية من جانب شارون والتي تتسم بقلة الأدب وعدم إحترام الأصول، والتي برزت مسلكية ننتياها من قبل، لا تبرر ما يفعله شارون مع الرئيس ياسر عرفات الذي يوجه إليه الإهانة تلو الإهانة وبالذات ما يتعلق باللقاء بينه وبين وزير الخارجية شيمون بيريز. ولولا أن هذا الأخير من النوع الذي جعله المنصب يتقبل أي إهانة لكان الرئيس عرفات بدا وحيد زمانه في هذا الكم من الإهانة والإستهانة يلحقها به هذا السفاح الذي لم يدمر رئيس حكومة إسرائيلية علاقة الولايات المتحدة بالعالمين العربي والإسلامي كما دمر وتفنن في التدمير، ولكن الرئيس عرفات هو واحد من مجموعة يتلاعب بهم شارون هادفاً من كل ملعوب مع أحدهم إلى غرض معين. وكل هذه الأغراض تصب في الهدف الرئيسي الذي هو تدمير العلاقة الأميركية أولاً والعلاقة الأوروبية إذا أمكن، مع الدول العربية والإسلامية. وأيضاً وضع المزيد من الأسافين في طريق اللقاء الذي

طال إنتظاره وكثرت تأجيلاته ومعوقات وحجج عدم إتمامه بين الرئيس بشّار الأسد والرئيس ياسر عرفات... وهو اللقاء الذي من شأنه إنقاذ ما يمكن إنقاذه وتعطيل ما يجب تعطيله من محاولات تصفية للقضية الفلسطينية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 3 أكتوبر (ت) 2001

* * *

لبنان: تأجلت قمة الأصدقاء...

البركة بقمة الأشقاء

قضي الأمر الذي كان الأخذ والرد قد كثر في شأنه لدى بعض المعنيين في لبنان في ما يتعلق بالقمة الفرنكوفونية التاسعة التي كان مقرراً عقدها في لبنان من 26 إلى 28 أكتوبر (تشرين الأول) الجاري. وقبل أمس (الاثنين 8 أكتوبر) تم الإعلان في صيغة توافقية عن تأجيل إنعقاد هذه القمة سنة، وهو تأجيل من نوع يثير الإستغراب وذلك لأن التأجيل عادة يكون لبسعة أسابيع تنتهي بعدها موجبات التأجيل وليس هناك أسباب موجبة للمزيد من التأجيل.

المهم أن التأجيل حدث. وجاءت الصيغة التوافقية في الإعلان عنه ترضي بعض الشيء لبنان. وهي صيغة ما كانت لتأتي على النحو الذي أتت عليه لو أن الأمين العام للمنظمة الفرنكوفونية ليس الدكتور بطرس غالي المتعاطف مع لبنان، الراغب بصدق في أن يخدم لبنان الحريري وفرنسا الشيراكية بالذات، والذي كان يتطلع إلى تتويج ولايته الأولى كأمين عام للمنظمة بقمة تترجم رؤيته الفكرية التي تتقدم فيها الفرنكوفونية على العروبية.

لقد صدم الفرنكوفونيون في لبنان بحديث الإتجاه إلى التأجيل، بعدما كانوا صدموا بحديث التمثيل دون مستوى القمة أو المقاطعة من جانب بعض الدول الأفريقية التي قيل إن تعاطفها مع العقيد معمر القذافي رداً على موقف رئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بري وما يمثله على الصعيد المذهبي من ليبيا ورئيسها وهو موقف تصادمي، هو الدافع إلى المقاطعة في الحد الأقصى وخفض التمثيل في الحد الأدنى. ولاحظ الفرنكوفونيون أن الحديتين جاءا في وقت اكتملت فيه الإستعدادات اللبنانية لإستضافة القمة وقبل أسابيع من

إضطراب الأحوال الدولية بسبب العملية الترويحية التي إستهدفت نيويورك وواشنطن يوم 11 سبتمبر (أيلول) الماضي وما أعقب العملية من تداعيات. وفي البداية إستطاع الفرنكوفونيون تطوير الحديتين المشار إليهما، لكن يبدو أن ثمة بعض القوى الدولية الخفية كانت تتشبط في الكواليس من أجل ألا تتعقد هذه القمة في لبنان. ثم وجد لبنان نفسه في الساحة وحيداً، ليس قادراً على إقناع الفرنكوفونيين بعدم التأجيل ولا بعدم تخفيض مستوى التمثيل، وليس في إستطاعة الأمين العام بطرس غالي المتعاطف لأسباب عامة ووجدانية أن يفعل سوى الإتصالات مرفقة بالتمنيات. كما أن لبنان إعتبر أن الإستسلام للإتجاه القاضي بالتأجيل يشكل إنتكاسة له، ومن هنا تزايد التركيز على الإعلان بأن لبنان مستعد تنظيمياً وأمنياً لإستضافة القمة الفرنكوفونية وأنه إذا كان لا بد من التأجيل فلتعلن ذلك الأمانة العامة وليس هو الذي سيطلب من الدول الأعضاء التأجيل.

أخيراً نطق الدكتور بطرس غالي تأجيلاً كان لا يتماناه، وصاغ قبل 18 يوماً من الموعد المتفق عليه لإنعقاد القمة بياناً ينعى فيه الحلم اللبناني المنتظر، وجاء البيان من نوع ما قل ودل. ومن المؤكد أن الدكتور بطرس إعتد الميزان التعاطفي في إختيار الكلمات وجاء البيان توافقياً، أي بما معناه أن لبنان تمنى على الأمين العام التشاور مع رؤساء الدول والحكومات الأعضاء في المنظمة في موضوع القمة وأن الأمين العام قام بالمطلوب وتبين له ان الجميع من دون إستثناء يرغبون في التأجيل سنة واحدة وعلى هذا الأساس فإن لبنان كان متجاوباً مع رغبة وليس ساعياً إليها. ويصعب الجزم بما إذا كان الرؤساء أكدوا لبطرس غالي أن القمة التاسعة باتت حقاً لبنانياً وأنها ستعقد بعد عام في لبنان، أم أنه بحكم ميثاق المنظمة وإستنتاجاته وإجتهاداته أعلن ذلك، وأعلن أيضاً أن نشاطات الفرنكوفونية من معارض كتب ورسم وطبخ ومسرحيات ستستمر طوال العام المؤجل وإلى حين يحل خريف العام 2002 ويتوج الرؤساء بحضورهم هذه الفعاليات.

يحزن المرء لهذه الإنتكاسة التي كان يعلق عليها لبنان الأمل الكبير من حيث أن إنعقاد قمة يشارك فيها رؤساء 55 دولة أو من يمثلهم كان سيشكل إختباراً لقدرة هذا البلد الصغير على أن يصبح بلد المؤتمرات الدولية. وكان بهذا الحضور الدولي على أرضه

سيشكل أداة ضغط على إسرائيل، هذا فضلاً عن تباينه بأنه على رغم استمرار إسرائيل في إحتلال بعض أراضييه وعلى رغم التحليق الروتيني اليومي للطائرات الإسرائيلية في الأجواء اللبنانية من الجنوب إلى بيروت إلى البقاع إلى الشمال وخرق هذه الطائرات المعادية لجدار الصوت وهو نوع من الإرهاب البارد، فإن ثلث دول العالم تستضاف في عاصمته وتعدّ قمة يشكل التعايش بين الأمم والتبادل الثقافي والفكري عناوين لها، بينما لم تستطع إسرائيل خلال نصف قرن إستضافة مثل هذا التجمع الدولي بإستثناء ما حدث في جنازة اسحق رابين رئيس الوزراء الذي قضى إغتيالاً وشارك بعض حكام العالم في تشييعه.

وإلى ذلك إن هذه القمة لو لم يباغتتها قرار التأجيل كانت ستحقق نجاحاً ملحوظاً وكانت ستبدو بمثابة قمة الوفاق الممكن وأمثولة برسم القوى والاتجاهات الشريفة التي ترفض أن يسود السلام على الارض وتغمر نفوس الناس المسرة.

الخاسرون من تأجيل هذه القمة كثيرون. في طليعة الخاسرين لبنان الحريري الذي أفسدت له العملية الترويجية في نيويورك وواشنطن يوم 11 سبتمبر الماضي فرصة أن يضيف إلى سجله الرئاسي انه إستضاف قمة لمنظمة تمثل 55 دولة أرادها صديقه الرئيس جاك شيراك هدية من نوع جديد له تتعزز من خلالها مكانة لبنان على الصعيد العربي والإقليمي ويتعزز في الوقت نفسه حضوره الدولي فيوظف المكانة والحضور من أجل إيجاد حلول لقضاياها وأزماته العالقة على الصعيدين السيادي والمالي. ومن الخاسرين الدكتور غسان سلامة وزير الثقافة في حكومة الحريري الذي كان يتطلع في ضوء نجاحه الباهر في إنجاز التحضيرات التنظيمية لهذه القمة وخلو حضوره الوزاري وأسلوب عمله وتوازن علاقاته مع القوى والاتجاهات السياسية والمذهبية والفكرية في لبنان من أي تحفظات، إلى مكافأة تفضيها القمة الفرنكوفونية التاسعة في حال أنها لم تتأجل وحققت النجاح المرجو، وهي أن يكون هو الأمين العام لهذه المنظمة خلفاً للأمين العام الحالي الدكتور بطرس غالي الذي جاء تأجيل القمة في لبنان لمصلحة التمديد سنة جديدة له.

هذا على صعيد الخسارة السياسية والمعنوية والشخصية للبعض. أما على الصعيد المالي فإن تأجيل القمة أصاب شرائح عريضة من اللبنانيين

وبالذات بعض أصحاب الفنادق وشركة طيران الشرق الأوسط بإحباط ثقيل إذا نحن قسناه بالأرقام نجد أنه يصل إلى حوالي ثلاثين مليون دولار، وهو رقم ليس كبيراً قياساً بالخسارة الشاملة الناشئة عما أصاب المنطقة عموماً من جراء العملية الترويجية يوم 11 سبتمبر الماضي وعما يمكن أن يصيبها من جراء الحرب على الإرهاب التي ما زال الإعتقاد على رغم كل التطمينات الرسمية ومن جانب مراجع سياسية عربية ودولية، بأنها لن تقتصر على أفغانستان وأن لبنان من بين السنتين دولة التي «يطمئننا» الأصدقاء الأميركيين بأنها تحت المجهر وبرسم التصويب.. أي تصويب؟ لا ندري. ولكن في التحرك الدؤوب لرئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري، وبالذات زيارته المتكررة لإيران وإتصالاته التي لا تنقطع ببعض أهل الحكم هناك، ما يجعل المرء الذي كان لا يتمنى تأجيل القمة الفرنكوفونية، يخشى من الأعظم على لبنان، وعلى الإستقرار في المنطقة. كما أن المرء يتمنى بعد نسخة التأجيل الفرنكوفوني أن تكون القمة العربية الدورية الثانية في مارس (آذار) المقبل مبروكة وتعوض لبنان ما فقده، وبحيث تساعد قمة الأشقاء العرب الشقيق اللبناني ما خسره من تأجيل قمة الأصدقاء الفرنكوفونيين.

هل يحدث ذلك؟ عسى ولعل... ووقانا الله الصواعق الدولية والمفاجآت غير السارة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 10 أكتوبر (ت) 2001

المستبعد الذي صار وارداً .. مسحة

عروبية في «حزب الكتائب»!

...وهذا صاحب قلم طالما إبتكر الصيغ المتميزة للشعارات السياسية، يأخذ فرصته على صعيد المسؤولية القيادية في السن الذي هو قمة النضوج. إنه زميلنا المحامي كريم بقرادوني الذي طالما لمس قراء صفحة «الرأي» في «الشرق الأوسط» تناوله للقضايا العربية بروحية ليست هي تماماً روحية عقيدة حزب «الكتائب» الذي إنتسب إليه في الستينات وتدرّج فيه من رئيس مصلحة الطلاب للحزب على مدى ثلاث سنوات إلى رئيس لهذا الحزب في إنتخابات مثيرة

للجدل جرت يوم الخميس 4 تشرين الأول (أكتوبر) الجاري قاطعها الورثة وشارك فيها الذين يرون أن الإقطاع الحزبي، إذا جاز القول، إنتهى بوفاة الرئيس التاريخي للحزب الشيخ بيار الجميل وأن الرئاسة بعده يجب أن تكون لمن تتوفر فيه صفات لا بد منها لكي يبقى هذا الحزب على قيد الحياة ومنها إعادة النظر في المنهج وفي الأسلوب وفي مخاطبة العرب والتعامل مع القضايا العربية.

جاء إصرار كريم بقرادوني على مواصلة ترشيح نفسه رئيساً من «عامة الجمهور الكتائبي» وليس من حاشية بقايا حقبة الإقطاع التي يمثلها رئيس الجمهورية الأسبق الشيخ أمين الجميل الابن البكر للشيخ بيار، بعد مباركات محلية من بينها مباركة بطريرك الطائفة المارونية الكاردينال نصرالله صفير ورئيس الجمهورية العماد اميل لحود وإرتياح الحكم السوري إلى شخص بقرادوني وإقتناع القاعدة الكتائبية بأن الحزب لم يعد عملياً حزب الطائفة المارونية بل إنه بات الحلقة السياسية الأضعف في هذه الطائفة، وعلى هذا الأساس بات لا بد من قيادة ذات رؤية مختلفة متفهمة للمحيط الذي حولها وتوظيف هذه الرؤية بما يجعل الحزب يتطور ويكون له حضور مثل بقية الأحزاب في لبنان.

وهذه العوامل التي أوردناها لم تأت فجأة، وإنما كان كريم بقرادوني يسعى من أجل بلورتها منذ أن سقط الرهان الذي بنى الشيخ بشير الجميل الرجل الأقوى في الحزب ثم في التركيبة المعدلة التي عُرفت بـ «القوات اللبنانية» الأمل الكبير عليه. وبإغتيال الشيخ بشير الجميل وتناثر «حزب الكتائب» و«القوات اللبنانية» معه قرأ بقرادوني المستقبل بقلب مفتوح وعين بصيرة ونظرة واقعية. وبدأ ينشط على أساس انه «الشخص المنقذ» الذي سيضع الحزب في مدار جديد من الحضور الفاعل خصوصاً أن المانع الأول إنتهى بإغتيال الشيخ بشير، ثم إزداد الفراغ اتساعاً بوضع الدكتور سمير جعجع في غرفة من الغرف السفلية المعزولة في مبنى وزارة الدفاع قيد الاعتقال أو قيد الحماية له أو قيد التأديب أو قيد تذيب هالته التي تجاوزت الحدود في مرحلة دقيقة من مراحل إنتقال لبنان من حالة الإقتتال إلى الشرعية بالتدرج. وعندما تأمّن لبقردوني منصب نائب رئيس للحزب عام 1995 بعدما كان شغل منصب الأمين العام قبل ذلك لمدة ثلاث سنوات، بات هاجسه الأساسي تهيئة مسألة

التوريث وإقناع القاعدة الكتائبية بها. وهذا يكون بقطع الطريق على الوريث الشرعي الوحيد الذي هو رئيس الجمهورية الأسبق أمين الجميل الذي كان إنتزاع زعامة الحزب من «جمهور العامة» وإعادته إلى الورثة الأصليين أحد أبرز دوافع عودته إلى لبنان من منفاه الإختياري بباريس، خصوصاً أنه بات من دون موقع قيادي له بينما هو ما زال في عز الحيوية وإمكانية العطاء. وإلى ذلك إنه يريد إذا جاز التعبير أن يكون الجسر القوي الركائز الذي يسير عليه مطمئناً وواثق الخطى بيار الجميل الحفيد (أي نجل الشيخ أمين) الذي حقق، بفوزه في الإنتخابات البرلمانية قبل بضعة أشهر، خطوة أولية على طريق إستعادة الحفيد لإرث الجد وبما في ذلك من أثر وجداني على أساس أن الشيخ بيار الحفيد يحيي مجد الشيخ بيار الجد. وهو حلم مشروع في المنطق المألوف للعائلات السياسية وبالذات الحزبية في لبنان حيث يتم التوريث تلقائياً على نحو ما حدث في «الحزب التقدمي الاشتراكي» عندما ورث الابن الوحيد وليد زعامة الحزب في أعقاب إغتيال والده كمال جنبلاط، وأيضاً عندما ورث كارلوس اده منصب رئاسة حزب «الكتلة الوطنية» بعد وفاة عمه ريمون اده الذي لم يتزوج وبذلك آلت زعامة هذا الحزب الأقل أهمية من «حزب الكتائب» على الصعيد التنظيمي والشعبي والذي يعوّض هذا الأمر بالسمعة الطيبة التي أكتسبها في أوساط اللبنانيين بشتى طوائفهم، حيث انه لم ينغمس في أحوال الحرب اللبنانية ولم ينشئ ميليشيا خاصة به وإستمر عميده ريمون اده على مبدئيته وعلى إحترام الجميع له حتى وفاته في باريس. وبعد مواراته الثرى في بيروت وجد جمهور حزب «الكتلة الوطنية» أن تكريم العميد الراحل يكون بوضع كارلوس اده ابن شقيقه الراحل بيار على رأس الحزب وبهذا الإختيار يفسح الكتليون المجال أمام أن يصل ريمون اده الصغير نجل كارلوس ذات يوم، بعد عمر طويل لوالده، إلى أن يتأسس الحزب ويكون لهذا التروّس فغل وجداني خصوصاً إذا أخضع كارلوس اده إبنه لتربية لبنانية تبدأ بتثقيف إبنه عربياً وعروبياً وبحيث يصبح في مجال التحدث والخطابة والنطق العربي الفصيح والإحاطة بالهموم والإهتمامات العربية ماضياً وحاضراً، بمثل ما هو عليه كريم بقرادوني الذي كان الثاني بعد السياسي الراحل خاتشيك بابكيان الذي يعطي فكرة طيبة عن مدى غوص الأرمني في البحر العروبي كلغة وكإهتمام.

وإذا كان المرء لا يشقى في معرفة أن بابكيان أرمني فإن الذين لا يعرفون أصول كريم بقرادوني ينتابهم الشك في أن هذا المثقف المتميز هو من الطائفة الأرمنية في لبنان، ذلك أن اسمه لا يوحي بذلك وهي خدمة أسداها إليه والده عندما إختار له هذا الإسم (كريم) وهي بمثل الخدمة التي أسداها بقرادوني إلى إبنه عندما إختار للبكر إسم (جهاد) ولإبن الثاني إسم (جواد) وكما لو أن «أبو جهاد بقرادوني» كثير التيقظ ومبكراً إلى ضرورة أن تلعب التسمية دوراً في الحياة السياسية العامة، وربما تأثراً منه بالشيخ بشير نفسه الذي إختار لإبنه إسماً مشتركاً هو نديم ولأبنته إسماً مشتركاً أيضاً هو يمنى.

بات كريم بقرادوني بعد طول تأهيل من جانبه للنفس وتخطيط حاذق لما يمكن الحصول عليه، أول أرمني لبناني لرئاسة «حزب الكتائب» في لبنان ومن دون أن يكون الأرمن من أعضاء هذا الحزب مبقين على إنتمائهم في شكل عام إلى «الطاشناق» الذي هو حزب اليمين و«الهانشاك» الذي هو حزب اليسار ولا حتى إلى «الرامفغار» الذي هو حزب النخبة الأرمنية التي أفرزت وجوهاً أرمنية من الجنسين تتكلم اللغة العربية كأحد أبنائها وتعيش الهموم العربية وكأنها متحدرة من الجزيرة العربية وتجري حوارات بالعربية تبثها محطات التلفزيون والفضائيات المحلية. وبالنسبة إلى كريم بقرادوني فإنه أثر البقاء «بقرادونيا» وخارج التقليد الذي يقضي بأنه لا خيار أمام الأرمني بشكل عام إلا أن يكون «طاشناقياً» أو «هانشاكياً» أو «رامفغاريّاً». وعملياً أنه كان في كل الحالات ظاهرة إستثنائية. وهو بوصوله إلى رئاسة «حزب الكتائب» في لبنان حقق عدة أمور لافتة في الوقت نفسه: قطع الطريق وربما لفترة طويلة أمام «الرئاسة العائلية» للحزب إلا إذا كان ضمن لعبة الصراع التي يستسيغها يمكن أن يهيئ الأرضية لوصول الحفيد الآخر للرئيس التاريخي (أي نديم نجل الشيخ بشير) إلى سدة الرئاسة بعد أن يكون الحفيد اليافع بات مؤهلاً لشغل هذا المنصب. وبهذه اللفتة يكون بقرادوني رد الجزء الأكبر من الدين الذي في ذمته للرجل الذي تحت جناحه تألق كريم بقرادوني. كما أن بقرادوني بوصوله إلى رئاسة الكتائب يرسخ التقليد الذي يقضي بأن افراد «جمهور العامة» يمكن أن يرأسوا ونقول ذلك على أساس أن الرئاستين السابقتين، رئاسة المرجوم الدكتور جورج سعادته ورئاسة منير الحاج للحزب، حدثتا بفعل

وفي ضوء ذلك، فإن كريم بقرادوني بعدما حقق للشرعية اللبنانية بمثلثها (رئاسة الجمهورية والجيش والقضاء) ما تتطلع إليه وجعل الضوء الأخضر هو الوحيد المضاء أمام العلاقة الطيبة مع سوريا.. يبقى عليه أن يعتذر بإسم «حزب الكتائب» للفلسطينيين عما لحق بهم من جرّاء الإجتهد الكتائبي الخشن والحاقد عليهم بدءاً من منتصف العام 1975 عندما إندلعت شرارة الحرب عليهم، وبذلك تصفو القلوب بعض الشيء ويصبح من اليسر بمكان إزالة ما تبقى من الشوائب. كما يبقى عليه أن يجترح المعجزة التي بموجبها يمكن أن تصطف على يمينه أو على يساره وجوه لبنانية من غير الطائفة المسيحية وبذلك لا يعود حزب «الكتائب اللبنانية» حزباً مسيحياً متعصباً عازلاً نفسه بالإختيار معرّضاً نفسه للعزل في الأيام الصعبة، وإنما حزب علماني يؤمن بالتعددية والتنوع المذهبي من القاعدة إلى القمة ويسعى إلى ذلك بكل الإقتناع والإيمان الحقيقي بصيغة ميثاق 1943 وليس بجزء منها وهي الصيغة التي تشكل الروحية لإتفاق الطائف الذي أقر كريم بقرادوني قراءته.

من بعد كريم بقرادوني من أهل القلم سيصل إلى الموقع الرسمي الفاعل؟

المؤهّلون كثيرون. وتجربة البعض أمثال غسان تويني ومحمد حسنين هيكل ومحمد محجوب سليمان والدكتور محيي الدين عيمور وغازي العريضي وإسماعيل الحاج موسى وغسان سلامة ونبيل الحمر

ومروان حمادة وعلي الدين هلال وصالح القلاب.. تؤكد الحاجة إلى أن يخوض القلم الميدان في الدواوين الحكومية.. وليس فقط على الورق.

كان لافتاً أن مقالتي المعنونة «مسحة عروبية في حزب الكتائب» قوبلت بمقالة لكل من الأستاذ كريم بقرادوني رئيس حزب الكتائب في مرحلة إرتباك عاشها الحزب، وأخرى من الدكتور محيي الدين عميمور الدبلوماسي والكاتب الجزائري المرموق، أي تعليق مشرقي وآخر مغاربي. وقد أضفى الكاتبان العزبان (في صفحة «الشرق الأوسط» على الفكرة التي عالجتها في مقالتي في شأن النكهة العروبية لحزب الكتائب المتفلق لبنانياً ومسيحياً، المزيد من التنوير.

تعليق كريم بقرادوني ومحيي الدين عميمور على المقالة

الكتائب والعهد الجديد (تعليق الدكتور محيي الدين عميمور في صحيفة «الشرق الأوسط» عدد 21 أكتوبر 2001)

أنا ممن يرون أن تسلم الأستاذ كريم بقرادوني لقيادة حزب الكتائب اللبناني هو حدث يستحق أن يتوقف المفكر عنده، لكي لا يضيع في زحام الأحداث الحقيقية والمفتعلة التي نعيشها منذ الحادي عشر من سبتمبر الماضي.

ويسجل للكاتب القدير الأستاذ فؤاد مطر أنه أوقفنا أمام الحدث، ورسم لنا، يوم الأربعاء الماضي، لوحة فنية للسياسي اللبناني الذي أدركته يوماً حرفة الأدب، كما كان يقال يوماً عن الكاتب، بعد نضال سياسي في ظروف بالغة الصعوبة، ثم تبوأ موقعاً سياسياً كان كثيرون لا يتصورون، منذ عشرينيتين على الأقل، إمكانية تربيته عليه.

وهكذا تولى رئاسة حزب الكتائب سياسي مثقف من خارج الأسرة التي أنشأت الحزب، لينهي المرحلة التي سماها فؤاد.. مرحلة «الإقطاع الحزبي».

وتتزايد أهمية هذا الأمر عندما يوضع في إطاره الجيوسياسي، خصوصاً بعد صعود قيادة شابة إلى سدة الحكم في سوريا، وبعد الأحداث التي عرفتتها بعض مناطق لبنان في إطار إعادة إنتشار القوات السورية (وهو تعبير مؤدب تعلمناه من إسرائيل).

حدث هذا في نفس الشهر الذي تولى فيه مسؤولية الأمانة العامة لجهة التحرير الوطني في الجزائر مناضل مثقف من خارج المجموعة التاريخية التي كان تداول السلطة على رأس الجبهة محصوراً فيها منذ إسترجاع الإستقلال، وهو رئيس الحكومة الحالي المحامي علي بن فليس.

وهكذا يمكن أن نتصور أن كلاً من الجزائر ولبنان يسيران، بالنسبة لواحد من أهم التشكيلات الحزبية على الساحة في البلدين، نحو مرحلة جديدة لها معطياتها الخاصة وتداعياتها المتميزة.

ولقد كانت صورة الجحيم اللبناني ماثلة دائماً أمام المناضل الجزائري خلال مرحلة عبور المحنة في التسعينيات، لدرجة أن كثيرين إنساقوا وراء المقارنات السهلة والإستنتاجات المتسرفة.

والواقع هو أن فهم أحداث العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين لا يمكن أن يتم بدون دراسة ما حدث في لبنان، ووضعها في الإطار العام لكل ما حدث على الساحة العربية منذ أكتوبر 1973.

وللتذكير أقول بأن عملية ترتيب الأوراق على الساحة العربية بدأت على وجه التحديد مع الإنتصارات العسكرية الرائعة لحرب أكتوبر على الجبهتين المصرية والسورية (والجبهة الأخيرة لم تأخذ حقها من الكتابات والدراسات كتلك التي عرفتتها الجبهة المصرية، والأشقاء في سوريا يتحملون مسؤولية هامة في هذا التقصير).

وسنلاحظ عند إستعراض شريط الأحداث أن نتائج عملية ترتيب الأوراق بدأت، بعد إنتهاء المرحلة العسكرية للحرب، بإعادة ضخ النفط في ما بدا إجهاضاً نهائياً لسلاح النفط، وهو ما كان يتخوف من آثاره الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز، الذي أصر على أن يسجل مطلب إعادة الضخ كتابياً، ليتحمل كل مسؤولياته أمام الوطن والتاريخ.

ويشهد عام 1974 إفتتاح قناة السويس بعد تطهيرها، ليكون ذلك هدية مجانية لأوروبا الغربية، التي أعفيت لوجه الله من عذاب الدوران حول رأس الرجاء الصالح.

وشهد عام 1975 نقلة نوعية في مسار التاريخ العربي، قد يرى فيها كثيرون نفس بصمات هنري كيسنجر، وبدأ ذلك بالإتفاقية الثانية لفك الإشتباك مع إسرائيل، والتي يمكن أن تعتبر الخطوة الأولى نحو كامب ديفيد.

لا أستطيع أن أحكم لبنان بنصف اللبنانيين وضد النصف الآخر».

ويستعرض بقرادوني، بكاء شديد وبأسلوب عذب قل أن يعرف في الكتابات السياسية العصرية، العلاقات اللبنانية - السورية، التي كان واحداً من أهم جسورها.

ويرسم الكاتب صورة بالألوان الطبيعية للزعيم اللبناني الراحل كمال جنبلاط بما يذكر الجزائريين بصورة المناضل حسين آيت أحمد، مع كل الفروق التي يمكن تصورها، كما يرسم صورة مقارنة لكل من الرئيسين المصريين جمال عبد الناصر وأنور السادات، ويستعرض صوراً عن العديد من الزعماء العرب واللبنانيين، ويصف وزير خارجية عربي بقوله: يوجد صنفان من الدبلوماسيين، الذين يريدون أن يكونوا شيئاً ما والذين يريدون أن يفعلوا شيئاً ما.

ونجد في الكتاب سطوراً يمكن أن تشرح، ضمناً، سبب طول الحرب الأهلية اللبنانية، ولعل من التعبيرات التي وقف عندها الجزائريون إثر انتخاب الرئيس الجزائري، إشارته إلى وضعية اللبنانيين عندما أمّنوا «بنجاح رئيسهم، ولما لم يُحمّله أحد مسؤولية نشوب الحرب، فقد أجمع الكل على إعتباره رجل السلم».

والكتاب لا يمكن تلخيصه في سطور قليلة، لكن المهتمين بدراسة مسيرة الكتائب في المرحلة المقبلة سيتوقفون عند الصورة التي رسمها بقرادوني للحزب في ص 111.

أما الكتاب الثاني فهو «لعنة وطن» والذي يستعرض المرحلة من حرب لبنان إلى حرب الخليج، ونجد فيه مقارنات طريفة بين غسان تويني وهنري كيسنجر.

وفيه وجد الجزائريون تعبيراً رائعاً منسوباً للرئيس السوري الراحل حافظ الأسد، عندما قال لأمين الجميل: «أثبت التاريخ أنه لم يتفكك كيان وطن وتوحد في ما بعد»، وموقفاً للرئيس اللبناني المغتال رينيه معوض، الذي وصل إلى اليقين بأن الخروج من المأساة لا يجب أن يقوم على غالب ومغلوب، بل على تسوية لا يخسر فيها الضعيف كل شيء ولا يربح فيها القوي كل شيء.

كتابان يؤكدان أن الرئيس الجديد لحزب الكتائب يعرف لبنان جيداً، ويعرف المنطقة جيداً، ويعرف المعادلات الدولية جيداً، ويعرف الممكن والمتاح.

وفي العام نفسه ينتقل الملك فيصل إلى رحمة الله إثر رصاصات غادرة، وتتطلق رصاصات أخرى في بيروت لتشعل الحرب الأهلية اللبنانية، وتقتعل رصاصات سياسية في المغرب العربي تؤدي إلى نشوء مشكل الصحراء الغربية ثم تفاقمه. وتختتم السبعينيات بالحرب العراقية - الإيرانية، التي تلتهم الثمانينيات، وتختتم هذه بالغزو العراقي للكويت، الذي أدى إلى اندلاع حرب الخليج الثانية، وإلى تشتت القرار العربي. خلال هذه الفترة كلها كنت أحاول أن أفهم ما حدث، بدون إنسياق أعمى وراء نظرية المؤامرة، ولكن بدون ترفع جهول يتجاهل مسؤولية الأطراف الأجنبية المستفيدة مما وقع.

وعرفت بقرادوني عن بعد خلال الفترة التي كنت أحاول فيها فهم إبعاد المأساة الجزائرية مقارنة بما حدث في لبنان، ومع إدراكي للفروق الشاسعة بين الوضعتين، أي وضعية حرب أهلية سافرة ووضعية إرهاب إجرامي يتستر وراء أقنعة سياسية.

وكان ذلك عبر كتابين هما قمة في الكتابة السياسية، وأقول عن يقين بأنهما لم يحظيا بما يستحقانه من إهتمام على الساحة العربية، وكان حصولي على الكتابين بفضل سفير لبنان السابق في الجزائر الأديب عبد المجيد قصير، الذي إستعاد لبنان مكانه ومكانته في الجزائر خلال التسعينيات، وأعاد إلى الأذهان سفيراً لبنانياً آخر احتفظ بمكانته في قلوب من عرفوه من رجال الطبقة السياسية في الجزائر، وهو المرحوم عبد الرحمن عدرة.

وإذا كنت أشير إلى الكتابين فلأنني أتصور أن كل سياسي عربي مدعو اليوم إلى قراءتهما ليستكمل «البورتريه» المتميز الذي قدمه فؤاد مطر عن كريم بقرادوني، وقد سعدت بمعرفته شخصياً في أحد المؤتمرات القومية التي شجدها العاصمة الليبية، ووجدت أمامي رجلاً يبدو كالشاعر الحالم، بما تناقض تماماً مع الصورة التي كنت كونتها عنه.

كان الكتاب الأول هو «السلام المفقود»، الذي يبدأ بالساعات الرهيبة التي تلت إغتيال الرئيس اللبناني المنتخب بشير الجميل، ثم يعود إلى بداية عهد الرئيس المظلوم الياس سركيس، الذي إفتتحه بتعبير تردد في ما بعد في ذهن صانع القرار الجزائري وهو يعمل من أجل المصالحة الوطنية التي لا تقصي إلا من أقصى نفسه بجرم مشهود.

أيامها قال سركيس: «يجب أن يفهم الجميع إنني

وكما سارعت منذ أسبوع إلى الرد على الصديق فؤاد مطر أراني أعلق هذا الأسبوع على ما جاء في مقال العزيز محيي الدين عميور، إعتقاداً مني أن العلاقة الفكرية هي أسمى العلاقات بين البشر.

يقارن عميور بين وصولي إلى رئاسة حزب الكتائب ووصول «المناضل المثقف» رئيس الحكومة الجزائرية علي بن فليس إلى الأمانة العامة لجبهة التحرير الوطني. ويرى أن ما يجمعنا أننا أننا «من خارج المجموعة التي كان تداول السلطة محصوراً فيها»، وقد تزامن وصول مثل هذه القيادات الحزبية غير التقليدية مع تسلّم قيادات شابة زمام الحكم في العالم العربي، كما هو الحال في سوريا والأردن والمغرب. وأنهى مقاله بالقول: «ما زلنا نتعلم من لبنان».

مقال الدكتور عميور غني بالطروحات العديدة، غير إنني أريد أن ألتقط طرحين: الأول يتعلق بالعلاقة بين الفكر السياسي والعمل السياسي، والثاني يعود إلى ما يمكن أن يقدمه لبنان إلى العالم العربي.

بادئ ذي بدء أشير إلى أن كل عمل سياسي يخلو من الفكر السياسي يمسي ظرفياً وفارغاً ورتبياً لا يقدم ولا يؤخر في صناعة الحدث والقرار. الفكر السياسي هو الدافع الأساسي للتجديد والتغيير. من دون الفكر السياسي يبقى العمل السياسي من دون أفق ومن دون مستقبل.

قد يجنح صاحب الفكر السياسي عن الواقع أحياناً، غير إنني أفضل هذا الجنوح الذي كثيراً ما يضبطه العقل والظرف على الخنوع لمقتضيات الواقع والإستسلام لأمره، فيسود نظام الطاعة، وهو النظام الذي يلف معظم أرجاء العالم العربي، حيث تتغلب قوى الإقطاع والمال والسلفية على قوى التحديث والتجديد والتغيير.

وفي ظل نظام الطاعة تحدث مواجهات صامتة حيناً وعلنية في بعض الأحيان بين أهل الثقافة وأهل السلطة، ويتم الإنفصام بين الفكر السياسي والعمل السياسي، ويقع الحاكم على مختلف المستويات في حالات العقم والتخلف والإستبداد، ولا يترك لأهل الفكر سوى واحدة من الطرق الثلاث: إما الإنصياع أو الإنعزال أو الإعتقال.

وفي مقارنة بين لبنان والجزائر تظهر مفارقة على صعيدي حركة الإستقلال وتطور المجتمع في البلدين.

ولقد أحسن فؤاد مطر صنعا وهو يشير إلى تولي مثقف قيادة حزب عريق، يجب أن يتأقلم مع المستجدات الدولية والجهوية حتى يتمكن من مواصلة دوره الوطني والجهوي. والمثقف، بشكل عام، قادر على إستيعاب الدور وتغيير أساليبه من دون الخلط بين الثوابت والمتغيرات، لكن الشرط الرئيس هو أن يكون حر الحركة طليق اليدين.

ولا أعرف إن كان بقرادوني سيواصل كتاباته المتميزة معنا، هنا أم سيحدث له ما حدث لصالح القلاب ولي، لكنني أتصور أن من أهم عوامل نجاحه في مهمته الجديدة وعي القاعدة الكتائبية التي ستمكنه من الخروج من فخ الطائفية أو الجهوية إلى آفاق أوسع، وربما كان هذا هو الدرس الذي يجب أن يفهمه الزعيم الجزائري آيت أحمد.

لكن على الزعيم الجديد أن يدرك بأن شوائب كثيرة ما زالت عالقة بالأذهان، ولا بد أن تؤخذ مخلفات السبعينيات والثمانينيات بعين الإعتبار، حتى لا يحمل الوطن العربي فوق ما يحتمل.

وأسجل هنا ما قاله فؤاد مطر من أنها المرة الأولى التي تكون دفعة القيادة الكتائبية فيها بين يدي شخص له حضوره السياسي على مدى ربع قرن، والذي «أسس مدرسة من مبادئها أن الصدام ليس هو السبيل، وأن العناد ليس هو الحل»، بالإضافة إلى المسحة العربية التي يؤكد فؤاد، والتي أتصور أنها أكثر من ضرورية ليجتاز كريم حدود الإقليمية إلى فضاء أمة تبحث عن نفسها، وليقوم بدوره كاملاً في خدمة بلده وأمتة. وما زلنا نتعلم من لبنان، والشكر والتحية لفؤاد مطر.

لبنان والكتائب.. والتعايش الإسلامي - المسيحي
(تعليق كريم بقرادوني في صحيفة «الشرق الأوسط»
عدد السبت 27 أكتوبر 2001)

بعد المقال الذي كتبه الصحفي اللبناني البارز فؤاد مطر في هذه الصفحة تعليقاً على إنتخابي رئيساً لحزب الكتائب اللبنانية تحت عنوان «مسحة عروبية في حزب الكتائب»، فوجئت بمقال آخر كتبه الإعلامي الجزائري المميز الدكتور محيي الدين عميور تحت عنوان «الكتائب والعهد الجديد». وبقدر ما سررت بالمقال الأول الصادر عن صديق أعرفه منذ زمن طويل، بقدر ما تأثرت بالمقال الثاني الصادر عن زميل لم تسمح لي الظروف بأن أعرفه عن كثب.

الحوار مع ما يتضمنه هذا الحوار من رغبة في الوفاق والتآخي والعيش المشترك.

وإختبر لبنان التجريبتين معاً. الأولى دمرته وتبين بأنها لا تصلح أساساً لبناء وطن، وهي توصل في أحسن الأحوال إلى إنشاء كانتونات طائفية تتقاتل في ما بينها بعيداً عن مفاهيم التآخي والتضامن والتكامل. ان تجربة «اللبننة العسكرية» لا تصلح نموذجاً للعالم العربي، فهي تضاعف من شرذمته بدلاً من أن تحفظ وحدته، وتزيد من عوامل ضعفه بدلاً من أن تزيد من عوامل قوته. أما التجربة الأخرى المتمثلة «باللبننة الثقافية» فهي ما يجب أن يقدمه لبنان نموذجاً للعالم العربي عبر تطوير آليات الوفاق والوئام والتعايش بين الأنظمة وشعوبها، مما يحيي القدرات والطاقات لمواجهة تحديات العالم الجديد وتداعياته.

حوار الأثنيات والأديان والحضارات هو نموذج الحل السلمي البديل عن الصدام الذي طرحه صموئيل هانتغتون. ويقف حزب الكتائب مع الحوار بين الحضارات وضد التصادم في ما بينها، ويدعو إلى حوار بين الأحزاب العربية على طريق الديمقراطية العربية.

إني لمدرّك ان صورة لبنان في العالم العربي مصابة بالكثير من التشویش، كما أن صورة الكتائب في العالم العربي تشوبها شوائب كثيرة، وأن نظرة العرب إلى الكتائب هي نظرة ريبة وتحفظ. وإني سأجهد لأبذل صورة لبنان والكتائب، ولأظهر حقيقتيهما التاريخية. لبنان هو رسالة تعايش، والكتائب هي الحزب الذي شارك في صياغة الميثاق الوطني في العام 1943 ووثيقة الوفاق الوطني في العام 1989 اللذين أسسا للتعايش الإسلامي - المسيحي. ويطمح حزب الكتائب ليكون في طليعة المسيحيين العرب ومن رواد النهضة العربية الجديدة.

ويبقى أنني أوافقك الرأي، يا أخي محيي الدين، أن العالم العربي ما زال يتعلم من لبنان، شرط أن يعي لبنان دوره ويحسن تقديم نفسه، كما أعاهدك بأني سأواصل الكتابة إلى جانبك وإلى جانب فؤاد مطر وكل الزملاء، فلا أسقط في تجربة الطلاق بين الفكر والعمل السياسي وأندم لاحقاً. وإني مؤمن أن الكلمة كانت في البدء... وستبقى.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 17 أكتوبر (ت) 2001

* * *

ففي حين نال لبنان إستقلاله عن الإنتداب الفرنسي بكلفة بشرية محدودة جداً وعبر إتفاق اللبنانيين الذي عرف «بالميثاق الوطني» في الأربعينات، فإن الجزائر دفعت ثمن إستقلالها عن فرنسا غالياً بواسطة جبهة التحرير الوطني التي قدمت أكثر من مليون شهيد. ولكن سرعان ما تحول الميثاق الوطني إلى مشروع حرب في لبنان إلى أن وعى اللبنانيون ضرورته فأعادوا صياغته مجدداً في الثمانينات، وتحولت ثورة الجزائر إلى مشروع حرب قد لا تنتهي إلا بمشروع الوئام الوطني.

الثورة إنتهت في الجزائر بحرب لأنها لم تحدث الإصلاح المطلوب من المجتمع. والوفاق إنتهى في لبنان بحرب لأنه لم يحدث الإصلاح المنشود. وهكذا تكون الحرب هي البديل عن الإصلاح، سواء في المجتمعات الثورية أم في المجتمعات التوافقية.

والحقيقة أن الثورات والحروب لم تفلح في تحقيق طموحات المجتمعات العربية وخصوصياتها. إنتهى زمن الثورات المسلحة وكان آخرها في لبنان المقاومة ضد الإحتلال الإسرائيلي، وقد يكون آخرها في فلسطين الإنتفاضة ضد إسرائيل. ومثلما إقتنع اللبنانيون أن خلاصهم من محتهم يأتي عن طريق الحل السياسي والوفاق الوطني فإعتمدوا صيغة إتفاق الطائف، عسى أن يفتتج الجزائريون اليوم قبل الغد بأن خلاصهم من محتهم يمر بالحل السياسي والوئام الوطني، ويتوصلوا إلى إتفاق «طائف جزائري» يناسبهم ويناسب خصوصياتهم.

وأفضل صيغة بديلة عن الثورات والحروب هي التي تمزج بين مبدأ التعايش الديمقراطي ومبدأ العدالة الإجتماعية. وأدعو في هذا السياق الأحزاب العربية على إختلاف أيديولوجياتها ونزعاتها إلى أن تتعاون من أجل إعادة صياغة ذاتها ومشاريعها وأنظمتها لتتلاءم مع مقتضيات التطور العالمي والإقليمي والداخلي، فتقدم إلى الشباب والمجتمع صورة عصرية وواعدة بدل أن تتسلح وتتحول إلى ميليشيات متناحرة في ما بينها أو معادية للنظام.

هذا في المبدأ. أما في التطبيق، فإني مقتنع بمشروع «اللبننة» كنموذج لحل النزاعات بين الأثنيات والأديان والحضارات بصورة سلمية. صحيح أن هناك وجهتي نظر تجاه لبنان: إما انه نسيج أقاليم محكومة بالصراع الطائفي مع ما يخفيه من بذور الإقتتال والتشردم والتقسيم، وأما أنه مزيج أديان محكومة بجدلية

أرييل شارون... عندما يهلع!

لا تبدو ملامح أرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل على نحو ما لاحظناه على شاشات الفضائيات يوم الأربعاء الماضي (2001/10/17) في أعقاب تلقيه نبأ تصفية وزير السياحة الإسرائيلي (المستقيل من دون قبول إستقالته) رحيبام زئيفي بأنها ملامح الحزن، إنما كانت ملامح الذي أصابه الهلع.

ونقول ذلك على أساس أن من كانت أساليب حكمه على نحو ما يفعله شارون منذ أكثر من سنة بالشعب الفلسطيني رداً على «إنتفاضة الأقصى»، ومن كان ماضيه بمثل ماضي شارون وبالذات ما فعله في مخيمي صبرا وشاتيلا في العاصمة اللبنانية... ان من كانت هذه أساليبه وذاك ماضيه لا يمكن أن يحزن. ودلينا على ذلك إبتسامات شارون الدائمة بعد كل عملية إغتيال أو تدمير أو قصف عشوائي أو تجريف، بل أن إبتسامته العريضة يوم جاءه نبأ تصفية الأمين العام للجبهة الشعبية أبو علي مصطفى في أغسطس (آب) الماضي، كانت بمثل إبتسامته يوم نجح قناص شاروني في قتل الفتى محمد الدرة في حضن والده الخائف على ابنه أكثر من خوفه على حياته، ويوم أبلغوه وهو يشرف على عملية إبادة الفلسطينيين سكان مخيمي صبرا وشاتيلا بأن العملية وبمساندة «مخلصة» من الشريك اللبناني كانت ناجحة مئة في المئة وأن أزمة المخيمين حافلة بأجساد النساء والأطفال والشيوخ من الفلسطينيين «الأنجاس» في رأيه لأنهم يتجرأون على أن يحملوا بالعودة ذات يوم إلى الوطن الذي إغتصبته العصابات الصهيونية بعدما تولى الإنجليزي بلفور تسهيل الأمر أمامها لكي تحذف فلسطين العربية من الخارطة وتُحل محلها دولة عبرية تضم أغرب تشكيلة من يهود العالم، ومن دون أن يخطر في بال اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا زمنذاك انه لم يستنبط حلاً وإنما زرع شتلة الغضب والحقد والمرارة، وها هي الشتلة باتت شجرة وارفة ثمارها فتية ونساء ورجال يرفضون الأمر الواقع العبري ويريدون وبكل الإصرار إستعادة الوطن كاملاً كمطلب طموح، أو جزءاً من الوطن الكبير كصيغة توافقية.

كانت الملامح التي لاحظناها على وجه شارون بعدما بلغه أن من ييزه تطرفاً ويزايد عليه في الحقد على الفلسطينيين رحيبام زئيفي قد لقي حتفه في عملية إغتيال نوعية نفذتها عناصر من «الجبهة

الشعبية لتحرير فلسطين» في ضحى النهار وفي أحد فنادق القدس المحتلة، الأمر الذي يعطي العملية مشروعية قانونية دولية، ملامح من أصيب بالهلع أكثر مما هي ملامح من شعر بالحزن. فالعملية جريئة. وهي ذروة التحدي للمناخ العدواني الشاروني السائد. وهي في بعض جوانبها عملية نفسية تعيد إلى الذهن الشاروني تلك العملية التي قام بها مجاهد فلسطيني إرتدى الزي الذي يرتديه اليهود المتدينون المتشددون وبذلك حققت العملية غرضين: غرض الأذى الذي أصاب بعض الإسرائيليين من جرائمها. والغرض النفسي حيث بات منظر أي مواطن يهودي متدين يسير في الشارع وفي أي مدينة من مدن فلسطين 1948 وفلسطين المحتلة بعد 1967 يثير الشك في نفس اليهودي مواطناً عادياً كان أو رجل أمن، حيث سيخطر في البال أن هذا الذي يسير في الشارع ربما كان من اليهود المتدينين وربما يكون «إرهابياً» فلسطينياً في طريقه إلى تنفيذ عملية جهادية. ويكفي مثل هذا الشعور لكي تضطرب أحوال الرأي العام الإسرائيلي عندما يبدأ اليهودي يساوره الشك باليهودي.

كما أن الذهن الشاروني إستعداد لمناسبة عملية تصفية وزير السياحة الإسرائيلي تلك العملية الجهادية التي نفذها «إرهابي» فلسطيني إرتدى زي الجنود الإسرائيليين ملحقاً الأذى المادي في صفوف الإسرائيليين وزارعاً الأذى النفسي حيث بات كل مدني وكل عسكري إسرائيلي إذا هما شاهدا جندياً في الشارع يظنانه «إرهابياً فلسطينياً» في طريقه إلى تنفيذ مهمة جهادية. ويمكن ملاحظة أهمية العملية التي إستهدفت أول وزير إسرائيلي وخطورتها بالنسبة إلى شارون لمجرد التأمل في رد الفعل الشاروني ثم في الإجراءات الشارونية التي تم إتخاذها على الفور وبالذات بعد إصدار «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» بيانها الذي تبنت فيه العملية وجاء فيه «من الآن وصاعداً سيكون كل المستوى السياسي الصهيوني هدفاً لمجموعاتنا الخاصة، وسنلقنهم دروساً مؤلمة كرد على جريمة إغتيال القائد أبو علي مصطفى وأكثر من ستين مناضلاً فلسطينياً، وأن الأسابيع المقبلة حبلية بالمفاجآت. وفي جعبة مجموعاتنا الخاصة الكثير من الأعمال النوعية ضد قتلة شعبنا ومن تمكّن من تصفية هذا السفاح، قادر أن يصل إلى رؤوس بقية الفاشيين الصهاينة...». ثم أضاف الناطق بإسم

الجهة ماهر الطاهر إلى هذا البيان، وبعدما كان الرئيس ياسر عرفات تجاوب مع الطلب الإسرائيلي وأصدر أوامره بتوقيف الذين نفذوا عملية التصفية، التصريح الآتي: «إن دماء أبو علي مصطفى غالية وغالية جداً. وقد أعلنّا ان إسرائيل ستدفع الثمن والآن هي دفعت جزءاً من الثمن. وكان يجب على القيادة الفلسطينية أن تضع أوسمة على صدور الأبطال الذين نفذوا العملية لا أن تأمر بتوقيفهم...».

ومن المؤكد أن ارييل شارون افترض أن كل أعضاء حكومته المصغرة التي تُصدر القرارات العدوانية الفورية وأوامر التصفية الجسدية للقيادات الفلسطينية وللنشطاء في حركة «حماس» وحركة «فتح» و«حركة الجهاد» ومن «الجهة الشعبية لتحرير فلسطين» وسائر التنظيمات الفلسطينية.. أن كل أعضاء تلك الحكومة بمن فيهم شارون نفسه ربما في ضوء تصفية ربحام زئيفي باتوا يرسم التصفية أيضاً، وأن الكثير من الحذر والتنبه والنظرة الجدية والإحتياطات الأمنية مطلوبة في ضوء كلام «الجهة الشعبية» من خلال بيانها وتصريح الناطق بإسمها والتنفيذ الدقيق للعملية النوعية، وليس المطلوب فقط الرد بشراسة وإطلاق الكلام التقليدي الذي يحمل الرئيس ياسر عرفات المسؤولية وهو تحميل ظالم في أي حال، ذلك أنه قبل تحميل عرفات المسؤولية والطلب منه ممارسة واجبه كرئيس دولة من الضروري تسهيل أمر قيام هذه الدولة أولاً وعند ذلك يصبح في استطاعة عرفات أن يصدر الأوامر بالإعتقال والسجن ومن منطلق أن الأمن القومي للدولة يتطلب ذلك. أما أن لا يحدث التسهيل المطلوب أمام قيام الدولة ولا يحدث الإجتماع معه إلا بعد سيل من الوساطات تسبقها أو تلازمها أنواع من الإعتداءات والتصفيات التي تعود بالكثير من الإحراجات على عرفات، وإذا حدث الإجتماع فإنه لا يتجدد، كما أنه إذا حدثت بعض اللقطة الإضرارية نحو الرئيس عرفات وسعيه في سبيل قيام الدولة وهو على قيد الحياة وفي كامل الصحة وصفاء الذهن، من جانب أميركا وبريطانيا لضرورات يفرضها التحدي الأفغاني، فإن ارييل شارون يحاول نسفها من الجذور... أما أن يحدث كل هذا، وفي ساعة الشدة الإسرائيلية يتم إلقاء التبعات على عرفات وتحميله المسؤولية ومطالبته بتأدية واجب من هو رئيس دولة بينما لا وجود للدولة، فإن في ذلك تعجيزاً ما بعده تعجيز وإفتعلاً شريعراً لتبهيث مكانة

الرجل بين الفلسطينيين، وكأنما لا يكفي ما أصابه من السهام التي لم تتكسر على السهام، وإنما نالت من رصيده وتاريخه الكثير.

ولا نعتقد أن الإحتياطات الإحترازية التي أمر بها شارون وهو في ذروة الهلع ستحمي وزراءه وبالذات أولئك الذين يقررون مبتسمين سعداء بالدم الذي سيسيل والدمار الذي سيحدث، العدوان والإغتالات بعدما إستطاع مجاهدون من «الجهة الشعبية» إغتيال أول وزير إسرائيلي وفي ضحى النهار. كذلك لن يحقق المزيد من العدوان الشرس الأمن والسلام للإسرائيليين الذين إزدادوا هلعاً بعدما وصل الفأس إلى الرأس... وإلى رأس من كان رمزاً للعنصرية المقيتة وكارهاً لكل ما هو عربي وفلسطيني ومسلم. ألم يقل ذات يوم أنه يجب طرد عرب 1948 ويصفهم بأنهم «قمل» و«سرطان» يتعين منعه من الإنتشار، مع أن هؤلاء هم أصحاب الأرض الشرعيون التي إغتصبها الصهاينة بدعم من بريطانيا ثم من أميركا بعد ذلك؟ ثم ألم يكن داخل مجلس الوزراء الإسرائيلي من دعاة قصف طهران وسد أسوان العالي... ومع ذلك جاء به وزيراً للسياسة مع أنه كان يتطلع إلى وزارة الداخلية لكي يرمي الفلسطينيين كمرحلة أولى في بحر غرة أو في الأعماق الأردنية؟ أما الذي يمكن أن يحقق الأمن والطمأنينة للجميع عرباً ويهوداً على أرض فلسطين، فهو الوضع موضع التنفيذ كل ما تم توقيعه من إتفاقات وما تم إتخاذه من قرارات دولية ترى أن تكون للفلسطينيين دولة مستقلة عاصمتها القدس. وقد درجت أميركا وبريطانيا على إستعجال موافقة العرب على هذه الإتفاقات والقرارات. وعندما تحدث الموافقة يبدأ التباطؤ في التنفيذ وتتصاعد وتيرة العدوان الإسرائيلي، ويتكاثر المتصلون من إتفاقات أرادوها ويلحسون توافيق وضعوها على الورق.

ولكننا لا نظن أن الأمر سيبقى على هذه الحال ما دامت المقاومة في فلسطين تواصل مخاطبة العدوان الإسرائيلي باللغة التي بات متأخراً يفهمها، بدليل هذا الهلع الذي لاحظناه على الوجه وبالذات وجه ارييل شارون، وهذا الإرتباك في التصرفات وبالذات إرتباكه... ربما لأنه بدأ يشعر أنه إلى زوال غير آسف عليه أحد.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 24 أكتوبر (ت) 2001

* * *

نهاية المطاف الفلسطيني؟!!

إذا كان أرييل شارون لن يمثل في القريب العاجل إلى معاودة التفاوض مع السلطة الوطنية الفلسطينية بعدما يكون أوقف إحتياحاته وإعتداءاته في أراضي الضفة وقطاع غزة، ثم شرع بعد ذلك في الإنتقال إلى مرحلة الإتفاق والتفاهم مع الرئيس ياسر عرفات على قيام الدولة الفلسطينية... إذا كان هذا الإرهابي لن يفعل ذلك على نحو ما اوحى كل من الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية برغبتهما في حدوثه، فهذا معناه أحد أمرين: إما أن بين تلك الإدارة وتلك الحكومة مشروع أزمة من شأنها أن تنفجر وتولد حكومة جديدة في إسرائيل تكون حكومة التوفيق بين الإسرائيليين والفلسطينيين تخلف الحكومة الشارونية التي إمتهنت الإرهاب منذ اليوم الأول لتسلّمها الحكم، وإما أن كلام الرئيس بوش ورئيس وزراء بريطانيا طوني بلير في شأن الدولة الفلسطينية، وهو في أي حال كلام تلمحي وينقصه الوضوح الكافي، هو مجرد مهادنات للرأي العام العربي والإسلامي وجدت فيه بعض الأطراف العربية تحولاً إيجابياً لمصلحة التسوية الموضوعية، بينما قرأه شارون بطريقة صحيحة فلم يوقف العدوان ثم وسّع الرقعة موحياً بأن عدوانه حتى الآن يبدو بسيطاً قياساً بما يمكن أن يفعله، وبالذات بعدما نصب الصواريخ في إتجاه قطاع غزة وبدأ يكثر من توجيه الإنذارات إلى كل من لبنان وسوريا من خلال القنوات الدبلوماسية الأميركية.

ومن حقنا في إنتظار أن تقرن أميركا وبريطانيا القول بالفعل أن نبقى على التفاوض الذي أشاعه كلام بوش وبلير وننظر إلى ما يفعله أرييل شارون على أنه نوع من التمرد على أولياء نعمته وجحود للفضل الذي أسبغه هؤلاء (أي أميركا وبريطانيا) على الصهيونية، بدليل أنه ما كان للدولة العبرية أن تقوم ثم تصمد نصف قرن لولا الدعم الأميركي - البريطاني بالسلاح والمال والفتوة والتبريرات وإعتبار الإرهاب الإسرائيلي حالة دفاع عن النفس.

إلاً أننا في ضوء هذا التلازم بين مواصلة الحرب الشارونية على الشعب الفلسطيني، على رغم العتب الذي يأتي عليها من إدارة بوش وحكومة بلير، ومواصلة الحرب الأميركية - البريطانية على أفغانستان التي ما زالت في أسبوعها الرابع غير مدعومة بالقرائن والوثائق التي توجب حدوثها بهذه

الضراوة التي نلاحظها حيث باتت المستشفيات ودور المسنين ضمن أهداف الطائرات المغيرة على هذا البلد المغلوب على أمره... إننا في ضوء هذا التلازم بتنا أمام وضع محير. ويكاد يذهب بنا الظن إلى حد الإفتراض بأن من أهداف الحرب على أفغانستان إقتطاع منطقة منها تقام فيها الدولة الفلسطينية ويتم تهجير الفلسطينيين إلى هناك لكي يرفعوا في أرض لا علاقة لهم بها علم فلسطين، على نحو ما حدث مع اليهود قبل أكثر من نصف قرن عندما رفعوا علم النجمة السداسية على أرض لا علاقة لهم بها.

والذي يجعلنا نظن ذلك ليس فقط الإرهاب الشاروني المتواصل والمغفور إلى حد ما من أميركا وبريطانيا، وليس فقط السكوت الأميركي - البريطاني على عدم تنفيذ إسرائيل لقرارات الشرعية الدولية وبالتحديد القرار 242 والقرار 338، وإنما كلام الرئيس بوش وكلام طوني بلير اللذين لم يتسما بالوضوح الكافي. فالأول تحدث عن أن الدولة الفلسطينية كانت في إستمرار ضمن رؤية الإدارة الأميركية، ومثل هذا القول يحتمل أكثر من تفسير وأكثر من إفتراض، ذلك أن الرئيس الأميركي قال ان الدولة الفلسطينية كانت ضمن رؤية الإدارة الأميركية، لكن في أي بقعة تقام هذه الدولة بموجب تلك الرؤية؟ هذا ما لم يوضحه الرئيس الأميركي تاركاً القول برسم إجتهد البعض وفرحة البعض الآخر.

هذا بالنسبة إلى الرئيس بوش. أما بالنسبة إلى رئيس الحكومة البريطانية فإن كلامه أمام الرئيس حسني مبارك في القاهرة ثم كلامه أمام الرئيس ياسر عرفات عندما إستقبله في 10 داوننج ستريت لمدة ساعة ونصف الساعة، فإن طوني بلير تحدث عن حالة ظلم في الشرق الأوسط، من دون أن يقول بوضوح ان الظالم هو إسرائيل وأن المظلوم هو الشعب الفلسطيني، ومن دون أن يحدد وبوضوح أيضاً ما إذا كانت حكومته ترى أن قيام الدولة الفلسطينية وعلى أرض بعض فلسطين وبحيث تكون القدس هي عاصمتها، هو الحل الذي لا حل سواه للظلم الذي يراه. ومن قبل أن يتحدث طوني بلير عن هذا الظلم قال وزير خارجيته جاك سترو كلاماً عابراً، عندما زار طهران، أتى فيه على ذكر فلسطين، إنما من دون أي توضيحات وتأكيدات. ومع ذلك فإنه كان كلاماً مغضوباً عليه من جانب الشارونيين وكبيرهم الذي علمهم فن الإرهاب.

يبقى أننا في الوقت الذي يأخذنا هذا الظن بعيداً، نتمسك ببعض الأمل في أن نكون على خطأ في ظنوننا هذه، مع أننا بتنا نرى أن مسألة التهجير - التسفير التي ينفذ مقتضياتها إرييل شارون تسير قدماً... وربما وصولاً إلى أنه سيتم توطين الفلسطينيين في مكان ما من أفغانستان. ويكون الوطن الفلسطيني مزدهراً وتكون فلسطين الجديدة بمثابة واحة في تلك البقاع الصخرية ونجمة من نجوم العلم الأميركي في قلب آسيا الوسطى، على نحو ما عليه إسرائيل التي باتت نجمة من نجوم العلم الأميركي في منطقة الشرق الأوسط.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 31 أكتوبر (ت) 2001

* * *

للضرورة أحكام... ولو بعد حين

للضرورة أحكام تستوجب ولو بعد حين إعادة النظر و«التفرم» بمثل ما تستوجب أحياناً الإندفاع والتصعيد. وأما في هذه الأيام حالتان من شأن التأمل فيهما الوقوف على مسألة كيف أن رمزي الحالتين إنتقلا من الإندفاع والتصعيد إلى إعادة النظر و«التفرم». وتتراوح ظروف هذا الإنتقال بين الإقتناع بما فعله الرمزان وبين المصلحة الشخصية التي توجب هذا الإنتقال الذي هو أشبه بإستدارة من مئة وثمانين درجة.

المثال الأول على إعادة النظر هو عمرو موسى الأمين العام للجامعة العربية الذي تألق في السنتين الأخيرتين اللتين سبقتا إنتقاله من منصب وزير خارجية جمهورية مصر العربية إلى منصب الأمين العام للجامعة العربية خلفاً للدكتور عصمت عبد المجيد. ففي هاتين السنتين بدا عمرو موسى من خلال التصريحات التي يدلي بها وبالذات في الوقت الذي تتأزم فيه العلاقة مع الولايات المتحدة أو يزداد الإسرائيليون صلفاً وعدواناً أنه صقر وسط حمام. وقد أفاد بهذا الموقف كثيراً حيث أن إرتباكاً في صفوف أهل القرار الأميركي بدأ ينشأ، وحدث في وسط الحكومة الإسرائيلية نوع من التهيب للموقف المصري. وفي الوقت نفسه أنعش موقف عمرو موسى الروح المعنوية للرأي العام العربي الذي ظن أن مصر

وقد يقال إن بعض الظن إثم وإن مثل هذا الإفتراض لما يدور في خاطر الدولي هو نوع من التهيؤات لا أكثر. وهذا صحيح لولا هذا التلازم المريب بين ما يجري على أرض فلسطين ممثلاً في العدوان الشاروني الذي يتسع مداه وتتنوع أساليبه وما يجري في أفغانستان، ومن دون إقتناع أي طرف عربي أو مسلم حتى الآن بأن «عقريّة» أسامة بن لادن وصلت إلى حد القدرة على تنفيذ العملية الترويعية في كل من نيويورك وواشنطن يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001. ولقد إستوقفنا في هذا الإطار كلام وزير الدفاع السعودي الأمير سلطان بن عبد العزيز في مقابلة صحافية أجريت معه ونشرت يوم الإثنين 2001/11/22 وبالذات قوله: «ما حدث يوم 2001/9/11 في نيويورك وواشنطن ليس من الأحداث العابرة، وله أبعاده الكثيرة ومعانيه وتفسيراته. فهو وقع ضد دولة عظمى من الصعب تصنيفها في عداد الأهداف الممكنة أو السهلة أو المألوفة. ما حدث هناك لن نستطيع الإستخفاف بردود الفعل عليه ولا بذيله. ان الذي تعرّض للعملية المروعة التي هي من نوع متقن وبأدوات إنتحارية جديدة هو الولايات المتحدة الأميركية، الدولة العظمى التي تمكن «الإرهابيون» بتنظيم دقيق وبإستخدامهم للتقنيات العالية، من الوصول إليها وإختراق أنظمتها الأمنية كلها... ولذلك ينبع السؤال الكبير: من يقف وراء هذا «الإرهاب» ومن نفّذ هذه العملية المعقدة والدقيقة؟ اننا بدورنا ننسأل من يقف وراء هذا العمل الدقيق؟ ونسأل أيضاً: هل بن لادن ومن معه وأعوانه هم وحدهم الذين يقفون وراء ما حدث، أم أن هناك قوة أخرى لديها خبرة فنية عالية في التنفيذ مشتركة معهم؟».

وإلى ذلك فإن النظرة الأميركية - البريطانية إلى موضوع الفلسطينيين تخرج من إطارها الوجداني إلى الإطار الواقعي مستندة إلى أن ما يحتاجه الفلسطينيون كيان ودولة وإعتراف دولي بها، وأن تجربة أميركا نفسها في مسألة إبتكار الدولة تشجع على أن تكون هنالك دولة لشعب أو شعوب في أرض غيرهم وهذا هو المهم. فالذين أقاموا الكيان الأعظم (الولايات المتحدة) أتوا من دول أوروبا في الدرجة الأولى ثم من بعض الدول الأخرى. أما مسألة أرض الأجداد، وأما أيضاً مسألة المسجد الأقصى، وأما أيضاً الإنتماء... أما هذه الأمور وغيرها فإنها غير ذات أهمية في التنظير المحتمل حدوثه لمثل هذا الأمر.

نفضت اليدين الإثنيتين من الهموم والإهتمامات العربية وأن تعاطيها بعد الآن سيكون في الإطار الديبلوماسي وبما لا يعكر الصفو الأميركي أو يهز الخيط الرفيع الذي يمثل بمعاودة السلام الكاذب بين مصر وإسرائيل.

ومن أجل ذلك فإنه عندما إختار الرئيس حسني مبارك وزير خارجيته عمرو موسى ليكون الأمين العام للجامعة العربية خلفاً للدكتور عصمت عبد المجيد، وعلى أساس أن هذا المنصب حق مكتسب لمصر ساد شعوران في الوقت نفسه: شعور بأن الصقر المصري سيخضع لعملية تقليم مخالب فلا يعود جارحاً عندما يصرح كما حاله من قبل، ولن يكون طائراً يغرد خارج السرب كما إعتاد الرأي العام العربي عليه في الماضي غير البعيد. وشعور بأن عمرو موسى سينقل صقوريته إلى الجامعة العربية فلا تبقى على نحو ما هي عليه مهيضة الجناح، قليلة الحيلة، مهمشة، محظّر على أمينها العام التصرف على نحو ما تفرضه عليه واجباته ومسؤولياته وما يراه من إجتهدات كفيلة برأب الصدع والتوفيق بين أطراف النزاعات الحادة.

وجاء عمرو موسى يعلن منذ اللحظة الأولى نيته في جعل الجامعة العربية صاحبة دور يتخطى المهمات التنظيمية للإجتماعات العربية وبأشهر على الفور المهمة إلا أنه وجد إستحالة في تحقيق ما هو في خاطره، بل ان فكرته في أن تكون الدكتور حنان عشراوي ناطقة بإسم الجامعة العربية وتتخذ في احدى غرف مبنى الأمانة العامة مكتباً لها وتكون مهمتها الادلاء يومياً بتصريح يعكس موقف العرب من خلال جامعتهم، ما دامت التطورات بالتسارع الذي هي عليه وتستوجب إعلان موقف عربي بصيغة التعليق.. ان فكرته هذه اصطدمت بالكثير من التحفظات، التي لمجرد ان تبلغها استوعبها تماماً، فقرر عدم المضي في فكرته وانتهى الامر بالدكتور عشراوي مجرد معلّقة على بعض الاحداث وبالذات ما يتعلق بالشؤون الفلسطينية وانتهى مقرها.. منزلها في الاراضي المحتلة. وهي كانت من النباهة بمكان، لأنها استوعبت تماماً ماذا يعني ان يقال ان سيّدة وفلسطينية هي الناطقة باسم 22 دولة عربية ليس هنالك جوامع مشتركة بينها حول الأمور الجوهرية التي تستوجب التعليق اليومي نطقاً بإسم الجامعة العربية. بعد هذا الاخفاق بدأ عمرو موسى يشعر أن ريشه الصقوري

قابل للتنف إذا هو لم يتصرف على أساس أن التغريد العربي لا يتحمل خروجاً عن «النوتة» التقليدية، فبات صوته دون أصوات الأنظمة أو على الأقل بات غير متقاطع معها. ونحن الذين نتابع تحركه وأقواله وبالذات الصيغ الهجومية المبتكرة التي كانت تصدر عنه في ذروة تأزم العلاقة المصرية - الأميركية أو العلاقة المصرية - الإسرائيلية، بدأنا نلاحظ أن الرجل «تقرمل» أو أنه، عن حسن قراءة من جانبه لواقعه الجديد، وكيف انه في المنصب الذي يكبله اشد تكبيل، ارتأى ان «يفرمل» وبذلك يأمن شر منغصات القيل والقال في حقه. كما أنه ارتأى ان يكون موقفه من العراق دون موقفه عندما كان وزيراً للخارجية المصرية فلا يشمله بزيارة. كذلك ارتأى ان صوته في مسألة النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي والعلاقة العربية - الأميركية يجب ألا يعلو على صوت الدولة المصرية والسلطة الوطنية الفلسطينية. وإرتأى أيضاً وأيضاً أن يكون صوته من موضوع «الحرب الأميركية - البريطانية على الإرهاب» يمثل صوت الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي لا أكثر علواً ولا أقل إنخفاضاً.. وبذلك إنتهى الرجل وهو في ذروة الحيوية والعطاء شبه محال على المعاش العربي إنما بوظيفة من مستوى 5 نجوم.

وهكذا فللضرورة أحكام.. ولو بعد حين.

تلك حالة من حالات إعادة النظر التي نتطرق لها هنا. أما الحالة الثانية فهي حالة الزعيم الدرزي اللبناني وليد جنبلاط الذي فاجأ أبناء طائفته ومعهم الطائفة الحليفة له، أي الطائفة المارونية، وفاجأ أيضاً حليفه التاريخي الرئيس رفيق الحريري، بل وفاجأ اللبنانيين والحكم السوري بإعادة نظر صاعقة في موقفه من عهد رئيس الجمهورية اللبنانية العماد اميل لحود. وجاءت إعادة النظر التي نشير إليها ضمن سيناريو مدروس وكثير الدقة بدأ بمهادنة من جانب جنبلاط للرئيس لحود الذي طالما أمطر جنبلاط عهده ومنذ اليوم الأول بقذائف سياسية لم يفعلها، ولا نظن أن أحداً سيفعلها غيره. وبالعودة إلى تلك القذائف يخرج المرء بإنطباع خلاصته أن الود ما كان ليعود بين الإثنيتين ولن يكون هنالك تألف للقلوب بسبب الحملة كثيرة الشراسة من جانب جنبلاط على الرئيس وطاغم إدارته، التي معظمها من العسكريين الذين ومن خلال الحلقة المباشرة المسماة «غرفة الأوضاع»، لم يقصروا في الرد على القذائف الجنبلاطية بالمثل. وهي خدمة

ولذاكرة الأبناء أن تستحضر ما كانت عليه العلاقة بين الآباء، وهما هنا رئيس الجمهورية اللبنانية الحالي اميل جميل لحود والزعيم الدرزي الدائم وليد كمال جنبلاط، وما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الأحفاد وهما هنا اميل اميل لحود الذي خطا الخطوة الأولى على طريق السياسة بعد إنتخابه نائباً في البرلمان وتيمور وليد جنبلاط، الذي يتم تأهيله بشكل مكثف لكي يرث الزعامة الموروثة بعد طول عمر والده.

وتبقى ملاحظة جديرة بالتسجيل بالنسبة إلى حالة وليد جنبلاط لا تنطبق على حالة عمرو موسى. خلاصة هذه الملاحظة أن جنبلاط في إعادة النظر يتطلع إذا جاز الإعتقاد أو الإجهاد إلى أن يحقق في الولاية الثانية للرئيس اميل لحود (مفترضين أن الرئيس سيجدد الولاية، أو أن التجديد سيأتيه صاغراً) ما سبق أن تمناه والده الراحل ولم ينله ربما لأنه سعى إليه عن طريق التحدي ومن خلال خلطة من الإتجاهات المتجانسة شكلاً المتنافرة من حيث المنطلقات الثورية والتغييرية موضوعاً، فضاعت التمنيات وأضاع لبنان معها كمال جنبلاط الذي سقط مضرباً بإستحالة ما تمناه ولم يحصل عليه. وما تمناه هو أن تكون الرئاسة الثالثة من نصيبه في الحد الأدنى في حال إستحالت الأمنية في حدها الأقصى ونتيجة ثورة دستورية عارمة وهي أن يكون رئيساً لجمهورية لبنان ثوري جديد. وما أراده جنبلاط الوالد بالثورة ربما يريده جنبلاط الابن ببراعة العمل السياسي. ومن علامات هذه البراعة انه أعاد النظر مستديراً مئة وثمانين درجة عندما وجد أنه قد آن الأوان لكي يكون للضرورة أحكام، فقرر الإستدارة وإستقبل مبتهجاً في «قصر المختارة»، وكأنما هو الرئيس الرابع، الرئيس اميل لحود الذي هو الآخر يتطلع إلى ما بعد ثلاث سنوات ويرى أن يكون وليد جنبلاط يساند الرغبة أو الضرورة في تجديد الولاية... أو كلاهما معاً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 7 نوفمبر (ت) 2001

* * *

توأمة على المستوى الرئاسي!

بعد أسابيع تأخذ معركة الرئاسة الفرنسية منحى بالغ الخشونة وسنبدأ سماع أصوات الطامحين في

أدائها هؤلاء للزعيم الدرزي الذي وجد أن من الأفضل له ان يعيد خلط أوراقه من جديد، ففتح حوار الشهير مع المتشدد في الصف الماروني بدءاً بالبطريك صفير ومروراً بالرموز السياسية، التي تعتبر نفسها مقهورة أو محروقة أو مضطهدة من جانب التحالف القائم بين العهد في لبنان والحكم في سوريا. وعندما إنتهى الحوار المشار إليه إلى زيارة قام بها البطريك الماروني إلى قصر «المختارة» رمز الزعامة الجنبلاطية، وكان ذلك يحدث للمرة الأولى في العصر الجنبلاطي - الماروني الحديث، زادت حدة النفور السوري من تغريد وليد جنبلاط خارج السرب والذي . أي النفور - وصل إلى حد القطيعة وإعتبار جنبلاط شخصاً يمكنه زيارة سوريا كمواطن عادي، إنما غير مرحب به في سوريا كزائر سياسي متميز وعالي الشأن والمقام في طائفته وبلده. لكن ما لبث هذا النفور أن بدأ يتلاشى وإستؤنفت العلاقة بين جنبلاط والحكم السوري، إنما ضمن رؤية جديدة وود مختلف ومشاعر غير التي كانت عليه في الماضي. وهذه الإستعادة للعلاقة الجنبلاطية - السورية وكذلك الحضور البارز للهالة الجنبلاطية في أوساط أقطاب الطائفة المارونية الذين بدأوا يزورون جنبلاط، وكما لو أنه الرئيس الرابع في لبنان وأن «المختارة» على صعيد الشأن السياسي، هي بأهمية بقية الرئاسة اللبنانية من الأولى المارونية إلى الثانية الشيعية إلى الثالثة السنية... هذه الإستعادة جعلت الدفء يقتحم البرود السائد في العلاقة بين الرئيس إميل لحود ووليد جنبلاط. ثم تزايدت نسبة الدفء بالزيارة التي قام بها جنبلاط إلى الرئيس لحود، ثم وصل الدفء إلى حد أن رئيس الجمهورية قام بزيارة قصر «المختارة» يوم السبت 27 أكتوبر (تشرين الأول) 2001 مسجلاً بذلك خطوة هي الأولى من نوعها حيث أن الرئيس لحود لم يزر حتى الآن قطباً سياسياً لبنانياً في منزله أو قصره. ولولا أن هنالك أواصر علاقة قديمة وعريقة تعود إلى أربعة عقود بين والد الرئيس من جهة (الراحل اللواء جميل لحود) ووالد وليد جنبلاط (الزعيم الراحل كمال جنبلاط) لبدت الزيارة إختراقاً صاعقاً للمعادلة اللبنانية. لكن هذه العلاقة التي نشير إليها اعطت بعداً عائلياً للزيارة من دون أن تلغي أنها حدثت، وأيضاً، تحت سقف «الضرورة أحكام... ولو بعد حين»، فضلاً عن أن لهذه الزيارة ولهذا الود اللحودي - الجنبلاطي بعض الدواعي والتطلعات ولولا ذلك لما كان للود أن يستعاد

إلى حد أنه بات يرى ان لبنان هو رفيق الحريري وأن رفيق الحريري هو لبنان، أو أنه في الحد الأدنى وتقديراً للمبالغة بات ينظر إلى لبنان من خلال الحريري وهذا مخالف للنظرة التقليدية للعلاقة الفرنسية - اللبنانية على مر الرؤسات منذ ما قبل الإستقلال. بل اننا في سياق التوصيف يمكننا القول إن جاك شيراك الرئيس بات هو «الصديق الحنون» لرفيق الحريري بعدما كان شائعاً وإلى درجة التكريس ان فرنسا هي «الأم الحنون» لكل لبنان. وإذا كان لا بد من بعض الشواهد كتأكيد لما نقوله، فإنها أكثر من التصور، إلا أن الذي يستوقفنا هو ما بذله الرئيس شيراك من أجل أن يستضيف لبنان القمة الفرنكوفونية والتي أوجبت تأجيلها الظروف المأساوية الناشئة عن العملية الترويجية التي إستهدفت يوم 11 سبتمبر (أيلول) الماضي مركز التجارة العالمية في نيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون) في واشنطن وما إستتبع العملية من رد فعل بلغ مداه بالحرب الأميركية - البريطانية المتواصلة على أفغانستان بذريعة أن «نظام طالبان» يؤوي أسامة بن لادن المشتبه به بأنه وراء العملية الترويجية تخطيطاً من جانبه ومباركة من الملا محمد عمر وتنفيذاً من عناصر ينتمون إلى «تنظيم القاعدة» الذي يترعّمه والذي تستضيفه «طالبان». وكان من المستحيل وقوع الإختبار على لبنان لكي يستضيف القمة الفرنكوفونية لولا جهود خارقة بذلها شيراك من اجل صديقه رفيق الحريري. واستحالة عقد هذه القمة في لبنان ليس لأنه مشكوك من الدول الأعضاء في هذه المنظومة بفرنكوفونيتها وإنما لأنه الدولة العربية الوحيدة التي تخوض شريحة عريضة من شعبها متمثلة بـ «حزب الله» عمليات مقاومة مسلحة ضد إسرائيل وهذا غير مرحّب به من جانب بضع دول أساسية في منظومة الفرنكوفونية، يضاف إلى ذلك أن الإدارة الأميركية ونتيجة تحريصات وإبتزازات تمارسها إسرائيل عبر الصهيونية العالمية واللوبيات اليهودية المستشرية في جسد الإدارة الأميركية، لا يمكنها أ تتحمل إنعقاد مثل هكذا قمة. وستثير ما في إستطاعتها من الغبار الكفيل بحجب الرؤية، أي بما معناه توغر صدور بعض الدول الأعضاء وتضغط على بعض آخر وتتمنى على بعض ثالث وتتوعد بعضاً رابعاً.. وهكذا، كي لا تُكتب للقمة الفرنكوفونية فرصة الإنعقاد في لبنان وإذا هي عُقدت لا يُكتب لها حظ النجاح. ثم جاءت العملية

الرئاسة تعلو أكثر من أي زمن مضى. فالرئيس جاك شيراك يبذل ما في إستطاعته وإستطاعة أصدقائه وأولهم وأصدقهم في وقفته معه رئيس مجلس الوزراء اللبناني رفيق الحريري، من أجل أن يجدد الرئاسة وبحيث لا يخطفها منه رئيس الحكومة الفرنسية الحالي ليونيل جوسبان الذي ما زال ينزف غضباً لأن شيراك خطف منه الفوز في معركة الرئاسة السابقة بعدما هذا الفوز شبه مضمون له. وقد تكون الوقفة الحريرية في اللحظة ما قبل الأخيرة إلى جانب شيراك هي التي حسمت فوز الرئيس الديغولي الذي ما زال إلى الآن حافظاً للجميل ويحاول رده لصديقه رفيق الحريري بأشكال مختلفة من بينها أن أبواب «الاليزيه» (قصر الرئاسة الفرنسية) مفتوحة في إستمرار للحريري سواء كان رئيساً للحكومة أو كان خارج الحكم في إنتظار أن يستعيد المنصب على نحو ما حدث بالفعل. كما أن التسهيلات الفرنسية تواصلت وبحيث أن الحريري بات من قلائل في العالم يتمتعون بميزة أنه مواطن بإمتياز في ثلاث دول دفعة واحدة هي الوطن المحلي لبنان والوطن الإقليمي السعودية والوطن الدولي فرنسا. وهذا الوطن المثلث ساهم مجتمعاً في تكوين رجل دولة من نوعية كثيرة التميز ونكاد نقول نادرة عندما نقارن بين الذين يشغلون منصبه، أو أولئك الذين سبق وتعاقبوا على منصب رئاسة الحكومة في الدول العربية بالذات. وتبدو معركة الرئاسة الفرنسية التي باتت قريبة وكأنما هي معركته. وتلك أيضاً حالة جديدة في دنيا السياسة. فاذا فاز الصديق جاك شيراك بالرئاسة لولاية جديدة فهذا معناه أن الحريري ضمن حليفاً دولياً بذل من أجل الحريري وهو في رئاسة الحكومة اللبنانية، ومن أجله بعدما أبعدوه في سياق رهان لم يصمد، جهداً لم يحدث أن حظي به رئيس دولة صغرى في العالم من رئيس دولة كبرى، بإستثناء كل رئيس حكومة في إسرائيل من كل رئيس جمهورية في أميركا. وعندما نقول ذلك فليس من باب التشبيه، ذلك أن الوقفة الشيراكية مع الحريري خالية من الشوائب والإبتزازات التي هي سمة وقوف رؤساء الإدارات الأميركية عموماً مع الذي يترأس الحكومة في إسرائيل، وما تقرضه الإبتزازات الصهيونية على أولئك الرؤساء من ضغوط تجعلهم يتخذون مواقف على حساب الحق والقيم وشرعة حقوق الإنسان وشرائع الأديان السماوية. بل ليس مبالغة القول ونحن نتأمل في صفحات العلاقة الشيراكية - الحريرية أن الرئيس شيراك وصل

الترويجية يوم 11 سبتمبر الماضي لتدفع الأمور في هذه الإتجاه، هذا مع الأخذ في الاعتبار أن العملية المشار إليها كانت حدثاً يحفظ ماء وجه الحكم اللبناني الذي إستجاب لتأجيل القمة الفرنكوفونية التي كان مقدراً لها في حال إنعقادها من 26 إلى 28 أكتوبر (تشرين الأول) الماضي أن تشكل إنتصاراً زاهياً للتوأم السياسي الفريد من نوعه: جاك شيراك - رفيق الحريري. ومع الأخذ في الاعتبار أيضاً أن نعمة التأجيل كانت بدأت قبل العملية الترويجية. وكل ذلك لأن إسرائيل لا تتحمل، وتشاركها الإدارة الأميركية هذا الشعور، أن تتعقد قمة دولية في بلد على مرمى حجر من حدودها وهو بلد له تراثه وفاعليته على صعيد المقاومة للإحتلال الإسرائيلي وإجبار قوات هذا الإحتلال على الإنسحاب تحت وقع ضربات المقاومة. ومن الطبيعي أن تنزعج إسرائيل من هكذا قمة لهذا السبب وللمزيد من الأسباب أيضاً والتي أبرزها أن القمة المشار إليها سيشارك فيها 52 رئيس دولة أو رئيس حكومة، أي حوالي ثلث رؤساء دول العالم وأن هؤلاء يمثلون قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا وأميركا بينما ليس في قدرتها أن تستضيف مؤتمراً دولياً بهذا التنوع. ثم أن هذه القمة، التي مع الأسف لم يكتب لها حظ الإنعقاد، كانت لن تغرق في بحر المناقشات ذات المنحى الثقافي والحضاري وما يتعلق بالهوية والتراث الفرنكوفوني، وإنما ستتوقف وبتهيب أمام الوضع العام في الشرق الأوسط مع إطلالة أكثر عمقاً على الوضع في لبنان، خصوصاً أن الرئيس شيراك عندما دفع في القمة الفرنكوفونية السابعة في هانوي عام 1997 بالإتجاه الذي إنتهى إلى عقد القمة التاسعة في لبنان وأقنع رئيس رومانيا ورئيس هايتي اللذين كانا يتطلعان إلى إستضافة القمة التاسعة بسحب ترشيح بلديهما للإستضافة، إنطلق من رغبة أن تكون هذه القمة «رسالة سلام ودعماً للبنان» أو بمعنى آخر هدية سياسية ومعنوية ثمينة منه لصديقه الحريري الذي كان زمناً حائراً في ما ستكون عليه أحواله وأحوال لبنان مع العهد الجديد الذي لم يكن قد بدأ بعد ولم يكن محسوماً من سيكون سيد هذا العهد، وإن كانت التكهانات تميل في إتجاه أن يخلف قائد الجيش العماد اميل لحود في منصب رئاسة الجمهورية الرئيس الياس الهراوي.

ومن الأسباب أيضاً وأيضاً التي تجعل إسرائيل تنزعج من إنعقاد القمة الفرنكوفونية، وتنقهم الإدارة

بالإضافة إلى تثبيت عقد القمة الفرنكوفونية في لبنان والتي ليس مثل الحريري من هو حزين لفرط عقدها، كانت هنالك مبادرة أخرى أرادها الرئيس شيراك هدية ثمينة لصديقه، منطلقاً في سعيه لتأمين حصول الهدية من أن الشعب الفرنسي قد يخلد رغبته في تجديد الرئاسة، وقد تدخله أيضاً الظروف والالاعيب الدولية ومن بينها ما يتعلق بتداعيات العملية الترويجية يوم 11 سبتمبر (أيلول) الماضي، وبذلك لا يعود في إستطاعته تنويع رد الجمال لصديقه الرئيس الحريري بعمل كبير يعزز طموحات الصديق في أن يكون الرجل الذي إستنهض لبنان. والهدية المشار إليها هي تأمين إنعقاد الجولة الثانية من اللقاء الإقتصادي الدولي المعروف بـ «باريس - 2» الذي يمكن أن ينتهي ونتيجة دعم كبير من الرئيس شيراك إلى نتائج طيبة بحيث يتم، إذا جاز القول، ضخ المزيد من الدماء في شرايين الجسد اللبناني الذي يزداد نشافة وقد يتيبس ويذبل العود ويحدث الإنهيار من دون هذه النجدة. ثم يتبين أن صندوق النقد الدولي - الذي تتحكم الإدارة الأميركية بخياراته وتوجهاته وقراراته - رأى وقبل أيام من إنعقاد لقاء النجدة الدولية «باريس - 2» ان لبنان متباطيء في الإصلاحات المالية المطلوبة منه. وبطبيعة الحال فإن مثل هكذا تقرير كفيل بجعل المقنترين مالياً، الذين يريدون الرئيس شيراك متعاونين وفي لقاء يستضيفه في العاصمة الفرنسية، يجفلون في الحد الأقصى أو يتهيبون في الحد الأدنى. وعلى هذا الأساس يصبح مصير هذا اللقاء بمثل مصير القمة الفرنكوفونية التاسعة وتصبح تبعاً لذلك امال التوأم الرئاسي المتميز جاك شيراك - رفيق الحريري في مهبط الريح.

وعطفاً على ذلك يصبح الرئيس الحريري أكثر القلقين على صديقه الرئيس الفرنسي جاك شيراك إذا كان

الفرنسيون سيخذلونه فلا يضعون أصواتهم لمصلحته في صناديق الاقتراع، ويصبح الرئيس شريك أكثر المهمومين بما ستؤول إليه الأحوال الحزبية مع من سيخلفه في رئاسة فرنسا، ليونيل جوسبان أو مفاجأة ليست في الحسبان، وذلك لإدراك من الرئيس شريك أن لا أحد غيره في فرنسا يمكن أن يعامل الرئيس الحزبي بمثل ما عامله، ولا رئيس يمكن أن يبقى على أبواب «اللازيه» مشرعة أمام الحزبي كما هو فعل. فذلك توأمة على المستوى الرئاسي غير مطروقة... وقد لا تتكرر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 14 نوفمبر (ت) 2001

* * *

الهجرة السياسية المعاكسة إلى السودان

على الطريقة التي عاد بها الرئيس اللبناني الأسبق أمين الجميل إلى لبنان من منفاه الإختياري - الإضطرابي باريس، عاد إلى الخرطوم يوم الخميس 8 نوفمبر (تشرين الثاني) الجاري السيد احمد الميرغني رئيس مجلس رأس الدولة السوداني الذي كان - اي المجلس - يحكم السودان ضمن صيغة توافقية بين طائفتي «الانصار» و«الختمية» اللتين كانتا تتقاسمان الحكم عندما قام فجر يوم الجمعة 30 يونيو (حزيران) 1989 العميد عمر حسن البشير بالإنقلاب العسكري الإسلامي الهوية الذي هو الأول من نوعه في تاريخ الانقلابات العسكرية العربية واضعاً له تسمية «ثورة الإنقاذ».

كان السيد أحمد في اثينا عند حدوث الإنقلاب الذي لم يأت صاعقاً ومباغتاً وذلك لأن السودان كان في ما يشبه حالة المخاض. وقبل أيام قليلة من حدوث الإنقلاب ساد إنطباع بأن الرئيس السابق جعفر نميري الحاذق في تدبير الانقلابات العسكرية وغير الحاذق في الحفاظ على الحكم، سيفاجئ السودانيون بعودة إلى زمام السلطة، وأنه يقوم بالتحضير من منفاه الإختياري في القاهرة لهذه المفاجأة معتمداً على مساندة مصر له. وعندما بدأت الإذاعة السودانية تبث البيانات الانقلابية إتضح للسودانيين ان مجموعة من العملاء والعقلاء والمقدمين يتصدرهم العميد عمر البشير هم الذين قاموا بالإنقلاب وأن الرئيس السابق نميري لا علاقة له من قريب او من بعيد بهذه المجموعة وأن

«ثورة الإنقاذ» ليست إبنة «ثورة مايو» ولا هي شقيقتها، وإنما من العائلة... عائلة الجنرالات الذين يقررون فجأة إستبدال الثكنات بالسرايات. كان السيد أحمد يتمنى لو أن في إستطاعته مغادرة أثينا والعودة إلى الخرطوم، خصوصاً أن تعاطيه الشأن السياسي وهو يتأسس مجلس رأس الدولة كان إلى حد ما شكلياً وذلك لأن السيد الصادق المهدي بصفة كونه رئيساً للحكومة يستحوذ على مفصل القرار.. وهذا في نظره. أي نظر السيد أحمد - يجعله في حالة من الوثام مع الحكم العسكري الرابع في البلاد، فضلاً عن أن الختميين إعتادوا على التعايش مع العهود العسكرية فيتعاونون معها في الحد الأقصى ولا يتصادمون معها في الحد الأدنى. وللتذكير فإن الحكم العسكري الأول كان برئاسة الفريق إبراهيم عبود من 1958، إلى 1964، وكان الثاني برئاسة (المشير) جعفر نميري من 1969 إلى 1985 أما الثالث فكان عبارة عن فترة إنتقالية ترأسها المشير عبد الرحمن سوار الذهب لمدة سنة (1985 - 1986) وكان الجنرال العربي الوحيد الذي يترك الحكم طوعاً... خيراً فعل.

وبسبب نصيحة وتلميحات وتحذيرات ختمية ومن جانب أصدقاء ومحبين للطائفة من بينهم الرئيس حسني مبارك، قرر السيد أحمد التريث خصوصاً بعدما بلغه ان المجموعة الانقلابية الجديدة عطلت العمل بالدستور الإنتقالي لعام 1986 وحلت المؤسسات السياسية وأسقطت ولاية أعضاء مجلس رأس الدولة والبرلمان ومجلس الوزراء، وكذلك حل جميع الأحزاب والتشكيلات السياسية ومصادرة ممتلكاتها وحل حكومات الاقاليم وجميع الجمعيات غير الدينية وإعلان حالة الطوارئ في جميع أنحاء البلاد ووضع سلطات الطوارئ بين يدي رئيس مجلس قيادة الثورة (الذي هو العميد عمر البشير الذي تمت ترقيته إلى رتبة فريق) وتوسيع صلاحياته بالنسبة إلى الممتلكات والأراضي والسلع بما فيها الإعفاء والإعتقال. ولم يقتصر الأمر على المنع حيث أن هنالك العقاب بالسجن من عام إلى عشرة أعوام لمن يشارك في تجمعات سياسية. أما إذا كانت هنالك مقاومة بالسلاح للعهد الجديد فإن العقاب هو مصادرة الأموال والإعدام، ولهذا الغرض تم تشكيل محاكم خاصة وفقاً لأحكام قانون الطوارئ.

وهذا الجو الحافل بالتشدد وبالويل والثبور وعظائم الأمور هو ما جعل رئيس الحكومة الصادق المهدي

أجل العودة على رغم تزايد الحنين في نفسه إلى أن يعود إلى الخرطوم. وحتى بعدما إنقسم «الإتحاديون» حزب الختمية على بعضهم إستمر صامداً ليس مقتنعاً كل الإقتناع بصقورية شقيقه السيد محمد عثمان لأنها خروج على التراث الختمي، وفي الوقت نفسه لا يجوز له الإنحياز إلى «إتحاديي الإنقاذ»، أي الفريق الذي يرى أن ليس هنالك ما يمنع من تعاون بين «الختمية» و«الإنقاذ».

بعد عودة الرئيس الأسبق نميري إلى الخرطوم بدأت الأمور تأخذ منحى أكثر يسراً في إتجاه إنهاء الإغتراب السياسي القسري، بل قد يجوز القول ان الرئيس عمر البشير فتح النوافذ أمام العودة في اللحظة التي قرر فيها إنهاء شراكة القيادة بينه وبين الدكتور حسن الترابي. وشيئاً فشيئاً بدأت الهجرة السياسية المعاكسة تسجل إزدهاراً ملحوظاً. وفي الوقت الذي إختار الرئيس عمر البشير لشريكه الدكتور الترابي الصيغة نفسها التي إختارها الرئيس (الراحل) هوري بومدين لرفيق النضال الرئيس الأسبق أحمد بن بيللا وهي الإقامة الجبرية مع كل التسهيلات التي لا تتجاوز محيط الفيلا... في هذا الوقت بدأ المعارضون وبالذات من هم أقل من صقور وأكثر من حمام أمثال الدكتور عمر نور الدائم يعودون ويمهدون لعودة الصقور، وهذا ما حدث على سبيل المثال للسيد الصادق المهدي الذي عاد وسط أجواء من الترحيب الرسمي والشعبي به على نحو الترحيب الذي لقيه الرئيس نميري والترحيب المماثل رسمياً وشعبياً الذي لقيه أحدث العائدين السيد أحمد الميرغني. كذلك ان هذا ما حدث مع شخصيات متميزة من بينها رئيس جهاز الأمن في حقبة مايو عمر الطيب الذي وجد في المملكة العربية السعودية الملاذ الأمن والمحترم والذي يكفيه متاعب المشاحنات. وكان عمر الطيب دون غيره من أقطاب اللعبة السياسية في السودان، سواء المهاجر منهم طوعاً أو المهجر، الذي لا تنطبق عليه صفة اللاجئ السياسي في إغترابه القسري. وهو بالكفاءة العالية التي يملكها أفاد كمستشار لرئيس المخابرات السعودية الأمير تركي الفيصل وكانت له أفكار ومداخلات ذات بعد إستراتيجي إكتسبه في سنوات عمله كضابط متميز أمضى دورات عسكرية نوعية في الخارج من بينها واحدة في الولايات المتحدة. وكان من السهل على الرجل أن يصل إلى الرتبة الأعلى في الجيش السوداني لولا أن الرئيس نميري

يفضل الإخفاء، وأرض الأنصار واسعة لمن يضطر للتواري عن الأنظار. كما أن هذا الجو اضافة إلى مباركة ملحوظة في ودها وعاطفتها من جانب الحكم المصري للعهد العسكري الجديد ومباركات عربية من كل صوب، جعلت السيد أحمد الميرغني يقرر البقاء في مصر وجعلته - ربما كإشارة متعمدة منه إلى الحكم الجديد في السودان - يختار الإسكندرية مركزاً لسكنه. وإذا نحن أسقطنا الجانب الشخصي من هذا الإختيار نستنتج أن السيد أحمد أراد القول ما معناه انه أراد أن يكون زائراً خفيف الظل على الحكم المصري المبتهج بالتغيير الذي حدث في السودان، وأن إقامته في الإسكندرية هي تأكيد لذلك على أساس أن القاهرة هي العاصمة السياسية والعاصمة الممتلئة بألوف السودانيين الذين لا بد سيهتمون بالسيد أحمد ويلتقون حوله ويتباحسون معه في أمور سياسية، وهو لا يريد التعاطي في الشأن السياسي، وذلك لأنه في حال قرر التعاطي فلا سبيل أمامه سوى معارضة الذين قبلوا الحكم الذي كان على رأسه، هذا إذا كان سيبقى في مصر أو يسلم الأمر للأقدار ويعود إلى السودان بشروط الحكام الجدد وتحت رايتهم. وما دام قرار البقاء في مصر فلتكن الإقامة في الإسكندرية وليس في القاهرة، أي عكس ما إرتأى الرئيس الأسبق جعفر نميري الذي أبقاءه الرئيس مبارك غير بعيد عن قصر الرئاسة في مصر الجديدة وترك له حرية الحركة إنما ضمن ضوابط إستوعبها الرئيس نميري فكان مثال الضيف الذي هو لاجئ سياسي شكلاً إنما بصيغة زيارة طويلة الأمد عملياً.

طوال إحدى عشرة سنة لم يسجل السيد أحمد ما من شأنه أن يعكر إحتمالات العودة في أي لحظة إلى السودان. كما أنه في حرب المعارضة على الحكم في السودان كان من الحمائم نقيض شقيقه الصقر السيد محمد عثمان الذي طوال سنوات العهود العسكرية في السودان كان دائماً من الحمائم مع جنرالات تلك العهود، إلا انه قرر مع حكم الإنقاذ التعامل بالمخالب. بل لعلها المرة الأولى في تاريخ التقاليد السودانية التي بات فيها الثلاثي جون قرنق والصادق المهدي ومحمد عثمان الميرغني من نسيج واحد ووصلت بهم مقتضيات المنازلة إلى إعتداد اسلوب المواجهة بالسلاح بنسبة إعتمادهم اسلوب التعاطي مع القضايا السياسية من خلال الحوار.

ولقد قاوم السيد احمد المغريات الإنقاذية الكثيرة من

الثاني من السبعينات وطوال الثمانينات، والذي هو مثل الدكتور الترابي من حيث التطلعات في إتجاه القمة على نحو قول الشاعر مع بعض التعديل بحيث يصبح «لنا الزعامة الأولى.. أو الإقامة الجبرية»، ومن دون الأخذ في الاعتبار أن القمة تتسع لآخرين.... كما أنها من حق كثيرين.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 21 نوفمبر (ت) 2001

* * *

غول الإستهلاك... وصرخة مبارك

من الأسباب الموضوعية التي دفعت الرئيس (الراحل) أنور السادات إلى عقد إتفاق سلام مع إسرائيل متحملاً بذلك كل الإتهامات والتداعيات والإجراءات هو أن حالة اللاحرب واللاسلم تأخذ من طريق التنمية، وأن الأموال التي من المفترض بالنسبة إلى دولة نامية مثل مصر إنفاقها على القضايا المعيشية والتنمية وتطوير أحوال الناس تذهب في إتجاه الجبهة العسكرية. وهو من أجل ذلك إستعجل تنفيذ خطة لتحرير سيناء، كان سلفه الرئيس (الراحل) جمال عبد الناصر قد بدأها وعمل القادة العسكريون على تطويرها، وكان من المتوقع تنفيذها عام 1972 لولا أن عبد الناصر توفي فجأة وإنتهت الخطة موضوعة في ملف المؤجلات، إلى أن وضعها السادات أمامه ورأى أنها الحل الوحيد الذي لا حل غيره لكي يحكم مطمئناً. فالخطة على نحو ملامحها الأولية موضوعة على اساس تحرير سيناء والضفة الغربية والجولان تنفيذاً للقرار الكارادوني الشهير 242 الصادر عن مجلس الأمن وإستعادة السيادة على قناة السويس التي في حال تشغيلها يمكن للخرينة المصرية أن تنتعش بعض الشيء بالعملات الصعبة، وهو ما تحتاج اليه مصر لكي تنقذ عملتها المحلية التي باتت حالها في السنتين الأخيرتين من حقبة الستينات مثل حال الليرة اللبنانية والدينار العراقي والجنيه السوداني منتصف التسعينات وإلى الآن وحتى إشعار آخر. وإستناداً إلى الخطة المشار إليها، فإن الذي كان يهم عبد الناصر في الدرجة الأولى هو أن من شأن نجاح خطته أن يعزز هيئته التي كانت تأثرت بسبب هزيمة 5 يونيو (حزيران) عام 1967 وعندما تتعزز هذه

إستعاره من المؤسسة العسكرية لكي يسلم له جهاز الأمن الذي هو دور سياسي في طبيعة المهام الموكولة اليه، ثم لكي يختاره نائباً أول لرئيس الجمهورية مع انه ليس من ضمن مجموعة الرواد الذين قاموا بـ «ثورة 25 مايو 1969» وهؤلاء لهم أحقية منصب نائب الرئيس دون غيرهم. وغالب الظن أن الرئيس نميري كان يهيئ عمر الطيب لكي يواصل من بعده وأن هذا الخيار من جانبه بدأ في أعقاب تزايد إحساس نميري بأن وضعه الصحي ليس على ما يرام. وكان الجهد الذي بذله عمر محمد الطيب من أجل إنجاح المصالحة الوطنية في السودان بمثابة إختبار لقدرات هذا الرجل الذي لا تفارق الابتسامة وجهه حتى في أكثر الظروف تعقيداً، والذي جعل أقطاب الصراعات في السودان يختلفون على سياسات وأساليب ومسؤولين كثيرين في الحقبة النميرية، إلا أنهم كانوا يتفقون على أن عمر الطيب «أخو اخوان» يمكن الركون إليه.

ولقد سجّل عمر الطيب الذي غادر السودان بعد إسقاط حكم نميري وهو برتبة فريق وعاد إليه حاملاً شهادة دكتوراه في الإستراتيجية من «أكاديمية ناصر» في مصر، تقليداً جديداً في أصول التعامل بين من هو في القمة والذين من حوله. وما أريد قوله هنا هو أنه أثر عدم الإستيلاء على السلطة التي كانت قريبة منه وكان خصوم النظام سيرحبون بذلك لو إنه إقترح لأنهم كلهم على صلة طيبة به.

بعودة السيد احمد الميرغني.... والعود أحمد بالمعنيين، معنى إسم العائد ومعنى الخيار الأفضل والمناسب الذي إتخذه، وعودة الفريق الدكتور عمر الطيب، والسيد الصادق المهدي من قبل، والرئيس جعفر نميري من قبلهم جميعاً، ثم بهذه الرحابة المتسعة للصدر من جانب الذين يحكمون الآن في السودان، وهذه الروحانية التي تتبلور يوماً بعد آخر في النفس السودانية على مستوى القمة... بهذه الأمور مجتمعة وغيرها كثير لا مبرر بعد الآن للصقور السودانية الحائرة أمثال السيد محمد عثمان الميرغني والدكتور جون قرنق للبقاء تحلق خارج السودان وتنتظر أقدارها وهي بين العاصمة الأريتيرية أسمرة وعواصم أخرى. فالعودة أكرم لها، للمشاركة في تضييد جراح السودان وما أكثرها. كذلك لا مبرر لأن يبقى الدكتور الترابي في الإقامة الجبرية من فئة خمسة نجوم على نحو إقامة جبرية من فئة مماثلة للدكتور سمير جعجع أحد أمراء الحرب اللبنانية في النصف

عقوبات أخرى كثيرة جعلت الدولة الكبرى معزولة لبضع سنوات قبل أن يفك الرئيس حسني مبارك عزلتها بعدما تسلم الحكم في أعقاب إغتيال الرئيس السادات في حادثة المنصة الشهيرة يوم السادس من أكتوبر (تشرين الأول) عام 1981 حيث كان يحتفل بذكرى إنتصار حرب 1973.

إرتاح المصريون لما فعله السادات الذي بدأ يوظف معاهدة السلام التي أبرمها مع بيغن وفي حلوقهم غصات وطنية ناشئة عن العزلة التي وجدوا أنفسهم فيها. وسبب الإرتياح هو أن الدول الكبرى بدأت تهتم بأحوال مصر الإقتصادية بعدما أعلن السادات دخول البلاد مرحلة الإنفتاح. ومن مظاهر هذا الإهتمام أن الديون الدولية المتراكمة على مصر بدأت تشهد إلغاءات متدرجة. وما لم يتم إلغاؤه من هذه الديون تم تدويره وتم إسقاط الفوائد عليه.

ثم بدأت مظاهر الإنفتاح تشق طريقها وبإيقاع غير محسوب. ولم يتنبه السادات إلى مسألة في غاية الخطورة وهي أن التحول من مجتمع إشتراكي إلى مجتمع إستهلاكي له محاذيره الكثيرة بالنسبة إلى بلد مثل مصر يقترب عدد سكانها (نحن الآن في النصف الثاني من السبعينات) من خمسين مليون نسمة ويسجل السكان ظاهرة إستثنائية على صعيد التناسل حيث أن هنالك مولوداً كل دقيقة يبصر النور. وعندما تكون حال البلد مثل ما هي عليه حال مصر التي لا تملك ثروات طبيعية مثل النفط، فإن تحويل المجتمع من منضبط يكتفي بالعيش من خيرات ارضه إلى مجتمع إستهلاكي، سينتهي إلى كارثة.

ولقد عمل الرئيس الخلف حسني مبارك ما أمكنه على تفادي هذا المصير وبذل جهوداً ملحوظة من أجل إستصلاح مساحات شاسعة من الأرض والتقيب عن النفط والغاز في مناطق كثيرة وقطع مرحلة لا بأس بها على هذا الصعيد، إلا أن غول الإستهلاك كان يسرع الخطى أكثر ويلتهم في طريقه الكثير من المردود. ووصلت الحال إلى أن الرئيس مبارك أطلق صرخة إنذار، الأسبوع الماضي، نشأت عن تقارير مقلقة معززة بالأرقام وضعها المصرف المركزي أمامه وأظهرت إحصاءات المصرف أن حجم الإستيراد بلغ خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة 51 مليار دولار، في حين لم تتجاوز الصادرات السلعية 12 ملياراً والبتروولية ستة مليارات في الفترة ذاتها. أما النشرة الإقتصادية الصادرة عن مركز المعلومات التابع لمجلس الوزراء

الهيبة ستسترد مصر الناصرية شعبيتها العربية وتصبح بالتالي مالكة بعض الأوراق التي تخدم بها إقتصادها وخطط التنمية المتعثرة، فضلاً عن أن عبد الناصر سيعود كما كانت حاله في الماضي لاعباً أساسياً على المسرح الإقليمي ورقماً صعباً عند صياغة المعادلات الدولية وزعيماً للعالم العربي.

رأى الرئيس الخلف أنور السادات ان التطلعات الناصرية تحتاج إلى نفْس طويل وإلى المزيد من التضحيات، فارتأى إدخال تعديلات جذرية على خطة التحرير التي بدأها الرئيس السلف جمال عبد الناصر تقضي أولاً بتقليص الوجود الناصري في الحُكم أو إلغاء هذا الوجود إذا أمكن وهذا ما فعله عندما ضرب مراكز القوى الناصرية وأحل محل هؤلاء كمرحلة إنتقالية أشخاصاً لديهم القابلية لأن يصبحوا ساداتين. وهذه الخطوة تخدم الخطوة اللاحقة التي أرادها، وهي التركيز على أن تكون معركة التحرير من أجل حل مشاكل مصر وليس من أجل إستعادة الهيبة على نحو ما كان يتطلع إليه عبد الناصر، فضلاً عن أن الصيغة الساداتية للتحرير من شأنها أن تجعله، أي السادات، رقماً صعباً على الصعيد الدولي ومن دون أن يعير مسألة الحضور المصري للزعامة المصرية على الصعيد الإقليمي الإهتمام، بل قد يجوز الإعتقاد أنه كان يرى في حال نجاح خطته أن القادة العرب سيسيروا وراءه وينفذون طلباته ومن دون أن يجرؤ هؤلاء على التردد ما دام بات ضامناً الدعم الدولي له. تبين في ما بعد أن خطة التحرير التي أدخل الرئيس السادات عليها تعديلات جذرية تقضي بأن تكون المعركة ذات ملامح مصرية فقط بمعنى أن يستعيد سيناء وقناة السويس. ولقد تحقق له ذلك بالعبور والإنتصار المبهر الذي ما لبث أن أَلقت «ثغرة الدفرسوار» بعض الظلال عليه. ثم تبين أن هذه الثغرة كانت على شيء من الإفتعال المتفق عليه بغرض أن تسير الأمور في الإتجاه الذي كانت نهايته زيارة القدس وإلقاء الخطاب الشهير في الكنيسة، وصولاً إلى «كامب ديفيد» حيث أبرم السادات ورئيس حكومة إسرائيل مناحيم بيغن وبرعاية الرئيس جيمي كارتر في منتجع «كامب ديفيد» معاهدة سلام دفعت مصر ثمنها غالباً لأن القادة العرب الذين إفترض السادات أنهم سيسيروا وراءه مرغمين تتادوا إلى قمة قضت مقرراتها بإنزال أشد القصاص في حق النظام المصري، وهو إسقاط عضويته في الجامعة العربية، إضافة إلى

فأشارت إلى أن حجم الصادرات في الأشهر الستة الأولى من العام 2001 بلغ ما قيمته بالدولار 2.30 مليار دولار، في حين بلغت الواردات 6.75 مليار دولار أي بعجز قدره 4.43 مليار دولار.

وحيث أن هذه الأرقام المقلقة جاءت مبارك في وقت منيت السياحة في مصر بإنتكاسة ناشئة عن تداعيات العملية الترويحية يوم 11 سبتمبر الماضي في كل من نيويورك وواشنطن على معظم دول العالم، وبالذات على قطاعي السفر والسياحة، فإن الرئيس المصري أطلق، الأسبوع الماضي، صرخة إنذار صاعق تمثلت في قوله «إن الصادرات بالنسبة إلى البلاد باتت مسألة حياة أو موت». ثم أعقب إطلاق الصرخة بزيارة قام بها إلى المملكة العربية السعودية وأخرى قام بها إلى ليبيا على أمل أن يجد في هذين العمقين إضافة إلى العمق العراقي ما يخفف من وطأة الحالة المفاجئة.

كيف سيحل الرئيس مبارك هذا المأزق في بلد الستين مليوناً والذي إمتلأ بعشرات «السوبرماركت» والوف الهواتف النقالة وجميع موديلات السيارات والكهربائيات والراقصات والخادومات الوفادات ولم يبق إلا أن يأتيه فلاحون وافدون، وإمتلأ أيضاً بكل الكماليات الموجودة في أسواق الدول الكبرى المنتجة وتفيض عما يحتاجه السكان في هذه الدول ... و... والخ؟

من الصعب الإجابة ومن الأصعب العثور على حل إلا إذا إمتلأت الصحراء بعشرات الآبار من النفط والغاز وتم إستخراج الذهب والمعادن من باطن الأرض المصرية على نحو ما تردد في الماضي من معلومات بشأن وجود هذه الثروات التي تحتاج فقط إلى من يستخرجها.

وما يلفت الإنتباه هو أن هذا الوضع المقلق يحدث بينما مصر لم تقرر الإستدارة وتمارس دورها القومي بالكامل، وبالذات في ما يتعلق بالمعاهدة مع إسرائيل التي تحول دون ممارسة هذا الدور على ما هو مؤمل من مصر في شأن النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي، خصوصاً أن دبابات شارون التي يستعملها ضد الفلسطينيين في هذا النزاع وصلت إلى الحدود مع الأرض المصرية وبات هديرها يصم آذان الذين يقطنون على تلك الأرض.

ونخلص إلى القول إن الرئيس السادات أراد السلام خلاصاً لمصر من متاعبها المعيشية والإقتصادية

وبحيث ان كل مستلزمات المعركة يتم تجييرها إلى التتمية، لكن هذا السلام لا يبدو أنه الحل ربما لأن الإنتقال من مجتمع الحرب والإشتراكية إلى مجتمع السلام والإستهلاك كان صاعقاً ولم يمر بمرحلة إنتقالية لأن الرئيس السادات إفترض أنه بالإنتفاخ بأوسع الأبواب ومن دون وجع القلب الذي تسببه المرحلة الإنتقالية، يستحوذ على قلوب المصريين وينتزعهم نهائياً من حبهم لسلفه عبد الناصر حتى بعد رحيله.

اعان الله الرئيس مبارك على مواجهة هذا المأزق الذي ورثه من دون أن يرتضيه والذي يحاول جاهداً علاجه.. ولكن العلاج يحتاج إلى معجزة ويتسبب في وجع دماغ. وما صرخة الرئيس مبارك سوى دليل على ذلك.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 5 ديسمبر (ك) 2001

العرب... والمستشار كريستوفر

إستبشرنا خيراً عندما بلغنا ان واحداً من الدبلوماسيين الأميركيين المرموقين بات مستشاراً للشؤون العربية في وزارة الخارجية. ورأى كثيرون أن تعيين هذا المستشار هو ما كانت تحتاجه الخارجية الأميركية ومن شأنه ان يصحح الكثير من المفاهيم ويفرمل بعض الشيء الجموح السائد في بعض مفاصل الوزارة وكيف أن القيّمين على هذه المفاصل لا ينظرون إلى المنطقة العربية إلا بالعين الإسرائيلية، وهو أمر لا يتصف بالحكمة والموضوعية ويجعل التوازن مفقوداً في تعامل الإدارة الأميركية مع القضايا العربية.

هذا الدبلوماسي المرموق هو كريستوفر روس الذي إنتهى به مطاف عمله الدبلوماسي مستشاراً في الخارجية، وهو منصب فرضته الضرورة الناشئة عن تداعيات العملية الترويحية يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001 التي إستهدفت مركز التجارة العالمي في نيويورك ومقر وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون) في واشنطن. والضرورة بغرض اقناع العرب والمسلمين بما إرتأت الإدارة الأميركية القيام به رداً على تلك العملية ومن دون أي إستفسار أو مناقشة من جانب أحد،

في كل من الجزائر ودمشق أن يعرف ما لا يعرفه آخرون وبنى علاقات وصداقات ساعد على تقويتها أنه متحدث لبق ويملك «كاريزما» يفقد إليها كثيرون. ومن يعمل دبلوماسياً في العواصم الثلاث المشار إليها وفي الحقبة الممتدة من أواخر الستينات إلى الثمانينات يصبح قادراً خصوصاً إذا هو قرر - على نحو ما فعل - أن يتعلم اللغة العربية ويصبح فيها قارئاً ومتحدثاً وكأنه أحد أبنائها أو أنه مع شيء من التشبيه بات مثل «لورنس أوف اربايا»، ملماً بحقائق الصراع وقادراً على التحليل الموضوعي إذا هو أراد. وفي العواصم الثلاث استطاع كريستوفر روس أن يكتشف ولا بد، أن بلاده محبوبة من العربي والمسلم وأنه لا أحد يكره أميركا ولا أحد يتمنى لها غير الخير وأن الحكام ليسوا وحدهم يطلبون ودها. وحتى الرئيس جمال عبد الناصر كان يتطلع إلى هذا الود وكان ضمناً منزعاً من أن جون فوستر دالاس خيَّب له أمله في أن تساعد الولايات المتحدة في بناء السد العالي في اسوان. كما أن كريستوفر روس لمس وبالعين المجردة والرؤية المتبصرة كيف أن العربي الثوري قبل المحافظ يتمنى أمراً في منتهى البساطة تحققه له أميركا وهو أن تكفيه شر إسرائيل فتعيش هذه بسلام وتترك المنطقة تهدأ وتخلد إلى التمنية، وبالذات بعدما إستقر الرأي على القرار الدولي 242 وعلى الإجماع العربي على المشروع الذي عُرف بـ «مشروع الملك فهد» في قمة «فاس» والذي بُنيت صيغة مؤتمر مدريد على روحية مضامينه المتوازنة. وبطبيعة الحال فإن العربي والمسلم عموماً عندما يلاحظ أن الإدارة الأميركية لا تنظر بجدية إلى تطلعاته ولا تكتفي بذلك وإنما تتاصر إسرائيل المعتدية وبالذات بعد صدور القرار 242 مع أن المفروض إجبارها على تنفيذ هذا القرار، فإنه يشعر بأن أميركا هذه التي في مخيلته لا تريد له الخير ما دامت تسمح لنفسها بأن تتاصر إسرائيل المعتدية ولا تقف في صف المعتدى عليهم على نحو الوقفة الشريفة التي سَجَّلها في الخمسينات الرئيس إيزنهاور أزاء العدوان الثلاثي على مصر.

ونجد أنفسنا هنا نتساءل: ما دام كريستوفر روس على هذا الإطلاع وعلى هذا الإستيعاب للحقائق الغائبة أو المغيبة عن أهل القرار الأمريكي، فما الذي يجعله لا يقوم بمهمة التتوير التي تحتاج إليها بلاده بمثل حاجة العرب والمسلمين إليها فيوضح لبنى قومه وبالذات في بعض مفاصل وزارة الخارجية أي خطأ يرتكبه في عدم إستيعابهم لحقائق الصراع العربي - الإسرائيلي ويصور

وليس بمعنى تصويب النظرة الأميركية عموماً وفي دهاليز وزارة الخارجية بالذات إلى الخصوصية العربية والإسلامية وكيف أن ما تراه العقلية الأميركية بسيطاً يكون أحياناً بالنسبة إلى العربي والمسلم أمراً في غاية الأهمية ويكون جزءاً من تراثه وتقاليد و تربيته. ومن هذه الأمور عدم محاربة شعب مسلم في شهر الصوم وعدم الخط بين العمل الإرهابي الممقوت والمرفوض من أي مسلم عربياً كان أو غير عربي وبين المقاومة التي هي حق مشروع وبالذات لمن إستُلبت أرضه وحقوقه.

ولأن هذا هو ما أرادته الخارجية الأميركية من كريستوفر روس فإن مهمة الرجل تعثرت مع الأسف. وبدل أن يكون دوره إقناع بعض بني قومه في الخارجية الأميركية بضرورة تعديل بعض المفاهيم وبأن يكون التفهم مع العرب والمسلمين متكافئاً ومن منطلق الرغبة بالفهم والتفهم المشترك، فإن كريستوفر روس طلع على أصدقائه العرب شاهراً عليهم منطقاً طالما إعتادوا على قراءته في التحليلات التي تنشرها بعض الصحف الأميركية لبعض الكُتاب من حملة الولاء المزدوج والذين كثيراً ما أساءوا في تحليلاتهم، التي تتسم بالتحيز لمصلحة المنطق الإسرائيلي الكثير الإعوجاج، إلى العلاقات بين دول عربية تربطها بالولايات المتحدة علاقات تاريخية أو إستراتيجية مثل مصر والمملكة العربية السعودية التي تكاثرت الكتابات المسيئة عنهما في هذه الصحف. كما أنه كان مفتقداً الإنصاف في نظرتة للعدوان الشاروني على الشعب الفلسطيني وبالذات بعدما وصل هذا العدوان إلى حد الإنتقام من السلطة الوطنية الفلسطينية ورئيسها الذي لم يكفه ما يصيبه من اللوم لأنه ذهب بعيداً في التأمرك وفي مسايرة أبناء عمه اليهود فجاءه الإنتقام الشاروني منه بجعله لا هو بخير مع بني قومه ولا هو بخير مع بني عمه. وبسبب عدم إنتهاج الأنصاف منطقاً وأسلوب مخاطبة فإن خيبة الأمل بالمستشار الذي علّقنا كعرب الكثير من الآمال على حضوره كشاهد حق في الخارجية الأميركية كانت كبيرة.

الذي جعلنا نستشير خيراً بإختيار كريستوفر روس ليكون مستشاراً في الخارجية الأميركية للشؤون العربية هو أن الرجل عرف المنطقة في أزهى سنوات المد القومي ثم في مرحلة إنحسار هذا المد وبروز المد الإسلامي، وكان شاهداً ميدانياً على ثورات وحروب وإنقلابات ومؤامرات عصفت ببعض دول المنطقة. ولقد تسنى له في العواصم التي عمل فيها دبلوماسياً بدءاً بمنصب السكرتير في بيروت وصولاً إلى منصب السفير

التصحيح المأمول...

من بريطانيا 2002

من باب المصادفة، أو أن الأمر مفتعل إلى حد ما، جاء طرح الرؤى الأميركية للنزاع الفلسطيني - الإسرائيلي وكيف يمكن إيجاد الحل لهذا النزاع في الشهر الذي شهد في زمنين متفاوتين أخطر حدث في تاريخ القضية الفلسطينية.

الرؤية الأميركية طرحها وزير الخارجية كولن باول يوم الإثنين 19 نوفمبر (تشرين الثاني) 2001 في خطاب ألقاه في جامعة «لويفيل» في ولاية كنتاكي، وجاء طرحها في وقت بدأ «نظام طالبان» في أفغانستان يتهاوى أمام القصف الجوي الأميركي حيث تساقطت عشرات القذائف زنة الواحدة منها سبعة أطنان فوق مناطق عدة من أفغانستان أبرزها العاصمة كابول، إنما من دون أن يتضح مصير الراسين المطلوبين الملا محمد عمر رئيس «طالبان» وضيئه المطلوب رأسه حياً أو ميتاً أسامة بن لادن. وهو مصير لم يتضح طوال أيام الشهر الفضيل رمضان حيث القصف الأميركي إستمر وعلى نحو ما كانت كل الدول الإسلامية الصديقة للولايات المتحدة لا تريد ذلك. ثم ودعنا شهر الخير والبركات والوضع على حاله. وفي التاريخ نفسه من العام 1977، وصادف يوم السبت وصادف أيضاً عشية عيد الأضحى المبارك، فاجأ الرئيس أنور السادات الشعب المصري والأمم العربية والإسلامية والعالم بزيارة قام بها إلى القدس تلبية لدعوة رسمية تلقاها من رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن يوم 15 نوفمبر واختار الرئيس المصري (الذي لقي حقه اغتيالاً في حادثة المنصة الشهيرة يوم 6 أكتوبر 1981 جزاء زيارته هذه) أن يقوم بالزيارة يوم السبت 19 نوفمبر وأن يهبط في إسرائيل بعد غروب الشمس وبأن يؤدي صلاة العيد يوم الأحد 20 نوفمبر في المسجد الأقصى في القدس ثم يزور كنيسة القيامة، وبعد الظهر يلقي خطاباً في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي).

وقبل أربع وثمانين سنة وتحديداً يوم الثاني من نوفمبر 1917 كان وزير خارجية بريطانيا المشجع بتربية متأثرة بالتعاليم التوراتية مع انه مسيحي محافظ، والمعجب كل الإعجاب بالزعيم الصهيوني حاييم وايزمان، يبعث برسالة إلى المليونير اليهودي المعروف

لهم حجم الضيق الذي أصاب اللبنانيين عندما آزت أميركا إسرائيل في عدوانها عليهم وحجم الأسف الذي كان يعتمر في صدر الرئيس حافظ الأسد لأن الولايات المتحدة أخذت منه أكثر بكثير مما أعطته، بل أنها أخذت ومن دون أن تعطي وخيبت ظنه في أنها بعد مؤتمر مدريد ونتيجة للوقفة السورية المدروسة والدقيقة في حرب الخليج الثانية لا بد ستتقهم ما الذي تعنيه إعادة الجولان بالنسبة إلى رصيده وتاريخه وكيف أن الرجل رحل وفي صدره ضيق شديد لأن ما أراده لم يتحقق رغم لقاءات القمة الأميركية - السورية في جنيف ودمشق ورغم المرونة التي أبداها الرئيس الأب وأورثها إلى الرئيس الإبن، الذي تواصل الإدارة الأميركية الضغط عليه بدل أن تتعامل مع النهج المتوازن الذي قرر إعتماده بالطريقة التي لا تجعل الحذر يستحكم في نفس الرئيس الشاب، على نحو إستحكامه في نفس عبد الناصر الذي كان في عمر الرئيس بشار عندما بات رئيساً لمصر وطلب الود الأميركي فخذله دالس.

إن كلاماً كثيراً يمكن قوله في هذا الشأن ولكننا نختصر متمنين على كريستوفر روس أن يكون المستشار الموضوعي فيشير على بني قومه بما ينفع بلده أميركا التي كانت الجامع المشترك لدى العرب والمسلمين في حبهم لها والتودد منها، ثم باتت الدولة التي يشكو هؤلاء من ظلمها وعدم رغبة إدارتها بالنقهم وقيامها بدور الوسيط النزيه ما دامت هي الممسكة بمقود دقة إدارة شؤون العالم ولا تترك المجال امام آخرين للمشاركة أو حتى لإبداء الملاحظة وإسداء النصيحة. أما إذا كان سيستمر يخاطب العرب عبر الفضائيات بالأسلوب الذي يعتمده والمفردات التي يحفل بها هذا الأسلوب، فإنه بذلك سيضيع فرصة قد لا تتكرر وتتمثل في أن هنالك دبلوماسياً أميركياً مرموقاً تم تعيينه مستشاراً للشؤون العربية في وزارة الخارجية الأميركية فإذا به يستنقز العرب، بدل أن يشير على أهل القرار الأميركي بأن يجربوا ولو لمرة واحدة النزاهة والحياد والنقهم والموضوعية بالنسبة إلى القضايا التي تعني الكثير للعرب والمسلمين... ومنها، أو لعل أبرزها، الصراع العربي - الإسرائيلي.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 12 ديسمبر (ك) 2001

* * *

اللورد روتشيلد نصت على الآتي: «عزيزي اللورد روتشيلد، يسعدني كثيراً أن أنهى إليكم نياية عن حكومة جلالة الملك، التصريح الآتي: تعاطفاً مع أمانى اليهود الصهيونيين التي قدموها ووافق عليها مجلس الوزراء، فإن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين. وستبذل أفضل مساعيها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جلياً أنه لن يُسمح بأي إجراء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الجماعات غير اليهودية القائمة في فلسطين، ولا بالحقوق أو بالمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى...».

هذه المبادرة من جانب وزير الخارجية البريطانية التي جاءت في صيغة رسالة من لورد إلى لورد لم تأت من فراغ، حيث أن بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا عام 1839، أي عندما كانت بريطانيا إمبراطورية عظمى وصاحبة يد طويلة في أكثر من بلد في قارات العالم الخمس وعلى نحو ما هي عليه حال الولايات المتحدة اليوم، كان دعا زمناً إلى زرع كيان يهودي إسرائيلي في فلسطين بهدف قطع الأواصر بين مصر ودول المشرق العربي وهي سياسة إستمرت ثابتة من جانب بريطانيا في عهودها المختلفة، وجاءت إتفاقية كامب ديفيد بعد بضعة عقود تكرر هذا الغرض.

ويوم الثاني والعشرين من نوفمبر 1967 كان مجلس الأمن الدولي يصوّت على مشروع القرار الذي صاغه لورد بريطاني آخر وهو القرار المعروف بالقرار 242 والذي ذاع صيت واضعه اللورد كارادون كسياسي شديد البراعة في جعل أطراف النزاع يختلفون في التفسير بسبب حرف واحد من كلمة ذلك أنه بدل أن يقول كارادون عند الصياغة «الأراضي» فإنه على عادة رجال السياسة البريطانيين إزاء كل ما يتعلق بالعرب واليهود زرع إشكالية وظفتها الدولة العبرية لمصلحتها أمكر توظيف، حيث أنها منذ 34 سنة تتصرف على أساس أن مشروع القرار الذي صاغه اللورد كارادون لا ينص على إنسحابها من كل الأراضي التي إحتلتها في حرب 5 يونيو (حزيران) 1967 وإنما من «أراضٍ»، وهذا يعني أنها هي التي تحدد هذه الـ «أراضٍ» وبما يناسب سياستها وأمنها. ونقول ذلك مع الأخذ في الاعتبار أن اللورد كارادون حاول بعد ذلك، ومن منطلق فهمه العميق للمنطقة

العربية والمآله بحقائق التكوين النفسي لحكامها وشعوبها، أن يبرئ ذمته من مسألة الصياغة.. ولكن بعد ماذا؟ فقد بات مشروع القرار قراراً رسمياً ولا مجال لأي تعديلات. ولم تجد الأطراف العربية ثغرة سوى القول إنها ستأخذ بالنص الفرنسي للقرار الذي يخلو من مسألة «أراضٍ» وترى صياغته أن الإنسحاب الإسرائيلي يشمل كل الأراضي المحتلة.

الآن وفي ضوء هذا الواقع المرير الذي تعيشه القضية والرؤى العقيمة التي تصدر من الطرف الأميركي فضلاً عن التصريحات العشوائية التي تنفذ أبسط قواعد اللياقة والتي تتضح بإنحياز أعمى لإسرائيل، نجد أنفسنا نطالب على الأقل بتنفيذ مضمون وعد بلفور الذي إستندت إليه الدولتان الكبيرتان الولايات المتحدة وبريطانيا ومعهما بعض الدول الكبرى ومعظم الدول الأوروبية، في تصميمها على إقامة الكيان العبري. فالوعد البلفوري ينص على «تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين». ومثل هذه العبارة تعني أن يكون لليهود فلسطين فقط وطن وليس لكل يهود العالم. كما تعني أن يكون هذا الوطن على جزء من الأرض الفلسطينية وليس على كل أرض فلسطين... ومن أجل ذلك فإن العبارة هي «وطن قومي في فلسطين» وليس وطناً بديلاً عن فلسطين، ويكون اسمه بعد ذلك كما إرتأت الصهيونية: «إسرائيل». كذلك ينص الوعد البلفوري على الآتي: «وستبذل (أي الحكومة البريطانية) أفضل مساعيها لتسهيل تحقيق هذه الغاية (أي تأسيس الوطن القومي للشعب اليهودي في فلسطين) على أن يفهم جلياً أنه لن يُسمح بأي إجراء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الجماعات غير اليهودية القائمة في فلسطين». ومثل هذه العبارة تؤكد فقط إستمرار وجود فلسطين (والقراءة المتأنية توضح ذلك) وإنما تنبه وبصيغة الإشتراط إلى عدم إلحاق الضرر بحقوق الفلسطينيين المدنية والدينية.

ونحن اذا تأملنا في كل التصرفات التي تحدث من جانب العصابات الصهيونية على أرض فلسطين من بداية الخمسينات وحتى الزمن الشاروني الأكثر سوءاً، نرى ان كل الممارسات الإسرائيلية تناقض الوعد البلفوري، حيث أن الإستيلاء شمل كل فلسطين وحيث أن الضرر يلحق بالحقوق المدنية والدينية للفلسطينيين مسلمين ومسيحيين، وحيث أن الحكومات الإسرائيلية تمارس العنصرية والأساليب النازية وتتصرف على

نحو أنها إشترت وعد بلفور بالمال اليهودي دفعه كرشوة المليونير اليهودي روتشيلد إلى زميله في اللوردية وزير خارجية بريطانيا جيمس ارثر بلفور، وأن من يشتري ويدفع لا يعود من حق الذي باع أن يناقشه في شيء.

وعندما نطالب بريطانيا العام 2002 الذي يبدأ بعد 11 يوماً، ومن خلال حكومتها الحالية التي يترأسها طوني بلير بإعادة قراءة النص البلفوري والتصحيح من خلال التنفيذ الحرفي لروحية مضمون هذا الوعد التي هي بروحية القرار 242 الذي صاغه اللورد كارادون، فعلى أساس أن الأحفاد يتحملون مسؤولية أخطاء الأجداد وأنهم ما داموا يتعاطون مع تطورات الصراع الناشئ عن تلك الأخطاء فإن من حق المتضررين عليهم مطالبتهم بذلك التصحيح، علماً بأن هذه المطالبة تكررت مراراً. ولا تزال ماثلة أمامنا مطالبة ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز لرئيسة الحكومة البريطانية السابقة مارغريت ثاتشر ولدى زيارة رسمية قام بها إلى بريطانيا عام 1988 بالتصحيح وبقوله بالحرف الواحد لها «إن وعد بلفور عار يجب أن يُصحح...». ونعتقد أنه في حال قررت الحكومة البريطانية التصحيح وذلك بتطبيق روحية وعد بلفور في الحد الأدنى، فإن دولاً أوروبية كثيرة ستبدي مشاعر الإرتياح لذلك، ومن بين هذه الدول فرنسا التي على رغم تباهاها بأن أجداد الشيراكيين والإشتراكيين، لم يفعلوا ما فعله الأجداد البريطانيون ولم يكن هنالك بلفور فرنسي، إلا أن السياسة الفرنسية ليست في المستوى المطلوب منها إزاء القضية الفلسطينية. وليس هنالك ضرورة لهذا التصحيح أكثر من الآن. ولذا فإننا في ضوء تقاطعات طفيفة بين الإدارة الأمريكية والحكومة البريطانية نتمنى أن تصدر عن بريطانيا 2002 مبادرة في هذا الشأن تكون بمثابة إقتحام جريء للأسوار المحيطة بالقضية الفلسطينية. ومن مظاهر هذه التقاطعات أنه في الوقت الذي كان الرئيس جورج بوش الابن يستقبل في البيت الأبيض يوم الأربعاء 12 ديسمبر (كانون الأول) 2002 عدداً من القادة اليهود بعد أن شارك معهم في مراسم إشعال شمعة عيد الأنوار اليهودي «حانوكا» ثم يدلي بتصريحات عشوائية وتفتقد إلى اللياقات وينقصها بُعد النظر في حق قيادات عربية وطنية تحظى بالانفاز شعبي حولها، تنكّر فجأة شارون فمنحه تحية دعم تمثلت في القول: «إنني لو كنت محل شارون لفعلت

مثله وأنه إذا منحت سوريا ولبنان الحماية لحركة «حماس» و«حزب الله» فإن هذين البلدين لن يختلفا عن نظام طالبان... إنه في هذا الوقت كان الإنزعاج الرسمي والشعبي متواصلاً من إختراق السفير الأميركي لدى لبنان فنسنت باتل لجدار اللياقات وذلك من خلال كلام في ندوة تلفزيونية لم يحترم فيه أصول مخاطبة رئيس الدولة إميل لحود، وكان الطيران الإسرائيلي يخترق جدار الصوت بقوة في سماء العاصمة اللبنانية بيروت، وكان سفير بريطانيا لدى لبنان في طريقه إلى الضاحية الجنوبية من العاصمة لعقد إجتماع مع الأمين العام لـ «حزب الله» الشيخ حسن نصرالله هو الأول من نوعه. وفي هذا الإجتماع الذي سَهّل أمر عقده التطبيع الإيراني - البريطاني وزيرة وزير خارجية بريطانيا قبل حوالي شهرين إلى طهران، تحاور الطرفان على مدى ساعة ونصف الساعة مختلفين حول أمور أساسية ومتفقين على إستمرار التواصل. وبدا الكلام الودي من السفير ريتشارد كينشن بعد اللقاء عن «حزب الله» وقوله «إن الهدف من الدبلوماسية هو توسيع رقعة التفاهم» وكأنما هنالك شوكة توخز ضمير الأحفاد البريطانيين ويريدون نزع هذه الشوكة التي إسمها «وعد بلفور»... إنما في الوقت الذي يشعرون فيه أن الإدارة الأميركية تعطلت بعض الشيء.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 19 ديسمبر (ك) 2001

«أسير العام»... مانيلا الفلسطينية؟

لو كان هنالك كتاب خاص بزعماء دول العالم يتم فيه تسجيل الحالات القياسية لكان هذا الكتاب خص الرئيس ياسر عرفات بصفحة كاملة تسرد بسطورها حالته كـ «أسير العام» كتسمية بديلة لـ «رجل العام» التي إعتدنا نحن معشر الصحفيين على إعتمادها في نهاية كل عام. فليس هنالك حالة تشبه حالته بإستثناء، من خلال بعض الزوايا، حالة تشومبي الذي أمر الرئيس جمال عبد الناصر بوضعه قيد الأسر عندما جاء إلى القاهرة للمشاركة في مؤتمر، وذلك تكريماً من الرئيس المصري (الراحل) لصديقه باتريس لومومبا الذي كان تشومبي خلعه وحل محله رئيساً للكونغو.

حضوره البريطاني بفضل حنكة سفيره المتميز عفيف صاغية وحضوره الفرنسي بفضل حنكة مماثلة تمتلكها سفيرته المتميزة ليلي شهيد، لافتاً للإنتباه.

وكان عرفات دائم التطلع إلى أن يحظى في البيت الأبيض بمثل ما حظي به من «اللايزيه» «10 داوننج ستريت» و«الكرملين» ولدى الزعامة الصينية وأهل الحكم في الهند والبرتغال وإيطاليا وتركيا وإسبانيا وغيرها كثير، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الخطوات لم تعوضه الخطوة التي يتطلع إليها وهي أن يتمشى في أروقة البيت الأبيض جنباً إلى جنب مع جورج بوش الابن أو يتنزهان معاً في ممرات منتجع كامب ديفيد على نحو «السيران» الشهير مع الرئيسين السابقين المتواريين عن المسرح السياسي بيل كلينتون وإيهود باراك.

وثمة خطوة عربية لم تعوّضه فقدانها الخطوة المصرية حيث سجل الرقم القياسي بين زعماء العالم في لقاءاته مع الرئيس حسني مبارك، والخطوة الاردنية مع الملك عبدالله الثاني ومع ابو عبدالله الملك (الراحل) حسين من قبل حيث أن كثرة لقاءاتهما بدت كما لو أنها «بروفة» لما يمكن أن ينتهي إليه الحال بعد قيام الدولة الفلسطينية، وهو إتحاد بين المملكة والدولة يحمل اسماً ملكياً أو اسماً رئاسياً، على نحو التسمية الرئاسية التي إرتضاها الشيخ زايد بن سلطان للإمارات التي توحدت. وهذه الخطوة المفتقدة التي شكلت ما يشبه الحسرة في نفس الرئيس عرفات هي الخطوة السورية والخطوة اللبنانية. والإنتتان محفورتان في الوجدان العرفاتي ولا خطوة أخرى تعوضهما، أو على الأقل تساوي منزلتهما في النفس. ونقول ذلك مع الأخذ في الاعتبار أن الرئيس عرفات أضاع الحظوتين المشار إليهما بعدما جنح إلى أسلوب المراهنة وظن أنه كلما تملص من زيارة دمشق التي إرتأى الرئيس بشّار الأسد فتح بوابتها أمامه كلما ربح المزيد من الرضا الأميركي والإطمئنان الشاروني. وكان ظنه إثمًا إرتكبه في حق نفسه وفي حق القضية. وهو، بعد الذي مُني به على الأيادي الشارونية الماطخة بدماء المقاومين والأبرياء والأطفال الفلسطينيين، كان من مصلحة القضية التي يعمل من أجلها أن لا يراهن فيزور، وأنه إذا كان لا بد من التكتكة فبههدف تطوير الموقف المشترك نحو الأحسن. كما أنه لو نال الخطوة السورية لوجد نفسه بطبيعة الحال ينال الخطوة اللبنانية على أهون السبل.

هذا الذي أصاب الرئيس عرفات أمر إستثنائي في تاريخ العلاقات بين الدول. بل لعله من الخوارق في مجال العمل السياسي. فهو أقل من رئيس دولة وأكثر من رئيس سلطة. وهو معترف به من كل دول العالم بما في ذلك إسرائيل التي باتت أسيراً لدى حاكمها وظالمها أرييل شارون. وهو كل البوابات الملكية والرئاسية (عدا سوريا ولبنان مؤقتاً وبسبب رهاناته) مفتوحة أمامه. كما أن السجاد الأحمر في بعض مطارات عواصم دول العالم فرشوه له وعزفوا له السلام الوطني ومعه النشيد الفلسطيني. وهو نادراً ما إستثنى خد أو جبين أو رأس أو كتف حاكم في دول العالم من قبلة عرفاتية طبعها عرفات وبحرارة وإلى درجة ان دبلوماسية التقبيل باتت واحدة من إبتكاراته في مضمار بناء العلاقات. وسجلت هذه الدبلوماسية أعلى درجاتها غرابة وإستهجاناً عند تقبيل عرفات يد «أم البروشات» الإستقزازية مادلين أولبرايت، وهي قبلة تحلم بها أولبرايت العهد الجمهوري كونداليزا رايس وليس واضحاً ما إذا كانت ستتناها في حال لم تتبدل السياسة الأميركية الراهنة تجاه القضية الفلسطينية. كما أن هذه الدبلوماسية سجلت أعلى درجاتها خروجاً على المألوف عند تقبيل عرفات خلال زيارته الأخيرة إلى الفاتيكان يد البابا يوحنا بولس الثاني الذي إستحضر المحنة العرفاتية ولا بد عندما دعا (أي البابا) أكثر من 800 مليون كاثوليكي في العالم إلى صيام اليوم الأخير من رمضان الكريم الذي ودعناه يوم الأحد 16 ديسمبر (كانون الأول) الجاري حامدين شاكرين حزينين منقبضة قلوبنا مجروحة مشاعرنا متفائلين للمحنة الفلسطينية بالخير علنا نجده. وكانت لفظة مهيبة من الفاتيكان أراد منها البابا يوحنا بولس الثاني تأكيد التضامن الديني مع الإسلام والمشاركة الوجدانية مع المؤمنين المسلمين، وأراد منها أيضاً أن تكون خطوة تسبق أو تمهّد للخطوة الأخرى المتمثلة في دعوته المراجع الروحية الإسلامية والمسيحية واليهودية إلى صلاة مشتركة من أجل السلام والعدالة وضد العنف والإرهاب تقام في مدينة السلام الإيطالية «أسيزي» يوم 24 يناير (كانون الثاني) 2002 على غرار صلاة عام 1986 في المدينة نفسها.

وإلى ذلك فإن الرئيس عرفات هو صديق عدد كبير من زعماء العالم والرؤساء الحاليين والسابقين. ولقد إفادته المرونة التي تتسم بها تصريحاته فبات محبوباً من البعض ومستحبة زيارته من البعض الآخر، وبات

أم القضايا العالقة... في سنة ولا كل السنين

نودع بعد غد (الإثنين) سنة كانت ولا كل السنين. قاسينا منها كما لم نقاس من قبل. وداهمتنا المخاوف على المصير والخشية على الكيانات. أما خيبة الأمل بهذه السنة فكانت ولا كل الخيبات، ذلك اننا إعتبرنا إستناداً إلى الوعود وإلى الوجوه التي إقتحمت ساحة العمل الدولي وبالذات في الولايات المتحدة أن الإنفراج سيدق أبواب المنطقة، بل أن الإستقرار سيكون الهدية الثمينة التي ستصل إلى المنطقة مقرونة بالوعود القاطعة بأنه سيكون الإستقرار الذي لا تهزه الرياح المزاجية، وسيكون الإستقرار الذي يحقق إزدهاراً نوعياً. ولم يخطر في البال على الإطلاق أن الصهيونية، التي لا تريد لهذا الإستقرار أن يحدث، ستشعل المنطقة غضباً وعنفاً فيدمر شارونها ومن خلال صيغة حكومة «الوحدة الوطنية» التي تصلح لمرحلة يتحقق فيها السلام، كل ما تم إنجازه منذ مؤتمر مدريد من خطوات على طريق القبول العربي والإسلامي بالأمر الواقع الدولي الذي يرى أن تكون إسرائيل مطمئنة في محيطها العربي وذلك بإعتراف العرب والفلسطينيين على حد سواء بها والتخلي عن الحلم الذي يقضي بالتحريض من البحر إلى النهر. وبصرف النظر عما إذا كان إستعجال الثقة من جانب الأنظمة العربية بالإدارة الأميركية مبالغاً به في مؤتمر مدريد، وكان الإستعجال الفلسطيني في صفقة أوسلو نوعاً من التهور إفتقد فيه المحاور الفلسطيني إلى الحكمة تاركاً إرادته تضعف بعض الشيء أمام الكلام الإسرائيلي المعسول، فإن إسرائيل أثبتت خلال السنة التي كانت ولا كل السنين أنها لا تحترم عهداً ولا تتفقد إنفاقاً ولا تصدق القول ولا هي راغبة بالسلام، وأن مخططاتها ومنذ مؤتمر مدريد كان تفكيك الإرادة العربية وبعثرة القرار العربي من خلال تطبيع من هنا وآخر من أقاصي الوطن مطمئنة إلى أنها قامت على الوجه الاكمل بتأهيل عدد من الشخصيات العربية قفزوا فجأة إلى موقع الصدارة كوزراء أو سفراء أو مستشارين، وكان هذا التأهيل غير مباشر وتحت مظلة تنظيرات أغرت البعض وبالذات أولئك الذين يشكون عقدة الدولة. ولولا أن أطرافاً عربية من بينها المملكة العربية السعودية تنبعت في الوقت المناسب لكانت منطقة

وهذا الرجل الذي له كل هذا الرصيد وكل هذه العلاقات أنصفه الرئيس جورج بوش وأرييل شارون في معرض إهانته وتشويه هيبته. والإنصاف بمعنى أن وضعه في الأسر الشاروني وبموافقة الإدارة الأميركية على هذا الأسر، جعل الرجل يبدو في نظر شعبه انه ليس بذلك المفرط، وانه لو كان كذلك لكان وافق على المطالب الأميركية - الإسرائيلية في «كامب ديفيد الثاني» وفي «وأي ريفر» وفي دهاليز اللقاءات التي تتمحور حول المساومات وتكثر فيها التنازلات. ومن شأن هذا الإنصاف في معرض الإهانة وتشويه الهيبة أن يؤكد حقيقة أن ياسر عرفات هو بالفعل الرقم الصعب. وعندما يتمسك رؤساء الإتحاد الأوروبي به فهذا تأكيد على صعوبة الرقم. كذلك عندما تكون الإدارة الأميركية على هذا الموقف الرجراج التي هي عليه فهذا تأكيد من جانبها أيضاً على ظاهرة الرقم الصعب. ومن الجائز القول إفتراضاً وإجتهداً أن الرئيس بوش عندما قال انه لو كان مكان أرييل شارون لفعل مثله مع الفلسطينيين لم يكمل العبارة، أو أنه كمن رأى النصف الملائن من الكأس بينما هنالك النصف الآخر. ولو كانت ظروفه تجيز له إكمال العبارة لكان قال «وإنني لو كنت مكان ياسر عرفات لكننت فعلت ما يفعله مع شارون» ذلك أن الرؤية الأميركية للدولة الفلسطينية تستوجب وجود قيادتين منهكيتين. والإثنان: قيادة شارون وقيادة عرفات هما في أقصى درجات الإنهاك مع فارق أن شارون قادر أن يضع عرفات في الأسر، وهذا ما فعله، وأن عرفات قادر على إفشال هذا الخيار الشاروني ما دام لم يصدر عن رئيس دولة في العالم كلام يوجي بنفض اليد من عرفات والرغبة في إستبدال الرقم الصعب برقم أكثر سهولة. ويبقى سؤال: إلى متى سيستمر ياسر عرفات أسير شارون؟

هل إلى حين نهاية جنوب أفريقية مع بعض التعديل للمسألة الفلسطينية يكون فيها عرفات الذي هو «أسير العام»... ورجل العام نتيجة ما آلت إليه أحواله، مانديلا الفلسطيني في المستقبل غير المنظور... أم أن الأمور تتسارع بحيث أن ما يجوز في حالة لا يجوز في حالة أخرى؟
الله أعلم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 26 ديسمبر (ك) 2001

* * *

فوز الثنائي الديمقراطي وعدم فوزه وفوز الثنائي الجمهوري وعدم فوزه. وما حدث هو تماماً ما جرى التخطيط له. وفي فترة الشهر التي كانت فيها نتائج الانتخابات معلقة كانت عملية الإبتزاز والمساومة مستمرة، يرافقها التأكد من أن الثنائي الجمهوري لن يساير الفلسطينيين ويساعدهم على تحقيق حلم إقامة الدولة وعاصمتها القدس وأنه لن يستأنف من النقطة التي إنتهت إليها الاتصالات والإتفاقات والمفاوضات حتى اليوم الأخير من الولاية الثانية للرئيس كلينتون وإنما سيترك المجال متاحاً أمام التسبب بحيث اذا قررت حكومة إسرائيل الجديدة والتي تشكلت ضمن صيغة حكومة «وحدة وطنية» أن تفعل ما تريد بالفلسطينيين فإن الموقف الأمريكي ازاء ذلك ينحصر في مجرد الدعوة إلى ضبط النفس في الحد الأقصى والتفهم غير المغلف بأي تحفظات للإجراءات ويكون جاهزاً لإفشال أي قرار لا تريد إسرائيل صدوره عن مجلس الأمن وطوال سنة كاملة لم يصدر عن الإدارة الأمريكية ما يشير إلى العكس. بل أن الأمور تطورت بحيث أن هذه الإدارة تتصلت تماماً من ممارسة دور الوسيط النزيه في النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي، وعندما كانت أعلنت «رؤيتها الفلسطينية» لم تردع أرييل شارون عن الفتك بالفلسطينيين وتكبح جنونه الذي وصل إلى حد البدء بتدمير السلطة الوطنية الفلسطينية وتحويل رئيسها ياسر عرفات إلى سجين في منزله في رام الله ومنعه من مشاركة أنسبائه المسيحيين قداس عيد الميلاد، ومن دون أن يعير شارون تحفظات بعض المحيطين به على هذا الإجراء وتمنيات وإعتراضات أطراف دولية لها شأنها أمثال البابا يوحنا بولس الثاني، أي إهتمام.

لم تقتصر السنة التي كانت ولا كل السنين على أن «أم القضايا العالقة».. القضية الفلسطينية تراجعت بعدما إفتراضنا من كثرة التفاوض وكثرة الوعود وكثرة التنازلات وكثرة الثقة بالإدارة الأمريكية وكثرة الوجود النفسي والمالي والضميري الناشئ عن العدوان الشاروني ولا من يصده والرقاد العربي والإسلامي ولا من يوقظ نائمي، أن نصف قرن من المعاناة يكفي وأن هذه القضية لا بد لها من حل. ولماذا لا ما دام مؤتمر مدريد دشن مبدأ التسوية ضمن قاعدة الأرض مقابل السلام... لم تقتصر السنة على ما أشرنا إليه وإنما غطتها قضية «الإرهاب» الذي كان العلاج له أمراً إختلط فيه الحق بالباطل والضرورة بالإفتراء، والبحث

الخليج باتت بحيرة تسبح فيها تماسيح التطبيع على هواها وكدنا لبعض الوقت نظن أن الإدارة الأميركية في عهد الرئيس بيل كلينتون ستخترق المحظورات وتتولى إستكمال صفقة السبعينات التي أبرمها الرئيس المصري (الراحل) أنور السادات وتعلن عن قيام الدولة الفلسطينية ومن كامب ديفيد نفسه الذي دشّن فيه الرئيس (الديمقراطي) جيمي كارتر مخطط المصالحة بين العرب وإسرائيل مستنداً في ذلك إلى إستعداد نفسي لدى الرئيس السادات وإلى حلم لدى رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن بأن يسجل تاريخ الصهيونية له أنه الثاني بعد بن غوريون في تثبيت الكيان العبري. ولكن الظن الذي هو بمثابة الإثم كان في غير محله، ذلك أن الصهيونية ما أن رأت أن الرئيس كلينتون ذهب بعيداً حتى انقضت عليه من خلال ضعفه أمام النساء وأوكلت إلى مونیکا لوينسكي الأمر وبذلك بدأت العهود الأميركية تتراجع وبدأ الرئيس كلينتون، الذي طالما أمضى السنة الثانية من ولايته يمني النفس بدخول التاريخ من خلال إنجازها ما عجز عنه الأوائل، يزرع اليأس في نفوس الطرف الفلسطيني الذي علّق عليه الآمال. ثم إنقضى اليوم الأخير من الولاية واليأس على حاله، ثم بدا الأمر في ضوء الغاز إنتخابات الرئاسة وما أعقب هذه الإنتخابات من تطورات ومواقف مثيرة للدهشة صدرت عن رئيس الإدارة الأميركية وبعض أركان هذه الإدارة، أن المخطط الصهيوني قضى بأن يكون هنالك إشكال رئاسي يتم في ضوئه إستنباط أنواع من الإبتزاز والمساومة. ومن حقنا بعد الذي آلت إليه التطورات خلال سنة أعقبت إنتخابات الرئاسة الأميركية أن نفترض بأن المخطط قضى كمرحلة أولى بأن يكون هنالك مرشحان مضمونان من حيث الولاء والمساندة لإسرائيل. الأول هو آل غور عن الحزب الديمقراطي وهذا المرشح المعروف بممالاته لإسرائيل منذ أن كان نائباً للرئيس كلينتون يخوض المعركة مع السناتور جوزف ليبيرمان اليهودي المتصهين وذلك من النادر حدوثه في تاريخ إنتخابات الرئاسة الأميركية. أما المرشح الثاني فهو جورج بوش الابن عن الحزب الجمهوري ومعه ديك تشيني كنائب للرئيس. وهذا الثنائي، الذي ليس في تاريخه ما يؤكد مساندته لإسرائيل عدا التعهد في برنامج الحزب بنقل السفارة الأميركية إلى القدس في حال فوزه، يمكن إخضاعه للمساومة والإبتزاز وإرهاقه بالضغوط وهذا يستوجب

الذي ربما لا جدوى منه في كهوف «تورا بورا» عن أسامة بن لادن، وقضية «الجمرة الخبيثة» التي نحمد الله على أن مصدرها كان أميركا... منها ولها وعن طريق بريدها وعقول مهووسة بالجريمة والعلم فيها. وأما قضية الأزمات المعيشية والاجتماعية والفساد والتسيب الإداري والنزاهة... فإننا في ضوء ما حدث في الأرجنتين وللحكم فيها، على موعد في السنة التي بدأت أمس مع مفاجآت على النمط الأرجنتيني، وذلك لأن أحوالنا في معظم الدول العربية والإسلامية أكثر سوءاً مما هي عليه الأحوال في الأرجنتين، لكن الفرق هو في أننا في العالم العربي والإسلامي صبورون حتى يعجز الصبر عن صبرنا على نحو قول الشاعر العربي.

نسأل الله أن يتم سنة 2002 علينا وعليكم وقد إنتهى الأمر بها إلى أنها ليست مثل التي نودعها بعد غد... والتي لا أعاد المولى عز وجل شرورها وإحباطاتها ومفاجأتها على الأمة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 29 ديسمبر (ك) 2001

* * *

أمنيات ضاعت... وتمنيات مؤجلة!

ما أكثر ما تمنينا حدوثه في العام 2001 الذي ودعناه قبل أمس من دون حسرة بسيطة عليه. كانت تمنيات مستتدة إلى توقعات. وكانت إجتهدات مبنية على عوامل جديدة طرأت على الوضع الدولي حيث توارت وجوه ومراكز قوى طالما كان الرهان عليها كبيراً وحلت وجوه جاء الرهان عليها أكبر.

باديء ذي بدء تمنينا أن تطوى صفحة التباطؤ الدولي والتردد الأميركي في شأن الدولة الفلسطينية فيتم الإعلان عن قيام هذه الدولة ما دام الأمر متفقاً عليه وما دام الذي حدث في العام الأسبق (العام 2000) كان مجرد توافق دولي على أن يؤجل الرئيس ياسر عرفات إعلان قيام الدولة، وجاء هذا التوافق في شكل تربيت على كتف أبو عمار أحياناً من الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون وأحياناً من وزيرة الخارجية «ام البروشات» مادلين اولبرايت. وجاء أيضاً في صيغة نصيحة من الرئيس الفرنسي جاك شيراك وأخرى مرفقة باهتمام ملحوظ على صعيد الإستقبال والتوديع من رئيس وزراء بريطانيا طوني بليز ورئيس روسيا الجديد فلاديمير بوتين ومن حكام آخرين كثيرين. كما جاء في صيغة موعظة من البابا يوحنا بولس الثاني خلاصتها أن تأجيل إعلان قيام الدولة قد يجعلها أقرب بكثير من إعلانها من طرف واحد. وفي النهاية إستسلم أبو عمار، لموجات من الطلبات والتمنيات والنصائح والمواظ ولتتظيرات من بعض قادة العمل الفلسطيني، وقرر تأجيل إعلان قيام الدولة ومن دون أن يفطن إلى أن وراء ذلك رغبة إسرائيلية تأكدت شرورها مع سقوط إيهود باراك ومجيء أرييل شارون إلى الحكم.

وبطبيعة الحال فإن التأجيل لأمر مصيري مثل إعلان قيام الدولة الفلسطينية ووفق تقاهم دولي في هذا الشأن وفي يوم تم تحديده، لا يعود من الصعب معاودته طالما كانت النوايا سيئة وراء التأجيل الأول. ومن هنا ملاحظة أن الرئيس عرفات أعلن تأجيلاً آخر ثم بات أمر الإعلان عن قيام الدولة غير وارد بعدما تقدمت عليه مسائل أكثر تعقيداً من بينها أن الرئيس عرفات بات شخصياً ضمن دائرة الحصار الشاروني لا يستطيع أن يسافر خارج أراضي السلطة الوطنية الفلسطينية وهو الذي كان محرك طائرته لا يهدأ على مدار الأربع والعشرين ساعة. بل أنه بات غير قادر

على أن ينتقل من مقر «الإقامة الجبرية الشارونية» في رام الله إلى كنيسة المهد في بيت لحم للمشاركة في القداس التقليدي ليلة عيد ميلاد السيد المسيح، علماً بأنه كان يتوقع، عندما تم التوافق قبل ثلاث سنوات على إعلان قيام الدولة وتم تبعاً لذلك تحديد الموعد، ليس فقط المشاركة في قداس عيد الميلاد الأخير من القرن العشرين، وإنما تأدية صلاة العידين (الفطر ثم الأضحى) في المسجد الأقصى ومن أجل ذلك لاحظنا إرتياحه المبني على الثقة وتصريحاته المفعمة بالتفاؤل وبالذات تركيزه على أن الفلسطينيين هم «شعب الجبارين» وأن من كانت هذه طينته فإنه شعب يستحق الدولة وسينالها ما دام الموعد بات متفقاً عليه دولياً.

ثم جاءت المفاجأة غير السارة الأولى متمثلة في الإلحاح إلى درجة الضغط على عرفات لتأجيل الإعلان ولحقت بها مفاجأة إنحسار الحماسة الأميركية والدولية عموماً لإعلان قيام الدولة. ولحقت بالمفاجأتين واحدة ثالثة هي أن الإدارة الأميركية الجديدة التي كانت الآمال معلقة عليها قذفت بالدولة الفلسطينية بعيداً جداً عن المرمى الإسرائيلي واستبدلت الموعد والوعود والإهتمام بمجرد «رؤية» قد تتحول إلى فكرة ثم تصبح مجرد خاطرة من خواطر الإدارة الجمهورية مع انتهاء الولاية الأولى التي قد لا تتجدد للرئيس جورج بوش الابن. وفي ضوء ذلك نجد أنفسنا نتمنى ألا تصل الحال إلى هذا الدرك، وتحدث داخل الإدارة الأميركية الجمهورية صحوه ضميرية فتتنبه إلى أمر بالغ الأهمية وهو أنه ليس كافياً وضع أبو عمار في شبه ثلاجة بحيث يتم تسييحه لاحقاً وإنما دعمه من خلال تنفيذ الوعد المستديم بقيام الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس وإلا فإن «إنتفاضة الأقصى» في العام 2003 وربما في النصف الثاني من العام الجديد الذي بدأ أمس ستتنتهي إلى غضب عربي حارق لا تقيد فيه كل المسكّنات الأميركية سواء كانت تأتي في صيغة رسائل وإتصالات تهنيء بالأعياد أو في صيغة مكالمات هاتفية تدعو إلى ضبط النفس.

وفي لبنان توقّعنا ان يكون العام 2001 الذي ودعناه قبل أمس هو العام الذي يبدأ فيه النهوض الإقتصادي ما دام عاد رفيق الحريري إلى رئاسة الحكومة بزخم شعبي أعطاه «شرعية شعبية» من نوع الشرعية التي أعطاها الإيرانيون للرئيس محمد خاتمي. وشعر اللبنانيون، في ضوء الوفاق الرئاسي الذي واكب عودة الحريري، بإطمئنان ما زالوا يشعرون به رغم أن

مألوفة ومسلية إذا هي صدرت من سياسي عادي ضد سياسي عادي آخر إلا أن صدورهما من الرئيس الثاني في تركيبة الحكم في لبنان (أي نبيه بري) ضد الرئيس الثالث في التركيبة (أي رفيق الحريري) وفي أكثر الظروف صعوبة التي يعيشها لبنان، جعلت اللبناني الذي ينتظر الانفراج وكأنما هو على موعد مع هبوط حاد في التفاؤل، خصوصاً إذا تطورت الأمور لأسباب تتعلق بالصراع في لبنان وعليه إلى إنتزاع الرئاسة الثالثة من الحريري وقبل أيام قليلة من اليوم المحدد لإنعقاد القمة كي لا تتعقد هذه القمة أو تأجيل هذا الإنتزاع في حال إنضم الحريري إلى بري في المطالبة بالتأجيل، مثلما فعل عرفات مع إعلان الدولة الذي يتبين الآن وبعد كل الذي جرى له وللفلسطينيين أن الإعلان ولمجرد حلول الموعد المتفق عليه كان أفضل له ولـ «شعب الجبارين». وما يتمناه اللبنانيون هو ألا تصل الحال في لبنان إلى حدوث ذلك كي لا تذرو الرياح المزاجية المبنية على الحسد حضوراً عربياً ودولياً للبنان ضاع نصفه في العام 2001 وما هو النصف الثاني على عتبة الضياع في العام 2002.

كنا نتمنى في العام الذي ودعناه أمس الكثير. كنا نتمنى إنتهاء الحصار على العراق فإذا به يتأجل. وكنا نتمنى ألا ينقضي العام إلا ويكون لغز أسامة بن لادن قد وجد له تفسير فإذا به يتأجل. وكنا نتمنى أن يحسم الوافق أمره في السودان بعودة ثلاثة أرباع اقطاب المعارضة وتريث الربع الباقي في العودة فإذا بالرئيس عمر البشير الذي إنفرد بالحكم وأبقى على شريكه السابق الدكتور حسن الترابي في الإقامة الجبرية لا يحسم، أو أنه يفضل الصيغة الراهنة على صيغة إكمال الوافق بعد المصالحة الشاملة. وكنا نتمنى دوراً لروسيا نعوّل عليه ويفيدنا في لعبة التوازن الدولي، فإذا بها وبالصين أيضاً لا تحققان مثل هذه الأمنية المؤجلة، من باب التفاؤل، إلى العام الجديد الذي تصلح أرقامه الأربعة بالشكل التي هي عليه (2002) لتكون رقماً للطوارئ أو رقم هاتف لواحدة من ألعاب الحظ في الفضائيات العربية التي إزدهرت وغطت في العام 2001 هي و«عائلة الحاج متولي» على القضايا الوطنية والقومية، وبحيث بات إنتظار نهاية «النزوات المتولية» في مسألة الزواج يتقدم على التوق إلى معرفة نهاية مصير ياسر عرفات على أيدي شارون ومصير الشيخ أحمد ياسين على أيدي عرفات ومصير أسامة بن لادن على أيدي ملالي أميركا جورج بوش

الوضع المعيشي يزداد تراجعاً، ولكن الثقة بالرجل هي السبب في هذا الإطمئنان. وكان الحريري قادراً على ترجمة هذه الثقة إلى إنجازات لولا أن وتيرة «إنتفاضة الأقصى» تصاعدت وأوجدت نوعاً من التناغم مع حركة المقاومة في لبنان التي يقودها «حزب الله». ومثل هذه الأجواء لا يمكنها جذب الإستثمارات والإهتمامات الدولية إلى لبنان فضلاً عن أن أجواء المصالحة اللبنانية - اللبنانية قطعت شوطاً لا بأس به إلا أن شاطئ الوصول ما زال بعيداً. ثم جاءت العملية الترويحية في نيويورك وواشنطن يوم 11 سبتمبر (أيلول) الماضي لتخلق وضعاً أوقع بلبنان أضراراً فادحة من بينها أن القمة الفرنكوفونية التي كانت العاصمة اللبنانية على موعد مع إستضافتها تأجلت وأصابها ما أصاب إعلان قيام الدولة الفلسطينية، حيث أن الحديث متفق عليهما دولياً ومع ذلك بدأت الضغوط الدولية من أجل التأجيل وبحيث يصدر هذا التأجيل عن أصحاب القضية. ومثلما أن الرئيس ياسر عرفات وجد نفسه يؤجل إعلان قيام الدولة فإن حكومة الحريري وجدت نفسها، وعلى لسان صديق لبنان الأمين العام الفرنكوفوني الدكتور بطرس غالي، تؤجل القمة التي كان من شأن مشاركة 42 رئيس جمهورية أو رئيس حكومة فيها أن تضع لبنان على لائحة الدول الجديرة بإستضافة المؤتمرات الدولية، وهذا من شأنه إنعاش الوضع الإقتصادي المتعثر والوضع المعيشي المتدهور. ومن يدري فقد يحين الموعد الجديد للقمة الفرنكوفونية ويقرر إنعقادها في غير بيروت.

وإذا كان تأجيل القمة الفرنكوفونية أوجد حالة إحباط بالغة السوء في نفوس اللبنانيين، فإن فتح باب الاقتراح بتأجيل القمة العربية الدورية الثانية المقرر عقدها في مارس (آذار) المقبل في العاصمة اللبنانية، وعلى لسان رئيس البرلمان اللبناني الأستاذ نبيه بري وبعد ساعات من زيارة قام بها إلى دمشق إلتقى خلالها الرئيس بشّار الأسد، جعل نسبة الإحباط ترتفع كما حرارة الشخص عندما تصل حرارة جسمه إلى أربعين وما فوق بقليل. ثم إمتزج كلام الرئيس بري في شأن رأيه الداعي إلى تأجيل القمة العربية التي تتعقد وفق الترتيب الأبجدي والتي أهداها رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان إلى لبنان الذي يأتي دوره وفق الترتيب المشار إليه بعد عشر سنين، بحملة حفلت بمفردات يمكن أن تكون

وديك تشيني وكونداليزا رايس ودونالد رامسفيلد.

وكنا نتمنى إنحسار موجة الجنون الإسرائيلي وقيام الرأي العام الإسرائيلي بمهمة عقلنة حاكمه المستبد شارون وحدث إنتفاضة في «حزب العمل» تصب في الإتجاه نفسه، إلا أن الليكوديين إستمروا ينفخون في النار الشارونية وإختار الحزب الآخر جنراً من أصحاب «الأمجاد» العدوانية ليرأس الحزب ويفعل بالمنطقة، إذا تيسر له الوصول إلى رئاسة الحكومة، ما لم يفعله شارون بعد. ومعروف عن الرئيس الجديد لـ «حزب العمل» بنيامين بن اليعازر الذي هو أول يهودي من أصل عربي يقود الحزب والوفاد إلى فلسطين من جنوب العراق عام 1951 وكان في الرابعة عشرة من عمره، انه المسؤول عن تشكيل ميليشيا «جيش لبنان الجنوبي» وأن جنوده قتلوا نحو 300 أسير مصري في حرب 1967.

وكنا نتمنى حدوث مصالحة عراقية - كويتية وعراقية - سعودية، وإنطلاقة نوعية لمجلس التعاون الخليجي وإنطلاقة نوعية مماثلة للجامعة العربية وخروجاً للإتحاد المغاربي من السرداب المأسور فيه... فإذا بهذه التمنيات لا تتحقق وتتضم إلى المؤجلات من بقية الأماني وما أكثرها، وكأنما التسمية المناسبة للعام 2001 هي عام الأمنيات التي ضاعت والتمنيات العربية المؤجلة. عسى ولعل ننال في العام 2002 الذي أطل علينا أمس ما فاتنا الحصول عليه وما ضاع علينا في العام الذي غابت شمسهُ قبل أمس لتشرق أمس من جديد.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 2 يناير (ك) 2002

* * *

مسيرة التنبيه السعودي: من دمشق إلى مسقط.. إلى قمة بيروت نجّاه الله

أما وقد إستقر نسبياً أمر القمة العربية الدورية الثانية التي من المقرر أن يستضيفها لبنان أواخر مارس (آذار) المقبل وبدأت تغيب في الأفق الهزة التي أحدثها رئيس برلمانه الأستاذ نبيه بري في تصريحه الشهير والمفاجئ المتعلق بتفضيله تأجيل هذه القمة... أما وقد حدث هذا الإستقرار النسبي فإننا نتمنى أن تكون روحية القمة وأجواؤها منطلقة من مضمون مسيرة التنبيه

السعودي التي شكلت محطتان منها ما يجوز إعتباره نصيحة للجميع: الجار القريب منهم قبل البعيد، والشقيق المندفع قبل الصديق غير المتفهم.

والمحطتان اللتان نعتيهما هما المحطة السورية والمحطة العمانية. وما بين هاتين المحطتين كانت هنالك رسائل تنبيه عابرة تمثلت بمضامين تصريحات أو رسائل أو برقيات موجهة إلى حكام خلال المرور في أجواء بلادهم. ومن باب المصادفة أن المحطتين جاءتا خلال سنة واحدة. الدمشقية في النصف الأول من السنة والعمانية قبل ساعات من غياب شمس النصف الثاني من العام 2001 ليبدأ العام 2002 تملأ آفاقه إشراقات واعدة بأحوال أفضل.

نبدأ بالمحطة الأولى فنستحضر تلك الزيارة كثيرة التميز التي قام بها ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز إلى دمشق في يونيو (حزيران) الماضي بادئاً منها جولة خارجية مهمة. والقول إن زيارة دمشق كانت كثيرة التميز على أساس أن ولي العهد السعودي سراً ما يشبه التقليد الخاص بسوريا حيث أنه بعد كل زيارة رسمية له خارج المملكة يتوقف في طريق العودة في دمشق بهدف التشاور والإطمئنان مع الصديق الدائم للمملكة الرئيس حافظ الأسد. وبعد رحيل الأسد الأب أراد ولي العهد أن يبدأ بدمشق الزيارات الرسمية الأولى له خارج المملكة كنوع من المؤازرة للأسد الابن الدكتور بشار الذي كان بدأ رحلة الحكم المتواصل. وفي زيارته التي نشير إليها عقد الأمير عبدالله ثلاثة إجتماعات مع الرئيس بشار، ثم أطلق خارج الحديث في اللقاء المغلق، الذي يكون عادة أكثر حرماً، تصريحاً أيقظ أطرافاً عربية ودولية كثيرة من حالة الإسترخاء التي هم عليها، وإستوقف أربيل شارون رئيس الحكومة الإسرائيلية الذي كان يمعن تدميراً وقتلاً وجنوناً وجرفاً وقصفاً وإغتيالاً في حق الفلسطينيين وعلى أرضهم. قال الأمير عبدالله: «فليفعل شارون ما بدا له، فالיום قد يكون يومه وغداً لنا ان شاء الله. فكل قطرة دم عربية واحدة سالت على أرضنا العربية المغتصبة لها جزية الدفع عند من أراقها. وليس العرب والمسلمون من يقبلون بغير حقهم كاملاً جزية. ان كل رحم امرأة عربية أبية يحمل في أحشائه ثأراً، وكل شهيد عائق الثرى ترك خلفه صرخة مدوية في صور كل طفل يتطلع إلى الإستشهاد...». ثم إنتهى إلى القول: «هل يظن عاقل في الأرض أن المظلوم سيقبل بظلمه وأن الجريح سيلق دمهُ صامتاً وأن الضعيف سيسلم بضغفه؟ وهل تقبل أمة على وجه

الأرض تؤمن بالله وبرسوله أن تسكت عن حقها أو تتنازل عنه؟ من ظن ذلك فهو واهم.. واهم... واهم».

وهذا الكلام كان عن شارون وما يفعله، إنما من أجل أن يسمعه الآخرون وبالذات أولئك الذين لا تهز وجدانهم وضمايرهم الأفعال الشارونية التي فاقت حد التصور والتحمل. بل اننا عندما سمعنا كلام الأمير عبدالله في حينه تساءلنا: لو أننا إستبدلنا كلمة شارون بأسماء آخرين ألن يبقى المعنى والمقصد على حالهما؟

بعد المحطة السورية إزداد الحكم السوري بقيادته الجديدة إطمئناناً، وزاده الإطمئنان إصراراً وثباتاً على مواصلة المواجهة السياسية التي إعتدها الرئيس بشار، وكان تركيزه فيها واضحاً على ظاهرة عنصرية المجتمع الإسرائيلي، وكيف أنه يرتضي حاكماً مثل شارون تشير الأساليب التي يمارسها إلى أنه يدفع بإمكانية السلام المتواضعة إلى الهاوية. ومما زاد في الصمود والإصرار لدى الرئيس بشار هو أن الأمير عبدالله سجل موقفاً في منتهى الأهمية ينسجم مع محطات التنبيه السعودي التي نعالجها في هذا المقال. وتمثل الموقف في عدم تلبية ولي العهد دعوة رسمية من الرئيس جورج بوش الابن لزيارة واشنطن. وجاء ذلك في صيغة عدم الرد على الرسالة، الأمر الذي يعني في مثل هذه الحالات أن الأمير في ذلك ليس رافضاً الدعوة وليس قابلاً ومتلهفاً لها، وإنما هنالك أمور تستوجب التوضيح من جانب الصديق الأمريكي. ومتى حدث ذلك تصبح الزيارة ممكنة.

وما حدث هو أن الإدارة الأميركية قرأت هذا النوع من الرد الخشن على دعواتها وبدأت تعمل في الإتجاه الذي يطمئن الأصدقاء العرب، لكن التباطؤ كان غالباً والشارونية كانت راصدة و«تنظيم القاعدة» كان مقتحماً، فإختلطت الأمور وضاعت فرصة إختبار لا بد منها لنوايا الصديق الأمريكي الذي إنشغل بحرب غير مفهومة، رافضاً أن يميز بين الحق والباطل، وبين الإرهاب البغيض والمقاومة المشروعة، وبين التراث والتعصب. وكان أرييل شارون المستفيد من هذا كله وإلى درجة أنه نجح في توظيف بعض فصول الحرب الأميركية على الإرهاب لمصلحة أغراضه الشريرة. وكاد ينجح في إستكمال التوظيف لولا أن الإدارة التي يترأسها جورج بوش الابن تنبعت متأخرة جداً إلى الأمر، وطرحت برسم التداول «الرؤية الجمهورية» للدولة الفلسطينية المتفق أصلاً على قيامها، بل وحتى على موعد القيام. ولو أن «الإدارة الديمقراطية» لم تتصرف بالخبط الذي

تصرفت فيه، والرئيس ياسر عرفات لم يبالغ في إستجابته لمسألة التأجيل، لكانت الدولة الآن قائمة.

في ضوء ذلك وخشية أن يبلغ التكاسل أشده في الإدارة الأميركية لكثرة محاصرة العناصر المتصهينة فيها للرئيس جورج بوش الابن، وهو تكاسل إستفاد منه شارون الذي وصل به الإستهتار إلى أنه يعامل رئيس السلطة الوطنية ياسر عرفات بأسلوب مهين له ولشعبه ولقضيته ولأمتة ولكل الحكومات العربية، فاجأ الأمير عبدالله الجميع بالكلام الذي هو محور المحطة الثانية لمسيرة التنبيه السعودي. ومن منبر القمة الخليجية في مسقط يوم الأحد 30 ديسمبر (كانون الأول) 2001 جاء كلام الأمير عبدالله يوقظ وينبه ويطمئن. وجاء كلامه يضع النقاط على الحروف ويترجم مشاعر الرأي العام العربي وما يدور في خاطر كل مواطن في هذه الأمة من تساؤلات. بل إن ولي العهد السعودي بدا في كلمته متحدثاً بلسان كل مواطن من المحيط إلى الخليج. ولعل أكثر ما استوقف المواطن العربي في كلمة الأمير هو نقده للذات السياسية العربية، وفي العبارة التالية، التي وردت في كلمة الأمير عبدالله تأكيد على هذا النقد للذات: «إن الفرصة لم تفت من أيدينا بعد ولا يزال بوسعنا أن نشخص الداء ونتلمس الدواء. والداء الذي لا أظننا نختلف على طبيعته هو الفرقة القاتلة التي أبعدت الجار عن جاره ونفرت الشقيق من شقيقه. ان وقتنا أثمن من أن نضيعه في إستجداء الدول والمنظمات الدولية وإستعطافها، وقد فعلنا ذلك عبر عقود طويلة من الزمن بلا جدوى، وجهدنا أثمن من أن نهدره في شجب وإستتكار. وقد قمنا بهذا عبر عقود طويلة بلا فائدة. ان وقتنا كله يجب أن يكرس لمحاسبة النفس العربية والإسلامية على التقصير وحثها على عدم تكرار الخطأ، وإن جهدنا كله يجب أن ينصب على اصلاح البيت العربي والإسلامي وجعله قادراً على مواجهة التحديات...».

ورفع الأمير من وتيرة النقد الذاتي وبهدف أن يحقق التنبيه مبتغاه قائلاً: «أحسبنا لا نتجاوز الحقيقة إذا إعترفنا أننا جميعاً، ولا أستثني أحداً، أخطأنا في حق أمتنا الكبرى حين سمحنا لعلاقتنا العربية والإسلامية أن تكون قائمة على الشك وسوء الظن بدلاً من المفاتحة والمصارحة، وحين نشدنا العون من الغريب ونسينا القريب، وحين فتحنا بيوتنا وأسواقنا لمنتجات الآخرين وسددناها أمام المنتجات العربية والإسلامية، وحين أجزنا لأنفسنا أن نعزو كل نكسة من نكساتنا إلى مؤامرة تجيء

من وراء الحدود وإلى إستعمار لا يزال يسكن العقول...». وما هو الحل؟

نسمع الأمير عبدالله يقول من المنبر الخليجي لكل أبناء الأمة من المحيط إلى الخليج: «إننا لسنا في حاجة إلى قمم طارئة تصدر عنها قرارات إنفعالية إرتجالية تموت قبل أن يجف الحبر الذي كُتبت به، فحاجتنا الحقيقية هي إلى قمم للتأمل والتحليل تصدر عنها قرارات منطقية وواقعية تتَفَقَّد وفق جداول زمنية معقولة...».

هل هنالك أفضل من القمة الدورية العادية التي نحن على موعد مع إنعقادها أواخر مارس (آذار) المقبل في بيروت لكي يترجم القادة العرب، على الورق وفي صيغة قرارات واقعية ومخلصة، ما سمعنا ولي العهد السعودي يدعو إليه؟

وهل تكون قمة بيروت، نجّاه الله من مكيدة التأجيل، تنوِجاً لمسيرة التنبيه السعودي؟

لعل وعسى يحدث ذلك. ومن الآن وحتى ذلك الإنعقاد نتمنى أن يسحب الرئيس نبيه بري (رئيس مجلس النواب في لبنان) رأيه «الشخصي والعام» في شأن تأجيل القمة، مع أن مجرد التفكير بالتأجيل معناه أن لبنان يرفض إستضافة القادة العرب. ومن كان الأكثر إحتياجاً إلى هذه القمة لا «يبشّر» بتأجيلها. كذلك نتمنى أن يبدأ القادة العرب، بعدما قص ولي العهد السعودي شريط الإفتتاح لـ «عملية النقد الذاتي»، ممارسة بعض النقد الذاتي ولو بينهم وبين أنفسهم، أو على طريقة الأمير عبدالله بن عبد العزيز الذي ابتكر أمثلة في نقد الذات وعلى الملأ وبالصوت العالي. ومن يدري، فقد يجترح أولو الأمر، بهذا النقد الذاتي، المعجزة ويجدون أنفسهم وقد باتوا أكثر ثقة بالنفس والقدرات، وبذلك تستقيم الأحوال... وتكون مسيرة التنبيه السعودي حققت أمراً نقده الأمة العربية وتبدو في أشد الحاجة إليه.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 9 يناير (ك) 2002

* * *

ضجة أخرى في الأسرة المهدية

ها هي ضجة أخرى لن تكون الأخيرة تحدث في أوساط الأسرة المهدية التي كُتبت عليها أن تكون الأسرة السياسية الأكثر قلقاً في معظم الأحيان أو إقلاقاً بين الحين والآخر في السودان منذ رحيل الإمام عبد

الرحمن تاركاً الأبناء الصديق والهادي وأحمد، الذين طغت الهالة الوطنية لوالدهم وعلى مستوى كل السودان على قدراتهم المتواضعة، وبذلك كانوا مجرد ورثة وحسب ترتيب السن لا أكثر لقيادة طائفة «الأنصار» التي إفتترضت أن حزبها الذي هو «حزب الأمة» سيعزز شأنها فإذا بهذا الحزب يحتاج إلى البقاء دائماً تحت جناح الطائفة ترعاه وتحنو عليه لأنه ينمو في تربة يقتصر الزرع فيها على نوع واحد من النباتات.

كذلك ترك الإمام عبد الرحمن حفيداً كان الأكثر نباهة بين الجيل الثالث للمهدين. وكان هذا الحفيد الذي هو الصادق ابن الصديق قرة عين الجد وبمثابة التعويذة بالنسبة إليه، ومن أجل ذلك أراد له أن يكون دارساً ومتشرباً لثقافة الإنكليز الذين تحداهم الجد برجاحة العقل وقوة الساعد وكان يرى أن تكون المواجهة مستقبلاً وبهدف صياغة علاقة من نوع جديد، عن طريق العلم والثقافة. وانطلاقاً من هذه النظرة وجد الصادق الصديق المهدي نفسه طالباً في كلية فكتوريا في الإسكندرية زميل دراسة لأبناء الأسر العربية الميسورة أو الحاكمة، ثم وجد نفسه في مرحلة لاحقة منتسباً إلى جامعة «اكسفورد» في بريطانيا ثم عائداً إلى السودان لكي يحقق تطلعات الجد الذي رأى في حفيده ما رآه الملك عبدالله في حفيده الملك حسين، أطال الله عمر الصادق ورحم الله الحسين الذي لا يمتلئ الفراغ الذي تركه على رغم كثرة المستشارين المحيطين بالحفيد عبدالله الثاني.

في الفترة بين رحيل الإمام الجد عبد الرحمن ودخول الحفيد (أي الصادق المهدي) ميدان العمل السياسي، اعطت بعض الوجوه السياسية غير المهدية. أمثال المرحوم محمد أحمد محبوب - دفعة نشاط نوعي للجناح السياسي لطائفة «الأنصار» أي «حزب الأمة» وبحيث بدا هذا الحزب يملك خصائص تغري شخصيات ومتقنين متحررين من مسألة الولاء المطلق للطائفة من أن يكون لهم حضورهم وشأنهم داخل الحزب. وبدلاً من أن تلقى هذه الظاهرة الترحيب من جانب الحفيد العائد من «اكسفورد» فإن السيد الشاب. أي الصادق المهدي - إعتبرها تستهدف تطلعاته فبذل من الجهد ما جعله ينجح في تطويقها ثم قرر أن يكون هو الممسك بزمام الأمور في ساحة العمل السياسي، وهكذا بات رئيساً للحكومة السودانية وهو في العمر الممتلئ حيوية والعقل المختزن ثقافة، إلا أن الحيوية والثقافة من دون تجربة تقودان إلى الإرتباك في

التصرف والإرتجال في إتخاذ القرارات. هذا مع الأخذ في الاعتبار أن سقوط حكم الفريق إبراهيم عيود وقيام عهد الحكم الحزبي وضمن صيغة «حكومة وحدة وطنية حزبية» كان الأرضية التي بدأ الصادق المهدي عهد المسؤولية السياسية عليها وهذا سببه أن الشأن الشعبي للطائفتين - طائفة «الأنصار» التي يمثلها الصادق وطائفة «الخنمية» التي يمثلها إسماعيل الازهري - كان ما زال حتى ذلك العام (1964) قوياً وله كلمته في صناديق الاقتراع.

لم تصمد تجربة العهد الحزبي لأن الاقطاب إختاروا التزامهم على التعاون، والصراع على التعايش، والكيد على صفاء النية، والمصلحة الشخصية على المصلحة العامة. وهذا جعلهم لقمة سائغة في أفواه مجموعة من الضباط (برتبة رائد) قادمهم اللواء جعفر نميري فجر يوم 25 مايو 1969 في «ثورة» إجتاحت وعلى أهون السبل كل هؤلاء عدا الحزب الشيوعي الذي كان داخل العهد الحزبي عينه على السلطة وقلبه مع نفر من الضباط الشيوعيين تبين لاحقاً أنهم ضمن المجموعة الانقلابية وأنهم كانوا بمثابة الرافعة للحزب لكي تنقله من صيغة الشراكة المتواضعة والعادلة في الحكم إلى صيغة الإستفراد بالسلطة، وهو ما إنتهى إلى كارثة أصابت مقتلاً من الحزب الذي لم يكن قنوعاً ففقد نفسه وقادته في أعقاب مؤامرة 19 يوليو 1971 الشهيرة.

وهكذا وجد الصادق المهدي نفسه في وضع بالغ السوء. الطائفة غير متماسكة لأن إمامها الهادي الذي ورث المنصب عن شقيقه الصديق الذي لم يمارس المنصب لفترة طويلة إنتهت بوفاته مبكراً كان خلالها بعض الأنصار المتحررين هم الذين يقودون «حزب الأمة»، غير مبايين لنجل شقيقه بالدور السياسي ويريد أن يكون الإمام والزعيم السياسي للحزب في الوقت نفسه. والصادق الذي أخذ على عاتقه أمر القيادة السياسية للحزب كان غير مقتنع بأسلوب عمه في أسلوب ادارته لمنصب الإمامة وكان ضمناً يرى انه هو الأكثر جدارة بهذا المنصب. والدافع إلى هذه النظرة هو الشعور بأن الجد عبد الرحمن كان يريد أن يكون زعيم الطائفة إمامة وسياسة حفيده الصادق وليس أحد الأبناء الذين هم - وفي ضوء شعور دفين في نفس الصادق - ليسوا أكثر من عابري إمامة لا أكثر، وهو شعور يعزز أن شأن الإمامة بعد رحيل الإمام عبد الرحمن كان ضعيفاً ولا يعزز في الوقت

نفسه أن الإمام عبد الرحمن إعتد صيغة الإحياء في من يرث الزعامتين في الوقت نفسه بعده، ولم يعتمد صيغة التوضيح من خلال وصية يكتبها. وهو لو كتب هذه الوصية وحدد فيها وبكل الوضوح أن وريثه هو حفيده، أو على الأقل أن الإبن أي الصديق يرث من بعده على أن يستتبع ذلك تعديل للتقليد بحيث تكون الوراثة للأحفاد وفق قاعدة الأكفأ، لما كان لهذا الإرتباك ان يحدث والذي بلغ الذروة بعدما سقط العم الإمام الهادي برصاص جنود نظام الرئيس نميري وجرى دفنه في مكان غير معلوم حتى الآن وسيبقى غير معلوم على الرغم من كل السعي في سبيل ذلك.

بمقتل الإمام الهادي إعتبر الصادق، الذي كان إختار مقاومة نظام نميري من الخارج ثم أبرم مصالحته منقوصة معه عاد بعدها إلى السودان ثم ما لبث أن عاد إلى الخارج محاولاً إسقاط النظام، أن الفرصة باتت مؤاتية لكي يشغل منصب الإمامة لولا أن عمه الآخر أحمد طرح نفسه انه الإمام ولا إمام غيره في أعقاب مقتل شقيقه الهادي، وانه عندما يطالب بذلك فعلى أساس أن المنصب يتوارثه الأبناء عن الوالد وأن هذا الوالد، أي الإمام عبد الرحمن، لم يترك وصية نُقِيت بأي تعديل لهذه الثوابت. وقد فطن الرئيس نميري لهذه العقدة فلم يتجاوب مع رغبة أحمد المهدي التي أبداهها مراراً لمساعدته في أن يكون هو الإمام خلفاً لشقيقه المقتول الإمام الهادي، وفي الوقت نفسه عطل محاولات كثيرة قام بها الصادق من بينها محاولة في لقاء أنصاري ضخم في الجزيرة «أبا» ببيع فيه إماماً. منذ ذلك اللقاء الذي تبين فيه أن المبايعة غير مكتملة، والإمامة شاغرة في طائفة «الأنصار»، لا العم أحمد يرتضي التوجه الأنصاري العام الذي يرى أن يكون الصادق هو الإمام، ولا أبناء العم الهادي يلتقون على كلمة واحدة بالنسبة إلى هذا الأمر، ولا أهل الحكم يريحون «الأنصارين» فيقولون لهم أين جرى دفن الإمام الهادي على أساس أن من في السلطة يعرف ما فعله من كانوا من قبل في هذه السلطة. وفي حال طوى «الأنصار» صفحة الإمام فإن أحوالهم تستقر نسبياً فلا تعود هذه الاحوال كما هي عليه الآن: لا إمامة محسومة ولا زعامة سياسية هنالك توافق عليها.

وفي ظل هذا الواقع المقلق تعلو وتيرة الضجة الجديدة التي أثارها قبل أيام مبارك الفاضل المهدي في صفوف الأسرة المهدية في السودان، والتي هي ضجة

تسويقه في أوساط ما كان مبارك ليصل إليها من دون هذا التسويق المدعوم.

من جملة ما قاله مبارك المهدي وما أثاره في تصريحاته هو أنه لا بد من الفصل بين إمامة الطائفة وقيادة حزب «الأمة». وقصده على نحو فهمنا لنوايا الرجل وتطلعاته أن يكون الصادق هو الإمام وأن يتم عندئذ مبايعة مبارك ليكون رئيس الحزب وزعيمه. وهو في ذلك منسجم مع نفسه ويعرف أن قدراته الفكرية دينياً هي دون قدراته السياسية بكثير وأنها لا تسمح له بأن يجمع المنصبين في شخصه. أما قوله في التصريحات بأن السيد احمد المهدي «أحق بالإمامة» فيغرض أن تتزايد رقعة الشقاق بين العم أحمد وابن أخيه الصادق من جهة وأن يستقطب مبارك إلى صفه الجماهير الأنصارية التي ترى أن عدم تنويع السيد أحمد إماماً سببه الصادق الذي يريد المنصبين: «الإمامة» و«الرئاسة».

وعند هذا الحد تبدو مناورة مبارك المهدي طبيعية بالنسبة إلى سياسي له تطلعاته ومتأثر ضمناً بالنهج الماكيا فيلي. لكن المناورة لا تعود مقبولة من جانب ابن العم (الصادق) وأسرته الصغيرة (زوجاته سارة وحفية، وإبناؤه عبد الرحمن وصديق ومحمد أحمد، وبناته أم سلمة ورندة ومريم وزينب ورباح وطماهرة) عندما يتهم الصادق بالإزدواجية وكيف «أنه في الوقت الذي ظل يدعو إلى إسقاط عامل الوراثة والنسب في الترقى داخل الحزب لم يطبق ذلك على أسرته»، غامزاً في ذلك من قناة الزوجة سارة التي تشغل منصب العلاقات الخارجية في الحزب والإبنة مريم المسؤولة عن شؤون المرأة والإبن الثاني صديق المسؤول عن شؤون المال. كما أن التصريحات لمست اعتماد الصادق أسلوب التعيين في المناصب وليس قاعدة الانتخاب، علماً بأن ما يفعله الصادق في مسألة التعيين المعترض عليها من جانب مبارك هو أسلوب سائد في العالم الثالث وإن معظم الحكام يعتمدون هذا الأسلوب، وإذاً فلا غرابة في ذلك مع الإشارة إلى أن مبارك المهدي نفسه مشمول بهذا الأسلوب التعييني، وإلاً فكيف تجاوز شخصيات تاريخية كثيرة في «حزب الأمة» ووصل إلى المنصب القيادي الذي وصل إليه لولا أنه ابن العم المدلل داخل الأسرة. كذلك من المهم الإشارة إلى أن التعيينات التي إعتدها الصادق شملت من هم على درجة من الكفاءة والثقافة والتأهيل العلمي الجامعي بدءاً من الزوجة سارة ذات الماضي النضالي

أخرى في مسلسل الضجيج الذي يعصف بالأسرة منذ أكثر من ربع قرن ولا يبدو أنها ستكون الضجة الأخيرة ما دام التلميذ (أي مبارك) قرر في لحظة شعور بأن ساعده قد إشتد أن يرمي أستاذه الصادق الذي علمه الرماية. وهذا فصل آخر من عذاب الأسرة المهدي التي تستعذب العيش في محيط القلق أو الإقلاق... أو كلاهما معاً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 16 يناير (ك) 2002

* * *

الأقارب... أولى بالخصوصمة!

الضجة الأخرى وليست الأخيرة داخل الأسرة المهدي كانت متوقعة على رغم محاصرتها، بل انها كانت إذا جاز التشبيه مثل صراخ في دار مقفلة لا يسمع بها سوى أهل البيت الواحد، ولمجرد أن فُتحت الأبواب على مصاريحها بدا الضجيج كما لو أنه دوي تفجير.

كان مبارك الفاضل المهدي أحد أبناء العمومة هو من فتح الأبواب التي نشير إليها مدفوعاً بتحقيق تطلعاته المحجور عليها متأثراً بالأسلوب الذي إعتده الرئيس عمر البشير مع شريكه الدكتور حسن الترابي، مع الفارق أن مبارك المهدي يصنف نفسه شريكاً وأن الصادق المهدي لا يعتبره ذاك الشريك. وجاء فتح الأبواب من خلال مقابلة صحافية أجريت مع الرجل الطموح وضع فيها أمام كل السودانيين ما في صدره من مطالب وإحتقانات، مثيراً القضايا العالقة الشائكة وأبرزها مسألة الزعامة بالتوريث ومسألة الإمامة العالقة لطائفة «الأنصار». ومن خلال قراءة ما بين سطور تصريحاته التي نُشرت مطلع كانون الثاني (يناير) من العام الجديد 2002، بدا مبارك المهدي كمن يريد تهشيم صورة الصادق المهدي كزعيم سياسي مرموق على المستوى المحلي وعلى الصعيد العربي والإسلامي والدولي، كما بدا كمن يريد إيقاظ بعض المشاعر داخل طائفة «الأنصار» لعل أصحاب هذه المشاعر ينضمون إليه ويشكلون سنداً له في المباراة التي إختارها مع الصادق الذي من خلال قراءة التصريحات يرفض مبارك إعتباره ولي نعمته السياسية، أو أنه أستاذه الذي درّبه على علم السياسة وتولى

الترابي علماً بأن هذه الشراكة أثمرت موسماً واحداً ثم أصاب الكساد بقية مواسم الحكم والسلطة. كما أن العلاج يصبح على جانب من الصعوبة عندما يجعل مبارك ما هو خاص أمراً عاماً يتندر به الآخرون، ونعني بذلك الحديث عن توزيع المناصب والمسؤوليات على الزوجة والأبناء على نحو ما أوضحناه في سطور سابقة. ومن هنا يصعب التوقع بأن الروح الرياضية ستلعب دورها وبحيث لا يتوقف الصادق عند مسألة أنه من بيت ابن عمه ضُرب، ويطوي الإثنان صفحة مشوشة في تاريخ الأسرة كي لا تكون هنالك فرصة أمام الشامتين عملاً بالقول الشائع: أنا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب. والذي قد يجعل مثل هذا المستحيل ممكناً هو أن الأسرة المهدية التي هي إحدى أصلب قلاع النفوذ الليبي في السودان إرتضت دخول الدكتور علي التريكي على خط الأزمة في محاولة لرأب الصدع.

ينجح المسعى الليبي أم يتعثر؟ يتبدد الحذر في النفوس المهدية أم يبقى على حاله؟ يقرر قطبا الصراع وهما السيد الصادق وابن عمه مبارك إنتهاج أسلوب تعامل جديد أم لا يحدث ذلك؟ يُسلم مبارك بأن قامته ليست بطول قامة الصادق على الصعيد الأنصاري والصعيد السوداني والصعيد العربي والدولي فيرتضي أن يكون مع آخرين على جانب الرجل الأول في الطائفة والحزب وليس الثاني له، ام لا يُسلم؟ يضطر الصادق شخصياً أو من خلال طرف ثالث في الكيان الأنصاري إلى ان يكشف كل الحقائق حول الإتصالات والعلاقات التي بناها مبارك المهدي في غياب الصادق وفي غفلة عنه وبسببها اضطر للهروب من السودان والإلتحاق بالمعارضة في الخارج كي لا يتوغل مبارك أكثر وأكثر في ما بدأه، أم يتريث على أساس أن الشظايا عندما تنتثر بعد تفجير لا تميز بين هذا وذاك وذلك... وأولئك بدءاً بمحيط «قبة المهدي» وصولاً إلى الجزيرة «أبا»؟ هذه التساؤلات وغيرها تبقى الإجابة الواضحة والحاسمة عنها في علم الغيب مؤقتاً إلى أن ينجلي الغبار وتبين حقائق مشهد الخلاف الذي يعصف بطائفة وحزب، وخطورته هذه المرة أن الجيل الثالث في الطائفة دخل طرفاً أساسياً في هذا الخلاف.

ومع أن ما يصيب طائفة «الأنصار» و«حزب الأمة» أصاب من قبل طائفة الختمية وحزبها (الإتحادي)، وأصاب أيضاً الحزب الشيوعي، ثم

في الحزب وبالذات في سنوات الإغتراب القسري وسنوات الإعتقال السبع التي أمضاها الصادق في سجن «كوبر» أو في الإقامة الجبرية، والإبنة مريم الطبية وصديق الذي تخرّج مهندساً بترولياً من جامعة الكويت (بقية الأبناء والبنات من الزوجتين حفية وسارة في المستوى التعليمي نفسه: الإبنة رباح مهندسة كهربائية وزينب مهندسة وطاهرة طبية وعبد الرحمن تخرّج من الكلية الحربية في الأردن ومحمد أحمد على طريق التخرج الجامعي). وقد يجوز الافتراض أن هذه الوثبة من جانب مبارك المهدي شكلت طعنة معنوية في نفس الصادق لعلها الأكثر إيلاًماً خلال الفترة التي أمضاها خارج السودان بعد مغادرته المثيرة لمنزله في الخرطوم فجر يوم الإثنين 9 ديسمبر 1996 في إتجاه أريتريا ووصله ظهر اليوم التالي إلى أسمرة، وذلك بفعل عملية تهريب متقنة تولّاها بكره عبد الرحمن صاحب الخبرة العسكرية. فهو وضع كل الأوراق بين يدي مبارك، وسايره التاريخيون الآخرون أمثال الدكتور عمر نور الدائم في تقضيله ابن العم على بقية الرفاق هدياً بالقاعدة المعمول بها في أنظمة دول العالم الثالث وهي أن أهل الثقة يتقدمون على أهل الخبرة.

ولكن على رغم هذه الطعنة والإنزاع الشديد من مشاعر الشماتة التي سادت في أوساط المتحفظين أصلاً على هذا التميز لمبارك المهدي، فإن الصادق إعتد أسلوب «الكاظمين الغيظ» فلم يرد على التحية الخشنة بمثلها مكثفياً بإحالة الأمر إلى الطقوس الحزبية في مثل هذه الحالة، وعلى نحو ما حدث قبل ذلك مع قطب أنصاري آخر هو بكري عدیل الذي إنتفض في لحظة ضيق فقال عبر الصحافة الكلام الذي رأى فيه الصادق إنتقاصاً من هيئته. ثم ما لبث الصادق بعدما قررت قيادة الحزب تعليق عضوية بكري عدیل أن منحه عفواً من دون أن تتحسر مشاعر إنزعاج الصادق مما فعله المعفى عنه، هذا مع الأخذ في الاعتبار أن الإنتقاد عندما يأتي من أنصاري ليس من العائلة يمكن معالجته بالأسلوب التأديبي الذي يعاد النظر فيه وبحيث يكون من تم إنزال العقاب فيه راضياً لأن الأعلى (وهو هنا الصادق) منحه عفواً، في حين أن العلاج يصبح على جانب من الصعوبة عندما يأتي النقد من ابن العم وبالذات من مبارك الفاضل المهدي الذي يتطلع إلى أن يكون في المنصب الأعلى، أو بتشبيه آخر يكون شريكاً على نحو الشراكة التي كانت بين الرئيس عمر البشير والدكتور حسن

أصاب حزب نميري وحزب الترابي وكيف أن محنة الإنقسام شملت كل هؤلاء.. إلا أن الضجة التي أحدثها مبارك المهدي تختلف عن غيرها لأنها في حقيقة الأمر أقل من تمرد على الزعامة الأولى للأسرة المهدية طائفة وحزباً وأكثر من محاولة إنقلابية يصعب الجزم بأنها فشلت أو يمكن التوقع بأنها ربما تنجح، وأن مبارك الفاضل المهدي قاد هذه المحاولة من خلال تصريحات بدت وكما لو أنها البلاغ رقم واحد لـ «حركة تصحيح»... ينقصها المصحح المؤهل.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 23 يناير (ك) 2002

* * *

تأملات في ما ينتظر قمة بيروت

إعتدنا على مدى أكثر من ثلاثة عقود على مؤتمرات القمة العربية التي قلما خلا واحد منها من المنغصات التي كانت تسبق الإنعقاد ثم ترافق الإنعقاد ثم تعقب الإنعقاد.

وبادئ ذي بدء من المهم التوضيح بأنه لولا أن الرئيس (الراحل) جمال عبد الناصر لم يبعث الروح عام 1964 في مؤسسة القمة لما كان لهذه المؤتمرات أن تتعقد. ولكن عبد الناصر وجد بعد بضع سنوات من الصراعات مع الأنظمة وبعد الكر والفر الذي تسبب في صدام مقلق للمنطقة، أن الهالة التي حققها من كتلة عدم الانحياز التي كان أحد النجوم الساطعة فيها لا تكفي، فقرر أن يلم الشمل العربي وهذا يكون من خلال القمة التي يتصارع فيها الملوك والرؤساء داخل القاعة المغلقة بدل أن يتصارعوا عبر الميكروفونات ومن خلال صفحات الصحف الرسمية الناطقة بإسم الحكومات والصحف غير الرسمية التي كانت في بعض الأحيان تزايد في الولاء على الصحف الرسمية. وفي ضوء المداولات وإخراج ما في الصدور من إحتقانات ناشئة عن العتب والغضب يصاغ الموقف العربي الواحد الذي يمكن أن يأتي لمصلحة الأمة.

وإذا جاز لنا التعمق أكثر وأكثر في مفهوم القمة لرأينا أن عبد الناصر إقتنع بأن الأمور لن تستقيم إذا كان سيفرض الرأي الواحد على الآخرين، وأن إشراك كل الملوك والرؤساء في صياغة الرأي يشكل ضماناً

أفضل وتحملاً للمسؤولية أقل.

بعد القمة الأولى التي إنبعثت من القاهرة وبعد طول تغيب منذ القمة التأسيسية في «أنشاص» يومي 28 و29 مايو (أيار) 1946 والقمة الإضرطارية التي عُقدت في بيروت يومي 13 و14 نوفمبر (تشرين الثاني) 1956، أمكن بهدوء عقد القمة الثانية التي أراد عبد الناصر أن تكون الإسكندرية العاصمة الصيفية للحكم المصري مكان الإنعقاد. وبعد هاتين القمتين بدأت إسرائيل تتشط في سبيل تدمير هذه المحاولة الجادة التي تستهدف توحيد الصف العربي. ففي غياب مثل هذه المؤتمرات يبقى التناقض قائماً والصراعات مستمرة والحملات الإعلامية المتبادلة متصاعدة، وهذا كله يخدم إسرائيل التي من مصلحتها أن تقول امام الدول الأجنبية: أنظروا كيف أنهم لا يتفقون بين بعضهم فكيف سنتفق معهم.

بذل القادة العرب مشقة كبرى بعد قمة القاهرة (13-17 يناير/ كانون الثاني 1964) التي جاء انعقادها بعد ثمانية أعوام من القمة الإنتقالية التي جرى عقدها في بيروت (13-14 نوفمبر/ تشرين الثاني 1956) والتي كانت لنجدة مصر المعتبرة عليها من حلف العدوان الثلاثي بريطانيا وفرنسا وإسرائيل. وكان الغرض من البذل الشاق هو أن تصمد مؤسسة القمة ويحدث المزيد من التفعيل لها بعدما شعر الملوك والرؤساء ان مجرد اللقاء والتشاور يجعل القلوب تتآلف والحذر ينحسر والمشاعر لا تعود على الجفاف التي هي عليه.

تسارعت القمم العربية بحيث باتت تنعقد كلما تطالب الأمر الإنعقاد. وكان الملوك والرؤساء يؤكدون عندما يريدون للقمة أن تنجح أن في مقدورهم تحقيق هذا النجاح. وعند التأمل في الأجواء التي سادت القمة العربية السادسة في الخرطوم من 29 أغسطس (آب) إلى أول سبتمبر (أيلول) 1967 وفي القرارات التي صدرت عن المؤتمر يتأكد لنا ذلك. فلولا تلك القمة لما كان للصمود العربي بعد هزيمة 5 يونيو (حزيران) 1967 أن يحدث. ولولا الدعم الذي تقرر في تلك القمة لما كان للرئيس (الراحل) أنور السادات أن يخوض متعاوناً مع الرئيس (الراحل) حافظ الأسد الحرب في السادس من أكتوبر (تشرين الأول) 1973 ويحقق الجيشان إنتصاراً نوعياً جعل إسرائيل ومن ورائها الإدارة الأميركية تقرر ان منذ ذلك الإنتصار أن وقف النهوض العربي يكون أولاً ببعثة الصف العربي

الدوري فإن ما لا يتخذونه في القمة الأولى يمكنهم إتخاذه في القمة التالية.

لم تكن نتائج القمة الدورية الأولى التي إستضافتها العاصمة الأردنية عمان في مارس (آذار) الماضي، وفق الترتيب الأبجدي للإنعقاد، في المستوى المأمول، إلا أنها أكدت الأمر الذي كان على شيء من الإستحالة وهو أن القادة العرب قرروا وبالإجماع أن يلتقوا سنوياً، وأن مجرد اللقاء هو في حد ذاته خطوة على طريق توحيد الصف، وعندما يتوحد الصف لا تعود وحدة الهدف مستحيلة. هنا بدأ الصهاينة في إسرائيل والمتصهينون في بعض مفاصل الإدارة الأميركية يخططون لزراعة الألغام في طريق هذا التوجه العربي الجديد الذي من شأنه أن يقود إلى فك بعض الدول العربية إرتباطها بمعاهدات السلام وإرتباط البعض الآخر بعلاقات إقتصادية وتقنية في حال لم ترسخ إسرائيل للارادة الدولية التي ترى أن تقوم دولة فلسطين وتطوى تبعاً لذلك الحلقة الأكثر تعقيداً في الصراع العربي - الإسرائيلي. وهي ترى أن رضوخها معناه سقوط الحلم الصهيوني في قيام «إسرائيل الكبرى» الذي قد يكون الإتيان بأرييل شارون هو من أجل تحقيق هذا الحلم الذي اظهرت الإنتفاضة قدرتها على تأخيرها.

في ضوء هذا الواقع جاءت العملية الترويجية في نيويورك يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001 لتدفع إلى الوراء بكل ما تم إنجازه على طريق انضاج فكرة القبول العربي شبه الشامل بالسلام المنقوص مع إسرائيل، ذلك ان الإدارة الأميركية التي ربما تكون ضحية هذه العملية وربما تكون بعض الجيوب المتصهينة فيها شريكة للصهيونية داخل إسرائيل وخارجها في تدبير العملية، لم تعد معنية بعملية السلام وبانت ترى ما تراه إسرائيل وهو القضاء على الإرهاب وعدم التمييز بين الإرهاب البغيض والمقاومة المشروعة، بل أنها باتت لا تمنع حتى في تمثيل الشارونيين بهيبة رمز الشرعية الفلسطينية على نحو ما يفعله ارييل شارون مع الرئيس ياسر عرفات الذي يصوره المخطط الأميركي - الصهيوني على أنه هو الصقر وليس الشيخ أحمد ياسين، وإن السلطة الفلسطينية هي خلاصة «الإرهاب» وليست «حماس» أو «الجهاد الإسلامي». وفي هذه النظرة إنتهاك للحقيقة وظلم بالغ الإيذاء للرجل الذي علق كل التراث النضالي على مدى أربعة عقود من أجل أن يرضي أميركا ويسترضي

وإشغال الأمة بحروب وصراعات ومؤامرات تشكل الحرب اللبنانية ثم الإجتياح العراقي للكويت ومن قبل ذلك إنهاك العراق بحرب مع إيران علامات بارزة على هذا الصعيد. والغرض من إشغال هذه الحروب وتأجيج الصراعات هو نفسه الغرض السابق، أي تصوير العرب بأنهم متنافرون طامعون ببعضهم البعض لا يتعايش المسلم العربي مع المسلم غير العربي، بل حتى أنهما على إستعداد لخوض حرب يسقط فيها الضحايا بالألوف وتُسفك فيها الدماء كما لم يحدث في الحربين العالميتين الأولى والثانية وتتبعثر الثروات على خلافات لا طائل تحتها. وفي سبيل إشعال الحروب وتأجيج الصراعات هذه إرتدت الإدارات الأميركية والحكومات الإسرائيلية قناع الدولتين الحريصتين على مستقبل المنطقة وبدأت كل منهما بشكل مباشر أو غير مباشر تساعد هذا الطرف ضد ذاك وتوغر صدر ذلك النظام ضد جاره. وحققت الدولتان الحليفان، اللتان لا تريدان لوحدة الصف العربي أن تحدث، مآربهما ووصلت الحال بالإدارة الأميركية إلى حد أنها بدأت تخاطب الأنظمة العربية وعن طريق الأمانة العامة للجامعة، على نحو ما حدث في القمة الإستثنائية في بغداد يوم 28 مايو (أيار) 1990، بلهجة يمتزج فيها الإملاء بالتحذير وبالتهويل. وفي تلك المذكرة غير المسبوقة طلبت الإدارة الأميركية من الملوك والرؤساء العرب «تقادي الحماسة اللفظية المفرطة» و«عدم الوقوف ضد حق اليهود السوفيات في الهجرة أو ضد مصلحة إسرائيل الأساسية في قبولهم داخل إسرائيل ذاتها...».

بعد الإعتداءات والإنتهاكات الشارونية حدثت «إنتفاضة الاقصى» التي فرضت على الأنظمة العربية مغادرة النفق الذي وضعتها السياسة الأميركية فيه، وبات الرأي العام العربي يضغط بقوة من أجل نجدة فعالة لهذه الإنتفاضة تتراجع في سبيلها أي خلافات وأي تحفظات. وأمكن في ضوء ذلك إنعقاد القمة العربية الإستثنائية في القاهرة يوم 21 أكتوبر (تشرين الأول) 2000 التي أذابت بعض الجليد المتراكم في العلاقات العربية فضلاً عن أن الأصوات التي تطالب بقطع العلاقات والاتصالات مع إسرائيل بدأت تعلو وتضغط على الملوك والرؤساء من أجل إتخاذ خطوات في هذا السبيل. وجاءت فكرة الإنعقاد الدوري للقمة العربية تضع الرأي العام في موقع المتقائل بأن أولي الأمر ما داموا إتفقوا على الإنعقاد

بعض أرض جيل الأجداد من أجل أن ينعم جيل الأحفاد في الألفية الثالثة بدولة وجواز سفر وطمأنينة على أرض الدولة التي عاصمتها القدس، وكفيلة أيضاً بأن ينصرف العرب إلى حياة جديدة تقوم على الاستقرار الذي من شأنه أن يحقق الإزدهار. ولولا الثقة بأن الولايات المتحدة ستحقق التسوية الموضوعية وتدعم العملية السلمية إلى حد تنفيذ ما تم التفاوض في شأنه لما كان للقادة العرب أن يوكلوا إلى الرئيس جورج بوش الأب الأمر وبحيث ينطبق عليه القول الشائع على المستوى العربي «أنت تتولى التفصيل ونحن نلبس». ونقول ذلك على أساس أن الذي حصلت عليه إدارة ذلك الرئيس من العرب لم يحصل عليه رئيس من قبل. وللمرء أن يتصور حجم شأن أميركا من دون إنقاف الدول العربية الرئيسية حول إدارة الرئيس بوش (الأب) عام 1990. كذلك للمرء أن يتصور أي مأزق كان ذلك الرئيس سيجد نفسه فيه لو أن الرئيس حسني مبارك والرئيس (الراحل) حافظ الأسد والملك (الراحل) الحسن الثاني لم يصل التفهم عندهم إلى حد المشاركة في حربه على العراق، وأي إحراج كان سيصيب ذلك الرئيس لو أن الرئيس صدام حسين إستجاب في اللحظة الأخيرة لما تمناه القادة الخليجيون والعرب عموماً وهو أن ينسحب من الكويت ويوفر عليهم أمراً لا يريدونه ولا تتمناه دول «مجلس التعاون الخليجي» بالذات للعراق الجار كيئناً ونظاماً وشعباً.

لم يكن الرئيس بوش الأب عند حسن الظن، وبدا في ما فعله أنه يريد إستدراج العرب إلى تسوية تناسبه وعلى حساب العرب بمن فيهم الأصدقاء. وهو لو كان على قدر من سلامة النية لكان ولمجرد أن إرفض الجمع في مدريد بدأ وبكل الحماسة وضع العملية موضع التنفيذ وبحيث لا يلجأ إلى أسلوب التسوية وإرسال المبعوثين الذين تبين في ما بعد أنهم في معظمهم مخترقون من قوى الضغط الصهيوني. وكان من شأن قمة أميركية - عربية - إسرائيلية تتعد بعد أيام من إنتهاء مؤتمر مدريد في واشنطن أو في إحدى الدول العربية من الجناح المغربي أو المشارقي لا فرق، بل وحتى في دمشق نفسها في حال كان هنالك إصرار أميركي على إيجاد الحل، أن تضع صيغة «الأرض مقابل السلام» موضع التنفيذ الفوري خصوصاً أن الأمر لا يحتاج إلى كثرة التفاوض وإنما إلى القرارات التي تؤكد حسن النوايا الأميركية - الإسرائيلية، وذلك على أساس أن الجانب العربي برهن عن حسن نواياه لمجرد أن شارك في مؤتمر

الإسرائيليون فإذا بالطرفين يمعنان تدميراً به ويوصلان الأمر إلى حد أن الشرط غير المعلن للإفراج عنه لكي يشارك في قمة بيروت هو أن يكون القادة العرب وبالذات الرئيس بشّار الأسد والرئيس اميل لحود ومعهما الرئيس ياسر عرفات على التفهم المطلوب أن يكونوا عليه وعلى نحو ما هو عليه تفهم الجنرال برويز مشرف. اما عدا ذلك فإن القمة العربية الدورية الثانية العاجزة عن أن تستحضر عرفات على نحو إستحضاره إلى قمة «الهيلتون» الشهيرة يومي 26 و 27 سبتمبر (أيلول) 1970 من حصاره الأردني ستعتقد لكي تنعي حقبة مهمة من النضال الفلسطيني وليس لدعم هذه الحقبة، وهذا هو المطلوب. وتلك هي المؤامرة التي تنتظر قمة بيروت التي نجت من اللغم المحلي الذي هو الأصغر وبات عليها الإستعداد منذ الآن لمواجهة اللغم الأميركي - الإسرائيلي الذي هو اللغم الأكبر، والذي ستلفح شظاياه وجوه الجميع... ومن دون إستثناء.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 30 يناير (ك) 2002

* * *

السعودية في مواجهة الأمر الواقع...

غير الواقعي

في الذكرى العشرين لتولي الملك فهد بن عبد العزيز مقاليد الحكم في المملكة العربية السعودية تحدثت أمور لافتة للإنتباه من بينها أن المملكة، التي حققت على مدى العقدين الفهديين حالة من النهوض، باتت تقود شبه منفردة مواجهة فرض الأمر الواقع الأميركي غير الواقعي الذي يستهدف أن ترتضي الأمة صيغة حل للصراع العربي - الإسرائيلي دون ما تم التوافق في شأنه بدءاً من المشروع المتوازن الذي عرضه الملك فهد في القمة العربية الرابعة عشرة في مدينة «فاس» المغربية (من 6 إلى 9 سبتمبر/ أيلول 1982) ودون كل ما تم إقراره في شأن العملية السلمية في مؤتمر مدريد الذي إرتضاه القادة العرب بالإجماع واقنعوا شعوبهم به، وذلك على أساس أن تلك العملية من شأنها أن تضع حداً للحروب وأن المقايضة التوفيقية بين الأرض والسلام كفيلة بأن يتناسى الفلسطينيون أصحاب الحق الشرعي في فلسطين

مريد وإرتضى الصيغة مع أنها لا ترقى إلى مرتبة الحل الطموح الذي يتمنى القادة العرب الوصول إليه ويجعل الأجيال العربية تذكر بالخير هؤلاء القادة وليس العكس. قد يكون بوش الأب إختار التريث على أمل توظيف الحل الذي نشير إليه في ولايته الرئاسية الثانية، وبذلك يجني من ذلك مكاسب كثيرة يضيفها إلى المكاسب المادية والسياسية التي تحققت للولايات المتحدة من الحرب على العراق. وتقبل العرب والأصدقاء منهم في الدرجة الأولى برحابة صدر هذا التريث مفترضين أن الجمائل التي لهم في عنق الرئيس الأميركي وفي عنق كل أميركي أنقذته الحرب على العراق من مشاكل إقتصادية ومعيشية بالغة التعقيد وجعلت البحبوحة لا تتأثر مقابل حالات متعددة من شظف العيش في الجانب العربي، من شأنها أن تجعله لا يتناسى. وإفترض الأصدقاء أيضاً أن للتريث ضروراته وعلى هذا الأساس جاء رد فعلهم على جانب من التفهم، مع أن المطلوب كان ممارسة المزيد من الضغط وذلك لان الطرُق على الحديد وهو ساخن أكثر جدوى من الطرق بعدما يبرد.

لم يكافئ الشعب الأميركي بوش الأب على المكاسب التي جناها للبلاد من الحرب على العراق مخففاً بفضلها من وطأة المعاناة الثقيلة على المواطن، وجاء سقوطه في الإنتخابات وكما لو أن ذئاب الصهيونية لا تريد لأجواء مؤتمر مدريد أن تستمر وأن ذلك يكون في الدرجة الأولى من خلال إفتعال إظهار الرغبة القوية بإنجاح العملية السلمية والعمل ضمناً على تقويض رموز هذه العملية، وفي الدرجة الأولى عدم تمكين بوش الأب من الفوز في الإنتخابات الرئاسية وإستبدال الجمهوريين برئيس من «الحزب الديمقراطي» من دون أن يكون هذا المواطن محتجاً في الوقت نفسه على السلوك الذي إتسمت به إدارة بوش الأب، إذ ما هي دواعي الإحتجاج ما دام هذا السلوك أنقذ إقتصاداً وأبعد عن المواطن شبح البطالة التي كانت ستحدث وتشمل صناعات أصابها الكساد فباتت على مشارف الإفلاس إلى أن جاءت غنائم الحرب لتنفذها. مع الإدارة الجديدة دخلت العملية السلمية في متاهات لا نهاية لها. وفي السنوات الثلاث الأولى لولاية الرئيس بيل كلينتون كانت هذه الإدارة تتأثر من العرب بحجة أنهم إستمروا إلى النهاية مع الرئيس الجمهوري جورج بوش الأب. وبعدما إنحسر الشحن الثأري قليلاً وبدأ الرئيس

كلينتون يميل إلى التعاطي في شأن العملية السلمية بما يحقق له مجداً في مسيرة الصراع العربي - الإسرائيلي وخطا بعض الخطوات النوعية على طريق هذا التعاطي، نصب جناح الذئاب في الصهيونية له ذلك الكمين المتمثل بفضيحة مونيكا لوينسكي وراحت الألسن تلوك سمعة هذا الرئيس الذي خضع لإبتزازات لا حصر لها من أجل أن يمارس مهمة إفشال العملية السلمية وخصوصاً بعدما بات العرب أكثر حماسة للتنفيذ وإستقبلوا بالترحيب إجتهاادات الرئيس ياسر عرفات، وبالذات صفقة أوصلو الشهيرة، على رغم ما في هذه الإجتهاادات من مخاطر. ولقد رضخ الرئيس كلينتون وكان لذئاب الصهيونية ما أرادوا، مع ملاحظة أنهم ضحوا بأسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل الذي هو من ثغالب الصهاينة والذي أبرم صفقة أوصلو مع عرفات. وإفترضنا بعد كثرة الإجتماعات واللقاءات والإبتسامات في واشنطن و«واي ريفر» و«كامب ديفيد» أن عرفات الذي سائر صديقه كلينتون وصديقه مادلين أولبرايت في موضوع تأجيل إعلان قيام الدولة الفلسطينية مرتين، سيقطف الثمرة الشهية من دون أن يدري بأن هنالك مخططاً جهنمياً رسمته الصهيونية في الخفاء ويقضي بإسقاط ايهود باراك من دون مبرر ودعم ثنائي ديمقراطي يمالئ إسرائيل ومن دون أي شروط، يتألف من آل غور للرئاسة وجوزف ليبيرمان اليهودي الأميركي لنيابة الرئاسة. بقية المخطط ما زالت ماثلة في الأذهان، وهي توضح بما لا يستوجب التحفظ واستناداً إلى مواقف الإدارة التي منحوها الفوز وإلى الإختراق الصهيوني لمفاصل أساسية في هذه الإدارة، أن الصهيونية تريد إزالة الإنطباع السائد عن الجمهوريين وخلصته أنهم أقل إنحيازاً لإسرائيل وأكثر تفهماً للواقع العربي والإسلامي. بل قد يجوز القول ان الصهيونية تعمل على جعل الجمهوريين يتصرفون وكما لو أنهم مثل الحزب الديمقراطي في موضوع إسرائيل، وتعمل على ضرب الخصوصية التي بين العرب والجمهوريين، وهذا يكون وحسب الأولوية من خلال تخريب العلاقة السعودية - الأميركية العريقة والعلاقة المصرية - الأميركية المزدهرة والعلاقة السورية - الأميركية التي هي في طور النمو والعلاقة الاردنية - الأميركية المستجدة وبالذات بعد رحيل الملك حسين والعلاقة المغربية - الأميركية الموروثة والعلاقة التونسية - الأميركية

السلام بين الناس وتعود الحقوق إلى أصحابها...
كاملة إذا أمكن ومنقوصة في الحد الأدنى.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 6 فبراير (شباط) 2002

مَنْ يَكُون «بوتين الفلسطيني»؟

بإستثناء ما سمعناه من ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبدالله بن عبد العزيز على هامش «الدورة العروبية» لمهرجان الجنادرية قياساً بالدورات الست عشرة الماضية الخليجية الطابع، عن المحنة التي يعيشها في الأسر الشاروني الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، فإن أياً من القادة العرب والمسلمين وأياً من أصدقاء الرئيس عرفات في القارات الخمس (نفترض أن لعرفات صداقات أو بقايا صداقات في قارة أميركا الشمالية) لم يرفعوا الصوت والسوط عالياً احتجاجاً على هذا الإستهتار الشاروني إزاء رئيس طالما فُرش له السجاد الأحمر في بعض المطارات وطالما عرض مع مضيفيه في ساحات المطارات أو على مداخل القصور الرئاسية، حرس الشرف. ونقول ذلك مستنديين إلى المعلن من الإحتجاج والمواقف ومن دون أن ندري ما إذا كانت هنالك بعض المساعي غير المعلن عنها تتم من خلال قنوات متعددة.

وخلاصة ما سمعناه من ولي العهد السعودي الذي بات، إستناداً إلى مواقف متلاحقة له على مدى السنتين المستمرتين ضد الباطل الإسرائيلي، خير من يعبر عما يجيش في صدور الرأي العام العربي والمسلم من غضب إزاء ما يحدث على الجبهة الأميركية - الشارونية وما يتكاثر من تمنيات في الوجدان لمواجهة ذاك الباطل... إن خلاصة ما سمعناه تمثل بالعبارة الآتية: «ما من شك الموقف غريب، وغريب جداً أن يُسجن زعيم. مثل هذا الأمر لم يحدث من قبل. ولكن أحب أن أقول للأخوة المشاركين في مهرجان الجنادرية ان المملكة العربية السعودية وعلى رأسها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز تبذل وستبذل جهداً، ولكن من طبيعة هذا البلد أن لا يفتخر بالشيء الذي يؤديه نحو أخوته ونحو الإسلام. ان القمة العربية الدورية الثانية ستعقد إن شاء الله في لبنان وفي الموعد المحدد وإن

المدرسة والعلاقة العرفانية - الأميركية المتذبذبة نتيجة أن الحب فيها من طرف واحد. بل من الجائز الافتراض أن مخطط التخريب رأى انه عندما تهتز العلاقة السعودية - الأميركية فإن بقية التنازلات ستتأثر كل التأثر. ومن هنا بدأ تشغيل آلة الإعلام الصهيوني أو المتصهين ضد السعودية، وبدأ تحريك بعض الأفاعي في الكونغرس، وبدأ الكلام الذي يتسم بالتجريح والذي صار لغة التخاطب المعتمدة من الرئيس بوش الابن بشكل غير مباشر ومن بعض وسائل الإعلام الصهيوني أو المتصهين بشكل مباشر وإستفزازي. وفي كل مرة يأخذ هذا الكلام منحي التعريض بالخصوصية السعودية الأمر الذي أوجد رأياً عاماً في المملكة والعالم العربي من نواكشوط إلى بيروت إلتف بحماسة منقطعة النظر حول القيادة السعودية التي تواجه الألاعيب الأميركية وتتصدى للذين يحاولون التلاعب بالخصوصية المشار إليها وتتولى التنبيه والتحذير من شر مخاطر الانهزامية الأميركية أمام هذا الإجتياح الصهيوني لطبيعة الدور الأميركي.

وفي الذكرى العشرين لتسلم الملك فهد دفة القيادة يصل التصدي إلى مده الأبعد وتبدو المواجهة وكأنما هي مواجهة الحق للباطل، وهو ما كنا سنلاحظه بين سطور المحاضرة التي كان سيلقيها الأمير سلمان بن عبد العزيز خلال مهرجان الجنادرية ثم أرجأ الإلقاء. والمحاضرة هي حول العلاقة السعودية - الفلسطينية خلال العقدين الفهديين وما فعلته المملكة من أجل ألا تنطفئ شعلة النضال الفلسطيني. وعند التأمل في سلاح المواجهة وهو الرد بتعقل والتنبيه برفق والتحذير بمنطق، نستنتج بأن هذه المواجهة مرشحة للمزيد من التفاعل. وستبقى تصريحات ولي العهد الأمير عبدالله بن عبد العزيز والأمراء نواف بن عبد العزيز رئيس الإستخبارات العامة ونايف بن عبد العزيز وزير الداخلية وسعود الفيصل وزير الخارجية، على هامش الدورة السابعة عشرة لمهرجان الجنادرية، تشكل ملامح وقفة على الطريق مع الصديق الأميركي هي في طور الإختتام... ومن شأنها عندما تكتمل أن تجعل هذا الصديق يتنبه إلى أن الأولوية يجب أن تكون لمصلحة أميركا والأميركان والأصدقاء العرب والمسلمين المخلصين في صداقتهم، وليست لمصلحة الصهيونية التي هاجسها زرع الشر وغرضها تدمير العلاقات كي لا يسود

شاء الله سيكون الأخ ياسر عرفات بيننا...».

وقد يكون مفهوماً أن اطرافاً ليس بينها وبين إسرائيل علاقات أو مكاتب تجارية لا تزال قائمة خلافاً لتوصيات قمة عربية وأخرى إسلامية في شأن ضرورة اغلاقها كنوع من الضغط على إسرائيل كي تسلك التعقل ولا تبقى شاردة على نحو ما هي عليه وبالذات بعدما تسلم إرييل شارون الحكم... قد يكون مفهوماً أن هذه الأطراف لا تملك من أوراق الضغط ما يجعلها تتصرف بما من شأنه فك الحصار عن عرفات. إلا أن غير المفهوم وغير المنطقي هو أن الدول التي بينها وبين إسرائيل علاقات دبلوماسية وتزاور وإمكانية لقاءات في مؤتمرات ومنتديات دولية وتبادل برقيات التهئة في المناسبات الوطنية تطبيقاً دقيقاً لأصول البروتوكول، لا تمارس من الضغط كثيره ولا حتى قليله. وهذه الدول وبالذات العربية والإسلامية منها ذات ثقل كبير ولا بد أنها ستحقق نتائج طيبة إن هي قررت ممارسة الضغط بدافع المصلحة الوطنية أو حتى النخوة التي هي من تراث الأجداد عربياً ثم إسلامياً. وهذه الدول التي من بينها مصر والأردن والمغرب وقطر وتركيا قادرة أن تضغط لكنها لا تفعل ذلك. ولا تفعل الشيء نفسه دول أخرى زار قادتها وكبار المسؤولين فيها عرفات في اراضي سلطته وزارهم هو عشرات المرات في قصورهم ودواوينهم. ويحتار المرء في عدم ممارسة هؤلاء بعض الضغط أو كثيره. هل لترك شارون يواصل الغرق في اخطائه؟ وهل لتقادي فتح قنوات اتصال مع شارون لا يريدون حدوثها ولا يتطلعون الى تطويرها؟ وهل انهم لا يضغطون خشية أن يخذلهم شارون بحيث يرفض ما يطلبون وهذا أمر لا يمكن أن يتحملة كبرياء أي منهم؟ وإذا كان الأسر صعباً فإنه يهون أمام غرابة الموقف الأميركي من هذا الأسر وكيف أن بعض أركان الإدارة الأميركية يظهرون أحياناً وكما لو أنهم شارونيون أكثر من شارون نفسه في موضوع عرفات. وهذا الموقف من جانبهم هو الذي يجعل بعض المناشادات لهم والتمنيات عليهم لا تثمر، بل يحدث أحياناً أنه بعد كل مناشدة للإدارة الأميركية بصيغة التنبيه أو النصيحة أن تتبري بعض الجيوب في الإدارة الأميركية، وهي جيوب تضم حديثي النعمة في الشأن السياسي الذين تتقصصهم الخبرة في أهمية الرضى العربي والإسلامي بالنسبة إلى الولايات المتحدة وتعوزهم الكياسة وبُعد النظر في تقدير طبيعة مصالح

أميركا من جرّاء هذا الرضى، إلى التشدد والتعنّت. وكمثال على ذلك ما صدر عن هذه الجيوب في أعقاب الكلام الذي سمعناه من ولي العهد السعودي. فبدلاً من أن يكون هنالك المزيد من التأمل في الكلام والتعمق في المضمون وتكون هنالك بالتالي إشارات تنبئ بالتفهم، فإن لهجة الإدارة الأميركية وبسبب مشاعر تلك الجيوب إياها إزدادت حدة ووصلت إلى حد أن التفهم المأمول بات تهديداً يقطع العلاقات مع السلطة الفلسطينية، الأمر الذي يعني أن هذه الإدارة لا تمنع في أن يبقى السيف الشاروني مسلطاً على العنق العرفاتي. وحتى بعدما اجتهد الرئيس عرفات وخص الإدارة الأميركية، ونكاد نقول تلك الجيوب ما غيرها، بمقال صيغت مفرداته على نحو ما أراد وزير الخارجية القطري الشيخ حمد بن جاسم، أي التوصل وما أكثر تشابه هذه الكلمة كحروف وكمعنى مع كلمة التسول، نشرته صحيفة «نيويورك تايمس» يوم الأحد 3 فبراير (شباط) الجاري وأبدى فيه من المرونة في موضوع القدس ما لا يجوز وفي تصنيف حركات المقاومة ما لا يليق، ومن التساهل في شأن حق عودة اللاجئين ما يصعب على أي فلسطيني في الشتات الداخلي والخارجي تحمّل شدة وطأته على الوجدان... حتى بعد هذا الإجهاد العرفاتي إنبرت تلك الجيوب إلى القول نيابة عن نفسها، أو من باب توارد الخواطر مع الشارونيين، إن ذلك لا يكفي وإن كلام عرفات لا يساعد ما فيه الكفاية. ما الذي يساعد إذاً عدا رفع اليدين إستسلاماً بالكامل؟! مناسبتان مرتا على الرئيس عرفات لم يشارك فيهما من دون أن تقتنع تلك الإدارة التي لا تقتنع ليس لأن المنطق العرفاتي عسير على الإقتناع وإنما لأن تلك الجيوب تقطع الطريق على أي إقتناع مطلوب، مستتدة إلى واقعة سفينة السلاح التي تصر على أن الرئيس عرفات إستوردها، مع أن من حقه أن يفعل ذلك ويصر هو وجماعة الأمن في السلطة أمثال العقيد جبريل الرجوب ومحمد دحلان على الجزم بأنها واقعة ملفقة وأن في إستطاعة السلطة الفلسطينية شراء السلاح من الإسرائيليين أنفسهم وبكلفة اقل لو أنهم أرادوا ذلك، وبما معناه أن السلاح الإسرائيلي على من يشيل ويشترى. ولقد إفترضنا أن تعيين الرئيس عرفات عن مؤتمر وزراء الخارجية العرب لن يتكرر عند إجتماع «لجنة القدس» وذلك لأن إسرائيل الشارونية مهما إستبدت بها الحماسة لا بد أن تأخذ في الإعتبار أن رئاسة اللجنة هي للمغرب

حال حدث ذلك يصبح واضحاً لماذا فعل شارون ذلك بعرفات ولماذا سحبت إدارة الرئيس بوش الإبن البساط الجمهوري من تحت قدميه... ولماذا معظم العرب أنن من طين وأنن من عجبن وفي لا مبالاة هي أقرب إلى الشماتة بالرجل... فكَّ الله أسره.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 فبراير (شباط) 2002

* * *

من «نعيم» قاعدة بن لادن إلى مأوى «النفائات الثورية»

من القاعدة كتنظيم بجوار أسامة بن لادن ومضيفه الملا محمد عمر وشريكه في مواجهة سيبقى حتى إشعار آخر من الصعب بمكان فك الغازها وطلاسمها، إلى القاعدة كسجن من نوع جديد بجوار عميد ثوار العالم الصامدين الباقين على قيد الحياة فيديل كاسترو، إنتقل بضع مئات من العرب والمسلمين الذين عصفت بهم إتجاهات دينية إفتراضوا أنهم بفضل هذه الإتجاهات وجدوا الإجابة عن تساؤلات طالما حيرتهم، فاذا بإفتراضاتهم تتهاوى ويجد هؤلاء أنفسهم سجناء قاعدة «غوانتانامو» تلك اللطخة السوداء على جبين فيدل كاسترو وتلك الشوكة التي تدمي في إستمرار خاصرة كوبا هذه الجزيرة التي كادت ذات يوم في الستينات أن تشعل حرباً عالمية، ثم اطفأ قطبا الصراع زمذاك الرئيس الأميركي الراحل إغتيالاً جون كينيدي والزعيم السوفياتي الراحل مَهاناً نيكيتا خروشوف، القتل بحيث لم تتفجر أزمة الصواريخ التي أرسلها الثاني إلى كوبا، حرباً كانت ربما لو وقعت لن تصل أحوالنا في المنطقة العربية إلى ما وصلت إليه الآن. ونقول ذلك على أساس أن تلك المواجهة بين القطبين زمذاك كانت ستتنتهي إلى هزيمة القطبين معاً أو إنتصارهما معاً. وفي الحالتين كانا سيعملان على مداواة جراحهما ويتركان دول العالم تهتم بأمورها في منأى عن التسلط والهيمنة. وقد يجوز القول إن الإدارة الأميركية قررت على أثر أزمة الصواريخ الثار من الإتحاد السوفياتي وحذفه كقوة عظمى وقررت أيضاً أن تكون أميركا هي الدولة الوحيدة التي تتحكم بالقرار الدولي.. وهذا ما نعيشه منذ سقوط الإتحاد السوفياتي. يطول الحديث حول تلك المواجهة التي لم تحدث

وأن مصلحة إسرائيل هي في أن يكون ملك المغرب الإبن الوريث محمد السادس كما الملك الراحل المغفور له الوالد الحسن الثاني غير منزعج من التصرفات الشارونية، لكن اللجنة عقدت إجتماعها في مراكش يوم الجمعة 25 يناير (كانون الثاني) الماضي وغاب عنها الرئيس عرفات الذي لم يغيب عن أحد إجتماعاتها منذ أن أنشئت عام 1979 بقرار من منظمة المؤتمر الإسلامي. ومع ان البيان الصادر عن الإجتماع كان متوازناً ولم يأت على ذكر الدعم الأميركي المستهجن للعنوان الشاروني، مكتفياً بمناشدة المجتمع الدولي عموماً ومجلس الأمن لإرغام إسرائيل على إحترام الشرعية الدولية تقادياً لكارثة في الشرق الأوسط، إلا أن الإدارة الأميركية لم تصنع بما فيه الكفاية إلى مناقشة هذا التجمع الذي إسمه «لجنة القدس» والذي تستضيفه الدولة التي هي رمز العلاقة الأميركية - العربية في جناحها المغربي، بل أن تلك الإدارة لم تستوقفها حتى رصانة رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية فاروق القدومي الذي ناب عن عرفات في حضور إجتماع اللجنة وكيف أن الرجل إعتد أسلوب المناشدة، مع أن الوطأة الأميركية - الشارونية على رفيق النضال القابع تحت الحصار الشاروني في رام الله تجيز له أن يتحدث بالصوت العالي بل وتوجيه الكلام الأشد إيلاًماً على النفس الأميركية.

في ضوء هذا الواقع المرير وبعد دخول الرأي الطبي طرفاً في الموضوع من خلال إشارة تلفت الإنتباه صدرت عن طبيب ياسر عرفات وتتعلق بالوضع الصحي للرئيس الفلسطيني، يجوز من باب الإجتهد تسجيل بعض الإفتراضات، ومن بينها أن الرجل قد يحسم هذا السباق في إتجاه إسترضاء الإدارة الأميركية وكسب الود الشاروني بين أطراف بعضها محسوب عليه وبعضها الآخر له حسابات في ذمته، بأن يستحضر الأسلوب الذي اعتمده الرئيس الروسي السابق بورييس يلتسين وهو أسلوب التوريث الحي، أي بما معناه يفاجئ الإسرائيليين والأميركان والعرب والفلسطينيين بـ «فلاديمير بوتين الفلسطيني» وعندها قد يحدث أحد أمرين كلاهما، أو أحلاهما، مر للفلسطينيين؛ الأول هو أن يكون «بوتين الفلسطيني» وهو هنا أحمد قريع أو محمود عباس أو نبيل شعث مع أميركا على نحو «بوتين الروسي» مع أميركا، والثاني هو أن يكون «بوتين الفلسطيني» مع إسرائيل الشارونية وغير الشارونية من النوعية التي يشكل سري نسبية وريث «ملف القدس» خير نموذج لها. وفي

وحول الهلع الذي أصاب الإدارة الأميركية عندما رأت بالعين المجردة أن نيويورك وواشنطن وليست فلوريدا فقط باتت على مرمى صواريخ سوفياتية مهددة إلى الرقيق الأميركي اللاتيني فيديل كاسترو، لكن الذي يعيننا هنا هو هذا الشتات العربي والمسلم المتمثل ببضعة الوف من الشبان وجدوا أنفسهم بنتيجة معاناة فكرية ونفسية أفراداً في فيلق للمواجهة مع الغرب مستندين إلى رؤية يغلب عليها الوجدان فضلاً عن اليأس مما آلت إليه أحوال الأمتين. وهم فعلوا ذلك بعدما وجدوا أن اللجوء إلى المسجد لا يكفي والتعمق في التططيرات لا يفي بالغرض وخطب أئمة المساجد لا تجيب عن التساؤلات. بل قد يجوز القول إن أفراد هذا الفيلق المنسبين إلى معظم دول العالم العربي والعالم الإسلامي، لم يختاروا «النعم» على أرض أفغانستان ملتفين حول أسامة بن لادن محميين بالملا محمد عمر زعيم نظام «طالبان» المغرق في الجهل والتجهيل إلى حد أنه اقرب إلى الجاهلية منه إلى حقيقة الدين الإسلامي، كمرتقة سُدَّت السبل أمامهم في بلادهم وبين قومهم وأنهم في ذلك مثل ظاهرة جيوش المرتقة التي ازدهرت في بعض الدول الأوروبية، وإنما جاء إختيارهم عن إقتناع وعن حماسة، الأمر الذي يخفف من وزر جنوحهم نحو الإيمان بأن العنف هو الوسيلة وليس الهدف وبصرف النظر عن التداعيات التي يمكن أن تنشأ نتيجة عمليات العنف ينفذونها في هذا البلد أو ذاك وضد هذا الموقع أو تلك المواقع.

ولقد كان من الواجب بدل تناسي أمر هؤلاء وإعتبارهم خارجين على الطاعة ومتمردين على واقع الحال وباحثين عن الحل في ديار أخرى، أن يتم الإهتمام بهم من قبل أن يتوهوا ويكون هنالك نوع من التأهيل الفكري لهم. بل أنه كان من الأفضل البحث عنهم حيث لجأوا وإنتزاعهم بالحسن من داخل الكهف الظلامي الذي إحتواهم، ذلك انهم في النهاية مضللون وليسوا ضالين، وحائرون وليسوا متمردين، وفي نفوسهم كم هائل من القلق وليسوا أشراراً. ومثل هذا البحث كان سيبدو أقل مشقة من المحاولات المعقدة الآن لإنتزاعهم من برائن السراييد في جحيم «غوانتانامو» بجوار عميد الثوريين الصامدين فيديل كاسترو الذي يستغرب المرء كثير الإستغراب سكوته على هذه المهانة التي ألحقها الأميركيان به عندما إختاروا عمداً قاعدة لهم على أرض كوبية مع أن لديهم عشرات القواعد في العام بدءاً من المانيا وصولاً إلى الفلبين، لكي يحشروا فيها أفراد الفيلق العربي - الإسلامي التائه. وكأنما الغرض من هذا الإختيار هو اهانة الثوريين

المتمردين على العصر الأميركي وإبلاغ فيديل كاسترو ما معناه أن أرض كوبا هي المكان الذي سنرمي فيه بعد الآن «النفائيات الثورية» حيث وُجِدت، أو نجدها بعد حرب من نوع الحرب على أفغانستان، وذلك على أساس نظرة الإدارة الأميركية إلى أن الذين لا يبايعونها كمرجعية وحيدة للعالم ليسوا سوى «نفائيات» ومتمردين يجوز إنزال أقصى العقاب وأقصاه بهم وشحنهم جواً أو بحراً إلى قاعدة «غوانتانامو» ومن دون أن يستوقف رموز التططير في الإدارة الأميركية إعتراضات من هنا وتساؤلات من هناك وصيحات غضب من هنالك حول هذا التماذي الذي لم يعد يقتصر على شن الحرب على أي بلد واي نظام في العالم إذا كان هذا البلد أو النظام ليسا بمواصفات الأمركة، وإنما وصل إلى حد إعتقال الآخرين ونقلهم إلى المعتقل الدولي الأول الذي إبتدعه «النظام العالمي الجديد» وهو قاعدة «غوانتانامو» والشرع في إستتباط قوانين جديدة تتعارض مع القوانين الدولية الخاصة بالحروب وبأسرى الحروب.

وبصرف النظر عما إذا كان هذا النوع من العقوبات هو بغرض الردع، وكانت الأخبار حول أهوال الإذلال والتعذيب التي تجري في حق ضيوف جحيم قاعدة بن بوش في «غوانتانامو» الذين كانوا ضيوف «نعم» قاعدة أسامة بن لادن في حمى الملا محمد عمر في «كابول» و«مزار الشريف» و«قندهار» وسائر المدن الافغانية هي من أجل ألا يفكر بعد الآن مخلوق عربي ومسلم في الخروج على إرادة السيد الأميركي.. بصرف النظر عن ذلك فإن السمعة الأميركية في مسألة الحريات باتت هي الأخرى تحتاج إلى علاج. وكلما طال الوقت وإستمرت تتواصل قوافل المستضافين إلى قاعدة «غوانتانامو» من عناصر القاعدة التي إبتكرها أسامة بن لادن وحليفه الملا محمد عمر اللذان لم، وربما لا، تعثر عليهما العبقريّة الأميركية في مجال الإستخبارات والقوة حيين أو ميتين مكتفية بالأسلوب الذي يعتمد على مفردات من نوع «نعتقد» و«يُشْتبه» و«ربما» و«يتردد» في الحديث عنهما.. أنه كلما طال الوقت وإستمرت القوافل تتواصل كلما إنحسر الضوء الذي كان يتوهج في سماء الولايات المتحدة جاذباً شعوب العالم إلى «الحلم الأميركي». ومن الجائز في معرض الإفتراضات القول إن الحلم البديل للإدارة الأميركية، هو أن تعثر قواتها على بن لادن وحليفه الملا محمد عمر وتقتلها في «زفة» جوية لا مثل لها إلى قاعدة «غوانتانامو» وبذلك يكون الإنتصار الأميركي وصل إلى ذروته ويصبح بالتالي من السهل

على الرئيس جورج بوش الابن تجديد الرئاسة مرة واثنين، إلا إذا كان المزاج الأميركي إزاء نتائج حرب الإبن على الإرهاب يمثل مزاجه إزاء نتائج حرب الأب على العراق حيث خذل المواطن الأميركي بوش الابن أسوأ خذلان ليأتي بالهارب من واجب المشاركة في حرب فيتنام بيل كلينتون رئيساً للولايات المتحدة تجددت رئاسته على رغم فضيحة مونيك التي كانت بمثابة اللغم الذي زرعه الصهيونية داخل البيت الأبيض بهدف تحويل كلينتون إلى عجينة طيعة بين أيديها وهذا ما حدث بالفعل. وبالعودة إلى يوميات ما بعد تلك الفضيحة وكيف تعاملت إدارة الرئيس كلينتون مع الصراع العربي - الإسرائيلي والعملية السلمية يتأكد لنا ذلك.

ونكرر القول إن الذي يعنينا هو أن لنا في سراديب قاعدة «غوانتانامو» اخوة عرباً ومسلمين لم يكونوا مرتزقة في «قاعدة بن لادن» ولا كانوا أشراراً لكي يتركهم اولو الأمر يقلعون أشواكهم بأيادهم ويسومهم سجانوهم من التعذيب والإهانة ما لا يتحمله بشر، وإنما هم إعتبروا أن الخلاص النفسي والروحي هو بجوار دعاة المنطق الذي تغلب فيه الرؤية الوجدانية على رؤية الواقع بكل جوانبه، ومن أجل ذلك إختاروا «النعيم» في مداخل كهوف أفغانستان وفوق قمم جبالها واستعذبوا شظف العيش ومواجهة الغرب وبالذات أميركا على أساس أن ذلك هو الطريق الأقرب إلى رضا الله، ومن دون أن يخطر في بالهم أن الدائرة ستدور عليهم وينتهي بهم الأمر ضيوفاً على قاعدة «غوانتانامو».

وهكذا فإنه من «قاعدة بن لادن» إلى «قاعدة بن بوش» يتواصل ضياع شريحة من الشباب العربي والمسلم تتحمل حكوماتهم جزءاً من المسؤولية عما أصابهم. ولكن الفرصة متاحة لإستدراك ما لم يتم إستدراكه ولتفادي ما قد يحدث من صدمات في المجتمع وبالذات في أوساط الشباب في حال لم يتم العمل لاستعادة الأبناء الضالين... المضللين.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 20 فبراير (شباط) 2002

* * *

أمير ينادي بالحكمة

ومثقفون ينشدون التفهم...

بلهجة رئيس أركان حرب القوات المسلحة الأميركية

أكثر منه بلهجة رئيس الدبلوماسية الأميركية فاجاً الجنرال كولن باول المجتمع الدولي يوم الأربعاء 13 فبراير (شباط) الماضي بخطاب ألقاه أمام لجنة الميزانية التابعة لمجلس الشيوخ بدا فيه أنه إنتسب نهائياً إلى صقور الإدارة الأميركية المحرضين على الحرب بما يضر أميركا ولا ينفع أحداً في العالم عدا إسرائيل. وإستناداً الى روحية خطابه هذا بدا باول كمن يعلن بداية عهد الدبلوماسية الحديدية الأميركية التي تخاطب الآخرين باللهجة التي يخاطب فيها الجنرال من هم دونه رتبة. في ذلك الخطاب قال جنرال الدبلوماسية الأميركية في معرض التعليق على إتجاه أوروبي متحفظ تولى التعبير عنه وزير خارجية المانيا يوشكا فيشر ووزير خارجية فرنسا اوبير فيردين: «لا أؤيد مشاعر معاداة أميركا على الإطلاق، ولكن مع كل الإختلافات في الحجم والوزن فإن التحالفات بين الأنظمة الديمقراطية الحرة لا ينبغي أن تنقلص إلى التبعية.. ان شركاء التحالف ليسوا أتباعاً. لقد أظهرنا حرصنا على التقارب مع بقية دول العالم ونحن لا نسعى للعمل من جانب واحد، ولكن عندما نؤمن بقضية ما ويكون علينا الإلتزام بمبادئنا فهذا هو ما نقوم به ونتحرك لقيادة الآخرين ونحاول إقناعهم بالمضي قدماً معنا. بدأ أصدقاؤنا يتفهمون بأن هذه هي زعامة تُحتذى ويجب أن يحترموها...».

مثل هذا التشخيص للدور الأميركي يفسر مشاعر الأوروبيين الدفينة الذين يرون أن العلاقة مع الولايات المتحدة لها سقف من المهم جداً عدم تجاوزه، أي بما معناه ان أميركا هي الشقيقة الكبرى وهذه بالتالي عليها واجب التقهم ولها حق المؤازرة إنما ليس على نحو تشخيص كولين باول بأنها قاطرة تجر وراءها العرب البريطانية والعربية الفرنسية والعربية الألمانية والعربية الإيطالية والعربية الاسبانية والعربية اليونانية والعربية البرتغالية فضلاً عن بقية العربات المتنوعة الأحجام والقدرات. ودور القاطرة هذا هو بالفعل ما تفسره عبارة «إحترام الزعامة» الذي ورد في كلام الجنرال باول.

كما ان هذا التشخيص للدور الأميركي يفسر أيضاً هذه الخشية التي تزداد إتساعاً في نفوس الأصدقاء العرب والمسلمين الذين إعتبروا أن العلاقة مع الولايات المتحدة لا تندرج ضمن مفاهيم الإخضاع من دون إستيعاب ظروف هؤلاء الأصدقاء والخصوصية التي لكل شعب وتبادل المنفعة والإحترام.

ومن المؤكد أن التفسير الذي إتبعه الجنرال كولن

سيعكس إضعافاً لإسرائيل وإذا ضُغف الشأن الإسرائيلي يتهدد الكيان العبري وتعود فلسطين إلى ما كانت عليه عام 1948. وهذا الكلام الذي سمعناه وقرأناه له والذي قاله في برنامج تلفزيوني وكان عبارة عن لقاء بينه وبين شبان من سبع دول وجرى بثه يوم الجمعة 15 فبراير (شباط) الماضي هو نتاج أفكار تلك المجموعة التي تم التقاهم في شأن توزيع أفرادها على مفاصل محددة في الحقيبتين الأساسيتين في الإدارة وهما وزارة الخارجية ووزارة الدفاع لمجرد أن إستقر الأمر على أن يكون الثنائي الجمهوري جورج بوش الابن - ديك تشيني هو الفائز في إنتخابات الرئاسة الأميركية وبعد تأجيل لإعلان النتائج إستغرق بضعة أسابيع هي الفترة التي جرى خلالها تنفيذ سيناريو صفقة الفوز بما تتضمنه من تعهدات وإلتزامات غير قابلة لأي تأجيل أو تريث أو إعادة نظر. وليست خافية ميول أفراد هذه المجموعة وبالذات الرجل القوي في وزارة الدفاع بول وولفويتز الذي هو مثل مادلين أولبرايت في إدارة الرئيس كلينتون المتوارية يهودي متصهين يرى الوضع في المنطقة العربية من العين الإسرائيلية الشارونية يشاركه النظرة في ذلك عدد من العيون الساهرة في الوزارة وفي الإدارة عموماً على المصلحة الإسرائيلية. وهؤلاء مهمتهم تعميق مشاعر الحذر في نفوس الذين في قمة الإدارة، كما ان هؤلاء وبالتنسيق مع عناصر غير مرئية تشكل العمود الفقري لـ «اللوبي الصهيوني» في الإدارة الأميركية يخرجون بين الحين والآخر بتسميات يرسمون من خلالها ملامح الخطر الوهمي الذي سيواجه أميركا ويشاركون في استتباط مفردات الخطاب السياسي الأميركي الذي يصل في غاية التركيز إلى الرئيس جورج بوش فيقذف هذا بدوره الكلام غير عابئ بالذين قد تصيبهم الشظايا التي تجرح أو تخرج كرامة من يسكت على أصابته بها، أمثال «الحرب الصليبية» وصفاً لحرب أميركا على أفغانستان، و«الحرية بلا حدود» كتحديد لهامش التحرك الأميركي في الحرب، و«محور الشر» كتسمية لدول تريد إدارة الرئيس بوش خوض حرب ضد أنظمتها غير عابئة بإعتراض أوروبي حليف من هنا وإستهجان عربي صديق من هناك وإستنكار إسلامي شريك من هنالك. وفي السياق نفسه جاءت، رداً على المعترضين والمستهجنين والمستنكرين، العبارات التي أوردناها كنص في هذا المقال ومن بينها دفع وزير الخارجية كولن باول إلى

باول للدور الأميركي في موضوع التفرد بالزعامة زاد الأمر تشويشاً، ذلك أنه كان تفسيراً بهدف الإقناع فإذا به يثير في نفوس قارئيه وسامعيه عشرات علامات الإستفهام والتعجب. وفي هذا التفسير يقول كولن باول: «نحن لسنا الشيطان الأكبر، وأعتقد اننا الحامي الأكبر لنظام قيم كوني يتضمن الديمقراطية والحرية الاقتصادية وحقوق الرجال والنساء في إختيار مصيرهم. لقد أرسلنا الرجال والنساء من قواتنا المسلحة إلى مناطق أخرى من العالم طوال القرن الماضي للتصدي لعمليات القمع. إنتصرنا على الفاشية وإنتصرنا على الشيوعية وأنقذنا أوروبا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. لقد ذهبنا إلى كوريا وفيتنام للحفاظ على حقوق الشعوب. ليس لأميركا أهداف إمبريالية ولا تريد إلا الخير للشعوب التي حاربتها. ونحن ماذا فعلنا عندما إنتهت كل تلك النزاعات؟ هل بقينا لنغزو؟ هل قلنا: حسناً، لقد إنتصرنا على المانيا لذلك فإن المانيا ملك لنا؟ وإنتصرنا على اليابان لذلك هل قلنا: إن اليابان لنا؟ ان ما قمنا به هو أننا أعدنا بناء المانيا واليابان وقدمنا لهما أنظمة ديمقراطية. والأرض الوحيدة التي طلبناها كانت لدفن موتانا...».

ليس هنالك من لا يتمنى أن يكون دور أميركا في العالم هو بالفعل بمثل التنظير الذي سمعناه من وزير الخارجية الأميركية كولن باول، علماً بأن الرجل إستحضر فجأة مفاهيمه كرئيس سابق لأركان الجيش الأميركي في رده غير الموضوعي على ملامح صحوة أوروبية بدأت تتكون في الأفق وتعترض على أحادية القرار الدولي المحنك من جانب الإدارة الأميركية بالنسبة إلى النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي ومسلسل الحرب على «الإرهاب»، فقال بلهجة «كوماندوسية» في تصريحات أدلى بها يوم الأربعاء 13 فبراير (شباط) الماضي أمام لجنة الميزانية التابعة لمجلس الشيوخ الأميركي «إنني لأؤيد مشاعر معاداة أميركا التي من الواجب إحترام زعامتها» وبدأ في هذه التصريحات وكما لو أنه صقر «البنتاغون» دونالد رامسفيلد وأن الخارجية الأميركية مثل وزارة الدفاع لا فرق بين أسلوبيهما.

من الواضح أن رئيس الدبلوماسية الأميركية إستسلم أمام منطق مجموعة من الذين يتولون مهمة التنظير في الإدارة الأميركية. وهؤلاء ليسوا نزيهين إما لأنهم متصهينون ويرون أن أي موقف محايد للإدارة الأميركية في النزاع الفلسطيني - الشاروني الراهن

وحقوق الإنسان هادئاً في المحيطات العاصفة؟
وهل أن أميركا تضحي من أجل كرامة الانسان
الفلسطيني عندما تتركه وحيداً في مواجهة الذئب
الشاروني؟

وهل أن الشر المستطير في العالم يتبدد بسقوط
أنظمة تريد أميركا وضع اليد على خيرات ما فوق
الأرض وما في باطن هذه الأرض من ينابيع نفطية
هائلة في دول محكومة بتلك الأنظمة مثل ذلك النظام
الذي في العراق والآخر الذي في إيران. أما الطرف
الثالث في «محور الشر» أي كوريا الشمالية فإنه
بغرض الديكور ولإقناع العرب والمسلمين بأن الحرب
لن تكون ضدهم فقط وإنما ضد النظام الذي يقوده
الملحد ابن ذلك الملحد كيم ايل سونغ.

ويا أيها المتجبر الأميركي المتلطف إلى محاربة
الآخرين والإلتزام دون حدود بإسرائيل والمهوف على
شارونها: لماذا هذا التحبط الذي أنت فيه ولماذا لا
تعيد النظر في هذا المنطق الذي إذا كان لم يُقنع
الحليف الأوروبي فكيف سيقنع به الصديق العربي
والمسلم؟

لماذا لا تتأمل وبكثير من العناية في تلك الرؤية
الحكيمة والواقعية التي حرصت القيادة السعودية في
شخص ولي العهد الأمير عبدالله بن عبد العزيز على
أن تكشف عنها ومن خلال صحيفة «نيويورك تايمز»
التي طالما تجنت وتواصل التجني على المملكة
والعرب.

ولماذا أيضاً لا يكون هنالك بعض التأمل من
جانبك في بعض فقرات ذلك البيان الذي وجهه ستون
متقفاً أميركياً يمثلون إتجاهات متعددة المنابع، بدل
الإستسلام للتيار الفكري المتجني الذي يتولاه خفية
أحياناً وعلناً في معظم الاحيان أكاديميون ومفكرون
متصهينون أمثال برنار لويس والذي يرى «إن كراهية
أميركا في مصر والسعودية نابعة في المقام الأول من
الكراهية للأنظمة هناك»، وهو تنظير يتسم بالغش،
ويستهدف المزيد من التحريض ضد خيارات
وخصوصيات عربية وإسلامية.

في تلك الرؤية السعودية أرشدك ولي العهد
السعودي إلى المفتاح الصحيح في سلسلة المفاتيح
التي بين يديك.

وفي ذلك البيان الذي نشير إليه يقول المثقفون
مخاطبين شعوب العالم العربي والإسلامي: «نعلم أن
بعضكم يرتاب منا ونعلم أننا نحن الأميركيان مسؤولون

القول ما معناه أن أميركا زعيمة ومن واجب أصدقاء
أميركا إحترام هذه الزعامة، وجاء القول الآخر والذي
لن يكون الأخير وبما معناه أن أميركا حاربت من أجل
الآخرين وقدمت لهم أنظمة ديمقراطية وأنها لم تبق في
أي بلد حاربت من أجله.

ونجد أنفسنا نتساءل هنا: هل لو ان سياسيين
محنكين ولا غبار على تاريخهم سببه الفساد والإفساد
أمثال وزير خارجية فرنسا اوبير فيدرين وعشرات
المسؤولين الاوروبيين الساكتين على فظاظة التنظير
الأميركي غير الواقعي... هل لو أن هؤلاء مقتنعون
بالصورة الوردية الزاهية للدور الأميركي بشقيقه
الحضاري والإنساني، التي رسمها الوزير الجنرال كولن
باول، وتضيف يومياً أولبرايت الحقبة الجمهورية
كونداليزا رايس بعض اللمسات إلى هذه الصورة التي
هي أشبه باللوحة، هل كانوا سيشعرون بوطأة كابوس
مطبق على صدورهم ووجدانهم فيطلقون التصريحات
الملطفة واللينة من نوع تصريح فيدرين ثم تصريح
فيشر المتحفظين إلى درجة الاعتراض على الأسلوب
المعتمد من جانب الإدارة الأميركية بالنسبة إلى النزاع
الفلسطيني - الإسرائيلي والعملية السلمية وموضوع
الضربة التي تستعذب الإدارة الأميركية توجيهها إلى
دول «محور الشر»؟

وهل لو أن الأصدقاء العرب والمسلمين مقتنعون
بالفعل بما يضعه فريق التنظير الأميركي على الورق
ويقوله الرئيس بوش ووزير الخارجية كولن باول من
خلال الميكروفونات عند التحدث إلى الناس أو خلال
برامج تلفزيونية كانوا سيشعرون بخيبة الأمل لأن
الإدارة الأميركية الصديقة لا تبادلهم النوايا الطيبة ولا
المواقف النزيهة، وأنها بدل أن ترد على النية الطيبة
بالمثل وعلى الموقف النزيه بموقف بالنزاهة نفسها،
فإنها تلجأ إلى الأسلوب الخشن والمفردات الحادة؟

وفي هذا السياق نجد أنفسنا أيضاً نتساءل:
هل أن أميركا كانت في مهمة إنسانية في فيتنام
وأنها ذهبت إلى هناك لكي تحقق للشعب الفيتنامي
الديمقراطية والحياة الإنسانية الكريمة؟

وهل أن هذا التقدم والرقى والتطور الصناعي
المذهل في اليابان والمانيا هو نتيجة قنبلة هيروشيما
في الأولى والقواعد العسكرية التي ترهق نفسية المواطن
في الثانية؟

وهل أن الذي فعلته أميركا في بقاع كثيرة من العالم
كان من أجل أن يكون إبحار سفينة الديمقراطية

جزئياً عن هذا الإرتياب لكننا يجب ألا نكون أعداء. في الأصل، نتمنى أن نشترك معكم ومع كل الخيرين في بناء سلام عادل ودائم».

وإذا فاجأتنا الإدارة الأميركية ذات يوم بتصريحات بروحية مضمون الرؤية السعودية المتجددة والمستندة إلى مشروع الملك فهد بن عبد العزيز الذي أقرته القمة العربية في مدينة «فاس» المغربية من 6 إلى 9 سبتمبر (أيلول) 1982 وكذلك بروحية الفقرة التي أوردناها من بيان المثقفين الأميركيين المشار إليه، بدل التصريحات التي تتسم بالتجبر والإصرار على فرض الأمر الواقع والهيمنة على إرادات الآخرين، فإننا عندئذ سنكون أمام أميركا جديدة تتزعم بقوة المنطق وبأسلوب الحوار، وستجد الجميع يلتفون حولها بدل أن تنقسم دول العالم بين دول خائفة منها، ودول حذرة من أسلوبها، ودول تتمنى أن يصيبها ما أصاب الإتحاد السوفياتي وتتهار على نحو الإنهيار المدوي لذلك الإتحاد وكيف تناثرت جمهورياته في كل الإتجاهات، ودول تتحين الفرصة للإبتعاد عنها وبذلك لا يبقى معها سوى إسرائيل... وهذا ليس في أي حال موضوع فخر لها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 26 فبراير (شباط) 2002

* * *

كما زيمان... كذلك هيلاري كلينتون

نتمنى أن يتعامل الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى مع كل شخصية أو حكومة تخرج على الأصول واللياقيات في ما يتعلق بالصراع العربي - الإسرائيلي والنزاع القائم بين السلطة الوطنية الفلسطينية وحكومة أرييل شارون، بمثل التعامل الذي حدث مع رئيس وزراء دولة تشيخيا ميلوس زيمان وبذلك لا تعود جامعتنا تعتمد سياسة الكيل بمكيالين التي نهجم الآخرين، أو آخرين، بسبب إعتمادهم لها.

للتذكير نشير إلى أن زيمان المذكور أدلى عن تعاطف أو عن مسايرة أو بفعل صفقة مع الصهيونية طبيعتها غير مرئية، بتصريحات نشرتها صحيفة «ها آرتس» الإسرائيلية خلال زيارة قام بها إلى إسرائيل الشهر الماضي قارن فيها الرئيس ياسر عرفات بهتلر داعياً إلى طرد الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع

غزة «إذا هم لم يقبلوا اقتراحات السلام الإسرائيلية». من الواضح أن زيمان المذكور خضع خلال لقائه مع أرييل شارون وعدد من الشارونيين إلى عملية غسل دماغ جعلته يفقد توازنه ويخرج على السياسة العامة لبلاده، الأمر الذي أخرج رئيس تشيخيا فاسلاف هافل الذي حاول في خطوة غير مسبقة أن يهدئ من روع الدول العربية التي إستهجنّت صدور مثل هذا الموقف من رئيس حكومة دولة أوروبية بينما هو وبعض المسؤولين في الدولة يستعدون للقيام بزيارات إلى بعض الدول العربية ومن بينها مصر ولبنان. وعلى رغم التوضيحات إستمرت تصريحات زيمان المذكور تشكل نقطة سوداء في صفحة العلاقة بين دولة تشيخيا والعرب ومن أجل ذلك تم تجميد الزيارات المشار إليها وإستمرت مجمدة على رغم محاولة تكذيب للتصريحات صاغها زيمان نفسه في بيان جرى تعميمه على وسائل الإعلام بما يعني أنه إعتدار عام وليس إعتذاراً غير معلن وجاء فيه «إنني لم أقران ابداً عرفات بهتلر. لقد أجبت على السؤال المتعلق بإمكان هذه المقارنة بالآتي: طبعاً ليس من واجبي أن أحكم على السيد عرفات...». ولأن هذا التوضيح كان بروحية التصريحات، موضع الإستتار والإستهجان، فإن الأمين العام عمرو موسى رفع الصوت عالياً وبإسم كل عربي قائلاً إن تكذيب رئيس وزراء تشيخيا ميلوس زيمان للتصريحات غير كاف. وقبل ذلك كان عمرو موسى في أعقاب صدور تصريحات المذكور زيمان ترأس إجتماعاً للمندوبين العامين لدى الجامعة نقشت فيه التصريحات وإنتهى الإجتماع إلى إعتبارها «تثير الدهشة ومعادية للدول العربية». كما ان الحكومة الفرنسية إعتبرت التصريحات «غير مسؤولة تماماً» وهو موقف مماثل للإتحاد الأوروبي منها.

ليس المهم هنا هو أن رئيس وزراء دولة تشيخيا له الرأي الذي قاله، ذلك أن الرجل أهان الحقيقة والمنطق، فضلاً عن أنه بتصريحاته ألحق الأذى بمصلحة بلاده خصوصاً أن هذه التصريحات جاءت في وقت تحاول الدول الأوروبية جاهدة إدانة ممارسات شارون في حق الفلسطينيين وتسعى لبلورة موقف تأخذ به أميركا فلا تعود إدارتها على الإنحياز التي هي عليه للعدوان الشاروني، وإنما المهم هنا هو أن يكون التعامل العربي مع خطيئة ميلوس زيمان قاعدة أو نموذجاً للتعامل مع أي شخصية أو مسؤول حكومي أجنبي يفعل ما فعله زيمان المذكور. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن

هنالك حالة هيلاري كلينتون التي تصرفت خلال زيارتها إلى تل أبيب على نحو ما فعله زيمان المذكور. فهي وصلت إلى إسرائيل يوم السبت 23 فبراير (شباط) الماضي في زيارة تضامنية تستمر 24 ساعة وحلت ضيفة شرف على «مؤتمر الرؤساء» الذي يضم مسؤولي أبرز المنظمات اليهودية الأميركية.

وصحيح أن هيلاري المذكورة لم تستعمل كلمة «هتلر» في حديثها عن عرفات أمام مئة مسؤول يهودي جاءوا من الولايات المتحدة، إلا أنها تحدثت بالمفردات نفسها التي يتحدث بها أرييل شارون الذي لقي منها مصافحة متميزة عندما زارته في مكتبه وهي في غاية الإعتزاز. ومما قالته هيلاري المذكورة «ان مسؤولية أعمال العنف وفشل محادثات كامب ديفيد تقع كلياً على عاتق عرفات. لقد فشل في مهمته كرئيس وإن عجزه أو تحفظه لتخفيف العنف أو الإرهاب يدل على أنه غير مستعد أو أنه لا يريد أن يكون مسؤولاً. ان حادثة السفينة «كارين ايه» أزالته كل ما تبقى من الأوهام حول عرفات وأنه يخلّف وراءه مجموعة من القتل والانتزاعات التي إنتهكها طيلة طريق كان يُفترض أن يقود إلى السلام والحياة. اننا نعرف أنه يستغل الاطفال لإرضاء مصالحه الذاتية ويشجعهم على السير في اتجاه القدس مطلقين أناشيد الإستشهاد وينفث فيهم الحقد على اليهود ويدفعهم إلى أن يحقدوا بدلاً من أن يقتلوا إسرائيل. كيف يمكن للمرء أن يعيش حياته وسط عنف مستمر ومع أناس ينتحرون بتفجير أنفسهم بقنبلة داخل مطعم «بيتزا» أو مرقص أو يصدّمون بالطائرات البرجينة التوأمين في نيويورك أو مبنى البنناغون. أما إيران فإنها تشكل خطراً كبيراً ليس فقط على إسرائيل بل وعلى المنطقة بأسرها وعلى الولايات المتحدة وجميع الأمم التي تحبذ طريقتنا في الحياة الديمقراطية...».

عند التأمل في هذا الكلام يصدر عن هيلاري كلينتون لا يجد فرقاً كبيراً بين كلام ميلوس زيمان رئيس وزراء تشيخيا وما تقوله هذه التي باتت رمزاً للمرأة التي لا تعنيها كرامتها في شيء بدليل تعاملها بتلك «الروح الرياضية» مع نزوات زوجها ومحظيته مونيكدا داخل مكتب زوجها أيام كان ما زال هو سيد البيت الأبيض وهي السيدة الأولى في أميركا. فكلاهما ينطلق من الإرتواء في الحضان الصهيوني. وإذا كان زيمان المذكور إكتفى بإطلاق الصفة التشبيهية على عرفات معتبراً إياه بأنه هتلر الجديد مع أنه كان قبل

الإدلاء بالتصريحات مع شارون الذي يبدو هتلر حملاً وديعاً أمام تصرفاته ومجازره المتواصلة على مدى ثلاثين سنة، فإن المذكورة هيلاري أكملت ما بدأه المذكور زيمان وتحدثت عن عرفات على أنه هو السبب في المأساة التي يعيشها الشعب الإسرائيلي مع أنها في قرارة نفسها تدرك أن السبب هو الشارونية وأن الذي نسف كل ما تم التفاهم في شأنه هو أرييل شارون الذي صافحته وهي مرفوعة الرأس ربما لأن هذه المصافحة والتصريحات التي تقوّهت بها وأوردناها كنص هي تسديد لفاتورة إنتخابية، أو أنها دفعة على حساب موقف تريده هيلاري من الصهيونية أو موقف تريده إسرائيل من هيلاري التي تتطلع إلى أن تخلف جورج بوش الابن في رئاسة أميركا على نحو ما حدث مع بوش الابن الذي خلف بوش الأب بعد مرحلة إنتقالية شغلها زوجها بيل كلينتون، وبذلك يكون حدث في أواخر القرن العشرين أن ابناً ترأس أميركا في حياة والده الذي سبق أن ترأس ويكون حدث في الربع الأول من القرن الواحد والعشرين أن زوجة ترأست أميركا في حياة زوجها الذي سبق ان ترأس. ونقول ذلك مفترضين أن تطلعات هيلاري ستتحقق والتي بسببها تمالي إسرائيل متناسية أنها في مرحلة إستدراج الصهيونية إلى دعمها أدلت بتصريحات لمصلحة الفلسطينيين ثم تبين أن هذه التصريحات التي أدلت بها وكانت ما تزال السيدة الأولى في أميركا هدفاً لإبرام صفقة مع الإسرائيليين خلاصتها: تباعون ترشيحي لمقعد مجلس الشيوخ عن نيويورك فأستدير في اتجاه الوقوف إلى جانبكم ومن دون أي تحفظات.

هذا الموقف من هيلاري كلينتون هو عملياً بمثل موقف المذكور زيمان. وإذا كانت ثارت ثائرة الأمين العام للجامعة عمرو موسى وبالنيابة عن العرب على تصريحات الرجل ومقارنته عرفات بهتلر، مع أنه تراجع ونفى وأوضح رئيسه نفسه الأمر ومع ذلك قال عمرو موسى «إن ذلك غير كاف»، فمن المنطقي أن تتورث الثائرة نفسها على هذا الموقف من جانب المذكورة هيلاري وعلى أي مسؤول أو شخصية سياسية عامة يدلي بتصريحات تتجاوز الأصول وتتال من الهيبة العربية حتى إذا كان هذا المسؤول من دولة كبرى أو دولة مهمة. وإذا كان ذلك لن يحدث فإن الإنطباع الذي سيسود هو أن الثائرة العربية إستهدفت رئيس وزراء دولة اوروبية فقط لأنها من الدرجة الثالثة وإستقوت عليه بينما لا تتورث هذه الثائرة على آخرين

الذي إفتقدناه حينما كانوا في السلطة والذي لم يعد له قيمة من قريب أو بعيد. ولذا تظل الإستفادة من حضور هؤلاء أخذ الصور التذكارية معهم، وتبقى مشاكلنا الإقتصادية كما هي، ويرحل هؤلاء وعلى شفاههم إبتسامة صفراء تستهزئ بنا وبأوضاعنا وبتدافعنا لإلتقاط الصور معهم. ولعل حديث الأمير الوليد بن طلال والأمير سلطان بن سلمان وبعض المتحدثين المحليين في منتدى جدة الأخير كان أكثر فائدة من نظريات السياسيين المتقاعدين الخائفين على المستقبل السياسي لزوجاتهم...». وواضح أن علي الشدي يرد بكلامه هذا ومن منطق إقتصادي على هذا «الصديق اللدود» بيل كلينتون الذي بدل مقارعة منطق غير السوي بالمنطق السعودي العربي المتزن والموضوعي تتم مكافأته بمليون ريال مقابل كلام في الإقتصاد لا جدوى منه وإساءة إلى رموز إقتصادية مرموقة على أساس أن ذلك يعود بالفائدة على المذكورة هيلاري زوجته غافرة خطيئته.

ونخلص إلى القول إن التصدي لرئيس الوزراء التشيخي من جانب الأمين العام للجامعة العربية كان أمراً طيباً وفي محله، وكان إذا جاز التعبير مثل قرارات مكاتب المقاطعة التي ذبلت أوراقها وتجري محاولات لإرواء تربتها كي تزدهر من جديد. وفي ضوء رد الفعل من جانب دولة تشيخيا على الإنزعاج العربي لما قاله المذكور زيمان يتبين كم أن هذا النوع من التصدي مفيد إنما شرط ألا يكون هناك تمييز بحيث يُجاز التصدي لأشخاص ولا يجوز التصدي لآخرين. ومن هؤلاء الآخرين السناتور هيلاري كلينتون التي أوردنا كلامها على سبيل المثال... وكان كلاماً توقعنا تصدياً له من جانب الجامعة العربية كي لا يقال إننا ننتقد من يكيل بمكيالين مع أن جامعتنا تكيل بثلاثة مكيالين.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 5 مارس (آذار) 2002

* * *

قمة الأمير عبدالله... و«الفيتو»

الشاروني بعد «الفيتو» الأميركي

ما هو معروف أن هنالك خمس دول في العالم تتمتع بإمتياز إستعمال حق النقض (الفيتو) في مجلس

من بينهم هيلاري كلينتون لأنها عضو في مجلس الشيوخ الأميركي ولأنها زوجة الرئيس السابق بيل كلينتون الذي لا يختلف موقفه ضمناً عن موقف زوجته بدليل أنه عندما زار مدينة جدة قبل بضعة اسابيع للتحديث في منتدى إقتصادي رفض أن يسجل كلمة نقد واحدة في حق التجريح من جانب بعض المتصينين في الإدارة الأميركية وفي وسائل الاعلام الأميركية وكذلك رفض أت يبدي وجهة نظر ناقدة للممارسات الشارونية في حق الفلسطينيين وهو الذي طالما إدعى بأنهم أصدقاء له. كما أنه لم يتردد في أن يطلب من منظمي «منتدى جدة الإقتصادي» الذي بدأت اعماله يوم السبت 19 يناير (كانون الثاني) 2002 عدم مقابلة أي فرد من عائلة بن لادن ولو عن طريق الصدفة (مع أنهم من كبار رجال الأعمال في المملكة) وعدم مقابلة رجل الأعمال صالح كامل لأنه مستثمر كبير في المصارف الإسلامية. كما لم يتردد من القول وإن كان «مازحاً» انه لا يريد تبرعاً من رجل الأعمال الأمير الوليد بن طلال. وعند الإستفسار منه عن السبب أجاب بما معناه انه لا يريد أن يقول كلاماً من شأنه إزعاج الإسرائيليين لأن ذلك ينعكس سلباً على زوجته السناتور هيلاري. وربما كان كلينتون يومها يحسب حساباً لزيارة زوجته إلى إسرائيل وهي الزيارة التي أوردنا في الأسطر السابقة بعض أقوال هيلاري خلالها وبالذات بعد لقائها المتباهية به لرئيس الوزراء ارييل شارون وزيارتها الفخورة بها لحائط المبكى والتركيز في اللقاء وفي الزيارة على الصور التي تقيدها في خطتها التي تهدف إلى إستقطاب الناخب اليهودي حولها.

وتحضرنا في هذه المناسبة وجهة النظر الناقدة لإستضافة بيل كلينتون في ذلك المنتدى الذي نشير اليه التي قرأناها للكاتب ورجل الأعمال السعودي علي الشدي الذي شارك في المنتدى. وخلاصة وجهة نظر الشدي التي نشرها في صحيفة «الإقتصادية» في عدده الصادر يوم السبت 2002/1/26 أن منح كلينتون مليون ريال لمشاركتة في هذا المنتدى وإلقاء كلمة وهو السياسي المتقاعد الذي تنقصه الخبرة في الشأن الإقتصادي أمر يثير الإستغراب. وأضاف علي الشدي يقول: «إن هذا الأمر هو من المظاهر التي تؤخذ على المنتديات الإقتصادية الخليجية، حيث يتم جلب المتقاعدين السياسيين بتكاليف مرتفعة لمجرد إلقاء حديث مختصر فيه الكثير من تطييب الخواطر

الأمن عند التصويت على أي قرار. وهذه الدول المصنّفة كبرى ودائمة العضوية في المجلس هي الولايات المتحدة والصين وروسيا (التي كانت الجزء الأكبر من الإتحاد السوفياتي الذي تساقط) وبريطانيا وفرنسا.

وفي ضوء تطورات النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي والصراع العربي - الإسرائيلي عموماً يسود إنطباع بأن مسألة «الفيثو» هذه إنما تم إستتباطها فقط لحماية إسرائيل بدليل أن هذا السلاح لا يُستعمل، ومن دولة واحدة فقط هي أميركا، إلا في حالات تتعلق بالدولة العبرية. فإذا كان هنالك عدوان إسرائيلي، على العرب بالطبع، وتقدمت الدولة العربية المعتدى عليها بشكوى فإن هذه الشكوى في معظم الأحيان مصيرها الرفض بسبب «الفيثو» الذي تستعمله أميركا بالذات لرد الإدانة عن إسرائيل مع أن العدوان حاصل ولا يمكن المجادلة في طبيعته، أما إذا كانت هنالك شكوى من إسرائيل على دولة عربية ما فإن هذه الشكوى تلقى من الإهتمام الأميركي ما يجعل إدانة الطرف المشتكى عليه سهلة وقوية.

ومن النادر أن يكون «الفيثو» استعمل بما يزعج إسرائيل في شيء، الأمر الذي يعني أن هذا السلاح كان من أجل حماية إسرائيل فقط. وعدم إستعماله على النحو الموضوعي هو الذي جعل إسرائيل تتماهى في العدوان وتفعل ما تشاء بأراضي الغير وأجواء الدول الأخرى ما دامت المسألة لن تنتهي إلى أكثر من شكوى وما دام مصير هذه الشكوى هو الصد بسبب «الفيثو» متمثلاً بالمندوب الأميركي الذي يرفع يده للإعلان عن أنه ضد مشروع قرار الإدانة لإسرائيل.

مع بداية المرحلة الشارونية صار هنالك ما يجوز إعتباره «فيثو» جديداً وصارت إسرائيل الشارونية بالذات العضو السادس في مجموعة الدول التي تملك هذا السلاح التدميري عندما لا يتم إستعماله وفق المنطق والعدل. بل أنه ليس من المبالغة القول إن «الفيثو» الشاروني هو الأكثر خطراً على الإستقرار الدولي من أسلحة الدمار الشامل ومن تهديدات تنظيم «القاعدة» الذي ما زال يشغل البال الأميركي ويزيد الحديث في شأنه.

ويتمثل «الفيثو» الشاروني برفض كل محاولة جدية للسلام وتطويق أي جهود يكون هدفها فتح ثغرات في الجدار المتصلب المعادي للسلام. وخطورة هذا «الفيثو» أن المجتمع الدولي لا يتصدى له بالشكل

الكافي، ومن هنا أن كل محاولة جادة لتحقيق تسوية تتعثر لأن أرييل شارون يقول لها: لا، وعندما يقول فإن المحاولة تتراجع أو تتعثر، بدليل ما حدث للمحاولة الفرنسية وللمحاولة الألمانية ولمحاولات أخرى مصدرها روسيا.

هل هذا جائز؟ وهل من المعقول أن يتعامل المجتمع الدولي مع هذا التمرد الشاروني على نحو ما نراه يتعامل، أي الرضوخ للإرادة الشارونية الراضية لأي محاولة تستهدف إنفاذ العملية السلمية التي باتت بعد مؤتمر مدريد لا تخص دولاً دون أخرى وإنما تخص كل دول العالم؟

بالطبع ليس جائزاً. و«الفيثو» الشاروني على المحاولات الجادة للتهدة وإنهاء النزاع الفلسطيني . الإسرائيلي وفتح الطريق أمام إنجاح العملية السلمية سيستمر ما دام «الفيثو» الأميركي ضد أي إدانة لإسرائيل المعتدية قائماً. عسى ولعل تكون «الرؤية السعودية» التي طرحها ولي العهد الأمير عبدالله بن عبد العزيز هي المحاولة التي في حال طرحها كمبادرة بإسم العرب من دون تحفظات من هنا وإعتراضات من هناك، لقيت القبول الأميركي بها كصيغة غير مجتزأة فإن «الفيثو» الشاروني سيضعف ثم يذوي بعد ذلك ولا يعود الإستقرار الدولي تحت رحمة سفاح في منصب رئيس حكومة. ومن المهم التوضيح بأن «الرؤية» المشار إليها تبقى مجرد أفكار منسوبة إلى ولي العهد السعودي ولا يمكن إعتبارها مبادرة ما دام ليس هو من أعلن نصها.

وهذا الوضع الشاذ برمته هو ما نفترض أن القمة العربية الدورية الثانية التي ستعقد في العاصمة اللبنانية والتي ستكون عملياً «قمة الأمير عبدالله بن عبد العزيز» أواخر هذا الشهر ستأخذه في الإعتبار وبحيث يكون هنالك نوع من التركيز على أنه من غير الجائز أن أي خطوة عربية في إتجاه التسوية تبقى عرضة للتراجع ما دامت مهددة بالموقف الإسرائيلي المتعنت والذي يضع ما يجوز إعتباره «الفيثو» عليها فتتجاوز الإدارة الأميركية مع هذا «الفيثو» وتستعمل بدورها «الفيثو» الخاص بها على بقية دول العالم وبالذات الدول الأوروبية. والتركيز الذي نشير إليه هو في إقناع الإدارة الأميركية بأن تكون لها سياسة في المنطقة وأن تكون إسرائيل تحت سقف هذه السياسة ومنسجمة معها وليس العكس. ونقول ذلك على أساس أن ما نراه هو أن هنالك سياسة إسرائيلية في المنطقة

وأن ما يحدث هو أن الإدارة الأميركية من خلال التصريحات والشعارات والأفكار ومنها ما اصطلح على تسميته «محور الشر» هي رد الفعل للسياسة الإسرائيلية. وعند التأمل في التصريحات التي يدلي بها مسؤولون في الإدارة الأميركية، حول مواقف ورؤى عربية كفيلة بتنشيط العملية السلمية المتعثرة، نجد أنها تنسم في البداية بالتريث إلى حين صدور رد الفعل الإسرائيلي. وبعد صدور رد الفعل هذا لا تعود التصريحات على التريث الذي نشير إليه. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن ذلك هو ما حدث بالنسبة إلى «الرؤية السعودية» التي إرتبطت بإسم ولي العهد الأمير عبدالله بن عبد العزيز، حيث أن الموقف الأمريكي منها ينتظر الموقف الإسرائيلي، وبديل أن يعتبر الشارونيون أن ما يجب عليهم فعله هو إبداء حُسن النية وذلك بفك الحصار عن الرئيس ياسر عرفات ووقف العدوان، فإنهم شدّدوا الحصار وزادوا العدوان وإستتبطوا من القرارين 242 و338 ما من شأنه تعزيز احتلالهم معتمدين على حذاقة اللورد كارادون في صياغة القرار 242. كما أنهم إقترحوا لقاءات سعودية - إسرائيلية وإتصل شارون بالرئيس حسني مبارك لتأمين هذا اللقاء. وبعدما حدد هؤلاء رد فعلهم هذا جاء الموقف الأمريكي متمثلاً بإطراء «الرؤية السعودية» فقط لأنها تضمنت كلمة «التطبيع» وأنها لم تأت على ذكر حق العودة وكأنما «الرؤية» ليست في الدُرج وليست عند الكشف عنها كاملة لن تخيب الظن الإسرائيلي وأولئك الذين بالغوا في التفسير ومن دون أن يأخذوا في الإعتبار أن التطبيع هو نهاية وليس بداية وأنه مشروط بتحقيق خطوات كثيرة تتعلق بالأرض وبالشعب الفلسطيني. كذلك لم يأخذ هؤلاء في الإعتبار كيف أن صاحب الرؤية الأمير عبدالله شديد الحساسية من مسألة التطبيع الذي يسبق الحل العادل والشامل وبحيث يرضي هذا الحل الشعب الفلسطيني ولا يخشاه الصديق السوري الذي على نحو ما كان يرى الرئيس الراحل حافظ الأسد وأورثه إلى الرئيس الإبن بشار وهو على نحو ما رده مراراً في منتصف التسعينات الأستاذ عبد الحليم خدام نائب الرئيس المستمر في عهد الرئيس الإبن «أن التطبيع معناه سلام مع الشعب الإسرائيلي وحرب من جانب النظام ضد الشعب السوري والشعب الفلسطيني وأنا مع هذين الشعبين إلى أن تسلك إسرائيل طريق الصواب...». وبين الذين يستحضرون هذه العبارة وإستحضرها

بالذات لمناسبة الزيارة التاريخية المفاجئة للرئيس بشار الأسد إلى لبنان، رئيس الحكومة السابق الدكتور سليم الحص الذي عاد قبل أيام من حجه الثالث كواحد من ضيوف الديوان الملكي السعودي حامداً شاكرًا نعمة الصحة التي جعلته يؤدي الفريضة للمرة الثالثة مثنيًا كثير الثناء على ما بذله الملك فهد على صعيد توسعة وتطوير الأماكن المقدسة فضلاً عن الرعاية الصحية والإجتماعية لضيوف الرحمن.

ويصعب على المرء الجزم بما إذا كانت الإدارة الأميركية قادرة أو تريد أن تكون لها سياسة إزاء المنطقة تتقاطع في الحد الأقصى مع السياسة الإسرائيلية أو لا تسير إسرائيل إلى درجة تبني موقفها في الحد الأدنى. إلا أنه من الواضح أن العلاقة العربية مع الإدارة الأميركية ستزداد تعقيداً إذا كان ذلك لن يحدث وإذا كان «الفيتو» الشاروني يواصل الإستهانة بالإرادات الدولية معتمداً في ذلك على أن ما يبدأ يكمله «الفيتو» الأمريكي وتلك مسألة لا بد للقمة العربية في حال قيّض الله لها أمر الإنعقاد وقد نجت من مفاجآت هي في علم الغيب ويتمثل بدعم إحساس القادة العرب بخطورة المرحلة، أن تناقشها في العمق وبحيث يقال للإدارة الأميركية بصراحة ومن خلال إعلان القمة التقليدي أن الأمور ستزداد سوءاً إذا كان العرب هم فقط يتصرفون بجدية بينما إسرائيل تتصرف بإستهتار... وبينما لا تتصرف أميركا بمسؤولية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 مارس (آذار) 2002

ما الذي يمكن أن يصيب كوفي أنان؟

بسبب صحة ضمير من جانب الدكتور بطرس غالي أيام كان أميناً عاماً للأمم المتحدة إزاء مجزرة قانا دفع الرجل ثمناً غالياً - بمعايير الوظيفة - إلا أنه ربح نفسه منسجماً في ذلك مع مقولة ماذا ينفع المرء إذا هو ربح العالم وخسر نفسه.

زمناك كان لا بد للدكتور غالي إبن العالم الثالث من جهة وإبن الثقافة الغربية من جهة أخرى وأحد أبناء صفة كامب ديفيد التي أبرمها والد هذه الصفة من الجانب المصري الرئيس الراحل أنور السادات مع إسرائيل، أن يتخذ وقفة من تلك المجزرة التي لم يتورع

شيمون بيريز رئيس حكومة إسرائيل الوارث سعيداً الرئاسة من إسحق رابين عن التباهي بها، فكانت الوقفة التي جمع فيها بين الإدانة ودحض الرواية والحجج الإسرائيلية، الأمر الذي أغضب الصهاينة فطلب هؤلاء من مادلين أولبرايت الابنة المخلصة التي تتربع على عرش الدبلوماسية الأميركية التصرف والإنقاذ من هذا الخارج على معادلة أن يكون الأمين العام للأمم المتحدة أميناً على مصالح إسرائيل على نحو ما تريد الإدارة الأميركية بحيث يُبعد عن إسرائيل الإدانات والتهم ويساهم قدر الإمكان في إبتكار التخريجات التي تتخذ الدولة العبرية من المآزق، وذلك من خلال الجلسات في رحاب الأمم المتحدة أو التصريحات التي يدلي بها خلال جولاته في عواصم العالم أو المشاركة في مؤتمرات دولية. ولقد تجاوزت أولبرايت مع رغبة بني قومه على نحو ما أراد هؤلاء وقادت حملة ضد الدكتور غالي الذي كان يتطلع إلى تجديد الولاية وحالت دون حصوله على ما يريد على الرغم من أن المجموعة الفرنكفونية في الأمم المتحدة كانت تدعمه وبذلت، وبالذات فرنسا، من السعي ما من شأنه تأمين التجديد له. وعملياً فإن أولبرايت أخرجت غالي من الأمم المتحدة غير معزز وغير مكرم وهذا يفسر كيف أن فرنسا والفرنكفونيين سارعوا إلى إختياره أميناً عاماً لمنظمتهم في بادرة غير مسبوقة، بمعنى انه لم يحدث من قبل أن ردت مجموعة دولية على تصرف غير سوي من جانب الإدارة الأميركية ضد الأمين العام للأمم المتحدة بتعيينه وعلى الفور في المنصب المماثل للمنصب الذي كان يشغله، وتلك واحدة من وسائل الكيد الفرنسية للإدارة الأميركية، وهو كيد لا نهاية له وبالذات منذ قرر الجنرال (الراحل) شارل ديغول أن يتحدى الهيمنة الأميركية ودولارها ويكيدها على طريقة الفرنسيين في الكيد، فرد الأميركيان عليه بأسقاطه بطريقة لا تخطر في البال، وهي ركوب موجة اليسار وتشجيع ثورة الطلاب سراً. وليست مصادفة على الإطلاق أن «روبسبير» هذه الثورة كان اليهودي كوهين بانديت، الأمر الذي يكشف عن الإستراتيجية المشتركة للمصالح الأميركية والمصلحة الصهيونية.

جاء الرد الفرنكفوني على تأديب أولبرايت «أم البروشات» للدكتور غالي يعيد الاعتبار للرجل، تماماً على نحو إعتبار آخر وفي نطاق أقل إتساعاً أعاده النمساويون إلى ابن بلدهم كورت فالدهايم الذي لم يكن

عند حسن ظن الصهاينة الذين طالما حاولوا الكيد له وطعنه في تاريخه فرد النمساويون بما معناه أنهم فخورون به شخصاً وتاريخاً وانهم تعبيراً عن ذلك وضعوه في سدة رئاسة البلد.

مع الأمين العام الحالي كوفي أنان يعيد التاريخ نفسه. فكما المسألة عند كل من فالدهايم وبطرس غالي كانت مسألة صحوة ضمير فإنها الأمر نفسه لدى كوفي أنان، وإن كانت صحوة الأخير جاءت متأخرة لأن الذي يفعله الإسرائيليون بالشعب الفلسطيني منذ سنة توجب على ضمير أي مسؤول دولي أن يصحو، ولكن ظروف الرجل العامة والعائلية الشخصية وتقادي حملات التشهير التي هي بعض أسلحة «مافيا» الصهيونية تفرض عليه المسابرة والتغاضي عن «نازية العصر» المنبعثة على أيدي جيل جديد من القادة الإسرائيليين تبين في ضوء سنة كاملة تبعت ترئيس ارييل شارون للحكومة أن هذا الجنرال مارس من الأساليب النازية وخلال الأشهر الأولى من القرن الواحد والعشرين ما لم يمارسه وحوش «الفوهرر» في الأربعينات. ويستغرب المرء كيف أن الشعب اليهودي إرتضى ويواصل إرتضاء مثل هذه القيادة غير منتبه إلى العداوة التي يتسع حجمها يومياً مع الشعب الفلسطيني وبحيث أنه سيكون من الصعب ذات يوم بعد أن تقوم دولة فلسطين وعاصمتها القدس، أن يغفر الفلسطينيون لليهود كيف انهم لم يردعوا شارون عن هذا الجنون الذي إستشرى في تصرفاته متأثراً بلا شك بالأسلوب النازي في التعامل مع الآخرين، وكيف أنهم على رغم أفعاله الوحشية ومجازره وسياسة التجريف والقتل والإغتيال والتصفيات المبرمجة إستمروا على وقوفهم إلى جانبه، ومن دون أن ينتبه هؤلاء إلى أنه يعتمد التوحش لكي يستفز الفلسطينيين، فيرد هؤلاء بعمليات من نوع العمليات الجهادية. وهو من جانبه يعزز بقاءه بفضل هذه العمليات ويعمد إلى تطوير التوحش وعلى نحو ما نلاحظ تصاعد خطه البياني وبالذات في الأشهر الثلاثة الماضية عندما قرر وضع ياسر عرفات رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، أي الشرعية التي من المفترض أن يتفاوض معها، تحت الحصار، ثم أمعن تدميراً في البنية التحتية لهذه السلطة ووصلت به الحال إلى حد تطبيق الأسلوب النازي في إعتقال الناس ووشم أرقام على سواعدهم والعبث بالمنازل وعدم تمكين ذوي المصابين من نقل جراحهم إلى المستشفيات ونقل موتاهم إلى المقابر،

وافقت عليها أربع عشرة دولة وإمتنعت عن التصويت دولة واحدة هي سوريا وينص على دولتين متجاورتين على أرض فلسطين وضمن حدود آمنة: دولة يهودية وأخرى فلسطينية.

ونصل إلى تساؤل لا بد منه وهو: ما الذي سيصيب كوفي أنان في حال تبين أن كلامه اللاذع في حق الإسرائيليين ليس متفقاً عليه مع الإدارة الأميركية. كذلك ما الذي سيصيبه في حال تبين أن هذا الكلام وقرار مجلس الأمن الموسّع ليسا جزءاً من سيناريو يستهدف تعويم شارون ودفعه الى وقف جنونه إنما تجاوب مع نداء دولي له من أجل ذلك، وبحيث يتزامن صدور النداء والقرار قبل إنطلاق الجنرال المتقاعد أنطوني زيني إلى إسرائيل وأراضي السلطة الوطنية الفلسطينية، ويتم الكشف تلميحاً عن السيناريو بعدما أضاف شارون إحتلال رام الله عاصمة السلطة إلى «بطولاته» المأساوية من جهة والمضحكة من جهة أخرى.. وهي مضحكة لأن «الدولة العظمى الثانية» أو شقيقة الدولة الأعظم، تخوض بالدبابات والطائرات والمروحيات والزوارق الحربية وخيرة القوات المدربة على كل أنواع القتال حرباً ضد الأمنين الفلسطينيين في مخيماتهم أو في منازلهم بحجة أنها تؤوي أفراداً نذروا حياتهم من أجل إنهاء الإحتلال الإسرائيلي.

قياساً بالذي حدث من قبل لمن صحا ضميرهما ونعني بهما الدكتور غالي ومن قبله فالدهايم، فإن الصهاينة سيثأرون من الرجل وسيعملون على تشويه إطلالته الرصينة على العالم وتلويث سمعته، هذا إذا لم يعملوا على إستعادة جائزة نوبل التي مُنحت له عندما كان لا يدلي بتصريحات من نوع التصريح . المفاجأة.

أعان الله كوفي أنان على ما يمكن أن يصيبه، لكن الرجل ربح نفسه وبات قادراً بعد اليوم أن ينام قريح العين، وهذا ما يفنقه كل الذين يقفون إلى جانب إسرائيل وبالذات إسرائيل الشارونية ويعتبرون أفعالها الوحشية مجرد دفاع عن النفس ويسكتون عن تنكرها للشرعية الدولية وللاتفاقات التي تم إبرامها، علماً أن هذه الإتفاقات كانت في مجملها لمصلحة إسرائيل قبل أن تكون لمصلحة الشعب الفلسطيني. كما ان الرجل بصحة ضميره هذه على تواضعها قَدَم خدمة جليلة إلى الذين سيشاركون في القمة العربية الدورية الثانية في بيروت يومي 27 و28 مارس

وكل ذلك تحت سمع الإدارة الأميركية وعيون أقمارها الصناعية وتصريحات المتحدثين بإسمها الذين إستمروا على رغم كل هذه الفضائح الشارونية يرون أن المسألة في غاية البساطة وأنها مجرد دفاع عن النفس. وغالب الظن أن هذا العمى الأميركي عما يجري على أرض المقدسات وعما يرتكبه الشارونيون من فظائع في حق الإنسانية هو الذي أخرج الأمين العام كوفي أنان الذي إعتدنا على هدوئه وقدرته على التحمل، عن صمته الذي كاد يصل إلى مشارف الريبة، فأطلق يوم الثلاثاء 12 مارس (آذار) الجاري في الجلسة العلنية التي عقدها مجلس الأمن وسجل إنعقادها مفاجئتين بدل المفاجأة الواحدة؛ نداء على درجة من الأهمية خاطب فيه الإسرائيليين قائلاً: «يجب أن تنتهوا الإحتلال غير المشروع للأراضي الفلسطينية وعلى القوات الإسرائيلية التوقف عن قصف المناطق المدنية والإغتيالات والإستخدام غير الضروري للقوة الفتاكة وأعمال الإزالة والإهانة اليومية لعامة الفلسطينيين. أن مثل هذه الأفعال تنال بشدة من مكانة إسرائيل في المجتمع الدولي وتزيد إشعال نيران الكراهية واليأس والتطرف بين الفلسطينيين..». كما خاطب الأمين العام الفلسطينيين قائلاً: «لقد لعبتم دوركم كاملاً في تصعيد موجة العنف والعنف المضاد والتأثر. لقد انزعجتُ على نحو خاص من زيادة الهجمات التي يفجر فيها الفلسطينيون أنفسهم والتي تستهدف المدنيين عمداً. إنها هجمات بغيضة أخلاقياً ويجب وقف كل أعمال الإرهاب...».

ومع أن كوفي أنان بذل ما في وسع تفكيره وقلمه من أجل صياغة متوازنة للنداء، وإلى درجة أنه ساوى بين القاتل والقتيل أو بين الجلال الإسرائيلي والضحية الفلسطيني، إلا أن الصهاينة ومعهم بعض المتصهينين داخل مفاصل حساسة في الإدارة الأميركية لن يتحملوا هذا الخروج من جانب كوفي أنان على «الطاعة»، وكيف أنه للمرة الأولى يستعمل عبارة غير متوقعة من جانبهم وتتمثل بوصفه الإحتلال الإسرائيلي بأنه «غير مشروع»، علماً أن الرجل كان في غاية اللياقة والتحفّظ بدليل أنه لو كان يبغي قول الحق ولا شيء غير الحق ويرضي بالكامل ضميره ويتطلع إلى الحصول على مرضاة رب العالمين، لكان قال أكثر من ذلك بكثير.

تلك كانت المفاجأة الأولى التي شهدتها جلسة مجلس الأمن الموسّع الذي يضم خمس عشرة دولة. أما المفاجأة الثانية فتمثلت في صدور قرار عن الجلسة

(آذار) الجاري حيث أن هؤلاء قد يرون في وقفة كوفي أنان ما يجعل وقفهم تكون أكثر صلابة. فله من مائة وخمسين مليون عربي جزيل الشكر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 20 مارس (آذار) 2002

* * *

إما الحل وإما العودة

إلى ما قبل مؤتمر مدريد؟

في حال سارت الأمور في الاتجاه الذي سيكون هنالك نوع من التفاهم الضمني عليه بين الدول العربية والولايات المتحدة والدول الخمس الكبرى الدائمة العضوية في مجلس الأمن والمجموعة الأوروبية فإن القمة العربية الدورية الثانية التي ستعقد في بيروت اليوم ستكون واحدة من أربع قمم تاريخية عقدها الملوك والرؤساء العرب خلال ثمانية وثلاثين عاماً وراوحت قراراتها وتوجهاتها بين ما هو داعم للصمود مثل قمة الخرطوم (من 29 أغسطس/ آب إلى أول سبتمبر/ أيلول 1967)، وما هو مثير للأسى والتحسر مثل قمة بغداد (من 2 إلى 5 نوفمبر/ تشرين الثاني 1978) التي أسقطت عضوية الدولة الكبرى وفي سابقة كان الثمن فيها باهظاً على مصر وعلى الأمة، وما هو قاصم للظهر العربي مثل قمة القاهرة الإستثنائية (10 أغسطس/ آب 1990) التي لجأت مضطرة أو نتيجة إيقاعها في فخ إلى قرار غير مسبوق ما زالت إلى يومنا هذا تعاني من تداعياته، ذلك أنه بسبب قرارها الذي تم إصداره في مناخ يجمع بين الإضطراب والإختيار في الوقت نفسه تمددت الإرادة الأميركية في شؤون المنطقة كما لم يحدث من قبل وأفرز هذا التمدد أطماعاً ومطالب وصلت إلى حد لمس الخصوصيات والتحرش بالثوابت وإستفزاز الكرامات. وعندما تعمّدت الإدارة الأميركية إيفاد ديك تشيني نائب الرئيس قبل حوالي أسبوعين من إنعقاد القمة فإنها فعلت ذلك إستناداً إلى الحق المشروع المعطى لها وعلى أساس أن هذا الحق لم يكن فقط لبضعة أشهر إنتهت أصلاً بإستعادة الكويت وإعتراف العراق بها دولة مستقلة وليست محافظة تاسعة عشرة كما كان يأمل حالماً، وإنما هو حق أزلي ولا تزول ضروراته بفعل التقادم. حتى قبل أن تتناقل وسائل الإعلام العربية والدولية

الكلام المنسوب إلى ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز كان الإنطباع السائد هو أن القمة ربما لن تتعقد ما دام هنالك إنقسام في شأنها داخل مثلث الحكم اللبناني وما دام الحكم السوري ليس كثير الحماسة لعقدها وما دامت الإدارة الأميركية لم تتخذ على نحو ما تفعله دائماً إزاء إجتماعات القمة العربية موقفاً منها. وهذا الموقف عادة يتلخص في أن الإدارة ضد القمة إذا كان التوجه العام لها هو التشدد إزاء إسرائيل، ولا إعتراض عليها إذا هي نأت عن التشدد. وفي حال شعرت الإدارة إستناداً إلى تحليلات ومواقف بعض الأطراف العربية أن التشدد إزاء إسرائيل ربما يكون سقف مؤتمر قمة يعقده القادة العرب فإنها لا تتورع عن تسجيل حالة في أجواء القمة من قبل أن تتعقد فتطلب أو تتمنى بالأسلوب الخشن عدم التشدد. وهذا على سبيل المثال لا الحصر ما حدث في القمة العربية في بغداد (28 و 29 مايو/ أيار 1990) التي كانت عملياً قمة إرادتها منظمة التحرير الفلسطينية وإرتأت وهي التي لا «صفقة أوسلو» بعد ولا «سلطة وطنية» ولا «دولة فلسطينية» تمكّنها من أن تستضيفها في غير بغداد، وهو أمر رجّح به الرئيس صدام حسين كل الترحيب على أساس أن من شأن وجود الملوك والرؤساء في بغداد تشكيل دعم للموقف العراقي الذي كان بدأ يتجه نحو الحدة مع الإدارة الأميركية على رغم محاولات حثيثة جرت لتثبيت التطبيع بين البلدين وقيام وفود سياسية من مجلس الشيوخ ومجلس النواب بزيارة العراق.

لمجرد أن نشرت «نيويورك تايمس» بقلم توماس فريدمان أحد كُتّابها الذين كثيراً ما ملأوا الخاصرة العربية أشواكاً تدمي وأفاضوا في الكلام الذي يتسم بالتجني عن المملكة العربية السعودية من دون وقفة وقورة وتتسم بالمهابة أمام عقود من العلاقات القوية بدءاً من العصر الذي تقاسم فيه وضع حجر الأساس لهذه العلاقات الملك عبد العزيز والرئيس روزفلت... لمجرد أن نشرت الصحيفة الكلام الذي نسب فريدمان إلى ولي العهد الأمير عبدالله بعد لقاء معه والمتعلق بإستعداد سعودي لـ «تطبيع» العلاقات مع إسرائيل في حال إنسحبت إسرائيل من الأراضي العربية التي تحتلها وقامت الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس، فإن الأنظار توجهت إلى القمة المتفق على عقدها في بيروت، خصوصاً أن الأمير عبدالله قال إنه كان في صدد تقديم رؤيته هذه إلى القمة وأنه إزاء إستمرار

العدوان الشاروني على الشعب الفلسطيني قرر وضع الرؤية في دُرج مكتبه.

والذي جعل الأنظار تتجه هو أن هنالك جدية في الأمر وأن القمة لن تكون في حال عقدها مجرد لحظة بروتوكولية عابرة ولقاء تباوسي بين أشقاء إنقضى عام على لقاء بعضهم البعض، وإنما محطة فاصلة بين مرحلة ومرحلة وإن مسألة «الرؤية السعودية» هي آخر قطرات المرونة العربية، فإما الحل وإما العودة بالأمور إلى ما كانت عليه قبل مؤتمر مدريد. والذي يرجح ذلك هو أن صاحب «الرؤية السعودية» يمثل المملكة التي باتت عملياً هي الدولة التي ترتبط تاريخياً بأوثق العلاقة مع الولايات المتحدة ولا تريد أن ينعكس التخبط السياسي للإدارة الحالية سلباً على هذه العلاقة، والتي - أي المملكة - هي العصب القوي في جعل الشرعية الفلسطينية تتماسك من خلال الدعم التقليدي والإستثنائي لها وإستمرار الأمير سلمان بن عبد العزيز مشرفاً ومتابعاً وعلى خير ما يكون عليه الإلتزام على هذا الدعم. وإذن فإنها المرة الثانية في تاريخ القمم العربية بعد المرة الأولى خلال القمة الإستثنائية في الخرطوم (من 8/29 إلى 9/1 - 1967)، التي تكون الدولة العربية الأكثر إقتداراً والأكثر تأثيراً في ما يخص العلاقة مع الولايات المتحدة والأكثر تأثراً بالذي يجري على أرض فلسطين، تتعاطى مع المسألة ضمن معادلة شائكة كونها تحرص على أن تبقى العلاقة التاريخية مع الولايات المتحدة بعيدة عن التوتر الذي من شأن تراكماته أن تولّد الأزمة وربما الانفجار، وفي الوقت نفسه تريد توظيف هذه العلاقة بما من شأنه أن يخفف وطأة العدوان الشاروني على الشعب الفلسطيني وهو عدوان كان لا بد من كبح تأييد الإدارة الأميركية له من خلال مقولات وتطبيقات متصهينة مثل إعتبار عمليات المقاومة الفلسطينية «ارهاباً» بينما العدوان الإسرائيلي براً وجواً وبحراً وما يحفل به هذا العدوان من ممارسات نازية إنما هو «حق مشروع للدفاع عن النفس». وكما أن الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز إستتبط من خلال قمة الخرطوم معادلة الدعم المالي لمصر والأردن وسوريا وضمن قرار عن القمة وتكريس الصمود من خلال اللاءات الشهيرة لتلك القمة وفي الوقت نفسه إقناع المؤتمرين بإستئناف ضخ النفط الذي كان مؤتمر وزراء المال والإقتصاد العرب في بغداد إعتمه كسلاح في المعركة، وبذلك لا تحدث قطيعة مع الغرب عموماً، فإن الأمير عبدالله بن عبد

العزيز وبعد خمس وثلاثين سنة يستتبط المعادلة المتمثلة برؤية ثابتة لطبيعة الصراع يأخذ مضمونها في الإعتبار التحولات التي حدثت خلال السنوات الثلاثين الماضية وبالذات بعدما إقتحمت الإجتهاادات المثيرة للإستهجان ساحة الصراع وكانت زيارة الرئيس (الراحل) أنور السادات للقدس والتي إنتهت بإتفاقية كامب ديفيد أكثر هذه الإجتهاادات قصماً للنظرة التي درجت على إعتبار فلسطين قضية عربية فباتت كما يلاحظ المرء نزاعاً فلسطينياً - إسرائيلياً، أو هكذا يتعامل البعض معها.

وفي حال كُتب لمعادلة الأمير عبدالله بن عبد العزيز المتمثلة برؤيته التي إنتهى أمرها مبادرة عربية لم تباغت بها المملكة الأمة على نحو مباغته السادات المتمثلة بزيارة القدس، أن تصدر بالإجماع داخل القمة العربية الدورية الثانية التي تبدأ اعمالها اليوم في بيروت، فإن ذلك سيعني فتح الباب العربي أكثر قليلاً أمام توعية الإدارة الأميركية للصراع العربي - الإسرائيلي، ذلك أن هذه الإدارة لن تجد ما تتحفظ عليه ولا ما تراه يهدد الزعامة الأميركية والوجود الإسرائيلي... ولكن ليس أي زعامة ولا أي وجود.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 27 مارس (آذار) 2002

* * *

قمة إعلان السلام على أميركا وإسرائيل.. وتصحيح الوضع العربي

بدل ان تجد الإدارة الأميركية في القمة العربية الدورية الثانية في بيروت أنها خير تأكيد لإصرار الدول العربية ومن دون إستثناء للمرة الأولى على التمسك بالسلام كخيار إستراتيجي وأنها بالروحية التي سادت أجواءها تشكل أفضل السبل لإنقاذ العملية السلمية، وتمارس من الضغط على صديقتها وحليفها ارييل شارون ما يجعله يسلك طريق الهداية... إن الإدارة الأميركية بدل ذلك رحبت بفتور وبمفردات جاءت دون التوجه العربي الواضح والمسؤول، وكأنما أرادت بذلك أن يواصل شارون مخططه الشرير. وفي ضوء ذلك يحترق المرء في أمر هذا الموقف من الإدارة الأميركية، بمعنى هل أنها تمارس اللعبة مع شارون على المكشوف وأن مصلحة الجانبين ألا يكون هنالك

حل ولا يكون هنالك سلام ولا يكون هنالك إستقرار في المنطقة، لأن السلام والإستقرار معناهما أن إسرائيل ستأخذ حجمها بحيث تكون صغرى في المنطقة لا أكثر وأن هذا الوجود العسكري الأميركي سيأخذ هو الآخر حجمه بحيث لا يبقى على النحو الذي هو عليه ما دام الإستقرار بات محروساً بالنوايا العربية والإيرانية الطيبة والتسليم بتجربة جديدة هي تعايش الأكثرية العربية مع أقلية يهودية.

ونحن عندما نتأمل في ما إنتهت إليه أعمال القمة العربية الدورية الثانية من نتائج وما ساد أجواءها من ممارسات، نجد الإجابة الواضحة لدواعي إنزعاج الإدارة الأميركية من هذه القمة ونجد أيضاً التفسير الكثير الوضوح للجنون الشاروني المستشري الذي وصل إلى حد إجتياح السلطة الوطنية الفلسطينية من خلال عمليات حربية يمكن أن تحدث بين جيشين كبيرين، وهي عمليات تفتقد إلى الشجاعة إنما ليس بين الجيش الأهم في المنطقة وشعب يملك أفراد منه بعض البنادق والرشاشات. وما بثته الفضائيات عن هذا الإجتياح أظهر كم أن الجنود الإسرائيليين مختبئون داخل دبابات وجرافات ومصفحات لا نرى وجوههم، ويتحركون على بقعة من الأرض لا تتحمل بلغة المعارك أن تكون أكثر من ساحة لمواجهات بال سلاح الأبيض. كما أن هذا الإجتياح أظهر مدى إفتقاد المؤسسة العسكرية الإسرائيلية إلى القواعد المتعارف عليها في أخلاقيات الذين يخوضون الحرب. وهذا في أي حال ليس ما يعيننا هنا، وإنما الذي يستوقفنا هو أجواء القمة وروحية الأنظمة العربية في التعامل مع هذه المناسبة، والنتائج التي إنتهت إليها القمة وشكلت المفاجأة والإنزعاج للإدارة الأميركية والهلع للشارونية التي لا يعنيتها التعقل في شيء ومن أجل ذلك كان إجتياح السلطة الوطنية وبجحة لا تستوجب مثل هذا الإجتياح.

وما حدث في القمة وإنتهت اليه من نتائج يمكن تسجيلها في الملاحظات الآتية:

- الدليل على أهمية هذه القمة هو من خلال المقارنة بين الوضع كما كان عليه حتى يوم الثلاثاء 26 مارس (آذار) 2002 والوضع كما بات في اليوم الأول لإنعقاد القمة ثم في اليوم الثاني. واليومان من الأيام المشهود لها على الصعيد الإيجابي في تاريخ الحياة السياسية العربية. وبالنسبة إلى الإدارة الأميركية ومعها إسرائيل فإن الوضع حتى عشية إنعقاد القمة كان

مثالياً. فالمبادرة السعودية قابلة للإنهيار عندما ستبدأ مناقشتها وبذلك تصبح مجرد إجتهااد سعودي يمكن صرف النظر عنه. ولكن الإستقبال الذي لقيته المبادرة كان بالغ الأهمية ومفاجئاً للإدارة الأميركية والحليف الشاروني حيث أن الجميع تسابقوا وكأنما لسان حال كل دولة في المؤتمر أن هذه المبادرة هي مبادرتها وأن ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز ناب عن الجميع عندما خطرت الرؤية في باله وعندما رآها سراحاً يمكن إستعماله والإستفادة منه في المواجهة السياسية. وهكذا باتت المبادرة عربية ومن دون أن يعني الإلتفاف حولها أن بعض الإجتهاادات والتحليلات والتطبيقات، على نحو ما كان لافتاً للإنتباه في كلمات البعض، ليس ضرورياً. وعلى سبيل المثال لا الحصر ما قاله، في صيغة مطالعة أثبتت مرة أخرى قدراته كرجل دولة عند الحديث عن قضايا شائكة، الرئيس السوري الدكتور بشار الأسد وما قاله الرئيس اليمني علي عبدالله صالح. والإثنان وجدوا أن إعلان السلام على إسرائيل على نحو ما تراه المبادرة السعودية بديل لإعلان الحرب على شارون على نحو ما يتطلع إليه الرأي العام العربي ويتشوق إليه بعض الجيوش العربية رداً على الإهانة الشارونية، لا يتعارض مع دعوة كل منهما إلى قطع علاقات البعض مع إسرائيل أو تجميدها في الحد الأدنى. وإذا فإن المبادرة السعودية التي بدأت رؤية باتت مبادرة عربية كثيرة الوضوح والشروط وبإمتياز ومن خلال الترحيب والاشادة وليس من خلال التصويت برفع الأيدي. وهذا ما رأت فيه الإدارة الأميركية ما من شأنه أن يشكل إحراجاً لها ورأت فيه حكومة إسرائيل ما من شأنه أن يهز مفاهيمها ويطوق اطماعها خصوصاً أن المبادرة تخاطب الرأي العام الإسرائيلي لعله يسجل وقفة لمصلحة أجياله في إتجاه الإقتناع بأن المبادرة يمكن أن تكون الجسر الذي تعبر عليه الأجيال من أسلوب التدمير الذي يعتمد عليه شارون موهماً الإسرائيليين بأن خلاصهم هو في هذا الأسلوب إلى منطق التعايش، إنما ضمن واقعية التعايش من جهة وشريعة القانون وليس شريعة الغاب من جهة أخرى.

- والدليل أيضاً على أهمية القمة هو المقارنة بين الموقف العربي من السلطة الوطنية الفلسطينية وإنفاضة الأقصى كما كان عليه حتى عشية القمة وما حدث في اليوم الأول للقمة ثم في اليوم الثاني. - والدليل أيضاً وأيضاً على أهمية هذه القمة هو

بقية تأملات في القمة . الهدية

لا نظن أن الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات كان يتصور عندما قرر تجيير القمة العربية الثانية إلى لبنان، وهي التي بموجب القاعدة الأبجدية مكان إنعقادها أبو ظبي، أن نقاشاً سيحدث داخل أهل الحكم اللبناني في شأن هذا الإنعقاد بحيث يكون هنالك متحمسون للقمة ومعارضون لها وبين الفريقين هنالك الطرف المتحفظ على إنعقادها. كذلك لم يخطر في باله أن الذين غابوا عن القمة لن يشاركوا وهم المفترض فيهم أن يكونوا في طليعة الحاضرين.

والى ذلك ان الشيخ زايد لم يخطر في باله أن القمة ستكون مناسبة لتصفية حسابات بين أجنحة أهل الحكم اللبناني إتسمت بالنكيات. كما لم يخطر في باله أن طقوس البروتوكول ستصل إلى حد تصنيف العرب درجات وفق اللون والقدرة المالية والتواجد الجغرافي. وهو لو خطر في باله أن ذلك سيحدث لكان أرفق التحجير ببعض النصائح بحيث لا تشوّه طقوس البروتوكول من جهة وسياسة تصفية الحسابات من جهة أخرى هذه القمة التي لم يجبرها إلى لبنان لضيق المكان وضيق ذات اليد ولدواعي الأمن في دولة الإمارات فهذا كله متوفر، وإنما لأنه أراد إهداء لبنان ما هو أهم بكثير من مساعدات في إنجاز مشاريع البنية التحتية أو مساعدات لتنظيف الأرض اللبنانية من الألغام الإسرائيلية. والأهم الذي نغنيه هو قمة تتعقد في العام 2002 بدل أن تتعقد بعد عشر سنين وبذلك يكون إنعقادها تكريماً للدولة العربية الوحيدة التي سجلت المقاومة فيها نصراً على الإحتلال الإسرائيلي وإلى حد إنسحابه مدحوراً مذموماً ومدمى، ومساهمة معنوية من دولة الإمارات في وضع لبنان على خارطة الدول التي تتعقد فيها المؤتمرات من دون خوف من أحد أو إخافة لأحد. وهي في أي حال لفئة من رئيس دولة طالما جعل الحكمة هي القاعدة في تعامله مع الأوضاع الصعبة والقضايا الشائكة.

وإذا جاز القول فإن الرد اللبناني على تحية الشيخ زايد لم يكن بالمثل. فلا الذي جرى لوزير الإعلام غازي العريضي كان يجب أن يحدث، وهو الذي بسبب قدراته الإعلامية ورؤاه الوطنية كان قادراً على توظيف قوافل الإعلام العربي والأجنبي التي جاءت من كل صوب إلى بيروت من أجل تغطية أعمال القمة العربية الدورية الثانية وعلى نحو جيد. ولا

من خلال المقارنة بين الوضع كما كان عليه عشية إنعقادها وبين اليوم الثاني للإنعقاد عندما حدثت فيه المفاجأة التي لم يتوقعها أحد وإن كانت هي أمنية الجميع من المحيط إلى الخليج. وتمثلت المفاجأة بالعناق العروبي بين ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي عزة إبراهيم أمام الجميع عمداً وفي لحظة إرتياح عفوية غائبة ومغيّبة منذ يوم الخميس 2 أغسطس (آب) 1990. كما تمثلت المفاجأة بالتعهد العراقي الذي إطمأن له الشيخ صباح الأحمد فكانت مصافحة قد تقود لاحقاً إلى عناق عراقي - كويتي فالى وفاق فالى مجاورة تبعث على الطمأنينة وعدم طمع أحد بالآخر وخوف أحد من الآخر. ومن المهم الإشارة إلى أن العناق السعودي - العراقي كانت له مقدمات وتصريحات إنتهت إلى أن العناق المشار إليه كان مثل عناق آخر سبقه ونعني به العناق السعودي - الإيراني. وكان الأمير عبدالله هو أيضاً مهندس ذلك الإنفراج الخليجي - الإيراني.

ويبقى أن ما أوردناه ليس كل الدلائل، ولكنها الأهم عن هذه القمة التي كانت قمة «إعلان السلام العربي على أميركا وإسرائيل» كما لم يُعلن بهذه الحنكة من قبل، وقمة «تصحيح العلاقة في الصف العربي» كما لم يحدث التصحيح بهذه الحكمة من قبل. ومن الطبيعي ما دامت هذه الإنجازات تكبح رغبة الإدارة الأميركية في الحرب على العراق وتحشر أربيل شارون في الزاوية أن يكون الرد عليها ما إقترفه شارون في اليوم الأول الذي تلا إنعقاد القمة وبررته الإدارة الأميركية دون وجه حق. يبقى أيضاً أننا ونحن ننظر إلى هذه القمة بهذه العين المبللة بدموع الحزن على ما جرى ويجري ممزوجة بدموع الفرح على ما نأمل حدوثه بعد الآن، نستحضر بيتين من الشعر يلخصان الواقع والمشاعر. الأول قاله قبل نصف قرن إبراهيم ناجي (وإذا انحط زمان لم تجد... عالياً ذا رفعة إلا الألم). والثاني لسيد الشعراء أبو الطيب المتنبي (يقضى على المرء في أيام محنته... حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن).

... والحديث حول «قمة إعلان السلام على أميركا وإسرائيل، وتصحيح العلاقة العربية» له تنمية... وحوله شؤون وشجون.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 3 أبريل (نيسان) 2002

* * *

الإستهانة التي لحقت برئيس البرلمان اللبناني نبيه بري ورئيس مجلس الوزراء رفيق الحريري كان يجب أن تحدث خصوصاً أن الحضور الذي لكل منهما في المحيطين العربي والدولي وكذلك في المحيط الإسلامي من شأنه أن يرفد القمة بالمزيد من الرؤى وتخلق أجواء أفضل.. وخصوصاً بعدما تكاثرت الغائبون عن القمة من القادة العرب. ولا النظرة البروتوكولية الفوقية في التعامل مع بعض الدول كان يجب أن تحدث، وبالذات مع السودان الدولة التي يذكر اللبنانيون بالخير مساهمتها المخلصة في زمن قوات الردع العربية وأي أسلوب محترم إعتدته الجنود السودانيون الذين شاركوا في تلك القوات وبالذات عندما كان موقعهم مطار بيروت. وما هو معروف عن السوداني هو أنه «أخو إخوان» ويمكن الإعتماد عليه في الزمن الصعب وعندما تشتد وطأة الملمات، من دون أن يعني ذلك أن الإعتماد يجب أن يكون مالياً. ومن هنا فإنه كان من غير اللائق أن يأتي البروتوكول اللبناني على حساب رئيس من المفترض بلبنان تكريمه وتعويضه عدم شمله في السابق بالإهتمام. وعندما لا يشارك الرئيس عمر حسن البشير في القمة رداً محققاً منه على قلة بعد النظر من جانب أهل البروتوكول اللبناني الذين لم يجدوا جناحاً للرئيس في فندق القمة شأنه في ذلك شأن الآخرين، فإنه أراد بذلك وضع حد للإستهانة اللبنانية أصلاً بالسودان حيث لا يُزار ولا يُستشار وكما لو أنه ليس الشقيق البار الرابض بجسارة على المدخل العربي المتسع الإرجاء للقارة الأفريقية. وفي هذا الصدد يجوز الإستهجان لأن الرئاسات اللبنانية الثلاث لا تشمل السودان بجولاتها مع أن ذلك مفيد للبنان، ولأن الوزير اللبناني الوحيد الذي زار الخرطوم انما زاره فقط لأنه يحمل دعوة إلى الرئيس البشير للمشاركة في القمة. ونحن هنا لن نضيف المزيد ولكن التمني جائز بأن يشمل الرئيس رفيق الحريري السودان بجولاته إذ ليس طبيعياً أن يصل رئيس الحكومة اللبنانية إلى أرمينيا ورومانيا لكنه لا يحط الرجال لبضع ساعات في الخرطوم وخصوصاً عندما يكون في مدينة جدة التي طالما يُكثر من زيارتها والتي هي على مرمى رحلة طائر سريعة من العاصمة السودانية، وبذلك تزول هذه الندبة من جبين العلاقة اللبنانية - السودانية خصوصاً ان ما يجمع البلدين هو الإيقاع من حيث الإسم وهو التراث الديمقراطي لدى الشعبين وهو أن قمة بيروت

ربيع 2002 كانت تؤام قمة الخرطوم صيف 1967 هذا اذا لم نقل أن قمة العاصمة المثلثة في زمن الثنائي الذي لا يعوّض (اسماعيل الازهري - محمد أحمد محجوب) كانت من حيث الظروف والنتائج والضرورات والمفاجآت بمثل قمة العاصمة اللبنانية المنبعثة من رماد حرب ست عشرة سنة ليست حرب جنوب السودان، التي ما أن تتوقف حتى تبدأ من جديد، شيئاً قياساً بفظاعتها وويلاتها.

وإلى ذلك إنه عندما إرتأى الشيخ زايد تجيير القمة إلى لبنان لم يخطر في باله أن هذه القمة سترقى إلى مرتبة القمم التاريخية التي يشكل إنعقادها بداية تحولات بالغة الأهمية في المسار العربي. وهذه التحولات تتمثل بالرؤية التي خطرت في بال ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز كخطوة تتسم بالحنكة والحكمة في المواجهة السياسية مع إسرائيل، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مبادرة عربية حظيت بالترحيب الخالي من المسايرة وبالإجماع المستند إلى الإقتناع. كذلك تتمثل التحولات ببوادر مصالحة خليجية - عراقية طالما دعا الشيخ زايد إليها، بل أنه منذ ست سنوات وهو ينادي بها ومن دون أن يتسبب عدم التجاوب مع النداءات والتمنيات في وقف المطالبة بهذه المصالحة. ومن المؤكد أن لحظة العناق العروبية بين الأمير عبدالله وعزة إبراهيم أُلجبت صدر الشيخ زايد كما لم تتلج هذه اللحظة احداً آخر لأنها ما دامت حدثت فإنها ستصمد وستتطور لأنها في الدرجة الأولى بين السعودية والعراق، ولأن طرفي العناق هما عبدالله بن عبد العزيز، الذي شق الطريق من قبل في إتجاه أصعب خصومة نعني بها الخصومة السعودية - الإيرانية وأثمرت مساعيه وفاقاً يقترب من المثالية بعدما إجتاز عثرات تعقيدات التفهم، وعزة إبراهيم الذي هو رمز إنفجار الأزمة بين العراق والكويت بعد إنهيار المحادثات التي إستضافتها المملكة في يوليو (تموز) 1990 في مدينة جدة وترأسها عزة إبراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة عن الجانب العراقي والشيخ سعد العبدالله الصباح ولي العهد رئيس مجلس الوزراء عن الجانب الكويتي. ومن المؤكد أن العلاقة الشخصية التي يحتفظ الإثنان الأمير عبدالله وعزة إبراهيم بأطيب الذكريات عنها هي التي جعلت العناق بين أبو متعب وأبو أحمد (على نحو ما يستحب الإثنان مناداته بعضهما) يبدو عفواً وجعلت المصافحة العراقية - الكويتية تبدو ضرورية على رغم برودتها، إلا أن

الإقتناع بضرورة كتابة العلاقة السعودية - العراقية والعراقية - الكويتية على صفحة ناصعة البياض جديدة هي التي جعلت المفاجأة التي لم يتوقعها أحد، وبالذات الإدارة الأميركية وحليفاتها الحكومة البريطانية، تتوهج في سماء قمة بيروت. وفي ذلك ما جعل صاحب الهدية الشيخ زايد يبدو مبتهجاً ضمناً لأن العاصمة اللبنانية شهدت ما كان يتمناه لعاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة، وإن كان ضمناً لا يجد إجابة مقنعة عن الإجتهد الذي كان في غير محله ويتعلق بحجب كلمة الرئيس الفلسطيني المحاصر ياسر عرفات التي كان سيبحثها فضائياً ويسمعها المشاركون في القمة في جلستهم الافتتاحية. ولو أن القمة كانت ستعتقد في أبو ظبي ولا يتم تجييرها إلى لبنان لكان الشيخ زايد وضع شاشات في ساحات أبو ظبي وبقية الإمارات تبث الكلمة بضع مرات طوال أيام المؤتمر وليس فقط يتم بثها داخل القاعة التي جمعت رؤساء الوفود في يومين يمكن أن يصبحا من الأيام العربية المضيفة خصوصاً إذا تمت صيانة المبادرة ورعايتها وتطويرها وإلحاقها بجهود كتلك الجهود التي حدثت داخل القمة إلى أن يثمر إعلان العرب سلامهم على أميركا وإسرائيل قيام دولة فلسطين وعاصمتها القدس وإنسحاب إسرائيل إلى حدود الرابع من يونيو (حزيران) 1967 في كل من الجولان وفلسطين وجنوب لبنان، وإلا فإن إنسحابها من المنطقة سيصبح هو المطلب وهو القضية، وبالذات في ضوء تداعيات حرب الإبادة الشارونية التي تنفّج عليها الإدارة الأميركية وتشاركها التفجّج عشرات الدول... وكأنما إبادة شعب يريد التحرك وطرد المحتلين الذين يعيثون بالمقامات الإسلامية والمسيحية في القدس وبيت لحم ومدن فلسطينية أخرى، هي من المسائل التي فيها نظر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 10 أبريل (نيسان) 2002

* * *

التحرك المسيحي... الغائب أم المغيب؟

كان من شأن وقفة أكثر حزماً من جانب الفاتيكان والكنائس المسيحية في العالم عموماً ومن خلال بطارقة وأساقفة هذه الكنائس ضد ما تفعله قوات الاحتلال الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية، أن

تشكّل ضغطاً على حكومات الدول المسيحية بفروعها الثلاثة: الكاثوليكية والارثوذكسية والبروتستانتية. وإذا كانت هذه الوقفة لن تكون من أجل الشعب الفلسطيني الذي تدينه سلطات الاحتلال الإسرائيلي من الإذلال والتعذيب ما تحرّمه التعاليم السماوية، فعلى الأقل من أجل كنيسة المهد، ومن أجل الدروب التي يتوق ملايين المسيحيين في العالم إلى السير عليها في مناسبات الميلاد وأعياد الفصح والحج إلى حيث مولد عيسى بن مريم عليه السلام. ونسأله هنا: لماذا لا يوكل الفاتيكان والكنائس المسيحية المشار إليها مثل هذه المهمة إلى المسيحيين العرب وبالذات إلى لبنان خصوصاً أن العماد اميل لحود بات في العام 2002 مثلث الرئاسة: رئاسة جمهورية لبنان، ورئاسة القمة العربية، ورئاسة المجموعة الفرنكوفونية التي ستعقد قمتها المرجأة في أكتوبر (تشرين الأول) المقبل. ومثل هذا الأمر يعطي أو يجب أن يعطي لبنان في شخص رئيسه قدرة على التحرك المسيحي الغائب أو المغيب. لقد حدثت وقفات إتسمت بالإستتار، إلا أنها لم تصل إلى الحد الذي يجعل الحكومة الإسرائيلية تراعي مشاعر ملايين المسيحيين في العالم فتأمر قواتها بالإبتعاد عن كنيسة المهد وإحترام هذا الصرح الروحي. كما أن هذه الوقفات لم تصل إلى حد الطلب من حكومات دول العالم المسيحي وفي مقدمتها الإدارة الأميركية إتخاذ الموقف الذي يردع الجنون الشاروني الذي بدأ يتناول على الأماكن المسيحية المقدسة في بيت لحم والناصرة بعدما سبق أن تناول على المسجد الأقصى، وكأنما برنامج هذا الذي يحكم إسرائيل هو إذلال الديانتين الإسلامية والمسيحية، وذلك ما لا يريد أن يتبته له أولو الأمر، أو على وجه الدقة بعضهم، في العالمين الإسلامي والمسيحي.

ومن الجائز القول أنه لو صدر هذا الموقف الحازم من جانب الفاتيكان والكنائس المسيحية لكان الرئيس جورج بوش الابن، إثباتاً منه لإحترام مهد السيد المسيح، طلب من وزير خارجيته كولن باول أن يبدأ جولته التي جاءت متأخرة وبدت كما لو أنها لتعويم الحليف المعتدي ارييل شارون وليس لنجدة ولو شكلية للصديق المعتدى عليه وعلى سلطته الوطنية ياسر عرفات، بزيارة كنيسة المهد بعد إنصراف قوات الاحتلال عنها، ولكان طلب منه أيضاً هدياً بتعاليم السيد المسيح زيارة المخيمات التي يدمر الشارونيون البيوت فيها على سكانها والتي يمنع شارون

الصحافيين والمصورين ورجال الإنقاذ من دخولها وأن تكون الزيارة مصورة وبحيث يشمل التصوير الجثث وبالذات جثث النساء والمسنين والأطفال الممنوع من جانب شارون تشييعها ودفنها على نحو ما توصي به الديانات السماوية. (فلنتأمل ملياً بلوحة زميلنا محمود كحيل في عدد الأربعاء الماضي والتي تصلح كـ «بوستر»، وكبطاقة بريدية وكطابع بريد يتبناها الأمين العام للجامعة عمرو موسى في نطاق المواجهة الإعلامية).

إننا هنا لا نطالب بالمستحيل ولكننا نعتقد أن ما كان متوقفاً من الفاتيكان والكنائس المسيحية لم يحدث. وهذا جعل حكومات دول العالم المسيحي لا تتحرك بالإنذفاع المطلوب وجعل ارييل شارون يواصل عدوانه ومن خلال ممارسات لا يقوم بها إلا من كان يفتقد إلى التوازن وجعله أيضاً يستهين بالدول الأوروبية عندما أوفدت من يمكنه تهدئة الموقف. كما أن ذلك جعله يقول ما معناه: ليكن معلوماً يا مسلمي العالم ومسيحييه أن اليهودية ومن خلال الصهيونية كعقيدة وإسرائيل كدولة هي فقط التي لها الحق في الوجود. ومثل هذا الكلام قد يبدو أنه هلوسة لكن ممارسات شارون من جهة وموقف بعض الحكومات في العالمين الإسلامي والمسيحي تجعلنا نفترض أن تصبح الهلوسة حقيقة قائمة. وما يجعلها مستبعدة حتى الآن هو أن إنتفاضة الأقصى متواصلة وأن الجبل العربي والإسلامي الواعد هو في بداية يقظة، وأن حكومات دول العالم المسيحي ربما تنتقل من مرحلة المسايرة والمبالغة في التفهم لمنطق التزوير الإسرائيلي للحقائق إلى مرحلة التعامل بموضوعية مع الصراع العربي - الإسرائيلي وذلك من خلال إعتبار إسرائيل دولة خارجة على القانون الدولي وتمارس السياسة بأساليب ملتوية وصلت الى حد أنها صادرت عملياً الإرادة الدولية تحت ستار انها دولة مسكينة مهددة من ربع مليار عربي. وترى الدول الأوروبية أن هذه الحجة لم تعد واردة وذلك في ضوء القمة العربية الدورية الثانية التي أنهت اعمالها في بيروت يومي 27 و 28 مارس (آذار) الماضي بإنجازين بالغين الأهمية أولهما أن الرؤية التي طرحها ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبدالله بن عبد العزيز قبل بضعة أسابيع من إنعقاد القمة برسم التداول والمناقشة لمن يريد أن يستفسر ويناقش ويعدل ويضيف انتهت مبادرة عربية تبنتها القمة بالإجماع. أما الإنجاز الثاني فتمثل بفتح

الباب وعن إقتناع أمام بداية مصالحة سعودية - عراقية وأخرى عراقية - كويتية. وقد يحدث في حال إستمرار الجنون الشاروني على ما هو عليه والمسايرة الأميركية على الغفظة التي هي عليها أن تتفصل أوروبا تماماً عن الإرادة الأميركية في موضوع الصراع العربي - الإسرائيلي، وبحيث تتمسك الحكومات الأوروبية بضرورة تنفيذ ما تم الإتفاق عليه في مؤتمر مدريد، أو طي صفحة هذا المؤتمر وإستنباط مؤتمر جديد تشارك فيه روسيا والصين ويضع صيغة حل تتضمن جدولاً زمنياً قريب المدى كما تتضمن إجراءات وعقوبات وبذلك يلتقي هذا المؤتمر مع ما قرر وزراء الخارجية العرب في إجتماعهم الإستثنائي الذي عقده في القاهرة يوم السبت 6 أبريل (نيسان) الجاري السعي في سبيله وهو اللجوء إلى الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة اي استخدام القوة كوسيلة لحمل إسرائيل على تنفيذ قرارات مجلس الأمن ذات الصلة بالعدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني مطمئنين إلى أن مردود هذه الخطوة سيكون جيداً. والإفتراض بأن الانفصال الأوروبي يمكن أن يحدث ليس بذلك الأمر المستبعد وذلك لأن قدرة الأوروبيين بمن في ذلك بريطانيا ضمناً على تقبل إصرار الصهيونية على أن تضع يدها على القرار الأوروبي هي دون قدرة الأميركيين على ذلك. وفي حال حدث هذا الانفصال الذي تتكاثر المؤشرات إلى إقترب حدوثه فإن التفرد الأميركي المشكو دولياً منه والذي تسبب للعرب وللشعب الفلسطيني بالذات بضرر بالغ، لا يعود على الحال التي هو عليها خصوصاً في ضوء الإحراجات التي سببها ارييل شارون لإدارة الرئيس بوش وفي ضوء الجولة الخجولة التي قام بها وزير الخارجية كولن باول إلى بعض دول المنطقة وكيف أن الملك محمد السادس لم يكتف بأنه إستقبله في أغادير وليس في الرباط إحتراماً منه لمشاعر تظاهرة الملايين المغربية الشعبية - الرسمية التي جرت في عاصمة المملكة وإنما أبلغه بلباقة الملوك ملاحظة خلاصتها: لماذا أنت هنا ولست في القدس. وواضح أن الملك أراد من ذلك القول ضمناً إنك تضيق بذلك الوقت العربي وتعطي ارييل شارون المزيد من الوقت لكي ينجز عدوانه. وفي سياق الحديث عن جولة باول الخجولة جاءت الملاحظة الملوكية الأخرى من جانب ولي العهد السعودي الذي تعمّد أن يكون إجتماعه بالوزير الأميركي في الدار البيضاء حيث يمضي إجازة ربما

قد يكون إفتعلها فقط كي لا يتم إستقباله لوزير الخارجية الأميركية على أرض السعودية.

ماذا بعد الجولة التي قام بها كولن باول؟ وهل ستبقى الشرعية الفلسطينية محاصرة ومُهانة على رغم الجولة مع الأخذ في الإعتبار أن اللقاء الذي تم نتيجة الإصرار المغربي - السعودي - المصري - الأردني - الفلسطيني على ذلك، بين كولن باول والرئيس عرفات وفي المقر المحاصر فيه رمز تلك الشرعية، كان من شأنه أن يبيّض بعض الشيء الصفحة الأميركية؟

وهل ستبقى كنيسة المهد محاصرة هي الأخرى ومهددة من جانب صهاينة شاردين في شوارعها القديمة بينما الفاتيكان وبطاركة وأساقفة الكنائس المسيحية الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية تكتفي بما هو أقل من الشجب وأكثر من الإستتكار بينما المطلوب وقفة بأهمية ما يرمز إليه مهد السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام؟
هذه الأسئلة وغيرها كثير لا تثير الدهشة فقط وإنما الكثير من الشكوك والظن... الذي ليس إثماً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 17 أبريل (نيسان) 2002

* * *

«ضبط النفس» الأميركي...

بنكهة عجمية!

إرتبط مطلب «ضبط النفس»، الذي بات شبه مصطلح الغرض منه تخفيف الوطأة على إسرائيل بالمتحدث، بإسم البيت الأبيض والمتحدث بإسم الخارجية الأميركية. وفي لبنان بات السفير الأميركي السابق ديفيد ساترفيلد معروفاً بإسم «مستر ضبط النفس» وأورث التسمية نفسها إلى خلفه السفير الحالي فنسنت هافل الذي يدعو هو الآخر عند الضرورة إلى «ضبط النفس» على أساس أنه موقف ودي من حكومتها إزاء لبنان.

ولكثر ما ردد الأميركيان دعوتهم «المخلصة» إلى «ضبط النفس» ومن دون الطلب من إسرائيل بصيغة التمني أو عن طريق الضغط ضبط «شارونها» ومن قبل «باراكها» و«بيرزها» وبينهم ذلك الشاروني الصغير نتتيا هو، فإن اللبناني بات يتحسس كثير

التحسس من هذا «المصطلح المغموم»، تماماً على نحو تحسس الرأي العام العربي من المحيط إلى الخليج من كلمة «التطبيع». أما لماذا التحسس فلأن المصطلحين ينطلقان من نية واحدة ليست طيبة تجاه العرب ولأنهما أيضاً يصبان في مصلحة إسرائيل نتيجة أن الإدارة الأميركية التي تقف وراء هذين المصطلحين منحازة بالكامل لإسرائيل. وما أصاب ويصيب الشعب الفلسطيني دليل على ذلك. وتؤكد الدليل تلك المواقف المتذبذبة من جانب الرئيس جورج بوش الابن ومن جانب وزير خارجيته كولن باول.

يوم الجمعة 12 أبريل (نيسان) 2002 وخلال زيارة مفاجئة قام بها إلى لبنان وزير الخارجية الإيرانية كمال خرازي، إستوقف اللبنانيين إستعمال الوزير الذي ينتمي إلى إيران الخاتمية مصطلح «ضبط النفس» وإحتاروا في أمر هذه الدعوة من جانب المسؤول الإيراني تصدر بينما أجواء التعبئة المعنوية والشعبية في لبنان والعالم العربي وصلت إلى ما تحت الذروة بقليل. وكان من الطبيعي ربط دعوة خرازي إلى ضبط النفس بعدم إندفاع إيران في إتجاه تنفيذ الإقتراح الذي أطلقه في لقاء تعبوي مرشد الثورة الإسلامية علي خامنئي الذي أشعل مشاعر الجموع الغفيرة التي كانت تستمع إليه وبث حيوية في سواعدهم التي تحركت دلالة على الرضى والتأييد. وترك عدم الإندفاع المشار إليه إنطباعاً بأن الغرض من طرح الإقتراح كان إحراج الدول العربية النفطية التي لن تأخذ به ثم جاءت خطوة العراق الذي وضع الإقتراح موضع التنفيذ يرد الإحراج إلى إيران التي إستتبطت تخريجات لعدم تنفيذ إقتراح قطع النفط ولمدة شهر تشبه تخريجات وزير الخارجية كمال خرازي في شأن دعوته المباغثة «حزب الله» إلى «ضبط النفس». ومن هذه التخريجات قوله «إن ضبط النفس هو في إتجاه التحرشات الإسرائيلية لأن إسرائيل هي الطرف الذي يسعى إلى توسيع دائرة الحرب. أما المقاومة اللبنانية في سائر الأراضي اللبنانية المحتلة فهي تُعتبر حقاً مشروعاً للبنان...» أي ما معناه أنه لا يقصد من إستعمال المصطلح المطالبة بوقف عمليات «حزب الله» في مزارع شبعا.

هذان الموقفان المستجدان من جانب إيران تركا إنطباعاً بأن الجمهورية الإسلامية الثورية ترى في المرحلة الراهنة التحليق بجناحيها المتوازيين وبتناغم لا يوحي بأن هنالك رؤيتين وصراعين وإتجاهين، أو بكلام أكثر تحديداً هنالك خمينية - خامنية وهنالك

في خط مواز لها خاتمية. كذلك ساد إنطباع خلاصته أنه إذا كان هذا هو الخيار الإيراني فإنه يصبح بطبيعة الحال أن يأتي كمال خرازي الذي هو أحد أركان الخاتمية إلى بيروت ويدعو إلى «ضبط النفس»، تاركاً الكثير من التساؤلات والتخمينات في السماء السياسية اللبنانية المكفهرة كما لم تكفهر بهذه الحدة من قبل، والتي تحجب صفاء زرقتها غيوم العدوان الشاروني وتداعياته على لبنان والمقاومة في لبنان بشكل خاص وغيوم التلوث الناشئ عن المازوت المسكوت عن مخاطره وبما يشبه رشوة الدولة للمواطن بمعنى التسامح مع التجاوزات ومنها الإستعمال العشوائي للمازوت فضلاً عن الكسارات وخلاف ذلك، مقابل سكوت المواطن على واقع الحال الإقتصادي والمعيشي الذي يكسر ظهور الناس من دون أن يجد حلولاً من بعض وزارات الخدمات في الحكومة.

كان للتصريح الذي أدلى به خرازي وقع الصدمة. وبدأت أطراف كثيرة من بينها «حزب الله» وأهل الحكم في كل من لبنان وسوريا والإدارة الأميركية والحكومة الشارونية تتطلع الى ما هو أكثر من التبرير الذي أتبعه الوزير الإيراني بتصريحه. وبطبيعة الحال كان كل طرف ينتظر، ومن الزاوية التي يريدها وتتناسب موقفه أو برنامجه، ما سيكون عليه رد الفعل الإيراني بعد عودة الوزير من زيارته إلى كل من بيروت ودمشق. وهل سيطور أهل الحكم الإيراني تصريح الوزير أم سيعيدون النظر في ما طرحه. ومرت أيام دون أن يصدر عن أهل الحكم الإيراني ما يشفي غليل المتطلعين الى توضيحات، باستثناء كلام يتعلق فقط بالفلسطينيين والإعتداءات الشارونية عليهم مع وقفة أمام موضوع مجزرة مخيم جنين. وهذا الكلام الذي نشير إليه قاله الرئيس خاتمي الذي إعتبر بعد لقاء عقده يوم الأحد 14 أبريل الجاري في طهران مع فاروق القدومي الذي يقوم في غيبة الرئيس ياسر عرفات تحت الحصار في مقره في «رام الله» بدور الرئيس الفلسطيني المغيب من حيث التحرك العربي والدولي وترؤس وفد فلسطين في المؤتمرات على نحو ما حدث في القمة العربية الدورية الثانية في بيروت «إن دعم الشعب الفلسطيني فرض ديني» مشيداً بنضال هذا الشعب «لتحرير أرضه واستعادة حقوقه» مسجلاً ادانة «لعدم بعض القوى العظمى لنظام ينتهج سياسة توسعية» إنما من دون تسمية هذه القوى العظمى. لماذا؟ ربما للنهج نفسه الذي جعل الوزير

الخاتمي كمال خرازي يدعو في بيروت إلى «ضبط النفس» مستدركاً وقيل أن ينتقل من بيروت إلى دمشق، أن دعوته «تعني إسرائيل وليس المقاومة». لم يصدر عن أهل الحكم الإيراني ما يثبت دعوة وزير خارجيتهم، كما لم يصدر الكلام الذي يطمئن «حزب الله» وأهل الحكم في كل من سوريا ولبنان إلى أنه لا جديد في الموقف الإيراني من شأنه إثارة الهواجس. وتبعاً لذلك يكون أصاب الصيغة الإيرانية لمصطلح «ضبط النفس» ما سبق أن أصاب الصيغة الإيرانية هي الأخرى للدعوة المتعلقة بإستعمال سلاح النفط وذلك من خلال قطعه لمدة شهر بهدف الضغط على أميركا، حيث ان مرشد الثورة علي خامنئي هو الذي إقترح لكن إقتراحه إستمتر كلاماً عبر الميكروفون والذي هو الشقيق التوأم للكلام عندما يبقى مجرد حبر على الورق.

وفي ظل هذا الواقع الجديد جاءت الزيارة غير المقررة في الأصل التي قام بها وزير الخارجية كولن باول إلى كل من بيروت ودمشق. وهي بطبيعة الحال ليست زيارة تفقدية لبلد صديق وإنما هي زيارة ناقل إنذار في الحد الأقصى وتحذير في الحد الأدنى وبينهما من باب رفع العتب تمنيات بـ «ضبط النفس». وفي هذه الحال يكون كمال خرازي وإستناداً الى ما يعرفه وإلى حسن قراءته لأساليب أهل القرار الأميركي وللعلاقة العضوية بين هؤلاء والحكومة الإسرائيلية بفضل فترة عمله كمندوب لبلاده لدى الأمم المتحدة، أحسن التصرف عندما دعا وهو في بيروت التي جاء إليها خصيصاً إلى «ضبط النفس» قاصداً «حزب الله» في الدرجة الأولى لانه ليس في موقع من يدعو إسرائيل الى «ضبط النفس»، وذلك على أساس أن دعوته هذه ربما كانت «زلة لسان» انما الزلة التي قد ترد الأذى الشاروني عن المقاومة وعن المواقع المدنية لـ «حزب الله» وعن محطات الكهرباء التي إعتادت إسرائيل على تدميرها، وبالذات عندما يكون لبنان على موعد مع موسم إصطياف، وعن مطار بيروت الذي تتكاثر الخشية من أن يشمله الجنون الشاروني ببعض الصواريخ. كما أن دعوته قد تقطع الطريق على إخراجات قد يتسبب بها الشارونيون للحكم السوري الذي لا يحبذ إستدراجه إلى مواجهة في غير الطرف والزمن المناسبين. وكل هذه الأمور وغيرها هي من جملة دواعي الزيارة، المفاجئة هي الأخرى، التي قام بها رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري إلى واشنطن

وإجتمع خلالها يوم الأربعاء الماضي (2002/4/17) عسى ولعل تثمر محادثاته مع الرئيس بوش وصل مع الصديق الأميركي إلى معادلة تقوم على مقايضة تأخذ بموجبها إدارة الرئيس بوش في الاعتبار الواقع المستجد في العالم العربي حيث أن المشاعر تبدلت تماماً تجاه أميركا وكيف أنه يمكن تلمس ذلك بوضوح من خلال التأمل في الخارطة العربية التي تشهد مفاجآت غير سارة على الاطلاق لأميركا الإدارة والشعب على حد سواء. وهذه المفاجآت واضحة المعالم وتمتد من البحرين على ضفاف الخليج، إلى المغرب على ضفاف الأطلسي إلى اليمن على ضفاف مضيق هرمز، إلى لبنان على ضفاف المتوسط، إلى الاردن الذي يواجه إسرائيل براً وجسراً، إلى مصر على ضفاف بحريها وقناتها ذات المجد النضالي التليد، إلى المملكة العربية السعودية على ضفاف الخليج والبحر الأحمر، إلى السودان تلك البوابة الإستراتيجية على أفريقيا، إلى كل بقعة عربية أصابها التحالف الأميركي - الشاروني بصدمة عميقة. وفي حال تأملت الإدارة الأميركية بعمق وأصغت السمع الى صديق نزيه مثل الرئيس رفيق الحريري يريد للعلاقة الأميركية - العربية أن تصفو وتستقر، فإن المنطقة ستتجو من شر الفعل الشاروني.... والأ فلا كلام سيفيد ولا سلام سيحدث ولا إستقرار سيتحقق ولا ازدهار سينتشر، وانما مجازر شارونية وصمود في أكثر من مكان وكراهية لأميركا وهو ما لا يريده الأصدقاء بينما الإدارة الأميركية تسعى إليه. وتلك حالة يستعصي على المرء تشخيصها وتفسيرها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 24 أبريل (نيسان) 2002

* * *

التحرك العربي المأمول في أميركا

في كل دولة عربية هنالك شخصيات بعضهم له حضور فكري، وآخر حضور مالي، وتربطهم لأكثر من سبب وظرف علاقة طيبة بالإدارة الأميركية، ناشئة عن مصالح تجارية أو إقتصادية، أو نتيجة إعجاب بالتجربة الأميركية نشأ أيام دراستهم في جامعاتها وتطور بعد زواج بعضهم من أميركيات وبات الأبناء والبنات من آباء عرب وأمهات أميركيات. ولقد خطا

بعض هذه الشخصيات خطوات ملموسة على صعيد زرع شجرة الحضور العربي في العقل الأميركي من خلال التبرع للجامعات وتعزيز العلاقات على المستوى الشخصي مع بعض رموز الحياة السياسية والجامعية والطبية والمصرفية.

وتشاء الصدفة ان تكون العلاقة الطيبة لعدد من الشخصيات العربية مع الإدارة الأميركية الحالية بالذات وثيقة، إلى درجة أن الإهتمام من جانب بعض أركان هذه الإدارة بتلك الشخصيات يبدو واضحاً من خلال نوعية الإستقبال لهم بصرف النظر عما إذا كانوا في مواقع المسؤولية أو خارجها. وهذه الشخصيات الموجودة منها الكثير في الدول العربية من لبنان إلى المغرب مروراً بمصر ودول الخليج، مطالبة في هذه المرحلة التي تواجه فيها العلاقة العربية - الأميركية أزمة بالغة الحدة، بأن تتحرك في أكثر من إتجاه وبحجم الحضور الذي لكل شخصية في الأوساط الأميركية وبالذات في أوساط الإدارة الحالية والكونغرس والمؤسسات الصناعية والجامعات، لتوضيح بعض الأمور التي من شأن عدم توضيحها جعل التأزم الراهن في العلاقة العربية - الأميركية يصل إلى درجة العداء، خصوصاً أن مشاعر الغضب على السياسة الأميركية وعلى البضائع والصناعات الأميركية تتأصل يوماً بعد آخر نتيجة أن النهج الذي تسلكه الإدارة الأميركية بات في نظر الرأي العام العربي معادياً. وعند الإستقصاء والإستعلام في أوساط وكلاء الشركات والصناعات الأميركية، بدءاً من صناعة الغذاء والطعام وصولاً إلى التقنيات والسيارات، تتضح بعض المؤشرات التي تؤكد أن المقاطعة للبضائع الأميركية بدأت تستقر في العقل العربي بحيث لم تعد «الدونات» و«الهمبرغر» وغيرها تلك الأكالات التي لا تستغني المعدة العربية النشيطة عنها تتقدم عليها. الكفتة والشاورما والبسبوسة والطعمية وخلافها. وكخطوة أولية بهدف كسب الوقت وتغني عن التحرك الميداني بمعنى الذهاب إلى واشنطن وبقية المدن الأميركية، يمكن لكل مسؤول عربي تربطه علاقة ما بأميركا أن يسجل موقفاً واضحاً من السياسة الأميركية الحالية ومن دون أن يتوقف أمام أنه في موقع المسؤولية في بلده، ذلك أن المشاركة في الحكم في أي بلد عربي يجب ألا تحول دون تسجيل الموقف الشخصي. كما يمكن لكل صاحب مصلحة مالية أو تجارية مع الولايات المتحدة ان يفعل الشيء نفسه في

مصالحهم الإقتصادية والتجارية والمصرفية وتحمي هذه المصالح من الإفتراءات والتهمات الصهيونية. ويبقى السؤال لكل هذه الشخصيات العربية ومن دون إستثناء: إذا كنا لن نوظف الآن هذه العلاقات وهذا الحضور لهم، ولو من باب إختبار القدرات، فمتى اذا هي موجبات التوظيف؟ هل هي عندما ستدق إسرائيل أبواب كل بلد عربي من النيل إلى الفرات إلى جبال الأطلس مطمئنة إلى أن الإدارة الأميركية معها وأن الملايين من الرأي العام الأميركي مغسولة ادمغتهم ولا فائدة ترجى منهم، وأن الجاليات العربية فضلاً عن ألوف الشخصيات العربية التي لها حضور مالي أو سياسي أو تجاري أو فكري أو علمي في أميركا لا يتحركون مستترين بدافع الغضب والنصيحة في الوقت نفسه.

الأمة في إنتظار الجواب عن هذا السؤال الحق، وبالذات في ضوء تقييم ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز لزيارته ومحادثاته للمرة الأولى مع الإدارة الأميركية في عقر دارها والتي كان شعارها: يا أيها الأصدقاء الأميركيان إما أنتم مع العلاقة المتوازنة ونحن طلابها وإما أنتم مع إسرائيل المعتدية على نحو الحال الراهنة.

ومن المؤكد انه لو تمت زيارة الأمير ومن قبله زيارة ملك المغرب محمد السادس والرئيس حسني مبارك والملك عبدالله الثاني والرئيس علي عبدالله صالح. وكان هناك ذلك الحضور الفاعل لعرب أميركا الذي أوردنا في الأسطر السابقة طبيعته وما يمكن أن يفعله، لكان هؤلاء الزوار من أصحاب القرار العربي وجدوا أن لهم في الولايات المتحدة ذلك «اللوبي» العربي الذي يمكن من خلال تطويره الإعتماد عليه على نحو إعتماد إسرائيل على «اللوبي» اليهودي - الصهيوني المتأصل داخل أميركا، أو على الأقل يكون له دور المتابعة والتذكير والتأثير. وبذلك فإن المهمة التي يقوم بها أهل القرار العربي لا تكون وحيدة وليس لها من يساندها بشكل غير رسمي من خلال الإتصالات ومن خلال المتابعة ومن خلال رصد وسائل الإعلام الأميركية من صحف ومجلات وإذاعات ومحطات تلفزيون وفصائيات والرد على كل شاردة وواردة مسيئة إلى العرب في هذه الوسائل، أي بكلام أكثر وضوحاً أن وجود «إيباك» عربي، وهو «اللوبي» المأمول بتسمية مختلفة، لا يحدث بقرارات رسمية وإنما بمبادرات. ومن المؤكد أن أهل القرار في

صيغة تصريح أو بيان، خصوصاً أن التجار العرب المتاجرين مع أميركا قد يجدون تجارتهم بارت في حال أخذت المقاطعة منحى عملياً وترجم المستهلك العربي ترجمة وطنية ووجدانية مشاعر غضبه وكرر تبعاً لذلك إستعمال السلاح الذي لا قدرة لأحد على منعه من إستعماله، وهو مقاطعة كل ما هو أميركي. وما أكثر الأسباب، الصحية والذوقية في الدرجة الأولى، التي توجب الإستغناء عن البضائع والمنتجات الأميركية. كما يجب ان ينبري خريجو الجامعات الأميركية وما أكثرهم في الدول العربية، وكذلك ما أكثر المناصب المرموقة التي يشغلونها في الحياة العامة فضلاً عن حضور مرموق هو الآخر في ميادين الطب والهندسة والعلوم على أنواعها.. إلى إعداد البيانات الواحد تلو الآخر يسجلون فيها وبكثير من الوضوح والمنطق الرأي والتحذير والنصيحة، خصوصاً أنهم شهود على ما آلت إليه نظرة الرأي العام العربي إلى السياسة الأميركية.

ونحن عندما نطالب بذلك نستغرب كيف أن علاقة الشخصيات العربية، وبالذات الفاعل من هذه الشخصيات في الحياة العامة، لم تصل إلى حد تأمين إستقطاب أعضاء في الكونغرس الأميركي يتقدمون بمشروع قانون يطالب الإدارة الجمهورية بفرض عقوبات على إسرائيل بسبب عدوانها على الشعب الفلسطيني، أو اذا بدا ذلك صعباً فلتكن العقوبات لأن إسرائيل تفرض حصاراً على السلطة الوطنية الفلسطينية الذي من أجل تعزيز شأنها كان مؤتمر مدريد للسلام الذي إبتكره الرئيس الأسبق جورج بوش الأب، والذي من أجل تأهيلها لتكون الدولة الفلسطينية المتفاهم على قيامها كانت الإجتماعات والإتفاقات التي أبرمتها إدارة الرئيس السابق بيل كلينتون معها، وأبرمتها معها أيضاً حكومات أوروبية من بينها الحكومة البريطانية التي تتفرج على المحنة الفلسطينية ومن دون أن يرف لها جفن.

والأهم من هذا كله هو أن يسارع المقتدرون من عرب أميركا إلى إعارة المسألة الإعلامية الإهتمام. ومن شأن محطة تلفزيونية في الولايات المتحدة تخاطب الرأي العام الأميركي بكل الود والمنطق والحرص على المصالح وأيضاً من خلال المساهمة الفاعلة في صناعة السينما تنتج الافلام والمسلسلات التي تعطي فكرة جيدة عن العرب والتعايش والتسامح... ان من شأن هذه المحطة أن تقيد وتعزز

الدول العربية، عندما يرون أن هناك جدية في عمل هذا «اللوبي» وفي فعالية نشاطاته، فإنهم سيساندون بكل ما هو متيسر من الدعم المالي والسياسي. لقد اخذ الصراع العربي - الإسرائيلي منحى جديداً. وعلى هذا الأساس نقول: «يا عرب أميركا هذا زمنكم».

صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 1 مايو (أيار) 2002

* * *

السلاح العاجل والسلاح الآجل..

وبينهما الزيارة

على هامش العدوان الشاروني الشرير على الشعب الفلسطيني الذي أفاد من حيث أن المهمة العربية تملكت بعد طول إسترخاء، وأن الذاكرة العربية للقضايا الوطنية إستيقظت بعد طول إستسلام في الليل المضيء أحلاماً وردية بحسنات السلام ولا سلام.. على هامش هذا العدوان برز سلاح المؤازرة الرسمية والشعبية للشعب الفلسطيني، فبدا هذا السلاح من خلال المسيرات والمظاهرات والتباهي بوضع الشال الفلسطيني على الأكتاف وكذلك من خلال التبرعات كماً ونوعاً، بأنه بقوة السلاح الذي من الواجب أن تستعمله الجيوش العربية، ولكنها لا تستعمله لأن صيغة «السلام هو الخيار الإستراتيجي للعرب» يتقدم يوماً بعد آخر على صيغة «ما أخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة»، بل أن الصيغة الثانية باتت في «ماراثون» العمل العربي متأخرة جداً عن الأولى، ونكاد نقول إن أمرها في حكم المطوي حتى إشعار آخر، وإن كنا لا نظن في ضوء الجنوح العربي القوي نحو السلام، أن طي هذا الأمر سيطول، بعدما بلغت الإهانة الشارونية للإرادة الدولية والإستهانة المتزايدة من جانب الإسرائيليين ومن معهم مسانداً ومتهماً ومبرراً، للأمتين العربية والإسلامية الحد الذي بات قادتتهما يرون أن السلام كخيار إستراتيجي إستنفذ غرضه وأعطى من الوقت ما جعل إسرائيل تفسره على أنه ضعف وتهالك وليس حُسن نية ورغبة عربية مخلصنة في أن تسود المسرة في الناس ويستتب السلام على أرض المنطقة، التي إختارها الله سبحانه وتعالى لتكون أرض الرسالات ومهبط الأديان يخرج منها أنبيأؤه برسالات تنشر في أصقاع الدنيا مبادئ التعاون

والمحبة والتسامح والتعايش.

كان سلاح المؤازرة بشقيقه يبعث الطمأنينة في النفوس، فالذي سار في مظاهرة أبلغ شقيقه الفلسطيني أنه ليس وحده، والتي أطلقت هتافاً أبلغت شقيقتها الفلسطينية أنها شريكة محنتها ولو من بعيد، والذين قاطعوا البضائع الأميركية أبلغوا اشقاءهم الذين يقاسون مرارة العدوان الإسرائيلي والحصار المفروض على الناس في قرى ومدن الدولة الفلسطينية المرتقبة أنهم سيفعلون ما هو أكثر من ذلك، وأنه لو كان الأمر في أيديهم لكانوا قد إخترقوا الحدود وصمدوا مع الصامدين في مخيماتهم.

وما نقوله ليس تعابير إنشائية عامرة بالتعاطف، وإنما هي حقيقة الموقف كما أظهرته أيام المؤازرة العربية للشعب الفلسطيني. ونحن عندما نتأمل في الذي جرى في بعض الدول العربية وبالذات في المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات نجد أن حملة المؤازرة بصيغة التبرعات كانت بمثل حملات التطوع. والذي كان لافتاً للإنتباه هو هذه العفوية ونكران الذات في مسألة التبرع. وما كميات الذهب والمصوغات التي قدمتها النساء، والسيارات وصكوك ملكية المنازل والكتب والمقتنيات الثمينة عدا المبالغ المالية في شكل «شيكات» مصرفية أو نقد، إلا الدليل القاطع على هذا الإندفاع في إتجاه التبرع الذي لم يأت تعويضاً عن الدولة لأن هذه تقدّم للقضية من دون حساب وتمارس هذا الواجب منذ أن إنطلقت صرخة المقاومة، وإنما لشعور يصعب تشخيصه سوى أنه التأثير من وطأة الظلم التي طالت إخوة اشقاء من دون مبرر والإمتعاض من الدولة الصديقة الولايات المتحدة التي تأخذ أكثر مما تعطي، وعندما تكون هناك تمنيات عليها بأن تكون بحجم مكانتها وبأهمية دور الرعاية المناط بها فإنها تتصرف كما لو أنها دولة مسلوبة الإرادة يتحكم فيها هذا الصهيوني الشارد اربيل شارون مرغاً سمعتها بأحواله، ملطخاً وجهها في أوساخ سياسته وإعتدائه التي تعكس حقيقة مشاعر اليهود، عدا إستثناءات، نحونا كعرب ونواياهم الشريرة تجاهنا كأمميتين إرتضينا الحد الأدنى فجاء الرد إعتبار ذلك خوفاً وضعفاً.

وقبل الأيام التي ظهر فيها سلاح التبرع كم أنه قوي، كانت المساندة من المملكة العربية السعودية على مستوى القيادة ثابتة ومنظمة وفي منأى عن إستعمال هذا الواجب في أمور خلاقية عربية هامشية،

(نيسان) الماضي مسيرة تجاه الحدود المصرية . الفلسطينية مع قطاع غزة شارك فيها عدد من كبار رجال الدولة والوزراء ومسؤولي الهلال الأحمر المصري وأعضائه والمجلس القومي للمرأة وبرلمانيين وقيادات شعبية وتنفيذية. وقد استهدفت المسيرة تسليم كميات من المساعدات للشعب الفلسطيني بلغت قيمتها نحو تسعة ملايين جنيه مصري شملت مواد غذائية وأدوية ومساعدات طبية وسيارات إسعاف إلى ممثلي السلطة الوطنية الفلسطينية. وفي الإحتفال الذي اقيم في ختام المسيرة عند منطقة رفح المصرية الحدودية مع قطاع غزة ألقى سوزان مبارك كلمة قالت فيها: «أردنا أن تكون مسيرتنا تعبيراً قومياً وإنسانياً عن الأواصر العميقة والروابط الوثيقة التي تجمعنا بالشعب الفلسطيني. كما أننا نشعر بالتزام خاص تجاه المرأة الفلسطينية الشقيقة التي تعرضت لأقصى الظروف وأصعب التحديات...».

ما أوردناه كمحطات في موضوع سلاح المؤازرة ليس هو فقط ما حدث، فالشعب العربي تفاعل بعدما إنفعل، والحكومات تقيمت أهمية سلاح المؤازرة. ولم تبق دولة عربية من دون إشهار سلاح المؤازرة الذي من مصلحة الأمة أن تواصل إشهاره كسلاح عاجل في إنتظار السلاح الآجل إذا كان لا بد منه، رصاصاً أو نفطاً أو قطعاً للعلاقات، ومقايسة الإدارة الأميركية بحفاظنا على مصالحها مقابل إحترام إرادتنا وحقوقنا، وهو ما كان محور المصارحة التاريخية بين ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز مع الرئيس الأميركي جورج بوش وطاقت إدارته خلال الزيارة التي قام بها الأمير وأثمرت بداية إستدارة في العقل الرسمي الأميركي تقوم على أن بقاء الحال على ما كانت عليه حتى الجلسة الأولى من المحادثات هو من المستحيل.. أو من المحال على نحو اللفظ الشائع للعبارة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 8 مايو (أيار) 2002

* * *

تهم وتهجمات... وملفات غير نظيفة!

يحتار العربي في أمر المؤسسة السياسية التي تصنع القرار في الولايات المتحدة، وكيف أن هذه

بل أن القيادة من الملك فهد إلى أمير الرياض سلمان بن عبد العزيز الذي يتابع بحس قومي ووطني عال البرنامج الدقيق أصلاً لموضوع المساندة، تعاملت في هذا الموضوع تعاملاتاً تمتزج فيه النخوة بضرورات الأمن القومي الإستراتيجي. ثم جاء العدوان الشاروني لجعل المشهد يتطلب ما هو أكثر من المساندة الصوتية، ومن هنا بدأت حملة التبرع إستجابة لمبادرة إطلاقها وزير الداخلية السعودي الأمير نايف بن عبد العزيز، وهي مبادرة غير مسبوقة في العالم العربي لأن الشائع عن وزير الداخلية أن مهمته هي لحفظ الأمن من خلال مطاردة من يتظاهر وبصرف النظر عما إذا كانت المظاهرة محظورة أو مسموحاً بها، ثم جاء الأمير يطلق شخصياً حملة التبرع الشعبي، وتلقى هذه الحملة تجاوباً غير متوقع من حيث النخوة العفوية، وهي نخوة حملت بعض الأوساط في الإدارة الأميركية على الإحتجاج، وهذا متوقع بعد الذي شاهدناه عبر الفضائيات عندما رفض الفلسطينيون المساعدة المرسله من أميركا على الرغم من أن كل فلسطيني من سكان مخيم جنين الناجين من مجزرة شارون في أشد الحاجة إلى هذه المساعدة.

ما يلاحظه المرء في موضوع المساعدة السعودية يلاحظه أيضاً في مساعدة شعب دولة الإمارات ورئيسها. والمساعدتان تتدرجان تحت بند سلاح المؤازرة الذي هو السلاح العاجل في انتظار دخول السلاح الآجل ميدان الصراع، ونعني بهذا الآجل سلاح النفط ثم السلاح العسكري المألوف عندما تضطر القيادات، وبالذات عندما تجد أن السرطان الصهيوني سيتمدد ويدق ابواب الجميع وذلك في لحظة سكتة دماغية عابرة تصيب العقل الصهيوني بجنون نيروني. وبالإضافة إلى حملة التبرع التي إنتخى فيها الإماراتيون، رأينا رئيس الدولة الشيخ زايد «أبو المبادرات» الطيبة يرد على «أبو المجازر» شارون بالإعلان عن أنه سيتكفل بنفقات ترميم كنيسة المهدي في بيت لحم وبناء 800 وحدة سكنية في مخيم جنين مزودة بكافة مرافقها. ومن المؤكد أن هذا ليس كل شيء حيث أنه لا بد من إعادة بناء مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية.

ويجد المرء نفسه في هذه المناسبة يتمنى لو أن سيدات عربيات وبالذات اللواتي ازواجهن في موقع المسؤولية الأولى حذو السيدة سوزان زوجة الرئيس حسني مبارك التي قادت يوم الإثنين 29 أبريل

المؤسسة بتفرعاتها تتصارع حول قضايا كثيرة ويسود الخلاف بين هذه التفرعات حول أمور كثيرة إلا أن أفراد هذه المؤسسة متكاتفون ومتضامنون مع ما يرضي إسرائيل التي هي في استمرار على باطل ومعتدية. وضد ما يخص العرب وحقوقهم الذين هم دائماً على حق. يختار العربي ويتساءل: هل أن هؤلاء الأفراد مرتبون بالكامل للصهيونية ولذا فإن مواقفهم دائماً ضد الحق والحقيقة، أم أنهم غير مقتنعين بالنهج الإسرائيلي ومنزعجون من سلوك الحكومات الإسرائيلية إلا أنهم وما داموا يتطلعون إلى البقاء في مواقعهم، نواباً في البرلمان أو شيوخاً في مجلس الشيوخ، فإنهم لا يستطيعون الفكك من الشروط الإسرائيلية التي يتم فرضها عليهم من أجل الفوز بأصوات اليهود لتصب في صناديق الاقتراع. ومن أجل الرضى عنهم يأتيهم بشكل مساندات مالية واهتمامات إعلامية حيث أن الماكينة الأكثر تأثيراً في الولايات المتحدة ونقصد بها الماكينة الإعلامية من مقروء ومرئي، هي بين أيدي اليهود.

إلى جانب هذا الواقع هنالك ملفات العدد الأكبر من هؤلاء والتي تلوح الصهيونية بنبشها وكشفها في الوقت المناسب إذا كان هذا النائب أو ذاك «السناتور» لا يلبي المطالب والتي هي في معظمها ضد العرب. كما هنالك الاعتقاد بأن الصهيونية تختار في استمرار من بين الطامحين إلى العمل السياسي ليكونوا نواباً أو شيوخاً أو حكام ولايات أو رؤساء بلديات، الأشخاص الذين في تاريخهم علامات سوداء، الأمر الذي يعني أن هذا التاريخ غير نظيف وما دام كذلك فإن الاستفادة من مثل هؤلاء الأشخاص تتحقق عند الحاجة، أي بما معناه أن الصهيونية تهدد هذا النائب أو ذاك «السناتور» بالكشف عن تاريخه في حال أنه سيرفض التوقيع على عريضة تطالب الإدارة الأميركية بإزالة العقوبات في حق سوريا أو العراق أو لبنان أو إيران. كما أنها تهدد هذا النائب أو ذاك «السناتور» في حال أنه ستردد في طلب التصويت على قرار يخدم إسرائيل وبحيث تبدو، وهي المخطئة، أنها على حق، أو أن المعتدى عليه هو المسؤول وليس إسرائيل المعتدية.

وتعزيزاً لما نقوله هنا نشير إلى بعض الوقائع المؤكدة التي توضح نوعية هؤلاء الأعضاء في الكونغرس الذين يكيدون للعرب ولا يتركون إساءة إلا ويتم إلصاقها بكل ما هو عربي، وكل ذلك من أجل خدمة إسرائيل. فمن أصل 535 عضواً من الكونغرس

الذي يضم المجلسين: مجلس النواب ومجلس الشيوخ، هنالك 29 في تاريخهم تهمة ضرب نساءهم و7 في تاريخهم تهمة النصب و19 في تاريخهم تهمة إعطاء «شيكات» من دون رصيد و117 في تاريخ كل منهم تهمة تفتليس شركتين على الأقل و71 في تاريخهم أن سمعته لا تسمح بحصولهم على بطاقة إئتمان (الكريديت كارت التي هي رمز التعامل المالي في أميركا) و14 في تاريخهم تهمة تعاطي المخدرات و8 في تاريخهم تهمة السرقة والنشل من محلات و21 في تاريخهم دعاوى ضدهم لا تزال قائمة إلى الآن و84 في تاريخهم الحديث (أي العام 2001) تهمة قيادة سياراتهم وهم مخمورون.

وقد يقال هذه أميركا وهذا هو المجتمع الأمريكي وأن ما نراه سيئاً هو أمر طبيعي في بلاد العم سام. لكن من حقنا أن نقول بأن هؤلاء الذين يتصايحون ضدنا ويصل التصايح من جانبهم إلى حد الهستيريا والمطالبة بتطبيق أقصى العقوبات علينا بحجة أن العرب والمسلمين هم مصدر «الإرهاب» لأنهم يطالبون بحق مغتصب وحقوق مستباحة، أو بحجة أن مساعدات تقدمها هذه الدولة العربية أو تلك، أو تبرعات يجمعها هذا الشعب العربي أو ذاك لمؤازرة شقيقهم الفلسطيني الذي دمر له الشارونيون بيته وقتلوا أطفاله وشتتوا شمل عائلته إنما هي لخدمة «الإرهاب» و«الإرهابيين»، أو بحجة أن بضعة سطور نابعة من الوجدان كتبها السفير السعودي الشاعر الدكتور غازي القصيبي تمجيداً لـ «الجانداركية» الفلسطينية متمثلة في أشخاص المناضلات وفاء ادريس ونورا شلهوب ودارين أبو عيشة وآيات الاخرس وعندليب طقاطقة اللواتي وغيرهن وغيرهم من قبل ومن بعد يفتدون الوطن بأجسادهم، إنما هو نوع من التشجيع لـ «الإرهاب» ويستحق إنزال العقوبة بهذا السفير الشاعر كأن يتم كسر قلمه أو وجدانه أو قلبه لأنه يتصرف كإنسان ولأنه من الدولة التي ينسى أولئك الضالون أنها تحتضن الأماكن المقدسة، والتي إذا قررت كدولة وكشعب اعتماد الغضب لأصاب الهيبة الأميركية ما سبق أن أصاب الهيبة السوفياتية في المنطقة من قبل. ونحن عندما نستحضر المواقف كثيرة السوء التي يسجلها الكونغرس الأمريكي في حق القضايا العربية نجد أنه ليس هنالك موقف منصف واحد، وهذا يخالف قاعدة المنطق التي ترى أنه ليس هنالك أمور حسنة بالمطلق أو سيئة بالمطلق وإنما هنالك في كل من هذه

لكي يقول إنه لا يستطيع إتخاذ الخطوة العادلة في ما يتعلق بالصراع العربي - الإسرائيلي لأن سيف الكونغرس المتصهين بأكثرية أعضائه مسلط فوق رأسه. وهذا ما سمعه الأمير عبدالله من الرئيس بوش في صيغة ما.

ونخلص إلى القول إن الملف الشخصي لمعظم الذين يتجهمون علينا من على منبر الكونغرس وعلى صفحات الصحف ومن وراء الفضائيات وخلال مؤتمرات وندوات، لا يجيز لهم إعطاء الدروس والنصائح وبالذات بعد محادثات مزرعة «كراوفورد» وبيان قمة منتجع «شرم الشيخ» يوم السبت الماضي. إذ كيف يمكن لأي من هؤلاء، ومعظمهم مرتين أو برسم الإبتزاز، أن يكون منصفاً، لكي يكون كلامه مسموعاً ومقبولاً. ولقد أوجز الشاعر العربي الأمر بالبيت الذي هو من نوع ما قل ودل عندما واجه حالة مماثلة فإنتفض ليقول إن المذمة عندما تأتي من ناقص تكون بمثابة الشهادة للمذموم بأنه كامل... وفي ذروة الكمال.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 15 مايو (أيار) 2002

أبو عمار... والتصحيح إلتهاماً ومن دون عسر هضم!

في أعقاب هزيمة 5 يونيو (حزيران) 1967 إرتأى الرئيس جمال عبد الناصر لإطفاء نار الغضب في النفوس أن يوجه بياناً إلى الأمة بثه التلفزيون المصري والإذاعات قال فيه انه يتحمل مسؤوليته في الكارثة التي حدثت وأنه في ضوء ذلك قرر التنحي من منصبه كرئيس للجمهورية والعمل مع الشعب من أجل الثأر من الهزيمة. وقيل إن البيان الذي صاغه صديقه الكاتب والصحافي محمد حسنين هيكل تضمن فقرة تقيد بأنه يتحمل نصيبه من المسؤولية لكن عبد الناصر شطب العبارة ليبدلها بعبارة «أتحمل المسؤولية كاملة».

هذه اللفتة الذكية من عبد الناصر كان لها مردودها الطيب حيث أن الجماهير نزلت بعفوية إلى الشوارع تنادي ببقائه حباً له أو تقديراً لموقفه أو تعاطفاً معه أو خوفاً من المجهول.. لا فرق، مع الأخذ في الاعتبار

الأمر ما هو القاعدة وفيها ما هو الإستثناء. ولكن شيوخ ونواب الكونغرس لا ينظرون إلى الأمور إلأً بالعين الإسرائيلية. ومع أنه كان من المفترض بكثيرون زاروا المنطقة وأحدثهم بعض الشيوخ الذين وجدوا من الترحيب والكلام الموضوعي خلال زيارات قاموا بها إلى كل من العراق (قبل إجتياح الكويت) وسوريا ولبنان (قبل بضعة اسابيع)، أن يقفوا على منبر الكونغرس ويقولوا الكلام الذي يرضي الضمير والوجدان، إلأً أن هؤلاء كانوا ينتهزون الزيارات لتسجيل مواقف ضد هذه الدول التي زاروها، مع ملاحظة أن هذه الزيارات كانت تتم في معظم الأحيان قبل الإنتخابات الأمر الذي يعني أن الهدف من الزيارات لا يكون من أجل الإستطلاع النزيه وإنما من أجل ممالة الصهيونية لكسب الأصوات في الإنتخابات وتحقيق بعض المصالح.

وإذا جاز القول فإننا نرى الفرصة مواتية أمام الكونغرس لكي يعيد معظم أعضائه النظر في مفاهيمهم للقضايا العربية وذلك في ضوء زيارة ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز والمحادثات التي أجراها مع جورج بوش الابن في مزرعة الرئيس الأميركي في «كراوفورد» يوم الخميس 25 أبريل (نيسان) الماضي، وكذلك في رؤية الأمير التي إنتهت مبادرة أقرتها بالإجماع القمة العربية الدورية الثانية في بيروت يومي 27 و28 مارس (آذار) الماضي. ونقول ذلك على أساس أن تلك الزيارة اتسمت بأجواء فرضت نفسها عليها الحكمة التي عرض فيها الأمير عبدالله الأمور مع تركيز على المحاذير ورؤية في العمق لما يمكن أن تنتهي إليه الأمور في حال إستمرار الإنحياز الأميركي لإسرائيل. كما اننا نرى الفرصة مواتية أمام الكونغرس لكي يتأمل أعضاؤه وبمنظرة تتسم بالتعقل والحياد في البيان الذي صدر عن القمة المصرية - السعودية - السورية في شرم الشيخ يوم السبت الماضي وكيف ان الرئيسين حسني مبارك وبشار الأسد والأمير عبدالله بن عبد العزيز أوردوا في بيانهم ما سبق أن ارهقتنا الإدارة الأميركية وأعضاء الكونغرس، وبالذات من هم على درجة حادة من التصهين، بمطالبة صدوره. وفي هذا البيان أعلن القادة الثلاثة «رفض العنف بجميع أشكاله» وبذلك لا مجال من حيث المبدأ بعد الآن لأي كلام يتسم بالتجني يصدر عن أعضاء الكونغرس ولا حجة من حيث المبدأ لدى الرئيس جورج بوش الابن

أن كل هذه الحثيات قد تكون تفاعلت في نفس المواطن المصري. ثم إستجاب عبد الناصر الى هذه المشاعر الشعبية العفوية وإستمر في موقعه يحاول تصحيح ما يمكن تصحيحه بدءاً من قيادة الجيش المهزوم شر هزيمة مروراً بالمناخ السياسي السائد، وصولاً الى ترشيد العلاقات مع الآخرين، وعقلنة ظاهرة الصراعات بين مراكز القوى، ووضع دستور ثابت ينشر الطمأنينة في النفوس، ويكون القضاء هو السلطة التي لا سلاطين فوقها ويكون الجيش هو المؤسسة التي تعيد بناء القوة العسكرية وفق مفاهيم بعيدة عن الشلية وظاهرة مراكز القوى التي أصابت المؤسسة العسكرية بعدما كانت نخرت في جسم المؤسسات المدنية.

ومع أن حادثة إنتحار صديق عمره المشير عبد الحكيم عامر (دحلان تلك المرحلة ورجوبها) بعد محاولة من الرجل للإلتفاف على عبد الناصر وعلى من حوله، أحدثت شرخاً في صفوف الحكم المصري، إلا أن الإلتفاف الشعبي الذي إتسم بالعفوية حول عبد الناصر جعله يواصل تصحيح ما يمكن تصحيحه، وجعله وهذا هو الأهم، يسافر إلى الخرطوم للمشاركة في القمة العربية الإستثنائية التي عُقدت هناك وهو بنصف معنويات ثم عاد بمعنويات عالية جداً ومجبور الخاطر من العاصمة السودانية التي إستضافت قمة ما كان يحلم بها أحد. ثم تَوَاصَلَ العهد الناصري في مصر وفي إتجاه إعادة بناء الجيش لإزالة آثار العدوان إلى أن دنت لحظة الأجل وتوفي عبد الناصر عصر يوم 28 سبتمبر (أيلول) 1970 بعدما كان أنجز المصالحة الاردنية - الفلسطينية وودع بنفسه الملوك والرؤساء الذين شاركوا في القمة التي وضعت حداً للإقتتال بين القوات الأردنية والمقاومة الفلسطينية. وكان آخر المغادرين أمير الكويت (الراحل) الشيخ صباح السالم الصباح.

لمجرد مواراة عبد الناصر الثرى في الضريح الذي كان إختاره بنفسه في باحة مسجد يحمل إسمه ويقع على مقربة من منزله في منشية البكري والذي شهد ذات ليلة أعنف مواجهة بين صديقين (عبد الناصر وعبد الحكيم عامر) بحضور بعض الرفاق التاريخيين الذي قاموا بثورة 23 يوليو (تموز) 1952 ومن قصر القبة (قصر الرئاسة) الذي أدار منه شؤون البلاد والعباد طوال ثماني عشرة سنة عاصفة وحافلة بالصراعات والتحديات... لمجرد مواراة عبد الناصر

الثرى بدأ المصريون يتساءلون بينهم وبين أنفسهم: لماذا ترك عبد الناصر أمور البيت تصل إلى ما وصلت إليه؟ ولماذا لم يتنبه إلى أن الصورة التي رسمها الإعلام من جهة والقيادة العسكرية من جهة أخرى ليست وردية على الإطلاق؟ ولماذا إستدرج إسرائيل إلى الحرب وهو غير مستعد؟ ولماذا لم يضع حداً لعشرات الديناصورات داخل النظام؟ ولماذا لم يترك للقضاء هامشاً رحباً ولحرية التعبير مساحة واسعة؟ ولماذا هذا الهيلمان للمخابرات والمباحث يمارس سلاطينها ما في إعتقادهم أنه يحمي النظام من الأعداء فإذا بإسرائيل تنقض على هذا النظام من بوابة الأخطاء المتراكمة ومنها أن عبد الناصر لم يكن متنبهاً ما فيه الكفاية إلى ما يدور داخل البيت المصري مهتماً أكثر ببيت العالم الثالث والبيت العربي. ومع هذه التساؤلات التي أوردنا الجزء البسيط منها وعلى سبيل المثال لا الحصر، كان المصريون يعتقدون أنه لو صحح عبد الناصر أحوال البيت المصري وقصقص أجنحة الكثيرين وسارع إلى تقليم مخالب البعض ولم يعتمد القاعدة المقدسة في العالم الثالث وهي أن اهل الثقة يتقدمون على أهل الخبرة، لما كانت هزيمة 1967 حدثت، أو فلنقل أنها كانت لن تأتي على النحو الذي جاءت عليه، وإن كان الإعتقاد الراسخ هو أن الهزيمة يجب إلحاقها بعبد الناصر سواء تنبه أم لم يتنبه، أو إستدرج إسرائيل ام لم يستدرجها، أو صحح الخطأ المتراكم في المؤسسة المدنية والمؤسسة العسكرية والأمبراطورية الأمنية بجناحيها المخابرات العامة والمباحث أم لم يصحح. فالمستهدف هو شخصه وزعامته والهالة التي لا يمكن هزها إلا بهزيمة عسكرية كتلك التي حدثت يوم 5 يونيو 1967 وتعطيل قناة السويس التي هي بداية المجد الذي تحقّق له من جرّاء تأميمها. والتعطيل يكون بوصول الجيش الإسرائيلي إلى الضفة الشرقية لهذا المجزى المائي المهيّب والتمركز على هذه الضفة، وهذا ما حدث بالفعل وشكّل ما يجوز النظر إليه على أنه إعادة إعتبار لبريطانيا التي سبق أن أجلاها عبد الناصر عن القناة بفعل التأميم.

هذا ما بدأ المصريون يقولونه في مجالسهم. انما من دون الطعن بوطنية عبد الناصر، عدا حالات إستثنائية كان صوت الناقد والشامت عالياً وكانت المفردات القاسية في أحاديثهم وإحكامهم تستند إلى الضرر الذي إلحقته بهم الأجهزة ومراكز القوى في

من انه تنازل أكثر مما يجب وأخطأ أكثر مما يجوز وجعل المرونة إستراتيجية بدل أن تكون مجرد وقفات تكتيكية.

ما يقوله الفلسطينيون الشغوفون بالتظير في مجالسهم هو أن الذي أصاب القضية من عمان إلى بيروت الى رام الله ما كان ليصيبها لو أن ياسر عرفات لم يتصرف بطريقة جمع فيها بضعة أساليب من بينها الأسلوب الناصري والأسلوب الساداتي وخرج من جراء عملية المزج هذه بالأسلوب العرفاتي مع فارق أن الحصار الشاروني له وصموده في هذا الحصار جعل منه الزعيم الذي يجب على الفلسطيني أن يغفر له كل إجهاداته وكل إختياراته العشوائية للحلقات المحيطة به وبالأذات بعض رموز هذه الحلقات من أمنيين وسياسيين كانوا على أهبة أن يتعشوا «أبو عمار» فإذا به يتغدهم بالتصحيح، ويأتي الغداء إلتهاماً... ومن دون أي عسر هضم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 22 مايو (أيار) 2002

* * *

الديموقراطي العجوز في الجزيرة المحاصرة

ليس هنالك رئيس أميركي إنطبع إسمه في الذاكرة العربية مثل الرئيس الأسبق جيمي كارتر. فعلى يديه تم إقتراف إنتزاع الدولة العربية الكبرى مصر من متاعب الإنشغال بالقضية الفلسطينية والجنوح نحو السلم عكس الآية الكريمة التي تبدأ بـ «وإذا جنحوا للسلم...» وليس «وأجنح للسلم لكي يجنحوا له». وبسبب صفقة كامب ديفيد التي رعاها الرئيس كارتر والمصافحة التاريخية بين الرئيس أنور السادات ورئيس الحكومة الإسرائيلية مناحيم بيغن بحضور كارتر ورعايته ومغرياته وضغوطه، خرجت مصر من نفق الحرب التي طالما أرهقتها وبددت لها مداخيلها وما يقدمه الأشقاء المقعدون من مساعدات، ودخلت دهاليز السلام التي أثقلت منذ اليوم الأول، وما تزال، بالإحراجات ونقلتها من دولة صديقة للإتحاد السوفياتي بامتياز وبموجب معاهدة سرعان ما ألغاه الرئيس السادات، الذي أبرمها وفي نيته أن يُنَبِّهها بالإلغاء، إلى دولة متعاقدة بعلاقة إستراتيجية مع الولايات

الحقبة الناصرية طوال ثماني عشرة سنة. والذي شجعهم على ذلك أن الرئيس الخلف أنور السادات إستعمل ورقة الحريات ليثأر بها من عشرات ديناصورات الحقبة الناصرية الذين طالما إستهانوا به، فضلاً عن أنها ورقة لها شعبيتها وتلقى من الناس القبول والإرتياح، علماً بأن توظيف المتضررين من الحقبة الناصرية لهذه الورقة وضع الرئيس أنور السادات في دائرة الظن بأنه ضمناً مع التجريح بالحقبة الناصرية وشكلاً ضد ذلك.

قطع الرئيس السادات شوطاً في ما يتعلق بورقة الحريات، إلا أنه بدأ بعد ذلك يُشَدِّبها على طريقته فوجد نفسه يقع في ما سبق أن وقع به الرئيس السلف. وجاء بعد ذلك الرئيس حسني مبارك، وفي أعقاب إغتيال السادات في حادث المنصة الشهير، يبدأ عهده بتصحيح التصحيح الساداتي للأسلوب الناصري حيث أفرج عن أهل الفكر والسياسة وبعض رجال الدين المسلمين والمسيحيين الذين حشرهم السادات في المعتقل. وهو حتى الآن يواصل عملية التصحيح.

ما حدث لمصر وعبد الناصر ثم لمصر والسادات، يحدث مع بعض التعديلات الجزرية للقيادة الفلسطينية في أعقاب العدوان الشاروني غير المسبوقه شرارسته على نحو ما تابعناه على الفضائيات. ومن حسن حظ الرئيس ياسر عرفات أن هذا العدوان بكل تفاصيله وأساليب تنفيذه حدث بينما هو في الداخل وليس خارج أراضي السلطة الوطنية لأنه بذلك كان سيبدو مجرداً من أي دور، فلا هو إلى جانب الشعب ولا هو في الخارج قادر على أكثر من التقل من عاصمة عربية إلى أخرى وإلى بعض عواصم الدول الصديقة.

وما يقال في شأن حسن حظ التواجد داخل فلسطين وليس خارجها منذ أن بدأ العدوان الشاروني ووصل إلى حد الجرف والتدمير والإغتيال وتقطيع الأوصال، يقال أيضاً في شأن محاصرة عرفات، بمعنى أن حصاره على رغم مراراته وعذابات أفاد لأن تعذيب الهيبة العرفاتية باتت بذلك جزءاً من العذاب الفلسطيني العام، فضلاً عن أن الحصار كحالة والتعامل العرفاتي مع هذا الحصار والأجواء التي رافقت الحصار والعبارات التي أطلقها الرئيس الفلسطيني والتي تحولت إلى لازمة نضالية ومنها قوله «يُريدونني قتيلاً أو طريداً. لا، أنا أقول لهم: شهيداً. شهيداً شهيداً شهيداً» ساهمت في إظهار أبو عمار على أنه الشهيد الحي وأفادت في نفخ غبار الإتهامات التي علفت بكوفيته

المتحدة تحكمها إتفاقات تتعلق بالتعاون العسكري تسليحاً وتدريباً ومناورات مشتركة ومساعدات يذهب معظمها ثمناً للتسليح.

بعد سقوطه أمام المرشح الجمهوري الآتي إلى السياسة من الصف الثالث بين نجوم هوليوود رونالد ريغان إنصرف كارتر إلى الإهتمام بمزرعة الفستق التي يملكها من دون أن يفقد شغفه بالعمل السياسي، إنما من خلال المتابعة، وذلك لأن الإدارة الجمهورية لم تمنحه أي فرصة لكي يتابع صفقات السلام التي توقفت عند معاهدة كامب ديفيد بين السادات وبيغن، لأن الفلسطينيين رفضوا الإنحياز إلى السادات كما كان يأمل ولأن العرب وقفوا ضدها إلى درجة إسقاط عضوية مصر في الجامعة العربية بدل إسقاط معاهدة كامب ديفيد كما هو المفترض. وبإستثناء بعض الإجتهاادات من جانبه بخصوص فتح قنوات إتصال من جانب الإدارة الأميركية مع منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت إستقرت في تونس، فإن هموم الفستق وأسعاره إستمرت غالبية على الإهتمامات السياسية عند كارتر، إذ كيف سيهتم ما دام مجرد رئيس سابق وغير مكلف بمهام تجيز له التحرك والتعاطي مع الشأن السياسي العربي الذي يتوق إليه لإستكمال الدور التاريخي الذي قام به وإنتهى إلى أول معاهدة سلام بين دولة عربية وإسرائيل، والشأن الدولي الذي يمكن بفضله أن يستمر داخل دائرة الضوء.

بات لكارتر حضور متدرج مع عودة الحزب الديمقراطي الى الحكم من خلال الرئيس بيل كلينتون، الذي ألحق هزيمة ماحقة بالجمهوري جورج بوش على رغم المكاسب التي جناها لأميركا جزاء الحرب على العراق، ومؤتمر مدريد للسلام الذي أراده خطوة تاريخية أهم بكثير من الخطوة التي أنجزها كارتر متمثلة بالمعاهدة المصرية - الإسرائيلية. وبتنا نلاحظ ذلك الحضور الذي نشير إليه في عهد (الديمقراطي الشاب) بيل كلينتون الذي أوكل إلى (الديمقراطي العجوز) مهمة في السودان حاول الرئيس الأسبق إنجازها بامتياز بسبب اقتناعه بأن من نجح في جعل السادات وبيغن يتسالمان لا يعود صعباً عليه جعل جون قرنق يتسالماً مع سودان الرأسين الترابي - البشير، وذلك قبل أن ينتهي الأمر إلى أن البلد محكوم بالرأس الواحد الذي هو الرئيس الحالي الفريق أول عمر حسن البشير.

بطبيعة الحال لم ينجح كارتر في السودان بما فيه

الكفاية لأنه لم يأت محايداً، ولأن عاطفته إزاء التوجه الذي يعتنقه كعقيدة الدكتور قرنق تغلبت على عقله إزاء المنطق التوحدي الذي يطرحه الحكم في الشمال. وبعد هذه المهمة لم يعد كارتر يظهر في صورة الموقف السياسي الأمريكي واقتصر ظهوره على المناسبات التقليدية الرئاسية ومنها «تتويج» جورج بوش الابن زعيماً لمقارعة «الإرهاب». ثم وصل فجأة الى هافانا يوم الأحد 12 مايو (أيار) 2002 ضيفاً على الثوري العجوز فيديل كاسترو الذي يحكم كوبا منذ عام 1959، اي بما معناه انه في حال أمّد الله بعمره سبع سنوات فانه سيحتفل في العام 2009 ببوبله الذهبي، ويكون في هذه الحال ذلك الثوري الوحيد في العالم الذي يحظى بهذا التفرد ويكون الثاني بعد الملكة اليزابيث الثانية التي أنجرت يوبيلها الذهبي وتجه نحو الماسي.

لم يأت كارتر سائحاً لأنه يريد أن يكحل عينيه بحقول قصب السكر في الجزيرة التي تبعد بضعة أميال عن الشاطئ الأمريكي ويريد أن يرى كيف يصنعون في الجزيرة أرقى أنواع السيجار، ولا هو أتى لكي ترى زوجته روزالين هذه الجزيرة التي بدأ الماركسي فيديل كاسترو يحكمها من قبل أن يصبح زوجها رئيساً بثمانى عشرة سنة، وبانت بفضل كاسترو من جهة ورفيق نضاله تشي غيفارا من جهة ثانية قبله أنظار الثوريين في أميركا الفقيرة (اي أميركا اللاتينية) وأنظار أحيال من الشباب في معظم دول العالم من بينهم أجيال في الولايات المتحدة نفسها.

لم يأت كارتر الذي يترأس مركزاً في «اتلانتا» بولاية «جورجيا» يحمل إسمه ويتعلق نشاطه بـ «مساعدة الدول في إجراء إنتخابات نزيهة وعادلة»، على الجزيرة المحاصرة من جانب بلاده منذ أربعة عقود كسائح ولا كمتبرع للقيام بمهمة إنسانية، وإنما جاء بعلم الإدارة الأميركية التي إستبقت زيارته بإتهام كوبا بأنها تقوم بعملية تطوير تكنولوجية للأسلحة البيولوجية. كما أنه جاء وفي باله أنه سيصحح خطيئة الحصار المفروضة على شعب طوال أربعين سنة. وفي هافانا لقي كارتر ما يرضي مشاعره التوافق الى دور ينهي به حياته، بحيث لا يغادر الدنيا كواحد من ملوك الفستق السوداني في أسواق أميركا والعالم، وإنما كمصحح لأوضاع شاذة من بينها حصار الستينات على كوبا أملاً في أن يصحح بعد ذلك حصار التسعينات على العراق.

المفروض على كوبا، مطالباً إياها بأن «تعتق الديمقراطية والإقتصاد الحر...» أولاً، وهو موقف طبيعي من إدارة بوش التي تتحسب لما قد يترتب على قبولها بدعوة كارتر من نتائج ليست مستعدة لمواجهتها في الظرف الراهن.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 29 مايو (أيار) 2002

* * *

شبه مفاجآت مغربية

أنجزت تونس الخضراء يوم 26 مايو (أيار) 2002 وبكل الهدوء نقلة دستورية من النوع الذي توضع تحت معظم التعديلات التي جرت في هذا الشأن خطوط كثيرة. ويوم 30 من الشهر نفسه كانت الجارة المدماة، الجزائر، التي لا يتوقف التخاطب الدموي البشع فيها، على رغم تعداد العهود وتنوعها، تشهد إنتخابات طغت صدمة المقاطعة من جانب من إفترض الرئيس عبد العزيز بوتفليقة أنهم سيكونون السابقين إلى المشاركة على آمال الجزائريين عموماً بأن تكون هذه الإنتخابات هي المرحلة التي يخرجون فيها من دهاليز الصراع العبيث والمطاردة الدموية والانتقام في أقسى بشاعته، إلى مناخ جديد تظله أجواء من الإستقرار والطمأنينة وإستبدال الثأر بالتعايش والتركيز على المستقبل الأفضل بدل مواصلة التناحر على الواقع الأسوأ.

وقد يجوز القول إن الله سبحانه وتعالى أسبغ على التونسيين نعمة التعامل مع الأمور بنسبة عالية من الرضى بما يكتبه الله وبما يفعله أولو الأمر، ومن أجل ذلك جاء الإستفتاء الذي جرى يوم 26 مايو الماضي هادئاً وكانت المشاركة فيه من النوع الذي يرضي، كما أن نتائجه أتت من حيث لا مجال للمفاجأة وأتت منسجمة مع ظاهرة الإستفتاءات في العالم العربي، وهي ظاهرة توجب على المرء أن يتأمل في هذا الإصرار على أن تكون النسبة قريبة من الإجماع. كذلك قد يجوز القول إن الله سبحانه وتعالى الذي إختبر صبر الجزائريين طوال بضعة عقود كانت البلاد فيها تقاسي من الإستعمار الفرنسي ما لم يكابده شعب من قبل وكابده شعب واحد من بعد هو الشعب الفلسطيني، هو جلت قدرته يضع شعب الجزائر تحت

في بداية الزيارة تفقد كارتر ذلك المختبر البيولوجي الذي كان مجرد إعلان الإدارة الأميركية عنه قبل أسبوع من الزيارة، بمثابة تفشيل أو تفويض لها. وأتيح له الإجتماع بمنشقين كوبيين يطالبون كاسترو بإصلاحات سياسية ودستورية. وأجيز لكارتر أن يتحدث أمام طلاب جامعة هافانا وأن يسجل إنتقادات للنظام الإشتراكي الذي لا يسمح بالمعارضة مطالباً بإعتماد الإستفتاء على التغيير السلمي خصوصاً أن الدستور الكوبي يسمح بإجراء إستفتاء على الإصلاحات الداخلية. إلا أنه في الوقت نفسه طالب الإدارة الأميركية الحالية برفع الحصار المفروض على كوبا تمهيداً لعودة العلاقات الى طبيعتها بين البلدين.

إلى ذلك، يبدو أن الإدارة الجمهورية أزعجها أن الإستقبال الرسمي والشعبي الذي جرى لكارتر في هافانا كان من حيث الأهمية بدرجة الإستقبال الذي جرى للبابا يوحنا بولس الثاني في العام 1998. وأزعجها أن الحكومة الكاستروية مارست الكثير من المرونة ازاء الزيارة، ومن ذلك أن وسائل الإعلام الرسمية الكوبية نشرت للمرة الأولى نصاً حرفياً لخطاب زائر أجنبي يتضمن وجهات نظر مخالفة لآراء الحكومة الشيوعية. كما أزعج الإدارة الجمهورية الحالية أن يكون كارتر (الديمقراطي العجوز) هو أول رئيس أميركي حالي أو سابق يزور الجزيرة منذ العام 1928 عندما زارها كالفن كوليدج. وأزعجها أن كارتر يعزز بهذه الزيارة ما سبق أن بدأه في عهده (من 1977 إلى 1981) عندما أعاد تأسيس تبادل التمثيل الدبلوماسي بين البلدين والتفاوض على الإفراج عن آلاف السجناء السياسيين في كوبا، كما سمح للمبعدين الكوبيين بزيارة عائلاتهم في الجزيرة وللاُميركان بالسفر بحرية إلى كوبا، وهي إجراءات تراجعت الإدارات الأميركية اللاحقة عنها.

أخيراً، يبدو أن إدارة بوش أزعجها أن فيديل كاسترو تعامل مع كارتر على أنه رئيس يمارس الحكم وذلك عندما كان على رأس مستقبله في مطار هافانا، مثلما أزعجها أن كارتر ألمح في تصريحات إلى أن الخبراء الأميركيين الذين تحدّث إليهم نفوا الإتهامات الرسمية الأميركية في شأن التطوير البيولوجي.

وفي ضوء هذا الإنزعاج لم يلق التقرير الذي رفعه كارتر إلى الرئيس بوش قبل أن ينطلق الأخير في زيارته إلى أوروبا، الرضى والتقدير، فأعلن البيت الأبيض رفض الدعوة التي أطلقها كارتر لرفع الحصار

إقبال الجزائريين على الترشيح كان نسبياً أكثر أهمية من إقبالهم على الإقتراع. فالذين خاضوا المعركة كانوا 10052 مرشحاً موزعين على 943 قائمة إنتخابية منها 814 قائمة حزبية تمثل 23 حزباً سياسياً و129 قائمة تمثل المستقلين. لكن كل ذلك لا يخفف من وطأة أن المعركة لم تكن معركة الثمانية عشر مليون ناخب، وهو رقم من يحق لهم الإقتراع، وإنما كانت معركة إنتخابات تخص بعض الجزائر وليس كلها.

هل يصمد مثل هكذا برلمان؟ أم هل يقرر الرئيس بوتفليقة إجراء ملحق للإنتخابات وضمن صيغة توفيقية أو صفقة يتم إبرامها بين الجزائر العربية والجزائر البربرية وذلك على أساس أن الرئيس جاء توحيداً ولا يريد للصفحة الأخيرة من كتاب حكمه أن تكون انفصالية؟

من خلال التأمل في النتائج التي آلت إليها الإنتخابات يمكن القول إن البوتفليقية نجحت من حيث أن حزب «جبهة التحرير الوطني» التي هي الثورة وهي الإستقلال حقق حضوراً بالغ الأهمية حيث أنه بعدما كان له 68 مقعداً قبل بوتفليقة، أي في إنتخابات 1997 التي إنتهت بالجزائر إلى ما إنتهت إليه على صعيد الإستشراس في الحوار، بات له في عهد بوتفليقة 199 مقعداً وهو صعود بارز يقابله أن الإسلاميين تناثروا بحيث لم يعد صوت هؤلاء بالعلو الذي كان عليه بعدما تراجع تمثيلهم مجتمعين في البرلمان البوتفليقي إلى 82 مقعداً بعدما كانوا في البرلمان السابق 103 مقاعد. ويقابل صعود الحزب التاريخي أيضاً أن «التجمع الوطني الديمقراطي» الذي إفترض زعيمه أحمد أويحيى أنه قد يشكّل الصيغة المستقبلية للجزائر التي أرهقتها شيخوخة «جبهة التحرير» والحدة الصارخة لشيوخ الإسلاميين والرفض الإستفزازي من جانب صقور المؤسسة العسكرية لطروحات هؤلاء الشيوخ مُني بإنتكاسة قوية حيث أنه بعدما كان يتمثل في البرلمان السابق بـ 155 مقعداً، مما يعني أنه الشريك الرئيسي في أي إئتلاف، لم يحصل في الإنتخابات الجديدة على أكثر من 48 مقعداً يقابل ذلك صعود مذهل للتروتسكيين الذين تتصدرهم لويضة حنون حيث أنهم فازوا بـ 21 مقعداً بعدما كانت حصتهم في البرلمان السابق أربعة مقاعد فقط. وهذا الفوز لتروتسكيي الجزائر قد يبدو مشجعاً لرفاقهم في فرنسا الذين حققوا ومن خلال خوضهم الجولة الأولى من إنتخابات الرئاسة الفرنسية بزعيمتهم

الإختبار مرة أخرى لعل الحكمة تطرق عقل هذا الشعب ولعله يفتح العقل أمام الطارق الحكيم فتستقيم الأمور عنده ولا تعود حاله على نحو ما هي عليه الحال إلى حد ما في لبنان. وما نعينه هنا يتعلق تحديداً بظاهرة مقاطعة الإنتخابات التي إستعملها بعض رموز الطائفة المارونية كسلاح ضغط في وجه الحكم على نحو مقاطعة الولايات القبايلية في الجزائر للإنتخابات، وكأنما الذي فعله الرئيس بوتفليقة، وما كان لأحد غيره أن يفعله، لا يشكل حافزاً لهؤلاء المقاطعين، أو كأنما هؤلاء يعملون وفق مفاهيم تبدو كما لو أن في النية أن تكون الجزائر إثنيتين كما كانت حال اليمن من قبل وأن يستتبع ذلك إنتعاش صراع الثقافتين. وما سبق أن فعله بوتفليقة هو أنه غامر واتخذ قراره الشهير بإعتبار اللغة الأمازيغية لغة رسمية. ولكن إخواننا القبليين يتطلعون على ما يبدو إلى خطوة انفصالية من دون أن يأخذ هؤلاء في الإعتبار أنه لا حياة لهم في ظل مثل هذا الخيار. وهم في ذلك مثل أخواننا في جنوب السودان الذين يعيشون وضعاً مماثلاً ويستعذبون كابوس التمرد بقيادة جون قرنق مفضلين ذلك على محاسن التعايش في البلد الموحد. ومن المفارقات أن البلدين هما قارتا العرب حيث السودان هو في حدود المليون كيلومتر مربع والجزائر في حدود المليونين وكما لو أن هذا الإتساع يثير لعب دعاة الانفصال على أساس أن تداعيات هذا الانفصال لا تبدو على بلد مثل الجزائر أو السودان في حين أنها ستتخذ منحى صاعقاً في حال أصيبت المملكة المتحدة، على سبيل المثال، بداء الانفصال نفسه على نحو ما يتردد الحديث حول ذلك بين الحين والآخر، وبحيث تقرر سكوتلندا ووايلز الانفصال وتحسم إيرلندا الأمر الذي هو موضع أخذ ورد وبذلك تصبح المملكة المتحدة غير متحدة وتبقى مملكة إنما من دون جناحين.

ولا ندري كيف سيعالج الرئيس بوتفليقة الأمر بعدما إنتهت الإنتخابات إلى أنها ليست شاملة كل الجزائر وأن نسبة المقاطعة لها أكثر مما يمكن لرئيس مخضرم مثل بوتفليقة أن يتحملة. وعلى رغم تمديد ساعات فتح صناديق الإقتراع ساعتين على الموعد المحدد وأيضاً على رغم الأجواء الطيبة التي أرادها الرئيس الجزائري لهذه الإنتخابات، فإن الإنتكاسة حدثت وإنتهى الأمر إلى الإنتخابات التي خاض مقاعدها الـ 389 عدد هائل من المرشحين بحيث يحتار المرء في أمر أن

حضوراً لافتاً، بحيث يعوضون في الانتخابات التشريعية ما يستحيل تحقيقه في الانتخابات الرئاسية. ولكن الذي يلفت الإنتباه أكثر من أي أمر آخر هو هذا التزعم الأنثوي للتروتسكية في كل من الجزائر وفرنسا.

وقد يقال إن مقاطعة الجزائر البربرية للجزائر البوتغليقية يعربية والتي وصلت نسبتها إلى النسبة التقليدية المدهشة لنتائج الإستفتاءات العربية عموماً هي التي حققت هذا الفوز المبهز للجزائر يعربية، حيث أن ألوف الجزائريين الذين كانوا مترددين في مسألة التصويت للصالح البوتغليقي، أي لحزب «جبهة التحرير الوطني» رأوا في لحظة تخوف من التداعيات الناشئة عن المقاطعة البربرية ضرورة الإقتراع لمرشي الحزب التاريخي وكانت حالهم في ذلك مثل حال الاشتراكيين والشيوعيين في فرنسا الذين أحدث لهم اليميني جان ماري لوبن حالة ذعر عندما حل ثانياً في الإنتخابات الرئاسية فقرروا الإقتراع في الدورة الثانية لمصلحة شيراك، ونقل الرئيس عبد العزيز بوتغليقة من موقع من يدير أزمة ويستعد للمغادرة أو حتى لإختصار الولاية على نحو ما حدث للرئيس السلف اليمين زروال، إلى الرئيس الصامد الذي قد تستوجب مقتضيات الإستقرار والإستنهاض التجديد له بإستفتاء على نحو ما حدث في الجارة تونس للرئيس زين العابدين بن علي حيث جاءت نتائج الإستفتاء على إقرار التعديلات الدستورية بالنسبة التي جاءت عليها (99.52 في المائة) أي أقل قليلاً من مئة في المئة تجيز له البقاء في الحكم الذي يتربع على سدته منذ العام 1987 خلفاً للرئيس بورقيبة الذي أنهيت رئاسته بسبب الشيوخة وكثرة جولات الصراع بين بورقيبي الصف الثاني الذي يرى كل منهم أنه «المجاهد الأصغر» الذي يجيز له تاريخه الحزبي والسياسي خلافة «المجاهد الأكبر».. أي بورقيبة. وللتذكير فإن نتائج هذا الإستفتاء الذي هو الأول من نوعه في تاريخ تونس منذ الإستقلال عام 1956، تشبه تلك التي حصل عليها الرئيس بن علي رئيساً لدى إعادة إنتخابه لولاية ثالثة من خمس سنوات في العام 1999 عندما أعلنت وزارة الداخلية أن النتيجة كانت 99.44% في المئة. للتذكير أيضاً فإن الرئيس بن علي سارع لمجرد تسلمه مقاليد الحكم إلى إلغاء الرئاسة مدى الحياة التي أقرها الرئيس (الراحل) بورقيبة. بعد ثلاثة أشهر سيكون الجار الثالث، المغرب،

على موعد هو الآخر مع الإنتخابات البرلمانية الأولى في عهد الملك محمد السادس. ولكن عنصر المفاجأة في مملكة الجناح المغاربي من الأمة ليست واردة إلا في حال أن الرأي العام المغربي يريد أسلوباً جديداً لإدارة البلاد غير الأسلوب الذي إعتمدته الحكومة التي ترأسها المعارض عبد الرحمن اليوسفي، وكان الملك الراحل الحسن الثاني بعيد النظر في إعتماد هذه المعادلة التي بات من الصعب بموجبها التمييز في المغرب بين من هم الذين يعارضون ومن هم الذين يوالون، وتلك معادلة مثالية لمن ينشد الإستقرار لبلده... قولاً وفعلاً في الوقت نفسه.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 5 يونيو (حزيران) 2002

القعمور... «فلوريدا» اللبنانية!

أنقذت بلدة لبنانية تتدرج ضمن مئات البلدات المحرومة من المدرسة والطريق المسفلت والخدمات موسم الإصطياف الذي ينتظره اللبنانيون بفارغ الصبر ويشاركهم إخوانهم الخليجيون هذا الإنتظار، لعل هذا الموسم ينقذ ما يمكن إنقاذه من حالة الكساد الإقتصادي المستشرية في لبنان ولا تعود بعض المصالح مهددة بالإغلاق أو الإفلاس، ويعوض عشرات العائلات الخليجية حر الصيف اللاهب وهي التي أعادت النظر في الأماكن التي تقصدها للسياحة وتمضية إجازة الصيف منذ العملية الترويحية يوم 11 سبتمبر (أيلول) الماضي والمنغصات ذات الطابع الإستفزازي والإنتقامي، فضلاً عن أجواء الظنون في معظم الدول الغربية وأولها الولايات المتحدة التي قضت بإعتبار كل عربي أو مسلم إرهابياً حتى يقتنع المتجنون الجناة بأن الإرهابي قابع في مكان ما من إدارة ما في بعض دول الغرب نفسها.

بل ليس مبالغة القول ان تلك البلدة اللبنانية وجل سكانها من الطائفة المارونية ومن المستقيمي الرأي حالت عن طريق الصدفة، ومن دون أن تخطط لذلك، دون حدوث فتنة كبرى أين منها تلك الفتن المعقدة في التاريخ اللبناني الحديث. وعلى رغم عامل الصدفة فإن أبناء هذه البلدة باتوا سعداء بما حققته الصدفة. وهؤلاء القانعون بحياة بسيطة والذين ذاع صيتهم على أنهم

قُطِّفَ عناقيد أشجار الصنوبر التي من أجلها تقصد العائلات الخليجية المنطقة التي تقع فيها البلدة نفسها بهدف إستنشاق هواء نقي، والتي في ضوء المحاسن الصحية لهذا الإستنشاق تزايد عدد العائلات التي إشترت منازل لها في هذه البقعة الجميلة من لبنان التي ما زالت في منأى عن التلوث... إن هؤلاء تحولوا إلى حديث الناس في مجالسهم وباتت بلدتهم بمثابة التيممة بالنظر إلى ما آلت إليه الأمور.

تبدو البلدة التي نتحدث عن الدور - الصدف الذي لعبته منسية ينتظر أهاليها موسم الصيف لتسويق حبوب الصنوبر فضلاً عن العنب والتين وأخشاب السنديان وأشجار الصنوبر التي تكون شاخت لكي يستعملها أصحاب «الفيلات» في المنطقة في مدافئ صالونات بيوتهم خلال أيام البرد القارس. ولو كان ديناصورات الصراع على من يرث المقعد النيابي عن الطائفة الأرثوذكسية الذي خلا بوفاة الدكتور البير مخير أحد أبرز المعارضين المسيحيين المنسجمين مع ما يقتنعون به سواء ما يخص صيغة إتفاق الطائف أو في ما يتعلق بالوجود السوري ودور «حزب الله»، يدرون أن أصوات الناخبين في هذه البلدة هي التي ستحسم أمراً في منتهى الأهمية وتحول دون فتنة من الصعب التكهّن في خطورة تداعياتها، لكان الديناصورات هؤلاء طلبوا ودها وأسبغوا عليها من الوعود والعطايا ما ينقلها من خانة «الجنوب المتني» الفقير إلى خانة «الشمال المتني» المزدهر.

على مقربة من أشهر بلدين في المتن هما «برمانا» عاصمة الإصطياف اللبناني والخليجي وجارتها «بعيدات» بلدة الرئيس إميل لحود، تقع بلدة «العقور» التي يوحي إسمها بأنها بلدة درزية مع أنها إحدى القلاع الصغيرة في الطائفة المارونية. يبلغ عدد الناخبين فيها حوالي ألف صوت. وحرصاً من هؤلاء على التوازن فإنهم في الإنتخابات يوزعون هذه الأصوات على رموز مراكز القوى في المنطقة. ولكن الإنتخابات لملء المركز الذي خلا بوفاة المتني العريق الدكتور البير مخير إنتهى أمر خوضها إلى سابقة من الصعب حدوثها إلا في لبنان بلد الغرائب والعجائب الإنتخابية والسياسية، حيث أن ميشال المر، الذي يريد تكريس نفسه زعيماً أوحده للطائفة الارثوذكسية بأمل أن يكون لاحقاً زعيماً لكل مسيحيي لبنان معتمداً في ذلك على علاقته الوثيقة بالحكم السوري وعلى أن ابنه وزير الداخلية الياس المر متزوج من ابنة رئيس

الجمهورية إميل لحود، خاض بإبنته ميرنا التي تشغل رئاسة تجمّع بلديات منطقة المتن المعركة ضد شقيقه الأصغر منه المتخاصم معه والذي تربطه علاقات وتحالفات مع كل خصوم ميشال المر المتتيين وأيضاً مع العماد ميشال عون رمز المعارضة المارونية المهجر إلى فرنسا والمقيم فيها منذ سنوات. وسبق إجراء الإنتخابات يوم الأحد 2 يونيو (حزيران) على المقعد الشاغر تحديات وشراسة وجارات وتصريحات إتسمت بالاسفاف في لغة التخاطب التي إعتمدها البعض وإنتهى الأمر إلى أنه في نهاية يوم الإنتخاب أعلن الشقيق الأكبر فوز إبنته وأعلن الشقيق الأصغر فوزه ثم عززت شهادة قيد إنتخابية فوز هذا الشقيق الذي يلتف حوله كل باغضي الشقيق الأكبر والناقمين على هيمنته على المنطقة وتأهيل ابنه لكي يواصل، ومن خلال تجربته للمرة الأولى كوزير للداخلية، الهيمنة من بعده. وكان لافتاً للإنتباه أن الفرق في الأصوات هو ثلاثة فقط الأمر الذي أغضب الأب والإبن وزير الداخلية على حد سواء فحدث نوع من الأخذ والرد حول إشكال لا يصل إلى مرتبة المخالفة ويتعلق بعدم توقيع ناخب بعدما أدلى بصوته. وبذل أن يعتبر وزير الداخلية أن الأمر لا يستحق التوقف عنده وأن المصلحة العامة يجب أن تتقدم على المشاعر الشخصية ويتم إعلان فوز العم المعارض بالمقعد النيابي، فإن الوزير لم يذع النتائج رسمياً ومن دون إذاعتها يبقى الأمر عالقاً بمعنى أن هنالك فائزين أو فائزاً وفائزة في الوقت نفسه.. وعلى نحو ما حدث في إنتخابات الرئاسة الأميركية عندما كان هنالك وبسبب صناديق فلوريدا مرشحان فائزان هما جورج بوش الابن (الجمهوري) وآل غور (الديمقراطي). وهو لم يذع النتائج مراعاة منه لزعامة والده وتعاطفاً من جانبه مع شقيقته التي كان الوالد سيهدها مقعداً نيابياً تحفظه مؤقتاً لشقيقها الوزير بعدما لا يعود وزيراً للداخلية في حكومة لاحقة خلال عهد الرئيس لحود أو في العهد الجديد بعد ثلاث سنوات.

لكن ما يشبه أجواء إنتفاضة بدأت ترتسم في الأفق نتيجة أن الفريق المعارض إعتبر أن هنالك خطة تقضي بـ «سرقة الإنتصار الذي حققه» مصراً على أن مرشحهم، أي غبريال المر، هو الفائز وليست ابنة شقيقه ميرنا، وأن حجة عدم توقيع أحد الناخبين على الجدول بعدما أدلى بصوته إنما هي حجة لا تخلو من الشبهات وأن عدم التوقيع هذا ليس أكثر من ذريعة لـ

«سرقة الإنتصار». وأعلن الفريق المعارض، الذي يمتلك خبرة في تجييش الرأي العام الماروني، ما يشبه النفي وهدد أقطابه من نواب في البرلمان ووزراء في الحكومة بأنهم سيستقيلون إذا كان لن يتم إعلان فوز مرشحهم مطالبين في الوقت نفسه بإقالة وزير الداخلية صهر رئيس الجمهورية خصوصاً بعدما كان هذا الوزير أفتى في مسألة جواز الإقتراع خارج الغرفة السرية، مؤيداً ومجيزاً كوزير للداخلية ذلك، الأمر الذي يعني أن إمكانات الضغط على الناخب سهلة سواء عن طريق النظرات أو من خلال الإشارة باليد من بعيد.

هنا بات لبنان الصيغة والوطن على مشارف مأزق كبير، أي بما معناه أنه إذا إستقال النواب والوزراء بالفعل على نحو ما هددوا بذلك فإن إنقساماً بالغ الخطورة سيحدث وربما تحدث فتنة سياسية تليها، ربما أيضاً، مجازفات على طريق المواجهة الأهلية، خصوصاً أن الأرضية ليست صلبة بما فيه الكفاية وإن إسرائيل والتوجه الأميركي لمحاربة «الإرهاب» جاهزان لإشعال البيت اللبناني. وفي ضوء تداعيات وهواجس ومخاوف يوميّين عصيين إستيقظ الوعي السياسي اللبناني كما لم يستيقظ من قبل، حيث أن رئيس البلاد أفسح المجال أمام الحكمة وأن صهره وزير الداخلية قرر تفضيل المصلحة الوطنية على المشاعر الشخصية أو ربما العصيان على رغبة الوالد وطموحاته مراعاة منه لظروف عمه رئيس الجمهورية. وفي المقابل بدأ البحث بجدية عن مخرج لهذا المأزق بحيث لا يضطر وزير الداخلية الذي هو طرف مباشر في الصراع على المقعد اللبناني الخالي إلى التراجع وفي الوقت نفسه لا يتمسك بموقفه وبمشاعره وبما يمكن أن يسببه هذا الموقف وتلك المشاعر من أذى لعمه رئيس البلاد. وجاء المخرج من حيث لا يدرى أحد ولا يتوقع طرفا الصراع وذلك عندما أعلن وزير الداخلية في مؤتمر صحافي أن إعادة إحتساب للأصوات أظهرت خطأ في صندوق بلدة «الققور» التي هي محور هذا المقال، حيث تم إحتساب هذا الصندوق مرتين. وبعد تصحيح هذا الخطأ بات الفائز هو عمه غبريال المر وبفارق 17 صوتاً بعدما كانت الفائزة قبل يومين هي شقيقته بفارق ثلاثة أصوات.

خلاصة الأمر أن العثور على مخرج هو أحياناً بمثل إجتراح معجزة. ولو أن المخرج الذي نشير إليه لم يحدث لكان الوضع في لبنان الآن وعلى مدى

أشهر حديث العالم، أي بما معناه أن الأزمة ستعصف به كما لم تعصف من قبل. وكان لن يهناً اللبنانيون وإخوانهم الخليجيون بالصيف. وكانت القمة الفرنكوفونية ستأجل مرة ثانية. وكان ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز المنشغل منذ أشهر بالحالة الفلسطينية وإستطاع تهدئة الحالة العراقية سيد نفسه منشغلاً ومشغول البال بالحالة اللبنانية. وحيث أن حسم الأمر في أميركا عندما عاشت مأزق الرئيسين الفائزين جورج بوش وآل غور وبفارق 37 صوتاً، هو أكثر يسراً من حسم مأزق يحدث في لبنان، فهذا يعني أن تطوراً حدث في المزاج السياسي اللبناني، والفضل لبلدة منسية إسمها «الققور»... أو من باب المقارنة على صعيد واقع الحال الإنتخابي المعقد إسمها «فلوريدا اللبنانية». لعل وعسى تكافئها الدولة على الصدفة الخيرة التي جاءت منها وشكّلت إنقاذاً لوضع صعب أو تعطيلاً للغم كان إنفجاره سيؤذي لبنان أشد الأذى. والمكافأة بسيطة: التعهد بشراء مواسم صنوبرها الجيد وسفلتة طريقها وبناء مدرسة لاثقة لأبنائها... ناخبي الغد.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 12 يونيو (حزيران) 2002

محادثات الهواء الطلق

للمرة الثانية يعتمد الرئيس جورج بوش الابن تقليد محادثات الهواء الطلق التي تنأى عن طقوس البروتوكول حيث لا إرتباطات مسبقة ولا مواعيد متلاحقة ولا رنين هواتف، وأيضاً لا ضرورة لربطات العنق وللبذلات الداكنة التي تفرضها الرسميات. وإستناداً إلى المحادثات التي سبق أن أجراها الرئيس الأميركي مع ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز في مزرعة الرئيس المترامية الأطراف في «كروفورد» بولاية تكساس، فإن النتائج التي إنتهت إليها المحادثات كانت جيدة، ووجد المسؤولين الكبيران الوقت الكافي لكي يخوض كل منهما في ما يريده. ومثل هذا المتسع من الوقت ما كان ليتوفر لو أن هذه المحادثات جرت في البيت الأبيض ولمدة ساعة في الحد الأقصى أو جرت في الديوان الملكي في الرياض. وتلك في أي حال

بدهيات.

مع الرئيس حسني مبارك، الذي صادفت زيارته هذه المرة للولايات المتحدة في يوم الذكرى الخامسة والثلاثين لهزيمة الخامس من يونيو 1967، تكررت فائدة أن المحادثات بينه وبين الرئيس بوش جرت في الهواء الطلق وإن كان الفرق كبيراً بين أن تتم في الإستراحة الرئاسية في كامب ديفيد وليس في المزرعة الشخصية للرئيس في «كروفورد». وعند التأمل في ملامح الرئيسين وإرتياحهما الملحوظ وهما يتمشيان وسط غابة كامب ديفيد أو يتحدثان إلى وسائل الإعلام يتأكد للمرء كيف أن «محادثات الهواء الطلق» تبدو مجدية. وأن مثل هذا التقليد يبعث شعوراً بالطمأنينة.

وهذا التقليد ليس حكراً على الرئيس بوش، ذلك أن معظم الحكام يطيب لهم إجراء المحادثات وبالذات عندما تكون حول قضايا شائكة مثل النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي والصراع العربي - الإسرائيلي عموماً في الإستراحات خارج أسوار القصور والمكاتب والدواوين. وهناك عشرات المحادثات التي أجراها الرئيس جمال عبد الناصر ومن بعده الرئيس أنور السادات (يرحمهما الله) في الإستراحة الرئاسية في القناطر الخيرية أو الإستراحة الشقيقة في «برج العرب» على شاطئ المتوسط بين الإسكندرية ومرسى مطروح، وكانت محادثات مثمرة لأن الأجواء بعيدة عن قيود الرسميات ولأن الوقت الممنوح لها رحب للغاية، فضلاً عن أن المتحادثين كانوا مرتاحين من البذلات وربطات العنق والأحذية المربوطة، ومنظر المكتب الخانق حتى إذا كانت تزين جدرانه لوحات نادرة لو أن الديكور هو من الجمال والفخامة بحيث يُسحر رائيه. كما أن هنالك عشرات المحادثات التي أجراها الملك فهد بن عبد العزيز وولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز في الاستراحة الملكية في البر السعدي وكانت شأنها شأن المحادثات التي تتم في الهواء الطلق في أميركا ومصر مثمرة وبالغة الأهمية. ولا يغيب عن البال كيف أن العقيد معمر القذافي هجر القصور الرئاسية علماً بأنه لم يسكن الموروث منها ولم يبن الجديد بمواصفاته التي يريدها، وإختار الخيمة مكاناً للمحادثات التي يجريها مع زواره من أقرانه الحكام ومن المبعوثين لهؤلاء.

وحتى الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون جرب في إحدى مراحل تعاطيه مع النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي اعتماد تقليد «محادثات الهواء الطلق». ونتذكر ونحن نتحدث عن التقليد الذي يعتمد خلفه

الرئيس بوش كيف أنه جرد ضيفه الرئيس ياسر عرفات ورئيس وزراء إسرائيل السابق إيهود باراك من بعض ثياب الرسميات وحاول وهو يتمشى معهما في غابة كامب ديفيد تقريب المفاهيم بينهما مستتبشراً خيراً بالجو الذي يحققه الهواء الطلق في مثل هذه الأحوال.

لن نضيف الكثير من الأمثلة ولن نضيف إليها بعض المتفرعات التي تدرج في الإطار نفسه ومنها أن الرئيس المضيف يعتمد قيادة سيارته بنفسه وإلى جانبه الرئيس الضيف، ومنها أيضاً بعض اللفات التي لا تكون مألوفة أو مسبقة ومدونة في قاموس البروتوكول، والهدف من ذلك إدخال المزيد من الثقة إلى نفس الضيف وإحاطته بإهتمام لم يتوقع حدوثه. وما يستوقنا هنا هو أن تقليد «محادثات الهواء الطلق» هو تقليد حميد ومن شأن إعتماده ظهور الحكام بالمظهر الذي يحبب الناس بهم، فضلاً عن أن الرأي العام عندما يلاحظ اعتماد مثل هذا التقليد سيجد نفسه أكثر تقولاً بإمكانية تذليل العقبات مهما إشتدت وطأتها. وبالنسبة إلى أحدث ممارسات اعتماد هذا التقليد من المؤكد أن الرأي العام الأميركي والرأي العام العربي عموماً بعدما رأى قبل بضعة أسابيع أي أجواء تمت فيها محادثات الرئيس بوش في مزرعة «كروفورد» مع ضيفه ولي العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وبعدما رأى قبل أيام أي أجواء تمت فيها محادثات الرئيس بوش في كامب ديفيد مع ضيفه الرئيس حسني مبارك، سيشعر بأن أواصر الصداقة متينة بين هؤلاء الحكام وأنه كلما تعززت هذه الصداقة تعمقت مفاهيم التطوير وتزايد الحرص على أن تبقى العلاقات بين الدول في منأى عن التوتر وقابلة للتفاهم في حال حدثت لأسباب أو أخرى حالات من التوتر من النوع المألوف في العلاقة المصرية - الأميركية، ومن النوع الطارئ في العلاقة السعودية - الأميركية والناشئ عن مشاعر وتحيوات وتنظيرات أفرزتها تداعيات العملية الترويحية في كل من نيويورك وواشنطن يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001. وهذا التوتر أمكن تطويقه بالزيارة التي قام بها ولي العهد السعودي وما حفلت به من وقفات صريحة ولفات إهتمام شخصية أبداها المضيف الأميركي بضيفه السعودي. أما التوتر الذي يشوب العلاقة المصرية - الأميركية فإنه بسبب تكراره باتت هنالك وسائل كثيرة ولغة تخاطب معيّنة لمعالجته. وهي تجدي عموماً لأنها تقوم على قاعدة التقهّم والتبصر وبأن إلقاء الأذى يبقى أفضل من الإنشغال بللملة الشظايا في حال إنفجار الموقف. وبالنسبة الى مصر والعلاقات

المصرية- الأميركية حدثت في الماضي أزمت كان من شأن عدم التفهم لدواعيها ولمساوئها على حد سواء أن تقود النظام في مصر إلى إتخاذ «وقفه مع الصديق» من نوع الوقفة التي سبق أن إتخذها الرئيس (الراحل) أنور السادات مع الإتحاد السوفياتي. ومع الأخذ في الإعتبار أن العالم يعيش واقعاً جديداً ويقوم على مبدأ أنه إذا كان من الصعب على دولة ما في هذا العالم أن تقيم علاقة ثابتة مع الولايات المتحدة فإنه من الأصعب على أي دولة إستقرت علاقتها مع الولايات المتحدة الخروج على مفاهيم هذه العلاقة وفك الإرتباط ومن خلال «وقفه مع الصديق» على نحو ما أشرنا إلى حدوثه بين مصر السادات والإتحاد السوفياتي.

تبقى الإشارة إلى أن تقليد «محدثات الهواء الطلق» لا يمكن أن يكون قاعدة عامة، أو فلنقل انه إستثناء يقتصر فقط على أطراف إرتبطت بعلاقة تاريخية من دون أن يعني أنها خلت من صدمات ومن مفاجآت غير سارة، أحياناً على صعيد هبوط صاعق في العلاقة أو تحسن يفوق التصور في هذه العلاقة. وللتوصل إلى هذا التقليد، أي بما معناه الإنتساب إلى حلقة الحكام الذين يتحدثون في الهواء الطلق، هنالك مشقة لا بد من بذلها وإختبارات لا بد من النجاح فيها وإرادة لا بد من إحترامها وإصرار لصون المصالح من المهم عدم التلاعب بها. وفي تقديرنا أنه في حال ساد هذا التقليد وإتسعت حلقاته فإن الإستقرار يصبح سهل المنال. ونحن في إنتظار كيف ستنتم محدثات الرئيس بوش مع الرئيس بشّار الأسد الذي يمهّد لها الأمير عبدالله والرئيس مبارك وكيف ستنتم محدثات الرئيس بوش عندما سيرد الزيارة لكل من الأمير عبدالله بن عبد العزيز والرئيس حسني مبارك، وهي الزيارة المرتبطة توقّعتها بنضوج لحظة الإعلان عن خاتمة سعيه للنزاع الفلسطيني - الإسرائيلي تكون المدخل لإحياء العملية السلمية... التي نتمنى أن تكون منزهة عن الطمع والهيمنة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 19 يونيو (حزيران) 2002

* * *

الحريزي... وأيامه الرئاسية الزاهية

يعيش رئيس وزراء لبنان رفيق الحريزي أزهى أيامه الرئاسية. وبقدر ما أن هذا الزهو يشجع الرجل على أن

يمضي ما تبقى من سنوات ولاية الرئيس إميل لحود وهو مطمئن البال إلى أن ميدان الصراع السياسي اللبناني خلا من المبارزين، فإن هذا الزهو سيجعل خصوم الإستقرار في لبنان، وهم إسرائيل في الدرجة الأولى وبعض العناصر المتصهينة في بعض الحكومات الأوروبية وفي الإدارة الأميركية، يفتعلون من التجنيات والإفتراءات في حق الرجل بغرض هز مصداقيته لدى بعض الدول الفاعلة في العالم وهز الثقة الصامدة من جانب اللبنانيين في انه الأمل في إنقاذ ما يمكن إنقاذه للوضع المعيشي الشعبي والوضع المالي للدولة اللبنانية، وضمن المعادلة البديهية التي تقوم على أنه إذا كان الوضعان المشار إليهما لن يشهدا التحسن المأمول في ظل ترؤس الحريزي للحكومة في لبنان فإن انهياراً لواقع الحال المستقر نسبياً وبالمفهوم الطبي لعبارة «الوضع مستقر» سيحدث في اللحظة التي لا يعود الحريزي هو رئيس الحكومة، جارقاً في طريقه التحصينات لدرء تداعيات القرار الأكثر صعوبة والمتعلق بخفض سعر العملة الأمر الذي سيقضي على ما تبقى من أحلام اللبنانيين في النهوض. وتلك حالة جديدة على الحكم في لبنان حيث أنه لم يسبق أن إرتبط الوضع المالي والإقتصادي بشخص رئيس الحكومة. كما ان هذه الحالة الجديدة شكلت نقطة قوة مضافة لمصلحة الحريزي وباتت إذا جاز الوصف بمثابة الدرع الذي تكسرت عليه أنواع شتى من النصال تنطلق من كل الإتجاهات ثم ترد لأن حقيقة المعادلة التي أوضحنا طبيعتها كانت من الواقعية بحيث أن نصلاً واحداً من تلك النصال كان يكفي لتغيير الحريزي، لكن النصال تكاثرت وبقي الرجل فريداً من نوعه بين رؤساء الحكومات العرب سواء من حيث الدور لأولئك، وهو تنفيذي وذو طابع إقتصادي وخدمي وبينما هو جامع الدورين أي السياسة إضافة الى التنفيذ والإقتصاد.

والقول بأن الحريزي يعيش أزهى أيامه الرئاسية يستند الى بعض الوقائع. فهو حقق الخطوة الأولى على طريق مواجهة غول التلوث بإنهاء وباء المازوت الذي جعل السحب الملوثة في السماء اللبنانية تلغي السبب الرئيسي الذي من أجله يأتي العرب والخليجيون منهم بشكل خاص وهو أن الهواء في لبنان علاج والإقامة فيه بالتالي، تملكاً أو إستئجاراً، متعة، والإستثمار مجدداً. وهذا ما جعل من هذا البلد وطناً ثانياً للأشقاء الخليجين في الفترة التي سبقت الإحتراب

في لبنان طوال ست عشرة سنة بدءاً من أبريل (نيسان) 1975. وبإستكمال مواجهة غول التلوث بوقف ما تبقى من سيارات الـ «ميني باص» منتصف الشهر المقبل تلي ذلك مواجهة غول الكسارات وما أكثر تعقيداتها ومخاطرها، وتنظيف مناطق الشاطئ من العاصمة بيروت وإستعادة هذه المناطق مجدها الذي كانت عليه في الستينات والسبعينات وبحيث أنها بجمال ونظافة المناطق المشابهة في كل من فرنسا وإيطاليا... بإستكمال هذه المواجهة يستطيع لبنان ومن خلال مشاريع إستثمارية على طول الشاطئ اللبناني أن يسدّد القسم الأكبر من الثلاثين مليار دولار التي تشكل مديونيته، إلاّ اذا كانت العلاقات التي بناها الحريري مع الولايات المتحدة والدول الأوروبية والضمانة من جانب الدول الخليجية لـ «لبنان الحريري» ستحقق ما يتطلع إليه الرجل، وهو أن يتم شطب ما يمكن شطبه من هذه الديون، وعلى نحو ما حصل مع مصر التي لولا الشطب المشار إليه للقسم الأكبر من ديونها لكانت أحوالها صعبة جداً، أو فلنقل أنها كانت ستبدو على غير ما هي عليه هذه الأيام. ومثل هذا الشطب المأمول مرتبط بالتسوية والعملية السلمية التي لا يألو الحريري جهداً في سبيل إتمامها. ومن هنا الإرتياح الأميركي والدولي إلى سعيه ونواياه. وهو على الصعيد الدولي بات، وبشكل عملي، الصديق الذي لا تحفظات عليه لكل الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن مع خصوصية في العلاقة مع الولايات المتحدة وفرنسا، من دون أن يعني ذلك أن العلاقات التي أسس لها مع بريطانيا وروسيا والصين لا تسير في إتجاه تحقيق نوع من أنواع الخصوصية. وما هذه الزيارات وما يرافقها من إستقبالات متميزة له من حيث قواعد البروتوكول ونوعية الإهتمام من قبل حكومات هذه الدول سوى الدليل على أن ذلك هو ما يتم بناؤه.

وهذه الخصوصية هي التي حملت إسرائيل على بدء حرب نفسية على الحريري تمثلت بتوجيه الاتهام إليه عبر كلام في صحيفة إسرائيلية يندرج في مسلسل الكلام الذي درجت على نشره بعد العملية الترويعية المعلوم - المجهول فاعلها الحقيقي حتى إشعار آخر، في كل من نيويورك وواشنطن يوم 11 سبتمبر (أيلول) الماضي، الصحافة الإسرائيلية وبعض الصحف الأميركية والروسية والأوروبية المتأثرة بالمال اليهودي أو التي للصهيونية تأثير عليها وعلى بعض كُتابها.

ولقد رأت إسرائيل أن القبول الدولي بالحريري، وبالذات من جانب الإدارة الأميركية والكرملين وبريطانيا وفرنسا، من شأنه أن يسبب إقلاقاً لمخططاتها الرامي إلى تقطيع خطوط الإتصال العربي - الدولي، خصوصاً أن مضمون هذا المخطط هو تصوير العرب بأنهم معادون للغرب. وإلى ذلك أن العلاقة المتميزة التي بين الرئيس الفرنسي المتجددة رئاسته جاك شيراك وبين الحريري من شأنها تعزيز القبول الدولي بالرجل وفي ضوء هذه النظرة قررت إعتقاد الحرب النفسية من خلال تشويه الصورة التي للحريري في أذهان الإدارات والحكومات التي أشرنا إليها والإيحاء لهؤلاء وبالذات للإدارة الأميركية بأن هذا الرجل الذي يحظى بكل هذا الإهتمام من جانبكم هو في الواقع يساعد «الإرهاب» الذي تتحدثون عنه والذي طرق أبواب بلدكم وتتشطون في سبيل محاربته في أي دولة في العالم. وليس هنالك وبسبب الحالة النفسية التي يعيشها الرأي العام الأميركي ما يُقلقه أكثر من موضوع الإرهاب. وعلى هذا الأساس جاء الافتراء في الصحيفة الإسرائيلية بأن الحريري يمول «تنظيم القاعدة». وفي تقدير المفترين أن هذه التهمة تقطع الطريق على القبول الدولي بالحريري فلا تعود أبواب البيت الأبيض مفتوحة أمامه ولا يعود قصر الرئاسة الفرنسية «الاليزيه» يرى فيه أنه الزائر الأكثر تميزاً لسيد هذا القصر ولا يعود 10 داونغ ستريت يتعامل مع التحليل الذي يقدمه الحريري لمستقبل العلاقة العربية - البريطانية بالجدية والإهتمام اللذين نلاحظهما. وفي الوقت نفسه أن هذا الافتراء يكون بمثابة إيذاء للدور السعودي لما يمثله الحريري بالنسبة إلى المملكة وتشويه للمرونة المستجدة من جانب الحكم السوري إزاء الأفكار الجديدة تجاه العملية السلمية.

ومن المؤكد أن إسرائيل تريد من هذا الافتراء التأكيد بأنه ليس هنالك معتدلون في العالم العربي بدليل أن من هو أحد رموز الاعتدال ويقصدون رفيق الحريري يمول «تنظيم القاعدة» ويتعاطف مع اسامة بن لادن، وهو اتهام مردود لأكثر من سبب من بينها أن نظرة الرجل إلى النضال العربي من أجل فلسطين تنحصر في المطالبة بتنفيذ القرارات الدولية وقيام الدولة الفلسطينية، الدائمة وليس الموقته، وعاصمتها القدس، وإنهاء الإحتلال الإسرائيلي للجولان وما تبقى من الأرض اللبنانية وأنه في كل إتصالاته وتصريحاته والمحادثات التي يجريها مع قادة العالم لا يخرج عن

هذا الإطار، فضلاً عن انه صاحب برنامج للنهوض الإقتصادي والعمراني في لبنان والمنطقة. ومثل هكذا رجل دولة لا يمكن أن يخطر في باله تمويل تنظيم يؤمن بالعنف وفق ما هو شائع عن تنظيم أسامة بن لادن ومن هم معه. ولعل أقصى ما يرى الحريري تقديمه في سبيل إنهاء الاحتلال الإسرائيلي هو ما سبق أن فعلته بعض مؤسساته المصرفية والإعلامية عندما نظمت مؤسسته المصرفية حملة تبرع لدعم الإنتفاضة في وجه العدوان الشاروني وعندما قادت مؤسسته الإعلامية حملة كشف للزيف الشاروني وبالذات ما يتعلق بقضية الدكتور عزمي بشارة والسعي لمحاكمة شارون أمام المحكمة البلجيكية.

في أي حال ان خروج الحريري من المكائد المحلية من جهة والإفتراء الإسرائيلي من جهة ثانية جعل الإنتفاف الداخلي حول الرجل أقوى، بدليل أنه بات في استطاعته إعادة تشكيل حكومته بأقل إشتراطات عليه بعدما كان إلى بضعة أسابيع خلت برسم الإستبدال تئبياً له أو شعوراً من جانبه بالإحباط، وجعل القبول الدولي به لا يتأثر بدليل الإستقبال المتميز له في بريطانيا بعد ساعات من نشر الفرية حول تمويله لـ «الإرهاب» وإستئناف التشاور المتميز بينه وبين صديقه الأكثر قوة من قبل، فرنسياً وأوروبياً ودولياً، جاك شيراك، وإستعداد البيت الأبيض والكرملين لسماع تحليله والنظر في طلباته. وهذه الأمور وغيرها هي التي تجعلنا نقول إن الرجل يعيش أزهى أيامه الرئاسية وأنه، وإعتماداً على حليفه الدولي شيراك الذي يواصل قوياً بضع سنوات رئاسية، سيستضيف في أكتوبر (تشرين الأول) المقبل القمة الفرنكوفونية المؤجلة أصلاً. وسيكون نجم هذه القمة بعدما قطعوا طريق النجومية أمامه في القمة العربية الدورية الثانية يومي 27 و28 مارس (آذار) الماضي، فبدا في تلك القمة على نحو ما لا يحب ولا يرضى... ولا يتمنى.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 26 يونيو (حزيران) 2002

* * *

المسألة الإسلامية المنطلقة من الخرطوم!

من بين عشرات المؤتمرات العربية والإسلامية التي تابعتها ميدانياً كصحافي لم ألاحظ الأجواء التي

لاحظتها في العاصمة المثالثة الخرطوم بدءاً من يوم تقاطر وفود 57 دولة إسلامية (الاثنين 24-6-2002) للمشاركة في المؤتمر التاسع والعشرين لوزراء خارجية الدول الإسلامية الذي إستغرقت إجتماعاته ثلاثة أيام وإنتهت مساء يوم الخميس 2002/6/27 ببيان، يمكن الإفتراض من خلال قراءة محتواه أنه صادر من عاصمة بلد تربطه بالولايات المتحدة أوثق العلاقات، وليس من الخرطوم عاصمة السودان المثخن بالجراح الأميركية من قصف جوي ألحق التدمير بمصنع للدواء يملكه صلاح ادريس رجل الاعمال السوداني الذي يدير شركاته بعقيلة غربية ومع ذلك لم يسلم مصنعه من غارة أميركية، إلى حصار شديد الوطأة يندرج ضمن مسلسل العقوبات والحصارات على بعض الدول العربية والإسلامية سبقت بكثير العملية الترويجية يوم 11 سبتمبر (أيلول) الماضي في كل من نيويورك وواشنطن. والقصد من ملاحظتنا المتعلقة بمكان انعقاد المؤتمر وبفحوى البيان ومعه إعلان الخرطوم المرفق بالبيان هو القول إن البلد المضيف، وإستعداداً لرئاسة المؤتمر الذي ينعقد في عاصمة هذا البلد، له تأثيره الكبير عموماً على مجريات المؤتمر الذي يتعرض عادة لضغوط من جانب الذي يترأس ويستضيف، تتمثل في طريقة إدارة الجلسات وفي مناورات الكواليس... هذا إذا كان المضيف صاحب موقف معين ويريد توظيف المؤتمر لمصلحة هذا الموقف. وما لاحظته من خلال الجلسة الإفتتاحية ثم من خلال لقاءات للتحية والإستئناس بالرأي مع عدد من وزراء الخارجية العرب وبعض الوفود المشاركة من أفريقيا وباكستان وأندونيسيا وماليزيا، أن التوجه العام للبلد المضيف وللضيوف عموماً أن يكون سقف المؤتمر هو الهدوء والتهذؤ والتعبير بعيداً عن التشنج، وقول الكلمة السواء وليس الكلمة التي تشعل البيت.. الأبيض طبعاً، ناراً.

وفي ظل هذه الروحية أبحر رؤساء وفود 57 دولة إسلامية في محيط القضايا التي تعصف بالعالم الإسلامي وأمكن هؤلاء، بدافع الرغبة من جهة والتوجه المستجد لأهل الحكم في السودان من جهة أخرى، الوصول إلى بر الأمان إذا جاز القول. وما نقصده بـ «بر الأمان» هنا هو إعطاء الأخ الفلسطيني الذي يكتوي بمحنة العدوان الإسرائيلي نفحات معنوية، وعدم مقارنة الإدارة الأميركية المتفهمة دون وجه حق لهذا العدوان، من خلال الرد على خطاب الرئيس جورج

بوش الإبن بما يستوجبه الرد من جانب 57 دولة إسلامية، وذلك على أساس أن مسألة الرد هذه، وبالذات عندما يتعلق الأمر بالإدارة الأميركية، باتت تخضع لمعايير وحسابات وتقديرات للموقف لا يكفي أسلوب أهل الدبلوماسية لمعالجتها وإنما تحتاج إلى مشاورات تتمتع فيه أحوال الإقتصاد مع ضرورات الأمن مع متغيرات السياسة الدولية.

وبالنسبة إلى النفحات المعنوية كان لافتاً للانتباه أن الرئيس السوداني عمر حسن البشير الذي لولا إعادة النظر في معادلة السلطة التي قضت بفك الارتباط مع الدكتور حسن الترابي الذي يقضي منذ بضعة أشهر إقامة جبرية من فئة خمسة نجوم، لما كان للمؤتمر أن ينعقد أصلاً في الخرطوم وهو الذي بسبب تلك الشراكة المتمثلة في حكم الرأسين لم ينعقد قبل أحد عشر عاماً كما كان مقرراً.. كان لافتاً للانتباه أن الرئيس البشير قطع الطريق منذ اللحظة الأولى للمؤتمر ومن خلال الكلمة التي ألقاها على أي مطلب تعجيزي في ما يخص الوضع الفلسطيني، وعلى أي موقف يستفز الإدارة الأميركية التي كان توقيتها لبث خطاب الرئيس بوش قبل ساعات من انعقاد المؤتمر على درجة من الإحراج والريبة، وبدا كما لو أن هذا الخطاب هو بمثابة رسالة إلى العالم الإسلامي ما دامت دبلوماسيته مجتمعة في الخرطوم، بل انه بدا كما لو أنه مجموعة أسئلة خطية تستهدف مدى قدرة الدبلوماسية الإسلامية على إستيعاب الخطاب - الصدمة للرئيس بوش. وما فعله الرئيس البشير هو أنه وجّه في كلمته تحية حارة بإسم المؤتمر، ما دام السودان هو المترئس للدورة، إلى «الرئيس المناضل ياسر عرفات» وبذلك بدا كمن يرد على خطاب الرئيس بوش الذي سحب «إعترافه» برئاسة عرفات للشعب الفلسطيني. ثم لم يأت مباشرة على ذكر خطاب بوش ما دام هذا الأخير لم يأت على ذكر «المبادرة العربية» وبدا بذلك أيضاً كمن يقول بإسم 57 دولة إسلامية، أكثر من نصفها عربي، للإدارة الأميركية ما معناه انه عندما يتجاهل الرئيس بوش المبادرة التي باتت بمثابة الموقف العربي - الإسلامي الموحد، فمن الطبيعي أن يتجاهل العالم الإسلامي ذلك الخطاب للرئيس الأميركي الذي يريده موقفاً دولياً إنما من دون أي أمل لتحقيق هذا الإجماع. وفي ضوء كلمة الرئيس البشير أخذت الإجتماعات المنحى الهادئ وإنتهت إلى بيان يؤكد «وقوف الأمة الإسلامية إلى جانب الشعب

الفلسطيني تحت قيادة الرئيس المناضل ياسر عرفات من أجل إسترداد حقوقه الشرعية الدولية» ويطالب بـ «وقف العدوان الإسرائيلي وعمليات الإغتيال وهدم المنازل وتدمير البنى التحتية وإنتهاك الاماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية ووقف سياسة تهويد القدس والإستيطان وعزل المدينة عن محيطها الفلسطيني ووقف بناء الجدار العنصري الذي يخلق وقائع مجحفة بحق حدود الدولة الفلسطينية ويزيد تفاقم الأوضاع في المنطقة». كما يشدد البيان على «ضرورة إنسحاب القوات الإسرائيلية إلى المواقع التي كانت تحتلها قبل 2000/6/28 ورفع الحصار ووقف جميع الاجراءات غير الإنسانية ضد الشعب الفلسطيني وتأمين الحماية الدولية لهذا الشعب ووقف الإستيطان وإطلاق جميع المعتقلين والسماح بدخول المواد الطبيعية وإستئناف المفاوضات وفق قرارات مجلس الأمن ومبدأ الأرض مقابل السلام وحل مشكلة اللاجئين حلاً عادلاً...». وكل هذه الإقتراعات الخطيرة من جانب إسرائيل تستوجب بمنطق التعامل بين الدول إعلان الحرب على هذه الدولة المارقة الخارجة دون غيرها من دول العالم على الشرعية الدولية المحظية بتعاطف وتأييد من جانب الدولة الأهم في العالم المغفورة خطاياها بما فيها العدوان. ولكن الذي حدث هو أن 57 دولة إسلامية ومن خلال رموز الدبلوماسية في هذه الدول التي يناهز سكانها المليار ومائتي مليون مسلم بين متحم ومكتنز ومحاصر وجائع ومستبد به... أطلقت في سماء الخرطوم التي كانت قبل إيواء الدكتور حسن الترابي في إحدى «الفيللات» الراقية تعتقد أنها ستهزم أميركا شر هزيمة، أسراباً من الحمام الأبيض المسالم في صيغة بيان منمق وفي صيغة إعلان أمعن به إختصاراً أحد رموز العمل الدبلوماسي والسياسي سفير السودان في القاهرة أحمد عبد الحليم.

عدا هذه الأمور التي وردت في البيان الختامي وفي الإعلان الذي بات بمثابة الوثيقة والصفة اللازمة لكل مؤتمر والذي يعني إصداره أنه يخص البلد المضيف وليس بقية الدول المشاركة في أي مؤتمر، فإن إستسباب المؤتمر في عدم وضع تعريف حاسم لـ «الإرهاب» وفي عدم إنجاز المصالحة العراقية - الكويتية على نحو ما كان يأمل أهل النظام ومن أجل ذلك جاءت زيارة علي عثمان طه النائب الأول لرئيس الجمهورية إلى العراق قبل ثلاثة أيام من انعقاد المؤتمر.. إن هذا الإستسباب وما تفرعت عنه من

نجومها التي يُضرب المثل أيضاً بنظافتها، وبصالوناتها الحزبية والسياسية التي إستنبطت حيوية ما بعدها حيوية، وبشاطئها الذي كانت تتلأل حول رماله أرقى المسابح التي تضاهي في رقيها عشرات المسابح المنتشرة على طول كورنيش مدن الساحل الفرنسي الجنوبي من مونت كارلو إلى كان مروراً بعاصمة الجنوب نيس. ولا داعي للحديث عن بقية المباحج الجمالية والسياحية سهلاً وجبلاً، فهي كثيرة وكلها منيت بأفعال الميليشياويين الفلسطينيين الضيوف واللبنانيين أصحاب البيت على حد سواء.. إضافة إلى «مجاهدين» إنتسبوا إلى هؤلاء جاءوا من دول كثيرة إما بغرض المساهمة في التدمير وقد نجح الغرض، وإما للعيش في رحاب «الثورة الشعبية» المتأججة نيرانها في لبنان التي بشّر بها الزعيم الشعبي الإستثنائي الموصفات الراحل كمال جنبلاط، فوجد هؤلاء أن ما يجري هو مجرد مؤامرة دولية على بلد متميز وإرتضوا التحول مقاتلين وخاطفي طائرات وخبراء في إستحداث الشقاق.

الذي حدث أن عملية إعادة البناء في بيروت وسائر المناطق اللبنانية، بدأت لمجرد أن أوقف إتفاق الطائف تلك الحرب المجنونة.. وما كانت لتقف لولا جهود مخلص من أهل الحكم السعودي بتوجيهات حازمة من الملك فهد بن عبد العزيز. والذي جعل التوجيهات تلقى التنفيذ دون تباطؤ هو أن أبناء الملك عبد العزيز يرحمه الله وأحفاده جاهزون أصلاً لبذل ما من شأنه أن ينتشل لبنان، الذي طالما أحبوه بالتوارث، من المحنة التي أصابته. وما فعله ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز ووزير الدفاع الأمير سلطان بن عبد العزيز والأمير سلمان بن عبد العزيز والأمير سعود الفيصل من أجل تحويل أمانى الملك فهد وتوجيهاته إلى إتفاق يتم الإرتضاء بتوازنه، تأكيد لما نقوله. وكان لافتاً للإنتباه أن رجال الأعمال اللبنانيين، وبالذات أولئك الذين لهم مصالح وأعمال في الدول العربية والأفريقية وبعض دول العالم الصناعي، قاموا لمجرد أن أوجدت المملكة العربية السعودية الحل متمثلاً بإتفاق الطائف، بهجوم مضاد على الهجمات الميليشياوية الوحشية طوال ستة عشر عاماً. ورأى هؤلاء من خلال الهجوم المضاد أن الرد على إسرائيل التي شاءت تدمير لبنان كصيغة للتعددية وكمرکز إستقطاب للمال العربي وكوطن ثان لأثرياء دول الخليج، وكذلك الرد على الميليشيات اللبنانية المخدوعة

إستتسابات كثيرة تندرج تحت معادلة إنتهى إليها أهل النظام السوداني، وبالذات المجموعة النخبة المتمثلة في النائب الأول لرئيس الجمهورية ووزير الخارجية الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل ووزير الإعلام مهدي إبراهيم وضعت المؤتمر على طريق السلامة والمسالمة. وخلاصة هذه المعادلة هو أنه إذا كان من الصعب تحقيق الأمنيات فعلى الأقل الإقتناع بالحد الأدنى.. ذلك أن زمن سودان اللات الثلاث في أغسطس (آب) 1967 هو غير زمن سودان اللحظة الراهنة حيث لا مجال سوى لـ «اللات الثلاث» التي أطلقها الرئيس البشير في كلمته وإنتهت شعاراً وجدياً. وهذه «اللات» هي: لا للتراجع عن الإسلام بل تمسك به وبمبادئه السمحة. ولا للإرهاب ولكن ليس للمقاومة المشروعة لنيل الحقوق والتحرر. ولا للفرق بل التضامن والتآزر بين المسلمين.

وخلاصة القول إن المسالمة الإسلامية التي إنطلقت من مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية الذي إستضافته الخرطوم وبلغت تكلفته ستة ملايين دولار والذي هو أول مؤتمر إسلامي يعقد بعد العملية الترويجية في كل من نيويورك وواشنطن، ستكون على ما يبدو بعد الآن هي القاعدة للموقف الإسلامي مثلما أن مبادرة ولي العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز باتت هي القاعدة للموقف العربي. وكل ذلك لأن للضرورة أحكاماً... لا بد من التسليم بها أحياناً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 10 يوليو (تموز) 2002

* * *

كيف يمكن النهوض بالسودان؟

كنت أتمنى أن أرى الخرطوم بعد طول غياب عنها وقد أصبحت مثل بيروت التي تحدت الأنقاض بعدما دمرت الحرب طوال ستة عشر عاماً أسواقها، وتقتبت واجهات عماراتها الجميلة ألوف القذائف المصوبة بدقة من رجال الميليشيات لا سامح الله صغارهم وكبارهم... الصغار شأناً والكبار شأناً، على هذا الذي فعلوه بعاصمة كانت تتباهى برونقها الثقافي، وبصحافتها المتنبّلة لتعدد الرأي، وبمقاهي الأرصفة المقتبسة عن مقاهي باريس وروما، وبمطاعمها التي يُضرب المثل بأنواع أطايبها ورقى خدماتها، وبفنادقها على أنواع

أو المتأمرة أو المجنّدة لحساب آخرين لكي يشارك رجالها في عملية التدمير تلك... لقد رأى المقتدرون اللبنانيون من رجال الأعمال اللبنانيين الذين يعيشون في بلاد الإغتراب العربي والأفريقي والأوروبي والأوسترالي والكندي أن الرد على المخطط الجهنمي للتدمير هو في إستنهاض الهمم والبدء بإعادة البناء. ولذا فإنه في خلال خمس سنوات تلت ولادة إتفاق الطائف بدأت العمارات الجديدة تنمو مثل غرسات الورد ومعظمها من النوع الجيد. وفي الوقت نفسه بدأ العمل في إنشاء الطرقات وإستكمال الأوتوسترادات وبناء مطار جديد وتنظيف العاصمة وسائر البلدات من مخلفات قاذورات سنوات الحرب والمباشرة بإعادة بناء منطقة الأسواق التجارية التي كانت أكثر ميادين جولات القتال العبيثي. والذي ساعد على الإنطلاق في عملية إعادة البناء ان الذي ترأس الحكومة كان لا ينتمي إلى العائلات السياسية التقليدية وأنه رجل أعمال من نوعية لم يألفها لبنان تشهد له سنوات أعماله في المملكة العربية السعودية على الجدية والإتقان في ما تتولاه شركته من أعمال في مجال البناء، وبالذات ما هو كثير التعقيد مثل قصور الحكم والمؤتمرات والقصور الشخصية. والمقصود بهذا الشخص هو رفيق الحريري رئيس الحكومة الحالية الذي سبق أن أمضى ست سنوات في هذا المنصب في أعقاب إتفاق الطائف تلتها سنتان من الإبعاد المتعمد له، ردّ عليه بالعودة إلى كرسي الرئاسة الثالثة أكثر قوة من ذي قبل بعدما حقق في الإنتخابات البرلمانية فوزاً يشبهه في بعض جوانبه فوز الرئيس محمد خاتمي سواء في الإنتخابات النيابية في الجمهورية الإسلامية في إيران أو في الإنتخابات الرئاسية الأولى ثم في الإنتخابات الرئاسية الثانية.

ولقد إستمر الإعمار على رغم كل المماحكات والمشاحنات، وجولات العدوان الإسرائيلي التي كانت تستهدف محطات الكهرباء، وكثرة مواسم التحديات المزدهرة بين ديناصورات الحكم، وتقاسم الرأي داخل الحكومة يقابله إنقسام الرأي خارجها في شأن المقاومة المتمثلة في «حزب الله» والدور السوري المتواصل الذي يحظى برضى الرؤساء الثلاثة، رئيس الجمهورية اميل لحود ورئيس مجلس النواب نبيه بري ورئيس الحكومة رفيق الحريري، عن هذا الدور وتمسكهم به. ومقابل هذا الرضى هناك الغضب الجارف المتقطع من جانب بعض أقطاب الطائفة المارونية المقيم منهم

والمهاجر والمهجّر على الدور السوري والمطالبة بإنهائه، معتمدين في ذلك على بعض أعضاء الكونغرس الأميركي أملاً في أن يُقنع هؤلاء إدارة الرئيس جورج بوش بالتعامل مع سوريا على نحو تعاملها مع نظام الرئيس صدام حسين. وهكذا فإن عملية البناء إستمرت، وكانت إقامة المشاريع الخاصة تتوقف ثم لا تلبث أن تُستأنف، والديون التي تتراكم لا تنقص متلازمة مع سعي دؤوب من أجل الحصول على المزيد من الودائع والمزيد من القروض الكبرى بمعنى أن تأتي من تجمّع دولي وليس من دولة واحدة. كما أن الأمانى لا تزال قائمة في أن تتوافر ظروف دولية يجني منها لبنان بعض المكاسب، ومن بين ذلك إلغاء قسم من الديون عليه في الحد الأقصى وشطب قسم من هذه الديون وفوائدها في الحد الأدنى.

ومع أن هنالك فعاليات إقتصادية وتجارية لبنانية لم تقرر بعد المساهمة بما تملكه من قدرات مالية في إعادة عملية الإنهاض الكاملة، إلا أن نسبة رجال الأعمال الموزعين على بلاد الإغتراب الكثيرة الذين بدأوا ويواصلون المساهمة في العملية تلك ما زالت هي الأكبر، يضاف إليها إقبال ملحوظ لرجال الأعمال العرب على الإستثمار والتوظيف من بينهم رجل الأعمال السعودي الأبرز الأمير الوليد بن طلال بن عبد العزيز الذي بدأ الإستثمار الفندقي. ويبدو أن هذا الإستثمار سيتزايد ويأخذ أكثر من منحى وتوجّه.

وفي تقديرنا أن هذا الإصرار على تحويل إرادة إعادة البناء في لبنان وبحيث يصبح البلد على صعيد العمران والمشاريع أكثر أهمية مما كان عليه قبل أبريل (نيسان) 1975 عندما إشتعلت شرارة الحرب التي دامت ستة عشر عاماً ودمرت ما أمكنها تدميره، هو أن المغتربين اللبنانيين كثيرون وأن رجال الأعمال والمقتدرين العرب من أصحاب الرساميل وفيرين، وأن الذي يترأس السلطة التنفيذية هو رجل أعمال كبير وصاحب مشروع إعماري طموح، وهذا ما يجعل أهل المال يرتاحون ويطمئنون ومن منطلق أن من يحرص على ماله ومصالحه لا بد سيحرص على مال الآخرين ومصالحهم وإستثماراتهم... هذا مع الأخذ في الاعتبار أن الإسراع في البناء والإستثمار في لبنان لم يحدث من باب التطلع إلى الكسب التجاري وحسب بل حب في لبنان ورغبة بإعادته إلى سابق عهده.

وفي العودة إلى ما بدأناه نقول إن الذي عاشه لبنان حرباً وصراعات هو أكثر خطورة من الذي عاشه

ومن باب التبسيط لأكثر النزاعات تعقيداً يمكن للمرء مثل حالي سيق له أن أمضى في مطلع النصف الثاني من الستينات أسبوعين في مديريات جنوب السودان حيث كان التمرد زمنذاك بقيادة جوزف لاغو في أشد خطورته، ويتابع بالكثير من التآني تداعيات هذا النزاع مع تعاقب الحكومات والإنقلابات والثورات... انه يمكن للمرء مثل حالي إلقاء نظرة على ما جرى وما إنتهت إليه الأمور، تسجيل الملاحظات الآتية:

- التمرد في الجنوب حالة متوارثة. ورثتها حكومة الأحزاب برئاسة السيد الصادق المهدي التي جاءت وليدة «ثورة أكتوبر 1964» من الحكم العسكري الذي كان يقوده مجلس عسكري يتزأسه الجنرال إبراهيم عبود. ثم ورثتها «ثورة 25 مايو» التي قام بها مجموعة ضباط من الرواد (أي برتبة رائد) ترأسهم اللواء جعفر نميري الذي طالما سبق له أن خطط لتنفيذ إنقلاب عسكري وجرى إبعاده إلى الولايات المتحدة في بعثة تدريب لقطع الطريق عليه كي لا يقوم بالإنقلاب.

- وجد الحكم الجديد برئاسة نميري أن النزاع في الجنوب هو من النوع الذي يصعب حسمه. وهذا الإقتناع ناشئ عن أن ضباط «ثورة مايو» خدموا في مناطق الجنوب وأن الذي لم يخدم درس في الكلية الحربية جغرافية تلك المنطقة ومدى إستحالة حسم التمرد فيها بالحرب التقليدية. ومن أجل ذلك بدأ الحكم الجديد يهتم بمقتضيات حرب العصابات مسترشداً بالحرب الأميركية - الفيتنامية محاولاً التركيز على الكوماندوس وذلك لأن هؤلاء يتقنون مواجهة حرب العصابات في الأدغال. ولكن مثل هذا الأمر يحتاج إلى قدرات غير متوفرة إذ أن المسألة ليست فقط إيجاد الرجال وإنما الإنفاق على تدريبهم وتحمل مسئوليات تحضيرهم لكي يصبحوا مقاتلين أشداء، فضلاً عن أن مثل هذه القوات تحتاج إلى آليات خفيفة وسريعة وإلى طائرات هليكوبتر تنقلهم على وجه السرعة إلى حيث هنالك تجمعات متمردة. كما أنهم يحتاجون إلى وسائل الإتصال المتطورة من أجهزة لاسلكي ومستلزمات تقنية.. وهكذا.

وبعد التأمل في الأوضاع المحلية والإقليمية والدولية إرتأى الرئيس نميري اعتماد الحل المعقول، واضعاً الأمر بين يدي صديقه أميراطور أثيوبيا (الراحل) هيلاسيلاسي الذي ساعده بإخلاص لتحقيق الحل ليس فقط بدافع الصداقة التي بينهما وإنما لأن

السودان ولا يزال. وحيث أن التركيبة متشابهة إلى حد ما، ورأس السلطة عسكري الأصول كما هي الحال في لبنان، والإيمان بالتعددية والتراث الديمقراطي مشترك، والتربة خصبة للإستثمار والحاجة ملحة للبناء، فإن إستعانة الرئيس عمر حسن البشير برجال الأعمال لكي يخوض بأحدهم الإنهاض على النحو الذي حدث مع الحريري في لبنان يبقى الحل الأفضل. ويبقى هذا الأمر هو المطلوب كي لا يزور المرء مثل حالي الخرطوم مرة ثانية وبعد طول غياب مماثل للغياب الأول ويجدها دون ما تستحقه من عمارات عصرية وشوارع معبدة وفنادق وأسواق ومقاه ومطاعم ومطار. فالعنفوان وحده لا يكفي. ويا ليت الرئيس البشير كان قد شارك في القمة العربية الدورية الثانية وقام بجولة سريعة يرى فيها أي بدايات نهوض حدثت في العاصمة بيروت التي إستضافت القمة. كما يا ليته يزور لبنان الناهض من وهدة الحرب ويرى من دون إستعجال العودة نتائج إعادة بناء بدأت على أيدي المغتربين من أبناء لبنان، وهم قلة قياساً بالمغتربين من أبناء السودان. ثم أليس السودان بات نفطياً، أليس هو باب المشرق إلى أفريقيا، ومن البدهيات أن يكون باب العبور بين المشرق بخليجه ودوله التي على شاطئ المتوسط وبين أفريقيا متلاًئلاً في سماء القارة؟ ... وللاضطرابات عن السودان كيف يهدأ سياسياً وينهض إقتصادياً وعمرانياً بقية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 17 يوليو (تموز) 2002

* * *

التفاهم بعد التفهم

بين شمال السودان وجنوبه...

قبل أن تأتي البشري يوم الأحد 21 يوليو (تموز) 2002 من بلدة «ماتشاكوس» في كينيا بأن المفاوضات التي جرت فيها بين وفد يمثل الحكومة السودانية وآخر يمثل حركة التمرد في الجنوب وإستغرقت خمسة أسابيع إنتهت إلى التفاهم على ما يجيز لهما الإتفاق على حل للحرب التي إستنزفت من مال السودان وقدراته ما لا يمكن تحمله، كان التمهيد المندرج لتقبل النبأ كبشري وليس كمفاجأة صاعقة، حدث بأكثر من صيغة رسمية وشبه رسمية.

أثيوبيا باتت العمق الذي ينسحب إليه المتمرّدون، كما أنها باتت الملاذ للألوف من الجنوبيين الذين يلجأون إليها طلباً للنجاة وللقيمة العيش، وهذا من شأنه في نظر الأمبراطور خلق إشكالات لا يريد لها لبلاذ ومشاكل حدودية هو في غنى عنها. وإلى ذلك ان هيلاسيلاسي وجد أن المساعدة على إيجاد حل للنزاع في جنوب السودان من شأنها قطع الطريق على مساندة الحكم السوداني للأريتريين الذين كانوا زمناً في بداية تحرّكهم ونشاطهم للانفصال عن أثيوبيا وقيام دولتهم المستقلة.

- في مرحلة التشاور بين نميري وهيلاسيلاسي نصّح الأخير الرئيس السوداني بأن يقوي علاقاته بالغرب وتحديداً بالولايات المتحدة وبريطانيا والفاثيكان إذا كان يريد حلاً للنزاع في الجنوب، ووعد بأن يبذل في هذا السبيل الكثير. ولقد عبّر نميري عن إيمانه لنصيحة هيلاسيلاسي وأمضى الكثير من الوقت يتأمل فيها آخذاً في الاعتبار علاقة هيلاسيلاسي القوية بالفاثيكان ومكانته الدينية ورضى الغرب بشقّيه الأميركي والأوروبي عنه. كما أنه أخذ في الاعتبار أهمية عمق العلاقة التي تربط مصر بأثيوبيا والتي تألقت في زمن عبد الناصر. وإذا جاز للمرء أن يفترض، الآن بعد مرور ثلاثة عقود على ذلك الزمن، بماذا نصّح هيلاسيلاسي جاره وصديقه نميري لأمكن القول إنه هو من نصّحه بتحجيم الشيعيين وفك الارتباط بهم عند أول فرصة، كما أنه هو من نصّحه بتسهيل تهجير «الفاثا» على أساس أنها خطوة تخفف من مساعدة إسرائيل لحركة التمرد من جهة وترتاح لها كثير الإرتياح الإدارة الأميركية من جهة ثانية.

- أثمر دور هيلاسيلاسي متلازماً مع إقتناع نميري بنصائح الأمبراطور الجار، والمباشرة بوضع هذه النصائح موضع التأهب للتنفيذ، إتفاقاً من أجل حل النزاع في الجنوب تم التوقيع عليه في أديس أبابا. وبموجب هذا الإتفاق الذي كان متقدماً نسبياً وكان بمثابة الحجر الأساس الذي يمكن بناء الإتفاقات المتطورة عليه لاحقاً، توقفت الحرب وبات زعماء التمرد شركاء في الحكم وتألقت أدوار هؤلاء ومن بينهم قائد التمرد جوزف لاغو الذي بات نائباً لرئيس الجمهورية وأبيل ألي. وإستقرت الأحوال نسبياً في الجنوب وساعد على هذا الإستقرار أن نميري زار الجنوبيين عدة مرات وتجوّل في مديرياتهم وإرتدى ما

يرمز إلى أزيائهم وإستعمل عند الحديث معهم بعض المفردات الجنوبية وإستضافهم في قصر الرئاسة. وفي الوقت نفسه إستوقف الجنوبيين ان الحكم السوداني بدأ مواجهات مع طائفة «الأنصار» الأمر الذي ترك إنطباعاً لدى الجنوبيين المسيحيين والوثنيين منهم على حد سواء بأن نميري ليس ضد الجنوبيين لأنهم ليسوا مسلمين بدليل أنه يضرب طائفة «الأنصار» التي هي إحدى رموز الوجود الإسلامي العريق في السودان.

- دام الإستقرار بضع سنوات في السودان تم خلالها إزدهار أعمال التجارة الشمالية في مديريات الجنوب وإنتفاح الخرطوم وبقية مدن الشمال على الجنوبيين. ثم عاد الحديث عن التمرد من جديد في أعقاب التوجه المستجد للرئيس نميري والمتمثل بإعتماد النهج الإسلامي وتطبيق الشريعة. ولقد أفرع هذا التوجه كنائس أميركا وأوروبا فقررت معاودة سقي تربة التمرد في الجنوب بما يجعل إمكانية إنبعائه قوية في الوقت المناسب. ولم يمض وقت طويل على إسقاط نظام نميري وعودة الحكم الحزبي بصيغة ثنائية هذه المرة وبعد فترة إنتقالية تولاها لمدة سنة المشير عبد الرحمن سوار الذهب والدكتور الجزولي دفع الله، حتى قامت «ثورة الإنقاذ» متمسكة أكثر بمسألة النهج الإسلامي التي كان من المأمول في عهد الحكم بالرأسين الأنصاري والختمي حسمها، لكن هذا الحكم تهيّب الأمر، ليس من منطلق التسليم بصوابية الصيغة النميرية للنهج وإنما كي لا يقال ان رأسى الطائفين الغيا مسألة تطبيق الشريعة. وفي الوقت الذي لم يحسم الرأسان: الأنصاري في شخص رئيس الحكومة السيد الصادق المهدي، والختمي في شخص رئيس مجلس رأس الدولة السيد أحمد الميرغني شقيق راعي الطائفة السيد محمد عثمان الميرغني، المسألة الشائكة المشار إليها فإن الرأسين كانا شديدي الإصرار على إسترجاع نميري، الذي كان المبادر إلى إعتماد النهج وتطبيق الشريعة، من القاهرة حيث إستضافه الرئيس حسني مبارك مراعيّاً ظروف الإنقلاب عليه. وإلى جانب الإصرار على الإسترجاع إصرار على محاكمته. وتلك كانت مفارقة تثير الإستغراب.

- إنفجر الوضع في الجنوب مع «العهد الإنقاذي» على أساس أن هذا العهد يعمل على إستتساخ التجربة الإيرانية في السودان وبدأ قادة التمرد ينشطون لدى الجنوبيين مستغلين ورقة الأسلمة والرق، مع التركيز على أن حكم الرأسين الجديدين، الدكتور حسن الترابي

تدار لعبة الشطرنج السياسي ومن دون أن يخطر في باله أن جندي قلعة هو الذي «كش» الملك وكسب اللعبة.

ومن الجائز القول إن المسار السوداني وجد طريقه إلى التصحيح النهائي وإن كانت خالطت هذا التصحيح تنازلات نوعية وفي الإتجاهين الأفقي والعمودي. فها هي العلاقات مع ليبيا إستقرت بما معناه أن العقيد معمر القذافي لم يعد متطلعاً إلى جماهيرية في السودان تدعم جماهيريته. وها هي العلاقات توازنت مع دول الخليج ولم يعد هنالك ما يوجب الحذر من «سودان الإنقاذ». وها هي العلاقات باتت وفاقية مع أريتريا الجارة التي طالما أتعبت حكم «الإنقاذ» بإستضافتها لقادة المعارضة السودانية، ثم بعدما فتحت حدودها أمام مقاتلي فصائل المعارضة يلقون الدعم عند الإنطلاق لتنفيذ العمليات ضد القوات السودانية ويجدون الحماية والطمأنينة عند العودة إلى قواعدهم. وفي الوقت الذي ما زالت اسمره هي العاصمة البديلة لما تبقى من المعارضة السودانية إضافة إلى كونها عاصمة أريتريا التي خاضت صراعاً مريعاً مع «الإنقاذيين»، فإن اسمياس افورقي الرجل القوي في أريتريا يقوم لدى النظام السوداني بدور جديد ويوفد احد مراكز القوى إلى الخرطوم في مسعى للتوفيق بين حكم البشير والذين ما زالوا على قيد المعارضة في اسمره وبالأذات السيد محمد عثمان الميرغني زعيم الطائفة الختمية الذي بات يرى أن بقاءه خارج السودان لم يعد مريحاً له ولا مرضياً عنه من طائفته ولا من «الحزب الإتحادي» الذي هو حزب الطائفة على نحو ما أن «حزب الأمة» هو حزب «طائفة الأنصار». أما لماذا لم يعد البقاء في الخارج مريحاً فلأن القطب الآخر الصادق المهدي عاد ولن يغادر بعد الآن ولأن الإستمرار في الخارج كان معناه أن يكون حليفاً وحيداً لحركة جون قرنق التي لا يجاريها في معظم رؤيتها لمصير السودان. وكيف سيجاري وهو المتأكد من أن جون قرنق ما زال على رغم تباشير الإتفاق الذي تم الإعلان عنه يوم 21 يوليو (تموز) 2002 من بلدة «ماتشا كوس» الكينية يتطلع إلى دولة مستقلة، أو شبه مستقلة في جنوب السودان تدعمها الإدارة الأميركية وكنايس الدول الأوروبية عموماً. هذا بالإضافة إلى أن إستمرار البقاء في الخارج أصاب الطائفة وحزبها بتوقعات الواحدة تلك الأخرى من نوع التوقعات التي أصابت طائفة

والفريق أول عمر البشير، يريد فرض الشريعة في الجنوب. وتكالبت قوى التشويش الأجنبية ونجحت في خلق تيار كثير الحدة في أوساط الجنوبيين ضد الشماليين خصوصاً بعدما بات «حكم الإنقاذ» يخوض حرباً مقدسة ضد المتمردين في الجنوب. وباتت البلاغات العسكرية تتوالى من الجانبين وتعكس شعوراً بأن ربح الحرب دائرة إلى حيث لا رجعة. .. ولهذه الملاحظات بقية من أجل إستكمال ملامح المشهد.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 24 يوليو (تموز) 2002

* * *

سودان جديد.. سياسياً وجغرافياً؟

منذ ان أبتعدوا الدكتور حسن الترابي نزيلاً في «فيللا» خمس نجوم في المنطقة الأكثر رقياً في الخرطوم والمعروفة باسم «كافوري» رفض الرئيس الأسبق جعفر نميري السكن في واحدة مثلها وضعتها الحكومة بتصرفه بعد عودته مفضلاً عليها منزله من فئة نجمتين في «ودنو باوي»، والحكم «الإنقاذي» في السودان يعيش حيوية سياسية نسبية ملحوظة. فالصحف الكثيرة قياساً بأي حقبة مرت على السودان تنشر من الرأي الصريح والمقالات الناقدة والأخبار التي تثير التساؤلات والتصريحات التي يعترض من خلالها أصحابها على نهج الحكومة، ما شاء لها النشر وفي نطاق الإستتساب الذي بات رؤساء تحرير هذه الصحف حاذقين في إعتماده تفادياً للعقاب أو الصدام. واقطاب المعارضة الذين عادوا يائسين من طول الإغتراب متفائلين بإمكانية التغيير الذي يحقق التعايش في إطار إقتسام المصالح، أو التوزيع العادل لها، وجدوا أنفسهم بعد العودة يتحركون أفضل نسبياً مما كانت عليه حالهم وتحركاتهم بين أريتريا ومصر وليبيا ولندن وواشنطن. ولقد أسقط الرئيس عمر البشير حجج معظمهم بعدما قررت الحلقة المدنية - العسكرية المصغرة التي يطلب منها المشورة وتبدي هي الرأي المخلص أن الحل الذي لا حل غيره لتصحيح المسار هو «أن نبتعد الشيخ حسن» وهذا ما حدث حيث أن الرجل ابتعدوه ولم يبتعد، إنما من دون إهانة شيخهم الذي علّمهم طوال عشر سنين أصول المناورة وكيف

الذي يراه الشعب مسانداً للديمقراطية وتصحيح الأوضاع وأن الشعب سيكافئنا لأن سياساتنا تقوم على مواجهة الإستبداد والظلم. وفي رأبي ان كل ما سيحصل للمنشقين أنهم سيجدون أنفسهم في مقبرة المؤتمر الوطني (أي الحزب الحاكم) فما من جهة تفاوضت مع هذه الحكومة إلا حاولت أن تؤذيها وتخرقها...». وإنتهى الصادق المجروح بكبيرائه من ابن عمه الذي طالما علّمه الرماية ليس من أجل أن يشتد ساعده ويخطط لكي يرميه وإنما لكي يكون مساعده الدائم، إلى القول: «إن الذبيحة قادته، فلماذا إستعجال الفطيسة...».

ومع أن ضيق الصادق من ابن عمه مبارك الخارج على الطاعة المهدية هو الأكثر عمقاً في النفس، إلا أن الرجل وبعدهما كان فقد الأمل في إحتواء مبارك بالإسترضاء أو من دون الإسترضاء لا ندري، حرص على التركيز بأن الرئيس البشير هو السبب في هذا الذي حدث قائلاً أمام الإعلاميين في مؤتمر صحافي عقده يوم السبت 6-7-2002 «إن الرئيس عمر البشير ضعيف الثقافة السياسية وإن حزبه شمولي يرضع من ثدي السلطة كما انه يسعى إلى إغتيال الأحزاب فكرياً وسياسياً وتشريد كوادرها وحلها ومصادرة ممتلكاتها». وبالنسبة إلى مسألة ابن العم قال «إن (أي لمبارك ومن معه) الحرية في قرارهم ومبروك عليهم السلطة والأفضل تسريح بإحسان». وهذه الحدة في مخاطبة الرئيس البشير سببها أن الرئيس قال في لقاء بثه التلفزيون السوداني يوم الأحد 1-7-2002 وبينما الصراع داخل الأسرة المهدية على أشده» إن حزب الأمة لا يقوم على أسس ديمقراطية وإن الصادق المهدي يريد إرضاء تيارات متناقضة». وبعد الكلام الذي قاله الصادق عن البشير تصدى المسؤول السياسي في الحزب الحاكم «حزب المؤتمر الوطني» الشفيع أحمد محمد للصادق قائلاً أمام الصحافيين يوم الأحد 7-7-2002 «إن كلام الصادق رد فعل طبيعي على الأزمة التي يعيشها حزبه وهو نوع من التنفيس، كما أنه تحوّل مفاجئ من جانبه تجاه الحكومة والحزب الحاكم. ولكننا نقدر المبررات التي دعت به إلى ذلك وإن كنا في الوقت نفسه نتمنى أن يترفع المهدي عن الحديث الجارح وي طرح رأيه بموضوعية...».

يطول الحديث في شأن هذا المناخ السياسي السائد في السودان والذي يعطي إنطباعاً بأن الصراع متواصل والتعبير ممكن. كذلك يطول الحديث في شأن

«الأنصار» والتي صادف وجودي في الخرطوم إكمال المخاض الصعب الذي يعيشه حزبه «حزب الأمة» بإنشقاق مبارك الفاضل المهدي المسؤول السياسي في الحزب وإعلانه في أعقاب «مؤتمر إستثنائي» للحزب دعا إليه وشارك فيه حوالي ألف شخص يوم الخميس 11.7.2002 أن جناح ابن العم في الحزب قرر «التحالف والشرابة مع الحزب الحاكم والمشاركة في السلطة في حكومة برنامج وطني». وجاءت هذه الخطوة في أعقاب محاولات حثيثة إستغرقت حوالي ثلاثة أشهر وإستهدفت إقناع ابن العم بعدم إعتداد الانفصال حلاً وعدم إتاحة المجال أمام شماتة الشامتين بالمهدين طائفة وحزباً. لكن رغبة ابن العم مبارك في الإبتعاد جاءت تحت تأثير تداعيات خلاف شخصي وعام إختلطت فيه الأمور المالية بالأمور السياسية بالجموح نحو المشاركة في الحكم وبإغراءات كثيرة لتحقيق ذلك، وبمساعر دفينية بأن لمبارك الفاضل حقاً وراثياً مصادراً، وكذلك تحت تأثير الإقتناع بأنه إذا كان لن يعلن هذا الانفصال فإنه لن ينال شيئاً أكثر مما ناله وذلك لأن الصادق يمهّد الطريق أمام توريث تقليدي ينجزه في حياته ويتولى الأبناء بموجبه المواقع القيادية.

وما فعله مبارك الفاضل المهدي ليس جديداً في الكيان الحزبي لطائفة «الأنصار» حيث سبق ان خطا السيد أحمد المهدي عم الصادق خطوة مماثلة وخطا من بعده الدكتور شريف التهامي زوج عمة الصادق السيدة فاطمة خطوة مماثلة أفادت العائلة المهدية كثيراً لأنها حققت لأفرادها إسترجاع بيوت وسرايات وأراض سبق أن صادرها حكم الرئيس نميري. كما خطا الخطوة نفسها بعض أبناء الإمام المقتول الهادي. لكن هذه الخطوات لم تحقق الضجيج السياسي الذي حققته خطوة مبارك كون الرجل كان كاتم أسرار الصادق والعارف بـ «شيفرة» إتصالاته. ولقد حاول الصادق بعدما بدأ مبارك رحلة الجنوح في إتجاه النظام والإبتعاد عن الصادق أن يُقنع ابن عمه بالتروي، ولكن الرجل كان ذهب بعيداً. وهذا ما حمل الصادق على أن يتهم النظام بأنه وراء إختطاف ابن عمه منه وعلى أن يقول بدافع مداواة كبريائه الجريح «إن عضوية حزب الأمة في السودان قد تصل إلى نحو عشرة ملايين شخص ولذلك فإن فقدان ألف شخص لا يشكل أمراً يتوقف المرء عنده»، ويضيف إلى ذلك قوله: «لقد خسرنا بعض الناس لكننا سنكسب أضعافهم بسبب موقفنا

شيمون بيريز ما دام قام يوم الإثنين 5.8.2002 بزيارة إلى القاهرة، أن يأتي كدبلوماسي حاملاً بعض الأفكار التي تساعد على التهدئة وتنشيط العملية السلمية المتوقّفت قطارها عند المحطة الشارونية، في انتظار أن يأذن أرييل شارون لركاب هذا القطر من عرب واجانب بمتابعة رحلة المرونة التي إختاروها نهجاً لهم مفترضين في ضوء المبادرة المتوازنة لولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز والتي تبنتها القمة الدورية الثانية في مارس (آذار) الماضي في بيروت كمبادرة عربية جاءت الموافقة عليها بالإجماع، أن يتعلّق شارون فيوقف آلاعيه ومجازره وإعتدائه التي باتت برنامجاً يومياً يتولى شارون بحكومته المصغرة إختصاراً للمناقشة وتسريعاً لتنفيذ هذا العدوان أو تلك المجزرة. كما ان ركاب قطار العملية السلمية إفترضوا عن حسن نية، سامحهم الله، أن الإدارة الأميركية ستتأمل في هذه المبادرة بعين من يرغب في إنقاذ الوضع القابل للتفجر في منطقة الشرق الأوسط وبحيث ينال كل طرف حصته من قالب «الجاتوه» الفلسطيني بمعنى أن الفلسطينيين تكون لهم دولتهم وعاصمتها القدس، وأن الإسرائيليين ينالون الشرعية العربية والإسلامية بهم بعدما سبق أن نالوا وبفعل التآمر الشرعية الدولية، وأن العرب والمسلمين يرتاحون من الهم الفلسطيني وينصرفون إلى الإهتمام بأحوال بلادهم وشعوبهم مع الأخذ في الإعتبار أن نسبة الهموم العربية في المسألة الفلسطينية إنحسرت. وبعدما كان التعاطي سياسياً ومالياً في هذا الشأن واجباً فإن التعاطي بات شكلياً وبات الجميع، إذا جاز القول، يترقبون مصير الجهاد الفلسطيني ومصير التحمل الفلسطيني ونهاية الجنون الإسرائيلي عسى ولعل يساعد تراجع عمليات الجهاد وقوة التحمل، وزوال الجنون الشاروني بالذات، على نشوء الوضع الذي يبدأ فيه الحوار السياسي يأخذ فرصته. اما بالنسبة إلى الإدارة الأميركية فإن حصتها من قالب «الجاتوه» الفلسطيني ستكون الأكبر وذلك على أساس أنها ستحقق رضى يهود العالم عنها لأنها رسّخت لهم دولتهم، وستحظى في المقابل بإمتنان أصدقائها من العرب والمسلمين المنزعجين من أنها في كل مرة يؤكدون الثقة بها وعمق العلاقة معها تخذلهم بإنحيازها المطلق لإسرائيل ومن دون مراعاة مشاعر هؤلاء الأصدقاء ومدى الإحراج الذي ينشأ أمام شعوبهم. بدلاً من الكلام الدبلوماسي الطيب الذي يسبق

المصاب الجسيم الذي ألمّ بكيان طائفة «الأنصار» والمهدين عموماً متمثلاً بالخطوة الانفصالية التي أقدم عليها ابن العم مبارك الفاضل المهدي والتي كما لاحظنا تستهوي شرائح من الجيل الأنصاري الشاب. ومن شأن هذه الخطوة أن تجعل المنشقين مع الوقت كياناً وذلك لأن مبارك الفاضل أتقن اللعبة ولأنه متمكن مالياً ولأن الصادق ولأكثر من سبب موضوعي لا يحبذ الخوض في عمق الأزمة ويحرص على تحاشي تسجيل العبارات التخوينية في حق واحد من أبناء الأسرة ظن البعض في البداية أنه يجتهد، فإذا به يخطط لإفلاق داخل الحزب المرهق بالإحباطات وداخل الطائفة المثخنة بالجراحات والإنقسامات، وإلى درجة انها لم تستطع حتى الآن الإتفاق على إمام حاضر يخلف الإمام الغائب قتلاً ولا على إقناع الصادق بأن يكون تشاركياً وليس مستأثراً وبذلك تهدأ الأمور.

وفي هذه الأثناء يواصل «حكم الإنقاذ» الذي إحتل بالذكرى الثالثة عشرة له ترتيب شؤون البيت وضمن صيغة التعايش بالحسن مع الأحزاب والطائفتين أو تفتيتها، والتعايش مع الجيران بما لا يعكر الصفو العام لدى أي جار، وإستكمال إنجاز الحل مع الجنوب بما يحقق التوازن والرضى في جناحي البلد الجنوبي والشمال، وهو ما بات قريب المنال بعدما وضع «حكم الإنقاذ» بتصرف الإدارة الأميركية كل ما لديه من أوراق ووثائق ومعلومات تقيدها في حربها على «الإرهاب» وهي ثروة في نظر تلك الإدارة لكنها في نظر «الإنقاذ البشري» كانت بمثابة عبء أو أكوام من النفايات السياسية والأمنية إحتارت كيف تتخلص منها ثم جاءت العملية الترويجية يوم 11 سبتمبر 2001 في كل من نيويورك وواشنطن بمثابة وسيلة للتخلص... وحل، ربما، للخلاص وولادة سودان جديد سياسياً وجغرافياً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 31 يوليو (تموز) 2002

* * *

«الهولوكست الغزوي» بين الرامس فيلدية وأختها الشارونية؟!

كان من المفترض بوزير الخارجية الإسرائيلية

زيارة بيريز إلى مصر، وفي هذه الظروف العصيبة بالذات، نسمعه يقول في جلسة مجلس الوزراء التي جرى عقدها بين العملية الإستشهادية في الجامعة العبرية والعملية اللاحقة في «الباص» المليء بالجنود العائدين إلى وحداتهم من الإجازة والتي أودت بحياة ثمانية منهم إضافة إلى بقية ركاب «الباص» السبعين «إننا نحارب ظاهرة لم يسبق لها مثيل، وهي ظاهرة الانتحاريين. وعندما واجهت الولايات المتحدة هذا الخطر في حالة «الكاميكاز» الذين دمروا أسطولها، ردت الولايات المتحدة بإستخدام وسائل بالغة الشدة، إنها حرب قاسية وينبغي أن لا تظهر علينا علامات التهاون والضعف...».

ألم يخطر في بال بيريز، الذي حاول مكتبه التخفيف من خطورة كلامه هذا، ان الرئيس مبارك والمسؤولين المصريين الذين سيجتمع بهم سيسألونه وهم في ذروة الإستهجان: هل وصلت الحال بك يا مستر بيريز، وأنت المفترض فيك إنك الدبلوماسي العاقل، إلى حد الدعوة إلى إستعمال السلاح النووي ضد الشعب الفلسطيني؟ وهل تظن أن «هيروشيما فلسطينية» ستجعلكم آمنين ومطمئنين؟

هذه المرة ذهب بيريز إلى مصر شارونياً وهو المفترض فيه أن يهدئ من جنون رئيسه ارييل شارون. ولكنه سباق أهل الحكم الإسرائيلي على من هو الأكثر شراسة والأكثر قدرة على الفتك بالشعب الفلسطيني. ومن المفجع أن هذا السباق إقتضى أن يدعو بيريز وعلى الملأ إلى أن تتم إبادة الشعب الفلسطيني مرة واحدة وبالسلاح النووي تشبهاً بما سبق أن فعلته أميركا مع اليابانيين بدلاً من الفتك بهم خطوة خطوة على نحو ما يفعل شارون بالفلسطينيين ويساوي الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان في هذا الأمر بين المعتدي والمعتدى عليه.. يا لموضوعية هذا «الأمين»! وبدلاً من أن تكون الذكرى السابعة والخمسون لـ «هولوكست الياباني» متمثلاً بالقبلة النووية التي ألقتها أميركا على هيروشيما يوم 6 أغسطس (آب) 1945، مناسبة ينظر إليها بيريز، وهو الذي كان شاباً زمنذاك ويعي تماماً أي فظاعات تسبب بها ذلك الخيار الأميركي، كعبرة ويتعظ من تداعياتها المستمرة حتى الآن في نفوس أبناء الشعب الياباني، فإنه وهو في الربع الأخير من خريف العمر يستحضر تلك الواقعة متباهياً بها مع تلميح واضح إلى انها قد تكون الخيار الذي ستلجأ إليه إسرائيل بـ «حكومة

الوحدة الوطنية» هو وزير خارجيتها، وهذا ما يفسر لنا مرامي المخطط الشرير الذي يعمل عليه الشارونيون خطوة خطوة أو عدواناً أو مجزرة مجزرة ويقضي بتهجير فلسطينيي الضفة الغربية إلى قطاع غزة بما في ذلك قيادتهم ورئيسها ياسر عرفات وإحلال الفلسطينيين المعروفين بـ «عرب 1948» والمنتشرين في مدن فلسطين المغتصبة مكانهم، على أن يتم ترحيل هؤلاء لاحقاً إلى قطاع غزة. وكخطوة أخيرة يتم ترحيل الجموع الفلسطينية إلى الصحراء حيث تجري اباداة التجمع الفلسطيني الشامل عن طريق قنابل نووية متطورة يمكن للمصريين رؤيتها بالعين المجردة وبحيث تحرق هذه القنابل اجساد الفلسطينيين وتقت عظامهم، وبذلك لا يبقى هنالك إستشهاديون وإستشهاديات، أو «قتلة إرهابيون» على نحو تسمية الرئيس بوش وتصنيفه الظالم لهم، يرحلون إسرائيل والإدارة الأميركية وبحيث يضطر الرئيس بوش الإبن إلى إطلاق تلك الصفة عليهم تاركاً بذلك الظن به يصل إلى حد التساؤل عما إذا كان الإتيان به رئيساً هو لإيجاد الحل الموضوعي للنزاع الفلسطيني - الإسرائيلي والصراع العربي - الإسرائيلي أو لنسف كل الخطوات العاقلة التي تم تحقيقها في هذا الإتجاه.

ونحن عندما نفترض أن «الهولوكست الفلسطيني» النووي، أو «الهولوكست الغزأوي» تشبهاً بـ «الهولوكست الياباني»، أو «الهولوكست الهيروشيماي»، هو من الخيارات الواردة في المخطط الصهيوني الشرير، نأخذ في الإعتبار النوايا الشريرة والخبيثة والحاقدة لبعض الجيوب الإستشارية في الإدارة الأميركية والتي هي جيوب متصهينة. ويكفي التأمل في تقرير «المجلس الإستشاري» التابع لوزارة الدفاع الأميركية الذي نشرت صحيفة «واشنطن بوست» خلاصة عنه يوم الثلاثاء الماضي (6.8.2002) للوقوف على هذه النوايا وكيف أن الرؤية السعودية للتسوية والقائمة على الموضوعية والحكمة وبما يجعل كل الأطراف راضية كل الرضى أو على مضض، قوبلت بالإساءة. كما أننا نأخذ في الإعتبار كلام وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد الذي صادف الكشف عنه في اليوم نفسه الذي نشرت فيه صحيفة «واشنطن بوست» الكلام الذي يكشف عما يدور في البال الأميركي من افكار لا ترقى إلى مرتبة النزاهة التي هي المقياس للعلاقة الجيدة بين دولتين. وما قاله رامسفيلد أمام موظفي وزارة الدفاع هو الآتي: «شعوري

جرى خلال هذا الشهر من مقايضات يمكن أن نتلمس ملامحها في ممارسات رموز الإدارة الأميركية الراهنة وفي العلاقة الأميركية - الشارونية التي وصلت إلى حد التوأمة... أو فلنقل إلى مشارفها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 8 أغسطس (آب) 2002

شيوخ العدالة التي لا تريدها أميركا

في الوقت الذي كان ارييل شارون يصف السلطة الوطنية الفلسطينية بأنها «زمرة من المجرمين الفاسدين والإرهابيين» وهي مذمة أنت من ناقص، وعندما تأتي المذمة من الناقص فإنها بمثابة الشهادة بالكمال على نحو قول الشاعر...

وفي الوقت الذي كان وزير الخارجية الأميركية يجتمع في واشنطن بوفد من هذه السلطة ويتحدث مع اعضائها على أنهم من رموز دولة لا بد ستقوم على رغم التصرفات والتصريحات الشارونية المسعورة...

وفي الوقت الذي كانت النازية الجديدة في شخص الإحتلال الإسرائيلي تواصل اهانة الفلسطينيين رجالاً ونساء، ولا يتورع جنود الإحتلال الشاردون في شوارع المدن والبلدات الفلسطينية ترافقهم الدبابات والجرافات وتحميمهم الطائرات والرادارات كي لا يصيبهم إستشهادي بأذى، عن سوق الفلسطينيين كالأغنام وتوثيق أياديهم وتركيعهم...

وفي الوقت الذي كانت الفضائيات تبث بعض المشاهد عن الممارسات النازية الإسرائيلية ومن بينها تقييد سيدة فلسطينية محجة ووضع شاب فلسطيني في حفرة بعد تقييده، وهو واحد من مناظر تتكرر يومياً وتؤكد أن هؤلاء الشاردين المسعورين الذين يعبثون بالمجتمع العربي والإسلامي ولا يعيرون المجتمع الدولي والشرعية الدولية أي اهتمام، لن تردعهم سوى عملية تأديب عربية - إسلامية - دولية ومن النوع الذي تجعلهم يحسبون ألف حساب بعد ذلك لكل تصرف أرعن يقدم عليه الجنود الشاردون بأوامر تأتيم من القادة المسعورين الدراكولي المزاج...

في هذا الوقت كان مسؤول إسرائيلي في السفارة الإسرائيلية في بروكسل يشير إلى إنشغال البال الشاروني من مشروع قانون تقدم به في يوليو (تموز)

تجاه ما يسمى بالأراضي المحتلة هو أنه كانت هناك حرب، حثت إسرائيل الدول المجاورة على عدم التورط فيها، لكنها شاركت عندما بدأت. لقد قفز الجميع إليها وخسروا الكثير من الأراضي لإسرائيل التي كانت لها الغلبة في الصراع. سيتم إنشاء كيان ما يمكن أن تتعاطى إسرائيل معه بأمان. وقد يعود بعض المغتربين الفلسطينيين إلى المنطقة ويشكلون نوعاً من الحكومة المسؤولة التي يمكن أن تعطي الثقة بأنك تستطيع التوصل معها إلى ترتيبات يتم الإلتزام بها. أما بالنسبة إلى المستوطنات فمن الصعب القول ما إذا يجب على إسرائيل التخلي عنها...».

خلاصة التأمل في هذا الذي يحدث وفي هذه التداعيات التي يتسارع إيقاعها أن «الهولوكوست الفلسطيني» بقبلة نووية إسرائيلية، قد تكون جاهزة، هو من الخيارات المطروحة وإلا لما كان ألمح إليها متباهياً شيمون بيريز و«بعظمة لسانه»، وأن الشارونيين يعتمدون على الرامسفيلديين من أجل تحقيق هذا الخيار وأنهم من أجل ذلك شاكرون الوزير دونالد رامسفيلد على «فتواه» ذات الروحية التوراتية في شأن الضفة الغربية وما لا يزال تحت الإحتلال الإسرائيلي من أراضٍ فلسطينية وسورية ولبنانية، ربما، ومطمئنون إلى أن لديهم داخل الإدارة الأميركية بمفاصلها المدنية والعسكرية جيوباً متصهينة من نوع الجيب المسمى «المجلس الإستشاري لوزارة الدفاع» الذي يضم مجموعة من المتصهينين الحاقدين والذي مهمته التحريض على العرب وتسميم الأجواء ومواجهة نوايا الخير بأفكار الشر.

عسى ولعل يُستعاد الوعي الأميركي قبل أن نصل إلى زمن يُستحال فيه التصحيح. وفي كل يوم يمر نشعر بأن هذا الزمن على أهبة الحدوث نتيجة ما نسمعه من تصريحات وأفعال ومواقف تؤذي العرب، ولا تُصَب على الإطلاق في المصلحة الأميركية. وقد ينتهي بنا الحال إلى أننا أمام واقع جديد تبدو فيه الشارونية أنها أخت الرامسفيلدية.. والإشتان إبنتا «التشينية» بالتبني وهو ما يعتز به كثير الإعتزاز ديك تشيني وزير دفاع الرئيس بوش الأب ونائب الرئيس بوش الإبن.

أما لماذا يحدث كل ذلك، ولماذا لا تعيد أميركا النظر في هذا الذي يجري، فإن الجواب عن ذلك يقتضي منا العودة إلى ظروف إنتخابات الرئاسة الأميركية، وكيف تأجل إعلان النتائج شهراً، وما الذي

المنطقي أن نلجأ إلى السبل السياسية لتعطيله. سنتخذ إجراءات وقائية لكننا لا نعرف بعد كيف...».

ما الذي يمكن أن تفعله إسرائيل؟

هل تلجأ إلى التشهير؟ أم هل تستنفر اللوبيات الصهيونية واليهودية في الدول الأوروبية وفي بقية دول العالم لتنظيم التظاهرات التي تنطلق من المشاركين فيها إتهامات لبلجيكا بأنها ضد السامية؟ أم هل تسحب من خزانة الإبتزاز بعض الملفات المعدة سلفاً وتبدأ إستعمالها ضد الذين يؤيدون التعديل القانوني الذي بموجبه يمكن مثول ارييل شارون عاجلاً أم آجلاً أمام قاضي لا بد سيدينه إذا كان هذا القاضي حريصاً على ضميره؟ أم هل تقرر الحكومة الصهيونية الخفية التي هي المرجعية لإسرائيل الإستغناء عن بلجيكا كمحطة رئيسية لتجارة الماس؟ أم هل تقرر هذه المرجعية عدم التفریط في المحطة والإكتفاء بخطوة إحتجاج دبلوماسي عابرة وذلك بالإيعاز إلى الحكومة في إسرائيل بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بلجيكا، أو تقادياً للتعقيد وتمهيداً للتراجع الذي لا بد منه يتم خفض مستوى التمثيل الدبلوماسي؟ والخطوة الأخيرة لمحت إليها إسرائيل يوم السبت الماضي كوسيلة ضغط وتحذير وتنبية.

وأياً كان الإجراء الذي يمكن أن تتخذه الحكومة الإسرائيلية فإنه لن يرقى إلى الأهمية التي سيكتسبها القانون في حال المضي إلى النهاية في تعديله لكي لا يفلت منه ارييل شارون وبقية الجزائريين في هذا العالم. وثمة نقطة بالغة الأهمية وهي أن إقرار هذا القانون وتطبيقه في بلجيكا من شأنه أن يحمل بقية دول الإتحاد الأوروبي على إجراء تعديلات في قوانينها بحيث لا تصبح هذه الدول ملاذاً لمرتكبي المجازر إذا إستعصى إستحداث محاكم لمحاكمتهم على نحو ما تريد بلجيكا بصدق السير فيه.

والى هذه النقطة واحدة أخرى تتمثل في أن التوجه البلجيكي نحو تعديل القانون بحيث يجيز محاكمة من تُرفع الدعاوى في حقهم حتى إذا كانوا غير مقيمين على الأراضي البلجيكية، يتزامن مع بداية تبعثر في حكومة ارييل شارون قد يتطور في ضوء الإنقسام السائد في «حزب العمل» بسبب مواصلة مشاركة الحزب في «حكومة الوحدة الوطنية» إلى أن تنتهي هذه الشراكة بإستقالة وزراء الحزب تلي ذلك إستقالة الحكومة والدعوة إلى إنتخابات جديدة، ليس بالضرورة في ضوء الإستطلاعات الأخيرة أن يكتسح فيها ارييل

الماضي عدد من أعضاء مجلس الشيوخ، وهو بمثابة تطوير للقانون الذي صدر عام 1999 والذي يعطي المحاكم البلجيكية صلاحية دولية في قضايا الإنتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان. وبموجب هذا القانون كاد شارون الذي هو المجرّم للإنتهاكات المشار إليها يعلّق في الشباك ثم أمكنه الإفلات بسبب الضغوط الأميركية المستترة من جهة ومجتمع تجارة الماس التي بلجيكا مركزها الأساسي في العالم والتي يستأثر اليهود بها، أما كيف جاء المخرّج لإفلات شارون من الدعوى التي أقيمت عليه إستناداً إلى مجزرة صبرا وشاتيلا، فمن خلال ثغرة تقيد أن ارييل شارون غير موجود على الأراضي البلجيكية وأن القانون يختص بمن هم مقيمون. وهذه الثغرة كانت الدافع لعدد من أعضاء مجلس الشيوخ البلجيكي الذين صاغوا مشروع قانون جديداً لا يتطلب أن يكون المشتبه بهم، أمثال ارييل شارون، مقيمين في بلجيكا لمحاكمتهم بموجب القانون.

من الواضح أن إفلات شارون من الشباك يبدو صعباً هذه المرة خصوصاً إذا كانت هنالك جدية من جانب المحامي اللبناني وجدي الملاط ومؤازرة مجموعة من المحامين العرب والدوليين ومنهم بلجيكيون ويهود. والذي سيساعد على ذلك هو كبرياء البلجيكيين الذين لا يريدون لقانون يتباهون به على بقية دول العالم الإندثار والتلاعب به من جانب الشارونيين، وهو أيضاً إمعان المشتبه به شارون في ارتكاب المزيد من المجازر بحيث أن الأمر لا يقتصر على «مجزرة صبرا وشاتيلا»، كحيثية للدعوى عليه، وإنما هنالك «مجزرة مخيم جنين» و«مجزرة غزة» فضلاً عن أنه إلى حين أن يصبح مشروع القانون الجديد قانوناً قائماً ومصدّقاً عليه سيكون شارون أضاف المزيد من المجازر إلى ملفه الذي يقطر إجازماً وإرهاباً.

وعندما نقرأ تعليق المسؤول في السفارة الإسرائيلية في بلجيكا حول مشروع القانون الجديد ونلاحظ أي هلع يستبد سلفاً في أوساط الشارونيين، يتعمق شعورنا بأننا لسنا وحدنا المتضررين من النازية الجديدة وإنما هنالك ضيق على المستوى الدولي وإن كانت المصالح السياسية والمالية تغطي أحياناً على هذا الضيق. ومما قاله مسؤول السفارة الإسرائيلية: «إننا نأخذ هذا الأمر بجدية شديدة. لقد تصوّرنا ان الموضوع إنتهى، لكن القانون الجديد قد يسمح برفع دعاوى جديدة. ومن

شارون الموقف، وربما يصبح مجرد رمز في الحياة السياسية العامة لمرحلة دفع فيها الإسرائيليون الثمن غالباً من دون أن يفتنوا إلى أن خسائر الفلسطينيين على أيدي الحكم الشاروني تبقى لمصلحتهم على أساس أنهم في نظر العالم معتدى عليهم في حين أن كل الذين جناه الإسرائيليون من شارون هو مئات الضحايا وألوف الجرحى الذين سقطوا في عمليات إستشهادية، فضلاً عن نقمة دولية دافئة وإلى حد الكراهية على إسرائيل كونها معتدية.

وفي إنتظار التطورات يجد المرء نفسه يسجل بالتقدير موقف الشيوخ البلجيكين الذين هم شيوخ العدالة التي ترفض الإدارة الأميركية إعتمادها، والذين تقدموا بمشروع القانون الجديد. ونتذكر أي مروءة كان عليها بعض الشيوخ الذين زاروا لبنان قبل بضعة أشهر وصرحوا بما يمليه عليه ضميرهم وبما سمعته آذانهم وشاهدته عيونهم. وفي النهاية هنالك في هذا العالم من يقول كلمة الحق. لعل وعسى يتأمل الأمين العام للأمم المتحدة كوفي انان بعض الشيء في هذا الموقف البلجيكي النزيه ويوقف إندفاعه في اتجاه ما تقرضه إسرائيل على الإدارة الأميركية وتقرضه هذه الأخيرة بالتالي على كوفي انان. ومن بين المفروضات التقرير السيئ الصيغة والمضمون للأمين العام حول «مجزرة جنين» وإنضمامه إلى لائحة المطالبين بتجاهل الرئيس ياسر عرفات. وهذا ما لمسناه في قوله خلال مقابلة أجرتها معه الأسبوع الماضي القناة العاشرة في التلفزيون الإسرائيلي «إن عرفات موجود في عزلة الأمر الذي يعني عملياً عدم إمكانية إجراء إتصالات معه. وإزاء ذلك يجب التركيز على شخصيات فلسطينية أخرى...».

يا ليتة أثر الصمت بدل أن ينطق كلاماً مصوغاً بمفردات شارونية - بوشية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 14 أغسطس (آب) 2002

* * *

إيران: «مقايسة الطمأنينة» و«إستيراد

المرونة» بعد «تصدير الثورة»

أظهرت المقابلة الصحافية التي أجرتها صحيفة «واشنطن بوست» مع الأمير سعود الفيصل وزير

الخارجية السعودي ونشرتها يوم الاحد 11 أغسطس (آب) 2002 حقيقة جديدة في النهج الإيراني، وهي أن إيران التي طالما كانت تتشط من أجل تصدير ثورتها باتت في صدد اعتماد نهج جديد يقوم على إستيراد المرونة، وهو نهج يعود الفضل في زرعه كبذرة في التربة الإيرانية قبل أربع سنوات إلى ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز الذي حقق خلال زيارة قام بها إلى طهران ما يجوز إعتباره عملية مقايضة للطمأنينة، أي بما معناه تطمئن الدولتان الأكثر تأثراً في المحيطين الخليجي والإسلامي إلى بعضهما البعض وتؤسسان بالتالي لعلاقة تبدو محوراً وهي ليست لعلاقة بالمحور أو تحالفاً وهي ليست بالتحالف. وإذا كان لا بد من تصنيف هذه العلاقة فإنه يمكن إعتبارها «جبهة التهدة» في المنطقة ورسم معالم التحرك العربي - الإسلامي في المرحلة المقبلة. أما لماذا إعتبار العلاقة بأنها «جبهة التهدة» فعلى أساس أن علاقة الدولتين بسوريا والتأثير الذي لكل من إيران وسوريا في لبنان على الصعيدين الرسمي والشعبي فضلاً عن الإرتباط الإستراتيجي على المستوى الرسمي والتتموي بين السعودية ولبنان، تشكل مجتمعة مفتاح الحل للمشكلة المستعصية. ومثل هذا التوافق يحقق التهدة المرجوة في حال قرر الأقطاب المشار إليهم العمل على استحضارها كبديل لا خيار غيره في هذه المرحلة الصعبة التي تعيشها المنطقة، وبالذات بعد العملية الترويعية يوم 11 سبتمبر (أيلول) الماضي في كل من نيويورك وواشنطن وما نشأ عن تلك العملية من تداعيات لعل أبرزها التحول المريع في المفاهيم الأميركية، وهي مفاهيم باتت تقوم على قاعدة الهلع والتلهيع أو الفرع والإفزاع وعدم الإصغاء إلى أي نصيحة وبالذات تلك التي تأتي من أصدقاء.

بعد تلك الزيارة للأمير عبدالله إلى طهران والبذرة التي زرعها في تربتها الثورية ونمو تلك البذرة بحيث باتت خطأ أو نافذة يتسلل منها نسيم أقل صخباً من الهواء الثوري اللافح الذي كان يتدفق عاصفاً، بدأنا نرصده في بعض المناسبات مواقف يستنتج المرء منها أن خطأ موازياً للخط الثوري المتشدد بات يتكون، وهو خط يتسم بالهدوء وأهميته أنه قوي وأن التخاطب لم يعد يقتصر على الخط المتشدد. وفي الوقت الذي كان فيه مرشد الثورة آية الله خامنئي والرئيس السابق هاشمي رافسنجاني يصرخان في الوجه الأميركي من خلال كلمات يلقيها الأول في مناسبات وخطبات

له على نحو ما كان من قبل، وشكلت أيضاً ما يشبه الإقتناع الإيراني بأن إستمرار نظام البعث في العراق هو على رغم ما للثورة الإيرانية من ثارات عليه يبقى عنصر إستقرار أكثر مما لو أوصلت الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية متضامنتين متكافلتين نظاماً بديلاً لا يمكن الركون إلى إستقلالية أشخاص في إتخاذ القرار ولا إلى قدرات هؤلاء الأشخاص على تنفيذ ما يمكن التوصل إليه من إتفاقات.

كان لا بد من هذا التمهيد قبل التأمل في الخطوة الإيرانية التي ألمح اليها وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل في المقابلة التي أجرتها معه صحيفة «واشنطن بوست» وهي خطوة لعلها الأهم في سياق خطوات قليلة حدثت وخطوات كثيرة على أهبة أن تحدث، وتؤكد ما يجوز إعتباره نهجاً جديداً لإيران يقوم على «إستيراد المرونة» ومن المنبع الذي هو المملكة العربية السعودية وصرف النظر تدريجياً عن نهج «تصدير الثورة»، علماً بأن خطوة واحدة في إتجاه إستيراد المرونة كافية لجعل التصدير مستبعداً وغير قابل للإستمرار. ويمكن إعتبار الخطوة التي أشار إليها الأمير سعود والمتعلقة بتسليم السلطات الإيرانية للسلطات السعودية ستة عشر سعودياً حاولوا اللجوء إليها فارين من أفغانستان في أعقاب الحملة ضد نظام «طالبان» وتنظيم «القاعدة»، بأنها مؤشر إلى ما نقوله في شأن سير إيران على طريق نفص اليد من بعض الحالات الثورية، مع الأخذ في الإعتبار أن تسليم هؤلاء الستة عشر إلى السعودية وتسليم آخرين مثلهم إلى دولهم هو مثل تسليم الحكم السوري الزعيم الثوري الكردي عبد الله أوجلان إلى تركيا بشكل غير مباشر أي تسهيل إمكانية إستلامه ما دام بات خارج سوريا، ومثل تسليم السودان للثوري الأممي كارلوس إلى فرنسا.

وقد نجد من يقول إن العلاقة بين الحكم الثوري في إيران ونظام «طالبان» ومعه تنظيم «القاعدة» كانت في إستمرار سيئة، بل إن لإيران في ذمة «طالبان» ثارات على ما فعله الطالبانيون بالأفغان الشيعة طوال سنوات حكم «طالبان»، وأن هذا الأمر يجعل من اليسير بمكان على إيران تسليم الطالبانيين القاعديين في حين أن التسليم كان سيبدو على درجة من الصعوبة، بل والإستحالة، لو كان المحل تسليمهم من صنف ثوري آخر. ولكن الأهم يتقدم على المهم. والأهم الذي نعنيه هو أن الخطوة حدثت وسلّمت

جمعة يلقيها الثاني في جموع المصلين الذين يؤمهم في جامع طهران، كان الرئيس محمد سيد خاتمي وبعض الخاتمين الذين يحيطون به يقولون الكلام الذي ينساب هادئاً إلى الأذان الأميركية ويتسرب بالتالي إلى عقولهم. ووصلت الحال إلى حد أن وزير الخارجية الدكتور كمال خرازي الذي هو أحد كبار الخاتمين ممن ليسوا من رجال الدين دعا يوم الجمعة 12 أبريل (نيسان) 2002 خلال زيارة مفاجئة قام بها إلى لبنان إلى «ضبط النفس»، فبدأ بذلك مثل السفير الأميركي السابق في بيروت ديفيد ساترفيلد الذي بات معروفاً بأنه «سفير ضبط النفس» أو «المستر ضبط النفس»، وذلك لكثرة ترديده لهذه العبارة في كل مرة كان يتعرض فيها لبنان لعدوان إسرائيلي. وهذه الدعوة المبالغتة من جانب إيران لأو «ضبط النفس الأميركي» إنما بنكهة عجمية أحدثت حالة من البلبلة في صفوف قيادة «حزب الله» الأمر الذي ترتّب عليه الكثير من التوضيح إنما من دون أن يزول تماماً الحذر من نفوس المقاومين. ومن بين التوضيحات التي سارع الخاتميون إلى الإفصاح عنها توضيح إعتذاري المنحى جاء من الوزير خرازي نفسه الذي قال «إن ضبط النفس هو في إتجاه التحرشات الإسرائيلية لأن إسرائيل هي الطرف الذي يسعى إلى توسيع دائرة الحرب. أما المقاومة اللبنانية في سائر الأراضي اللبنانية المحتلة فهي تُعتبر حقاً مشروعاً للبنان...»، أي ما معناه أنه لا يقصد من إستعمال مصطلح «ضبط النفس»، الذي أورده بشكل مباغت وكأنما زيارته المفاجئة إلى لبنان هي لهذا الغرض، المطالبة بوقف عمليات «حزب الله» في مزارع شبعا التي ما زالت تحت الإحتلال الإسرائيلي.

بعد ذلك الكلام الذي قاله خرازي وأهميته أنه قيل على الأرض اللبنانية باتت «جبهة التهدة» بقطبيها السعودي والإيراني تأخذ طريقها في إتجاه قطع الطريق على أي حجج أميركية لتنفيذ ضربات لحالات في المنطقة من شأن ضربها، وأياً كان عليه حجم الضربة، إحداث خلل جوهري في المعادلة القائمة. ولعل أهم هذه الحالات تلك التي في لبنان متمثلة بـ «حزب الله» وتلك التي في العراق متمثلة بالنظام الذي يقوده حزب البعث. ومن أجل ذلك فإن «جبهة التهدة» شكلت ما يشبه الحماية لـ «حزب الله» بحيث أن الإدارة الأميركية باتت تقتنع بالتحليل السعودي لحالة هذا الحزب فلا يعود التحريض عليه والإكثار من تصريحات الإتهام

«إيران الثورية» عناصر «ثورية» إلى سلطات نظام محافظ كان في الثلث الأول من السنوات الخمينية محط أنظار الإمام وتطلعاته.

ويبقى التساؤل: ما الذي يجعل إيران تستدير في اتجاه المرونة؟

إذا كان السبب عن إقتناع بأن لكل مرحلة ظروفها ولكل ثورة ضرورتها ولكل حكم إجتهداته، فإن الخطوة الإيرانية جيدة بعدما بات حديث الثورة ليس مشوّقاً وبعدها زالت ضرورات التشدد الثوري بصمود الثورة وإقتربها من يوبيلها الفضّي، وبعدها باتت هنالك تعددية خجولة في إيران وبات هنالك حكم قوي هو الحاصل على شرعية شعبية قوية يقوده بثبات وتحمل ملحوظين الرئيس محمد خاتمي.

وإذا كان السبب نتيجة نبذ أهل الثورة أو بعضهم في إيران للعناد وفي إطار النظرة إلى أن مصلحة الوطن تتقدم على مصلحة الهالة لمن هم في سدة الحكم، فإن الخطوة تشكل أمثلة في التطور الثوري ونقله من حافة المخاطرة إلى شاطئ الأمان. وهذا سيذكره الإيرانيون للرئيس خاتمي بالخير وربما يجددون له الرئاسة ولاية ثالثة لكي يعمّق هذا النهج وينجز عملية إستبدال التشدد بالمرونة وهذا في أي حال لمصلحة إيران... الشعب والدولة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 21 أغسطس (آب) 2002

* * *

أهمية حياد الأمين العام للجامعة

منذ أن تسلّم عمرو موسى منصب الأمين العام للجامعة العربية وفي أجواء من الترحيب العربي الشامل بمقدمه، والرجل يحاول جاهداً إزالة التجاعيد السياسية التي تكاثرت على وجه الجامعة والتخفيف من الترهل الذي أصاب الجسد السياسي للأمة متمثلاً بجامعتها، وإختراق الحواجز المنيعّة التي باتت، بفعل النقّاد، من المحرمات التي لا يجوز إختراقها. وبدا عمرو موسى وكما لو أنه طبيب التجميل السياسي، وأنه ما دام حظي بهذا الترحيب الذي جاءه من جانب القادة العرب الذين التقوا في القمة العربية الدورية الأولى في عمان يوم 27 مارس (آذار) 2001، فإن هؤلاء القادة لا بد سيدعمون مهمته ويحيطونه

بالإهتمام بحيث لا تقتير بعد الآن كي لا يستمر الهاجس التقليدي بأن الجامعة على مشارف الإفلاس وأن رواتب الموظفين البالغ عددهم حوالي خمسمئة شخص مؤجلة الدفع أو ربما من الصعب تسديدها.

ولقد مرت فترات كان فيها الأمين العام يصرخ من شدة الجزع من أن تتحول الجامعة إلى مجرد طلل سياسي، وأن ينتهي أمر أمينها العام الى أنه مثل متعهدي الحفلات الفنية أو منظمي المؤتمرات والندوات، وظيفته تأمين إنعقاد مؤتمر ترى الدول الأعضاء ضرورة عقده.

وبمجرد أن تسلّم عمرو موسى المنصب في 16 مايو (أيار) 2001 بدأ يرمم ما يمكن ترميمه، موحياً بأنه جاء ينتشل الجامعة من وهبتها وينقذها من الرتابة التي هي عليها والإسترخاء الذي هو سمة حركتها، وهو ما ترك بعض الأسى ومشاعر العتب في نفس الأمين العام السابق الدكتور عصمت عبد المجيد، مع أن الرجل سعى وبالات خلال ولايته الثانية وفي نطاق ما تجيزه الظروف العربية السائدة في أواخر سنوات ولايته لإختراق «المحرمات»، ومن بينها زيارة العراق وجعل إجتماع الملوك والرؤساء لا يبدو في إستمرار بأنه من المعجزات. وفي هذا الصدد نشير إلى أن الدكتور عصمت عبد المجيد سبق عمرو موسى في زيارة العراق عندما توجّه إلى بغداد عام 1998 مكلفاً من الرئيس حسني مبارك الذي كان عامذاك رئيساً للقمة، وأثمرت زيارته الإفراج عن 1500 سجين عربي من بينهم ثلاثة كويتيين. كذلك نشير الى السعي الهادئ للدكتور عصمت عبد المجيد من أجل أن يصبح إنعقاد القمة العربية دورياً فلا تعود هنالك حاجة إلى القمم الطارئة ما دامت القمة ستعقد مرة كل سنة في واحد من الدول العربية وفق الترتيب الأبجدي الذي حدث بالفعل. والقمة العربية الدورية الأولى التي إستقبل فيها القادة العرب تعيين عمرو موسى أميناً عاماً جديداً للجامعة هي إحدى ثمار ذلك السعي للأمين العام السابق.

لكن الأسلوب الهادئ للدكتور عصمت عبد المجيد والأسلوب الديناميكي لعمرو موسى جعل هذا الأخير ينطبق عليه ومع بعض التعديل قول الشاعر بأنه أتى ما لم يستطعه من كان قبله. وهذا الشعور ناشئ عن الزيارة التي قام بها عمرو موسى الى بغداد وعاد منها مغضباً عليه من بعض وسائل الإعلام الكويتية وبعض المتشددین في البرلمان الكويتي الذين ما زالوا

غير مستعدين لفتح الصفحة الجديدة مع العراق. وما دواعي هذا الغضب إلا لأن الرجل أراد أن يكون على درجة من الحياد إزاء «أم الأزمات» العربية التي هي بين العراق والكويت. كما أن هذا الشعور ناشئ عن التحرك السريع الإيقاع لعمر موسى حيث أنه جاهز دائماً للتعاطي مع أي أزمة عربية تنشب فجأة أو مع أي أزمة تستقحل وإلى درجة تصبح بمثابة الكابوس على الجميع في حال عدم محاصرتها من خلال التحرك السريع على نحو ما يفعل عمرو موسى وما كان لا يفعله بالدينامية نفسها الدكتور عصمت عبد المجيد. وفي اعتقادنا أن عامل السن هو من جملة عوامل جعلت عمرو موسى ماراثونياً، بينما جعلت عصمت عبد المجيد يفضل رياضة المشي المتهمل على نحو ما يفعل المتهملون في مثل سنه في نادي الجزيرة في القاهرة أو في سائر النوادي التي تتميز بها العاصمة المصرية.

وحتى الآن لم تتحقق لعمرو موسى تمنياته وأحلامه في ما يخص الجامعة العربية. ومع أنه دائم الابتكار وي طرح في استمرار أفكاراً يستهدف منها التطوير، إلا أن الرجل يصطدم بالواقع المأساوي للجامعة وبالمعادلات التي تثير التحفظات لدى بعض الدول الأعضاء. والمال هو قمة هذا الواقع. فهناك في الأصل متأخرات تقوق المائة مليون دولار. ويسعى عمرو موسى إلى أن يكون تسديد الحصص ملزماً بمثل ما بات عليه إنعقاد القمة الدورية ملزماً وفي الموعد المحدد، وبذلك لا يستمر هذا العجز المالي. ولكن الذي يحدث هو أن المقتدرين يدفعون حصصهم بتناقل وهناك غير المقتدرين الذين يسارعون إلى الاشتراك في إجتماعات الجامعة إلا أنهم لا يدفعون ما يترتب عليهم من التزامات مالية. ولقد اعتبر عمرو موسى أنه بالعلاقة الطيبة التي بينه وبين وزراء الخارجية العرب، الذي ربطته بهم أيام كان وزيراً للخارجية المصرية ومعظمهم ما زال في منصبه، يستطيع أن يستعجل التسديد. لكن هذا الأمر كان سيفيد أكثر لو أن العلاقة الجيدة هي مع وزراء المالية ومديري البنوك المركزية.. أو مع رؤساء الحكومات على نحو ما هو عليه هذا التميز في العلاقة لكل من الأمين العام السلف عصمت عبد المجيد، والأمين العام الخلف عمرو موسى مع رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري دون غيره من رؤساء الحكومات العرب. وفي إستطاعة هؤلاء أن يفعلوا الكثير في هذا الشأن

للأمين العام أكثر مما يفعله وزراء الخارجية. ومع أنه لا أمل على المدى القريب يُرتجى في ما يخص تصحيح الوضع المالي للجامعة العربية، وأن تقليص النفقات بإغلاق بعض مكاتب الجامعة في عدد من الدول العربية لم يحل المشكلة المتفاقمة، فإن الأمين العام عمرو موسى يواصل طرح أفكار التطوير عسى ولعل يلفت ذلك إنتباه القادة العرب فيدعمون سعي الرجل الذي قد ينتهي به الأمر أميناً عاماً على مدى ولايتين تستغرق كل منهما خمس سنوات. ومن أحدث ما يقال في هذا الإطار هو أنه يجري التشاور في رحاب الجامعة من أجل إنشاء «مفوضية العرب في المهجر» وبالذات لحوالي ثلاثين مليوناً وجدوا أنفسهم في ضوء العملية الترويجية في كل من نيويورك وواشنطن يوم 11 سبتمبر (أيلول) الماضي، يحتاجون إلى الحماية وإلى المرجعية العربية التي تتابع ظروفهم وتتنظر في مشاكل تصيبهم من نوع المشكلة الناشئة عن تداعيات العملية الترويجية المشار إليها. والفكرة إيجابية في أي حال وإن كانت التحفظات التي تحيط بها كثيرة. لكن مثل هذه المفوضية تعني إضافة عبء جديد إلى الأعباء، وإضافة رقم جديد إلى أرقام العجز المالي، فضلاً عن أن مثل هذه الفكرة تعطي إنطباعاً عن الأمانة العامة للجامعة بأنها تُشغل نفسها بما لا يعنيهها، ذلك أن مسؤولية مثل هذا الكم الهائل من عرب المهاجر تقع على كل دولة لديها جماعات مهاجرة إلى دول العالم وبالذات الدول الأوروبية والولايات المتحدة وكندا وأستراليا وأفريقيا. ونعود إلى مسألة العجز عن التطوير التي لا تبدو سهلة لندي وجهة نظر خلاصتها أن يكون للجامعة العربية مكتب داخل بعض السفارات العربية لدى الدول الكبرى وبذلك لا يعود هناك موجب لأن تكون هناك مكاتب مستقلة يعمل فيها عدد من الموظفين، وبهذا التمثيل لا تعود الجامعة العربية مضطرة للإكثار من فتح المكاتب ولا للإكثار من إغلاق مكاتب بداعي التقشف وترشيد النفقات. ونقول ذلك على أساس أن أي تعديل في مواقف هذه الدولة أو تلك لا يحققه مكتب الجامعة العربية وإنما الذي يحققه هو وزن مصالح هذه الدول مع الدول العربية. وفي هذه الحال فإن العنصر الفاعل يصبح سفير تلك الدولة العربية مع حكومة الدولة الأجنبية التي يمثل بلده فيها. وثمة نقطة جديرة بالتسجيل وهي أن الشعور السائد لدى معظم الدول العربية بأن جامعتهم ليست بالفعالية

ومن الإجتماعات غير المطروقة. وبدا الإجتماع كما لو أنه لمحاصرة موجة إحتجاج وعدم رضى صامت داخل المؤسسة الدينية على الذي جرى بعدما تجاوزت الحرب الشارونية على الفلسطينيين ما لا يمكن السكوت عليه. ونحن عندما نقول ذلك فاننا نأخذ في الإعتبار أن هذه الحرب أخذت شكل المجازر واكتسبت الطابع العنصري وأفقدت اليهود ورقة الإستزاق الدولي التاريخية المتمثلة بأنهم قاسوا مر العذاب والتعذيب في الحقبة النازية. أما كيف إهترت هذه الورقة أو فقدت فعاليتها، فلأن الذي جرى في حق الفلسطينيين خلال السنتين الأخيرتين فاق في ضروته بكثير ما أصاب اليهود من النازيين، وبحيث بات الفلسطينيون هم ضحايا يستحقون إهتمام العالم ومساعداته، وبات الشارونيون جلادين عنصريين يديسون على كل ما يرون أنه يعيق جنوحهم الدموي.

والأهم من هذا كله هو أن الممارسات الشارونية باتت متعارضة مع ما في التوراة من رؤى وأخلاقيات لا يجوز لليهودي القفز فوقها على نحو ما فعله ويواصل الشارونيون إرتكابه على الأرض الفلسطينية. ولولا أن كبير حاخامات بريطانيا جوناثان ساكس لم يشير إلى ذلك، لما كنا أدركنا أي شعور بالإحباط أصاب رجال الدين اليهود، نستثني منهم النوع المتشدد أمثال عوفاديا يوسف الذي ملأ صفحات سيرته بمواقف ضد العرب والمسلمين والفلسطينيين تتضح بالمفردات النازية حيث أنه مرة يصفهم بأنهم مثل الأفاعي ومرة يجيز قتلهم، ووصفهم ذات مرة بأنهم مثل الحيوانات... وهكذا. وكل هذه الأوصاف لا تليق به كرجل دين مهما كانت مشاعر الكراهية للآخرين متأصلة في نفسه. فهو في نهاية الأمر مؤتمن على أن يعبر بكل الصفاء عما في صفحات كتابه الذي هو «التوراة».

وعندما يقول كبير حاخامات بريطانيا في المقابلة التي أجرتها معه صحيفة «الغارديان» وأثارت بعض المتشددون داخل إسرائيل «أن مواجهة إسرائيل للفلسطينيين في الإنتفاضة تمثل تهديداً للمبادئ الجوهرية للعقيدة اليهودية إذ أنها تجبر إسرائيل على إتخاذ مواقف لا تتماشى على المدى الطويل مع أعقق مُثلنا...»، ويقول أيضاً: «إنني أرى أن الموقف الحالي ليس أقل من مأساة، ولقد أصيبت بصدمة بالغة للتقارير حول ممارسات الجنود الإسرائيليين في الضفة الغربية، ومنها صور يظهر فيها جنود وهم يبتسمون بالقرب من

المطلوبة هو الذي يجعل هذه الدول تبدي الكثير من التباطؤ في تسديد الإلتزامات. وعندما يتأمل المرء في الأحوال السائدة في العالم العربي ومدى التعقيدات التي تحيط بالعلاقات بين البعض، يستغرب كيف أن الأمين العام لا يقتحم الميدان مقترحاً وموفقاً ومحاولاً تحقيق نوع من التآلف بين القلوب. والسبب في ذلك أن الأمين العام للجامعة العربية عن قصد أو عن غير قصد أو نتيجة ضغوط يتعرض لها أو نتيجة مؤثرات، لا يتمسك كثيراً بمسألة الحياد، بمعنى أنه يجد نفسه منحازاً على نحو إحتياز الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان، مع إختلاف دواعي الإحتياز وأطرافه. وما نقصده من هذا التشبيه هو أن حياد الأمين العام للجامعة العربية حيال الأزمات والقضايا العالقة بين الدول الأعضاء هو الذي يضفي الكثير من الحيوية على هذه المنظمة التي أنشئت في الأصل بغرض جمع العرب على كلمة سواء وليس الإنشغال بأفكار التطوير التي لا تُكتب لها فرصة التنفيذ لأن المال غير متوفر... ولأن الحماسة والنية الطيبة وحدهما لا تكفيان.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 29 أغسطس (آب) 2002

* * *

الانتفاضة الحاخامية

لا ندري ما الذي سمعه رئيس الأركان الإسرائيلي الجديد الجنرال موشي يعلون من كبار حاخامات إسرائيل عندما بدأ ممارسة المنصب بإجتماع مغلق معهم أرادته سرياً بعيداً عن آذان الإعلاميين من صحف وإذاعة وتلفزيون وعن عيونهم، ثم أذاع القليل من الكثير الذي قيل خلال هذا الإجتماع الذي تم مساء يوم الاحد 2002/08/25، لكن كلاماً منسوباً لكبير حاخامات اليهود في بريطانيا جوناثان ساكس نشرته صحيفة «الغارديان» بعد يومين، أي الثلاثاء 2002/8/27 بدا كما لو أنه رد على ذلك الإجتماع، وتحديد على ما قرأه الحاخام جوناثان وما وصله من تفاصيل.

كان إجتماع رئيس الأركان الإسرائيلي الجديد بكبار الحاخامات ومن بينهم الأشكينازي الأكبر مئير لاو والسفاردي الأكبر الياهو بكيشي دورون لافتاً للإنتباه

قد نجد من يقلل من فعالية كلام كبير حاخامات يهود بريطانيا ويرى أنه كمثّل ترنيمه بلبل في غابة ملأى بالصقور الجارحة، أو منازل مهجورة من جراء القصف لها إستوطنتها غريبان تتعق على مدار ساعات الليل والنهار، لكن أهمية هذا الكلام أنه يأتي بعد مأساة ومتابعة ميدانية لما تم إقترافه من آثام، بدءاً بالإغتيال والقصف والتدمير وإقتلاع الشجر والتمثيل بالجثث وترك الجرحى ينزفون حتى الموت وعدم تمكين الحوامل من الذهاب إلى المستشفى، ولذا فإن كثيرات وضعن مواليدهن على حافة الحواجز، ويقابل ذلك تناثر الأجساد في الحافلات وفي الأسواق والمطاعم والملاهي بفعل العمليات الإستشهادية الإضرطارية. كما أن الكلام يأتي في ضوء الحقيقة الساطعة وهي أن العنف لم يحقق الأمن للإسرائيليين ولا السلامة للفلسطينيين وأودى بالسلطة عوض التسريع في قيام الدولة. وهذا يؤكد صواب المنطق الذي يرى أنه لا سبيل سوى الحوار ولا حل من دون تنفيذ ما صدر عن الأمم المتحدة من قرارات، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه القرارات ومنها القرار 242 صدر في الزمن الذي كانت فيه إسرائيل قد حققت إنتصاراً كبيراً، الأمر الذي يعني أن القرار صدر مراعيّاً المنتصر الإسرائيلي أكثر مما يراعي المهزوم العربي. ومن الجائز التوقع بأن هذه الإنتفاضة الحاخامية تبقى، على كونها محدودة، نقطة جذب لمواقف إسرائيلية هي لا بد في مرحلة التكوين. وعندما يصدر عن الحاخام تشارلز ميدلبورغ المدير التنفيذي لـ «إتحاد الكُتس الليبرالية والتقدمية» في بريطانيا تعليق يقول فيه: «إنني أحيي جوناثان ساكس للشجاعة التي أبدّاها في التعبير عن وجهة النظر تلك مع إدراكه بأنها لن تلقى ترحيباً في أوساط معيّنة...»، فهذا يؤكد ما يمكن ان نتوقعه في شأن الإنتفاضة الحاخامية المشار إليها، والتي تتزامن مع إنتفاضة مماثلة في الكنيسة البروتستانتية البريطانية أطلق شرارتها الأولى أسقف كانتربري الجديد روان وليامز بإعلان رفضه الضربة الأميركية للعراق التي تراوح مكانها منذ شهرين نتيجة تحفظات عربية وإسلامية ودولية كثيرة في شأنها. ولا تقل الإنتفاضة الحاخامية أهمية عن الإنتفاضة البروتستانتية، كون هذين الرمزين الدينيين يؤثران في شكل أو آخر على عشرات رجال الدين في الولايات المتحدة، حيث أن عدداً من الحاخامات الليبراليين التوجه في بعض المدن الأميركية سينصتون ولا شك

جثة شهيد فلسطين». انه عندما يقول هذا الكلام حاخام عريق ومستتير، فتلك شهادة من جانب رجل دين مستقيم تشكل ما يشبه الإدانة لرجل سلطة شرير ودموي وجزار مثل اربيل شارون. ولو أن هذا الكلام جاء من عربي، رجل دين كان هذا العربي أو إنساناً عادياً، أو حتى جاء في شكل مقالة في صحيفة بريطانية أو أميركية وبقلم كاتب أجنبي لا يمت إلى العرب والمسلمين بصلة، لكان رد الفعل الشاروني عليه بأن هذا الكلام ينبع من مشاعر معادية للسامية. أما وأن قائل هذا الكلام يهودي ورجل دين وصل إلى المرتبة العليا وفي السن التي عايش صاحبها حربين عربيتين - إسرائيليتين وأمكنه أن يعرف بأن الحروب والبطش وعمليات الإبادة لم تُنقِ عربياً ولا مسلماً وبالذات الشعب الفلسطيني بأن فرض الإرادة بالقوة ممكن... أما وأن القائل هو كما أردنا، فإن أياً من الشارونيين لا يمكنه تشغيل الإسطوانة التقليدية التي تتحدث كلماتها عن معاداة السامية. لكن ذلك لا يعني انه ليست هنالك دهاليز وكواليس يتلطى فيها أولئك الذين للشارونية والشارونيين تأثير عليهم أمثال الحاخام شلومو غولد عميد «كلية القدس للبالغين» الذي أزعجته كلمة الحق التي أراد بها الحق ولا شيء غير الحق كبير حاخامات بريطانيا جوناثان ساكس، فتناوله من مقر إقامته في إسرائيل بالنقد قائلاً: «إن وجهة نظرنا نحن الذين نقيم في إسرائيل وفي حال من عدم الاستقرار هي المؤثرة حقاً. إن الأجندة الفلسطينية تضمنت تدمير دولة إسرائيل. وثمة رد أوحده على هذا الأمر. والرد المعنوي الوحيد المنسجم مع الإيمان اليهودي يتمثل في الوقوف والقتال والدفاع عن أنفسنا. وكل فعلٍ مماثل ليس لا أخلاقي، بل انه يجسد على النقيض من ذلك قمة الأخلاق...».

ومن المهم الإشارة إلى أن كبير حاخامي بريطانيا جوناثان ساكس لا يميل إلى التعاطي في الشأن السياسي، كما انه ناشط قوي من أجل إسرائيل في بريطانيا والدول الأوروبية عموماً.. وهذا يعطي كلامه مصداقية مجردة، خصوصاً أنه سبق أن قال في تصريح له «إنني على إقتناع بأن على إسرائيل إعادة جميع الأراضي (يقصد المحتلة خلال حرب 1967) من أجل السلام»، وخصوصاً انه يشمل بالملامة الجانب الفلسطيني، مشيراً إلى أن «القفة الملموسة» من جانب إيهود باراك قبل سنتين لم تقابلها «قفة مملوسة موازية» من الجانب الفلسطيني.

لما يقوله كبير حاخامات بريطانيا، وحيث أن أسقف كانتبري هو مرجعية مرموقة بالنسبة إلى عشرات رجال الدين في الكنيسة البروتستانتية الأميركية.

ولولا الإنتفاضة الفلسطينية التي تأخذ الآن ما يجوز إعتباره «إستراحة المنتفض»، لما كان لهذه الإنتفاضة الدينية في وسط الحاخامات أن تحدث. وبينما ينظر هؤلاء إلى الأمر بعقلٍ واعٍ، وخشية على المستقبل من أن يعاود المنتفض الفلسطيني بعد الإستراحة نشاطه وبحيوية أقوى، فإن الرئيس الجديد لأركان الجيش الإسرائيلي الجنرال موشي يعلون قال للتجمع الحاخامي في إسرائيل خلال اللقاء المغلق أن الإنسحاب من لبنان وصفقة تبادل الأسرى مع أحمد جبريل أوهمتا الفلسطينيين بأن إسرائيل لا تستطيع الصمود أمام الضحايا ولذا حدثت الإنتفاضة.

وفي ضوء هذه النظرة الضحلة من جانب رئيس الأركان الإسرائيلي التي دشّن بها منصبه الجديد، يمكن الإفتراض بأن هذا الجنرال سيترجم عملياً ما أوضحه سلفه الجنرال شأوول موفاز الذي قاد الحرب الشارونية بـ «جدارة» على الفلسطينيين بشراً وحجراً في آخر تصريح أدلى به وهو يودع منصبه كرئيس للأركان وقال فيه: «كان بين مهامي الرئيسية الإستعداد للحرب المقبلة التي لا محالة من حدوثها...».

وازاء ذلك فإنه لن ينقذ الوضع سوى سلوك الفلسطينيين طريق الإنتفاضة المسالمة وإتساع الإنتفاضة الحاخامية التي إنطلقت شرارتها من لندن وتطوير الكنيسة البروتستانتية لنظرتها الراضية لهذا التلاعب بالأمم، وهي محاولة قد تؤدي بالتواقيع للعدوان إلى حافة الإستقالات... واحداً بعد الآخر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 4 سبتمبر (أيلول) 2002

* * *

رسائل كثيرة الوضوح إلى بوش وصحبه

من القاهرة وجّه وزراء خارجية الدول العربية وبالإجماع في أعقاب الإجتماع العادي نصف السنوي لمجلس الجامعة يومي 5 و6 سبتمبر (أيلول) الجاري رسالة في صيغة بيان ختامي صدر عن الإجتماع إلى الإدارة الأميركية فحواها كنص رسمي «الرفض القاطع

للتهديد بالعدوان على العراق وإعتبار أي تهديد لدولة عربية تهديداً للأمن القومي العربي، ورفع العقوبات عن العراق وإنهاء معاناة شعبه الشقيق بما يؤمّن الإستقرار والأمن في المنطقة وإحترام إستقلاله وسيادته ووحدته أراضيه ووقف جميع أشكال التدخل في شؤونه الداخلية...» وكملحق في صيغة تصريحات للأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى الذي قال: «إن ضرب العراق سيفتح أبواب جهنم وإن العرب يأملون في تجنب الحرب أو أي عمل عسكري، وسنواصل العمل لتجنّب مواجهة عسكرية أو عمل عسكري».

ومن لندن حذّر أسقف ويستمنستر (وهو الذي على يديه تتم الأعراس الملكية والصلاة على الشخصيات الملكية المتوفاة) الكاردينال كورماك مورفي اوكونور من أن تدخلاً عسكرياً في العراق «قد يؤدي إلى تعبئة العالم العربي ضد الدول الغربية ويسيء إلى جهود السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين...» مضيفاً القول في مقال نشرته صحيفة «تايمس» البريطانية يوم الخميس 5 سبتمبر «إن حرباً في العراق ستسفر عن الكثير من الدمار والمعاناة كما ستتربّت عليها عواقب خطيرة لبلادنا والعالم...». وشكك الأسقف في التصريحات التي أدلى بها رئيس الحكومة البريطانية طوني بلير حول وجود أدلة دامغة أن العراق ينتج أسلحة نووية وبيولوجية وكيميائية، ورأى أنه «من دون أدلة مقنعة لا يمكن دحضها، سيكون من الصعب تبديد المخاوف في هذا البلد وخارجه حول تحرك من هذا النوع».

وما يلفت الإنتباه ان هذا الكلام من جانب أسقف ويستمنستر لم يأت في صيغة عظة يلقيها من على منبر الكنيسة وإنما شاءه في صيغة مقالة في الصحيفة المحافظة، وذلك على أساس أن بضع مئات سيُصغون إلى العظة في قداس الأحد وستكون بمثابة مشاعر روحية من جانب رجل دين من الطبيعي أن يكون ضد الحروب والقتل وان يطبّق قول السيد المسيح عليه السلام حول ان تتعمق المسرة في نفوس الناس وأن يسود السلام على الارض، وهو قول لا يجب سماعه دعاة الحروب الساعين من أجل إشعال فتيلها ليل نهار. كما أن هذا القول يبدو مبغوضاً من جانب من إمتحن التدمير والقتل مجزرة بعد الأخرى ونعني به ارييل شارون. أما نشر الكلام في صحيفة، على نحو ما حدث، فإنه سيكون موضع القراءة والتأمل من جانب بضعة ملايين وسيكون بمثابة موقف أخلاقي

أكثر منه عظة روحية. كما أنه سيكون تعزيزاً للخط البياني الديني المسيحي الرافض للحرب والذي كان المبادر إلى تسجيله أسقف كانتربري الحالي جورج كاري في رسالة بعث بها إلى بليز وهدفه في ذلك التنبيه وليس الإحراج. فالرسالة عندما تُكتب تصبح مُلك المرسل إليه، وله أن يُفصح عنها أو يُبقيها طي الكتمان، في حين أن المقالة ما دامت نُشرت والعظة ما دامت أُلقيت من على المنبر ليست كذلك حيث أنهما تصبحان مُلك الرأي العام العريض يقرأ المقالة ويسمع العظة ويتخذ الموقف الذي يمليه عليه وجدانه. كما أن روان وليامز أسقف كانتربري الذي سيخلف جورج كاري كان سَجَل موقفاً مماثلاً وبذلك فإن الكنيسة البريطانية باتت عملياً ضد ما يريد رئيس الحكومة إتخاذه في اتجاه مشاركة الإدارة الأمريكية ضرب العراق إذا إستقر أمر الإدارة على توجيه الضربة.

ومن أميركا نفسها حذر الرئيس الأسبق جيمي كارتر ومن خلال مقالة في صفحة الرأي في صحيفة «واشنطن بوست» من مغبة الحرب على العراق. وجاء في مقالته قوله: «إن الأميركيان يغرقون يومياً تقريباً في تصريحات مسؤولين حكوميين يتحدثون عن مواجهة خطر كبير لأسلحة الدمار الشامل العراقية وعن وعود بقلب نظام صدام حسين مع دعم حلفاء واشنطن أو من دونهم. ان العراق لا يشكل خطراً حالياً على الولايات المتحدة وهو خاضع لمراقبة مشددة لاسيما نظراً للتفوق العسكري الأمريكي الهائل. وأي تحرك عدواني لصدام حسين على جيرانه، أو التهديد باستخدام حقيقي لأسلحة الدمار الشامل، أو أي محاولة لمشاركة التكنولوجيا التي بحوزته مع منظمات إرهابية قد تكون إنتحارية للعراق. إن حرباً أحادية الجانب ضد العراق ليست حلاً. انني أحذر من أصوات دعاة الحرب. ومثيري الفرقة التي تبدو مهيمنة في واشنطن، إلا أنها لم تعكس بعد القرارات النهائية للرئيس والكونغرس أو للمحاكم. ان هؤلاء يدفعون الولايات المتحدة بعيداً عن دورها التاريخي كرائدة لحقوق الانسان وزعيمة تحظى بالإحترام في المجتمع الدولي.

وهذا الكلام من الرئيس الأمريكي الأسبق الحريص على سمعة بلده يلتقي تماماً مع الكلام الذي يقوله أحياناً أصدقاء أميركا من العرب والمسلمين وأحياناً لا يقولونه. كارتر حريص على الدور الإيجابي لأميركا.

والعرب والمسلمون حريصون على الصداقة المتوازنة مع أميركا. وما يفعله بعض ذئاب الإدارة الحالية الذين يشير إليهم كارتر من طرف خفي هو أنهم يؤثرون تطلعاتهم وشحنات البغضاء التي في نفوسهم على ذلك الدور وتلك الصداقة. والرئيس الأسبق في كلامه هذا لا يبغي منصباً ذلك أنه ذاق مجد الرئاسة وذاق أيضاً طعم الدور التاريخي متمثلاً بإنجاز إتفاق السلام المصري - الإسرائيلي الذي كان في محصلته ضد العرب، فضلاً عن أنه في السن التي لا تسمح لصاحبها بالأحلام الكبيرة مرتضياً الأدوار التوفيقية التي يقوم بها ومنها دوره في السودان الذي أثمر نسبياً ودوره في كوبا الذي أخفق نسبياً لكن على المدى البعيد لا بد سيثمر تطبيقاً متدرجاً مع هافانا. ولأنه لا يبغي المنصب فإنه لا يسلك كل ما هو ضد أميركا في سبيل الحصول على مبتغاه وفي أقرب فرصة وضمن أساليب المراهنة على نحو ما نلاحظ إصرار ديك تشيني نائب الرئيس بوش ودونالد رامسفيلد وزير الدفاع حيث أن الأول يحلم بأن يصبح رئيساً ويتطلع الثاني إلى أن يكون كمرحلة أولى نائباً للرئيس تشيني مقدمة لأن يحل محله بسبب الدواعي الصحية للرجل.

هذه المواقف الثلاثة التي أشرنا إليها والتي هي الموقف العربي التي تنبعث منه روحية النقم والرغبة في الوفاق وإحترام الذات والتخوف مما قد يكون الأعظم، والموقف المتميز الذي لا يبغي صاحبه أسقف وستمنستر سوى إبعاد شبح البغضاء العربي والإسلامي عن بريطانيا، والموقف المتجرد الذي عبّر عنه الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، هي بمثابة رسائل يبعث بها هؤلاء إلى الرئيس جورج بوش الابن وصحبه يريدون منها القول ما معناه ان من يملك السلطة عليه ان يكون كثير التروي وأن يصغي بكل الإهتمام إلى من يسدي النصيحة، وأن لا يدع اللاهثين وراء الحرب يطغون على كل من عداهم.

وهذه المواقف كما نلاحظ تتزايد يوماً بعد آخر وتتزايد معها إستطلاعات الرأي العام التي توضح النسب فيها ان لا رغبة في إعتماد العمل العسكري حلاً، الأمر الذي يعني أنه إذا كانت الضربة العسكرية للعراق ستحدث على رغم كل هذه المواقف التي نشير إليها في هذا المقال، وأيضاً مواقف الجنرالات الأميركيين أمثال سكروكوفت وشوارزكوف وزيني، وموقف رئيس الأركان البريطاني الذي أثر أن يعزله بليز على أن يجاريه في حماسه غير المنطقية للتوجه

سينحاز إلى العالم أم إلى منطق كواسر الإدارة وأحلام اربيل شارون، فإن المزيد من الرسائل - المواقف ستصله. ومن المصلحة أن يقرأها بعناية ويتأمل فيها بعقل المسؤول الذي بيده فتح أبواب جهنم على نحو رأي أميننا العام عمرو موسى، أو إغلاق هذه الأبواب ورمي المفاتيح... كي لا يعثر عليها أحد من بعده أو يتناسى مكانها إذا أتيح له تجديد الرئاسة ولاية أخرى أخفق والده في تأمينها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الإثنين 9 سبتمبر (أيلول) 2002

تمنيات وتوقعات لمناسبة السنوية الأولى

علينا ألا نستبعد تماماً أن تكون ضربة عسكرية صغرى إستعراضية محدودة للعراق من بين فقرات برنامج الإحتفالات الأميركية الرئاسية بالسنوية الأولى للعملية الترويجية التي إستهدفت يوم 11 سبتمبر (أيلول) الماضي برجي التجارة العالمية في نيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون) في واشنطن. ذلك أن مثل هذه الضربة تحقق لإدارة الرئيس بوش الإبن بضع نتائج لعل أهمها النتائج الست الآتية.

أولاً: تغنية الضربة الصغرى عن الضربة الكبرى التي بات إقدامه عليها وسط هذه الأجواء الدولية والعربية الراضية والمتحفظة مُحرجاً كثير الإحراج له، وبالذات لأنه سيبدو أنه الوحيد، لا حلفاء له يشدون أزره عدا الوقفة الخجولة من جانب رئيس الحكومة البريطانية طوني بليز الذي يبدو فيها وكأنما هو رئيس حكومة «حزب المحافظين» الجامح نحو الحرب وليس رئيس حكومة «حزب العمال» الذي وضعه على سدة الرئاسة والذي - أي الحزب - متحفظ في أكثرية قواعده على سلوك بليز مع الإدارة الأميركية الذي هو «سلوك ثائثري»، وعدا اربيل شارون... هذا إلا إذا أخذنا في الاعتبار أن رئيس الحكومة الإسرائيلية يمكن في اللحظة الأخيرة عدم مشاركة بوش في مغامرته هذه، وبذلك يبدو أمام العالم أنه «رجل سلام»، فضلاً عن انه بذلك يؤسس لعلاقة أكثر توازناً وكفيلة بتحقيق المكاسب مع الإدارة التي ستخلف إدارة الرئيس بوش. ومن يدري فقد يكون تم تصميم خفايا اللعبة على هذا الأساس، وقد ينتهي الأمر ورطة للإدارة الأميركية

الأميركي المتحمس للضربة بصرف النظر عما سينشأ عنها من تداعيات، فهذا معناه أن عدواناً من نوع جديد سيحدث في الألفية الثالثة سببه أن من في يده إتخاذ القرار يرفض النصيحة.. وبالذات من وزير خارجيته الجنرال كولن باول الذي كان رئيساً للأركان يوم خاض الرئيس جورج بوش الأب الحرب عام 1991 على العراق والذي لا يشارك المتشددون رأيهم ولا يقر جموحهم نحو الحرب لأنه الأدرى بفواجعها وتداعياتها، وانها عدوان على العرب الذين قالوا في مجلس الجامعة العربية يوم الخميس الماضي وبالإجماع أنهم ضد أي عمل عسكري يستهدف العراق، وعدوان على كل دولة أوروبية ترفض هذا الخيار وكل رجل دين ينصح بالتروي.

وما نتمناه هو ألا يكون هناك طرف عربي شريك في شكل أو آخر في هذا العدوان. ونقول ذلك على أساس ان وزير خارجية قطر الشيخ حمد بن جاسم كان شبه مغرد داخل الإجتماع وإنسحب محتجاً على رؤية أبدأها وزير الخارجية السورية فاروق الشرع. وهذا التغريد كان السبب في ثلاثة تفسيرات، أحدها لبيبي والآخر سوداني والثالث للأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى، للفقرة التي لم ترد في البيان الختامي، حرصاً على الإجماع، حول عدم السماح لأميركا بإستخدام قواعدها في الدول العربية لضرب العراق. وكانت التفسيرات متشابهة حيث أن وزير شؤون الوحدة الأفريقية الليبي علي التريكي قال: «بما أن كل الدول العربية تعارض شن أي هجوم على العراق فذلك يعني تلقائياً انها لن تسمح بإستخدام قواعدها لضرب العراق...»، وأن وزير الخارجية السودانية قال: «إن هناك إجماعاً برفض الضربة وهذا ضمناً يعني عدم تعاون أي دولة عربية في ضرب العراق...»، والأمين العام للجامعة قال: «لقد نفى وزير خارجية قطر تماماً التقارير التي تشير إلى إحتمال إستخدام القوات الأميركية قطر كقاعدة لشن الهجوم على العراق، فلماذا نصدّق التقارير ولا نصدق المسؤولين... لكن إذا صحت المعلومات فإنها ستكون امراً مزعجاً...». وعلى هامش هذه التفسيرات تبقى الإشارة إلى ان قطر هي الأكثر إنسجاماً مع النظام في العراق وأن الشيخ حمد سبق وإجتمع بالرئيس صدام في بغداد قبل ثلاثة أسابيع، وهذا في حد ذاته يحتاج إلى المزيد من التفسيرات.

وفي إنتظار ما سيقدره الرئيس بوش وهل انه

المتذبذبة.

ثانياً: إن الرأي العام الأميركي سيفرح بهذه الضربة كونها ستشعره بنوع من «الإعزاز» وبأن رئيسه شخص يتسم بالعزيمة. كما أن بعض مشاعر الرضى ستتشتأ لدى هذا الرأي العام المصدوم من أن حرب الرئيس بوش على أفغانستان لم تتمكن خلال سنة كاملة من العثور على أسامة بن لادن حياً أو إصطياده مع سائر مريديه ومساعديه، ولا حتى من العثور على زعيم «نظام طالبان» الملا محمد عمر، وذلك رغم الإغراءات المالية ورمي ملايين المناشير من الجو وبلغات يفهمها الباشتونى والطاجيكى والأوزبكى، متضمنة تخصيص جائزة خمسة ملايين دولار لمن يحقق للإدارة الأمريكية هذه الأمنية، وهي تقديم أسامة بن لادن والآخرين مقيدين بالسلاسل إلى القيادة العسكرية الأمريكية أو تقديم جثثهم ملفوفة بسجاجيد افغانية. ومثل عدم التجاوب هذا من قبل الأفغان الغارقين في الفقر أمر له دلالاته، تماماً كمثل محاولة إغتيال الرئيس الأفغانى حميد قرضاي المحروس من جانب الحراس الأميركيين الأشاوس من نوعية «رامبو». والدلالة التي نغنيها بالنسبة إلى قرضاي هي أن مشهد موكبه، المحروس من الأميركيين وليس من شعبه، هو في حد ذاته بمثابة دعوة إلى الخلايا الطالبانية لكي تحاول النيل منه قنصاً أو تفخيخاً.

ثالثاً: ان الضربة العسكرية الصغرى من شأنها التقليل من التحفظات الدولية في شأن الضربة الكبرى، أي حرب إسقاط النظام في العراق، التي رفض الجميع ليس فقط المشاركة فيها وإنما يستهجنونها أكثر الإستهجان. كما أن الضربة الصغرى من شأنها ان تجعل الأصدقاء العرب والمسلمين أقل غضباً، وهذا أمر إفتراضي في أي حال. وسيرى الطرفان اللذان هما تحديداً: الدول الأوروبية إضافة إلى روسيا والصين، ومعظم الدول العربية والإسلامية، ان الإدارة الأمريكية تفهمت ظروف كل دولة من هذه الدول وبذلك لن تكون حالها أمام الرأي العام على الإحراج الذي ستكون عليه في حال حدوث الضربة الكبرى والسكوت عنها.

رابعاً: إن الضربة الصغرى كونها مسبقة وباتت نوعاً من التقليد أو الواجب، بعدما أقدمت الإدارة الأمريكية السابقة (إدارة كلينتون) على تنفيذ واحدة، ستبدو ممكنة الهضم لجميع الأطراف بما في ذلك الطرف العراقي الذي سيري أن ضربة صغرى تغني

عن ضربة كبرى يمكن، وفي ظل التبدل النوعي في الموقف العربي - الدولي الذي وصل إلى درجة لم يتوقعها الحكم العراقي أن تكون في محصلتها، لمصلحة تعزيز موقفه وإستمراريته. وفي المجالس والدواوين ستكون خلاصة الانطباع السائد: الحمد لله بأن الأمر إنتهى على ضربة صغرى.

خامساً: المهم في مثل هذه الحال ألا يتصرف الحكم العراقي على نحو إعتباره الضربة كبرى وليست صغرى. وفي هذه الحال فإنه بدل أن يستوعب الضربة سيجد نفسه مستدرجاً إلى مواجهة مصيرية. وهنا لا بد من سؤال: وكيف سيعتبر هذا الحكم بأن الضربة الموجهة إليه ليست تلك الضربة التي لا يريد لها العالم، وإنما هي ضربة صغرى كمثل الضربة الكلينتونية التي جاءت تشبهاً من الرئيس السابق بيل كلينتون بالرئيس السلف جورج بوش الأب، أو لعله أراد منها إحياء حرب بوش الأب على العراق عام 1991 في ذاكرة العالم. وربما أنه لم يشأ ذلك وإنما أراد القول بما معناه إن إدارة بوش ليست أكثر شأناً من إدارته، وإن في إستطاعته توجيه الضربة حتى بعدما أزيلت الأسباب الموجبة وعادت الكويت إلى أهلها الشرعيين وربيعها الخليجين وأشققائها العرب.. وبالذات أولئك الذين شاركوا في التحالف الدولي مباشرة مثل سوريا ومصر والمغرب، أو تفهماً لموجبات الحرب مثل ثلاثة أرباع الآخرين.

سادساً: في أعقاب هذه الضربة الصغرى سيكون الرئيس بوش الإبن أكثر إستعداداً لإعادة ترتيب البيت الأميركي من الداخل، بدءاً بإدارته التي تستوجب التطورات إجراء تعديلات في توجهات الإدارة وإعادة نظر في بعض الأفكار والأشخاص.

وبعد ترتيب البيت الداخلي هنالك ترتيب العلاقة التي إهتزت مع دول أنقذته بعدم مشاركتها هوس كواسر إدارته، من التورط في الحرب، ومع الفلسطينيين المخدولين من هذه الإدارة، ومع أصدقاء عرب ومسلمين إستمروا حتى اللحظة الأخيرة يُسدونه النصيحة ويتمنون له الرجاحة ويدعون له برحابة الصدر خشية أن تنتهي الأمور إلى كارثة. والموقف المتوازن الذي صدر عن مجلس التعاون الخليجي في أعقاب إجتماع وزراء خارجية دول المجلس في جدة ثم الموقف المتوازن الآخر الذي صدر عن وزراء الخارجية العرب بالإجماع في أعقاب اجتماع مجلس الجامعة في القاهرة هما المؤشر إلى ما نقوله، وبالذات

في شأن إسداء النصيحة وإعتماد الرجاحة ورحابة الصدر.

نحن هنا لا نقرأ في الفنجان، وإنما نتأمل كثيراً في المشهد العربي والإسلامي والدولي الذي أمامنا. ونتأمل أكثر في التركيبة التي هي عليها الإدارة الأميركية والحمى التي إنتابت كواسر هذه الإدارة ومستشاريها وبسببها باتت صيحات الإنتقام المرعب هي المنطق السائد. ونجد أنفسنا في ضوء التأمل نفترض ما ستكون عليه الحال في هذا اليوم الذي لم تقتصر تداعيات العمل الترويعي الذي إستهدف رمزي القوة العسكرية والقوة التجارية للدولة الأكبر، الولايات المتحدة، التي أخذت على نفسها بمعزل عن التشاور والتوافق أمر سيادة العالم، على أن أميركا الحكم باتت كابوساً داخلياً وخارجياً، وإنما هز ذلك الترويع العالم من أقصاه إلى أقصاه، وقد يهزه أكثر وأكثر في حال أن القرار الأميركي لم يعتمد الضربة الصغرى التي تخفف الإحتقان، وأن إدارة الرئيس بوش أدرجت هذه الضربة في برنامج إحتفالات أسبوعها بالسنوات الأولى للعملية الترويعية التي أفزعنا كعرب حدوثها، وأفزعنا أكثر الغموض الذي إكتنفها، وأذهلنا الترويع الذي قادتته وسائل إعلامية غامضة النوايا في إتجاه ان العرب والمسلمين هم فقط وراء هذا الذي جرى، مع أن تدقيقات سنة كاملة لا تجزم بذلك وتجعل المرء يفترض أن الفاعلين الحقيقيين ليسوا مسلمين وليسوا عرباً، أو أن الافراد العرب والمسلمين كانوا مسيئين وليسوا مخيئين وأنهم كانوا عن حسن نية وطيبة قلب مجندين في أمر مبغوضة نتائجه.

وتبقى بضع تمنيات لا بد منها في هذا اليوم، يوم السنوية الأولى للعملية الترويعية التي إستهدفت رمزي العظمة الأميركية، لعل أهمها على الإطلاق أننا إفتقدنا طوال سنة أميركا التي أحببناها، والتي هي في عيون بعضنا وفي خيال البعض الآخر. إفتقدنا وهج الحرية ورونق الممارسة الديمقراطية ونكاد نفتقد فرصة أن ينهل الأبناء والأحفاد العلم في جامعات الدولة التي طالما تمنينا أنها ستحقق لنا في الألفية الثالثة ما ضيعه لنا التآمر الدولي في الألفية الثانية.

وفي تقديرنا أن التطورات التي تميّز بها الشهران اللذان سبقا ذكرى السنوية الأولى هي، أو يجب أن تكون، بمثابة أمثلة للإدارة الأميركية، خلاصتها أن رفض العالم مجاراتها في ما تفعله هو من باب الحرص عليها وليس من باب الكراهية لها.

ألا.. لا جعل العالم من عوَاد هذا الذي حدث يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001.

والا.. جعل العالم يبتهج في العالم 2003 بإستعادة أميركا الحلم التي لا تجوب الدوريات الجوية سماء مدينتيها الرمز: واشنطن ونيويورك.

والا.. لا تتغص عمليات جديدة تثير الشبهات، المزاج الأميركي لهذا اليوم، يوم ذكرى السنوية الأولى، ويكون الغرض منها توسيع هامش التخويف في النفس الأميركية... لغرض في نفس جاكوب.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 11 سبتمبر (أيلول) 2002

قراءة في خطاب بوش... الذي إستثنى العلة والسبب

خيّب الرئيس جورج بوش الابن آمال دول العالم عندما لم يغتنم مناسبة الدورة السنوية العادية للجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة لكي تكون دورة مصالحة أميركا مع العالم، وذلك من خلال إعادة الإعتبار إلى هذه المنظمة وإلتزام جميع الدول الأعضاء وأولها إسرائيل بإحترام الشرعية الدولية وتنفيذ القرارات التي تصدر عن مجلس الأمن. ونقول ذلك على أساس أن هذه المصالحة وذاك الإلزام الذي لا بد منه لإسرائيل سيجعلان بقية دول العالم متعايشة مع أميركا وسيجعلان العلاقة معها جيدة بإمتياز. أما أن يأتي الرئيس بوش ليرى فقط أن مشكلة العالم هي في نظام واحد، هو النظام العراقي، وأن التلويح بالعدوان عليه وفرض الشروط التي من شأن تنفيذ النظام لها القبول به هو الحل، فذلك خروج على الموضوعية والمنطق.

لا أحد يجادل الرئيس بوش في أن على الأمم المتحدة تحمّل مسؤولياتها، بل أننا كعرب نرى أن قضايا كثيرة عالقة ستجد الحل العادل والشامل في حال عملت الأمم المتحدة بما يفرضه عليها ميثاقها كمنظمة يجب أن تكون في منأى عن أي ضغوط عليها.

لكن من هو الطرف الذي يجعل هذه المنظمة لا تتحمل المسؤولية؟

أليست هي الإدارة الأميركية التي تجيز العدوان الإسرائيلي عند أي مناقشة لشكوى في مجلس الأمن؟

وألست هي التي تحول أحياناً دون حتى عرض شكوى على إسرائيل؟

وألست هي التي في حال سلكت الشكوى طريقها إلى المناقشة ثم إلى التصويت ترفع الأصبع إشارة إلى «الفتو» الذي يسقط القرار بموجبه؟

وألست هي التي تعتبر النضال الفلسطيني إرهاباً والعدوان الإسرائيلي على الفلسطينيين حقاً مشروعاً؟

في خطابه الذي خيَّب الآمال وتضمن خمسة شروط تتسم بالافتعال، للقبول بالنظام العراقي، يشترط الرئيس بوش أن يتوقف النظام «عن إضطهاد المدنيين العراقيين وخصوصاً الأقليات العرقية والمجموعات الدينية»...، ويشترط أيضاً «أن يتوقف النظام على الفور عن دعم الإرهاب وأن يقوم بخطوات للقضاء عليه»...، ويشترط أيضاً وأيضاً «أن يسحب ويدمر على الفور ومن دون شروط جميع أسلحة الدمار الشامل وجميع صواريخه بعيدة المدى وجميع المعدات الملازمة»...، كما يشترط «أن يوقف على الفور التجارة غير المشروعة من خارج برنامج النفط مقابل الغذاء»...، ويشترط أيضاً «أن يسوي الملفات الخلاقية الناجمة عن إجتياح الكويت وخصوصاً قضية المفقودين وتسليم رفات الذين قُتلوا وإعادة الممتلكات المسروقة وتسوية مسائل التعويضات». وهو لو كان يعتمد حسن النية وأورد في خطابه فقرة تفيد بأن ما يشترطه على العراق أو بعض ما يشترطه هو بمثابة قاعدة سيتم تطبيقها على الجميع، لكان رأى ورأينا معه ان إسرائيل هي المطلوب منها إختصار سلاحها التدميري كماً ونوعاً وبالذات لأنها باتت دولة نووية. وهي المطلوب منها وقف إرهابها ضد الشعب الفلسطيني وتهديداتها بشن الحرب على من يريد الإرتواء من نبع في أرضه. وهي المطلوب منها التوقف عن إغتيال مواطنين أبرياء وتصفية قيادات وتهجير عائلات وتدمير عشوائي أو متعمد لمنازل وإضطهاد مواطنين عرب يعيشون مضطرين داخل الكيان العبري الذي كان وطن آبائهم وأجدادهم وإسقاط الجنسية الإسرائيلية عن آخرين. وهي المطلوب منها بدل إعتبار ملفات المفاوضات التي يدور في شأنها خلاف ملغاة، التمسك بهذه الملفات وإعتبارها وثائق وليس نفص اليد منها على نحو ما أعلن ارييل شارون. وهي المطلوب منها إعادة مئات الأسرى وأطنان التراب المسروق من الأراضي الزراعية التي جرفتها في جنوب لبنان، كما هي المطلوب منها إعادة بناء كل

بيت دمرته وكل النخلات وأشجار الزيتون والبرتقال التي إقتلعتها الجرافات من الجذور كي لا تتب وتسمق من جديد. وهي المطلوب منها إعادة ألوف القطع الأثرية المنهوبة طوال سنوات العدوان من ايام موشي دايان إلى أيام ارييل شارون. وهي المطلوب منها وقف التجارة غير المشروعة بخيرات أرض ليست لها. وهي المطلوب منها أن تعوّض عن كل نقطة دم عربية سالت بفعل رصاصة من صنع أميركي أو إسرائيلي لا فرق. وهي.. وهي.. وهي ما يضيق الورق عن إستيعابه.

هذا الذي نراه مطلوباً لكي يُجاز للرئيس بوش إملاء الشروط على الآخرين. لكن ضعف الموقف الأميركي هو دائماً في أنه يعزل إسرائيل عن الموضوع العام وينزّه الإسرائيليين من العيوب والخطايا والأخطاء، علماً بأن كل ما تشكو منه أميركا وبالذات بعد العملية الترويعية يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001 إنما هو من إفرازات التمييز الأميركي لإسرائيل عن سائر دول العالم.

ولقد كان خطاب الرئيس بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة مناسبة لمثل هذا التصحيح المرجأ في إستمرار. وهو بدل الإكتفاء بكلام مكرر ولا جدوى منه حتى الآن في شأن النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي وقوله «إن الولايات المتحدة ملتزمة بدعم إقامة دولة فلسطينية مستقلة وديمقراطية تعيش إلى جانب إسرائيل بسلام وأمن، وأن الفلسطينيين مثل غيرهم من الشعوب يستحقون حكومة تخدم مصالحهم وتستمع إلى أصواتهم، وستواصل بلادي تشجيع جميع الأطراف على تحمّل مسؤولياتها مع مواصالتنا السعي لتسوية سلمية عادلة وشاملة للنزاع، ذلك أن السلام في الشرق الأوسط لن يتحقق لأي من الطرفين دون الحرية للطرفين...» إن الرئيس بوش لو قال، بدل هذا الكلام الذي أوردنا نصه، ان الإدارة الأميركية ترى أن يعمل الطرفان الفلسطيني والإسرائيلي على تنفيذ ما تم إنجازه من إتفاقات وتحديداً إتفاقات أوسلو وكامب ديفيد وطابا وإعتبار هذه الإتفاقات ملزمة لهما وقابلة للتطوير، لكان الفلسطينيون ومعهم أشقاؤهم العرب وإخوانهم المسلمون واصدقاؤهم معظم دول العالم إعتبروا أن هذه النبرة في خطاب الرئيس بوش هي رد حاسم على ارييل شارون الذي تعمّد إستباق خطاب الرئيس بوش بأربعة ايام لكي يعلن ان الإتفاقات المشار إليها باتت لاغية، وتلك اهانة لمبدأ التفاوض الدولي وللولايات

المتحدة نفسها التي إستضافت في كامب ديفيد وبرعاية رئيسها السابق بيل كلينتون محادثات إنتهت إلى إتفاقات رأتها الإدارة الأميركية بأنها إنجاز لجهود أميركا من أجل السلام في الشرق الأوسط.

ولكن الرئيس بوش قفز فوق ذلك وكانت قفزته اكروباتية. ولذا نجد أن طرفين وحيدين رغباً بخطابه غير الموضوعي هما بريطانيا طوني بلير وليست بريطانيا مجتمعة، وإسرائيل، في حين أن الخطاب على نحو ما سبق وأوردنا مضامينه كان المناسبة المثالية لكي تبدأ حقبة مصالحة أميركا مع نفسها ومصالحاتها مع الآخرين، ونحن كعرب في مقدمة هؤلاء كوننا الأكثر تضرراً من الذي تفعله بنا إسرائيل التي هي العلة والسبب. ومما أصابنا من جزاء تداعيات العملية الترويعية يوم 11 سبتمبر 2001. كما اننا الأكثر قلقاً من جزاء الانتكاس العميق في العلاقة العربية - الأميركية. وهو إنتكاس يزداد رسوخاً في النفس الأميركية على رغم محاولات ترطيب الأجواء بالكلمة الطيبة تأتي من العرب في صيغة رسائل وتصريحات وتبريرات.

وتبقى ملاحظة أخيرة حول الخطاب وهي أن نبرة الرئيس بوش فيه هي غير نبرته التي كان عليها قبل أن تتكاثر التحفظات العربية والإسلامية والدولية على خياره العسكري وإصراره على توجيه الضربة العسكرية إلى العراق. وتلك خطوة لافتة على طريق إستعداد إدارة الرئيس بوش لكي تفهم مشاعر العالم وما الذي يريده منها، ومؤشر إلى أن المرونة واردة عند الضرورة وهذا ما يمكن للمرء أن يتلمسه من خلال المفردات القليلة التي تتشكل منها الخطوة التي تبقى لافتة... على رغم خجوليتها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 19 سبتمبر (أيلول) 2002

* * *

الطباخ الأميركي الماهر

وطبخته غير الشهية

من جملة التحضير لـ «مأدبة العدوان» على العراق التي أصابتها في الصميم المرونة العراقية المبالغية والمتمثلة بالموافقة على عودة المفتشين الدوليين ومن دون شروط، كانت هنالك طبخة سياسية متقنة الصنع

الهدف منها حمل كل دولة عربية وإسلامية ذات تأثير على عدم معارضة الضربة، أو السكوت عنها، أو التذرع بأنها طوفان من نوع جديد ولا مجال لمواجهة هذا الطوفان. كما أن من نتاج تلك الطبخة حمل الدول الأوروبية المعارضة على تخفيف إعتراضاتها وحمل الدولتين الكبيرتين روسيا والصين على خفض صوتيهما وصرف النظر عن نقضيهما.

وتعالوا نتأمل في المشهد. بالنسبة إلى الدول العربية ذات التأثير كسياسة وكعدم للموقف العراقي نرى أن الطباخ الأميركي الماهر وضع برسم التداول «قانون محاسبة سوريا» وأن هنالك تقاسماً للأدوار ومبعوثين إلى دمشق ينقلون الرسائل وربما الإنذارات في الحد الأدنى أو التلويح بالتهديد في الحد الأقصى. والتهديد من خلال إشعال العمق السياسي للحكم السوري، أي لبنان. وفي معرض تقاسم الأدوار تولى الرئيس بوش مهمة الإيحاء بأنه ليس مع مناقشة الحالة السورية ضمن هذا القانون وتولت عناصر في الكونغرس مهمة السعي لتسهيل الطريق أمام المناقشة في جلسة تنتهي بإنزال العقوبات في حق الحكم السوري. وفي إطار هذا السعي كان الترحيب المتدرج في واشنطن باللواء ميشال عون رمز المعارضة المسيحية الجزئية اللبنانية للعلاقة مع سوريا على النحو التي هي عليه هذه العلاقة. ونقطة الضعف في دعاة المحاسبة من جانب الكونغرس هي أن نسبة المسيحيين من الموارنة أو من بقية مشنقات الطائفة من أرثوذكس وكاثوليك الذين يزايدون على الموارنة المتشددون في موضوع مناهضة العلاقة المشار إليها، هي شكلاً أقل من نسبة المسايين لهذه الخصوصية أو الذين باتوا جزءاً من علاقة المصلحة المشتركة بشقيها السياسي والإقتصادي مع سوريا. بل قد يجوز القول إن «الماراتون» المسيحي اللبناني لنيل الرضى السوري لا يختلف لدى الزعامات الصغيرة والكبيرة في الطائفة عن «الماراتون» الإسلامي بمشنتاته هو الآخر.

وما يلفت الإنتباه هو أن اللهجة الأميركية في إتجاه الحكم السوري تعلو وتهبط وضمن إيقاعات محسوبة من جانب إدارة الرئيس بوش. والغرض من ذلك هو أن يعدّل هذا الحكم في موقفه من العراق بحيث لا يبقى على الوتيرة التي تميل إلى تشكيل جبهة رفض للضربة العسكرية للعراق، تتطور في ضوء التداعيات إلى ما هو أكثر من الرفض اللفظي، أي بما معناه

تكون سوريا العمق العسكري والسياسي للعراق وتكون الملاذ الأمن للقيادات العراقية وتكون الملاذ الطبي والتمويني في حال أن الضربة تحولت إلى إستنزاف مشترك، إستنزاف من جانب العراق للقوات الأميركية، مفترضين أنه سيكون هنالك إنزال قوات ومطاردات على الأرض العراقية من أقصى الجنوب إلى أقصى المناطق الكردية، وإستنزاف من جانب القوات العراقية للحكم العراقي بغرض إنهاكه.

وبدا واضحاً أن اللهجة الأميركية في إتجاه الحكم السوري لن تخف إلا عندما ينتهي الموقف من جانب هذا الحكم إلى التسليم بأنه في حال رأت الأمم المتحدة ومن خلال مجلس الأمن ان البديل لرفض العراق عودة المفتشين هو الضربة العسكرية وضمن شرعية تحصل عليها إدارة الرئيس بوش من الأمم المتحدة، فإن السكوت عليها يصبح هو المطلوب. والسكوت ليس بالضرورة أن يكون علامة الرضى وإنما هو الأمر الذي لا بد منه.

وما فعله الطباخ الأميركي الماهر مع الحكم السوري فعله مع الحكم المصري، ذلك أنه من أجل أن يخفف هذا الحكم من إعتراضاته على توجيه الضربة العسكرية إلى العراق كان لا بد كخطوة أولى من جعل بال هذا الحكم ينشغل في أكثر من إتجاه. وعلى هذا الأساس كان الموقف الأميركي الرسمي الخشن من موضوع الدكتور سعد الدين إبراهيم والتهويل على القضاء المصري والإستعداد من جانب أوكار داخل الإدارة الأميركية لجعل الرجل الذي أدانته القضاء المصري بتهمة التخابر والتشكيك بالحكم والانتخابات التي يجريها والتركيز على إدعاءات عن إضطهاد يلقاه الأقباط والحصول على مساعدات مالية من جهات أجنبية من بينها جامعة إسرائيلية «بازوفت» آخر أو «سلمان رشدي» آخر. وقد لقي الدكتور سعد الدين إبراهيم من التعاطف الأميركي الكذوب ما لا مصلحة له فيه، بل قد يجوز القول إن هذه المبالغة في التعاطف الأميركي معه جعلته يخسر تعاطف بني قومه معه وبالذات تعاطف المثقفين المصريين والعرب كونه واحداً من هذه النخبة في العالم العربي. ولكن موضوع سعد الدين إبراهيم أقلق الحكم المصري كما لم تقلقه عشرات الموضوعات التي لها صلة بالقضاء المصري، ذلك أنه لم يقتصر على التلويح بالعقوبة الإقتصادية وعدم تقديم مساعدة إضافية مقررّة لمصر، وإنما لم يبق مسؤول أميركي يزور مصر إلا ويثير هذا

الموضوع مع الرئيس مبارك، فضلاً عن أن إلحاح هؤلاء من أجل تبرئة الدكتور سعد الدين إبراهيم كان أكثر من القدرة على التجاوب معه، ذلك أن التجاوب من شأنه التسبب في نشوء ثغرة بين الحكم والقضاء من جهة وحمل الرئيس مبارك على أن يتساهل في مسألة حصانة القضاء التي عمل طوال عقدين على أن تكون أحد أهم إنجازاته. ولم يقتصر الأمر على موضوع الدكتور سعد الدين إبراهيم وإنما فاجأت الإدارة الأميركية الرئيس مبارك بإتفاق السلام بين الحكم السوداني وحركة التمرد. وليس هنالك إيلا م على النفس المصرية أشد من الإيلا م الذي يسببه اي إتفاق من وراء ظهر مصر ويكون السودان طرفاً فيه. وهذا الإتفاق الذي تم التوصل إليه وسرعان ما أصابته إنتكاسة عابرة، لا يقتصر الإقلاق الذي ينتج عنه على الناحية المعنوية وإنما يثير في النفس المصرية المخاوف من أن يكون هذا الإتفاق المباغت بين السودان الحكم وسودان التمرد مقدمة بعد ست سنوات، هي الفترة الإنتقالية المتفق عليها، إلى إنفصال الجنوب وقيام دولة في الجنوب لا تتحكم فقط بالتقاسم المتعارف عليه لمياه النيل، وإنما تؤسس مستقبلاً لكيان قبطني في مصر يشكل مع دولة الجنوب، المحتمل إفتراضاً قيامها، وأثيوبيا مثلاً مسيحياً لن يكون في أي حال سوى حالة إقلاق دائمة لمصر.

وفي سياق الحديث عما فعله الطباخ الأميركي الماهر تجدر الإشارة إلى ان التوقيت الذي تم فيه إتفاق السلام في السودان ليس بريئاً. كما أن الإنتكاس السريع الذي أعقب الإتفاق يثير الشبهات ويجيز لنا الافتراض بأن الغرض من الإنتكاس هو الضغط على السودان كي لا يكون عند توجيه الضربة إلى العراق ذلك الـ «سودان» الذي عرفه العراق في فترة «عاصفة الصحراء» عام 1991 ثم في سائر سنوات الحصار عمقاً سياسياً وتموينياً للحكم العراقي.

ثم هنالك التهويل ضد المملكة العربية السعودية الذي يتسم بالإفتعال من جانب أوساط شريرة ومتصهينة داخل الإدارة الأميركية وأيضاً من جانب هيئات ومنظمات غير رسمية كانت مهمتها، إضافة إلى ترويد وسائل الإعلام من صحف وإذاعات ومحطات تلفزيون وفصائيات بمعلومات وأخبار تسيء إلى المملكة، نشر إعلانات في بعض المطبوعات الأميركية هي عبارة عن مادة تحريرية مدفوعة الأجر وبسخاء. وما يلفت الإنتباه أن هذه الحملة من

التهويلات تصاعدت بعدما أحدث الموقف السعودي الراض للحل الحربي الأميركي مع العراق إرتياحاً على الصعيدين العربي والإسلامي وبالذات على الصعيد الخليجي. بل قد يجوز القول إن الإجماع الذي تميّز به موقف مجلس الجامعة العربية في دورته العادية نصف السنوية، وفي إتجاه رفض الضربة إلى العراق وإعتبار العدوان عليه بأنه عدوان على كل دولة عربية، جاء كصدى للإجماع الذي إتسم به موقف دول مجلس التعاون الخليجي الذي عبّر عنه بكل الوضوح وزراء خارجية دول المجلس الذين إجتمعوا في جدة ثم توجهوا منها إلى القاهرة فالى نيويورك للمشاركة في الدورة السنوية للجمعية العامة للأمم المتحدة مزوّدين بهذا الموقف الجديد كمضمون وكشعور ملموس بالمخاطر. وعلى رغم توضيحات كثيرة من المملكة إتسمت في معظمها بالنصيحة والدعوة إلى التعقل وإعتماد الحكمة، إلا أن التهويل على المملكة تواصل بكل الوسائل التي أشرنا إليها. والغرض من ذلك هو أن تعيد المملكة النظر في موقفها. ولكن كيف يمكن أن تحدث إعادة النظر هذه ما دامت الضربة التي يكثر التلويح بها هي قرار دولة واحدة لا علاقة للأمم المتحدة به، ومعنى ذلك أن التأييد للضربة انما هو مباركة للعدوان وهو ما لا ينسجم مع موقف المملكة الذي أخذ به وزراء خارجية دول مجلس التعاون الخليجي عند إجتماعهم في جدة. وإلى هنا كان الطباخ الماهر يواصل إعداد طبخته التي لها مستلزمات أخرى.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 25 سبتمبر (أيلول) 2002

* * *

فلسطيني عروبي في القلعة الشرقية

رجل عنا نبيل خوري وكنا ما زلنا نواصل الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يوقفه من إغفائه التي طالت بضعة أشهر، ويعود إلى القلم الذي ينتظره، والمذيع الذي يفتقه، والزلاء الذين أصابهم وحشة مفزعة لغيابه وللأقدار التي إختارت نوعية هذا الغياب المفجع.

لغيري من زملاء نبيل خوري وأصدقائه وعارفه أن يكتبوا عن حضوره وظرفه وعن العفوية التي كانت

إحدى خصاله المحموده، وعن جرّفته وقدراته على أن يكون معلقاً سياسياً وكاتب رواية. أما الذي يمكن أن أقوله عنه كواحد كان على مدى سنتين من كوكبة كتّاب مجلة «المستقبل» التي كان أصدرها في باريس في السبعينات مدشناً فيها تجربة «الصحافة اللبنانية المهاجرة»، فهو أنه كان أيضاً ظاهرة من حيث أنه إستطاع تحقيق شُبّه إستحالتين بالغتي الأهمية وكان يتطلع إلى الثالثة.

شُبّه الإستحالة الأولى التي تحققت تتمثل في أنه أعطى إنطباعات ملموساً للخائفين من توطين الفلسطينيين في لبنان بأن هذا التوطين، في حال كان لا بد منه، ليس بذلك الامر المسيء للبنان.. هذا في حال كان الفلسطينيون الذين يتم توطينهم بمثل حب نبيل خوري للبنان وإستبساله كإعلامي في الدفاع الموضوعي عن قضاياه وإعتراضه الدائم على «البحوحة» التي أراستها الثورة الفلسطينية في لبنان. وهو منذ أن بات لبنانياً بالتجنس، وإستبساله في الدفاع عن هذا الوطن على إزدياد.

شُبّه الإستحالة الثانية هي أنه إستطاع إقناع بعض أصحاب الثروات العرب بأن يكونوا شركاء في الميدان الإعلامي وخارج العرف السائد، وهو أن الميسورين مالا ينادون عن أي مشاريع لا تضيف المزيد إلى ثرواتهم. وبهذه الحذاقة من جانبه إستطاع نبيل خوري إدخال تعديل جذري على مقولة «رأس المال جبان».. ذلك أن تجربة مجلة «المستقبل» إزدهرت ومن دون أن يجبّن رأس المال من جانب الذين رأوا في «المستقبل» انها توظيف معنوي لمرحلة الإنتقال من عالم الأعمال إلى عالم السياسة. وشبه الإستحالة هذه من جانب نبيل خوري سبقه إليها، إنما بنوعية متواضعة، الزميل غسان تويني في الستينات، ثم أحياناً مع بداية القرن حيث بات أهم إثنين من أهل المال العربي وهما رفيق الحريري والأمير الوليد بن طلال شركاء بالمال في صحيفة «النهار». لكن تبقى النوعية التي إعتددها نبيل خوري هي اللافتة لأن الذين ضخوا المال لـ «المستقبل» من أجل المستقبل كانوا مساندين لمشروع حديث العهد ولم يدخل مدار العراقة مثل «النهار» وليسوا مشاركين بمن يمثلهم.

شُبّه الإستحالة الثالثة التي كان يتطلع إليها بكل جوارحه هي أن تستأنف «مُستقبله» الصدور، معتمداً في ذلك على أنه ما دام حقق شُبّه المستحيلين الإثنين اللذين أوضحناهما فلماذا لا يحقق شُبّه المستحيل

الثالث.

ثم إستسلم للظروف قبل أن يستسلم للأقدار. وجاءت اللحظة التي أخذ فيها الله ما أعطى. ورحل نبيل خوري وهو يخطو نحو العقد السابع، والذي كان في مجمل محطات حياته من القدس حتى اللحظة التي إنتهت الإغماء الطويلة وفاضت روحه، رواية ميلودرامية عنوانها «فلسطيني عروبي من القدس في القلعة الشرقية». والقلعة التي نقصدها هي الأشرفية عرين المرحوم الشيخ بشير الجميل، الذي أشعلت نار رؤيته لحاضر البلد ومستقبله عام 1975 نار الحريق في لبنان. وأشرفية الشيخ بشير هي التي لم تتحمل العروبيين، وبالذات الفلسطينيين منهم، لكن تربة المدافن المجاورة لكنيسة «مار متر» إستضافت وعلى الرحب والسعة هذا اللبناني الفلسطيني الأصل الأرثوذكسي العروبي منذ البداية... إلى اللحظة التي فاضت فيها الروح إلى بارئها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الجمعة 27 سبتمبر (أيلول) 2002

* * *

ماذا بعد المفاجآت والديون المتبادلة؟

إستكمالاً لرؤية سابقة حول الطباخ الأميركي الماهر والطبخة التي أصابتها في الصميم المرونة العراقية المباحة، متمثلة في تسليم وزير الخارجية العراقي الدكتور ناجي صبري الحديثي يوم الإثنين 16 سبتمبر (أيلول) 2002 رسالة من حكومته إلى الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان تتضمن الموافقة على عودة المفتشين الدوليين ومن دون شروط... إستكمالاً للرؤية نضيف أن ما حصل مع الدول العربية ذات التأثير حصل من جانب الطباخ الأميركي الماهر مع فرنسا، التي لَوَّح لها هذا الطباخ بإمكانية تقويض قمة الفرنكوفونية في لبنان التي هي عملياً قمة فرنسا الشيراكية تبدأ بها من لبنان دوراً له آفاقه ومكاسبه الإقليمية والدولية لما يتبقى من سنوات الولاية الثانية للرئيس جاك شيراك في الحكم. والأمر.. أمر التقويض في غاية البساطة. تقتل إسرائيل مواجهة صغيرة تتسجم مع الرؤية «الأرمنية» عموماً لـ «لبنان حزب الله»، وهي رؤية تتدرج ضمن لائحة الإنتقام الأميركية ثاراً لكل أميركي قضى نحبه في لبنان، والتي باتت ضمن التسلسل الثأري واردة في أي لحظة قبل ضرب

العراق إذا كان لا مفر من الضربة. ولقد كان الرئيس شيراك واعياً ومتفهماً حيث أنه لم يقترب كثيراً من الموقف البريطاني الذي ينافسه على زعامة أوروبا كما أنه لم يبتعد كثيراً عن روحية الموقف الأميركي، تاركاً المجال رحباً للمناورة التي ترضي الأصدقاء العرب من جهة وتنفذ الدور الفرنسي الذي يتطلع إليه من خلال القمة الفرنكوفونية في لبنان من جهة أخرى، ويرضي بين الحالتين المزاج الفرنسي غير المقتنع بضرورة الحرب، وخصوصاً في غياب للأدلة الموجبة. ومن هنا نلاحظ التذبذب الذي كان عليه موقف الرئيس شيراك الذي يراوح بين إرضاء العرب وعدم إغضاب أميركا وبينهما تأمين مصالح فرنسا، حريصاً في الوقت نفسه على أن يكون موقفه متميزاً بحيث لا يبدو تقليداً للموقف الذي إتخذه سلفه الرئيس الراحل فرنسوا ميتران عام 1991. وبعدما إستقر رأي شيراك على وضع الأمر بين يدي الأمم المتحدة بعد إعطاء الحكم العراقي مهلة ثلاثة أسابيع لإعلان الموافقة على عودة المفتشين، فإنه بدا بشكل حاسم صاحب موقف يمكن أن يرضي من يريد أن يرضى ويقتنع بدءاً من الحكم العراقي وصولاً إلى الإدارة الأميركية مروراً بالأصدقاء العرب والمسلمين والأشقاء الأوروبيين.

وما حصل مع فرنسا حصل مع ألمانيا التي خاض مستشارها غيرهارد شرودر معركة لافتة وشجاعة ضد الخط الأميركي المتشدد مع التركيز على أن الهيمنة التي تصر عليها إدارة الرئيس بوش ليست مقبولة، وأن أي قرار لعلاج الحالة مع العراق يستوجب الكثير من التشاور كما يستوجب مراعاة مصالح الآخرين. والأهم من هذا كله هو أن يكون القرار موضع تأييد من جانب الرأي العام الذي بدا في ألمانيا بأنه لا يحبز الضربة العسكرية للعراق ولا يريد لحكومته أن تتساق في هذا الإتجاه بدليل أنه أعاد شرودر مستشاراً للبلاد. كذلك حصل مع كندا التي فاجأت إستطلاعات الرأي فيها الإدارة الأميركية، وبالذات لأن نسبة المعارضين للضربة في هذه الإستطلاعات تجاوزت الستين في المائة. وحتى بالنسبة إلى إيطاليا فإن رئيس حكومتها سيلفيو برلسكوني إتخذ موقفاً لا يحظى بتأييد الرأي العام، وكان إذا جاز التعبير مثل الموقف الذي إتخذه رئيس الحكومة البريطانية طوني بليز. ومن المؤكد أن الموقفين جاءا نتيجة خصوصية تتدخل فيها حسابات الريح والخسارة السياسية بالمشاعر غير الودية نحو العرب بدرجة كبيرة.

الطباخ الأميركي الماهر والتي مهّد بها لنقل المباراة إلى المنظمة الدولية، وعلى نحو ما أوردناه في الأسطر السابقة. ولقد جاءت طبخة غير شهية على الإطلاق، ومع ذلك يريد من العالم أن يلتهمها تماماً مثل الكأس المرة التي يتم تجريعها لمن لا يريدون لها أن تقترب من أفواههم.

وحتى مساء يوم الاحد 15 سبتمبر 2002 كانت الطبخة على أهبة النضج ولا بد من إطعامها للجميع إلا إذا كانت لدى الحكم العراقي مفاجأة مدوية سيواجه بها «البافالو» الأميركي ويتسبب له من خلال هذه المفاجأة التي قد تكون أسلحة تؤذي المعتدين عليه بإحراج ولا الإحراج الفيتنامي. أو تكون المفاجأة عبارة عن قرار سياسي يُحدث دويًا ويؤكد ما معناه أن قواعد اللعبة توجب على الرئيس صدام حسين أن يوصي بعودة المفتشين... وليفتشوا ما شاء لهم التفتيش.

وفي ساعة متأخرة من يوم الإثنين 16 سبتمبر 2002 جاءت المفاجأة العراقية تحقق إنفراجاً في نفوس العالمين حكماً ومسؤولين وشعوباً وتمثلت في رسالة سلمها وزير الخارجية العراقي الدكتور صبري الحديثي إلى الأمين العام للأمم المتحدة كوفي انان، ثم خرج الحديثي الذي بات رمزاً للمرونة في السياسة العراقية مبتسماً، قائلاً لمندوبي الصحافة والمحطات التلفزيونية «لقد تم التوصل إلى نتائج مرضية وإن الأمين العام سيزف لكم بشرى سارة»... ثم أعلن انان بعد ذلك قبول العراق رسمياً بعودة مفتشي الأسلحة وإستئناف مهمتهم من دون شروط، مضيفاً: «سأنقل رسالة الموافقة المرسلّة إلي من الحكومة العراقية إلى مجلس الأمن الذي سيقدر المرحلة المقبلة. ومن المؤكد أن المستر (هانس) بليكس وفريقه جاهزون لمتابعة عملهم. أن خطاب الرئيس الأميركي جورج بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة اثار حماس المجموعة الدولية، وإن جميع خطباء الجمعية العامة تقريباً دعوا العراق إلى الموافقة على عودة المفتشين. وأغتنم الفرصة كي أوجه تحية خاصة إلى جميع دول جامعة الدول العربية التي إضطلعت بدور أساسي في هذه القضية ولكي أشكر أمينها العام عمرو موسى لجهوده الحثيثة التي ساعدت في حث العراق على عودة المفتشين وإقناعه المسؤولين العراقيين بهذه الخطوة.

من المؤكد أن الإحتقان الذي ملأ الصدور وجد له متنفساً من جرّاء هذه الخطوة ليس فقط لأنها تتسجم مع التأكيد المتواصل للحكم العراقي بأنه لا يملك

وما فعله الطباخ الأميركي الماهر مع هؤلاء الذين هم في رأيه حلفاء للولايات المتحدة، أو أنهم يجب أن يكونوا حلفاء معه بصيغة ما، فعله مع روسيا وذلك من خلال دعم أميركا للتحالف الذي لا يُنفع أحداً بين جورجيا شيفارنادزه الأميركي الهوى قلباً وقالباً وثوار الشيشان الذين باتوا بتوجيه من الإدارة الأميركية شوكة في الخصرة الروسية، في حال أن «القيصر» الروسي الجديد فلاديمير بوتين قرر أن يساير العراق إلى حد إستخدام الفيتو في مجلس الأمن ضد أي قرار بتوجيه ضربة للعراق تحظى بشرعية الأمم المتحدة، وبصرف النظر عما إذا كان الضارب هو الأميركي وحيداً على نحو ما يريد ضمناً كي لا يشاركه أحد مغانم ما بعد الضربة أو معه من يشاركه شكلاً تقادياً للمظهر العدوانى الذي لا يريد إلصاق الضربة به فقط. وأما الصين، فإن الصفة الصامته حول تايوان التي تقضي بعدم تشجيع إستقلالها على نحو ما يريده التايوانيون من أميركا خشية ضمها إلى الصين، ربما تشكل ما من شأنه أن يغري الدولة العظمى بعدم إغضاب «البافالو» الأميركي الذي قرر مناطحة نظام الرئيس صدام حسين شر مناطحة. وعدم الإغضاب الذي نعينه هو أيضاً من خلال عدم إستعمال الفيتو.

من يبقى؟ تركيا. هذه أمرها محسوم. باكستان. هذه الأخرى أمرها محسوم. بقية المسلمين بمن فيهم ميغاواتي بوتري ابنة الطبيب الذكر سوكارنو التي زارت قبل أيام القاهرة ورأت أمامها رئيساً في منتهى الواقعية يحدثها عن جنون العظمة الأميركي وما يمكن أن يفعله... هؤلاء بعيدون، أو من السهل تباعدهم. ليبيا. هذه لدواعي الزعامة الأفريقية وبعض الحثثيات الأخرى قررت على نحو ما قال زعيمها معمر القذافي في خطاب «البروستروكا» الليبي ما معناه أن من سيفق في وجه أميركا سيتم سحقه تحت الأقدام، هو من قال ذلك وبعظمة لسانه.

خلاصة القول إن إدارة الرئيس بوش أسقطت حجج كثيرين، أو فلنقل إنها اضعفت هذه الحجج عندما سايرتهم في نقل المباراة إلى الأمم المتحدة وأرفقت هذه المباراة بحملة على الأمم المتحدة التي في رأيها تتحمل المسؤولية. وما يلفت الإنتباه هو أن هذه المنظمة لا تعترض على المنطق الأميركي على الرغم من أن أميركا لا تسدد إلتزاماتها المالية نحو المنظمة على النحو المطلوب.

ولكن الأهم من هذا كله هو الطبخة التي طبخها

أجواء يوم الثلاثاء اللندني الأخير، 24/9/2002، ومطالعة بلير أمام مجلس العموم التي لم تُقنع المعارضين والمتحفظين على توجيهه وارداً... إما بالإختيار وإما بالإضطرار.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 2 أكتوبر (ت) 2002

الحل السحري.. ربما بوفد القمّتين

في هذه الأيام ودرءاً للخطر الذي يقترب من أبوابنا ما دام الإنطباع السائد عن إدارة الرئيس بوش الإبن أنها ستشن الحرب على العراق على رغم مفاجأة عدم الرضى في المجتمع البريطاني والتي ستترك ذيولاً على رئيس الحكومة طوني بلير وأيضاً على رغم كل التحفظات والإعتراضات العربية والإسلامية والأوروبية، قد يكون من المناسب أن نتكرر محاولة سبق أن أخذتها على عاتقها القمة العربية الإستثنائية التي بدأت أعمالها يوم الخميس 2 نوفمبر (تشرين الثاني) 1978 في بغداد.

في تلك القمة كان هنالك حرص عربي شامل على عدم مغادرة مصر السرب، وذلك من خلال العودة عن إتفاقية كامب ديفيد التي أبرمها الرئيس أنور السادات مع رئيس الحكومة الإسرائيلية مناحيم بيغن برعاية الرئيس جيمي كارتر الوحيد الباقي على قيد الحياة من هذا الثلاثي.. ذلك أن السادات قضى إغتيالاً وبيغن توفي معزولاً مصاباً بحالة خَرَف كتلك المصاب بها الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغان البالغ من العمر 91 عاماً والذي إشتدت عليه وطأة الخَرَف إلى درجة النسيان بأنه كان رئيساً.. وبذلك فقد حتى طعم نشوة الماضي الرئاسي.

بعد التشاور بين أقطاب تلك القمة الملك فهد بن عبد العزيز الذي كان زمنذاك ولياً للعهد والرئيس (الراحل) احمد حسن البكر والملك (الراحل) حسين والرئيس (الراحل) حافظ الأسد وأمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد، إستقر الرأي على أن يتم إعداد رسالة تحمل توقيع رئيس المؤتمر (اي البكر) يحملها وفد إلى السادات تقلّه إلى القاهرة طائراً عراقية خاصة ويراعى في تشكيله أن يكون على مستوى عال وأن يضم إتجاهي القمة: الإتجاه الداعي إلى التحاور وعدم

الأسلحة التي يؤكد دعاة الحرب الأميركيين والبريطانيون والإسرائيليون انها موجودة لدى العراق وإنما لأن الضربة العسكرية في حال تنفيذها كانت ستشكل أدق حالة إحراج لأطراف كثيرة عربية وإسلامية وأوروبية، وهي أطراف لا تريد للنظام في العراق أن يعاند إلى درجة توجيه الضربة اليه لأنها في حال حدوث ذلك غير قادرة أن تفعل شيئاً أكثر من الإستنكار اللفظي، أو أنها لا تريد ولا تريد للإدارة الأميركية أن تلجأ إلى الضربة وتكون هذه بداية واقع سياسي جديد في المنطقة العربية في الدرجة الأولى، فضلاً عن أن مواجهات إضطرارية يمكن أن تحدث مع هذه الإدارة، في حال تعاملت مع أنظمة أخرى في المنطقة على نحو تعاملها مع العراق.

ونصل إلى القول إن الحكم العراقي بات في ضوء هذه الخطوة التي نشير إليها والتي قطعت الطريق على ما طبخه الطباخ الأميركي الماهر، مديناً لكل حكومة عربية أو اجنبية لم تتجاوب بما فيه الكفاية مع الكواسر داخل الإدارة الأميركية الذين راهنوا على الضربة، وبحيث تنتهي إلى حرب في المنطقة تجرف في طريقها حكماً وكيانات ولا تقتصر على إجراء تأديبي. فلولا وقفة هؤلاء لما تشجعت القيادة العراقية على ان تصمد في وجه الإنذارات والتهديدات ولكانت الآلة العسكرية الأميركية ترجمت وبكثير من الدقة مخطط إدارة الرئيس بوش. وفي المقابل، فإن دول العالم باتت مدينة للحكم العراقي الذي مارس المرونة في اللحظة المناسبة فقرر أن يعود المفتشون على نحو ما تريد الإدارة الأميركية وأن يفتشوا ما شاء لهم التفتيش. أما المكافأة على هذه المرونة فتكون برفع الحصار المفروض على العراق منذ 12 سنة ووضع نهاية للعقوبات التي رأت شخصيات دولية آثارها على الصعيد الإنساني. ومن هذه الشخصيات النائب الأميركي نك رحال الذي شاهد على الطبيعة أجساد أطفال فتكت بها أمراض وكان من الممكن علاجها لولا الحصار.

وبعد فك الحصار ورفع العقوبات يبدأ العهد العربي العربي المتجدد والعصر الأميركي - العربي... إنما على نحو غير الذي طبخه الطباخ الأميركي الماهر ولم يتيسر إطعام الآخرين من هذه الطبخة رغماً عنهم. ولكي يحدث ذلك لا بد أن تعيد إدارة الرئيس بوش النظر. ولن يجعلها تفعل ذلك ويثنيها عن الفعل الحربي سوى إبتعاد بلير عنها. وهذا بات في ضوء

التسرع في إدانة الرئيس السادات، والإتجاه الرافض والمتصلب والمتضرر قومياً. ومن أجل ذلك تم تشكيل الوفد من الدكتور سليم الحص رئيس الحكومة اللبنانية زمذاك وعضوية طارق عزيز عضو مجلس قيادة الثورة في العراق وأحمد إسكندر (الراحل) وزير الإعلام السوري وأحمد خليفة السويدي وزير خارجية دولة الإمارات.

جاءت الرسالة على النحو الآتي:

«السيد أنور السادات المحترم،

بعد التحية،

إنعقد مؤتمر القمة العربي في بغداد في 2 نوفمبر 1978 من أصحاب الجلالة والسيادة والسمو ملوك ورؤساء وأمراء الدول العربية وممثليهم. وكان محور مناقشات المؤتمر الإتفاقيات التي عقدتموها والتي تسعون إلى التوقيع عليها مع العدو الصهيوني والتي سميت بإتفاقيات كامب ديفيد وبلير هاوس.

وقد وجد السادة المجتمعون أن هذه الإتفاقيات لا تخدم الأمة العربية وحقوقها في فلسطين والقدس وسيناء والجولان ولا قضايا الشعب المصري الأخرى في المعنى الشمولي والعمل مع القضية القومية، بل وإنها تُلحق أذى بالأضرار بالأمة العربية وبمصلحة الشعب المصري الشقيق في إطار المعاني والمبادئ التي أشرنا إليها. وعليه فإننا بإسم مصلحة الأمة العربية وبإسم المبادئ التي تجمعنا مع الشعب المصري المناضل، هذه المبادئ التي تشكل القانون الأساسي في حاضرتنا ومستقبلنا على طريق صيانة الكرامة والإستقلال وتحقيق الإزدهار، نناشدكم أن ترجعوا نهائياً عن هذه الإتفاقيات صراحة وفوراً وتعودوا إلى صف الإجماع العربي مع أشقائكم الذين شاركوكم السراء والضراء في أقصى المحن وضحووا مع الشعب العربي المصري وجيشه البطل سافكين دماءهم في خنادق القتال مع العدو الصهيوني مضحين ما لديهم من أجل إسترداد أراضينا العربية المقدسة والتي إغتصبها العدو الصهيوني.

إنكم بعودتكم عن هذه الإتفاقيات إنما تُسدون خدمة كبيرة للأمة العربية وللمستقبل شعبنا العربي في مصر وتجلبون الأمة مخاطر كبيرة. وستجدون الأمة العربية مصممة وقادرة على حماية نفسها وإسترجاع أراضيها من خلال السير على طريق العمل المشترك والحفاظ على المبادئ الأساسية التي قامت عليها الأمة وقام عليها نضالها ضد الصهيونية طيلة ثلاثين عاماً.

إن الأمة العربية ومن خلال ما قرره ملوك ورؤساء وأمراء الدول العربية على إستعداد لأن تقدّم لمصر كل ما يجعلها قادرة على مواصلة النضال إلى جانب أشقائنا العرب وكل ما يحمي كرامة الشعب المصري. وقد تضمّن المشروع المقدم إلى إجتماع القمة ما يؤكد هذا الإلتزام. اللهم أشهد أننا بلّغنا والله من وراء القصد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

في ضوء القراءة المتأنية لنص الرسالة التي حملها الوفد يرى المراقب انها كانت في غاية المسؤولية. فهي تخاطب الرئيس السادات مخاطبة الشقيق للشقيق. وهي تناشده ولا تملي عليه شروطاً ومطالب شخصية. وهي تعتبر عودته عن إتفاقية كامب ديفيد وبلير هاوس خدمة كبيرة للأمة العربية. وهي تتيح له العودة إلى الصف العربي. والأهم من هذا كله إنها لا تهدد ولا تنذر، وإنها ملزمة بما يتعلق بالمساعدات التي تتعهد بتقديمها إلى مصر. وهي تنطق بإسم كل الملوك والرؤساء العرب. وحتى عبارة «اللهم إشهد اننا قد بلّغنا» لا تبدو نوعاً من الإنذار وإنما هي أقرب إلى التعهد.

غادرت الطائرة العراقية الخاصة ببغداد بعد ظهر يوم السبت 4 نوفمبر 1978. وفوجئ الوفد عند وصوله بأن مستقبلهم هم بعض موظفي التشريفات والصحافيين الذين وجّهوا إلى رئيس الوفد الدكتور سليم الحص أسئلة إستفزازية. وكان هذا الإستقبال الذي لا يتسم بالأصول موضع إستغراب، ذلك انه كان تم إبلاغ الخارجية المصرية بسفر الوفد، وهذا يعني أن يكون أحد كبار المسؤولين في إستقباله ما دام الوفد هو وفد قمة ومن دون أن يعني ذلك إقراراً بالمطالب التي يحملها الوفد. وزادت نسبة الإستغراب لأن الرئيس السادات لم يكن يعلم ماذا في الرسالة التي ينقلها الوفد لكي يأمر سلفاً بعدم إجراء إستقبال رسمي.

توجّه الوفد بسيارات من السفارة العراقية إلى فندق شيراتون وشعورهم أن نوعية الإستقبال الذي جرى لهم مؤشر إلى ان الرئيس السادات لن يستقبلهم. وعندما سمعوا وهم في السيارات فقرات من خطاب كان يلقيه السادات في إفتتاح الدورة الثالثة لمجلس الشعب (البرلمان) المصري وتضمّنت عبارات مهينة في حق الملوك والرؤساء المجتمعين في بغداد، تأكد لهم أن مهمتهم قد أخفقت.

من جملة ما ورد في خطاب السادات الفقرات الآتية:

«نحن نبني السلام أيها الأخوات والإخوان وسط أكثر ضجيج من المزايدات والمتاجرات في حقوق الشعب العربي. مزايدات تعلق حناجرها اليوم رغم السلام خفت صوتها بالأمس القريب وكبتت إرادتها عن أن تقتحم معنا التضحيات في ميدان الشرف والسلام. نبني السلام وسط مؤامرات تحيكها وتدبرها وتوجهها قوى عظمى هي الاتحاد السوفياتي أرادت لنا أن نركع. وعندما تصدين وإرتفعت قامتنا شاءت هذه القوى العظمى أن تُسخر ما لديها من إمكانات وعملاء كي تهدم بناء السلام. أقول لاؤلك وهؤلاء من فوق هذا المنبر وبإسم الملايين من أبناء شعبنا العظيم أن مصر السلام لا تتعزل ولا تُعزل لأنها مصر أكتوبر.»

«إنها مصر، السلطة القادرة دائماً بعبون الله على أن تعزل دون أن تتعزل، مصر أكتوبر التي عزلت فعلاً مواقع المزايديين والمتاجرين بالنقاهات دون أن تتعزل بمسؤولياتها القادرة والرائدة عن أسمى الأهداف والغايات، مصر أكتوبر التي ردت لهم كرامتهم، مصر التي ردت لهم كيان الوجود وهم معزولون عن كل وجود. أي صوت ضال هذا الذي يجرو على القول انه قادر على عزل مصر.»

«وعزل مصر فيمن وعن من وإلى أين؟ عزلها عن الهاربين عندما نالت الأرض المغتصبة جسارة الرجال، أم عزلها عن التضحيات بالدم والقوة بعدما تضخمت الكثير من الخزائن بحصاد أرواح أعز أبنائنا وأغلى شبابنا؟ أم عزل مصر عن عراقية وحضارة وأصالة ساهمت في صنع المدينة من آلاف السنين، وهي تشارك اليوم في صنع أروع تحوّل تاريخي نحو سلام الإنسان وسيادته على أرضه وكرامته.»

«هذه التفاهات لا تستحق الرد عليها لأن المعزول بجهله وحقه وتخلفه الفكري والحضاري هو صاحب الحاجة إلى أن ننشله من عزلته ولن يصل إلى أذاننا فحيح الأفاعي، ولا يرتفع أبداً إلى كياننا عبث الصغار. اننا فوجئنا بالوكالات الأجنبية تقول بأن المؤتمرين في بغداد قد أوفدوا وفداً وأنهم في الطريق لم يستأذنوا من القاهرة، وهم يعلمون أننا نحتفل اليوم بإفتتاح الدورة الثالثة لمجلس الشعب وأنا نَعْنى بالسلام وقضية البناء الداخلي وقضية الديمقراطية والحريات.»

«من قبل أن تصدر بياناتهم، قبل أن أعود إلى القاهرة أرسلت لكل الملوك العرب ما عدا جبهة الرفض تحليلاً كاملاً، وبدلاً من أن يردوا لجأوا إلى الأسلوب القديم ودعوا إلى الإنفعال ودعوا إلى مؤتمر بغداد. إلى

متى يكون مصير الأمة العربية رهن الإنفعال والتشنج. إذا قبلوا هم هذا لشعوبهم فلن نقبله من أجل مصر ومن أجل شعوبهم. سنزد على بلاغهم أو على ما أرسلوه بالقول: لن يجتمعوا بي ولا بأي مسؤول. ورسالتي عبر العالم وهم يسمعونني الآن: إن ملايين العالم كله لا تشتري إرادة مصر... إرادتنا.»

لم يقتصر الأمر على الإستقبال غير اللائق للوفد ولا على كلام الرئيس السادات أمام البرلمان، ذلك أن وزيراً مصرياً مغموماً جاء إلى فندق شيراتون ليقول للوفد: ان الرئيس السادات رد على مهمتكم بالخطاب الذي ألقاه أمام أعضاء مجلس الشعب وعندما قال له رئيس الوفد الدكتور سليم الحص: هل نفهم من ذلك إننا لن نقابل الرئيس ونسلمه رسالة مؤتمر القمة، أجاب: «نعم، وأنا هنا لأبلغكم ذلك ولأقول لكم حتى أنا لن أتسلم الرسالة.»

ما الذي حدث بعد ذلك، وما هو الحل الذي يمكن أن يكون سحرياً؟ للكلام بقية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 9 أكتوبر (ت) 2002

كيف يستطيع الحريي حجب صواريخ العم سام؟

عرضنا في المقال السابق ما الذي حدث في القمة العربية الإستثنائية التي بدأت أعمالها يوم الخميس 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 1978 في العاصمة العراقية بغداد، وما الذي جرى للوفد الذي ذهب إلى القاهرة متمنياً على الرئيس السادات إعادة النظر، لكن الرئيس المصري رفض حتى إستقبال الوفد. فعاد الموفدون وقد خابت آمال الملوك والرؤساء الذين كانوا ينتظرون في العاصمة العراقية عودة وفدهم قبل أن يتخذوا القرارات التي يرونها ضرورية متمنين ألا يضطروا إلى إعتقاد المساواة في أي قرار يتم إتخاذه. ولم يكن الملوك والرؤساء في حيرة مما فعله الوفد في القاهرة ولا يدرون بما حدث، ذلك أنهم قرأوا بعناية الكلام الذي قاله عنهم الرئيس السادات في خطابه. وكانت قراءتهم متأنية لأن سكرتارية المؤتمر سارعت إلى طبع الفقرات التي تعنيهم من الخطاب ووزعتها على الوفود.

عليهما من نتائج ورفضه لكل ما يترتب عليهما من آثار سياسية وإقتصادية وقانونية وغيرها من آثار. وقرر المؤتمر دعوة حكومة جمهورية مصر العربية للعودة عن هاتين الإتفاقيتين وعدم توقيع أي معاهدة للصلح مع العدو ويأمل المؤتمر منها العودة إلى حظيرة العمل العربي المشترك. وفي هذا الصدد إتخذ المؤتمر عدداً من القرارات لمواجهة المرحلة الجديدة وأكد ضرورة توحيد الجهود العربية كافة من أجل معالجة الخلل الإستراتيجي الذي ينجم عن خروج مصر من ساحة المواجهة. وقرر المؤتمر أن تتسق الدول التي لديها الإستعداد والمقدرة على المشاركة بجهود فعالة، كما أكد ضرورة التمسك بأنظمة المقاطعة العربية وأحكام تطبيق بنودها.

تأتي الآن وبعد حوالي ربع قرن لنجد أمامنا حالة مماثلة إلى حد ما. هنالك وضع عربي مرتبك وهنالك خشية من جانب الجميع على العراق. وهنالك موقف عربي شبه موحد خلاصته أن حرب أميركا عليه مرفوضة وأن على أهل الحكم في العراق ان يمارسوا من المرونة أقصاها من أجل تفادي هذه الحرب. وفي الوقت نفسه هنالك تبدل نوعي في العلاقة بين الحكم العراقي وبعض الحكام العرب الذين عتبتوا عليه أو قطعوا العلاقة معه بعد الذي فعله بالكويت يوم الخميس 2 أغسطس 1990، وكيف أن هذا الفعل أحدث زلزالاً في العلاقات العربية وتسبب في حرب على العراق وحصار له يدفع ثمن تداعياته حتى الآن شعباً ونظماً. كما ان هنالك إقتناعاً لدى كل الأنظمة العربية بأن الحرب التي يريد الرئيس بوش الابن شنها على العراق ستجعل المنطقة بالكامل في حالة اضطراب لا مثيل له وقد ينتهي الأمر إلى أن أحد ثلاثة امور ستحدث وربما تحدث كلها مجتمعة. وهذه الأمور هي إما وضع اليد الأميركية بالكامل على العراق وتقسيمه أو الإبقاء عليه موحداً وجعله بمثابة غرفة العمليات العسكرية والسياسية للولايات المتحدة في المنطقة. وأما حدوث مفاجآت من جانب العراقيين تكون نتيجتها غرق العظمى الأميركية في كثنان رمال الخليج على نحو غرقها السابق في مستنقعات فيتنام. وأما الإكتفاء ببعض الضربات القاسية التي تُخرج النظام البعثي في العراق فتجعله يتأمر على نحو ما فعل آخرون كثيرون، والتأمرُك يستوجب إعادة نظر جذرية من حيث النظرة إلى أميركا ومن حيث تعديل النهج في ما يخص إسرائيل.. أي بما معناه يصبح

وفي ضوء الفعل ورد الفعل، أي في ضوء الخطوة المتمثلة بالوفد والأسلوب الذي إعتمه الرئيس السادات من لحظة الإستقبال غير اللائقة للوفد في المطار إلى لحظة ابلاغ أعضائه في الفندق عن طريق الوزير المغمور بأن عليهم مغادرة القاهرة لأن الرئيس لن يستقبلهم وأن جوابه على إخوانه أهل القمة يتمثل في الخطاب الذي ألقاه أمام البرلمان، شعر الملوك والرؤساء انهم قاموا بما يمليه عليهم الضمير والواجب وأصدروا بيانهم الختامي الذي أكد «إلتزام الأمة العربية بالسلام العادل الذي يقوم على أساس الإنسحاب الإسرائيلي الشامل من جميع الأراضي العربية المحتلة في العام 1967 بما فيها القدس العربية وضمّان الحقوق الثابتة للشعب العربي الفلسطيني وإقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني». كما أكد على «ان قضية فلسطين هي جوهر الصراع مع العدو الصهيوني وأن النضال من أجل إستعادة الحقوق العربية في فلسطين والأراضي العربية المحتلة مسؤولية قومية عامة، وعلى جميع العرب المشاركة فيها كل من موقعه وبما يمتلك من قدرات عسكرية وإقتصادية وسياسية وغيرها».

ودعا البيان كل الدول العربية إلى «دعم المقاومة الفلسطينية من خلال منظمة التحرير بإعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني من أجل التحرير وإستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير وإقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني»، وإلى «الإلتزام بالحفاظ على الوحدة الوطنية الفلسطينية من خلال منظمة التحرير بإعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني من أجل التحرير وإستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير وإقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني، وإلى «الإلتزام بالحفاظ على الوحدة الوطنية الفلسطينية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للعمل الفلسطيني».

وأكد البيان الإلتزام بمقررات مؤتمر القمة وخاصة قمة الجزائر وقمة الرباط مشيراً إلى «إن المبادئ الجوهرية التي لا يجوز الخروج عنها أو التساهل فيها عدم جواز إنفراد أي طرف من الأطراف العربية بأي حل للقضية الفلسطينية بوجه خاص وللصراع العربي - الصهيوني بوجه عام. ولا يُقبل أي حل إلا إذا إقترن بقرار من مؤتمر عربي يُعقد لهذه الغاية».

وتضمّن البيان عدم موافقة مؤتمر بغداد على إتفاقيتي كامب ديفيد و«عدم التعامل مع ما يترتب

البعث جزءاً من الكل أو يصبح إرثاً بالمفهوم العلمي وترثاً بالمفهوم الوجداني وتحل محل الحكم القائم حكومة فضفاضة يراعى فيها تمثيل المعارضة، وهذا تنويع متدرج للنظام ولرئيسه صدام حسين، كما أنه بمثابة قطع الطريق على الإستمرارية البعثية - الصدامية بمعنى توريث الحكم إلى جيل الأبناء.. وهو هنا تحديداً قصي صدام حسين الذي يمسك بالمفاصل الدقيقة في النظام الحالي، والذي بات يحظى بشرعية حزبية تجيز له أن يكون في الصدارة وفي قمة الحكم، على نحو شرعية حصل عليها من قبل الدكتور بشّار حافظ الأسد في سوريا فورث الحكم عن والده، وبداية شرعية حصل عليها قبل أيام جمال حسني مبارك تجيز له أن يكون الوريث للرئيس حسني مبارك. أطال الله عمر الوالد.

في الوقت نفسه نلاحظ ان هنالك خشية من أن تتأثر العلاقة العربية - الأميركية، وهذا قد يؤدي إلى دخول أطراف دولية تنتظر فرصتها على خارطة التعامل. ويمكن للمرء أن يستشف هذه الخشية من تصريحات يدلي بها بين الحين والآخر بعض المسؤولين في المملكة العربية السعودية ومصر اللتين هما أكثر الدول العربية ارتباطاً إستراتيجياً بالولايات المتحدة.

ازاء هذا المشهد الصاخب وما يحويه من ألغام قابلة للانفجار قد يكون من الأفضل معاودة تجربة ما فعله الملوك والرؤساء عام 1978 وأوردنا بعض مضامينه في السطور السابقة. وقد يكون من الأفضل تشكيل وفد يمثل جناحي الأمة خير تمثيل، أي بما معناه الوفد الذي ترتاح إليه السعودية ودول الخليج وتطمئن إلى مقاصده مصر ويكون حريصاً على أطيح العلاقة مع الإدارة الأميركية ومقتنعاً بضرورة إستعادة العراق ودرء الأذى عنه وموضوعياً في مسألة الصراع العربي - الإسرائيلي، ومقاتلاً جسوراً من أجل الإعمار والتنمية في العالم العربي، وأميناً في ما يعرض من افكار وما يسمع من مقترحات، ويلقى من الذين يطرق باب دواوينهم الإستقبال الجيد والمراعاة الممكنة.

وإذا جاز للمرء مثل حالي الذي يعرف الأشخاص والدخائل ونقاط القوة والضعف في السياسات والمسؤولين عن تنفيذها، وعایش عن قرب ومن الداخل ظروف وخلفيات محاولة القمة الإستثنائية في بغداد عام 1978 لدى الرئيس السادات.. اذا جاز لهذا المرء

أن يسمي فإن الوفد يكون برئاسة رفيق الحريري رئيس الحكومة اللبنانية ممثلاً العماد إميل لحود رئيس القمة العربية الدورية الثانية التي إستضافها لبنان في آذار (مارس) الماضي، وولي عهد البحرين ممثلاً رئيس القمة العربية الدورية الثالثة التي ستستضيفها المنامة في مارس 2003 وولي عهد المغرب الأمير رشيد على أساس أنه يمثل في الوفد الجناح المغربي للأمة وعلى أساس أن والده الراحل الحسن الثاني هو رمز تفكيك الحدة العربية في موضوع الصراع مع إسرائيل وصولاً إلى إتفاقية كامب ديفيد التي طالما شجع حدوثها وطالما ذلّل العقبات الكثيرة في شأنها، وأن القمم العربية الكثيرة في الرباط وفاس والدار البيضاء على مدى ثلاثة عقود تشهد على ذلك وتشهد على حرصه الملحوظ بأن لا تتأثر العلاقة العربية مع الولايات المتحدة من جرّاء أي إنتكاسات. وهذا الوفد يزور بغداد بهدف تعطيل أي ذرائع ثم يتوجه إلى واشنطن بهدف محاولة إصراف النظر عن مخطط العلاج الحربي.

ومثل هكذا وفد من شأنه أن يحقق ثلاثة أمور أساسية هي:

- شبه إستعادة للعراق بنظامه الحالي، اما الإستعادة الكاملة على نحو إستعادة العرب لمصر فتتم في القمة الدورية الثانية في البحرين في مارس المقبل.

- إرضاء للنفسية العراقية بأن كل الأشقاء العرب ومن دون إستثناء زاروهم. وعندما نقول ذلك فعلى أساس أن تشكيلة الوفد تعكس إنطباعاتاً بأنه يمثل القادة العرب خير تمثيل. وبعد الروحية التي سادت القمة العربية الدورية الثانية في بيروت وما حدث فيها من مصالحات ومصافحات، فإن الخطوة لا تبدو مستغربة.

- طمأنة الصديق الأميركي بأن مكانته محفوظة ورؤيته لمستقبل العلاقة قابلة للنقاش الموضوعي... إنما ليس بعد إندلاع الحرائق في المنطقة بفعل الحرب على العراق.

في حال جاء التصرف العراقي على غير ما يتمنى الوفد يصبح من الطبيعي أن يقتلع النظام في العراق بنفسه الشوك الأميركي ويصبح منطق القادة العرب أمام الرأي العام أقوى بمعنى أنهم فعلوا كل ما في إستطاعتهم فعله. وغالب الظن أن الرئيس صدام حسين سيتصرف مع هذه الهدية

التمينة على النحو الذي يريح الأشقاء العرب ويجعل صديقهم الأميركي يعدل في نظرتهم وصديقاً له مستقبلاً. ألم يحدث أن كاد يكون قبل خمس عشرة سنة صديقاً؟

وفي حال جاء التصرف الأميركي على غير النحو المرجو وكان هنالك إصرار على اعتماد الحل العسكري، فهذا معناه أن العراق سيكون فاتحة عدوان أميركي واسع النطاق على المنطقة. وفي هذه الحال لن يكون أي عربي واقفاً يتفرج على أميركا ومعها إسرائيل وربما بريطانيا تضع اليد على المنطقة. في هذه الحال أيضاً لا يعود من المستبعد أن تتحول الحملة العسكرية المشار إليها إلى حرب عالمية تكون الثالثة بالفعل وربما الأكثر دمارةً وشراسةً من سابقتها الأولى والثانية، وهي حرب تتحمل وزرها الإدارة الأميركية الحالية التي قد يتبين أن الإتيان بها قبل سنتين كان لهذا الغرض الشرير.

ويبقى القول إن هذا الحل السحري هو بمثابة مخزج لكل الأطراف مجتمعة في حال أرادت حفظ ماء الوجه. ثم أن رفيق الحريري بالذات لهذا الدور هي لحظة قد لا تتوفر في ظروف أخرى فضلاً عن أن دور الرجل لم يعد من أجل «سوليدير» مزدهرة... وإنما من أجل منطقة يجب ألا تلتهمها نيران صواريخ العم سام.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 10 أكتوبر (ت) 2002

* * *

جريت الهولندية... هيرتا الألمانية...

كلير البريطانية

أفرزت تصرفات إثنين من أكثر حكام العالم عناداً وتشبثاً وغطرسية وترجيحاً للقوة على الحوار وللمغالطات على المنطق وللعنصرية على المناقشة الهادئة وراء طاولة التفاوض، ظاهرة في منتهى الأهمية، تتقاسم بطولتها ثلاث نساء أوروبيات سجلت كل منهن الموقف الذي لم يسجله بهذه العزة بالنفس والحرص على الضمير والزهد بالدنيا والمناصب ورغد العيش، رجال يشغلون مواقع المسؤولية.

الحاكمان المتغطرسان هما الرئيس الأميركي جورج

بوش الابن وحليفه وصديقه رئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون. ويصعب على المرء الإقناع بأن هذا التحالف هو من أجل الخير، أو أنه يليق بدولة عظمى مثل الولايات المتحدة أخذت على عاتقها عنوة ومن دون أي تشاور أو تقاهم مع الدول الأخرى أن تكون «دولة دول العالم» متزعمة عليها دونما أي مناقشة ودونما إستئذان، ضاربة عرض الحائط بكل الأصول التي تقول بإحترام الغير ومراعاة ظروفه وخصوصيته. وإذا فإن الجنوح نحو إخضاع الآخرين، وبالذات إذا كانوا أصحاب حق أو منادين بالإستقلال والتمسك بالإرادة الوطنية، وإعتماد العدوان سبيلاً لغرض الإخضاع، هو الجامع المشترك بين رئيس الولايات المتحدة جورج بوش الابن ورئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون. كلاهما يعاند ويتشبث ويرفض مراعاة التقاليد الديمقراطية في أن تتصاع الأقلية إلى رأي الأكثرية وليس العكس. وكلاهما على إستعداد لسفك الدم والتدمير من أجل فرض الأمر الواقع الباطل ولو كره الآخرون أو رفضوا.

وفي عصر الفضائيات التي باتت فضاحة لكل الممارسات الشريرة والتي كان يتم في الماضي إخفاءها نتيجة أن ما هو متيسر للإشهار هو بعض الصحف وبعض الإذاعات، وفي مرحلة لاحقة بعض محطات التلفزيون، تبدلت الأحوال وباتت في إستطاعة صحن على سطح المنزل إلقاط ما يحدث من جرائم وأعمال شريرة تجري لدى من إمتنوا الإجرام في حق الشعوب وجعلوا الشر عنواناً للحكم، بل إن هذه الفضائيات التي تكاثرت وتزايدت معها الصحن على السطوح باتت قادرة على أن تبث جولات الحروب والعدوان على الهواء، وكأنما هذه الجولات عبارة عن مباريات كأس العالم في كرة القدم. وبفضل البث الذي نشير إليه رأى العالم أي عدوان أصاب العراق عام 1991، رداً على عدوان من جانبه إستهدف الدولة الشقيقة والجارة الكويت. بفضل البث نفسه شاهد العالم ما الذي فعله أرييل شارون بالفلسطينيين وهاله المشهد الذي يصعب نسيانه. مشهد الفتى محمد الدرة يتم إغتياله بأسلوب القتل البارد وهو في حضن والده. وبفضل البث أيضاً تابع العالم، وبالذات كل بيت على سطحه الصحن الهوائي، كل المجازر الإسرائيلية في مخيم صبرا وشاتيلا في بيروت وفي «قانا» في جنوب لبنان والمجازر الشارونية اللاحقة في مخيم «جنين» وفي المناطق السكنية في غزة وبعض المدن والبلدات

الفلسطينية، وكان تابع من قبل ما أحدثته العمليات الإستشهادية الإضرطارية وتابع الرد العشوائي عليها متمثلاً بعمليات التصفية الجسدية لمناضلين فلسطينيين ينادون بإستعادة الحق المسلوب منهم أو في الحد الأدنى بعض الإنصاف الدولي بحيث تقام لهم دولة تكون القدس عاصمتها، وبذلك يسود الإطمئنان بأن الحرم الثالث، المسجد الأقصى، والمقدسات المسيحية في بيت لحم والناصره والقدس إستعادت حريتها. ومن دون الحرم الثالث ومهد السيد المسيح ما قيمة أي حلول، وما هي جدوى أي صفقات، بدءاً من صفقة كامب ديفيد التي أبرمها مستعجلاً كثيراً الرئيس الراحل أنور السادات، وصولاً إلى الصفقة النهائية التي يتولى العقل الصهيوني بالمقص الأميركي إعدادها لكي يقبل بها الفلسطينيون وأشقائهم العرب وإخوانهم المسلمون وأصدقائهم حيث وجدوا في الفترات الخمس، وبصرف النظر عما إذا كان القبول عن إقتناع أو بمثل تجرّع السم أو المر العلقم.

هذا التمهيد الذي أوردنا ملامح مشهده في الأسطر السابقة كان ضرورياً من أجل أن نلقي الضوء على الظاهرة التي تتقاسمها النساء الأوروبيات الثلاث. السيدة الأولى كانت جريتا دوينبرغ زوجة رئيس البنك الأوروبي ومقره فرانكفورت فيم دوينبرغ التي هالها ما يفعله بالفلسطينيين أرييل شارون، النازي العنصري السفاح الحليف والصدوق للزعيم جورج بوش الابن، فقررت أن تحتج على طريقة مستوحاة من روحية الزعيم الهندي، أي الإحتجاج البعيد عن العنف. وما فعلته هو أنها حصلت على علم فلسطين بألوانه الأحمر والأسود والأخضر والأبيض وعلقت العلم على شرفة منزلها الكائن في إحدى الضواحي الراقية في العاصمة الهولندية أمستردام. وكان التعليق صرخة إحتجاج مؤدبة ضد الظلم نابعة من ضمير حي سمعها القاصي والداني، وكلمة حق يراد بها الحق ولا شيء غيره وجّهتها هذه السيدة الفاضلة إلى دول أوروبا التي من واجبها إنصاف المظلومين من الظالمين.. وإلاً فلماذا التبرج بالديمقراطية وحقوق الإنسان. وهي لم تُخفِ عتبها على بني قومها، ذلك أنها عندما طلب منها التلفزيون الهولندي، مباشرة بعد ساعات من تعليقها العلم الفلسطيني، إجراء مقابلة معها فإنها وافقت وقالت في اللقاء الذي كان حاضراً فيه زوجها الذي سبق أن شغل

في الماضي منصباً وزارياً في الحكومة الهولندية ممثلاً الحزب الإشتراكي في البلاد، رداً على سؤال عما إذا كانت فعلت ذلك بدافع أعمال الخير التي درجت على القيام بها: أبداً. إن شعوري الأساسي هو أن أوروبا، وخصوصاً هولندا، في وضع كرهه جداً لأننا جميعاً نجلس بلا حراك ولا أحد يفعل شيئاً، ولذا يمكن أن ينجو شارون بفعلته... وأنا لا أحبذ هذا. لذا أردت التعبير عن شعوري وهذا ما يجعلني أُعلّق العلم الفلسطيني على شرفة مكتبي في منزلي. ان زوجي له موقفه وليس موقفي. وأنا امرأة حرة أستطيع أن أفعل ما أشاء وهو يوافق على مسألة حريتي هذه.

ثارت ثائرة الصهيونية على هذه الوقفة الضميرية من جانب السيدة الأوروبية الفاضلة. ولكنها لم تأبه للتشهير الذي ووجهت به. وبدت في موقفها الذي اتخذته وكأنها... ولا الرجال.

السيدة الثانية كانت وزيرة العدل الألمانية هيرتا ديبلر غميلين التي هالها التشبث الأميركي بالحرب على العراق وأسلوب الهيمنة الذي إعتمده الرئيس جورج بوش الابن وكيف أنه، بالتصرّيات والعبارات الملأى بمفردات إملاء الأوامر والمواقف، لا يحترم رأي الآخرين من أصدقاء وحلفاء، ولا يعنيه في شيء أن الأمم المتحدة البعيدة عن مؤتمرات الهيمنة قادرة على أن تحل أي أزمة.

وما فعلته الوزيرة الألمانية هو أنها، على حد ما نسبته اليها صحيفة «شفابيش تاغبلات» يوم الخميس 19 سبتمبر (أيلول) 2002، قالت «إن بوش يريد من خلال الحرب تحويل الأنظار عن المشاكل السياسية الداخلية، انه أسلوب معروف وقد سبق أن إستخدمه هتلر...». ولمجرد أن نشرت الصحيفة هذا الكلام المنسوب بدأ الغضب الأميركي يتصاعد ووصل إلى حد المطالبة بإستقالة الوزيرة. وكانت كونداليزا رايس مستشارة الرئيس بوش لشؤون الأمن القومي الأكثر إستهجاناً لكلام وزيرة العدل الألمانية، وتساءلت في تصريح لها: كيف يجوز تشبيه رئيسنا بهتلر؟

ومن المؤكد ان كلام كونداليزا جعل الرأي العام الألماني بدءاً من المواطن العادي وصولاً إلى المستشار شرودر نفسه، وكان يخوض معركة إنتخابات قاسية، يزداد إقتناعاً بما هو منسوب إلى وزيرة العدل وجعلته يتمسك ببقائها في موقعها الوزاري، وهذا ما حدث بالفعل. كما أن رد الفعل الأميركي المتشنج جعل الناخب الألماني لا يخلد المستشار

رأياً عاماً في بلدها، أوحى بمثل هذه التأمّلات من جانب كاتب مثل حالي أراد مما كتبه القول ما معناه إن من شأن وقفة مع الذات تتخذها زوجة جورج بوش الابن ووالدته الشاهدة على فظاعة حرب زوجها بوش الأب عام 1991، وزوجات ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وزوجة طوني بليز.. أن تجعل الأمور تهدأ أو تجعل إعادة النظر واردة. فمن المفترض أن يكون في قلب كل منهن مساحة من الرقة تجعلها تقول لزوجها: «ألا تخاف الله يا رجل؟ وألا يهز ضميرك قتل أطفال وعندك أبناء أو بنات؟ وألا يهز وجدانك أنك ستتسبب في ترمّل نساء وأنت متزوج ولا بد تعرف ما قد يحدث للمرأة في حال ترمّلت. ألا لعن السلطة والجاه والأبهة والمال إذا كان ذلك سينتزع من المرء إنسانيته وبذلك لا يعود هناك فرق يُذكر بينه وبين الحيوان، كما لا تعود هناك فروقات كثيرة بين المدنية والغابة».

هذا بالنسبة إلى الزوجات اللواتي أشرت إليهن وإلى زوجات ونساء غيرهن كثيرات، عدا كونداليزا رايس التي برّزت مارغريت ثاتشر في لهفتها للحرب، وخصوصاً إذا حدثت على نحو ما فعله أرييل شارون ويتلطف إلى المزيد منه في فلسطين، أو شريكاً في الحرب على العراق عند الضرورة، مؤازرة من جانبه لصديقه وحليفه بوش الابن والأفراد المتصهينين وعلى المكشوف في طاقم إدارته التي تستكثر على لبنان أنه يريد الإستفادة من مياه نهر خصّه الله به وأقر له هذا الحق الرئيس الأميركي العادل آيزنهاور، والتي باعت القدس ومن دون رضى أصحابها إلى سارقي أوطان الآخرين بني إسرائيل... أعادهم الله من حيث جيء بهم قبل نصف قرن.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 16 أكتوبر (ت) 2002

* * *

حدثان عربيان مشرفان على هامش

ضجيج الحرب

في يوم واحد.. الأربعاء 16 أكتوبر (تشرين الأول) 2000 ووقت متقارب، كانت ضفاف البحر الأبيض المتوسط تعيش أزهى حدثين في زمن تعصف بالمنطقة العربية رياح حرب يشتعل كواسر الإدارة

شرودر على نحو ما نشطت الأجهزة الأميركية داخل ألمانيا في سبيل ذلك. ولكن شرودر حقق نجاحاً خارقاً ليس من حيث نسبة الأصوات وإنما من حيث عدم خذلان الناخب الألماني له في الحفاظ على منصب المستشارية الذي إستمر في حوزته. لكن الإدارة البوشية لم تغفر له أنه إستمر ضد مخططاتها القاضي بضرب العراق حتى اللحظة الأخيرة، وإستمر يصرح بذلك في خضم المعركة الانتخابية، وإستمر يرفض الطلب بإستقالة وزيرة العدل في حكومته، ثم إستمر متمسكاً بموقفه بعدما فاز، متحملاً الضغوط الأميركية عليه والتي وصلت إلى حد تحميله مسؤولية «تسميم العلاقات الأميركية - الألمانية» ومطالبته بالإستقالة لكي تتم إعادة العلاقات إلى وضعها الصحي ما قبل التسمم. ومن الجائز القول إن موقف شرودر في البداية شجع وزيرة العدل هيرتا دويبلر غميلين على تشبيهه بوش بهتلر مع أنها أنكرت ذلك لاحقاً، ربما مسايرة منها لظروف الانتخابات ولكي لا تكون السبب في إنتكاسة شرودر، وأن الحملة عليها وصمودها هي التي جعلت شرودر يزداد صموداً وثباتاً على موقفه المعارض على الهيمنة الأميركية وإصرار إدارة الرئيس بوش على إجبار الدول الأوروبية على الوقوف في طابور العدوان على العراق.

وتبقى السيدة الثالثة وهي كلير شورت وزيرة التنمية الدولية في الحكومة البريطانية التي إستبقت بيومين الجلسة العاصفة للبرلمان البريطاني والتي إنتهت إلى إنقسام حاد في «حزب العمل» بالإعلان عبر تصريح تلفزيوني عارضت فيه شن حرب على العراق. ومما قالت: «لا يمكن أن نشهد حرباً جديدة في الخليج. ولا يمكننا تعريض الشعب العراقي لمزيد من المعاناة. يجب أن نكون على إستعداد لفرض إرادة الأمم المتحدة إذا لم يتعاون معنا صدام حسين، لكن ليس عبر جر المعاناة على الشعب العراقي».

ولقد حاول بليز كثيراً أن يثني الوزيرة البارزة في حكومته عن التهديد بالإستقالة في حال إتخذ قراراً بالمشاركة في الحرب إلى جانب أميركا. كما أنه حاول إقناع أكثر من 160 نائباً عمالياً يشكّلون ربع نواب الحزب الحاكم في البرلمان بصرف النظر عن المذكرة التي وضعوا توافقهم عليها يعارضون فيها إصرار رئيس الحكومة على مشاركة بريطانيا في الحرب، ولكن المحاولة باءت بالفشل.

ويبقى أن مواقف السيدات الثلاث وكل منهن تمثّل

الأميركية إندفاعاً، ومعهم ضيفهم وحليفهم ارييل شارون من أجل أن تبدأ. على رغم الرفض الدولي من جانب معظم الحكومات مسيطرة منها للإرادة الشعبية التي لم تعد تتحمل الهيمنة الأميركية، وإصرار إدارة الرئيس بوش الابن على خوض حرب غير مشروعة ضد المنطقة بدءاً بالعراق.

الحدثان المشار إليهما هما: إحتفال لبنان رسمياً وشعبياً بإنجاز محطة ضخ مياه نبع الوزاني متحدياً بذلك التهديدات الإسرائيلية. وإحتفال مصر رسمياً وشعبياً بإفتتاح مكتبة الإسكندرية.

نبدأ بالحدث الأول الذي يمكن إلقاء الضوء عليه كالآتي: في الوقت الذي قطعت أعمال مشروع ضخ مياه نبع الوزاني اللبناني لكي تروي عطش عشرات الألوف من أبناء البلدات والقرى الحدودية مع إسرائيل ومئات الألوف من دونمات الاراضي الزراعية، مرحلة مهمة، انطلقت في إسرائيل التلويحات بالحرب. وتمثلت هذه بتصريحات للسفاح ارييل شارون وبقية الشارونيين الشاردين المسعورين، الذين يعيشون مذابح وفساداً على الأرض التي أرادها الله ليكون الحرم الثالث فوقها ولنكون بالقرب منه كنيسة القيامة وبقية البقاع الإسلامية والمسيحية التي تحتاج الى من يحترمها ويسهر عليها، وليس إلى من يحاول إحراقها وتدنيسها وحصارها وتدميرها وسفك الدماء على عتباتها وبالقرب منها.

وكان يُفترض بالأكاديميين والخبراء الذين يعرفون القوانين والأصول أن يبادروا الى إفهام ارييل شارون بأن رد فعله هذا غير منطقي وأن التهديد بالحرب ليس أسلوباً، وأن الرد على شعب يريد أن يشرب من مياه نهر ينبع من أرضه ويروي مساحات من الأرض الزراعية يعتاش منها لا يكون بإعلان الحرب على هذا الشعب، وبصرف النظر عما إذا كانت هناك علاقات رسمية أو ليس هنالك علاقات. وعندما شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هنالك مياه تنفجر من نبع فإنما اراد ذلك لكي يشرب البشر وترتوي الأرض من هذا النبع وعلى نحو يكون الرضى هو الجامع المشترك بين الناس.

بدل أن يقوم الخبراء والأكاديميون الإسرائيليون بدور النصيح فإنهم إعتدوا بالمزيدة والتحريض والنفخ في الأتون الذي يُعده الشارونيون للحرب. ومن هؤلاء البروفسور دان زاسلبسكي الذي سبق أن كان مأموراً للمياه والذي كتب في صحيفة «معاريف» يوم الثلاثاء

17 سبتمبر (أيلول) الماضي يقول: «ما يجب أن نفعله الآن هو وقف المياه للقرى في جنوب لبنان والإعلان بوضوح أنه في اللحظة التي يُضخ فيها أول كوب من الوزاني سندمر لكم الآلات، ذلك أنه لا يمكن المرور مرور الكرام على ذلك...».

ليس هذا هو المهم وإنما الذي يستوقف المرء هو أن لبنان الشعبي والرسمي إحتفل وبكل الهدوء قبل غروب شمس الأربعاء 16 أكتوبر بولادة إنجاز وطني مشرف وبالغ الأهمية بينما التهديدات الإسرائيلية تتوالى ومنها تهديد ثعلب العهد الشاروني شيمون بيريز الذي أطلق من على منبر الكنيسة (البرلمان الإسرائيلي) كلاماً لا يقتنع به أحد. ومما قاله: «لن نقبل لا اليوم ولا في المستقبل تدابير من جانب واحد. وإسرائيل تحتفظ بحقها في الدفاع عن مواردها المائية طبقاً للقانون الدولي...».

ولا بد أن مئات المسؤولين الفرنكوفونيين الذين يشاركون في القمة التاسعة التي يستضيفها لبنان، والذين كنا نتمنى أن يكونوا من بين ضيوف إحتفال بدء تشغيل محطة مياه الوزاني أو على الأقل يتمثل هؤلاء بالأمين العام للمنظمة الدكتور بطرس غالي... لا بد أن مئات المسؤولين الفرنكوفونيين إعترت وجوههم الدهشة وهم يسمعون رئيس الدبلوماسية الإسرائيلية يتحدث عن «موارد إسرائيل المائية» بينما النبع لبناني أرضاً وهبة من الله سبحانه وتعالى للشعب الصامد في الجنوب.

لكن يبقى الإحتفال عشية القمة الفرنكوفونية ومشاركة هذا التجمع الدولي المتنوع بمثابة حدث تاريخي وإن كانت التساؤلات ذات الطابع الإستهجاني تكاثرت في شأن الغياب المحير للرئيس رفيق الحريري وإقتصار المشاركة الرئيسية على الرئيس اميل لحود الذي شارك بشكل مفاجئ وهو الذي لم يكن في برنامج الإحتفال حضوره، وعلى الرئيس نبيه بري الذي هو راعي الإحتفال. ومن بين التساؤلات والإفتراضات أن الرئيس لحود بحضوره المباغت ومن دون إبلاغ رئيس الحكومة بذلك أراد إحراج الحريري ودعم بري فضلاً عن الرغبة في الإيحاء بأن مسألة الوزاني لا تقتصر على «حزب الله» وحركة «أمل» التي يتزعمها بري.

وبعد الآن سيرتبط الحديث عن القمة الفرنكوفونية التاسعة بالإرادة الوطنية اللبنانية متمثلة بترامن إنعقادها مع إنجاز أعمال ضخ المياه من نبع الوزاني وبكلفة لم تتجاوز مبلغ الخمسة ملايين دولار.. وهو جزء بسيط

الميلاد بطليموس الأول ثم انعكست حرب الإسكندرية بين الملكة المصرية كليوباترا والقائد الروماني يوليوس قيصر، إستمريت مجرد حدث نائم طواه الزمن إلى أن أيقظه بالصدفة الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون الذي عندما جاء زائراً مصر السادات في السبعينات وسئل عما يجب أن يراه في مصر قال إنه يحب زيارة مكتبة الإسكندرية. وجاء جوابه هذا يؤكد أن الرجل ليس مثل الرئيس جورج بوش الابن، لا يدري شيئاً عن المنطقة تاركاً المعرفة بأمورها إلى من حوله من المستشارين الذين بعضهم على درجة من التصهين بحيث أنهم يكتبون تاريخ المنطقة بالمفهوم التوراتي، أي أن الرئيس نيكسون كان مطلعاً وطالب معرفة. وكان من الطبيعي ما دامت مكتبة الإسكندرية باتت من الدوارس ألا تشملها زيارة نيكسون الذي إستقبله الثنائي - الظاهرة الشيخ إمام رحمة الله عليه والشاعر أحمد فؤاد نجم أمد الله بعمره لكي يفيض المزيد من الشعر الوطني، بالأغنية التي ردها ملايين المصريين والعرب أيام تلك الزيارة ومطلعها «شرفت يا نيكسون بابا يا بتاع الووتر غيت، عملوك قيمه وسيمه سلاطين الفول والزيت».

المهم أن تسلّم حسني مبارك مقاليد الرئاسة بعد إغتيال السادات وإهتمام زوجته السيدة سوزان بكل ما يتعلق بالكتاب والقراءة كان من حظ مكتبة الإسكندرية التي تولت السيدة المصرية الأولى جمع مبالغ من متبرعين عرب ودوليين أفادت مساهماتهم وتبرعاتهم في أحياء مكتبة الإسكندرية التي أعيد بناؤها في مكانها على هيئة قرص غير مكتمل يميل بسطحه نحو أفق البحر الأبيض المتوسط، وتتوزع على طبقاتها الثلاث عشرة بضعة ملايين من الكتب القديمة والنادرة والمخطوطات وتم إفتتاحها بحضور دولي وعربي شمل بعض الرؤساء والحكام والملكات والممثلين الشخصيين.

وقد إستحضر المصريون والعرب وهم يتابعون الإحتفال بإنجاز مكتبة الإسكندرية، والذي شارك فيه عدد من حكام العالم من بينهم الرئيس جاك شيراك وبعض الملكات نيابة عن أزواجهن الملوك، كيف أن التحدي والمثابرة يشكّلان حافزاً للمصريين في عملية بناء الصروح والمشاريع الكبرى من الإهرامات إلى السد العالي إلى مكتبة الإسكندرية التي تفوق من حيث الروعة مكتبة الرئيس فرانسوا ميتران الذي حرص الرئيس الفرنسي الراحل على أن تكون على ضفاف

من كلفة مواجهة كان يمكن حدوثها لولا أن إسرائيل أخذت على محمل الجد كلام الأمين العام لـ «حزب الله» السيد حسن نصرالله قبل ساعات من الإحتفال وقوله بالحرف الواحد: «إن أي عدوان على منشآت نبع الوزاني سيُرد عليه بشكل قطعي ومحتوم وحاسم. وسيكون الرد سريعاً. ولو قلّت خلال دقائق لا أباغ، أي لن ننتظر لا ساعات ولا أياماً. وأستطيع القول إن المقاومة الإسلامية الآن قد أعلنت في هذه الساعات جهوزيتها الكاملة. وبناء على هذا، فإن الأهداف التي سوف تواجه الرد قد تم إنتقاؤها وخُددت جيداً، ويعرف الأخوة كيف سيتحركون ولن يكونوا بحاجة لأكثر من إتصال هاتفي لثانيتين...». ولا بد أن الفرنكوفونيين لاحظوا أن الطرف الذي وجّه هذا التحذير، أي «حزب الله»، لم يكن شريكاً في الجانب الخطابي من الإحتفال وكما لو أن دوره ليس في المشاركة بالجانب الفني والتقني من هذا المشروع الذي تبقى صفته التحريرية غالبية على الصفة التقنية.

وبقدر ما أن غياب رئيس الحكومة رفيق الحريري عن الإحتفال، وهو غياب له ملامح التغيب، كان على نحو ما أسلفنا ذكره، أثار في أفق الحدث التاريخي بعض علامات الإستفهام والتعجب... بالقدر نفسه كانت مقاطعة السفارة الأميركية للإحتفال تدعو إلى الإستهجان، ذلك أن موقفها هذا وفي اليوم الذي كان شارون في زيارة واشنطن التي حصل منها على تفويض في شأن الحرب على العراق وعلى تحذير لـ «حزب الله» من مهاجمة إسرائيل (أي في حال قرر شارون ضرب منشآت ضخ مياه الوزاني)... ان موقف إدارة بوش بدا كما لو أنه تأكيد لتتصّل إدارة الرئيس بوش الابن من الحل المنصف لتقاسم المياه الذي سبق للولايات المتحدة في عهد الرئيس إيزنهاور أن وضعته ويُعرف بـ «مشروع جونستون».

هذا ما يتعلق بالحدث المشرف الأول. أما بالنسبة إلى الحدث المشرف الثاني فتمثل في أن الرئيس حسني مبارك افتتح في اليوم نفسه (الأربعاء 16 أكتوبر) وفي وقت متقارب للحدث اللبناني، مكتبة الإسكندرية التي سبق أن أحرقت في القرن الرابع الميلادي في حقبة طغت فيها الإضطرابات على الواقعية، وكان إحراقها بمثابة إطفاء لمنازة فكرية طالما أضاءت المتوسط وأعماق الدول المحيطة به وتلك المتصلة بها فكراً وثقافة وحواراً.

وهذه المكتبة التي كان أسسها في العام 279 قبل

نهر «السين» كما مكتبة الإسكندرية على ضفاف المتوسط.

ويبقى أن ظاهرة المكتبات الوطنية هذه تشكل مؤشراً إلى حرص جيل الحاضر على الفكر والكتاب. ومن هذا المنطلق كانت «مكتبة الملك عبد العزيز العامة» في الرياض و«مكتبة الأسد» في دمشق. ولكم يتمنى المرء لو أن كل حاكم عربي يبني المكتبات العامة وبحيث تكون هنالك مكتبة وطنية في كل محافظة من محافظات الدول العربية وتكون حماسة الحكام لإنشاء المكتبات العامة بمثل حماسة بعضهم لبناء القصور والمساجد وفي إطار منافسة من مسجده أكثر إتساعاً وعظمة من مسجد الآخر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 23 أكتوبر (ت) 2002

* * *

رسالة من جاك شيراك

البيروتي إلى الغرب المسيحي

في إستطاعة الرئيس جورج بوش الابن أيضاً أن يتمشى في بعض دروب الوسط التجاري للعاصمة اللبنانية بيروت (السوليدير) آمناً مطمئناً ويلتف الناس حوله مثلما فعل الرئيس جاك شيراك الذي إستضاف في لبنان القمة الفرنكوفونية التاسعة، على نحو إستضافة رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان القمة العربية الدورية الثانية في لبنان أيضاً، وعلى نحو إستضافة الرئيس صدام حسين قمة فلسطين في بغداد عام 1990.

بل ان في إستطاعة الرئيس بوش الابن أن يمارس رياضة «الجوكنغ» المحببة للأميركان وأن يهرول صباحاً وعصراً على كورنيش العاصمة اللبنانية المعروف بـ «كورنيش المنارة» الذي أكد برونق تشجيريه وتزهيره وترصيفه أن بلدية العاصمة اللبنانية ممتازة بالفعل وتستحق من المنصفين، وبالذات من محبي هذا الكورنيش من أبناء دول الخليج الذين يزورون لبنان صيفاً وحياناً في الإجازات، كثير النشاء. وهو عندما يهرول لن يكون خائفاً لأنه سيجد العشرات من اللبنانيين من الجنسين ومن كل الأعمار وكل الطوائف يهرولون معه ويلقون عليه التحية على الطريقة التي جاءت عليها تحية اللبنانيين الساهرين في مقاهي

ومطاعم الوسط التجاري ليلة السبت 19 أكتوبر (تشرين الأول) بعد عشاء «الأبهة» في السراي الحكومي عرين الرئيس رفيق الحريري والتي بدت كما لو أنها «إيليزيه البيارته»... أي أهل بيروت.

بل إن الرئيس بوش الابن يمكنه حتى زيارة الضاحية الجنوبية عرين رجلي الدين الشيعيين السيد حسن نصرالله الأمين العام لـ «حزب الله» والعلامة السيد محمد حسين فضل الله... إنما هذا يستوجب تأشيرة من نوع بسيط لا يدخل من ضمنها أسلوب أخذ البصمات وهي أن يكون بوش الابن رئيساً يحكم بالعدل وليس بالظلم، ويدعم الأمم المتحدة كمنظمة دولية يكون دورها بمثل الرقيب على أحوال العالم لا أن يضع اليد عليها ويسخرها كأداة في إجبار أصحاب الحق على الإقرار بأنهم مغتصبو حقوق، ونصرة المغتصبين على أساس أنهم مالكو الشرعية، وبنهج رئيس دولة نصبت نفسها مسؤولة عن إستقرار العالم، الصراط المستقيم، فلا يجعل سياسة الكيل بمكيالين هي الصبح وما عداها خطأ، ولا يرى في الإعتداءات الشارونية على الفلسطينيين رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً، أطفالاً وشيوخاً، بيوتاً وأشجاراً بأنها حالة دفاع عن النفس تجيزها «شرعة حقوق المعتدي الأميركية» بينما أي رد فعل فلسطيني بحجارة كان أو عمليات إستشهادية هو إرهاب يستوجب إنزال العقاب بالشعب الفلسطيني دون تمييز وبرئيس سلطته يأسر عرفات، المنتخب من الشعب وبإشراف مراقبين من بينهم الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر الذي شهد في حينه بنزاهة العملية الانتخابية وديمقراطيتها، وتدمير البنى التحتية للسلطة وتشديد الحصار على الناس والمطالبة إلى جانب اربيل شارون بإسقاط الرئيس الشرعي عرفات وعدم الإجتماع به.

كما أن التأشيرة تستوجب ان يقرر الرئيس بوش تعديل الخيار القائم والمتمثل بالإصرار على أن تبقى الإدارة الأميركية ممسكة بيد إسرائيل الملوثة بأثام العدوان والإحتلال والقتل، وغير ممدودة إلى العرب والمسلمين الذين لا يكرهون في أميركا سوى إنحيازها إلى الباطل، اما عدا ذلك فإنها البلد الذي يمكن من خلاله تطوير الأحوال وبناء الأوطان. والتعديل بمعنى أن يكون هناك نوع من التأمل القائم على الموضوعية في ما يريده العرب والمسلمون والأخذ بالمطالب والتمنيات التي هي ليست على حساب مصلحة أميركا وإنما هي تعزز هذه المصلحة وتجعل الروابط أشد

يلتحمون به وتتحوّل المصافحة بالأيدي إلى ما يشبه كلمات الشاء على نهجه والتّمني بأن يحذو الآخرون وبالأذات بوش الإبن حذوه. ولا نجد أي فرق يُذكر بين تجوال الرئيس شيراك في شوارع «السوليدير» وبين تجواله في «الشانزليزيه».. بل إنه في الجادة الفرنسية الشهيرة وفي النقطة التي هي بين قوس النصر الشهير وقصر «الاليزيه» وُجد من هو إرهابي فرنسي يحاول إغتيال شيراك بينما لم يكن هنالك أي «إرهابي» لبناني يفعل ذلك في «السوليدير» وقبل منتصف الليل بقليل. وهي، أي خطوة التجوال الشيراكية اللافتة، رسالة من الرئيس الفرنسي إلى رؤساء الدول الأوروبية وبالأذات رئيس الحكومة البريطانية طوني بلير، وإلى رئيس الولايات المتحدة جورج بوش الإبن فحواها أن العالم العربي بمسلميه ومسيحييه هو البقعة التي خصها الله سبحانه وتعالى لكي تكون البقعة الروحية للعالم أجمعين وأنها ليست مسألة صدفة أن الأديان السماوية الثلاثة إنطلقت من الأرض العربية وهذا يوجب على دول الغرب المسيحي من أميركا إلى كندا.. إلى أستراليا.. إلى دول أوروبا وعلى القلعة الأرثوذكسية روسيا، أن تكون حارسة أمينة لهذه البقاع الروحية، لا أن تجعلها ساحة للصراعات واختبار الجديد من السلاح وتصريف القديم منه من خلال الإعتداءات الدولية مثل العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، ومن خلال افتعال الحروب النظامية مثل حرب يونيو 1967 والحرب العراقية - الإيرانية، وإفتعال الغزوات مثل الذي فعله العراق بالكوييت يوم الخميس 2 أغسطس (آب) 1990 لا أعاد الله هذا الفعل، ومثل الحروب الأهلية على نحو إفتعال الحرب التي دامت في لبنان ست عشرة سنة، ومثل الحرب الذي تسعى أميركا لإفتعالها على العراق إستكمالاً لحرب بوش الأب على بلاد الرافدين عام 1991، وتحاول جاهدة إستنباط الأعذار والحجج.. ولا من يفتتن.

ويصعب التكهن بما إذا كان هؤلاء الذين بعث الرئيس شيراك إليهم بالرسالة قد اقتنعوا بمضمونها وأعادوا بعد قراءتها التأمّل في المشهد المهيب لجلسة إفتتاح القمة الفرنكوفونية التاسعة وكيف أن سبع عشرة طائفة يتشكل منها النسيج الإجتماعي اللبناني بدت في جلسة الإفتتاح وكأنما هي طائفة واحدة بكامل الإنصهار ومجتمع واحد بكامل التآلف.. الأمر الذي يعني أن لبنان نموذج للتعددية الدينية التي لا تتحملها إسرائيل وتراهن على فشلها من دون أن تكسب الرهان.

وثوقاً. فما يريده العرب والمسلمون هو التفهم من أجل التفاهم. وهو أن تتفّذ إسرائيل القرارات الدولية فتسحب من كل أرض إحتلتها على نحو ما ينص على ذلك القرار الذي شاعته الإدارة الأميركية عام 1967 وبذلك يطمئن اللبناني إلى أن ما تبقي من أرضه المحتلة قد إستُعيد، ويطمئن السوري حاكماً ومواطناً إلى أن الجولان عاد وبحيرة طبريا عادت، ويضع فلسطينيو الشتات أنفسهم على طريق العودة إلى بلداتهم الأصلية أو إلى المواطن البديلة في دولتهم المختصرة التي تتحدث الإدارة الأميركية الحالية عنها إنما من دون تنفيذ أي خطوات على هذا الطريق، أو أنها تتحدث عن الدولة ثم تتسامح مع اربيل شارون في تدمير مؤسسات الدولة الموعودة المأمولة وبهذا فإنها كمن لم تتحدث أو كان من الأفضل ألا تتحدث وبالأذات أمام أهل القرار السعودي الذين يبغضون كل من لا يلتزم بوعده أو لا يبقى على عهد. وما يريده العرب والمسلمون هو ترك العراق وشأنه يداوي جراح الحصار على مدى أحد عشر عاماً ويصحح مسار العلاقة مع الأخ الإيراني والشقيقتين السعودي والكويتي، ووقف هذه الأطماع بثروات خص الله بها دول المنطقة وتواصل إدارة بوش الإبن، ما بدأت إدارة بوش الأب، إستعمال القوة من أجل وضع اليد على هذه الثروات.

وما يريده العرب والمسلمون هو إستعادة الحرم الثالث وكنيسة القيامة وكل بقعة تعني الكثير للعربي المسلم والمسيحي وللمسلم غير العربي، وهذا من أبسط المطالب، ذلك أن مصادرة هذا الحق الروحاني معناه أن لا أمل يرتجى على الإطلاق بالإستقرار. وما يريده العرب والمسلمون هو ألا تبقى النظرة إليهم بأنهم إرهابيون لأنهم يطالبون بهذا الحق.

هذا هو ما يريده العرب والمسلمون من الإدارة الأميركية. وستكتشف هذه الإدارة بعد تحقيق هذه المطالب أن هؤلاء أصدقاء حقيقيون. ولكي لا يضيع الوقت في البحث عن السر فإنه يكفي الإدارة الأميركية أن تتأمل في النهج الذي اعتمدته الرئيس الفرنسي جاك شيراك وكيف أن هذا النهج جعله يتمشى ليلاً ومن دون حماية إستثنائية براً وجواً في «السوليدير» الذي هو الوسط التجاري في البلد الذي إعتبره المستر ارميتاج أحد رموز التصهين في الخارجية الأميركية بأنه قلعة الإرهاب التي يجب دكها لكي يطمئن شارون ويرضى عنه.. وعن بوش الإبن اللوبي المتصهين. ولا يكفي شيراك بالمشي والمشاهدة وإنما ترك الساهرين

كما أن توسُّط الأمين العام لـ «حزب الله» السيد حسن نصرالله الذي يريد الإرميتاجيون المتصهينون في الإدارة الأميركية قصفه بالصواريخ على نحو تدمير ارييل شارون لمخيم جنين وغيره من المخيمات والمناطق السكنية في المدن والبلدات الفلسطينية، بقية رؤساء الطوائف المسلمة والمسيحية هو حاشية في الرسالة خلاصتها أن هذا «السيد الإرهابي» هو رجل سلام في حال إستوعبنا جميعاً ما يطالب به بإسم كل العرب والمسلمين وأن تحرره من المنصب الرسمي في الدولة يجعله يقول ما لا يقوله الرسميون عرباً ومسلمين من دون أن يعني ذلك أنهم ضمناً لا يرون ما يراه ولا يقولون في سرهم ما يقوله من على المنبر أو من خلال إحتقال تأبيني أو خطاب في مسيرة.

ويبقى القول إن هذا المناخ السياسي الطيب الذي ما كان ليحدث لولا انعقاد القمة الفرنكوفونية التاسعة في بيروت سيكون له تأثيره المعنوي في النفوس. ولا بد أنه سيؤثر على أي خطوة تتسم بالمرونة يمكن أن تتخذها الإدارة الأميركية بعد الآن في اتجاه تغليب الحوار على الخيار الحربي، وهذا أكثر سلامة للجميع وأولهم أميركا نفسها شعباً وإدارة وقوات محاربة في فيافي دول الخليج قد تجد نفسها «غارقة في الرمال العراقية التي هي غير الرمال الأفغانية» على حد قول الرئيس بشار الأسد للمبعوث الأميركي وليم بيرنز الذي قام بعد القمة الفرنكوفونية مباشرة، ورداً عليها على ما يجوز الإقتراض، بجولة على دول المنطقة شملت دمشق. كما قد تجد نفسها سابحة في بحر الغضب العربي والإسلامي... وغضب الله سبحانه وتعالى على الذين لا يتقونه في ما يفعلون.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 30 أكتوبر (ت) 2002

* * *

الموازنة العاجزة في أميركا.. إبناً عن أب

كي لا يبدو أننا في العالم العربي والعالم الثالث عموماً من فئة الدول التي تشكو موازاناتها من العجز، ها هي وزارة الخزانة في الدولة الأعظم الولايات المتحدة تعلن يوم الجمعة 25 أكتوبر (تشرين الأول) 2002 وعشية إنتخابات التجديد النصفى في الكونجرس ان الموازنة للسنة المالية 2002 سجلت

عجزاً قدره 159 بليون دولار. وهو رقم يثير الهلع في نفوس الشعب الأميركي ويجعل الرئيس السابق بيل كلينتون يتباهى بأن عهده كان عهد الرخاء والطمأنينة وإستقرار الموازنة. وهذا التباهي في محله، ذلك أنه لولا هذه الملامح لذلك العهد لما كان الشعب الأميركي غفر لرئيسه انه جعل من المكتب البيضاوي الذي هو مكتب رئيس الولايات المتحدة في البيت الأبيض عشاً للتمتع وللبعض الدقائق بالمتدربة اليهودية مونیکا لوينسكي تُفَرِّج عن ابو تشيلسي الكُرب وتعوّضه على ما يبدو أنه يفتقده. ولكن الشعب الأميركي لم يعتبر المسألة تلك الفضيحة الكبرى وجدد لرئيسه الولاية.

أما لماذا يمكن لكلينتون أن يتباهى فلأنه عندما غادر البيت الأبيض كانت موازنة أميركا سجلت فائضاً قياسيًّا بلغ 236.9 بليون دولار وساعد هذا الفائض على أن تكون موازنة السنة الأولى لعهد الرئيس جورج بوش الابن مرتاحة نسبياً وإن كان الفائض تدنى من الرقم القياسي الذي أشرنا إليه إلى 127 بليون دولار. وفي حسابات المواطن الأميركي أنه ما دام الرقم يسجل فائضاً فلا موجب للمخاوف.

بعد سريان تخفيض الضرائب الذي كان إحدى الأوراق التي بفضلها وقف اغنياء أميركا في صف بوش وكان هذا الوقوف من جملة أسباب فوزه بالرئاسة، بدأ الخط البياني الصاعد فائضاً بالإنحدار، وهذا طبيعي لأن تخفيض الضرائب معناه أن يزداد الاغنياء غنى وأن يقلّ تبعاً لذلك دخل الدولة من العائدات الضريبية. ثم جاءت العملية الترويعية يوم 11 سبتمبر 2001 على برجى المركز العالمي للتجارة في نيويورك وعلى مبنى وزارة الدفاع (البنتاغون) في واشنطن لتجعل الإدارة الأميركية تأخذ من الفائض للإنفاق على الأمن. وبعد ذلك جاءت الحرب التي خاضها بوش الابن بفعل التحريض العشوائي لتجعل الإدارة تستهلك الفائض ثم تنتقل إلى الإنفاق من الموازنة التالية. ولأن المثل الشعبي الذي نرده هنا بالفصحى، علماً بأنه أكثر وقعاً بالعامية، يقول «من أنفق من دون أن يحسب بات فقيراً من دون أن يدري»... لأن هذا المثل صحيح فإن الذي حدث لإدارة الرئيس بوش هو أنها عند التدقيق في موازنة العام 2002 التي انتهت في 30 سبتمبر الماضي وجدت ان العجز بلغ 159 بليون دولار، وهو رقم أدخل الهلع إلى النفوس وأعاد تذكير الأميركيين بذلك العجز الذي ورثه الرئيس السابق بيل كلينتون عن

الرئيس الأسبق جورج بوش الأب حيث بلغ هذا العجز 164 بليون دولار عام 1995 ثم امكن إدارة كلينتون تخفيض العجز إلى 22 بليون دولار عام 1997، وبعدها بدأ الخط البياني بالصعود في اتجاه الفائض إلى أن بلغ هذا الفائض في السنة الأخيرة لعهد كلينتون 127 بليون دولار.

بالإضافة إلى الهلع الذي بدأ يتسرب إلى نفوس الأميركيين من جزاء هذا العجز الهائل نسبياً والذي يشبه تسرب الماء إلى «تيتانيك» التي هي «أم البواخر» فإن «الحزب الديمقراطي» خصم «الحزب الجمهوري» بدأ الإستعداد للإنقضاض رافعاً في وجه الناخب الأميركي «ورقة الفائض» في مواجهة «ورقة العجز» طارحاً في الوقت نفسه الدعوة إلى إجتماع يضم الحزبين «من أجل التوصل في العام 2003 إلى موازنة حقيقية تحمي الأولويات الأميركية وتتقذ التأمينات الإجتماعية والرعاية الصحية...». ورأت أوساط الديمقراطيين أن حجم الإنفاق في الحكومة الاتحادية الذي بلغ 2.012 تريليون دولار في العام الجاري بينما بلغت الإيرادات 10 تريليون دولار، وهذا ما جعل العجز يصل إلى 159 بليون دولار، هو أقرب إلى الصدمة منه إلى الخلل المالي التقليدي الذي يصيب الموازنات السنوية للدول ويكون بمثابة حالة توعك لا يلبث أن يزول وتسترد الموازنة عافيتها.

ولكن كيف يمكن إسترداد هذه العافية، خصوصاً بعدما زادت إدارة الرئيس بوش الإبن حصة وزارة الدفاع والإنفاق العسكري وبعدها لا تزال تداعيات الحرب العشوائية على أفغانستان تتواصل وتنعكس إرتباكاً في الأحوال المالية للولايات المتحدة؟

هنا نجد أنفسنا متأكدين من ان إدارة الرئيس بوش التي تعيش أوضاعاً داخلية صعبة، وعلى نحو ما أشارت إليه بموضوعية وجرأة وزيرة العدل الألمانية هرتادويلر غميلين بقولها قبل بضعة أسابيع وفي عز الإنتخابات الألمانية «إن تهديدات بوش بمهاجمة العراق إنما هي من الأساليب التي تُتبع لصرف الأنظار عن المشاكل الداخلية وإن هتلر كان أيضاً يفعل ذلك» ... إن إدارة الرئيس بوش تريد خوض غمار الحرب لكي تعوّض بالعراق الغني ما أنفقتة على أفغانستان المدممة وما تسببته لها من متاعب مالية إنعكست بقوة على الموازنة السنوية. ولو أن العراق ليس مصدر ثروة لما كانت الإدارة الأميركية فكرت فيه، بدليل انها صرفت النظر عن كوريا

الشمالية التي حالها من حال أفغانستان، مع أن هذه الأخيرة وضعت نفسها وبشكل شبه رسمي على قائمة الدول النووية. وعندما يقتصر رد الفعل الأميركي على ملاحظة من وزير الخارجية كولن باول تضمّنت قوله «إن على كوريا الشمالية إطعام شعبها قبل أن تعمل على إنتاج السلاح النووي» تتأكد لنا مسألة الدوافع والأولويات والتنمية في شأن الأسباب الموجبة والتي تنحصر في ثلاثة أمور: الأول هو الثأر الشخصي من جانب بوش الإبن الذي لم يعد يتحمل أن يقال له تخجلاً وتحريضاً أنت رئيس الدولة الأعظم وحامل مفتاح الحقيقة التي من شأن فتحك إياها تدمير العالم بكبسة زر، ولا تضع حداً لمسألة الدوس بأقدام كل من هبّ ودبّ على صورة والدك المرسومة على عتبة الباب الزجاجي لمدخل «فندق الرشيد» في العاصمة العراقية. أما الأمر الثاني فهو تنفيذ تعهدات لإسرائيل التي تعمل على تطبيق ما أورده «حكماء صهيون» في بروتوكولاتهم وهذا يحدث خطوة خطوة منذ أن إقترح الدكتور هنري كيسينجر اليهودي الأميركي ميدان التعاطي بثعلبة، ولا ثعلبة شيمون بيريز، مع الصراع العربي - الإسرائيلي، وأمكنه خطف مصر مقدمة لإنفراط العقد بعد ذلك.. وصولاً إلى ما يحدث منذ ان بدأ بوش الإبن يحكم في أميركا وارييل شارون يحكم في إسرائيل ويتحكم بالقرار الأميركي وكما لم يحدث من قبل مع اي رئيس حكومة إسرائيلية. ويبقى الأمر الثالث وهو تعويم الوضع المالي ليس لأن العجز في موازنة العام 2002 بلغ 159 بليون دولار وإنما لأن هنالك بضع شركات عملاقة أعلنت إفلاسها ولأن هنالك المزيد من الشركات الأقل أهمية تبدو أيضاً على شفير الإفلاس ولأن هذه المؤشرات البالغة السوء تعني أن الموازنة للعام 2003 قد تصل إلى عجز يتجاوز الخط الأحمر.

هذا هو الحل الذي لا حل سواه في نظر المستأثرين بالمشورة غير الموضوعية وغير النزيهة في الإدارة الأميركية. وهو حل أشبه بالمقامرة ذلك أن السيناريو المرسوم للحرب على العراق يبدو زاهياً، وتبدو العوائد مثل تقديرات من ينتظر موسماً زراعياً لتسديد مستحقات مصرفية متأخرة عليه. لكن هذا السيناريو هو في الوقت نفسه عرضة لأشد المخاطر، ذلك ان النظام في العراق بات صاحب خبرة في التداعيات التي تنشأ عن المغامرة - المقامرة لأنه عندما إفترض ان الحل للمشاكل الناشئة عن حربه مع إيران هو في

وخلاصة القول ان إدارة الرئيس بوش الإبن تمارس تماماً ما سبق أن مارسه النظام العراقي يوم 2 أغسطس 1990 وليس خافياً على أحد الغرض غير النظيف من الحرب التي في حال حدوثها ستكون غزواً مماثلاً للغزو الذي قام به العراق في ذلك اليوم. وعندما يرفع عشرات الألوف من المتظاهرين في أميركا واليابان وأستراليا وهولندا وألمانيا وغيرها كثيرات اللافتات المكتوب عليها «لا حرب من أجل البترول» أو «العمل لآلاف العاطلين بدلاً من البليونات للحرب». فهذا يفسر في حد ذاته ما الذي أصاب الرئيس بوش الإبن عندما أبلغه وزير الخزانة قبل أكثر من شهرين أي سوء هي عليه موازنة العام 2002 وطلب منه الرئيس عدم الإشارة إلى العجز الفصاح إلى ما بعد إكمال تحضير العالم للحرب على أرض الغنائم... بلاد الرافدين التي من فوقها أنهار من الماء العذب وتجري من تحتها أنهار من الذهب الأسود.

لكن من مصلحة الرئيس بوش أن يتأمل بعض الشيء في قول الرئيس السوري بشار الأسد «إن الرمال العراقية ليست مثل الرمال الأفغانية» فيعيد النظر، ذلك أن في العراق نظاماً على استعداد لتدمير آبار النفط في العراق وخارج العراق في حال شعر أن الحجاج التكسائي سيقطف الرؤوس. وفي هذه الحال فإن العجز في موازنة 2002 والبالغ 159 بليوناً يصبح أمراً بسيطاً أمام احتمال حدوث تشققات في الأمبراطورية الأميركية قد تؤدي مع الوقت إلى تساقطها... وذلك لأنها لم تأخذ في الاعتبار أن ما من يد إلا يد الله فوقها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 6 نوفمبر (ت) 2002

إنطباعات عن قمة وردية على خط النار

بعد متابعة دؤوبة وحرص على تغطية المؤتمرات الخشنة منذ القمة العربية الأولى بعد طول إنقطاع التي دعا الرئيس جمال عبد الناصر إلى عقدها في القاهرة عام 1964 حتى القمة الدورية الثانية في بيروت في مارس (آذار) الماضي مروراً بمعظم مؤتمرات القمة الخليجية، وجدث نفسي أتوجه إلى العاصمة الأردنية أواخر أكتوبر (تشرين الأول) الماضي لأعيش ميدانياً

إستحضار مسألة «الكويت الفرع» التي يجب أن تعود إلى «الأصل» وبتحويل إشكال يتعلق بطروفي التنقيب والحدود التي تعيشها دول كثيرة إلى أزمة كبرى تستوجب إرسال قوات تجتاح الكويت وتعلنها «المحافظة التاسعة عشرة»... إن النظام في العراق لم يأخذ في الاعتبار أن هذا السيناريو سيكبو، وأن السحر سينقلب على الساحر، وأن العالم سيقف في وجه المجتاح ومن دون التوقف عند الحثيات التي أوجبت هذا الخيار الذي يفتقد إلى الحكمة. كما لم يخطر في البال، وأيضاً بسبب الإفتقاد إلى الحكمة، أن الأمور ستتطور إلى حد أنها المرة الأولى التي يصطف العربي والمسلم مع الأجنبي لتوجيه ضربات شبه ماحقة إلى العراق، وتكون بمثابة جولة من عدة جولات لاحقة لم يعد العربي والمسلم شريكاً فيها إنما بات محدود القدرة على إقناع الثنائي الأمريكي - البريطاني... ومعه عند الضرورة إرييل شارون، بالكف عن الضربات وإعتبار ما جرى هو الصفحة الأخيرة في رواية إختلط فيها التآمر، بالإغواء، بالطمع، بعدم الحكمة، بالشر، بالحجج الواهية، بالدم المسفوح، بالتصهين، بإحلال التفكير من خلال العضلات بدل التفكير المستند إلى العقل، بالمبالغة، بالهيمنة، بالتباهي... الخ. وهي رواية لا يمكن المرء أن يرى فيها أي وقفات في اتجاه الخير والرغبة في التعايش بسلام وإحترام إرادة الناس.

وهذا الذي جرى للعراق من جرّاء ذلك الخيار الفوضوي الذي كان الفصل الأول منه يوم الخميس 2 أغسطس 1990 وما زال ممتداً للسنة الثانية عشرة على التوالي، لا بد جعل النظام يستكشف مواطن الخلل في التفكير وبذلك يمارس المرونة، على النحو الذي يحدث بالتحديد منذ حوالي سنتين بدأت مع وضع شخص على رأس وزارة الخارجية ينأى عن الإنفعال وإستعمال أكثر الكلمات والمفردات خشونة، ويتقن مخاطبة الآخرين سواء من هو متضرر من الذي جرى، أو من يواصل الإعتداء، وأيضاً من يتشفى بالشقيق العراقي وما أصابه. ونعني بهذا الشخص الدكتور ناجي صبري الحديثي الذي كان إختياره مجدياً وأظهرت الأشهر الخمسة عشر الأخيرة كم أن العائد منه جاء وفيراً، بدليل أن الكويت إستعادت أرشيفها وتنتظر، بعد زوال خطر الحرب، على ما يجوز الإعتقاد، عودة أسراها أو الكشف عما جرى لهم. وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

وقائع القمة العربية الوردية الثانية، أو ما إصطلحنا على تسميتها «قمة المرأة العربية»، بعدما لم ترد في خاطر هذه الرغبة عند إنعقاد القمة الأولى في القاهرة بدعوة من السيدة الأولى سوزان زوجة الرئيس حسني مبارك

وفي ضوء بعض الملاحظات والإنطباعات والتأملات إضافة إلى قراءة متأنية لما صدر عن قمتهم، يمكن الوقوف على هذا النموذج من التحرك النسوي غير المسبوق.

وعلى النحو الآتي أسجل ما أشير إليه:

أولاً - لا تبدو «قمة المرأة العربية» بأنها رد فعل على القمم السياسية العربية، ولكنها مقتبسة من تلك القمم. ولولا ان السيدة سوزان مبارك لم تكن المبادرة لما كان لهذا التجمع أن يأخذ شكل المؤتمر الرسمي ويصبح جزءاً من مؤسسة الجامعة العربية. ومن الجائز القول إن فكرة القمة الوردية هذه كانت أمراً واقعاً أي بما معناه انها لم تأت نتيجة التشاور المسبق بين الحكومات.

ثانياً - جاءت السيدات الأوليات إلى القمة الأولى بحماسة أكثر من الحماسة التي يمكن ملاحظتها في القمة الثانية، بدليل أن مستوى المشاركة في القمة الأولى كان أعلى من مستواه في القمة الثانية، حيث أن السيدات الأوليات كنَّ فقط إثنين هما السيدة فاطمة زوجة الرئيس السوداني عمر البشير والسيدة اندريه زوجة الرئيس اللبناني اميل لحود. ونقول إنهن كنَّ إثنين على أساس ان الملكة رانيا زوجة الملك عبدالله الثاني هي الرئيسة وهي المضيئة وأن السيدة سوزان مبارك هي الرئيسة التي لا بد من مشاركتها لكي تسلم الرئاسة إلى الرئيسة الجديدة. أما بقية المشاركات المترئسات وفود بلادهن فكن شقيقة ملك المغرب وابنة ولي عهد الكويت، والأخريات يشغلن مناصب مرموقة في دولهن.

هذا الغياب وبالذات عدم مشاركة زوجة الرئيس بشار الأسد وزوجة الملك محمد السادس وزوجة الرئيس زين العابدين بن علي وزوجة الرئيس معمر القذافي أو إبنته وزوجة الرئيس ياسر عرفات وبعض الزوجات الشقيقات، كان لافتاً وطرح الكثير من التكهّنات في أجواء القمة الوردية. ومن جملة هذه التكهّنات التي لها طابع التفسيرات أن اهل القرار العربي لا يريدون لقمتهم أن تبدو أكبر من حجمها. وهو تفسير معقول إذا نحن أخذنا في الاعتبار النظرة

الذكورية العربية بشكل عام إلى المرأة وهي نظرة ترى أن يكون صوتها مسموعاً إنما ليس صارخاً، وتكون مطالبها موضع إهتمام لا أن تؤخذ غلاباً، وأن تكون مشاركتها في الحياة العامة إستتسابية وليست واجباً تُقَصِّر الحكومات في أدائه. والأهم من هذا كله هو ألا يتحول الإجتماع الوردي إلى ساحة للمناقشات والمجادلات السياسية لأن ذلك سيترك إنطباعاً بأن نظرة السيدة الأولى تتناقض مع نظرة السيد الأول وهذا سيفسره الرأي العام على نحو ما لا يجوز تفسيره. ونقول ذلك على أساس أنه عندما سنتناقش قمة وردية من نوع قمة رانيا عبدالله في عمان ومن قبلها بسنتين قمة سوزان مبارك في القاهرة الوضع المأساوي في كل من فلسطين والعراق، فإن المناقشات ستتم بنوع من التعاطف الوجداني الذي لا علاقة له بالمواقف السياسية وهذا يعود إلى ان عاطفة المرأة رقيقة وسريعة التأثير وربما إلى درجة البكاء في حين أن السيد الأول يناقش الأمر من منطلق المصلحة العامة ومن دون أن تنعكس على رؤيته حالات الحصار الشاروني المفروضة على الفلسطينيين ومواكب التشييع اليومية لشهداء العدوان الإسرائيلي، أو الحالات المأساوية وبالذات في أوساط الاطفال في العراق الناشئة عن الحصار الدولي المفروض على الأمم المتحدة بقوة الهيمنة الأميركية على المنظمة الدولية.

ثالثاً - جاء إنعقاد القمة العربية الوردية في عمان بمثابة إنعقاد على خط النار، إنما بغير ثياب الميدان. ففي فلسطين وعلى مسافة رحلة طائر يتواصل العدوان الشاروني على الشعب الفلسطيني وتعاني المرأة الفلسطينية من جرّاء هذا العدوان الكثير. وفي العراق حصار لا ينتهي واجواء لحرب ماحقة على أهبة أن تبدأ في حال لم يعتبر الرئيس جورج بوش الابن ان المجد الذي يتطلع إليه قد تحقّق بالفوز المبهر للجمهوريين في الانتخابات وهو إنجاز قد تقضي عليه تداعيات الحرب المقبولة شكلاً بالتصويت بالإجماع المفاجئ في مجلس الأمن يوم الجمعة 8 نوفمبر (تشرين الثاني) وكأنما هو صفقة، المرفوضة ضمناً من الجميع، في حين أن عدم شن الحرب معناه الحفاظ على ذلك المجد وتوظيفه معنوياً ومالياً وإقتصادياً وبما يرضي الله والعباد العرب والمسلمين والأجانب. وبطبيعة الحال ان ما يقوله الأسياد الأوائل العرب بضرورة ان ينفذ الحكم العراقي قرارات الامم المتحدة وبذلك يفوّت الفرصة على مخطط حرب

الرئيس بوش عليه، لا يمكن أن تقوله السيدات الأوليات، إذ لا صفة رسمية لهنّ بالمعنى المتعارف عليه دولياً. كما أن السيدات الأوليات لا يمكنهنّ تسجيل المواقف الحاسمة في البيان الختامي على نحو ما يفعل الأسدياد. ولكن سيدات القمة قادرات على تسجيل الموقف وتخفيف ما في الصدر من إحتقانات وغضب من خلال ما بات متعارفاً عليه بأنه المخرج للمؤتمرات ونعني به «الإعلان» حيث انه غير ملزم مثل «البيان الختامي». ومن هنا ملاحظة أن فقرات البيان الختامي لقمة الملكة رانيا العبدالله تدور حول التمنيات على الحكومات بإعتماد إستراتيجية النهوض بالمرأة العربية، والاحوال الشخصية، وتصحيح الصورة الإعلامية للمرأة العربية، وتمكين المرأة من العمل البرلماني، وتخفيض الأمية في أوساط النساء... وأمور إجتماعية أخرى. وعندما بات لا بد من تسجيل موقف يتعلق بالعراق وفلسطين نجد أن تفكير الأسدياد ورأيهم وموقفهم قد إقتحم الساحة الوردية فجأة ونجد السيدات الأوليات يرتأين خشية ألا يصيب قمتهنّ ما يصيب أحياناً قمم الأسدياد الأوائل ومؤتمراتهم، الإستتجاد بـ «الإعلان» يرمين عليه ما لا يمكن، للدواعي التي أسلفنا الإشارة إليها، تضمينه في «البيان الختامي». وما حدث هو أن البيان إكتفى بفقرة تشير إلى «ضرورة المبادرة فوراً إلى إنشاء صندوق عربي لدعم المرأة الفلسطينية» بعد التذكير بالحيثيات وهي «المكابدة والمعاناة التي تعيشها المرأة الفلسطينية وفقدانها لمختلف وسائل المعيشة بسبب العدوان الإسرائيلي الصهيوني المتواصل». أما ما يتعلق بالعراق فجرى ترحيله إلى «إعلان عمان» الذي وردت فيه فقرة يرضى عنها كثير الرضى الأسدياد الأوليات ويمكن أن نقولها نساء أجنبيات مثل جريتا دوينبرغ زوجة رئيس البنك الأوروبي أو وزيرة التنمية الدولية في الحكومة البريطانية كلير شورت أو وزيرة العدل الألمانية هيرتا ديبلر غميلين لأنها فقرة تتسم بكل اللياقة الدبلوماسية. وهذه الفقرة الذكورية المفردات الدبلوماسية المحتوى هي: «وإذ يرحب المؤتمر بمبادرة العراق لتعزيز الحوار مع الأمم المتحدة وقبول عودة المفتشين بما يضمن تنفيذ جميع متطلبات قرارات مجلس الأمن، ليؤكد رفضه القاطع للتهديد بالعدوان على بعض الدول العربية وبصورة خاصة العراق ومطالبة مجلس الأمن بالعمل على إنهاء معاناة الشعب العربي العراقي الشقيق سيما أن النساء والأطفال يمثلون الفئات الأكثر

تضرراً فيه».

أما الفقرة التي باتت تتحاشاها بيانات الأسدياد الأوائل والتي يمكنهنّ تضمينها في «الإعلان» وإستحال عليهنّ وضعها في «البيان الختامي» والمتعلقة بالنزاع العربي - الإسرائيلي فكانت على النحو الآتي: «إن المؤتمر وهو يؤكد على الحق المطلق للشعوب في مقاومة الإحتلال كما ينص عليه ميثاق الأمم المتحدة، يعلن إدانته الكاملة للإرهاب والعنف الدولي، ويؤكد موقفه الحازم في إدانة إرهاب الدولة الذي تقوم به إسرائيل، ويطالب بالوقف الفوري لذلك. ويدعو إلى تطبيق قرارات الشرعية الدولية ذات الصلة وإزالة الإحتلال الإسرائيلي وتمكين اللاجئين الفلسطينيين من العودة إلى أراضيهم وإستعادة ممتلكاتهم وإقامة دولتهم على كافة الأراضي العربية الفلسطينية المحتلة وعاصمتها القدس، وكذلك يدعو إلى إزالة الإحتلال الإسرائيلي من الأراضي العربية في كل من سوريا ولبنان...». ومن أجل بعض التوازن ومسايرة خاطر السيدة فاطمة البشير زوجة الرئيس السوداني جاءت في الإعلان الفقرة الآتية: «كما يؤكد المؤتمر على حق السودان في وحدة أرضه وشعبه وسيادته الوطنية دون تدخل خارجي»

رابعاً - في معظم مؤتمرات الأسدياد العرب، أي مؤتمرات القمة، وكذلك مؤتمرات وزراء الخارجية تشكّل الدواولت والمشاورات والمقايضات وراء الكواليس عنصراً مهماً في نجاح المؤتمر أو إفشاله.. هذا فضلاً عن حالات الإنسحاب المفاجئ التي تحدث. أما في القمة الوردية الثانية فما كانت هنالك حاجة لتلك الدواولت ليس لأنه لا موجب لها وإنما لأن مستشاري الأسدياد يتولون عادة الأمر وتأتي النصيحة على أهون السبل إلى السيدات الأوليات اللواتي يتفهمن الدواعي لعدم تضمين البيان الختامي هذه العبارة أو تلك وترحيل عبارات إلى «الإعلان» الذي تتحمل «تبعاته» المعنوية الدولة المضيفة وليس بقية المشاركين. وما نقوله حدث بالفعل وناب الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى، الذي كان السيد الوحيد المشارك في قمتهن، عن الأسدياد الأوائل في ما يجب قوله، ربما في إنتظار أن يأتي يوم تكون هنالك امرأة في منصب نائب الأمين العام لشؤون النساء العربيات.

خامساً - من الواضح ان القمة الوردية باتت أمراً مسلماً به. وما دامت إجتازت السنتين الأوليين على يديّ الرئيسة سوزان حسني مبارك فإنها ستزداد صموداً

على يديّ الرئيسة الجديدة الملكة رانيا العبدالله. وعندما ستنتقل الرئاسة بعد سنتين إلى الشبيخة فاطمة زوكة رئيس دولة الإمارات الشبيخ زايد بن سلطان آل نهيان، فإن «قمة المرأة العربية» ستكون دخلت في مدار المؤسسة الراسخة الجذور. ومن المؤكد أن رئاسة الشبيخة فاطمة بما لدولة الإمارات من إقتدار مالي ستجعل القمة الثالثة تتخطى بعض المصاعب التي تحتاج إلى تمويل. ولا بد أن دولة الإمارات ستقوم بالواجب خصوصاً أن إنعقاد القمة الوردية في عاصمة خليجية، وللمرة الأولى، سيشع على بقية دول مجلس التعاون الخليجي.

تبقى بعد هذه الملاحظات كلمة حق يراد بها الحق ولا شيء غيره وهي أن تشجيع أهل القرار لمؤسسة القمة الوردية من شأنه تطوير المجتمع العربي. والتشجيع يكون من خلال الأخذ بما توصي به أم البنين والبنات... متمثلة بالسيدات الأوليات.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 نوفمبر (ت2) 2002

* * *

قصة علاقة متأرجحة

بين عراق صدام وأميركا بوش

يختار المرء في تحديد الحثثيات التي جعلت الإدارة الأميركية تستدير مائة وثمانين درجة في موضوع العراق وبحيث تعيد النظر في إستراتيجية التعامل مع هذا البلد النفطي، من الرغبة في التعامل وتطوير العلاقات ورفع مستوى العمليات التجارية الى إعلان الحرب على البلد وإسقاط النظام في خطوة لم تحدث من قبل بهذه العلنية.

قبل الإجتياح العراقي للكويت بسنة وشهر واربعة أيام كانت العلاقة العراقية - الأميركية على أبواب نقلة نوعية. فقد وصل إلى بغداد يوم 6 حزيران (يونيو) 1989 وفد يضم عدداً من كبار رجال الأعمال والصناعة ورؤساء المصارف وشركات السيارات، تولى ترتيب زيارتهم المصرفي الأميركي العربي الأصل بوب عبود الذي كان يترأس المجموعة المصرفية «فيرست سيتي تكساس»، والمعروف في الأوساط المصرفية بأنه بنك المجموعة التي كانت تحكم في الولايات المتحدة زمنذاك، ومن أبرز رموزها الرئيس جورج بوش

(الأب) ووزير خارجيته جيمس بيكر ووزير التجارة، إضافة إلى عشرات التكسانيين الذين وزعهم بوش (الأب) على مفاصل في ادارته وبذلك بات عهده معروفاً بأنه «العهد التكساني». وتديلاً على أهمية إسناد رئاسة الوفد الى بوب عبود أن المجموعة التكسانية المشار إليها أوكلت إليه أمر إنقاذ «فيرست سيتي تكساس» من مشاكل مالية أصابته ومنحته مليار دولار لهذا الغرض. ثم أمكن الرجل بسبب حنكته المصرفية أن يجمع خمسمائة مليون دولار وبذلك نجح في تعويم البنك الذي باتت موجوداته بعد ذلك 15 مليار دولار.

ومن الواضح أن المجموعة التكسانية بدءاً بالرئيس بوش (الأب) شجعت إرسال الوفد على أساس أن مردود مثل هذه الزيارة سيكون وفيراً. ولم تخف صحيفة التكسانيين «هيوستون كرونكل» نظرتها إلى العراق والأهمية المعلقة على زيارة الوفد، ذلك أنها في أعقاب عودة الوفد نشرت تحليلاً قالت فيه: «إن الشركات الأميركية تتطلع نحو سوق العراق الخصبة من أجل فرصة زيادة المبيعات...».

شكلت هذه الزيارة خطوة على صعيد الرغبة الأميركية في تطبيع العلاقات مع العراق، فإنطلقت الإدارة الأميركية بالنسبة إلى هذه الخطوة من أن النظام البعثي الذي يقوده الرئيس صدام حسين ليس هو المسؤول عن التوتر في العلاقات وأنه، أي هذا النظام، أتى إلى الحكم ووجد أن العلاقات الدبلوماسية مقطوعة منذ عام 1967 من دون التفكير في إعادتها بعدما إستأنفت مصر علاقاتها مع أميركا، علماً بأن سبب القطيعة هو مصر رداً على وقوف الإدارة الأميركية الى جانب العدوان الإسرائيلي يوم الخامس من يونيو 1967. وبعد قيام الحكم الدستوري في إيران والتوتر الخطير في العلاقات الإيرانية - الأميركية بات من الصعب على نظام البعث في العراق تطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة ذلك أن إيران بنظامها الثوري الجديد ستصنّف النظام في العراق على أنه ليس ثورياً وأنه حليف مستتر للولايات المتحدة. وفي صراع الثوريين في المنطقة يبدو الأمر على درجة من الحساسية.

المهم ان القطيعة العراقية - الأميركية إستمرت ثم بدأت الحرب بين العراق وإيران وأوجبت الإستراتيجية الأميركية دعم دول الخليج للعراق بالمال والمواقف السياسية. كذلك أوجبت مساندة العراق في اللحظة

في «الحزب الجمهوري» المرشحين بعد ذلك لرئاسة الجمهورية ثم إرتأى أن تكون زوجته الوزيرة السابقة اليزابيث هي من يخوض معركة الترشيح في الحزب الجمهوري للانتخابات الرئاسية وتخسر امام الرئيس الحالي جورج بوش (الابن). والذي شجّع على هذه الزيارة الإنطباع الذي عاد به عضو مجلس الشيوخ عن ولاية بنسلفانيا ارلن سيكتر الذي إستقبله الرئيس صدام يوم 13 يناير (كانون الثاني) من العام نفسه (1990). وعندما إنتقى الوفد بالرئيس صدام لم يُخفِ رئيسه روبرت دول ذلك حيث انه قال مخاطباً الرئيس العراقي: «لقد تركتم إنطباعاً جيداً لدى السناتور سبكتر الذي قابلكم وهو الذي قال لنا ان نتحدث معكم قبل أن نفعل أي شيء...».

في ضوء الذي جرى بين عراق صدام حسين وأميركا جورج بوش (الأب) يستنتج المرء حدوث أحد أمرين: إما ان الإنطباعات التي نقلها وفد الكونغرس الذي ترأسه روبرت دول أقلقّت الرئيس الأميركي حيث لاحظ أن الرئيس العراقي يريد أن تكون العلاقة بينه وبين الولايات المتحدة على نحو تفصيله لثوب هذه العلاقة، وهو ثوب فضفاض زيادة عن التحمل الأميركي له. وإما أن إقرار الرئيس صدام أمام الوفد بإستعداده لإستعمال السلاح الكيماوي جعل الرئيس بوش يفترض أن رجل دولة من نوع صدام حسين، بمسك بكلتا يديه بمفاصل القرار في بلاده قد يستعمل هذا السلاح بالفعل ضد إسرائيل. وفي هذه الحال سينشأ وضع في منطقة الشرق الأوسط ليس من السهل على الإدارة الأميركية السيطرة عليه.

وهنا بدأت مرحلة تشجيع الرئيس على أن يرتكب الخطأ الذي يبرر توجيه ضربة له تجعله يعيد النظر في طموحاته، ومن بينها أن يكون الرقم الأصعب في المنطقة. وجاء الخطأ يتمثل في إجتياح الكويت يوم الخميس 2 أغسطس (آب) 1990 بصرف النظر عما إذا كان هذا الإجتياح تم بإجتهد من الرئيس صدام يضع فيه الإدارة الأميركية أمام الأمر الواقع وبحيث تُوجّه رجل أميركا في العالم العربي على نحو ما كان يحلم بذلك الشاه محمد رضا بهلوي، أو أن هذا الإجتياح تم بإيحاء من السفارة الأميركية في بغداد غلاسيبي وضمن سيناريو جاءت التطورات والنداءات التي تلتها مطابقة لذلك.

ولكن يبقى الحوار الذي جرى بين الرئيس صدام ووفد الكونغرس الأميركي برئاسة روبرت دول يفسر

التي تبدو فيها الحرب أنها ستكون لمصلحة إيران. ولقد تنوعت أوجه المساندة التي على ما إنتهت إليه التطورات كانت من أجل إستنزاف الجانبين وليست من أجل أن يخرج العراق منتصراً. ومن هنا القول إن الحرب العراقية - الإيرانية إنتهت لا غالب ولا مغلوب.. بل لعله من الجائز القول إنها إنتهت بقطبيّ العراك مثخين بالجراح وغارقين في بحر المشاكل الناشئة عن الحرب التي دامت ثمانية أعوام سقط فيها الألوف بين قتيل وجريح وإحترقت فيها الثروات وتعطلت خطط التنمية والتطوير والبناء.

في اعقاب الهدوء الذي أعقب الحرب التي إنتهت في اللحظة التي أعلن فيها الإمام الخميني أنه يوافق وكمن يتجرع السم على وقف إطلاق النار بدأت الإدارة الأميركية العمل على إستكشاف النهج الذي يمكن إعتماده مع العراق. ومن هنا جاءت زيارة وفد رجال الأعمال الذي قاده بوب عبود المصرفي الأميركي البار. ولأنه من أصل لبناني بمعنى أن دمه عربي فإن الحديث مع الرئيس صدام كان يتسم بالكثير من الدفء. وغادر الوفد العراق وهو مطمئن إلى أن حجم تجارة العراق مع الولايات المتحدة سترتفع من 1.15 مليار دولار كما كانت عليه عام 1989 الى ثلاثة مليارات عام 1990 فألى خمسة مليارات عام 1995. وقد بنى رجال الأعمال وبالذات نائب رئيس «جنرال موتورز» للشرق الأوسط وأفريقيا وممثلو شركات «وستكهاوس» وكذلك ممثلو الشركات النفطية التكسائية الذين هم من أعضاء الوفد تقديراتهم على أساس أن ما سمعوه يوحي بالإرتياح والنقّة بأن نظام الرئيس صدام حسين سيكون سخياً في تفضيله الشركات الأميركية على غيرها من شركات الدول الكبرى المهمة. ومن ضمن الخطط التي رسمها الوفد التوصية بأن يوجّه الرئيس جورج بوش (الأب) دعوة الى الرئيس صدام حسين لزيارة الولايات المتحدة. وبعد هذه الزيارة تتدفق الخيارات العراقية على الشركات الأميركية.

كانت زيارة الوفد الإقتصادي الأميركي المهمة للعراق تستوجب على ما يجوز الإعتقاد الحصول من الرئيس صدام على مواقف سياسية محددة. ومن أجل ذلك جاءت الزيارة السياسية التي هي الزيارة الأهم. ويوم 12 أبريل (نيسان) 1990 أي بعد حوالي تسعة أشهر على الزيارة الأولى كان وفد من الكونغرس يتأهله السناتور روبرت دول المعروف انه صديق للرئيس جورج بوش (الأب) وأنه كان من بين المتداولة اسماؤهم

ومن خلال عبارات معيّنة ومما بين سطور هذه العبارات من المعاني لماذا كانت هذه الإستدارة المباغثة من جانب إدارة الرئيس جورج بوش (الأب) في اتجاه صرف النظر عن بناء علاقة إستراتيجية بين إدارته وبين حكم البعث الذي يقوده الرئيس صدام حسين في العراق.

كذلك تبقى مكالمة هاتفية أجراها السناتور دول مع الرئيس بوش (الأب) من بغداد قبل ساعات قليلة من إنعقاد اللقاء، تضيف المزيد من الإجابة عن سر هذه الإستدارة التي يقال إن اللوبي الصهيوني أبلغ الرئيس بوش عند سفر الوفد إلى العراق بأن أي علاقة بين أميركا والعراق لا تؤدي إلى إعتراف نظام البعث بإسرائيل ستتسبب في إحراج لا مثيل له للإدارة الأميركية. وفي حينه كان اللعب الأميركي - الإسرائيلي يتم على حبلين وفي اتجاهين: إتجاه تحسين العلاقة مع البعث في سوريا لكي يخطو الرئيس حافظ الأسد على نحو ما سبق أن خطاه الرئيس أنور السادات، وهذا التحسين يكون بالضغط من خلال بناء علاقة جيدة مع البعث في العراق. وإتجاه الضغط على العراق للغرض نفسه وهذا يكون ببناء علاقة نوعية مع نظام الرئيس حافظ الأسد.

وكان واضحاً أن اللعب الذي جرى جعل البعثين لا يحققان للإدارة الأميركية مبتغاها، وعلى هذا الأساس بدأ العمل لإرباك النظامين واحداً بعد الآخر بغرض ضربهما. وفي هذا السياق جاءت التحركات والمفاجآت والايحاءات والزيارات التي كانت توحى بعهد أميركي - بعثي لا مثيل له. ومن بينها المحادثات التي أجراها وفد الكونغرس برئاسة روبرت دول مع الرئيس صدام وكانت نقطة الفصل بين السعي نحو بناء العلاقة النوعية وبين الإستدارة التي نشأت عنها وخلالها تداعيات وتطورات في منتهى الخطورة.

وما جرى في تلك المحادثات نقرأه في بقية لهذه المقالة الأسبوع المقبل.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 20 نوفمبر (ت) 2002

* * *

من خسر الآخر: بوش أم صدام؟

عندما إلتقى وفد الكونغرس الأميركي بالرئيس

صدام حسين في الموصل، يوم الخميس 12 أبريل (نيسان 1990)، كانت العبارة الأولى التي قالها رئيس الوفد السناتور روبرت دول «إتصلنا في الحادية عشرة مساء أمس بالرئيس جورج بوش (الأب) بالهاتف وكل واحد منا تحدّث معه وكان الرئيس مرتاحاً لأننا سنزور بغداد».. ثم قرأ المترجم نص رسالة تحمل توقيع أعضاء الوفد وهم إلى جانب روبرت دول كل من السناتور سمسون والسناتور مكور والسناتور متبرت والسناتور ميتزن بوم. وكانت العبارة الأكثر بروزاً والتي بدت كما لو أن زيارة الوفد من أجل البحث في مضمونها، هي التي تتعلق بمساعي العراق لتطوير قدرات نووية وكيميائية وبايولوجية، وبالتصريحات التي هدد فيها الرئيس صدام بحرق نصف إسرائيل بالكيمياوي المزدوج إن هي إعتدت على العراق. وقد حث السناتور دول وزملائه في رسالتهم الرئيس صدام على «إعادة النظر في الإستمرار بهذه البرامج الخطيرة والتصريحات والتأكيدات الإستقرازية»، كما أنهم حثوه على «أن يساهم بنشاط في عملية السلام الجارية بين مصر وإسرائيل وممثليين عن الشعب الفلسطيني وحكومة الولايات المتحدة».

وفي محاولة منهم لترويضه قالوا له إن الملك حسين والرئيس حسني مبارك نصّاهم بإجراء حوار صريح ومنفتح معه وأنه - والتوصيف للزعيمين العربيين - رجل واضح وصريح. ومن جانبه رأى الرئيس صدام أن الوفد جاء ليثير معه في الدرجة الأولى موضوع تلويحه بإستعمال الكيماوي المزدوج في حال إعتدت إسرائيل على العراق، وأن أعضاء الوفد لم يأتوا مستوعبين العبارة التي قالها في هذا الشأن وإنما على نحو ما روجت له وسائل الإعلام الأميركية التي لا تخفي نوازعها في إتجاه التصهين. وعلى هذا الأساس رأى أن الفرصة مواتية ليوضح الموقف من الزاويتين العراقية والفلسطينية في مطالعة أمام أعضاء الوفد وفي ظنه أن هذه المطالعة ستجعل الإدارة الأميركية متفهمة للرؤية البعثية العراقية للمسألة.

بدأ الرئيس صدام مطالعته برفض قاعدة «قياس الصغر والكبر» في بناء العلاقات بين الدول، معتبراً انه «ما دام الله أكبر من كل الحالات فيجب إذاً عدم الاستسلام لقاعدة الدولة الكبرى والدولة الصغرى». ولا يمكن لسياسي اميركي امثال أعضاء الوفد الإقتناع بهذا المنطق، إذاً فإن هذه النقطة لم تخدم أميركياً منطق الرئيس صدام. إلا أنه لم ييأس فعزز الرؤية

بالقول: «حيثما كان الانسان عادلاً في موقفه فهو الأكبر وحيث لأمس الحقيقة كما هي وليس كما يتمناها أو يريدها فهو الأكبر، وحيثما حقق أو أسهم في تحقيق السلام ليس لنفسه وإنما للإنسانية ككل فهو الأكبر، وحيثما وجد خلاف بين طرفين أو أكثر وحث النفس على البحث لمعرفة أين هو الحق فهو الأكبر».. وعندما لاحظ ان ملامح وجوه السامعين ليست منسجمة مع رؤيته فإنه أضاف: «حتى بالقياسات المادية يحتاج الكبير إلى الصغير لكي يعرف أنه أصبح كبيراً، وإن كان الصغير يلام من ناحية أخرى لأنه لو لم يكن هو صغيراً لما أصبح الكبار كباراً». إلا أن الملامح شهدت بعض الإرتياح عندما دخل الرئيس صدام في صلب الموضوع قائلاً: «أعتقد أن العراقيين والأميركيين بحاجة لأن يتعرف بعضهم على بعض وأن يتعرفوا على تاريخ البلدين من جوانب أساسية من الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية لأن هذا التعرف لا غنى عنه كخلفية لإستنتاجات صحيحة...»، لكن سرعان ما إستعادت الملامح بعض التجهم عندما قال الرئيس صدام للوفد الأميركي المرموق: «مثلما أنتم قلقون من أخبار تصلكم عن العراق وسياسات تنتقدونها، نحن أيضاً قلقون من أخبار تصلنا من الولايات المتحدة الأميركية وسياسات تنتهجونها».

لا بد أن أعضاء الوفد وهم يستمعون إلى الرئيس صدام كانوا يقولون في سرهم: ما به هذا الرجل؟ أنه يتحدث وكما لو أنه سيد الكرملين في مخاطبة سيد البيت الأبيض. هل مثل هذه اللهجة ستكون مدخلاً إلى تصحيح ما يمكن تصحيحه وبناء علاقة جديدة لا تقوم على الحذر ويأخذ رئيس العراق بموجبها في الإعتبار أن أميركا هي أميركا زعيمة العالم وأن العراق هو العراق الدولة التي لا يمكن لمعادلة المعنويات ولا للتراث التاريخي الذي يعود إلى أربعة آلاف سنة على نحو ما ذكر الرئيس صدام متباهياً، أن تقلل من شأن هذا الواقع.

وعلى رغم أن رئيس الوفد السناتور روبرت دول قال للرئيس صدام، الذي شكى مر الشكوى من الحملة الإعلامية في أميركا على العراق، إن الرئيس بوش قال له . أي للسناتور دول . إنه ليس مع هذا الأسلوب، إلا أن الرئيس صدام أوضح أمام الوفد الزائر أن تصريحه الذي قامت القيامة في أميركا عليه تمثل بقوله: «إذا ضربت إسرائيل العراق سنضربها» ولم يقل

إنه سيكون البادئ بالضرب ومن دون أسباب موجبة. ثم فاجأ الوفد بأنه لم يتوقف عند هذا التوضيح قائلاً: «وأنا أؤكد الآن أمامكم أن إسرائيل إذا ضربت فنسنضربها». وإسترسل الرئيس صدام في الحديث حول السلاح الذري والكيماوي والبايولوجي وعاد إلى القول وبنبرة أكثر تصميمًا: «بصرف النظر عن الكيفية التي فسّر بها تصريحني فإنني أقول كلامنا واضح وهو مكتوب بالعربية ومكتوب بالإنكليزية ومسجل صورة وصوتاً فنحن لا نتراجع عن كلامنا. فإذا ضربت إسرائيل وإستخدمت الأسلحة الذرية فنستخدم الكيماوي والمزدوج».

واقترح أعضاء الوفد بمسألة إمتلاك العراق للسلاح الكيماوي والبايولوجي عندما سمعوا الرئيس صدام يقول: «من الذي يجعل العرب يفتشون عن الأسلحة الكيماوية ويصنعونها؟ انها إسرائيل. فالعرب يعرفون أن إسرائيل لديها أسلحة كيماوية وبايولوجية وذرية فكيف تريدون أن يتصرف العرب؟ هل يسلمون أوطانهم ويتركون شعوبهم لمصيرها؟ ثم لماذا يُفترض أن إسرائيل فقط لوحدها تتصرف بمسؤولية تجاه الأسلحة ولا يتصرف العرب بنفس المسؤولية؟».

ثم سمع أعضاء الوفد كلاماً من الرئيس صدام إعتبروه فوق سقف الكلام المجاز أن يقوله رئيس دولة صغيرى لوفد يمثل الدولة الأكبر. ومن الجائز أن عضو الوفد السناتور ميتزن بوم، وهو يهودي، كان الأكثر إندهاشاً وهو يسمع الرئيس صدام يخاطب الوفد بلهجة التأييب قائلاً: «إن العرب يسمعون يومياً عملية تحقير لهم من الغرب. لماذا؟ هل سيطر عليكم الإتجاه الصهيوني إلى هذا الحد الذي سلب إنسانيتكم؟ هل ضعفت الوطنية في دول الغرب إلى الحد الذي لم تعد فيه قادرة على أن تقول أين هو الحق وأين هو الباطل...» ثم زاد رفع نسبة التعبير عن الضيق الذي في النفس قائلاً: «قلتم بأن بعض أعضاء الكونغرس قد يطرح عقوبات على العراق. ولكن هلاً سألتكم أنفسكم بماذا تعاقبون العراق؟ أنتم لم تسألوا العراق ولم تصرفوا له مساعدات إقتصادية ومالية. إنكم لم تأتوا بنا الى الحكم ولا أنتم الذين تحموننا. إننا لم نكن راغبين في أن نمارس عدوانية عليكم وليس هذا منهجنا، ولكننا مصممون على أن أي أحد يعتدي علينا فإننا نقاومه».

بعد ذلك طلب الوفد صراحة من الرئيس صدام أن يكون «قوة مؤثرة جداً للسلام في الشرق الأوسط».

في هذا اللقاء الإستثنائي قيل أيضاً كلام كثير وكان ربما من شأن هذا اللقاء أن يجعل نافذة الحوار التي فتحتها زيارة هذا الوفد أن تتسع وبحيث تصبح ابواباً مشرعة، لكن الأمور سارت في اتجاه غريب. وهذا سببه على ما يجوز الاعتقاد أسلوب التخاطب من جهة حيث أن اللقاء لم يكن من أجل العتاب وإنما وجد أعضاء الوفد أنفسهم أمام رئيس عربي طلبوا منه سحب تصريحه الشهير حول إستعمال الكيماوي المزدوج في حال إعتدت إسرائيل على العراق فلم يتجاوب وإنما حرص على أن يؤكد أمامهم ما قاله عندما لم يكونوا من جملة الحاضرين في الإجتماع الذي عُقد في قصر المؤتمرات في بغداد وقال فيه الرئيس صدام ما قاله. كما ان أعضاء الوفد وجدوا أمامهم رئيساً لا يطلب الود من الإدارة الأميركية وإنما يتطلع إلى علاقة قائمة على المساواة وهذا ما يبدو مرفوضاً تماماً بالنسبة إلى النهج الأميركي. وإلى ذلك ان الوفد جاء لإدخال نظام البعث في «اللوبي» العربي الأميركي ذي الاصول الثورية أو الماضي الثوري على نحو حال مصر وكيف أدخلها الرئيس أنور السادات طائعاً مختاراً في هذا «اللوبي»، فإذا بالرئيس صدام يتحدث بمفردات نضالية غير مستحبة السمع من جانب الإدارة الأميركية التي كانت قطعت شوطاً على طريق وضع اللبنة الأخيرة في بناء «النظام العالمي الجديد» ولا ينقص هذا العمل سوى تجربة ميدانية، أو باللغة العسكرية مناورة مشتركة بين عدة أطراف وبالذخيرة الحية. وهذا ما تحقق بعد ذلك عندما جرى إستدراج الحكم العراقي إلى كمين «المحافظة التاسعة عشرة» وهناك بدأت عملية الذبح من الوريد إلى الوريد وريداً بعد وريد.

ويبقى السؤال: هل أن الرئيس صدام جاءته الفرصة على طبق أميركي دسم حملة وفد كثير التميز من الكونغرس الأميركي، لكن إستقباله لهذه الفرصة خلا من بعض الإنحناءات التكتيكية التي تفيد عند الضرورة وخاطب أميركا وكما لو أن سيد الكرملين يخاطب سيد البيت الأبيض؟ وهل انه لو كان يدري ما الذي في إستطاعة أميركا أن تفعله به وببلده كان سيقول أمام الوفد: «هلاً سألتكم أنفسكم بماذا تعاقبون العراق؟ أنتم لم تسلحوا العراق ولم تصرفوا له مساعدات إقتصادية ومالية. انكم لم تأتوا بنا إلى الحكم ولا أنتم الذين تحموننا. اننا لم نكن راغبين في أن نمارس عدوانية عليكم وليس هذا منهجنا، ولكننا مصممون

على أن أي أحد يعتدي علينا فإننا نقاومه؟». من المؤكد أنه لم يكن ليقول هذا الكلام ولم يكن لينشر محضر هذا اللقاء وغيره من محاضر اللقاءات العراقية - الأميركية في أكثر المراحل دقة. فقد أثبتت أميركا منذ أن قادت حرب دول التحالف على العراق عام 1991، أنها قادرة على أن تعاقب الجميع من دون إستثناء وإن اختلفت أنواع العقاب، وأن العقاب يتم تحت سقف شرعية دولية إستحصلت عليها بقوة الهيمنة. ولأن الذي جرى وما يجري يؤكد كم أن العقاب من جانب بوش الأب عسير، فإن خشية العراقيين مما قد يجري من جانب بوش الابن قد يكون أخطر وأعسر.

وفي العودة الى تلك المحاضر والتمعن في قراءة ما بين السطور يستنتج المرء كيف أن العلاقة بين صدام حسين (التكرتي) وجورج بوش الأب ثم الابن (التكساسي) ستستمر متأرجحة... إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 27 نوفمبر (ت) 2002

* * *

حكاية الرسم الموزايكي بين صدام وبوش

كانت مقتضيات الحكمة توجب لمجرد فوز الرئيس جورج بوش الابن بالرئاسة إزالة الصورة المرسومة بطريقة السيراميك للرئيس جورج بوش الأب على عتبة مدخل «فندق الرشيد» أهم فنادق العاصمة العراقية بغداد، وذلك ضمن تصاريحات بغرض التحديث أو التنظيف لبهو الفندق الذي يحل فيه الأجانب من زوار وفود رسمية وإعلاميين يدوس الواحد منهم بقدميه على صورة الرئيس الأميركي الأسبق أكثر من مرة في اليوم الواحد خلال أيام الإقامة. ولكن الإزالة لم تحدث للمناسبة التي نشير إليها مع أن هذه الإزالة كانت ستبدو بمثابة لفظة من لفات حسن النية التي إذا جاء الرد عليها في صيغة لفظة حسنة يكون ذلك جيداً، أما إذا جاء الرد في صيغة عدم الإكترار أو الإساءة وإستمرار الحصار فإن كثيرين سيقولون إن العراق كان كريماً في لفتته تلك وأن الإدارة الأميركية كانت من النوع الذي ينطبق عليه قول الشاعر «إذا أنت أكرمت الكريم ملكته... وإن أنت أكرمت اللئيم تمرد».

مع الأسف لم تصدر الأوامر بإزالة الرسم السيراميكي للرئيس بوش يداس عليه بالأقدام بينما بات ابنه رئيساً للولايات المتحدة. ولم تصدر الأوامر مع انتهاء ولاية الرئيس بيل كلينتون وبداية ولاية الرئيس بوش الابن، مع أن ذلك كان سيبدو بمثابة إجراء طبيعي لن يلقى الإعتراض من جانب الرأي العام العراقي.. هذا إذا كان لن يلقى سوى الترحيب. لكن الإبقاء على ذلك الرسم ترك إنطباعاً بأنه باق إلى أن ينتهي أمر الحصار المفروض على العراق وفي هذه الحال فإن إزالته تكون من ضمن إزالة آثار العدوان.

وقد نجد من يقول إن هذا الرسم الموزاييكي كان مجرد رسالة إلى من يهمل الأمر في الولايات المتحدة فحواها ومضمونها التذكير بما حدث للعراق من جانب الرئيس جورج بوش الأب وأن العراق له دوافعه المشروعة للتعبير عن الألم الناشئ عن حرب بوش الأب، وأن الأمر لا يعدو حالة تعبير عما يجيش في الصدور مثله مثل الذين يشاركون في تظاهرات ويحرقون الدمي التي تمثل بعض الحكام ومن بينهم في إستمرار حكام أميركا الذين هم حاضرون في كل تظاهرة ودائماً عرضة للإحراق. وهذا رأي قابل للنقاش وربما جائز لو أن الشخص الذي بات رئيساً للولايات المتحدة ليس ابن الرئيس صاحب الرسم الموزاييكي المداس عليه. لكن جورج بوش الابن بات هو الرئيس. وإذا كان الرسم إياه يتسبب بالإحراج للرئيس بيل كلينتون الذي حكم بعد إسقاط حلم بوش الأب في تجديد الولاية، فإنه بالنسبة إلى بوش الابن يؤدي مشاعره وذلك لأن دوس رسم والده بأقدام العراقيين والعرب والأجانب من الذين يرتادون «فندق الرشيد» أو يحلون فيه هو بمثابة دوس لشخصه. وما دام هو في موقع السلطة فإن رد فعله على ذلك هو الإنتقام وبأي وسيلة، ومن دون طول إنتظار. ولا بد أن الكثيرين المزروعين في المفاصل السياسية والأمنية الأساسية في الإدارة الأميركية ممن دورهم تحريض الرئيس على الأخذ بخيار الحرب، ينتهزون في إستمرار المناسبة التي يذكرون فيها الرئيس بحكاية ذلك الرسم الموزاييكي وكيف أنه لا يجوز من أجل الكبرياء الأميركية وكرامة العائلة ومعنويات الرئيس أن تكون صورة والده المرسومة على مدخل «فندق الرشيد» دون غيره من سائر حكام العالم بمن في ذلك حكام إسرائيل، داس بالأقدام بينما هو رئيس الولايات المتحدة. ولأن بوش الابن جاهز نفسياً للتوقف عند هذه الإيحاءات والتأمل

فيها، فإنه بدأ يرى أن أفضل ما يمكن أن يفعله من الناحية النفسية هو أن يثبت لوالده أنه ليس مثل الظن السلبي للوالد به في الماضي. وهو يريد إثبات ذلك لأن والده ما زال على قيد الحياة وفي وضع صحي وذهني جيد وليست حاله مثل حال رونالد ريغان الذي بسبب مرض الخرف المستشري في دماغه لم يعد يتذكر شيئاً بما في ذلك أنه كان رئيساً للولايات المتحدة وأن نانسي التي تلازمه هي زوجته. وفي مقدمة ما يريد إثباته هو القول لوالده الرئيس ما معناه أنه إذا كنت خضت مع معظم دول العالم حرباً ضد صدام حسين ولم تستطع إسقاطه، فإنني سأفعل ذلك وحيداً وسأنقل رسمك الذي يدوس عليه رواد «فندق الرشيد» من عتبة مدخل الفندق إلى صدارة «لوبي» الفندق، وبحيث يرى الجميع ذلك ويقولون أي «ابن بار» بوالديه هذا الذي نجح في ما سكت عليه كلينتون تلذذاً وارتضاء بوش الأب كأمر واقع ما دام لم يعد رئيساً للولايات المتحدة كما كان يأمل ويحلم.

ومن المؤكد أن هذا الحرص من جانب الرئيس جورج بوش الابن على أن يثار للاستهانة التي لحقت بوالده والمتمثلة في إبتكار العراقيين صيغة الرسم على العتبة.. وعتبة فندق بالذات، ما كان على القوة التي عليها لو أن والده ليس على قيد الحياة. ولكن بقاء الولد حياً وواعياً هو الحافز من أجل أن يقول الرئيس الحالي (الابن) للرئيس السابق (الوالد): ما رأيك بمن جعلته قبل سنوات يقبع في الظل ويدوي بالخمرة إنزعاجه النفسي من أسلوبك ومن عدم إعتزلك به وعدم ثقتك بمستقبله. ألم يصبح رئيساً؟ وألم يصبح زعيماً؟ وأليس هو القادر ليس فقط على إزالة الرسم السيراميكي الإذلال لوالده على عتبة مدخل «فندق الرشيد» وإنما على إزالة حكم صدام.. هذا في حال سارت أمور التحديات والعناد إلى النهاية ولم يأخذ الرئيس بوش الابن بنصائح من إذا نصحوه أخلصوا، وبتحذيرات من إذا حذروهم الأكثر عمقاً في التفكير والأكثر إدراكاً لما يمكن أن ينتج عن التصرفات الحمقاء أو ذات الطابع الثأري.

ومن المؤكد أن جيوب السوء داخل الإدارة الأميركية المأوى بالعناصر الشريرة والمتصهينة إستغلت أبشع استغلال الصور التي بثتها الفضائيات ونشرتها الصحف عن وصول رئيس فريق المفتشين الدوليين هانز بليكس ومدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية محمد البرادعي إلى بغداد وكيف أنهما حلاً في

«فندق الرشيد» وداسا من جملة الدّوَّاس اليوميين رسم الرئيس جورج بوش الأب.

ولا ندري ما إذا كانت الحكومة العراقية هي من إختار إقامة الإثنين بليكس والبرادعي في «فندق الرشيد» ولكي يتم التقاط الصور لهما لحظة دوسهما الرسم الموزاييكي، أم أن الامم المتحدة هي من يقرر أين يقيم كبار موظفيها ومبعوثيها إلى المهمات ذات الطابع الدولي. ولكن الذي يمكن قوله إن الإبقاء على الرسم في المكان الذي إختير له يشكل عنصر إستقزاز، وأن إزالة هذا الرسم ربما من شأنها ان تشكل عنصر إنفراج نفسي من المؤكد أن له أثره على القرارات التي يتخذها الرئيس وكذلك على التقارير التي تردّه. ومن باب الإفتراض نقول إنه إذا قيل للرئيس بوش الابن إن الرسم السيراميكي لوالدك قد أزيل من عتبة «فندق الرشيد» وبالتالي فإن لا أحد بعد الآن يدوس عليه، فإن رد الفعل عنده سيكون على شيء من الإرتياح، بل وربما سيعلق قائلاً أن هؤلاء (أي الرئيس صدام وأهل الحكم العراقي) يتصرفون بحكمة عند الضرورة وهذا جيد. أما في حال إستمرار الرسم على ما هو عليه وفي مكانه فإن نفسية الرجل تجاه العراق ستبقى على نحو ما هي عليه كارهة، وسيبقى هو للدواعي الشخصية والعامة وتحت تأثير التنظيرات الشريرة على إستعداد للتجاوب مع الأفكار التي تدعو إلى إعتقاد أسلوب التشفي في التعامل مع العراق تماماً على نحو ما حدث مع «نظام طالبان». وهو في الأصل على إستعداد لإعتقاد هذا الأسلوب ما دام يتباهى بأنه صاحب مزاج ناري وبأنه يرى في أميركا أنها القائدة وأنه القائد أما الآخرون فإنهم مقادون ولا خيار لهم سوى الإستسلام لإرادة زعيمة العالم بالرضى كان الإستسلام أو بالقوة.

يبقى ونحن نتناول هنا حكاية الرسم الموزاييكي للرئيس بوش الأب على عتبة مدخل «فندق الرشيد» نتساءل عن سر عزوف العدد الكبير من الشخصيات العربية والأجنبية التي تربطها علاقات طيبة بالعراق، وبعضهم يقابل الرئيس صدام ويخوض مناقشة معه حول القضايا الزاهنة والمحنة التي يعيشها العراق من جراء الحصار، عن عدم إبداء هؤلاء وجهة نظر تتعلق بمساوئ هذا الرسم الموزاييكي وكيف أنه لم يعد له أي مبرر بعد سقوط الرئيس بوش الأب في إنتخابات تجديد الولاية وفوز بيل كلينتون في هذه الإنتخابات، أما بعد فوز بوش الابن بالرئاسة فإنه بات من باب

المراعاة الأمر بإزالة هذا «الأثر الفني العظيم». ومعظم هؤلاء الذين نشير إليهم وبينهم الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بيللا والأمين العام الحالي للجامعة العربية عمرو موسى والأمين العام السابق الدكتور عصمت عبد المجيد ورئيس الحكومة الأردنية علي أبو الراغب ووزير العدل الأميركي الأسبق رمزي كلارك وعلي عثمان طه النائب الأول للرئيس السوداني وعشرات غيرهم، حلّوا ضيوفاً في «فندق الرشيد» وداسوا في كل مرة غادروا الفندق وفي كل مرة عادوا إليه الرسم الموزاييكي للرئيس بوش الأب.

وفي تقديرنا أن كلاً من هؤلاء لا يجد في بقاء هذا الرسم أي فائدة بل إنهم ضمناً يرون أن فيه الكثير من الضرر. ولو أن أحد هؤلاء أو أكثر أبدوا خلال اجتماع بالرئيس صدام وجهة نظر في هذا الشأن وقالوا له في صيغة أو أخرى إن هذا الأسلوب استنفذ غرضه الشكلي وبات بقاء الرسم على العتبة أمراً غير مستحب، لكان الرئيس العراقي على رغم كل الآلام المبرحة في الجسد العراقي من جرّاء ما فعله بوش الأب رأى أن وجهة النظر هذه في محلها وأنه من الأفضل بالتالي إزالة هذا الرسم.. خصوصاً أنه لم يأت ردّاً على رسم موزاييكي مائل للرئيس صدام وضعه الأميركيان على عتبة فندق في نيويورك أو واشنطن يحل فيه زوار المدينتين وبالذات خلال الدورة السنوية للجمعية العامة للأمم المتحدة.

وأنا شخصياً من بين الذين في حال أتيح لهم زيارة الرئيس، كصحافي وكاتب أو كصديق، سأبدي وجهة النظر التي تتعلق بذلك الرسم الموزاييكي للرئيس جورج بوش، وسأضيف إلى ذلك إبداء إستهجاني من الإبقاء عليه بمثل إستهجاني أفعال الذين يتظاهرون ثم يحرقون العلم الأميركي وفي إعتقادهم أنهم شجعان... وهم ليسوا كذلك.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 4 ديسمبر (ك) 2002

* * *

الزعامة التاريخية... والزعامة المضلّة

إذا جاز القول فإن الرئيس ياسر عرفات هو أحد قلائل في «لوبي الأصدقاء المميزين» للزعيم الأفريقي نلسون مانديلا، كما أن العقيد معمر القذافي هو أيضاً

واحد من هؤلاء القلائل. ومن تحصيل الحاصل القول إن عرفات يتأمل بين الحين والآخر في مسيرة هذا الزعيم ويتطلع إلى اللحظة التي يقتفي فيها أثره. وهو من أجل ذلك يحاول الصمود سياسياً وصحياً قدر الإمكان في إنتظار اللحظة التي يحقق فيها ما سبق أن حققه مانديلا، أي تقوم الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس، وبعد ذلك ينسحب بهدوء على نحو الإنسحاب الهادئ لمانديلا من الحكم وتسليمه مسؤولية رئاسة جنوب أفريقيا طوعاً، ومن دون أن تكون هنالك ضغوط ومنافسات، إلى نائبه.

وكثيراً ما سمعنا من الرئيس عرفات إشارات في حق مانديلا بدا فيها وكأنما يريد القول ما معناه أن هذا الزعيم الإفريقي المهيّب هو المثل الأعلى له، وأنه يحلم بـ «تقاعد رئاسي» كمثّل سنوات التقاعد التي يمضيها مانديلا منذ أن فاجأ العالم بأنه قرر ترك المسؤولية الرسمية والتفرغ للاهتمام بنفسه في ما تبقى من العمر، ولجمع التبرعات من أجل بناء المدارس ودور الحضّانة التي أنجز منها حتى الآن 120، وأيضاً من أجل تنشيط محاولات تستهدف وضع نهايات سارة للقضايا العالقة ومنها القضية الفلسطينية والصراع العربي - الإسرائيلي.

ما يلفت الإنتباه في نلسون مانديلا أن الرجل بُوع من العالم زعيماً من نسيج جورج واشنطن والمهاتما غاندي. وتدلّياً على هذه المبايعة فإن التكريم له من خلال الأوسمة وشهادات الدكتوراه الفخرية لا يتوقف منذ الإفراج عنه عام 1990 بعد ربع قرن أمضاه في سجون النظام العنصري في جنوب أفريقيا، حتى أنه بات حاصلاً حتى الآن على 150 شهادة دكتوراه فخرية لعل أهمها ما حدث عام 1996 عندما أقامت ثماني جامعات بريطانية من بينها جامعة أوكسفورد وجامعة كمبردج مراسم مشتركة في القصر الملكي في لندن (باكنغهام) لمنحه الدكتوراه الفخرية. أما الأسلوب الذي يعتمد لجمع التبرعات لبناء المدارس ودور الحضّانة فإنه فريد من نوعه وكثير الرقي حيث انه يوجّه الدعوة إلى كبار المقتدرين ورؤساء الشركات الكبرى التي تتطلع إلى تطوير مشاريع وصناعات في البلاد إلى تناول فطور الصباح معه. وبعد الرشفة الأخيرة من فنان القهوة يطلب مانديلا من ضيفه التبرع لـ «صندوق الطفولة» الذي أنشأه، وبذلك يضمن ما يشكل دعماً ملحوظاً للصندوق.

الآن مانديلا في الرابعة والثمانين من العمر ومع

ذلك لا يوقف السعي. كما أن مبادرات التكريم له متواصلة ومنها تمثال سيقام له يبلغ إرتفاعه 65 متراً يمثله باسطاً يده محبباً بإتجاه البحر، وسيكون أكبر من تمثال الحرية في نيويورك.

وهكذا يجوز القول بأنه بات لأفريقيا زعيم تاريخي مثل الزعماء التاريخيين للعرب الملك عبد العزيز وجمال عبد الناصر وحافظ الأسد يرحمهم الله، ومثل الزعيم التاريخي للهند المهاتما غاندي، والزعيم التاريخي لإيران آية الله الخميني، والزعيم التاريخي لتركيا مصطفى كمال أتاتورك، والزعيم التاريخي لفرنسا الجنرال ديغول، والزعيمين التاريخيين للولايات المتحدة الجنرالين جورج واشنطن ودوايت إيزنهاور.

وعند التأمل في السيرة الشخصية لكل من هؤلاء ولبعض زعامات أخرى من النسيج نفسه، وإن كان إشعاعها على العالم أقل، نجد أن الجوامع المشتركة متوافرة بين أشخاصها. ومن هذه الجوامع الزهد في الدنيا، والنأي عن مباحج الحياة، والإيمان بالوطن، والإستعداد للذلل من أجل القضية، ومراعاة حقوق الإنسان، واعتبار العمل للأخرة أهم من العمل للدنيا، ووضع ثوابت لمن سيواصلون بعدهم وجود الإجتهد المتأني فيها.. إنما من غير الجائز على الإطلاق القفز فوقها. من بين الجوامع المشتركة أيضاً أن إمتلاك السلطة لا يعني إستعمالها في شكل عشوائي، وإلاّ بات العقاب والإستبداد والإستهانة بالكرامات أموراً تتقدم على إصلاح الحال والتي هي أحسن.

ولا ندري لماذا لا يكون هناك بعض التأمل من جانب الذي تنهياً لهم الظروف لتسلّم مقاليد الحكم في هذا السلوك المستقيم لتلك النوعية من الزعامات التي أوردنا أسماء بعض رموزها، مع أن مثل هذا السلوك يشكل مقومات زعامة يحتاج إليها كل منهم وإلاّ فإنه يبقى مجرد حاكم عابر جاء إلى السلطة بفعل إنقلاب وغادرها بفعل إنقلاب مضاد، أو أنه جاء إلى السلطة في إطار التوريث، أو في الإطار التقليدي بمعنى ان في الدستور مادة تنص على أن نائب الحاكم يتولى المقاليد في حال نشأت ظروف إما بالوفاة وإما نتيجة وضع صحي طارئ.

وما يلفت الإنتباه أن المسألة التي نشير إليها لا تقتصر على دول دون أخرى، كما أنها لا تندرج ضمن بند الدولة الغنية والدولة الفقيرة. ولو كان الأمر كذلك لكان لدول مكتنزة مالياً أمثال اليابان زعماء تاريخيون. بل ان الزعامات التاريخية تتكون على ما يبدو في

مناخ الفقر وليس الغنى. وعند المقارنة بين أحوال أميركا جورج واشنطن وأحوال أميركا جورج بوش الأب ثم الإبن يتأكد لنا أن أميركا جورج الأول كانت من الفقر بحيث أن زعيمها زمذاك كان بالكاد يجد المال لتأهيل جنوده وإطعامهم وتأمين الكساء الثقيل الذي يقيهم شرور البرد القارس، بينما أميركا الجورجيين الآخرين بوش الأب ثم إبنه تحاول بسلاح الهيمنة والحروب التي تفتقد الى الفروسية والتقاليد المهيبة للقيادات السياسية والعسكرية من نوع قيادة ايزنهاور، تكوين زعامة تاريخية ومع ذلك لا قدرة لهما على تحقيق ذلك، وأن أقصى ما يمكنهما تحقيقه هو زعامة استبدادية من نوع زعامة ستالين وهتلر وموسوليني. كذلك فإننا عند المقارنة بين أحوال هند المهاتما غاندي وأحوال من تعاقبوا على الحكم خلال العقود الأربعة المستمرة سنواتها، يتأكد لنا أن هند المهاتما كانت من الفقر بحيث أن زعيمها غاندي استطاع بسلاح المبادئ والقميص شبه المتهالك وبيع بعض ما تدره عزته من الحليب أن يصنع زعامة تاريخية لم يتسن لكل المهرجات صنعها على رغم إكتنازهم المال.

وما يقال عن جورج واشنطن والمهاتما غاندي، يقال عن الملك عبد العزيز الذي صنع رغم الطفر المالي زعامة تاريخية، ذلك أن زمانه لم يكن زمن الطفرة المالية الناشئة عن الثروة النفطية الهائلة. وفي ظل هالات هذه الزعامة تبدو مهابة الحكم في السعودية مستقرة وتبدو المشاريع والمجمعات ذات الطابع الخيري والصحي وأحدثها ما أنشأه الأمير سلطان بن عبد العزيز بمثابة إستجابة من الأبناء والأحفاد لروحية ما أوحى به الوالد. الجد عبد العزيز.

ولن نضيف المزيد من الوقائع للتأكيد على مسألة الزعامة التاريخية وكيف تتكون، ذلك أن ما أوردناه يعطي فكرة كما أنه يوضح السلوك الذي ينتهجه الزعيم الأفريقي نلسون مانديلا الذي رأى أن عليه في ما تبقى له من العمر والصحة ليس الإستمتاع بمباهج الحكم وممارسة شأن السلطة، وإنما تعويض شعبه المعاناة التي قاساها هذا الشعب طوال السنوات التي امضاها مانديلا في سجون الأقلية البيضاء التي كانت تحكم جنوب افريقيا، والتي هي مثل الأقلية اليهودية التي إستحوذوها على فلسطين ومثل الأقلية المتصهينة التي تحتكر الدور الإستشاري في الإدارة الأميركية، وبما يجعل الرئيس بوش الإبن لا يقوم بما يمكن أن يجعله زعيماً تاريخياً بالمفهوم الإيجابي لهذه الزعامة. ونقول

ذلك على أساس أن ما يمارسه الرئيس بوش الإبن حتى الآن قد يُتَوَجَّه صديقاً كبيراً لإسرائيل وشخصاً ينظر العرب والمسلمون اليه بالكثير من الحذر وعدم الإحترام. وكيف لا تكون تلك هي نظرتهم ما دام هذا الرئيس ينظر إليهم بعيني صديقه وحليفه اربيل شارون، وما دام لا يفي بما يطلقه من وعود، وما دام مصراً على تنفيذ إجتياحه للمنطقة بدءاً بالعراق بعد أربعين يوماً على نحو ما تؤكد قارئة الفئان. وما يعزز تأكيدها أن العد العكسي بدأ بعدما رأى في الإسلام العجمي أنه الحل لمخططة الحربي وهذا الإسلام يتمثل بالزعيم التركي المفاجئ رجب طيب أردوغان الذي يزور واشنطن هذا الأسبوع بعد فتح الباب التركي الإسلامي على أميركا بمثل إتساع الباب التركي العلماني، والذي ستجيز حكومة نائبه الـ «غول» مقابل إلغاء الديون على تركيا المشاركة في شكل ما في الحرب على العراق، ويتمثل أيضاً بالأفغاني الأميركي زلماي خليل زاده الذي إرتأى بوش الإبن تعيينه «سفيراً فوق العادة لدى العراقيين الأحرار». وفي إعتقاد الرئيس بوش الإبن أن الإسلام العجمي متمثلاً بشخصي اردوغان وزلماي خليل زاده يشكل النصير والحليف له من أجل خوض الحرب، وأنه قادر - هكذا يعتقد - على القول انه بالفعل ليس ضد الإسلام ما دام أردوغان التركي معه وزلماي الأفغاني سفيره إلى «العراقيين الأحرار» وكلاهما مسلم ليس كذلك؟

وعودة الى ما بدأنا به هذا المقال لنؤكد على أن تغيب شخص مثل مانديلا الصديق للغرب وبالذات للدولتين المصيرتين على تغيير جغرافية المنطقة العربية والعبث بتاريخها وخصوصيتها وهما أميركا وبريطانيا، هو خسارة كبرى للإستقرار. ذلك أن نصيحة من هذا الرجل والتي هي في إخلاص نصائح كثيرة طالما أسداها ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز وبالذات عندما إلتقى بوش الإبن في مزرعة الأخير في «كروفورد» في تكساس، من شأن الأخذ بها أن تنقل الرئيس بوش الإبن من خانة الرئيس المستبد بالرأي والمستسلم للتتظيرات المضلّة يرميها أمامه المستشارون المتصهينون بغرض تحقيق النقلة الأكثر خطورة في القرار الأميركي، أي التسليم بإعتبار القدس عاصمة موحدة لإسرائيل، إلى الرئيس العاقل الذي يذكره التاريخ في النصف الأول من القرن الواحد والعشرين على أنه وضع العالم على خط السلامة

والإزدهار... ولم ولن يحرق الطمأنينة والحقوق والسيادات على نحو إحراق نيرون ذلك الإيطالي البشع للعاصمة الجميلة روما.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 12 ديسمبر (ك) 2002

* * *

من العرب عدا الكويت إلى أميركا عبر بريطانيا

لولا أن الأقدار شاءت أن يقع يوم الجمعة 21 يناير (كانون الثاني) 1994 حادث سيارة بالقرب من مطار دمشق للرائد باسل الأسد الذي كان في طريقه إلى فرانكفورت ويتسبب الحادث بوفاة الإبن الأكبر للرئيس حافظ الأسد، لكان الآن الدكتور بشار الإبن الثاني للرئيس السوري (الراحل) واحداً من أطباء العيون البارزين في سوريا ولكانت عيادته في دمشق مقصد من باتت عيونهم متعبة وتحتاج إلى علاج أو جراحات. ولكن الرحيل المفاجئ للشقيق الذي كان تم تأهيله على يدي والده الرئيس لكي يواصل من بعده أوجبت الترك المفاجئ من جانب بشار الأسد لكي يقطع فترة التخصص ويعود على وجه السرعة إلى دمشق حيث بدأ وعلى يدي الوالد الرئيس مرحلة تخصص من نوع آخر... هي مرحلة التخصص في شؤون الحكم وكيفية صناعة القرار ومتى يكون الحزم ضرورياً ومتى تكون المرونة وسيلة مثالية للغاية المرجوة. وعلى مدى أربع سنوات وجد طبيب العيون العائد إضطراباً من لندن نفسه وقد بات إبن مؤسسة الحكم متخلياً تماماً عن المؤسسة الطبية. بل قد يجوز القول إن هذه السنوات الأربع كانت أصعب مرحلة إنتقالية في حياة إنسان خصوصاً أن التأهيل كان يتم على يدي والد يقاسي وطأة المرض ويريد لبرنامج السياسي ألا يذوي ولتاريخه أن يبقى محفوراً في الذاكرة.

مع نضوب الزيت في السراج على نحو ما يفيد التشبيه السائر وإنتقال الأسد الأب الى جوار ربه، كان الأسد الإبن بات مكتمل التأهيل وكان واضحاً للأوروبيين وللأشقاء العرب وهم يتابعون الزيارات التي يقوم بها بشار الأسد ومن دون أن تكون له صفة رسمية أن هذا الشاب هو من سيحكم سوريا. وفي

ضوء نظرتهم هذه وما بات يتردد من معلومات عن صحة الرئيس الأب، بدأ المتابعون يضوعون على الورق ملامح سيناريو التعامل الذي سيكون مع هذه القيادة الجديدة. وبين هؤلاء المتابعين كان أهل القرار في بريطانيا، الذين رأوا في تولي الدكتور بشار ما من شأنه تصحيح سوء الفهم الذي ساد العلاقات السورية - البريطانية، وبالذات اللعبة غير النظيفة التي جعلت الأسد الأب ينفر من بريطانيا ونعني بها إقحام سوريا في عملية تجبير لطائرة ركاب إسرائيلية أراد منها «الموساد» قطع الطريق على أي تقارب ممكن بين سوريا وبريطانيا. والذي زاد من حدة النفور ذلك أن رئيسة الحكومة البريطانية مارغريت ثاتشر لم تبادر إلى تصحيح تلك المكيدة الإسرائيلية، الأمر الذي جعل الرئيس حافظ الأسد يرى أن عدم التصحيح هو بمثابة مشاركة من جانب بريطانيا في تلك المكيدة. ثم توارت الحقبة الثائشورية وجاء جون ميجور إلى الحكم لكن الرجل إكتفى بتطبيع ملحوظ للعلاقات إنما من دون أن يلمس جوهر الحذر السوري.

لكن في الوقت نفسه كانت لدى بعض صانعي القرار البريطاني وقفه تأملية أمام سر إختيار الرئيس حافظ الأسد بريطانيا لكي يتخصص فيها نجله الثاني في طب العيون وكيف أنه إختار بريطانيا ولم يختار على سبيل المثال الإتحاد السوفياتي الدولة الأكثر إرتباطاً على الصعيد الإستراتيجي عسكرياً وسياسياً بنظامه، والتي للأخصائيين في طب العيون فيها باع مشهود له دولياً. وفي إعتقاد البعض من صانعي القرار البريطاني هؤلاء أن الرئيس حافظ الأسد أراد أن يكون له الإبن الذي يفهم الإنكليز وكيف بنوا إمبراطوريتهم ويطلع ميدانياً على أصول اللعبة السياسية الدائرة بمهارة تحت ظل التاج للمملكة التي على رغم غياب الشمس عن الجزء الأكبر منها فإنها ما زالت قادرة على ممارسة أدوار في القرار الدولي لا يتقنها أحد غيرها. وما القرار 242 سوى بعض ملامح الدليل على ذلك.

لم يستكمل الدكتور بشار إستيعابه الميداني لقواعد صناعة القرار في بريطانيا، وغادر مضطراً ليعود بعد سبع سنوات رئيساً للدولة التي هي الرقم الأصعب في المعادلة الراهنة في الشرق الأوسط، وليجد نفسه أمام حرب محتملة أميركية ثانية على يدي الرئيس جورج بوش الإبن تستهدف العراق ويمثل الحرب التي إستهدفت العراق ايضاً على يدي الرئيس جورج بوش

الأب.

أيضاً إنكليزي، كون واضح القرار هو اللورد كارادون، فلماذا لا يقاتل الجيل البريطاني الحالي من أجل تنفيذ هذا القرار؟

أهم ما في زيارة الرئيس بشار أنها تمت وجاءت في أوقات عصيبة للجانبين السوري والبريطاني، فهي بالنسبة إلى بلير جاءت في وقت تبدو حكومته مرشحة للإهتزاز الذي يؤدي إلى السقوط نتيجة الانقسام الحكومي في موضوع العراق وبسبب الأجواء الناشئة عن فضيحة بطلتها زوجته شيري وباتت تُعرف باسم «شيري غيت». وطوال الأسبوع الذي سبق زيارة الثنائي المترفع بشار - أسماء وكيف أن الزوجين السوريين على درجة عالية من المثالية، كانت وسائل الإعلام البريطانية تنشر المزيد عن الثنائي البريطاني بلير - شيري الذي ألقى عليه الكثير من الشبهات نصاب أستراليا وصديقه وكيف أن هذين الإثنين أنزلا رئيس الحكومة البريطانية وزوجته من عليائهما إلى حيث باتا مادة رئيسية في صحافة الإثارة والصحافة الرصينة على حد سواء.

كما ان الزيارة جاءت في وقت تستضيف لندن مؤتمر «المعارضة العراقية» وهو أمر إقتضته الصدفة في أي حال. ولكن إنعقاد هذا المؤتمر، في اليوم الذي سبق بدء زيارة الرئيس بشار مسجلاً انها الزيارة الأولى منذ تأسيس الدولة السورية يقوم بها رئيس سوري إلى بريطانيا، لا يعني أنه لم يضع في محادثاته مع طوني بلير، المهموم بتداعيات الفضيحة الطارئة، الكثير من النقاط فوق الحروف في شأن ما سيكون عليه الوضع في المنطقة في حال أن بريطانيا لم تتصح في ما تبقى من أيام العد العكسي للحرب، الإدارة الأميركية بصرف النظر عن الخيار الحربي. وهو لم يترك رؤيته هذه مادة للحديث الثنائي بينه وبين بلير وإنما حرص على أن يقول في مقابلة أجرتها معه صحيفة «التايمس» ونشرتها عشية وصوله إلى لندن ترافقه زوجته أسماء الأخرس، التي تحمل الجنسية البريطانية والتي جاء زواجه منها بعد تعارف معها في لندن «إن الحرب على نظام الرئيس صدام حسين لن تقتصر داخل العراق وأن المنطقة كلها ستتدخل في غمار المجهول وستؤدي إلى تدفق اللاجئين وأزمة إقتصادية خانقة وستصبح الأرضية خصبة للإرهاب. ونحن نرفض زعم واشنطن أن الرئيس صدام حسين خطر على المنطقة ونرى اننا في وضع أفضل للحكم على هذا لأننا نعيش في المنطقة وليس من المنطقي أن يحدد الآخرون هل

ومن خلال التأمل في التحرك الدبلوماسي الذي سبق الزيارة التي بدأت يوم الاثنين 16 ديسمبر الجاري، يستنتج المرء أن هذه الزيارة ما كانت لتتم لو أن الرئيس السوري ليس مطمئناً إلى أنها ستحقق نتائج جيدة. كما أنه قام بها وهو مدرك أن مضيغه طوني بلير يريد من خلالها عدم إستئثار فرنسا ورئيسها جاك شيراك، الذي للغيرة منه مكان رجب في نفسه، بالعلاقة الطيبة مع سوريا والتي تتطور في إستمرار، وكان أبرز مظاهرها ان الرئيس شيراك لم يترك بعد زيارة لبنان عشية إنعقاد القمة الفرنكوفونية وبعد إختتام أعمال القمة المجال أمام التساؤلات المتعلقة بالحالة اللبنانية . السورية، فقام بزيارة لبضع ساعات إلى دمشق أتبعها بزيارة على شيء من الإفتعال بغرض التموهية للأردن. ومن المؤكد أنه لو كان روبن كوك ما زال في موقعه وزيراً للخارجية، والذي هو عملياً من بدأ التمهيد لعلاقة جديدة بين سوريا وبريطانيا، لكانت إمكانية تطوير العلاقة بين البلدين سارت في إيقاع أكثر حيوية مما هي عليه، ذلك أن الرجل أكثر إقتناعاً من الوزير الحالي جاك سترو بأهمية هذه العلاقة، ربما لأنه أكثر إدراكاً من سترو للحساسية الناشئة عن النظرة البريطانية - الأميركية التقليدية إلى رعاية الحكم السوري لـ «حزب الله» في لبنان وللمنظمات الفلسطينية الخارجة على طاعة الرئيس ياسر عرفات وسلطته الوطنية والتي تتخذ من دمشق مكاتب لها. وهذان الأمران إضافة إلى الموقف من العراق كانا محور الشق السياسي من المحادثات التي لم تكن سهلة على الإطلاق بين الرئيس بشار الذي يرى أن «حزب الله» يقاوم حسب الأصول من أجل أن يستعيد لبنان أرضاً محتلة وأنه لا يقوم بأي عمليات داخل إسرائيل، أما المكاتب الفلسطينية فإنها لأغراض إعلامية وأن الحل الوحيد لإقفالها في دمشق هو في تأمين عودة الفلسطينيين إلى ديارهم وتمكين الشعب الفلسطيني من أن تكون له دولته وعاصمتها القدس. وعدا ذلك فإن في البال السوري سؤالاً برسم الإنكليز يجوز الافتراض بأن الرئيس بشار طرحه في صيغة أو أخرى وهو: ما دامت مأساة فلسطين والفلسطينيين سببها إنكليزي، أي وعد وزير خارجية بريطانيا أرثر بلفور للصهيونية، فلماذا لا ينهي الجيل البريطاني الحالي هذه المأساة؟ وما دام القرار الدولي لإنهاء الإحتلال الإسرائيلي يوم 5 يونيو (حزيران) 1967 لبعض الأراضي العربية هو

كان جني الخيرات وإذلال الشعبين هو الأسلوب المتبع... إلى أن قيّض الله للشعبين القدرة على المقاومة حتى نيل الإستقلال.

ولأن دول الغرب اعتادت ما نشير إليه، فإن الأوروبيين ليسوا مرحبين بانتساب دولة مسلمة مثل تركيا إلى إتحادهم، ليس فقط لأنها مسلمة ولأن سبعين مليون تركي يشكّلون سلاحاً فاعلاً في أي إنتخابات أوروبية، وإنما لأن الخصوبة التركية نشيطة وإمكانية تعدد الزوجات مشروعة، وهذا يعني أن تترك أوروبا قد يحدث خلال نصف قرن بحيث يصبح الأوروبيون مجتمعين أقلية كاثوليكية واثوذكسية وبروتستانتية امام أكثرية مسلمة. وتزايد الخصوبة يعني أن يأخذ التركي الفقير نسبياً الضمانات الصحية والإجتماعية من طريق الأوروبي الميسور الحال عموماً. أي أن قاطفي الخيرات هذه المرة لم يعودوا الأوروبيين الذين طالما حلّبو البقرات العربية والإسلامية حتى آخر نقطة في الضروع المكتنزة حليباً دسماً.

ولقد اثبت الأوروبيون، بإنزعاج بعض أصحاب القرار في دولهم من إنتساب تركيا إلى الإتحاد الأوروبي، أنهم من ذوي النزعات العنصرية، وهذا معناه أنه في حال إنتقال تركيا من «قاعة الإنتظار» إلى قائمة المنتسبين فانها ستصبح مثل الخروف الأسمر في القطيع الأشقر، وسيكون الضيق منها واضحاً في أسلوب التعامل. بل إننا نخشى في هذه الحال على إخواننا الأتراك من أن يصبحوا في هويتهم المستجدة غرباء يتعامل معهم الأوروبي الأشقر على نحو تعامل الأميركي الأبيض مع الأميركي الأسود في خمسينات القرن الماضي في الولايات المتحدة. وفي حال حدث ذلك فإن التركي سيد نفسه داخل المجتمع الأوروبي الجديد غير مرحّب به ولا حماساً لتسهيل عملية الإنصهار معه.

وقد يقال ان العلاقة التركية - الأوروبية جيدة وهناك إحتكاك يومي من جانب الأوروبيين بالأتراك وهذا يعني ان الصورة المستقبلية المحتملة القائمة يغلب عليها التشاؤم. وهذا ليس صحيحاً ذلك أن الإحتكاك المشار إليه هو إحتكاك سياحي بمعنى أن الإقبال الملحوظ من جانب الأوروبيين على تمضية الإجازات في إسطنبول وبعض المدن التركية لا يؤشّر إلى القبول بالإنصهار، ولأن شغل الأوروبيين بالرقص الشرقي التركي وبأطياب المأكّل في المطاعم والمرباع الإسطنبولية والإقامة على ضفاف البوسفور شيء،

شيء ما يشكل خطراً أم لا على المنطقة». وفي هذا الرأي بدا الرئيس بشار كمن يؤكد قول مندوب بريطانيا لدى مجلس الأمن جيريمي غرينستوك «إن موقف بريطانيا يقوم على عدم وجود أساس في ظل القانون الدولي لتغيير النظام في أي دولة لأن النظام لا يعجبك». وبدا أيضاً كمن يقول لأميركا ولإنكليز من خلال الصحيفة البريطانية الوقورة: أي مؤتمر هذا تستضيفون، وأي تشجيع للعنوان تمارسون، وأي ود مع العرب والمسلمين تريدون. وبدلاً من هذا كله ساعدوا على إيجاد حل للقضية الفلسطينية وضعوا حداً لهذا الإنحياز المعيب لإسرائيل وسترون أن العرب والمسلمين هم خير أصدقاء للغرب.

إن الرئيس بشار بدا في الشق العراقي من زيارته إلى بريطانيا، وبالذات في قوله في المؤتمر الصحافي الذي عقده بعد محادثاته مع بلير قبل ظهر الإثنين الماضي أول أيام الزيارة «من يبحث عن الحرب كهدف هو مريض نفسياً».. إن الرئيس بشار بدا يمثل رأي العرب من المحيط إلى الخليج في ما تفعله الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية وتدفعهما في هذا الإتجاه الشرير لإسرائيل، وذلك لأن فتح المجال أمام إستبدال النظام معناه أن تكون هنالك سابقة ويصبح بموجبها إستبدال الأنظمة بمثل إستبدال قطع الأثاث في المنازل وهذا لا يجوز... إلّا اذا تم الأخذ بمبدأ لكل قاعدة إستثناء.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 18 ديسمبر (ك) 2002

* * *

الخروف التركي الأسمر

في القطيع الأشقر

إعتادت دول الغرب في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين أن تقطف خيرات الدول ذات الثروات الطبيعية من خلال إستعمارها لهذه الدول. وإعتادت هذه الدول مقايضة النفوذ أو الإستعمار. ولنا في ما حدث بين بريطانيا وفرنسا المثال على ذلك حيث أن الدولتين اللتين كانتا صاحبتيّ شأن زمنذاك أبرمتا إتفاقاً تعهدت بموجبه فرنسا لبريطانيا بعدم التعاطي في الشأن المصري مقابل أن يستأثر الفرنسيون بالجزائر. وفي الحاليتين

تحول دونها الثقافة والوعي. لكن في الوقت نفسه أن إنتساب تركيا بملايينها السبعين إلى الإتحاد الأوروبي من شأنها في الوقت نفسه أن تحل معضلة العصر وهي تعايش الديانات الثلاث في بوتقة إتحادية وهذا بدوره سيزيل مع الوقت الحذر المتوارث الناشئ في النفوس حول أن التعايش الديني المسلم - المسيحي . اليهودي هو دائماً مثل مجاورة عود الكبريت لبئر النفط.

وتلفت الإنتباه في مسألة إنتساب تركيا إلى الإتحاد الأوروبي تلك الحماسة المنقطعة النظير من جانب الإدارة الأميركية لحصول هذا الإنتساب وعلى وجه السرعة. ومن دلائل هذه الحماسة الإتصالات التي أجراها ويواصل اجراءها الرئيس جورج بوش الابن مع بعض القادة الأوروبيين وبالذات الرئيس جاك شيراك والمستشار الألماني غيرهارد شرودر بغرض إزالة تحفظاتهم. ويحترار المرء في هذه الحماسة وهل هي من أجل مصلحة تركيا وحباً بها وحرصاً على تطوير أوضاعها، وهل انها نتيجة طبيعية أفرزها الفوز المبهر والمفاجئ لـ «حزب العدالة والتنمية» الذي هو النموذج المرغَّب به من جانب أميركا للإسلام الذي يمكن التعامل معه. وسبب الحيرة أن الإدارة الأميركية تفعل ذلك وفي الوقت نفسه تكاد تخنق أنفاس بضعة ألوف من المسلمين الذين إستوطنوا المدن الأميركية وعندما ذهب بعضهم إلى دوائر الهجرة لتجديد إقاماتهم فوجئوا بإلقاء القبض عليهم والتحقيق معهم، وكل ذلك ضمن أجواء من الشك بهم وإعتبار كل واحد منهم اهرباً حتى يثبت العكس.

ومن الجائز الإفتراض أن هذا الحرص من جانب الإدارة الأميركية على إدخال الخروف التركي الأسمر في القطيع الأوروبي الأشقر سببه الخوف من لحظة مباغته تحدث بموجبها صحوه تركية عارمة ويقرر بموجبها التركي أنه مسلم في الدرجة الأولى وأن عليه الخروج نهائياً من شرقة الإزدواجية وممارسة كل أنواع الضغوط على حكومته وجنرالات مؤسسته العسكرية لكي يهتموا بأمتهم الإسلامية، وهذا يعني إنهاء هذه العلاقة التي لا تنمّر غير الحرام مع إسرائيل والتشاور مع بني قومهم الذين تربطهم بهم أواصر الدين، فلا تبقى تركيا جرماً دائراً في الفلك الأميركي، ولا تبقى سمعتها على النحو التي هي عليه بمعنى أنها الحيثية والغطاء لأي عدوان إسرائيلي أو أميركي على الجار العربي - العراقي الآن وسوريا في زمن ليس بالبعيد.

والقبول بالتركي كأخ في الأوروبية مثل أخوة العربي للعربي في العروبة شيء آخر. كذلك قد يقال ان الإنسجام بين البريطاني والفرنسي وبين الفرنسي والألماني وبين الألماني والتركي وبين كل أوروبي وآخر كي لا نكثر من الشواهد والأمثلة، قائم وأنه لا خوف من حدوث مكاره تركية - أوروبية، فضلاً عن أنه إذا كان البريطاني أو الفرنسي غفراً للألماني أوزار النازية وغفراً من جانب آخر للإيطالي الأوزار الموسولينية ويتعايش الجميع على أحسن ما يكون عليه التعايش تحت سقف الخيمة الإتحادية الأوروبية، فلماذا يجب ألا يحدث هذا التعايش مع الأتراك الذين ليس في ذمتهم مآخذ أوروبية عليهم؟ وهذا صحيح إلى حد ما ومن الجائز التسليم به إنما قبل العملية الترويجية التي إستهدفت نيويورك وواشنطن يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2000، وما إستتبع هذه العملية من تداعيات متواصلة حتى الآن ومستمرة حتى إشعار آخر. لكن الأمر يختلف بعد هذه العملية وربط الإرهاب ظلماً بالإسلام وبحيث أن الإعلام الأميركي المتصهين والإعلام الأوروبي المتأثر نسبياً بمصالح «اللوبيات» اليهودية المنتشرة من قبرص إلى روسيا لعب دوراً بالغ السوء في زرع مشاعر الحذر من جانب أوروبا المسيحية بكل ما يمت إلى الإسلام بصلة. وفي ضوء هذه النظرة المقيتة سيكون تعامل الأوروبي المسيحي مع أخيه في الأوروبية التركي المسلم. وقد يصل الأمر إلى حد أن إنتساب تركيا إلى الإتحاد الأوروبي معناه أن تحدث هجرات متواصلة من جانب تركيا وبالذات من فقرائها الباحثين عن فرص العمل الى مناطق كثيرة في أوروبا وبحيث يفوق وجودهم في هذه المناطق الوجود الراهن للأتراك في بعض المدن الألمانية. وهذه المرة لن يكون الوجود كما حاله في الماضي، بمعنى أنهم باتوا مواطنين أوروبيين ولهم حقهم مثل حق أي أوروبي. ولأنهم شعب متدين فانه ستكون لهم مساجدهم في أي منطقة يسكنونها، ولن يكون في إستطاعة قانون بلدي أن يمنعهم من ذلك حيث أن بناء المسجد في هذه الحال يصبح حقاً مشروعاً.

وما يخشاه المرء من جرأ ذلك هو حدوث مواجهات تبدأ صغيرة ثم تأخذ طابع الحرب الأهلية على نحو ما إشتهرت به أيرلندا مع أن الطرفين مسيحيان. وتلك مسألة لا علاقة لها بالثقافة والتطور، ذلك أن الحرب الأيرلندية تؤكد أن الحروب الأهلية لا

ومثل هذه الصحوّة التي نشير إليها ليست بعيدة الاحتمال، بدليل الصحوّة الأخيرة المتمثلة بترجيح الرأي العام التركي كفة الإسلاميين وتمكينهم من الفوز المبهر الذي حققوه. وهذه الحماسة الملحوظة في الإتجاه الذي نشير إليه لم تأت نتيجة إطمئنان المواطن التركي إلى أن «حزب التنمية والعدالة» سيُقرّب له الخطى من أوروبا وإنما لإعتقاد منه بأنه سوف يضع حداً لهذا الإندفاع الرسمي التركي في إتجاه إسرائيل وهذا الإستسلام بالكامل للمشينة الأميركية. لكن الذي تلا الفوز إختلف تماماً عما سبقه، حيث أن الإسلاميين بطبعهم الأردوغانية ظهروا عن قناعة، أو لأن مقتضيات اللعبة السياسية تفرض ذلك، أقرب إلى العلمانية والأتاتورية والغرب أكثر من قريبهم الى ما تريده شرائح الرأي العام التركي.

وفي تقدير المتابع للتطورات التركية فإن تركيا على موعد مع مفاجآت أكثرها مبعثاً للسرور ليس ساراً على الإطلاق. فإذا طالّت الإقامة الأردوغانية في «غرفة الإنتظار» فإن الرأي العام الإسلامي في تركيا سيجد من يحاول جذبه خصوصاً إذا نفّذت إدارة بوش الإبن وعيدها للعراق معتبرة دون وجه حق أنه خرق القرار 1441 على نحو حملة الترويج لهذه المخالفة التي بدأها يوم الخميس الماضي جنرال الدبلوماسية الأميركية كولن باول والتي لا تقرها بقية الدول الأعضاء في مجلس الأمن، وأنه نتيجة لهذا الخرق فإن كبس الأزرار في الحرب الالكترونية يجب أن يبدأ، خصوصاً أن هذا المخطط متفق عليه بين كواسر الإدارة الأميركية وإسرائيل ولا خلاف عليه من جانب بريطانيا وقلّة عربية. وفي حال حدث ذلك وإرتضت قيادة حزب «العدالة والتنمية» مشاركة تركيا في الحرب وعلى نحو الخطط المرسومة والمتفق عليها بين جنرالات «البنتاغون» والجنرالات الأتاتوريين، فهذا معناه أن رجب طيب أردوغان إنشق عن الإسلام الأربكاني من أجل هذه اللحظة فقط. وستكشف الأيام ما قد يبدو قوله الآن عن الحالة التركية بأنه نوع من الظلم والتجني... أو على حد بيت الشعر العربي الخالد: ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً. والله أعلم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 26 ديسمبر (ك) 2002

* * *

المقالات من يناير 2003 إلى ديسمبر 2005



تحالف غير مقدس

لنتشويه الرموز الدينية

ماذا دهاهم في بعض دول الغرب لكي تصل الحال بهم إلى التشكيك بالمقدسات؟ وما سر هذا الإنحدار في التعامل مع الأمور الدينية من دون التهيب، وأحياناً من دون اللياقات في الحد الأدنى؟

قبل أيام، وفي نطاق الإحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح، عرضت محطة «بي. بي. سي» فيلماً وثائقياً يشكك في أن مريم كانت عذراء زرقاء العينين، ويشكك أيضاً في ولادة السيد المسيح في مزود في بيت لحم. وذهب الفيلم بعيداً، حيث أنه نسب إلى مؤرخ من القرن الثاني الميلادي مقولة يزعم فيها أنها تعرضت للإغتصاب على يد قائد روماني. كما أنه ركّز على تصوّر آخر للأحداث بشكل أكثر على إفتراض أن مريم كانت فتاة غير متعلمة في عمر المراهقة، سوداء الشعر تكذ في العمل وأنها ربما حملت ببسوع قبل الزواج المخطّط له من يوسف.

خطورة مثل هذه الإفتراضات أنه يتم تضمينها أفلاماً يجري بثها ويشاهدها الملايين. ومن المؤكد أن الصهيونية ليست بعيدة عن هذا التشويه، ذلك أنه عندما يتم زرع مثل هذه الشكوك في المقدسات المسيحية، ويتزامن ذلك مع حملة التجريح التي تستهدف الإسلام والمسلمين، ويتم ذلك بمساندة حكام وحكومات مسيحية و ببعض النظم من جانب مسؤولين عرب ومسلمين لحملة التجريح تلك، فإن المرء لا يعود في تأكيده المشار إليه مبالغاً.

نحن نأخذ في الإعتبار أن هوس الإعلام المثير في دول الغرب عموماً يتفاقم، ويصل في بريطانيا على سبيل المثال إلى حد تشويه الرموز الجميلة، ومنها الأميرة ديانا، التي نشروا عنها أنها «عاهرة»، وقالوا أيضاً أن ابنها الثاني هاري، قد يكون ثمرة علاقة محرّمة وليس ابن ولي العهد الأمير تشارلز، ونشروا أيضاً أن الحسم في هذه المسألة يتطلب فحص شعيرات في رأسه لإستخدامها في التعرف على التركيب الوراثي لحمضه النووي. أما لماذا نأخذ ذلك الهوس في الإعتبار، فلأن إجتياحات إستهدفت أصول التربية وصلت إلى حد إنحسار المثل، فبات النيل من المقدسات أمراً مبرّراً ويدخل في نطاق المحللات مع أنه من أشد المحرمات. كما بات زواج المثليين

مشروعاً ويكاد يتم سن قانون خاص بذلك في بعض الدول يشبه في منطلقاته المحاكم الروحية وقوانين الزواج المدني الطبيعي. بل أن الاجتياحات وصلت إلى حد أن المغفرة يجب أن تكون واردة في التقاليد الكنسية بعد الآن لرجال دين إغتصبوا فتية أو أغروهم... وهكذا.

أما الذي لا يمكن أخذه في الإعتبار فهو أن تصل الحال بهؤلاء الذين يريدون إصلاح مجتمعاتنا وتصحيح مفاهيمنا وتقاليدنا التربوية، إلى حد إعادة صياغة لمضامين الكتب السماوية تقوم على التشكيك. ومن الطبيعي أن يستبد القلق بالمسلم من مفاجأة قد تحدث ذات يوم ويكون مصدرها طرف مسيحي مشكّك على نحو التشكيك الواضح في الفيلم الوثائقي التلفزيوني الذي بثته الـ «بي. بي. سي». وفي تلك المفاجأة التي نشير إليها دعوة المسلمين إلى إعادة النظر في «سورة مريم» على أساس أن هذه السيدة ذات الوهج الرحماني تخص المسيحية بالدرجة الأولى، وأنه ما دامت نظرة المسيحيين إليها تغيّرت، على نحو ما بدأ فيلم الـ «بي. بي. سي» يمهّد له، فمن الطبيعي أن يعيد المسلمون النظر، أي بما معناه لا تعود مريم التي «إنبتذت من أهلها مكاناً شرقياً»، بمعنى إعتزلت وإنفردت، تقول بعدما جاءها جبريل عليه السلام «وتمثل لها بشراً سوياً» انها تعود بالرحمن منه ان كان تقياً ويقول لها «إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً»، بمعنى الطهر، وتستهنج ذلك قائلة «أنّى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً» ويأتيها الرد بأن إرادة الله هي الأقوى وأنه سبحانه وتعالى سيجعل من الوليد الزكي الطاهر «آية للناس». وعلى أساس هذا الأمر المقضي إنتبتذت المكان القصي وعندما فاجأها المخاض وهي إلى جذع نخلة تمنّت الموت قبل أن يحدث ذلك، لكن جاءها النداء «ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً»، أي غلاماً سامي القدر، وأن ما عليها سوى هز جذع النخلة لكي تسقط حبات الرطب الطرية لكي تأكل وتقيت مولودها الذي أشارت إليه أن يتكلم لإسكات بني قومها، الذين رأوا في ما فعلته ما هو منكّر، ولأموها لأن والدها «ما كان أبوك أمراً سوء وما كانت أمك بغياً»، مضيفين بأنهم كيف يكلمون «من كان في المهد صبيّاً». وما كان من المولود إلا أن أنهى الجدل والتشكيك بالقول «إني عبدُ الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت

حيًا. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً. والسلام عليَّ يوم ولدْتُ ويوم أموت ويوم أُبعثُ حيًّا...».

تلك هي مريم المباركة التي نخشى من أن تمتد السنة مشوهي صورتها الجميلة في المخيلة وفي الروح لتتال المزيد من طهرها، وهذا ابنها عيسى «قول الحق الذي فيه يمترون» بمعنى التشكيك والمجادلة بالباطل. وما يلفت الإنتباه أن هذا التشكيك يتولاه مسيحيون بينما الخشية مصدرها مسلمون، وهذا ناشئ عن عمق إيمان المسلمين والحفاظ بقلوب مؤمنة على الرموز التي وردت في سُور القرآن الكريم، وإحاطة هذه الرموز بخشوع لا يجيز للإجتهاادات والإفتراءات إقتحام هذه الرموز. وما يثير الدهشة هو أن تعامل بعض الفنيين والسينمائيين المسيحيين مع هذه الرموز، ومن بينها مريم عليها السلام، يحدث في وقت يحتاج العالم المسيحي إلى مساحة رحبة إيمانية لعل وعسى تنشأ عنها عودة إلى الضمير والأخلاق ونبذ العدوان والحروب، من نوع الحرب التي يصر على خوض غمارها على العراق كواسر البيت الأبيض وبعضهم على درجة من التصهين. كما أن ما يثير الدهشة هو سكوت العالم المسيحي على إحتلال إسرائيل للمقدسات، ومن بينها مهد السيد المسيح عليه السلام، وكيف أن قادة هذه الدول ساكتون على بقاء هذه المقدسات تحت نير الإحتلال، ومتفهمون أيضاً، إستهتار الحكومات الإسرائيلية بمشاعر المسيحيين ومقدساتهم، وكيف أن إستهتار الحكومة الشارونية وصل إلى حد إذلال هذه المقدسات. وإذا كانت الدهشة من قادة دول العالم العربي وإخوانهم القادة المسلمون غير العرب كبيرة، لأنهم مقصرون في أداء الواجب. الفريضة لإنقاذ المسجد الأقصى وسائر المقدسات في مدن فلسطينية أخرى من الأسر الصهيوني، فإن الدهشة أكبر بكثير من مواقف قادة دول العالم المسيحي المتخاذلة والتي تبدو أحياناً وكأنما هي بسكوتها على ما تفعله الحكومات الإسرائيلية بالمقدسات، وبالات مهد السيد المسيح، شريكة في المؤامرة. والدهشة أكبر لأكثر من سبب، ذلك أنه إذا كانت للمسلمين مكة والمدينة في حرز حريز ومن أجل ذلك فإن الحماسة لتحرير الحرم الثالث على درجة من البطء غير المفهوم وغير المقبول في أي حال، فانه ليس لدول العالم المسيحي بقعة إيمانية سوى الأماكن المقدسة في فلسطين. أما الفاتيكان وسائر مقار البطاركة ومعها الأديرة فليست سوى أماكن للصلاة لا

تغني زيارتها عن الحج إلى الأماكن المقدسة. كما أن الدهشة أكبر بكثير لأن دول العالم المسيحي بدءاً من اليونان الارثوذكسية مروراً بفرنسا واسبانيا وإيطاليا، وهي قلاع كاثوليكية، مروراً أيضاً ببريطانيا التي هي قلعة البروتستانتية، وروسيا القلعة الأرثوذكسية الأخرى، وصولاً إلى أميركا البروتستانتية - الكاثوليكية، وبعض قلاع الكاثوليكية في أميركا الجنوبية... ان الدهشة اكبر بكثير لأن هذه الدول تملك من الشأن السياسي والقوة العسكرية ما من شأنه اجبار إسرائيل على الإنصياع للإرادة الدولية وسحب ضباعها الشاردة من الأراضي الفلسطينية المحتلة، وترك المقدسات تنعم بالسكينة لا يلوّثها أولئك الشارونيون الشاردون المارقون المستهينون بكل القيم وكل القوانين والقرارات الدولية ومنها القرار 242، الذي صاغته الدولتان الأكثر أهمية في العالم المسيحي وهما الولايات المتحدة وبريطانيا.. إلا إذا كان إقتصار الصياغة على قلعتي البروتستانتية في العالم المسيحي، ومن قبل ذلك وعد بلفور الذي جاء بمثابة هدية من مملكة البروتستانتية (بريطانيا) إلى الصهيونية، هو عبارة عن تحالف ضمني بين البروتستانتية والصهيونية ضد بقية مسيحيي العالم وضد الإسلام. وما نشهده اليوم هو وقوف هاتين الدولتين إلى جانب إسرائيل ووقوفهما ضد أي محاولات تستهدف تسهيل العملية السلمية ووضع حد للنزاع الفلسطيني - الإسرائيلي يقود إلى قيام الدولة الفلسطينية، وذلك لأن نجاح هذه الخطوات سيجعل إسرائيل تتسحب وتتحرر المقدسات الإسلامية والمسيحية في أرض فلسطين، وهو ما لا يريده قطبا البروتستانتية في العالم: الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية. وتدلّياً على أنهما لا تريدان، إصرارهما على وضع اليد على المنطقة بدءاً بحذف العراق من الحساب بالإخضاع السلمي أو بالحرب الماحقة.

وفي الإطار نفسه، فإن بث الفيلم الوثائقي الذي يستهدف تشويه الصورة الجميلة لمريم العذراء على نحو ما هي هذه الصورة مطبوعة في مخيلة المؤمنين مسيحيين ومسلمين على حد سواء، من تلفزيون القلعة البروتستانتية بريطانيا، يجعل المرء يفسر المواقف السياسية الخجولة أحياناً والمخجلة في بعض الأحيان للحكومة البريطانية. ويجعله يفسر أيضاً خصوصية هذا الحلف البروتستانتية البريطاني - الأميركي الذي أحدثت فيه الصهيونية أخطر الإختراقات، عندما

جعلت من هاتين الدولتين السند لإسرائيل وعدم الضغط عليها للإسحاب من أراضي فلسطين بموجب القرار 242، وفي السكوت عليها وهي ترتكب في حق الشعب الفلسطيني جرائم لا تُغتفر، وفي التحالف معها لضرب العراق شر ضربة كي لا يعود نظامه يحلم بإسترجاع بيت المقدس.

ويبقى القول إننا في نظرتنا هذه نستند إلى المواقف وإلى الممارسات والأفعال وإلى حقيقة بديهية، وهي أن البروتستانتية السياسية باتت أسيرة أهواء الصهيونية وباتت الكاثوليكية تؤتمّر بعدما كانت تأمر.. أو من المفترض أن تأمر ما دامت هي الأكثرية في العالم المسيحي وما دام الفاتيكان هو المرجعية الأهم. كما أن الارثوذكسية باتت محايدة أو شبه معطلة. ولو كان الأمر عكس ذلك لما كان إرتضى العالم المسيحي أن تحل ذكرى الميلاد سنة بعد سنة والمقدسات في الأسر، بينما القوة في يد دول مسيحية يهملها أن يكون الديك الرومي مطهياً على أفضل طهي، ويكون بابانويل مستمراً في نزوله الأسطوري من المداخل حاملاً الهدايا، وتكون الشجيرات في البيوت والمكاتب مضاءة والزينة في الشوارع على أكمل وجه. أما أن يكون مهد السيد المسيح في الأسر فتلك مسألة فيها نظر أزاء إصرار الشعب الفلسطيني على أن تكون له دولته وبعض وطنه... وتلك هي المسألة التي لا تُغتفر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 1 يناير (ك) 2003

* * *

الإلتفاتة التركية المترتبة

نحو الجار العربي

سيبقى الأمر التركي يشغل البال العربي إلى أن يقرر الحكم الجديد تصحيح مسار العلاقة مع الجيران العرب. وتلك مسؤولية كبرى تقع على عاتق هذا الحكم، كون النسيج الذي يتكون منه كيانه يختلف عن نسيج الذين سبقوه. كما أنه من منطلق إسلاميته يبدو مطالباً بتمتين الروابط مع العرب، اخوانه في الدين، وبحيث يشعر هؤلاء بالطمأنينة الغائبة عنهم منذ أن غاصت تركيا في سراديب علاقة تثير الشبهات مع إسرائيل.

بعد فوز حزب «العدالة والتنمية»، إفترضنا أن هذا الحزب صاحب الرؤية الإسلامية المستتيرة سيحقق ما لم يتحقق في مسيرة العلاقات العربية - التركية، وأن زعيم هذا الحزب طيب رجب أردوغان لا بد سيلجأ إلى صيغة التصحيح. وإزداد يقيننا بعدما إختار الحزب عبدالله غول ليكون رئيساً للوزراء، وذلك لأن التهمة التي سبق توجيهها إلى أردوغان وصدر عليه بخصوصها، عام 1998، حكم قضائي، تتعلق بـ «التحريض على الحقد الديني»، حالت دون خوضه الإنتخابات. والذي عزز هذا اليقين، أن اردوغان سيكون، ما دام لن يشغل منصب رئيس الوزراء بسبب التهمة المشار إليها، متفرغاً للقيادة من وراء الستار، وسيكون لديه المتسع من الوقت للتصحيح المطلوب. كما أن اليقين إزداد بعدما أعلن عبدالله غول عن تشكيل الحكومة الإسلامية الأولى في تاريخ تركيا الحديث، وإختار لمنصب وزير الخارجية الدبلوماسي المتمرس بشار ياكش، كونه خبيراً في الشؤون العربية، ويتقن لغة الضاد إلى جانب الانكليزية والفرنسية، وسبق له أن عمل سفيراً لدى المملكة العربية السعودية ومصر، بعدما عمل مستشاراً في السفارة التركية في دمشق. وهو قبل أن يصبح عضواً مؤسساً في حزب «العدالة والتنمية»، كانت رشحته بلاده في العام 2000، لمنصب الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، لكنه إنسحب من السباق لأنه لم ينجح في الحصول على الدعم الكافي كي يتبوأ هذا المنصب في المنظمة التي تضم 57 دولة. ومثل كفاءة كهذه تحتاجها بالفعل العلاقة العربية - التركية، وقد لا يتوافر هذا الظرف بسهولة، حيث أن الحكومة إسلامية والرجل صاحب خبرة في الشؤون العربية، ولا بد أنه يقدر كثير التقدير الحساسة المتأصلة في النفس العربية الناشئة عن العلاقة التركية - الإسرائيلية المبالغ في ترابطها، وكيف أن هذه العلاقة كانت في إستمرار على حساب الجار العربي تشكل تهديداً له. أو فلنقل انها كانت وما زالت في إستمرار بمثابة الشوك الذي يدمي في الخاصرتين السورية والعراقية.

بدل الإلتفات نحو الجار العربي إنشغل أردوغان بحاله من جهة، وبالسبيل التي تحقق له ترؤس الحكومة، وهذا لن يحدث إلا في حال إجراء تعديل دستوري يجاز له بموجبه خوض إنتخابات فرعية ستأتي نتیجتها بالتأكيد لمصلحته، هذا إذا هو لم يفز بالتركية، لأن أحداً لم يرشح نفسه ضده. ومن جهة

بضعة أسابيع من إستحواذه على مقاليد السلطة والمسؤوليات، أعطى الضوء الأخضر لمن يريد رمي الناصرية وعبد الناصر بالحجارة اللفظية.

لكن اردوغان، على ما يبدو، أكثر ادراكاً لأصول اللعبة ويعرف أن المقاعد الـ 363 التي نالها حزبه في الانتخابات يمكن أن تجد من يخطفها في حال ذهب بعيداً في مسألة التنصل من إسلاميته على نحو قوله في مقابلة صحافية لاحقة: «إننا لسنا حزباً يرتكز على الدين. لقد حصلنا على أصوات من كل قطاعات المجتمع ومن كل الأطراف وهذا كان قصداً، ولا يمكن لأي أحد أن يطلق علينا إسم حزب ديني أو حزب يرتكز على الدين، نحن الحزب الأقوى والحزب الوحيد في يمين الوسط...».

بالإضافة إلى إجلال الأتاتورية بغرض تطمين الجنرالات إلى أن الأردوغانية ليست أربكانية، إنشغل الإسلاميون المنتصرون، بعدما شكلوا حكومتهم، بطرق الباب الأوروبي معتمدين في ذلك على دعم الإدارة الأميركية لهذا التوجه، من دون أن يتنبهوا إلى أن هذا الدعم عنصر معوق لهم أوروبياً ومكلف داخلياً، ذلك أن الحذر الأوروبي من هذا الدعم كان واضحاً، وتعلت أصوات إلى جانب الهمسات في كواليس الإتحاد الأوروبي ترفض المنطق الأميركي الذي يرى توسيع حدود أوروبا بحيث تشمل تركيا، على أساس أن ليس في صميم التفكير في إنشاء الإتحاد الأوروبي ما يشترط أن تكون الدولة المنتسبة إليه مسيحية. وكان مثيراً للدهشة رفض رئيس فرنسا الأسبق فاليري جيسكار ديستان فكرة إنتساب دولة مسلمة مثل تركيا، تعداد سكانها حوالى سبعين مليون نسمة، لأن ذلك قد يعني، على المدى البعيد، «نهاية الإتحاد الأوروبي». وقد تسببت هذه الاصوات وتلك الهمسات في تأجيل البت في مسألة إنتساب تركيا إلى الإتحاد الأوروبي سنتين، والنظر في قبولها عضواً إسلامياً وحيداً داخل الإتحاد في حال كان هنالك تحسن جوهري في مسألة حقوق الإنسان في تركيا. وقد ساعدت زيارات قام بها أردوغان إلى بعض الدول الأوروبية، فضلاً عن لقاءات ثنائية تركية - أوروبية من جهة وتركية - أميركية في أنقرة وفي واشنطن من جهة أخرى، على تهدئة المخاوف الأوروبية. لكن البال التركي إستمر على إنشغاله من دون الإلتفات نحو الجار العربي. ثم بدأ الضغط الأميركي على إسلامي تركيا الجدد، أو بالأحرى على «تركيا الأردوغانية»، من أجل أن تكون

أخرى يريد إدخال الطمأنينة إلى نفوس جنرالات المؤسسة العسكرية كي لا يفعلوا به ما فعلوه من قبل بنجم الدين أربكان. وهو مقدمة لذلك، حرص عندما أسس مع آخرين حزب «العدالة والتنمية» قبل ثمانية عشر شهراً من الانتخابات التي جرت منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي، على التأكيد بأن حزبه إسلامي إنما ليس إمتداداً على الإطلاق لحزبي «الرفاه» و«الفضيلة»، وأنه هو شخصياً ليس تلميذاً لنجم الدين أربكان زعيم ذلك الحزب، الذي أسقطه الجيش في إنقلاب أبيض عام 1997. وزيادة في التأكيد، تعامل أردوغان مع الذكرى الرابعة والستين لوفاة مصطفى أتاتورك رمز العلمانية، كما لو أنه ليس زعيماً لحزب إسلامي إستحوذ في الانتخابات على 363 مقعداً من أصل 550، وإنما هو يتزعم حزباً علمانياً متحالفاً مع المؤسسة العسكرية التي لها الكلمة الفصل في الحكم التركي، ولا تزال ماثلة في الذاكرة تصريحاته الأولية التي تلت الفوز المبهر لحزبه في الانتخابات، وهو فوز تزامن مع حلول شهر رمضان المبارك، ومنها قوله «إننا لسنا ضد الغرب والعلاقة مع أوروبا، وحزبنا ليس إسلامياً وإنما حزب محافظ ويعارض ضرب العراق...». كما لا تزال ماثلة في الذاكرة مشاركته اللافتة في الإحتفال بإحياء تلك الذكرى، وكيف أنه قال كلاماً خلاصته أنه يسير على نهج أتاتورك. وبدأ قوله «إن إلزامنا المتين من جانب أتاتورك ومبادئه سيكون مرشداً لبناء تركيا حديثة، وإنني أرغب في التشديد على تصميمنا من أجل تعميق كل عناصر الإرث الذي تركه لنا القائد العظيم...». بمثل قول الرئيس الراحل أنور السادات عندما وقف خطيباً في البرلمان الناصري قبل دقائق من إعلان «مبايعته» رئيساً للجمهورية خلفاً للرئيس المتوفي جمال عبد الناصر، وقال مخاطباً نواب المجلس وبكثير من التأثر، وبعدما إنحنى أمام تمثال لسلفه: «لقد جئت إليكم على طريق عبد الناصر وجئت بوثيقة واحدة هي بيان 30 مارس أودعها مجلسكم وأمشي قائلاً لكم: هذا برنامجي وهو برنامجي أيضاً لأنه إرادة الشعب. ولأنه ليس بمقدوري ولا بمقدور أي شخص أن يتحمل ما كان يتحمله عبد الناصر، فانه من الضروري إعادة توزيع المسؤوليات، ضماناً لأداء الأمانة كما يجب أن تؤدي الأمانة ووفاء لحق الشعب وتكريماً لذكرى قائده...». ومعروف أن كلام السادات كان تكتيكاً بغرض إحتواء المد الناصري بدليل أنه بعد

لن يستمر، حليف الإسرائيليين ضد الأخ العربي. ونقول ذلك على أساس أن هذه الالتفاتة إذا كانت لن تحدث في عهد أردوغان، فهي لن تحدث في عهد آخر، وقد لا تحدث أبداً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 8 يناير (ك) 2003

بشار الأسد...

وحتمية أقدار يناير 1994

يوم الأحد 15 ديسمبر (كانون الأول) 2002، حظ الرئيس السوري بشار الأسد رحاله في العاصمة التي سبق أن أمضى حوالى سنتين متدرباً في أحد مستشفيات طب العيون فيها، قبل أن يقطع فترة التدريب ويعود الى دمشق بناء على إستدعاء والده الرئيس (الراحل) حافظ الأسد له. وموجب العودة حادث سيارة وقع يوم الجمعة 21 يناير (كانون الثاني) عام 1994 أودى بحياة شقيقه الرائد باسل الأسد، على طريق مطار دمشق، وكان متوجهاً الى المطار للسفر إلى ألمانيا. ومنذ ذلك الحادث - الفاجعة بالنسبة إلى الرئيس حافظ الأسد وللعائلة - بدأت عملية تكريم واسعة النطاق لذكرى الرائد باسل وتصنيفه شهيداً، الأمر الذي يعني أنه قضى في مهمة أو في ظروف بالغة الأهمية، وبدأت في الوقت نفسه آلية تأهيل رئاسية مكثفة للطبيب بشار الذي لن يمارس المهنة التي أحبها وأمضى حوالى سنتين في لندن يتخصص فيها يعود بعدها إلى سوريا لمعالجة عيون المحتاجين إلى علاج. شملت عملية التأهيل للدكتور بشار، من جانب والده الرئيس، الأمور السياسية والعسكرية وأبرزها الملف اللبناني والعلاقة مع المملكة العربية السعودية وأسلوب التعامل مع القضية الفلسطينية. وخلال عملية التأهيل قام الدكتور بشار، ومن دون أن تكون له أي صفة رسمية بمهام عربية ودولية. وبدا واضحاً أن لديه قدرة على الإستيعاب ظهرت جلية بعد الرحيل المفاجئ لوالده الذي كان وضعه الصحي في فترة تأهيل الإبن بشار يزداد إجرأجاً. وكان هذا الوضع قد بدأ ينتكس بشكل ملحوظ في أعقاب حادثة السيارة التي قضى فيها الإبن باسل الذي كان واضحاً للجميع أنه هو من سيرث الحكم، وحدثت في هذا الإتجاه عدة

حكومتهم السند الإسلامي في حرب جورج بوش على العراق. وتم ارفاق المطالب في هذا الشأن بمغريات ووعود بإلغاء الديون في إطار صفقة تبلغ المليار دولار. وهنا يبدو الأردوغانيون أمام الإمتحان العسير الذي هو إمتحانهم الأول في ما يتعلق بالجيران العرب: هل يحاربون العراق إلى جانب الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية وإسرائيل، أم تفعل بهم أميركا وبمساعدة جنرالات المؤسسة العسكرية ما سبق أن فعلته بنجم الدين أربكان؟ وحتى إشعار آخر ليس واضحاً ما الذي سيفعله أردوغان؟ وأي تخريجة سيتوصل إليها بحيث إذا كان لن يستأثر بكل شيء، فعلى الأقل لا يخسر كل شيء.

ويبقى إننا عندما نلاحظ أن الالتفات الأردوغاني نحو الجار العربي لم يحدث حتى الآن، لا ننكر أهمية أن إخواننا الأتراك الأردوغانيين ما زالوا في حالة تأمل في العلاقة التركية - الإسرائيلية الموروثة، لا يدرون ماذا سيفعلون في شأنها، حيث أنهم لا يريدون تطويرها وغير قادرين على تخفيض مستواها. لا يحبون زيارة إسرائيل ويفضلون لو أن الإسرائيليين لا يزورونهم. لكن ذلك لا يعني أن تبقى تركيا على الكتف العربي بينما الأواصر شبه مقطوعة مع الجيران الذين أثلج صدر معظمهم فوز الإسلاميين، على أساس أن مثل هذا الفوز سيفتح النوافذ أمام الهواء النقي ليدخل الى تركيا، ويقفل ما أمكن إقفاله من الأبواب التي جعلت سماء العلاقات ملبدة بالهواء الذي عملت إسرائيل طويلاً في الماضي على تلويثه، ووصلت في سعيها الشرير هذا، الى حد أن اليهودي الذي يحتل بيت المقدس بات أقرب الى نفس المسؤول التركي من الجار العربي. كما أن الحال وصلت الى حد أن بعض المسؤولين الأتراك من مدنيين وعسكريين يزورون إسرائيل، وتشمل زياراتهم تفقّد بعض المواقع في الجولان، الارض السورية المحتلة. كما وصلت الحال الى أن مفهوم العلاقة الإستراتيجية إنقلب بحيث بات التركي حليف الإسرائيلي ضد أخيه العربي المسلم.. وهو مفهوم من الصعب علينا كعرب التسليم بأن الحقبة الأردوغانية ستأخذ به وتكرسه كأمر واقع. وعلى هذا الأساس ستظل أنظارنا شاخصة نحو تركيا لنعرف متى ستحدث التفاتتها نحو الجار العربي، ومتى سيبدأ ياكش المهمة المؤمل قيامه بها، وهي جولة على الدول العربية بدءاً بالجيران تستهدف تبديد الانطباع السائد بأن التركي لا يمكن أن يكون، أو انه

إشارات تؤكد ذلك.

تسلّم الدكتور بشار الحكم ضمن الأصول التي ينص عليها الدستور والطقوس الحزبية، وبدأ ما يجوز إعتبارها عملية تنقيح للتصحيح الذي على أساسه حكم والده سورية عقدين من الزمن العربي الصعب، محققاً أمراً في منتهى الأهمية يتمثل في إسقاط ظاهرة الانقلابات العسكرية التي إشتهرت بها سوريا. وتقديراً منه لأي مفاجآت أبقى الرئيس بشار على معظم رموز الحكم، وبدأ من خلالهم يستحدث الخطوات التي تعكس رغبته في الانتقال بالبلاد إلى مرحلة الإنفتاح المتأني بحيث يتم فتح نوافذ البيت السوري نافذة بعد أخرى، لا أن يكون الفتح المشار إليه دفعة واحدة فيصيب سوريا ما سبق أن أصاب مصر، فضلاً عن أن الإنفتاح المستعجل قد يترك إنطباعاتاً بأن سوريا الأسد الابن هي ليست سوريا الأسد الأب، وبأن لا إستمرارية في الأمر.

خلال السنة الأولى حقق الرئيس بشار خطوات ملموسة على طريق الإنفراج والإنفتاح. كما أن زواجه من أسماء الأخرس ابنة الطبيب الحمصي المقيم في بريطانيا الدكتور فواز الأخرس، شكلت لحظة تأمل في حياة الرأي العام السوري الذي إرتاح الى نظرة رئيسه الشاب إلى أمور الدين والدنيا. ومن أبرز الخطوات أنه رمى العلاقة مع العراق، مزيلاً بذلك رواسب المرحلة الماضية ومن بينها مشاركة سورية في التحالف الدولي الذي قاده الرئيس جورج بوش الأب ضد العراق. وساعد الرئيس بشار على ضرورة الترميم أن لعبة ذلك التحالف تكشّفت وأظهرت أن الإدارة الأميركية أرادت جعل ذلك التحالف بمثابة حلف لها يشبه الجانب العربي - الإسلامي منه حلف بغداد في الخمسينات، كما أن هذا التحالف بدا بمثابة كمين أرادت أميركا إيقاع الجميع فيه تحت ذريعة تحرير بلد عربي من أطماع بلد عربي آخر، وأرادته أمراً واقعاً يكون بمثابة البقرة التي يتواصل حلبها ومن دون أن تأخذ تلك الإدارة في الإعتبار أن حليب هذه البقرة هو لأبناء المنطقة لا أن ترعى في الأرض العربية ليصب حليبها في الخزائن الأجنبية. وما نعينه بالحليب هنا هو الثروة العربية. كما أن الذي ساعد الرئيس بشار على المبادرة إلى الترميم هو أن السياسة الأميركية التي كان من المؤمل أن تتسم بالحكمة والإتزان والموضوعية، طبقاً لما تم التقاهم في شأنه في مؤتمر مدريد للسلام، لم تكن بعد إنعقاد المؤتمر على النحو المأمول منها، بل

أنها خيبت ظن الأطراف العربية، وبالذات الرئيس حافظ الأسد، والتي إفتترضت أن المؤتمر هو بمثابة التحية بالمثل من جانب الإدارة الأميركية على التحية المتمثلة بمشاركة سوريا ومصر والمغرب، وكل منها بمفهوم خاص، في صيغة التحالف التي أرادها الرئيس بوش، والتي لولا المشاركة وبالذات المشاركة الأهم.. مشاركة سوريا لما كان للخيمة العربية أن تكون المظلة التي تقي إدارة الرئيس بوش الأب الشمس الحارقة لحربه على العراق. لكن الممارسة الأميركية كانت بعيدة عن الظن العربي. وتزايدت الشكوك في النفوس بعدما تبين أن أميركا لم تكن بإعادة الكويت إلى أسرتها وأهلها وإنما تريد الإستيطان. ثم تتابعت التدايعات حيث تبين أنها تريد البقاء إلى ما لا نهاية كي لا يشكل النضال الفلسطيني من جهة والرفض السوري - اللبناني للأمر الواقع من جهة أخرى تهديداً لإسرائيل. ولقد لمس الرئيس بشار، ولم يكن غادر بعد إلى لندن، مدى ضيق والده من سياسة الرئيس بوش الأب، وشعر، أي الأسد الأب، أن الإدارة الأميركية خذلتها وأن لقاءات منتصف الطريق مع بوش ثم الرئيس الخلف بيل كلينتون كانت تتسم بالنزاهة من طرف واحد.. ليس هو بالتأكيد الطرف الأميركي. لكن مع ذلك أبقى نافذة التعاطي مع الإدارة الأميركية مفتوحة على مصراعها وإن كان حديث الخلوة بينه وبين مادلين أولبرايت وزيرة خارجية العهد الكلينتوني التي جاءت للتعزية بوفاة والده لم تلق الإرتياح في نفسه حيث شعر أنه أمام أسلوب جديد من التحايل الأميركي الذي لن يقدم ولن يؤخّر.

في ضوء ذلك عزز الرئيس بشار العلاقة مع فرنسا التي كانت وصلت إلى ذروتها في الإستقبال التاريخي الذي لقيه الرئيس جاك شيراك عندما زار دمشق وواصل التنسيق الدوري مع الرئيس حسني مبارك، محافظاً بذلك على التقليد الذي سنّه والده وسجّل إشارة نوعية بالنسبة إلى لبنان عندما زاره قبل إنعقاد القمة العربية الدورية الثانية فيه لكي يؤكد سيادة هذا البلد. وأطلق في القمة المشار إليها مواقف في موضوع الصراع العربي - الإسرائيلي كان بدأها في القمة العربية الدورية الأولى في عمان التي كانت بمثابة الإطلالة الأولى له على مستوى القمة. وفي القمتين بدأت تظهر ملامح قدرات خطابية ومؤشرات إلى عمق سياسي وإمكانات في تحليل الموقف. وكان لافتاً أنه قادر على التحدث نصف ساعة كاملة وباللغة

الفصحى ومن دون أن يتعثر لسانه في مفردة من المفردات. وفي القمتين أحيط باهتمام ملحوظ من المملكة العربية السعودية التي كانت زيارته لها قبل ذلك أساسية.

وخلال أقل من سنتين سجل إطلالة دولية بالغة الأهمية في اتجاه فرنسا وإسبانيا. وبدأ تعاطيه الإيجابي مع الموضوع العراقي يلفت الانتباه، ووصل هذا التعاطي إلى حد أن دمشق باتت أكثر أهمية من عمان كجسر للعبور السياسي والإقتصادي بين العراق والعالم. ثم جاءت زيارته إلى بريطانيا لتشكل نقلة نوعية في الحضور الدولي له وفي العلاقة السورية - البريطانية، ذلك أن الزيارة التي قام بها كانت الأولى يقوم بها في تاريخ سوريا منذ الإستقلال رئيس سوري إلى بريطانيا. ومنذ الساعات الأولى للزيارة بدا واضحاً أن بريطانيا تتعامل مع الرئيس بشّار على أنه نواة زعامة عربية متجددة سيكون لها دورها المتميز وشأنها الملحوظ في السنوات العشر المقبلة.

وكان لافتاً كثيراً الإستقبال الذي جرى له من جانب رئيس الحكومة طوني بليز ثم من جانب الملكة التي خصته وزوجته بالمزيد من الوقت المقرر، وأبدت الملكة خلال تناول الشاي إرتياحاً لهذا الثنائي الذي يشيع الإرتياح في النفس مظهراً وحديثاً ولغة إنكليزية راقية وفهماً موضوعياً للأمر وعدم تشنج وتشدد في المعالجة. وهذا أيضاً كان الانطباع الذي خرج به معظم الذين إجتمع إليهم الرئيس بشّار خلال الأيام الثلاثة للزيارة التي سجل فيها مواقف مبدئية من بينها قوله في موضوع الحرب الأميركية - البريطانية المفترض حدوثها على العراق «لا أحد يبحث عن الحرب مهما كان السبب، فوجده المريض النفسي يبحث عنها»، وقوله أيضاً «إن الولايات المتحدة ربما تُحقق إنتصاراً عسكرياً سريعاً في الحرب على العراق ولكنها ستجاهد كي تتم لها السيطرة على البلاد، كما أنها على المدى الطويل ستعاني كثيراً»، وقوله أيضاً «إن الغرب مخطئ بتصويره الرئيس صدام حسين على أنه تهديد للعالم العربي، وأن الأولويات التي وضعتها الإدارة الأميركية غير مقنعة، ولا تتصل في واقع الأمر بأسلحة الدمار الشامل وصدام حسين»، وقوله أيضاً وأيضاً «إن سوريا أرادت بتصويتها على القرار 1441 إبعاد الحرب إلى أقصى مدى»، وقوله «إن عواقب العمل العسكري ستكون مروعة وإن الفجوة ستتسع بين العالم العربي والغرب وسيعود العرب عقوداً

إلى الوراء». وهذا ليس كل الذي قاله لأنه تحدث عن مشروعية المقاومة في لبنان موضحاً، أن للفصائل الفلسطينية في دمشق مكاتب إعلامية. وما لم يقله في لندن قاله في أعقاب لقاء لبضع ساعات في باريس مع الرئيس جاك شيراك صديق سورية إبناً عن أب. وكان لافتاً بالذات قوله: «إن الغرب يعتمد سياسة النعمة في المنطقة وإن سوريا ترفض ضرب العراق لأي سبب، وإن الأميركيين يعدون بأن تكون حربهم نظيفة، لكنني أعتقد عكس ذلك وأرى أن قدرة الحرب ستصيب الجميع، وإن الحرب على العراق هدفها النفط...» وقوله أيضاً حول الوضع في إسرائيل «ليس في إسرائيل اليوم يمين ويسار، بل هناك يمين وآخر على يمينه، وذلك أيضاً يقف الى اليمين منه آخر أكثر يمينية...» وكان الرئيس بشّار جريئاً ومن دون أن يستغزى سؤال أحد الصحافيين عما إذا كان غير خائف من أن تكون سوريا هي الدولة المستهدفة بعد العراق لأنها تدعم «حزب الله» في لبنان وتفتح مكاتب لحركة «حماس» وحركة «الجهاد الإسلامي»، وكان جوابه عن السؤال على النحو الآتي: «نحن حذرون، وخوفنا على المنطقة بشكل عام وليس على نظامنا، ذلك أن سورية بلد قوي بشعبه. ثم إن أي تغيير لأي نظام في العالم إذا أتى على يد الأميركيين فإن من يدعم الأميركيين سيكون مكروهاً لا محالة من بلده. وأميركا كما نرى هي أكثر بلد مكروه في العالم اليوم. وهذا ما نلاحظه داخل المعارضة العراقية حيث نرى أناساً على خلاف مع النظام لكنهم لا يريدون تغييره على الطريقة الأميركية، إننا لسنا قلقين من هذا الأمر وإنما قلقنا من إسرائيل».

نصل إلى القول إن ما أظهره الرئيس بشّار الأسد خلال فترة قصيرة نسبياً تلت تسلّمه الحكم مضطراً وليس مختاراً، يترك إنطباعاً بأن المكان الخالي لدور قيادي على المستوى العربي يمكن أن يملأه الرئيس بشّار الأسد، وهو في الأصل ما كان يأمل والده الرئيس (الراحل) حافظ الأسد أن يحققه بعد إنشغال العراق في الحرب مع إيران، لولا أن المرض كان أقوى. وما سعى إليه الرئيس حافظ الأسد سبق أن سعى إليه الرئيس صدام حسين الذي إعتبر أن لواء الزعامة معقود له بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، ومن أجل ذلك إستعجل من خلال القمة العربية الإستثنائية في بغداد إنزال عقوبات إسقاط العضوية والعزل بمصر، وكانت تلك من الخطوات التي

إنعكست سلباً على مجمل العلاقات العربية من دون أن تحقق جدوى في اتجاه عودة الرئيس أنور السادات عن قراره عقد معاهدات سلام مع إسرائيل تولت إدارة الرئيس جيمي كارتر رعايتها وبلغت ذروتها في معاهدة كامب ديفيد عندما حدثت المصافحة التاريخية بعد التوقيع الصاعق على المعاهدة بين الرئيس السادات ورئيس الحكومة الإسرائيلية مناحيم بيغن.

ومن مقومات الدور القيادي الذي يمكن أن يمارسه الرئيس بشّار هو أنه في سن فتية، وأنه ليبرالي في بعض جوانب توجهاته، وأنه صاحب نهج يرى الإسراع في التحديث ومواكبة العصر، وأنه لم يتسلم الحكم بفعل حركة إنقلابية وإنما بفعل شرعيتين، دستورية وحزبية، وأنه صاحب سمعة طيبة، وأنه مطلع على ثقافة الغرب ومتأثر نسبياً ببعض خصوصيات تلك الثقافة. وبموازاة هذا كله أنه صاحب الورقة الموروثة وهي أنه لا حرب من دون سوريا ولا سلام في المنطقة من دونها، فضلاً عن الورقة اللبنانية التي ما زالت على قوتها في عهده يمثل ما كانت عليه في عهد والده مع إختلاف في أسلوب التعامل.

ومن يملك مثل هذه المقومات يتزايد الخطر عليه. لكن طب العيون يجعل المتخصص فيه مثل الدكتور بشّار الأسد يعالج الأمور بالكثير من التأني. والذي يتأني ينال ما يتمنى.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 15 يناير (ك) 2003

* * *

التغيير فرضاً... والتغيير طوعاً

قبل أيام قليلة من موعد قيل بصيغة جازمة انه اليوم الموعد لبدء الحرب على العراق، أطلق ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز كلاماً مفعماً بالأمل، خلاصته أن الحرب على العراق لن تقع رغم الإستعدادات الجارية. وجاء هذا الكلام بشكل علامة إنفراج في فضاء القلق العربي والإسلامي والدولي الناشئ عن التحشيد العسكري الأميركي والبريطاني الهائل براً وبحراً وجواً، والمتزامن مع حرب نفسية لا مثيل لشراستها تمثلت بالتصريحات والمقالات والبرامج في وسائل الإعلام الأميركية والبريطانية وبالذات من جانب أصحاب الأقلام الذين في نفوسهم

هوى تجاه إسرائيل، كما تمثلت بملايين المنشورات تلقيها الطائرات على العراقيين بأمل التمرد على الرئيس صدام حسين وتسهيل مهمة إسقاط حكمه من خلال تبهيت دوره كرئيس للجمهورية. وبعد الذي قاله الأمير عبدالله بيومين جاء إلى الرياض الرئيس حسني مبارك للتشاور مع الملك فهد والأمير عبدالله في التطورات. وفي ضوء المزيد من الكلام الذي يلخص النظرة السعودية، وملاحظة الرئيس مبارك لظاهرة تدشين أمير الرياض سلمان بن عبد العزيز لعدد من المشاريع الصناعية الكبرى، أبلغ الرئيس المصري الصحفيين الذين يرافقونه عادة في بعض زيارته كلاماً خلاصته نصاً «إن جهوداً إقليمية عربية وغير عربية تُبذل من أجل تجنب الحرب والتوصل إلى صيغة تقبلها الأطراف بعيداً عن إستخدام القوة. ولحسن الحظ أن الرئيس بوش إستجاب لتحليلنا...». وغالب الظن أن الإستجابة التي يشير إليها الرئيس مبارك تتطابق مع ما قاله ولي العهد السعودي أمام الذين يحضرون مهرجان الجنادرية في دورته الثامنة عشرة، التي شملتها أجواء القلق حتى اللحظة التي جاءت عبارة الأمير عبدالله تنشر شعوراً بالإنفراج، وبالذات لأنه أوردها بروحية وجدانية. أما الذي قاله الأمير عبدالله ويجوز الإفتراض بأنه قوبل بإستجابة من الرئيس بوش على نحو ما جاء في تصريحات الرئيس مبارك فهو الآتي: «إن احداً من المسؤولين الأميركيين لم يفتاحني بأمور الحرب ونأمل بالألّا تتدخل الحرب في المنطقة لأن الحرب لا تقيد أحداً. ان العراق ليس هيناً علينا، فشعبه شعبنا وناسه ناسنا، وهو جزء غال من الأمة العربية والإسلامية. وإذا ما أخذت الأمم المتحدة قراراً بشأن الحرب فإن العرب لهم مطلب واحد وهو أن تعطي العرب فرصة للتفاهم مع العراق للوصول إلى حل يُبعد الحرب عنه...».

إنطلاقاً من كلام الأمير عبدالله، ثم ربطاً بكلام الرئيس حسني مبارك، وبعد ذلك ربط الكلامين بما هو معلّن من مشاعر قادة آخرين، يتساءل المرء مثل حالنا عما يمكن ان يكون عليه تفاهم العرب مع الرئيس صدام، وما هي دواعي التفاهم وأي حال هي عليه حال الإدارة الأميركية كطرف تواق إلى الحرب مجبّش لها وكأنما القوة العسكرية للدولة الأعظم هي في مواجهة مع دولة تملك القوة نفسها التي لديها.

وحول هذه التساؤلات مجتمعة يمكن قول الآتي: إن هذا التجبيش الأميركي - البريطاني هو في بعض

وإيران على نحو ما جرى التشاور والتفاهم عليه، إقناع الرئيس صدام بإتخاذ خطوات تتسم ملامحها بالتغيير المتدرج، كأن تكون هناك مشاركة في الحكم وتعددية ولغة تخاطب غير السائدة ونفض الأيدي من بعض الاساليب، وكذلك إزالة تلك الصورة الموزاييكية للرئيس جورج بوش الأب من مدخل «فندق الرشيد» تدوسها الأقدام على مدار الأربع والعشرين ساعة، بما في ذلك إقدام الأجانب من أميركيين وغيرهم، ومن دون أن يفيد إبقاؤها حتى في إزالة الغضب من النفوس... انه في حال حدث ذلك فإن صورة النظام العراقي ستبدو أكثر قبولاً وستكون بداية التغيير مدخلاً للتغيير الأوسع. هذا فضلاً عن أن النقطة الأهم والمتعلقة بموقف العراق من إسرائيل باتت محصورة في المبادرة العربية التي حظيت في القمة العربية الدورية الثانية في بيروت بالإجماع. وكان عزت إبراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الذي ترأس وفد العراق من بين المرشحين برؤية ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز، وسبقت الترحيب هذا لحظة العناق التاريخية بين الأمير الذي ينادي عزت إبراهيم تحباً (الأخ أبو احمد) والرجل الثاني في الحكم العراقي الذي ينادي الأمير تحباً (الاخ بو متعب). وبهذين الأمرين أي الخطوات التي تتسم ملامحها بالتغيير المتدرج والموقف المتخذ أصلاً من موضوع الصراع العربي - الإسرائيلي والذي يكمن في الإدارة الأميركية وإسرائيل أمر التعثر في وضع المبادرة موضع التنفيذ، تصبح الحجة الأميركية باهتة وتتأكد تماماً أن المسألة هي مسألة وضع اليد على ثروة النفط ومسألة طمأنة صمود الدولة العبرية من خلال تقسيم الوطن العربي إلى دويلات، ولا شيء غير ذلك على الإطلاق، إذ متى كانت الإدارة الأميركية مهتمة بإزدهار شعب ما وإستقرار هذا الشعب، عدا شعب أميركا والشعب الإسرائيلي؟

ونصل إلى نقطة جديرة بالتسجيل، وهي أن التغيير أمر لا بد منه... ليس لأن الإدارة الأميركية تطالب به مستفيدة من ذلك بأن هذه المطالبة تدغدغ مشاعر الشعوب، وإنما لأن هذا التغيير لا بد منه مهما طاللت المعاندة أو تكرر التأجيل. وبدلاً من أن يتم هذا التغيير فرضاً بفعل القوة والتهديد إلى درجة الحرب على نحو ما قد تفعل ذلك الإدارة الأميركية بالتعاون مع الحكومة البريطانية، فإن من الأفضل أن يتم طوعاً من أولي الأمر، وبذلك تكون الشعوب ممتنة لأن التغيير في هذه الحال هو منها ولها، في حين أن التغيير فرضاً

جوانبه من أجل مرحلة ما بعد الحرب، في حال تم الأخذ بخيارها من دون إتاحة المجال امام الحل السياسي. فالقوة العسكرية ليست على الشأن الذي يوجب زج مائة وخمسين ألف عسكري في الحرب، وتحضير هذا الكم الهائل من الآليات والطائرات والسفن الحربية.. هذا إذا لم يفاجئنا «البنتاغون» بأنه عزز هذا الوجود البحري الضخم بغواصة ذرية على أساس أن عشرة ملايين عراقي في الحد المتوسط سيواجهون غزاة بلدهم براً وبحراً وجواً. وما دامت القوة العسكرية العراقية ليست على هذا الشأن الذي نشير اليه ولا يتطلب الأمر مثل هذا التحشيد فهذا معناه ان الذي يدور في الخاطر الأميركي - البريطاني هو أحد أمرين: إما ان نشر هذه القوات لكي تبقى في المنطقة لربع قرن على الأقل، سواء حدثت الحرب أو حدثت بدلاً من ذلك عدة ضربات متقطعة تؤذي وقد يتسبب إيذاؤها في خلق ظروف تُضعف النظام إلى درجة عدم القدرة على الإستمرار. وإما ان نشر هذه القوات هو لإستعمالها كعنصر ضغط يومي وعلى مدار الساعة على العراق وغير العراق. والهدف من هذا الضغط هو تحقيق المكاسب التي يمكن أن تجنيها أميركا في حال أن الحرب وقعت، وهو أسلوب إبتزازي تحاول وسائل الإعلام الأميركية إعطائه بعداً عاقلاً، أي بما معناه تقول الإدارة الأميركية للأصدقاء والحلفاء في المنطقة والعالم أنها حشدت وإستنفرت ووضعت الخطط إلا أنها للدواعي المتصلة بالصدقة والعلاقة لم تُقدم على الحرب. وتحت هذه الفذلكة تكون، مقابل عدم تنفيذ المخطط الحربي، أبقت على قواتها في المنطقة سيفاً مسلطاً على رقاب العباد بإسم العلاقة والصدقة والتسامح ومراقبة الخطر العراقي، علماً بأن هنالك ما يشبه الإجماع بأن لا أحد يشعر بوجود هذا الخطر.

ونحن عندما نقول ذلك نأخذ في الإعتبار مسألة ان الإدارة الأميركية وحليفتها الحكومة البريطانية باتتا ربما أكثر إستعداداً للأخذ بالحل السياسي لشعورهما بأنهما أصبحتا في مأزق نتيجة أن مساحة الرفض الدولي حتى داخل بلديهما للحل الحربي تتسع يوماً بعد آخر، وأن مساحة الغضب العربي إتسعت إلى درجة أن الحرب في حال حدوثها ستكون عملاً عدوانياً بكل ما تعنيه العدوانية، وليست حرباً تقليدية وضمن مقومات الحروب وأصولها.

ومن الجائز الإعتقاد أنه في حال إستطاع القادة العرب لوحدهم، أو عرب الجوار بالتعاون مع تركيا

هو - لفظاً - لها، لكنه - شكلاً وموضوعاً ومضموناً - للغير... وتحديدًا للجزائريين والأميركية والإسرائيلية على حد سواء.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 22 يناير (ك) 2003

* * *

لحظات مضيئة وسط الصخب الأميركي والضجة الأوروبية: إستقبال الشيخ الجليل للحرية المحجوبة عنه

بعد الإضاءة المتمثلة بوصول السيد محمد خاتمي إلى سدة الرئاسة في إيران وبما يشكل مفاجأة باغتت أهل الداخل والقوى الخارجية على حد سواء، وتلاها الفوز المبين الثاني للسيد في الإنتخابات وبشرعية شعبية تتساوى في أهميتها مع الشرعية الثورية... بعد هذه الإضاءة المزدوجة تأتي الإضاءة المتمثلة في حال آية الله حسين علي منتظري.

كان آية الله منتظري هو المرشح لكي يخلف آية الله الخميني لولا أن هذا الأخير مثله مثل الرئيس جمال عبد الناصر ترك أمر الوراثة عائماً ربما لكثرة الورثة ولأنه لا يريد إغضاب أحد تاركاً المسألة برسم الصراع يفوز به من هو الأكثر قوة وفطنة وناصريّة. لكن الفارق بين عبد الناصر والخميني أن الأول لم يحسم لأنه كان في السن الفتية ولأن وطأة المرض لم تكن من الشدة بحيث يشعر أن حياته مهددة بعراض صحي، في حين أن الخميني كان دخل مرحلة الشيخوخة المتقدمة وكان مريضاً وزادت ضغوطات الحرب مع العراق من ضرورات الأخذ بخطوة التوريث وتسمية الورثة واحداً بعد الآخر. والقول بأن منتظري كان هو المرشح لكي يخلف الخميني يستند إلى أن الرجل كان في مرحلة الإقامة الفرنسية للخميني هو الأقرب إلى الخميني عقلاً ومكاناً. وكثيراً ما كنت شخصياً ألاحظ ذلك عند ترددي على مقر إقامة الخميني في بلدة «نوفل لوشاتو» القريبة من العاصمة الفرنسية، وبالذات خلال زيارتيين رتبتهما بالتنسيق مع الزميل أسعد حيدر وقام بهما كل على حدة زميلنا الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل والسيد الصادق المهدي وبرفقته عثمان خالد أحد رموز إسلامي

السودان. وخلال هاتين الزيارتين وأيضاً خلال زيارات متقطعة من جانبي للبقعة الخمينية الفرنسية كنت ألاحظ مدى ترابط العلاقة بين الخميني ومنتظري وكيف أن الأول كان يطلب من الثاني تكلمة حديث أو تثبيتاً لواقعة أو إستعادة لموقف. هذا إلى جانب همسات من جانب حسين الخميني حفيد آية الله في أدني إستنتاج منها أن من سيرث جده هو من يليه في المقام.. أي آية الله منتظري. والذي جعلني ازداد تسليماً بذلك هو أن الحفيد حسين لم يأت على ذكر العم أحمد الذي لم يكن من بين المحيطين بالخميني في بقلته الفرنسية. ثم تشاء الأقدار أن يتوقف قلب الخميني ويلقي وجه ربه وفي قلبه غصة قبوله الإضطراب بوقف الحرب مع النظام البعثي في العراق ويلخص ذلك بعبارته الشهيرة «إنه كمن يتجرع السم». تشاء الأقدار بعد ذلك أن يلقي أحمد الخميني وجه ربه بسبب المرض. ولمجرد حدوث الوفاة هذه وإستباقاً لإمكانية إستعادة منتظري ما كان عليه شأنه قبل أن يطلب منه الخميني الإستقالة من المنصب الذي عينه فيه وهو «خليفة الإمام» والمطالبة بأن يكون هو «المرشد الأعلى» ما دام الخميني لم يعين خليفة، حدث إلتفاف عليه انتهى بتحجيمه كخطوة أولى تليها خطوات، هنا لا بد من الإشارة إلى أن الخميني كان عين منتظري عام 1982 خليفة له. ولكن الحملات العنيفة من جانبه على توجهات النظام وتجاوزاته وعلى مواصلة الحرب مع العراق والمعاملة التي يلقاها السجناء من المجموعات الماركسية والمسلمين جعلت الخميني نفسه يطلب منه الإستقالة وينصحه بـ «عدم الإهتمام بالشؤون السياسية والإنصراف إلى التعليم في الحوزات الدينية في قم». لكن بعد وفاة الخميني لم يتحمل منتظري ما جرى له ومع ذلك إستمر صامتاً إلى أن بدأت المرحلة الخاتمية حيث شجعت أجواؤها على أن يعارض علناً ولاية الفقيه التي يستمد منها مرشد الجمهورية علي خامنئي صلاحياته الواسعة. ثم تلت عملية التحجيم، رداً على مواصلته التشكيك والانتقاد، إقامة جبرية في منزله في قم عام 1997 بعدما بدأ التشكيك بولاية الفقيه الأمر الذي جعل آية الله خامنئي بصفة كونه «المرشد» يطالب بمحاكمته بتهمة الخيانة ثم يرتأي الإكتفاء بإزالة عقاب «الإقامة الجبرية» عليه بمثل العقاب الذي أنزله عبد الناصر باللواء محمد نجيب والعقاب الآخر الذي أنزله الرئيس الجزائري هواري بو مدين بالرئيس السلف أحمد بن

بيللا. وكلاهما عبد الناصر وبومدين توفيا وبقي الآخرين على قيد الحياة. ومن غرائب المفارقات أن محمد نجيب شارك في جنازة عبد الناصر الذي رماه في غياهب الإقامة الجبرية وأن بن بيللا يواصل إلى الآن التحرك السياسي بصفة كونه رئيساً سابقاً ويلقى من الإهتمام الكثير بينما بومدين لقي وجه ربه وهو في سن عبد الناصر وبعد غيبوبة لم ينفع فيها العلاج. والحالتان اللتان نشير إليهما ليستا الوحيدتين في العالم العربي وفي العالم الثالث عموماً. ولكننا هنا وفي معرض المقارنة بالذي جرى لمنتظري في إيران الثورة نتحدث عن الذي جرى لمحمد نجيب في مصر الثورة وما جرى لابن بيللا في جزائر الثورة من دون إغفال ما يجري منذ بعض الوقت للدكتور حسن الترابي في السودان الثوري، مع التنويه بأن آية الله خامنئي تنبه إلى ما لم يتنبه إليه عبد الناصر وبومدين وما لا يريد التنبه إليه «ثوار الإنقاذ» في السودان فارتأى أن يتم رفع الإقامة الجبرية عن آية الله حسين منتظري ما دام بات في الثمانين من العمر وخشية أن يلقي وجه ربه وهو في إقامته الجبرية تلك نتيجة ضغوط وحجب للحرية دامت خمس سنوات، وعند ذلك يجد ورثة الخميني أنفسهم امام مأزق من الصعب علاجه. وساعد على إنهاء الإقامة الجبرية هذه الرئيس محمد خاتمي الذي يعاني هو الآخر من التكبير الثوري لخطوات الإنفتاح التي يريد تحقيقها واثقاً من مساندة الرأي العام له والذي حقق له في دورتين إنتخابيتين شرعية شعبية قوية إلى درجة أن الشرعية الثورية عاجزة عن التقليل من مهابتها وتأثيرها، ولولا ذلك لكان خاتمي نفسه في الإقامة الجبرية.

بعد رفع الإقامة الجبرية عنه يوم الأربعاء 29 يناير الماضي حرص منتظري على التوضيح للصحافيين الذين إلتقوا حوله بأن الإفراج عنه ليس مشروطاً على نحو ما قيل. وحرص على أن يقول لوسيلة إعلام أجنبية ضماناً لتعميم القول وهي هيئة الإذاعة البريطانية (بي. بي. سي) بأن ما نشرته بعض الصحف الخامنئية التوجه حول تعهده التخلي عن النشاطات السياسية مقابل الإفراج عنه غير صحيح، مضيفاً من دون أن تفارق الإبتسامة محياه: «إنها أكاذيب لا أساس لها من الصحة. إنني أنفي هذه التقارير. فأنا لم أطلب ولا طلب أبنائي العفو ولن نطلبه، وكما فعلتُ خلال إحتجائي سأستمر في الرد على الأسئلة السياسية والدينية والتحريك. انه واجبي

الديني. وإذا كان البعض ينتقد تصريحياتي في الإذاعات الأجنبية الموجهة إلى إيران باللغة الفارسية فإن ردي على ذلك هو أنه عندما لا تثبت اذاعتنا ما نقوله فإننا نضطر للتحديث إلى إذاعات اجنبية. وخلال الثورة كان الإمام الخميني يتحدث إلى الإذاعات الأجنبية ولم يجرؤ أحد على إنتقاده. ان الله العلي القدير منح جميع المؤمنين سلطة قيادة دينية، لكن هذه السلطة ليست مطلقة.. إنها محدودة. وبالنسبة إلى الرئيس خاتمي فإنني أناشده تغيير أسلوبه وتنفيذ وعوده بإصلاح البلد، ذلك إن الشعب كان متقائلاً جداً عندما تولى خاتمي السلطة إلا أنه إذا إستمر على هذا المنوال سيصيب الشعب بخيبة أمل بالغة...». هنا تجدر الإشارة إلى حجم العيب الذي كان في نفس خاتمي بسبب الإبقاء على منتظري قيد الإقامة الجبرية بينما هو كرئيس للجمهورية لا يتخذ خطوة حازمة ازاء هذا الأمر. وقد أوجت عبارة له بهذا العيب عندما قال لدى خروجه من إجتماع مجلس الوزراء يوم الإفراج: «الحمد لله. رُفعت الإقامة الجبرية عن منتظري وسيُطبق هذا القرار اليوم...». ثم أضاف الناطق باسم الحكومة عبدالله رمضان زاده القول «إن الحكومة ترحب بهذا القرار الناتج من الإتفاق بين جميع المجموعات السياسية في البلاد. وإذا ما أخذنا في الإعتبار ذكرى الثورة (يصادف 11 فبراير) والإنتخابات المحلية (تصادف 25 فبراير) والوضع الإقليمي فإن هذا القرار إيجابي جداً».

لم يتوقف آية الله منتظري عن إطلاق النقد وتسجيل الملاحظات التي ترعج الجناح المحافظ الخامنئي في النظام لكنها تريح الجناح الآخر الليبرالي الخاتمي. وبينما كان بعض رجال الدين والمريدين والأقارب يواصلون القوم إلى (قم) للسلام على آية الله الذي إستعاد حريته بعد خمس سنوات من الإقامة الجبرية، كان الرجل يحرص رغم آلام القلب على القول إنه في صحة جيدة نافياً بذلك ما تردد من معلومات قبل رفع الإقامة الجبرية من بينها انه مصاب بهزال شديد وينام أكثر من 14 ساعة يومياً. وهو ربما حرص على هذا النفي ورفض التسليم بإعتلال الصحة لكي يصفى حسابات مع الذين صادروا حقه في أن يكون خليفة آية الله الخميني. ومن خلال بعض كلامه لوكالة «الاسوشيتدبرس» الأميركية يمكن قراءة نوايا الرجل حيث انه قال من جملة ما قاله للوكالة قاصداً بالقول في الدرجة الأولى المرشد الأعلى للثورة آية الله

علي خامنئي: «إنني أحنني فقط امام الله وليس أمام أي شخص آخر. ولا يمكن لأحد أن يدوس حقوق أناس آخرين بالإهانات والسلوك السيئ...»، ثم أكمل جملة من الملاحظات تمثلت في مخاطبة جمهور أحاط به قائلاً: «إنني في أحسن حال ولم أفقد ذاكرتي كما أوحى البعض...». لكن نفي المعلومات ورفض التسليم بإعتلال الصحة لا يعنيان أنه في وضع صحي جيد بدليل أنه بعد أقل من أسبوع من رفع الإقامة الجبرية وما حفلت به الأيام القليلة التي تلت الرفع من تصريحات وأحاديث إنتهى الأمر بآية الله منتظري نزيلاً مؤقتاً في غرفة العناية الفائقة نتيجة آلام حادة في القلب.

مسكين هذا الرجل الذي كان من المفترض أن يكون في القمة لكنه إنتهى في العناية الفائقة مروراً بالإقامة الجبرية. هل ظلم نفسه بسبب كثرة النقد، أم أن «الثورة الإسلامية» في إيران مثل «الثورة البلشفية» في روسيا مثل «الثورة المصرية» ومثل «الثورة السورية» و«الثورة الجزائرية» و«الثورة اليمنية» و«الثورة الليبية» و«الثورة السودانية» وغيرها عبارة عن مزيج من الفواجع والمآسي وأن الذين يتساقطون على جانبي هذه الثورات أكثر من الذين يبقون. ومن يبقى يحكم مهموماً أو يموت شاباً أو تجرفه تطلعاته خارج الحدود. وإذا تأمل آية الله منتظري وهو ممدد على الفراش في المستشفى أو بعد المغادرة إلى المنزل بما يجري للمنطقة وأي مخاطر تلوح في الأفق بعد العراق على إيران وسوريا ولبنان وفلسطين وأي تهريب تتعرض له دول الخليج لوجد أن إنتقاداته الإصلاحية لن تبدل من واقع الأمر شيئاً، فضلاً عن أن الإنسان عندما يبلغ من العمر عتياً لا يعود في نظر الناس مصلحاً.. وإنما هو منتقم. وهو إذا رصد بعض الشيء ما يفعله بن بيللا الذي هو من العمر نفسه لإكتشف أن هذه هي المسألة... ولا شيء غير ذلك على الإطلاق.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 26 فبراير (شباط) 2003

* * *

سجادة حمراء على مشهد رئاسي ساخن

من أخبار بغداد التي تتلج الصدر، أن المشهد

الرئاسي الساخن متمثلاً بالرسم الموزايكي للرئيس الأميركي الأسبق جورج بوش الأب، على عتبة الباب الداخلي لفندق «الرشيد» تمت تغطيته بسجادة حمراء اللون. ومع أن الإجراء الأفضل هو إقتلاع هذا الرسم نهائياً وإستبدال بلاطاته ببلاطات عادية.. إلا أنه نصف إجراء طيب في أي حال.

مضى على هذا الرسم 12 سنة. وطوال هذه السنوات لم يبق داخل إلى الفندق أو خارج منه إلا وداس على هذا الرسم. وشمل الدوس الزوار من عرب وأجانب رسميين وغير رسميين، كما أنه شمل رجال الصحافة ونسائها ومحطات التلفزيون من الأجانب، بمن في ذلك الأميركيان، الذين لم يعتادوا على مثل هذا العقاب، يتم إنزاله بمن كان سيد البيت الأبيض، وبمن قاد عام 1991 الحرب على العراق محاطاً بتحالف دولي - عربي - إسلامي، هو الأول من نوعه في تاريخ التحالفات. ولكن هؤلاء كانوا يدوسون رسم ابن بلدهم... أو «بليدياتهم» على نحو التسمية المصرية الشائعة، وإلى درجة بات هذا الدوسان روتينياً.

لكن السؤال هو: هل إن احداً من «الدواسة» كان مرحباً ضمناً بهذا الإجراء؟ وهل انه افاد في كسر الحصار وفي وقف الطلعات الرتيبة اليومية للطائرات الأميركية والبريطانية مخترقة السيادة الجوية لبلاد الرافدين؟ الجواب «لا»، مخففة بالنسبة إلى الشق الأول من السؤال. و«لا» قوية بالنسبة إلى الشق الثاني. وكل ما «أثمره» الرسم الموزايكي هو المزيد من الشحن في النفوس المتطلعة إلى فجوات صحو في سماء الأزمة.

وثمة توضيح، وهو أن كاتب هذه السطور الذي يدين أسلوب التعامل الأميركي مع المنطقة العربية شعوباً وقضايا، حكماً ومحكومين، وغير مقتنع بنزاهة الوعود الأميركية في ما يخص الفلسطينيين، وبالذات الوعد الذي قطعه الرئيس بوش الابن على نفسه أمام ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز، ويرى في الأفق الكثير من علامات الإستفهام والتعجب حول حرص حلقات التنظير داخل تلك الإدارة في شأن التغيير و«الإصلاح»، ويشك كثير الشك في نوايا أقطاب هذه الحلقات التي تصب في محيط دائرة القرار في تلك الإدارة... إن كاتب هذه السطور كان في إستمرار مستهجن ذلك الرسم، ويرى انه بمثل إحراق العلم الأميركي في التظاهرات التي تشهدها بعض العواصم في العالم الثالث، وبالذات في بعض العواصم

ومن باب الإجهاد، يمكن القول إن وضع السجادة الحمراء فوق الرسم الموزاييكي الساخن هو تعبير عن نصف حسن نية، بمعنى أن هذه السجادة خاضعة للتطورات ومرتبطة بالرد على الخطوة بمتلها، وفي هذه الحال يتم إقتلاع الرسم وإستبداله ببضع بلاطات تملأ الفراغات إذا جاء الرد على الخطوة بمتلها، كأن تصدر إيماءات تشير إلى أن الحرب مؤجلة، وإن هي تأجلت يصبح رفع الحصار قابلاً للحدوث، ويصبح البحث مجدياً في تبادل المصالح تحت وطأة ضغط الوجود العسكري الأميركي المستديم في المنطقة. أما إذا لم يتم الرد بالمثل فهذا معناه أن السجادة الحمراء ستختفي ذات يوم بفعل فاعل، ويعود الرسم الموزاييكي برسم «الدّوسان» إلى أن يحدث ما لا يتمنى صاحب ضمير حدوثه، وهو الحرب التي في حال حدوثها ستقتلع حتى ما يصعب إقتلاعه، وحتى ما نفترض أنه من غير الوارد إقتلاعه.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 6 مارس (آذار) 2003

* * *

صدّام الذي لا بد سيجدّد.. إذا نجا من الواقعة وكاسترو المجدّد له.. إذا أوقف السيجار

تزايد إقتناعي وأنا اتابع منصتاً وناظراً ردود وزير التجارة العراقي الدكتور محمد مهدي صالح على أسئلة زميلنا عبد الرحمن الراشد في «ساعة سياسة» يوم الأحد 2 مارس (آذار) الجاري، والذي تصرّ مذبغة الربط في محطة تلفزيون «المستقبل» على أنه مدير تحرير صحيفة «الشرق الأوسط» ومن دون أن تتدارك الأمر حلقة بعد حلقة، كذلك من دون أن يلفت صاحب البرنامج النظر إلى أنه رئيس تحرير «الشرق الأوسط» وليس مدير التحرير.. وهذا ليس من الشكليات... تزايد إقتناعي بأن د. مهدي من بين خمسة أمامهم فرصة إسناد منصب رئاسة الحكومة إلى واحد منهم.. هذا في حال حدثت المعجزة التي طالما أشار إليها طارق عزيز نائب رئيس مجلس الوزراء، الممسك منذ سنوات بملف السياسة الخارجية، ونجا نظام الرئيس صدام حسين بحيث لا تقع الواقعة... واقعة الحرب، ويخلد الرئيس إلى مرحلة من الإستقرار النفسي يعيد فيها النظر في أمور كثيرة وضمن معادلة الندم على

العربية. كما أن كاتب هذه السطور بدا في تذكيره بين الحين والآخر، ومن خلال ما يمكن قوله وجهاً لوجه أو على الورق أو على صفحات هذه المطبوعة، التي هي جريدة العرب الدولية، وكما لو أنه طائر يغرد خارج السرب الذي تتمنى طيوره، على أنواعها وأشكالها، أن يبقى الرسم قائماً على مدخل بهو فندق «الرشيد» يتكاثر «الدّواسون» عليه وبذلك يبقى الحقد الصّدّامي - البوشي المتبادل، قائماً في النفوس وبما يجعل العداوة متأصلة والحرب على العراق «مشروعة» من وجهة النظر التكتاسية، وغير مبررة من وجهة النظر التكريتية، ويبقى الحصار يفتك بأطفال و«شباب» وفقراء ديار الرافدين المسموح لهم بالموت حصاراً. وهؤلاء للعلم والخبر لا طريق لهم إلى فندق «الرشيد» ولا هم من رواد مطاعمه ومقاهيه، بما في ذلك مقهى «الانترنت» في بهو الفسيح، ومسبحه وملعب «التنس» فيه. ولا هم أيضاً، من الذين في قدرتهم تناول عشاء «مسكوفي» أو من المشويات في ركن من حديقته الشاسعة. كما أنهم ليسوا ممن في إستطاعتهم أن يقيموا حفلة زفاف فيه. وما دامت تلك هي حال هؤلاء، فإنهم، وهم الأكثر تضرراً من الحصار الأميركي المتفاقم منذ 12 سنة، لن يدوسوا بأقدامهم ذلك الرسم الموزاييكي. وفي هذه الحال، فإنهم، وهم الأكثرية الساحقة، لا علاقة لهم بهذا الرسم لا كفكرة ولا كمردود معنوي.

لقد حملت أحدث الأخبار من بغداد إلينا، نحن الذين نتمنى أن لا ينتهي أمر «البوابة الشرقية» إلى أن تصبح بوابة أميركا الممتدة إلى المنطقة، النبأ السار الذي يتمثل في انه تمت تغطية الرسم الموزاييكي بسجادة حمراء، وكأنما وضع هذه السجادة التي يتم عادة فرشها في مناسبات الإستقبال الرسمية هو الحل الوسط بين إقتلاع الرسم والإبقاء عليه، مع أن الأفضل هو إقتلاعه الى الأبد، خصوصاً أن الإبقاء على هذا الرسم، وإن كان لا يتم الإفصاح عن ذلك، هو بند في سلسلة الحثيات التي توجب الحرب من وجهة نظر الإدارة الأميركية وحليفها البريطاني على العراق، أو إذا جاز القول إنه البند الذي من أجله يريد الرئيس بوش الإبن، لو أمكنه ذلك، إسقاط الرئيس صدام وإهانته بقدر إهانة هذا الأخير لوالد الرئيس بوش الأب، من خلال الرسم الموزاييكي الذي شكّل إهانة غير مطروقة، ومن الصعب ضمناً التسليم بها.. وإن كان الظاهر هو نوعاً من التسليم.

خطوات وإجراءات حدثت طوال ربع قرن، وتعويض العراقيين حقوقاً كان النظام يرى بأنها من النوع السابق لأوانه مع انها كانت ستقيه المخاطر التي تتجمع حوله، والشروع في عملية تصحيح داخلية وعلى الصعيدين الإقليمي والدولي.

فالنظام إذا نجا لن يبق العراق من دون دستور توافقي لا تكون بعض مواده من حيث الروحية بمثل بنود وردت في مسودة الدستور الذي كان في صدد إعلانه بعدما أشبع نقاشاً وتمحيصاً في أعقاب نهاية الحرب مع إيران. ومن حسن حظ الإجماع الوطني أن مسودة الدستور تلك بقيت في الملفات لأن الإعلان عنه كدستور دائم كان سيظهره على أنه «دستور صدام حسين» مفصلاً على قياس رؤية الرئيس للحكم وللمستقبل العراق وهي رؤية ترضيه إلا أنها تبقى على فكرة الإجماع ضامرة، وتبقى على الحذر مستشرياً، وتبقى على الحزب الواحد مستأثراً، وتبقى على الشورى شبه مغيبة وعلى الصحافة شبه مكتمة وعلى الحياة الحزبية شبه محزومة وعلى المشاركة في صناعة القرار شبه مقيدة وعلى العائلة شبه مستحكمة.

والنظام اذا نجا لن يستمر على التركيبة التي هو عليها وبالتالي لن يبقى «مجلس قيادة الثورة» هو المرجعية الأولى ولن يبقى الرئيس صدام رأس هذه المرجعية ورأس المرجعية الحزبية ورأس المرجعية التنفيذية بشقيها رئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس الوزراء، وإنما لا بد من إعادة نظر جذرية في السياسات وفي الأشخاص وفي الأساليب، أي بما معناه سيكون هنالك رئيس للجمهورية وثلاثة نواب له، وهنالك رئيس مجلس وزراء ونواب له، ومجلس وطني في ضوء انتخابات حرة ويملك صلاحية محاسبة الحكومة وإسقاطها، ومجلس شيوخ يكون بمثابة خيمة للحضور العشائري في الدولة وحياة حزبية ضمن صيغة تداول الحكومات بحيث يترأس الحكومة من له الأغلبية في البرلمان وبذلك تكون هنالك حكومة عاملة وحكومة ظل. كما انه لا بد من صحافة حرة خاضعة للقانون، ونظام مالي وإقتصادي خاضع لضوابط. ولا بد بطبيعة الحال من مصالحة ليس بين البعثيين والآخرين وإنما مصالحة تشمل الجميع وذلك لأن الخصومات والعداوات والثارات تشمل الجميع وتتعلق بعدة عهود مرت على العراق.

وإعادة النظر التي ستكون متأثرة بما حدث طوال ربع قرن وبالذات التأثير الناشئ عن التطورات المتعلقة

بالحرب، حاضرة على نحو ما سبق أن عرفته من الرئيس صدام وما أعرفه من خلال لقاءات مع أخوة وأصدقاء عراقيين من بينهم السفير برزان التكريتي أحد أخوة الرئيس من والدته والذي طالما حاول إسداء النصيحة في ما يخص العلاقة مع الأشقاء الخليجيين ومع الجار الإيراني. وهذه اللقاءات أعقبت ذلك الإجهاد البغيض المتمثل بخسارة العراق بفعل الإجتياح للكويت كعمق طالما كان السند المالي والسياسي والتمويني والمنبر الإعلامي لنظام الرئيس صدام في زمن الشدة العراقية الناشئة عن الحرب مع إيران، ونشوء حذر خليجي في نظام أدخل إجهاده الإجتياحي البغيض. فالإلغاء والضم بصيغة الإحتلال أدخل الشكوك في نفوس أولي الأمر بدءاً من الرياض وصولاً إلى مسقط. وعلى نحو ما أعرفه فإن تبديد مشاعر الحذر هذه هي في أولويات النظام العراقي إذا كتبت له السلامة ونجا من الواقعة التي تقترب من بوابات الرافدين. وعندما أثمر أسلوب وزير التجارة الدكتور محمد مهدي صالح الخطوة النوعية في القمة العربية الدورية الثانية في بيروت على طريق المصالحة متمثلة بعناق السيد عزت إبراهيم الدوري نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي وولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز، فإن إقتناع الرئيس صدام بـ «الأسلوب التصالحي» تزايد وبات محمد مهدي صالح الذي يتميز بثقافة عالية وقسمات وجه تدعو إلى الإرتياح ودأب ملحوظ في ممارسة الواجب الوزاري، دائم الحضور في الإجتماعات العربية ودائم التصريح حول قضايا لا تتعلق فقط بالأرقام والتجارة والتموين وهي عموماً تصريحات لها بعدها الإستراتيجي وخالية من مفردات برع فيها بعض المسؤولين العراقيين وأكثرها من ترددها مع أنها لم تحقق أي فائدة. وعند التأمل في المشادة الدورية الصبّاحية في قمة الدوحة والمقارنة بين كلام الدكتور محمد مهدي صالح في «ساعة سياسة» عبد الرحمن الراشد وبين المفردات التي إستعملها السيد عزت الدوري، يخرج المرء بإنطباع يقوم على أن محمد مهدي صالح يليق في حال نجا العراق والنظام من «الواقعة البوشية» بإدارة السلطة التنفيذية وبما يجعل الأطراف المعنية على درجة من الإرتياح.

ويبقى بالنسبة إلى هذا الشق من الهوامش القول إنه من النادر أن يكون الرد السياسي الحازم على إقتراح وزير الخارجية الإيراني الدكتور كمال خرازي

يوم الثلاثاء 4 مارس الجاري في شأن إستفتاء في العراق حول إنتقال السلطة جاء في اليوم التالي ومن الدكتور محمد مهدي صالح، مع أن الرد على مثل هكذا إقتراح لا يأتي من من يشغل منصب وزير التجارة. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن خرازي قال: «ينبغي على الحكومة العراقية أن تقبل وتسمح بإنتقال السلطة في العراق تحت إشراف الأمم المتحدة ونحن نعتقد ان هذه الخطوة صادقة وأن الإنتقال السلمي هو الحل السلمي الوحيد لتغيير النظام العراقي ومنع نشوب حرب في المنطقة. أما رد محمد مهدي صالح فتمثل بقوله: «إن إيران تتكلم في مسائل ليست من اختصاصها ونحن لا نتدخل في الشؤون الداخلية الإيرانية. ثمة أيضاً معارضة إيرانية خارج إيران ولكن لا يحق لنا أن نخط لإيران الطريق الذي تسلكه...». وهو كلام متأن يعكس نوعية أسلوب من التخاطب الراقي. وإلى ذلك انه من النادر ان يكون وزراء التجارة أعضاء في وفود إلى مؤتمرات لا تتعقد بغرض التجارة ولكن مشاركة محمد مهدي صالح هي بمثابة الإستثناء في قاعدة. بل لعل هذه المشاركة هي رسالة يريد نظام الرئيس صدام حسين إيصالها إلى أكثر من طرف. ومن بين هذه الأطراف كما قد يتبين ذات يوم الطرف الأمريكي وعن طريق قنوات عربية. والمهم أن تسلم الجرة من الكسر على نحو التعبير الشعبي السائر وأن يتم إستبدال الحرب الماحقة إذا هي حدثت، بالضربة الكفيلة بتخفيف نسبة الشحن في نفوس ربع مليون عسكري أميركي وبما يجعل النجاة ممكنة. والله اعلم.

ونأتي إلى الهوامش المتعلقة بظاهرة تدخين السيجار الكوبي التي أثارها زميلنا بكر عويضة في مقالته يوم 2003/3/4 والمعنونة «ساسة... وسيجار». وما يمكن قوله في هذا الشأن أن إستهجان بكر للظاهرة في محله لو أن إخواننا في العراق كانوا يدخلون السيجار الكوبي الفاخر عموماً الذي ثمن العلبة الواحدة منه تساوي المرتب الشهري لأستاذ في الجامعة أو لضابط برتبة لواء في الجيش. ويدفعون من جيوبهم ثمن هذا السيجار. ولقد سبق لي قبل بكر عويضة ومنذ سنوات، أن إستهجن مسألة السيجار هذه إلى أن أوضح لي بعض مدخنيه من افراد الحلقة القليلة العدد المحيطة بالرئيس صدام بأن هذا السيجار هو من خيارات صديق العراق الثابت على الصداقة فيديل كاسترو الذي ينطبق عليه مع بعض التعديل قول الشاعر: «لا أسلحة عندي أهديها ولا مال ...

فليُسعف السيجار إن لم يُسعف الحال". وفي إستمرار «كان الرفيق فيديل» الذي يرسل عادة الكمية الكبرى من السيجار مع أحد الأطباء الذي وحده من دون سائر أطباء العالم يشرف على علاج آلام الظهر التي يعاني منها الرئيس صدام، وهذا الطبيب الذي منحه كاسترو منصباً في اللجنة المركزية لـ "الحزب القائد" في كوبا لإضفاء الصفة الرسمية إلى جانب الصفة التطبيبية، بات من أصدقاء الرئيس صدام وعائلته.

وإستكمالاً لمسألة تدخين السيجار التي يستهجنها بكر، نضيف بأن الرئيس صدام يوزع «مكرمة الرفيق فيديل» على بعض كبار المسؤولين الذين باتوا وحدهم دون غيرهم من المسؤولين يدخلون السيجار ومن دون أن يكون ذلك مجازاً في حضرة الرئيس... إلّا إذا هو أشار أو قدّم لأحدهم سيجاراً. وهو في ذلك مثل الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان «الرفيق فيديل» نفسه يمدّه بكميات من أجود أنواع السيجار الكوبي مع فارق أن عبد الناصر إعتبر، على عكس صدام، أن تدخين السيجار في مصر المثقلة بهجوم التحول الإشتراكي غير جائز. وأن ظهوره على الناس يدخلن السيجار على نحو ما يفعل صدام سيجعل صورته على غير ما يريد وسيبدو مثل بورجوازي العهد «المباد» أمثال المرحوم فؤاد سراج الدين زعيم حزب «الوفد» الذي إستمر حتى ما قبل معاناته مع المرض يدخلن السيجار متباهياً بذلك بينما عبد الناصر الذي لم يتخل عن السجارة العادية وإستمر حتى ما قبل وفاته ورغم نصائح الأطباء التحذيرية يدخلن، كان يوزع «مكرمة الرفيق فيديل» على السيجارين وبالذات عميدهم زميلنا محمد حسنين هيكل. كما أن الرئيس صدام في المسألة السيجارية هو أيضاً مثل الرئيس هوري بومدين الذي إستعذب تدخين السيجار الكاستروي إلى حين واورث هذه الهواية إلى بعض المقربين إليه أمثال صديقه الثابت على العهد زميلنا في مجموعة كُتّاب «الرأي» في «الشرق الأوسط» الدكتور محيي الدين عميوم. والمسألة بإختصار يا أخي بكر أن هؤلاء جميعاً دخلوا السيجار وما زالوا لأنه هدية مجانية. وإذا حدث وأوقف «الرفيق فيديل» الذي جدد له برلمانه يوم الجمعة 7 مارس الجاري ولاية رئاسية سادسة مدتها خمس سنوات يكون في نهايتها إذا كتب الله له العيش في الواحدة والثمانين، لسبب ما توريد هداياه، فإن ظاهرة تدخينها ستنتهي، فضلاً عن أنها حتى إشعار آخر مثل هدايا صناديق التفاح إلى الرئيس عبد الناصر من رؤساء

التي تبالغ في التهويل والتضليل وتكثر من تزيين محاسن الحرب.. وكأنما هنالك حسنات لإراقة دماء الأرواح التي خلقها الله سبحانه وتعالى لكي تعيش وتسبح بحمده وتشكر نعمته وتستغفره عن كل خطأ يتم إرتكابه، أو معصية يقع فيها المرء من دون قصد، أو خطيئة نتيجة إجتهاذ وحساب مبني على التهور. وما نقصده بإحترام الرئيس بوش الإبن لإرادة الرأي العام الدولي هو توجيه «رسالة إلى العالم» بمثل رسالته عن «حالة الإتحاد» يعلن فيها انه رأى في ضوء نظرة على أحوال العالم صرف النظر عن الخيار الحربي، وذلك على أساس انه عندما قرر الأخذ بهذا الخيار وأعطى الأوامر لتحشيد القوات والآليات وحاملات الطائرات على رمال الخليج وفوق مياه هذا الخليج الذي ينشد الهدوء ولا يناله منذ عشرين سنة، فمن أجل سلامة العالم وضمان إستقراره وإزدهاره. وأنه ما دام الرأي العام في دول العالم قاطبة عدا إستثناءات بسيطة يرى أن الحرب ليست حلاً، فضلاً عن أنها ستؤسس لعالم من الأحقاد والكراهية والحروب الصغيرة وستدمر القيم وتقضي على أجيال تريد أن تحيا بسلام، فإنه سيرضخ للإرادة الدولية وسيجعل من القوات التي أرسلها لكي تحارب، بمثابة جيش للسلام مؤكداً بذلك انه لا يريد الحرب من أجل متعة الحرب وتخمة ثروة النفط وتدعيم الوجود الإسرائيلي على أرض فلسطين وإنما أرادها خياراً يفيد الجميع. وما دام رأي «الجميع» يخالف رؤيته فإنه كحاكم مسؤول عن «النظام العالمي الجديد» يفضل أن يكون خياره من خيار الشعوب. وبذلك يكون نجى العالم من كارثة الألفية الثالثة وعلى هذا الأساس يستحق جائزة «نوبل للسلام» وبإمتياز لأنه كان يملك بتوقيع لا يستغرق ثانية إشعال حرب قابلة لإستتساخ حروباً على مدى القرن الواحد والعشرين. وإذا فعل الرئيس صدام من جانبه ما يجعل الحرب لا تحدث مفدياً بنفسه كارثة تصيب العراق والأمة فإنه يتنافس «أم الجوائز» مع غريمه الرئيس بوش.

المستحق الثاني - مناصفة بين الرئيس الفرنسي جاك شيراك والمستشار الألماني غيرهارد شرودر اللذين إفتديا بصدرهما الحرب التي كان يمكن حدوثها قبل ثلاثة أشهر لولا انهما إتخذوا وقفة مبدئية تتسم بالتوازن حيث انهما أصرا قدر إستطاعتها على إسقاط الخيار الحربي وإفساح المجال امام الحوار السياسي والتفتيش المتأني في أرجاء العراق عن اسلحة

لبنان الذين عرفهم وبادلهم الهدايا بصناديق المانغا، وهو ما كان يفعله الرئيس محمد أحمد محبوب مع الملك فيصل بن عبد العزيز وما إستمر يفعله رؤساء السودان ورؤساء لبنان بعد ذلك مع الذين لا تقاح عندهم ولا مانغا، كما أنها مثل أكياس البن التي كانت تصل إلى بعض الحكام العرب من اخوانهم حكام اليمن السعيد مرفقة بالجرار الصغيرة من العسل الذي لا مثيل له من حيث تخفيف الأرق وتنشيط الذهن والحيوية.. هذا عدا الخناجر اليمانية التي يصنعها خناجيريون يمانيون مهرة ولذا فإن رونقها كهديا يختلف عن رونق الساعات السويسرية التي كانت تأتي إلى البعض لشهدى ومن دون لمسة تراثية محلية عليها. وكان الرد على الهدية التحية أياً كان نوعها دائماً بأحسن منها.

ألف رحمة على الجميع وأطال الله أعمار من يواصلون اعتماد هذه التقاليد.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 12 مارس (آذار) 2003

* * *

«أم الجوائز»... والحرب على العراق

من قبل التأكد حول ما إذا كان شبح الحرب الأسود سيتوارى أمام طيف السلام الأبيض وبحيث تصرف إدارة الرئيس جورج بوش الإبن النظر عن الخيار الحربي مستبدلة إياه بالخيار التوافقي، بدأ معهد «نوبل» النرويجي للسلام يستعد منذ الآن لـ «أم الجوائز» ونعني بها "نوبل للسلام". والإستعداد هذه المرة شاق ذلك أن قائمة المرشحين طويلة وتتنوع بين 129 شخصاً.

من بين هؤلاء خمسة لا ندري إذا كانت أسماؤهم واردة في القائمة، لكن ذلك لا يعني أنه لا يجوز لكاتب مثل حالنا ان يسمي هؤلاء الخمسة كون الواحد منهم يستحق الجائزة. وعلى النحو الآتي نسجل الأسماء والحيثيات:

المستحق الأول - الرئيس جورج بوش الإبن، في حال إرتأى إحترام إرادة الرأي العام الدولي من القطب إلى القطب بمن في ذلك الرأي العام الأميركي والبريطاني الرافض بشدة للحرب على رغم غسل الدماغ اليومي من جانب طاحونة الإعلام على أنواعه

الدمار الشامل، وفي الوقت نفسه عدم تغييب الإهتمام عن القضية الأكثر أهمية وهي القضية الفلسطينية التي من الضروري بذل الجهد المخلص من أجل إيجاد الحل المتوازن لها، مقدمة لحسم الصراع العربي - الإسرائيلي في ضوء ما تنص عليه القرارات الدولية. وعلى رغم المخاطر الناشئة عن الوقفة الفرنسية . الألمانية المشتركة والتي إستقطبت رأياً عاماً عريضاً ودولاً كانت مترددة، فإن الاندماج الأميركي - البريطاني في إتجاه الخيار الحربي إستمر محموماً.

المستحق الثالث البابا يوحنا بولس الثاني رئيس الكنيسة الكاثوليكية الذي قاد «إنتفاضة مسيحية» ضد الحرب معتمداً سلاح النصيحة والصلاة وإستتفار بقية الكنائس بحيث بات الموقف الكنسي موحداً كما لم يحدث من قبل وكما لا يحدث مع المذاهب والطوائف الإسلامية. وعندما تقف الكنيسة البروتستانتية داخل بريطانيا ثم داخل الولايات المتحدة الى جانب الكنيسة الأرثوذكسية مع إنتفاضة رئيس الكنيسة الكاثوليكية، أي بابا الفاتيكان، ضد الحرب فهذا معناه أن هذه «الإنتفاضة» قطعت الطريق على عداوة إسلامية - مسيحية سيكون شرؤها مستطيراً على نحو رؤية البابا يوحنا بولس الثاني الذي ينه من خطورتها منذ ان بدأ «إنتفاضته» التي نشير إليها. ومثل هذا الجهد من جانب الرئيس الروحي للعالم الكاثوليكي يشكل حيثية لكي تكون «نوبل السلام» من حصته.. فضلاً عن انه سيكون لافتاً للإنتباه حصول أحد باباوات الفاتيكان للمرة الأولى على «أم الجوائز».

المستحق الرابع - ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز الذي تحولت رؤيته في شأن الصراع العربي - الإسرائيلي إلى مبادرة حظيت بإجماع العالم العربي وبانت في ضوء هذا الإجماع قاعدة لوضع العملية السلمية الجدية على الطريق الصحيح. وإذا كانت الإدارة الأميركية لم تغتنم الفرصة وتعمل جاهدة على الأخذ بالمبادرة ووضعها موضع التنفيذ وبذلك تنشر الإستقرار والسلام في منطقة الشرق الأوسط وفي العالم عموماً، فإن ذلك يحملها ويحمل حليفها أرييل شارون وزر الإضطراب الحاصل في العلاقات الدولية، فضلاً عن أن عدم إغتنامها الفرصة على رغم كثرة وعود الرئيس جورج بوش الابن في هذا الشأن سيتسبب في تراجع فرصة الحل العادل والشامل للصراع العربي - الإسرائيلي وسينعكس التراجع سلباً على السمعة الأميركية وعلى قدرة التأثير الأميركي في

المحيط الدولي.. وحتى على أصدقاء أميركا التقليديين في العالم. ولا بد من الإشارة إلى أن ولي العهد السعودي ألحق المبادرة المشار إليها والتي نشأت من رؤية موضوعية تكونت في خاطره قبل أن تصل إلى القمة الدولية الثانية في بيروت في 24 آذار (مارس) 2002 وتبنها كموقف يمثل الأمة، بـ «الميثاق الإصلاحي» الذي في حال الأخذ به سيشكل المزيد من الدعم لتلك المبادرة. ولقد كان مؤسفاً كثير الأسف أن هذا الميثاق لم يأخذ فرصته في القمة العربية في «شرم الشيخ» إلا أن ذلك لا يعني وضعه على الرف وذلك لأن الإصلاحي مطلوب ولأنه دعامة للإستقرار والسلام في المنطقة التي أظهرت التطورات مدى أهميتها وكيف أنها قادرة على أن تجعل العالم من القطب إلى القطب يتزلزل. ومثل هكذا رجل دولة قال في قمة «شرم الشيخ» كلمة الحق في شأن الحرب وهي «إنها هزيمة للقيم وأن القاتل والمقتول في الحروب شركاء في الهزيمة» وقال أيضاً «لنتذكر أن الرصاصة إذا انطلقت لا يمكن لها في خضم الفوضى أن تميز بين البريء والمذنب، الرجل والمرأة، الشيخ والطفل... هي في كل الأحوال لا بد من أن تستقر في مقتل، وأعوذ بالله من إراقة الدم الذي عصمه الله... أن مثل هكذا رجل دولة يجمع الحكمة مع بعد النظر ويكون إلى جانب رأيه الوجداني في الحرب وراء تلك المبادرة وصاحب «الميثاق الإصلاحي»، تليق «أم الجوائز» به بقدر ما يليق هو بها.

المستحق الخامس - هو «الإنسان العالمي» الذي أحدث بالتظاهرات وحدة موقف إنساني جمعت الأميركي إلى جانب الأوروبي إلى جانب الآسيوي إلى جانب الأفريقي إلى جانب الأسترالي في بوتقة واحدة ضد الحرب. وفي هذه التظاهرات كان الخوف على الأجيال هو الدافع الى التعبير بعفوية عن معارضة الحرب. ومن أجل ذلك رأينا وحدة أديان ومذاهب سماوية ودنيوية، ورأينا الجد والأب والحفيد، ورأينا الجدة والأم والصبية، ورأينا الممثل السينمائي ورجل الدين والموظف العادي والأديب والأكاديمي والشاعر.... رأينا هؤلاء جميعاً يشاركون في التظاهرات ويرفعون الصوت عالياً بإسم القارات الخمس ضد الحرب. وإزاء ذلك فإن منح «أم الجوائز... نوبل للسلام» إلى «الإنسان العالمي» هو عين الصواب على أن يتم إختيار خمسة أطفال من الجنسين يمثلون القارات الخمس لتسليم الجائزة لهم.

ويبقى أن هذه الترشيحات قد تسبق الحرب أو تتزامن مع بدئها، كما أن هذا الكلام الذي أوردناه قد يبدو مثل لوحة تجريدية ويتم قوله بينما الصواريخ على أهبة الفتك بالبشر والحجر من أجل النفط وحياً بالإنقاذ وتكريساً للهيمنة. ولكن أليست هذه اللوحة تبقى أفضل من المشهد المرعب للعالم الذي يبدأ ألفيته الثالثة تحت نار الحرب؟

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 19 مارس (آذار) 2003

* * *

المسكينتان ... «قادسية بوش»

مسكينة راشيل كوري، الصبيّة الأميركية الحلوة ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً. فقد ضاعت بطولتها في خضم الحماقات التي يقترفها كواسر الإدارة الأميركية المندفعون بقوة الإحصار في اتجاه الحرب، أو «قادسية بوش» إذا جاز التوصيف، جارفين في طريقهم الشرعية الدولية ومنظمة الأمم المتحدة، وضاعت في خضم الماحكات الفلسطينية المتعلقة بالترتيبات التي يشترطها الرئيس جورج بوش الابن على السلطة الوطنية العرفانية التي نتقوا لها ريشها ولم يبق سوى الوبر الذي لا يردع عدواناً. وهي ماحكات تتعلق بإستحداث منصب رئيس الوزراء الذي إستقر الأمر على أن يكون محمود عباس (أبو مازن) الذي لا إعتراض عليه من حيث المبدأ من جانب الإدارة الأميركية والذي هنالك شبه ترحيب بمقدمه من جانب الشارونيين. ولقد طال أمد الماحكات لكثرة الأخذ والرد في شأن الصلاحيات التي ستعطى إلى هذا الرئيس المرتبط الرضى الكامل عنه بقدرته على إنهاء الإنتفاضة وإعلان «أمركة» القضية الفلسطينية. كما أن بطولة الصبيّة الأميركية راشيل كوري ضاعت في خضم هدايا الشارونيين لمناسبة تحقيق المطلب الأميركي - البريطاني - الإسرائيلي والمتمثل بإستحداث منصب رئيس الوزراء وإسناد المنصب إلى أبو مازن. والهدايا في معظمها إعتداءات وتدمير بيوت وإغتيال قيادات جهادية واعتقالات وصمت دولي على ذلك لإنشغال البال بالموضوع العراقي.

لقد كنا نتوقع ونتمنى في الوقت نفسه أن يقف أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني دقيقة صمت

حداداً على الواقعة المأساوية للصبيّة الأميركية، لا أن يكون الجميع غارقين في مناقشة أمور تتعلق بمنصب رئيس وزراء دولة لم تولد بعد وحرص المناورين داخل كواليس البرلمان الفلسطيني على أن لا تتأثر صلاحيات أبو عمار الذي هو الآخر رئيس بلا دولة. وكنا نتوقع ونتمنى على أساس أن الصبيّة الأميركية الحلوة ابنة الثلاثة والعشرين ربيعاً راشيل كوري جسدت قمة البطولة عندما تصدت بقامتها يوم الأحد 16 مارس (آذار) الجاري لجرافة إسرائيلية كانت تهدم منازل فلسطينيين وتجرف أراضيهم في رفح جنوب قطاع غزة، فلم يهتم الجارف الشاروني المعتدي بنبل مقصدها فجرفها هي الأخرى محطماً مجتمعتها وأطرافها. ولقد حدث ذلك بينما ثلاثي الحرب بوش - بلير - أزنار يلتقون في الجزيرة البرتغالية ذات التاريخ المخزي كونها جزيرة قراصنة البحر، ويتفقون على أن الحرب أهم من القانون الدولي وأن مغنم الحرب أهم من منظمة الأمم المتحدة وأن الإنجاز المبهر الذي يتمنى هذا الثلاثي الرئاسي تحقيقه هو أن يجرفوا هذا المد الهائل من الناس الذين يفعلون بحناجرهم في معظم دول العالم ومن خلال المسيرات والتظاهرات المناوئة للحرب ما فعلته راشيل كوري بقامتها. في الحالتين كانت هنالك مواجهة جسورة للشر.

ماتت الصبيّة الحلوة من دون أن تهتم «ماكينة» الإعلام في بلادها وفي دول معسكر الحرب البوشية عموماً. وهي لو كانت قضت نتيجة مشاركتها في تظاهرة ضد صدام حسين أو ياسر عرفات وأصابها رصاصة شرطي عربي أو صدمتها خطأ سيارة رجال أمن وأودت بحياتها لكانت «ماكينة» الإعلام حولتها إلى «جان دارك» الألفية الثالثة ولكانت شركات الإنتاج في هوليوود تتسابق لتحويل قصتها إلى فيلم الأفلام. أما أنها ماتت أبشع ميتة وتحت جنازير جرافة شارونية فهذا مجرد قضاء وقدر في نظر الشارونيين بطبيعتهم الصهيونية والمتصهينة.

ما يلفت الانتباه ليس فقط موقف إسرائيل و«ماكينة» الإعلام الأميركية من واقعة راشيل كوري التي حاولت وقف التدمير والتجريف الشاروني بقامتها التي هي مثل غصن شجرة زيتون، وإنما الذي يلفت الانتباه أيضاً هو أن الفضائيات العربية المشغولة بمباريات ملكات الجمال وسباق الأغاني والمسابقات المعلوماتية وإختيار نجوم المستقبل في عالم الغناء، لم تجد متسعاً من الوقت لإلقاء الضوء المبهر على بطولة

الصبيّة الأميركية التي مارست الإستشهاد بالطريقة التي تجعلنا ننحني أمامها وتوجب علينا الأخذ في الاعتبار أن في أميركا أصحاب ضمائر حية بمثلما هنالك أشرار يستعذبون الحروب، وأن الصبيّة راشيل كوري التي إفتدت حياتها من أجل نصرة المظلوم ضد الظالم تستحق أن تكون التمثال الآخر للحرية إضافة إلى التمثال الفرنسي النحت الذي تتباهى أميركا بشموخه في نيويورك، وذلك لأنها نموذج لكل أميركي يرى أن الله سبحانه وتعالى يحرم القتل ويحرم العدوان وأنه خلق الأرض لكي يحرثها البشر ويزرعوها ويبنوا فوقها ولم يخلقها للجرافات الشارونية وبقية مغامرات وحروب بعض حكام هذا الزمان بالذات.

المسكينة الأخرى هي الأم العربية المكلومة وبالذات الأم العراقية ومعها أختها الأم الفلسطينية ومن قبلهما الأم اللبنانية اللواتي واجهن من عاديّات الدهر ما لم تواجهه أم في ديار الأمة. وإذا كنا سنستعيد من الذاكرة الأهوال التي واجهت الأم اللبنانية طوال ست عشرة سنة منذ إندلاع الحرب في نيسان (أبريل) 1975 وحتى إعلان إتفاق الطائف الذي ما كان ليتم التوصل إليه لولا لهفة ونخوة من إستضاف ومن قام بواجب الرعاية حتى اللحظة الأخيرة، أي المملكة العربية السعودية شعباً وقيادة، فإن ذلك يحتاج إلى مسلسلات. ولكن الذي يمكن قوله عن تلك الأهوال هو أنها كانت بتقل الجبال، كما أنها في بعض مراحلها تمثل الأهوال التي نتابعها يومياً عبر شاشات الفضائيات التي تتولى البث الحي من مدن الضفة الغربية وقطاع غزة لما تعيشه الأم الفلسطينية على مدار الساعة حيث أنها إما تبكي ابناً أو شقيقاً أو زوجاً أو والدّة أو والدّاً أو طفلاً ما زال رضيعاً أو تتحسر على مأوى إرتضت ذله، ومع ذلك لم يرحمها القصف الشاروني ولا ترفّق بحالها المعتدي الإسرائيلي الذي يجوب المخيمات وشوارع البلدات الفلسطينية من بيت لحم إلى رفح بجرافات تدمّر البيت أمام من فيه... وعلى من فيه في حال أن ساكن هذا البيت قرر أن يصمد في هذا البيت. ومن المؤكد أن هذه الأهوال التي نشير إليها كانت من جملة دوافع الصبيّة الأميركية راشيل التي تصدّت بقاتها للجرف الشاروني فلم يوقف هذا اللعين جرافته محطماً جمجمة تلك الأميركية النبيلة التي لا يعينها النفط ولا المغنم، كما أنها تريد أن تكون ابنة الدولة التي تستعمل القوة من أجل الإستقرار وليس من أجل وضع اليد على الآخرين، ذلك أن أحفاد الأمبراطوريات الراحلة لم يفهم

في شيء أن أجدادهم كانوا أباطرة أزمانهم. الآن نحن أمام المشهد الأكثر إيلاً على النفس حيث أن الأم العراقية التي إكتوت بأهوال الحصار وفقدان بعض فلذات الأكباد نتيجة فقدان الدواء والإفتقار إلى الرعاية الصحية المناسبة، تواجه أهوال «قادسية بوش» كأنما برئت الجراح الناشئة عن «قادسية صدام» طوال ثماني سنوات تليها مباشرة جراح «أم المعارك»، وكأنما ما زال في جدار غرفة الإستقبال في البيت مكان للمزيد من صور الذين قضوا من أجل لا شيء ودفعوا حياتهم ثمناً نتيجة أن العناد كان سيد الموقف. وتأتي أهوال «قادسية بوش» في اليوم الذي هو عيد الأم وتكون الهدية لها... ومنها إلى كل أم عربية تتحسس محنة أختها العراقية ومحنة أختها الفلسطينية ومحنة الأخت اللبنانية من قبل، مع أن الهدية التي تليق بهذه الأم هي رفع الحصار عن بلدها لكي تداوي جراح عشرين سنة من المعارك والحصار.

خلاصة القول: مسكينة راشيل الأميركية المجروفة على أيدي الشارونيين الذين تلقوا ساعة بدء «قادسية بوش» تسعة مليارات دولار هي عبارة عن ضمانات قروض تمتد على أربع سنوات إضافة إلى هبة عسكرية بقيمة مليار دولار. وقد أعلنت هذه «البشرى البوشية»، مستشارة الأمن القومي، كونداليزا رايس التي إتصلت لهذا الغرض بوزير المالية الإسرائيلية بنيامين نتنياهو وأبلغته وهي في غاية السرور، بالمليارات العشرة. وعندما طلب نتنياهو منها وبصيغة الطلب وليس التمني «تقديم المساعدة العسكرية دفعة واحدة وفي أسرع وقت ممكن كتعويض عن النفقات التي تكبدها الجيش الإسرائيلي في الإستعداد للحرب ضد العراق وفي الحرب على الفلسطينيين» مذكراً إياها بأن شارون كان يتوقع أن تكون الهدية العسكرية مليارين وليس ملياراً واحداً، فإن كونداليزا وعدت بدرس الطلب بالإيجاب. ومع أن الإتصال كان مناسبة لتقول كونداليزا لهذا الليكودي نتنياهو ما هذا الذي فعلتموه بالصبيّة الأميركية راشيل كيري وأي جريمة شنعاء إرتكبتوها فإنها أقلت السماع لتتابع الأهوال التي ستلحقها «قادسية بوش» بالأم العربية المظلومة متمثلة بالأم العراقية. أعان الله أمنا هذه، ورحمته تعالى على الصبيّة الأميركية النبيلة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 22 مارس (آذار) 2003

* * *

الإجتياح الثاني في زمن العولمة وخط الدفاع الأول في وجه الهيمنة

لماذا يفعل بضعة أشخاص بأميركا الحرية والتعددية والتنوع وأرض الطموحات هذا الذي يفعلونه؟ ولماذا يمارس هؤلاء من التلاعب ما يجعل الدولة التي كانت بمنزلة الحلم الجميل تتحول إلى الدولة الكابوس؟ ولماذا أوصل هؤلاء الأحوال إلى أن أميركا باتت الدولة التي تعتدي بينما كانت هي الأمل في رد العدوان عن الشعوب المستهدفة بعدوان؟ ولماذا يعتمد بضعة كواسر جرى زرعهم تحت جنح التأمير في مفاصل الإدارة وباتوا مثل «الفيرس» الذي يهاجم برامج الكمبيوتر، إلحاق هذا الأذى بالهيبة الأميركية وبالسمة الأميركية؟

نقول ذلك من منطلق أن أي مسؤول حريص على بلده لا يمكن أن يفعل هذا الذي نشاهد فصوله وتداعياته، وكأنما الذي نشاهده هو فيلم من إبتكار صاحب خيال واسع وشريير، وليس صاحب خيال يثري الخير طارداً الشر، ويعزز الجمال مطارداً القبح، ويوسع محيط الإيمان حاسراً رقعة الكفر بالقيم.

يقال في معرض التعميم أن الدنيا مصالح، وأن ما تفعله أميركا أو ما يفعله بها بضعة كواسر هو من أجل تأمين هذه المصالح. لكننا كأناس صدمهم السلوك الأميركي وتتواصل الصدمات يومياً من جراء هذا السلوك نرى أن أقوال هؤلاء الكواسر وتصرفاتهم تثير الإستغراب وأن سلوكهم يفرض علينا إعتبار هذا السلوك بأنه تأمر على الدولة الحلم والدولة النموذج. فأهمية الدولة وعظمتها مثل أميركا هي أولاً في ثقة الآخرين بها وحبهم لها واعتمادهم عليها. وعلى أسس هذا المفهوم تتحقق أفضل المصالح ويمكن بناء أفضل العلاقات، وتطوير هذه العلاقات نحو الثبات.

لقد حدث بدل أن يتفهم أهل السياسة، متمثلين في مجلس النواب الأميركي، الأجواء العربية والدولية الراضية لأسلوب التعامل من جانب الإدارة وكواسرها مع الموضوع العراقي، أن قرروا الإنتقام من فرنسا بحجة أنها وراء التيار الذي أربك المخطط المرسوم. وجاء الانتقام يثير الدهشة حيث أنه بدأ بتغيير إسم البطاطا المقلية من الإسم الفرنسي المعروفة به وهو «فرنش فرايز» إلى إسم ثأري جديد هو «فريدم فرايز»، وإدراج الإسم الجديد في لائحة طعام مطعمي

مجلس النواب الأميركي، علماً بأنه إذا أخذ النواب بهذه التسمية وإقتدى بهم أعضاء الشيوخ في مطعمي مجلسهم، فإن ملايين الأميركيين الذين توارثوا التسمية الفرنسية للبطاطا المقلية أباً عن جد لن يتقبلوا الإسم الجديد، فضلاً عن أن تسييس هذا الصنف من الطعام الذي هو يومياً في برنامج الأكل لكل مواطن أميركي بالنظر إلى إرتباطه بالوجبة السريعة أي «البرغر» أمر غير مستحب في نظر المواطن. وهذا الإنتقام الذي نشير إليه ليس الوحيد وإن كانت أهميته في أنه يعكس نمط التفكير السياسي السائد في أوساط حلقات أهل القرار في مؤسسة الحكم الأميركية على أنواعها.

والى ذلك فإنه بدل أن تعطي الإدارة الأميركية الحالية أفضل الأمثولات في رقي التعامل مع القضايا العالقة وعلى قاعدة الإحترام المتبادل والتمسك بعدالة أصحاب الحق، وتخوض المعارك السياسية إلى النهاية قبل الإنتقال إلى المعارك الحربية تخوضها ضمن أصول المواجهة العسكرية، نجدها تتعامل بالكثير من الخفة والإستهانة مع الآخرين وإلى درجة أن تركيا التي كانت ضمن توزيع المراتب تقف إلى جانب أميركا لم تتحمل تلك الخفة والإستهانة وإملاء الطلبات بصيغة الأوامر فقررت أن تسبق دولاً عربية وإسلامية كثيرة ستقك الإرتباط ما دام التعامل الأميركي يتم على قاعدة الخطأ والإستعلاء وعدم التفهم الموضوعي للقضايا العالقة والأمني المشروعة.

ونجد أنفسنا هنا نعقد مقارنة بين الحال التي كانت عليها الولايات المتحدة قبل أن يستأثر بضعة كواسر بقراراتها وسياساتها بشكل عام وبالذات ما يتعلق بالقضايا التي تخص العرب والمسلمين وصولاً إلى مغامرة الاجتياح للعراق التي نعيش تطوراتها ونخشى كثير الخشية من تداعياتها، وبين الحال التي كان عليها العراق قبل مغامرة الإجتياح يوم الخميس 2 أغسطس (آب) 1990 للكويت، بادئين بالحال العراقية. والغرض من هذه المقارنة هو القول ان التآني ومراعاة المنطق والحق الإنساني وعدم الطمع والنأي عن إعتداد أسلوب القوة هو الذي يقي من الشرور والويلات، كما انه إذا كان لن يحقق مطالب فإنه على الأقل لا يعصف بما هو قائم ويترك المجال رحباً أمام إيجاد الحلول مهما إستعصت.

كان العراق قبل يوم الثاني من أغسطس (آب) 1990 موضع إعتراز الجميع به والأشقاء الجيران قبل الأشقاء عبر الخليج من ضفاف المتوسط إلى ضفاف

الأطلسي. وكان البناء متواصلاً والتطوير على أفضل ما يكون عليه التطوير. وكان الشعب العراقي يعيش خططاً من التنمية الانفجارية لا مثيل لها. وفي حينه كان الذي ينقص العراق فقط هو إنفتاح النظام على الآخرين والانتقال من عراق الشرعية الثورية إلى عراق الشرعية الدستورية. كما كان الذي ينقصه فتح النوافذ أمام نسائم التعددية والديمقراطية وتسييد القانون، وإتاحة المجال أمام صحافة غير موجهة ومناخ حزبي له ضوابط، وإبرام مصالحة بين النظام وشرائح العراقيين الذين أبعدهم النظام أو تسبب لهم بالأذى أو انه أدماهم، وأيضاً مصالحة بين النظام وسوريا ومصالحة بينه وبين إيران.

هذا ما كان ينقص العراق. لكن «فيروس» التزعم والقيادة إقتحم جسم النظام فجأة وجاء هذا الإقتحام في وقت بدأ عصر العولمة يبرز من وراء البحار مقدمة للإنتشار في كل أنحاء المعمورة. وفي خطوة لم يتوقعها أحد ولم يتمنوها غير المعادي للعراق وللأمة، كان إجتياح القوات العراقية للكويت يوم الخميس 2 أغسطس (آب) 1990 وكانت بداية الإنحدار في أحوال العراق ثم في أحوال العلاقة العربية والعلاقات الدولية ثم الحرب على العراق وحصاره وتقطيع أوصاله.. إلى أن تطورت الأمور في إتجاه ما نحن عليه الآن حيث العراق عرضة للثقت والشعب العراقي عرضة للتشتت والأحلام العريضة تتراجع أمام كوابيس التكالب الأميركي- البريطاني على العراق والتعامل معه على نحو تعامل أميركا ومن يصطف في طابورها مع أفغانستان.

لا ندري إلى أين سينتهي المطاف وهل أن العراق سيندر، أم أنه سيكون خط التصدي الحربي العملي للهيمنة، وذلك في ضوء المقاومة العراقية الجسورة للغزاة الأميركيين والبريطانيين، وفي ضوء الإصرار على إحتواء القصف الجوي التدميري للعراق.. وبالذات للمعالم السيادية فيه، والإستعداد للمزيد من تحمّل الأذى والصبر على الضيم، والتصميم على إلحاق المزيد من الإحراج للإدارة الأميركية والحكومة البريطانية وذلك من خلال سقوط المزيد من الجنود قتلى وجرحى إضافة إلى الأسرى على أرض العراق، وتدمير المزيد من الآليات والمدركات والطائرات إذا أمكن وعلى نحو اليوميين العصيين للغزاة (السبت 22 والأحد 23 آذار/ مارس الجاري) اللذين هزت نتائجهما الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية وبالذات بعد

عرض صور الجثث والأسرى على شاشة التلفزيون؟ قد يكون من المبكر الإجابة بحسم، إلا أن ذلك مرتبط بالحرب التي دخلت مرحلة التعقيد والإحراج والتورط بحيث أنها قد تطول، وكلما طال الحرب تعقدت الأمور أكثر وأكثر وباتت أميركا وبريطانيا في دائرة الحالة الفيتنامية، وهو ما ستشجعه ضمناً دول كبرى من بينها فرنسا وروسيا والصين بأمل أن تتحسر الهيمنة ولا تعود الكلمة الدولية محصورة في طرف واحد. كما أن هاجس الحالة الأمبراطورية التي يتطلع إليها كواسر الإدارة الأميركية يتحول إلى كابوس لهذه الإدارة التي في حال حدوث ذلك يصبح همها الأساسي لملمة جراح وتداعيات المغامرة العراقية في حال إنتهت بمثل المغامرة الفيتنامية.

لقد ذكرنا أن العراق كان حتى قبل الثاني من أغسطس 1990 موضع إعتراز الجميع، أما الولايات المتحدة فإنها كانت إلى ما قبل العملية الترويجية في كل من نيويورك وواشنطن يوم 11 أيلول (سبتمبر) من العام 2001 الدولة الكبرى التي هي موضع إطمئنان دول العالم إليها بمن في ذلك الدول العربية والإسلامية.. وإن كان الإطمئنان مشوباً ببعض العتب. وكان الذي ينقص هذه الدولة هو أن تضع موضع التنفيذ ما تم التفاهم في شأنه في مؤتمر مدريد في عهد الرئيس جورج بوش الأب وبذلك تنهي ذلك الظلم التاريخي للشعب الفلسطيني، فتكون لهذا الشعب دولته وجواز سفره وقيادته وطمأنينته، وفي الوقت نفسه يكون للدولة المغتصبة إسرائيل القبول العربي بها... إنما بعد أن تتسحب من الجولان وتستكمل الإنسحاب من لبنان. كما أن الذي كان ينقص أميركا قبل 11 سبتمبر 2001 هو أن تتقاسم مع بقية دول العالم وبالذات الكبرى منها وضع إستراتيجية عولماتية للقرن الواحد والعشرين وبحيث يكون عصر العولمة هو عصر الرخاء الشامل في الألفية الثالثة. لكن فجأة حدثت العملية الترويجية التي نزداد، مثل كثيرين في العالم، إقتناعاً بأن العقل المتصهين ليس بعيداً عن تخطيطها مع الأخذ في الإعتبار أن مقتضيات التخريب للعلاقة الأميركية - العربية - الإسلامية تستوجب توظيف أفراد عرب ومسلمين في هذا المخطط، والذي قد يتبين ذات يوم أن الأفراد هؤلاء سيقوا إليه بفعل غسل دماغ ومن دون أن يدري هؤلاء أي فعل يفعلون وعلى أي منقلب سينقلبون.

خلاصة الأمر أن أميركا كانت في أحسن حال.

البشر والحجر والشجر ومن دون أن يتخذ العالم موقفاً حازماً في هذا الشأن. وحتى إذا كان الموقف عبارة عن ملاحظة كثيرة التهذيب من نوع ملاحظة وزير الخارجية البريطانية جاك سترو التي وردت في سياق مقابلة أجرتها معه هيئة الإذاعة البريطانية «بي. بي. سي» يوم الثلاثاء 25 آذار (مارس)، فإن الشارونيين يثورون على بريطانيا التي لولا وعد بلفورها المشؤوم ما كانت هنالك الآن دولة إسمها إسرائيل. وكل الذي قاله سترو أو «بلفور الحالي» ومن منطلق أنه يحقق إسكات العرب والمسلمين وضيقهم من العدوان الثنائي الأميركي - البريطاني على العراق هو «أنه يتهم إستياء العرب من الظلم الواقع على الفلسطينيين وأن هنالك أيضاً شعوراً عربياً بأن الغرب يُظهر نفاقاً بقوله إن قرارات الأمم المتحدة في شأن العراق يجب أن تُنفذ في حين انه يبدو أحياناً أميل إلى التهاون في تنفيذ القرارات المتعلقة بالصراع العربي - الإسرائيلي.

في نظرنا كعرب لم يقل سترو سوى الحد الأدنى مما يجب أن يقوله كوزير خارجية للمملكة المتحدة، التي تتحمل الوزر الأكبر بالنسبة إلى إغتصاب فلسطين وإهدائها قبل أكثر من نصف قرن على طبق من الظلم الذي لا يوازيه ظلم، كما أنه تحاشى بالكثير من التعاطف الضمني مع إسرائيل أن يقول ما يجب أن يقوله وبكل الحزم المطلوب صدوره عن أهل القرار البريطاني، وهو أن على إسرائيل أن تحترم قرارات الشرعية الدولية وتوافق على كل ما تم التفاهم عليه من إتفاقات وأن تتوقف نهائياً عن ممارسة الأعمال العدوانية مراعاة على الأقل لحليفها الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية اللتين دخلتا حرباً وفي إعتقادهما أنها ستنتهي في غضون أسبوع ومن دون خسائر فادحة في القوات والآليات فإذا بالعراق يؤكد أنه ليس بتلك اللقمة السائغة، وأنه على رغم الطلعات الجوية الألفية يومياً والتدمير الهائل الذي تتسبب به صواريخ الـ «كروز» وغيرها المنطلقة من حاملات طائرات راسية في مياها بعد عبور آمن من قناتنا إلى بحرنا الأبيض المتوسط والأحمر أو مصوبة من قاذفات عملاقة لا تجد من يعترض تحليقها في سمواتنا... إن العراق على رغم ذلك واجه الغزاة بما تستوجبه مواجهة المعتدى عليه للمعتدي وأوجد حالة من التعبئة المعنوية الوطنية العربية، فضلاً عن قدرات ملحوظة في المواجهة العنيفة من قبل مواطنين عاديين أو إستشهاديين سُنَّة وشيعة بعثيين وغير بعثيين رجالاً

الميزانية فائضة. والأعمال على أحسن ما يرام. والسمعة لا بأس بها، والآمال المعقودة عليها كثيرة. ثم ينقلب كل شيء بشكل صاعق من أجل أن تصل الدولة التي تقود النظام العالمي الجديد إلى دولة متجبرة على الغير، مستغزة للآخرين مستبدة الرأي، متلاعب بالأمم المتحدة، زارعة الشكوك في نفوس الجميع، متسببة في نشوء مشاعر الكراهية من جانب الأصدقاء لها رافضة إحترام الإرادة الشعبية الدولية من القطب إلى القطب لها.. إلى أن تبدأ حرباً ظالمة لا مبرر لها مسجلة في تاريخ مرحلة العولمة انها في عهد إدارة الرئيس بوش الابن المسؤولة عن الإجتياح الثاني لهذه المرحلة بمثل مسؤولية نظام الرئيس صدام حسين عن الإجتياح الأول للعولمة بإجتياحه الكويت. وقانا الله من الأعظم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 26 مارس (آذار) 2003

* * *

من تضيق فلسطين... إلى تضيق

العراق... إلى...؟

لم يخطر في بال جيل الخمسينيات العربي الذي أبصر الحياة على نكبة فلسطين أن يجد نفسه، بعدما أبرمت مصر السادات معاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل منحيم بيغن، ثم بعدما لحق بها الأردن الملك حسين وسلطة ياسر عرفات بإبرامهما معاهدات أكثر «كراً» مع إسرائيل اسحق رابين وإيهودا باراك، يكتشف أن فلسطين التي في خاطره ضاعت وأن تضيقها جاء بموجب معاهدات وصكوك يصعب على الموقعين من الجانب العربي عدم النقيدها، في حين يعطي الإسرائيليون لأنفسهم، ويشاطروهم حليفهم الأميركي ذلك، حق القول للعرب: خذوا معاهداتكم وصكوككم هذه بلوها واشربوا ماءها. وهذا ما فعله بنيامين نتنياهو بصلافة وشيمون بيريز بحذافة وباراك ببجاجة إلى أن جاء شارون ليفعله بصراحة. وهذا ما سيواصل اقتترافه من سيخلف شارون السيئ أياً كان الخلف الأسوأ ليكودياً أم من حزب العمل عسكرياً أم مدنياً.

وإذا نحن ألقينا نظرة فاحصة على واقع الحال لرأينا أن ما بقي من فلسطين هو عمليات إستشهادية تحدث بين الحين والآخر رداً على إعتداءات يومية تستهدف

ونساء مدنيين وعسكريين.. ستتحوّل بطولاتهم والعمليات التي قاموا بها إلى قصائد في البلد الذي كل مواطن فيه هو مشروع شعري بمعنى أنه شاعر إما بالعامية أو بالفصحى وزناً وقافية جواهرية أو نثراً سيّابياً أو بيّاتياً، وإما أنه ذواقة شعر ومردداً إياه في ساعة الشدة على نحو ما فعل الرئيس صدام حسين في الخطاب الأول لمواجهة العدوان عندما إستعاد أبيات قصيدة سبق أن ألّفها أمامه في إحتفال جرى في بغداد عام 1990 وزير الثقافة الأردني الحالي والسفير السابق في تونس الشاعر المعروف حيدر محمود. والقصيدة قصيرة من ثمانية أبيات أولها «أطلق لها السيف لا خوف ولا وجل.. أطلق لها السيف وليشهد لها زحل» وثامنها «وأعدّد لها علماً في كل سارية.. وأدعو إلى الله أن الجرح يندمل».

لم ينطق «بلفور الحالي» جاك سترو كفوّاً ومع ذلك فإن الشارونيين هاجوا وماجوا، مع أنهم يعرفون أن كلام سترو هو بدافع الإضطراب وأنه للتخفيف من حدة الغضب العربي والإسلامي على ما تقوم به بريطانيا، التي كان من الواجب حصر دورها في إسداء النصيحة للحليف الأميركي وليس تزيين محاسن الحرب له وتحريضه على الإسراع في خوض غمار الحرب، وهذا ما فعله رئيس الحكومة طوني بليز مع الرئيس جورج بوش الابن ومثل الذي فعلته مع الرئيس الأسبق جورج بوش الأب رئيسة الحكومة الأسبق مارغريت تاتشر التي أفادت أحدث كتب المذكرات عنها أنها كانت تلجأ إلى الخمرة عند إتخاذ قرارات صعبة أو في مرحلة تحضير هذه القرارات، ومنها تحريض بوش الأب على الخيار الحربي عام 1991 على أساس أن هذا الخيار سيحقق للإثنين مجداً لا مجد مثله في التاريخ الحربي والسياسي وإستمرارية في الرئاسة لم تتحقق لأي رئيس أميركي أو بريطاني من قبل.. وهذا ما لم يتحقق لأن الناخب الأميركي أسقط بوش الأب في إنتخابات تجديد الولاية، ولأن حزب المحافظين إنقلب أعرب مُنقلب على زعيمته وهي في زيارة أُبّهة لباريس العاصمة المتمردة بعد 13 سنة على الحلف الأميركي - البريطاني.

ومن مظاهر الهياج الشاروني كمرحلة أولى بيان لوزارة الخارجية الإسرائيلية صدر على الفور وجاء فيه «إن التصريحات البريطانية الأخيرة تثير القلق ومُفرّعة ولا تساهم في دفع العملية الدبلوماسية وحل النزاع العربي - الإسرائيلي، بل قد تضرُّ بها في الواقع. انها

محاولة لا أساس لها للربط بين الحملة الدولية على العراق والصراع العربي - الإسرائيلي.

لمجرد صدور هذا البيان سارع سترو إلى الاعتذار وتلطيف ما سبق أن قاله على رغم أنه كان الحد الأدنى من القول المطلوب، وعلى رغم أن الذي قاله كان في بعض جوانبه يفقّد إلى المصادقية ذلك أن مطالبته بتطبيق القرارات الدولية الصادرة عن مجلس الأمن في ما يتعلق بالصراع العربي - الإسرائيلي، أي تنفيذ إسرائيل حرفياً للقرار 242 ولقرارات أخرى كان للدهاء البريطاني حصة في صياغتها بمثل دهاء اللورد كارادون مستتبّ القرار 242، تتعارض مع خروج بريطانيا وأميركا على الشرعية الدولية وخوضهما الحرب على العراق من دون صدور قرار في هذا الشأن من مجلس الأمن مكتفيتين بـ «فتوى» دستورية بريطانية من واقع تفسيرهما للقرار 1441 وهو أن «العقوبات الوحيدة» في ذلك القرار معناها إجازة الحرب. وبطبيعة الحال فإن عدم تقيّد كل من ثنائي العدوان على العراق بالشرعية الدولية هو عملياً بمثابة تبرئة لإسرائيل من إستهانتها بقرارات الشرعية الدولية التي طالب جاك سترو بتطبيقها من جانب إسرائيل بمثل تطبيقها على العراق، ورد على الإنطباع السائد لدى العرب والمسلمين شعوباً وحكاماً وحكومات بأن الثنائي الأميركي - البريطاني يكيل بمكيالين.

ومن هنا القول لـ «بلفور الحالي» جاك سترو إنك إذا كانت ستقول في الصباح ما يمكن إعتباره كلمة حق يراد بها شبه إنصاف لظلم يتحمل أجدادك وزره ثم لا تلبث في ضوء الزلزال الشاروني أن تعتذر في المساء فالأفضل والأكرم لك أن لا تصرح.. وبذلك يبقى لدينا الأمل بأنه لا بد من يوم يطلع فيه مسؤول من بريطانيا صاحب ضمير يتمسك بكلمة الحق وينصف ما يمكن إنصافه وتصحيح ما يمكن تصحيحه، من نوع السفير البريطاني في تل أبيب شيرارد كوبر - كولز الذي نقلت عنه صحيفة «الغارديان» في عددها الصادر يوم الثلاثاء 17 كانون الأول (ديسمبر) من العام الماضي (2002) قوله عما يحدث على أيدي الشارونيين في المدن والبلدات والمخيمات الفلسطينية «إن الإرهاب بمفهوم مهاجمة المدنيين الأبرياء هو دوماً خطأ، ولكن إذا ما عُرف بشكل أوسع كهجمات على وحدات عسكرية رسمية فإن ذلك يذكّرنا بحُقب لم يكن يُعتبر مثل هذا العمل خطأ...»، وقوله أيضاً بعد التنكير بالإرهاب

وبعد تضییع العراق لا سمح الله وعلى نحو تضییع فلسطين من قبل، یصبح التضییع ظاهرة مألوفة بمثل «الماركة» المسجلة للعرب والمسلمين دون غيرهم من شعوب العالم، ویصبح الضیاع العربي - الإسلامي هو السائد بفعل إرادة السيد الأميركي - البريطاني الذي لا یريد بنا الخير... ألا لا قدر الله حدوث ذلك.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 2 أبريل (نيسان) 2003

بعد الحرب: كوارث اليورانيوم المنضب

من الخدمات التنويرية التي قدمت لنا فضائية «الجزيرة» التي أحزننا ما أصابها وفضائية أبو ظبي ووكالة «رويترز» بـ «النيران الصديقة».. لقاءان أجراهما مع شخصين موثوقين ومحترمين في أميركا زميلنا أحمد منصور، مقدم برنامج «بلا حدود»، حول الآثار المدمرة لليورانيوم المنضب الذي سبق أن إستعملته القوات الأميركية في العراق في حرب تحرير الكويت، ثم بعد ذلك في حربها على أفغانستان وجرى إستخدامه في الحرب على العراق حيث أنه موجود في معظم الذخائر والقذائف.

الشخصان المشار اليهما هما آصف دراكوفيتش، مدير المركز الطبي لأبحاث اليورانيوم في واشنطن، والبروفسور الميجور دوج روكه، الرئيس الأسبق لمشروع اليورانيوم المنضب في وزارة الدفاع الأميركية. وبما أن المنطقة، على موعد ليس بالبعيد مع كوارث ناشئة عن هذا اليورانيوم المنضب، وأن المشار اليهما تحدثا بمنطق علمي ممزوج بمشاعر الحسرة والندم، فإنني أورد هنا بعض ما ذكره من معلومات ومن وقائع، وذلك في حدود الملاحظات التي سجلتها على هامش مشاهدتي لهذين اللقاءين الفائقين الخطورة.

من جملة ما قاله دراكوفيتش، الكرواتي المولد البالغ 63 سنة والحامل أربع درجات دكتوراه بدل الواحدة وصاحب الخبرة الطويلة في مضمار الطب النووي والمؤلف لعدة كتب أحدها يحمل إسم «الحرب الخفية لليورانيوم المنضب:

- إن نسبة الثلث من ستة آلاف قذيفة وقنبلة تم إستخدامها في أفغانستان، يحتوي على اليورانيوم، الذي هو مادة سامة بالمفهومين الكيميائي والإشعاعي تسبب

اليهودي ونشاطات منظمة «شتيرن» الصهيونية قبل قيام دولة إسرائيل مثل تفجير فندق الملك داوود وقتل الجنود البريطانيين «إن حكومة ارييل شارون تفضل أن تعتبر قتل الإسرائيليين في أي ظروف كانت عملاً إرهابياً بينما تقول القيادة الفلسطينية ان مقاومة الجنود الإسرائيليين في الأراضي المحتلة والمستوطنين أحياناً عمل شرعي...»، وقوله أيضاً وأيضاً «إن الفشل في مواصلة الخيارات السياسية تشعل الإرهاب، والإرهاب مثل السرطان علينا أولاً أن نسأل عن مسببات هذا السرطان من أجل البحث عن طرق العلاج المختلفة...». ومع أن الشارونيين هاجوا وماجوا ضد السفير إلا أن هذا الدبلوماسي المسكون بضرورة أن ينصف جيل الأحفاد الظلم الذي أورثه لهم جيل الأجداد عندما أهدى «بلفور» ذلك الزمان وطناً بالكامل للصهيونية تاركاً الشعب الفلسطيني في الشتات والإذلال والقمع طول نصف قرن يبدو أنه يرسم التجدد في حال أنهك العدوان الأميركي - البريطاني قوى العراقيين ولم ينجدهم الجار والأخ والشقيق من آخر جزيرة في أندونيسيا إلى أقصى قرية في جنوب لبنان مروراً بكل الدول العربية والإسلامية العربية وغير العربية ومن دون إستثناء، بغیر التظاهرات والتنظيرات والمناقشات في الكواليس والدهاليز وعلى شاشات الفضائيات حول ما إذا كانت النجدة تتم الآن أو إلى ما بعد سقوط نظام الرئيس صدام حسين.. وكأنما بعد السقوط سيكون هنالك متسع لعراق عربي أو هنالك قدرة لصد المراحل التالية من غزوة الألفية الثالثة بدءاً بسوريا ولبنان إنتقالاً بعد ذلك إلى إيران، إفتحاماً بعدها وبكثير من التأيي والإستمتاع في الإلتهام لكل من يقول «أرى» أو «أقترح» أو «أطالب» أو «أعارض» أو «أرفض»... حاكماً كان القائل أو محكوماً.

وسقوط العراق سينتهي تضییعاً بمثل تضییع فلسطين. وستكون أحاديث وكتابات جيل أبنائنا وأحفادهم في النصف الثاني من القرن الواحد والعشرين عن العراق الذي ضاع، بمثل حديثنا وكتاباتنا كأجداد وأبناء بعد نصف قرن من نكبة 1948 عن فلسطين التي ضاعت، وبمثل أحاديث وكتابات الأجداد والآباء الذين رحلوا وهم يكتبون أو يتحدثون عن المجد الأندلسي الذي ضاع نتيجة صراعات وممارسات وأوهام وأحلام كتلك الحاصلة في معظم ديار الأمتين منذ بضعة عقود.

السرطان فضلاً عن أن المورثات الجينية تؤثر على أجيال كثيرة قادمة.

- في حرب 1991 تم استخدام بين 350 و 800 طن من اليورانيوم المستنفد. أما كمية اليورانيوم التي باتت في الجو كذرات صغيرة من الغبار ينتشعها الناس وتنتقل بفعل الرياح إلى مناطق كثيرة فإنها تراوح بين ستة ملايين وعشرة ملايين جرام، وبذلك يكون الأطفال كما الكبار عرضة للإصابة بفعل التنشق. وهناك في الولايات المتحدة ثمانون ألفاً من قدامى المحاربين تتشقق ذرات اليورانيوم المستنفد كما هنالك بضعة آلاف من الجنود الكنديين أصابتهم الكارثة نفسها حيث أن الغبار يدخل مجرى الدم ثم ينتقل إلى أعضاء كثيرة في الجسم يسممها كيميائياً أو إشعاعياً، وهذا ما بات يُعرف بـ «عوارض حرب الخليج».

- لا جدال على الإطلاق من الناحية العلمية في مسألة الآثار الضارة لليورانيوم على جسم الإنسان والخلايا العادية في النخاع الشوكي.

- أي بلد يصاب البشر والحيوان فيه باليورانيوم ينتهي الأمر بأجياله إلى أن المورثات تنتقل من جيل إلى آخر. وعلى سبيل المثال فإننا لاحظنا في كازاخستان، حيث هنالك موقع لإختبارات اليورانيوم، وجود أطفال برأسين أو بأربع أرجل أو بأربع يداً. كما لاحظنا وجود أطفال لا أطراف لهم وحيوانات من دون رؤوس ونماذج كثيرة من هذه التشوهات الناتجة عن تنشق ذرات اليورانيوم.

* * *

ومن جملة ما قاله البروفسور الميجور دوج روكه، الأمريكي المولد البالغ 45 سنة والحافلة حياته القتالية كطيار والطبية كفيزيائي نووي، والذي سبق أن شغل رئاسة مشروع اليورانيوم المنضب في وزارة الدفاع الأمريكية:

- من أعراض الإصابة بقذائف اليورانيوم المنضب، الإلتهاب الرئوي الشديد وإضطراب نظام التنفس والطفح الجلدي. وحيث هنالك مراكز داخل الولايات المتحدة لاستخدام اليورانيوم أو تصنيعه، يحدث أن اليورانيوم داخل الأنسجة يسبب السرطان. ومن هذه المراكز ما هو موجود في أوهايو وكنتاكي وتينيسي وكولورادو وأريزونا.

- إن مفعول قذائف اليورانيوم تعادل مفعول القنبلة الذرية. وفي تقرير صدر في أيلول/سبتمبر من العام 2002 متضمناً إحصاءات، هنالك ما يشير إلى أن

مئة وستين ألفاً من الذين شاركوا في حرب الخليج عام 1991 هم معاقون وأن ثمانية آلاف توفوا من «أعراض حرب الخليج».

- إن تدمير الأسلحة ومخزون الأسلحة الكيميائية والبيولوجية التي كانت لدى العراق تسببت في أن ربع مليون محارب خدموا أثناء حرب الخليج عام 1990. 1991 وحتى أيار (مايو) من العام 2000 أصبحوا معوقين تماماً بسبب تعرضهم للعديد من الإشعاعات. كما أن هنالك عشرة آلاف توفوا بمعدل 140 وفاة شهرياً.

- في كل قذيفة تستخدمها دبابة «أبرامز» في الحرب هنالك 450 جراماً من اليورانيوم الصلب، وفي كل عبوة تطلقها طائرة «هوك» 100 جرام. هذا اليورانيوم موجود أيضاً في صواريخ «كروز» وفي القذائف المستخدمة في العربات المدرعة. وتجدر الإشارة إلى أن ذخائر اليورانيوم هي من أسلحة الدمار الشامل وكان البرلمان الأوروبي أصدر إعلاناً ذكر فيه أنه يجب حظر استخدام هذا النوع من السلاح الذي هو الأعلى كفاءة في حروب الزمن الراهن.

- سنرى بعد الحرب على العراق أعراضاً على الجنود الأميركيين كما ستحدث آثار مختلفة على المنطقة وعلى الجنود العراقيين الذين سيكونون مستهدفين لقذائف اليورانيوم من جانب القوات الأميركية. وثمة مشكلة أساسية وهي أنه من غير الممكن دفن نفايات اليورانيوم وتوفير العناية والتنظيف بما يحمي صحة الناس. ومن هنا فإن استخدام اليورانيوم في الحرب هو جريمة ضد الله وضد الإنسانية.

- هنالك احتمال قائم في حال تم تدمير أسلحة كيميائية وبيولوجية موجودة في العراق عن طريق قذائف اليورانيوم بأن يتلوث الهواء والماء وتصبح حياة عشرين مليون عراقي مهددة بالموت أو بالإعاقة أو الإصابة بعوارض السرطان.

* * *

هذا بعض ما أمكنني تسجيله من كلام الخبراء أصف دراكو فيتش مدير المركز الطبي لأبحاث اليورانيوم في واشنطن والبروفسور الميجور دوج روكه الرئيس الأسبق لمشروع اليورانيوم المنضب في وزارة الدفاع الأميركية، وعلى نحو ما قاله الإثنان في فضائية «الجزيرة». وما لم يقله الإثنان لبعض الضرورات الأمنية أخطر بكثير خصوصاً عندما

إستطاعته أن يقتنع بأن العقل المدبر لتلك العملية يمكن أن يكون من خارج المجموعة التي تخطط منذ ما قبل 11 سبتمبر ببضع سنوات من أجل كل الذي بدأ يجري بعد ذلك التاريخ، وآخره - وليس أخيره - ما حدث في العراق.

وفي موضوع «الغز الأبريلي» لا أحد في إستطاعته تفسير كل هذا الذي جرى وكيف أن الكم الهائل من الثقة بالنفس والتلويح بهزيمة ماحقة للولايات المتحدة إنتهى إلى أن ما يشبه السكتة حدثت للقلب العراقي، فما عاد هنالك في الساحة الرسمية أحد على الإطلاق مما يعني أن عدم ظهور الوزير الصحاف واللواء المتحدث العسكري هو أن كل شيء إنتهى لمجرد حدوث تلك السكتة... وكأنما الدولة هي الشخص الواحد يقع فتقع، يصاب فتصاب، يصمت فيسود السكون، ينهض فيحدث النهوض. مع أن المعروف هو أن الدولة هي رجل أول ورجال ثانون ثم هنالك الصفوف المتتالية من المسؤولين في القطاعين المدني والعسكري. وفي بلد محكوم بحزب واحد مثل العراق فإن حلقات الأدنى صعوداً إلى الأعلى وبالعكس تفرض أن تستمر الحياة والحيوية في حال حدث طارئ لمن هو في القمة. اما أن تتوقف الدولة بكاملها وفي لحظة واحدة ولا من يوضح وعلى وجه الدقة فإن هذا هو «لغز الألغاز» خصوصاً بعدما إنقضى يوم ثم آخر ثم أيام.. ولا من يوضح ما الذي حدث ولماذا حدث وأين هي الدولة وأين هم أركانها وأين هو حزب الدولة وأين... وأين... وعشرات التساؤلات في هذا الشأن.

لقد سبق أن أصابت مصر عبد الناصر نائبة كبرى تمثلت في ان ام الدنيا ذهبت إلى الحرب واثقة من أن النصر مضمون فإذا بكل شيء إنتهى خلال ساعات قليلة من يوم 5 يونيو 1967. لكن ذلك لا يعني أن الدنيا المصرية توقفت. فالرئيس عبد الناصر إستجمع بعض الشيء حطام معنوياته وأمضى يومين يتأمل في الذي حدث، ثم جمع حوله من يسطفيهم من رجال الدولة، وبعد التشاور في الأمر قرر أن يتوجه إلى الأمة بالبيان الذي أعلن فيه أنه يتحمل مسؤولية ما جرى وأنه في ضوء ذلك قرر التنحي. ثم كان الذي كان بعد هذا البيان حيث نزل المصريون إلى الشارع رافضين التنحي... الخ.

ما الذي جعل الدولة في العراق وبالذات رئيسها صدام حسين لا يفعل الشيء نفسه. هل لأن الرئيس

نسمعهما يتحدثان عن الحظر الرسمي الأميركي لأي معلومات في شأن مخاطر اليورانيوم المنضب والألوف الذين أصيبوا به من العسكريين الأميركيين والبريطانيين والكنديين. أما عساكرنا وشعبنا التي لوث اليورانيوم المنضب هواء دولها ورمال صحاريها وتسلسل إلى رئة كل رجل وامرأة وطفل، فإن أحداً غير مهتم بالأمر، علماً بأننا إذا أجرينا في كل بلد من بلدان مشرق الأمة وخليجها سلسلة من اللقاءات مع الأطباء لسمعنا منهم الكثير عن حالات مرضية لم تكن موجودة قبل حرب 1991 على العراق ويحتار هؤلاء في تشخيصها. وبعد الحرب المتواصلة والتي إزدهر فيها السلاح المزود باليورانيوم المنضب ممزوجاً مع دخان حرائق النفط فإننا لا نخشى على صحتنا لما تبقى من العمر وإنما الخشية على الاجيال من أبناء وأحفاد الذين قد يجدون أنفسهم إما مرضى بأنواع من السرطان وإما يرحلون عن الديار لأن القذائف والصواريخ المزودة باليورانيوم المنضب حوّلتها إلى مناطق غير صالحة للإقامة فيها على نحو ما يحدث في الأراضي الفلسطينية.

وخلاصة القول إن هذا الذي يجري هو الكفر بعينه بالنعمة التي خص بها الله عباده. وهو بالذات كفر من جانب الذين إختاروا نهجاً لهم العناد والطمع والهيمنة والتشفي والإستمتاع بتكنولوجيا السلاح المتقدم والإستهانة بالإنسان وتحويل العقل البشري إلى عقل وحشي. والقول المأثور الذي يمكن تسجيله هنا لمثل هذه الحال هو: من كان في نعمة ولم يشكر خرج منها ولم يشعر. والخروج من النعمة، على نحو ما حدث وسيحدث، هو مواكب... مواكب.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 17 أبريل (نيسان) 2003

* * *

لغزان توأمان: 11 سبتمبر 2001

9 أبريل 2003

يبدو أننا سننظل نجد أنفسنا أمام لغز 9 أبريل 2003 بمثل ما هي حالنا الحائرة حتى الآن إزاء لغز 11 سبتمبر 2001. في موضوع «الغز السبتمبري» لا أحد في إستطاعته الجزم بمن فعل تلك العملية الترويعية التي إستهدفت برجى مركز التجارة العالمية في نيويورك ومبنى البنتاغون في واشنطن. ولا أحد في

وعشرات من الذين يصطفاهم قُتلوا؟ أم هل لأنهم آثروا البقاء تحت الأرض إلى حين؟ أم هل لأنه لا وجود لإذاعة تيبث وتلفونات يمكن إستعمالها وكهرباء تنير ومحطة تلفزيون يوجّه منها الرئيس كلمة إلى الشعب بعدما تم تدمير كل وسائل الإتصالات بما في ذلك الإذاعة والتلفزيون؟

لا جواب. مثلاً لا جواب بعد حوالي ثلاث سنوات على اللغز الآخر... لغز 11 سبتمبر... وهما توأمان على موعد مع مزيد من الألغاز التوائم على ما يبدو.. وقانا الله.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 20 أبريل (نيسان) 2003

* * *

الصحّاف «الإنترنتي».. والدوري

«الدمعوي».. والسعدي «الإستسلامي»

لقيت إطلالة وزير الإعلام العراقي السابق، الدكتور محمد سعيد الصحاف، المجهول محل الإختفاء حتى إشعار آخر، من متابعي العدوان الأميركي - البريطاني على العراق عرباً وأجانب الإعجاب.. وإلى حد أن الموقع الذي أنشأه له على الإنترنت أحد الكتّاب المقيم في «الأسكا» حظي بإقبال منقطع النظير بحيث أن أربعة آلاف زائر دخلوا عليه في الثانية، الأمر الذي سيجعل من هذا الكاتب صاحب الموقع مليونيراً ما دام سيحوّله إلى «بيزنيس».. حيث سيعرض للبيع على الموقع بعض المقتنيات مثل القمصان القطنية والأردية التي تحمل عبارات وردت في المؤتمرات الصحافية للوزير الصحّاف مثل عبارة «سيشوي الله بطونهم في جهنّم».

في المقابل لقيت المبادرة التي قام بها مندوب العراق لدى الأمم المتحدة السفير محمد الدوري من متابعي التطورات العراقية الإحترام والتقدير عندما تابعوا على شاشة فضائية «العربية» المقابلة التي أجرتها معه وكانت بمثابة موقف على درجة من التميز يجمع بين اللياقة والمبدئية وإحترام النفس والولاء للوطن. وفي المقابلة، التي تحولت إلى حدث دبلوماسي مهم وبتتها «العربية» يوم السبت الماضي في الوقت الذي كان فيه الرجل قد حزم حقائبه وغادر إلى دمشق عن طريق باريس، أشاد الدوري بمدينة

نيويورك وأهلها وقال بعفوية مطلقة إنه يغادر لأنه لا يستطيع البقاء على أرض دولة إعتدت على بلده وتواصل إحتلاله، وأنه لم يغادر مستقيلاً لأنه يمثل العراق في الأمم المتحدة.. والعراق ما زال عضواً في هذه المنظمة التي لم تكن عند حسن الظن العراقي، وأن نائبه سيشرف على الممثلة في غيابه. كذلك أوضح أن سفره إلى دمشق هو من أجل أن يطمئن على أهله وعائلته ووطنه كون سورية هي البوابة الوحيدة المفتوحة على العراق. وحتى الدموع التي تساقطت من عيني السفير محمد الدوري وهو يتحدث كانت موضع إحترام وتقدير مشاهديه، وأنا واحد من هؤلاء، ربما لأننا كلنا في قارب الحزن على الذي ألحقه المعاندون بالعراق. والمعاندون كثيرون منهم الأميركي ومنهم البريطاني ومنهم الكويتي ومنهم المصري ومنهم القطري ومنهم الاردني ومنهم البحريني.. ومنهم المسؤول العراقي الذي لم يساعد على فتح واحدة من النوافذ التي تحول دون العدوان، أو على الأقل تنزع من المعتدين مباشرة أو من خلال التسهيلات، الحجج التي يتذرعون بها.

في المقابل أيضاً يدعو إلى الإعجاب التصرف الذي أقدم عليه اللواء عامر السعدي مستشار الرئيس صدام حسين للشؤون العلمية عندما سلّم نفسه يوم السبت الماضي طوعاً وعن طريق أنسابه الألمان للسلطة الأميركية التي تحتل بغداد. ونقول أنساباً على أساس أن السعدي متزوج من سيدة ألمانية عاشت مثله أيام العدوان الصعبة. وعندما أورد المتحدث العسكري إسمه في لائحة المطلوب القبض عليهم فإنه أقدم على التصرف الحكيم الذي أقدم عليه حيث حرص على أن يتم ذلك من خلال مرافقة مصور ومندوب شبكة التلفزيون الألمانية «زد. دي. إف» له، وأن يتم تصوير عملية الإستسلام الطوعية وما سيصرح به عن الأسباب التي دعت به إلى ذلك. وفي التصريح الذي أدلى به في حديقة منزله وقبل أن يقتاده جنديان أميركيان وبعدهما ودع زوجته الألمانية قال: «إني أسلّم نفسي لأنني لا أشعر بالذنب في أي شكل من الأشكال»، متهماً الولايات المتحدة بأنها هاجمت العراق من دون مبرر، موضحاً أنه لم يكن عضواً لا في حزب البعث ولا في الإستخبارات العراقية، وأنه يحمل رتبة لواء بفضل الرئيس صدام حسين، منهياً التصريح بعبارة: «أقولها للتاريخ، ليس لدينا شيء من أسلحة الدمار الشامل، ولا أقول ذلك من باب الدفاع

أن يحصل عليها العراقي من عراقيين خصوصاً ما دامت أسلحة الدمار الشامل غير موجودة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 23 أبريل (نيسان) 2003

* * *

زمن طار.. وآخر هبط

مفارقة فيها الكثير من الغرابة، وهي أن زمن صدام حسين وزمن طائفة «الكونكورد» بدأ معاً وانتهى معاً. وفي الحالتين ما يؤكد أن الإستعجال مخاطرة وأن التأني طمأنينة، أو أن الحقيقة هي في القول المأثور: في التأني السلامة وفي العجلة الندامة.

في الوقت الذي كان صدام حسين ابن الخامسة والثلاثين من العمر يحقق حلم حياته ويبدأ في العام 1968 وباسم «حزب البعث» تذوق حلاوة السلطة من خلال الموقع الثاني الى جانب شاغل الموقع الأول أحمد حسن البكر، كانت بريطانيا وفرنسا المتعاونتان زمناً على إنتاج «طائرة القرن العشرين» بمعنى أنها طائرة الركاب الأهم في العالم، متفوقتين بذلك على صناعة الطائرات الأميركية، شارفتا على إنزال الطائرة الأولى إلى سوق السفر. وعندما بدأت «الكونكورد» الأولى رحلتها الأولى عام 1976 عبر المحيط متجاوزة سرعتها سرعة الصوت كان صدام حسين حقق خطوة نوعية على طريق الإستئثار بالسلطة متمثلة خطوته هذه بأنه بات في ضوء ترتيبات أمنية وحزبية الرجل القوي داخل النظام، أو إذا جاز التحديد بات الرجل الثاني منصّباً الرجل الأول قوة وبات ثانياً من كان الأول ثم ثانوياً. وكانت بداية الإختبار للنقلة النوعية التي نشير إليها حدثت قبل إنطلاق المرحلة الأولى لـ «أم الطائرات» ببضعة أسابيع وتمثلت في «إتفاق شط العرب» الذي أبرمه مع شاه إيران في الجزائر وبرعاية الرئيس هوارى بومدين وهو الإتفاق الذي عاد وألغاه عام 1980 بعدما كان النظام الشاهاني سقط وحل محله النظام الثوري بزعامة آية الله الخميني مدشناً بهذا الإلغاء الحرب مع إيران التي إنتهت عملياً إلى طرفين مهزومين ومنهكي القوى.

كانت إجتهاذات صدام حسين ومغامراته بدءاً من المواجهة مع إيران وصولاً إلى الإجتياح للكويت تتم بسرعة هي بمثل سرعة «الكونكورد» التي تتجاوز

عن النظام...». ولا ندري إي إنطباع سيكون عليه إنطباع وزير الخارجية الأميركي كولن باول عن هذا التصرف الراقي من جانب عامر السعدي، خصوصاً أن جنرال الدبلوماسية الأميركية كان أول من أورد إسم السعدي في الخطاب الذي ألقاه يوم 5 شباط (فبراير) الماضي أمام مجلس الأمن وإتهمه وقتذاك بالعمل على خداع مفتشي الأمم المتحدة المكلفين نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية. كذلك لا ندري أي إنطباع سيكون عليه إنطباع هانس بليكس رئيس لجنة الأمم المتحدة للمراقبة والتحقيق والتفتيش للأسلحة العراقية «انموفيك»، والدكتور محمد البرادعي المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية عن التصرف اللائق الذي أقدم عليه عامر السعدي مع ملاحظة أن بليكس قال في مقابلة مع صحيفة اسبانية نشرتها يوم 9 نيسان (أبريل) الجاري والذي هو «يوم السقوط» الذي ما زالت الحيرة في شأن ظروفه قائمة: «من المؤكد أن الحرب ضد العراق تم التخطيط لها مسبقاً منذ زمن طويل وأن مسألة أسلحة الدمار الشامل كانت ثانوية وجاءت في المرتبة الرابعة لدى الولايات المتحدة وبريطانيا على لائحة أسباب الحرب، ولذا كان موقف الولايات المتحدة حيال المفتشين يثير الشكوك في بعض الأحيان، وبودّي أن أعرف حقاً إذا كانوا سيعثرون على أسلحة الدمار الشامل».

الثلاثة الذين نشير إليهم كانوا من نجوم المواجهة التي لم تحدث نتيجة إصابة الطرف العراقي بما يشبه الذبحة الصدرية التي تصيب الإنسان فتميته في الحد الأقصى أو تشل قدراته ولسانه في الحد الأدنى. وحتى إشعار آخر وإلى أن يعلن المرجع الرسمي العراقي قبوله بالهزيمة ويعلن الثنائي الأميركي - البريطاني الغازي إنتصاره، فإن «النظام الصدامي» هو بين الحالتين اللتين نشير إليهما. والقول بأن الثلاثة نجوم على أساس أن العالم كان يتابعهم أكثر من أي شخصيات عراقية رسمية أخرى. ولقد إستمرت المتابعة إلى «يوم السقوط»... سقوط عاصمة الرشيد. ثم جاء بعد ذلك موقع الإنترنت المدهش للصحاف، ودموع الدوري الصادقة التي تَكَرَّتْنا بدموع مارغريت تاتشر عندما غادرت 10 داوننج ستريت مقر رئاسة الحكومة البريطانية، و«إستسلام الشجعان» الذي سجّله من كان يليق به منصب قيادي لو أن الرئيس صدام حسين إستوعب الأمور وإستدار من لحظة صدور القرار 1441 في إتجاه تحقيق إصلاحات بصيغة الطوارئ تتم على وجه السرعة وتعطي انطباعاً بأن «الحرية» ممكن

ونفسياً وسلاحاً.

ونعود إلى ما بدأنا الحديث به عن هذه المفارقة لنقول إن زمن صدام حسين وزمن طائفة «الكونكورد» بدأ معاً وانتهى معاً. ولقد جاءت النهاية بفارق بضع ساعات حيث إنتهى «الزمن الصدامي» يوم الأربعاء 9 أبريل (نيسان) وإنتهى «الزمن الكونكوردي» في اليوم التالي، مع ملاحظة أن «الزمن الصدامي» طار إلى الأبد.. وإلى المجهول المعلوم وأن «الزمن الكونكوردي» حطّ إلى الأبد على الأرض. ويبقى أن ما نكتبه هو مجرد تأملات في إنتظار أن يتضح لنا لغز العصر المتمثل في أن الذي جرى للنظام العراقي لم يحدث لنظام من قبل شرقاً وغرباً!

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 27 أبريل (نيسان) 2003

* * *

عرفات بين الملكة إليزابيث والملك حسين

كان من الصعب وإلى درجة الإستحالة على الرئيس ياسر عرفات أن يتقبل الحقيقة المرة في حال أن رفيق نضاله محمود عباس (أبو مازن) شكّل الحكومة الفلسطينية الأولى على نحو ما يريد الرفيق ويتمنى، ثم جاء السعي المصري على يدي مدير المخابرات اللواء عمر سليمان ليثمر الحل التوفيقى الذي على أساسه أمكن لمحمود عباس الإقلاع بحكومته التي كانت حالها مثل طائفة تم تشغيل محركها لكنها بقيت جاثمة طويلاً في إنتظار أن يأذن لها برج المراقبة بالإقلاع.

ولقد إرتضى عرفات بعد ملاحظة أن يتم تشكيل حكومة فلسطينية وكان ذلك من وجهة نظره تنازلاً، لكنه إرتضى هذا التنازل، أي إنتزاع نصف قوته منه، على أساس أنه بالنصف المتبقي يستطيع حجب الثقة الرئاسية عن رئيس الحكومة أو ترشيح آخر لهذا المنصب ووفق ما تنص عليه الصلاحيات إضافة إلى مقتضيات اللعبة السياسية. أما أن يشكل محمود عباس الحكومة على النحو الذي يريد وبحيث يأتي بمن لا يحبذ عرفات توزيعهم، أو يستثني من يريد أبو عمار توزيعهم من باب المكافأة على حسن الولاء أو تعويض نهاية الخدمة الثورية أو من أجل تأمين «اللوبي» العرفاتي المتفاني داخل الحكومة، وأن يقوم في الوقت نفسه بعملية توزيع «عباسية» للحقائب لا

سرعة الصوت. وكان إندفاعه في إتجاه التسليح بما في ذلك المحاولة النووية التي ضربتها إسرائيل ثم محاولة السلاح الكيميائي والبيولوجي بديلاً للسلاح النووي المتعثر الحصول عليه بمثل إختراق جدار الصوت. وفي كل محطات الإندفاع التسلّحي كانت التكلفة باهظة وكانت بمثل تكلفة النقل «الكونكوردي» التي هي تراكم متواصل للخسارة. وبدلاً من أن تكون كارثة حرب صدام حسين مع إيران وما تسببت به لنظامه وللعراق وللمنطقة مناسبة للتأمل والبدء بإعادة نظر شاملة كانت ربما تتجبه من الإنهيار الذي إنتهت إليه الأحوال، فإنه إتجه جنوباً مضيفاً بإجتياحه للكويت كارثة ثانية للنظام وللعراق وللمنطقة وإلى العلاقات العربية - العربية التي بات من الصعب ترميمها. وهو فعّل ذلك رغم أن حصول الكارثة لا يكون الحل لتداعياتها بكارثة ثانية وإنما بالتأمل والتفكير بما يجعل الخسارة تبدأ بالإنحسار بمثل التأمل الذي حدث من جانب دولتي «الكونكورد» بريطانيا وفرنسا المختلفتين دائماً على من هي منهما الأحق والأجدر بزعامة أوروبا المتفقتين والمتعاونتين في بعض مجالات الصناعة واللّتين وجدتا في الكارثة الأولى لـ «الكونكورد» عندما تحطمت يوم 23 تموز (يوليو) 2000 إحدى خمس طائرات من هذا النوع تملكها فرنسا. والذي حدث بعدما أمكن ترميم العيب المالي والجرح المعنوي الكبير الذي أصاب «أم الطائرات» من جرّاء ذلك التحطم الذي أسفر عن مقتل 113 شخصاً وعادت «الكونكورد» إلى تسيير رحلاتها عبر المحيط في أعقاب إدخال تعديلات عدة على الطائفة كلفت الدولتين ما لا كثيراً، هو أن التفكير في ما يجب التخطيط له إنتهى إلى ضرورة وضع نهاية لـ «الحقبة الكونكوردية» بحيث تتوقف الرحلات من فرنسا يوم 31 مايو (أيار) المقبل وتتوقف من بريطانيا أواخر أكتوبر (تشرين الأول) المقبل. وجاء ذلك خلافاً لما كان شبه متفق عليه وهو أن تستمر بريطانيا التي تملك سبع طائرات «كونكورد» في تسيير الرحلات من لندن حتى العام 2006 وتستمر فرنسا التي تملك خمس طائرات حتى العام 2007. ولكن تقدير الموقف أوجب تقديم الخطوة وهو ما كان بالنسبة إلى صدام حسين يجب ألا يفعله لمجرد إنتهاء «قادسيته» على ما إنتهت إليه وما كان يجب أن يتقاده فلا يتجه جنوباً ثم يستمر على مدى 12 سنة متمسكاً بأنه حقق «أم المعارك» التي ستستتسخ لاحقاً «معركة الحواسم» مع أن المقومات التي تتطلبها المعركة غير متوفرة بشرياً

رفض التعامل مع عرفات، فان الجواب عن ذلك في علم الافتراضات والتكهنات، ومن بينها أن الأمور لن تستقيم إلا في حال باتت حال ابو عمار في صيغة الحكم أكثر قليلاً من حال الملك حسين، اي بما معناه ليس فقط يملك ولا يحكم وانما يملك بمقدار ويحكم بمقدار.

ويبقى أن نترحم على الذين استحضروا اسماءهم في معرض المقارنة، وأن نتمنى موفور الصحة لمن هم يعاركون من اجل امجاد الحكم، الذي ما دام لغيرهم حتى يدوم لهم. وليتأمل هؤلاء ومن يريد التأمل بأحدث الحالات المتمثلة بالزمن الصدامي وكيف انتهت هذا الزمن، وعلى أهون السبل وأكثرها مدعاة للشكوك... عهداً ورفاقاً وعقيدة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 30 أبريل (نيسان) 2003

العروبة المتأمركة في العراق

من باب التكهن الذي هو أقرب الى الحقيقة نقول، إن الأمة على موعد ليس بالبعيد مع ردة عراقية نوعية عن العروبة بالمفهوم التقليدي، تحل محلها العروبة بمفهوم التأمرك. وسيأتينا بالأخبار ما قد يبدو مثيراً للدهشة في شأن الصوت العراقي العروبي، الذي علا لبضع سنوات بعثية، كانت على ما تشير التطورات والتداعيات، مزيجاً من البعث والبعث في وقت واحد، وكانت أحياناً سنوات عجافاً. ولقد أثبتت هذه السنوات ان البعث يصلح كطرف يعارض وينشط في أوساط حكم لا تطلعات عروبية له، أو في أوساط حكم يرى ان القضية الأولى والثانية والأخيرة له هي التنمية الداخلية وتأمين الرفاهية المتوازنة للمواطن، والتعايش مع الجيران، وعدم الدخول في صراعات إقليمية أو دولية. ونقول إنه يصلح على أساس أن العقيدة البعثية على شيء من الجاذبية للنفس العربية، حيث أنها تدعو إلى الوحدة والحرية والإشتراكية. ومن أجل ذلك وجدت لها من إستهوتها، خصوصاً في الخمسينيات من القرن الماضي، حيث كان هنالك إستعمار وإستقلال منقوص وإقطاع وقضية فلسطينية يستوجب من أجلها الغضب على ذلك التأمرك الدولي الذي قضى بإلغاء كيان عربي وإستبدال كيان عبري به.

تلقى الإرتياح في النفس العرفاتية، فهذا معناه أن ينتهي الأمر بعرفات إلى أن محمود عباس بمنصبه المستحدث رئيساً للوزراء بات هو صاحب الشأن وباتت حال عرفات مثل حال الملكة اليزابيث في بريطانيا، أو مثل حسن الترابي في حكم «ثورة الإنقاذ» في السودان، أو مثل حال محمد مزالي مع الحبيب بورقيبة، أو مثل حال ممدوح سالم مع أنور السادات.

وهذا الشعور من جانب عرفات دفعه الى ان يمارس «الفيتو» على خيارات رفيق نضاله محمود عباس، الذي إستقوى بتأييد نسبي أميركي له وحماسة بريطانية ملحوظة للإتيان به وتحفظات شكلية شارونية ورضى عربي ضمني وشامل على هذا التحرك من جانب أهل الحكم الفلسطيني. والذي دفعه إلى ممارسة «الفيتو» وبحيث تعطلت محاولة محمود عباس للإسراع في تشكيل الحكومة وتوليحه بعد مرور أسبوع على التكليف بالإعتذار عن عدم تشكيلها، هو قراءته لمعنى ترك أبو مازن يستند إلى الأوراق المؤثرة الفاعلة التي بين يديه والتي في إستطاعة محمود عباس بحذاقته المعروفة عنه في مجال اللعبة السياسية أن يوظفها أفضل توظيف لمصلحته وبحيث تصبح حال عرفات مع رئيس وزرائه محمود عباس بمثل حال أحمد حسن البكر مع صدام حسين، أي بما معناه يصبح الرجل الثاني أهم من الرجل الأول، وهو وضع ليس فقط لا يريد عرفات الوصول اليه وانما هو وضع ليس لمصلحة الشعب الفلسطيني قياساً بما سبق حدوثه للشعب العراقي من جرّاء أن من هو الأول ليس الأول وأن من هو الثاني هو الأول وأن من هم الثالثون ليسوا كما يُفترض أن يكونوا عليه من هم في هذه الخانة.

في اللحظة الأخيرة وبعبدا دخلت مصر على خط الأزمة بين الرأسين الفلسطينيين، أمكن إستنباط حكومة فلسطينية بعد طول مخاض. وجاءت الولادة بفعل العملية القيصرية التي شارك فيها العرب المصري الذي أخذ على عاتقه أمر التوليد الذي نشير إليه. وكانت رحلة التوليد هي الأكثر إثارة في الرحلات المكوكية لمدير المخابرات المصرية اللواء عمر سليمان بين القاهرة ورام الله بشكل معلن أحياناً وإحياناً من دون الإعلان عن ذلك.

أما كيف ستنتهي الأمور في ظل الوضع الفلسطيني الجديد وتكريس إدارة الرئيس بوش لمحمود عباس زعيماً لـ «فلسطين المتأمركة» مع استمرار

لكن البعث كحكم أثبت انه يتناقض مع العقيدة، وإن كانت رؤية بعض منظري هذه العقيدة أفاضت في إستنباط المفردات التي تشكل في مجموعها نظرية تقوم على أن العقيدة البعثية لن تحظى بالتطبيق إذا كانت لن تجد سلطتها التي تحكم بإسمها وتتولى تطبيق المبادئ. ونحن عند التأمل في سنوات الحكم البعثي في العراق يتبين لنا أن ممارسات هذا الحكم كانت نقيض ما تدعو إليه العقيدة، كما أن هذه الممارسات كانت تعزز موقف من يريد أن يعارض الحكم الذي شطب من قائمة الإهتمام من ليسوا بعثيين.

وهؤلاء الذين يعارضون باتت في أيديهم حيثيات كثيرة للمعارضة من بينها أن الوحدة، التي هي الركن الأساسي في العقيدة البعثية، إنتكست عندما فشل البعث كسلطة تحكم العراق في أن يتوحد مع شقيقه البعث كسلطة تحكم سوريا، ثم إنهار هذا الركن عندما لجأ البعث كسلطة في العراق إلى إجتياح الكويت على أساس أنها «فرع» يجب أن يعود إلى «الأصل»، ثم كان إحتلال لهذا «الفرع» ثم وحدة مع هذا «الفرع». وهذه الممارسات وغيرها كانت تؤكد عدم علاقة البعث كعقيدة بالبعث كسلطة حاكمة. ذلك أن البعث العقائدي لا يمكن أن يجيز، ولا حتى يبرر، إجتياح دولة عربية لأخرى، وهو كعقيدة يصبح عرضة لعلامات إستقهام كثيرة عندما يرتضي الأمر الواقع الذي فرضه البعث كسلطة متمثلاً في إحتلال دولة يقول إنها «أرضه»، وعندما يرتضي أيضاً التخريجة المتمثلة في إعلان وحدة بين طرفي بلد واحد. كما زاد من إنتكاس البعث كعقيدة أن البعث كسلطة حاكمة تناسى في مرحلة من مراحل الصراع الناشئ عن إجتياح الكويت أنه يحكم بإسم عقيدة تدعو إلى الوحدة العربية فبدأ يدعو إلى تفكيك دولة موحدّة هي المملكة العربية السعودية من خلال إستعمال مفردات تقسيمية مثل «نجد» و«الحجاز». كما أن الإنتكاس شكّل نقلة مفزعة تمثلت في أن البعث كسلطة تحكم في العراق، ناصر ولدواعي الصراع مع شقيقه البعث الذي يحكم في سوريا، طرفاً لبنانياً كان في زمن الحرب التي أنهاها إتفاق الطائف ينشط من أجل تقسيم لبنان الموحّد، وكان في الوقت نفسه مرتبطاً بعلاقة تثير علامات إستقهام مع إسرائيل.

هذا على صعيد الوحدة. أما على صعيد الحرية فإن البعث كعقيدة، إنتكست عندما أفتى صمتاً بصوابية خيار البعث كسلطة بأن الحرية هي للبعثي فقط

وضمن ضوابط ومحظورة على الآخرين. وبدأت العقيدة البعثية في ذلك أنها غير معنية بحرية المجتمع كشرائح متنوعة، وأنها تبارك للبعث كسلطة خياره هذا الذي يحصر الحرية بالبعثي، الأمر الذي يعني أن غير البعثي يبقى في إستمرار موضع شبهة. والتعامل مع من هذه حاله يكون عموماً ضمن موجبات الحذر والمراقبة وضمن مستلزمات الإجراءات القمعية أحياناً. وبسبب هذه الحصرية، في أن الحرية حق للبعثي وأنها عالقة بالنسبة الى آخرين ومحرومة على البعض بدافع الريبة في موضوع الولاء أو الخشية من احتمالات التأمر، فإن البعث كعقيدة بات موضع أكثر من تساؤل، لعل أهم هذه التساؤلات على الإطلاق أن «المفهوم البعثي» للحرية ليس أكثر من مفردات لفظية. ولولا ذلك لكان من الطبيعي إتاحة المجال أمام تعدد المنابر الفكرية والإعلامية لا أن تكون الحرية هي حق الفئة الواحدة. وما يقال في هذا الشأن يشمل بقية الأحزاب التي كان من الواجب تركها تعمل وتحت سقف القانون وبذلك تكون العقيدة البعثية منسجمة مع نفسها. ويبقى الركن الثالث من العقيدة البعثية وهو ركن «الإشتراكية». ولقد أثبتت سنوات الحكم البعثي أن مفهومه للإشتراكية هو مفهوم رأسمالي، أو أن «الإشتراكية» في قاموس البعث كعقيدة تختلف تماماً عن «الإشتراكية» في تطبيقات البعث كسلطة تحكم.

ويبقى إستكمالاً لهذه الملاحظات - المفارقات التي نسجلها لمناسبة إصدار قائد القيادة الوسطى الأميركية الجنرال طوني فرانكس من الدوحة يوم الاحد 11 مايو/ أيار الجاري، القرار الذي حل بموجبه حزب البعث في العراق، القول إن البعث خارج السلطة إستقطب أناساً عقائديين أكثر بكثير مما حدث للبعث في السلطة، حيث أن الذين إستهوتهم البعثية كعقيدة ومبادئ كانوا قلة قياساً بالذين إنتسبوا بدافع الأمر الواقع الى الحزب الذي أكدت التطورات في العراق أنه لا يستطيع حماية سلطته وسلطانه، وأن الرئيس جمال عبد الناصر كان على حق عندما لم ينشئ له حزباً يحمي تراثه ولا يبعثر إرثه. وهذا بعض اللوم الذي قاله البعثيون أنفسهم عن عبد الناصر، معتبرين أنهم بالحزب يمكن ان يصمدوا إلى أبد الدهر العربي، ويمكن، في الوقت نفسه، أن يجعلوا دولاً عربية أخرى تتطلع إلى أن تتكرر التجربة البعثية عندها.

ولكن لا الصمود حدث ولا الشمس البعثية يمكن أن تشرق في ضوء تجربة العراق، وبالذات ما يتعلق بـ

رموز الدبلوماسية العربية بحيث يأتي جدول الأعمال يحقق ما يريده الحكم العراقي من القمة.

كانت المذكرة، التي لم تنشرها الإدارة الأميركية، واثقة من أن العراق، أو غيره من الدول العربية، لا بد سينشرها أو يتولى تسريبها، وهذا يحقق للإدارة مآربها من شقين؛ شق يتعلق بإسرائيل، وجاء فيه: "نأمل أن يتفادى الزعماء خلال القمة الحماسة اللفظية المفرطة، ونحثهم بدلاً من ذلك على الإهتمام بمنهج بناء يعزز آفاق تحرّك حقيقي نحو السلام. كما نأمل ألا تصدر القمة العربية أي بيان قد يُعتبر محاولة للوقوف ضد حق اليهود السوفيات في الهجرة أو ضد مصلحة إسرائيل الأساسية في قبولهم داخل إسرائيل ذاتها...". أما الشق الثاني فيتعلق بالعراق. وفي ضوء التهديد الذي كان أطلقه الرئيس صدام حسين يوم الإثنين 2 نيسان/ أبريل وقال فيه "إن العراق سيجعل النار تاكل نصف إسرائيل إذا حاولت الإعتداء على المنشآت العسكرية الصناعية العراقية"، كاشفاً النقاب، بغرض الضغط أو بغرض التباهي أو بغرض الردع، عن أن العراق يمتلك السلاح الكيماوي المزدوج (النيترون) الذي يملكه الإتحاد السوفياتي والولايات المتحدة فقط. وقال إن الذي يضرب العراق بالأسلحة الذرية سيضره العراق بالسلاح الكيماوي المزدوج، الذي صنعه منذ العام 1987، ولم يستخدمه ضد إيران. ومما جاء في المذكرة الأميركية حول العراق وتهديدات رئيسه: "إن الولايات المتحدة تقر بالدور الذي يضطلع به العراق، وبأنه يشكل قوة مهمة في العالم... إلا أننا نعبر عن قلقنا الشرعي من محاولات العراق خرق القوانين الأميركية، وتصريحاته غير المسؤولة في شأن إستعمال الصواريخ والأسلحة الكيماوية ونقده لوجودنا السلمي في الخليج دعماً لأصدقائنا...".

لم يحدث من قبل أن خاطبت الإدارة الأميركية الحكام العرب بهذا الأسلوب. ولقد حقق نشر العراق المذكرة بعض ما يريده حيث أن البيان الختامي تضمن فقرة جاء فيها: "إن من حق العراق والأمة العربية الرد على العدوان بالوسائل التي تراها مناسبة". وعبر البيان عن "إستياء القادة العرب من مواقف أميركا المنحازة لإسرائيل". كما شدد على "ضرورة تأمين كل أشكال الدعم الذي يكفل إستمرار الإنتفاضة...".

لم يتوقف الأسلوب الأميركي التنبهية - التحذيري، وبات بعد الحرب الأولى على العراق يأخذ شكلاً جديداً يميل إلى التلويح بالقوة. ثم جاءت العملية الترويجية

«المقابرة الجماعية» وما تثيره من رعب وإشمئزاز في النفس، على أي بلد عربي من المحيط الى الخليج. هذا إذا لم نفاجاً ذات يوم بأن طبعة جديدة من البعث هو «البعث الانجلو - أميركي» قد يضطر «المحرر» الأميركي إلى إستتباطها للوقوف في وجه التيار الإسلامي، الذي ما زال لم يحسم من الأمر سوى انه مرتاح مثل بقية قوى المعارضة إلى أميركا، التي أسقطت لهم «النظام الصدامي»، من دون أن يستوقف هؤلاء أن الإسقاط كان من أجلها وليس من أجل شيوخ الحوزات وسُيادها وبقية رموز المعارضة. كما قد لا نفاجاً إذا قيل لنا بأن الطبعة المشار إليها، باتت قيد الإعلان برسم التداول، وإن العروبة المستجدة في العراق هي العروبة المتأمركة... وهذا وزر يتحمل البعث كعقيدة والبعث كسلطة المسؤولية الكبرى عنه.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 21 مايو (أيار) 2003

* * *

أميركا المستجدة.. وبوش المستعرب

قبل الحرب البوشية الأولى على العراق، كانت الإدارة الأميركية، وتحديداً إدارة الرئيس جورج بوش الأب، تنتهز مناسبة إنقاذ قمة عربية، والقمة زمناك في معظمها إستثنائية، فتبعث عبر السفارات ببعض التمنيات المغلفة بالتنبيهات ينقلها سفراء أميركا في عدد من الدول العربية إلى الحكام. وكانت معظم هذه التمنيات - التنبيهات تتور حول ضرورة التقيد بروح السلام وعدم تصعيد وتيرة الصراع مع إسرائيل.

وفي القمة الإستثنائية التي استضافها النظام الصدامي في بغداد يوم 28 أيار/ مايو 1990، أي قبل إجتياح الكويت بشهرين وخمسة أيام، حدث تطور نوعي في طبيعة التمنيات والتنبيهات الأميركية. ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه وزراء الخارجية وصلوا إلى بغداد لتهيئة جدول أعمال القمة، كانت الإدارة الأميركية أبلغت الملوك والرؤساء، ومن خلال مذكرة غير مألوفة بعثت بها إلى الأمانة العامة للجامعة العربية، بأن عليهم أن ينتبهوا إلى ما سيفعلونه في قمتهم. وجاء إقدام الحكم العراقي على نشر المذكرة صبيحة يوم الثلاثاء 22 أيار/ مايو، وقبل ساعتين من بدء الإجتماع الوزاري، ليشكّل ارتباكاً وضغطاً على

"لا حماسة فيها ولا هم يحزنون أو... يفرحون". وهما قمتا التأسيس لعصر أميركي - عربي جديد لا يضير أميركا ولا يضر العرب، ويعود على إسرائيل بالنفع الكثير مقابل القليل القليل من النفع للفلسطينيين... أعانهم الله وزادهم صبراً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 3 يونيو (حزيران) 2003

* * *

المتجاورون العرب..

من النفور إلى التآزر

مع أن الرسول العربي، صلوات الله عليه، أوصى بسابع جار، وهي واحدة من وصاياه التي تنظم في مجموعها السلوك القويم للإنسان مع خالقه ومع نفسه ومع جيرانه ومع عائلته ومع أمته.. التي هي خير أمة أخرجت للناس، فإن ظاهرة النفور في مسألة التجاور العربي كانت ملحوظة وإلى درجة أن النفور إنتهى إلى حالات راوحت بين التآمر والإحتراب الحدودي ومحاولات كثيرة لزعة الاستقرار في الداخل، فضلاً عن أن المتجاورين تحولوا في المحافل الدولية وفي المؤتمرات الإقليمية، إلى أعداء يطارد الجار جاره وينصب له المكامن، في حال شعر أن هنالك بعض المكاسب المعنوية أو المادية لهذا الجار يمكنه الحصول عليها.

ونكاد من الصعب نستثني جارين عربيين من هذا النفور الذي نشير إليه، وإن كان النفور العراقي - السوري والمصري - الليبي والمصري - السوداني والمغربي - الجزائري والسعودي - القطري وصل في بعض المراحل إلى حد المواجهة والقطيعة.. إلا أنه يبقى دون ما وصل إليه النفور العراقي الصّدّامي والكويتي الصّبّاحي حيث أن ذاك النفور إنتهى إلى أن العراق الكبير والقوي، إستضعف الجار الصغير فأرسل إليه قوات تحتله ثم أعلن وحدة بالقوة معه أثارت الإستهجان إذ كيف يمكن ما دام العراق إعتبر الكويت «فرعاً» من «الأصل» أن تتم وحدة بين «البلد الواحد» وكيف ستصمد مثل هذه الوحدة إذا كانت الوحدة المصرية - السورية التي قامت على أساس الرضى الشعبي المبالغ والإلحاح السوري العسكري والمدني معاً، لم تصمد وحدث الإنفصال على نحو ما يحدث

المجهولة - المعلومة المخطط يوم 11 أيلول / سبتمبر 2001، في كل من نيويورك وواشنطن، لتعتمد الإدارة الأميركية، في ضوء تداعياتها أسلوب الإنذار الواضح الخالية مفرداته من أي تهيب. كما أن الإدارة تركت لعشرة من أركانها، على الأقل، أمر تنويع الإنذارات، بحيث يقول كل منهم ما يريد. وهكذا على سبيل المثال، كانت كونداليزا رايس تقول ما لا يقوله ديك تشيني، وكان ما يقوله كولن باول لا يقوله بقية الكواسر في الإدارة... علماً بأن كل ما يقال ينطلق من الروحية نفسها القائمة على التهديد والإنذار.

ما جرى لأفغانستان وفيها، كان بمثابة تطوير إضافي للأسلوب، وبحيث ان المبعوثين من الدرجات الدنيا في الإدارة باتوا لا يتورعون عن الإدلاء بتصريحات لا يأخذون فيها في الإعتبار المقامات التي لا يجوز مخاطبتها تلفزيونياً أو فضائياً أو عبر مقابلات في الصحف بالأسلوب القائم على الخشونة. وهي خشونة تزايدت وتيرتها بعد الذي إنتهى إليه أمر العراق المحتل الآن، بموجب قرار صدر عن مجلس الأمن، وبايعت فيه الدول الخمس عشرة الأعضاء أميركا محتلة بصيغة الحاضنة أو الوصية أو المتبنية لبلاد الرافدين.

في ضوء هذا الذي أوردنا منه مجرد إشارات إلى واقع حال الأسلوب الأميركي مع العرب، نتوقع أن تشكل قمة شرم الشيخ، التي أرادها الرئيس بوش أسلوباً جديداً في إبلاغ التمنيات والتنبهات، منعطفاً في تاريخ التعامل الأميركي - العربي، بحيث لا داعي، بعد الآن، لمذكرات يتم إرسالها وتحذيرات وتنبيهات يتم توجيهها.. خصوصاً أن الأنظمة العربية باتت أكثر واقعية وإقراراً بالتغيير العاصف الذي بات عليه العالم الواقع تحت السيطرة الأميركية. كما ان ما كان يزعم المسؤولين الأميركيين من مواقف تتسم بالتشدد، إندثر نسبياً في ضوء ما حدث للعراق وفيه.

وأما ما يتعلق بـ "الحماسة اللفظية" التي طلبت إدارة بوش الأب من القادة العرب، الذين إجتمعوا في مؤتمر تاريخي في بغداد يوم 28 أيار / مايو 1990 تقاديتها، والإهتمام بمنهج بناء يعزز آفاق تحرك حقيقي نحو السلام، فإنها باتت، في ظل إدارة بوش الابن المستعرب، من إرث الماضي الذي غابت شمسها بغروب شمس النظام الصّدّامي. وهكذا فإن القمتين بدل القمة الواحدة، التي إستضاف الرئيس بوش بعض القادة العرب إلى عقدهما في ديارهم، إنعقدتا في ظل أجواء

في العمليات الجراحية المعقدة، عندما تفشل عملية زرع سببها رفض الجسم للعضو المزروع؟.

بعد الذي أصاب العراق من جراء إستضعافه للجار الكويتي، فأدخله هذا قصص الأسد من خلال حرب بوش الأب عليه، بدأ يحدث نوع من إعادة النظر في ظاهرة البغضاء بين المتجاورين، ولكنها كانت إعادة نظر بطيئة ربما لأن الشعور بالخطر الناشئ عن تداعيات تلك الحرب لم يكن بالقوة التي بات عليها بعد العملية الترويجية يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001 في كل من نيويورك وواشنطن والتحول المباغت في السلوك الأميركي وكيف أن الإدارة الأميركية التي يستأثر المتعاطفون مع إسرائيل بالنصيب الأكبر من مفاصلها الرئيسية قررت اعتماد الأسلوب الوقائي. ومن هنا جاء الخيار الحربي على أفغانستان ثم الخيار الحربي على العراق. ومن هنا أيضاً جاء الأمر الواقع على الفلسطينيين من خلال القمة العربية التي إستضافها الرئيس بوش الابن في شرم الشيخ ثم من خلال القمة اللاحقة التي إستضافها في «العقبة» ليعلن فيها ما ليس في الحسبان الفلسطيني وهو أن «إسرائيل دولة يهودية» بمعنى ألا يكون فيها لا عرب 1948 ولا عرب الشتات وعلان فيها أول رئيس للحكومة عن الفلسطينيين محمود عباس أن الإنتفاضة ستكون بما معناه صفحة يجب طيها بالحنس.. أو بالإجراءات الدحلانية.

هذا الوضع الدولي المستجد الذي لا يتسع الصدر الأميركي لأي مناقشة في شأنه جعل ظاهرة النفور بين المتجاورين العرب تبدأ الإنحسار ليحل محلها شعور بضرورة أن يساند الجار جاره وأن يشد غير المستقوى عليه من إزر الجار الذي قد يحدث في أي لحظة ولأسباب طارئة أو مفتعلة إستقواء عليه. ولنا في هذا الذي يحدث بين مصر والسودان وبين مصر وليبيا المثال على ما يحدث في هذا الشأن من دون أن يعني ذلك أن الأمر مقتصر على الدول التي أوردنا أسماءها. فقد فاجأ الرئيس حسني مبارك الذي يتبادل مع الرئيس معمر القذافي الزيارات المبالغتة، الجار السوداني الذي طالما عاش الجار المصري بضع سنوات من الحذر والإنزعاج منه، بزيارة دامت بضع ساعات. وسبقت الزيارة المبالغتة تصريحات تؤكد صدق المثل الشعبي السائر «الجار للجار.. ولو جار» متمثلة بتصريح لوزير الخارجية الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل جاء فيه قوله في إحدى مراحل السعي لترميم ما أفسده النفور «إن علاقة السودان مع مصر هي علاقة حياة أو موت

ولن يسمح السودان لأحد بعودة هذه العلاقات إلى الوراء...».

بعد الزيارة المبالغتة التي قام بها الرئيس مبارك إلى الخرطوم يوم الأربعاء 31 أبريل (نيسان) الماضي وكانت الأولى له منذ 14 سنة، جرى في القاهرة اللقاء المبالغت الذي ضم «ديناصورات» المعارضة السودانية وهم السيد الصادق المهدي والسيد محمد عثمان الميرغني والدكتور جون قرنق. لكن لقاء الثلاثة في الدار الميرغنية في القاهرة لم يكن هذه المرة من أجل أن تضغط مصر على «الحكم الإنقاذي» على نحو ما كان يحدث في زمن إستشراء ظاهرة النفور، وإنما من أجل أن يتحقق بعودة الميرغني المتأخر كثيراً في العودة إلى الخرطوم ثم بتوافق المهدي وقرنق مع الرئيس البشير ما يجوز إعتباره المصالحة الوطنية الثانية التي يمكن بناء السلام عليها.. وهو أمر تحبذه الإدارة الأميركية، وتحبذ بقاء الرئيس البشير في موقعه إن هو إعتد في السودان ما إعتده الرئيس مبارك في مصر على صعيد الهامش الديمقراطي وتثبيت الإنفتاح وإيضاً على صعيد التفهم للوضع الإقليمي على نحو ما هو مرسوم على خارطة الطريق الأساسية للمنطقة والتي تشكل «خارطة الطريق» التي جرى تثبيتها في قمة العقبة كأمر واقع لا مجال لغيره جزءاً بسيطاً من الخارطة الكبرى.

والسؤال الآن هو: هل أن «حكم الإنقاذ» الذي يحتل بذكرى سنة جديدة يخطط حثيثاً، وفي ظل ظاهرة مؤازرة المتجاورين لبعضهم البعض، نحو الأمركة فينجو الحكم وينفذ نفسه وينعم بالنفط، أم يرى أن الإستدارة الصاعقة تشكل حثية لتغييره وبذلك ينقض «الديناصورات» عليه ويبدأ السودان عهداً جديداً؟ ولن يطول الوقت لكي نتلمس ملامح الإجابة الواضحة لأن الظروف قد تتحمل بعض التكتيكات... لكنها لا تتحمل المناورة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 10 يونيو (حزيران) 2003

* * *

الجامعة المهمومة... وأمينها المحتار

في كل مرة يضطرب الوضع السياسي العربي وتتقاطع المواقف، بحيث لا يعود واضحاً ما هو الموقف الصحيح وما هو الموقف الخاطيء، يستحضر

القادة العرب من خلال وزراء الخارجية أمامهم الجامعة العربية، وتبدأ عملية لومها، وأحياناً لوم أمينها العام، وينتهي الأمر إلى تعليق كل التعثرات على هذا الكيان، الذي لم تستهدف نصال منظمة إقليمية أو دولية بمثل النصال التي إستهدفتها، وإذا كانت هذه النصال لم تتكسر على بعضها، فإنها تسببت للكيان المظلوم بالكثير من النزف المعنوي.

ومنذ القمة العربية الإستثنائية في القاهرة في أغسطس (آب) عام 1990، في أعقاب الإجتياح العراقي للكويت، وإنقسام الصف محورين، بعدما كانت الإنقسامات في الماضي ثنائية وتجد مصالحين لها، بدأت الجامعة العربية تعيش حالة شلل لا مثيل لها، وتشكل إمتداداً لحالة سابقة تمثلت في إسقاط عضوية مصر في الجامعة العربية، ثم نقل مقر الأمانة العامة من القاهرة إلى تونس، وإختيار أمين عام تونسي هو الشاذلي القليبي خلفاً للأمين العام المصري محمود رياض. ولقد حدث ذلك «التأديب» رداً على زيارة الرئيس أنور السادات إلى القدس ثم إبرامه، بعد الزيارة، إتفاقية «كامب ديفيد» بتخطيط متقن من الإدارة الأميركية التي كانت في عهدة الحزب الديمقراطي وبتأسيسها جيمي كارتر. ولقد تبين بعد ذلك ان الدول الأعضاء إستعجلت قرار «التأديب» الذي لا مبرر له، لأن هيئة الجامعة إهتزت وباتت عرضة للمؤاخذات، وفقدت دوراً كان من الممكن أن يقوم به أمينها العام الذي بات هو الآخر مجرد موظف عربي كبير المقام لكنه مسلوب الشأن.

وطوال ربع قرن أعقب الصدمة الأولى التي ألحقها الدول العربية بالجامعة، لم تستطع هذه المنظمة أن تؤكد الدور المطلوب منها. وحتى بعدما إستعادت مصر العضوية وإستعادت المقر ومصرية الأمين العام، وإختارت الدكتور عصمت عبد المجيد ليكون هو الأمين العام، بقيت الجامعة متأثرة بالصدمة الأولى التي أصابها، ووجد د. عصمت نفسه لا يستطيع ترميم الصف العربي الذي بات محورين: المحور الذي لا يغفر لنظام الرئيس صدام حسين ما فعله في الكويت وبها، والمحور الآخر الذي يجمع بين التعاطف مع النظام الذي دفع الثمن الباهظ نتيجة الغزوة التي قام بها، وبين التفهم الضمني لموقف دول المحور الآخر. ولو أن مصر كانت محايدة وليست من ضمن المحور المشار إليه لربما كانت الجامعة أنجزت بعض الأمور على صعيد توحيد الصف من خلال الإنلقاء

على بعض الجوامع المشتركة. ومن هنا نرى أن المصالحات التي تمت بين بعض دول محور التعاطف مع ما أصاب العراق وبين الكويت، إستغرقت أكثر مما ينبغي من الوقت، وهذا سببه أن الجامعة العربية المفترض فيها تحقيق أجواء المصالحات كانت جزءاً من المحور الذي لا يغفر.

بعد تسع سنوات من مراوحة الوضع العربي على ما هو عليه، قرر القادة العرب أن تكون هنالك قمة عربية دورية، وهذا يعني أن إمكانية مشاركة العراق فيها باتت متوفرة. ثم قرر القادة العرب أن يتم فتح بعض النوافذ على العراق وأن تُعطى الجامعة دوراً إستطلاعيّاً لا يكون فيه أمام الأمين العام مجال للإجتهاادات الشخصية. وعندما أطرى معظم القادة العرب، في قمتهم الدورية الثانية، إختيار الرئيس حسني مبارك لوزير خارجية مصر لكي يكون هو الأمين العام، وكان إطرأهم سابقة غير مطروقة، فعلى أساس أن الإطرأ هو بمثابة تكليف للأمين العام الجديد المتجدد بالمهمة الإستثنائية التي هي الدور الإستطلاعي. ما حدث هو أن عمرو موسى، الذي لا يمكنه أن يكون تقليدياً وتلك حاله طوال سنوات ترؤسه للدبلوماسية المصرية، خرج في نظر بعض القادة العرب على النص، كما يقال في عالم المسرح، فلم يعد مستطعاً كما يريدونه، وإنما على درجة من ممارسة الإجتهاادات على نحو ما يريد لنفسه. وهكذا وجد الرجل نفسه فجأة حائراً بين «متهم» يحتاج إلى من يدافع عنه، ومشئت الذهن يحاول من جهة إحتواء «التمرد» الليبي على الجامعة والإكثار من التلويح بالرغبة في الإنسحاب منها، ويسعى من جهة أخرى لمواجهة عاصفة «الطور السياسي» الكويتي التي إستهدفت شخصه وليس جامعته ووصلت إلى حد القول إنه مجرد موظف و«... إن الجامعة جامعتنا». ولقد إستلزمت مواجهة عمرو موسى لـ «المفاجأة الكويتية العاصفة» جولات وإتصالات وتمنيات أثمرت مهادنته، في إنتظار أن تكون هنالك رؤية جديدة للجامعة كياناً وأميناً عاماً ودوراً وميثاقاً وموظفين وأفكاراً مستقبلية ونوعية علاقة مستقيمة بينها وبين الدول الأعضاء. وذلك ما دار البحث في شأنه خلال أول إجتماع عربي موسع تلا القمتين المصغرتين اللتين إستضافهما الرئيس جورج بوش الابن في كل من شرم الشيخ والعقبة. وهذا الإجتماع عقدته في المنامة عاصمة القمة العربية الدورية الثالثة يوم

المنامة. ثم جاءت العملية الإستشهادية في القدس يوم الأربعاء 11 يونيو (حزيران) ورد الفعل الإسرائيلي الشرس بطبيعة الحال لتجعل القمتين ومعهما «الخارطة» البدعة نسياً منسياً. والله أعلم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 18 يونيو (حزيران) 2003

البرلمان الأول لعبدالله الثاني

ها قد بات للملك عبدالله الثاني برلمانها الأول، وستكون له بطبيعة الحال حكومته الأولى وكان سبق أن أنجز إضفاء شخصيته ونهجه على ديوانه. وغالب الإعتقاد أن برلمان الملك عبدالله لن يكون البرلمان المشاكس، ليس فقط لأن تجربة المشاكسة في برلمان الأب الراحل لم تُجدِ نفعاً للمشاكسين بفئتيهم المتحررة وتلك ذات النهج الإسلامي شبه الأصولي، وإنما لأن الإسلاميين يجيدون قراءة التطورات الراهنة من العراق الى فلسطين إلى إيران إلى دول أخرى في قائمة إدارة الرئيس بوش الابن الإستفزازية. وهم من خلال هذه القراءة لا بد يرتأون بالإختيار القائم على المنطق أو الإضطراب الذي ينأى عن المعاندة، أن الإنحناء التكتيكي أمام العاصفة البوشية العاتية له فعل الرؤية الإستراتيجية في المرحلة الراهنة. هذا الى أن نوعاً من الإنقباض النفسي حدث في صفوف جماهير «الإخوان المسلمين» الذين ينشطون في الأردن تحت تسمية «جبهة العمل الإسلامي»، فلم يأت الفوز كما تمننت قيادة الجبهة وتوقعت، ذلك أنه من بين المرشحين الثلاثين لم يفز سوى 16 مرشحاً، الأمر الذي يعني أن الإسلاميين باتوا صوتاً مبجوحاً نسبياً في برلمان إستأثر مرشحو العشائر الأردنية، وكذلك العائلات الموالية للعرش بنسبة 85 في المائة من مقاعده البالغة 110، لكن المهابة التي حصل عليها الإسلاميون متمثلة بفوز مرشحهم السبعة في العاصمة عمان، تعني أن جيران العرش الهاشمي هم من الإسلاميين، بينما «أهل العرش» اذا جازت التسمية، يتوزعون على المحافظات البعيدة. ومثل هذا الواقع في حسابات المجتمع السياسي الأردني له شأنه. لكن في الوقت نفسه لا يجوز التقليل من الحضور السياسي للإسلاميين في مجتمع المملكة المحافظ من

الثلاثاء 10 يونيو (حزيران) الجاري «لجنة المتابعة العربية» التي تضم وزراء خارجية مصر والسعودية وسورية والبحرين وفلسطين وليبيا والسودان وتونس والمغرب ولبنان وقطر. وخلال إحدى الجلسات، تناول رؤساء الدبلوماسية العربية موضوع الجامعة بإيجاز، وذلك لأن القضية الأساسية التي أمامهم كانت «مفاجآت» القمتين البوشيتين في شرم الشيخ، ثم في العقبة، وما تلا هذه المفاجآت من تداعيات على الساحة الفلسطينية. والجديد في الأمر أن المجتمعين الذين فشلوا في إصدار بيان حول القمتين اللتين من أجلهما إجتمعا، أناروا الضوء الأخضر أمام الأمين العام الذي قال لهم ما معناه، إنه قد آن الأوان لكي تكون جامعة الدول العربية ذات حيوية وفعالية مثلها مثل سائر المنظمات الدولية. وطلبوا منه أن يقدم بعد شهر إلى اللجنة تقريراً في ما يريده، وفي ضوء أفكار ومشاريع ومقترحات كثيرة سبق لدول أعضاء أن تقدمت بها أو أشارت إليها، لعل أبرزها مبادرة ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز، بعد رؤية الرئيس المصري حسني مبارك.

ما يريدون من عمرو موسى أن يقدمه جاهز. وهم لو طلبوا منه خلال الإجتماع في المنامة أن يعرض التقرير لكان سحبه من حقيبته. لذا لن ينشغل الأمين العام الحائر في أمر الدول الأعضاء معه ومع «جامعته» في إعداد التقرير المطلوب.. أو ربما أن الأمر لن يحتاج منه إلى أكثر من إعادة ترتيب أفكار لا أكثر، ناشئة عن الأجواء التي نتجت عن القمتين البوشيتين، وعن محاولة الإنقلاب العسكري العربي الأول بعد طول إنقطاع، وهي التي كادت تعصف بالنظام الموريتاني الذي إستعجل التطبيع مع إسرائيل فتحركت بسبب هذا الإستعجال شجون بعض الضباط الوطنيين والطامحين في الوقت نفسه، وكانت المحاولة الانقلابية التي إستغرقت يومين، والتي أذناها عمرو موسى وعلى نحو الإدانة المألوفة من جانب أهل السلطة الوطنية الفلسطينية للعمليات الإستشهادية التي إشتهرت بها حركة «حماس»، والتي صادف أن أحد أبرز قادتها الدكتور عبد العزيز الرنتيسي تعرض يوم كان وزراء الخارجية العرب يعقدون جلستهم الأخيرة في المنامة لمحاولة إغتيال، بواسطة طائرة «أباتشي» إسرائيلية وكادت تؤدي بحياته... من دون أن تعني نجاته أن الشظايا لم تصب مضمون القمتين اللتين كانتا الموضوع الرئيسي على بساط البحث في لقاء

نظاماً ودولة وشعباً أفادت الملك عبدالله، بحيث يجوز القول إن البرلمان الجديد هو برلمان، وإن الشق المتعلق بالتمثيل النسائي سيكون هو الآخر سنداً له إذ سيخلو البرلمان من الظاهرة «التوجانية» التي طالما أزعجت والده الحسين من قبل. أما لماذا ستكون برلمانيات الأردن الست سنداً له فلثلاثة عوامل. الأول هو أن الحضور النسائي على مستوى العرش متمثلاً بالملكة رانيا يبعث الإرتياح في نفوس البرلمانيات الست، ذلك أن الملكة رانيا هي ابنة فلسطين بقدر ما هي ابنة الأردن كسيدة أولى. والعامل الثاني هو أن التعاطي من جانب الملكة رانيا في الشأن العام على الصعيدين الوطني والإجتماعي، يتطلب بعض التوازن في المواقع الأخرى مثل الحكومة والبرلمان. ومن هنا فإن إشراك وجه نسائي أو أكثر في الحكومة التي ستخلف حكومة المهندس ورجل الأعمال علي أبو الراغب، التي هي نتيجة رحيل الملك حسين وعملية إنتقال الملك إلى ابنه، ثم المفاجآت والتداعيات المتلاحقة في المنطقة، أطول الحكومات صموداً، يحقق جزءاً من التوازن بمثل التوازن القائم منذ عهد الملك حسين في مجلس الأعيان، حيث أن الوزيرة السابقة ليلي شرف من أعضاء هذا المجلس الذي يترأسه زيد الرفاعي رئيس الحكومة الأسبق. لكن يبقى العامل الثالث هو الأكثر أهمية في مسألة القول إن برلمانيات الأردن الست سيشكلن سنداً للملك عبدالله، وذلك لأن وصولهن إلى البرلمان كان نتيجة إتكاف تتوارثه بعض الأنظمة العربية منذ أن بدأه الرئيس جمال عبد الناصر، ويتمثل في «الكوتا» التي بموجبها يتم تعيين من لا يتم إنتخابهم أو من لا يحالفهم الفوز في الإنتخابات. وهو إبتكار كان الغرض منه وما زال، تحقيق توازن تكون هويته أحياناً سياسية وأحياناً مذهبية. وبالنسبة إلى الملك عبدالله فإنه في مرحلة التأجيل المتكرر للإنتخابات إرتأى أن تكون له «حصّة» تعيين النساء اللواتي لا يحالفهن الحظ في الإنتخابات، وبحيث لا يتجاوزن الستة مقاعد ويتم الإختيار على أساس أعلى الأصوات التي حصلت عليها كل مرشحة. وبموجب هذه المعادلة بات للعرش برلمانياته الست ومنهن حياة المسمي، التي خاضت الإنتخابات على لائحة «جبهة العمل الإسلامي» ولم يحالفها الحظ ثم باتت عضواً في البرلمان في سياق «الكوتا النسائية».

خلاصة القول إن الفائز الأكبر في الإنتخابات

جهة والرافض وجدانياً للنهج الرسمي المتبع ازاء الإدارة الأميركية وإسرائيل. وهنا لا بد من وضع بعض الخطوط تحت تصريح أطلقه بعد إعلان نتائج الإنتخابات الشيخ محمد أبو فرس، الذي هو من الصقور في «جبهة العمل الإسلامي» وجاء فيه: «سنجعل أصواتنا مسموعة ونحاسب أي حكومة تتنازل عن حقوق الناس وتصيح حليفة إستراتيجية لليهود والأميركان...». لكن كيف ستكون طبيعة هذا الصوت. هل من خلال بيانات ولقاءات عبر الفضائيات العربية، التي ستكون إستضافتها لهؤلاء خالية من الحماسة، أم أنها ستكون من خلال إتخاذ مواقف الضد تحت قبة البرلمان، أم أنها ستكون من خلال المشاركة في حكومة قد يرى الملك عبدالله أن تكون بمثابة الخيمة التي تضم عشائر مملكته وإسلاميها ونخبها المثقفة، يشجعه على ذلك أن الجيل الثاني من عشائر المملكة بات حاضراً في حلبة السياسة والعمل الوطني من خلال البرلمان؟ وبالنسبة إلى مسألة المشاركة في الحكومة يستوقفنا قول الزعيم الروحي لجماعة الأخوان المسلمين الأردنية، عبد المجيد الذنيبات، بعد إعلان نتائج الإنتخابات «سوف ندرس بعمق أي عرض بالمشاركة في الحكومة المقبلة».

تساؤلات كثيرة باتت برسم المجالس السياسية منذ أن أعلنت وزارة الداخلية يوم الأربعاء الماضي (18/6/2003) نتائج البرلمان الأول لعبدالله الثاني، وجاءت رغم صرخات الإتهام التقليدي من جانب البعض بالتزوير، تعكس رغبة مشتركة في التهذئة لمواجهة ظروف اقليمية ودولية تتطلب المزيد من الحكمة والروية.. خصوصاً أن الإعصار الأميركي بات يعصف بكيانات وأنظمة ولا يقتصر على كثير من الضغط أو قليل منه من أجل تعديل سياسات. ومن المؤكد أن الاردنيين بمن فيهم الفلسطينيين الذي كان يعلّق الآمال على النظام الصّدّامي لكي يعيد له فلسطين، ما زالوا شأنهم شأن حلفاء النظام من إسلاميين ونقابيين ومتقنين ورجال أعمال، في حال من التأمّل في الذي جرى للعراق، وهم في صدد إستخلاص المزيد من العبر الناشئة عن الأمثلة الصّدّامية. وهنا لا بد من التنويه بأن البرلمان الأول لعبد الله الثاني كان سيأتي مفاجئاً له ولإدارة الأميركية لو أن الإنتخابات جرت قبل الحرب على العراق. لكن التوقيت وما آلت إليه أحوال العراق

الأردنية كان الملك عبدالله الثاني الذي سَجَّل نقلة نوعية في إتقان الممارسة، تعيد إلى الأذهان إتقان ممارسات والده الراحل... وبالذات في زمن التحديات. صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 25 يونيو (حزيران) 2003

* * *

لا منطق و"خُطب وداع" رسمية بلا اعتذارات

يتابع المراقبون المهمومون بالأحوال المتردية في الزمن العربي "المائل"، وكاتب هذه السطور منهم، ما يدور في السر وفي العلن من مكائد سياسية تستهدف أمتنا وأجيالنا ومستقبلنا وثقافتنا وحضارتنا وديننا، ويجد أن من واجبه كصاحب قلم أن يضع خطوطاً تحت بعض الأخبار والمواقف والتصريحات ويرفق وضع الخطوط بما تيسر من علامات الإستفهام والتعجب وبما يمكن أن يصوغه القلم كتعليق له صفة الملاحظة.

ومن الكم الهائل من هذه الأخبار والمواقف والتصريحات التي تثير التساؤلات وأحياناً الإستهجان نقِّم لقارئ "الشرق الأوسط" ما يأتي:

النموذج الأول: يوم الخميس 19 يونيو (حزيران) من العام الجاري (2003) وفي "خطبة الدواع" للرئيس الماليزي مهاتير محمد، الذي قرر بعدما بلغ السابعة والسبعين من العمر التقاعد والتخلي عن قيادة الحزب الحاكم المعروف بإسم "المنظمة الوطنية لماليزيا المتحدة" وتسليم الحكم إلى نائبه عبدالله أحمد بدوي، قال الرئيس مهاتير: "إن الدعم الأميركي لإسرائيل قد يكون أحد أسباب الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة. لكن هجمات 11 سبتمبر 2001 استخدمت كذريعة للاروبيين الانجلو- ساكسونيين للعودة إلى أساليبهم القديمة، وتتمثل في مهاجمة البلدان المسلمة والمسلمين سواء كانوا مذبنيين أم لا. وبالنسبة إلى العراق فإن الولايات المتحدة وبريطانيا أثبتتا أنهما لا تأبهان بإدانة العالم لأفعالهما. كما أثبتتا أنهما على إستعداد لإختراع مزاعم كاذبة من أجل شن الحرب وقتل الأطفال والشيوخ والمرضى. أننا لسنا ضد الأوروبيين بمن فيهم الذين هاجروا وأقاموا دولاً جديدة في أميركا وأستراليا ونيوزيلندا، والذين يرغبون في

السيطرة على العالم مرة أخرى. انهم أذكاء وشجعان ويحبون المعرفة إلى حد كبير، لكنهم مع الأسف الشديد طماعون جداً ويرغبون في الإستيلاء على أراضي وحقوق الغير بالقوة. كما أنهم ساهموا في إحتلال أراضي الفلسطينيين العرب وإقامة دولة إسرائيل تمهيداً لطرد اليهود من أوروبا". التعليق الممكن على ذلك هو:

كلام طيب هذا الذي قاله مهاتير محمد ويستحق وضع خطوط تحت بعض مفرداته. لكن علينا في الوقت نفسه أن نأخذ في الإعتبار أن هذا الكلام يأتي من رجل غادر الحكم ويريد تبرئة ذمته أمام بني قومه وأمام إخوانه المسلمين، وبالذات أولئك الذين تعصف بهم النوائب أمثال الشعب العراقي والشعب الفلسطيني. وكان مثل هذا الكلام ربما سيؤدي لو أنه ضمن الرؤية الرسمية للرجل، وبالذات في السنوات العشر الأخيرة من حكمه الذي إستمر 22 سنة حافلة بالصراعات، وأبرزها صراعه مع خصمه وزير المالية الذي رماه في السجن، وهو يعتقد أن الحكم الذي لم يدم لغيره سيدوم له.

وما إفتقدناه في "خطبة الدواع" المهاتيرية انها خلت من أي نقد ذاتي على نحو ما فعل قبل اشهر الرئيس التشيكي هافل الذي حرص بصدق على تبرئة الذمة مع شعبه، فغادر الحكم مرفقاً المغادرة بـ "خطبة وداع" حافلة بنقد الذات والإعتذار من شعبه على أخطاء قد يكون إرتكبها، مسجلاً بذلك تقليداً ما أوج كل الحكام اليه وبالذات حكام دول العالم الثالث الذين معظمهم مثل مهاتير محمد لا يغادرون الحكم بالحسنى، ويتسمرون بكرسي السلطان تحت مظلة الحزب الواحد إلى أن يُزالوا بإنقلاب أو يداهمهم المرض المستعصي أو يبلغوا من العمر السن التي يسأم المرء فيها من تكاليف الحياة. وأحياناً لا يسأمون ويواصلون الحكم ويخططون لتجديد الولاية. والمعذرة إذا نحن آثرنا عدم ذكر الأسماء.

النموذج الثاني: في اليوم نفسه نسبت مجلة "تايم" إلى مصادر في هوليوود وواشنطن، أن آل غور نائب الرئيس في العهد الكلينتوني والمرشح عن الحزب الديمقراطي للرئاسة الأميركية عام 2000، والذي تم عدم إنجازه لكي يتم بعد شهر إنتظار إنجاح الثنائي الجمهوري جورج بوش الابن - ديك تشيني، بدأ خطأ لإنشاء "امبراطورية إعلامية ليبرالية يسارية" لمنافسة شبكات الراديو والتلفزيون المحافظة الطاغية على

المشهد الإعلامي في الولايات المتحدة، وأنه أمضى بعض الوقت يبحث عن ممولين لمشروعه، وعقد لهذا الغرض لقاءات مع أشخاص مقتدرين مالياً. وفي التفاصيل أيضاً أن آل غور يعتبر الشبكات التلفزيونية ذات النهج اليميني مثل قناة "فوكس نيوز" المملوكة من روبرت مردوخ، بأنها وبعض المذيعين ومقدمي البرامج، بمنزلة "الطابور الخامس لإدارة الرئيس بوش" وأنها، أي تلك الشبكات، "تحقق بصفة يومية وجهات نظر الجمهوريين".

التعليق الممكن على ذلك هو:

ما خطر في بال آل غور أن يفعله يؤكد مدى لا موضوعية الإعلام الأمريكي، ويؤكد أمراً آخر في منتهى الأهمية يتعلق بعدم توازن المواطن الأمريكي في نظرته إلى قضايا العالم، وبالذات إلى كل ما هو عربي ومسلم.

لكن هذا التوجه لا يعني أن الأمور ستستقيم إذا كان الذين تباحث معهم آل غور في شأن التمويل معظمهم من أثرياء اليهود في أميركا. وفي حال نجاح مسعى آل غور وأمكنه إيجاد التمويل الكافي لمشروعه، وكان التمويل في معظمه يهودياً، فهذا معناه أن الشبكة التي يسعى إلى إنشائها ستخدم إسرائيل، وسنجد أنها ستتنافس مع الشبكة الأخرى (فوكس نيوز) التي يملكها اليهودي مردوخ الأسترالي وصاحب المشاريع الإعلامية الكبرى في بريطانيا وأميركا وإسرائيل. وربما تكون المباراة شرسة بين الطرفين على صعيد قضايا داخلية. أما على الصعيد الذي يهمنا كعرب فلن نستفيد شيئاً ما دامت أموال التأسيس يهودية. وفي ضوء ذلك نتساءل: لماذا لا يلتقي بضعة مقتدرين عرب ويشاركون في مثل هكذا مشروع، وبحيث تكون لهم كلمتهم في مجلس الإدارة؟ ثم اننا كعرب ومسلمين نشكو باستمرار من أنه لا صوت لنا داخل أميركا، وتأتي فكرة آل غور تحقق ما نصبو إليه.. أي تكون هنالك وسيلة اعلامية فاعلة داخل أميركا لا تقلب الحقائق ومن دون التطويل والتزمير للحكومات. وفي الديار العربية من مصر والسودان.. إلى لبنان وسوريا والأردن.. إلى الديار المغاربية مروراً بطبيعة الحال بالديار الخليجية الأكثر إقتداراً، هنالك على الأقل مئة مقتدر عربي يواصلون كنز المال بينما قضاياهم وأوطانهم تُذبح على قارعة الطريق الأميركية - الإسرائيلية. ولا داعي لذكر أسماء هؤلاء المقتدرين خشية أن يكون رد فعلهم أن أحوالهم بالكاد "مستورة

والحمد لله... مع أنهم من السلالة القارونية.

النموذج الثالث: في اليوم نفسه أفادت الأنباء أن دولة عربية لا يتجاوز عدد سكانها ربع مليون نسمة، أبرمت مع فرنسا صفقة لشراء 18 طائرة نقل "إيرباص" مع إمكانية شراء 14 طائرة أخرى. وهذه الصفقة هي الأكبر في تاريخ شركة "إيرباص" ورأى فيها الرئيس جاك شيراك خير هدية تأتيه في وقت تواصل فيه الإدارة البوشية الحرب الإقتصادية عليه.

التعليق الممكن على ذلك هو:

هذه الطفرة الطيرانية تبعث السرور في النفس، لكن لماذا كل هذا الكم الهائل من الطائرات التي تصل قيمتها إلى خمس مليارات دولار. وبعيداً عن مشاعر الغيرة والحسد، فإن كثيرين في هذه الأمة سيقولون: هل هو منطقي أن تبرم دولة صغرى صفقة 32 طائرة "إيرباص" بخمسة مليارات دولار، بينما لا تجد دولة كأنها قارة وعدد سكانها يزيد أكثر من تسعة عشر مليوناً على تلك الدولة الشارية التي لا يتجاوز عدد سكانها ربع مليون، ثلاث طائرات تخفف من خلالها وطأة الإختناق في السفر؟ وهل هو منطقي ان تكون دولة بهذا الحجم الصغير قادرة على أن يكون لديها هذا الأسطول بينما الدولة الأكبر في منطقة الخليج محتلة وطائرات أسطولها مشتتة في بعض المطارات العربية وشعبها غير مسموح له بالسفر؟

وفي عالم اللا منطق الذي نعيشه ليست هذه هي الحالة الواحدة التي تثير الإستغراب، فقد نصل ذات يوم إلى ما هو الأعظم.. نجّانا الله منه.

النموذج الرابع: في اليوم نفسه أيضاً، أي الخميس 19 يونيو من العام الجاري، كانت سيدتان بريطانيتان عضوان في مجلس العموم البريطاني هما العمالية اونا كينغ العضو في "المجلس اليهودي للمساواة العرقية"، وجيني تونغ التي تمثل "الحزب الليبرالي الديمقراطي" في البرلمان البريطاني، تعقدان مؤتمراً صحافياً في لندن بعد زيارة قامت بها إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة. وفي هذا المؤتمر الذي تعمدت السيدتان عقده قبيل إستقبال رئيس الحكومة طوني بلير في مقره الرسمي لوزير المالية الإسرائيلية بنيامين نتنياهو، قالت الإثنتان كلاماً ينضح ضميراً ونصيحة. ومما قالته الأولى ان ما يعيشه الفلسطينيون في قطاع غزة يشبه ما حصل لليهود في "غيتو" وارسو على أيدي النازيين. واضافت: "بوصفي يهودية أقول انني كنت أمل بالأ

أشعر بالعار من أعمال دولة يهودية...". أما رفيقة رحلتها فقالت: "هنالك أوجه شبه بين غيتو وارسو ووضع الفلسطينيين في قطاع غزة، وهناك أيضاً فصل عنصري".

التعليق الممكن على ذلك هو:

مزيماً من الصحوه أيها الإنكليز وبذلك قد ترتاح ضمائر أجيالكم من الوخر الناشئ عن وعد جدهم اللورد بلفور، الذي قدّم فلسطين العربية المسلمة. المسيحية أرض الرسالات، التي فيها الحرم الثالث ومهد السيد المسيح هدية من بريطانيا العظمى إلى الصهيونية، رامياً الشعب الفلسطيني في الشتات وفي المخيمات.. ومن دون أن يخطر في باله انه بعد أكثر من نصف قرن باتت إسرائيل هي عملياً الدولة العظمى. أما بريطانيا التي كانت العظمى فإنها لن تعود كذلك إذا إستمرت مواقفها تجاه الفلسطينيين بالذات على النحو الخجول والمخجل التي هي عليه.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الجمعة 4 يوليو (تموز) 2003

* * *

نزار حمدون.. قتل

جمود البعث وقتله المرض

الآن وقد أسلم نزار حمدون الروح في أحد مستشفيات نيويورك يوم الاحد 6 يوليو (تموز) الجاري، وإنتهت بذلك رحلة العذاب مع المرض وعلاج الحالة السرطانية كيماوياً الأمر الذي يجعل الألم مضاعفاً، أجد نفسي في غاية التأثر كوني عرفت عن كذب هذا الرجل الذي أثبت عدم إستحالة المرونة وإمكانية إستيعاب المتغيرات الدولية، والذي كاد ينتشل بلده وحزبه، البعث، من الوهدة التي إنتهت إليها الحال، لو كان هنالك بعض الإصغاء إلى ما يقوله عندما يتاح له القول، وإلى ما يكتبه.. وهو كثيراً ما كان يكتب من واشنطن أو من نيويورك، إلى القيادة في العراق.

كان نزار حمدون الذي داهمه المرض قبل خمس عشرة سنة وقضى عليه، وهو لم يُنه العقد الخامس من العمر، من الملزمين حزبياً وواحداً من أفراد الكوادر المتقدمة في حزب البعث. ومع ذلك فإنه قرأ جيداً منذ

ان اندلعت الحرب العراقية - الإيرانية، أو فلنقل انها الحرب الصدامية - الخمينية، خارطة طريق الولايات المتحدة إلى المنطقة. وبدل أن يتصرف مع قراءته بالحدة ورفض التحولات الجديدة، وذلك على أساس انه ابن عقيدة لا تحتل أي مرونة، فإنه أمعن غوصاً في أعماق التوجه الأميركي، وبالذات بعدما وجد نفسه يفتتح السفارة الأولى في عهد البعث في واشنطن عام 1984. والقول بأنها السفارة الأولى على أساس أن الحقبة البعثية ليست هي البادئة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع أميركا وإنما حدثت القطيعة أيام كانت العارفية، من خلال الشقيقين عبد السلام ثم عبد الرحمن عارف، أول شقيق في العالم العربي الجمهوري يرث شقيقه الذي جرى إغتياله جواً، هي قاطعة تلك العلاقات إنسجاماً مع القرار العربي في هذا الشأن، رداً عاطفي المنحى على هزيمة الخامس من يونيو (حزيران) 1967. وعندما تسلّم البعث الحكم من خلال الصيغة الثنائية (أحمد حسن البكر/ صدام حسين) بدأ السعي من أجل إستئناف العلاقات. وإختيار نزار حمدون البعثي المتمرس لإفتتاح السفارة وليس أي أكاديمي أو دبلوماسي من غير البعث لهذه المهمة، كان لتعميق العلاقة بين العراق المحكوم من البعث والولايات المتحدة. وليس هنالك أفضل من نزار حمدون لمثل هذه المهمة. وخلال عمله كسفير أنجز أموراً كثيرة وأنشأ علاقات في منتهى الأهمية، ولم تنق ولاية إلا وزارها وحاضر فيها أو تحدث إلى وسائل الإعلام العاملة فيها. وفي فترة زمنية قصيرة بات هنالك ما يجوز إعتبارها نواة «لوبي» للعراق، يضم في عضويته بعض رجال السياسة والأعمال والمصارف، إرتاحوا إليه لأنه كان يتحدث كشخص يريد للعلاقة بين العراق وأميركا أن تستقيم، وليس كرجل عقيدة تتطلع إلى تحرير فلسطين من البحر إلى النهر... وإلا فإن الذين لا يشاطرون قيادة بلده الرأي لا مجال لبناء العلاقة الوطيدة معهم.

بدأ نزار حمدون يُقنع بعض أركان الإدارة الأميركية المعقودة اللواء للرئيس رونالد ريغان بجدوى تطوير العلاقة الأميركية - العراقية. وكانت نقطة الإنطلاق قيام مجموعات من رجال المال والأعمال وممثلي الشركات الصناعية الكبرى في أميركا بزيارة إلى العراق، تولى ترتيبها، بدعم من نزار حمدون ومساندته، المصرفي الأميركي العربي الأصل بوب عبود، وشكلت هذه الزيارة التي تمت يوم 6 يونيو (حزيران) 1989 نقلة نوعية على طريق التطور وفق رؤية نزار حمدون لهذا التطوير.

ولن يتفاهما.. على نحو مقولة «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا؟».

وانطلاقاً من حسن الظن من جانبه في شخصي فاجأني نزار حمدون بالقول: إن السناتور بوب دول طلب منه أن يقوم بإبلاغ الرئيس صدام جملة للرئيس جورج بوش الأب من سبع كلمات هي: «إما أن تتغير يا سيادة الرئيس أو تتغير». ولم يوضح لي ما إذا كان سيقول الجملة للرئيس صدام. وغالب الاعتقاد أنه قالها لي لعلني أقولها بدوري في سياق مقالة، وبذلك تصل الرسالة إلى العنوان المطلوب. ولكنني لم أفعل لأن الخشية من التفسير كانت ماثلة أمامنا. وما أنذا أشير إليها بعدما بات نزار حمدون في ذمة الله.. وكان صدام حسين بات قبل ذلك في ذمة الله أو التاريخ لا أحد يمكنه أن يجزم. وكان من شأن تلك الجملة لو تم أخذ صدام حسين بها في اتجاه التغيير، أن يبقى وينجو العراق من حربين قد تولدان واحدة ثالثة. والله أعلم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 17 يوليو (تموز) 2003

هموم طوني بلير وممكناته في مواجهة شارون ومستحيالاته

كأنما لا تكفي طوني بلير همومه الناشئة عن تداعيات الإستعجال في الهرولة إلى محاربة العراق جنباً إلى جنب مع الإدارة الأميركية الأكثر إستعجالاً، حتى يأتيه رئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون، رامياً المزيد من الألغام في طريقه التي إمتلأت بلوم يأتيه من جانب الصحافة والمنافسين داخل «حزب العمال» وفي أوساط الأحزاب الأخرى، التي تتطلع إلى الحلول محله، تعزز تطلُّعها هذا إستطلاعات للرأي العام، أفاد أحدثها المنشور يوم 14 تموز (يوليو)، وهو لن يكون الأخير في أي حال، أن 66 في المئة من الذين شملهم الإستطلاع، إعتبروا أن بلير خدعهم في ما يتعلق بجذور الحرب على العراق، من بينهم 27 في المائة قالوا إنه خدعهم عمداً، في حين إعتبر 39 في المائة أن الخديعة لم تكن متمدة. كما أن الإستطلاع المشار إليه أفاد بأن 35 في المئة من الذين شملهم قالوا إنهم فقدوا ثقتهم برئيس وزرائهم في

وكان هو في الوقت نفسه يعمل على تذليل أي عقبات في تطوير العلاقة. وفي سبيل ذلك كانت له أفكار وإقتراحات تقاطعت مع رؤية صدام حسين الذي كان يتطلع إلى ما هو أكثر من تطوير العلاقة. وإذا جاز القول، فإنه كان يريد أن يتزامن التطوير مع مبايعة أميركا له سيداً على الخليج، وهو إفراط في إستباق الأمور... وبالذات ما هو مستحيل منها.

وحتى بعدما داهمه نوع من السرطان الذي يصيب الجهاز اللمفاوي، إستمر نزار حمدون يكافح على جبهتين: جبهة تطوير العلاقة بين العراق وأميركا، التي بذل مشقة في سبيلها، وجبهة العلاج الكيماوي لعل معجزة تحدث. وافترض أن زيارة وفد من مجلس الشيوخ برئاسة السناتور بوب دول قد تضع أمور العلاقة التي إهترت كثيراً في نصابها، خصوصاً أن تقييمه على نحو ما سمعنا تحليله للزيارة، وكان بات وكيلاً لوزارة الخارجية، يتلخص في أن العلاقة مع الإدارة الأميركية التي كانت في عهد الرئيس جورج بوش الأب محاصرة في عنق الزجاجة، من شأن نجاح زيارة الوفد إخراجها بسلامة والبناء عليها وعلى أحسن ما يكون عليه البناء. وكان تقييمه يستند إلى أن الوفد الذي يترأسه السناتور بوب دول خلطة أميركية يهودية، وأن رئيسه هو الأكثر إحتكاً بالرئيس بوش والأكثر قرباً من نظريته إلى الأمور. ولأنني من المهتمين بالشؤون المصرية فإن نزار حمدون قال لي: تستطيع وصف تأثير السناتور دول على الرئيس بوش بمثل تأثير عثمان أحمد عثمان على الرئيس أنور السادات. وللتذكير، فإن التأثير «العثماني» على السادات كان كبيراً جداً، وتزايد شأنه نتيجة زواج نجل رئيس أهم شركة مقاولات مصرية وربما عربية، أي عثمان أحمد عثمان، من إحدى بنات الرئيس السادات.

بعدما غادر الوفد العراق في أعقاب إنتهاء لقاء مطول مع الرئيس صدام حسين، عقده الوفد الذي يضم إلى جانب السناتور بوب دول السناتور سمسون والسناتور جيمس ماكلور والسناتور ماركوسكي، أمضيت مع نزار حمدون قرابة ساعة، أشارك معه في تحليل هذه الخطوة وما يمكن أن ينشأ عنها. وكان كل منا قرأ بتأن محضر اللقاء الذي تم في الموصل، كما نشرته نصاً الصحف العراقية. ولقد إحتار كلانا في أمر النشر، وأرفقنا الحيرة بالتساؤل: لماذا العجلة في النشر، وهل أنه يفيد في شيء سوى أنه إشهار بأن الإدارة الأميركية هي الإدارة وصدام حسين هو صدام

ما يتعلق بمسألة الحرب. أما في صفوف مؤيدي «حزب العمال» فإن النسبة وصلت إلى 11 في المائة.

واقع الحال هذا يجعل طوني بلير منشغل البال كما لم يحدث هذا الانشغال من قبل، حيث أن إتساع الشعور من جانب البريطانيين بأن رئيسهم ضللهم، بصرف النظر عما إذا كان ذلك نتيجة سوء تقدير من جانبه، أو طمعاً بنصيب وافر من الثروة العراقية لن يحصل عليه، أو أنه بدوره وقع فريسة تضليل من آخرين، معناه أن فرصته في تجديد الرئاسة ستراجع.. هذا إذا كان لن يصيبه ما أصاب مارغريت ثاتشر رئيسة وزراء الطبعة الأولى من الحرب على العراق، التي تبين أن الغرض منها كان إنهاك نظامه وإلى درجة يصبح الإنقضااض عليه بمثل إنقضااض صقر جائع على طريدة أتعبها رفض الإستسلام للأقدار.

وفي ظل هذا المناخ غير المطمئن حط أرييل شارون رحاله في لندن ليطلب بعض المستحيلات من حكومة طوني بلير، ومن بينها الضغوط المتعددة الأغراض والجوانب، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، الضغط على بعض الأصوات الرسمية البريطانية، وبالذات داخل «حزب العمال»، التي بدأت تكثر في تصريحات تدلي بها على الملأ، من لوم النهج الشاروني ضد الفلسطينيين، الذي يشبه، على حد قول إحدى «عضوات» المجلس، وهي «عمالية»، الأساليب النازية العنصرية.

والضغط على بلير من أجل أن يضغط على الحكام الأوروبيين من أجل أن يقاطعوا الرئيس ياسر عرفات، فلا يتم الإجتماع به في مقره الذي لم يُرفع الحصار عنه رغم قيام الحكومة «العباسية - الدحلانية»، ولا يكون هنالك إعتراض على الخطوة المنوي اللجوء إليها، وهي خلع عرفات وتسفيره.. وبذلك ينشط الرئيس محمود عباس في إتجاه تنفيذ «واجب» تفكيك التنظيمات «الحماسية» و«الجهادية» وأي تنظيم ما زال لا يرى ما يراه الثنائي محمود عباس ومحمد دحلان، ومن أجل ذلك فإن التفهم للمرحلة الحالية ينتهي عند نقطة رفض تسليم السلاح على ندره هذا السلاح في أيدي «الحماسيين» و«الجهاديين» و«الفتحيين البرغوثيين» و«الجهويين الحبشيين - السعدانيين».. وآخرين كثيرين من كرام القوم الفلسطينيين على الصعيد الوطني الذين يتساهلون في كل الأمور ما دام لا تفرط هناك ولا إستسلام.

والضغط على الأصدقاء العرب من خلال سفراء بريطانيا أو من خلال جولة لوزير الخارجية جاك سترو على العواصم العربية لإقناع قادتها بأن يقولوا بدورهم للقادة الأوروبيين إنه لا مانع لدينا من إسقاط عرفات من الحساب إذا كنتم ترون أنه العائق أمام إنطلاقة أبو مازن.

وكذلك الضغط على الأصدقاء العرب ومن خلال القنوات البريطانية لإقفال أي «حنفية» تروي النضال الفلسطيني أو تتعشه أو تشد من أزره والضغط على مصر بالذات كي يأذن رئيسها بعبور شارون إلى القصر الجمهوري مقدمة لعبور يلي ذلك إلى عواصم عربية أخرى.

ومقابل ذلك نسمع أرييل شارون يقول للرئيس بلير انه سيفرج عن بعض المعتقلين من الفلسطينيين مشترطاً أن «لا تكون أيادي هؤلاء ملطخة بالدماء...» وكأنما أياديه تقطر ماء الورد.

هذا هو القليل من الكثير الذي طلبه شارون ومن دون أن يشجع أهل الحكم البريطاني على التجاوب، وذلك من خلال إبداء حسن النية إزاء بعض المسائل التي في حال صدورها عن الجانب الإسرائيلي ستجعل ماء الوجه «العباسي - الدحلاني» محفوظاً إلى حد ما.

في ضوء ذلك يجوز الافتراض بأن أرييل شارون أراد من زيارته ومن المستحيلات التي تتمثل بالكم الهائل من طلبات الضغوط تطويق الإتجاه البريطاني الذي يزداد وضوحاً ويكتسب شعبية، ويرى انه لا حل للموضوع الفلسطيني إلا من خلال تصحيح الخطأ التاريخي المتمثل بـ «وعد بلفور»، ومعاودة قراءة نص هذا الوعد في ضوء أكثر من نصف قرن من الظلم في حق شعب، ووضع مضمون الوعد موضع التنفيذ، وأيضاً من خلال الإصرار على التنفيذ للنزبه لقرار مجلس الأمن 242 الصادر قبل 36 سنة، مارست خلالها الحكومات الإسرائيلية من المماثلة ما جعل قطاعات عريضة من الرأي العام البريطاني ترى أنه ما دامت حكومتهم هي التي منحت في العام 1917، وفي شخص وزير الخارجية اللورد بلفور إلى زعيم الحركة الصهيونية زمذاك اللورد روتشيلد، وعداً ملكياً بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وما دامت حكومتهم أيضاً وفي شخص مندوبها إلى الأمم المتحدة اللورد كارادون عام 1967 هي «صاحبة» صياغة القرار 242 الذي ينص على إنسحاب إسرائيل من كل

إنقاذ ما يمكن إنقاذه من السودان الواحد

ما أن إستبشر السودانيون، وكل من يريد الطمأنينة لهم خيراً بالإنفاق الذي أبرمته الحكومة البشيرية مع الجانب القرني، الذي يتقاسم مع الحكومة حرب الإستنزاف في الجنوب، وتزامن مع إنجاز الإنفاق إرتياح محلي وإقليمي أفريقي وعربي وتأييد دولي محسوب بدقة، حتى بدأت الأطراف المعنية بالوضع السوداني تنشط من أجل قطف ثمار السلام عندما يستتب، وليس دعم الإنجاز والسهر عليه لكي ينطلق ولا يصطدم بمحاولات قد تستهدف تقويضه.

في البداية رأينا في هذا الأخذ والرد حول الإنفاق نوعاً من المشاكسات ذات الطابع الديمقراطي، التي يبرع فيها إخواننا السودانيون، وتحديداً أمراء السياسة وأقطابها وديناصوراتها. ورأينا أيضاً، أن كثرة المناقشة تثري الإنفاق وتجعله أكثر رسوخاً وصموداً في وجه الأعاصير التي تعصف بالمنطقة العربية من المحيط إلى الخليج. لكن ما رأيناه لم ينطبق تماماً على مجريات الأمور، ذلك أن المشاكسات تحولت إلى مواقف تتسم بالحدة ومطالب لها صفة التعجيز، فضلاً عن تباطؤ هذا القطب السياسي المعارض بالعودة من الشتات، وعزوف ذاك الحليف له عن التأييد المطلوب للإنفاق، وتباعد آخرين عن جوهر الأمور وتقضيلهم اللامبالاة على الإنخراط الكلي والحماسي في تيار التسوية. ومثل هذا الوضع ربما ما كان ليحدث لو أن الإنفاق لم يأت بصيغة المباغته، بدلاً من أن يكون نتاج مؤتمر وطني شامل يشارك فيه الجميع ويكون الأمناء العامون الإقليميون والدوليون، من الأمن العام للأمم المتحدة إلى الأمين العام للجامعة العربية، إلى الأمين العام لمجلس التعاون الخليجي، إلى الأمين العام للإتحاد الأفريقي، إلى الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، إلى من يمثل الفاتيكان، مشاركين في هذا المؤتمر وفي المداولات التي تهيئ الأرضية الصالحة لإنفاق يبرمه في نهاية الأمر الطرف الحكومي والطرف الذي يمثل الدكتور جون قرنق.

ومع أن الأمور والتعقيدات الناشئة عن المباغته سُويت إلى حد ما بعد ذلك، وأبرزها تطييب خاطر المصري، وقيام الرئيس حسني مبارك بعد طول غياب وجفاء بزيارة خاطفة لبضع ساعات إلى الخرطوم تدليلاً على هذا التطييب، إلا أن هاجس قطف ثمار ما بعد السلام إستمر قائماً ومستحكماً في نفوس أمراء وأقطاب

الأراضي العربية التي إحتلتها يوم 5 يونيو (حزيران) 1967... إنه ما دام الأمر كذلك، فإنه يتحتم على جيل بداية القرن الواحد والعشرين تصحيح ما كان من الأخطاء (أي الوعد) وتنفيذ ما لازمه تقاعس (أي القرار 242) وهما بعض ما جنته بريطانيا على العرب ودون وجه حق. وإذا كان التصحيح لن يحدث فإن هذا الوزر سيظل يلاحق البريطانيين من جيل إلى جيل... إلى أجيال، فضلاً عن أنه سيكون مدعاة للخجل أن تكون بريطانيا القرن الواحد والعشرين أسيرة حكومة إسرائيلية تتلاعب بأقدار المنطقة التي كانت ذات يوم ساحة لبريطانيا.

كما ان الذي أراده شارون من زيارته هذه بالذات، هو أن يتباطأ التقارب البريطاني - الإيراني وينحسر الود البريطاني - السوري، لأن إستمرارهما على النحو الحالي معناه ان يأتي يوم ليس بالبعيد تعتبر فيه بريطانيا أن العلاقة مع هاتين الدولتين مسألة إستراتيجية، لأنهما البوابة التي تعبر منها بريطانيا إلى المنطقة... وهذا يتطلب فك الارتباط قليلاً مع الإدارة الأميركية في الموضوع العراقي، وإلى درجة سحب القوات البريطانية من العراق. كما يتطلب استدارة ملحوظة في موضوع المسايرة البريطانية لإسرائيل.. وهذا ما تتكون في الأفق ملامح حدوثه، ومن أجل ذلك يبدو شارون كثير القلق ومن دون أن يشفي غليله قول بلير له «نحن أفضل أصدقاء إسرائيل في أوروبا». ورداً على قلقه المشار اليه نجده يُكثر من وضع الألغام في صيغة مطالب يعرف أنها من المستحيلات بالنسبة إلى بريطانيا.

في ضوء ذلك يبقى السؤال: هل نتوقع مفاجأة بريطانية تستقيم بموجبها الأمور وتضع رئيس الحكومة طوني بلير على الجانب الصحيح من خارطة الطريق إلى تجديد الرئاسة بدل أن يرى نفسه على قارعة الطريق؟

والجواب عن ذلك هو أن الرغبة في التجديد من جهة، وتعديل المشهد السياسي البريطاني يأتي باستطلاع حافل بالنسب المئوية المشجعة من جهة أخرى، هما مثل الضرورة... التي لها أحكامها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 23 يوليو (تموز) 2003

* * *

وديناصورات العمل السياسي في السودان. ثم جاءت عودة الثلاثي الأبرز في المعارضة إلى التحرك غير الإيجابي، في منظور الحكم البشري، تشكل إزعاجاً وإقلاقاً لهذا الحكم، خصوصاً أنه كان يتطلع إلى أن تكون الذكرى الرابعة عشرة لترؤسه السودان هي ذكرى نشر السلام في ربوع البلاد. ويتمثل التحرك الذي نشير إليه باللقاء الذي إستضافه سيد «الختمية» في دارته المصرية، وحضره سيد «الأنصار» الصادق المهدي الذي إختار طوعاً تهجير نفسه إلى القاهرة، وسيد «الختمية» محمد عثمان الميرغني الذي ما زال يرفض العودة إلى السودان، و«سيد» الجنوب الدكتور قرنق.

أهمية هذا اللقاء هي أولاً في ما سُمي «إعلان القاهرة» الذي أصدره، وفيه ما يشير إلى تراجع قرنق عن موضوع العلاقة بين الدين والدولة، وموضوع العاصمة القومية على نحو ما جاء في إتفاق «ماشاكوس». كما أن أهميته هي في مجرد إلتزام شمل هذا المثلث وفي القاهرة بالذات، التي إعتبر الرئيس البشير، وفي ضوء الوفاق المتجدد مع الرئيس مبارك، انها لن تكون بعد زيارة الأخير للخرطوم سوى عاصمة التوفيق وليست العاصمة التي تستضيف مثلث الإقلاق للحكم البشري. وهذا الإقلاق رآه الرئيس البشير في عيون أقطاب الثلاثي المتباعد في كل شيء إلا في الموقف من «المرحلة الإنقاذية» برمتها، حيث ينشطون متكاتفين متضامنين من أجل الإطاحة بهذه المرحلة لكي يحلوا محلها. وكان لافتاً رد فعل الرئيس البشير على ذلك اللقاء متمثلاً بقوله يوم السبت 28 يونيو (حزيران) الماضي، أمام حشد من الشباب في «قاعة الصداقة» إحدى ثمار علاقة السودان النميري مع الصين، ولمناسبة مرور 14 سنة على تقلده السلطة: «إن السودان لا يبينه اللاجئون في الخارج، وإنما يبينه من يقبضون على الجمر. إن الشريعة الإسلامية والعاصمة لن تكونا ثمناً للسلام. وعلى رغم اننا مع السلام العادل إلا أننا لن نفرض أنفسنا على الآخرين، ولذا دعونا إلى إنتخابات عامة حتى يعرف كل وزنه من خلال صناديق الإقتراع. وأؤكد مرة أخرى أن الخرطوم لن تعود كما كانت قبل العام 1983.. أي قبل أن يعتمد الرئيس الأسبق نميري الشريعة. ولكي يحدث ما يمكن إحداثه من الشقاق في صف الثلاثي الذي يسبب الصدام للنظام فإنه دعا «الجيش الشعبي لتحرير السودان» الذي

يقوده قرنق، إلى أن يكون أبرز الشركاء في الحكومة المقبلة، وإلى المشاركة في الإنتخابات العامة التي ستجرى في العام الأول بعد توقيع إتفاقية السلام.

وما لم يقله الرئيس البشير عن الثلاثي المعارض (المهدي، الميرغني، قرنق) أفصح عنه مستشاره السياسي الدكتور فُطُبي المهدي لـ «الشرق الأوسط» وبالمفردات التي توجع الثلاثة، حيث انه قال عن سيد «الأنصار» وسيد «الختمية» ما معناه انهما مع بقية الحلفاء الحزبيين لهما، فشلاً في الإستيلاء على السلطة عن طريق المعارضة المسلحة والمعارضة السياسية والإنتخابات، ومن أجل ذلك فإن هذه الأحزاب «تعتقد أن طريقها إلى السلطة سيكون أقصر إذا جاءت بعربة جون قرنق الذي هو الآخر يستقوي بحلفاء في الشمال لتعويض الفاقد السياسي له مع القوى الجنوبية ولإستعادة شأنه الحربي الذي يتزايد ذبولاً».

والذي يجعل الحكم البشري يرد بهذه الحدة هو أن السديين الأنصاري والختمي لا يمكنهما، لو أنهما في سدة الحكم، إعادة النظر في موضوع الشريعة، وربما في موضوع العاصمة القومية، وانه ما دام الأمر كذلك فإن لقاءهما مع قرنق هو مناورة من شأن الرد عليها إضعاف موقف السديين.

ولكن هل ستبقى الحال على ما هي عليه، أم أن الحكم المصري الذي لا يحبذ إعتداد الشريعة في السودان كي لا يصبح ذلك نموذجاً لمثل له في مصر، والإدارة الأميركية التي تخوض من أجل تقويض التجربة الإيرانية وإضعاف التجربة السعودية، تشجعان ضمناً هذا التلاقي التكتيكي بين سيد طائفة «الأنصار» الصادق المهدي، وسيد طائفة «الختمية» محمد عثمان الميرغني، و«سيد» الجنوب الدكتور جون قرنق، من أجل أن يتطور إلى وفاق إستراتيجي يمكن بموجبه وتحت المظلة السياسية وإحلال الديمقراطية محل الحزب الواحد، إقناع سيدي «الأنصار» و«الختمية» بإستتباط «فتوى» ترى ان الحقبة من العام 1983 أواخر حكم نميري، وحتى «حقبة الإنقاذ» المتواصلة، إنما هي حقبة تقتقد إلى الشرعية الدستورية، على أساس انها جاءت بفعل الانقلاب، وأنه إستناداً إلى ذلك وهدياً به وتشجيعاً من الإدارة الأميركية له، وإستفادة من الأمثلة العراقية وما قد يصيب إيران ومن أجل أن ينشر السلام أشرعته في ربوع السودان ويتدفق النفط آمناً مخاطر الغارات

باتت أكثر وقوفاً الى جانبها، وإن العلاقة الودية المباشرة بين الرئيسين حسني مبارك وعمر البشير باتت، إذا جازت المقارنة، بمثل ما كانت عليه العلاقة بين الرئيس السادات والرئيس نميري، ثم بين مبارك ونميري، الأمر الذي يعني أن السلام في السودان جزء من الإستقرار في مصر، وأن السودان الواحد هو رمز هذا الإستقرار، إنما شرط عدم إعتراض الإدارة الأميركية على ذلك مباشرة... أو من خلال الألغام «الإيقادية» ذات اللمسات الكينية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 30 يوليو (تموز) 2003

إنتفاضة أولى نقابية

سجّل الصحافيون المصريون يوم الأربعاء 30 يوليو (تموز) الماضي، إنجازاً سيبقى نموذجاً لما يجب أن يكون عليه العمل السياسي والنقابي.. بل لعل الذي حدث كان مؤشراً إلى نقلة نوعية في المفاهيم، تقوم على ضرورة أن تتجدد الدماء في إستمرار في شرايين العمل العام، فضلاً عن أن ظاهرة ان تكون السلطة أو الحكومة هي دائماً من يجب أن يفوز، على أهبة أن تتوارى لتحل محلها ظاهرة الفوز للأفضل والكلمة للإقتراع الحر.

تمت الإنتخابات في أجواء من النزاهة والنظافة إلتزمت فيها اللجان القضائية التي يرأسها مستشار بالحياد التام، وإستطاع أعضاء الجمعية العمومية لنقابة الصحفيين، الذين أدلوا بأصواتهم وعددهم 3328 من أصل العدد الإجمالي وهو 4332، أن يقترحوا مطمئنين إلى أنه لن يكون هنالك تلاعب أو تزوير. وبنتيجة الفرز فازت شكلاً «أخبار اليوم» على «الأهرام»، مع الأخذ في الإعتبار أن مضمون النتيجة ومؤشراتها يؤكدان فوز المعارضة إذا جاز التصنيف، على الحكومة إذا جاز التصنيف أيضاً. فالفائز بمنصب النقيب هو جلال عارف المحسوب على التيار الناصري. والخاسر هو صلاح منتصر المحسوب على الخط الساداتي. وعلى رغم أن جلال عارف ابن السادسة والخمسين هو أحد كتّاب مؤسسة «أخبار اليوم» التي وقفت إلى جانب السادات، منقلباً على الناصرية، رامياً ديناصوراتها في السجن، مشتتاً

«القرنقية»، فلا بأس من إعتبار هذه المرحلة برمتها وكما لو أنها ورقة من كتاب يمكن قطعها وإعتبارها أيضاً مجرد إرث أو تراث، والبدء من جديد وفق رؤية ينخرط فيها السودان في سلك «الأمركة»، خصوصاً بعدما ضاقت رقعة المناورة ولم يعد في الإمكان «الإنقاذي» و«الأنصاري» و«الختمي» و«القرنقي» وبعض الأجرام الحزبية الصغيرة التي تدور في فلك الأكبر شأناً... أكثر مما كان.

وتبقى الإشارة إلى أن حرص الرئيس البشير على أن تكون «جوبا» التي هي عاصمة جنوب البلاد مكان إحتفاله وللمرة الأولى خارج الخرطوم بذكرى السنة الرابعة عشرة للحكم «الإنقاذي»، بدا وكما لو انه رد على لقاء السادة الثلاثة في القاهرة. أما قوله في خطاب الذكرى «إننا سنعود الى جوبا بعد شهر من الآن للإحتفال بالسلام ونهاية الحرب وبناء السودان واحد قوي خال من الطائفية...» فأوحى بأن في الأمر مفاجأة محاطة بالسرية تستهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه من السودان الواحد ولا يدري بمضمونها أحد عدا. ربما - الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى الذي أضفت مشاركته في الإحتفال إلى جانب الرئيس البشير نكهة عروبية على المصير المرتقب لجنوب السودان في مرحلة السلام... هذا مع الأخذ في الاعتبار أن مجرد مشاركة الأمين العام للجامعة في الإحتفال وفي قلب الجنوب السوداني هو أيضاً رد مضاف على لقاء التحدي في القاهرة.

تبقى الإشارة أيضاً، إلى أن يوم أمس (الثلاثاء) كان اليوم الأخير من مهلة الشهر التي حددها الرئيس البشير في خطابه الذي ألقاه في «جوبا» وقال فيه «إننا سنعود بعد شهر من الآن إلى جوبا للإحتفال بالسلام ونهاية الحرب وبناء السودان واحد قوي خال من الطائفية»، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.. وقد لا يحدث في القريب العاجل.

ثم جاء بعض زارعي الألغام من «الإيقاديين» يطرحون مقترحات بدت في مجمل روحية ما بين طياتها تؤسس لدولتين بدل أن تدعم خطوات السلام. وعندما نتحدث المقترحات عن جيشين ووزيري دفاع وسلطات للنائب الأول تعطيه حق نقض قرارات رئيس الجمهورية، فهذا معناه أن المقترحات تؤسس بالفعل في معرض القول لدولتين. وعلى هذا الأساس رفضت الحكومة السودانية المقترحات، وطالبت «الإيقاديين» بمقترحات بديلة معتمدة في الرفض، على أن مصر

الآن سنجد كثيرين في مصر يقولون: إن التغيير ممكن على قاعدة الأخذ بالأنسب، وأن الانتخابات الحرة ممكنة، كما أن الوعي ليس بالضرورة أن يبقى أسير ظروف طارئة.

والأهم من هذا كله هو أن الذي جرى في إنتخابات نقابة الصحفيين في مصر يحبزه الرئيس مبارك ضمناً، وقد يحمل على القيام بإعادة نظر نوعية وجذرية في واقع الصحافة، وبحيث يبدأ التسريع بتجديد المؤسسات بدماء جديدة، ولا تعود النظرة الى هذا القطاع على النحو السائد بمعنى أن «القومي» هو للدولة وموضع الرضى، وأن الصحافة الأخرى ليست للدولة ومغضوب عليها. كما أن الذي جرى لا علاقة له بـ «عاصفة التغيير» التي تريدها الإدارة الأميركية وبدأتها بالحرب التي لا مبرر لها على العراق، والتي نقلت الدولة الرمز للحرية والديمقراطية والتعددية الى دولة تحتل وتمعن إنتهاكاً لحقوق الآخرين في السيادة والثروة وتقرير المصير. فقد تمت تلك الإنتخابات تحت مظلة القانون وحرية التعبير وجاءت النتيجة على درجة عالية من الرقي وجاءت نقابة الصحفيين المصريين الجديدة حاملة على جناحيها التوازن المطلوب في النظرة إلى أحوال المنطقة ومن دون الغوص في لعبة الصراعات والمحاور. كما ان النتيجة جاءت تعتبر «عاصفة التغيير» التي تسببت بإخفاقات وإنتهاكات ليست ضرورية وأن كل بلد عربي في غنى عنها من القاعدة إلى القمة في حال تم التعبير على نحو ما حدث من جانب حوالى أربعة آلاف صحفي مصري مارسوا التعبير على أفضل ما تكون عليه الممارسة وسجلوا بذلك أمثلة نفترض أن التأمل فيها من جانب كثيرين في مواقع صنع القرار سيكون عميقاً. وكلما إتسع هامش التأمل أمكن تفادي المحاذير. أما على مستوى العالم العربي فإن كثيرين يحتاجون إلى الإقتداء بهذه الأمثلة... وقبل أن يفوت الاوان.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 6 أغسطس (آب) 2003

* * *

عدم تمييز أميركي لا يستثني المقربين

إذا كانت العقلية الأمنية الأميركية ستعتمد قاعدة

شمل بعضهم، نافضاً يديه من حامل أسرار العهد الناصري محمد حسنين هيكل، وأنها مستمرة كمثير قومي في تأييد السلام مع إسرائيل، إلا أنه، أي جلال عارف، لم يكن مرشح المؤسسة التي يعمل فيها، ولا حتى أنه طرح نفسه كمرشح الصحفيين الناصريين، وإنما خاض المعركة، وكانت معركة بالفعل، كمستقل... وهي ورقة جيدة لأنه إستقطب بذلك عديد الصحفيين الذين يريدون تطوير أحوال النقابة، ووضع نهاية توفيقية لظاهرة إعتبار منصب النقيب ملكية خاصة لإتجاه معين في النظام، من دون الأخذ في الإعتبار أن قوة النقابة هي في تنوع نقبائها. كذلك أن صلاح منتصر السبعيني، لم يكن مرشح «الأهرام» الذي هو أحد كتابها المرموقين، والتي لها في جدول النقابة أكثر من ربع الأعضاء، وهذا يعود إلى جملة عوامل من بينها ان التيار الساداتي داخل المؤسسة، ليس بالقوة التي تعكسها حماسة المجموعة التي تؤيد النهج التطبيعي ومن هؤلاء صلاح منتصر نفسه، الذي أخذ عليه الآخرون، عندما قرر خوض الإنتخابات لمنصب النقيب، انه خلافاً لما ينص عليه قرار النقابة سبق أن زار إسرائيل مرتين، وأنه من ضمن الواردة أسماؤهم في لائحة المدعويين إلى المناسبات والحفلات التي تقيمها السفارة الإسرائيلية في القاهرة. كما أخذ عليه الآخزون، انه يحمل الجنسية الأميركية الى جانب الجنسية المصرية، ورفعوا عليه دعوى قضائية فحواها أن من هو «مزدوج الجنسية» لا يجوز أن يكون نقيباً، لكن القضاء لم يتوقف امام هذه الدعوى لعدة إعتبارات من بينها أن منصب النقيب ليس من المناصب السيادية كما أنه لا يتم بالتعيين وإنما بالإنتخاب الحر.

ومن الجائز القول إن ما يشبه «الإنتفاضة السياسية» هو الذي حدث في ضوء نتائج الإنتخابات وما رافقها من تحالفات تثير الدهشة، ومن بينها ذلك التحالف بين مرشحي تيار الحكومة مع تكتل جماعة الإخوان المسلمين، ومن ثماره حصول الجماعة على أربعة أعضاء في مجلس النقابة من أصل خمسة تم ترشيحهم. أما تيار الحكومة فنال ثلاثة مقاعد فقط. وكانت حصص اليساريين والناصرين ملحوظة حيث بات لهؤلاء خمسة مقاعد، بالإضافة الى منصب النقيب. وغالب الإعتقاد أن هذه «الإنتفاضة» تشكل أمثلة لإنتفاضات أخرى مطلوبة على صعيد الإنتخاب وبالذات في ما يخص البرلمان ومعظم النقابات. وبعد

إعتبار كل من هو مسلم متدين تاركاً شعر ذقنه يطول، ومرتبداً عباءة، ومتأهباً في إستمرار لتأدية الصلاة والتعبد، إنما هو «مشروع إرهابي» حتى يثبت العكس، فهذا معناه أن أجهزة الكمبيوتر ستعجز عن إحصاء عدد هؤلاء في العالم الإسلامي من الصين إلى فلسطين مروراً بالسودان والذين حوله.

ومع الأسف الشديد فإن هذه العقلية قائمة وتشمل حتى من هم محسوبون تاريخياً على أميركا والذين هم من كبار القوم أو الشأن أو الإثنين معاً في الديار الإسلامية، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الرئيس السوداني الأسبق جعفر نميري ووزير المال اللبناني فؤاد السنيورة اللذان إعتبرتهما الأجهزة البوشية يمثلان خطراً على الأمن الأميركي، فأبلغت الثاني أنه ممنوع من الدخول، ورفضت منح الأول تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، مع أن الرجل لا يذهب للتباحث في الشأن السياسي وإنما لدواع صحية تدرج ضمن زيارة سنوية يقوم بها للكشف عن صحته من جانب طبيبه المختص. وهي زيارة بدأت أيام كان رئيساً لبلده واستمرت في فترة إقامته ضيفاً على مصر بعد إسقاط نظامه. وما هو بعدما إستقر به المقام في بلده يعاود التقليد الصحي الذي نشير إليه إلا أنه يُفاجأ بأن السفارة الأميركية في القاهرة لم تمنحه التأشيرة بعد أربعة أسابيع من تقديمه جواز سفره إلى قسم التأشيرات الخاص بالرعايا السودانيين في السفارة الأمر الذي حمله على أن يستعيد الجواز ويعود إلى الخرطوم.

هذه الواقعة تعكس تماماً مدى العقم الذي عليه الأجهزة الأميركية وكيف أنها تتصرف بعشوائية وخشونة مع الآخرين من دون التمييز بين من تعتبره «مشروع إرهاب» وبين من هو صديق.

زيادة في التوضيح نشير إلى أن الرئيس السوداني الأسبق كان إرتأى أن يطلب التأشيرة من السفارة الأميركية في القاهرة على أساس أن الإجراءات أكثر سهولة علماً بأن القنصل الأميركي يغطي البلدين بمعنى انه يمضي أربعة أيام في القاهرة وثلاثة في الخرطوم. وهو عندما تقدّم طالباً منحه التأشيرة إفترض انه سيحصل عليها خلال ساعات ليس فقط لأنه رئيس جمهورية سابق الأمر الذي يجعله عضواً في نادي «الشخصيات الإستثنائية المتميزة»، التي تلقى المعاملة الخاصة والكرامة، وإنما لأنه أعطى الإدارة الأميركية في زمن رئاسة جيمي كارتر ورونالد ريغان ما لا يقدر بثمن. وهو في الزمن الذي وجد طهارة طبخة إتفاقية

كامب ديفيد أنفسهم أنهم على أهبة إحتراق طبختهم في حال لم يدعمها بقوة طرف عربي آخر وبحيث لا يبقى الرئيس أنور السادات طائراً يغرد خارج السرب ويكون تغريده موضع نفور العالم العربي حكماً بنسبة قليلة ومحكومين بنسبة كبيرة، فإن الرئيس نميري كان عند حسن الظن الأميركي من أجل مصر ونصرة للسادات أكثر من أن يفعل ما فعله حياً بكارتر ومغازلة لأميركا. وقد وقف بقوة إلى جانب السادات الأمر الذي جعل همة هذا الأخير تنشيط وياتت طبخة كامب ديفيد على «السفرة» العربية برسم المشاركة في تذوق طعمها. ولقد سمع نميري من المسؤولين الأميركيين إطرأت لم يحدث أن سمعها حاكم عربي من قبل الأمر الذي جعل الرئيس السوداني يصنّف نفسه على أنه صديق العصر الأميركي الجديد وأنه سينال من أميركا ما هو أكثر من الإطراء، خصوصاً بعدما واصل في عهد الرئيس ريغان ما بدأه مع الرئيس كارتر. وفي كل زيارة كان يقوم بها إلى أميركا الريغانية كان رئيسها رونالد ريغان يتمنى عليه الإتصال بالحكام العرب وإقناعهم بضرورة الانضمام إلى موكب كامب ديفيد، وكان الرجل، اي نميري، يفعل ذلك بطيبة خاطر. ولو كان ريغان قادراً على الإدلاء بشهادته في شأن حسن السلوك النميري مع أميركا لكان بدا هؤلاء الذين لم يمنحوا التأشيرة على الفور مقرونة بعبارة «ويلكام مستر بريزيدان» كم هم جاحدون. لكن ريغان يعيش منذ بضع سنوات أرذل العمر فاقداً الذاكرة وتشتد عليه وطأة الخرف إلى درجة أنه لم يعد يتذكر أنه كان رئيساً للولايات المتحدة. كما انه، وعلى نحو ما روت زوجته نانسي قبل أشهر، لم يعد يتذكر أنه متزوج ولا يتذكر إسمها ولا إسماء الذين كانوا من أقرب الناس إليه.

وإذا جاز لكاتب مثل حالي واكب تلك الحقبة وعائش «الخدمات النميرية» للإدارة الأميركية في عهود ثلاثة رؤساء ما زالوا أحياء هم كارتر وريغان وبوش الأب، الافتراض، فإن ما يمكن إفتراضه هو أن حجم شماتة البعض بالرئيس السوداني في ضوء واقعة التأشيرة المرفوضة كبير. ومن باب الإفتراض ايضاً نقول إن الشامتين أو بعضهم يقول في مجالسه: هذا ما جناه نميري من أميركا التي تثبت لها إقدام طبخة كامب ديفيد فلم تتساقط، وحقق لها «خدمة الفالاشا» التي قبضت الإدارة الأميركية من الصهيونية الجائزة الكبرى تاركة للرئيس نميري جائزة «ترضية» ووعوداً بخير وفير وصل الجزء اليسير منه، وبما لا يستطيع في ضوئه رد

الخميني الحفيد وشهادة الشاهد من أهله

لا أخفي دهشتي، أنا الذي شاءت الظروف أن أعرف السيد حسين الخميني في لقاءات حدثت في رحاب جده، آية الله الخميني، خلال بداية شتاء 1979، عندما كان الجد يقيم في بلدة «نوفل لوشاتو»، القريبة من العاصمة الفرنسية، ينتظر حلول لحظة الانقضاء على النظام الشاهاني الذي كان بدأ يتهالك.. لا أخفي دهشتي من الموقف الذي أخرجه السيد حسين إلى العلن، بعدما كان على ما توضح المفردات، حبيب الصدر. وجاءت التداعيات العراقية وسقوط النظام الصدامي، لتجعل الطائر الخميني، الذي بقي جناحاه قادرين على التحليق، يغادر القفص ويغرد وهو على أرض العراق... على نحو مطربي الموجة الشبابية من الأغاني، مقارنة مع رموز الطرب الكلاسيكي والتراثي الأصيل. ودواعي الدهشة ان ما يقوله الخميني الحفيد يشبه في بعض منطلقاته كلام أبناء حكام من فئة الظواهر امثال فيديل كاسترو وغيره من آبائهم.

ترك حسين الخميني في نفسي عندما جمعنا اللقاء في «نوفل لوشاتو» أطيب الذكريات. وفي هذا اللقاء، الذي تكرر، وجدته أمامي «مشروع زعامة» يتابع الشأن العام في المنطقة بدقة. ويحرص على أن يتحدث مع زوار جده العرب بلغتهم وبلكنة عراقية.

وبعد العودة التاريخية للخميني الى طهران، على «صهوة» حصان فرنسي طائر يتمثل في إحدى طائرات شركة الخطوط الجوية الفرنسية، لم نعد نسمع شيئاً عن السيد حسين. ثم دخلت إيران في حرب فرضت عليها رداً على ثورة أعلنت بصريح العبارة انها ستتولى تصديرها إلى دول الخليج عبر العراق. وإنتهت الحرب بعد ثماني سنوات من القتال المرير والفواجع لحقت بالجانبين إلى هزيمة منيت بها الدولتان الثوريتان الجارتان، حيث أن الخميني عجز عن تصدير الثورة على نحو ما كان يخطط، وأن صدام حسين عجز عن تحقيق ما كان يدور في خاطره كمكافأة لتبرعه بأن يكون هو من يتصدى للثورة الإيرانية تتولى تقديمها بطيبة خاطر الإدارة الأميركية ودول الخليج. وخلال سنوات الحرب المريرة قيل لنا ان حسين الخميني كان بعيداً أو مبتعداً أو مستبعداً عن ديوان جده، وأن الجد كان متبرماً أحياناً من حفيده ومنزعجاً من بعض ما ينسب به البعض إليه من آراء

السهام التي أصابت نظامه غضباً من فعلته تلك. وإذا كانت واقعة «الجواز النميري» إستأثرت بمعظم هذا المقال فلأنها مثيرة للإستغراب. لكن هذا الإستغراب يندرج معه في الخانة نفسها ما حدث لوزير المال في لبنان فؤاد السنيورة الذي هو الذراع اليمنى المالية لرئيس الحكومة رفيق الحريري الذي تبّلع قبل حوالي شهر من السفير الأميركي في بيروت فنسنت باتل أنه ممنوع من دخول أميركا وبالتالي لا يستطيع حضور إجتماعات البنك الدولي في واشنطن. وسبب المنع ان الوزير الحريري المكانة تبرّع في العام الفين بمبلغ 666 دولاراً إلى «جمعية المبرات الخيرية» التابعة للعلامة رجل الدين الشيعي المعروف السيد محمد حسين فضل الله. وهو رجل دين معتدل بالمقارنة مع سيد «حزب الله» حسن نصرالله وبقية الشيوخ والسّياد في الحزب. وما يلفت الإنتباه في هذا المنع هو أن رئيس السنيورة هو الحريري الذي لم يستقبل سيد البيت الأبيض رئيس حكومة عربية بمثل الإستقبال الحفاوي له، ولم تسجل الدوائر الأميركية إرتياحاً لمسؤول عربي دون القمة بمثل إرتياحهم له. ولم يحدث أن خلا برنامج زيارة شخصيات سياسية أميركية إلى لبنان من لقاء مميز معه. ومع ذلك فإن تبرعاً شكلياً وبستمئة دولار من وزيره لجمعية ترعى الأيتام والمعاقين يستوجب إنزال عقوبة منعه من دخول أميركا علماً بأنه يسافر كمسؤول في الحكومة اللبنانية للمشاركة في إجتماع للبنك الدولي، وعلماً بأنه مثل نميري من العرب المتأمركين أو الذين، على الأقل، في نفسهم هوى أميركي. وكما هنالك، من باب الإفتراض، عدد لا بأس به من الشامتين بالرئيس الأسبق نميري، هنالك أيضاً عدد مماثل من الشامتين بالوزير السنيورة الذي لم تشفع له حرييته وهواه الأميركي لكي تضع قنصلية أميركا في بيروت على جوازه السياسي الموافقة على دخوله بلاد العم سام.

والإثنان، نميري والسنيورة، بما وبمن يمثل، هما من ضمن أفراد «اللوبي الأميركي» الأقوى في العالم العربي. وينطبق عليهما القول «من بيت صديقي مُنعتُ من دخول أميركا»... بمثل القول الشائع «من بيت أبي ضُربت».

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 أغسطس (آب) 2003

* * *

واعتراضات وتحفظات. وغالب الإعتقاد أن هذا التمرد من جانب الخميني الحفيد، سببه أن جده لم يعد، وضمن نظرة جديدة للحسابات والمصالح والتحالفات، يصطفيه كما الحال من قبل، وفي الوقت نفسه بدأ يرى الإستمرارية الخمينية في شخص الإبن أحمد وليس في شخص الحفيد حسين مع أن والد هذا الأخير أي مصطفى، الذي إغتاله السافاكويون وكسروا بذلك قلب والده آية الله الخميني، كان هو رمز الخلافة الخمينية، لأنه كان قرّة عين أبيه. وهذا التميز الممنوح للعم أحمد جعل حسين الخميني الذي بات في العقد الثالث من العمر، يشعر بأنه مهمش الى حد ما وجاءت واقعة ايداعه السجن ذات يوم بأمر من جده، او بعلم الجد لا فرق، وعلى نحو إيداع صدام حسين لـ «عُديه» بضعة أيام في السجن تأديباً له جزاء قتله أحد خدم والده، تزرع في نفس الحفيد بذرة الثأر، وسيتبين بعد ذلك أن هذه البذرة سريعة النمو.

تبددت تطلعات الخميني الحفيد بعد رحيل جده مقهوراً مما آلت اليه الحرب مع العراق، ملخصاً مشاعر القهر النفسي هذه بالعبارة الشهيرة، انه يعلن القبول بوقف الحرب على نحو ما إنتهت إليه، وأنه بذلك كمن يتجرع السم. وبدا في عبارته هذه مثل الرئيس جمال عبد الناصر في خطاب التنحي يوم 9 حزيران (يونيو) 1967. ولم يعد الحفيد في وارد أن يكون رجل الأسرة الثانية في السلالة الخمينية. وإزاء ذلك وجد نفسه باحثاً عن دور. فهو ليس من أبطال الحرب مع إيران وإن كان شارك فيها. وهو ليس رجل الدين المجتهد الذي يمكن أن يجمع الناس حول فتاواه. وهو ليس الوريث ما دام جده لم يصنّفه كذلك فينصفه. وهو ليس من التاريخيين لأنه كان في مطلع شبابه عندما كان الجد يعبئ الناس للثورة على نظام الشاه. وهو عندما ارتأى جده ان يكون العم السيد أحمد هو ولي عهد الخمينية، لم يعد له في الحاضر الإيراني سوى بعض الذكريات الوجدانية والعطف المتميز من جانب الجد، كونه إبن مصطفى الإبن الأكثر قرباً إلى روحه. وحتى بعدما توفي العم أحمد، بعد معاناة قصيرة مع المرض العضال، فإن وارثي المرحلة تصرفوا على أساس أن الخميني الكبير بات ضريحاً يحج اليه الناس والزوار الرسميون، على نحو ما بات عبد الناصر في نظر الذين ورثوا الحكم عندما إستقر التوافق الإضطرابي على ترئيس كبيرهم أنور السادات الذي قال «إنه سائر على طريق عبد الناصر».

وخلاصة الأمر هي أن الخميني الحفيد بات يملك شكلاً تراثاً خمينياً هائلاً، لكنه ضمناً مثل خالد عبد الناصر لا يملك حضوراً أو مشاركة. ومن أجل ذلك تاه ولي عهد الناصرية كعائلة في الفياقي الليبية، وطرق أشقاؤه الباب الإماراتي كمقاولين. وهذا سببه أن الخميني الجد وعبد الناصر الأب لم يتعامل كل منهما مع حامل إسم العائلة على نحو تعامل الرئيس حافظ الأسد مع الإبن بادل الذي قضى في حادث مفجع، ثم مع الإبن الثاني بشّار الذي بات رئيس البلاد بعد وفاة الأب. كما أن الإثنين.. الخميني كجد وعبد الناصر كأب لم يتعاملا، ربما لشعور منهما أن لا أحد يمكن أن يملأ مهابتهما التاريخية وتراثهما السياسي غير المسبوق، سوى ما قد تفرزه التطورات الدولية والإقليمية مع الحفيد ومع الإبن، على النحو الذي يواصل الرئيس حسني مبارك إبتكاره، حيث أن الإبن جمال مبارك ينغرس برفق في جسم النظام، وبحيث أن فرصة الوصول إلى القمة في ضوء هذا التأهيل باتت قريبة المنال.

القصد من كلامنا هنا ومن المقارنات الموضوعية أن هذه الإنتفاضة من جانب الخميني الحفيد تبدو ثارية أكثر منها ثورية. فهو بإنتقاله المباغت إلى العراق المحتل، وتهليله للدولة التي تحتل ناسفاً صيغة «ولاية الفقيه»، مردداً عبارات قريبة المنحى من مفردات سلمان رشدي، الذي أحلّ الجد دمه، ومن نظرة كنعان مكية وفؤاد نجم إلى واقع الحال العربي والإسلامي وفي الشأن الفلسطيني والصراع العربي - الإسرائيلي وإلى الدور الأميركي، داعياً إلى الإستفتاء على فكرة الجمهورية الإسلامية في إيران، وبحيث إذا رفضها الشعب يغادر أهل الحكم إلى بيوتهم، لا يبدو صاحب نظرية ثورية تصحيحية، وإنما هو رافع سيف الثأر المتعدد الأغراض. كما أنه في دعوته الى فصل الدين عن السياسة، وإنتقاده للزعماء الشيعة في العراق الذين يدعون الى حكم ديني، وقوله عنهم أنهم مضللون وممّولون من إيران التي فشلت الثورة فيها، يبدو كمن يوجه رسالة إلى أكثر من جهة داخل إيران وداخل العراق وداخل دول الخليج.. وصولاً الى ما وراء الخليج وعبر المحيط، وبالذات الى الإدارة الأميركية والدول الأوروبية.

بالنسبة إلى سيف الثأر، يبدو أن الخميني الحفيد يريد الثأر لجده من الذين خطفوا تراثه فلم يبق منه سوى المزار توضع عليه باقات الورد ويذرف حوله

وكشاهد من أهله، ويبدو مستعداً للإعتذار عن تصنيف جده ذاك لأميركا، بل أنه بسبب العفوية التي تميزت بها خطوته وأقواله، مفترضين إنها ليست وليدة إختراق يستبق الأمور فيعتبر أميركا بأنها «الملاك الأكبر» الذي يحرر الآخرين. وتلك رؤية تبدو في بعض جوانبها تعكس تطلعات الخميني الحفيد في أن يكون سيد إيران المتأمركة، وبالعامة التي يغطي بها رأسه والعباءة التي يلف بها جسمه.. هذا في حال سارت أمور العراق في اتجاه التأمرك على نحو ما يجعل إيران الراهنة، المغضوب عليها من الخميني الحفيد، بأكثر من ضيق كواسر الإدارة الأميركية منها وغضبهم على سلوكها، لقمة سائغة في فم التتين الأميركي الرابض على ضفاف دجلة والفرات، مطلقاً من فمه اللهب على مدار ساعات اليوم ليلاً ونهاراً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 21 أغسطس (آب) 2003

* * *

القذافي المخضرم يستبق الخطر

عند المفاضلة بين التشبث بالرأي والمعاندة خشية الانتقاص من الهوية وبين المرونة إلى حد المسايرة، فالإستدارة بالكامل أو بدواعي التكتيك الذي لا بد منه في ساعات الشدة لإنقاذ مشروع شخصي وعام في الوقت نفسه، فإن كفة المرونة هي التي ترجح، وتكون خطوة عقلانية، خصوصاً في زمن كهذا الذي نعيشه منذ سقوط حقبة المنافسة الدولية، وبقاء الملعب السياسي حكراً على لاعب واحد.

وما فاجأ العقيد معمر القذافي الشعب الليبي وأطرافاً عربية وإسلامية ودولية كثيرة به، يندرج في بند الإستدارة لإنقاذ مشروعه الشخصي والعام. وتتمثل المفاجأة بقبول ليبيا، بعد الكثير من التردد، الإعلان وبصيغة رسالة إلى الأمم المتحدة، تحمّل مسؤولية المسؤولين عن تفجير طائرة الـ «بان أميركان» فوق مدينة «لوكوربي» في اسكوتلندا عام 1988، ودفع حوالى ثلاثة مليارات دولار تعويضات لضحايا ذلك الحادث، وبمعدل عشرة ملايين دولار عن كل ضحية. ومقابل الدفع على أقساط يتم رفع العقوبات الدولية والأميركية عن ليبيا.

الزوار الدموع وهم يقرأون الفاتحة.. وتلك حال عبد الناصر وضريحه وحال «المجاهد الأكبر» الحبيب بورقيبة وضريحه هو الآخر، مع فارق أن الحبيب الإبن كان متعلقاً فلم يطالب بحصّة من الإرث، ولا رأى الغير ضرورة لذلك. ويبدو الخميني الحفيد يريد في الوقت نفسه الثأر لنفسه من الذين يمسون بمفاصل الحكم في إيران، من دون أن يخصصوا مفصلاً كريماً لحفيد آية الله الخميني. كما يبدو الخميني الحفيد يريد الثأر من الحكم البعثي والنظام الصّدّامي الذي رمى بجده وبالعائلة الخمينية على الحدود في أواخر السبعينيات تجاوباً مع رغبة الشاه، وليس هنالك ما يرضي نفسه أكثر من إعتباره وهو مستضاف في بيت حليفه العراقي، السيد إباد جمال الدين، وهو رجل دين يلتقي مع الخميني الحفيد في المفاهيم، أن الأميركيان في العراق قوة تحرير وليسوا قوة إحتلال. فضلاً عن أن مثل هذا القول يصدر عنه وهو مع حليفه العراقي يسكنان القصر الذي كان مقر سكن عزت ابراهيم، الرجل الثاني تسلسلاً في النظام الصّدّامي، يجعل الشعور بالثأر أكثر بهجة. ويبدو الحفيد في خطوته وفي تصريحات يدلي بها من عاصمة الرشيد، يريد الثأر لعشرات الألوف من الإيرانيين الذين ذهبوا ضحية الحرب التي ما كانت لتحدث لو أن من يحكم العراق ليس الصّدّامية ومن يحكم إيران ليس الخمينية.

أما الرسالة التوددية التي يوجهها الخميني الحفيد من خلال ما فعله وما قاله، فإنها للرئيس خاتمي بأن يصمد، وللطلاب في إيران كي لا يستكينوا، ولجماعة البزار بأن يتصرفوا كتجار لا كثوار، خصوصاً أنه ليس في عالم التجارة حالات ثورية وإنما بيع وشراء وتكديس أموال، ولأهل النظام بأن يعيدوا النظر، ولقادة الخليج بأن يتأملوا، ولدول الغرب عموماً وأميركا على وجه الخصوص بأن يأخذ أهل القرار فيها في الإعتبار أن امكانية المراهنة على آخر السّيّاد الخمينيين، لكي يملأ الفراغ في إيران وبحيث تتقلب إيران كما حدث أن إنقلب مصر من قبل، إنما هي من الإمكانيات المتوافرة التي تعود على أميركا بالذات بما تحلم به وهو أن تزيل الندوب التي رصعتها في وجهها الحقةبة الخمينية التي رأت في أميركا أنها «الشيطان الأكبر». ثم ها هو الخميني الحفيد ابن الخامسة والأربعين يخرج كمنشوق من بين الإرث الثوري

وما يمكن لمتابع مثل حالي للشأن الليبي، وعلى بعض الدراية بنظرة القذافي للأمور، قوله في شأن هذه المفاجأة يمكن تلخيصه في ملاحظتين:

الأولى - لقد إنتهت تجربة القذافي بمناخاتها المتنوعة من دون أن يحقق الحلم الذي في خياله لليبيا. وهو طوال ثلاثة عقود جرب أكثر من صيغة كان هو في إستمرار محورها وقلبها النابض. ولكن هذه الصيغ لم تحقق ما يريجه منها. وهو بعد إنقضاء ثلاثة عقود وثلاث العقد على تجربة الحكم، وجد أن ليبيا تواجه حالة حصار وعقوبات الدولية بدت في بعض جوانبها بمثل الإستعمار المفروض على بلد. ولأن المشهد بدا مفرعاً وقد يتلوه ما هو أعظم، وبمثل ما أصاب العراق ولا يزال، فإن العقيد القذافي إرتأى أن لا يأتي اليوم الذي يسلم السلطة لمن بعده والبلاد مثقلة بقيود وسلاسل الحصار والعقوبات.

الملاحظة الثانية - إن الظروف الإقليمية والدولية ليست عادية لكي يمارس قائد من نوع العقيد القذافي المناورة التي كان حاذقاً في ممارستها في زمن مضى، ويحضرنا هنا كيف أهان الزعيم الليبي الكرمليين وفي قلب القاهرة أيام المعاهدة المصرية - السوفياتية، ثم كيف أنه بمقتضى فن المناورة أعاد الإعتبار إلى الكرمليين وبنى معه أفضل العلاقات. وهو لا بد قرأ الأمر المتعلق بالظروف المشار إليها جيداً، وشعر من قبل مفاجأة الإحصار الناشئ عن العملية التروييعية في نيويورك وواشنطن يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001، أن غباراً يحجب الرؤية في طريقه إلى سماء المنطقة وأن حوافر خيول الهجمة الآتية قوية إلى درجة أنها لن تبقى على بقعة خير، ثورية أو غير ثورية، لن تحاول سحقها. ومن أجل ذلك بدأت تصدر عنه تعليقات ومواقف وتطلعات تشير إلى أن الرجل يبغي السلامة وليس المواجهة. وفي هذا السياق كانت تلوحياته بالإنسحاب من الجامعة العربية لأنه رأى أن العمل العربي التضامني المشترك سيكون مستحيلاً بعد الآن، وإفترض أن هذه التلوحيات ستقيه من إنهمار تساؤلات الناس من المحيط إلى الخليج كالمطر عن هذا النقاعس الشامل الذي تبدو فيه الأمة، تتلقى اللطمة تلو الأخرى ولا من يرد على الإيذاء بالمثل. وعلى هذا الأساس يجوز القول، إجتهداً، أن قبول القذافي الإقرار رسمياً بالمسؤولية، وبصرف النظر عما إذا كانت ليبيا هي الداعمة للجهة التي تسببت في تفجير الطائرة الأميركية، أو أن عناصر ليبية هي من شارك بالفعل،

هو لإتقاء شر آت قد يكون حرباً على أرض ليبيا، أو يكون عملية تغيير للنظام تنشأ عن مؤامرة محبوكة بحيث يصعب إفشالها، ويتزامن مع العد العكسي لها تثبيت الحصار كأمر دائم وتصعيده مع الإكثار من الكلام الذي يندرج في الحرب النفسية. وإذا كان هنالك مسؤولون أميركان قالوا، وبعدما كان تم الإتفاق على التعويضات ووصلت «رسالة الإعتراف» الرسمية الليبية إلى الأمم المتحدة، أن المليارات الثلاثة لا تكفي لإزالة القلق من القذافي، فما الذي كان سيقل لو أن «الإعتراف» المشار إليه لم يصدر عن أهل الحكم الليبي.

ويبقى أن هذه مجرد نظرة على وقائع آخرها وليس أخيرها «رسالة الإعتراف» ثم التعويضات، من دون أن يعني ذلك أنها وحدها هي التي تجعلنا نرى بعد ثلاثة عقود وثلاث العقد من القذافية أننا أمام معمر القذافي الذي أضناه شقاء الصولات والجولات الثورية، فقرر أن يخطب ود أميركا بدفع "دية" لمئتين وسبعين مواطناً قضوا نحبهم دون وجه حق. وهو في موضوع "الدية" يكون كثير إنسجام مع تقاليد القبائل الليبية، ومنها القذاففة، ويكون قادراً على أن يقول لمن ينتقده ان "الدية" هي بوابة المصالحة والإتفاق، وأن عدم دفعها هو ترك الباب مفتوحاً أما الثأر حرباً مثل الحرب على العراق، أو حصاراً وعقوبات مدى الدهر كما هي الحال مع ليبيا.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 27 أغسطس (آب) 2003

لماذا لا يجربان؟

بداية لا بد من التوضيح بأن الرؤية التي يتضمنها هذا المقال لم ترد في خاطر بعد العملية التروييعية التي حدثت في النجف يوم الجمعة الماضي وتنتسب في بعض تفاصيلها إلى مخطط الفتنة على نحو ما كان يحدث في زمن الخلافة، كما أنها من حيث الترويع لا تقل شراً عن العملية التروييعية التي إستهدفت برجى مركز التجارة العالمية في نيويورك ومبنى البنتاغون في واشنطن يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001. وإنما اخذت الرؤية، التي هي مجرد وجهة نظر تصدر عن كاتب وغير جانحة نحو الخيال،

طريقها إلى الخاطر عندما بدأت عمليات المقاومة تسلك خطأً بيانياً صاعداً ويتساقط الجنود الأميركيون ثم الجنود الإنكليز بنسبة أقل قتلى أو جرحى، ويتراق مع التساقط تدمير الآليات واحتراقها. ومع أن الجهات الأميركية المختصة لم تنتشر الأرقام الحقيقية عن الخسائر ولا هي أجازت لفضائياتها ومحطاتها التلفزيونية بث الصور التي تعكس طبيعة الخسارة، إلا أن تصريحات بعض الذين يتعاطون الشأن السياسي وبالذات حمائم الديمقراطيين، فضلاً عن إنتقال الإدارة الأميركية من الحديث بلغة المكابر إلى الحديث بلغة طالب النجدة الدولية في نطاق مبادرات أحادية أو من خلال قرار يصدر عن مجلس الأمن، طرحت في ساحة واقع الحال إنطباعاً يؤكد أن الأمور دخلت حيز المأزق وأنه بات لا بد من علاج طارئ يقلل من رقعة الحريق الذي سينشأ. ونقول ذلك على أساس أن الإدارة الأميركية ورئيسها وكواسرها أصحاب شعارات وعبارات تندرج في قاموس الشعور بالعظمة ورفض التراجع وإعتبار أميركا أنها الدولة التي يجب ألا يقهرها قرار سياسي دولي أو مقاومة عراقية غير واضحة المعالم، قد تلجأ إلى المزيد من الشراسة في التعامل مع الموضوع العراقي، وقد يحدث في كل مرة تتم عملية للمقاومة ويسقط جنود أميركان قتلى أو جرحى أن يأتي الرد تدميراً لمنازل وإحراقاً للشجر وبالذات النخيل، وربما يتم إستعمال سلاح متطور لم يستعمله الصديق الأميركي إلى الآن.

ثم جاءت العملية الترويعية التي إستهدفت مقر الأمم المتحدة في أحد الفنادق البغدادية وكانت سبقتها العملية الترويعية المماثلة التي إستهدفت مبنى السفارة الأردنية، تعزز الرؤية التي هي محور هذا المقال. بعد ذلك كانت الجمعة الحزينة الشيعية وسقوط آية الله محمد باقر الحكيم وعشرات من الذين أمّ الصلاة بهم في مسجد الإمام علي مخرجين بدمائهم بفعل تفجير جعل الأجساد أشلاء وإلى درجة أن ذوي رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية المتمثل في مجلس الحكم بشقيقه عبد العزيز لم يعرفوا أنه من جملة الضحايا إلا من خلال العثور على يده.

الرؤية - وجهة النظر التي نحن في صدد الحديث عنها ترى أن الولايات المتحدة وبريطانيا تعترتا في الموضوع العراقي وأن المسألة دخلت نفق التحديات والمكابرة، وأنه مهما إستتبطن الدولتان من أساليب الشدة لمواجهة العراقيين لن يكون هنالك حل ولن

تسلك الأمور طريقها إلى التهدة، وسيكون هنالك المزيد من الدم الأميركي والبريطاني ومن يساند الدولتين يراق على جوانب أرض بلاد الرافدين. ونقول ذلك على أساس أن نسبة الذين يجيدون إستعمال السلاح في العراق من الرجال تصل إلى تسعين في المئة لأن البلد يعيش حالة الحرب والتدريب وخدمة العلم منذ ثلاث عقود. أما النسبة بين النساء فإنها تتجاوز الثلاثين في المئة. وإلى ذلك فإن بلداً خاض ثلاثة حروب وإمتلك من السلاح أنواعاً لا حصر لها لن يصعب على أبنائه المقاومة إلى ما شاء الله.. ليس فقط لدواعي الإستقلال والسيادة على نحو ما كانت عليه الحال في ثورة العشرين عندما لم تكن هنالك ثروة النفط التي تفجرت بعد ذلك في العراق وجاءت حرب أميركا بوش الابن وبريطانيا طوني بلير لتضع اليد عليها، وإنما لأن قطع الأعناق من قطع الأرزاق. وبعدما بات، منذ أن وضع ثنائي الحرب اليد على العراق، كل عراقي بلا وظيفة وبلا خدمات.. وبلا مستقبل وفاقد الماضي الهني نسبياً، فإن موجبات المقاومة لا تتطلب تعبئة وإنما سنجد أماناً المقاومة التلقائية. وعندما يتم إهداء شركة أميركية واحدة تمت بصلة المصلحة إلى ديك تشيني نائب رئيس الجمهورية عقوداً تصل إلى عشرة مليارات دولار ويحل جاي جارنر على وجه السرعة كمقابل بعدما كان ممثل الإدارة الأميركية في العراق قبل أن يخلفه بول بريمر الذي على عهده إشتعلت المقاومة، فمن الطبيعي أن يستأسد كل عراقي ويختلط الدم الأميركي والبريطاني بالتراب العراقي ويصبح الجندي المحرّر والآلية التي يستعملها هدفاً لرماة ال آر. بي. جي أو زارعي العبوات وهؤلاء كثيرون ولطالما أنقنوا حرفة إصطياد من يريد البلد رأس حرب وثروة تحت مقولة التحرير وتحقيق الديمقراطية.

طال التمهيد للرؤية لكنه تمهيد لا بد منه كحيثيات خشية تفسيرها على غير ما نقصده. والرؤية تتلخص في إسناد أمر التهدة في العراق إلى سوريا. وقد نجد من يملكه العجب والإستغراب ويقول: وكيف سوريا وهي التي باتت السيف الأميركي مسلطاً فوق عنقها؟ والرد على ذلك: إنها وحدها القادرة إذا تم تفويضها ودعم جهودها في هذا الشأن. وثمة خمس مواصفات تشكل مجتمعة منطقية وموضوعية ما نقوله وهي تسلسلاً على النحو الآتي:

أولاً - إن الدولتين المحتلتين الولايات المتحدة

وبريطانيا تتبادلان ضمناً مع سوريا الرغبة في إستقرار العلاقات وتطويرها.

ثانياً - إن سوريا صاحبة خبرة عريقة في مواجهة التناقضات والصراعات وإستثناء العنف، إكتسبتها من تعاطيها مع الذي حدث في لبنان على مدى ست عشرة سنة من الإحتراب المنقطع. وهي حتى بعدما تحققت التهدئة في ظل إتفاق الطائف ما زالت ممسكة بالورقة اللبنانية أمنياً وسياسياً.

ثالثاً - إن علاقة سوريا بالعراقيين دون إستثناء جيدة. ففي سنوات الحكم الصّدّامي إستضافت كل أطراف المعارضة عرباً وأكراداً سُنّة وشيعة بعثيين وشيوعيين مسلمين ومسيحيين شيوخ دين وشيوخ عشائر. وهؤلاء بعدما بات لهم من يمثلهم في مجلس الحكم لم ينقطعوا عن التشاور خفية أو علناً مع سوريا والوقوف على رأي قيادتها في ما يجري.. مع الأخذ في الإعتبار عدم رضى هذه القيادة عما جرى ولا يزال يجري على أرض العراق وبالذات صيغة مجلس الحكم.

رابعاً - حتى قبل سنتين من حرب بوش - بلير على العراق كان الجفاء هو الجامع المشترك بين البعث الذي يحكم في سوريا والبعث الذي يحكم في العراق. لكن الرئيس بشار الأسد سرعان ما صحح الوضع الذي نشأ عن مشاركة سوريا في حرب بوش الأب على العراق ضمن التحالف الدولي بغرض تحرير الكويت، وفتح الحدود مع الحكم الصّدّامي إنما بكل التآني المطلوب. وتبادل الطرفان الزيارات على مستوى الحكومة والبرلمان فضلاً عن خطوات متقدمة على صعيد التعاون الإقتصادي والتجاري. كما ان دمشق باتت محطة عبور وتشاور للحملة الدبلوماسية التي تستهدف إزالة آثار الإحتياج الصّدّامي للكويت وتبريد المشاعر الخليجية مقدمة لرفع الحصار الأميركي الدولي على العراق. ومثل هذا الموقف التصحيحي كان له أثره الفاعل في نفوس العراقيين بعثيين وغير بعثيين. أما خصوم البعث فتصرفوا على نحو التفهم لهذا السلوك السياسي السوري من منطلق أنه يخفف من معاناة الشعب أكثر منه يقوي عزيمة النظام في العراق.

خامساً - إن وجوداً عسكرياً سورياً في المدن العراقية مدعوماً من الأشقاء العرب، وهذا مستحب ويمكن ولا حَسَاد له ولا مصلحة لإيران في التحفظ عليه، من شأنه أن يضع نهاية لمرحلة عاصفة عابقة

بالدم وحافلة بالعنف والتدمير تمهد للبدء ببناء العراق كمؤسسات سياسية، يلي الإعمار بعد ذلك. ولا نظن ان هنالك من الدول العربية والإسلامية والدول الأوروبية والدول الكبرى عدا أميركا وبريطانيا من يمكن أن يعترض. لكن ما يحدث من تطورات وتداعيات يجعل الإدارة في الأولى والحكومة في الثانية تجدان في إسناد مهمة التهدئة إلى سوريا حلاً معقولاً إنما شرط عدم تعقيد الأمور من خلال الإصرار على أن يكون قائد القوات السورية أميركياً، ذلك أنه في هذه الحال لن يرسل الحكم السوري قوات خشية أن تجد هذه القوات نفسها، ما دام الأمر الناهي أميركياً، جزءاً من المقاومة العراقية.

خلاصة القول إن مثل هذا الواجب السوري يندرج ضمن قاعدة الأخذ بالأحوط ولأنه المدخل إلى التهدئة.. فإلى العودة إلى الأمم المتحدة. وهو أمر على الكثير من اليسر شرط ألا يتقاطع مع الكثير من العسر الأميركي - البريطاني. وعدا ذلك فإن المقاومة ستستمر إلى يوم الساعة... فإلى الإنسحاب الإضطرابي لـ المحرّرين من الأرض العراقية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 2 سبتمبر (أيلول) 2003

ظواهر على ضفاف الرافدين...

ولا في الخيال

هنالك ظاهرتان تستوقفان المراقب المتابع للموضوع العراقي. ظاهرة رئيس «الإدارة المدنية» بول بريمر وظاهرة تجربة أن يكون رئيس العراق شيعياً. بالنسبة إلى الظاهرة الأولى نقول إنه منذ تتويجه من الإدارة الأميركية حاكماً بأمر تلك الإدارة للعراق، الغارق في الدماء والدمار والأحقاد والصراعات والثارات المرجأة، خلفاً للحاكم الأول جاي غارنر الذي عاد مقاولاً، فإن بريمر لا يتخلى عن قيافته ولياقته والمنديل الأبيض الذي يضعه على جيبه الصغرى من جهة القلب. وهو دائماً وسط هذا البركان أو «المرحلة العراقية» هادئ، نادراً ما تصدر عنه تصريحات حافلة بالمفردات التي تتميز بها تصريحات كواسر الإدارة أمثال رامسفيلد وكوندوليزا وولفويتز وارميتاج وآخرين. حريص كثير الحرص على أن تكون ربطة عنقه أنيقة

ومنسجمة مع ألوان سترته أو بدلته. أما الصدى الواقية من الرصاص فلا أحد يراها. وحتى الآن لم «يُمسك» به أحد متلبساً بتكشيرة أين منها تكشيرات وزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت التي ذاع صيتها كـ «جامعة للبروشات» تزين بها صدرها وتحرص على أن يكون كل «بروش» من هذه «البروشات» معبراً عن موقف. وعلى سبيل المثال لا الحصر نتذكر «بروش» الأفعى الذي أرادته رداً على تصريحات لطارق عزيز لم ترق لها.

هذه الإطالة لبريمر لا تتسجم مع واقع حال «المحرقة العراقية».. إلا أنها تترك انطباعاتاً بأن الأناة واردة لدى الإدارة الأميركية، وأنها في الموضوع العراقي مضطرة للصبر على الضيم مهما كانت التداعيات مفزعة أحياناً، ذلك أن الإنسحاب من الحلبة معناه سقوط الشأن الأمريكي، ومعناه أن كل ما جرى التخطيط له ستزوره الرياح العراقية، ومعناه أن دولاً كبرى، ومعها بعض الدول ذات الشأن في القرار الدولي، تواصل سن أسنانها لكي تحل محل المقامر المغامر الذي لم يتقن أصول التعامل وإرتضى الرهان غير المحسوب بدقة من أجل وضع اليد على كل شيء، فلم يكن بذلك بعيد النظر.

وعندما يشير أحدث إستطلاع للرأي، واحد في لندن وآخر في واشنطن، حول وضع رئيسي الحرب على العراق، إلى أن شعبيتهما تنحسر بسبب تداعيات هذه الحرب، وبما يبعث القلق في نفسيهما، تتأكد لنا مسألة الرهان غير المحسوب، والذي كان مبنياً على أن الحرب على العراق للفوز به ستحقق للرئيسين الرئاسة التي يتطلعان إلى تجديدها، ومجداً لم ينله أحد من قبل، وثروات تنهمر كالطرر على بلديهما، وأبهة لم يملكها في نصف القرن الماضي سوى الجنرال ايزنهاور في أميركا وتشرشل في بريطانيا. وبلغت الأرقام نقرأ في نتائج الإستطلاع الذي أجراه معهد «اي. سي. ام»، ونشرته وبثته وسائل الإعلام البريطاني يوم الأحد 24 آب الماضي أن 67 في المئة من البريطانيين يعتبرون أن رئيس الوزراء طوني بليز خدعهم في شأن اسلحة الدمار الشامل المنسوبة الى العراق، وقال 58 في المئة أن ثقتهم ببليز تراجعت ورأى 33 في المئة أن عليه الإستقالة.

وقبل هذا الإستطلاع بيوم، كانت مجلة «نيوزويك» الأميركية تنشر في عددها الصادر يوم السبت 23 آب نتائج إستطلاع أجرته تفيد بأن 49 في المئة لن يمنحوا

أصواتهم لبوش في الإنتخابات الرئاسية في تشرين الثاني (نوفمبر) 2004، فيما أبدى 44 في المئة موافقتهم على ولاية ثانية له، وقال 23 في المئة من المستطلعين إن موضوعي الإرهاب والأمن الوطني، أولويتي إدارة بوش، سيكونان من أهم المواضيع أثناء الإنتخابات، فيما رأى 48 في المئة أنه يجب إعطاء الأولوية لموضوعي الإقتصاد والبطالة. وأظهر الإستطلاع أيضاً أن 69 في المئة من الأميركيين يعتقدون أن الولايات المتحدة بدأت تتعثر في العراق، وأعرب 40 في المئة منهم عن «قلقهم الشديد من إبقاء القوات الأميركية في العراق وقتاً طويلاً»، الأمر الذي إستمر الرئيس بوش حتى بعد نشر نتائج هذا الإستطلاع يؤكد على أنه لن يتراجع عنه، بدليل قوله يوم الثلاثاء 26 آب الماضي وفي ذروة الأخذ والرد حول الإستجداد بالأمم المتحدة لإخراج أميركا وبريطانيا من المأزق العراقي، إنه «سيواصل التصدي للإرهاب في بغداد كما في القدس». وفيما إعتبر 47 في المئة من المشاركين في الإستطلاع أن إبقاء القوات الأميركية في العراق هو عبء مالي كبير يؤثر على الميزانية والإقتصاد الأميركيين، فإن مسؤولين وخبراء ماليين أوجزوا الموقف لصحيفة «نيويورك تايمز»، التي نشرت في عددها الصادر الجمعة 22 أغسطس (آب) الماضي رؤاهم وارقامهم بما يعزز مخاوف الذين شملهم الإستطلاع الذي تم في ضوء ما هو مسموح نشره عما يصيب القوات الأميركية في العراق، علماً بأن ما لا يُجاز نشره على صعيد الخسائر في القوات والعتاد وعلى الصعيد النفسي مذهب نسبياً. وإستناداً إلى ما نشرته الصحيفة فإن الإدارة الأميركية تحتاج إلى أكثر من 60 بليون دولار للإنفاق في العراق خلال العام 2004، بمعدل أربعة بلايين أسبوعياً وأن المشاركة الأجنبية في المشروع الأميركي الرامي إلى إرسال بعض الدول قوات إلى العراق لن تؤدي إلى تقليص الإنفاق، لأن هذه الدول لم توافق على إرسال القوات إلا مقابل مساعدات مالية من أميركا، الأمر الذي يعني أن الإدارة الأميركية ستأخذ ما في الجيب العراقي لتوزعه على هذه الدول المشاركة... وبالتالي فإن ما سيبقى لها بالكاد يسد المتطلبات. وهذا ما يفسر عزوف أميركا عن قبول مبدأ المشاركة على أساس تقاسم الغنائم، ورفضها لأي سلطات للأمم المتحدة تأخذ من القبضة الأميركية. وللتذكير في معرض الحديث عن كلفة الإنفاق، نشير إلى أن موافقة الكونغرس على ميزانية البنتاغون لعام

رؤية بشرية للتصحيح المتدرج

في الوقت الذي بلغ التحرش بالحكم السوري ذروته من قبل الأكثر تصهيناً في الكونغرس المفتري في شكل عام ضد العرب وبالذات ضد من هم في خانة الأصدقاء والحلفاء، كانت الحكومة البشّارية الأولى إكتملت وتم الإعلان يوم الخميس 18 سبتمبر (أيلول) 2003 عن وزرائها.

هذه الحكومة ذات نكهة تجديدية إحتفظ فيها البعثيون بالوزارات السيادية، وهذا تقليد لا يقتصر على سوريا حيث هنالك أنظمة عربية كثيرة تحرص كثير الحرص عند توزيع الحقائق على أن تكون وزارات السيادة من حصّة من هم أهل الثقة. وإذا توافرت الخبرة إلى جانب الثقة فإن ذلك يكون خيراً وبركة، وإلاّ فإن وزراء الثقة هؤلاء يختارون إلى جانبهم أهل الخبرة من المستشارين وبذلك تستقيم الأمور إلى حد كبير. وبالنسبة إلى سوريا فإن وزارات السيادة هي الدفاع والخارجية والداخلية والإعلام وهي تشكل في أي حكومة منذ عهد الأسد الأب خط إبقاء النظام في مأمن من المنغصات.

ولقد إفترض كثيرون أن التهويل الأميركي الذي فاق الحد ووصل إلى مشارف التهديد، ورغبة الرئيس بشّار في إضفاء مسحة من التميز على الحكم الذي يقوده وذلك من خلال ترميم تصدعات وسد ثغرات وتصحيح ما سبق أن تأجل تصحيحه من خطوات حدثت خلال ربع قرن مضى، سيختار حكومة ينحسر فيها الحضور البعثي وتزداد فيها نسبة مشاركة غير البعثيين، لكن الرئيس بشّار أثر على ما هو واضح التعبير المتأني الذي بقي المجتمع السوري المتجدد مشاعر الصدمة. وهو من أجل ذلك شجع الإتجاه الذي يرى أن تكون مشاركة المستقلين ملحوظة، ومشاركة الحلفاء من الذين تتشكل منهم الجبهة الوطنية لافقة، وتترك إنطباعاً بأن وزراء هذه الجبهة شأنهم شأن المستقلين على موعد مع وزارات أساسية مستقبلاً.

وقد يجوز الإفتراض أن الرئيس بشّار أراد القول ما معناه انه ما دام لا بد من الترميم والتغيير وسد الثغرات والإصلاح والتطوير فإن ذلك يجب أن يتم على أيدي وزراء البعث وبحيث لا يقال تاريخياً ان المستقلين وغير البعثيين عموماً هم الذين أصلحوا للرئيس بشّار الترديات والأخطاء البعثية. ومن هنا نرى

2004 والبالغة 400 بليون، ستجعل الوزارة التي يمسك كبير الكواسر رامسفيلد بتلابيبها تطلب إضافة ستين بليوناً على الميزانية ويُستجاب بطبيعة الحال طلب وزيرها.

نأتي إلى الظاهرة الثانية التي كانت التحفظات العربية في شأنها كثيرة، وهي ظاهرة أن يكون رئيس العراق شيعياً، وهو ما لم تألفه دول المنطقة، وما تخشاه حتى إذا كان هذا الرئيس موجة عابرة وكان ضمن ترتيب موقت وتحت جناح «الرئيس» الفعلي بريمر.

ومع أن الإطالة الرئاسية العراقية الشيعية متمثلة برئيس «مجلس الحكم» إبراهيم الجعفري على بعض العرب بدءاً بالإمارات العربية المتحدة مروراً بالجامعة العربية وصولاً إلى الأردن، لن تكون ذات مردود فاعل ما دامت لا تشمل سوريا، ولن تثمر بالتالي تحقيق المكسب المرجو وهو إعتبار «الأمر الواقع» العراقي أمراً ثابتاً يتم التعامل معه إنتهى الإحتلال الأميركي أم إستمّر، فإن دول الجوار إعتادت ولا شك على واقع جديد، وهو إحتمال أن يكون رأس النظام في العراق شيعياً وهو ما تعمل عليه «الإدارة المدنية» الأميركية بالكثير من الدقة بغرض إيجاد «الشيعية المتأمركة»، وهذا ما لم يحصل حتى الآن، عدا إستثناءات في صفوف العلمانيين الشيعة الذين ليسوا مؤثرين بما فيه الكفاية في الإرادة الشعبية الشيعية. ونشير هنا إلى أنه في حال تكررت، وبموجب الترتيب الأبجدي، لـ «مجلس الحكم» الذي يملك الشيعة فيه أكثر من نصف مقاعده، وهو ما سيحدث في حال إستمّرت حالة الإحتلال الأميركي قائمة للعراق، فإن العراق برئيس شيعي لن يعود من المسائل التي تستوجب النظر والحذر، وسيكون إنتسابه بعد ذلك إلى مجلس التعاون الخليجي «مقدمة لإلحاق إيران جديدة غير الحالية إلى هذا المجلس».

ويبقى القول إن هاتين الظاهرتين المكملتين لبعضهما.. ليستا كل ظواهر المشهد العراقي، ذلك أن هذا المشهد هو في حد ذاته «أبو المظاهر» المحيرة بمثل «أم المعارك» الأكثر مدعاة للحيرة وتحريضاً على إظهارها في الملامح.

والمشهد يتواصل بالمزيد من الظواهر التي... ولا في الخيال.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 3 سبتمبر (أيلول) 2003

* * *

من 9 و 10 المصري 1967 .. إلى 9 و 10 الفلسطيني 2003

ما أشبه 9 و 10 سبتمبر (أيلول) 2003 في رام الله بـ 9 و 10 يونيو (حزيران) 1967 في القاهرة. وعلى مدى الستة والثلاثين سنة التي تفصل الحدث المصري المفاجئ عن الحدث الفلسطيني المبهر، لم نشهد في العالم العربي مثل هذين الإستفتاءين التلقائيين، حيث يتصرف المواطن أمام حالة صادمة بعفوية لا مثيل لها.. فيجد نفسه من دون تحريض رسمي أو توجيهات حزبية، ينزل إلى الشارع أو يقصد الموقع الصادم ويقول رأياً حاسماً في الأمر يثير الإعجاب والتقدير.

عندما فاجأ الرئيس جمال عبد الناصر، من خلال بيانه المبتوث إذاعياً وتلفزيونياً مساء يوم 9 يونيو (حزيران) 1967، الرأي العام المصري والعالم، بقرار تنحيه عن السلطة معلناً أنه يتحمل مسؤولية الهزيمة، لم يكن يتوقع أن يأتي رد الفعل الشعبي على النحو الذي أتى عليه، واعتبر أن بيان التنحي هو نصف الصفحة الأخيرة من كتاب ثورته التي قام بها يوم 23 يوليو 1952، أو أنه «بيان الوداع» البديل عن «خطبة الوداع». لكن الذي حدث هو أنه بعد أقل من نصف ساعة على تلاوة البيان، بدأ المصريون يتدفقون إلى شوارع العاصمة المصرية وبدأوا يطلقون الهتافات التي يرفضون من خلال مفرداتها تنحي الرئيس. هل كان الخوف من المجهول هو الدافع إلى ذلك، أم هل أن الخشية من الوريث الذي إختاره، منذاك، عبد الناصر، وهو زكريا محيي الدين، هو الذي جعلهم يقولون ما معناه الهزيمة مع عبد الناصر ولا تجربة الحكم مع غيره؟ أم أن الصياغة المنمقة التي ابتكرها الزميل محمد حسنين هيكل لبيان التنحي هي التي فعلت فعلها في وجدان المواطن المصري، فاندفع هذا المواطن من دون إرشادات ديناصورات الإتحاد الاشتراكي، إلى الشارع ليقول لعبد الناصر: إبق في مكانك والخير في ما إختاره الله، وأن الإرادة الالهية قادرة على أن تعين من يصمد في حال كانت النية على درجة من السلامة والنقاء؟

ربما أحد هذه الأسباب، وربما الخلاصة الناشئة عن مزجها، هي التي جعلت المواطن المصري يتنحي عن صدمة الهزيمة ليرفض صدمة تنحي رئيسه التاريخي، وليجعل هذا الرئيس المطعون في كبريائه

ان الحكومة العطرية، نسبة إلى رئيسها المهندس ناجي العطري الذي هو موضع إرتياح كل الأطراف، ستكون مهمتها الشروع في تحقيق برنامج الإصلاح وتصحيح الكثير من الإخفاقات، وبعد أن تظهر النتائج الأولية وبالوضوح المطلوب ستكون الحكومة التي يستأثر البعث بالحصة الأكبر فيها هي آخر حكومة بهذه الهوية، وبعدها يتيح الرئيس بشّار المجال أمام الآخرين لكي يواصلوا ما بدأتها الحكومة البعثية الأخيرة على طريق الإصلاح والتصحيح وقطعت شوطاً في هذا الإتجاه. أما أن يتولى الأمر غير البعثيين فهذا معناه تاريخياً ادانة للحقبة البعثية وهو ما من شأنه التسبب في حدوث إرتباكات.

وثمة ملاحظة لافتة وهي ان الرئيس بشّار يتطلع بالكثير من الإهتمام إلى حضور الإغتراب السوري وما يمكن أن تقيده بضعة ملايين من السوريين المنتشرين في بلاد الإغتراب وبعضهم من الناجحين بإمتياز في مجال الصناعة والتجارة. ومن هنا إختياره الوزيرة المناسبة للمغتربين وهي الدكتورة بثينة شعبان مديرة الإعلام في وزارة الخارجية.. علماً بأن الحضور الذي تألفت فيه كتابة ومخاطبة وتوضيحاً ومداخلة ومقابلات فضائية، جعلنا نفترض أن مكانها الإعلام لتكون ثاني وزيرة إعلام بعد الأردنية - اللبنانية ليلي شرف التي كان لها حضورها في مجال الإعلامين العربي والأجنبي قبل أن تستقر كعضو في مجلس الأعيان الأردني.

كذلك يلفت الإنتباه إستحداث الرئيس بشّار لقاعدة جديدة وهي، كونه من جيل الشباب، تشجيعه للإعتماد على الوزراء الشبّاب وذلك من منطلق الإقتناع بأن قيادته الشابة تحتاج إلى حكومة يتولى الحقائق فيها أصحاب تجربة وخبرة في الحياة العامة، ومن هنا ان الحكومة رئيساً ومعظم الوزراء فوق الخمسين من العمر.

خلاصة القول إنها حكومة البعث الذي سيصح نفسه بنفسه.. ثم بعد ذلك تُفتح الأبواب أمام سوريا البشّارية المتحررة من إحتكار الحراس القدامى للعقيدة التي هي أمام أكثر الامتحانات صعوبة، البادئة عهداً جديداً... لا يتناول فيه عليها غلاة التصهين في الكونغرس المفترى.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 21 سبتمبر (أيلول) 2003

* * *

القرار الذي وافقت عليه 11 دولة من بينها فرنسا وروسيا والصين، شعرنا ان قامة عرفات إمتشقت أكثر نتيجة هذه الضحالة في التفكير الأميركي، من دون أن يعني ذلك أن إمتناع بريطانيا والمانيا عن التصويت لم يساهم في إمتشاق تلك القامة. وصحيح أن المكسب هو إشعار آخر معنوي، لكن قضية عرفات في الزمن الراهن، وقضية عبد الناصر قبل 36 سنة، وإن اختلفت من حيث التفاصيل حيثيات الحالتين، كانتا تتطلبان في الدرجة الأولى ضخ بعض الدم النقي في الشرايين... وهذا حدث يقابل ذلك نشفان في الشرايين الشارونية وشرايين المتصهينين في بلاد العم سام.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 25 سبتمبر (أيلول) 2003

* * *

خشية مشروعة على دبي الجديدة

لا نعتقد أن من مصلحة الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم أن تستضيف الإمارة المکتومية دبي هذه الغزوة الإسرائيلية في زمن نحتاج فيه إلى أي وسيلة غير عسكرية نواجه بها الشارونيين الذين لا يريدون السلام ويدمرون أي فرصة تسوية يمكن أن يتم التوافق عليها، فضلاً عن عدوانهم الذي لا يتوقف على الشعب الفلسطيني وعدوانهم الوارد كإحتمال على المحاولة النووية الإيرانية. وما التحذيرات الجدية من المسؤولين الإيرانيين قبل أيام لإسرائيل سوى المؤشر إلى الخشية من العدوان الذي يتم التخطيط له منذ أشهر وعلى نحو ما حدث لمفاعل تموز العراقي قبل ربع قرن.

لقد بنى المکتوميون هونغ كونغ الخليج بهمة وجدارة ونظرة مستقبلية لم يسبقهم إليها أحد. وأمکنهم خلال إنشغال لبنان بللمة جراحه الناشئة عن الحرب أن يستسخوا في دبي بيروت أخرى بطبعة الألفية الثالثة. وكان الأبناء وبالذات ولي العهد الشيخ محمد شُطراً مثل والدهم الذي جعل من ميناء دبي قبل نصف قرن مصدر ثروة هي التي تم توظيفها في بناء دبي القرن الواحد والعشرين. ولم تمضي سنوات إلا وباتت دبي سوقاً كبرى وبات العمران فيها أسطورياً ووصل إلى حد أن أجزاء من مياه خليجها باتت مشاريع عمرانية لا مثيل لها في المنطقة. ثم أمكن المکتوميون إستقطاب المؤسسات المصرفية والإعلامية وشركات الإستثمار

الناشئ عن مرارة الهزيمة، الحزين كثير الحزن، بل الحزينة نفسه حتى الموت، على ألوف الجنود التائبين فوق رمال صحراء سيناء يمثل حالة السيد المسيح ذات يوم، وما أصاب نفسه من خيبات أمل في بعض الذين حوله، يعود يوم 10 يونيو عن قرار التنحي، ويبدأ بثقة وهمة عالية ومعنويات ناشئة عن الوقفة الشعبية التي فاجأته، إعادة بناء الجيش بهدف إزالة آثار العدوان. ولقد حقق ما إستطاع تحقيقه. ولولا أن إرادة الله عز وجل نقلته إلى دنيا الآخرة يوم 28 سبتمبر (أيلول) عام 1970 عن 52 سنة لكان ربما رد للمصريين، الذين لولا وقتهم الى جانبه ورفضهم تنحيه، لما كانت قامته ارتفعت شامخة من جديد ثلاث سنوات أخرى، يعزز شموخها الإستقبال التاريخي له وللملك فيصل بن عبد العزيز معاً في الخرطوم، عندما شارك في القمة الشهيرة... زهرة القمم العربية التي تكررت موجبات إستسائها، لكن أهل القمة لا يفعلون ذلك.

نأتي إلى 9 و10 سبتمبر (أيلول) 2003، لنقول إن صمود رمز الشرعية الفلسطينية ياسر عرفات، وعناد ارييل شارون وإصراره على نفي الزعيم التاريخي الفلسطيني الى خارج فلسطين، ويقال إلى المغرب الذي ذاق الملك محمد الخامس، جد الملك الحالي محمد السادس مرارة المنفى، أو إلى منفى غير عربي على نحو نفي سعد زغلول، ثم إعلان شارون ذلك على الملأ، هو الذي جعل الفلسطينيين ينتفضون من دون حجارة، ويحيطون بمقر عرفات معلنين وقوفهم إلى جانبه. ولم يأت الإندفاع الشعبي هذا نتيجة التعليمات، ولا أن مساعدي عرفات إستأجروا الشاحنات والباصات والسيارات لنقل الناس من حيث هم إلى حيث هو، وإنما فعل الفلسطينيون وبكل أطيافهم مثل ما فعل المصريون قبل 36 سنة. وبات الرئيس عرفات في ضوء ذلك، قادراً على إغاضة الشارونيين، خصوصاً بعدما بات رمز الشرعية الفلسطينية قضية دولية ينعقد من أجله مجلس الأمن لمناقشة مشروع قرار يطالب إسرائيل بعدم الإضرار به أو طرده، ويتقاطر متقنون وفنانون إسرائيليون من أنصار السلام إلى مقره المحاصر لمشاركته فرحه بنتائج الإستفتاء الفلسطيني الذي كان أكثر ديمقراطية من إستطلاعات الرأي التي يُفصلها المتصهينون داخل أميركا على مقياس الهوى الصهيوني. وعندما أتت الأخبار بتقيد بأن المندوب الأميركي إستعمل «الفيتو» وأسقط مشروع

إسرائيل تجميده لبضع سنوات بالنسبة إلى لبنان من خلال مساهمتها في تأجيج الحرب فيه بحيث أن الشركات والمصارف الأجنبية ولت مذعورة وعشرات الفنادق التي كانت مملوءة بالأجانب بين الحين والآخر وبالأخوان الخليجيين على مدار السنة باتت مهجورة. وأما الأسواق وما في داخلها من خيرات فإنها إنتهت محروقة. ومنذ أن بدأت إعادة الإعمار ومسيرة الوفاق نتيجة إتفاق الطائف وحرص القيادة السعودية على إنجازه، والعين الإسرائيلية على لبنان لا تريده أن ينهض وإقترفت حكومات الدولة العبرية دون إستثناء، وبالذات حكومات بيغن وغولدا مائير والإسحاقين شامير ورايين ثم باراك ونتياهو وبيريز وصولاً إلى شارون الذي تقطر يده دماً على مدار الساعة، من أجل ذلك من التشويش والعدوان والإختراق الجوي اليومي للسيادة والتهديدات والمؤامرات وتحريك الجيوب وتوظيف من في نفوسهم هوى لدور سياسي كبير، ما من شأنه قطع الطريق على معاودة النهوض.. خصوصاً بعدما بات الترحيب ببيروت المتجددة يأخذ مكاناً له على الصعيدين العربي والدولي.

وبمثل ما نخشى على بيروت الشريكة العربية لدبي في إستقطاب الإستثمار والحضور الدولي في شتى المجالات، فإننا نخشى على الإمارة المكتومية من أن يكون هذا الانفتاح من جانبها على إسرائيل التي ترفض ان تهتدي إلى سواء السلام لغماً يزرعه الشارونيون على ضفاف الخليج في الواحة التي أثبتت جدارة وتقوفاً ملحوظين، بغرض تدمير تجربة رائدة على رمال الخليج وشاطئه الذي يزداد عمراناً. وما هذه الغزوة الإسرائيلية يتقدمها وزير دولة نيابة عن أحد أصلف المعتدين بنيامين نتنياهو وزير المالية الشارونية سوى مقدمة لأمر نخشى حدوثه، فضلاً عن انها حجة لدى غلاة التشدد الإسترهابيين (بمعنى جرهم إلى أعمال إرهابية) الذين يستفزههم مثل هذا الإجتياح الإقتصادي الإسرائيلي فيقرر بعض منهم تحويل مشاعره إلى عمليات ترهيبية، نرى أن دبي في غنى عنها ما دام برنامجها التطويري لم ينته بعد.

ومن باب الحرص على إستقرار دبي الجديدة المبهورين بها نقول ذلك.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 2 أكتوبر (ت) 2003

* * *

فضلاً عن هوة السياحة ورواد التسوق. وهكذا بات من زار دبي يتباهى بذلك على نحو التباهي في الستينيات والسبعينيات بزيارة بيروت. وشيئاً فشيئاً بدأت دبي تشاكس بلاد السياحة التي يقصدها الخليجيون مثل تونس والأردن ولبنان وسوريا والمغرب وقبرص. وجاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) 2001 الترويعية في كل من نيويورك وواشنطن لتجعل المسار السياحي لعشرات الألوف يتبدل فلا تعود «اورلاندو» وغيرها من المدن والمواقع الأميركية هي التي تطيب السياحة فيها، وبات الخليجي المصدوم من خشونة التعامل الأميركي العشوائي يجد في دبي الماء والخضراء والشكل الحسن، وبات الأطفال بالذات يجدون بقاءاً جليدية يمارسون فيها رياضة الهرولة والتراقص على الجليد، وخياماً فيها الثلج بينما حرارة الجو في الخارج تذيب الهمم، ومسارح يتابعون فيها التمثيليات والألعاب السحرة. وتلك ليست كل الابتكارات المدهشة، ففي كل موسم هناك الجديد والمُبهرج، وربما نسمع ذات يوم عن «ميني نياغارا» لمن يتشوقون إلى رؤية الشلالات المتدفقة من علي.

ولقد حلت دبي الجديدة العقدة الإجتماعية المستعصية لعشرات الألوف من الأجانب العاملين في دول الخليج أو الذين يقصدون دول مجلس التعاون لمتابعة أعمال شركاتهم، وبالذات أولئك الذين يأتون من اليابان وكوريا ومن الولايات المتحدة أيضاً بغرض تعزيز تسويق منتجات مصانعهم في مجال السيارات والكهربائيات والكومبيوتر الذي بات عصباً أساسياً في الحياة الوظيفية والتجارية فضلاً عن المؤسسات الرسمية. وهؤلاء باتوا يجدون في دبي الفندق الذي لا مثيل له، وملعب الغولف المترامي الأطراف، والإهتمام الراقي بالزوار، والتسهيلات المتناهية من الإستقبال إلى الإقامة إلى تصريف الأمور بعيداً عن البيروقراطية وبحيث لا يكون هناك هدر للوقت.

هكذا في خمس عشرة سنة باتت دبي واحة دولية الشخصية على شاطئ الخليج وواسطة العقد بين عواصم منطقة دول الخليج ومدنها، حيث أنها على مسافة تحليق صقر من الصقور المدجنة التي لا تتطلق إلا للإقتراس ثم تعود معصوبة العينين مقيدة المخالب في إنتظار إنطلاقة أخرى. بل إن دبي باتت في نظر إسرائيل تشكل خطراً غير عسكري عليها كونها خطفت منها، أو هكذا سينتهي الأمر، دور حاضنة الإستثمارات العربية والأجنبية في المستقبل، وهو خطر إستطاعت

هيكل في الثمانين . التنحي الأكبر... والتنحي الآخر

خشية من الإنسحاب الإضطرابي الذي أمضى ثلاثاً وثلاثين سنة تلت رحيل ملهمه ومصطفيه على الآخرين من الصحفيين، يقلقه احتمال حدوثه لدواعي مزاج أهل الحكم أو لكسل يصيب الذاكرة ورجفة تصيب اليد حاملة القلم أو لحالة صحية يستوجب علاجها الخلود إلى الراحة وعدم السفر إلى عواصم القرار والإستماع إلى صانعيه ثم الكتابة عما سمع وناقش... خشية من هذا الإنسحاب الإضطرابي توكل كبير الزملاء محمد حسنين هيكل على الله وبعدهما إستشار رفيقة العمر هدايت تيمور (أم علي) وفرسانه الثلاثة الدكتور الأستاذ في كلية الطب علي ورجلي الأعمال أحمد وحسن، وقرر أن يتنحى عندما يبلغ الثمانين من العمر طارحاً مسبقاً فكرة العزم على التنحي من باب أن تشمل الإستشارة تلامذته وجمهوره ومقدري خياره في مرحلة ما بعد رحيل الملهم له وسنده التاريخي جمال عبد الناصر. وجاءت الإستشارة وكأنما هي إستطلاع نال فيه هيكل ما يشبه الإجماع على ضرورة أن يواصل الكتابة في ما تبقى من سنوات العمر. لكن الحصافة أوجبت في النهاية أن يكون الإعتزال هو الحل وأن يتم ذلك مع بداية اليوم الأول من سنته الواحدة والثمانين. وجاء الإعتزال من خلال «الأهرام» التي هي رمز تألقه وفي صيغة مقالة يجوز إعتبارها «بيان الوداع».

وكما نعرفه عن هيكل وبالذات ما يتعلق بالمفردات التي يتميز بقدرة هائلة على إستنباطها وبالذات في لحظات الشدة وأيضاً في لحظات الصدمة بغرض إمتصاصها على نحو بيان التنحي الذي صاغه لعبد الناصر، أو بغرض إحداثها على نحو كتاب إستقالته من العهد الساداتي، فإن الزميل - الظاهرة في حوالى قرن من الصحافة العربية حرص على أن يعتبر الإعتزال «إنصرافاً» على أساس أنه مغادر من عالم الكتابة إلى عام الكلام الفضائي على نحو ما هو وارد في الخيارات. ومن هنا صاغ لـ «بيان الوداع» عنواناً يستوقف قارئ «الأهرام» ليوم الثلاثاء 30 أيلول (سبتمبر) وهو «إستئذان بالإنصراف. رجاء ودعاء... وتقرير ختامي». ومفردة «الإنصراف» بدل «الإعتزال» هي بمثل مفردته الشهيرة «النكسة» بدل «الهزيمة»

وبمثل مفردة «التنحي» بدل «الإستقالة»: وكلها مفردات وغيرها الكثير مما يحفل به كلام عبد الناصر على مدى سنوات العهد الناصري الثماني عشرة، كانت من صياغة هيكل الذي كتب لعبد الناصر نصوص خطبه المقروءة والخطوط العريضة للخطب التي كان يرتاح عبد الناصر إلى إلقائها بمزيج من العامية والفصحى.

ونجد أنفسنا هنا نعقد مقارنة بين التنحي الأكبر والتنحي الآخر. ذلك أن روحية التنحيين الإثنين واحدة، والعقل الذي صاغ مقتضيات الأول هو نفسه الذي صاغ مقتضيات التنحي الآخر مع فارق أن تنحي عبد الناصر كان بفعل الإضطراب حيث لا مجال لإمتصاص صدمة هزيمة 5 يونيو 1967 بغير الإستقالة، في حين أن تنحي هيكل كان بفعل الإختيار وإستباق لحظة لا يتمناها لنفسه ولقلمه، ولا يتمناها مريدوه له كأن يأتي مقال له يقرأه هذا المريد أو ذاك على أساس أنه لهيكل الذي في البال وإذا به مقال لهيكل الذي إضطربت أفكاره ولم تعد الرؤية عنده واضحة. ومن باب الإفتراض المجاز لمن هو مثل حالي، على معرفة بالحقبة الناصرية ومن خلال البوابة الهيكلية بوجه خاص، يمكن القول إن صيغة بيان التنحي الذي كتبه هيكل لعبد الناصر تسببت في تحريك مشاعر وجدانية لدى المواطن المصري فعجلت في نزوله إلى الشوارع المصرية ليعلم رفضه للتنحي ويجدد «البيعة الشعبية» العفوية لرئيس شعر أيام 5 و6 و7 و8 يونيو 1967 بأن قامته إنكسرت وجاءت تلك البيعة عقب دقائق من إنتهاء إذاعة بيان التنحي يوم 9 يونيو تضخ الدم في شرايين بيستها الهزيمة، ويستأنف عبد الناصر ثلاث سنوات من المرض والمرارة.. إلى أن توفاه الله تاركاً أقرب الناس إلى عقله محمد حسنين هيكل في محنة حقيقية كادت تدفعه إلى أن يتوقف عن الكتابة كونه فقد من كان يكتب من أجله وله. ثم تأكدت هذه المحنة بعدما وجد الرئيس الوريث أنور السادات أن محمد حسنين هيكل الناصري لا يريد أن يكون محمد حسنين هيكل الساداتي، ونشأت عن ذلك مشاعر غير ودية متبادلة إستعمل فيها الرئيس سلطانه وسلطاته، واستعمل فيها هيكل قلمه، وتبين أن فعل القلم له على المدى البعيد التأثير الذي لفعل السلطان والسلطات على المدى الفوري.

وافتراض كثيرون أن وريث الوريث أي الرئيس حسني مبارك يمكن أن يكون الحل الوسط للمحنة التي

نشير إليها خصوصاً بعدما أفرج الرئيس مبارك عن عشرات من أهل النخبة السياسية والإعلامية والفكرية والدينية الذين كان الرئيس السادات في لحظة غضب خريفية رماهم في السجن من دون أن ينتبه إلى مضار مثل هذه الخطوة على هيبة حكمه. لكن لا الرئيس مبارك أراد أن يكون محمد حسنين هيكل صديقاً أو قريباً أو مقرباً أو متميزاً دون الآخرين، ولا هيكل من جانبه كان في وارد من يتوقع عرضاً يأتيه من الرئيس مبارك. وخلال عقدين من عهد الرئيس مبارك لم يحدث أن إجتمع الإثنان بغرض إستفادة الرئيس من رؤية هيكل المخضرم ووقوف هيكل وعن قرب على ما يدور في كواليس القرار المصري. وهذا العزوف تسبب لاحقاً في ولادة مشاعر على جانب من التوتر في العلاقة إرتاح لها الذين لا يريدون لهيكل حضوراً طاعياً في الحياة العامة خشية أن يأخذ الرجل من طريق الآخرين.

وإذا جاء القول فإن «الإنصراف الهيكلي» أخذ له حيزاً من أدبيات الصحافة، وبحيث أن مثل هذه «النهاية السعيدة» للذين يقاتلون في أصعب جبهات الحياة العامة، وأعني بها جبهة العمل الصحافي كاحتراف وليس شيئاً آخر، يتمنون لأنفسهم مثل هذه النهاية. وهي نهاية كريمة في أي حال يستحقها من كان شريكاً أساسياً في صناعة القرار المصري طوال ثماني عشرة سنة ناصرية ومن دون أن يكون صاحب مقام رسمي وإنما رئيس تحرير صحيفة أنشأها في الإسكندرية قبل مئة وثمان وعشرين سنة النقليان (من نقلاً) سليم وبشارة قبل أن ينقلها بعد عشرين سنة إلى القاهرة وتصبح بعدما إختار عبد الناصر صديقه محمد حسنين هيكل رئيساً لتحريرها عام 1957 أهم موقع سياسي في مصر بعد رئاسة الجمهورية إستمر يشغله لمدة سبع عشرة سنة. وكان متوقعاً من هيكل ما دام قرر «الإنصراف» أن يخصص في «بيان الوداع» فقرة يذكر فيها بالخير هذين الشقيقتين اللذين زرعاً في المحروسة غرسه من أحرف باتت بعد ذلك أهراً بالمعنيين كتسمية وكمعلم من معالم الحضور السياسي المصري في العالم.

وتبقى الإشارة إلى الكنز الناصري الثمين الذين يتطلع المصريون والعرب إلى هيكل ما بعد «الإنصراف الإختياري» لكي يكشف لهم عنه كي لا ينتهي هذا الكنز إلى أنه من المنسيات أو من المفقودات الموجودة من نوع الكنوز التي تستقر في

قاع البحار بعد غرق باخرة عملاقة من نوع «تيتانيك» ويحتاج العثور عليها إلى مغامرين شجعان. وفي تعقيب هذه الثروة وكلها عبارة عن وثائق وحقائق سيبقى عبد الناصر ظالماً ومظلوماً في الوقت نفسه ومصلاً ومغامراً في أذهان أجيال توافقة إلى المعرفة ولا تجدها، لأن أكثر العارفين بها لا يفضون الغبار عنها، ولأن هنالك أوامر ساداتية بعدم الكشف عنها لا تزال سارية المفعول. كما أن كبير الزملاء «المنصرف» في ثمانينياته أمذ الله بعمره وأدام عليه نعمة التألق سيبقى، نتيجة عدم المشاركة في الكشف عنها كشاهد تاريخي، كاتماً للحقيقة وشريكاً في الحالتين الناصريتين المزدوجتين أي «الظلم والمظلومية» و«الإصلاح والمغامرة».

عسى ولعل يكون الجواب في الحضور الفضائي الذي سيكون محطة الوصول في رحلة قام بها على مدى أكثر من ثلثي قرن للماضي والحاضر والمستقبل محمد حسنين هيكل... وكانت حافلة بالمفاجآت وبالتجارب غير المستقرة والفواجع التي تؤلم الوجدان أشد إيلام.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الجمعة 3 أكتوبر (ت) 2003

سنة أشهر على سقوط صدام.. هل ينتهي أمر العراق ولاية أميركية مثل هاواي؟

قبل شهرين صدرت عن مسؤولين في سوريا وفي إيران، ربما في ضوء التنسيق بينهما وربما من باب توازد الخواطر، عبارتان متشابهتان من حيث الروحية، خلاصة مضمونها أن أميركا باتت جارة للدولتين، أي بما معناه أنه سيتم التعامل مع الأمر من زاوية علاقات الجوار.

هاتان العبارتان تجعلان المرء المتابع لما يجري على الأرض العراقية، ولما يقوله المسؤولون الأميركيان، وبالذات الرئيس جورج بوش الابن وبقية أركان إدارته، فضلاً عن التخطيط الدولي في الشأن العراقي، والمأزق الذي بدأ يسلكه الإحتلال الأميركي البريطاني للعراق يتأمل كثيراً في المشهد الذي أمامه ويتساءل: هل إن الأمور ستتطور في إتجاه أن يكون العراق، الذي نال إستقلاله من الإنكليز عام 1920

وإستمر مَلَكياً حتى العام 1958، ولاية أميركية يمثل ما هي عليه هاواي؟

إن مثل هذا الإفتراض لا يبدو مشهداً من مشاهد الخيال التي كثيراً ما إشتهرت بها هوليوود وبالذات في ربع القرن الأخير، وإنما هو إحتمال تؤكد عشرات المحطات - المؤشرات التي تراقق الموضوع العراقي منذ الحرب.. المتواصلة حتى إشعار آخر، ومن هذه المحطات - المؤشرات، التي يمكن التوقف عندها، ما نسجله على النحو الآتي:

أولاً: إن الحرب حدثت بغرض التدمير من أجل أن يعاد بناء كل شيء من جديد. وعلى هذا الأساس قد نسمع قريباً بعقود بناء ناطحات سحاب في بغداد والموصل والبصرة وغيرها، تكون بمثل ناطحات السحاب في نيويورك وشيكاغو وهيوستن ودالاس ولوس انجلوس وسان فرانسيسكو وغيرها من المدن الأميركية. وستندثر شيئاً فشيئاً شخصية العمارة العراقية الراضية للبنيان العمودي المحبذة للبنيان الأفقي. وقد نرى بعد السمع إنارة مدهشة في هذه الناطحات التي سيتولى مقاولون أميركان، بطبيعة الحال، بناءها، وأسماء كبريات الشركات الأميركية والمصارف التي ستتخذ مكاتب لها في هذه الناطحات.

ثانياً: إن الخطوة الأولى التي تلت الحرب كانت الغاء كل ما هو قائم بدءاً من الجيش مروراً بالشرطة وصولاً إلى الوزارات من دون إستثناء.. وإلى حزب البعث الذي كان محتكراً كل شيء من القمة إلى السفح. وبعد ذلك بدأ العمل على إعداد جيش جديد بمفاهيم الأمركة وشرطة جديدة بالمفاهيم نفسها. وأما الوزارات فإنها شكلية، ذلك أن الحكومة من دون رئيس، وأن «مجلس الحكم» الذي عيّنه السفير بريمر عيّن بدوره وزراء إختارهم بريمر نفسه. والغرض من ذلك هو الإبقاء على الوضع بمثل ما هو عليه في إنتظار نزوح خطوات أميركية في علم الغيب.

ثالثاً: هنالك إصرار من جانب سلطة الإحتلال لعدم إستكمال بناء مساجد كان البناء قطع شوطاً كبيراً في بنائها، أهمها «مسجد صدام الكبير» على أرض «مطار المتنى» في قلب العاصمة بغداد. وهنالك إصرار على حذف عبارة «الله أكبر» من العلم العراقي. وهذا الأمر شبه مقبول من «مجلس الحكم» وشبه مرفوض بما لا يُقنع السفير بريمر. شبه مقبول على أساس أن العبارة هي بخط يد صدام حسين، الرئيس المجهول الإقامة والمصير، كتبها بدم سحبه

من ذراعه وليس بالحبر، وما دام «مجلس الحكم» يريد إقتلاع الصدامية والبعثية من الجذور، بدليل تسمية يوم إسقاط النظام على أيدي القوات الأميركية «عيداً وطنياً»، فلا بأس إذاً من إزالة أي أثر صدامي. أما لماذا الأمر شبه مرفوض، فلأنه لا يجوز التعامل مع لفظ الجلالة، أي «الله أكبر»، بهذه الخفة التي يراها الأميركيان عادية. ومن هنا فإن الخطوة المحتملة الحدوث هي تغيير العلم شكلاً ومضموناً، وبحيث لا يكون النسر هو رمز العراق وإنما شيء آخر تماماً ومن دون عبارات مكتوبة عليه.

رابعاً: اضافة إلى مسألة المساجد وعبرة «الله أكبر»، هنالك الإحياء إلى «مجلس الحكم» من أجل التخفيف من الأذان الميثوث بالمكبرات من المساجد، وإعادة النظر في التوجه التربوي، وبالذات ما يتعلق بالنواحي الدينية. والمنطلقات في هذه الإحياءات هي أن بناء المجتمع الديمقراطي يتطلب أن تكون الممارسة الدينية خالية من أي علنية، لأن في علنيته من الأذان المرفوع من المآذن خمس مرات في اليوم إلى المجالس العاشورائية، ما يشجع الجيل الجديد على أن يصبح «إرهابياً» مع الوقت!

خامساً: هنالك إتجاه لربط شبكة الإتصالات الهاتفية بالنظام التلفزيوني الأميركي مباشرة، أي بما معناه أنه لكي يتم الإتصال من الخارج بالعراق، فإن المكالمة تبدأ بعد فتح الخط الدولي بالرقم 1 ثم «الكود» الخاص بكل محافظة. فإذا كان الرقم المطلوب على سبيل المثال في بغداد هو 362789، فإن طريقة الطلب تكون بمثل طلب رقم في نيويورك أي 001 - 718 ثم الرقم. وما سيحدث على صعيد الإتصال الهاتفي سيحدث بالنسبة إلى البريد... وهكذا.

سادساً: هنالك إتجاه لـ «صهر» جهاز المخابرات الصدامي وإستخلاص العناصر التي يمكن الركون إلى أمركتها، وبناء جهاز جديد يُعهد في إدارته إلى أشخاص سبق أن عملوا أو شاركوا في تأسيس هذا الجهاز ثم تم إبعادهم في مرحلة صراع ديوك النظام. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر سعدون شاكر، الذي كان أحد أقرب المسؤولين إلى صدام حسين ثم كان إبعاده وعدم إسناد أي منصب إليه.. وهذه الإستعانة سببها أن هؤلاء المخابراتيين هم المفاتيح الرئيسية إلى «مجتمع البعث» الذي كان يحكم، وإلى المجتمع المعارض للعهد الصدامي. ومن دون المخابراتيين المشار إليهم، سيكون من الصعب

على ما يبدو وقوف السفير بريمر على ألغاز اللعبة العراقية الخطيرة.

سابعاً: لا يبدو السفير بريمر مرتاحاً إلى موقف العشائر العراقية ولا إلى موقف الزعامات الكردية. وهؤلاء أبدوا من الحرص على العلاقة الإستراتيجية مع أعماقهم داخل سوريا والأردن والسعودية، ما جعله يفترض أن شيوخ تلك العشائر والزعماء الأكراد يمكن أن يشكلوا إختراقاً للإستراتيجية الأميركية.

ثامناً: هنالك خشية في حال قامت حكومة وطنية وتم وضع دستور وجرت إنتخابات حرة، أن تكون هذه الأمور بمرتبة حيثيات لمطالبات الإدارة الأميركية بإنهاء الإحتلال، وهذا معناه مطالباتها بالرحيل الذي يعني تساقط الإدارة وبالأذات كواسرها شر تساقط. ولن يقتصر الأمر على ذلك بل هنالك، ما دام المناخ السياسي بات ديمقراطياً، خشية من ولادة تيار ينادي بتصحيح العلاقة مع أميركا. وقد يرى هذا التيار الذي ربما يضم فقهاء في القوانين، وما أكثرهم في العراق، بمطالبة الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية ومعهما كل دولة ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر بالحرب، بالتعويض عن الخسائر المادية والبشرية التي تسببت بها. وفي هذه الحالة فإنه لا مجال للتهرب، خصوصاً أن الشهود الدوليين من بليكس إلى الديفيدن كيلي البريطاني وكاي الأميركي إلى عشرات التقارير والمعلومات والتصريحات والمواقف لمسؤولين أو حزبين في أميركا وبريطانيا، مجمعون على أن السبب الذي من أجله حدثت الحرب يفترق إلى الصواب والأسانيد القانونية، وفي هذه الحال أيضاً، تصبح أميركا وبريطانيا مضطرتين لدفع المليارات وعلى مدى سنين للعراق، وهما اللتان خاضتا الحرب لجني الخيرات منه وعلى مدى سنين.

لهذه الأسباب والوقائع وتفسيراً للمماثلة الأميركية في شأن إعطاء دور واقعي للأمم المتحدة، ومماثلة أخرى متعمدة لعدم الانتقال بالسلطة في العراق من مرحلة الإحتلال إلى مشارف السيادة، فإن ما تبقى من الولاية الرئاسية البوشية قد يشهد خطوات درامية صادمة تستهدف تطوير الإحتلال الذي يحظى بشرعية دولية، في إتجاه جعل العراق، الذي تبلغ مساحته حوالي نصف مليون كيلومتر مربع ويقرب عدد سكانه من العشرين مليوناً، الولاية الثالثة والخمسين، يمثل ما هي عليه هاواي الولاية الخمسين التي يفصلها البحر بمئات الأميال عن الأرض الأميركية.. ومع ذلك فإنها

ولاية تابعة لها ليس حياً بمنهجها من السكر والأناس والبن، وإنما لأنها قاعدة عسكرية في عرض البحر.. أو فلنقل إنها حاملة طائرات أميركية راسية على مدار السنة، وفتياتها في جهوزية دائمة لوضع عقود الزهر في أعناق الأميركيين من سياح وبحارة.

وإذا سارت الأمور في إتجاه ما أوردناه كرؤية مستندة إلى شواهد فإن العراق سيصبح «ولاية الولايات»، ذلك أنه سيكون مركز التحكم الأميركي في منتصف الطريق بين العرب وروسيا والمسلمين من جهة، وبين العرب والمسلمين وأوروبا من جهة ثانية. وبذلك ينجو البوشيون الكواسر وتكتمل الإمبراطورية التي من أجلها على ما يبدو كانت الحرب على العراق... وهي حرب لن تنتهي وسيثورثها من سيخلفون بوش الابن وإدارته بمثل ما ورث كلينتون والديمقراطيون عن بوش الأب المرحلة الأولى من المخطط الإمبراطوري. والله أعلم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 9 أكتوبر (ت) 2003

نظرة ميدانية على سوريا المتجددة

تسنى لي قبل خمسة أيام من العدوان الشاروني الإفتراضي على قرية سوريا حامدة شاكراً نعمة الله، على رغم بؤس الحياة وشقائها، أن ألمح على وجوه الناس الذين قابلتهم على مدى يومين في دمشق، من مسؤولين في مفاصل الحقبة البشّارية، إلى تجار في سوق الحميدية، إلى رواد لبعض المطاعم الشعبية التي لا تحتاج إلى أضواء وإعلانات في الصحف والتلفزيون عنها، ومع ذلك فهي مكتظة دائماً في أوقات الغداء والعشاء بالتواقين إلى الأطايب الدمشقية والريفية عموماً، ملامح إرتياح كان من النادر ملاحظتها في الماضي. ولم نسمع من الذين تبضعنا منهم، أو تذوّقنا أطايب مطبخهم، أو أصغينا إلى رؤاهم للأحوال كواقع وكترجي، سوى الكلام الذي يعكس إنطباعاتاً بأن سوريا على موعد مع الرخاء والإستقرار النفسي والتعددية، والانتقال من مرحلة «البعث» كعقيدة وكحزب أوحدها بمسك بزمام الأمور، إلى مرحلة «البعث» كتراث، له في الدولة بقدر ما للآخرين، وضمن قاعدة ليس لسوري فضل على آخر إلا بقدر ما يؤدي الواجب

تحبو في إتجاه أن تكون خلال ربع قرن، في منتصف الطريق بين اليونان وإيطاليا، أو بين إيطاليا والبرتغال أو بين بريطانيا وإيرلندا أو بين فرنسا والنمسا أو بين ألمانيا ورومانيا.

ومن هؤلاء الوزراء وزير الإعلام أحمد الحسن، الذي يأتي إلى الوزارة السيادية من تجربة دبلوماسية بالغة الدقة والحساسية، كونه أمضى إحدى عشرة سنة سفيراً لسوريا لدى إيران، وهي فترة مهمة ليس من حيث طولها الإستثنائي وإنما من حيث العلاقة الإستراتيجية التي بين الرقمين الأكثر صعوبة في المعادلة الدولية - العربية - الإسلامية الراهنة، بعد تساقط العراق لقمة في الفم الأميركي، تأمل إدارة الرئيس بوش أن تكون سائغة.

ولقد أصغيت بالكثير من الإهتمام إلى تقييم الوزير الحسن لما سيكون عليه الإعلام في المرحلة المقبلة، وكيف أن حالة من النهوض الإعلامي ستكون إحدى سمات هذه المرحلة. واستنتجت من تقييم الوزير أن سوريا المتجددة في صدد إعلام متفهم ومسؤول، بحيث لا يكون رسمياً، ولا يكون على نحو ما آل إليه الإعلام في مصر بعد الأخذ بتجربة الإنفتاح، كما أنه بطبيعة الحال، لن يكون بمثل ما هو الإعلام في لبنان. وكدت أترح أمام الوزير الحسن، إفتراضاً خلاصته أن «تشرين» سورية يمكن أن تكون هي «أهرام» مصر، وتكون «الثورة» و«البعث» مطبوعات دورية يرسم التداول بين الرفاق، وذلك لأن التسميتين اللتين تصلحان لحقبة الستينيات والسبعينيات والثمانينيات والتسعينيات لا تأنس إليهما أجيال الإنفتاح، الذي لا يمكن إلا أن يكون بمثل نقلة من وسط البحر ذي الأمواج المتلاطمة إلى الشاطئ الآمن. وبعد هذه النقطة فإن صحيفة إسمها «الثورة» تصدر صباح كل يوم وتحمل في طيات سطورها وعناوينها وصورها الموقف الرسمي للدولة، ستبدو أمراً يثير الإستغراب، ومن هنا فإن الصيغة البديلة لتخفيض الحضور الذي للصحيفتين وجعلهما مطبوعتين دوريتين، وهذا من شأنه إحداث صدمة في نفوس البعض، هي في اعتماد خطوة مألوفة في علم الإقتصاد والإنتاج المضمون الربحية، كأن يتم دمج الصحف الثلاث «تشرين» و«البعث» و«الثورة» في مؤسسة واحدة تصدر عنها صحيفة «تشرين» بما لهذه التسمية من قبول نفسي وموضوعي، فضلاً عن أنها تسمية يرتاح إليها كل سوري بعثياً كان أو غير بعثي.

على أفضل ما تكون عليه التأدية نحو سوريا المتجددة. أما مسألة أن تكون الهوية الحزبية هي وحدها المفتاح أو التأشيرة، فهذا تقليد إنتقت الحاجة إليه في ضوء النظرة التأملية الفاحصة على تجربة ربع قرن بعثي محكم الضوابط، رجحت فيه كفة الخشونة في التعامل على كفة المرونة، ورجحت كفة إجراءات العزم والحزم على كفة إعتدال التباس في المناقشة، ورجحت كفة سوء الظن والشكوك في إستمرار على كفة حسن النية. كما اننا لم نسمع من الذين تحدثنا معهم أي عبارات توحى بالإحباط. ولاحظنا في شوارع العاصمة حركة نشيطة، وكما لو أن المواطن السوري على موعد مع لحظة خروج الدولة من مرحلة الشرنقة الأمنية إلى الإنفتاح المتأنّي. وما لا يسمعه المرء يمكنه ملاحظته من خلال الحركة الدءوبة أمام المصارف وفي الفنادق. فالكل على عجلة من الأمر يريد أن يكون جاهزاً لمواكبة «المشروع البشّاري» إذا جازت التسمية، الذي يريده من كان يخطط ليكون أحد أشهر أطباء العيون في سوريا، فإذا به بالإضطرار وليس بالسعي أو الإختيار، يجد نفسه أمام المسؤولية الأكبر رئيساً لدولة ترّجّح كفة الهموم فيها على كفة الإهتمامات.

وكان لافتاً لنا أن حديث التنمية والـ «بيزنيس» عموماً، هو الطاغي، وأن مظاهر الإنفتاح في طريقها إلى المزيد من التوغل والانتشار وبكل الملامح الأميركية لهذه المظاهر، بدءاً من السوق الحرة التي أنشئت على نقطة الحدود مع لبنان، حارمة التجار اللبنانيين من مشتريات السوريين بألوف الدولارات يومياً لبضائع محلاتهم في أسواق منطقة الحدود وفي المحلات التجارية الأنيقة في العاصمة بيروت نفسها. وفي تلك السوق وجدّت «الدونت» الأميركية مكاناً لها مقدمة لـ «غزوة» المشهيات والأطياب الأميركية، التي ستأخذ من طريق الأطياب والمشهيات السورية. وتلك حال ظاهرة الإنفتاح التي ابتليت فيها مصر من قبل، والغارق في ويلات لبنان إلى ما فوق العينين.

وأما الحديث مع الذين تيسر لنا لقاءهم من وزراء في الحكومة البشّارية الأولى، فإنه كان يتسم بنكهة مفردات غير تلك التي كانت سائدة، وكان منسجماً مع إعادة نظر في بعض المظاهر التي توحى بأن عسكرة المجتمع وتثويره لم تعد مطلوبة ولا هي ضرورية بالحاجة الملحة التي كانت عليها، وأن تكريس الزي العسكري على طلبة المدارس معناه أن تكون سوريا «كوريا شمالية» أخرى، بينما يريدها الرئيس المتجدد

نرى سرعة الشارونيين في قطع الطريق على هذا النهوض، وتسرع الإدارة الأميركية من دون وجه حق في تأييد التحرش الشاروني غير المبرر بسوريا، التي تريد أن تتجدد وبحيث يرتاح لها المجتمع الدولي، إنما من دون أن تخلع عباءة الثوابت... وهذا سر تميز موقفها وحذاقة أسلوبها في التعاطي مع شؤون المنطقة وشجونها.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 13 أكتوبر (ت) 2003

* * *

مفارقات تثير الدهشة

أليست مفارقة تثير الدهشة أن العراقيين عرباً وأكراداً يعارضون إرسال قوات تركية إلى بلدهم في حين أنهم شكلاً منقسمون بين مرحب بإحتلال أميركا وبريطانيا لبلدهم وبين موافق على وجود هذه القوات لبعض الوقت أو معارض لفظاً لهذا الوجود؟

وعلى هامش هذه المفارقة يمكن القول ان القبول العراقي والقبول العربي والإسلامي بدخول قوات تركية إلى العراق هو واجب في حال توجهت إلى ديار الرافدين قوات عربية وإسلامية للمساعدة على حفظ الأمن وتحقيق الاستقرار الذي يعيد إلى العراق رونقه. أما عدا ذلك فإن القوات التركية ستكون شريكة للمحتلين. عسى ولعل القمة الإسلامية العاشرة في كوالالمبور مناسبة للمناقشة والتشاور والحسم.

وأليست مفارقة تثير الدهشة أن الدينار المتأمر في العراق من فئة الـ 25 ألفاً البديل لدينار صدام الحامل صورته والذي تواصل الغرفة المخصصة للأفران في البنك المركزي إحراق كميات بالألوف منه، لا يحمل رمزاً عربياً كصورة وإنما وضعت عليه صورة الحاكم البابلي حمورابي المعروف بوضع أول قانون مكتوب في تاريخ الإنسانية، وعلى الجانب الآخر صورة مزارع كردي مبتسم يحمل حزمة من القمح؟

ثم أليست مفارقة أيضاً أن الرمز العربي الوحيد الموضوع على العملة الجديدة هو لعالم الفلك والرياضيات أبو علي بن الهيثم المولود في البصرة عام 965م وموضوعة صورته على أحد جانبي الدينار من فئة عشرة آلاف؟

الغرض من هذه الملاحظة هو القول إن هنالك

ولن أطيل الكلام حول الذي سمعته من وزير الإعلام أحمد الحسن، وهو كلام يجعل السامع يرى أمامه خلال السنوات العشر المقبلة، مشهداً إعلامياً خالياً من مفردات الماضي، وإعلاميين يمارسون المهنة في مناخ لا تصل فيه الضوابط إلى مرتبة الإجراءات. فالقصد هو القول ما معناه أن الرئيس بشار الذي يقوم بأدق عملية إعادة نظر في أدق مرحلة تعيشها المنطقة، يبدو حريصاً على أن يصحح البعث إخفاقات حدثت، وأن يضع الحجر الأساس لسوريا المتجددة، على أن تأخذ المشاركة مداها بعد ذلك.. وبحيث لا يعود ربما تكليف شخصية غير بعثية بترؤس حكومة تكون مشاركة البعثيين فيها بنسبة القدرات والكفاءة وليس على أساس الشريك المالك 51 في المائة، امراً يثير الدهشة. ومن باب الإجتهد نقول إن الرئيس بشار كونه من خارج الطقوس التقليدية، وكونه مستوعباً تماماً التطورات والأعاصير التي تهب على المنطقة، يعمل ضمن معادلة تقوم على إنه إذا كان من غير الملائم جذب الحرس القديم عن إقتناع إلى رؤيته وكان من غير المجدي وغير المرغوب انتقاله هو من باب المسايرة إلى شيايب المجتمع البعثي، فعلى الأقل يُبقي على الأسلوب الذي يعتمد في منأى عن الخطوات التي تُسبب صدمات.

وتبقى الإشارة إلى أن التقييم الذي سمعته من الوزير أحمد الحسن يلتقي مع التقييم الذي سمعته مقروناً بشواهد ثقافية وفكرية من وزير شؤون رئاسة الجمهورية الدكتور غسان لحام، الذي يأتي إلى الموقع من تجربة ناجحة في مجال المعلوماتية، تلتها تجربة ناجحة هي الأخرى في مجال العمل الداخلي محافظاً للعاصمة دمشق، وتقييم آخر مقرون برؤية مستقبلية واعية سمعته من وزيرة شؤون المغتربين ذات الثقافة السياسية العميقة، الدكتور بثينة شعبان، التي نتوقع ان تجعل من هذه الوزارة موقعاً سيادياً وبحيث تكون وزيرة المغتربين العرب، أي وزيرة «اللوبي العربي» من القطب إلى القطب، والذي في حال تفعيله يمكنه مقارعة «اللوبي اليهودي» الذي يعاني الاستقرار العالمي من شرور ألعيبه وإبتزازاته، وتعيش العلاقات العربية - الأميركية حالة صعبة من التوتر وعدم الثقة.

وهذه الأمور وغيرها كثير، تترك إنطباعاً بأن سوريا على موعد مع نهوض سريع، وهذا من شأنه أن يجعلها الرقم الأصعب في المعادلة. ومن أجل ذلك

نيات واضحة لطمس العراق العربي وإستبداله بعراق بابلي - كردي وهو ما سبق ان حاوله المحاولون مع مصر في الفترة التي سبقت الصلح الساداتي مع إسرائيل عندما أيقظوا المشاعر الفرعونية والمتوسطية. لكن المحاولة تبدو ناجحة شكلاً فاشلة ضمناً. ومن يتأمل في أدبيات الخطاب المصري يلمس ذلك بوضوح.

وألست مفارقة تثير الدهشة ان يبدأ يوم الأحد 12 أكتوبر (تشرين الأول) الجاري إجتماعاته في دمشق مكتب مقاطعة إسرائيل الذي أسسته الجامعة العربية عام 1951 وتقضي مهمته بوضع لائحة سوداء مرتين في السنة بإسم الشركات الإسرائيلية أو شركات لدول أخرى تُجري مبادلات تجارية مع إسرائيل، بينما ثلاث دول غائبة عنه هي مصر والأردن وموريتانيا التي تقيم علاقات مع الدولة العبرية؟ وألست مفارقة تثير الدهشة أكثر وأكثر أن يشارك العراق المغلوب على أمره المحتل من أميركا المتصهينة وبريطانيا المتذبذبة في إجتماع المكتب ويؤكد المندوب المشارك صباح عبد الوهاب الامام القائم بالأعمال العراقي في دمشق معارضة العراق لمشاركة شركات إسرائيلية في إعادة إعمار البلاد، بينما الناطق بإسم إتحاد المصنّعين الإسرائيليين يدلي في تل أبيب بتصريحات مفادها أن المصنّين والمستوردين الإسرائيليين بدأوا إستخدام ميناء بور سعيد للتغلب على إضراب مستمر منذ أيام أدى إلى إغلاق الموانئ الإسرائيلية الثلاثة وكلف قطاع التصدير والإستيراد الذي يشهد ثالث سنة من الكساد أضراراً مباشرة بلغت ملياري شيقل ومنع حركة بضائع تقدّر قيمتها بنحو 5.5 مليارات شيقل. وفي السياق نفسه قال رئيس الإتحاد إن ثلاث حاويات وصلت إلى بور سعيد تحمل شحنات من الزجاج الإسرائيلي إلى المكسيك وأن الشركات الإسرائيلية ستتمكن قريباً من شحن بضائعها من ميناء العقبة الأردني كذلك.

ويبقى حول هذه المفارقة سؤال: هل أن مكتب المقاطعة باق على أساس أن مصر والأردن وموريتانيا عائدة ولو بعد حين إلى السرب، أم أن إستمراره هو من ضمن التراث المهلهل للجامعة العربية أو من ضمن المنسيات وأن مقومات العضوية في الجامعة العربية لا تتطلب التقيد بمثل هذا المكتب. وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يقرر مجلس الجامعة إحلال مكتب آخر محل هذا المكتب.. وبذلك لا تعود هذه المهزلة قائمة.

وألست مفارقة تثير الدهشة والأسى أن الحصار الشاروني المفروض على الرئيس ياسر عرفات وصل إلى حد أن «أبو عمار» يتحمل المزيد من الألم الناشئ عن إحتلالات عدة من بينها أنه مصاب بالسرطان وبمتاعب قلبية حادة وهو ما يتطلب العلاج في مستشفى تتوفر فيه تقنيات علاجية متطورة، ويرفض الانتقال إلى مستشفى خارج مقره المحاصر لأن الشارونيين لن يسمحوا له بالعودة. ثم ألست مفارقة تثير الدهشة أن تشكل حكومة طوارئ فلسطينية من ثمانية وزراء لكي تدير شؤون الفلسطينيين لمدة ثلاثة أسابيع يصار بعدها إلى حكومة جديدة ثابتة. وكل ذلك من أجل عدم التراجع عن بدعة الطوارئ؟ في كل الأحوال أن تشكيل حكومة من ثمانية أشخاص يبدو أقرب الى المنطق، كما أن الإبقاء على هذه الصيغة إلى حين قيام الدولة الفلسطينية يعطي الأمور مصداقية تفتقدها. شفى الله أبو عمار.

وألست مفارقة تثير الدهشة نتائج أحدث إستطلاع للرأي أجرته صحيفة «معاريف» وأظهر أن 54 في المائة من الذين شملهم الإستطلاع ينظرون سلباً إلى نشاط شارون كرئيس للوزراء بينما إعتبر 36 في المئة منهم حصيلة عمله ايجابية ولم يعبر 10 في المائة منهم عن رأي، ومع ذلك فإن الرجل يواصل إنتهاج السياسة نفسها التي هي سبب إنهيار شعبيته؟ وهل أن 71 في المائة من الذين شملهم الإستطلاع ويرون أن حكومة شارون «لا تعرف كيف تكافح الإرهاب الفلسطيني ويخشون الوقوع هم أو أقرباؤهم ضحايا إعتداء إرهابي» لا تكفي لإقناع شارون بأن الحل الذي لا حل غيره هو في السلوك السوي ووضع نهاية لمسلسل الدم الذي يستسقي الدم؟

ثم ألست مفارقة تثير الدهشة أن جبروت وزير الدفاع الأميركي رامسفيلد إهتر بإضطرار الرئيس بوش إلى إسناد مهمة إدارة الملف العراقي إلى مستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس، في حين أن الحكومة الخفية للصهيونية لا تحيل اربيل شارون إلى الإستبداد بمثل ما أحالت من قبل بيريز ونتنياهو وباراك، وبذلك يتوقف مسلسل العنف والعنف المضاد ويطمئن اليهودي إلى أن في إمكانه العيش آمناً ما دام صاحب الحق الفلسطيني إرتضى الحد الأدنى.

وألست نصيحة فلاديمير بوتين الذي هو من ينطبق عليه القول الشعبي «إسأل المجرب ولا تسأل الحكيم» في محلها لكي تكتفي إدارة الرئيس بوش بما

فعلته في العراق وبه؟ ولكي لا يحدث سوء فهم أو بعض التصرف في الكلام فإن الرئيس الروسي تعمّد إبلاغ الرئيس بوش ومن خلال مقابلة مع صحيفة «نيويورك تايمس» الآتي: «إذا طال أمد النزاع في العراق فسيصبح البلد مركز جذب جديد لكل العناصر المخربة وسيواصل الشعور المناهض للولايات المتحدة وسيصيب أميركا ما سبق أن أصاب الإتحاد السوفياتي في أفغانستان...». وحيث أن شهية بوتين المقرونة ببعد نظر من يتطلع الى ربع قرن من الحكم مفتوحة على العالم الإسلامي ويريد الإنتساب إلى «منظمة المؤتمر الإسلامي» فمن الجائز الافتراض أنه بكلامه هذا يريد القول وعلى طريقة «أبو عمار» الشهيرة: اللهم فاشهد. اللهم إني قد بلغت.

وأخيراً وليس آخراً في عالم المفارقات التي تثير الدهشة، أليس الرئيس عمر البشير بإخراج أستاذه وملهمه الشيخ حسن الترابي من الإقامة القسرية في فيلا خمس نجوم إلى أجواء الحرية الشاملة التي يُتوقع أن تسود الديار السودانية من أقاصي الجنوب إلى أقاصي الشمال ومن الغرب الى الشرق يؤكد أن الجنرال يتقن أحياناً اللعبة السياسية أفضل من لاعبي السياسة المتمرسين في المناورة أنفسهم؟ وأليس إخلاء سجون السودان من أي معتقل سياسي شهادة للرجل بأنه الوحيد في العالم العربي والعالم الإسلامي الذي لا سجناء رأي في بلده وهو بذلك لا يتجاوب مع بعض طلبات أميركا وإنما يزايد على البوشيين... وبما يتسبب بالدهشة لديهم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الجمعة 17 أكتوبر (ت) 2003

* * *

«بريس.. بريس»... يا شيخ حسن

في خطوة كان أهل السودان في إنتظارها وكانت أقل إثارة للدهشة من الخطوة التي لم يخطر في بالهم حدوثها قبل سنتين، أفرجت «الإنقاذ» البشيرية يوم الإثنين 13 أكتوبر (تشرين الأول) الجاري، عن «الإنقاذ» الترابية، وغادر الشيخ حسن الترابي قفص الإعتقال المذهب، ليخوض في ظل السودان متجدد جولة نوعية من النشاط السياسي يتطلع إلى أن تقوده إلى قمة السلطة في حال أخذت اللعبة الديمقراطية

طريقها إلى أن تسود.

أما لماذا كان أهل السودان في إنتظار الخطوة ولماذا هي أقل إثارة للدهشة من تلك التي حدثت قبل سنتين، فهذا يستوجب بعض التوضيح قبل الحديث عما يمكن أن يفعله الترابي السبعيني الذي لم يلاحظ الذين شاهدوه، بعد إطلاقه ثم في اليومين التاليين عبر الفضائيات، أن الإعتقال أخذ من طلاقة لسانه ونضارة وجهه كما أنه صحياناً بدا كما لو انه خارج من مركز طبي لتجديد الحيوية بالعلاج الطبيعي.. وهذا سببه أن «الإنقاذ» البشيري أخذ في الإعتبار مكانة الشيخ حسن الشريك بنسبة خمسين في المئة في تجربة الحكم الإنقاذي فأضفى على الإجراء الإضطرابي الذي قضى بحجز حرية الرجل الكثير من التميز، ولذا بدت حاله بعيدة الشبه عما جرى للمعتقلين من أصحاب المقامات السياسية المرموقة في معظم الدول العربية، وبالذات في مصر والعراق وتونس وسوريا ولبنان وليبيا والمغرب، وقريبة الشبه بحال أحمد بن بيللا أيام لم يتحمل جنرال الثورة، أي هوارى بومدين، الهالة الـ «بن بيللية» التي تسبّب في سطوعها الرئيس جمال عبد الناصر، فلجأ إلى الإجراء المماثل لذلك الإجراء الذي إتخذه بعد خمس وثلاثين سنة الفريق عمر البشير: بومدين (الجنرال) وضع بن بيللا المدني في الإقامة الجبرية داخل «فيلا». والبشير (الفريق) وضع المدني الشيخ حسن في الإقامة الجبرية داخل «فيلا». والفرق بين الحالتين هو الفرق بين الطباع السودانية التي تميل إلى الطيبة في التعامل حتى بين أطراف الخصومة السياسية، وبين الطباع الجزائرية التي تغلب الخشونة عليها.

شكلاً، كان وضع الشيخ حسن قيد الإعتقال في فبراير (شباط) 2001 بعدما كان تقرر يوم 12 ديسمبر (كانون الأول) 1999 حل البرلمان الذي هو قلعة "ترابية"، بسبب ابرامه صفقة مع الدكتور جون قرنق والتحضير لتحالف مع السيد الصادق المهدي.. وهذا يعني، من باب التفسير والإفتراض، أنه في صدد الإنقلاب على «الإنقلاب» وتحويل نفسه إلى السيد الرابع في البلاد إلى جانب سيد الأنصار الصادق المهدي وسيد الختمية محمد عثمان الميرغني و«سيد» الجنوب جون قرنق. أما من ناحية الجوهر فإن الإعتقال كان لتصحيح أوضاع السودان مع أطراف عربية ودولية كثيرة من الصعب تصحيحها إذا كان الترابي يمارس اللعبة السياسية على طريقته. وفي حال

لم يحدث هذا التصحيح فإن حكم «الإنقاذ» الذي بدأ يوم 15 يونيو (حزيران) 1989 قد يتهاوى وتتحلل التجربة التي تكاثرت التحديات لها.. وبالذات بعد العملية التروييعية في سبتمبر (أيلول) 2001 في كل من نيويورك وواشنطن والتي أوجبت وضع علاقة أسامة بن لادن مع بعض الأطراف السودانية تحت المجهر الأمريكي.

في مرحلة تغيب الترابي عن الساحة السياسية كشريك في الحكم أعاد «الإنقاذ» البشري النظر في الأسلوب وفي المضمون وأضاء النور الأخضر أمام التطلعات الأميركية. وبصرف النظر عما إذا كان ذلك حدث نتيجة إجتهد أقطاب السلالة الفتية في «الإنقاذيين»، وأبرزهم علي عثمان محمد طه النائب الأول لرئيس الجمهورية والدكتور مصطفى عثمان إسماعيل وزير الخارجية، أو نتيجة نصائح سمعها الفريق عمر البشير من الرئيس حسني مبارك، فإن إضاءة النور الأخضر حدثت وبدأ التوغل الأمريكي في أعماق القرار السوداني. ولا بد من التوضيح هنا بأن سماع الفريق البشير للنصائح المصرية والتي هي لـ «وجه الله»، جاء بعدما إستعاد الرئيسان المصري والسوداني الود الذي كان الحضور الطاغي للترابي حاجباً أو مانعاً له. وخلاصة هذه النصائح أنك لكي تسلم مع الأميركيان عليك أن تتأمل في الأسلوب المعتمد من جانبنا في مصر معهم، ومن دون أن يعني ذلك أنه الأسلوب الذي يرضي الشعب والضمير، ولكن مع الأميركيان ليس في اليد حيلة. وفي ظل التوغل الذي نشير إليه بدأ الحديث عن السلام يتزايد ومن دون أن تخرج القطار عن سكتته إستفزازات وعمليات حربية ومعاندات تأتي من قرنق فيرد عليها البشير، ثم تتزايد الحدة ويتبين بعد ذلك انه لكي يبدأ التفاوض لا بد من مقبّلات تفتح الشهية وأن الذي جرى هو بعض ما يتيسر من هذه المقبّلات.. أو فلنقل بعض ما توصي به المفاتيح الأميركية لباب التسوية.

جاء إنجاز الإتفاق سريعاً. وكان الحرص على الإنجاز مشتركاً. وساعد على ذلك أن الطرفين أوصدا الأبواب أمام أي أطراف عربية أو دولية عدا الباب الأمريكي وإلى حد ما الباب البريطاني وبذلك أمكنهما تحقيق خطوات على صعيد تبادل كسب الثقة. وبعدها إطمأننا إلى أن المواجهة باتت من الماضي وأن الوفاق هو سمة الحاضر الذي يؤدي إلى نعيم السلام ولم يبق من الأمور العالقة سوى القليل التي يمكن إستنباط

صيغة حل توفيق لها على نحو الحلول التي يستتبطها المستتبطنون لتوزيع الإرث، بات لا بد من إستتفار القوى الفاعلة للإلتفاف حول الإتفاق الذي سيتم الإعلان عنه نهائياً. وهو أمر لا بد منه للطرفين المتفاوضين كي لا يخرج بعد ذلك إلى الساحة السياسية من يرفع الصوت على الإتفاق ملتقاً عليه منتقداً أو لائماً أو معارضاً أو مشاكساً. وبطبيعة الحال فإن أهم الخطوات على طريق الإستتفار هي موافقة السيدين الغائبين دائماً الصادق المهدي ومحمد عثمان الميرغني وعودتهما إلى البلاد، ومشاركتها من خلال وفد لكل سيد يمثل كمرقب في المرحلة الأخيرة من التفاوض، وهي أيضاً تشجيع عشرات المعارضين من الوزن المتوسط المتواجدين خارج البلاد لكي يعودوا ويساهموا كل على قدر إستطاعته في تثبيت الإتفاق الذي سيصون مرحلة السلام الأهلي. وبالأهمية نفسها لا بد من ختم أبواب الإعتقال بالشمع الأحمر وإستعادة الترابي إلى الصف «الإنقاذي» واحداً من النخبة وليس سيداً أوجد عليها، أو مجرد سياسي مخضرم يمارس حقه في العمل العام شأنه شأن الآخرين... خصوصاً أن الكلمة بعد الآن هي للدستور وللسودان الجديد..

بعد خروجه من الاعتقال بدأ الشيخ حسن يرمم صفوف جماعاته مفترضاً انه سيجذب إلى ناحيته الشرائح الكثيرة المترددة من الإسلاميين، وبدأ مقر حزبه يشهد حركة ملحوظة. كما انه في صدد معاودة اصدار صحيفة الحزب وسيبدأ جولة في طول «القارة السودانية» وعرضها مستقيداً من مناخ الحريات الذي ستقرضه المرحلة الجديدة. وسينطلق أيضاً في إتجاه الاطراف العربية والإسلامية التي سعت للإفراج عنه.

لكن الذي يلفت الإنتباه هو أن الشيخ حسن يستعمل منذ اطلاقه بعض المفردات التي توحى بأنه على موعد مع الثأر من الذين لم يترفقوا بشيخهم فتجاسروا عليه وحاولوا التمثيل برصيده ملوحاً بورقة «الألوف من تلامذتي» على نحو ما سمعناه يقوله. ومع أن الذي نعرفه عن الدكتور الترابي أنه «براغماتي» من طراز رفيع، إلا أن سنتي الإعتقال جعلتاه يرى الأمور على غير رؤيته التقليدية لها. وهذا سببه أن الشيخ حسن يشعر بأنه من «بيت الإنقاذ» ضُرب، وذلك يجعل الألم يمثل ألم من بيت ابيه يُضرب. وما يخشاه المرء هو أن يرى الشيخ حسن في الجو الجديد الذي يعيشه السودان والذي يفرض على من في أيديهم السلطة ألا يمسوا معارضاً بسوء وألاً

يحجزوا حرية أحد أو يعطّلوا صحيفته أو يغلقوا مقر حزبه، فرصة من أجل الرد على ما أصابه بالمزيد من الكلام الجارح الذي يُخرج من في قمة السلطة فيُخرجه عن هدوئه. ولذا نقول للشيخ حسن: تدكّر يا شيخنا أن رأس الدولة جنرال وشريكه في السلام جنرال وحماة السلام جنرالات. وأن من هو جنرال يكون سريع الغضب. ونضيف إلى ذلك، القول المألوف لدى إخواننا السودانيين عند المطالبة بالتروي: «بريس.. بريس.. يا شيخ حسن». إذ يكفي السودان والسودانيين ويلات التحديات وشُرور المتلاعبين... وفي ظنهم انهم مجرد لاعبين.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 21 أكتوبر (ت) 2003

* * *

عناق... وعقوبات

من شدة الحرص الأميركي على السودان لدواعٍ إنتخابية في الدرجة الأولى، تليها الدواعي النفطية القائمة على إستراتيجية أن تمتد اليد الأميركية الى كل بقعة نفطية في العالم الثالث، جاء وزير الخارجية الجنرال كولن باول يوم الأربعاء 22 أكتوبر (تشرين الأول) إلى المنتجع السياحي «نيفاشا» في كينيا، حيث يحاول الشقيقان السودانيان، الشمالي الأسمر علي عثمان طه النائب الأول لرئيس الجمهورية الفريق اول عمر البشير، والجنوبي الأشد سمرة، الجنرال جون قرنق زعيم «الحركة الشعبية لتحرير السودان»، وضع نهاية لربع قرن من الإحتراب الشمالي - الجنوبي تخللته بعض مراحل الهدنة من دون رفع اليد عن الزناد. وزيادة في الحرص فإنه تبادل العناق مع علي عثمان طه ومع جون قرنق وأبلغهما أنه يريد إتفاقاً نهائياً وشاملاً في موعد أقصاه نهاية ديسمبر (كانون الأول) من العام الجاري. ثم غادر مطمئناً أو موعوداً لإبلاغ الرئيس بوش الذي يتنقل بين اليابان وتايلاند مروراً بأندونيسيا وكوريا وسط تظاهرات عدم الترحيب بزياراته وبسياسته عموماً، بأنه يستطيع أن يطمئن إلى أن الورقة السودانية باتت في الجيب وأن في إستطاعة الرئيس أن يعوّض في مشروع تجديد الولاية الرئاسية بهذه الورقة الإخفاق في الورقة العراقية الصعبة والورقة الفلسطينية - الإسرائيلية الأكثر صعوبة، والورقة

السورية التي يحتاج التعامل في شأنها إلى الكثير من التروي، وبمثل التروي المطلوب في شأن الورقة الإيرانية. والورقتان الأخيرتان هما من النوع الذي قد يأتي تضجيعهما نتيجة نزوات بعض شيوخ الكونغرس وإجتهدا وتتنظير بعض الكواسر في وزارة الدفاع بمثل تضجيع العراق الذي إفترضوه لقمة سهلة البلع فإذا بها عالقة في الحلق.

لم تكن هذه المبادرة من جانب جنرال الدبلوماسية الأميركية متوقعة. فما هو معروف أن الإدارة البوشية مهتمة بالموضوع السوداني. وقد تزايد إهتمامها بعدما تفجرت الارض السودانية في مناطق شمالية - جنوبية ذهباً أسود يمكن لتكثيف التنقيب تأمين كميات هائلة تجعل الإحتياطي من النفط الأميركي في «جرز حريز». وبسبب هذا الإهتمام أوكل إلى الدائرة الأفريقية في الخارجية أمر تقديم الإهتمام بالموضوع السوداني على غيره من مواضيع القارة السوداء، فبدأ التعاطي يأخذ شكل الجدية الإستثنائية وصار هنالك مبعوث خاص يعقد لقاءات مع الجانبين محاولاً تقريب وجهات النظر مع ترجيحات ملحوظة لوجهة نظر قرنق كانت تتسبب في التعثر والتأجيل، وكان الغرض منها الضغط على «الحكم الإنفاذي». وبقي الأمر على هذه الحال الى أن بدأ «اللوبي» الذي يميل إلى التأمرك داخل «الحكم الإنفاذي» يجد ترحيباً به وإهتماماً بأفكاره التي يطرحها. وعزز هذا الترحيب وذاك الإهتمام أن الأمور بدأت تتفاقم في العراق وتأخذ ملامح المأزق. وهنا طرأت فكرة خلاصتها أنه لماذا لا يشكل إتفاق سلام في السودان نصف تعويض للمأزق الأميركي في العراق، أو بلغة بسطاء الناس لماذا لا يعوّض «البلح» العراقي بالقول السوداني.. مع الأخذ في الإعتبار أن المقصود بـ «البلح» هو خيارات النفط وليس التمر على أنواعها وتعدد مذاقاتها، ومع الأخذ في الإعتبار أيضاً أن أشجار النخيل الشامخة باتت في بعض المناطق برسم التدمير بحجة أن المقاومين العراقيين يختبئون في حماها وأنها أيضاً تحول دون إقتحام الآليات الأميركية للمناطق النخيلية التي تأتي منها القذائف.

بعدما إشتد المأزق العراقي إرتأى جنرال الدبلوماسية الأميركية وكان قد بدأ ينهض وسط ركام كواسر «البنتاغون» الذين بدأوا يتعرضون للنقد والمساءلة ومن أجل ذلك أوكل الرئيس بوش إلى مستشارته لشؤون الأمن القومي كوندوليزا رايس أمر التنسيق في

هل هذه سياسة عاقلة؟ وكيف ولماذا سيأخذ أصحاب القضايا العالقة ومنها القضية السودانية على محمل الجد ما يصدر عن أهل القرار في أميركا قولاً وفعلًا؟

وما يصدر يتمثل في الممارسات والتصريحات التي ينطبق عليها القول الشعبي: «إسمع كلامك يعجبني، أشوف أمورك أستعجب».

صحيفة "الشرق الأوسط" - الإثنين 10 نوفمبر (ت) 2003

مأدبة إفطار التراحم السياسي .. من المحيط إلى الخليج

مع الحرص الشديد من جانبي كصحافي وكاتب، على التقيد بأصول المهنة وعدم تجاوز الحدود في حضرة الحكام والمسؤولين عند مقابلتهم لإجراء حديث معهم، أو للتحية في مناسبات من منطلق الصداقة المألوفة في عالم السياسة والصحافة بين أهل القرار وأهل الصحافة، إلا أن الصحافي والكاتب يجد نفسه، أحياناً، يعيش أجواء فكرة أو خاطرة يريد تضمينها في مقالة، ثم لا يفعل ذلك كي لا يستيق الأمور ويغتتم الفرصة المناسبة لكي يقولها أمام أُولي الأمر المعنيين، وبحيث إذا إرتاحوا لها يأخذون بها.

وكثيراً ما تمر الخواطر في البال ولا تتأمن فرصة اللقاء لكي توضع أمام هذا الحاكم أو ذاك، فيجد الصحافي أو الكاتب نفسه يضع على الورق ما ورد في خاطر، ثم يدفع إلى النشر بما كتبه على نحو ما سيلاحظه القارئ في هذه المقالة، مهتماً إلى ذلك بالإشارة إلى واقعيتين. الأولى حدثت قبل رحيل أمير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة في قصر الحكم في المنامة، وفي فترة كانت الأزمة على أشدها بين البحرين وقطر، واحتجاز الأولى مواطناً قطرياً أنزل به القضاء البحريني عقوبة بالغة الشدة. وبسبب رحابة صدر الأمير وأجواء رمضان التي كانت على أهبة الإطلالة علينا، وجدت نفسي أتحدث باسم مجموعة من الزملاء مستعجلاً طرح فكرة على سموه، كنت بدأت في الفندق كتابة مقالتي لـ «الشرق الأوسط» حولها، متضمنة ما معناه أن إنفراج الأزمة الحادة بين الشقيقتين القطري والبحريني، يمكن أن يحدث في حال

الملف العراقي... بعدما إشتد المأزق، إرتأى كولن باول أن يضع ثقله في الموضوع السوداني وبذلك يجني ثمار ورقة قد تفيد الرئيس بوش الإبن في تجديد الولاية الرئاسية. ومن هنا جاءت زيارته إلى «نيفاشا» ومحادثاته مع علي عثمان طه والدكتور جون قرنق. وهو لكي يشيع الطمأنينة في النفوس بدأ المهمة بعناق كل من الرجلين. وعند التأمل في الصورة التي إلتقطت بعد المعانقة، وكيف أن الإبتسامات تغمر وجوه الجميع وبالذات وجه نجم عملية السلام علي عثمان طه، يفترض المرء أن ما قاله كولن باول للقطينين المتفاوضين كان من النوع الذي يترك إنطباعاً بأن السودان السلام على موعد مع لقاء تاريخي في حديقة البيت الأبيض يتزامن حدوثه مع بدء حملة تجديد الرئاسة، بل ان باول حرص على أن يقول في المؤتمر الصحافي الذي عقده بعد زيارته هذه، وحوله علي عثمان طه وقرنق: «إنني بناء على ما سمعته اليوم اعتقد أن الطرفين إقتربا من إتفاق نهائي. إن الجانبين وافقا على مواصلة المحادثات حتى يتم ابرام إتفاق قبل نهاية ديسمبر على أبعد تقدير، وإنني أرى النهاية على مرمى بصر، وسيستضيف البيت الأبيض حفل توقيع السلام السوداني قبل نهاية العام»....

الخطوة الأميركية جيدة ويا ليتها تتكرر بين الفلسطينيين والإسرائيليين. ولكننا في ضوء ما آلت إليه «خريطة الطريق» في الشأن الفلسطيني، نخشى إلى جانب السودانين الشماليين والجنوبيين وبقية الذين في ديار الشرق والغرب من «القارة» السودانية، أن يكون الإهتمام الأميركي، الذي بلغ ذروته بالعناق، هو مجرد مظاهرة إنتخابية يزول الإهتمام بالسودان بزوال موجبات معركة تجديد الولاية الرئاسية. وتزداد مشروعية الخشية عندما نلاحظ أن مقتضيات الصراع على السلطة ومراكز القوة في الإدارة الأميركية جعلت الرئيس بوش يتناسى ما أتاه به كولن باول ويجيز للبيت الأبيض يوم الخميس 30 أكتوبر إصدار بيان على هامش زيارة يقوم بها إلى دالاس، جاء فيه: «إن الرئيس قرر تمديد الإجراء القومي الطارئ الذي صدر في الثالث من نوفمبر 1997 والتدابير التي إعتمدت في هذا التاريخ لمدة عام وذلك بسبب الأعمال والسياسة التي تتبعها حكومة السودان التي ما زالت تشكل تهديداً غير عادي وإستثنائياً على الأمن القومي والسياسة الخارجية للولايات المتحدة...». والإجراء المشار إليه عبارة عن عقوبات.

صدرت عن الأمير مبادرة تقضي، ومن باب أن رمضان هو شهر كريم وشهر للتراحم، بإطلاق المواطن القطري وإرساله إلى الدوحة لكي يقضي شهر الصوم مع أسرته.

وعلى رغم استهجان بعض المسؤولين الذين كانوا حاضرين، إلا أن المغفور له إستحبها على ما يبدو، بدليل أن الإفراج حدث بعد أيام. وهذا خفف من شعوري بالحرج لأنني طرحت الفكرة على النحو الذي طرحته، مع أن الأصول تستوجب إبداءها في شكل رسالة أو في لقاء ثنائي، أو إذا تعذر الأمر لسبب أو آخر، في شكل مقالة على نحو ما كنت، كما أوضحت.

أما الواقعة الثانية فإنها تعود إلى الثمانينيات، أيام إشتداد الصراع بين قطبين صديقين هما الرئيس السوداني الأسبق جعفر نميري والسيد الصادق المهدي، الزعيم الأبرز بين زعامات طائفة الأنصار ورئيس حزب الأمة، الذي هو القاعدة السياسية للطائفة. وكان الصراع وصل إلى حد أن باتت لغة القوة سائدة، وبات الدم مراقاً على الجوانب السودانية.

وخشية من أن أنشر، في مجلة «المستقبل» التي أصدرها في باريس الزميل المرحوم نبيل خوري، والتي كنت واحداً من كتابها، أو في مجلة «التضامن» لاحقاً، التي أسستها وترأست تحريرها على مدى سنوات صدورهما التسع في لندن، مقالة تتضمن الفكرة التي أرى مدى جدواها على الاستقرار السياسي والاجتماعي والنفسي، فإنني قلت للرئيس، خلال لقاء معه في حديقة منزله، وبحضور مستشاره الإعلامي، المأسوف عليه المرحوم محمد محبوب سليمان، وكانت أجواء رمضان تظلل النفوس، ما معناه إنني كنت في صدد نشر مقالة، وآثرت تأجيل ذلك إلى ما بعد التباس في الحديث حولها مع سيادتك، خشية أن يتسبب النشر في إخراج الفكرة عن منحها الطيب النية، وإعتبارها نوعاً من الإحراج أو تدخلاً من الصحافي في أمور لا تعنيه، وإنما تعني فقط الحكام وخصومهم... علماً بأن دور الصحافي ليس بعيداً خارج حلبة صراع هؤلاء.

وقال الرئيس: هات أعطنا علماً وتقصيلاً بما تشير إليه. وقلت: لقد اتسعت رقعة الفرقة في السودان، وسال دم سوداني كثير من أجساد شيوعيين وإسلاميين وأنصارين، كما أن كرامات أعزاء قوم كثر ترمغت بين جدران «كوبر» وغيره من سجون السودان. ولقد

أن الأوان لمبادرة تصالحية.

وقال الرئيس نميري إن الحكم منذ ما قبل الإسلام ثم بعد قيام دول المسلمين عبارة عن حالة صراع دائم فيها الغالب والمغلوب والحاكم والمحكوم، وفيها أيضاً المبايعون والمعارضون والسجانون والمسجونون بمثل ما هنالك المصلون وأيضاً الذين عن صلاتهم ساهون. وعلى هذا الأساس فليس في السودان أي خروج عن القاعدة المألوفة.

وإغتمت لحظة سكوت، أعقبت كلام الرئيس، لأقول له إن الفكرة التي آثرت عرضها أمامك قبل تضمينها مقالة منشورة تتلخص في أن تقييم مآدبة إفطار رمضان لـ كل الذين آذتهم أو أدمتهم الإجراءات الحكومية خلال مراحل الصراع. ومثل هكذا مآدبة تشبع أجواء انفراج بين الناس وتُقلص مساحة الإحتقان الذي في النفوس. ثم إنها تبدو منسجمة مع النظرة إلى أن «رمضان كريم»، تلك العبارة التي يرددها الجميع بمثل تردد التحية.

كنت أتمنى لو أن الرئيس نميري أخذ بالفكرة، ووقف على باب القصر أو على باب داره يستقبل الخصوم الضيوف الذين دعاهم إلى مآدبة إفطار رمضان تكون تقليداً مستحباتاً ومدخلاً إلى بعث روح الإلفة، خصوصاً أن أي حالة خصومة لم تأت بالخير للمخاصمين ولا للطرف الثاني من الخصومة، وخصوصاً أيضاً أنه ليس هنالك رؤساء باقون إلى الأبد في مواقع السلطان. ومن أجل ذلك، فلماذا لا يترك الأثر الطيب في النفوس، ولماذا عندما يكون الوطن في شدة ما بعدها شدة، لا ينتظر بفارغ الصبر حلول شهر رمضان لكي يجعل من أحد أيامه مناسبة لمآدبة إفطار تصحح أخطاء وممارسات سابقة وتزيل مرارات متراكمة في النفوس وتمهّد الطريق أمام إتفاف وطني يخفف من وطأة مباغطات الشدة... وما أكثرها.

مناسبة إستعادة هذه الواقعة أننا في شهر رمضان أولاً، وأن مثل هذه المآدبة الإستثنائية... أي مآدبة التراحم ضرورية لأولي الأمر من المحيط إلى الخليج. وعند التأمل في المشهد الرئاسي العربي في شكل خاص، نجد كم أن وضع معظم الرؤساء العرب في حاجة إلى ما يمسخ جروح الماضي ومراراته. وليس هنالك ما هو أكثر وقعاً في النفس من مآدب الإفطار الإستثنائية الطابع والمضمون من النوع الذي نشير إليه. ومن المؤكد، ما دامت الهجمة الأميركية شرسة ومقلقة على سوريا، أن يثلج صدر المواطن السوري

سماع نبأ مفاده أن الرئيس بشَّار الأسد الذي يفاجئ الناس بين الحين والآخر بدخوله مع زوجته إلى مطعم، وتناول العشاء مثل بقية المواطنين، أقام مأدبة افطار دعا إليها رموز العمل السياسي الوطني بمن في ذلك كل من لم يتحملهم حكم والده وكل من أصابته أذية خلال بضعة عقود سورية متلاحقة، فالوحدة الوطنية يمكن أن تحدث من خلال لفظة طيبة ومبادرة غير مطروقة، كما أنها يمكن ألا تحدث ولو جرت من أجلها عشرات الاجتماعات. وما نقوله عن سوريا يقال عن لبنان وعن مصر وعن اليمن وعن السودان وعن تونس وعن موريتانيا.

ويبقى أن هذا الكلام ما كان ليصار إلى صياغته في مقالة تُنشر، لو أن الطريق إلى أولى الأمر سالكة ولا تمر بحاجبي أشخاص، ممن إذا أبدوا وجهة نظر نقية فإنهم بذلك لا يُمنون النفس بأكثر من رؤية البنيان العربي أكثر تماسكاً كي لا يتهاوى في خضم الصراعات على الصغائر وإستمرار مسلسل الثأر والثأر المضاد والعنف والعنف المضاد.. على حيويتهما البغيضة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 18 نوفمبر (ت) 2003

* * *

عبد الناصر اليمني... وبوش العراقي

من الجائز التوقع بأن يصيب الرئيس بوش الإبن في العراق ما أصاب الرئيس جمال عبد الناصر في اليمن. وها هي الأخبار تتوالى وتفيد بأن وزارة الدفاع الأميركية في صدد إستدعاء الآلاف من أفراد الحرس الوطني، سواء النظاميون منهم أو الذين يعملون مؤقتاً بالإضافة إلى جنود الإحتياط للإستعداد للخدمة في أوائل العام المقبل، أي بعد شهرين، في إطار خطة تبديل جديدة لترتيب مهمات الجيش الأميركي في العراق.

ما دفع بالرئيس عبد الناصر لكي يلبي بحماسة ملحوظة طلب النجدة، الذي جاءه من الضباط الذين قلبوا نظام الإمامة الراسخ الجذور في اليمن، من دون أن يكون إنقلابهم مستقراً بما فيه الكفاية، هو أنه كان يعيش محنة نفسية ناشئة عن إنفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة، وترك مصر تعاني نزف

ضرب المحاولة الوحودية التي رفعت عبد الناصر إلى القمة، وجعلت من سوريا مضرب المثل في التضحية كونها قدمت نفسها عروساً جميلة من دون مهر ومن دون أي شروط لعبد الناصر. لكن التدخل المصري في اليمن إنتهى نزفاً حاداً لمصر وإشغالاً لجيشها هناك... خصوصاً أن القوات الإمامية جمعت صفوفها وخاضت مواجهة كان الدافع إليها أن عبد الناصر يتطلع إلى أن يضع اليد على اليمن لكي يتسنى له التحكم بالقرار السعودي وينفط المملكة إذا قُيِّض له ذلك، وهذا ما رمى إليه الرئيس صدام حسين عندما غزت قواته الكويت يوم الخميس 2 أغسطس (آب) 1990 وأعقب الغزو إحتلال للكويت لم يفعله عبد الناصر مع اليمن، وحرب على العراق قادها الرئيس جورج بوش الأب وهو ما أصاب عبد الناصر من خلال تشجيع أميركا لإسرائيل لإستدراجه إلى حرب بدأت صبيحة الخامس من يونيو (حزيران) 1967، بينما القوات المصرية موجودة في اليمن مهمة بالصراعات السياسية التي تجرت هناك بين مصر والجمهوريين اليمنيين. وبسبب هذا التشتت للجيش المصري والمؤازرة، التي كان اليمنيون ناكري الجميل لها، ضاعت على مصر فرصة الإهتمام بنفسها.. وكان الذي كان من المأسى التي يحتاج الحديث حول طبيعتها وتداعياتها إلى مئات الصفحات.

هذا بالنسبة إلى عبد الناصر. أما بالنسبة إلى الرئيس بوش الإبن، فإن الذي دفع به لكي يشن الحرب على العراق، ومن دون أن يكون وقع في بلاد الرافدين إنقلاب وطلب الإنقلابيون منه المؤازرة، هو إمتصاص النتائج السيئة للتدخل في أفغانستان، التي تبين أن حربه عليها كانت مغامرة لا تداوي المحنة النفسية الناشئة عن العملية الترويعية السبتمبرية عام 2001 في كل من نيويورك وواشنطن، فضلاً عن أن أفغانستان معدمة ولا جدوى منها، وأن العراق بالمقارنة، هو الكنز الذي لا ينضب مهما تزايدت الغرف منه. وعلى هذا الأساس كان الإسراع في إستحداث نقلة نوعية في التدخل. وخلال أقل من ثلاثة أشهر كانت الخطة جاهزة والحرب على العراق مقررّة والشعارات مرفوعة. ثم إمتلأت بحار العرب وسماواتهم بالأساطيل وحاملات الطائرات. وكانت الحرب على العراق في إطار من التجني لا مثيل له، والتضليل النادر الحدوث، والعدوانية غير المبررة، والإفتراءات المتواصلة. وبعد الحرب الصاروخية وإستعمال أنواع

إسقاط حكم الإمامة بكل ما رافق سنواته من قسوة وتخلّف وإستبداد، سيصيه، بمعنى أنه كان يتطلع إلى التغيير، لكنه غير قادر على مواجهة التركيبة البعثية لا بالحسنى ولا بالإنقلاب ولا بالثورة، ثم جاء الأميركيون يحققون بالحرب ما هو مطلوب ومرغوب، لكن الذي حدث بعد هذه الحرب، وبعد الحصار، جعل أكثرية العراقيين، عند التأمل في أحوال أمنهم وظروفهم المعيشية، يترحمون بعض الشيء على زمن مضى ويردد كل منهم في داخله القول المأثور للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من كان في نعمة ولم يشكر خرج منها ولم يشعر.

ومن هنا فإن أوجه الاختلاف بين حالة اليمني مع المصري وحالة العراقي مع الأميركي لا تخفى على اللبيب الذي لا يحتاج إلى شواهد، لأنه من الإشارة يفهم أي مأزق أصاب عبد الناصر اليمني وأي مأزق يواصل إصابة جورج بوش الابن العراقي، وكلاهما من المآزق التي تنشأ عن الإستدراج... فضلاً عن رفض الحقيقة التي يعكسها المثل الشائع: القناعة كنز لا يفنى.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 27 نوفمبر (ت) 2003

الانتفاضة المستحبة

كأنما هي حالة من حالات الإستتساخ أو الإقتباس، ذلك التغيير الذي حدث في جورجيا قبل عشرة أيام، وإنتهى في الأسبوع الأخير من نوفمبر (تشرين الثاني) 2003 بمثل ما إنتهى إليه التغيير المستتسخ عنه، أو المقتبس عنه في السودان في الأسبوع الأخير من أكتوبر (تشرين الأول) 1964. وبين هذين التشرينين طوال 39 سنة لم يحدث تغيير السلطة بالشكل الذي حدث، بمعنى أن إسقاط الرئيس تم بفعل التظاهر ومن دون إراقة دماء، ولأن الجيش وقف على الحياد عدا حالات من الإلتحاق من جانب بعض الضباط بالمتظاهرين وفي صيغة دعم خفي يتمثل في عدم التصدي لهم. من باب التذكير في معرض المقارنة، نشير إلى أن التغيير الذي إستهدف إسقاط المجلس العسكري الذي يترأسه الفريق إبراهيم عبود، بدأ بتظاهرة لطلاب جامعة الخرطوم ما لبثت أن إستقبلها الرأي العام السوداني بالترحيب، فانضمت جماهير الأحزاب إلى

متطورة من أسلحة الدمار الشامل، بهدف التحقق من الإيذاء الذي تتسبب به هذه الأسلحة، بدأت مرحلة الإحتلال بسقوط مؤسسات النظام وتحطيم تماثيل رئيسه. وانتشر حوالي 200 ألف جندي أميركي وبريطاني في مدن العراق، مزودين بالآليات الحديثة تحميمهم من الجو الحوامات وطائرات الإنذار المبكر. لكن رغم ذلك، بدأت المقاومة، وسجل المقاومون أسلوباً جديداً من خلال مواجهات نوعية، وعدم الكشف عن هويتهم، وعدم إصدار البيانات الواحد تلو الآخر متضمنة على نحو الأسلوب الفلسطيني في تبني المسؤولية وإذاعة أسماء الإشتهايين الذين قاموا بالعمليات... الأمر الذي جعل إسرائيل ترد بهدم بيوت هؤلاء المقاومين وتشريد أهاليهم. وعندما حدث يوم الأحد 2 نوفمبر (تشرين الثاني) الجاري العملية النموذج المتمثلة بإسقاط الحوامة المتطورة من طراز «شينوك»، وقتل وجرح كل من فيها، شعرت الإدارة البوشية بالصدمة التي تحتاج إلى علاج فوري وجذري. إستنزاف عبد الناصر في اليمن إنتهى إلى أن الإنسحاب من هناك، بات أمراً ملخاً، خصوصاً بعدما بدأت الخطة الإسرائيلية التي قضت بإستدراج مصر الى حرب مع إسرائيل. وفي النهاية ربح اليمنيون على المدى القصير، تغييراً ونظاماً جمهورياً يسعى الرئيس علي عبدالله صالح لتثبيت إستقراره، لكن مصر خرجت على المدى البعيد خاسرة. ومن يتأمل في طبيعة العلاقات المصرية - اليمنية وأي جفوة هي عليها النفسية اليمنية من مصر، يتأكد له حجم الخسارة.

أما الإستنزاف الأميركي في العراق فسيواصل إلى حين تتسحب قوات الإحتلال من بلاد الرافدين. وغالب الإعتقاد أن ذلك لا بد سيحدث في حال إستمرت عمليات المقاومة على الوتيرة التي هي عليها خمسة أشهر أخرى، ذلك أن إستمرارها معناه أن يُمْنى الرئيس بوش الابن بهزيمة تجعل تجديد ولايته الرئاسية أمراً صعباً.. إلا إذا كان المنافسون صقور «الحزب الديمقراطي» سيعملون ضمناً على تجديد الولاية، كي لا ينتقل إليهم هذا الإرث الثقيل وغير النظيف، تاركين لمنافسيهم جماعة «الحزب الجمهوري» تحمّل المسؤولية عما إقترفته أيادي الكواسر المتصهينين في الإدارة البوشية. وهذا يعني أن لا تعود لهذا الحزب ولربيع قرن على الأقل فرصة أن يحكم أميركا.

وأما الشعب العراقي غير البعثي، فإن ما أصاب اليمن من تغيير كان من الصعب الحصول عليه، أي

وزير الخارجية ايفانوف للتحقق من البديل، وإن الإدارة الأميركية مع الرحيل أيضاً، إنما مع بعض التريث ما دامت توجهات البديل غير واضحة بما فيه الكفاية، قرر الرئيس المغضوب عليه، الذي لم يلاحظ في اتصال وزير الخارجية الأميركية كولن باول ومستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس هاتفياً به أي حماسة لنجدته، وضع توقيعه على صك التنحي بعد إحدى عشرة سنة من حكم قائم على الفساد، لخصه الرئيس الروسي بوتين في إجتماع للحكومة، بينما كان الوزير ايفانوف يتولى صياغة إخراج شيفاردنازه بأقل المخاطر التي قد تصيب روسيا في حال نشبت حرب أهلية تؤدي إلى تبعر الكيان الجورجي، بالقول «إن الفساد هيم بشكل متزايد على الإقتصاد والسياسة في جورجيا، ولم تعد الناس ازاء حالة الفقر ترى أي ضوء في الأفق.. بعدما وصلت السياسات الإقتصادية إلى حد تسؤل المساعدات الخارجية».

تبقى في معرض المقارنة بين الحالة الجورجية والحالة السودانية الإشارة إلى أن بين الإثنتين جوامع أخرى كثيرة عدا موضوع الفساد وتسؤل المساعدات الخارجية. فمثلاً هنالك في السودان شوكة الجنوب الذي كان دائماً مهدداً بالإنفصال، هنالك في جورجيا شوكة منطقة «إدجاربا» التواقفة إلى الانفصال عن الكيان الأم. ومثلاً هنالك في السودان منطقة «دارفور» التي تنتعش فيها مشاعر انفصالية هنالك في جورجيا «دارفورها» متمثلاً بإقليم «اوسيتيا» وإقليم «أبخازيا» اللذين تتزايد خيارات الانفصال فيهما وبالذات نتيجة أن سنوات شيفارد نادزه كانت سنوات إنصراف رئيس البلاد وجماعته إلى جمع المال على قاعدة الفساد والإفساد وإلّا فما معنى أن يشترى شيفارد نادزه في المنتجع الألماني الشهير «بادن بادن» دارة بثلاثة عشر مليون دولار بينما البلاد في أسوأ الأحوال المعيشية.

يطول الحديث في هذا الشأن وتتناثر أوجه اشبه والمقارنات. ولكن تبقى على هامش اليوم النوفمبري القوقازي الذي ما أشبهه من حيث الظروف والدواعي والتداعيات والضجر من طول بقاء الرؤساء في سدة الحكم، بالأمس الأكتوبري السوداني ثلاث ملاحظات.

الأولى هي أن الهاجس النفطي هو الذي جعل الإدارة الأميركية في عهد بوش الأب تضع شخصاً فاسداً ومفسداً على رأس الحكم في جورجيا هو شيفارد نادزه وزير خارجية الحقبة الغورباتشوفية، وأن الهاجس نفسه هو الذي جعل الإدارة الأميركية في عهد بوش

الطلاب ورفع المتظاهرون شعارات ضد جنرالات الحكم كان الأبرز فيها هتاف المتظاهرين: إلى الثكنات يا حشرات. وبعد هذه التظاهرة وعدم ترحيب صغار الضباط في تنفيذ أوامر الأعلى منهم بالتصدي للمتظاهرين، إستسلم جنرالات المجلس العسكري الثلاثة عسر للأمر الواقع وتسلم زعماء أحزاب المعارضة الحكم في تجربة هي الأولى من نوعها. وكانت إطلائتهم وقوفاً في الصورة التذكارية (من اليمين إلى اليسار: الصادق المهدي، الشيخ علي عبد الرحمن، محمد أحمد محجوب، إسماعيل الأزهرى، حسن الترابي، فاطمة إبراهيم، وعبد الخالق محجوب)، موضع إرتياح أهل السودان، وبالذات لأن الإسلاميين وقفوا إلى جانب الأنصاريين والختميين والإشتراكيين والشيعيين والمستقلين القوميين، الأمر الذي يوحي بعدم إستحالة الوحدة الوطنية، لكن هذا الإرتياح ما لبث أن تلاشى نتيجة صراعات طاحنة بين هؤلاء الزعماء، فحق عليهم معاودة إطلاق العبارة الأندلسية الشهيرة مع بعض التعديل «تكي كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال». وفي ظل هذه الصراعات، إخترق ثمانية من رواد الجيش ومذني واحد يتزأسهم اللواء جعفر نميري حالة التهالك بين زعماء المعارضة، وقامت «ثورة 25 مايو 1969» من دون إراقة دماء. وإنتهى الأمر بهؤلاء الزعماء في السجن. ثم توالى المفاجآت والمحاولات الانقلابية، وسالت نتيجة لذلك على الأرض دماء كثيرة وأزهقت أرواح مدنيين وعسكريين شنعاً أو بالرصاص. هذا بالنسبة إلى الحالة السودانية المقتبس عنها أو المستسخة بعد 39 سنة على أيدي الجورجيين في بلاد القوقاز. أما بالنسبة إلى هذه الأخيرة فإنها بدأت بتظاهرة شعبية إتسعت رقعتها بعد تزوير للانتخابات، ثم إشتد ساعد المتظاهرين عندما صدرت عن الإدارة الأميركية إنتقادات للعملية الانتخابية. وفي ذروة الغضب الشعبي الذي لم يتدخل الجيش لمحاصرته، فضلاً عن إتصالات سرية بين بعض رموز الأمن في مؤسسة الحكم وبعض قادة المعارضة، إقتحم المتظاهرون مبنى البرلمان. وكان المشهد مثيراً للدهشة خصوصاً عندما تم إخراج الرئيس المغضوب عليه إدوارد شيفارد نادزه مذعوراً، وبذلك سقطت الهيبة الرئاسية. ولم يعد هنالك أي مجال سوى الإستسلام للأمر الواقع أو إستعمال الرئيس بعض السلطات واللجوء إلى القوة التي قد يأخذ بها الجيش وقد يعترض. وفي لحظة وعي طارئ شعر خلالها شيفاردنادزه بأن الكرملين يفضل رحيله، سارع إلى إيفاد

هل ذابت «إنقاذ الانقلاب» في بحر الإنقاذ الأكبر؟

كان سيبدو الأمر في غاية الإستغراب لو أن «إنقاذي» السودان لم يقرنوا الصفة بالتنفيذ.. وإلا فلماذا جاءوا ولماذا داموا ولماذا أكثروا من التنظيرات. كما كان سيبدو الأمر أكثر إستغراباً لو أن «الإنقاذيين» هؤلاء لم يفعلوا الممكن بينما أشقاء وأصدقاء لهم إجتروا ما يجوز إعتبارها معجزة إختراق المستحيلات والمباشرة في نقلة نوعية تعوّض أجيال الألفية الثالثة شقاء أجيال الألفية الثانية، وبالذات القرن الأخير من هذه الألفية الذي فاضت فيه دماء الحروب والصراعات والغزوات والإعتداءات والإنتهاكات على نحو فيضان الأنهر في مواسم الخيرات المائية، وكان العالمان العربي والإسلامي أكثر الباذلين دمًا وشقاء وإستهانات في القرن المشار إليه. وزيادة في التوضيح نقول انه إذا كان الفلسطيني قررت أن يتحاور مع سالب حقه، وأن الفيتامي في شخص وزير دفاعه جاء إلى «البنتاغون» وتبادل التصافح مع الكاسر الأكبر دونالد رامسفيلد والبحث في سبل التعاون متجاوزاً أن «بنتاغون» الستينيات إقترب في فينتام عدواناً ما بعده عدوان، وأن الجزائري إستقبل بالأحضان الرئيس جاك شيراك متجاوزاً مرارة عقود من الإستعمار والإستبداد والقهر وإلغاء الشخصية، وأن اللبناني ترك للقلب أن يتصافى مع شقيقه اللبناني بعد ست عشرة سنة من ويلات حرب أهلية كانت أكثر قساوة من ويلات الإقتتال والإحتراب التي إكتوت بها شعوب دول عصفت بها حروب من النوع نفسه، وأن العملاق الصيني قرر أن يستدير ويُسَدَّب، بلغة التجميل، لحيته ويعيد النظر في مظهره وعاداته وتقاليده وخشونة ماركسيته وتصل به الإستدارة إلى حد التباهي بإنتخاب ملكة جمال العالم على أرضه وفوز إحدى جميلات الصين بلقب وصيفة... أنه إذا كان هذا وتبدلات كثيرة تحدث بينما أهل «الإنقاذ» عبارة عن «قطب متجمد» في قلب قارة أفريقيا ينتظرون أن يحسم لهم «الدبابون» الأمر في وجه «دبابنة» الجنوب فإن معنى هذا أن هؤلاء «الإنقاذيين» هم من نسيج فيديل كاسترو الذي لا يغير ولا يتغير وما زال وهو في السابعة والسبعين من العمر على عناده الذي فاق بكثير عناد صديقه صدام حسين ومن دون أن يتعظ من الأهوال التي تعصف بالعراق بسبب عناد ذلك الصديق. ومن جديد العناد الكاستروي

الابن تقرر إيجاد تسوية في السودان. والملاحظة الثانية التي تكمل الأولى هي أن الإدارة البوشية في عهد الأب أسست من خلال وضع موطئ قدمين بدل القدم الواحدة في جورجيا من خلال ترئيس شيفارد نادزه، لزمّن تكون فيه القبضة الأميركية على هذا البلد بمرتبة حماية متقنة للأحلام البوشية التكسائية في النفط القوقازي وبما يضمن السلامة لمشروع خط الأنابيب «باكو تبليسي - جيهان» الذي يتجنب المرور في الأراضي الروسية والذي تبلغ كلفته 3.6 مليار دولار والذي سيؤسس لمشروع آخر يقضي بنقل الغاز عبر جورجيا. وتخشى الإدارة الأميركية وارثة الحلم القوقازي بأن يتكسر الحلم على أعتاب الجار الروسي الذي خطف بإسقاط شيفارد نادزه بعض الدور من تلك الإدارة التي لولا الخشية من مواجهة لا قدرة لها على خوضها عسكرياً مع روسيا بوتين الذي لا تنقص مخيلته الأحلام القيصرية، لكانت فعلت بجورجيا إحتلالاً على نحو ما فعلته في العراق تدميراً ثم إحتلالاً من أجل وضع اليد بالكامل على نفط منطقة الخليج، وبحيث يكون وجودها في الخليج ثم في إيران على نحو ما يشير المخطط بديلاً أقل إستفزازاً لروسيا من الوجود في قلب القوقاز. وتبقى الملاحظة الثالثة التي تكمل سابقتها وتعلق بأسلوب التغيير الذي لم يلجأ إليه العراقيون على نحو ما فعل الجورجيون ومن قبلهم بتسع وثلاثين سنة السودانيون. وهم لم يفعلوا لأن الإدارة البوشية لم تشجع ذلك لأنها تريد إحتلالاً ولا تتطلع إلى تغيير. ومن يتأمل في الوقائع منذ الشهرين اللذين سبقا الخميس 2 أغسطس (آب) 1990 يوم غزوة الكويت وصولاً إلى الآن وحتى إشعار آخر يتأكد له ذلك.

وعلى الهامش والملاحظات الثلاث طرفة ينطبق عليها القول الشائع «شر البلية ما يضحك» وتتلخص في أن رئيسة المرحلة المؤقتة لجورجيا ستطالب الإدارة الأميركية بخمسة ملايين دولار لإجراء إنتخابات رئاسية جديدة.. وهو ما لم يفعله السودانيون عندما أنهموا الحكم العسكري الأول مع أن حالتهم المالية كانت أكثر سوءاً بكثير من حال الجورجيين الذين إقتبسوا منهم أسلوب التغيير على أهون سبيل.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 7 ديسمبر (ك) 2003

* * *

ما أفصح عنه يوم السبت الماضي في مناسبة طالبية احتفالية متملاً في قوله رداً على إجتماع شهود البيت الأبيض بغرض تشديد العقوبات والحصار على كوبا المحكومة من كاسترو منذ العام 1959 «هذا الإجتماع الضئيل لا يقلقنا. كان من الأفضل لهم أن يخصصوا وقتهم لشرب الويسكي وتدخين الماريجوانا. انهم يأملون في إنبهار الثورة بعد 15 دقيقة من وفاتي ولا يعلمون أن هذا البلد فيه ألوف الزعماء...». وعندما يقول كاسترو هذا الكلام فإنه ينطلق من حقيقة أنه رئيس منذ 44 سنة عايش خلالها تسعة رؤساء أميركان هم كنيدي وجونسون ونيكسون وفورد وكارتر وريغان وبوش الأب وكلينتون وبوش الابن. وإذا كانت المسائل تقاس بهذا المفهوم فإن كاسترو منتصر... إنما بنسبة الضرر الذي أصاب كوبا وشعبها. وهنا بيت القصيد السوداني وقلونا إن «الإنقاذيين» و«القرنقيين» إلنقوا بعد طول مواجهة وتشبث بالنظرة والعقيدة على الصراط الأميركي الذي يبقى على رغم أنه ليس مستقيماً المخرج الذي يداوي من دون أن يشفي ويقطع الطريق على المفاجآت ويقلل ما أمكن التقليل من الصدمات.

سواء كان «الإنقاذيون» أسرعوا الخطى خشية أن تصيبهم مخاطر التشبث بأحادية النظرة بمثل ما أصابت غيرهم فتتساقط تجربتهم على نحو تتساقط تجربة الخلطة الحزبية عام 1964 والتجربة المايوية النميرية، أو انهم أسرعوا الخطى تمكيناً لسلالتهم الثانية لكي تواصل من بعدهم، أو أن إنشراحاً في الصدور حدث فجأة بعد التأمل أو بعد الإستخارة أو بعد التحذير أو بعد الإغواء الأميركي... سواء حدث تسارع الخطى نتيجة حالة من تلك التي أوردناها وغيرها أو لخلاصة هذه الحالات الطارئة مجتمعة، فإن الخواتيم أثبتت أن هذه الخلطة السحرية العسكرية - المدنية الممسكة بزمام الأمور تملك خواص من يمارس اللعبة السياسية بمهارة بحيث يناور ويستدير وينظر إلى المرونة على أنها ورقة تعود بالجدوى على من يمسك بها. كما أن الخواتيم أثبتت براعة بعض الإنقاذيين في تقديم القرابين من أجل إنجاح الخلطة بدءاً من تقديم القربان الأكبر الدكتور حسن الترابي الذي صرفوه من الخدمة وهو دون سن التقاعد، وصولاً إلى القران الأصغر الدكتور غازي صلاح الدين العتباتي الذي إستقالوه وهو في ذروة التألق السياسي التفاوضي.

عملياً وصلت المسألة إلى ما قبل الميل الأخير من الرحلة. وهنالك سعي حثيث من أجل أن يكون «الإنقاذيون» بطبعتهم المصححة عند حسن الظن

الأميركي بهم والتأكيد للإدارة البوشية الباحثة عن ورقة إنتخابية تعوضها ورقة السلام مع الفلسطينيين التي لا تضغط على الشارونيين لكي يتحقق وورقة العراق العصي القبول بالإحتلال، أنها لم تخب رغبة تلك الإدارة في أن يكون إتفاق السلام السوداني مع نهاية ديسمبر (كانون الأول) الجاري هو الديك الرومي الدسم على مائدة كواسر الإدارة البوشية. وما الإسراع في إسترضاء سيد طائفة الختمية محمد عثمان الميرغني وزعيم التجمع الوطني الديمقراطي وذهاب علي عثمان طه، النجم الإنقاذي المدني رقم واحد بعد ما أزيل الشيخ حسن الترابي من التركيبة، إليه في مدينة جدة وتوقيع إتفاق «الحل السياسي الشامل» معه بعد الإسترضاء السابق لسيد طائفة الأنصار الصادق المهدي وحسم المسألة الدينية من جولات التفاوض مع الجنوبيين والتركيز فقط على تقاسم الثروة والسلطة، سوى حيثيات كان لا بد منها لكي يقول الرئيس عمر البشير عشية وصول وفد «قرنقي» إلى الخرطوم يوم الجمعة الماضي للمرة الأولى منذ عشرين سنة على متن طائرة ليبية خاصة «إن كل الدلائل تشير الآن إلى أن الحرب في جنوب السودان قد وضعت نهايتها ولم يتبق إلا وضع اللمسات الأخيرة على إتفاق السلام النهائي...».

وفي إنتظار الصورة التاريخية في القصر الجمهوري، بعد أن تعود أسراب الطيور المعارضة التي غردت خارج السودان بين أسمره والقاهرة وبعض العواصم الأجنبية للمشاركة في مهرجان السلام، يصح القول أن الذي يستوقف المرء في «السلام السوداني» هو أنه جعل الجميع إنقاذيين، بمعنى المشاركة في إنقاذ السودان من «فيروس» الإحتراب الأهلي وأن «الإنقاذ» كصفة ثورية أو إنقلابية محتكرة للحكم طوال أربع عشرة سنة ذابت في بحر الإنقاذ الأكبر... أو فلنقل بصيغة التشبيه النهرية النيلاني ان الذي ستنتهي إليه الأمور هو ملتقى الإنقاذيين بمنثل ملتقى النيلين. ولولا الجذور الديمقراطية الضاربة في الروح السياسية الديمقراطية لكان ربما من الصعب تحقيق هذا الإنجاز الذي سيكون أمثلة يُحتذى بها. وما أكثر الحالات العالقة في العالم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 11 ديسمبر (ك) 2003

صدّام المحبوب المبعوض

من يذلُّ يذلُّ ولو بعد حين (1)

جاءت واقعة سقوط صدّام حسين الشخص بعد إسقاط صدّام التمثال في الأسر الأميركي في الوقت الذي كنت في الطريق إلى الرياض للمشاركة في مهرجان الثقافة والتراث في الجنادرية، الذي يتزايد لفت الإنتباه إلى كونه ظاهرة في المشهد العربي الحافل بالتداعيات. وهو ظاهرة في كون من ابتكر فكرة هذا المهرجان ويرعاه للسنة التاسعة عشرة على التوالي مؤسسة عسكرية تتمثل في «الحرس الوطني» وهو ما لم تغعله بقية المؤسسات العسكرية في العالم العربي. ورموز هذه الظاهرة يستحقون التقدير، بدءاً بولي العهد الأمير عبدالله بن عبد العزيز الذي يحرص على هذا التواصل مع المعنيين بالفكر والثقافة والتراث في الأمتين، مروراً بالفريق أول متعب بن عبدالله بن عبد العزيز، نائب رئيس الحرس الوطني المساعد للشؤون العسكرية ونائب رئيس اللجنة العليا لـ «المهرجان الوطني للتراث والثقافة» وصولاً إلى الشيخ الجليل عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، نائب رئيس الحرس الوطني المساعد الذي يستحضر في كل اللقاءات في رحاب مجلسه سيرة المغفور له الملك عبد العزيز مقارناً سلوكه ورؤاه مع ما يحدث للأمة الآن، وبالذات على أرض العراق بعد أرض فلسطين، ويشاركه سامعوه التقدير لذلك السلوك وكيف أن الحكمة في التفكير كانت ملازمة لقبضة اليد على السيف وبذلك حقق وحدة هي على نحو ما سمعناه في مجلس الأمير سلمان بن عبد العزيز، أمير منطقة الرياض، خلال جولة أفق في الأوضاع الراهنة التي تعيشها الأمة «التجربة الوجدانية الحقيقية والصامدة». وهو تشخيص لا يملك المتابع مثل حالنا للتجارب الوجدانية المسوّرة بالصراعات والإنقلابات والمؤامرات والتصفيات إلا أن يجد في قول الأمير سلمان حول هذه التجربة سوى أنه التوصيف الموضوعي لها.

كانت واقعة سقوط صدّام حسين في أسر الاحتلال الأميركي، أو فلنسمها «أم الوقائع العربية» هي الجامع المشترك في أحاديث ضيوف «الجنادرية» التاسعة عشرة التي رفعت عنواناً لها «إصلاح البيت العربي». وكان الإستهجان لهذا الأسلوب الذي

إعتمدته سلطة الاحتلال الأميركي للعراق واضحاً في تعبير كل منا عن هذه الواقعة. ولقد إلتقى السعودي مع السوري مع الجزائري مع اللبناني مع المغربي مع التونسي مع الموريتاني مع السوداني مع الفلسطيني مع الأردني مع المصري مع الإماراتي مع اليمني، وبما يشبه الإجماع، على بشاعة هذا الإذلال لمن حَكَم العراق ثلاثين سنة ربعها بصيغة التحالف مع البعض من إخوانه القادة العرب وربعها الثاني بصيغة التعايش مع الأكثرية منهم، أما النصف المتبقي من هذه السنوات فكانت قائمة على الحذر منه والريبة بنظامه بعدما سجّل في تاريخ العلاقات العربية سابقة إحتلال العراق للكويت مناقضاً في ذلك الحيثية التي إستند إليها في هذه المغامرة، وهي أن الكويت المستقلة وذات السيادة والعضو في الجامعة العربية والأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسلامي فرع يجب أن يعود إلى الأصل ومن دون أن يستوقفه أن لا حاكم يحتل «أرضه». كما إلتقى الجميع - عدا إخوان لنا من الكويت والعراق كانوا في غاية الإبتهاج لهذا الإذلال، على أساس من يذل (بفتح الياء) الآخرين يذل (بضم الياء) ولو بعد حين - على أن إذلال من كان رئيساً وبات أسيراً هو نوع من المذلة للأمتين يتحمل مسؤوليتها المذل (بكسر الذا) أي صدّام الأميركي المحتل والمذل (بفتح الذا) أي صدّام حسين الذي أوصل الأمور إلى ما وصلت إليه، أو فلنقل إنه كان قادراً على عدم إيصال الأمور إلى هذا الدرك لو إنه إعتد في الشهرين العصبيين يونيو ويوليو من العام 1990 قليلاً من الحكمة التي تغنيه عن عذاب نار الحرب عليه بعد ذلك من أجل إستعادة الكويت، أو لو أنه بعدما غزا ولم يجد في «الفرع» من هو مقتنع بـ «الفعل المؤثّر» الذي أورده في بيان رئاسي أن يعيد القوات إلى حيث انطلقت، ويؤدب الرعا الذين أمعنوا نهياً وسلباً بالكويت وكأنما لم تكن هذه الدولة أميراً وشعباً وبرلماناً وصحافة ذلك الكتف الذي طالما اتكأ عليه النظام الصدّامي بضع سنوات. لكنه الوعي الذي عندما يغيب عن صاحبه يجعل هذا صاحب يفقد التوازن.. مع أن الإنسحاب المشار إليه والتأديب المطلوب كان من شأنهما أن يضعا المسألة على طاولة النقاش والحوار وكان لن يجعل القمة العربية الإستثنائية الشهيرة في القاهرة يومي 9 و10 أغسطس 1990 بدعوة من الرئيس حسني مبارك تستدعي الثنائي

صدّام حسين.. من إنفجار التنمية إلى تفجير العراق (2)

شاءت الظروف أن أعرف صدّام حسين في الزمن الذي كانت الأخبار عن التنمية الانفجارية التي يقودها في العراق تلقى ردة فعل من الإعجاب... خصوصاً أن هذه التنمية التي أوجدت حالة غير مألوفة في عالمنا العربي تمثلت في أن الهجرة أصبحت معكوسة حيث بات بعض أهل المدن يهاجرون إلى الريف، تلازمت مع خطة طموحة لمحو الأمية شهدت بنتائجها الطيبة منظمة الأونيسكو. كما أن مخططاً لبناء صناعة إستهلاكية إكتملت ملامحه ودخل حيز التنفيذ وتم فتح الأبواب أمام بضعة ملايين مصري ومغربي لكي يساهموا في تنشيط هذا التوجه التنموي ثم ما لبث الإعجاب الشعبي العربي يأخذ منحى آخر بعدما قرر صدّام حسين، وكان ما زال (النائب الأول) للرئيس أحمد حسن البكر، خوض غمار بناء قوة نووية طارِقاً الباب الفرنسي الذي لبي له الحد المسموح لفرنسا دولياً من تأمينه، ونشأت بين صدّام حسين وكل من جاك شيراك وريمون بار والعشرات من رجال الصف الثاني في الحكم الفرنسي علاقات وثيقة. وإلى ذلك فإنه بدأ يتجاوب مع مطالب عربية للمساعدة في إنشاء مؤسسات علمية كان من بينها إنشاء كلية للطب تابعة لـ «جمعية المقاصد الإسلامية» في لبنان طلبتها الجمعية في شخص رئيس الحكومة السابق (الراحل) صائب سلام منه ونشرت الجمعية إعلانات بارزة في الصحف اللبنانية وتحت تسمية «كلية صدّام حسين الطبية»، ثم ما لبث أن توقف العمل في المشروع.

والذين عملوا مع صدّام حسين في تلك المرحلة يشيّدون بجديته ومثابرته وكيف أنه كان يعمل أكثر من خمس عشرة ساعة يومياً. ولأنه لا يسافر إلى الخارج (عدا زيارة يتيمه إلى فرنسا وتضمّن الوفد المرافق له خلالها طاقم شوي السمك المسقوف وقد تدوّقه الفرنسيون الذين تلقوا الدعوة إلى المأدبة العامرة التي أقامها تكريماً للرئيس الفرنسي، وزيارة أخرى لصيد الخزائير البرية في ديار الرئيس الروماني تشاوشيسكو، وزيارة ثالثة إلى كوبا لمناسبة انعقاد قمة عدم الانحياز).. فإن الأخ غير الشقيق برزان الذي كان أوكل إليه رئاسة جهاز المخابرات وهو في الخامسة والعشرين من العمر إشتري له «يختاً» من ميزانية هذا

جورج بوش - مارغريت تاتشر لتنفيذ ما يريانه مناسباً، يمثل ما أن مجلس الأمن بايع الثنائي بوش الابن - طوني بلير بعد ثلاث عشرة سنة في مسألة إعتبار الإحتلال وضعاً قانونياً. وما يستوجب لفت الإنتباه، ونحن ننباسط في الحديث ونصغي إلى بعض إخواننا من الذين هم على مسافة قصيرة من أهل القرار في دولهم وأيضاً من أولئك الذين يعكسون حقيقة مشاعر الناس، هو أن نسبة التأثير بالذي جرى لصدّام حسين هي أكثر من نسبة الشماتة به، وأن نسبة الخوف على فقدان نهائي للعراق الموحد هي أكثر من نسبة الإقتناع بأن العراق الجديد الذي تتولى الإدارة الأميركية صياغته سيكون مقبولاً من جانب الأهل والجيران وذلك لأنها حالة جديدة ولأن هذه الصياغة تتم على قاعدة اللامنطق.

وببقى، بعد هذا التهديد، القول إن الذين طرحوا عليّ من الأسئلة والتساؤلات والإستفسارات كانوا كثيرين، مستندين في ذلك إلى أنني عرفت صدّام حسين عن قرب وألّفت في زمن الإنبهار العربي به كتاباً عن سيرته وتجربته وكيف يتخذ القرار، وكيف أنه ظاهرة في تاريخ الحكم والحكام العرب في تلك الحقبة. وبطبيعة الحال فإن من قرأ، مثل حالي بعناية مئات الأوراق والأدبيات وإستمتع إلى معظم رفاق صدّام حسين قبل أن تتيسر له فرصة الإجتماع بضع ساعات على مراحل مع صدّام الذي كان في حالة من الزهو.. زهو العرب به وزهو بنفسه، يتحدث عن حياته الشخصية والعائلية وتكون الإبنة الصغرى، التي باتت زوجة وأماً، جالسة ذات يوم على ركبته كأبي يفقد أطفاله رؤيته يلاعبهم ويتحدث إليهم... بطبيعة الحال إن من هذه حاله يُصبح مطالباً بعد اسقاط صدّام التمثال، ثم سقوط صدّام في أسر الإحتلال الأميركي، أن يزد على إستفسارات المستفسرين ويجب عن أسئلة السائلين وفي حدود ما يمكن التطرق إليه عملاً بقاعدة المجالس بالأمانات... حتى إذا سقط الأصدقاء في الأسر أو عن كراسي الحكم، وإسترشاداً بمبدأ أن الطعن في الجواد الجريح، أو الجمل الجريح - على نحو ما سمعنا الرئيس عبد العزيز بوتفليقة يقول مختصراً المسألة. ليس حلالاً... وللحديث بقية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 6 يناير (ك) 2004

* * *

الجهاز التي - مثل معظم أجهزة مخابرات دول العالم الثالث - لا تدخل في الميزانية العامة، وبذلك يتقي تساؤلات الرفاق والناس الذين سيقولون إن صدام حسين إشتراكي قولاً بورجوازي فعلاً. كما أن الأخ إشتري للرئيس «فيللا» مطلّة على بحيرة جنيف ومجاورة لبعض «فيلات» في التلة السويسرية الرائعة المنظر يملكها عرب وأثرياء من دول العالم. ومن سوء حظ صدام حسين أنه لم يستمتع بـ «اليخت» لأن الحرب ما لبثت أن بدأت بين العراق وإيران وبات من المستحيل إبحار «اليخت» إلى مياه «شط العرب» التي باتت منطقة مواجهة. كما أنه لم يستمتع بالإقامة في «الفيللا» المشار إليها، والتي كان الأخ الذي إشتراها أثنها بما يليق بإقامة رئيس دولة العراق الذي كان في الفترة التي سبقت قيام الحرب مع إيران يتطلع، كما بعض الزعماء، إلى تمضية بضعة أسابيع من السنة في الربوع السويسرية.

المهم أنه لم يذق طعم الإقامة السويسرية ولا طعم الإستمتاع برحلات فوق مياه الخليج على متن «اليخت» الذي كان ينوي التجوال فيه على الموانئ المطلة على الخليج ثم إنتهى برسم البيع لمن يريد أن يشتري... ولا من يشتري. وكل ما حصل عليه من جنيف كان عبارة عن عشرات البدلات ومستلزماتها من قمصان وربطات عنق وقبعات وألبسة رياضية من محلات «لانغان» تصله فيختار منها ما يرتاح لها ثم يوزع الباقي على النخبة المنتقاة من بين المحيطين به على نحو توزيع بعض علب السيجار الكوبي الفاخر الذي كان يحمل كميات منه طبيبه الخاص الذي هو عضو اللجنة المركزية للحزب في كوبا. وهذا الطبيب الذي إختاره له صديقه فيديل كاسترو كان يعالج له آلام الظهر المبرحة وكان دائماً عندما يصل إلى بغداد بطلب من صدام الذي بات رئيس البلاد ينقل التحيات وكميات السيجار من «الرفيق فيديل» الذي كان صدام يرد على التحية بنجدات غير معلن عنها تقي صديقه كاسترو ويلات الحصار. وعندما وقع النظام الصدامي تحت الحصار لم يستطع كاسترو أن يفعل شيئاً إذ بماذا يمكن أن يُنجد المحاصر من هو مثله تحت الحصار. وفي الحديث عن المسألة فإن تدخين صدام للسيجار كان موضع تقليد الذين حوله له... إنما بعد أن يحصلوا على الموافقة أو تأشيرة التدخين متمثلة بتقديم صدام سيجاراً لهذا أو ذاك فلا يدخنه في حضرته وإنما بعيداً عن القاعة التي يتم اللقاء فيها.

ومن هنا الإشارة واجبة إلى أن الرئيس صدام كان الوحيد الذي يدخل خلال لقاء أو إجتماع لمجلس الوزراء أو إحتفالية ما. أما بقية السيجاريين فإنهم لا يدخنون، ونستحضر هنا على سبيل المثال إثنين منهم قابعين في الإحتجاز الأميركي هما طارق عزيز وبرزان التكريتي، فرج الله كربتهما لأنهما كانا خارج مدار صدام منذ اللحظة التي رمى العراق في أتون الحرب الدولية العربية - الإسلامية عليه نتيجة غزوه الكويت. وإستناداً إلى ما كنت أسمع منه منها كتحليل موقف ليس للنشر، فإنهما قالاً رأياً قاطعاً في مخاطر عدم الإنسحاب من الكويت وضرورة التجاوب مع دعوات ومناشدات عربية ودولية في هذا الشأن. والدليل على قولهما الرأي القاطع أنهما إنتهيا نتيجة الصراحة الخفيفة المفردات شبه مبعدين عن الحلقة الأقرب إلى عقل الرئيس، الأمر الذي جعله لبضع سنوات بعيداً عن دائرة التشاور قبل إتخاذ أي قرار معتمداً على المنطق كثير الحدة للإثنين عدي وقصي وللصهر حسين كامل، الذي سجّل حالة الإنشقاق الأولى عن الركب الصدامي العائلي.

وإذا كانت غزوة الكويت شكّلت عملياً بداية العد العكسي لنهاية صدام حسين، وبالذات بعدما حدث الحصار الذي لم يكن يتوقع حدوثه بالشكل الذي جاء، مفترضاً أن أقصى ما يمكن أن يكون عليه هو حصار من نوع الحصار الأميركي لكوبا التي لم تنقطع عن العالم بمثل قطع اواصر العراق مع العالم الخارجي... إذا كانت الغزوة شكّلت البداية فإن طول الحصار جعل من صدام حسين شخصاً آخر لا ينام كما يجب ولا يملك القدرة على المبادرة، ثم أصبح فاقداً المناورة التي يكون فيها ممسكاً بأوراق اللعبة. وشيئاً فشيئاً بدأ يُذل كرجل دولة صاحب مهابة. وهذا جعله يقترب أكثر فأكثر من الدروشة الدينية، أو التدينية، وهي الجامع المشترك بينه وبين نائبه عزت ابراهيم. وبعدما كان الانطباع من خلال جلساتي معه في زمن الإنبهار العربي الشامل به، وبالذات بعدما قرر محاربة الثورة الخمينية التي وصلت إلى الحكم بمثل ما وصل البعث إلى الحكم، أنه إنسان لا يتحمل الحل المرن، ويرى أن خير الأمور هي الأكثر تشدداً والأكثر حدة، وأن قدره كما يراه هو إما القصر وإما القبر، فإن صدام بعد خمس عشرة سنة على تلك الجلسات التي إنتهت كتاباً يروي ملامح سيرته الحزبية وأسلوبه في إدارة الصراع، بات بفعل التقدم في العمر وشدة وطأة المأزق الذي

مجتمع العشيرة غير المعترف به سيداً لكل العشائر ، وليس فقط زعيماً سياسياً ثم رئيساً للبلاد . وهو أيضاً ابن العقيدة الذي حكم بها ولم يحكم من أجلها أي بما معناه انها كانت السقف القومي الذي يحقق الطموح . وهو إلى ذلك مسكون بهاجس أن يكون الرقم الصعب في الأمة والرقم الأصعب في المعادلة الخليجية ، مع الأخذ في الاعتبار أنه إذا أمكنه الفوز بهذه المعادلة يصبح الرقم الأصعب على مستوى الأمة . ومن هنا كان صراعه الحقيقي مع الرئيس حافظ الأسد ، الذي نفّض اليد السورية من مؤسس «البعث» ميشيل عفلق ، فوجد ، رحمة الله عليه ، الملاذ في الديار الصّدّامية من دون أن يحقق ذلك لصّدّام المبتغى الذي يتطلع إليه . ومن هنا يجوز القول إن تطورات صّدّام حسين لكي يتسّد على منطقة الخليج كانت الدافع وراء الحرب مع إيران معتبراً أن خشية الدول الخليجية من المد الثوري الخميني ستجعل قادة هذه الدول يقفون إلى جانبه ليس حباً به وبنموذج نظامه وإنما درءاً لوضع المشروع الخميني المتعلق بتصدير الثورة موضع التنفيذ . ونخطئ إذا نحن إفترضنا أن دول الخليج لم تكن واعية للتطورات الصّدّامية ، وأنها فوجئت بغزوته للكويت . ففي لقاء مع مسؤول خليجي داخل الطائرة في رحلة بين لندن والكويت بعدما كانت الحرب العراقية - الإيرانية وضعت أوزارها من خلال إعلان آية الله الخميني القبول بوقف إطلاق النار وأنه بذلك كمن يتجرع السم ، استوقفني إنزعاج هذا المسؤول وقلقه من رد الفعل الصّدّامي على النهاية الإضرطارية من جانب الخميني لتلك الحرب وكيف أن الرئيس العراقي مرتدياً الزي العسكري إمتطى أمام منصة احتفالية كان فيها عدد من أهل القرار الخليجي حصاناً أبيض ، وتلك علامة أو ما يشبه رسالة ينقهمها أهل القرار أولئك . وكان التفهم عبارة عن نشوء خشية من هذا النزوع الصّدّامي نحو التسيّد الذي يتطلع إليه صّدّام حسين ، ومن هذا المنطلق كان الرد على الخطاب السياسي العراقي الحاد في شأن الأزمة مع الكويت بخطاب سياسي كويتي أكثر حدة على أساس أن التجاوب مع المطالب الصّدّامية كان سيعني عملياً تحقيق خطوة متقدمة لصّدّام حسين في إتجاه التسيّد . ولو أن الإقتناع كان غير ذلك لكان الخليجيون أبدوا شيئاً من المرونة وطول البال وتلبية بعض إحتياجات العراق ، مفترضين أنهم كانوا سيفعلون ذلك تلقائياً لو أن الحرب تواصلت وواصلوا من جانبهم ضخ الدعم المالي

إنتهى إليه متديناً على دروشة مستسلماً للأقدار . ثم جاء مقتل الولدين عدي وقصي ليجعل منه إنساناً ضعيفاً أمام الإرادة الالهية فيتصرف كمؤمن عندما إنتهى كل شيء ، ولا يتصرف على نحو الإنطباع السائد عنه بأنه لن يترك شخصه يقع في أيدي قوات الإحتلال وأن خيار «الموت ولا الشّماتة» هو الخيار الأفضل . وهذا وارد لو أن صّدّام حسين لم يتحول شبه متدروش يعتبر الإنتحار معصية . لكنني وأنا أشير إلى هذه الفرضية لا أقفز فوق إحتمال آخر وهو أن تكنولوجيا الأسر قادرة على قطع الطريق على أي خيار يريده المسلم المتدين لنفسه وأنه لولا ما قيل في شأن تخدير الرجل على طريقة تخدير الزعيم الكردي عبدالله أوجلان في سياق عملية الإخراج الهوليودي لإظهاره على الناس بغرض إحداث صدمة في نفوس الجميع وإستبدال صورة صّدّام المحبوب بصورة صّدّام المبعوض ، لكان الآن بين يدي خالقه ، خصوصاً أنه بتكوينه يرى أن الرصاصة في الرأس تبقى أكرم من إتاحة المجال للضابط الأميركي يقوم بتنظيف نفسي هوليوودي للشعر المصبوغ بعناية ، وكأنما صّدّام ليس على أهبة السابعة والستين من العمر ، ولا مجال لغير الشيب في شعر الرأس والذقن ، أو أن الرصاصة في الحلق تبقى أفضل من ترك «الكاميرا» تسجل لقطات للفم المفتوح يبحث فيه الضابط نفسه ربما عن حبة «سايونيد» خشية أن يكون صّدّام وضعها بغرض الإنتحار كما سبق وفعل عبد الحكيم عامر . بيد ان الضابط الأميركي ، على نحو ما يريده رئيسه بوش الابن ، كان يفضل أن يؤتى بصّدّام حياً وبالشكل الذي رآه العالم فيه... وللحديث بقية .

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 7 يناير (ك) 2004

* * *

بدايات إنهيال العلاقة

بين تكريت وتكساس(3)

إستمر صّدّام حسين ثنائي الشخصية حتى سقوطه أسيراً في قبضة الإحتلال الأميركي . فهو مزيج من ابن العشيرة الذي ليس من كبار القوم فيها ، وهو الأمر الذي جعله - بعدما وصل إلى قمة السلطة في منصب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة - ناقماً على

والسياسي للشقيق العراقي الذي يواجه التطلعات الخمينية الثورية دفاعاً عن نظامه ودرءاً لما يمكن أن يصيب دول الخليج في حال سقط النظام الصّدامي. والخشية الخليجية من تطلعات صدام تبلورت أكثر عندما قرر أن يواجه «مجلس التعاون الخليجي» بـ «مجلس التعاون العربي». وهذا الأخير بدا وكما لو أنه حالة حصار للخليجيين ما دام سيأخذ مصر منهم، وما دام أن اليمن من جهة والأردن من جهة أخرى ستكونان بمثل الشوكتين في جانبي الخاصرة.. إضافة إلى الشوكة التي في الصدر وفي الظهر متمثلة بالعراق نفسه. وهذه الخشية والتحديات المتعمدة من خلال إمتطاء صهوة الجواد الأبيض جعلت الإنبهار العربي بصدام حسين في سنوات المواجهة مع إيران يصبح جفوة لم تمحها بعض التصريحات والأحاديث الودية ولا الأجواء التي نشأت عن زيارة صدام للسعودية من أجل أداء مناسك العمرة وما رافق هذه الزيارة من لقاءات على المستوى العائلي الشخصي عادت بعدها زوجة صدام السيدة ساجدة وشقيقتها، المرحومة أحلام، زوجة أخيه برزان، تتمنيان نمو العلاقة السعودية - العراقية على نحو ما كانت عليه لفترة عابرة أيام كان صدام ما زال الرجل الثاني الذي يمارس دوره وكأنما هو الرجل الأول.

والحديث حول المسألة العائلية يجعلنا نستحضر واقعة بداية نمو علاقة عراقية - كويتية على الصعيد العائلي الشخصي أيام كان أفراد من أسر بعض اهل القرار الكويتي يتوجهون إلى البراري العراقية في فصل الربيع. ومن هؤلاء عائلة الشيخ صباح الأحمد، رئيس الوزراء الحالي، والتي ما إن يبلغ برزان التكريتي نبأ وصولها، وكان زمناك في ذروة سلطاته كرئيس للمخابرات، حتى يطلب من معاونيه ذبح الخرفان للضيوف الكويتيين. واستمرت هذه السلوكيات في التعامل إلى أن وسوس الأميركان في الصدور العراقية والكويتية على حد سواء، وكان الذي كان من الطعم الأول متمثلاً بكلام السفارة أبريل غلاسي، وصولاً إلى المصيدة متمثلة بالغزوة الصّدامية التي جعلت المشاعر الكويتية سياسياً وإعلامياً ومعها المشاعر الخليجية عموماً تنقلب إلى عداوة من جانب البعض للعراق، وخصوصاً حادة من جانب البعض الآخر، فضلاً عن مزيد من التجفيف لبحيرة الثروة النفطية، وبحيث أن كل ما جناه أصحاب هذه الثروة في حقبة الطفرة إنتهى إستنزافاً للمال وللقدرات. وتحضرني هنا

واقعة خلاصتها أن دونالد رامسفيلد قال لصدام حسين في نهاية لقاء عاصف به في بغداد في عهد رونالد ريغان: «ستندم أشد الندم إذا كتبت لي أن أعيش..». كما تحضرني واقعة أخرى خلاصتها أن السناتور بوب دول، الذي ترأس وفداً من مجلس الشيوخ بينهم يهود، قال لصدام عندما إلتقيا يوم 18 نيسان (أبريل) 1990 في الموصل قبل غزو الكويت ببضعة أسابيع، ما معناه إنك «إذا كنت لن تُغيّر فإنك ستتغير». وفي هذين اللقاءين وما جرى فيهما الإجابة عن السر الذي جعل العلاقة التكريتية - التكساسية تصل إلى حد أن إدارة الرئيس بوش الأب قررت إقتلاع الأمبراطورية الصّدامية من الجذور، وأن الرد الصّدامي على ذلك وبعدما توقفت حرب بوش الأب بفرض الحصار جاء في صيغة «اللوحة» الموزاييك للرئيس بوش ووضّعها كممسحة على مدخل فندق الرشيد، يدوسها الداخلون والخارجون عرباً واجانب، وهو إنتقام لم يؤدّ إلى نتيجة، بل لعله ليس مبالغة القول إن ذلك التصرف من جانب صدام كان من جملة دوافع إنتقام الرئيس بوش الابن وكواسر الإدارة المنضوين تحت راية رامسفيلد الذي لم يفارق ذلك اللقاء الذي أشرنا إليه مشاعره. والإعتقاد الأرجح عندي هو أن صدام حسين أراد من الإستسلام طوعاً للأسر أن يروي ما عنده من الأسرار عن هذين اللقاءين، اللقاء برامسفيلد واللقاء بوفد الكونغرس، إضافة ربما إلى لقاءات أخرى يتعلق بعضها بظروف الحرب مع إيران، وهو ما من شأنه أن يخفف عنه الكثير من بغض الناس له على ما اورده روايات الصحافة الأميركية والبريطانية عن القبور الجماعية التي - إضافة إلى الغزوة التي قام بها للكويت ومن قبل ذلك تعامله غير الرحيم مع رفاق له ومع عراقيين قالوا الحد الأدنى مما يجب قوله حول سلوكيات داخل النظام - غطت على إنجازات كثيرة قام بها في الزمن الذي كان فيه محبوباً.

ويبقى ضمن ما يثير الإستغراب أن الفترة المبعوضة من سنوات حكمه جاءت كما لو أنها جزء من برنامج صاغه بنفسه، وكان يقوم على قاعدة التحدي ولا شيء غير التحدي، وعلى أساس أنه مالك السلطة المطلقة: رئاسة الجمهورية، رئاسة مجلس قيادة الثورة، رئاسة الحكومة، الأمانة العامة للحزب، وسلطة القائد العام للجيش، وكل ذلك من دون أن تكون هنالك سلطة تشريعية في استطاعتها أن تعترض على قرار أو تتردّ أي مشروع، أو سلطة رأي عام من خلال

صحافة تنتقد وتثري بإنتقاداتها ما من شأنه أن يخفف من الإندفاع في إتجاه القرار الوحيد الذي يأتي من الرجل الأوحده الذي هو الرئيس صدام، ومن دون أن تكون هناك مناقشة تحت سقف من الحرية النسبية وعدم الخشية من محاذير الاعتراض... وتبقى أيضاً للحديث بقية أخيرة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 8 يناير (ك) 2004

* * *

في القمة أو في الحضيض لماذا؟ (4)

بهذه المقالة نختم ما عرضنا له في المقالات الثلاث المنشورة على مدى الأيام الثلاثة الماضية من قراءة في ما انتهى إليه الرئيس العراقي صدام حسين في ضوء التأمل في بعض مراحل مسيرته التي بدأها محبوباً لينتهي مبغوضاً. ونبدأ بمسألة القبور الجماعية، التي هي النقطة الأكثر سواداً في جملة ممارسات القسوة الصدامية، والتي لو أنها كانت معروفة على النحو الذي تم إستنباشه فجأة لكانت مشاعر التعاطف مع صدام حسين من جانب الكم الهائل من المتعاطفين على غير ما هي عليه. فلا أحد يمكن أن يعذره على اضطرابه لمثل هذا العقاب الهتلري للآخرين. أما مسألة الحزم والعزم والرهبة التي ترافقهما فكانت ستبدو أكثر إقناعاً للآخرين وتفهماً من جانبهم لضرورتها الوطنية والقومية لو أنها تتم من خلال المحكمة الزهية والقضاة الذين إذا حكموا فبالعدل... ولا شيء غير العدل.

ومع الأخذ في الاعتبار أن هذا النهج في تعامل الراعي مع الرعية حافظ على وحدة العراق لكنها وحدة مسؤرة بالتخويف المقبول كأمر واقع المرفوض كشعور وجداني. ولكم كانت الأمور ستبدو أفضل لو أن الصحافة الصدامية كانت تملك مساحة من حرية النقد والتعبير تعوض هذه الحرية المفروضة أن يأخذها على عاتقه البرلمان.. هذا في حال كان هذا البرلمان إسمياً على مسمى وليس برلمان الرأي الواحد أو برلمان الموافقة دون مناقشة. ويجد المرء مثل حالنا يتساءل: ماذا لو كان البرلمان العراقي بمثل البرلمان الأردني الذي يشكل في موقفه توازناً يخدم الأردن سيادة وشعباً وملكاً؟ وماذا لو كانت هنالك داخل البرلمان العراقي

أصوات متنوعة تعكس إنطباعاتاً بأن مناخ التعبير قائم. ونلاحظ هنا كيف أن البرلمان الأردني إتخذ قبل أيام موقفاً يطالب بإنهاء الإحتلال الأميركي للعراق ويدين إعتقال قوات الإحتلال لصدام حسين، وهو موقف لم تتخذه الحكومة ولا هو صدر عن الملك عبدالله الثاني، كما أنه لم يبدل شيئاً من موقف الأردن المتعاون مع أميركا. ولكنها عقلية رفض الرأي الآخر هي التي جعلت صدام حسين لا يقرر وهو في قمة السلطة أن يكون للعراق برلمان متوازن يطمئن له الناس ويرون فيه أنه المؤسسة التي تمثلهم.

وما خرجت به من إستنتاجات بعد مناقشات وإستفسارات منقطة مع شرائح متنوعة من العراقيين سبقت آخر لقاء لي بالرئيس صدام في مايو (ايار) 1990 قبل القمة العربية الإستثنائية في بغداد التي كانت قمة فلسطين المستضافة في العراق، هو أن العراقيين باتوا أكثر إقتناعاً بأن جولات المناقشة التي جرت من أجل دستور جديد ونهائي للعراق لا بد ستجعل رئيسهم يرى أن أبناء شعبه أرهقوا ما فيه الكفاية وأنهم دفعوا ضريبة الحرب مع إيران، وأن من واجبه أن يكافئهم على صبرهم وتضحياتهم بإفتتاح على العالم وحكومة متوازنة وبرلمان حائز الهيبة والقدرة على التشريع وقضاء يحكم بالعدل، واستفادة من نعيم الثروة النفطية التي إستنزفت الجزء الأكبر منها مستلزمات الحرب والتصنيع العسكري بحيث يسافر من يريد السفر ويتاجر بحرية من يريد المتاجرة وتزدهر أسواق المدن العراقية التي كانت باتت متهاكة. ولقد شجعتني ما سمعته - خصوصاً أن بعض القائلين كانوا قريبين من الأوساط الرئاسية - على أن أطرح على الرئيس صدام أسئلة بهذا المعنى، إلا أنني لاحظت عدم رغبته في التركيز على هذه الأمور مكتفياً بالقول رداً على أسئلة أخرى: «إن أقدار العراق هي إما أن يكون في الذروة أو في الحضيض»... ولم أستوعب ما يريده من هذا القول، لكنني وجدته نفسي أستحضر قولاً آخر أورده أمامي وأنا في مرحلة كتابة كتابي عنه وهو «إن العراق إما أن يكون منارة أو تدوسه سنايك الخيول...!»

هذا المشهد، بجانبه المضيء بضع سنوات والمظلم على نحو ما نرى منذ الحرب البوشية الأولى عام 1991 وحتى الآن، يفسر القولين اللذين أوردهما صدام الرئيس أمامي. ومن باب الإنصاف أقول إن صدام حسين كان راعياً بالفعل في إعادة النظر في

بالتالي القبول السعودي بسيناريو الصفقة المتبادلة مسألة عادية. وتديلاً على ذلك فإنه أوصل أفكاره المرفوضة بكل تأكيد من جانب السعودية إلى بعض أولي الأمر السعوديين. ويستغرب المرء كيف أن صدام حسين لم يرَ في دولة مستقرة مثل الإمارات سوى أنها بمثل واحة في الصحراء يدور في شأنها نزاع، كما لم يستوقفه أن العالم بدءاً بالجيران وصولاً إلى أميركا لا يمكن أن ترتضي إمتداد اليد العراقية إلى الكويت.

ولقد كان من الأكرم للعراق الكبير أن يحافظ على الشقيقة الصغرى الجارة الكويت فيقول للسفيرة غلاسبي إنه يرى في إخوانه الكويتيين السند عند الشدة وأن أي مساس في الواقع الكويتي مرفوض من جانبه. وهو لو فعل ذلك لكان أنقذ العراق وأنقذ نفسه وأنقذ حزبه وأنقذ أبنائه وأنقذ شعب العراق، ولكان عراق ما بعد الحرب مع إيران موضع إهتمام الذين حوله ما دام برنامج رئيسه هو إعادة إعمار ما دمرته تلك الحرب وتتيقن النفوس مما علق بها وجمع الشمل العراقي السياسي الذي تششت في كل الاتجاهات. والأهم من ذلك أن إدارة بوش الأب كانت ستواجه إحراجاً ما بعده إحراج لو أن ما فعله صدام مع الكويت كان نقيض الذي حدث وكانت الحرب الأولى على العراق عام 1990 لن تحدث ولن تليها سنوات الحصار فحرب بوش الابن.

وقد يقال من جملة الافتراضات إن العراق الصدامي موضوع على لائحة الدول التي يجب وضع اليد الأميركية عليها بالكامل، وأن معاونة أميركا وحلفائها لصدام في حربه على إيران كانت من أجل أن يقترب نظامه المزيد من الأخطاء ويضطر إلى ارتكاب المزيد من القمع بحجة حماية الجبهة الداخلية وبحيث يشكل الحصار وتداعياته من جهة ونزوع صدام حسين إلى التحدي ولا شيء غير التحدي إلى يوم يتأكل فيه العراق، بحيث إذا انفردت أميركا وبريطانيا بحرب عليه لا يصمد ثم تتفكك أوصاله ثم يتم احتلاله وقتل صدام وولديه وبعض أركان نظامه أو اعتقالهم ورميهم في الزنانات والتمثيل بكراماتهم تهديداً لوضعهم في أقاص الإتهام أمام محاكم وقضاة، وهذا ما يحدث حتى الآن بدقة، وتتخلل ذلك عمليات لمقاومين عراقيين معلومين - مجهولين، وتنظيرات في كيف ومتى وأين ستبدأ محاكمة الزمن البعثي - العراقي بالكامل... وكأنما تلك إرادة الله في

حال توقفت الحرب مع إيران، وكان في صدد إلغاء مجلس قيادة الثورة وإعطاء الضوء الأخضر للإعلام من أجل أن يتطور في اتجاه لا يعود الأسلوب المتبع على حاله. ومع أنه كان لن يقول لرؤساء تحرير الصحف بأن يتوقفوا عن نشر صورة له يومياً في صدر الصفحات الأولى، حتى إذا لم تكن هنالك مناسبة موجبة، لكنه كان سيلمح إلى ذلك في شكل أو آخر. كما أنه كان سيلمح إلى ضرورة تعديل صيغة النشرات الإخبارية في الإذاعة والتلفزيون وتعديل مضامين الأغاني التي تمجد شخص الرئيس وإلى تقليص نزعة ملء الساحات وبعض الجدران وبعض الحقائق باللوحات والجداريات والتمائيل. وكان التلميحان سيلقيان الترحيب الضمني خصوصاً بعدما باتت موجبات إبداء مشاعر الحب لرئيس البلاد نوعاً من التأليه لشخصه وهو ما ليس مستحباً.. فضلاً عن أنه مكروه دينياً بسبب جنوح بعض الشعراء وكاتبتي كلمات الأغاني نحو المغالاة وإستعمالهم مفردات من النوع الذي انفردت به مدرسة الإعلام الكوري الشمالي في تأليه كيم إيل سونغ.

وفي معرض الرغبة التي نشير إليها كان صدام حسين يقول إنه أراد الدستور الجديد من أجل ذلك، وأنه يريد بالفعل مكافأة شعب لم يبخل في الدعم الذي لولاه لكان الحكم تساقط، وأنه لم يعد من الجائز أن يستمر العراقي يعيش بنظام البطاقة التموينية بينما جيرانه ينعمون بالعيش الرغد ما دام العراق النفطي بمثل جيرانه النفطيين من حيث العوائد من الذهب الأسود. أما متى سيفعل كل هذا الذي نشير إليه فبمجرد إسترداد الأنفاس التي أتعبتها الحرب مع إيران. لكن المفاجيء إلى حد الذهول هو أن صدام حسين بدل ان يسرع الخطى في الإتجاه المشار إليه فإنه أعاد العراقيين إلى الحال الأسوأ، وأعاد العراق إلى دائرة المخاطر عندما قرر غزو الكويت مطمئناً إلى إحياءات لها صفة المكيدة أو المصيدة جاءت من الإدارة الأميركية ووجدها تتلاءم مع سيناريو يدور في خاطره، وهو أنه بغزوه الكويت يبرم إتفاقاً غير مكتوب مع السعودية يتضمن ما معناه قبوله بأن تضم السعودية دولة الإمارات إليها، مقابل أن يوافق الملك فهد بن عبد العزيز وأشقائه وإخوانه على إلحاق الكويت بالعراق، مفترضاً ومتوهماً أنه في ضوء الإحياءات الأميركية التي رمتها أمامه السفارة أبريل غلاسبي فإن واشنطن ستجعله الطرف الأقوى في الخليج وستجعل

حق من كان محبوباً من أمته وصار مبعوضاً لأنه رأى عشرات العبر أمامه، إلا أنه لم يعتبر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الجمعة 9 يناير (ك) 2004

* * *

الخرطوم جوبا: الناظر الأمريكي..

والإمتحان العسير للشقيقتين

كان لافتاً للإنتباه قول وزير الخارجية السوداني الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل يوم الثلاثاء الماضي ان الحكومة السودانية تفضل أن يتم في أفريقيا وليس في واشنطن توقيع إتفاقية السلام النهائي بين الحكومة والحركة الشعبية التي حذفت ضرورات الإتفاق النصف الثاني من التسمية أي «لتحرير السودان». أما حيثيات هذا التفضيل فلخصها رئيس الدبلوماسية السودانية بالقول لصحيفة «الأهرام»: «لأننا نريد أن نعطي إشارة للآخرين إلى أن أفريقيا قادرة على ان تسهم في معالجة مشكلاتها...»، مضيفاً «كما انه من الأفضل أن يقر المجتمع الدولي بأن الولايات المتحدة ساعدت وساندت أفريقيا في علاج مشكلاتها...».

هذه التخرجة الكلامية التي لا تنقصها الحذاقة، ربما لن ترتضيها الإدارة البوشية التواقعة إلى إستضافة الشقيقتين السودانيّين المتحاربين اللذين قررا الجنوح إلى السلم وذلك لأن هذه الإستضافة وفي هذه الظروف، من التخطئ الأمريكي في العراق ومثله مع الموضوع الفلسطيني، من شأنها أن تغطي على الإخفاقات وتقطع الطريق على هذا الكم الهائل من النقد اللاذع لسياسة الرئيس بوش (الابن) وللتضليل الذي إعتمدته إدارته.. وهو نقد وصل إلى درجة الإتهام وإطلاق صفات على الرئيس بوش كان أكثرها مرارة ما قاله هوارد دين من أن الرئيس بوش «مثل أعمى محاط بمجموعة من الصم»، وما قاله وزير الخزانة السابق بول اونيل في مقابلة مع مجلة «تايم» إن هدف إدارة بوش منذ أيامها الأولى كان القضاء على نظام صدام حسين وأنه لم ير «دليلاً حقيقياً» على وجود أسلحة دمار شامل في العراق. ومثل هذا التأكيد يقوله اونيل الذي تولى طوال 23 شهراً وزارة الخزانة وحضر إجتماعات مجلس الأمن القومي مع الرئيس بوش قبل

أن يقيله الأخير من منصبه في ديسمبر (كانون الأول) 2002 ليعين بدلاً منه جون سنو الذي أبدى حماسة أكبر لتنفيذ سياسة الرئيس في خفض الضرائب بما يرتاح له كبار الممولين والشركات الصناعية العملاقة، من شأنه أن يزعم الرئيس المتطلع إلى تجديد الرئاسة ومن دون أن يستوقف الناخب الأمريكي أن الوزير المُقال ينطلق في الإتهام من مرارة في النفس ممزوجة بالحقائق أي أنه غير محايد بما فيه الكفاية.

وتطلعات الإدارة البوشية إلى أن يكون التوقيع في حديقة البيت الأبيض وليس كما يفضل أهل الحكم السوداني على نحو ما قاله بالفم المليان الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل قديمة، بدأت مع حملة الترغيب والترهيب أو الضغط والمسايرة في وقت واحد. وكان لافتاً أن الضغط وصل إلى حد أن جنرال الدبلوماسية الأمريكية كولن باول بدأ فيما مفاوضات الشقيقتين متواصلة في «نيفاشا» يُكثر من التركيز على ضرورة الإسراع بالتوصل إلى الإتفاق، بل إنه في واحد من تصريحاته حدد آخر ديسمبر الماضي موعداً نهائياً للتوصل إلى الإتفاق. ولم يقتصر الأمر على الوزير باول وإنما شارك المبعوث الرئاسي الأمريكي للسلام في السودان جون دانفورت في أوركسترا الضغط وطلب يوم الثلاثاء 13 يناير (كانون الثاني) الجاري بعد محادثات مع الشقيقتين السودانيّين الشمالي علي عثمان طه والجنوبي جون قرنق في «نيفاشا» حيث يواصلان التفاوض، أن يتم توقيع السلام في فترة أقصاها الثلاثاء 20 يناير. وبدا المبعوث الأمريكي في ذلك بمثل ناظر الإمتحان الذي يتعمد القول للتلامذة الممتحنين: أمامكم عشر دقائق. ثم يكرر القول بعد ذلك قائلاً: أمامكم خمس دقائق. وهو بذلك يتسبب في إرتباك التلاميذ الممتحنين الذين لو تركهم الناظر ينجزون الإمتحان على مهل ومن دون إغراقهم في مخاوف الوقت لكانت الاجابة عن الأسئلة كافية وافية صحيحة لا إعتراض عليها وتستحق العلامة الجيدة.

وقد تكون خشية «الناظر» الأمريكي من تطويل أمد التفاوض مرتبطة بمخاوف واردة في الحسابان، وهي أن يرتأي الشقيق الشمالي المزيد من التريث في الجانب غير المالي من «صفقة السلام» ما دام موضوع تقاسم الثروة انتهى إلى إتفاق. ولأن «الناظر» تواق لأسباب إنتخابية لتحقيق الإتفاق على وجه السرعة فإنه يلجأ إلى تحديد المواعيد مع الأخذ في الإعتبار أن التفاوض يقوم على قاعدة ساعة الصدر

ورحابة هامش المناورة وعلى عدم تحديد أوقات، وذلك لأن المهم هو الإنجاز وكيف يحدث ذلك وليس متى الحدوث.

ولا يستبعد المراقب المهتم بالشأن السوداني مثل حالنا أن يكون الضغط من خلال تحديد المواعيد مرتبطاً بتحليل للموقف الأميركي من جانب الإنقاذيين حيث أن كبيرهم الذي علمهم فن اليقظة لاحظ في هذا الموقف ملامح نوايا غير نزيهة تضع على المدى البعيد الشقيق الشمالي في موقع من بلغت فيه المرونة حد الإكثار من التنازل للشقيق الجنوبي الذي تختلف حاله عن حال شقيقه الشمالي، ذلك أن كل خطوة مرنة يخطوها هذا الأخير تشكل مكسباً للشقيق الجنوبي الذي ليس مضطراً للتنازل عن شيء. وهنا يستوقفنا تأكيد الرئيس عمر البشير على أنه لا تجاوز على الإطلاق للخطوط الحمراء. كما يلفت إنتباهنا حرص الرئيس البشير على إستباق سلام الشمال والجنوب بتحقيق مشهد غير مطروق للوحدة الوطنية تمثل في تحويله جلسة مجلس الوزراء يوم الأحد 11 يناير الجاري إلى «جلسة كل السودان» من خلال الدعوة إلى مشاركة كل الأحياء من الذين حكموا السودان منذ الإستقلال فيها. وكان مشهداً وطنياً بامتياز جلوس الرئيس البشير محاطاً بالرؤساء ورؤساء الحكومات الأسبقين جعفر نميري والدكتور الجزولي دفع الله والسيد أحمد الميرغني والسيد الصادق المهدي، وبعض الوزراء والوزيرات الأسبقين أيضاً. ومن المؤكد أن حالة مزاجية جديدة وأكثر هدوءاً نشأت في أوساط أهل القرار الرسمي والحزبي والشعبي نتيجة لهذا المشهد الذي أضفى عليه وزير المالية الزبير أحمد الحسن العائد للتو من «نيفاشا» طاوياً مع الوفد المفاوض مسألة إقتسام الثروة إنتقالاً بعد ذلك إلى بقية التقاسمات، مسحة من القُدَرية والإعتراف بالتنازلات الإضطرابية والخشية مما تحمله آتيات الأيام من صدمات وذلك من خلال إستعانتة بالآيات الكريمة الأخيرة من سورة البقرة مردداً الآية ثلاث مرات مع أن الحضور إسلامي وقرآني ولا يحتاج إلى من يعيد عليه آيات قرآنية، خصوصاً إذا كانت من الآيات المشار إليها وهي: «لا يكلف الله نفساً إلاَّ وُسْعَهَا لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمِلْنَا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا

واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين». وإذا نحن أمعنا قراءة في التفسير وفي ما هو حاصل وسيحصل للشقيق الشمالي مع شقيقه الجنوبي وأي ضغوط يرميها «العرب» الأميركي على كتفي الشقيق الشمالي وبصيغة الترغيب والترهيب والإصرار على تحديد مواعيد إنتهاء المهلة بمثل إنتهاء ساعة الإجابة عن أسئلة الامتحان وتذكير الناظر مراراً بأن الوقت المحدد على أهبة الإنتهاء.. إننا إذا نحن أمعنا وتأمّلنا وقرأنا ما بين السطور وبالذات بين سطور تصريح الرئيس البشير يوم الأربعاء الماضي الذي أعلن فيه قاطعاً أن مشكلة الجنوب حُلّت وفقاً لإعلان مبادئ «إيقاد» عدا بند المشاركة في السلطة وما يتعلق بالمناطق الثلاث التي لا تملك الحكومة تفويضاً في تعديل حدود السودان وفقاً لما هو معلن في اول يناير 1956، لجاز لنا الإفتراض أن أمر رفرفة الحمام البيضاء في أجواء السودان تحتاج إلى معجزة تأتي في صيغة مسعى أميركي مخلص وليس في صيغة تحديد موعد.. وكأنما المسألة عبارة عن قطار تأخر وصوله عن الموعد أو طائرة أقلعت بعد الموعد المحدد لها بساعات.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 18 يناير (ك) 2004

* * *

الصفقة الكبرى على طريق الصفقة الأكبر

«من صَيرَ ظَفَرَ»، و«ما ضاع حق وراءه مطالب»، و«في التآني السلامة وفي العجلة الندامة». هذه الأقوال - الأمثلة وغيرها كثير تنطبق على النهاية السعيدة لكوكبة من المناضلين العرب من أجل قضية الأمتين التي لن يهدأ البال ما دامت الكرة تتقاذفها دول التآمر العالمي. وعندما يتم الإتفاق نهائياً على تبادل رفات ثلاثة جنود إسرائيليين والعقيد رجل الأعمال الحنان تننباوم بالأسرى العرب وعددهم 23 لبنانياً و 400 فلسطيني و 5 سوريين و 3 مغاربة و 3 سودانيين وليبي واحد، إضافة إلى الألماني «المقاوم المستشرق» ستيفان سمارك الذي إتهمته إسرائيل بالتعامل مع «حزب الله»، وإضافة أيضاً إلى كشف مصير 24 مفقوداً لبنانياً وإعادة رفات 60 لبنانياً قُتلوا

ولا يكون الأسير الألماني من ضمن الذين شملتهم الصفقة.

ثالثاً - أظهرت النهاية خصالاً في أطراف معنية بالصفقة التي تمت بدءاً بحداقة المفاوضات الألمانية، مروراً بحكمة المرجعيتين المهمتين لـ «حزب الله» وهما إيران وسورية وطول اناة الدولة اللبنانية، وصولاً إلى قدرة الأمين العام لـ «حزب الله» على ممارسة التكتكة بالبراعة نفسها التي يعالج بها رؤاه الإستراتيجية. وعندما يكون الوسيط الدولي ألمانياً بالذات وليس فرنسياً أو واحداً من الأوروبيين المحايدون نسبياً إزاء الصراع العربي- الإسرائيلي، فلأن هناك علاقة قديمة بين بعض ثوريي إيران وألمانيا. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر الرئيس محمد خاتمي الذي كان في الزمن الثوري الإيراني الغابر ملحقاً ثقافياً مقره هامبورغ. ونجد أنفسنا هنا نستحضر النصائح التي أسداها الرئيس خاتمي وعلى الملأ لـ «حزب الله» عندما زار لبنان في شأن سلوك المرونة ومراعاة الخصوصية اللبنانية. وهذه النصائح حدثت في وقت كان التفاوض في بداياته بين «حزب الله» والوسيط الألماني الذي رأى نفسه يعالج - على حد قوله - واحدة «من أكثر عواقب الصراع إيلاًماً في الشرق الأوسط».

رابعاً - من الجائز القول إن الموقف المتأني لـ «حزب الله» في الموضوع العراقي والذي بدا في بعض جوانبه حيادياً ساعد على تشجيع ضماني من الإدارة الأميركية للجانب الألماني على تكثيف الجهد التفاوضي وللجانب الإسرائيلي على إبداء التفهم والتقليل من الممانعة والتصلب. ثم جاءت وقائع التصدع في الموقف الداخلي لاريل شارون تضغط في اتجاه التنازل من أجل الحصول على مكاسب. وفي الحسابات الإسرائيلية الداخلية فإن إستعادة رفات ثلاثة جنود ورجل الأعمال الجاسوس تينباوم والتعهد بالحصول على «معلومات ذات مغزى» حول مصير الطيار رون أراد مقابل إطلاق «الأسير العقدة» سمير القنطار، من شأنها أن تغطي على الأجواء الحرجة التي يعيشها شارون بسبب فضيحة «الجزيرة اليونانية» التي وصلت تداعياتها إلى مشارف المثل امام القضاء والمطالبة بتقديم الإستقالة، فضلاً عن أن هذا الإهتمام بعسكريين وبمصير طيار من شأنه تخفيف نسبة الإحتقانات في نفوس المؤسسة العسكرية الإسرائيلية التي وصلت إلى حد تمرد بعض الضباط والطيارين على أوامر الإعتداء على الفلسطينيين.

خلال معارك مع إسرائيل.. انه عندما يتم الإتفاق المشار إليه ويتحدد الخميس المقبل موعداً للتبادل في فرانكفورت، فهذا إثبات إلى مضامين الأقوال - الأمثلة التي أوردناها.

في إنتظار لحظة التسليم والتسلم يوم الخميس المقبل وقبل يومين من حلول عيد الأضحى المبارك وعودة الأسرى العرب الأبطال إلى أوطانهم وأهاليهم ومواراة الثرى رفات الذين قضوا في عمليات بطولية أملاً في إسترداد الحق الفلسطيني يمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

أولاً - تؤكد النهاية التي تم التوصل إليها أن «حزب الله» حريص على البشر يحررهم أو يستعيد رفات من إستشهد منهم، يمثل حرص إسرائيل على إستعادة أسراها ورفات قتلاها. ومن هنا فإن العملية التي تمت هي توأم عملية تحرير الأرض التي إحتلها الإسرائيليون في الجنوب. كما أنها ستقضي مستقبلاً إلى تحرير مزارع شبعاً سلباً، إلى الإنسحاب طوعاً، وبذلك لا يعود هناك موجب للعمليات العسكرية من نوع العملية الأخيرة التي إستهدفت جراراً إسرائيلياً تجاوز الحدود. وفي حال حدوث ذلك تصبح النقلة المتوقعة لـ «حزب الله» من حركة مقاومة إلى حزب سياسي أمراً مبرراً في نظر قيادته ونظر جماهيره ونظر الناس عموماً. وبموجب هذه النقلة يمارس المقاومة السلمية وفق النهج السيستاني السلمي في العراق، والذي أثبت فعاليته بدليل أن آية الله علي السيستاني بات أحد الأرقام الأكثر صعوبة في المعادلة العراقية بمحاورها الثلاثة: الدولي. الإقليمي - المحلي.

ثانياً - إصرار «حزب الله» على عروبة الصفقة يؤكد عدم إنعزال الحزب في الإتجاهين: اللبناني والمذهبي، فهو لم يحصر المطالبة بأسراه الـ 23 ولا بالرفات الـ 60 ولا بكشف مصير الـ 24 المفقودين وإنما ساوى بين اللبنانيين هؤلاء وبين الاربعمائة فلسطيني والخمسة سوريين والثلاثة مغاربة والثلاثة سودانيين والليبي الواحد.. وبذلك أظهر نوعاً من الشهامه كان عدم الأخذ بها سيشكل علامة سيئة في سجله المتختم بالتضحيات. كما أن هذه الشهامه المشار إليها شملت الإصرار على مساواة الأسير الألماني بالأسرى العرب وبذلك يكون موضع تقدير الرأي العام الألماني، إضافة إلى انه من غير الجائز ومن غير اللائق أن تكون ألمانيا هي الوسيط وفرانكفورت هي الساحة التي سيتم التسلم والتسليم فيها

خامساً - هناك عدا الطرف الإيراني والطرف السوري أطراف أخرى ليست بعيدة عن الصفقة، وهذه أهميتها في قدرتها على حيازة ثقة «حزب الله» في الدرجة الأولى. ومن هؤلاء الزعيم الدرزي اللبناني وليد جنبلاط الذي كان قطع التكهات حول غياب غير مألوف وغير طبيعي للسيد حسن نصرالله لمدة طويلة عندما إلتقى به قبل الإعلان عن إنجاز الصفقة بيومين. وليست صدفة زيارة جنبلاط إلى المانيا في هذه الأيام بالذات.

نتوقع في ضوء هذا الحدث الإستثنائي، حدثاً آتياً بعد حين، خلاصته أن الصفقة الكبرى التي تمت ستكون ربما المدخل إلى الصفقة الأكبر بين سوريا وإسرائيل وبالرعاية الأميركية.. والتي ستتضح معالمها في ضوء هل يجدد الرئيس بوش (الابن) الولاية أو سيتوارى، أو هل من الأفضل أن يبقى لكي يتم إنجاز الصفقة الأكبر؟

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 27 يناير (ك) 2004

* * *

تأملات في لحظة خلاص عربية . دولية

يبدو أن الألفية الثالثة ستكون في ربيعها الأول مثيرة للدهشة. وعندما نتأمل في بعض المواقف والتصريحات يدلي بها القيمين على شؤون العباد المسكون بمقاليد السلطة أو المساهمون في شكل أو آخر في صناعة القرار، يتأكد لنا ذلك.

من هذه المواقف والتصريحات على سبيل المثال أن خطوة توعية حدثت على طريق المصالحة بين الفاتيكان والحاخامية الكبرى في إسرائيل. ويوم الجمعة 16 يناير (كانون الثاني) الماضي كان البابا يوحنا بولس الثاني يستقبل في المقر البابوي حاخام طائفة «الأشكيناز» الأكبر يونا ميتزغر وحاخام طائفة «السفارديم» الأكبر شلومو امار اللذين قاما بزيارة هي الأولى لهما إلى الفاتيكان.

وبدل أن تكون هذه الزيارة مناسبة لكي يطرح رئيس الكنيسة الكاثوليكية مسألة التوتر الدولي في منطقة الشرق الأوسط بوجه خاص وفي العالم عموماً، وهو توتر تتحمل إسرائيل مسؤوليته في الدرجة الأولى، فإنه

إرتأى ألا يعكّر مزاج ضيفيه.. مع انه كرئيس للكنيسة الكاثوليكية عليه واجب خوض المعارك الروحية والسياسية من أجل تحرير مهد السيد المسيح من ربة الإحتلال الإسرائيلي وتمكين مسيحيي العالم من الحج إلى مقدساتهم في القدس وبيت لحم وتأدية قداس الميلاد آمنين مطمئنين في كنيسة المهد. ومثل هذا الحج منقوص منذ أن إحتلت إسرائيل الضفة الغربية في حرب 5 يونيو (حزيران) 1967، ومع ذلك فإن لا أحد في العالم المسيحي يحرك ساكناً وكأنما هنالك قبول ضمنى من جانب دول مسيحية كبرى في العالم أمثال فرنسا واسبانيا وبريطانيا وأميركا وروسيا وعشرات الدول الأوروبية ودول أميركا اللاتينية، بأمر الإحتلال الإسرائيلي. ولولا تفضيلنا الأخذ بحسن النية على سوءها لقلنا أن هذا الإرتضاء هو من أجل إبقاء ثغرة في الكيان الإسلامي الديني متمثلاً بالمسجد الأقصى أو أنه ثار بواسطة إسرائيل من صلاح الدين الذي حرر ذلك المسجد من ربة محتليه في زمن «هجمة الفرنجة» المسماة أيضاً بـ «الصليبية».

وما سمعناه وقرأناه عن هذه الزيارة هو أن البابا يوحنا بولس الثاني قال لضيفيه خلال المقابلة التي إستمرت 35 دقيقة «إن الحوار الرسمي بين الكاثوليكية والحاخامية الكبرى في إسرائيل يشكل دليل أمل كبير وعلياً ألا ندخر أي جهد في عملنا المشترك الهادف إلى بناء عالم من العدالة والسلام والمصالحة لكل الشعوب. وعلى مدى ربع قرن من تولي سدة البابوية عملت على تطوير الحوار بين اليهود والكاثوليك وتعزيز تفاهم واحترام وتعاون لا يزال يتنامى بينهما. وبدون شك ستبقى الرحلة التي قمت بها إلى الأرض المقدسة مع لحظات الذكرى والتأمل والصلاة أمام نصب ضحايا المحرقة باد فاشيم وحائط المبكى، إحدى اللحظات الأبرز في رئاستي للكنيسة الكاثوليكية...».

أما الحاخامان الزائران فتحدثا بلسان ارييل شارون بدل أن يتحدثا حول ما يريده خالق السماوات والأرض من عباده، فطلبنا من البابا ممارسة نفوذه «من أجل محاولة وقف موجة الإرهاب التي تضرب الأبرياء وتهدد المصالحة» ومتابعة جهوده «من أجل إطلاق الأسرى الإسرائيليين لدى حزب الله في لبنان» مستعملين في معرض إبداء القلق من «تصاعد الإرهاب الديني في العالم» مفردات إيمانية متمثلة بقول الحاخام السفارديمي «نحن كلنا أولاد ابراهيم الذي

هذا ما كان المرء يتوقع سماعه من رئيس الكنيسة الكاثوليكية والذي أكثر ما نخشاه أن تتناقل همته من جزاء أعراض الشيخوخة ولا يعود قادراً على أن يقول مثل هذا الكلام الكفيل بإحداث صدمة في العقليين المسيحي واليهودي وبما يجعل الأمور تستقيم. وفي إنتظار اللحظة العربية الدولية التي تتكون نتيجة ما نتمنى حدوثه سيبقى حاخاما إسرائيل يبحثان عن الشمعدان في سراديب الفاتيكان بعدما شعرا أن البابا يوحنا من خلال لقائهما به لا يمانع في ذلك، وسيبقى الشارونيون على عدوانهم في فلسطين يواصلون إقامة جدار المبكى الذي لن يفيدهم في شيء خصوصاً إذا عزم الرئيس ياسر عرفات مدعوماً بحكومة احمد قريع وتوكل وأصدر قراراً في شأن الخطوة المتأجلة دونما موجب والمتمثلة بإعلان قيام الدولة الفلسطينية رسمياً مسبباً إرباكاً لا مثيل له للإدارة البوشية المشغولة البال بتجديد الرئاسة ولاية ثانية، وهو إرباك سترحب به ضمناً وربما علناً دول العالم ليس حباً بالفلسطينيين وإنما لأن شعوب العالم تريد أن ترتاح بعد نصف قرن عاصف من الضوضاء الصهيوني... والإلحاح الفلسطيني والإنتظار العربي.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الإثنين 2 فبراير (شباط) 2004

* * *

أوجه شبه بين ثورتَي

الرجل الواحد في مصر وإيران

عندما حلت ذكرى اليوبيل الفضي لثورة 23 يوليو 1952 لم يكن رمز هذه الثورة جمال عبد الناصر على قيد الحياة ليرى ما الذي جرى لثورته وأي تحولات باتت عليها تلك الثورة. فقد كان الرجل لاقى وجه ربه وهو في الثانية والخمسين من العمر يوم 28 سبتمبر (أيلول) 1970، ومع رحيله المفاجئ وهو في أواخر عمره الشبابي مترسلاً مصر طوال ثماني عشرة سنة تناثرت تلك الثورة ودخلت مصر مع أنور السادات مرحلة البحث عن وجه جديد لمصر لا يلغي الحقبة الثورية لكنه لا يتمسك بها. وفي ضوء هذه المعادلة إستدارت مصر من شرقها السوفياتي إلى غربها الأميركي وإنتهى رموز حقبة الزمن الناصري في أقصاف الإتهام ثم في السجن ثم في العراء

لن يكون سعيداً برؤية الأخ يقتل أخاه». ولم يقتصر الأمر على ذلك وإنما ناشدا البابا تخصيص يوم في الفاتيكان من أجل تدريس الدين اليهودي ثم أعلنوا بعد خروجهما من المقابلة انهما يخططان لزيارة تاريخية إلى الأقبية الأثرية في الفاتيكان للعثور على شمعدان تاريخي من المعبد الذي ورد في الكتاب المقدس والذي يقول اليهود إن الرومان دمروه قبل سبعين عاماً من الميلاد. ويعتقد الحاخامان إستناداً إلى بعض الدراسات أن الشمعدان ربما يكون في سراديب الفاتيكان.

ما كان المرء يتوقع سماعه من رئيس الكنيسة الكاثوليكية ما دام على هذا الإبتهاج النفسي من اللقاء وعلى هذه المشاعر الوجدانية من «لحظات الذكرى والتأمل والصلاة» أمام نصب ضحايا المحرقة وحائط (المبكى) في نظره وفق التسمية اليهودية و(البراق) وفق الحقيقة التاريخية أن يقول للقبطيين الدينينيين اليهوديين ما معناه أن هناك محرقة تحدث يومياً على أرض فلسطين من أعالي الجليل إلى غزة سببها عدم جنوح حكومة إسرائيل إلى التعقل والحكمة والروية والإلتزام بقرارات الشرعية الدولية، وهو ما يشكل أسباباً لموت العشرات من اليهود نتيجة عمليات يقوم بها فلسطينيون لم يبق أمامهم شباناً أو فتيات أو أمهات لأطفال سوى التضحية بحياتهم من أجل إستعادة حق مسلوب.

كذلك توقّعنا أن يقول لهما ما معناه إننا رجال دين ونفهم بعضنا، ومن واجبا متكاتفين متضامنين أن ننبه أهل الحكم في العالم، وبالذات أولئك الذين تشكل مرجعيات روحية لهم، من سوء خطواتهم وقراراتهم.. وبالذات إذا كانت قرارات لها صفة العدوان والحروب وانتهاك سيادات الآخرين وسرقة الأوطان والآثار والثروات الطبيعية وتجريف الأرض وإقتلاع الشجر وتدمير الحجر وإغتيل الاطفال. وتوقّعنا أيضاً وأيضاً أن يقول لهم إن ما يعتبرانه «الإرهاب الديني في العالم» له أسبابه ومن الضروري معالجة الأسباب، وإن ظاهرة «معاداة السامية» لها دواعيها ومن المصلحة التأمل في هذه الدواعي. وأنه لكي يتم إطلاق بضعة أسرى إسرائيليين في لبنان من الواجب إطلاق ألوف الأسرى الفلسطينيين والعرب في السجون الإسرائيلية، وأنه من الضروري إعتبار إستعادة الوطن والحق، خصوصاً بعدما تقلصت الأمانى إلى ما دون النصف بكثير، بأهمية السعي لإستعادة شمعدان من السراديب.. هذا إذا كان الشمعدان موجوداً بالفعل.

السياسي يبحث كل منهم عن ملاذ فلا يجده. ثم جاءت الحقبة الساداتية على البعض وإستقطبت البعض الآخر وإستسلم التاريخيون إلى أقدارهم وإلى العزلة بداعي المرض أو بدواعي خيبات الأمل، فهذا عبد اللطيف البغدادي يحاول علاج صحته، وهذا زكريا محيي الدين يواصل الابتعاد عن الناس قريباً من أبقاره وعجوله في مزرعته الموروثة، وهذا خالد محيي الدين يحاول بناء شأن حزبي يوائم بين المتناقضات وبذلك لم يشكل بديلاً شعبياً ولا أمكنه الحصول على أكثر من مقعد في مجلس الشعب إلى جانب ترؤس حزب ماركسي الجذور بنكهة ناصرية، وهذا محمد حسنين هيكل الشاهد التاريخي يحاول من خلال حبر قلمه ومخزون ذاكرته أن يحافظ على شبر ناصري في صحراء ساداتية مترامية الأطراف.

يطول الحديث عن الذي جرى بعد رحيل عبد الناصر وكان في بعض مناحيه إستمراراً لما كان يجري في حياته حيث الصراع من حوله وليس عليه في غاية الدراسة. وهو لو كان بقي سبع سنوات أخرى على قيد الحياة وحلت ذكرى اليوبيل الفضي لهذه الثورة التي دشنت بها حقبة الخيارات والمغامرات الثورية في العالم العربي لكان رأى ما لا يُفرح القلب من تحولات وصراعات ولكان سيجد بعد محطات التهام الثورة لبعض أبنائها أنه لا بد من حدوث تحول جذري في الإتجاه غرباً. وهذا ما وجد الرئيس أنور السادات نفسه بدأ يفعله مع اقتراب حلول ذكرى اليوبيل الفضي لثورة 23 يوليو، إنما ليس من منطلق إنتمائ الكلي الى تلك الثورة وإنما إنتساب أولي إلى «حركة 15 مايو 1971» التي إعتبرها «ثورته» الخاصة به بدل النظر إليها على أنها «إنتفاضة مباغته» على مراكز القوى الناصرية. لكن إغتياله على المنصة يوم 6 أكتوبر 1981 أوجد وضعاً جديداً يتمثل في أن الرئيس حسني مبارك تسلم من بعده، واضعاً الأساس لعهد جديد هو أنه رئيس لمصر المتحولة على نحو ما كان لا بد سيفعله الرئيس عبد الناصر لو أنه لم يفارق الحياة وفاة طبيعية، ولا بد كان الرئيس السادات سيتخذ خطوات متقدمة في شأنه لو أنه لم يفارق الحياة إغتيالاً.

ما أريد قوله من هذا التمهيد ككاتب يتابع باهتمام المحاولات والتحولات الثورية في المنطقة أن الذي أصاب ثورة 23 يوليو 1952 بعد ربع قرن على قيامها أصاب الثورة الإيرانية التي حلت ذكرى يوبيلها

الفضي يوم 11 فبراير الجاري. الأولى مثل الثانية كانت ثورة الرجل الأوحده وبرسم التصدير كما لو أنها «مانغا» مصرية فاخرة أو سجاد فارسي متقن الحياكة وبخيوط الحرير. والثانية مثل الأولى تزلت في سن مبكرة. ومثلما حدثت إلتهمات على موائد الحقبة الناصرية لعناصر من أبناء ثورة 23 يوليو 1952 حدثت إلتهمات على الموائد الخمينية في السنوات العشر التي أمضاها الأمر الناهي في الفترة بين عودته من المنفى الفرنسي عام 1979 وحتى ما قبل أيام من وفاته صباح يوم الأحد 4 يونيو (حزيران) 1989. ومثلما أن المخاضات في مرحلة ما بعد الوفاة أفرزت هاشمي رافسنجاني الذي هو من نسيج أنور السادات فإن المخاضات نفسها في مرحلة ما بعد السادات أفرزت حسني مبارك الذي هو من نسيج محمد خاتمي الذي يواجه أعتى التحديات لأنه يريد في قرارة نفسه أن يعتمد الأسلوب نفسه الذي يعتمد عليه الرئيس مبارك في التعاطي مع أميركا ودول الغرب عموماً لكنه يصطدم بعقبات من بينها أن الخمينية أنجبت عدة مراكز قوى تستهوي المتصارعين على السلطة، في حين أن الرئيس مبارك وجد الساحة خالية من هؤلاء بعدما تولى الساداتيون مهمة خنق تطوعات ورثة الحقبة الناصرية في المهده. وإذا كان الرئيس خاتمي غير قادر بعد ربع قرن على الثورة الخمينية على أن يواجه، رغم الشرعية الدستورية التي بات رمزاً لها، ديناصورات الشرعية الثورية، فلأن المعادلة على درجة من التعقيد بمعنى أن التغيير لا يحتمل الأخذ بخيارات مجزأة... أي بمعنى آخر انهم في إيران لا يريدون الأخذ بالأسلوب الفرنسي الذي هو الحل كونه يعتبر الثورة تراثاً وصفحات من أحد مجلدات تاريخ الوطن. وكما أن احترام هذا التراث واجب على الجمهوريات الفرنسية اللاحقة فإن البدء بنهج جديد مطلوب. وهذا ما يقوم به ضمن منهجية مدروسة الرئيس مبارك في مصر ومن دون معوقات أساسية ربما لأن مجتمع الحكم في مصر علماني مع مراعاة للقبضة العسكرية، في حين أن قبضة رجال الدين هي الفاعلة في مجتمع الحكم الإيراني.

ويبقى من هذه الخواطر لمناسبة حلول ذكرى اليوبيل الفضي للثورة الإيرانية التي شاءت الظروف أن تكون لي ثلاثة لقاءات مع زعيمها الإمام آية الله الخميني في منفاه الفرنسي ولقاءات كثيرة على الهامش، خلال سنوات المنفى ثم بعد العودة، مع

جزائر بوتفليقة: تأملات في «أم المعارك» الرئاسية

تسنت لي معرفة عبد العزيز بوتفليقة، الذي أعاد إلى الرئاسة الجزائرية حضوراً افتقدته لبضع سنوات، عندما جاء إلى الخرطوم صيف العام 1967 للمشاركة في القمة العربية الإستثنائية التي ستبقى حتى قمة مطلوبة بالروحانية نفسها أهم القمم العربية الإيجابية على الإطلاق. كان ذلك قبل حوالي 37 سنة. وفي داره رئيس الحكومة السودانية ووزير الخارجية محمد أحمد محبوب رحمة الله عليه كانت لنا فرصة الوقوف على ظاهرة سياسية عربية جديدة يحمل عبد العزيز بوتفليقة رقماً في لائحته. وللمرة الأولى لاحظنا كيف أن الرجل الثاني في النظام يمكن أن يكون وزير الخارجية ويكون بمثل ما هو عليه منذ حوالي عقدين وزير الإعلام المصري صفوت الشريف حتى من قبل صعوده إلى قمة المنصب في الحزب الوطني الحاكم. وهذه المكانة سواء لبوتفليقة في زمن بومدين ولصفوت الشريف في زمن الرئيس حسني مبارك سببها قدرة الوزير المرؤوس على إستيعاب ما يدور في خاطر رئيس البلاد وبأقل قدر من الشرح لما بين السطور. ومثل هذه الحذاقة انما من دون الإستحواذ على المنصب ظهرت في علاقة محمد حسنين هيكل مع جمال عبد الناصر وعلاقة محمد محبوب سليمان مع جعفر نميري وعلاقة الدكتور محيي الدين عميور مع الشاذلي بن جديد.

شاعت الظروف أن يمرض بومدين فجأة ثم يذوي وينتقل إلى رحمة الله بعد غيبوبة طويلة، فحدثت صدمة نتيجة لذلك في نفس النجم الصاعد في دنيا الحكم الجزائري الذي كان يمني النفس بأن يكون نائباً أوحده لرئيس الجمهورية، وبحيث تكون هذه الحالة شبيهة بمثيلتها في مصر حيث الرئيس من سلالة المؤسسة العسكرية ونائبه من بين المدنيين. وعلى حد ما نعرفه فإن بومدين كان يخطط لمثل هذا الأمر. وليس مثل الدكتور عميور كاتم أسرار الرئاسات الجزائرية على مدى أكثر من ربع قرن من في إستطاعته أن يؤكد مثل هذا التخطيط المستقبلي من جانب الرئيس بومدين.

بعد رحيل بومدين رأى بوتفليقة أن مساحة حضوره في دنيا الحكم والسياسة في الجزائر ستضيق أكثر مما

بعض الذين باتوا «أطباقاً» على الموائد الخمينية جرى إتهامها أمثال آية الله منتظري، والحفيد حسين الخميني المتمرد على التراث والورثة في وقت واحد، وإبراهيم يزدي، وأبو الحسن بني صدر، وقطب زاده... يبقى من هذه الخواطر واحدة توضح هذا التوجه الحميد نحو الديمقراطية من جانب الرئيس خاتمي. وما يمكن قوله في هذا الشأن هو أن الشعب الإيراني وبالذات الجيل الباحث وبنسبة تتجاوز الستين في المائة عن التغيير، على نحو ما يراه خاتمي في الحد الأدنى، مدين للإمام الخميني في هذا الأمر، ذلك أنه لولا مفاجأة آية الله متمثلة بإعلانه قبول وقف الحرب مع العراق وقوله إنه في ذلك كمن يتجرع السم، لما كان للحرب أن تتوقف ولا لداعميها من أميركا إلى بعض الدول العربية أن يوقفوا الدعم، وكان العناد سيجعل بالتالي إيران نموذجاً للدولة الحديدية التي لا مجال فيها لأي نسمة من نسائم الديمقراطية كما هي الحال في العراق الصدامي. لكن عبارة الخميني المشار إليها كانت اضاءة النور الأخضر أمام المرونة والواقعية والتفكير ببصيرة من يرون الأمور على حقيقتها. وعلى هذه البدهيات سارت الأمور وجاءت الإنتفاضة الخاتمية تجسدها. وليس تجنياً على الحقيقة إعتبار ما قاله الخميني بعدما ساءت صحته ولاحظ ملامح يأس أطبائه من شفائه بعد العملية الجراحية التي أجريت له في معدته، بأنه كان إستساحاً ثورياً لما سبق أن أعلنه عبد الناصر عندما فاجأ الأمة والعالم في خطاب ألقاه يوم الخميس 23 يوليو 1970 بعد زيارة للعلاج في موسكو شعر خلالها أن القلب ما عاد يتحمل، بالموافقة على مبادرة روجرز. ومثلما أن الذي قاله الخميني كان السطر الأخير في كتاب ثورته، فإن الموافقة التي صدرت عن عبد الناصر كانت سطرًا مماثلاً.

... وتلك هي حال الثورات، تتساقط أو تتناثر أو تتأقلم مع ظروف القاهرة... تاركة جماهيرها في مهبط التساؤلات أو المسائلة عن جدوى الإنشغال سنوات طويلة بالتصدير الثوري على حساب القضايا الداخلية الأهم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 12 فبراير (شباط) 2004

* * *

يحتمل. وعلى هذا الأساس فإن أمامه خيارين. إما أن يصبح دولياً بمثل ما إنتهى إليه أمر الأخضر الابراهيمي أو مرشحاً دائماً للحل التوافقي العربي - الإسلامي بمثل حال الابراهيمي الآخر أحمد طالب، واما أن ينأى تماماً عن منغصات الصراع السياسي وينتظر اللحظة - الفرصة متأكداً من أنها آتية لا ريب فيها كونه على نحو ما أشرنا، مارس في زمن بومدين دور الرجل الثاني في ذلك النظام الذي كان الأخير كرقم صعب في الجناح المغربي من الأمة وفي المعادلة المشاركة - المغربية.

كانت سنوات الهجرة البوتليقية سنوات عمل للعودة عندما تحين اللحظة . الفرصة. وفي هذه السنوات عزز خطوط الإتصالات غير المرئية وغير المشار إليها من قريب أو من بعيد بأهل القرار الأوروبي (الفرنسي في شكل خاص) والأميركي. وهكذا فإنه لمجرد أن تم التوافق عليه ليرأس بعد اليمين زروال، الذي إستعجل المغادرة قبل إنتهاء المدة، تراجعت هيمنة المؤسسة العسكرية على رئيس البلاد ربما لأن القنوات التي بين المؤسسة وكل من فرنسا والولايات المتحدة نشطت في إتجاه دعم الرئيس بوتليقة لكي ينقذ مشروعه ببعديه المحلي والشرق أوسطي إضافة إلى البعد الإقليمي. وفي ظل هذه الأبعاد التي نشير إليها كان الود الملحوظ بين بوتليقة والرئيس جورج بوش الابن الذي أوحى له عندما إستقبله في البيت الأبيض يوم الخميس 12 يوليو (تموز) 2001 انه ما دام هو (أي بوش) رئيساً للولايات المتحدة فإن بوتليقة باق رئيساً للجزائر. ونستحضر الآن إبتسامة غير تقليدية ظهرت على محيا الرئيسين كتعبير عن إرتياح كل منهما للآخر وشاهدناها على شاشات الفضائيات ثم على صفحات الصحف. وهو إرتياح كان له أثره النسبي في الشارع الجزائري على أساس أن لقاء الرئيسين سيساهم في تطوير التعاون في مجالات شتى تنعكس بالإيجاب لمصلحة إستقرار إقتصادي وأمني ومعيشي في الجزائر خصوصاً أن العلاقة بلغة الأرقام كانت تميل لمصلحة إمكانية التطوير، ذلك أن التبادل التجاري والإقتصادي بين الجزائر وأميركا بلغ حوالى أربعة مليارات دولار (أي مباشرة بعد السعودية) بينما حجم التبادل بين أميركا والمملكة المغربية في حدود مليار دولار، وبين أميركا وتونس أقل من اربعمائة مليون دولار.

وفي ظل الأبعاد الثلاثة نفسها كان الإنفتاح الخجول من جانب بوتليقة على إسرائيل، وهو بعض

ثمار التفاهم البعيد المدى بين بوتليقة وبوش، وكان إبرام المصالحة التاريخية بين الجزائر وفرنسا، وكان إستقبال العصر للرئيس جاك شيراك في الجزائر، يقابل ذلك إهتمام لا مثيل له في تاريخ علاقات فرنسا الخارجية بالرئيس بوتليقة. وفي ظل الأبعاد الثلاثة أيضاً وأيضاً جاء الحضور الملحوظ لبوتليقة في المحيطين العربي والأفريقي وبحيث بات مؤثراً في صناعة قرارات دول هذين المحيطين.

هذه الإنجازات أوجدت في الجزائر إرتياحاً شعبياً أضفى بعض الحيوية على تطلعات بوتليقة في أن يغادر دائرة الرئيس الذي يدير أزمة أو يدير بلداً دائم التأزم إلى رئيس تاريخي.. أي بما معناه يجدد الولاية الرئاسية ويتكرر التجديد ما دام صحيحاً قادراً على ممارسة مهامه. ومن أجل ذلك بدأ يأخذ بقاعدة «إن لجسمك عليك حقاً». وقد عززت في نفسه أن يكون الرئيس التاريخي حالة الرئيس حسني مبارك في مصر وحالة الرئيس زين العابدين بن علي في تونس فضلاً عن قيادة العقيد معمر القذافي للبيبا منذ 1969. كذلك عززت تطلعات بوتليقة المتطلبات الدولية والإقليمية لتحقيق التجديد. كما أن الإنجازات وما يحيط بها من بعض المقومات والظروف الموضوعية جعلت الذين يمينون النفس بالتروؤس على أساس أن قاعدة الرئيس الذي لا مجال لتجديد رئاسته باتت راسخة، يشعرون بأن الفرصة لن تتاح لهم في حال جدد بوتليقة ولاية رئاسية ثانية تتبعتها ثالثة.. وهكذا. وكان الأمين العام لجهة التحرير علي بن فليس هو أكثر المصدمين بإتجاه بوتليقة الى تجديد الرئاسة وذلك لأن الرجل الذي تعلم الرماية يومياً في سنوات الولاية الأولى للرئيس بوتليقة ووقف بحكم قربه من عقل بوتليقة وخصوصياته الرئاسية ونقاط القوة والضعف في علاقاته العربية والأجنبية وأسلوب الإدارة المتميزة له في إستيعاب الصدمات وتطويع التحديات... ان الرجل قرر أن يرمي الذي علمه الرماية من دون أن يأخذ في الإعتبار أن بوتليقة بات، مثل حسني مبارك وزين العابدين بن علي، رئيساً إستثنائياً قد يكون عصياً على خصومه والمتطلعين إلى خلافته تغييره من خلال المناورات والإستقالات والإعتصامات في اطار الشرعية الحزبية والدستورية أو خروجاً على هذا الإطار، أو من خلال مبادرات للتسوية من نوع مبادرة الانقاذي المنفي عباس مدني الذي دعا يوم الخميس 15 يناير (كانون الثاني) الماضي الى تأجيل

الانتخابات الرئاسية وانشاء «مجلس تأسيسي سيد».
وحتى الآن لم يعلن بوتليقة ترشيح نفسه رسمياً
لولاية رئاسية ثانية، مراقباً التطورات منتظراً على
الأرجح لحظة إقتناع الجيش والشعب بأن الرئيس
صاحب مشروع يتطلب إستكمال ولاية رئاسية ثانية
تبدأ بعد شهرين. وهو خيار يبقى أفضل من عودة
الجزائر إلى الإقتتال... من أجل الإقتتال. وفي إنتظار
أن يعلن الترشيح، وتستقر معركة بوتليقة التي هي
«أم المعارك الرئاسية» على بر النصر تأتي هذه
التأملات في بوتليقة الذي عرفناه قبل 37 سنة شاباً
في عقل شيخ صاحب تجربة، والذي نجده منذ خمس
سنوات شيخاً في همة الشباب يرى أن المستقبل ما زال
أمامه.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 19 فبراير (شباط) 2004

* * *

ضيوف الأمة... الذين لم يعودوا ثقلًا!...

جاء فوز تونس على المغرب ببطولة أمم افريقيا
في كرة القدم متزامناً مع حسم مسألة إستضافة القمة
العربية الدورية الرابعة. وبدا هذا الفوز هدية من كروي
تونس للرئيس زين العابدين بن علي بمثل هدية كروي
المنتخب الفرنسي بطولة كأس العالم للرئيس جاك
شيراك قبل بضع سنوات. وعند المقارنة بين إبتهاج
الرئيس بن علي يوم السبت 14 فبراير (شباط) الجاري
بالفوز الكروي على مستوى أفريقيا مع إبتهاج الرئيس
شيراك بالفوز الكروي على مستوى العالم، يكشف
المرء ما الذي تعنيه الإنجازات الكروية للحكام وبالذات
في أزمانهم الصعبة نتيجة تعقيدات المشاكل المحلية
أو الإقليمية أو الدولية.. أو الثلاث مجتمعة. وما
تعانيه تونس بن علي يندرج في الحالة التي نشير إليها
حيث الإتحاد المغربي مترنح على نحو توصيف
عمرو موسى أيام كان وزيراً للخارجية المصرية لتجمع
«دول إعلان دمشق»، ومعركة تجديد الرئاسة موضع
أخذ ورد حيث إن بن علي يتطلع إلى مبايعة على
مستوى الأمة له، بينما هنالك بعض إخواننا التوانسة
يريدون إختراق الظاهرة المألوفة، وذلك بدخول المنافسة
مستغلين الرغبة الأميركية في أن تسود الديمقراطية
والتعددية دول منطقة الشرق الأوسط.

أما الوضع العربي عموماً فعلى درجة من
التعقيدات التي تخشى تونس من أن تنعكس تداعياتها
عليها. ومن أجل ذلك حاولت إبعاد القمة العربية
الدورية الرابعة عنها واستبقت الموعد المحدد للإعقاد
ببضعة أسابيع فأوحت وعلى المستوى الرسمي بأن
هذه القمة قد تنعقد خارج تونس إنما تحت الرئاسة
التونسية، على نحو ما حدث للبحرين التي إستضافت
قمتها بموجب الترتيب الأبجدي في «شرم الشيخ» بدل
المنامة وبرئاسة الملك حمد بن عيسى آل خليفة.

هذا العدول عن قرار كان قيد الإلتخاذ ويقضي
بإبعاد الإعقاد عن تونس، وكأنما لقاء ملوك الأمة
ورؤسائها وشيوخها وسلطانها كأساً كثيرة المرارة وليست
مكاسب معنوية مجزية، يستوجب التأمل. وقد يصعب
خارج التأمل والإفتراضات الوقوف على أسباب هذا
العدول بمثل الوقوف على موجبات إبعاد الإعقاد عن
تونس. أما في إطار التأمل والإفتراضات فإن ما يمكن
قوله يتلخص في الملاحظات - الإستنتاجات الثلاث
الآتية:

الملاحظة الأولى هي أن الموضوعين الأساسيين
المطروحين على بساط البحث العربي الآن هما
الموضوع العراقي والموضوع الفلسطيني. والموضوعان
أميركيان بداية ونهاية بمعنى انه من غير المجدي
مناقشتهما إذا كان ذلك سيتم في معزل عن تشخيص
يتسم بنسبة من التجرد والموضوعية. ومثل هذا
التشخيص الذي نشير اليه يستوجب مطالبة الإدارة
الأميركية بإنهاء إحتلال العراق وترك العراقيين
ينتخبون برلمانهم ويختارون حكومتهم ويضعون
دستورهم وينصّبون رئيساً لهم في إطار صيغة توافقية،
كما يستوجب مطالبة الإدارة أيضاً بتنفيذ تعهداتها
المتمثلة في الحد الأدنى بـ «خارطة الطريق» ورفع
الغطاء عن السلوك الشاروني وإدانة جداره الذي
يواصل المضي في بنائه على رغم الإعتراض الدولي
على ذلك. والإدانة التي نقصدها هي في ترك محكمة
العدل الدولية تتخذ الخطوات اللازمة في هذا الشأن
وبما ينسجم مع رؤية الرئيس جاك شيراك الذي إعتبر
الجدار مخالفة قانونية كون إسرائيل من خلاله تستولي
على أراض فلسطينية.

الملاحظة الثانية هي أن المطلوب من القمة في
الحد الأدنى تأكيد قرارات سابقة من بينها تجديد
التمسك بالمبادرة العربية المعروفة بـ «مبادرة الأمير
عبدالله بن عبد العزيز» والتي أقرتها بالإجماع القمة

تلك هي حيثيات الصد التونسي إزاء قمة لا خلاف على زمانها ومكانها. أما ما الذي جرى وما هو الحل السحري الذي وضعه الأمين العام عمرو موسى أمام الرئيس بن علي وبسببه أعاد النظر وقرر أن تكون الإستضافة كما هو مقرر، وبذلك لم تعد القمة ذلك الضيف الثقيل، فهذا سيبقى في علم الغيب ما دام الأمين العام لم يوضح وما دام الرئيس بن علي لن يكشف.

ويبقى القول إن هذه القمة من الصد إلى العدول أزعجت عن الصدر العربي حملاً كان ثقیلاً وأبقت القمة كانعقاد دوري في دائرة الإلتزام بما يتم الإتفاق عليه. أما ما الذي سيحدث عندما سيلتقي قادة الأمة يومي 29 و30 مارس (آذار) الحالي في الديار التونسية... فلن يكون في أي حال من الخوارق.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 2 مارس (آذار) 2004

«حكيم الثورة» الذي ضيّعوا وطنه...

وضاع بيته!!

ليس هناك ما هو أبقي في الذاكرة مثل البيت الذي عاش فيه الإنسان في المدينة أو البلدة أو القرية التي فيها هذا البيت. وحتى إذا كان هذا البيت عبارة عن غرفة أو إثنين فإن وطأة فقدانه أو الإبتعاد عنه تبقى كثيرة الإيلام للنفس. وفي إستمرار كنا نسمع من جيل النكبة الفلسطينية الأولى وعندما إستقر بهم المقام في الديار العربية أن في الحلق غصة وفي القلب حرقة على البيت الذي تركه هذا الفلسطيني أو ذاك هرباً من عدوان العصابات الصهيونية.. وكانت تلك غلطة كبرى إستوعب خطورتها جيل ما بعد هزيمة 1967 وإستوعب الخطورة أكثر وأكثر فلسطينيو زمن الإنتفاضة الذين يرفضون مغادرة البيت والبلدة والأرض على نحو ما يريد الشارونيون ذلك ضمن مخطط التهجير لكي تخلو فلسطين من الفلسطينيين وتندثر الهوية إلى الأبد.

وما حدث للفلسطينيين حدث للبنانيين والعراقيين والسودانيين وآخرين كثيرين بين ديار الخليج وقفار المحيط وجدوا أنفسهم في لحظات فوضى أو إقتتال أو إقتصاص يتركون البيت والبلد ويغادرون إلى حيث في

الدورية الثانية في بيروت، وتجديد الإلتزام بقرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع أي دولة تنتقل سفارتها إلى القدس، لأن معنى هذا الإنتقال إعتراف بأن القدس عاصمة موحدة لإسرائيل. وهذا يعني ليس فقط إنتفاء مسألة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس وإنما أيضاً سقوط المقدسات الإسلامية والمسيحية في الأسر الإسرائيلي إلى الأبد.

الملاحظة الثالثة هي أن المطلوب من القمة حسم الموقف من «إنتفاضة الأقصى» بحيث يكون هنالك تجديد الدعم لها على نحو ما كان يحدث في القمم الماضية وليس التجاهل أو إستبدال مفردات الدعم بمفردات تضيق فيها الإنتفاضة كحق مشروع وتصبح «حالة إرهابية» على نحو ما ترى ذلك إسرائيل والإدارة الأميركية.

ما أورده هو الحد الأدنى المطلوب من القادة العرب تضمينه في بيان القمة أو الإعلان الذي يصدر إلى جانب البيان. وحيث ان الظروف الدولية، وتحديدأ نتيجة الجناح الأميركي في إتجاه التبنى المطلق للسلوك الشاروني وكذلك في إتجاه عدم اعادة النظر في التعامل الراهن مع الموضوع العراقي، تجعل من الصعب على هذه القمة أن تكون واضحة وصریحة وحازمة، فإن الرئيس بن علي سعى إلى أن تتعقد هذه القمة خارج تونس خصوصاً ان ليس هنالك دولة شقيقة تتطلع إلى بادرة من الرئيس بن علي بتجسير الإنعقاد إليها، بمثل ما فعل الشيخ زايد بن سلطان الذي أهدى القمة الدورية الثانية إلى لبنان بدلاً من إنعقادها في أبو ظبي.. وهي لفظة قوبلت بالإمتنان من لبنان واللبنانيين.

ولكن هذا ليس كل شيء. فهناك زيارة الرئيس بن علي إلى واشنطن بعد أيام. وهو لا يريد دخول البيت الأبيض متحدياً بإفتراض انه مضيف قمة منسجمة مع الأماني العربية وغير مسايمة للرؤية الأميركية، كما أنه لا يريد أن يقال وهو على أهبة إنتهاء ولاية رئاسية ودخول ولاية جديدة ان القمة الدورية التي كانت من نصيب تونس إنعقدت بعد تطابق وجهات نظر أميركية -تونسية خلال محادثات الرئيس بن علي مع الرئيس بوش الابن وبما ترتاح إلى ذلك الإدارة الأميركية.

وإلى ذلك هنالك بعض الظروف المتعلقة بالإحتياجات المالية وكيف أن الميزانية التونسية لا تتحمل إنفاقاً على قمة لن تجني من وراء إنعقادها سوى الإحراجات.

إستطاعتهم العيش بالحد الأدنى من عزة النفس. ولطالما سمعنا من سوداني يقيم في إحدى المدن الأميركية أو الكندية أو البريطانية الكثيرة الرفاهية والرقى كلاً ما يتحسر فيه أسى على نفسه لأنه بعيد عن البيت الذي يفتقد إلى كل وسائل العصر والواقع على شارع ترابي. وسمعنا الأسى نفسه من عراقيين ولبنانيين ومصريين يحملون حتى في ساعات اليقظة بالبيت والحديقة الصغيرة والترعة والضفة على جانبي النيل وبردى والوزاني والفرات ودجلة ويتحدثون عن هذه الضفاف بمفردات عابقة بشاعرية عفوية ومن دون أن يستوقفهم أن ضفاف «الدانوب» و «التايمز» و «السين» وبحيرة جنيف هي ذروة الترتيب والرقى والنظافة على عكس ضفاف الأنهر والبحيرات العربية. وعندما كنا نقول أمام أحد من هؤلاء المهاجرين بالإضطراب وليس بالإختيار ما الذي يوجب هذا الحنين وأنت تتعم بما هو ليس متوفراً في بلدك؟ وهل من المعقول هذا الحنين إلى البيت الأبوي وتراب الشارع والهجير والمياه غير النظيفة ووسائل الترفيه البدائية بينما أنت هنا في العالم الأكثر تمدناً وتطوراً وإحتراماً للذات تعمل وتتطبب وتتيح الفرصة أمام الأبناء والبنات من أجل أن يكون مستقبل كل منهم مضموناً... إننا عندما نقول ما أوردناه نسمع من أي من هؤلاء جواباً شبه موحد المفردات خلاصته أن من يفقد بيته الأبوي يفقد أعز ما لديه وأن التعلق بالبيت الأول هذا هو بمثل أن الحب الحقيقي هو للحبيب الأول.

يطول الكلام في الحديث عن هذه العلاقة الوجدانية بين الإنسان وبيته الأول وكيف أن هذا البيت يبدو بالنسبة إلى فاقد الوطن أمثال الفلسطينيين هو فقدان الأمل في العودة.

ومناسبة هذا الكلام أن الدكتور جورج حبش الذي إصطلح رفاقه وعارفوه وقارئو سيرته على تسميته «حكيم الثورة» والمطلوب من سوريا إبعاده مع آخرين وإلا فإنها تكون ترعى الإرهاب ومن الضروري إعلان الحرب عليها، إلا إذا هي إعتمدت السلوك الليبي الذي لا مثيل لممارته على النفس، فقد البيت الأبوي الذي وُلد فيه ونشأ قبل أن تحط الرجال به في بيروت طالباً في الجامعة الأميركية، ثم واحداً من زعماء الثورة الفلسطينية في زمن كان النضال الفلسطيني ظاهرة تستوجب التقدير. والذي حدث أنه في زحمة الإجتياح الشاروني للبشر والحجر والشجر بين القدس وغزة وفي

إستمرار الحصار للرمز الأعلى في السلطة الوطنية الفلسطينية ثم تطوير العدوان بحيث يشمل بناء «جدار شارون» على أرض الغير بمثل «خط بارليف» على أرض مصر ثم نهب المصارف في رام الله وبأسلوب مقتبس من مافيات نيويورك وشيكاغو وغيرهما... في هذه الزحمة أتى نبأ من الوطن المغلوب على أمره من جانب الضمير العالمي مفاده أن «دائرة أراضي إسرائيل» المسؤولة عن الأراضي التي إستولت عليها الدولة العبرية بعد فرض هذه الدولة بفعل المؤامرة الدولية والأمر الواقع والتي، أي الأراضي، مملوكة من اللاجئين الفلسطينيين الذين غادروا الديار في زمن نكبة 1948، عرضت للبيع في مناقصة مطلع يناير من هذا العام بيت الدكتور جورج حبش في «اللد» للبيع وأن المناقصة رست على يهودي مغربي قام بتحويل بيت «حكيم الثورة» إلى بيت عصري بغرض طمس معالمه القديمة. كما أن بلدية اللد تشجيعاً منها لليهودي المغربي قامت بشق شارع جديد بالقرب من البيت كي لا يشقى الشاري في الوصول بمثل ما كان يشقى أهل جورج حبش ويشقى معهم.

عندما تأملتُ في هذه الواقعة عادت بي الذاكرة إلى ما سبق سماعه من الدكتور حبش يرويه عن البيت الأول في اللد وذلك خلال واحدة من جلسات حوار طويلة معه قبل ثمان وعشرين سنة، في واحد من «بيوته» العابرة في الشتات، إنتهت كتاباً حول قصة حياته نشرته عام 1984. ولقد فاجأني، وهو الذي كان حديث العالم زمنذاك وبالذات لأن عناصر من «الجهة الشعبية لتحرير فلسطين» التي أسسها بدأت عملياً، وقبل أسامة بن لادن بسنوات، أسلوب التحدي الفعلي للولايات المتحدة ودول أوروبا من خلال خطف الطائرات وتفجير بعضها في «مطار الثورة» في الأردن، أنه يتحدث بوجدانية وحنين إلى بيته في اللد بمثل وجدانية وحنين كل الذين أشرنا إلى حالاتهم وكيف أنهم وهم في البيت المريح في ديار الإغتراب والشتات يذوبون شوقاً إلى البيت الأول... حتى إذا كان عبارة عن غرفة أو غرفتين بمثل بيت جورج حبش. ولا بد أن القارئ سيشاركني المفاجأة والدهشة وهو يقرأ هنا ما سمعته قبل 28 سنة من «حكيم الثورة» عن بيته. ومما قاله متغنياً بالبيت الذي إنتهى بعد ذلك الحوار معه بحوالي ثلاثة عقود ملكاً لليهودي مغربي ليفقد بذلك «حكيم الثورة» ملكية البيت بعدما أفقدوا بني قومه وأفقدونا معهم أحقية الوطن. وما قاله

كان الآتي:

«إنني وأنا أتحدث معك الآن ترتسم في ذهني صورة اللد وصورة يافا وصورة القدس. أتذكر بيتنا في اللد الذي كان عبارة عن غرفة واحدة مبنية ننام فيها. وأمام الغرفة مصطبة، ثم قطعة أرض صغيرة. أتذكر شجرة التوت العالية أمام بيتنا والتي كنا ونحن صغار نتسلق لنأكل من ثمرها. أتذكر أيضاً شجرة اللوز، وغرسة الورد والفلّة الصغيرة أمام المصطبة. أتذكر بيوت الخشب وحائط الصفيح الذي كان يفصل بيننا وبين جيراننا. أتذكر جيراننا آل حنحنا وآل سيف الدين. أتذكر الشارع الرئيسي في مدينة اللد والشوارع المتفرعة. أتذكر الطريق التي كنا نمشي عليها لنصل إلى المدرسة الابتدائية. أتذكر المدرسة نفسها بمدخلها وسلّمها وبوابتها وبابها. أتذكر مدير المدرسة توفيق أبو السعودي كيف كان يمشي وكيف كان يخاطبنا. أتذكر سوق المدينة والشارع الذي يؤدي إلى السوق. معالم الدكاكين واضحة الآن في ذهني كما لو أنني هناك الآن. إنني أرى اللد في هذه اللحظة بالوضوح الذي أرى فيه حي صبرا حيث نحن الآن، أو مخيم شاتيل. (إثنان من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان).

«واللد ليست قرية، كانت مركز لواء، ولذا فهي أقرب ما تكون مدينة صغيرة. للمناسبة أتذكر نقطة كانت شائعة في ذلك الوقت وخلصتها «إن اللد هي الدولة الثامنة» على أساس أن سبع دول خاضت الحرب وأن اللد كانت تعتبر نفسها، أو على الأصح يعتبرها سكانها، دولة قائمة بذاتها.

«إن اللد في الواقع هي إحدى المدن الصغيرة في فلسطين. وهذه المدن هي: الرملة، صفد، رام الله، جنين. أما المدن الكبرى فهي القدس ويافا وحيفا. وميزة أهل المدن الصغيرة في فلسطين أنهم أكثر التصاقاً بالأرض والوطن ربما لأنها مدن زراعية. والذي يعيش من الأرض يكون أكثر تمسكاً بها من غيره.

«وأذكر الآن كيف كنا ننظر إلى بعض عائلات اللد من الأغنياء. لم تكن في ذلك الوقت نعرف الكلمات التي أصبحت معروفة بعد ذلك، «إقطاعي» و«بورجوازية». ولذا كنا نطلق على هؤلاء وصف «الكبار» وكنا نحن «الصغار» نشعر بعقدة حيال هؤلاء. و«الكبار» هؤلاء كانوا إما أصحاب متاجر أو ملائك أرض.

«الأكثرية في اللد من المسلمين. وعموماً إن المسيحيين في فلسطين أقلية. وفي أي حال إن

الطائفية في فلسطين ليست حادة. وكان الجميع يلتقون في وجه الخصم المشترك. كان هناك بالفعل تعايش. وإلى حد ما كانت العادات والتقاليد واحدة».

طال حديث الذكريات مع «حكيم الثورة». وقصة حياته في مجملها تشكل إجابة عن السبب الذي يجعل الفلسطيني يستعذب الإستشهاد عندما يُستلب منه الوطن ويُرفض مطلبه في حق العودة، وفي أن تكون له دولة على بعض الوطن ولها عاصمة فيها الحرم الثالث، ثم يبدأ الجرف والإغتيال والتدمير والحصار وبناء الجدار والتخلص من كل الإتفاقات، وإستعماله ورقة رابحة في الإنتخابات الرئاسية الأميركية، وبما يكون مردود هذه الورقة لمصلحة إسرائيل وضده كإنسان صاحب حق مسلوب. ولو أن الدكتور جورج حبش ليس في الوضع الصحي الصعب ويخطو نحو الثمانين لكان انتسب إلى ركب الإستشهاديين وهو يتبلغ بأن حتى البيت الصغير في اللد قد إنتهى أمره إلى يهودي مغربي سيبتهى بأنه بات يملك بيت «حكيم الثورة» الذي طالما كان يحلم بأن «الجبهة الشعبية» ستقوده إلى فلسطين المحررة فإذا بالأمور تسير في اتجاه فقدان الوطن وبعبثة القضية وضياح البيت.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 9 مارس (آذار) 2004

عاجل لقمة تونس: ثمة قضية تنكمش..

ومشروع لإبقاء الفلسطيني منزوع القضية!..

سيأتي يوم، لا سمح الله، نجد فيه أن القضية الفلسطينية تقلصت إلى درجة أنها باتت منحصرة بقطاع غزة، وأن التشاور الدولي - العربي سيكون حول هذا الأمر وكأنما شعار المرحلة سيصبح: لا وجود بعد اليوم لبلد إسمه فلسطين أو قضية إسمها القضية الفلسطينية.

ما يحملنا على هذا القول هو أن إنكماش القضية يتواصل بشكل مبرمج منذ أن إرتأى الرئيس (الراحل) أنور السادات إبرام معاهدة مع إسرائيل تولت طبخها ورعايتها الإدارة الأميركية الديمقراطية في عهد الرئيس جيمي كارتر. ولقد تدرجت عملية الإنكماش بحيث أنها باتت مثل قطعة قماش كانت تنكمش، أو «تكش» بلغة

العامّة أو «تكرمش» على نحو تعبير أخواننا المصريين، كلما تم غسلها وعصرها، وفي ظن الذين يتولون عملية الغسل والعصر أنهم بذلك ينظفون هذا القماش، قميصاً كان أو تنورة من البقع غير النظيفة التي علقت به أو بها.. ولكن لا فائدة لأن تلك البقع، ونعني بها هنا الاجتهادات من جانب بعض أولي الأمر، والتنازلات من جانب هؤلاء وأولئك لكل المشاريع والمخططات الأميركية غير النزيهة من نوع يستعصي على كل أنواع المنظّفات تنظيفه.

بعد تلك المعاهدة المصرية - الإسرائيلية التي أوقفت خيار المواجهة من جانب العرب كأمة، حلت ظاهرة العدوان الإسرائيلي الذي يستهدف أي جهة رافضة للأمر الواقع السلمي شكلاً الإستسلامي مضموناً. ثم تطورت الإعتداءات بحيث باتت إجتياحاً وإحتلالاً على نحو ما حدث للبنان وفيه بدءاً من جنوبه وصولاً إلى عاصمته. ولولا أن صيغة فريدة من نوعها للمقاومة حدثت لكان لبنان بات إما مستسلماً للشروط الإسرائيلية وإما حاله مثل حال أراضي «السلطة الوطنية الفلسطينية» تحت الحصار والإعتداءات الشارونية على مدار الساعة. ثم أنجزت المقاومة تحرير الجنوب فإنصرفت إسرائيل، وبالذات مع حكومات نتياهو وبريز وباراك وشارون، إلى الإستفراد بالفلسطينيين وممارسة أبشع أنواع العدوان والعنصرية عليهم، مطمئنة إلى أن العرب في حال من السكون الذي يجعل ذلك الإستفراد مجرد مشاكلات تحدث بين اليهودي وابن عمه الفلسطيني على نحو تصنيف الرئيس ياسر عرفات لهذه القرابة.

ما حدث من تطورات في ضوء ذلك، ثم في ضوء صفقة أوسلو العرفاتية - الرابينية تؤام صفقة كامب ديفيد بين السادات ومناحيم بيغن، يثير الدهشة. باتت القضية تنحصر في دولة شكلية عاصمتها القدس. ثم إنكمشت قليلاً لتصبح القضية إنسحاب القوات الإسرائيلية من أراضي السلطة الوطنية. وطراً إنكماش جديد يتمثل في أن القضية أصبحت تنحصر في رفع الحصار عن مقر الرئيس عرفات. وأضيف إنكماش جديد يتمثل في وقف بناء جدار شارون الذي بُني أصلاً بإفتعال كان الغرض منه صرف الأنظار عن القضية الأساسية التي إسمها «القضية الفلسطينية». ثم تزايدت الإنكماشات بحيث أنها وصلت إلى حد أن القضية الفلسطينية إنحصرت بقطاع غزة. وحول هذا الأمر يدور منذ أشهر التشاور المصري - الأردني -

الفلسطيني - الإسرائيلي - الأميركي. في تقديرنا إن هذا التشاور سيطول وستستوجب مقتضيات التطويل إرسال مبعوثين أميركيين ينتقلون مكوكياً لهذا الغرض بين القاهرة والقدس ورام الله وعمان. وستتعرّض مهمة هؤلاء أحياناً، ثم تحقق نتائج «طيبة» أحياناً أخرى. وبعد ذلك تخرج الإدارة الأميركية بـ «خارطة طريق» تأتي هذه المرة من الرئيس (الديمقراطي). مفترضين أن جون كيري سيهزم الرئيس (الجمهوري) جورج بوش الابن - وستكون الخارطة تدشيناً لانكماش جديد يدفع بمصر التي لا تفارقها الضغوط الأميركية إلى القبول بإستضافة الشعب الفلسطيني الشقيق على أرض سيناء وتعمير الصحراء على نحو مخالف لرؤية جمال عبد الناصر، الذي في زمن طموحاته الرومانسية اليعربية صدحت حنجره عبد الحليم حافظ بكلمات صلاح جاهين - رحم الله الثلاثة - «نفوت على الصحرا تخضر». والإضرار هذه المرة عبارة عن زرع شعب فلسطين المختار في أرض سيناء من أجل أن يرتاح «شعب الله المختار» في أرض فلسطين التي لن تعود قضية في إطار مخطط التجزئة الجديد المسمى «الشرق الأوسط الكبير». وبموجب هذا المخطط لا يعود هنالك كبار وصغار في هذا الشرق العربي - الإسلامي وإنما الكل سواسية ومثل أسنان المشط أمام الكبير الوحيد الذي هو «العم سام».

عسى ولعل تكون لدى أولي الأمر الذين سيلتقون بعد أيام في القمة العربية الدورية الرابعة في تونس وقفة تأمل في هذا الذي جرى ويجري استباقاً منهم للأعظم الذي سيجري. وقفة تبدأ من معاهدة كامب ديفيد، التي ربما من جملة ملاحقها السرية التي لم يعلنها الرئيس السادات أن تكون سيناء هي «الوطن الفلسطيني الموعود» من أجل تكريس فلسطين «أرض الميعاد». وقد يكون الإصرار على تضمين تلك المعاهدة أن تكون سيناء المتاخمة لقطاع غزة منزوعة السلاح، هو من أجل التوطين المشار إليه، على أن يبقى الفلسطيني في الشتات حيث هو، منزوع القضية بصفة «مواطن مأمون الجانب» بمثل ما هي حال الأرمني المستعرب، وخصوصاً بعدما انكمش حق العودة بدوره وبحيث بات هناك بعض المنظرين والطموحين الفلسطينيين الذين يرون ما يراه الإسرائيليون في هذا الشأن. وما يحمل المراقب مثل حالنا على هذا الإقتراض - الاجتهاد هو أن مصر

هي الوحيدة عملياً التي تتعاطى بحيوية ومسؤولية مع الأمر الفلسطيني - الإسرائيلي العالق بينما أكثرية الآخرين في حال من السكون... وكأنما على رؤوسهم الطير.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 16 مارس (آذار) 2004

* * *

إنها محنة ثورية... عربياً وإسلامياً..!

تعيش «الثورية العربية» ومعها «الثورية الإسلامية» في ضوء ما جرى في المنطقة منذ الغزوة العراقية للكويت يوم الخميس 2 أغسطس (آب) 1990 وما نشأ عن هذه الغزوة من إعتداءات في صيغة الحرب والتأديب والحصار وإستنزاف الثروات وصولاً إلى الذي جرى للعراق وما زال يجري له وفيه، محنة حقيقية. ومن دلائل هذه المحنة ما يصدر عن الثوريين العرب والمسلمين من مواقف هي أشبه بالتحولات أو التبرؤ من الماضي أو تجميل الوجه الثوري بمستحضرات تصب مع الأسف الشديد في مصلحة الجانب الأميركي الذي يجير بدوره المنافع لإسرائيل.

وبصرف النظر عن حيثيات كل طرف ثوري، مصرياً كان أو جزائرياً أو ليبياياً أو إيرانياً أو فلسطينياً أو سودانياً أو سورياً أو يمنياً، وما يطرحه هذا الطرف أو ذاك من تنظيرات في شأن هذا التحول من جانبه، فإن ما نعيشه يستوجب وقفة ومراجعة ونقداً للذات وللجربة كي لا يكون إستجهان المواطن العربي والمسلم في كل من الدول التي سميناهما لعدم توضيح ما يجري بمثل إستهجانهم لعدم التوضيح في الماضي لما كان يجري.

ومن المؤكد أنه في حال حدثت الوقفة والمراجعة والنقد الذاتي فإن ما يشبه التصحيح يكون حل محل التعقيم على الحقيقة. والتصحيح الذي نعنيه هو إعتبار سنوات الماضي تراثاً إذا كان من الصعب إعتباره تجربة حكم متخبطة لأنها قامت على التقليد أو الإنفعال أو فيضان المشاعر القومية أو إحتكار السلطة. والتصحيح ليس بذلك الأمر المستهجن بل انه مطلوب بصرف النظر عن الأسباب وما إذا كانت وقائية أو إضطرابية. أما إذا كانت ستحدث نقلة من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ومن دون تلك

المراجعة أو النقد الذاتي فإنها ستبدو كأنها ليست رؤية اختيارية وإنما هي تنفيذ لأوامر أو إذعان لمطالب.. أو أنها نوع من الإلتقاء غير المستحب الأخذ به لفقدان السلطة.

والى ذلك فإنه في ضوء هذه التحولات التي نشهد حدوثها في الأنظمة الثورية العربية والإسلامية وكيف أن هذه الأنظمة لم تُسعف بعضها.. هذا إذا لم نقل إن هنالك من كان يتمنى السقوط للنظام الثوري الآخر، لن يكون هنالك نظام ثوري مستقبلاً. بل أن الحديث حول الثورة والتغيير الثوري سيصبح غير مستحب. وهذه النتيجة تتحمل وزرها أنظمة تتقلب على نفسها من دون أن توضح وتعلل وتحاسب الذات... أو أنها مثل ما تعكسها حكاية من يقود نظاماً ثورياً على طريقة سائق السيارة الذي يتذاكى على الآخرين حيث أنه يعطي إشارة نحو اليسار ثم يتجه إلى اليمين.

وفي المشهد الثوري الذي أمامنا نلاحظ تحولات وتقلبات كان من الممكن تفاديها لو أن هذا الحكم الثوري أو ذاك إرتضى في ذروة كوابيس العقيدة التي أرهقت نفوس الناس إضفاء بعض المرونة على نوعية تعامل الحاكم الثوري مع الناس. لكن هذه المرونة لم تحدث، الأمر الذي جعل المواطن يشعر أنه في غربة عن وطنه.

وليس واضحاً ما إذا كانت هنالك إمكانية أمام الذين أقاموا أنظمة ثورية، للمحافظة على الطابع الثوري لهذه الأنظمة، وهل أنهم سيستمرون متمسكين بالتسميات الثورية للأنظمة. كذلك ليس واضحاً ما إذا كانت هنالك بعد الآن إمكانية إستحداث تغيير عن طريق الثورة وإطلاق صفة الثورة على هذا التغيير. ولولا هذا التحلل الثوري الذي تتزايد رقعته لما كان مثل هذا الكلام وارداً. لكن الحالات الثورية تعيش نوعاً من التحلل، ومع ذلك يستغرب المواطن كيف أن التسمية الثورية ما زالت قائمة وبحيث أن هنالك ما يشبه الإصرار على إبقاء إسم «الثورة» أو «الثوري» الذي تحمله صحيفة، وما يشبه الإصرار أيضاً على إبقاء التسمية الثورية لنظام على حاله من دون تغيير.

وما يلفت الإنتباه أن الإصرار الذي نشير إليه والتسميات التي نلاحظها إنحصرت في بعض الدول العربية والإسلامية، وإن كان البعض على شيء من الحيرة يريد ممارسة السلوك غير الثوري إنما تحت الراية الثورية.

ورغم أن بعض محاولات تحدث في المدار الثوري

المثالية والموضوعية ما دام هو خارج السلطة، إلا أنه عندما يجد نفسه في السلطة لا يعود يتقبل أي نقد وتحكم الأجهزة الأمنية بأسلوب إدارته للحكم. وعندما تنشأ ظروف توجب عليه التغيير فإنه يتردد ثم يترتب ثم تحدث مفاجآت يصبح فيها التغيير الذي كان في الماضي ورقة لمصلحته ورقة ضده. ثم يجد نفسه في صراع بين ماضيه الثوري وحاضره الذي يفرض عليه التغيير، فيحاول إستيلاء مزيج متناقض... ويدخل نتيجة ذلك في دوامة أشبه بالمحنة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 23 مارس (آذار) 2004

ديمقراطية المشاكسة.. من واشنطن إلى بيروت ودمشق!!

يلفت الإنتباه هذا المسلسل من المشاكسة الديمقراطية التي تبدو أحياناً على حافة الخط الأحمر، وأحياناً أخرى تبدو مندرجة تحت سقف الروح الرياضية، والذي يحدث بين الحكم السوري والإدارة الأميركية وبين هذه الأخيرة والحكم اللبناني. وتتفرع عن هذا المسلسل المشاكسة الأكثر إثارة للسامع وللمشاهد بين أهل الحكم في لبنان والتي تتأثر في شكل أو آخر بالعلاقة الغريبة الأطوار بين الشقيق السوري والصديق الأميركي لأقطاب هذا الحكم وبالذات للقطبين المتباغضين: رئيس الجمهورية اميل لحود ورئيس مجلس الوزراء رفيق الحريري.

ونحن عند التأمل في حالات المد والجزر المستديرة في العلاقات السورية - الأميركية نلاحظ أمراً لم نعهده من قبل في أي علاقات لإدارة من الإدارات الأميركية المتعاقبة مع الحكم في سوريا. يصدر تصريح من مسؤول في إدارة الرئيس بوش ضد الحكم السوري فنفترض أن العلاقات ستنتقطع وسيتم إغلاق السفارتين وترحيل السفير ومن معه، لكن الذي يحدث هو أن الأمر يهدأ على الفور ويسود العلاقة نوع من السكون.. فالطمأنينة. ثم يتكرر الموقف، وهذه المرة في صيغة التهديد بإشهار سيف «قانون المحاسبة» وتحديد فترة زمنية لإخراج السيف من الغمد والشروع في تطبيق المضمون وبحيث تصبح سوريا عبارة عن جزيرة في قلب محيطها مجردة من أوراق

العربي - بغرض فك الارتباط مع التراث الثوري، إلا أن هذه المحاولات تبدو بطيئة ناشئة عن حالة نجحت الإدارة الأميركية في ترويجها وتترك إنطباعاً بأن فك الارتباط المشار إليه معناه مغادرة المركب الثوري إلى حاملة الطائرات الأميركية على نحو ما حدث مع الرئيس علي عبدالله صالح في اليمن، وبمثل ما حدث مع الرئيس (الراحل) أنور السادات في مصر، وهذا معناه إنقلاب على حقبة ثورية وإعتبار هذه الحقبة نوعاً من الخطأ.

وعندما يحدث ذلك فإنه لا يعود هنالك مبرر لبقاء هذا الحاكم أو ذاك ما دام إستدار على ما كان بسببه جاء إلى السلطة. ونضيف إلى ذلك تضال الثقة بالإدارة الأميركية والخشية من أن تنقُص بالتنظيرات ثم بقوانين المحاسبة وبينهما محاولات التحرش وإشغال البيت ناراً، على الثوري الذي إستدار على أساس أن تاريخه لا يوحى بثبات التعامل معه، فضلاً عن أن هذه الإدارة ستفعل به بمثل ما فعلت في العراق، أي وضع الأشخاص المؤمنين بالعلاقة في مواقع إتخاذ القرار، وفي هذه الحال فإنها تتخلى عن الذين إستداروا ما دامت الضمانات المتعلقة بالإستدارة مفقودة.

ومثل هذه الخشية يمكن ملاحظتها في سلوك الرئيس الإيراني الذي خذلته إدارتان أميركيتان هما إدارة الرئيس كلينتون ثم الإدارة الحالية لأن رؤيته للأمور كانت تجمع بين المحافظة على التراث الثوري وتصحيح السلوك الثوري في الوقت نفسه، ولأن الخشية لم تفارقه من حدوث صدمة تأتي من جانب الإدارة الأميركية إن هو ذهب بعيداً في الدعوة إلى إعادة النظر. وبسبب هذا الخذلان حدثت المفاجأة المتمثلة في أن الثوريين المتشددون نالوا من هالة الرئيس خاتمي في الإنتخابات الأخيرة ومن دون أن يكون في إستطاعته الرد بأكثر من التنظير الثوري، مثل قوله عشية الإنتخابات الأخيرة في فبراير (شباط) الماضي «إن سلاطين القمع والمتشبهين بالسلطة سيغيبون ذات يوم لكن الذين يقاثلون من أجل الشعب وظروف حياته هم من سيبقى. والتاريخ سينصف خطاهم ومآثرهم الثقافية ونزعتهم الإصلاحية، وهو ما لم يستحقه المرشحون الأنانيون من أصحاب السلطة قط خلال حياتهم القصيرة المليئة بالخزي...».

وهذا الكلام الذي يقوله خاتمي يؤكد بعض نواحي المحنة التي يعيشها الثوري العربي والمسلم. وهي محنة مستمرة لأن هذا الثوري يبقى على شيء من

القوة التي تملكها وهي لبنان من جهة والمملكة العربية السعودية من جهة أخرى. ومرة أخرى تهدأ الأمور ولا يتم التنفيذ وياشر السفير السوري المعين لدى الولايات المتحدة عماد مصطفى مهمته ويرى الأبواب الأميركية تُفتح أمامه.. إنما ضمن إيقاع محسوب بدقة.

وتقرر الإدارة الأميركية رفع وتيرة المشاكسة والرد على رد الفعل السوري الرقيق في شأن موضوع «قانون المحاسبة» وكيف أن الإدارة البوشية ستكون في نظر الحكم السوري هي الخاسرة أكثر، ثم يأتي الرد هذه المرة على شيء من الإحراج وذلك لأن وزير الخارجية كولن باول إختار متعمداً على الأرجح وخلال التوقف في الكويت مطالبة الحكم السوري بسحب القوات من لبنان وعدم التدخل في الشؤون اللبنانية، وبما ينعكس سلباً على سيادة اللبنانيين. والإحراج الذي نعينه هو أن جنرال الدبلوماسية الأميركية طالب بما طالب به من الكويت التي غامر الرئيس الراحل حافظ الأسد بالمشاركة مع مطلب الرئيس جورج بوش الأب في العمل العسكري عام 1991 لإستعادتها من العراق الصّدّامي الذي غزاها يوم الخميس 2 أغسطس (آب) 1990، وهو أمر كان أهل الحكم الكويتي يفضلون لو أنه لم يصدر من عاصمتهم ويقولوه الوزير الأميركي من العاصمة واشنطن أو من محطة أخرى غير الكويت.

ولأن الأمر لا يعدو كونه حتى إشعار آخر مجرد مشاكسة وليس موقفاً من نوع الموقف الذي تم اتخاذه إزاء الحكم الصّدّامي أي الحرب أولاً ثم المناقشة والمشاكسة وليس العكس، فإن كولن باول طيّب خاطر السفير السوري المعين عندما تسلّم منه أوراق اعتماده يوم الخميس الماضي قائلاً له «إن إدارة الرئيس بوش لا تعتبر سوريا دولة عدوة أو أن قنوات الإتصال معها مغلقة...». وهذا الكلام الأميركي المطمئن إضافة إلى أن الإتجاه العام داخل الإدارة يراوح بين صرف النظر عن فرض العقوبات ما دامت الإتصالات ممكنة وبين معاودة التطرق إليها بعد أن تتجزأ القمة العربية الدورية الرابعة الخجولة من حيث التمثيل ومن حيث القدرة على إتخاذ مواقف حاسمة أعمالها.

إن كلام باول من شأنه جعل خطوة السفير السوري أكثر وثوقاً عندما يقدّم أوراق إعتماده غداً (الأربعاء) إلى الرئيس بوش، من دون أن نستبعد احتمال أن يقول الرئيس الأميركي كلاماً يستهدف ، بدل إرضاء سوريا ورئيسها بشّار الأسد الذي يواصل إعتماد المرونة

وإستكمال التصحيح، إسترضاء اللوبي المتصهين الذي يواصل الضغط من أجل إنزال أشد العقوبات في حق سوريا ما دامت لا تتجاوب مع مطالب المتصهينين التعجيزية وهي إنهاء العلاقة مع «حزب الله» وبالرحيل عن لبنان وترحيل القادة الفلسطينيين الذين يقيمون في سوريا من دون القيام بأي نشاط بعدما قرر الحكم الأسدي أيام الأب ثم في عهد الإبن أن تكون سوريا مكان إقامة للفلسطيني أو مثوى له يُدفن في أرضها، على نحو ما جرى لأحدث الراحلين أبو العباس الذي فاضت روحه وهو في الأسر الأميركي في العراق ورفضت إسرائيل أن يتم دفن الرجل في وطنه وإرتضت الأمم المتحدة والرأي العام الدولي والعربي والإسلامي هذه الإستهانة.

وسط هذه المشاكسة، التي قد تنتهي إلى ما يجوز إعتبارها هدنة تفرّض وجوبها مقتضيات الحالة العراقية، تتدلّع في بيروت مشاكسة رئاسية ذات علاقة بالمشاكسة السورية - الأميركية غير مرئية أحياناً وكثيرة الوضوح أحياناً أخرى. ولقد وصلت المشاكسة بين الطرفين المتباغضين منذ خمس سنوات وهما رئيس الجمهورية اميل لحود ورئيس الحكومة رفيق الحريري إلى حد أن فخامته (أي الرئيس لحود) رمى على دولته (أي الرئيس الحريري) وزر ما آلت إليه الديون التي تقترب من الأرقام الفلكية وأن دولته قال ما معناه إن فخامته شريك في هذا الوزر ثم علا وطيس المشاكسة إلى حد أن جلسة مجلس الوزراء التي سبقت إنعقاد القمة العربية الدورية الرابعة في تونس جاءت تسجل وصول المشاكسة إلى ما قبل الانفجار، خصوصاً بعدما قال فخامته أمام هذا الرهط من الوزراء المنقسمين مناصفة لحوديين وحريريين وكما لو أنهما فريقاً كرة قدم إنه ليس «باش بزق» وهي عبارة تركية ترجمتها بالعربية «طرطور».

هذه الحدة المنسجمة مع الحدة السائدة هذه الأيام في معركة الرئاسة الأميركية وما يتخللها من عبارات من جانب الـ «كيرييين» عن «البوشييين» وبالعكس تبدو طبيعية في عالم الممارسة الديمقراطية في بلد مثل الولايات المتحدة، إلا أنها بالنسبة إلى بلد مثل لبنان تشكل هذه الحدة خرقاً لبعض التقاليد السياسية.

وهي في حال المزيد من التصعيد الذي يلمس المشاعر المذهبية القابلة دائماً في لبنان للإشتعال قد تجعل الذين يندشون الإستثمار في لبنان يعيدون النظر في خططهم والبحث عن بديل آخر تكون فيه

المشاكسة من النوع الذي لا يتسبب في انفجار، خصوصاً أن ولي عهد الأردن السابق الأمير الحسن فاجأ اللبنانيين وسط قعقة التصريحات الرئاسية التباغضية بكلام لا بد سمعه من الذين يريدون شراً بالمنطقة وأراد أن يقوله يوم الخميس الماضي (25 مارس 2004) من خلال هيئة الإذاعة البريطانية بي. بي. سي، وبالذات عبارته التي تبعث الرهبة والفرع وهي «قد نرى بيروت مدمرة غداً. وأنا لا أريد التهويل لكن ذلك سيغير مسيرة السلام تماماً...». وإذا قال الحسن أخو الحسين فمن الضروري تصديقه.. أو لومه على هذا التهويل الذي قد يكون الغرض منه دعوة أهل الإستثمار إلى أن يُيمموا وجوههم شطر المملكة الهاشمية. والله أعلم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 30 مارس (آذار) 2004

* * *

موسم العودة إلى «كوبر»: ما أخزى الإعادة إليه!..

من باب التشبيه تبدو حال الشيخ الدكتور حسن الترابي مع الرئيس الفريق عمر البشير بمثل الحال التي كانت بين الزعيم الماليزي مهاتير محمد، الذي إستيقظت مشاعره إزاء الصراع مع إسرائيل متأخرة عقدين من الزمن وقبل أيام قليلة من تركه الرئاسة طوعاً، ووزير ماليته الذي لكثرة الخشية منه أودعه السجن.. مع فارق ان الرئيس البشير كان في إستمرار كثير الترفق بالشيخ حسن الذي أفادت تكتيكاته في إستيلاء مزيج مدني - عسكري على قاعدة التدين أدى إلى قيام حكم «الإنقاذ» بينما مهاتير محمد كان قليل الرحمة في حق منافسه القابع حتى الآن في السجن.

ومن باب التوصيف لما آلت إليه الأحوال حديثاً بين الرئيس البشير والشيخ حسن نستعير من أدبيات صديقنا الطيب صالح تسميته لروايته الشهيرة مع إدخالنا بعض التعديل الطفيف عليها بحيث تصبح «موسم العودة إلى كوبر» بدل «موسم الهجرة إلى الشمال». وهي إعادة أكثر منها عودة. ونستعير من صديقنا الغائب الحاضر نزار قباني طيّب الله ثراه تلك القافية التي ختم بها إحدى قصائده مع إدخالنا بعض التعديل عليها بحيث تصبح «ما أخزى الإعادة إليه» بدل ما «أحلى الرجوع إليه».

وخشية أن تأخذنا التشبيهات والتوصيفات بعيداً فإننا ندخل الموضوع من بابه العريض ونقول إننا نستغرب إعادة فتح بوابة سجن «كوبر» بعدما بدأت حمائم السلام ترفرف في سماء السودان ويواصل أهل الحكم السوداني استكمال استعادة الوفاق الوطني وصولاً إلى الوحدة الوطنية والإصرار على تحقيق الإتفاق العسير المفصل مع الدكتور جون قرنق الذي حصل من «حكم الإنقاذ» على ما لم يكن يحلم بالحصول عليه... ومع ذلك فإنه كلما حصل على مكسب بدأ المطالبة والتعجيز من أجل الحصول على آخر.

لقد دخلت المنطقة، أو إنها على طريق الدخول أو إنها يجب أن تدخل، في مرحلة جديدة من الضروري إسقاط بعض معالم الماضي البغيض من صفحات كتابها الجديد. ومن هذه المعالم «كوبر» السوداني و «المزه» السوري و «أبو غريب» العراقي و... و... وصولاً إلى بقية الرموز البغيضة في أقطار الأمة من المحيط إلى الخليج. وبالنسبة إلى السودان فإننا نستغرب أشد الإستغراب إحياء الإرث البغيض لسجن سكوير» متمثلاً هذا الإحياء بإستضافة الترابي وبعض مرديه فيه، ويحدث ذلك بعدما كنا إستقبلنا بالتقدير إحياءات أهل «الحكم الإنقاذي» بأنهم سيمحون الآثار «الكوبرية» البغيضة ويحولون هذا السجن الذي إستضاف عشرات الشخصيات السياسية الوطنية إلى ما يتمناه المرء للسودان وهو أن تقام على أطلال ذلك السجن أو ركامه «قاعة الوحدة الوطنية» شرط أن يتولى تمويل تعميمها أبناء السودان حكومة وشعباً وليس الأغراب على نحو ما فعله أبناء الصين من خلال حكومتهم التي بنت للحقبة النميرية «قاعة الصداقة»، وبأن تكون «قاعة الوحدة الوطنية» هي قصر المؤتمرات التي ستتكاثر وتتوسع بمثل تكاثر المؤتمرات والمنديات التي تحدث في مصر والسعودية ولبنان وتنوعها.

لقد إستضاف «كوبر» كبار القوم من أهل السياسة الذين شاركوا على مستوى القمة وما دونها بقليل أو كثير طوال نصف قرن من الصراعات على الحكم. وكان الترابي كبير «ضيوف الشرف» في هذا السجن الذي كان مجرد لفظ إسمه يثير الإشمئزاز في النفوس. لكن ما كان سائداً في الماضي لم يعد مستساغاً في الزمن الراهن حيث أنه من غير الجائز رمي السياسيين في السجون خصوصاً عندما تكون هنالك تطلعات نحو السلام والوفاق. فالسجون هي فقط للذين يرتكبون جرائم تقليدية. أما أن يكون السجن مأوى من يعارض أو لا

الرتنيسي المغدور.. وشارون الموعود.. وبوش المقايض

جاءت زيارة الرئيس حسني مبارك إلى واشنطن يوم الإثنين 10 نيسان (أبريل) الجاري قبل ثلاثة أيام من صدمة «الوعد البوشي الأكثر شؤماً»، بمعنى أنه إذا كان «وعد بلفور الذي شاعت صفته بأنه «الوعد المشؤوم» فإن وعد الرئيس بوش الابن لحليفه وقرة عيون كواسر إدارته هو أكثر شؤماً كونه ينسف كل الآمال بموقف أميركي نزيه يبرر هذا الود المتزايد بين معظم الأنظمة العربية والإدارة البوشية. كذلك جاءت الزيارة في فترة زمنية بين ذلك الوعد الذي من شأن التسليم العربي والدولي به أن يؤسسه لنصف قرن جديد من الصراع الذي افترضنا أنه سينحسر بالتدرج في ضوء الرؤية السعودية التي إنتهت إلى مبادرة أقرتها بالإجماع القمة العربية الدورية الثانية في بيروت، وبين إغتيال الدكتور عبد العزيز الرنتيسي الزعيم الوريث لـ «حركة حماس» بالأسلوب نفسه الذي جرى فيه إغتيال المؤسس للحركة، الشيخ أحمد ياسين قبل 26 يوماً من إغتيال الوريث. كما أن الزيارة جاءت في الزمن الصعب أميركياً والزمن الأصعب عربياً، والأكثر تعقيداً على صعيد العلاقة المصرية - الإسرائيلية، والأكثر بهتاناً لمنظمة الأمم المتحدة المعول عليها من حيث المبدأ حل ما إستعصى حله من الأمور الدولية والمربكة كما لم ترتبك منظمة دولية أو إقليمية من قبل وحالياً... نستثني من ذلك جامعتنا العربية، التي سربلها أولو الأمر بأمزجتهم ورؤاهم ونواياهم وإنحيازاتهم، فباتت تائهة وسط ظلمات الليل العربي الحالك السود.

ونحن عندما نقول ذلك فإننا نستند إلى واقع الحال. فبالنسبة إلى إدارة الرئيس بوش الابن تبدو هذه الإدارة وقد غاصت إلى ما فوق الركبتين بالرمال العراقية الفلوجية السنية من جهة، والصدريّة النجفية الكريلائية الكوفية الشيعية من جهة أخرى. وسواء كان هذا في الأصل مخطط الحرب على العراق أو أن الأحوال السائدة في ظل الإحتلال جعلت المقاومين يأخذون بأسلوب الإنتقام على الطريقة المرتبطة تاريخياً بشخصية العراقي من شُرور الإحتلال وأساليب قواته فإن الأمر إزداد تعقيداً.

وما نقصده بالطريقة المشار إليها، هو أنه عندما

يُحلق في السرب المحلق، فهذا معناه أن أي خطوة في إتجاه التغيير نحو الأحسن محفوفة بالمخاطر وأن أي معترض أو متحفظ مآله في السودان «كوبر» وبئس المصير.

ما نقوله عن السودان و«باسنيله» إنما نقوله من باب الحرص على محاولة التغيير والتطوير وما يرافقها من خطوات جادة ومن منطلق التمني لهذه المحاولة وتلك الخطوات بأن تنجح، ولا نقوله كنوع من التعاطف مع الشيخ حسن الترابي الذي «كفر» بنعمة الإقامة الجبرية في إحدى «الفيلاوات» الرئاسية الفاخرة فإنتهى به الأمر بعد الإفراج عنه إلى أن يبدأ به رفاق الأمس أو رفيق الأمس موجة «موسم العودة إلى كوبر». ومثل هذه العودة أو الإعادة المخزية لا تضير الشيخ حسن من دون أن تضير معيديه، ولا تضره بقدر ما تضر الذين ارتأوا إنزال القصاص به كونه من أولي الألباب في السودان. فالرجل إعتاد على «كوبر» منذ أيام نميري الذي أذاقه طعم السجن، ثم ما لبث الشيخ أن أدخله في متاهات قوانين كان من الأفضل تأجيل الأخذ بها إلى ما بعد إستتباب السلام. والرجل يزداد عناداً وتجوهرأ عندما يكون في السجن ثم بعدما يتم إخراج منه. والرجل الأستاذ أسير مجد حرمة التلامذة منه في غمضة عين تطبيقاً لببيت الشعر «أعلمه الرماية كل يوم... فلما إشتد ساعده رمانى». والرجل لا يستطيع نسيان ذلك المجد، كما أنه لا يقتنع بأن حاله مع هذا المجد هي بمثل حال بني قومه العرب مع مجد الأندلس. لكن الحكم هو من سيُضار ويتضرر، ذلك أنه سيتترك إنطباعاً بأنه يفعل ذلك لإرضاء المصاهرة الإنقاذية - البوشية التي هي على أهبة الإكتمال، فضلاً عن أنه سيجعل بقية أقطاب العمل السياسي في السودان أمثال السيد الصادق المهدي وبقية الأسياد، الحاضر منهم والمهجّر أمثال السيد محمد عثمان الميرغني وبالذات الذين سبق أن إستضافتهم عهود الجنرالات في «كوبر»، يعتبرون أنفسهم مستهدفين ما دام «موسم العودة إلى كوبر» قد بدأ. وعندما يبدأ الموسم فهذا معناه على حد مقولة الحاج بن يوسف مع بعض التعديل الطفيف أن هنالك رؤوساً سياسية قد أينعت من جديد وحن إيداعها في «كوبر»... يا للأسف.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 6 أبريل (نيسان) 2004

* * *

العربية الدورية الرابعة التي نبذها الرئيس زين العابدين بن علي لإعتبارات لم يوضحها، وبذلك لم تستضيفها تونس كما هو مقرر، لكنها لن تستمر في مهبط التبعر إذا كان الأمر سيبقى على الحال الراهنة، هو خير دليل على صعوبة هذا الزمن والذي كان الرئيس مبارك يأمل من تذليله عندما بادر إلى الإستعداد لإستضافة القمة المنبؤة في القاهرة، وبحيث يزور واشنطن وهو جامع الشمل العربي مذل التناقضات في الصف. ومن هنا فإن الرئيس مبارك سمع من مضيفه الرئيس بوش ما لا ينسجم مع الحالة السائدة في أوساط الرأي العام العربي وبالذات في المحروسة مصر. وقد تبين أن العشرة مليارات دولار التي منحها سيد البيت الأبيض لضيفه الثقيل وزناً ودوراً آرييل شارون كانت رداً على عدم طأطأة الرئيس مبارك الرأس والقبول بقمة أميركية - مصرية - أردنية - إسرائيلية يعقدها الرئيس بوش في مزرعته أو في حديقة البيت الأبيض محاولاً من خلالها تعويم وضعه، ولو لبضعة أشهر في العراق.

وهذا الموقف من جانب الرئيس مبارك ينسجم مع الأجواء المكهربة السائدة في العلاقات المصرية - الأميركية - الإسرائيلية بعدما لم تشارك مصر في احتفال إسرائيل بـ «اليوبيل الفضي» لإبرام معاهدة كامب ديفيد، فضلاً عن ممانعة الرئيس مبارك إستقبال شارون في القاهرة. ولقد لخص أحد كتّاب جريدة «يديعوت أحرونوت» ايتان هابر في مقال له يوم 25 آذار (مارس) الماضي طبيعة الاجواء المكهربة قائلاً: «السلام مع مصر بارد. معاد. منفّر. بل ومخيف. المصريون لا يحبوننا...». وهذه الاجواء ترعج غلاة التصهين في الإدارة الأميركية أمثال ريتشارد بيرل الذي إستبق زيارة مبارك ببضعة أسابيع ليردد كلاماً سبق أن قاله بغرض الضغط والإبتزاز يوم السبت 15 كانون الثاني (يناير) 2004 وقبل إستقالته من منصبه بثلاثة أسابيع وجاء فيه «إن الدكتاتورية المصرية ستصل، إن عاجلاً أو آجلاً، إلى نهاية سيئة وإن الولايات المتحدة يجب ألا تمتنع عن تحقيق الإصلاح في مصر وإننا سنقدّم لأنفسنا وللمصريين خدمة كبيرة إذا إستطعنا تشجيع تحوّل هذه الدكتاتورية إلى شيء أكثر إستقراراً ومحل ثقة...».

وعلى الرغم من أن بيرل الذي هو أحد كواسر الإدارة إستقال شكلاً من منصبه إلا أن أفكاره ما زالت

يفيض الكيل عند العراقي فإنه يسحل ولا يتوقف عند كرامة الميت، الذي لا يجوز أخلاقياً وشرعاً التمثيل بجثته أو تعليق أشلائه على الأعمدة. ومع أن هذا الميت العدو أو الخصم لم يُطبّق سماحة السيد المسيح المتمثلة بقوله «مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ أَدْرِ لَهُ الْأَيْسَرَ» فإن في الروح والتراث والأحاديث، وقبل ذلك في بعض الآيات الكريمة، ما يوجب على المسلم إحترام من فاضت أو أفيضت روحه مسلماً كان أو غير مسلم. ولكنه الطبع الذي يغلب الطبع، والذي كان الشيوعيون العراقيون الذين يُحلّقون من باب التكتكة الآن في مدار سلطة الإحتلال، هم من وضع الحجر الأساس في زمن الزعيم عبد الكريم قاسم، الذي إنتقم من الحقبة الملكية على نحو إنتقام المستر برمر من الحقبة الصدامية البعثية، لظاهرة الإنتقام سحلاً في الشوارع أو ما يشبه ذلك.

ومع أن الإدارة البوشية تتكتم ما أمكنها التكتم على ما يحدث وعلى الأعداد الهائلة من الجرحى والقتلى والمنحرفين في صفوف القوات الأميركية في العراق وكذلك على الخسائر الجسيمة في الأعتدة من شاحنات ودبابات وآليات وطوافات. إلا أن العولمة، متمثلة بـ «الإنترنت» وبالفضائيات، كشفت ما كانت لا تريد كشفه وبدأت جماهير الناس في أميركا تتابع ما يحدث في العراق. كما أن الصحف الأميركية ومحطات التلفزيون بدأت تبث وتنشر مضطرة صوراً جعلت الأميركي يخرج عن سكوته ثم يخرج من بيته إلى الشارع شاهراً لافتات تتضمن عبارات مفادها أن حياة الأبناء أهم بكثير من نفط العراق، وأن عودة الأبناء أهم من تجديد الولاية الرئاسية... وأمور كثيرة من هذا القبيل. وعندما يتحدث كواسر الإدارة البوشية عن الوضع الناشئ عن الإنتفاضة العربية الثانية، أي الإنتفاضة الفلوجية - الصدرية على أساس أن الأولى هي «إنتفاضة الأقصى» التي إستمرت مستكنة هذه الأيام لإعتبارات تتعلق بتنظيم «الصف الحماسي» بعد إغتيال الشيخ أحمد ياسين إلى أن جاءت واقعة إغتيال الرنتيسي تضطّرها للخروج عن إستكانتها، فإنهم يستعملون مفردات لم يستعملوها من قبل مثل قولهم «إنه مأزق»، فهذا مؤشر إلى عمق صعوبة الموقف الذي يعيشونه... والذي أعطاه جون كيري الخصم العنيد للرئيس بوش الإبن تصنيف «ورطة» وليس مجرد مأزق.

وبالنسبة إلى الزمن العربي فإن ما حدث للقمة

من أحد في شأن عقد القمة المنبؤة، التي خير أنها لم تتعقد في الموعد المحدد وفي المكان المقرر، لأنها كانت على الأرجح ستتخذ موقفاً شكلياً من الموضوع الفلسطيني والموضوع العراقي والعلاقة العربية - الأميركية عموماً، لكنها الآن ستكون قمة إختبار حقيقة النوايا العربية على مستوى الأنظمة وقمة «الوعد الأكثر شؤماً» ربما لنصف قرن وعدي آخر، بعدما بات الصراع عربياً - إسرائيلياً (أي خلطة إسرائيلية - أميركية مشتركة) على المكشوف، طرفه العرب المسالمون في جهة، والبوشيون - الشارونيون في الجهة المقابلة. كما أنها ستكون القمة التي يقول فيها أولو الأمر رأياً في واقعة إغتيال عبد العزيز الرنتيسي ويوم سبت، وكما لو أن إغتيال أصحاب الحق الذين يناضلون من أجل أوطانهم لا تشمله المحرمات التوراتية، ورأياً مماثلاً أو مكماً في واقعة اغتيال شيخ جليل كان خارجاً من المسجد بعدما أدى صلاة الفجر، وكما لو أن إغتيال المصلين لا تشمله تلك المحرمات. والقول المطلوب سماعه ليس حياً بالشيخ الجليل الذي قضى، ولا بالوريث الذي ظهر علينا بعد مبايعته بالزى المدني الأمر الذي يخفف بعض الشيء من دينية «حركة حماس» وإستعدادها للإقترب من العلمانية المؤمنة، الأمر الذي يهدئ من الروح الأميركية والأوروبي عموماً، وإنما لأن هذا الأسلوب من التعامل مع العرب، بينما هم بالإجماع باتوا مع التسوية التي رحب العالم بتوازنها، على نحو مضمون المبادرة السعودية، وبينما رئيس الدولة العربية الكبرى، مصر، في زيارة للمزرعة البوشية لا علم له بما يجول في خاطر البوشي، هو إهانة وإستهانة إستند إليها إريل شارون وهو يعطي الضوء الأخضر لإغتيال الرنتيسي، وكأننا المقايضة في شأن «الوعد الأكثر شؤماً» قامت على أساس، إنه لكي يصرف العالم والعرب والمسلمون الأنظار عما يحدث للعراق وللعراقيين على أيادي الإحتلال الأميركي - البريطاني لا بد من مصيبة أقطع. وهذا هو ما جرى بالضبط، حيث أن الجميع مشغولو البال بذلك الوعد وباغتيال الرنتيسي، الذي هو إغتيال آخر ولن يكون الأخير، لأن السكوت الدولي على العربة الشارونية معناه علامة الرضى.

ولن تستقيم الأمور قبل أن يُستعاد الوعي الأميركي بفعل المفاجأة... التي هي في علم الغيب وفي ضوء ما سيفعله العراقيون الذين فقدوا وطنهم

حاضرة داخل أروقة صانعي القرار الأميركي. ومن هنا فإنه لا أمل يُرتجى ما دامت الأمم المتحدة على الوهن التي هي عليه والعجز الذي هو بمثل عجز جامعتنا العربية، وما دامت مخالبا الكواسر من دون تقليد، وهو ما يمكن أن يحققه تطوير نوعي للمقاومة في العراق وإستيعاب مسؤول للأثر الإيجابي الذي يمكن أن يحققه هذا التطوير كوسيلة ضغط على أهل القرار الأميركي الذين لم يعودوا كما في الماضي، لكنهم لم يصبحوا بعد كما هو المأمول منهم.

وخلاصة القول إن الرئيس مبارك الذي عاد يوم الأربعاء الماضي من زيارة أميركا وجد نفسه أنه من بيت صديقه الأميركي «الحكيم» أخرج، وأنه واجه إخراجاً آخر غير الإخراج المتعلق بالغمز الأميركي من نظامه ومن دوره الذي ليس إيجابياً في نظر أوساط كواسر الإدارة البوشية المتعاطفين مع إسرائيل على حساب العدالة الدولية المطلوبة.

أما الإخراج الجديد فهو إستقبال بوش لرئيس وزراء إسرائيل وكما لو أنه بطل السلام من دون أن يأخذ في الاعتبار ما يمكن أن يكون عليه رد فعل الشعوب العربية من دون إستثناء إزاء تصريحات كان أدلى بها مبارك مشيداً فيها بـ «الحكمة البوشية»، وكيف أن الرئيس الأميركي ألحق الإستقبال الإستثنائي من حيث اللفظة بالضيف الإسرائيلي الثقيل بإهدائه «الوعد الأكثر شؤماً» من «وعد بلفور المشؤوم» تاركاً في الأذهان إنطباعاتاً بأن للرئيس مبارك ما دام أشاد قبل ساعات بـ «حكمة بوش» رأياً إيجابياً في الوعد.

وفي تقديرنا فإن الرئيس مبارك لن يكتفي بالتعليق الذي أورده في سياق مقابلة مع صحيفة «هيوستون كرونكل» وقال فيه إنه «أصيب بالصدمة بسبب دعم بوش لخطة شارون» وإنما سيقول، في ضوء الفضفضة بينه وبين الرئيس جاك شيراك عندما إلتقى في باريس، ما هو أكثر حزماً، وبحيث يصل موقفه من «الوعد البوشي» إلى مرتبة الموقف السعودي الذي أورده المملكة في صيغة بيان ألمحت فيه إلى أن الخطوة الأميركية من شأنها «أن تهدد بنقض تلك القرارات وإبطال الإتفاقات وإنهيار قواعد عملية السلام كلية، خاصة أن حقوق الشعب الفلسطيني الثابتة والعدالة لا يمكن لأحد التنازل عنها نيابة عن الشعب الفلسطيني...».

وعلى هذا الأساس لن يعود هنالك تباطؤ عربي

وسياذتهم خلال فترة زمنية لم تتجاوز السنة، وما سيفعله الحماسيون الذين فقدوا زعيمهم المؤسس الشيخ أحمد ياسين وزعيمهم الوريث الدكتور عبد العزيز الرنتيسي خلال فترة زمنية لم تتجاوز الشهر الواحد.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 20 أبريل (نيسان) 2004

* * *

عراق المنشية و«فالوجتها» .. وعراق الرافدين و«فلوجته»!!

هنالك مصادفة تستوقف المرء مثل حالنا عندما يتابع ما هو حاصل حالياً في ديار الأمة وما حدث قبل 56 سنة. فعلى أرض فلسطين حيث كانت بعض الجيوش العربية عام 1949 تحاول جاهدة أداء الواجب القومي نحو فلسطين حين بدأ تنفيذ مخطط التآمر الدولي عليها، حدثت واقعة أسست لعصر عربي لا تزال حية في الذاكرة إلى الآن مراحل ذلك العصر وما حفلت به من نسائم الانتصارات وغبار الهزائم والإحباطات وشرور المؤامرات والحروب الأهلية ومغامرات الإجتياح من جانب الأخ الأقوى للأخ المستضعف والإجتهاادات التي إستعجل فاعلوها الأخذ بها مغالين بقية الأشقاء. وكما أن من إجتاح لم يتأمل في القول المأثور «إستضعفوك فذبحوك، هلاً دخلوا عرين الأسد» فإن من إجتهد إستند بالمفهوم المعكوس للآية الكريمة «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله».

ولكي لا يبدو كلامنا كما لو أنه من نوع التجريد، فإننا نقول موضحين إن صدام حسين الرئيس إستضعف الكويت محاولاً وضع القبضة عليها، فجاءه الأميركي الأقوى وذبحه من الوريد إلى الوريد شاملاً بالذبح الناس من دون التفريق بين من هم صداميون وبين من لهم في الذمة الصدامية ثارات، وكذلك بين من ينشد العلاقة المتوازنة مع «العم سام» وبين من في نفسه من الخشية والتحفظات ما يجعل هذه العلاقة لا ضرورة لها. كذلك نقول موضحين إن الرئيس أنور السادات الذي حقق له الجيش المصري يوم 6 أكتوبر 1973 مجداً كان يحلم به الرئيس جمال عبد الناصر، الذي لاقى وجه ربه وهو مثخن بجراح هزيمة 5 يونيو

1967، أخذ بالآية الكريمة على طريقته ذلك أنه هو من جنح للسلم وليسوا هم من «جنحوا» أي بنو إسرائيل المعتدية وأنه هو من «توكل على الله» وأبرم معاهدة كامب ديفيد وليسوا هم (أي جنرالات إسرائيل، وكبيرهم مناحيم بيغن) الذين ليس فقط لم يتكلموا على الله، وإنما أمعنوا صلفاً وعناداً وعدواناً وإستهانة ومذابح وإنكاراً لإتفاقات وتلاعياً بعلاقات ورفضاً لتنفيذ القرار 242 الذي أصدره المجتمع الدولي أصلاً في مجلس الأمن من أجلها.

وها هم ورثة ذلك الجيل «البيغيني» الشرير يسيرون على الصراط غير المستقيم إلى أن وصلت الإقتراقات بالحالي أرييل شارون حد التصرف وكأنما هو من يحكم العالم ويتحكم بالإرادة الدولية، وكذلك إلى حد أنه هو الفعل وأن السند الأميركي هو رد الفعل بدل حدوث العكس.

ونعود إلى المصادفة التي نحن في صدد الحديث حولها لنقول إن «العراق» و«الفلوجة» في بلاد الرافدين عام 2004 وبالذات في هذه الأيام من العام مرتبطين إسمياً بـ «عراق» فلسطيني إسمه «عراق المنشية» وبمنطقة على أرض فلسطين إسمها «الفالوجة». وبين «عراق» فلسطين و«فالوجتها» بدأت تنمو في نفس الضابط المصري جمال عبد الناصر الذي كان يؤدي الواجب هناك مشاعر ضرورة التغيير من خلال العمل الإنقلابي وهو ما حدث ليلة 23 يوليو 1952.

كما انه بعد حصار شاق تعرّض له مع جنوده في «الفالوجة» الفلسطينية وأطراف حديث خلال اللحظات الصعبة من الحصار المشابه لحصار «فلوجة» الرافدين على أيدي القوات الأميركية التي تترس قناصوها في مآذن بعض مساجدها، الأمر الذي يجعل من ليس مقاوماً يخرج على الأميركي شاهراً إحتجائه أو حجارته أو سلاحه... إن عبد الناصر الضابط بعد ذلك الحصار إستوعب البعد القومي لفلسطين وكيف أن مصر من دونها تكون مقطوعة الأواصر مع الشرق العربي، الأمر الذي يعني بمفهوم الأمن القومي أنها مهددة وأن صلتها بأشقائها هي البحر والجو فقط، بينما فلسطين العربية والشقيقة هي الممر البري الأمن للمصري يغادر القاهرة بسيارته فيصل إلى مكة المكرمة حاجاً أو معتمراً أو زائراً أو موظفاً أو بائعاً - شارباً بعد مرور محفوف بالطمأنينة في لبنان وسوريا والأردن والعراق.

ومنذ تلك اللحظة لوجود عبد الناصر الضابط

التاريخ يعيد نفسه، هو أن هذا الذي يجري على ضفاف الفرات ودجلة وبالذات في «الفلوجة» البطلة والنجم الجسورة عبارة عن لحظات من المعاناة الوطنية من شأنها إفراز وضع كذلك الوضع الذي أفرزه حصار «الفلوجة» الفلسطينية ومداولات الضباط الكاظمي الغيظ في «عراق المنشية» الذين ترجموا معاناتهم إلى إستحداث تغيير جذري لم يقتصر على تاريخ المنطقة وإنما شمل جغرافيتها.

وفي ذلك الزمن الغابر كانت بريطانيا العظمى هي سيدة القرار ومانحة العهود بمثل ما ان أميركا الأعظم هي الآن مستفردة القرار ومنح الحروب بدل العهود... فضلاً عن أنها محتكرة العقود.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 27 أبريل (نيسان) 2004

* * *

إستعانة بريمر بالبعثيين العراقيين محاولة لتعديل الموازين

لست من الذين فاجأهم إعلان الحاكم الأميركي للعراق، بول بريمر، قبل خمسة اسابيع من يوم 30 يونيو (حزيران) 2004 الذي هو يوم تسليم السيادة في العراق إلى العراقيين، بأنه سيستعين بالبعثيين من ضباط ومدنيين من فئة النخبة بعدما كان أمعن وعيداً في إجتثاث هذا الحزب من الجذور، وهو أمر لقي إرتياحاً في نفوس بعض أعضاء «مجلس الحكم».. وبالذات من لهم في الذمة البعثية ثارات، أمثال «حزب الدعوة» وبعض الشيوعيين، فضلاً عن الجلبين والطلابانيين و«الرفاق البعثيين» الذين «إرتدوا» في نظر الحكم الصدامي، ولكنهم في نظر أنفسهم «إهتدوا» باكراً وإبتعدوا في إتجاه أميركا وأوروبا وبعض الديار الخليجية. وهؤلاء الذين إرتاحوا لوعيد الإجتثاث إعتبروا أن إنزال العقاب على أيدي بريمر يريحهم من إنتقامات لاحقة ولو بعد حين عملاً بـ «شريعة العشيرة» التي تقضي بالثأر طال الزمن أم قصر.

ولست في الوقت نفسه من الذين فاجأهم هلع بعض أعضاء «مجلس الحكم» من هذا التوجه المباغت لدى الحاكم بريمر، ذلك أن عودة البعثيين معناها إعادة نظر جذرية في السلوك العام، ومعناها أن أعضاء المجلس الذي يملك ولا يحكم لن يعودوا هم

مقاتلاً ومحاصراً في «عراق المنشية» و«الفلوجة» على أرض فلسطين والبعث القومي يتفاعل في خاطره... إلى أن بلغ مداه بعدما قام بـ «ثورة 23 يوليو» وأصبح سيد القرار في مصر ثم تنوعت الخطوات والقرارات بعد ذلك إلى حد أن عبد الناصر هو من إصطحب ياسر عرفات وبعض قادة حركة «فتح» إلى القادة السوفيات، وهو من قضى نحبه مأسوفاً عليه عصر يوم 28 سبتمبر 1970 بعدما نجح بمساندة من بعض القادة العرب أبرزهم الملك فيصل بن عبد العزيز رحمة الله عليه في تحقيق مهادنة بين الملك حسين وياسر عرفات إنتهى بموجب مضمونها الحصار المفروض على المقاومين الفلسطينيين في الأردن بعدما كان أمكن في أول عملية تهريب على مستوى بعض كبار أهل القرار العرب ومن بينهم الرئيس السوداني الأسبق جعفر نميري وولي العهد الكويتي الحالي الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح إنقاذ عرفات من براثن «الأسد الأردني» الملك حسين رحمة الله عليه.

الآن لن نتوقف طويلاً عند لحظات عابرة وربما إضطرابية من نكران الجميل الفلسطيني إزاء السند المصري والسوداني والكويتي لكن ذلك لا يعني عدم استحضار بعض الوقفات والمواقف ومنها أنه لمجرد أن اضطر عبد الناصر للقبول بداعي التكتكة بمبادرة روجرز حتى أمطره الفلسطينيون، من أبو عمار نزولاً إلى الحلقات الدنيا، بكلام من نوع أن أبو خالد بات متعباً وعليه أن يرتاح.. أي أنه لم يعد الزعيم الذي يمكن الاعتماد عليه. ومن المواقف والوقفات أيضاً ما قاله الفلسطينيون عن نميري بعدما إصطف إلى يمين السادات في موضوع كامب ديفيد، وما فعلوه مع الكويت التي اجتاحتها صدام فوقفوا مع القوي الذي إجتاح ضد الضعيف الذي ظن أن عرفات سيرد للشيخ سعد جميل لفته بعباءته من أجل تأمين الإنقاذ الكريم والأمن من أنياب الليوث الهاشمية التي عندما تبرز فلا يعني ذلك انها تبتسم وإنما هي في منتصف الطريق بين السكوت على الضيم أو الإنقضاض على من يستقرها ويستتهن بهيبتها. ولكن عدم التوقف عند تلك اللحظات لا يعني أن الأمور ليست مترابطة على أساس أن كل الذي يحدث هو من نتاج تلك الصفة البغيضة المتمثلة بالوعد الذي أبلغه البريطاني الماكر بلفور إلى الصهيوني المبتز روتشيلد.

وما يجوز إفتراض حدوثه عملاً بالمبدأ القائل إن

الذراع العراقية الوحيدة التي يستند إليها بريمر للقول ما معناه أن أميركا دولة اصلاح شأن وليست دولة إحتلال شعب.

وعلى هامش هذه الخطوة من جانب الحاكم بريمر يمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

الملاحظة الأولى - ربما يكون الغرض من هذه الخطوة هو إستحداث «بعث» جديد في العراق يمكن بوجوده جعل التوازن أفضل من ذي قبل. ولن يكون هذا «البعث» بطبعته الجديدة المستحدثة أمراً يثير الإستغراب، فقد إعتدنا طوال ربع قرن من الزمن العربي نقول «البعث السوري» و«البعث العراقي»، والآن يضاف «البعث الأميركي»، أو «البعث المتأمر» إلى قائمة التسميات.. مع فارق ان البعث المستحدث سيقوم على قاعدة القلة عالية الجودة، أو النخبة من ضباط كبار وأساتذة جامعات وقضاة ومهندسين وأطباء وشخصيات عامة عشائرية، وليس الكثرة التي تقيد في عرض العضلات الشوارعية. وهذا «البعث» المستحدث يراد منه أن يكون سنداً في مواجهة التوجه الإسلامي الذي تبين انه ليس بذلك التوجه البسيط.

الملاحظة الثانية - إن الذي يريده الحاكم بريمر من هذه الخطوة هو إبلاغ البعثيين كشريحة عريضة في المجتمع العراقي انهم يعودون بالإرادة الأميركية وليس بالإرادة الشعبية. وأما الذين اعترضوا وقد يواصلون الإعتراض فإن الرد عليهم جاهز، وهو أنهم ليسوا من أسقط النظام الصدامي لكي يعترضوا على عودة البعثيين، وفي هذه الحال فلا موجب للتأفف، خصوصاً ان شأن البعث المستعاد سيكون بمثل شأن بقية فصائل القوى المنتسبة إلى «مجلس الحكم»... إلا إذا أظهر هذا «البعث» قدرات في تحقيق إستقرار لعراق ما بعد 30 يونيو المقبل لم تظهرها تلك الفصائل طوال سنة من عمر ذلك المجلس.

الملاحظة الثالثة - تأتي خطوة بريمر في وقت بات لا بد من تنفيذ احتقانات في النفوس العراقية، وبات في الوقت نفسه لا بد من تقليص مساحة المأزق الناشيء عن عمليات يومية للمقاومة التي قد يكون الحاكم بريمر اكتشف بأن وراءها «جبهة إحتجاج غير مرئي» قوامها جنرالات بعثيون مهانون، وضباط صغار غاضبون، وجنود مشردون، ومتفقون وأكاديميون وذوو إختصاص مشتتون. وفي ضوء هذا الإكتشاف يصبح من الأفضل الأخذ بالأحوط درءاً للمزيد من المخاطر، خصوصاً أن التحالف الذي أمكن بشق النفس جمعه

من دول الدرجة الثانية بدأ يتفكك بعد الصحوه الإسبانية التي لم تكن متوقعة من جانب الإدارة البوشية.

الملاحظة الرابعة - تتزامن مع خطوة بريمر مواقف عربية تتسم بالبرودة إزاء الوجود الأميركي في العراق وتتزامن أيضاً مع تصريحات يوحى فيها المصريحون الأميركيون والبريطانيون أن البقاء في العراق طويل، وأطول مما يعتقد البعض. ومن هنا فإن الإستعانة بالبعثيين من شأنها أن تشغل بال بعض العرب الذين إرتاحوا من زوال النظام البعثي وسيقلقهم أن يعود هذا «البعث».. حتى إذا جاءت العودة على الجناح الأميركي.

وإذا جاز القول فإن إدارة بوش تريد من خلال رجلها في العراق، السفير بريمر الذي يؤسس للسفير الخلف جون نغروبونتي سفارة ستكون الأكبر في العالم وقوامها على حد ما أفادت المعلومات ثلاثة آلاف شخص، الضغط منذ الآن على الحكم في سوريا. كما أن من بين الإستهدافات الضغط بالتدرج على إيران التي جاءت خطوة بريمر في وقت أعدت كامل ملفات مقاضاة النظام الصدامي عند المباشرة بالمحاكمة، التي قيل إنها ستستغرق سنتين على الأقل، وأن من سيتأثر المحكمة هو ابن شقيق لعضو «مجلس الحكم» أحمد الجبلي كان يقيم حتى إسقاط النظام في أميركا.

الملاحظة الخامسة - سيكون مثيراً للدهشة أن تتم محاكمة صدام حسين وبقية البعثيين كمسؤولين سابقين، وكأصحاب عقيدة، بينما هنالك رفاق لهم من مدنيين وجنرالات وضباط باتوا شركاء علنيين في الواقع الجديد في العراق.

خلاصة القول، إن خطوة بريمر هي جرعة دواء قد تقيد لتعديل الموازين وتهدة المشاعر. وقد تقيد إذا كان القصد إشعال البيت العراقي حرباً أهلية بعد 30 يونيو المقبل.. هذا فضلاً عن أنها مثل عصا موسى عليه السلام يمكن أن يتوكأ بريمر عليها ويهش بها على القوى التي يمتلكها أعضاء مجلس الحكم كما أن له فيها المنافع الأخرى، ومن بينها ما أوردها وسميناه... أي «البعث الثالث» ونعني بذلك «البعث الأميركي» أو المتأمر لا فرق بعد «البعث السوري» و«البعث العراقي».

صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 1 مايو (أيار) 2004

الجزائر .. والبوتفليقية: تأملات وإحتمالات

قُضي الأمر الذي إستمر الجزائريون يختلفون فيه طوال خمسة أشهر بين من يرى أن عبد العزيز بوتفليقة، رئيساً لولاية ثانية، أجدى وأجدر للجزائر من علي بن فليس رئيساً متحدياً، وبين من يرى أن التجديد لـ «سي عبد العزيز» معناه وضع الحجر الأساس لـ «البوتفليقية» التي هي بمثل «البومدينية» وبمثل «البورقيبية» و «الزينية» نسبة إلى الرئيس زين العابدين بن علي وبمثل القذافية و«المعاويوية» نسبة إلى معاوية ولد الطابع وأنه لتلافي تكريس ظاهرة الزعامة - الشخص قد يكون من الأفضل أن ينصرف الرئيس بوتفليقة بكل المهيبة ويأتي غيره وتسير الأمور على وتيرة رئيس لولاية واحدة... وكفى الجزائريين هموم الحيرة والصراع.

لكن العقبة التي اعترضت هذا الخيار واستحالة الأخذ به هي أن من خاض المباراة كان علي بن فليس وبكل ما أوتي من بغضاء لمن كان قبل ست سنوات مأموراً منه ومديراً لحملته الانتخابية، وأنه يعتمد في المباراة أسلحة محرمة خلقياً وأدبياً... وإن كان ما هو سائد عن العمل السياسي يجيز لمتعاطي العمل السياسي إعتداد وسائل غير مستحبة ومكائد مكروهة. وما نريد قوله هنا هو أن شخصاً آخر غير علي بن فليس، أي أحمد طالب الإبراهيمي على سبيل المثال، الذي أقصاه المجلس الدستوري من الانتخابات مثيراً بخطوته هذه الكثير من علامات الإستفهام والتعجب والإستهجان، كان هو الوحيد في مواجهة بوتفليقة لكان ربما للناخب الجزائري أن يُكثر من التأمل. لكن هجمة بن فليس جعلت هذا الناخب يرى أن يستمر «سي عبد العزيز» لعل في إستمراريته ما من شأنه جعل الجراح الوطنية تواصل الإلتئام والنفوس تواصل الخلود إلى الإستقرار النسبي الذي جاء نتيجة خطوات لم تكتمل على طريق الوئام.

كان فوز بوتفليقة متوقعاً على نحو ما أراد وهو الفوز من الدور الأول للإستحقاق، إنما ليس بنسبة الأرقام التي درجت على إحداث صدمة في النفوس. وفي تقديرنا أن المواطن الجزائري كان سيبدو أكثر سماحة مع جامعي وطارحي وضاربي وقاسمي الأرقام لكي تأتي على النحو الذي أتت عليه أي 83.49 في المائة لبوتفليقة مقابل 7.93 في المائة لعللي بن فليس و4.84 لعبدالله جاد الله و1.93 في المائة لسعيد

سعدي و1.16 في المائة للويضة حنون، لو أن النسبة كانت أكثر معقولة وإبتعاداً عن النسبة المألوفة عن نتائج الإنتخابات والإستفتاءات على تجديد زمن التروؤس في العالم العربي وبالذات عندما تتم الإنتخابات والإستفتاءات بين رئيس في قمة السلطة وتحت إمرته كل أجهزة الدولة وبين مرشحين ليس لهم تأثيرهم على تلك الأجهزة.

المشكلة الآن بعدما حقق الرئيس بوتفليقة أمنية العمر في أن يكون الأول الذي يحصل على فترتي ولاية رئاسية منذ الإستقلال عام 1962 هو أن يصلح الإعلام وبالذات تلك الصحف التي أزعجته إنتقاداتها في فترة الترشيح للرئاسة فقرر اصحابها مقاضاته، وأن يجعل من السبعة ملايين جزائري الذين لم يقترحوا له والمليونين الذين اختاروا بقية المرشحين انه في الرئاسة الثانية سيكون رئيس الثمانية عشر مليون ناخب من دون إحتزان أحقاد على هؤلاء أو أولئك بمن فيهم الذين ناصبوه الخصومة، أولئك الذين يبالبغون في منطقة القبائل في الإحتجاج عليه وأولئك الذين رشقوا في ورقلة، عاصمة الثروة من بترول وغاز، موكبه بالحجارة والهتافات لأنهم عاطلون عن العمل وينطبق عليهم قول الشاعر: «كالعيس في البيداء يقتلها الظما.. والماء فوق ظهورها جوال» وسيكمل إنجاز ما ليس صعباً عليه ما دام ليس مسكوناً بهاجس توريث الأبناء لأنه في الأصل إرتأى أن يبقى عازب الدهر، ولأنه حقق «الوئام الخارجي» إستباقاً منه لـ «الوئام الداخلي»، حيث أن علاقته بالإدارة الأميركية مستقرة عند نقطة الخيار الإستراتيجي وعلاقته مع فرنسا على الإستقرار نفسه، وبينه وبين الأشقاء العرب وبالذات السعودية ودول الخليج علاقة في غاية التوازن. وهو في الموضوع الفلسطيني يناهز بالتصحيح واضعاً نفسه كصاحب مسعى توفيقي بين الفلسطينيين والإسرائيليين. إنما بعد أن يسلك الأخيرون طريق الهداية أو الوئام الفلسطيني - اليهودي الذي يغنيهم عن شروخ المواجهات. وهذا الدور هو إذا جاز التعبير محجوز دولياً له، أو أنه بند من بنود أجندة الولاية الرئاسية الثانية بعدما أعطى بوتفليقة في الولاية الأولى إشارات مشجعة في هذا الشأن كادت تضعه في خانة معسكر التطبيع السابق لأوانه مع إسرائيل.

وقد يقال إن الذي جعل بوتفليقة يحقق هذا الفوز المبهر له هو حنين وجداني من جانب الجزائريين إلى زمن بومدين ووقفه بن بيللا كرمز لمرحلة تاريخية إلى

وتحديث الإقتصاد المتدهور . وهو إستناداً إلى سنوات الولاية الأولى قادر على أن يحقق الكثير وبذلك يقرن الفعل بالقول انه يريد في حال فوزه أن يكون رئيساً مائة في المائة. وما يعنيه من هذا القول هو أن يكون زعيم الجزائر وليس مجرد رئيس تقليدي... وهذا ما قصدناه من قولنا إن الجزائر على موعد مع البوتليقية. صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 4 مايو (أيار) 2004

* * *

التنبية وقاية.. والعناد تورط

بإستثناء مجلس الوزراء السعودي الذي ندد في جلسته يوم الإثنين 3 مايو (أيار) الحالي، بالإثم المتعلق بالأسرى العراقيين الذين تعرضوا في سجن «أبو غريب» لأبشع تمثيل بالكرامة والقيم والعنفوان والبدن على أيدي بعض الشاذين والشاذات من قوات الاحتلال، فإن صمتاً عربياً رسمياً مريباً قوبل به هذا الإثم. بل حتى «مجلس الحكم» لم يتجاوز موقفه لفظاً وإجراءات الموقف الرسمي الأميركي الذي راجح بين الإستهجان وتصنيف الاثم المذكور على أنه مقرز ويتوجب على «البنتاغون» وسيده دونالد رامسفيلد معاقبة مرتكبي ذلك الإثم الذي لم تر فيه الإدارة البوشية سوى أنه مخالفة من مئات تحدثت في زمن الحروب.

ولا ندري ما الذي جعل الحكومات العربية من المحيط إلى الخليج لا تتخذ موقفاً أو وقفة من هذا الاثم الذي يمكن في حال السكوت عنه أن يصبح وسيلة من الوسائل التي تعتمدها الإدارة الأميركية مع الآخرين. فمسايرة الإدارة في مخططاتها السياسي شيء والسكوت على أساليب التعامل شيء آخر. بل أن عدم السكوت، وهو هنا ليس على الإطلاق علامة الرضى، يفيد في تنبيه الصديق الأميركي إذا كان فعلاً يبغي هذه الصداقة، إلى أن مثل هذا الإثم هو بمثل أي غارات جوية تدمّر الحجر وتقتل البشر، وأن العربي يمكن أن يرتضي، كظماً للغيط، عدواناً عليه أو جريمة غير مبررة في حق وطنه، إلا أن من الصعب عليه أن يغفر إثمأ أصابه في نفسه وفي بدنه وفي عرضه، وأن عدم المغفرة هذه يتوارثها الأبناء عن الآباء والأشقاء عن الأشقاء ولا يطويها النسيان.

جانب بوتليقية.. فضلاً عن أن جنرالات الجزائر إرتأوا أن يكونوا هذه المرة بمثل حال زملائهم جنرالات تركيا مع رجب طيب أردوغان كونه مبتكر صيغة إسلامية . علمانية - وطنية. لكن ثمة مسألة أخرى لا بد من أخذها في الاعتبار وهي أن صيغة الرئاسة قبل بوتليقية كانت شبيهة بصيغة «مجلس الحكم» في العراق من حيث الدورية مع فارق الفترة الزمنية وهو ما يبدو غير منسجم مع التقليد المأخوذ به في الجناح المغربي من الأمة حيث الولاية الرئاسية من موريتانيا إلى ليبيا إلى تونس تتجدد تلقائياً إما بصيغة المبايعه وإما بصيغة «إرادة الجماهير». وحتى إذا كانت هنالك طقوس إنتخابية وكثرة مرشحين فإن النتيجة واحدة. ونحن عندما نشير إلى ظاهرة الولاية الرئاسية التي تتجدد أو تمتد أو تتمدد تلقائياً في الجناح المغربي من الأمة لا نقصد بذلك أن هذا الجناح هو خارج على الأصول. ففي الجناح المشارقي وبالذات في مصر والسودان ولبنان وفي سوريا سابقاً ولاحقاً وفي فلسطين دائماً تبدو الظاهرة مزدهرة. كما أنها تشكل طموحاً لحكام دول عظمى مثل روسيا حيث كانت رؤية فلاديمير بوتين عندما جدد أو جدد له قبل بضعة أسابيع بمثل رؤية بوتليقية وبمثل رؤية جاك شيراك. وعندما نرصد أي إقتراقات يسجلها الرئيس بوش الإبن ورئيس وزراء بريطانيا طوني بليز وما سبق أن سجّله رئيس وزراء إسبانيا ازنار من أجل تجديد الولاية الرئاسية لرأينا كم أن هذا التجديد هو بمثل الشراهة إلى الطعام والشراب، وكيف أن مآل الشراهة إلى العيادة في الحد الأدنى وفوق سرير المستشفى في الحد الأقصى.

وخلاصة القول، إننا نتمنى لبوتليقية الذي أدى اليمين الدستورية يوم الإثنين 19 نيسان (أبريل) 2004 كرئيس لخمس سنوات تنتهي في العام 1909 يكون عند إنتهاء العام بلغ الثانية والسبعين أي العمر الذي يحقّه من أجل ولاية رئاسية ثالثة، أن يؤسس في سنوات التروؤس الثاني لتقاليد يجمع فيها بين رؤاه، كما كنا نسمعها منه عندما كان معارضاً في منفاه الإختياري، وبين مفاهيم له بعدما بات على قمة السلطة في بلده أضناه العنف والتقهقر والقهر المعنوي والجسدي على أنواعه، وأن تسعفه الهمة على تنفيذ الممكنات المستعصيات السبعة وأهمها، إضافة إلى إستكمال مشروع الوثام الوطني، بناء الدولة العصرية التي تستمد شرعيتها من الديمقراطية وليس الثورية

عن النفس بمثل «حالات الدفاع عن النفس الشارونية». وهنا نجد أنفسنا نقول إنه عندما تجيز الإدارة الأميركية للشارونيين أن يقترفوا ما يقترفونه من أفعال، فمن الطبيعي أن لا تكون صاحبة بصيرة وهي تتبلغ تقارير حول أفعال مماثلة وأحياناً أشد هولاً في حق أسرى عراقيين وفي السجن الذي كان أحرق بالحاكم الأميركي والأمر النهائي، بول بريمر، أن يبدأ مهمته في العراق بهدم «سجن أبو غريب»، وبذلك يولد في نفوس العراقيين شعوراً بالطمأنينة ويُقنع من هم مترددون في الترحيب بأحفاد «العم سام» ومحض تقتهم لـ «الصديق الجديد» الذي جاءهم بإدعاء تحريرهم وتحقيق نعمة الديمقراطية لهم، بضرورة إعادة النظر، لكن المستر بريمر عزز شأن «أبو غريب» وإنهمك في الوقت نفسه بأمور أخرى من شأنها تأجيج مشاعر الحذر والكراهية لأميركا غير مستعد لسماع تحفظات تأتي من بعض أعضاء «مجلس الحكم»، ومن الحلقات التي يريد أفرادها صادقين علاقة لبلدهم مع أميركا تعوّض سنوات ربع قرن من القطيعة والتحديت، حتى أن تحفظات شكلية حول علّم البلاد الذي أحدث صدمة في النفوس من حيث المعنى والشكل، لم تلق الإهتمام الذي يجب أن تلقاه، ونتيجة لذلك قبل هذا العلّم عند الإعلان عنه بإندفاع تلقائي نحو العلّم القديم الذي كانوا يرون في ألوانه مسحة يعربية وفي عبارة «الله أكبر» مسحة روحية، إلى أن جاء التشكيل الجديد يلغي المسحتين دفعة واحدة، ويترك إنطباعاً بأن التصميم ليس أمراً عفوياً ومجرد إجتهادات فنية، وبالذات ما يتعلق باللون الأزرق غير المعتمد في كل الدول العربية عدا جمهورية الصومال الديمقراطية وجمهورية جيبوتي، وإنما هنالك تخطيط سياسي لهذا الأمر ينبع من مشاعر تأرية، ونكاد نقول أنه تصميم لعلّم ولاية أميركية سيتم إضافة نجمة جديدة لها على العلم الأميركي المرصع بـ 52 نجمة، تبدأ بنجمة واشنطن وتنتهي بنجمة هايتي. ومع ان المصمم لهذا العلّم عراقي جادرجي بإمتياز، ومهندس له إبتكاراته المشهود لها، إلا أن علّم البلاد أحاسيس في الدرجة الأولى وليس تشكياً هندسياً أو لوحة تجريدية. وعندما إختار العرب اللون الأحمر والأخضر والأبيض والأسود ألواناً أساسية في أعلامهم، وكل دولة حسب إستتساب الألوان المنسجمة مع خصوصيتها، فلأن لهذه الألوان الأربعة بعض المعاني حيث الأحمر الذي نلحظه في أعلام 17 دولة من

وهذا التنديد، التنبيه من جانب الدول العربية التي تحاول الصهيونية والتجمعات المتصهينة إشغالها عن مسؤولياتها القومية، وبالذات في هذا «الزمن العربي المائل»، وذلك من خلال عمليات تقجير وترويع تبدو أحياناً، كما لو أنها حجج إستباقية لتحذيرات للرعايا الأجانب ولإغلاق متقطع للسفارات وللدوائر القنصلية ولإلغاء رحلات طيران... ان التنديد - التنبيه يذكرنا بتنبهات كثيرة سبقت الحرب على العراق ولم تقتصر على تصريحات وبيانات وإنما كانت أيضاً بنداً في جدول أعمال المحادثات التي تتم إما في دواوين أهل الحكم وإما في الإستراحات والمزارع وإما عبر أسلاك المكالمات الهاتفية. وفي تلك التنبهات كان الرأي السعودي أن خيار التسوية والحوار ربما يطول إلا أنه في النهاية يحفظ الأرواح وينقذ الأوطان من شرور الحروب. وعندما طرح ولي العهد الأمير عبدالله بن عبد العزيز رؤيته التي إنتهت بمبادرة عربية بالإجماع فلتأكيد على أن العرب ومن دون إستثناء لن يخرجوا على مبدأ نبذ الحروب والأخذ بمبدأ التسوية المتوازنة لكل القضايا العالقة. بل أنه يجوز القول إن المبادرة كانت من أجل قطع الطريق على الخيار الحربي الذي أخذت به الإدارة البوشية لاحقاً من دون أن تستوقفها التنبهات التي أثبتت صوابيتها التطورات والدم الأميركي - العراقي المسفوك على تراب بلاد الرافدين، فضلاً عن تدمير الحجر والبشر على حد سواء، وتعميق مشاعر الكراهية كما لم ولن تتعمق على النحو التي هي عليه بعد السنة الأولى للإحتلال ثم بعد هتك أعراض وكرامات الرجال وبالصور في سجن «أبو غريب».

لقد جاءت «أبو غريب جيت» في وقت بلغ عدم الإصغاء الأميركي إلى تنبيهات من لا يريدون للعلاقات العربية - الأميركية أن تنهار، حد الرد على التنبهات بالأخطاء الأفظع وكأنما الإدارة البوشية غافلة أو منومة أو أن إستخفافها بمشاعر الآخرين يجعلها ترى ان المسألة عبارة عن أمر ومأمور. الأمر يأمر والمأمور يطيع ومن دون أي قراءة في عمق القضايا. ولو أن هذه الإدارة لم تكن على النحو الذي نشير إليه لما كانت أهدت اربيل شارون وعداً تلغي فيه حقوق شعب، ولما كانت سكنت على إنتهاكات في حق الأسرى العراقيين وكأن ما يجري مجرد إجراءات على العالم أن يتفهمها بمثل ما يجب عليه أن يتفهم دواعي إحتلالها للعراق، أو أنها «حالة دفاع مشروعة»

كما لا نستبعد أن تكون إستراتيجية هذا «اللوبي التصحيحي» قامت على أساس أنه إذا كان التنبيه لا يجد المصغين إليه فإن «اللوبي التصحيحي» كفيل بوضع حد لعناد الإدارة الذي يقود الى التورط. وعند التأمل في خط سير جماعة هذا «اللوبي» وكيف أن كل الأدوار مرسومة بدقة من إفتعال الآثام.. إلى تسريب الصور والمعلومات.. إلى إطلاق صرخة الإحتجاج.. إلى عريضة السفراء السابقين.. إلى مساءلة صقر «البنتاغون» رامسفيلد واجباره على إعلان تحمُّله المسؤولية.. إلى المطالبة بإستقالته على الرغم من إعتذاره.. إلى حلقات أخرى كثيرة سنسمع بها، يتأكد لنا أن المسألة ليست بالعفوية التي قد يظنها البعض.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 11 مايو (أيار) 2004

سلالة نهرو التي عادت..

وسلالة الصلح التي قد تعود!...

من دون أن يكون في حاجة إلى دروس «العم سام» وملاحظاته وتهديداته وحصاراته وممارسات الشاذ والشاذات من قواته في المعتقلات على أبناء بلد إحتلوه، فإن الفيل الآسيوي سجل هدفاً تاريخياً في مرمى الفيل الأميركي (شعار الحزب الذي يحكم أميركا إلى حين) وأثبت بكل الرقي والهدوء أن الديمقراطية أخلاق وحكمة وليست مجرد عضلات وصواريخ وحاملات طائرات وإقتراءات وتضليل ومراوغة وهيمنة وفرض عقوبات على الآخرين... وأحدثها على الحكم السوري الذي أعطى في زمن الأسد الأب أميركا أكثر بكثير مما انتظر طويلاً للأخذ منها، ودون ما يستحقه من رد جمائل إلى هذا الحكم في زمن الأسد الابن على الوقفة الشهيرة لوالده الرئيس الراحل إزاء حرب بوش الأب على العراق لاستعادة الكويت من الغزوة الصدامية يوم الخميس 2 أغسطس (آب) 1990.

ما نريد قوله هنا هو أن الهند سجلت يوم الخميس الماضي (2004/13/5) أمثلة في الممارسة الديمقراطية غابت لبعض الزمن عن تراثها وتمثلت في أن سونيا غاندي أرملة راجيف غاندي نجل أنديرا غاندي وحفيد البانديت جواهر لال نهرو الذي كان

أصل 22 دلالة على أن الدم واحد، والأخضر الذي نلحظه في أعلام 16 دولة من أصل 22، دلالة على أن الإسلام هو الرابط بينهم، والأبيض الذي نلحظه في أعلام 19 دولة من أصل 22 هو اللون الذي يرمز إلى الأمة بعد أن تصفو القلوب من البغضاء والتخاصم والإحتراب، والأسود الذي نلحظه في أعلام 9 دول عربية من أصل 22 يعني أن حالة الحزن تصيب شقيقاً إنما تصيب أشقاء له. وعندما لا نجد أثراً للأزرق في الإعلام العربية فلهساسية من الأزرق الإسرائيلي من جهة وبالذات لأنه يتكرس، لنصف القرن الآخر الذي إنقضت منه بضع سنوات، كرمز للدولة التي تمتن العدوان على العرب وعلى المقدسات الإسلامية والمسيحية ولذا فلا مجال للتطبيع بالحد الأدنى ولا فرصة للتعايش والتعامل بالحد الأقصى. وهذا ما يسّرت إمكانية حدوثه رؤية ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز التي إنتهت مبادرة وكان إستتباطها في الأصل نوعاً من التنبيه الذي لم تستقبله الإدارة البوشية بالمسؤولية المطلوب توافرها في قيادة بعيدة النظر ونتج عن ذلك المزيد من التخبط الذي تشكل «أبو غريب جيت» الحلقة الأكثر خطورة فيه، ذلك أن هنالك رؤوساً في بعض مفاصل الإدارة البوشية أينعت وبات لا بد من إزاحتها لكي يسلم الرئيس بوش الابن، الذي بات الآن مسكوناً بإحتمال أن يصيبه ما أصاب الجمهوري الأسبق ريتشارد نيكسون ومن قبل أن تكتمل المدة المتبقية على إنتخابات الرئاسة حيث يتطلع بوش الابن إلى التجديد ولاية ثانية.

ويبقى القول ونحن نتطرق إلى محاسن التنبيه خصوصاً عندما يصدر عن أصدقاء، ومساوئ عدم الإصغاء على نحو ما فعلت الإدارة البوشية عناداً أو عدم قدرة على الأخذ بغير الرأي المفروض عليها بحكم مضمون الصفقة التي تمت خلال شهر تأجيل إعلان النتائج رسمياً في العام 2000، ثم إعادة فرز الأصوات في فلوريدا لترئيس الثنائي بوش الابن - تشيني، وليس الثنائي الفائز أصلاً آل غور - ليبرمان... يبقى القول إن «أبو غريب جيت» هي صيغة معدلة لـ «الطيور الأبابيل» التي ترمي المفترين بما يشبه الحجارة التي «من سجّل» لتجعل الهيبة كـ «عصف مأكول». ولا نستبعد أن تكون داخل مؤسسات الحكم في أميركا من رسم وخطط ونفذ «أبو غريب جيت» ليس حباً بالعراقيين وإنما لتذكّر السمعة الأميركية التي تتحدر.

فإن الهند التي كانت أمانة في موقفها من قضايا العالم الثالث وبالذات ما يتعلق بالموقف المتوازن بين الشرق والغرب وبالموقف المتفهم للصراع العربي - الإسرائيلي، ستكون في حقبتها العلمانية تحت قيادة «حزب المؤتمر» تلك الدولة التي تقف إلى جانب القضايا العربية، فضلاً عن أنها ستساهم في خلط الأوراق الدولية من جديد وبحيث لا يعود الإسرائيليون يواصلون إختراقها وإبرام الإتفاقات العسكرية والإقتصادية معها تمهيداً من جانبهم لحذفها كرقم من الأرقام الصعبة في المعادلة المتعلقة بالصراع العربي - الإسرائيلي، أي بما معناه تحويلها إلى دولة منحازة إلى صف إسرائيل ضد العرب.

وعلى هامش هذه المفاجأة الهندية نستحضر حالة لبنانية فيها بعض أوجه الشبه من الحالة الهندية وتتمثل في سلالة زعيم سياسي تاريخي هو بالنسبة إلى لبنان بمثل وزن نهرو بالنسبة إلى الهند.. لكن الورثة في الهند كانوا أكثر شطارة من الورثة في لبنان مع أن الظروف التي توافرت لورثة الزعيم اللبناني كانت أقوى من تلك التي توافرت لسلالة الزعيم الهندي. والزعيم السياسي التاريخي اللبناني هو رياض الصلح الذي وضع لبنان في إحدى عربات قطار العروبة وحمى المسيحيين من شرور التعصب محققاً لهم في الوقت نفسه المشاركة السياسية العادلة، إن هي خلت من الطمع، من خلال «الميثاق الوطني» الذي لولا وجوده وإن كان غير مُدَوَّن كوثيقة، لما كان من السهل التوصل إلى إتفاق الطائف بعد أربعة عقود. ومنذ إغتيال رياض الصلح لم يملأ المكانة السياسية للرجل صلحي آخر، وإن كان سامي الصلح ثم رشيد الصلح حاولا قدر الإستطاعة عندما ترأس كل منهما الحكومة وكل بمفهوم لا علاقة له بالأفق العربي للزعامة الإبقاء على هذه الأسرة حاضرة في الخارطة السياسية. أما تقي الدين الصلح فإنه سعى وقدر الإستطاعة أيضاً من أجل أن يمزج بين الوهج العربي لرياض الصلح وبين المعادلة اللبنانية الحافلة بالتعقيدات. وكان الرجل من خلال تلميحات سمعناها منه يرى أن دوره هو التمهيد لكي توصل إحدى بنات ابن عمه رياض زعامة والدهن الشهيد مع تركيز من جانبه على شخصية الابنة الأولى علياء، وهو أمر كان وارداً لولا أن الحرب في لبنان بدأت وتحولت الأمانى والتطلعات إلى شظايا وبات الشمل الصلحي جزءاً من الشمل اللبناني عموماً في غاية التششت،

الأقرب إلى قلب المهاتما غاندي زعيم الهند التاريخي ورمز المقاومة السلمية للإحتلال، وهو الأسلوب الذي نحن في أشد الحاجة إليه في فلسطين والعراق، أعادت إلى الصدارة الزعامة السياسية لجد زوجها ثم لحمايتها أنديرا ثم بعد ذلك لزوجها راجيف كما أنها ردت بشكل خاص الإعتبار الذي يشبه الثأر للحماة والزوج اللذين قضيا إغتياًلاً برصاص الأصولية الهندوسية. فقد فاز «حزب المؤتمر» الذي تُشكّل سونيا غاندي رمز الزعامة الفخرية له في الإنتخابات العامة على حزب «بهاراتيا جانانا» الهندوسي القومي الحاكم منذ العام 1998 وكان بذلك أول حزب هندوسي يحكم الهند. واستناداً إلى التقاليد العريقة للممارسة الديمقراطية في الهند فإن الحزب الهندوسي أقر بالهزيمة وأن «حزب المؤتمر» العلماني سيعود إلى التزعم وترؤس الحكومة وأن السلالة الغاندية، التي هي مزيج نهرو - غاندي، ستعود إلى الواجهة بشكل مباشر من خلال سونيا أرملة راجيف على رغم أنها إيطالية الأصل أو من خلال واحد من نجوم الحزب وهم كثرة. وفي الحالتين، أي إذا إستقر الأمر على أن تتراأس الحكومة سونيا غاندي أو يترأسها أحد حكماء الحزب، فإن ذلك سيكون خطوة على طريق تأهيل الحفيد راهول (33 سنة) ابن راجيف وسونيا الذي فاز في الإنتخابات لكي يتزعم مستقبلاً.

ما يعيننا كعرب من هذه المفاجأة الهندية التي تأتينا في أكثر الظروف تأزماً، أن الأصولية بمعنى التعصب واعتماد القتل أسلوباً مُنبت في كبرى دول العالم الثالث، أي الهند، بهزيمة كبرى. ونستحضر في هذا الصدد ما الذي فعله المتعصبون الهندوس بأنديرا غاندي ثم بإبنها راجيف، وكيف أنهم إغتالوا الأم ثم الابن عندما كان كل منهما في قمة السلطة. وعندما نرى أي فِعْل سوء اقترفه في العراق قاطعو رأس الرهينة الأميركي، وأي أعمال تدمير وتفجير إقترفها الضالون في الرياض و«ينبع»، ونأمل في ما حدث في الهند، فإننا نستبشر خيراً بأن تيار التعصب مرفوض حتى بعدما وصل هذا التيار إلى قمة السلطة.

كما أن ما يعيننا كعرب من المفاجأة الهندية هو أن الحلف الصهيوني - الهندوسي الذي كان على أهبة التكوين والذي سعى من أجله شيمون بيريز بمثل سعيه في تجنيد بعض التطبيعين العرب، لن يأخذ طريقه إلى حد الوصول بالهند إلى أن تصبح رقماً في معسكر المعادين للعرب والإسلام. وعلى هذا الأساس،

وإنتهى الأمر بالإبنة علياء إلى الإستقرار في باريس...
ودائماً في إنتظار الظرف المناسب الذي يأتي ولا
يأتي.

بعد الإستقرار النسبي في لبنان بفضل إتفاق
الطائف المستند إلى «الميثاق الوطني» والذي لرياض
الصلح حضوره فيه عملت علياء والشقيقات على إعادة
تمثال الوالد إلى ساحته وبدخول أحد رموز جيل
الأحفاد الأمير الوليد بن طلال بن عبد العزيز طرفاً
فاعلاً في إستنهاض الهمة وبعث مجد الجد اللبناني
الذي يكمل مجد الجد السعودي الملك عبد العزيز.
وكانت الإعادة موضع ترحيب لبنانيي جيلي ما قبل
الحرب الذين يخبئون في وجدانهم وقلوبهم وذاكرتهم
أسماء زعامات تاريخية من بينهم رياض الصلح وبشارة
الخوري... أعاد الله هو الآخر تمثاله الذي يتقافه
التسويق والتأجيل وإهمال جيل الأحفاد. وما كانت
لإعادة التمثال الصلحي أن تتحقق لولا مثابرة الحفيد
الأمير الوليد وإلحاح الأم الأميرة منى والخالات علياء
ولمياء وبهيجة ولىلى، فضلاً عن سعي طيب من
جانب النسب العماد أول مصطفى طلاس الذي
انصرف معزّزاً مكرّماً مؤسماً يوم الأربعاء الماضي
(2004/5/12) كوزير للدفاع في سوريا على مدى
32 سنة وكعميد، إذا جازت التسمية، لوزراء دفاع
العالم عدا أميركا وإسرائيل كون الوزير في كل منهما
هو «وزير الحرب» كغفل و«وزير الدفاع» كتسمية
رسمية. وما فعله طلاس هو أنه إستطاع إستعادة
التمثال من خاطفيه ثم تولى الحفيد الأمير بقية المهمة
أي إعادة التأهيل وعلى أيدي مثّالين إيطاليين وبحيث
جاء رياض الصلح كتمثال مديراً ظهره للسراي ووجهه
للشرق اللبناني المسيحي وكأنما هو حاضر غائب بين
بني قومه وفي إنتظار أن يتحقق حضوره الدائم من
خلال الإبنة علياء بالذات أو معها أحد الأحفاد
وبالذات حفيد أهم جدين عربيين عبد العزيز بن عبد
الرحمن آل سعود، ورياض الصلح على نحو ما
إستطاعت سونيا الإيطالية الأصل أن تحققه في الهند
حيث أنها رفضت الغبار عن نهرو العظيم وأنديرا ثم
راجيف اللذين قتلها التعصب الهندوسي على نحو
التعصب القومي السوري الذي رمّل الأمة بإطفاء شعلة
أحد مناراتها الذي هو رياض الصلح، وكل ذلك في
ظل الممارسة الديمقراطية الراقية المشهود بها للهند
ومن دون أن يستوقفهم أن سونيا راجيف غاندي امرأة
بمثل ما أن أنديرا لم يستوقفها أن والدها لم يُرزق بأبناء

لكي يرثوا من بعده فدخلت المعترك... وأثبتت أن
الإبنة سر أبيها بمثل ما أن الإبن هو سر أبيه.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 18 مايو (أيار) 2004

* * *

حقيقة العقدة العرفاتية!!

لم تتفع قبلات الرئيس ياسر عرفات على رأس
الملك حسين يرحمه الله ولا على رأس وريثه الملك
عبدالله الثاني أطال الله عمره. وها هو الملك الهاشمي
الشاب ينفذ بالشكل والمضمون، أو بالظاهر الذي
يعكس الباطن، اليدين من الرئيس الفلسطيني ومن
دون أن يلغي توضيح «مصدر في الديوان» ما سبق
أن قاله سيد هذا الديوان عن عرفات، أو أن كلام
الملك في المقابلة التي أجرتها معه صحيفة «نيويورك
تايمس» لا يمكن لتوضيح «مصدر في الديوان» أن
يمحوه.

وحيث أن التطورات في المنطقة وبالذات على
الساحتين العراقية والفلسطينية تتلاحق بوتيرة سرعة
إختراق الصوت، وبحيث أن الذاكرة لا تستطيع إختزان
هذا الكم الهائل من الوقائع الكلامية والإجرامية
والعدوانية والفضائية، فإن إستعادة عبارة السيد
الهاشمي الأول تبدو ضرورية لتفسير ما نقوله هنا في
شأن قبلات الرأس التي طبعها على الجباه والرؤوس
الهاشمية السيد الفلسطيني الأول على مدى سنوات
الشقاء بعد التحدي متمثلاً في مأساة ما أُصطلح على
تسميته «أيلول الأسود» عام 1970. ففي المقابلة
الصحافية المشار إليها وردت عبارة منسوبة للملك
عبدالله الثاني أفزعت رئيس «شعب الجبارين» لأنه قرأ
فيها بعض الترابط بين ما يدور على بساط البحث
العربي - الأميركي، وتحديد القول الصاعق لوزير
الخارجية الأميركية كولن باول بعد محادثات في العمق
مع الملك ومسؤولين عرب آخرين جرت قبل الإلغاء
المطلوب أو فلنقل المرحّب به من جانب الإدارة
الأميركية للقمّة العربية الدورية الرابعة في تونس، ثم
بعد الإلغاء، ثم خلال فترة التشاور الغامضة المقاصد
والنوايا لإستئناف التحضير للانعقاد، ثم قبل أن يتقرر
الموعد يومي 22 و23 مايو (أيار) وفي تونس وليس
خارجها، ثم قبل «المنتدى الإقتصادي الدولي» الذي

إستضافه الأردن وكان حضور جنرال الدبلوماسية الأميركية فيه طاعياً أو ساطعاً لكي لا يتم تفسير الصفة الأولى بأنها من طغيان وطفة... مع أن طبيعة واقع حال الممارسة الأميركية في قضايا العرب والمسلمين عموماً هي من طبيعة الأعمال الطغيانية.

الذي قاله كولن باول وفي ضوء «وعد بوش» توأم «وعد بلفور» هو «إن عرفات - هكذا من دون صفة مستر أو «بريزدانت» لياقة - اضطلع بدور سلبي وأن عليه أن يترك السلطة التي يمارسها على أجهزة الأمن إذا كان يريد تحقيق تقدم في إتجاه السلام في الشرق الأوسط...». والذي قاله الملك عبدالله الثاني للصحيفة الأميركية بعد ذلك وتعليقاً على كلام الوزير باول هو: «إن هناك مناقشات داخل السلطة الفلسطينية بأن يصبح عرفات رئيساً ويعطي المزيد من السلطات لرئيس الوزراء. فإذا كان ذلك من شأنه أن يسمح للفلسطينيين بتجاوز العائق الذي نشهده حالياً مع الولايات المتحدة وإسرائيل فيجب أن يوضحوا الأمر بسرعة...». إلى هنا يبدو الكلام الملكي الهاشمي موضع التفهم النسبي لدى الرئيس الفلسطيني، لكن الإضافة هي التي أزعجت أبو عمار حيث أن كلماتها التسع عشرة تثير الفزع في النفس. والكلمات هي: «أعتقد أن على عرفات أن يقف طويلاً أمام المرأة ليقدر ما إذا كان وجوده يخدم أم لا القضية الفلسطينية...».

الواضح من هذه العبارة أن الملك عبدالله يطالب عرفات بالالتحي الطوعي، وبصرف النظر عما إذا كان القصد من «الوقوف طويلاً أمام المرأة» هو أن الوضع الصحي للرئيس الفلسطيني يحتم عليه الإنصراف أو أن المرأة التي يقصدها الملك هي المشهد العربي. الدولي الذي يحتم عليه التأمل فيه والأخذ بخيار التضحية التي حتى إشعار آخر لا خيار غيرها ما دام القرار الدولي مقبوضاً عليه من الدولة الأعظم، الولايات المتحدة، وما دام الآخرون عرباً وعجماً وأجانب ينطبق عليهم قول الشاعر العربي «لا خيل عندي أهديها ولا مال.... فليُسعف النُطق إن لم تُسعف الحال». وهذا ما يحدث فعلاً حيث أن المواقف اللفظية من نوع «نستتكر» و«نشجب» و«عدوان ضد الإنسانية» و«أمر لا يمكن السكوت عليه» هي بالمئات يتم بثها أرضياً وفضاءياً وعبر وسائل الإعلام على أنواعها، ويلتقي في هذا النوع من المواقف العربي مع التركي مع الإيراني مع الروسي مع الأوروبي..

وإن كان هناك إختلاف في المفردات التي تفرضها سياسة المكايمة بين الحين والآخر، ومن نوع أحدث المكاييدات بين رئيس القمة العربية الثالثة المتوارية ورئيس القمة العربية التي تحل محلها. وهذا الموقف اللافت لنا الصادم للرئيس عرفات وللعرفاتيين عموماً الذين يرتضون زعامة سيدهم حتى إذا كان وضعه الصحي يفرض عليه التمدد على الفراش، والذي إرتأى الديوان الهاشمي تخفيف وطأة صدمته وبعدها كان الذي قيل قد قيل وقُضي الأمر، من خلال توضيح جاء فيه «إن الملك قال إن على عرفات أن يفكر في موقفه من السلام وما إذا كان هذا الموقف يخدم القضية الفلسطينية ولم يقل ما إذا كان وجوده يخدم القضية الفلسطينية أم لا...» إن هذا الموقف اللافت الصادم يشكل مدخلاً من جانب كاتب مثل حالي ليس فقط للتذكير بالقبالات العرفاتية التي طالما كان أبو عمار طبعها ومن قبل أن تنتهي الحال به «أسير العصر» أو أول رئيس شرعي مُعتقل بإرادة بوشية. شارونية وعجز عربي - دولي عن مواجهة هذه الإرادة، على الجبين الهاشمي، جبين الأب قبل أن يرحل وجبين الإبن بعد أن تسلم الملك، وإنما لإستحضار العقدة العرفاتية التي أبلغني فحواها الرئيس الفلسطيني كصديق وكنصير بالقلم للقضية، من خلال رسول له. وهذه الفحوى التي أشير إليها وأكاد أقول إنها شبه نص شفهي لما وصلني أو تم إبلاغي به هو الآتي: إن القادة العرب يريدون مني ما تريده الإدارة الأميركية منهم وهو أن أعلن شخصياً أمرين. إلغاء مبدأ حق العودة أو تذويه في صيغة يتم التفاهم على تنميق مفرداتها وإعتبار القدس مسألة شكلية أو تذويب المطالبة بأن تكون هي عاصمة الدولة الفلسطينية في صيغة يتم أيضاً تنميق مفرداتها. ومقابل ذلك تقوم دولة ويبدأ ضخ المساعدات الدولية لها. وما يريده القادة العرب وقادة بعض الدول الإسلامية وأيضاً قادة معظم دول العالم الأجنبي مني هو أن أكون المبادر إلى إعلان ذلك لكي يكونوا براء من هذه الخطوة وبالذات مما يتعلق بمصير القدس وذلك لأن الشق الفلسطيني، أي حق العودة، لا يورق أحداً منهم. وهؤلاء القادة عندما يفعلون ذلك وتراهم لا يقطعون شعرة معاوية وفي الوقت نفسه ليسوا على ما هو المأمول فيهم من شعب الجبارين، يتوقعون مني الخطوة التي أشير إليها لكي يقولوا إنهم كما الحال منذ خمس عشرة سنة من القمم العربية والإسلامية يؤيدون

الأمر والتصريحات ببعضها... وبالذات كلام الملك عبدالله الثاني الداعي رئيس فلسطين إلى النظر في المرأة بعد كلام كولن باول الذي دعا عرفات إلى سرعة الانصراف، من دون أن يأخذ هذا الجنرال في الاعتبار أن العهد البوشي بكامل رموزه قد يتوارى في الخريف المقبل ويبقى عرفات وعقده قائمة وتتواصل مواكب تشييع شهداء العدوان الصهيوني في إنتظار إنبعاث سيف عربي - إسلامي قاطع يحسم الأمر... أو موقف أميركي - دولي يصحح الخطأ والخطيئة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 25 مايو (أيار) 2004

* * *

تأديب ثوري مستهجن..

وتقليد ملكي محترم

في الوقت الذي كانت بعض القذائف الأميركية تصيب ضريح الإمام علي بن أبي طالب في النجف ولا يأتي الرد على ذلك على نحو ما يفترض كثيرون حدوثه من جانب إيران، فاجأنا رئيس الدبلوماسية الإيرانية الدكتور كمال خرازي بأنه أغى زيارة كان سيقوم بها إلى اسبانيا، احتجاجاً على الدعوات التي وُجّهت إلى نجل وأرملة الشاه محمد رضا بهلوي لحضور عرس ولي العهد الإسباني يوم السبت 22 مايو (أيار) 2004 أي يوم إنعقاد القمة العربية الدورية الرابعة التي جاءت خجولة كمستوى حضور وكنائنج. ومثل هذا الإلغاء يأتي في وقت يتزايد الحديث حول احتمال عودة الشيخ هاشمي رافسنجاني إلى ترؤس البلاد وبحيث يعطي ترؤسه دفعة قوية في اتجاه التطبيع مع أميركا، يثير التساؤلات والدهشة، ذلك أنه لا جدوى من مثل هذا الإلغاء أو التأجيل الذي يشبه التأجيل المبالغ من جانب الرئيس زين العابدين بن علي للقمة التي كان من المقرر عقدها أواخر مارس (آذار) الماضي، فضلاً عن أن التذاعيات العراقية والتحديات التي يواجهها الصديرون من شيعة العراق والذين هم الذراع الضاربة لإيران في بلاد الرافدين بمثل الذراع الضاربة الأخرى المتمثلة بـ «حزب الله» في لبنان. وما يتحتم على إيران القيام به هو خوض غمار تحرك دبلوماسي مكثف لمواجهة ما حدث وقد يتوالى حدوثاً للمقدسات الشيعية، وبحيث

ما يقرره الفلسطينيون. أما ردي على ذلك فهو انهم إذا كانوا لا خيار لهم سوى هذا القرار فإنني أطلب منهم تفويضاً بذلك وبحيث يصدر عن القمتين العربية والإسلامية قراراً في هذا الشأن وأنا في ضوء ذلك أعلن أمام شعب فلسطين خيار الأمتين من خلال القمتين اللتين أصدرتا هذا التفويض ورفعنا عن الكاهل العربي وتوأمه الكاهل الإسلامي هذه المسؤولية. أما أن يقال إن الفلسطينيين هم الذين أرادوا التخلي عن حقوقهم ومقدساتهم وأنهم ما داموا فعلوا ذلك فلماذا يجب أن نكون فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين، فهذا ما لن أفعله...».

في ضوء هذه الرغبة الدفينة المطلوبة من عرفات كانت مبادرة الرئيس بوش وكان وعده بأن تقوم تبعاً لذلك دولة فلسطينية في العام 2005. وعندما لم يتجاوب عرفات بدأت الجفوة منه وجرى حبسه في مقاطعته وبدأ العنف الشاروني يتزايد وتتلازم معه المغفرة البوشية لهذا العنف واعتباره حقاً مشروعاً للدفاع عن النفس، كذلك بدأ التركيز على ضرورة أن يكون هنالك رئيس حكومة فكان محمود عباس الذي لم يستطع ولن يستطع من بعده أحمد قريع تنفيذ الرغبة المطلوبة. ويحاول الشارونيون إنجاز الأمر قبل أن تغرب شمس الشارونية ومن هنا جاء «وعد بوش» وسبقه التركيز على هز هيبة عرفات ودمغ عهده وزمنه ورئاسته وسلطته وشهاده (أي زوجته) بالفساد المالي. ومع ذلك استمر واقفاً على قدميه مردداً إنه الجبل الذي لا تهزه الرياح وكثير التفاؤل بأن الله سبحانه وتعالى سيفرج الغم والهم عن الفلسطينيين من النهر إلى البحر ومن أعالي الجليل إلى شواطئ غزة جزاء صبرهم وتضحياتهم، مطمئناً في الوقت نفسه إلى أنه شخصياً لن يلبي المطلب الأميركي - الأميركي - الإسلامي - الدولي وأن قادة الأمتين لن يتجاوزوا سقف رؤية ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز التي إنتهت مبادرة عربية بالإجماع.. أي بما معناه لن تجرؤ قمة عربية أو إسلامية على تفويضه بالتفريط. وهو بعد هذا العمر وهذا الوضع الصحي يفضل الانصراف من الدنيا مرتاح البال والضمير حتى إذا هم قرروا بعد الحكم الباطل في حق البطل مروان البرغوتي إدانته والحكم عليه هو الآخر بالسجن المؤبد مرة أو بضع مرات.

تلك هي بعض المشاعر على هامش ما نقله رسول أبو عمار وأسجله بقدر إستيعابي لما سمعتُ رابطاً

مقنعة من نوع تأجيل أو إرجاء زيارة خرازي إلى اسبانيا لإجراء محادثات مع وزير الخارجية الإسبانية الجديد موراتينوس، الذي في نفسه تفهم لمعاناة دول المنطقة وأولها إيران من الممارسة الأميركية حرباً ثم احتلالاً وما بينهما من إنتهاكات للسيادة ولحقوق بعض الناس وأبدانهم، بنسبة عدم تفهم وزيرة الخارجية السابقة بالاسيو التي إقترفت طوال سنة من الإحتلال أعقبت إسقاط النظام الصدامي من الإثم السياسي لمصلحة الإحتلال ما جعل النفوس العربية والإسلامية تنفر من هذا التزلف تمارسه مادلين أولبرايت أو كونداليزا رايس... الإسبانية.

وعندما نشير إلى العبر والإعتبار فعلى أساس أن القطيعة الدبلوماسية الدائمة للثورة الإيرانية مع أميركا وبريطانيا فضلاً عن بعض الخطوات التأديبية لم تحقق أي جدوى. كما أن القطيعة التي كانت بين العراق وأميركا والتي بدأت قبل صدام وإستمرت حتى السنين اللتين سبقتا غزوته للكويت أضرت العراق أكثر مما أفادت. وإلى ذلك، فإن تحييد قنوات الإتصال أمر ضروري حتى في ذروة الخلافات.

وتبقى نقطة جدية بالتوقف عندها وهي أن هنالك تقاليد ملكية راسخة ومحترمة لن يؤثر في عراقها ان الآخرين يتخذون أحياناً خطوات إحتجاجية في شأنها. وبموجب هذه التقاليد فإن المجتمع الملكي العالمي مع خصوصية ثنائية بين بعض المنتسبين إلى هذا المجتمع، يلتقي عندما يكون هنالك زفاف ملكي أو تكون هنالك جنازة ملكية. وبموجب هذه التقاليد يتم توجيه الدعوات التي لا تتأثر بأن أسرة ما لم تعد في الحكم. وهذه دعوة الملك كارلوس وزوجته الملكة صوفيا، الأمبراطورة السابقة فرح ونجلها ولي عهد والده الراحل لحضور حفلة زفاف ابنهما ولي عهد إسبانيا، تأكيداً للتقاليد التي نشير إليها، والتي من واجب الآخرين إحترامها.

وفي تقديرنا انه ليس هنالك إسباني واحد استقبل بالتفهم الخطوة الإيرانية الخاتمية... هذا إذا لم نقل إن رد الفعل إزاءها كان الإستهجان بنسبة كبرى. وهو يمثل إستهجاناً للقطيعة الدبلوماسية التي لم يتم حسم أمرها بعد والمتمثلة في أن العلاقة بين دولتين إسلاميتين كبيرتين وتحملان رقمين صعبين في المعادلة الإسلامية - الدولية متوترة لأن مصر السادات إستضافت الشاه الشريد المريض وتم دفنه في القاهرة، وأن إيران انتظرت لحظة الثأر المناسبة من

تكون اسبانيا تلك الدولة التي تساند هذا التحرك. ونقول ذلك على أساس أن اسبانيا إتخذت، وبعد فوز التيار المعارض للحزب في الإنتخابات، خطوة نوعية زعزت أساسات ما إصطلح على تسميته «دول التحالف» وجعلت الرأي العام الأميركي والأوروبي يزداد إعتراضاً على ما حدث للعراق، ويتواصل الحدوث فيه من إنتهاكات وإستهانات. كما ان الخطوة الإسبانية وبالذات بعد سحب القوات العاملة هناك شكلت حثية بالغة الأهمية لأي حكومة تريد الإنسحاب من ورطة التلاعب الأميركي - البريطاني بالعراق ولا تجد المبرر لهذا الانسحاب.

مثل هذا الموقف النزيه من جانب اسبانيا يستحق من جبهة الإعتراض على الدور الأميركي غير النزيه في العراق.. وبالذات من إيران الأكثر إعتراضاً ومن قَبْل إصابة ضريح الإمام علي ببعض الفدائف، التقدير وتجاوز أي خطوات يمكن اعتبارها من وجهة نظر إيران إنتقاصاً من ثورتها، من نوع الخطوة المتمثلة بدعوة بقايا أسرة كانت حتى السبعينات تملك وتحكم ودارت الأيام عليها لينتهي بها الحال بمثل بعض وقائع النهاية التي لم تكتمل فصولاً للأسرة الصدامية في العراق. لكن إخواننا الإيرانيين الخاتمين ومن منطلق بدعة المزايدة المستشرية في صفوف الأجنحة المتصارعة على الساحة الإيرانية الثورية إرتأوا تسجيل هدف في مرمى الإيرانيين الرفسنجانين الخامنئيين يتمثل في أن الدكتور كمال خرازي فاجأ الأصدقاء الإسبان بأنه طلب تأجيل أو إرجاء زيارته التي كان سيقوم بها لأن الأمبراطورة السابقة فرح أرملة الشاه محمد رضا بهلوي وإبنه كانا بين المدعويين إلى حفلة زفاف ولي عهد اسبانيا التي كانت الأهم من حيث الأبهة والترتيبات الأمنية بمثل حفلة زفاف ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز قبل حوالي ربع قرن.

هذه الخطوة «التأديبية» من جانب إيران الخاتمية ليست فقط تناقض النهج الواقعي الذي أرسى أسسه الرئيس السيد محمد خاتمي، وإنما هي تدخل في شؤون الآخرين يحدث بعدما إنحسرت ظاهرة تصدير الثورة التي أخذت مداها طوال ربع قرن ومن دون أن تأتي مواسم الحصاد منها لمصلحة الشعب الإيراني. كما أن هذه الخطوة المستهجنة تثير الإستغراب كونها تؤكد أن الإيرانيين الثوريين لم يأخذوا العبرة من النتائج التي أسفرت عنها خطوات مماثلة تراوح بين القطيعة الدبلوماسية الدائمة وبين تسجيل إحتجاجات غير

«كرم الأخلاق الساداتي» فأطلقت على أحد شوارعها إسم الإسلامبولي الذي إغتال الرئيس السادات وهو بكامل نياشينه وقيافته العسكرية يحتفل من على المنصة بذكرى الإنتصار النوعي للجيش المصري في حرب 6 أكتوبر 1973.

ونختم بالتساؤل: ألم يكن من الأكرم والأجدى أن تتم زيارة رئيس دبلوماسية إيران الخاتمية لإسبانيا ويقول لزميله إن مشاركة الأمباطورة السابقة وولي عهد الشاه محمد رضا بهلوي في حفل زفاف ولي العهد الإسباني هو إساءة لثورتنا ونضالنا؟ وحتى إذا أجابه زميله الإسباني إن هذا التقليد الإجتماعي يخص الملك والملكة ولا يدخل في قاموس الحساسيات، فإنه كان من الأكرم والأجدى عدم طلب إرجاء الزيارة أو تأجيلها... وخصوصاً أنها لا بد ستتم بعد حين وسيقال ما الذي تبدّل لكي يصبح المحرّم محللاً بعدما كان المحلل محرّماً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 1 يونيو (حزيران) 2004

* * *

تأملات وهوامش حول

«حرب النجوم.. البوشية»

في الوقت الذي كان فيه أهل العراق يشعرون للمرة الأولى، منذ أكثر من سنة وبضعة أسابيع حافلة بالفواجع الإنسانية الناشئة عن الإحتلال والمقاومة النوعية لهذا الإحتلال، ببعض الانفراج، متوسمين الخير في المهندس الشمري الشيخ غازي عجيل الياور ابن شقيق شيخ مشايخ العشيرة محسن الياور الذي إستقر رأي أعضاء «مجلس الحكم» على أن يكون هو رئيس الجمهورية وليس المخضرم عدنان باجه جي... وفي الوقت الذي كانت فيه صيغة «مجلس الحكم» تحلت وباتت هنالك حكومة من 33 وزيراً من بينهم 18 من حاملي الدكتوراه، كما هي حال الظاهرة المتميزة في مجلس الشورى السعودي، و6 نساء مثقفات، ويترأسها البعثي الأصل اياد علاوي، ونشأت عن إعلانها مشاعر إطمئنان إلى أن سلطة عراقية وطنية يمكن أن تحل بالتدرج محل سلطة الإحتلال وتدير شؤون البلاد والعباد بما ينقل العراق إلى الوضع المستقر...

... وفي الوقت الذي كانت فيه إدارة الرئيس جورج بوش الابن تحاول ترميم ما يمكن ترميمه من هيبته المهشمة نتيجة إخفاقات متتالية بلغت ذروتها بعد الإقتضاح المتعمّد والمبرمج لما حدث داخل زنزانة سجن «أبو غريب» الذي طالما تعذّر على الرئيس بوش وغيره من المسؤولين في إدارته لفظ الإسم بسهولة، الأمر الذي جعل أحد الإعلاميين الأميركيين المرموقين يقترح، مماًزحاً، على الرئيس إصدار توجيه إلى سفيره المستر بريمر بإطلاق إسم أكثر سهولة لفظاً على هذا السجن...

... وفي الوقت الذي أطلق فيه الرئيس بوش رصاصة الإقالة على مدير الـ «سي. آي. إيه» جورج تينيت والتي قد تكون بمثل مفعول رصاصة الرحمة... في هذا الوقت كان الإعتقاد بأن الدولة الأعظم الولايات المتحدة ليست بعيدة عن مشارف «حرب أهلية» من نوع جديد بات أمراً أقرب إلى الحقيقة والواقع منه إلى الخيال والإستحالة، وأن هذا الصراع الدائر بين أقطاب الحلقات المحيطة بالرئيس بوش والتي كانت إحدى بوادر التصدع الناشئة عنه إقالة مدير الـ «سي. آي. إيه» بصيغة «الإستقالة لأسباب شخصية» مؤشراً إلى «حرب النجوم.. البوشية» التي هي من نوع «حرب النجوم الفلكية» للرئيس الحي البنية - الميت الذاكرة من مضاعفات مرض «الزهايمر» رونالد ريغان. والقول بأن الحرب التي نشير إليها آتية مثل الساعة التي لا ريب فيها... ساعة إنتقال الروح إلى باربها، يستند إلى عدة معطيات من بينها واقعة سجن «أبو غريب» ومسلسل الإنتهاكات داخل السجن والنقاط الوقائع بالفيديو، وكما لو أنها بغرض إنتاج فيلم تلفزيوني أو سينمائي، ثم تسريب الأخبار والصور إلى وسائل الإعلام الصحافي والتلفزيوني، ثم خروج بعض الجنرالات والمسؤولين والسفراء السابقين عن صمتهم المطبق والإدلاء بتصريحات تنسف الأسس التي بنى عليها كواسر الإدارة البوشية حججهم للحرب على العراق، وتهديد دول أخرى بما من شأنه تعكير صفو إستقرارها وأمنها. ومثل هذا الفعل لا يمكن أن يأتي عفواً وإنما هو جزء من إنقلاب مرتقب على النظام، أو أنه في الحد الأدنى إنذار بالغ الحدة وكثير الوضوح يبعث به «لوبي» اميركي عسكري - مدني إلى الإدارة البوشية مفاده أن ما حدث ويتواصل حدوثه من شأنه التسبب في إحراج لا مثيل له للهيبة الأميركية، ومن شأنه أيضاً جعل

العالم في كفة وأميركا ومعها إسرائيل في كفة أخرى.. وتلك مخاطرة حقيقية بالمعادلة الأميركية المبنية على أساس أن المواطنة أهم من أي شيء آخر وأن الاستقرار خط أحمر لا يجوز التعاطي معه بعقلية المغامرين.

والقول بأن في الأمر ملامح فعلٍ إنقلابي يستند إلى أنه لا إمكانية من الخارج للتغيير في النهج الأمريكي وإن الامكانية الوحيدة المتاحة هي إنقلاب من الداخل. ونحن عندما نتأمل في طبيعة الصراع داخل مؤسسة الحكم في أميركا، وبالذات منذ أن تم كسر حاجز المحظورات ونشر صور التوابيت التي تضم جثث الجنود الذين يقضون نحبهم في العراق، وتطوير عملية الإحتجاج من خلال إقدام ذوي مئات الجنود على وضع أحذية أبنائهم القتلى على أرض رحبة تدليلاً على انهم ماتوا، وإرتفاع أصوات المعارضين من كُتّاب ورجال سياسة وجنرالات سابقين لإستمرار التضحية بالجنود على أرض العراق، لا نرى في تصريح تينيت والإعلان عن ذلك قبل شهر وكما لو أن الرجل مجرد موظف صغير في مؤسسة يُمنح شهر إنذار قبل صرفه، سوى أن «الرسالة الإنقلابية» التي أشرنا إليها فُرئت بعناية من الإدارة البوشية وأن هذه الإدارة تحاول، ربما متأخرة جداً، الإستدارة التي تحقق لها السلامة وتُبعد عن الدولة إمكانات أن يفرز الوضع المستجد في العراق إتجهاً حكومياً يطالب الإدارة الأميركية بالتعويض عن كل نقطة دم أريقَت وكل غابة نخيل أُحرقت وكل حجر بنيان جرى تدميره وكل برميل نفط تعطل إنتاجه وتصديره ومئات المطالب المندرجة في تعويضات الحروب، الأمر الذي يعني أن العراق قد يتسبب في إفلاس الدولة الأعظم.. وهو إحتمال ليس بالمستبعد، ذلك أن الوضع المالي الراهن في الولايات المتحدة يواصل التوسع، وكان الساعون إلى الحرب يتطلعون إلى أن يحل لهم الكنز العراقي وبقايا الكنز الخليجي المشكلة المالية المتفاقمة. ونشير ونحن نتحدث عن مشكلة هي أكثر خطورة من مجرد ضائقة عابرة، إلى أن الخزينة الأميركية تدفع كل ساعة 41 مليون دولار فائدة على الديون.

يطول الحديث في هذا الشأن الذي ترتبط به مسألة في غاية الأهمية وتتعلق بالقرارات التي إنتهى إليها إجتماع وزراء النفط في دول منظمة «أوبك» الذي إستضافته العاصمة اللبنانية بيروت يومي 3 و4 يونيو (حزيران) 2004 ... وهي إستضافة لافتة، ذلك أن

المألوف في هؤلاء الوزراء تحبيذهم الإجتماع في عواصم دول محايدة وتحديداً في فيينا حيث مقر منظمة «أوبك» وفي جنيف. وجاء الإنعقاد في بيروت التي ذاع صيتها كعاصمة لـ «لبنان المقاومة» في وقت علا فيه الصراخ الأميركي من زيادة سعر البرميل الذي وصل إلى أربعين دولاراً، وفي وقت تزايدت فيه مطالبة أميركا للدول المنتجة من أجل زيادة الإنتاج لكي ينخفض السعر، وبذلك تتراجع بعض الشيء حدة الضغوط على إدارة الرئيس بوش الذي تنفجر يومياً الصراعات في مؤسسات ومفاصل إدارته. وبذل أن تكون هذه المسألة مناسبة لنا كأصحاب حقوق عالقة ولا تحسم في شأنها الإدارة الأميركية، فإننا تجاوبنا مع المطالب الأميركية ومن دون أن يكون هنالك تجاوب مع إستغاثتنا. وقد يقال إن هاجس وزراء النفط الناشئة عن الخوف من أن تتجه أميركا نحو إستتباط بدائل للنفط، وبذلك يصبح سعر البرميل أقل من كلفة إنتاجه، هو السبب في هذا التجاوب، خصوصاً أن أميركا لجأت إلى النووي كوقود لسلحها البحري. والرد على ذلك هو أن في إستطاعة الصناعة الأميركية أن تجد بدائل لتشغيل محركات السيارات من خلال إستعمال الغاز والكهرباء والمواد التفجيرية مثل الدرة وروث الدجاج، إلا أنها غير قادرة على إيجاد بديل للنفط من أجل تشغيل طائرات نقل الركاب التي تزداد حركتها مع إزداد الكثافة السكانية في العالم. وهذه الطائرات لا يمكن تشغيلها بالنووي على نحو ما هو حاصل بالنسبة إلى البوارج الحربية وحاملات الطائرات، لأن وضع النووي في طائرة ركاب معناه تعريض الركاب سلفاً لكارثة لا مثيل لها. يضاف إلى ذلك أن الأجواء ستكون ملوثة نووياً وهذا يعني إستشراء الحالات المرضية المستعصية من القطب إلى القطب. وخلاصة هذه التأملات والهوامش حول «حرب النجوم... البوشية» أن أحوال أميركا لم تعد على ما يرام. بدليل أن الرئيس بوش شخصياً إعتبر المقاومة العراقية مشروعة، وأنه مضطر لإعادة النظر في أمور كثيرة توخياً منه للسلامة. ومن هناك كان الأجدر بوزراء الثروة العربية المتمثلة بالنفط أن يفكروا بحالنا، خصوصاً أننا أقوىاء عندما تكون أميركا هي التي تطالب برفع الإنتاج. وكان المكسب سيكون أكبر لو أن التجاوب لم يحدث، ذلك أننا هنا لا نستعمل النفط كسلح بمعنى وقف التصدير كما سبق وحدث عام 1967، وإنما نستعمله كورقة تفاوضية وتبادلية... أي

يكون هنالك إتفاق مبدئي على قاعدة رفع الإنتاج مقابل وقف الحروب علينا، والتهديدات المتواصلة التي تستهدف إستقرارنا وإتخاذ الموقف النزيه والعادل الذي على أساسه نحول الرؤية السعودية التي أمست مبادرة عربية بالإجماع إلى واقع ملموس.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 8 يونيو (حزيران) 2004

* * *

مجلس التعاون «الواسع»... ولم لا ..؟

لم يحدث أن أطل حاكم عراقي على بني قومه وعلى جيرانه أهل الخليج وعلى العالم، على نحو ما فعله الشيخ غازي عجيل الياور منذ أن تم إختياره عضواً في صيغة «مجلس الحكم»... ثم بعدما إنتهى التوافق عراقياً والتجاوب أميركياً إلى أن يكون هو رئيس الجمهورية الثانية في العراق ذات الطبعة المحافظة، بعد الجمهورية الأولى التي تعددت الأنواع الثورية فيها، منذ النوع القاسمي في 14 يوليو (تموز) 1958 حتى النوع الصدامي الذي إستمر إلى حين إسقاط (عبد السلام) والنوع العارفي الوريث (عبد الرحمن) والنوع البكري - الصدامي الذي ما لبث أن إجتاحه النوع الصدامي.

كانت إطلالة الشيخ غازي إيداناً باستعادة العشيرة شأنها، في العراق الذي هو كتلة عشائرية فريدة، بمعنى أن العشيرة الواحدة فيها الثوري وفيها المحافظ في الوقت نفسه، وفيها الصدامي الهوى والمصالح وفيها الذي تقطعت خيوط علاقته بصدام، وفيها السني وفيها الشيعي في الوقت نفسه، وتلك خلطة فريدة لم يسبر غورها «العم سام» وغاب الحكيم البريطاني عن شرح خصوصيتها له فإضطربت أحوال الإحتلال كما لم تضطرب أحوال قوة عظمى من قبل.

كانت إطلالة الشيخ غازي متمثلة بعباءته وكوفيته وعقاله وشاربه الكث مع إبتسامة غير مأكرة. ومثل هذا اللباس العراقي مندثر بالنسبة الى أهل الحكم منذ الجمهورية الأولى، لأنهم في معظمهم من الضباط الذين يفضلون الظهور على الناس بالزي العسكري، ولأنهم في الوقت نفسه عدا الطبعة النكريتية من الحكم، ليسوا من أفخاذ عشائرية صميمة لكي يرتدوا

العباءة والعقال والكوفية. وبإستثناء حالات نادرة لم تسجل «كاميرات» المصورين الرسميين والعاديين لقطات للحاكم العراقي وهو يرتدي العباءة والكوفية والعقال. ومن هذه الحالات حرص الرئيس صدام حسين على أن يستقبل الملك فهد بن عبد العزيز عندما زار بغداد يوم الإثنين 27 مارس (آذار) 1989 وهو، أي صدام، يرتدي الثياب العربية وليس البدلة الإفرنجية، وهو الذي كان دائم الحرص على أن تكون من أفضل تصميمات «لانغان». وليس أيضاً إرتداء الزي العسكري الذي إستمر لبضع سنوات من الحرب مع إيران ثم من الحرب البوشية الأولى عليه وطوال سنوات الحصار في عهد الرئيس كلينتون، ثم في عهد الرئيس بوش الابن، يحرص على الظهور فيه عدا إستثناءات قليلة.

تطول الملاحظات حول أنواع اللباس التي كانت جزءاً من شخصية صدام حسين وكيف أنه إرتدى الكوفية المرقطة وكذلك الكوفية البيضاء والقلقب والفيصلية والقبعة الأوروبية والبدلة الإفرنجية وأفضل ربطات العنق أو البدلات العسكرية مع مرافقة السيجار ليده اليمنى في معظم الحالات. وكان في تأنقه يريد الإيحاء بأنه مؤكب لمقتضيات العصر. وهو في ذلك كان مثل الرئيس أنور السادات مع فارق أن الأخير كان شديد الحرص على أن تكون الأوسمة والميداليات مرصوفة على يسار بدلته العسكرية، في حين أن صدام حسين كان لا يظهر على الناس بالأوسمة والنياشين لأنه دائماً في ثياب ميدان معارك حروبه التي لا تنتهي.

كذلك تطول الملاحظات في شأن الدوافع إلى هذا التنوع في مسألة اللباس والبدلات وكيف أنها وحدها لا تكفي للإيحاء بأن صاحبها يواكب روح العصر.

أما الذي نحن في صده الآن فهو ثبات الشيخ غازي على لباس ابن العشيرة، وحرصه على أن يبقى دائم الظهور فيه على الناس والعالم، وكيف أنه عندما توجه إلى فرجينيا ليكون قريباً من قمة الدول الصناعية التي إستضافها الرئيس بوش الابن في «سي آيلاند»، بدا في أنظار مشاهديه كما لو أنه أحد حكام دول مجلس التعاون الخليجي الذين إعتاد أهل القرار الدولي على الإجتماع بهم وهم يرتدون الثياب العربية. ولو لا أن الرئيس علي عبدالله صالح لم يخرق هذه المرة حرصه هو الآخر على أن يظهر أمام دول الغرب عموماً بالبدلة الإفرنجية، وظهر في

شاطئ الخليج، إضافة إلى التجاور الحدودي مع السعودية والكويت، كما أنه ليس عبئاً مالياً لأنه غني بنفطه وبهريه وبساتينه وجباله وخيرات نخيله.

وقد يحدث في حال انتساب العراق إلى خليجته أن تشعر إيران بأنها الوحيدة التي هي خارج الرابطة الخليجية. وفي هذه الحال تفكر جدياً بالانتساب هي الأخرى وبعد أن يطرأ من باب الترغيب لها تعديل لتسمية المجلس يتم بموجبه حذف الهوية العربية ليصبح «مجلس التعاون لدول الخليج الإسلامية». وبذلك تتحسر التطلعات الإيرانية إلى التسيّد بعد إنحسار التصدير الثوري وبمثل ما كانت عليه تطلعات العراق الصّدّامي، ولا تعود مشكلة الجزر الإماراتية الثلاث على الإستعصاء الذي هو عليه حلها لأن الشقيق يجيز لنفسه المشاكسة أحياناً على نحو مفاجآت دولة قطر في هذا الشأن، إنما لا يجوز أن يحتل أرض شقيقه. وهذا ما كان يحدث من جانب العراق إزاء الشقيق الكويتي لو أنه كان على نحو ما يُفترض حدوثه وما نشير إليه.. أي إنتسابه عضواً سابغاً إلى مجلس التعاون.

وتبقى الإشارة إلى أن توسيع المجلس، بحيث يمتد من اليمن إلى إيران شاملاً العراق والدول الست الأعضاء حالياً، من شأنه أن يحقق إستقراراً في المنطقة ويقلل من نسبة الحذر الأميركي والغربي عموماً من الجنوح الثوري والأصولي. وهذا أمر طيب في أي حال، خصوصاً أن الجامعة العربية كمؤسسة إلى تحلل، وأن التكتلات من نوع التكتل الخليجي الذي نشير إليه سيبدو داخل «الشرق الأوسط الواسع» الذي تم التوافق الدولي في شأنه في قمة الإقطاع الإقتصادي الدولي التي إستضافها الرئيس بوش الابن قبل عشرة أيام في فرجينيا، رقماً محسوباً حسابه ومقبولاً وبكل الرضى والإرتياح تنوعه.

ويا ليت الأمين العام السابق للمجلس الشيخ جميل الحجيلان، والأمين العام الأسبق عبد الله بشّارة، وهما اللذان عندما يعالجان بالقلم قضية ما فإنهما يجيدان، يوضح كل منهما ووفق رؤيته ما الذي يحول دون قيام «مجلس التعاون الخليجي الواسع» بينما من السهل قيام «الشرق الأوسط الواسع» ذات يوم... وليس بالبعيد.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 15 يونيو (حزيران) 2004

* * *

القمة البوشية بالزي اليمني متمنطقاً الخنجر الشهير على منتصف وسطه، لكان الشيخ غازي بدا وكما لو أنه يمثل دول الخليج في هذه القمة، خصوصاً أن ملك البحرين الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة كان مثل بقية الآخرين، عدا الرئيس الأفغاني الذي صارت عباءته الخضراء من إبتكار «كاردان» علامة فارقة في دنيا الأزياء، يرتدي اللباس الإفرنجي، أي «السترة والبنطلون» ومن دون ربطة عنق وهو ما بدا أنه منقّق عليه مع البروتوكول الرئاسي، حيث أن الجميع، رؤساء أميركا وبريطانيا وفرنسا والمانيا وإيطاليا واليابان وروسيا وكندا ومعهم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة ورئيس الحكومة التركية رجب طيب أردوغان والملك عبدالله الثاني، كانوا بثياب خارج مقتضيات الرسميات.

وهذه الإطلالة لإبن العشيرة الشمرية تمتد جذور شجرتها إلى السعودية وسوريا والأردن تجعلنا نتساءل: أليس من مصلحة العراق وجيرانه الخليجين حسم مسألة إنتساب العراق إلى دول مجلس التعاون الخليجي ما دامت هواجس العراق الثوري قد إنحسرت وما دامت العلاقة الأميركية - العراقية ستكون إستراتيجية وبمثل العلاقة التي بين أميركا ودول مجلس التعاون من دون إستثناء. وإلى ذلك إن حسم هذه المسألة تؤكد التسمية التي إختارها الخليجيون لمجلسهم وهي «مجلس التعاون لدول الخليج العربية». والعراق هو الخليجي العربي الوحيد الذي بقي خارج السرب لدواعي عدم الإنسجام وعدم تقبّل الجسم للعضو الثوري يُزرع فيه. وبعد الآن لا فرصة على ما يجوز الإفتراض أمام إستعادة الثورية أنفاسها في العراق لأن الزمن الثوري عموماً إلى إنحسار... وهذا الذي جرى لـ «الإتحاد السوفياتي» وللعقيدة الماركسية عموماً ولكل الأنظمة الثورية في أوروبا، تأكيد لما نقوله. وحتى الصين تحاول تفصيل لباسها الثوري بمقص رأسمالي. أما كوبا الصامدة على العقيدة الماركسية فإن ثورتها ستتلاشى مع إنصراف فيدل كاسترو إختياراً بدواعي الشيخوخة التي إستحكمت به، أو صرفه بفعل إنقلاب، أو من خلال إزاحته بعملية حربية على نحو الذي جرى لصديقه وحليفه صدام حسين.

وإنتساب العراق الجديد إلى «مجلس التعاون الخليجي» فرصة قد لا تتكرر ولا تحتل التأجيل على نحو ما جرى للرغبة اليمنية... مع الأخذ في الاعتبار أن اليمن حالة حدودية برية، في حين أن العراق على

تأملات في ظاهرة عربية . أميركية لتضييع الفرص

هنالك إنطباع بأن تضييع الفرص حكر على العرب والمسلمين عموماً وأن نصف قرن من الأحوال في المنطقة كان حافلاً بالفرص التي لم يتم إغتنامها على النحو المطلوب، فإنتهى الأمر نتيجة ذلك إلى إرتباك وإضطرابات نعاني منها إلى اليوم. ومن الأمثلة عن الفرص الضائعة قرارات التقسيم التي لم يتم التوافق العربي عليها قبل أكثر من أربعة عقود، فنتج عن ذلك فقدان الأمل في عشرة في المائة من فلسطين بعدما كانت تلك القرارات ستحقق الحصول على نصف الأرض بما في ذلك القدس التي هي لب الصراع. ومن الأمثلة أيضاً على ذلك أنه لم يتم التوافق على الفور على القرار الدولي 242 وإنقسمت الأمة حوله أغرب إنقسام، فنتج عن ذلك أن إنهاء الإحتلال الإسرائيلي للأرض العربية لم يتم بالكامل وتبعثرت الجهود بعدما كان المؤمل حدوثه في حال جرى إتفاف حول ذلك القرار، وإتخاذ موقف شامل وغير إنقسامي في شأنه يطالب الدول الكبرى بتنفيذه على الفور، أن ينتهي ذلك الإحتلال بالحسنى لمجرد صدور القرار عام 1967 مباشرة بعد تلك الحرب التي منيت بها الأمة بهزيمة تعاني الأجيال من تداعياتها حتى الآن. ومن الامثلة أيضاً أن إخواننا الفلسطينيين تباطأوا في مجارة الرئيس أنور السادات بعدما وضعهم أمام صيغة الأمر الواقع، وإنتهى الأمر به متصالحاً لوحده مع إسرائيل بعدما كان يأمل بمشاركة الفلسطينيين له في جنوحه نحو السلام ذاك، بينما كان من شأن مشاركتهم أن تقيهم عذابات ربع قرن يؤسس على ما يبدو إلى ربع قرن آخر من العذابات، ذلك أن الشارونيين وضّعو «إيديولوجية العدوان» قاعدة للتعامل مع الشعب الفلسطيني، يتوارثها من بعدهم من هم في سؤئهم أو أشد سوءاً منهم.

ومن الأمثلة على عدم إغتنام العرب للفرص أن الرئيس صدام حسين، وعندما كان موضع رعاية إخوانه القادة العرب وموضع إرتياح الشعوب لهذه الرعاية، جعل من هذه الحالة وسيلة لتحقيق تطوعات غير واقعية. ومع أن الواجب كان يفرض عليه لمجرد إنتهاء الحرب مع إيران أن يتصالح مع أبناء شعبه من غير البعثيين ويجسد ذلك في المشاركة والتعددية

ووضع الدستور الدائم واعتماد حكومة تجسد الوحدة الوطنية، وأن يقوم بجولات تبدأ بالرياض فالكويت وصولاً إلى الجزائر والرباط، يشكر فيها الذين آزره في المواجهة مع الثورة الإيرانية، ويتعاون مع القادة الأشقاء في كتابة صفحة وفاق عربية - إيرانية وعربية - دولية، ويطلب منهم السعي لمصالحته مع سوريا التي وقفت مع إيران ضده... مع أن الواجب كان يفرض عليه إغتنام فرصة إنتهاء الحرب من دون إنتصار للعراق أو هزيمة لإيران الأمر الذي يساعد على تحقيق أجواء التسوية ونشر الطمأنينة وإزالة الشوائب، فإنه غزا الكويت لينتهي به الأمر إلى أنه خسر الثقة به والسلطة والحكم والولدين إضافة إلى تشتت العائلة، وترك العراق تعيث فيه إفساداً وإمتهاناً وتدميراً جحافل الغزاة، مع أنه كان في الإستطاعة إعتبار الغزوة خياراً إتسم بالإستعجال وسحب القوات التي كانت بدأت تتصرف بإنتقام من أشقاء كانوا طوال سنوات المواجهة مع إيران مساندين بالمال والدعم المعنوي والسياسي.

ومن الأمثلة على عدم اغتنام صدام حسين أيضاً الفرص، انه عندما أراد الملك فهد بن عبد العزيز فتح نافذة في الحالة العراقية - الخليجية، وبما من شأن ذلك أن يمهد لإستعادة التعايش فالتفاهم تليهما المساعدة على فك الحصار المحكم دولياً على العراق، فإن صدام حسين لم يتصرف بما يجعل الفرصة توتي ثمارها. وتجدد الإشارة إلى أن الذي فعله الملك فهد أواخر العام 1998 يتمثل بالرغبة في إستضافة حجاج العراق ذاك العام على حسابه الخاص، وبذل أن يكون هنالك رد صدامي على التحية بمثلها، فإن الرئيس العراقي السابق أصدر أمراً بعودة الحجاج بعدما كانوا باتوا داخل الأراضي السعودية في منطقة الحدود مع العراق، وهو إجراء لم يقتصر على إنهاك الحجاج وحرمانهم من تأدية الفريضة، وإنما كان تضييعاً لفرصة من شأنها أن تعود بالخير على العراق والمنطقة. وما يقال عن هذه الفرصة يقال أيضاً عن الفرصة المماثلة التي سعت اليها دولة الإمارات وبذل من أجلها رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان الجهد الملحوظ المستند الى حُسن النوايا والتي تتمثل بالعرض على الرئيس صدام، وقبل أيام من بدء الحرب الأميركية - البريطانية، مغادرة العراق والحلول مع من يختارهم من أفراد العائلة والمسؤولين ضيوفاً على دولة الإمارات.. وبذلك يمكن درء الحرب والبحث عن صيغة

عربية . إسلامية - دولية للمسألة العراقية.

وقد يقال حول هذه الفرص وغيرها كثير، إن الأخذ بها لن يغيّر من الأمور شيئاً بمعنى أنه إذا كان العرب وافقوا على التقسيم فإن إسرائيل ستقتل الذرائع، وإذا هم وافقوا ومن دون إستثناء على قرار مجلس الأمن 242 فإن إسرائيل ستقتل ذرائع مماثلة، وأنه إذا شارك الفلسطينيون إلى جانب الرئيس السادات فإن الذرائع المشار إليها ستسبب لقاء التفاوض، وأن المرونة من جانب صدام حسين كانت لن تلغي الحرب على العراق. فهذه الأمور وغيرها مقررّة وضمن مخطط شريّر وإستراتيجية ذات مسحة متصهينة.. أو إنها إستراتيجية صهيونية ذات ملامح أميركية - بريطانية. ومثل هذا القول قابل للنقاش إلى حد المجادلة، إلا أن ذلك لا يلغي المبدأ الذي يرى أن تضییع الفرص من أساسيات التعامل العربي والإسلامي مع القضايا العالقة والخطيرة.

ولكن للعرب بالذات أطرافاً أخرى على درجة من الحذاقة في مسألة تضییع الفرص. وهذه الإدارة البوشية ومعها الحكومة العمالية في بريطانيا نموذج على ذلك. وفي حين كان على هذا الحلف التيقن بأن ما فعله في العراق هو عدوان وليس تحريراً، وأنه فعل مرفوض من شعوب العالم ومن الشعبين الأميركي والبريطاني، فإنه عرقل إتاحة المجال أمام المجتمع الدولي كي يأخذ على عاتقه إيجاد المخرج المناسب للمأزق الذي وضعت الدولتان نفسيهما فيه وتلك كانت فرصة أضاعتها الإثنان عمداً. ولقد جاء التضییع بدءاً من اللحظة التي بات هنالك إجماع على أن النظام الصدامي لم يملك أسلحة دمار شامل، وأنه لا صلة بينه وبين أسامة بن لادن و«القاعدة» وأنه لا يشكل تهديداً لأحد. وتضییع الفرصة هو الذي أسّس لـ «حركة التصحيح» التي تتفاعل داخل المؤسسات الأميركية وتأخذ شكل الإنقلاب المتدرج على الإدارة البوشية. ومن مظاهر «حركة التصحيح» هذه ما حدث في سجن «أبو غريب» بغرض فضحه، وما جرى نشره من صور لتوايبت تحوي جثامين جنود لا تجيز السلطات الرسمية نشر أسمائهم ولا تعترف بسقوطهم قتلى. كما أن من مظاهر «حركة التصحيح» التي نشير إليها إنتقال عشرات الشخصيات السياسية والعسكرية والأمنية التي تملك من التجربة العريقة ما يجيز لها أن تقول في بيان يحمل توابع أصحابها، ويكون إمتداداً لبيان سابق يحمل توابع آخرين دفعتهم

إلى ذلك مبادرة زملاء لهم في بريطانيا، إن ما فعله الرئيس بوش الإبن بدءاً من الحرب على العراق وصولاً إلى فضيحة سجن «أبو غريب» مروراً بالسياسة المعمول بها بالنسبة إلى المسلمين عموماً وإلى النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي يشكل كارثة للولايات المتحدة ويجعلها معزولة عن العالم فضلاً عن أن الأجيال الشابة المسلمة «تتحول إلى إنتهاج سلوك إرهابي» ضد أميركا نتيجة لذلك.

ومثل هذا الكلام يقوله من باتوا في السن المتقدمة وبعد تجربة عريقة في العمل السياسي والتخطيط الإستراتيجي أو في الخدمة العسكرية، ومنذ أيام الرئيس ترومان حتى عهد الرئيس كلينتون، يشكل في حد ذاته فرصة يبدو رد فعل الإدارة البوشية عليها مؤشراً إلى أنها ستضيعها عمداً، وستواصل هذه الإدارة التشويش على الرأي العام الأميركي كي لا ينصت إليها. وما نقصده بالتشويش يتمثل في أن أركان هذه الإدارة يتقوّلون كلاماً لا يُقنع من يستمع إليه ويتسم بالتناقض وبالذات في شأن أسلحة الدمار الشامل التي من أجلها كانت الحرب. وفي تقدير المراقب المحايد ان هذا التشويش لن يوقف إندفاع «حركة التصحيح» الأميركية المُلحّة التي قد تكون بمثل تلك الحركة التي أقدم عليها ذات يوم قبل أكثر من ربع قرن في سوريا الرئيس حافظ الأسد وأنهى بموجبها الوضع غير المستقر للبلاد. أما من هو بطل «حركة التصحيح» الأميركية فهذا في علم الغيب حتى الخريف المقبل.

وفي هذه الأثناء نفترض مشهداً حاصلاً في كل الولايات الأميركية، وهو مشهد المواطن الذي يتأمل في ما آلت إليه الأحوال قائلاً بصيغة الإستهجان والتعجب: هل من المعقول أن تذوي الهيبة الأميركية نتيجة ورطة عام 1990 سببها السفارة في بغداد أبريل غلاسبي ولغز عام 2004 بطلته السجّانة الجنرال كارينسكي مع فارق أن الأولى لم تتمكن حتى من توضيح سر الإيحاء للرئيس صدام حسين بأن يغزو الكويت، وهل كان مطلوباً منها أن تفعل ذلك، وأن الثانية جاءت بعد أربع عشرة سنة تقتل داخل سجن «أبو غريب» فضيحة جعلت الهيبة الأميركية موضع تقزّز العالم. وفي إنتظار حل هذا اللغز وهل هو جزء من «حركة التصحيح»، وهل إن قول السجّانة الجنرال التي تتراأس سجن «أبو غريب» بأن التعليمات المعطاة لها بأن تعامل السجّناء العراقيين معاملة الكلاب كانت جزءاً من مقتضيات التحضير للحركة المشار إليها،

تتأكد مقولة أن الأباطوريات الكبرى تتساقط نتيجة ورطة أو سوء تقدير أو لغز من صنع أفراد في هذه الأباطورية أو تلك... وليس بفعل هزيمة عسكرية ماحقة أو نشوء أمباطورية منافسة أشد بأساً وقوة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 22 يونيو (حزيران) 2004

* * *

الطبعة الجديدة من صدام وربعه

كنا نتمنى أن تكون هناك محكمة عدل عربية أعضاؤها من القضاة العرب المشهود بنزاهتهم وإخلاصهم لأمتهم وقدرتهم على التمييز بين الخير والشر، وبين الواجب والمغامرة، وبين الإيمان بالوطن والشعب، بعد الله سبحانه وتعالى، بدل الإنجراف وراء عبادة الفرد، يقف أمامها صدام حسين ورفاقه الذين حكم بهم العراق ربع قرن من الزمن العاصف بالحروب والصراع. محكمة تتمثل فيها كل الدول الأعضاء في الجامعة العربية ويكون قضاتها من النوع الذي يؤمن بعدالة السماء وأحكام القضاء تصدر عن البشر. محكمة ليست أسيرة أهواء هذه الدولة أو تلك، ولا هي متأثرة بأمزجة هذه الدولة أو تلك. محكمة ترى أن واجبها إجراء المحاكمة التي تصحح، بدل أن تنتقم وتتروى عوض أن تستعجل وتعالج الداء بدل أن تحابي. محكمة تستظل بمخافة الله التي هي رأس الحكمة. محكمة تستحضر جوهر العدالة على نحو ما في صفحات التاريخ العربي من مآثر.

تلك هي المحكمة التي كنا نتمنى لو أن صدام حسين مثل أمامها ومعه رفاقه الذين لم تستوقفهم الحكمة التي ترى أن السلطة التي ما دامت لغيرهم كيف ستدوم لهم، فكانت سنوات حكمهم تقتفر إلى التبصّر وإلى الأخذ بالنصيحة وإلى اعتماد قاعدة المشاركة على أساس أن الدين لله والوطن للجميع.

ونحن عندما نقول ذلك فعلى أساس أن ما يُحاكم العهد الصدامي بموجبه لا يخص العراق والعراقيين فقط، وإنما يتعلق بكل بلد عربي.. ونكاد نقول بكل مواطن في هذه الأمة من المحيط إلى الخليج. ولو أن الأمر كان مقتصرًا على حالات إستبدادية حدثت في سنوات هذا العهد، أو على مواجهات قمعية إستهدفت الذين يعارضون أو يتآمرون أو يتمردون أو يخرجون

على الطاعة وعلى الخصوصية البعثية بطبعتها الصدامية التي لا مجال للرحمة فيها، لكان جاز إعتبار ما حدث شأنًا عراقيًا داخليًا ليس من حق الغير الغوص في دهاليز إنفاقه، سواء حدث ذلك في العراق أو في أي بلد عربي آخر. لكن الذي حدث على الأيدي الصدامية تجاوز بكثير الإطار الداخلي ليشمل أموراً تسببت في تداعيات لا مثيل لها في العالم العربي، وبالذات غزوة الكويت التي بسببها، والبناء عليها كذريعة للحرب البوشية الأولى على العراق، ثم إستكمال برنامج هذه الحرب بالحرب البوشية الثانية، إنقسم العرب مرة ثانية بعد الإنقسام الأول الذي نشأ عن صفقة كامب ديفيد والإجتهاذ الساداتي في شأن العملية السلمية. وفي ظل الإنقسام الثاني بدأ تنفيذ مخطط تجفيف الثروة العربية ووضع اليد الأميركية على القرار العربي وإرباك الدول العربية المقتدرة مالياً وسياسياً بحيث لا تعود على الحيوية التي كانت عليها في تعاطيها مع قضايا الأمة.

وهناك في شأن التداعيات الناشئة عن الإنقسام الثاني، عشرات الامثلة ومئات الوقائع، لكن واقعة ما أصاب الموضوع الفلسطيني خير دليل. وعندما يكون هذا هو المشهد العربي الناشئ عما إنتهى إليه الفعل الصدامي وكيف أن العراق بات دولة تحت الإحتلال الذي قد يصبح أمراً واقعاً تتوارثه الادارات الأميركية والحكومات البريطانية لربع قرن آخر من الزمن، فإن ما نقوله في شأن «المحكمة العربية» لا يعود فكرة ذات طابع تجريدي، وإنما هي مفتاح لأبواب المغارة العراقية التي بدأ تكوينها يوم 14 يوليو (تموز) 1958 وحدثت خلال ست وأربعين سنة من الفواجع وغرائب الحكم داخل هذه المغارة ما يستوجب وقفة تتأمل جميعنا فيها محاولين إستخلاص الامثولات.

أما وأن هذه المحكمة غير واردة، وغير واردة ايضاً تهينة الفرصة أمام الشعب العراقي كي يكون سيد نفسه في المقاضاة، مع أن الحالة تستوجب أن تكون هنالك هيئة محلفين لا تتدخل الإدارة البوشية في قرار أعضائها، فإن ما حدث ويحدث وسيحدث لصدام حسين وربعه يستوجب وقفة تأمل في محاكمتهم، يقرأ فيها بعد الآن كاتب مثل حالنا تيسرت له معرفة معظم هؤلاء الذين كانوا في القمة تنقص قلوبهم الرحمة وعقولهم النظرة البعيدة وأسلوب حكمهم العدالة، فباتوا في القاع مكبلين بالأصفاد ماثلين امام محكمة عراقية وليست بالعراقية على النحو المأمول، وقريبة الشبه من

محاكم كثيرة نُصبت اقواسها خلال ست وأربعين سنة ثورية، بدءاً من المحكمة المهداوية التي سطع فيها نجم رئيسها فاضل عباس المهداوي كممثل مسرحي إلى المحكمة الجلبيه التي سيسطع فيها نجومها كـ «كومبارس» في الفيلم العراقي الطويل الذي يستهدف تعميق جراح الأمة وإستمرار النزف في الجسد العربي المنهك، وإلهاء الناس المنتشرين بين المحيط والخليج في مسائل شكلية وترك الأمر الواقع المستجد يزداد رسوخاً و«الضيف الأميركي - البريطاني» يواصل إستضافة نفسه في الربوع العربية، وبما يجعل اليد الإسرائيلية أكثر طولاً، والحامي الأميركي أكثر تفهماً للتطاول الشاروني، سواء تجددت الولاية الرئاسية البوشية، أو ترُبّع على عرش الرئاسة جون كيري الذي بدأ يتصهين ويزايد على الرئيس بوش الابن في موضوع تمكين إسرائيل من إلتهام القدس وإلغاء الحقوق الفلسطينية بدءاً بالهوية مروراً بالعودة، وصولاً إلى بدهية أن تكون لأصحاب الحق الشرعي في فلسطين دولتهم التي عاصمتها القدس.

ويبقى أن هذه السطور هي مجرد مدخل الى وقفة التأمل التي نشير إليها.. والتي ستكون بمثابة إطلالة بين الحين والآخر على الطبعة الجديدة من صَدَام وربعه الذين كانوا حكاماً وباتوا على مشارف الإقتصاص الذي نوعه في عِلْم الغيب.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 6 يوليو (تموز) 2004

* * *

خطوة إستباقية

لـ «المغامرة الديمقراطية»

يبدو كما لو إننا كعرب على موعد مع ما هو أسوأ يأتيها من الولايات المتحدة. وما نقرأه بين سطور تصريحات الثنائي الديمقراطي جون المرشح لمنصب الرئيس وجون الذي وقع عليه الإختيار ليكون نائب الرئيس لا تدعو إلى الإرتياح على الإطلاق. فالأول جون كيري باغتتا بمواقف لا تشجع العربي حاكماً او محكوماً على تعليق الآمال الزاهية على إدارته. والثاني جون ادواردز، الذي إرتضى أن يكون نائباً محتملاً للرئيس بعدما كان طرح نفسه كمرشح للرئاسة ثم إنسحب أمام إتساع رقعة الإلتفاف الشعبي حول جون

كيري، لن يخرج عن البرنامج الذي على أساسه يخوض الديمقراطيون معركة إنتزاع الرئاسة من الجمهوريين ثاراً من لعبة أصوات فلوريدا الشهيرة والمتضمن «وعد كيري» الذي لا يقل خطورة عن «وعد بوش». والإثنان يلتقيان مع وعد بلفور.

لقد باغتتا جون كيري بكلام عن إسرائيل واليهود وياسر عرفات يثير الدهشة... وبمثل الدهشة التي يثيرها كلامه عن حرب بوش الابن على العراق. كذلك باغتتا بنوايا ليست طيبة على الإطلاق تجاه المملكة العربية السعودية، العمود الفقري للتوازن العربي وبما يحققه هذا التوازن من صمود للثوابت العربية. وعندما نقرأ بين سطور كلامه قاله كيري يوم الجمعة 28 مايو (أيار) الماضي، وكلامه راند بيرز، أحد مستشاري كيري، يوم الخميس 8 يوليو (تموز) الجاري عن المملكة، نجد أنفسنا أمام مرحلة من الصراع العربي - الأميركي ستكون بضراوة الصراع العربي - الإسرائيلي - كما نجد أنفسنا أمام رجل لا يريد الإنصراف إلى تصحيح الداخل الأميركي وتداعيات الحرب التضليلية الإنتقامية على العراق والتقليل من الإنشغال عموماً بالأمور الخارجية. بل لا نستبعد أن يكون مستشارو كيري الذين زرعه «اللوبي الصهيوني» سلفاً أكثر سوءاً من أولئك الذين جرى زرعه قبل عام 2000 في الحزب الجمهوري لكي يكونوا هم واضعي مخطط الهجمة على العرب. وفي ضوء عدم الإستبعاد هذا فإن هؤلاء قد يكونون يزينون منذ الآن لـ «الرئيس المنتظر» جون كيري محاسن خوض حرب باردة ضد المملكة العربية السعودية. وعندما نفترض ذلك فمن خلال وضع خطوط تحت بعض العبارات الـ «كيرية» مثل «عندما أصبح رئيساً سيكون هدفي الأول منع الإرهابيين من الحصول على أسلحة للدمار الشامل، ومهمتنا الأساسية ستكون شل وتدمير الخلايا الإرهابية ونقل المعركة ضد العدو إلى كل قارة...» ومثل قوله إستطراداً «إننا ببساطة لن نقيم العلاقات المعتادة مع السعودية وإن الولايات المتحدة والسعودية تحتاجان إلى إجراء حوار صريح على أرفع مستوى والتحدث حول المستقبل...».

وبالنسبة إلى القضية الأساسية للسعودية والتي هي من الثوابت التي لا مجال لأي مجادلة في شأنها، ونعني بذلك القدس والحرم الثالث، نجد أمامنا ثنائياً ديمقراطياً على أهبة أن يخطو في إتجاه تعقيد الأمور أكثر فأكثر، وكل ذلك بغرض وضع العرب أمام

الخيار الصعب والقرار الأصعب حيث أنهم لن يتجاوزوا في الحد الأقصى المبادرة العربية التي هي من صياغتهم ولن يتهاونوا في موضوع «وعد كيري» بنقل السفارة الأميركية إلى القدس وبذلك تصبح المدينة المقدسة موحدة وعاصمة أبدية لإسرائيل. وهذا الوعد طرحه الجمهوريون في برنامجهم الانتخابي عام 2000، إلا أن الخصوصية التي تتسم بها العلاقة السعودية - الأميركية حتمت على إدارة الرئيس بوش الابن إرجاء التنفيذ قدر الإمكان. وها هي الولاية الأولى على أهبة الإنقضاض من دون أن تتخلى الصهيونية عن طرح المطلب في ساحة المنافسة الجمهورية - الديمقراطية وبحيث يقف الصهاينة، أصواتاً ومصالح إقتصادية، إلى جانب من ينفذ الطلب الأكثر خطورة.. أي نقل السفارة الأميركية إلى القدس، مستندين في ذلك إلى أن ما تعهد به وعُرف كتسمية بـ «وعد بوش» بات ملزماً للإدارة البوشية إن هي نجحت في معركة التجديد ولاية رئاسية ثانية، أو أن الفوز كان من نصيب الثنائي الديمقراطي «جون» و «جون» أو ادواردز وكيري على وزن توم وجيري. أما لماذا هو ملزم فلأن مجلس الشيوخ الجاهز في استمرار لمساندة إسرائيل على حساب العرب ومصلحة الشعب الأميركي صادق يوم الخميس 25 يونيو (حزيران) الماضي بأكثرية 95 مقابل ثلاثة معترضين فقط على وعد بوش، الذي ومن باب التذكير نشير إلى أنه «يتعهد بضمان أمن إسرائيل ورفاهيتها كدولة يهودية وضمان حدود يمكن الدفاع عنها وتعزيز وترسيخ مقدرة إسرائيل الدفاعية لحماية ذاتها في مواجهة كل تهديد...». هذا إلى جانب معارضة حق العودة للاجئين الفلسطينيين واعتبار عودة إسرائيل إلى حدود 1949 «أمراً غير واقعي». وهذا ما أقره بغالبية 407 مقابل تسعة أصوات مجلس النواب الأميركي قبل يوم من تصويت مجلس الشيوخ.

في ضوء هذا المشهد يبدو أننا كعرب أمام مغامرة حربية ديمقراطية في حال جاء الفوز من نصيب الـ «جونين» كيري وادواردز. وخطورة هذه المغامرة التي تستند إلى عقيدة «أن الولايات المتحدة لن تسمح لأي قوة على وجه الأرض بالسيطرة على منطقة الخليج، ولذا ستواصل هيمنتها العسكرية على العالم»، والتي تتزايد الإيحاءات من جانب كيري ومستشاري السوء في حملته الانتخابية وبالذات راند بيرز الذي ربما هو في نظر جون كيري بمثل كوندوليزا رايس في نظر

بوش الابن، انها تضع نصب عينيها المملكة العربية السعودية كهدف على أساس أن إختراق القلعة الحصينة يحقق الإخضاع العربي والإسلامي للأمر الواقع الصهيوني، فضلاً عن أن المغامرة الحربية هي التي في رأي خبراء المال والإقتصاد يمكن أن توقف إنحسار التراجع المستمر، وإن ببطء، للدولار أمام اليورو. وفي حال حدث ذلك سنجد أنفسنا كعرب في عام 2005 - 2006 أمام «حرب الإدارة الديمقراطية» على الأمة في حال قرر اللوبي الصهيوني وضع البيض في سلة الثنائي جون كيري وجون ادواردز، هذا الثنائي المكتسح جماهيرياً الذي يطرح نفسه على أنه «الحلم الأميركي»، أو أمام استمرار النزف الراهن وإقدام الإدارة الجمهورية الحالية في حال فازت وأجرت بعض التشذيب والتجميل في مفاصلها الأساسية، على تقديم المزيد من التنازلات لمصلحة إسرائيل إنسجماً مع «وعد بوش».

وفي هذه الحال فإنه بدل أن نقول إننا ضيقنا ذرعاً بإدارة بيل كلينتون فجاءتنا إدارة بوش أكثر سوءاً منها، وإن الصدور تفجرت غيظاً من ألعيب الإدارة الجمهورية لكثرة تصهينها وإمتهانها للكرامة العربية فجاءتنا (بإفترض حدوث الفوز كما هو متوقع) إدارة جون كيري وجون ادواردز تتصرف بما يوجب الترحم على الإدارة البوشية وأفعالها... إننا بدل ذلك نرى الإقدام على خطوة قد تبدو خيالية وتثير الإستهجان لدى البعض لما تتسم به من غرابة، لكنها من نوع الخطوات التي قد تجعل الأوراق تختلط وبحيث لا تعود الأحوال على الوهن التي هي عليه ولا يتواصل الارتباك في الصف الذي لا مثيل له في تاريخ نصف قرن من الصراع العربي - الإسرائيلي. وما نقصده بهذه الخطوة ما دام الموقف الأميركي على ما هو عليه وما دمنا لم نحصل من الإدارة الأميركية ولو على الحد الأدنى، هو أن يتم إعترا ف عربي وبالإجماع بإسرائيل وفي الوقت نفسه قطع العلاقات بالكامل مع الولايات المتحدة وبريطانيا وعزلهما تماماً، خصوصاً أنهما المستفيدتان من هذه العلاقات بينما نحن في دائرة الخسران دائماً. وفي حال حدثت الخطوة ونشأ عنها تراجع نوعي في موقف الدولتين الجائرتين وبما يجعل السلام يسود على الأرض وتسود المسرة في الناس ويتهاوى الجدار الشاروني ويتوقف تلقائياً العدوان والتجريف والتدمير والإغتيال والعمليات الإستشهادية ومعها نشاطات «حزب الله» بكل فروعه

من لبنان إلى معظم الخليج إلى بعض الدول الأخرى، فإن الدولة الفلسطينية يمكن أن تقوم... أو تقوم كتسمية «دولة السلام» التي يتداول رئاساتها الأولى والثانية والثالثة الفلسطينيون العرب، مسلمين ومسيحيين، لا فرق، واليهود، وبحيث عندما يكون الرئيس يهودياً يكون نائبه عربياً مسلماً أو مسيحياً وبالعكس. ومن دون الخطوة التي نشير إليها، أي إعلان الإعراف العربي الكامل والشامل بإسرائيل، وفي الوقت نفسه قطع العلاقات بالكامل مع دولتي الحرب، على العرب والمسلمين، أميركا وبريطانيا، لا مجال لأي تغيير. فالمطلوب صدمة بفعل الزلزال الذي يقضي على المتلاعبين ويضع نهاية لحقبة من الظلم الدائم والظلمات المتواصلة مقدمة لإطلاقة فجر مشرق على المنطقة التي هي الأرض التي قامت على ترابها الديانات السماوية الثلاث... ومع ذلك فإن ترابها مجبول دائماً بالدم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 14 يوليو (تموز) 2004

* * *

عندما تدخل هموم الجنس في السياسة

رغم ثقل القضايا السياسية على أهل القرار عموماً فإن هؤلاء يجدون أنفسهم منشغلين ومشغولي البال بأمور مرتبطة في شكل أو آخر بأسلوب الحياة الشخصية عموماً وما يتعلق بالجنس والإثارة الجنسية في شكل خاص. وعندما نتأمل ما يدور في بعض العواصم ذات التأثير في القرار الدولي والإقليمي، وكيف أن الهموم المتعلقة بالشأن السياسي تتساوى مع الهموم المرتبطة بالمسألة الجنسية، فإننا نجد أنفسنا أمام مشهد يستحق التأمل فيه والكتابة عنه.

ففي واشنطن التي يتكالب بعض المتصهينين في الكونغرس على الرضى الإسرائيلي عنهم وبينما يتزايد التهليل لمبعوث الأمم المتحدة تيري رود لارسن الذي قرر فجأة ولدواع عصية على الفهم الإنحياز إلى الصف المتصهين، معتبراً أن السلطة الوطنية الفلسطينية محكومة بقيادة فاسدة وأنها باتت نتيجة ذلك على شفير الهاوية، الأمر الذي جعل الفلسطينيين يصنفون الرجل بأنه «مرتزق» وأنه «غير مرغوب به في الأراضي الفلسطينية»، يدور سجال جمهوري -

ديمقراطي في موضوع الشذوذ الجنسي حيث أن الرئيس جورج بوش الابن أراد من مجلس الشيوخ تعديل الدستور من أجل حظر زواج المثليين جنسياً، لكن التصويت جاء على نحو ما لا يتمناه الرئيس بوش، ذلك أن كفة الديمقراطيين الذين يريدون لظاهرة زواج الذكور من بعضهم البعض وزواج الإناث من بعضهم البعض أن تترسخ قانونياً ويغرق هؤلاء بالمتعة الجنسية التي حرّمها الله، فاقت كفة الجمهوريين الذين رأوا رئيساً ونواباً وشيوخاً أن من شأن تحريم هذه الظاهرة حماية قدسية الزواج الطبيعي الذي يتزايد بموجبه النسل ولا ترتفع في الوقت نفسه نتيجة التحريم نسبة المبتلين بـ «الإيدز» الذي قد يعصف خلال نصف قرن من عدم وضع الضوابط الجنسية بمجتمعات كثيرة.

والمؤسف أن الثنائي الديمقراطي جون كيري - جون ادواردز لم ير في طلب بوش تعديل الدستور لحظر زواج مثليي الجنس سوى أنها وسيلة سياسية في زمن المنافسة الانتخابية، مع أن المفترض في الطرفين الجمهوري والديمقراطي الاختلاف على أمور سياسية كثيرة من بينها موضوع الحرب على العراق والوضع في دارفور وغيرهما، إلا أنهما بالنسبة إلى موضوع جنسي من النوع الذي نشير إليه من واجبهما التقاهم وتوحيد الموقف وبحيث لا يكون بالطبع الإقرار بحق الذكور في أن يتزوجوا من بعضهم البعض وإعتبار زواج أنثى من أنثى حقاً مشروعاً... ومن دون أن يكون هنالك توقّف عند الشرائع السماوية في هذا الشأن.

وما يستوجب الخشية في هذا الأمر هو أن هذا التشريع الذي قد يترسخ أكثر وأكثر مع حقبة الديمقراطيين المحتملة في الحكم وبحيث يتم تصديره إلى خارج أميركا، ويأتي يوم نجد فيه أعضاء من الكونغرس يتقدمون بمشروع قانون يطالبون فيه بإقرار ظواهر من نوع ظاهرة زواج الشاذ من الشاذ والشاذة من الشاذة، كجزء من حق أي مواطن في العالم وبالذات في تلك الدول التي وقعت في قبضة الاحتلال الأميركي مثل العراق أو في دول تعيش الأمركة في مجتمعاتها. وهذا ليس مستبعداً حصوله بعد الذي نعيشه منذ سنتين وكيف أن الهجمة الأميركية ضد تقاليدنا وتراثنا وتربيتنا الوطنية وجذورنا وبرامج الدراسة في مدارسنا وضد الخطاب الديني عموماً، بدأت تتحول إلى رغبات أميركية ذات بذرة صهيونية وأنها رغبات غير قابلة للإعتراض لأنها مرتبطة بـ «الحرية

والديمقراطية» التي تريدها الولايات المتحدة للعالم العربي وبدأت تطبيقها في العراق من خلال إغتصاب النساء وإنتهاك الحرمات وهتك الأعراض والتمثيل بأبدان الرجال.

وفي إيران نجد قادة ثورتها المهمومين من الهجمة الأميركية عليهم مهتمين في الوقت نفسه بمسألة ترتبط عملياً بالإثارة الجنسية. وفي الوقت الذي يعمل فيه المتصهينون في الإدارة الأميركية من جهة والصهاينة في إسرائيل من جهة أخرى على تقويض المسعى النووي الإيراني، نجد قادة الثورة يردون على ما يتردد في شأن ضربة محتملة من إسرائيل للإنجاز النووي الإيراني بالقول «إن الإسرائيليين يعرفون جيداً قدراتنا على الرد وأن النظام الصهيوني سيحفر قبره بيده في المنطقة إذا هاجم إيران عسكرياً»، ونجدهم أيضاً يتركون حيزاً واسعاً من تفكيرهم للإهتمام بمعالجة أمر مرتبط بالإثارة والمشاعر الجنسية.

والإهتمام الذي نشير إليه صدر عن مرشد الثورة آية الله علي خامنئي يوم الأحد 11 يوليو (تموز) الجاري بعدما تزايد الحديث حول ظاهرة الإثارة الأنثوية وكيف أن بعض النساء يرتدين معاطف تبرز تضاريس الأجساد ويتركن خصلات من الشعر تتسدل من تحت الحجاب، هذا فضلاً عن التبرج الذي يؤجج مشاعر الذكور أشد تأجيج. وبعدها تكاثرت التحرشات الذكورية بنساء مثريات في مدن إيرانية عدة ووصلت الأمور إلى الحد الذي بات لا بد من تدخّل على مستوى القمة فإن آية الله خامنئي قال مخاطباً نساء إيران بما يشبه «الفتوى الإجتماعية - الدينية»: «أنا لا أعارض الموضة والتنوع والتجديد. إذا أردت أن تقصص شعورك وأن تعيّن الطريقة التي تضعن بها مساحيق التجميل وأن تعيّن من طريقة مشيتك فلتفعلن. لكن إذا وضع مصمم الأزياء في أوروبا وأميركا تصميماً لأنواع من الملابس للرجال والسيدات في مجلات الأزياء فهل ننقلها عنهم في طهران ومشهد وهمدان؟... إن ذلك سيكون أمراً سيئاً...». وجاءت نهاية «الفتوى» هذه متمثلة بفكرة فحواها ضرورة تصميم زي وطني إيراني بمثل ما هنالك من أزياء وطنية للعرب والهنود والإندونيسيين والأفارقة... ومن دون أن يعود هذا الزي إلى 500 سنة مضت... على حد قول خامنئي.

وما يحدث في إيران لا يقتصر على مسألة المعاطف التي تُبرز الأرداف والصدور والتضاريس الأنثوية فاعلة فاعلاً في الغرائز الذكورية، وإنما تشمل

الموسيقى التي بدأت تطغى على الموسيقى الوطنية الفولكلورية التي تم حجبها في زمن الإمام الخميني وكذلك على الموسيقى ذات السلال الدينية التصوفية. كما أن الذي يجري يشمل الحجاب الذي يزداد جنوح الجيل النسائي الجديد في إتجاه التخلص منه وكأنما إيران هي فرنسا وأن الداعي إلى منعه هو الرئيس جاك شيراك، الذي يقول إن من ترتدي الحجاب في فرنسا ستُعاقب بمثل العقاب الذي يصيب الأنثى الآن في إيران إذا كانت لن ترتدي الحجاب. وفي رأي عدد من رجال الدين والمجتمع الذكوري عموماً أن عدم مواجهة هذا الأمر وبحيث يتم إستحداث وزارة للأدب تتولى محاصرة التوجه الذي يتسم بالإثارة، قد يتسبب مستقبلاً بـ «ثورة نسائية» على التقاليد و«إنتفاضة أزياء» محورها سراويل الضيقة والأقراط والصنادل والعباءات التي تُبرز الأرداف والتضاريس والنفود عوض سترها على نحو ما هو الغرض أصلاً من العباءة.

وفي الوقت الذي لم يحسم فيه الدكتور محمد البرادعي الأمر النووي الإيراني وبقي على تشدده مع نظام الآيات مقابل مرونة تثير الدهشة أبعادها إزاء نظام القطعان الشارونية عندما زارهم قبل أيام والتقى خلال زيارته بأربيل شارون الذي جرحته محكمة العدل الدولية كبريائه وعنجهيته، نلاحظ أن إيران المحافظة المتشددة وإيران الخاتمية الداعية إلى إنفتاح إجتماعي متدرج تخوضان، وبمثل ما يحدث في الكونغرس الأميركي في شأن زواج المثليين، سجالاً في شأن مسألة المفاتن الأنثوية لما تتسبب به من اضطرابات نفسية وجنسية في أوساط المجتمع الذكوري يتم معالجتها بمطاردات من جانب شرطة الأخلاق لألوف النساء اللواتي ضعن ذراعاً بـ «الشادور» ويتطلعن إلى مواكبة الموضة في حدها الأقصى كما هي الحال في أوروبا أو في الحد الوسط كما هي الحال في إندونيسيا... إنما ليس في الحد الأدنى الإيراني الثوري على الإطلاق.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 20 يوليو (تموز) 2004

ظاهرة العض... من دارفور إلى كوبور

لا ندري ما إذا كان من حسن حظ أبناء دارفور

للمعانة التي نشير إليها. وإذا كان الإثنان يريان أن قوافل المبعوثين ومشاريع الحل الوهمية هي نوع من الإهتمام، فإن الرد على ذلك هو أنه ليس إهتماماً وإنما هو تحرك بغرض عدم الحسم.. ونكاد نقول إنه بغرض تقويض الفرص وعلى نحو ما تريد إسرائيل الشارونية التي تدمر مشاريع التسوية والمبادرات الموضوعية والرؤى الحكيمة من نوع رؤية ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز التي أجمع العرب عليها، بمثل تدميرها لمنازل الفلسطينيين، وذلك لأن من هو مجبول على العدوان والحرب وسفك الدم مثل ارييل شارون لا يمكن أن يكون رجل سلام.

ومن المؤكد أن هذا الإهتمام من جانب الإدارة البوشية والحكومة البريطانية كان سيبعث الإرتياح في النفس لو أنه صادق، وكان الذين من أجلهم يحدث هذا الإهتمام سيلهجون بالشكر والإمتنان، ويدعون للرئيس بوش بتجديد الولاية أربع سنوات أخرى، وللرئيس بلير بعدم الإسقاط والبقاء خمس سنوات على نحو ما يطالب رداً على الإستطلاعات التي ترى ضرورة إنصرافه. لكن الإهتمام يخلو من الصدق ومبعثه الحاجة إلى ورقة يواجه بها كل منهما إخفاقات ما حدث ويتواصل حدوثه في العراق، وما يتواصل منذ نصف قرن وبضع سنوات في فلسطين، وبلغ الحد الذي لا قدرة لشعب غير «شعب الجبارين» على تحمله. وما تعكسه التذاعيات والتطورات اليومية على أراضي بلاد الرافدين وعلى إمتداد الأراضي الفلسطينية تؤكد مدى إنعدام الشعور الإنساني لدى الطرفين الأميركي والبريطاني، ويأتي الموضوع الدارفوري ليؤكد أن مسألة الشعور الإنساني لديهما خاضعة للتشغيل بمفتاح، ثم التحريك بواسطة الـ «ريموت كونترول». بل قد يجوز القول إن إنتهاكات «الحكم الإنفاذي» في دارفور سواء عن إضطراب على الأرجح، أو بفعل تخطيط يشبه تخطيط الرئيس صدام حسين عام 1995 لإغراق الكويت بعد غزوها بالأكراد واحلال مغاربة ومصريين في مناطق كردية وشيعية في العراق، جاءت فرصة العمر للإدارة البوشية والحكومة البريطانية المنهوكتي القوى في العراق والسمعة في فلسطين، كما أنها جاءت فرصة مماثلة للكونغرس المتصهين الباحث عن مناطق ألغام في مناطق الجوار الملاصق والبعيد والأبعد للدولة العبرية لكي يشعل الفتيل فيها، وبحيث لا يعود أهالي تلك المناطق مشدودين إلى الظلم الشاروني والتعاطف مع أبناء

أنهم يملكون في أميركا وبريطانيا هذا «اللوبي» الفعال وعلى مستوى القمة، أم أن ذلك هو من سوء الحظ. ولا ندري ما إذا كانت هذه الشريحة من السودانيين عرباً أقحاحاً أو عرباً من أصول أفريقية تدري ما الذي يرميه كبار المسؤولين في كل من أميركا وبريطانيا، ومعهم بعض رموز العمل السياسي الأوروبي، من هذا التعاطف المفاجئ معهم وكيف أن وزير الخارجية الأميركية كولن باول، الذي هو دارفوري من حيث السحنة واللون، إلتقى مع رئيس الحكومة البريطانية طوني بلير، الذي إستحضر أيام التاج البريطاني في السودان، وهو يعلن بالصوت الأعلى انه قد يرسل قوات إلى دارفور، بينما هو في صدد إنقاص عدد أفراد الجيش لمواجهة العجز، مكرراً في ذلك إستحضاره لأيام التاج البريطاني في العراق وهو يشارك الإدارة البوشية حربها التي قد تتوقف بغتة بفعل الإفلاس وليس بفعل إنحسار الرغبة في إعتداد الحرب على الآخرين، أسلوب تعامل تنتج عنه كوارث ويسقط من جرائه ضحايا لا تفسير لها سوى أنها نزوة من إمتلكوا القرار ورأوا أن قوته هي في إستعماله وليس في امتلاكه.. وتلك رؤية من يفكر بعضلاته أو عضلات من يحيطون به من مستشاري السوء، وليس بعقله وعقول من يختارهم إلى جانبه من مستشاري الحكمة والرأي السديد.

وما فعله الرئيس بوش الابن والرئيس طوني بلير بالنسبة إلى الحالة الدارفورية ظاهره إنساني لكن باطنه غير إنساني. فالإنسانية لا يمكن أن تتجزأ بمعنى أن يكون الرئيس بوش وأقطاب إدارته إنسانيين بالنسبة إلى أبناء دارفور ويكون الرئيس بلير ووزير خارجيته جاك ستر و معهما بعض أركان الحكومة على الإنسانية نفسها، لكن الطرفين الأميركي والبريطاني عديما الإنسانية تجاه بشر آخرين وتصل عدم الإنسانية إلى حد التلذذ بالمأساة التي يعيشها هؤلاء، ولنا في ما يعانيه الشعب الفلسطيني وما يعانيه الشعب العراقي المثل على ذلك. ومنذ أربع سنوات بوشية وأطماع بتجديدها أربع سنوات أخرى، وثمان سنوات أمضاها بلير في الحكم، داعياً إلى إبقائه خمس سنوات أخرى، فإن المأساة التي لا تزال تستشري في أوساط الشعبين حصاراً وعدواناً وتدميراً وتجريفاً وإغتياً وانتهاكاً للكرامات وللحرمات وللأبدان لم تحرك ضمير كل من هذين الرئيسين وبحيث ينشطان كما هي حالهما مع موضوع دارفور من أجل وضع نهاية

الأمر الذي تسبَّب له على نحو ما كشفت عنه يوم الثلاثاء 13 يوليو الحالي زوجته السيدة وصال عبد الرحمن المهدي شقيقة الصادق، بمضاعفات صحيحة لا يقوى عليها من بات في الثانية والسبعين من العمر، أنقذه الله من تأديب «الإنقاذ» الترويض وأطال عمره. وفي ظل هذه الأجواء يأتي عض الرئيسين بوش وبلير على الحكم الإنقاذي البشيري الذي لم يصل بعد لقمة السلام مع قرنق إلى الفم حتى يأتي لخطفها هذان الشغوفان بالحروب على الأهداف السهلة مثل العراق والسودان والفلسطينيين، الموجسان خيفة من الحرب على الأهداف الصعبة مثل كوريا الشمالية خشية أن يكون العض على الطريقة التي ابتكرها كيم إيل سونغ وأورثها إلى كيم الإبن سامة... ولا يفيد فيها أي ترياق.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 27 يوليو (تموز) 2004

مبادرة لإستباق «قادسية بوش»

جاءت مبادرة العفو السعودية عن الذين وجدوا في حملة الإفتراء والضغط، من جانب الأوساط الأميركية المتصهينة على المملكة، ومحاولة إضعاف قدراتها على حفظ التوازن، سندا لمغامراتهم الدموية والتخريبية، قافزين فوق خط الثوابت الوطنية والقومية، بمثل مبادرة إمكانية التعايش الإقليمي التي بدأت رؤية من جانب ولي العهد الأمير عبدالله بن عبد العزيز سرعان ما إستقرت في وجدان أهل القرار العربي الذين تبناها كمبادرة خلال قمتهم الدورية الثانية في بيروت.

والذي يثير الإستغراب، هو أن عدم تجاوب الذين إستهدفتهم مبادرة العفو عدا قلة، كان يمثل عدم تجاوب الشارونيين مع مبادرة إمكانية التعايش. وفي الحالتين فإن الخاسر ليس الطرف الذي بادر، ما دامت مبادرته جاءت من منطلق الثقة بالنفس، والرغبة الحقيقية البعيدة عن التناور، من أجل إعطاء السلامة الداخلية والسلام الإقليمي، فرصة يتمناها كل مواطن في هذه المنطقة من العالم، والتي باتت تبدو كما لو أنها الحقل المناسب لتشغيل آلة الحرب. ومن المؤكد أنه لو حدث مع إطلاق المبادرة العربية ذات الروحية السعودية، بعد إنفضاض القمة الدورية الثانية، ولم يأت الرد عليها بالخفة التي اتسم بها التعليق

الإنفاضة التي لا تتطفئ جذوتها. وما يجوز قوله في شأن فرصة العمر هذه إنها محاولة تبييض من جانب الوجه الدارفوري الكثير السمرة للوجه الأميركي - البريطاني الكثير البياض. والمؤسف أنها ربما ستنتهي خدمة مجانية ولن يكون الجني الدارفوري منها سوى شحنات من السكر والأرز والسمن والحليب المجفف... وخلاف ذلك من مساعدات الغذاء المتكدسة في المخازن الأميركية الخاصة باحتواء الفائض مما لا يأكله الطرفان الأميركي والبريطاني.

وعندما نقول ذلك لا نقصد بكلامنا أن الأمور طيبة في دارفور وأن هذا الإقليم ليس مُدرجاً في لائحة الإهمال التي هي أقل من التهميش. وهذا الإهمال سببه طول حرب الجنوب من جهة وحرص الحكومات على الإهتمام بالعاصمة ثم الإنتقال بالتدرج إلى بقية المدن والمناطق. وإلى ذلك فإن إكتشاف الثروة النفطية يجعل بطبيعة الحال كل طالب حاجة وكل من يشكو وطأة الحرمان يخرج على الناس طارحاً بالصراخ أو التمرد مطالبه، عملاً بقول الإمام علي «عجبثُ لإمرئ جائع كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه». لكن مشكلة دارفور لا تتحملها وحيدة الحكومة البشيرية الحالية المكتظة بالدارفوريين، ومنهم علي حسن تاج الدين مستشار الرئيس، وإنما يشاركها في التحمل الزعيم السياسي لطائفة الأنصار السيد الصادق المهدي كونه صاحب الحضور البرلماني الأقوى تاريخياً في الإقليم. كذلك يتحمل المسؤولية الدكتور حسن الترابي كونه صاحب الحضور السياسي الأقوى في أوساط النخبة الدارفورية المثقفة والتي كان لبعض رموزها، أمثال التيجاني آدم الطاهر ومحمد الأمين خليفة وعلي الحاج، تأثير في مجرى القرار السياسي أيام كان الترابي شريكاً في الحكم وبنسبة تتجاوز الخمسين في المائة. لكن ماذا في إستطاعة الإثنين أن يفعلاه إذا كان الصادق يواصل عض النواجذ ندماً على تحالفات إضطرابية سابقة، وضيقاً بعلاقة مبعوضة بينه وبين الحكم الإنقاذي الذي عمل على شق الصف الأنصاري بالإغواء والتصديع، وإذا كان الشيخ حسن يواصل «صيامه الإسلامي» الذي يقتصر على الماء والتمر منذ ثلاثة أسابيع في «سجن كوبر»، متحملاً هذه الاستهانة به، وعض بعض رفاق الماضي على اليد الترايبية التي بنت لهم حكماً ومكانة، إضافة إلى تحمُّله، وهو الصائم الفريد من نوعه في تاريخ «كوبر»، هدم الله جدرانته حجراً حجراً، عضَّ الفأر له

الشاروني، لما كانت المنطقة تعيش هذه الظروف الصعبة التي تعيشها، ذلك أن النظام الصدّامي الذي شارك في تلك القمة على مستوى الرجل الثاني عزت الدوري، الذي لا تعثر الجحافل الأميركية - البريطانية الجرارة عليه حتى الآن، وبذلك بات أمره لغزاً بمثل لغز الإخفاق في إلقاء القبض على أسامة بن لادن، كان أبلغ سعاة الخير بأنه مع المبادرة ، ومع أي صيغة تعايش تراها المملكة، وأن «جيش القدس» الذي وصل تعداداه إلى نصف مليون، وتبث الفضائية العراقية عروضه العسكرية، سيتحول إلى مجموعات عمل تخدم متطلبات السلام، لكن ذلك سيحدث لمجرد رفع الحصار عن العراق، على أساس أن مثل هذا الأمر سيشكل حثية لموجبات التحول العراقي من المناداة بتحرير فلسطين من البحر إلى النهر، إلى القبول بإسرائيل مستولية على أكثر من نصف فلسطين، تاركة للفلسطينيين ما تبقي من الأرض، يقيمون عليها دولتهم المستقلة وعاصمتها القدس، وعلى النحو المثبت وبكل الوضوح في مبادرة ولي العهد الأمير عبدالله.

هذا العناد من جانب الذين تستهدفهم المبادرات التي تستند إلى الموضوعية والحكمة، لا يعني أن هذا الأسلوب لا يجدي. وما دام كذلك فلماذا تكرر المحاولات. وحيث أن المنطقة تعيش هذه الأيام احتمالات انفجار المواقف، وعلى أكثر من جبهة فإن الحاجة تبدو ماسة إلى مبادرة عربية - أوروبية من شأنها تبريد الدم الذي بات على أهبة الفوران في أوردة الباحثين عن جبهة حرب جديدة، يصرفون من خلال دخان تفجيراتنا النظر عما آلت إليه مغامراتهم الحربية السابقة. ونعني بهؤلاء تحديداً إدارة الرئيس جورج بوش الابن، وحكومة الرئيس طوني بليز. وما تعكسه التداعيات الناشئة عن أسلوب كل منهما، وبالذات ما يتعلق في شأن الخيار الحربي، يوحى بأنهما ذاهبان إلى إشغال البال العالمي بمشكلة جديدة، ربما تصبح أكثر خطورة من المشكلة العراقية الراهنة، والتي باتت بدورها أكثر خطورة من المشكلة الفلسطينية ومن ثم المشكلة اللبنانية.

ومن قبل أن تبدأ أصوات بعض أهل الحكم العراقي تملأ، وتصل الحال بوزير الدفاع في الحكومة العلّوية، حازم الشعلان، إلى حد القول في تصريحات متلاحقة ما معناه أن مشكلة العراق هي في بعض دول الجوار، وبالذات إيران، واصفاً إياها بأنها «العدو

الأول»، كانت حدثت خطوات في اتجاه تأهيل العراق لكي يكون المنطلق لـ «قادسية بوش»، إذا جازت التسمية، ضد إيران، وذلك لأن العراق المتأمر لن يهدأ له بال ولن يشعر بالطمأنينة إذا كانت إيران غير خاضعة للأمر الواقع الأميركي وليست متحللة من العلاقة الإستراتيجية مع سوريا، أي بما معناه لا بد من تعطيل الخاصرة اليمنى والخاصرة اليسرى للعراق، أي سوريا وإيران، لكي يأخذ المشروع الأميركي طريقه إلى الرسوخ في بلاد الرافدين. ومثل هذا الأمر يتحقق في أحد احتمالين: إما أمركة إيران بمثل أمركة العراق، ومن خلال حركة إنقلابية داخل النظام الإيراني. وإما بمواجهة معها تقوم بها من خلال العراق، وبذريعة أن المشكلة الوحيدة التي يعيشها العراق هي نتيجة التدخل الإيراني. وعندما تصل الحال بوزير الدفاع العراقي إلى حد القول لصحيفة «واشنطن بوست» ما قاله عن إيران وتتنشر الصحيفة عمداً ذلك، بينما رئيس الحكومة إياد علاوي بدأ جولته التي لم تشمل إيران، فإن هذا القول ليس زلة لسان من نوع زلة لسان الرئيس بوش الابن الشهيرة حول «صليبية» حربه التي تؤكد التطورات بأنها إحدى مفردات الإستراتيجية البوشية، وليست زلة لسان على الإطلاق، وإنما هو نوع من الرسائل كثيرة الخشونة تحتمل تفسيرين: إما أن العراق وبشخص وزير الدفاع أراد تنبيه الجار الإيراني إلى أن الرئيس بوش في صدد أن يضرب إيران من العراق، وتكون له «قادسية» بمثل «قادسية صدّام»، وأنه إذا كان جاداً في ذلك فإن الوضع الحكومي الراهن في العراق لا قدرة له على منعه، وإما أن الصبر العراقي على التدخل الإيراني تجاوز الحدود بكثير، وأن ما يطلبه العراق من الجار الإيراني هو المساعدة والمساندة وبمثل ما يفعل في لبنان حيث أن حضوره المؤثر هناك لا يصل إلى حد التقاطع مع الحكم اللبناني. وعندما لا يعود التحمل ممكناً على التدخل الإيراني فإن المواجهة تصبح هي العلاج.

هنا لا بد من المبادرة التي نشير إليها، والتي من الواجب الإقدام عليها بصرف النظر عن توقيتها، وما إذا كانت ستحدث مع الذكرى السنوية للعملية الترويعية في كل من نيويورك وواشنطن، أو قبل تعاقب عقربي ساعة الصفر الإنتخابية، وتكون الورقة الأخيرة التي يمكن أن يلعبها الجمهوريون في مواجهة المنافس الديمقراطي الذي أبرز أنيابه يوم الترشيح الرسمي للثنائي الديمقراطي جون كيري - جون ادواردز.

هي الحال الآن. وفي حال حدوث ذلك، فإن ثأر كيري كارتير من خلفاء الخميني، سيكون بمثابة ثأر بوش الابن لبوش الأب من العهد الصدّامي الذي أبقى على الرسم الموزاييكي على عتبة مدخل «فندق الرشيد» تدوسه أقدام الداخلين والخارجين... إلى أن أسقط بوش النظام الصدّامي وبات العراق وما زال تحت الاحتلال الأميركي.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 3 أغسطس (آب) 2004

* * *

موعد للعرب مع لحظة زلزالية قريبة

إذا كانت لن تحدث مفاجأة لها وقع الصدمة على أميركا قبل يوم 2 نوفمبر (تشرين الثاني) 2004، فإن ما سيحدث في هذا اليوم سيكون زلزلاً وبمثال زلزال يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001. ففي ذلك اليوم ستجد أميركا نفسها أمام حالة سياسية جديدة بالغة الخطورة. ونقول ذلك على أساس أنه إذا كان من سيفوز بالبيت الأبيض هو الثنائي الجمهوري جورج بوش الابن - ديك تشيني فإن مخطط الهيمنة الحالي سيتكرس وسنجد أميركا البوشية ومنطلق الشعور بنشوة الانتصار القائم على ذروة التحدي، تشد القبضة أكثر على العراق وتحسم التردد في ما يخص إيران وسوريا بحيث ينقضّ الصقر الأميركي على الفريسة الإيرانية واضعاً الحكم السوري الحليف الإستراتيجي للنظام الثوري الإيراني أمام أحد خيارين: إما الانكفاء مرة واحدة نحو الداخل وفك عرى التحالف القوي مع إيران، وعدم التعاطي مع الشأن اللبناني بالأسلوب المعمول به منذ عشرين سنة، وبذلك لا يعود عمقه المتمثل بـ «حزب الله» يشكل ورقة صمود إستراتيجية. وأما القبول إضطراراً ببعض رموز الجيوب السورية المعارضة المتأمركة شركاء له في الحكم بفعل إملاء الشروط في حكومة تكون كفة الواقعية بالمفهوم الأميركي لهذه الحالة هي الراجحة فيها.

وعندما قال وزير الخارجية فاروق الشرع قبل بضعة أسابيع إن أميركا باتت جارة وإن التعامل معها سيتم وفق هذا الواقع، فإن رئيس الدبلوماسية السورية كان يرى وبحكم التجربة والمعرفة العميقة من جانبه بالأسلوب الذي تدير فيه أميركا القضايا الخارجية، ما

وعندما نقول ذلك نستحضر أجواء «القادسية الصّدّامية»، وكيف أنها بدأت نتيجة خشية حكم البعث من إجتياح النظام الثوري الخميني للعراق الثوري البعثي. وكان المؤشر إليه قبلة إيرانية انفجرت في «جامعة المستنصرية» وأصابت أشخاصاً كانوا يشاركون في إحتفال، من بينهم طارق عزيز، الذراع السياسية العربية والدولية لصدّام حسين، الذي كان قبل أيام من الحادثة تسلم المسؤولية كاملة في الحزب والدولة. ومنذ ذلك اليوم بدأت جولات الكر والفر العراقية - الإيرانية التي دامت سبع سنوات وأثلجت نتائجها الصدر الأميركي بقدر إستنزاف ثروة البلدين الجارين، والجزء الكبير من الثروات الخليجية، فضلاً عن أنها أسست للغزوة الصّدّامية للكويت ثم الغزوة البوشية - البريطانية للعراق كخطوة أولى تمهد للخطوة الثانية التي تكون على نحو ما هو محتمل «قادسية بوش»، والتي في حال حدوثها ستجعل المنطقة عبارة عن براكين تقذف الحمم على مدار الساعة. ولا مجال لتفادي هذه الـ «جهنم» سوى المبادرة الإستباقية التي نفترض أن المملكة العربية السعودية هي خير من يقتحم حواجزها. خصوصاً أن المملكة ترجمت بعد الزيارة الأكثر نجاحاً في الجولة العلّوية، وبمثال نجاح زيارة لبنان، المشاعر في موضوع إعادة إعمار العراق بالإعلان عن تقديم المليار دولار التي كانت وعدت بها نهاية عام 2003، وترجمت الحرص في موضوع الأمن بطرح الإقتراح الذي يقضي بإرسال قوات عربية أو قوات إسلامية إلى العراق. ونضيف إلى ذلك أن المملكة التي كابدت وتكبّدت الكثير من جراء الحرب الصّدّامية - الخمينية لا بد ستسدي النصح، على نحو ما تفعل في إستمرار، للصديق الأميركي الجمهوري كي لا يرمي المنطقة في مرجل تداعيات «قادسية» جديدة مستفيداً من تعويم المملكة له بإقتراحها إرسال القوات العربية أو الإسلامية إلى العراق. ونقول ذلك آخذين في الإعتبار أن ما قد تفعله أميركا البوشية قد تفعله بعد ذلك الإدارة الديمقراطية إن هي كسبت المعركة. وفي هذه الحال فإن أميركا الحقبة الديمقراطية الجديدة في شخص جون كيري تكون بذلك تتأثر لأميركا الحقبة الديمقراطية في شخص جيمي كارتر الذي تحطمت الطائرات التي أرسلها لإنقاذ رهائن السفارة الأميركية في بداية الثورة الخمينية على رمال الصحراء الإيرانية، وكانت نكسة لم يثأر لها بيل كلينتون، ربما لأن الظروف الدولية لم تكن مواتية كما

يمكن ان يرتسم في المشهد الراهن للمنطقة من مغامرات يمكن أن تُقدم عليها الإدارة البوشية. وليس بالمستبعد بعدما بدأت الدوريات الأميركية تتشط على طول الحدود السورية - العراقية، بحجة رصد اي عمليات تسلل إلى داخل العراق، أن تحدث «إشكالات»، وربما بغرض الإفتعال لتصعيد الأزمة مع الحكم السوري. وما نقصده بـ «الإشكالات» هو أن تكثر الدوريات من الدخول الخطأ في الأراضي السورية وتنتج عن ذلك مواجهات لا تنفع فيها الإعتداءات والتوضيحات الدبلوماسية. وسيكون أمراً بالغ الخطورة في حال أن جنوداً سوريين أطلقوا النار على الداخلين خطأ وأوقعوا إصابات قاتلة في صفوفهم.

ويبدو أن المخطط الذي نشير إليه لن يقتصر على إيران وسوريا، وإنما هنالك على الخريطة في غرفة العمليات أهداف أخرى كثيرة يستوجب المخطط إخضاعها.. وبغير الحسنى. كما يبدو التحرش الأميركي بالحكم السوداني، ونقل موضوع دارفور من حالة عادية في بلد تكاد خزينته عاجزة عن سد رمق مواطنيه وبالحذ الأدنى، إلى أزمة كبرى تعمل آلة الإعلام الأميركي على تضخيمها، وكما لو أن الضربة البوشية الآتية ستستهدف الرأس السودانية. لكن القراءة المتأنية بين السطور تترك إنطباعاً بأن التحريض الأميركي على السودان وإلى درجة إستصدار قرار من مجلس الأمن بإنزال العقوبات في حقه، هو بمثل التحريض الذي إستهدف سوريا ووصل إلى حد سحب سيف «قانون المحاسبة» من الغمد. وفي الحالتين فإن النظامين السوداني والسوري ليسا مدرجين الآن في لائحة المواجهة وإنما النظام الإيراني هو المستهدف، وإن ما يحدث للسودان ومن قبل ذلك لليبيا ثم لسوريا، هو تعطيلها كأعماق إستراتيجية يمكن لكل منها ان تشكل مفصلاً بالغ الأهمية للنظام الإيراني في ساعة الشدة الأميركية. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن طبيعة المؤازرة ليست واضحة من الدول الثلاث لإيران في حال إرتأت أميركا البوشية المواجهة معها مستندة في ذلك إلى الأرض العراقية وجموع «مجاهدي خلق» التي هي مثل الخراف التي إحتضنها وأمعن تدريباً بأفرادها العهد الصدامي، وإرتأت الإدارة البوشية وعراقها المتأمرك الإبقاء عليها ترعى في البوادي العراقية وبرعاية تفوق الرعاية الصدامية لها. وهذه الجموع ربما ستؤدي الدور الذي كان العراق الصدامي يمني النفس بأن تؤديه له.. أي بما معناه يتم دفعها

إلى داخل إيران لتسلم الحكم تحت مظلة وابل الصواريخ العراقية مع فارق أن الصواريخ هذه المرة ستكون أميركية.

وبطبيعة الحال فإنه إذا حدث هذا الشيء، وكان هنالك إسراع في تنفيذ مضامين المخطط البوشي، فإن ما سيحصل سيكون معناه أن الإدارة البوشية تحركت وستواصل التحرك في ظل شرعية شعبية، ولذا فلا غبار عليها، وبذلك لا يعود الخطاب الديمقراطي هو المسموع وتصبح العبارة التي قالتها تيريزا هاينز كيري زوجة جون كيري الذي باتت نسبة فوزه بالرئاسة متساوية مع نسبة بوش الابن الطامح إلى تجديد الولاية، مجرد خاطرة في غير محلها. والذي قالته هذه الزوجة المليونية والتي هي ملكة الـ «كاتش اب» وسائر المطيئات الطعمية كانت بضع كلمات تندرج مفرداتها في «القاموس» المتخصص في «زلات اللسان» التي طالما إشتهر بها الرئيس بوش الابن. والكلمات هي: «إذا أراد الأميركي أربع سنوات أخرى لإدارة بوش فإنهم بذلك يريدون أربع سنوات أخرى من الجحيم...». وتزامنت «زلة اللسان» هذه مع «زلة لسان» أخرى، لا يبدو أنها ستكون الأخيرة، للرئيس بوش نفسه وتمثلت بقوله: «إن حكومتي لن تكف عن إستكشاف سبل لإلحاق الأذى بالولايات المتحدة...». وعلى رغم أنه لا يقصد ذلك إلا أنه قالها وذهبت مثلاً في فنون «زلات اللسان»، فضلاً عن أنها تترجم وتؤكد عبارة زوجة منافسه جون كيري. هذا الذي أشرنا إليه، أي إستكمال وضع اليد وتوسيع رقعة الهيمنة ومواصلة المغامرات الحربية، هو ما سيحدث على الأرجح في حال غابت شمس يوم 2 نوفمبر المقبل وقد أكدت عملية إحتساب الأصوات فوز بوش الابن - ديك تشيني بولاية رئاسية جديدة لمدة أربع سنوات، وبما يشبه الزلزال القوي. أما إذا جاء الإحتساب يشير إلى فوز الثنائي الديمقراطي جون كيري - جون ادواردز، فإن الزلزال سيكون أكثر قوة لأن أميركا على نحو طروحات هذا الثنائي والصورة الزاهية التي يرسمها لأميركا في حال فوزه، ستكون غير التي أرهقت الأميركيان وأرهقتا كعرب ومسلمين بالسير وراءها والرهان عليها وتحمل خبثها ووعودها.

وفي إنتظار أن تمر الأيام سريعة، ويحين حدوث الزلزال الأميركي بأحد نوعيه نجد أنفسنا نتساءل: «لماذا نقف متفرجين على يوميات معركة الرئاسة الأميركية. وما الذي يمنع حكوماتنا من إبلاغ الطرفين

المتبارزين مشاعرنا ومطالبنا بينما يسارع أرييل شارون إلى تهنية جون كيري بإعلان ترشحه رسمياً... ومن دون أن يستوقف الشارونيين أنهم يهتئون منافس الرئيس بوش الابن الذي أعطتهم إدارته في أربع سنوات بقدر ما أخذته وتواصل أخذه إسرائيل وأميركا من التنازلات العربية، وما نالته إسرائيل من أميركا طوال 59 سنة.. أي منذ أن تولى هاري ترومان الرئاسة من عام 1945 إلى عام 1953 إلى حين تسلّم الرئاسة جورج بوش الابن مروراً بأيزنهاور وجون كينيدي وليندون جونسون وريتشارد نيكسون وجيرالد فورد وجيمي كارتر ورونالد ريغان وجورج بوش الأب وبيل كلينتون.

وعلى رغم هذا السخاء فإن إسرائيل الشارونية التي تلعب على الحبلين الجمهوري والديمقراطي سارعت إلى التودد سلفاً من الثنائي الديمقراطي إستعداداً وإستباقاً لمفاجأة يوم 22 نوفمبر 2004 بينما نحن كعرب مثل من هو على الرصيف واقف لساعات طويلة في انتظار وصول القطار للصعود إليه... والجلوس في آخر مقاعد الدرجة الثانية الخلفية فيما إسرائيل متربعة في أوائل مقاعد الدرجة الأولى الأمامية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 10 أغسطس (آب) 2004

* * *

مقتدى الصدر.. الدور والمصير... بين كاريزما نصرالله ومصير صدام حسين

في الوقت الذي تستشري الحيرة في الإدارة البوشية نتيجة أن الحرب في العراق التي سبق أن أعلن الرئيس جورج بوش الابن إنتهاءها لكنها مستمرة في شكل أو آخر، ويضع المحيطون بالرئيس الأميركي أمامه بدائل وخيارات وأخشاب إنقاذ ما يمكن إنقاذه، تأتي إستباحة النجف لتؤكد أن التصرف من خلال العضلات القوية هو السائد ويتقدم على التصرف ولو بالحد الأدنى من الحكمة. فليست بطولية على الإطلاق أن تقتحم الدولة الأعظم في العالم الملاذ الروحي لبضعة ملايين من العرب والعجم، وليس حلاً على الإطلاق إراقة دماء النجفيين لمجرد أن الشاب مقتدى الصدر الوارث أحراناً بحجم الجبال من الزمن الصدامي يريد إعطاء شخصه

أهلية ترعّم بمثل حالة الشاب الأمير علي المنتظر وسط الانقراض العراقية فرصة أن يقع عليه الخيار لتتويجه ملكاً يملك، ويبقى الحكم لرئيس وزراء من نسيج الكوكبة التي شغلت حتى قبل 14 يوليو (تموز) 1958 هذا المنصب بمن فيهم نوري السعيد.

وافترض مقتدى، المفتون بـ «الكاريزما» التي للسيد حسن نصرالله، الأمين العام لـ «حزب الله» في لبنان، أن فرصته تتمثل في ورقة إعتماد المقاومة لإنهاء الإحتلال وترك العراقيين يقررون مصير دولتهم بأنفسهم وفي ضوء إنتخابات حرة يسبقها إحصاء دقيق لعدد السكان، من دون أن يستوقفه ولو لبرهة تأمل أن مثل هذا المطلب صعب التحقيق وبمثل صعوبة إجراء هذا الإحصاء في لبنان لأن صيغة تقاسم المناصب تختل، أو في الأردن لأن صيغة الأقلية تحكم الأكثرية ترتبك، أو في دول عربية أخرى، لا تتحمل المعادلة التقليدية أي مساس بها إستناداً إلى العملية الإحصائية. وجاء إندفاع الصدر الشاب وافتراضه بأن «جيش المهدي» سيخذل جيش الدولة الأعظم، يفنقر إلى التروي وإلى النظرة الموضوعية لواقع الحال العراقي عموماً، والنجفي - الكرلائي خصوصاً، فضلاً عن أن كفة الميزان التي تمتلئ بالعلماء والعلمانيين الشيعة مزدحمة وإلى درجة أن الحاكم الفعلي للعراق لن تهتز فرائصه إذا كان بعض رموز الجناح العلماني مثل الدكتور أحمد الجبلي تساقطوا من هذه الكفة، أو إذا كان بعض رموز الجناح العلماني معتمدين كانوا أو بالبدلة الإفرنجية آثروا الانزواء أو الإبتعاد مكرهين لا أبطالاً.

وعندما إسترحلوا آية الله السيستاني إلى لندن للعلاج لإخلاء النجف من المرجعية الأساس، فإن ذلك كان الرقم الأخير في العد العكسي لكي يتم حسم الأمر مع من هم العمق الفاعل لمقتدى الصدر و«جيشه».. أي إيران. وتزامن مع هذا الترحيل المباغت، وعبر بيروت وليس غيرها، للسيستاني الذي لا يرتاح أصلاً للصدر كرمز لعائلة طالما سُفكت دماء كبارها في الزمن الصدامي ولا لطروحاته وأسلوب المقاومة من خلال «جيشه»، أن العراق الحكومي وضع إيران في مرتبة العدو الأول، تتقدم بذلك على إسرائيل، وبذلك إنلقى السيستاني والصدر والحكومة العلوية في الموقع الذي يشجع القوات الأميركية على أن ترتكب الخيار الذي ارتكبته في لحظة غياب تام للحكمة وتغيب للمرجعية، ذلك أنه ليس من الحصافة بمكان تحويل

وخامنئي لا يختلف كثيراً من حيث عدم القدرة على مساندة الأعماق الثورية لإيران عن كلام وزير الدفاع الإيراني الأميرال علي شمخاني الذي قاله يوم إطلاق صاروخ شهاب 3، بعد إدخال تعديلات جذرية عليه وبحيث أنه بات قادراً على إصابة أهداف يصلها مداه الذي يراوح بين 1300 و1700 كيلومتر، أي بعض الأهداف الإسرائيلية في فلسطين وبعض الأهداف الأميركية في قطر أو الكويت أو العراق. وما قاله شمخاني كان الآتي: «إن التحسينات التي أدخلت على الصاروخ هي دفاعية وراذعة ولا تتعلق فقط بالمدى وإنما بخصائص أخرى أيضاً. لقد حاول الإسرائيليون مؤخراً زيادة قدراتهم الصاروخية وسنحاول أيضاً تحديث صاروخنا شهاب 3 في كل مرحلة وسنكسر عظام الإسرائيليين إذا هوجمت مصالح الأمة الإيرانية...». وهذا الكلام وكذلك تجربة «شهاب 3» تبعت في النفس بعض الطمأنينة المغلفة بالحد، كون هذه المحاولة تجعلنا نستحضر «الظافر» و«القاهر» في زمن عبد الناصر، و«العباس» وأشقائه في زمن صدام حسين. وفي الزمنين كان التحذير على أشده، لكن العظام التي تنكسر كانت عظام الأمة مع الأسف. عسى ولعل لا تتكرر الصدمة ومن قبل وضع إقتراح أحد صانعي مخطط الحرب على العراق بول وولفويتز موضع التنفيذ والذي يقضي بإعتماد الدولة الأعظم أسلوب الميليشيات في ضرب من يقاومها.. أي بكلام آخر الأخذ بظاهرة «الجنجويد» التي قد يكون البوشيون إكتشفوا أهمية الإعتماد عليها فقرروا إجبار السودان على التخلي عنها لتصبح حقاً حصرياً لـ «البنتاغون».. وكما لو أن المسألة وكالة سيارات أو منظف للغسيل أو نوع من المأكولات المعلبة.

وكما نلاحظ فإن وولفويتز، وبينما المواجهة بلغت أعلى درجات الحدة والخطورة في النجف، تقدّم بإقتراحه المتضمن منحه نصف مليار دولار للشروع في إنشاء «الجنجويد» الأميركية ذات الطبعة المتطورة والمنزّهة عن أي مطالبة من مجلس الأمن وغيره بإنهائها وتجريد منتسبيها من سلاحهم وأخلاقياتهم غير النظيفية. وعلى هذا الأساس فإن «جنجويد» وولفويتز ستكون القوة الضاربة والضاربة لأميركا في بعض الدول الإسلامية، وبالذات العراق، وسيتم الترويج لها على أنها من أجل الإسلام ورفعة شأن الدين الحنيف، بدليل أن المنتسبين هم من المسلمين ومحظور على غير المسلم هذا الشرف الذي لا يراق الدم عليه لأنه

مدينة ذات رمز روحي وديني إلى ساحة مواجهة يجري فيها هذا الذي شاهده العالم عبر الفضائيات. وواضح أن الغرض من هذه الإستباحة للنجف هو إخضاع إيران و«حزب الله» في لبنان وبقية الأعماق الحزبية لإيران في العالم العربي، ذلك أن الإستباحة وما رافقها من عمليات حربية ودم غزير سال في كل مكان ومن دون أن يكون في مقدور إيران أن تفعل شيئاً عدا مواقف لفظية تلتقي مفرداتها مع مفردات مواقف مماثلة لفروع «حزب الله» في لبنان وغيره، تشكل إحراجاً أشبه بالإخضاع للحكم الثوري الإيراني، وتؤكد بأن هذا الحكم ليس في موضع من يؤازر أياً من أعماقه في ساعة الشدة، أو بمعنى آخر، إن في استطاعته أن يؤسس مقاومة أو حزباً ويساعد بالمال والسلاح والتدريب، إلا أنه في اللحظات الحرجة يتباعد تقادياً من جانبه لشرارات تصيبه ولا ينفع فيها حتى دوي صاروخ «شهاب 3» الذي تمت تجربته يوم الأربعاء 2004/8/11 على وقع أنين جرحى الإستباحة الأميركية - البريطانية للنجف وإستغاثات أطفال ونساء وشيوخ نجفيين وجدوا أنفسهم يغادرون الديار إلى بقاء أخرى... وعلى نحو ما نراه بين الحين والآخر من مشاهد في الفيلم الفلسطيني الذي لا نهاية له.

ونحن عندما نشير إلى أن الحكم الإيراني لا يلبي في ساعة الشدة وتكون له حساباته الدقيقة جداً بحيث انه يصبح مثل أي نظام عربي لا حول له ولا قوة، فإننا نستند في ذلك إلى التناقض الملموس في الموقف وعلى مستوى القمة، فالرئيس محمد خاتمي يكتفي بكل الحرص على إختيار مفردات الكلام بإدانة «السلوك الأميركي» مع التأكيد بأن إيران «تريد السلام والأمن في العراق لأننا نعتبر أن إنعدام الأمن يضر بالمنطقة...». والمرشد الأعلى خامنئي لا يملك سوى الإدانة أيضاً وإن إختلفت المفردات، وذلك لأنه مُطالب بحكم موقعه أن يقول ما من شأنه تبريد المشاعر، ومن هنا إغتنامه مناسبة إجتماع الملحقين الثقافيين في السفارات الإيرانية في الخارج يوم الأربعاء 2004/8/11 ليقول أمامهم: «إن المسلمين لن يغفروا للولايات المتحدة ما ترتكبه من فظاعات في النجف. إن الحياء كلمة لا وجود لها في قاموسهم. واليوم يجري إرتكاب واحدة من أبشع الجرائم في حق الإنسانية. إنهم بإسم الديمقراطية والليبرالية يحطمون قلوب المسلمين ويحرقون قلوب الشيعة ويزيدون في تعميق الهوة بينهم وبين الأمة الإسلامية...». كما أن كلام خاتمي

ليس رفيعاً.

وبالعودة إلى مقتدى الصدر الذي كان مؤملاً أن يكون الرقم الصعب في العراق الإيراني وضد العراق المتأمر، لكن الأمر إنتهى مأساوياً، يمكن القول من باب التشبيه إن الجامع المشترك بينه وبين صدام حسين واحد. كلاهما أثر النهاية المأساوية على البقاء بأقل قدر من الندوب والخدوش... وهذا سببه أن الإثنيين اللذين يتبادلان العداوة وبينهما بقع عميقة من الدماء، راهناً على أن أميركا لا يمكن أن تفعل ما فعلته بكل العراق أولاً ثم بمدينة المراقدة في شكل خاص، ومن دون أن يستوقفها قول القائلين عنها انها على رغم ذلك لن تكون إمبراطورية موضع إحترام الآخرين لها، وجاء الرهان خسارة فادحة... وإلى درجة الإفلاس.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 17 أغسطس (آب) 2004

* * *

تحذيرات إيرانية... بنكهة صدامية!..

لو كان الحكم الثوري في إيران بالفعل على القدرات التي سمع العالم تصريحات كثيرة في شأنها، وكانت القوات الأميركية تحاشت المواجهة النجفية، ولكن الذي يحدث يشير إلى أن المسألة تتحصر في الإطار اللفظي، وفي مفردات قد تشعل العواطف حماسية، وتملاً الاجواء إحساساً بالطمأنينة، إلا أنها لا تُوقف المواجهة الدائرة مع الذراع التي للثورة الإيرانية في العراق متمثلة بـ «جيش المهدي» وزعيمه السيد مقتدى الصدر، وهي مواجهة تبدو كما لو أنها، في المخيلة الأميركية، تجربة للمواجهة المرتقبة ذات يوم مع جيش «حزب الله» في لبنان، في حال إنتهى «بازار» المقايضات الدائر صمتاً، ويتعلق بإنتخابات الرئاسة اللبنانية، إلى رفع الغطاء السوري عن الحزب، وتقنين تأثير الدور السوري على الحياة السياسية اللبنانية، وإلتيان برئيس لـ «لبنان الطائف» يتسع قلبه لحبيبتين معاً، هما سوريا المخضومة وأميركا المستجدة.

ومع أن رد الفعل الإيراني على المحنة النجفية يتسم بالركة المتناهية والدبلوماسية التي تقطر إحراجاً، إلا أن أهل الثورة لم يتركوا الجانب الآخر من الخطر الداهم من دون وقفة كلامية جسورة أمامه. وهذا الخطر

هو ما يتعلق بالطموح النووي الإيراني الذي يحترق المرء في شأن المرحلة التي وصل إليها، ويتساءل هل انه قطع شوط التحضير ووصل الى مرتبة الإنجاز، أم أن المسألة ما زالت في المرحلة التي تستوجب الحيلة والحذر، وعدم ترك المحنة النجفية تتسبب في موقف أكثر حزمياً مما هو عليه الموقف الإيراني الراهن، فيؤدي هذا الموقف إلى حدوث إرتباكات في المراحل المتبقية في الإنجاز النووي. وما نقصده بالموقف الأكثر حزمياً هو تحريك قوات إلى مشارف الحدود مع العراق، أو إنارة الضوء الأخضر أمام الجماهير الشيعية في العراق لكي تقوم بإنتفاضة، شبيهة بتلك التي حدثت عام 1991 ضد النظام الصدامي أو بتلك المعروفة بـ «إنتفاضة الأقصى».

والذي نلاحظه، هو أن أهل الحكم الإيراني يكثر من إرسال الإشارات المتعلقة بالطموح النووي، وكلها تتسم بما هو أكثر من التحذير وأقل من الإنذار، وهي إشارات تنطلق من الإحساس بأن الفعل الإسرائيلي مع الطموح النووي العراقي، متمثلاً بتدمير مُفاعل «تموز» عام 1981، سياتكر مع الطموح النووي الإيراني متمثلاً بإحتمال تدمير مُفاعل «بوشهر» وبقية المنشآت النووية الإيرانية، من دون إعتراض الروس البُناة، وبحماية أميركية عالية المستوى لأي إعتداء إسرائيلي، كون الموقف هذه المرة يختلف عما كان عليه ايام العدوان على مُفاعل صدام حسين.

ومع ان التحذيرات ليست جديدة، والإعتداد بالنفس قديم، ومنها قول المرشد الأعلى للثورة آية الله علي خامنئي يوم الإثنين 18 مارس 2000، وفي ضوء تهديدات ونصائح نقلها إليه الرئيس خاتمي العائد من محادثات أجراها في النمسا واليونان، وتخللتها لقاءات سرية مع أطراف أميركية الهوى: «إن إيران لديها القدرة على مواجهة التهديدات الأميركية مهما كانت...»، إلا أن مفردات الكلام الجديد يحمل في ثناياه لهجة أقل مشقة من حيث تفسير مراميها. فالرئيس خاتمي المخدول من الإدارة الأميركية، التي لم ترد على تحية الإنفتاح التي وجَّهها بصدق وحُسن نية إليها منذ إنتخابه بإرادة شعبية ملحوظة، يتحول في المسألة النووية إلى صقر ويطلق من التصريحات ما يؤكد التصميم على المضي في بناء إيران قوتها النووية. وفي الجانب المتشدد يقول رئيس «مجلس صيانة الدستور» آية الله أحمد جنتي، وفي الوقت الذي تحدثت التقارير الإستخبارية في يوليو (تموز) الماضي

عن ان إيران تشتري مكونات بغرض الإستخدام في صناعة السلاح النووي «ان إيران ستطور تكنولوجياها النووية ايأ كان الثمن. وحتى لو اراد بعض المسؤولين التنازل يوماً عن هذا الحق فإن الشعب الإيراني لن يسمح بذلك أبداً. اننا مصممون ويجدر بنا أن نحقق البرنامج النووي بأي ثمن...».

ومع أن رموز الحكم الإيراني بنوعيهما، الخاتمي المنفتح والخامنئي المتشدد، يحرصون على القول إن البرنامج النووي الإيراني هو للأغراض السلمية ولا لشيء آخر، فإن الإدارة البوشية القلقة على إسرائيل لا تقتنع بذلك، وبسبب عدم الإقتناع هذا، نجدها تتشط بالصد، وبما يتناسب مع الإنذارات الإسرائيلية، ومنها التهديد الشهير لوزير الدفاع شاول موفاز يوم الإثنين 22 ديسمبر (كانون الأول) 2003، وبعد محادثات مع زميله الأمريكي دونالد رامسفيلد، الذي كان وزميلة وزير الخارجية كولن باول يومذاك مبهورين وبمثل الإدارة البوشية عموماً، بإسقاط العراق في القبضة الأميركية، بتصريح جاء فيه: «إن جهوداً ستكون ضرورية لتأخير البرنامج النووي الإيراني ووقفه»، ثم أتبعه بتصريح آخر قال فيه «إن إسرائيل قد تهاجم، إذا اقتضت الضرورة، المواقع النووية الإيرانية» مستنداً في ذلك إلى تقييم له صفة التحذير لرئيس الـ «موساد» مئير داغان جاء فيه «إن إيران تقترب من نقطة اللاعودة التي تسمح لها بإقتناء السلاح النووي وهذا يشكل تهديداً على وجود إسرائيل...».

هنا بدأ أهل الحكم الإيراني ينظرون إلى المسألة بعين الطرف الذي قد يؤخذ على حين غرة. وهنا إرتأى هؤلاء، بمن فيهم الرئيس خاتمي الذي إكتفى بالقول «إن الإسرائيليين مخطئون وعليهم ألا يرتكبوا أي حماقة»، ترك الأمر للجنرالات ورموز الشأن العسكري الإيراني. وفي هذا السياق جاء قول قائد سلاح الجو سيد رضا برديس يوم 22 ديسمبر 2002 «سواء كانت هذه التهديدات جدية أم لا فإن قواتنا المسلحة مستعدة دائماً للدفاع عن المواقع الحساسة وعن المجال الجوي الإيراني. إن تهديدات وزير الحرب في النظام الصهيوني غير واقعية وعليه أن يعلم أنه في حال تُرجمت هذه التهديدات إلى أفعال، فإن أي مكان لن يكون آمناً لقادة هذا البلد وسيدفع النظام الصهيوني ثمن ذلك غالباً، لأن ردنا سيكون مذهلاً ولم يكونوا يتصورونه أبداً وستحفر إسرائيل قبرها بيدها...». ثم مرت أيام قبل أن تستأنف إيران التحذيرات وأحدثها

قول وزير الدفاع الأدميرال علي شمخاني الذي جمع في تصريح له يوم الأربعاء الماضي 18 أغسطس (آب) الحالي، وبينما المحنة النجفية و«مقتداها» في أشد اللحظات حرجاً، الخطر الإسرائيلي بالمخاطر الأميركية، وجاء فيه: «نحن لن نضع يداً على يد لننتظر ما يفعله الآخرون بنا، بل إن بعض القادة العسكريين في إيران على إقتناع بأن العمليات الوقائية التي يتحدث عنها الأميركيون ليست حكرأ عليهم. إن الوجود العسكري الأميركي بالقرب منا ليس عامل قوة لأميركا على حسابنا... بل الصحيح عكس ذلك لأن القوات الأميركية ستصبح رهينة لدينا. وفي كل الأحوال سنتعامل مع أي ضربة لمنشأتنا النووية على أنها ضربة موجّهة إلى إيران كلها، وسنرد عليها بكل قوتنا. إن أميركا ليست وحدها الموجودة في المنطقة. نحن أيضاً موجودون ابتداء من خوست إلى قندهار في أفغانستان، وموجودون في الخليج، وبإمكاننا أن نكون موجودين في العراق. وبالنسبة إلى إسرائيل فنحن لا نشك في كونها كياناً شريراً. كما انه لن يكون بمقدورها القيام بأي عملية عسكرية من دون ضوء أخضر أميركي، ولا يمكن الفصل بين الطرفين. ولن نتعامل إيران مع التهديدات التي تستهدفها كما تعامل وزير الإعلام في العراق محمد سعيد الصحاف عندما ظل يكرر القول إن نظامه مستعد لمواجهة الهجوم، ولكن ظهر أن لا شيء وراء هذه الإدعاءات. ونحن لسنا من هذا النمط...». وجاء كلام الأدميرال بعد ساعات من تصريح للجنرال محمد باقر ذو القدر نائب قائد الحرس الثوري قال فيه: «إذا ضربت إسرائيل مُفاعل بوشهر النووي للطاقة بصاروخ، فعليها أن تقول وداعاً إلى الأبد لمُفاعلها النووي في ديمونا حيث تنتج وتُخزّن الأسلحة النووية». كما كان يد الله جواني، أحد المسؤولين في الحرس قال قبل يوم من تصريح جنراله، وبعدما كانت تمت بنجاح تجربة صاروخ «شهاب 3» الأكثر تطوراً: «إن الأراضي الصهيونية بكاملها، بما يشمل المؤسسات العسكرية والمخزونات النووية، هي حالياً في مرمى صواريخ إيرانية متقدمة تكنولوجياً».

في ضوء ذلك، نجد المخيلة تذهب بعيداً، مفترضين أن الكلام الإيراني بالإنكحة الصدامية الملحوظة، يحمل الجدية من جهة، ويحمل من جهة أخرى إعتباره يمثل الأسلوب الصدامي في ما يندرج تحت ظاهرة الوصول بالتصعيد إلى حافة الهاوية. ونستحضر ونحن نقول ذلك ما حدث يوم الإثنين 2

كل إيراني، معارضاً أو موالياً، أو بين المعارضة والموالاة، لأن معنى ذلك أن يسجن البلد نفسه بنفسه.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 24 أغسطس (آب) 2004

الشاب العقيد... الشيخ العميد

لم يخطر في بالي وأنا وراء مكتبي في جريدة «النهار» في بيروت قبل ثلاث وثلاثين سنة أن مقالاتي لي نُشرت فيها ستلفتان إنتباه النجم الجديد الساطع زمذاك في سماء الثورة العربية، العقيد معمر القذافي، وأتلقى إتصلاً من وزير الإعلام الليبي صالح بويسير (رحمة الله عليه) عن طريق السفارة في بيروت يتضمن دعوتي إلى ليبيا للقاء رئيس مجلس قيادة الثورة.

لقي الإتصال صدى في نفسي التواقة للوقوف ميدانياً على طبيعة المشروع الثوري الجديد وسط المشاريع الثورية المصرية والسورية والعراقية واليمنية والجزائرية والفلسطينية، وبالذات لأن القذافي ورفاقه يطرحون مشروعهم الثوري الاشتراكي بتناغم مع المشروع الثوري الناصري المنتكس وينادون بالتطبيق الاشتراكي فوق بلاد في باطنها أنهار من الذهب الأسود. وبعد أيام كنت في طرابلس المزهوة بثوبها الأخضر المتجدد. وجرى اللقاء مع (الأخ) معمر على نحو ما يطيب له مناداته الآخرين به، وذلك قبل أن يستبدل ذلك بتفضيل المناداة بـ «الأخ القائد».

كانت المقالتان اللتان شكّلتا هذه الفرصة البالغة الأهمية لصحافي يتابع الشأن العربي من المحيط إلى الخليج عبارة عن وجهة نظر لا تخلو بعض مفرداتها من الملاحظة وإبداء الإستغراب. كانت الأولى بتاريخ 16/4/1971 وفيها أساءل كمحلل سياسي: هل من الجائز أن يتبادل الرئيسان أنور السادات ومعمر القذافي خلال قمة رباعية شارك فيها الرئيسان حافظ الأسد وجعفر نميري كلاماً لا يريدان أن يسمعه الآخرين؟ وهل من الجائز أن يتبادل الرؤساء الثلاثة السادات وحافظ الأسد والقذافي كلاماً لا يريدون أن يسمعه الرئيس نميري، رغم أن القمة هي من أجل إعلان خطة وحدوية؟ أما المقالة الثانية فكانت بتاريخ 30/10/1971 وحول فرض الزكاة في ليبيا بموجب

أبريل (نيسان) 1990 عندما قطعت إذاعة بغداد في العاشرة والنصف صباحاً برامجها الإعتيادية وبدأت تبث الأغاني الوطنية من ذلك النوع الذي عرفه العراقيون في الحرب مع إيران، ثم أعلن المذيع أنه سيتم ربط الإذاعة مع التلفزيون في الثانية بعد الظهر لإذاعة حديث مهم للرئيس صدام حسين، وكان عبارة عن إنذار واضح ومباشر إلى إسرائيل بأن العراق «سيجعل النار تحرق نصف إسرائيل إذا حاولت الإعتداء على المنشآت العسكرية - الصناعية العراقية». وأضاف: «إن العراق يمتلك السلاح الكيماوي المزدوج (الذي تملكه الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي فقط)، والذي سيضرب العراق بالأسلحة الذرية سيضربه العراق بالسلاح الكيماوي المزدوج (صنعه منذ عام 1987 ولم يستخدمه ضد إيران). إن العراق لا يخاف إلا من الله، وإن الزنبور (أي الدبور) الذي يعتدي سيقطع العراق رأسه وذنبه، وإن أي جاسوس (يقصد بازوفت البريطاني الإيراني الأصل الذي جرى إعدامه) يمر بالعراق ويتصور أن خلفه دولة عظمى سيجري تقطيعه إلى أربعة أجزاء، لأن العراق لأبنائه وللعرب ولمن يدخل صديقاً مسالماً أياً كانت جنسيته...».

ما حدث للعراق بعد هذا الكلام كان حرباً من الرئيس بوش الأب بعد غزوة صدام للكويت، ثم حرباً عليه من الرئيس بوش الابن لها بعض ملامح وأغراض ومواصفات وأطماع الغزوة الصدامية، ثم كوارث لم ينفع فيها التلويح بقدرات الكيماوي المزدوج.

والآن نعيش أجواء حالة ثانية، حيث نرى في المشهد البأنورامي أماننا تحضيرات لكارثة ليست حرائق آبار النفط الكويتي وخطوط النفط العراقي شيئاً أمام أهوالها وكوارثها البيئية... إلا إذا كان أهل الحكم الثوري في إيران، الذين واصلوا الإحتفاظ بالجزر الإماراتية الثلاث التي سبق أن إحتلها الشاه (طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى)، لتكون منصات «الفعل الإيراني المؤثر» الذي يمكن إستنتاج طبيعة أهواله من خلال كلام خامنئي وشمخاني وآخرين، أو لتكون هذه الجزر الرهينة مناسبة للمقايسة، بحيث تتخلى عنها إيران لأميركا برضا دولة الإمارات، وتتعد عن العراق وتترك المنطقة لـ «العم سام» يسرح فيها ويمرح، وتكون حال إيران إذا كانت باتت نووية بالفعل بمثل كوريا الشمالية... وهذا ما لا يتمناه الإيرانيون خمينيون - خامنئيين - رافسنجانيين - خاتمين، وأيضاً

قانون أصدره مجلس قيادة الثورة، وكيف ان القذافي أصدر خلال إجتماع مع الرئيسين السادات وحافظ الأسد على أن يتم فرض الزكاة في دول اتحاد الجمهوريات العربية (مصر وسوريا وليبيا) وعلى تحريم الخمر والميسر أيضاً في البلدين، وأن الرئيسين الشريكين لم يأخذا بمطلبه ومن أجل ذلك إنفرد بإصدار قانون فرض الزكاة، أما تحريم الخمر والميسر فإنهما محرمان أصلاً. وفي ذلك المقال تحدثت عن هذا التوجه من جانب القذافي الذي يتسم بإحراج شريكين يقاسيان مالياً، مضيفاً الكتابة: «إن كثيرين سيتساءلون كيف تُفرض الزكاة في ليبيا التي تحت صحرائها أنهار من الذهب الأسود ولا تُفرض في مصر حيث الأزهر أو سوريا التي وطأ أرضها عشرات الخلفاء المسلمين. أن ذلك قمة الإحراج من شريك مقتدر لشريكين محتاجين...».

كان العقيد القذافي زمنذاك بإسلامية أسامة بن لادن في الزمن الراهن... أو فلنقل إن أسامة بن لادن النصف الثاني من التسعينات يمثل قذافي الزمن الغابر... زمن الثلث الأول من السبعينات. وكان لا يخفي إسلاميته كسلوك داخل ليبيا وخارجها، حتى انه رفض مرة النزول في فندق «شيراتون القاهرة» بحجة أن في الفندق خمرة وكازينو قمار. وكانت إسلاميته هذه عفوية وعن إقتناع وموضع رضى رفاقه أعضاء مجلس قيادة ثورة «الفتاح من سبتمبر 1969» ومن دون أن يستوقعه أن «شيراتون القاهرة» ومن قبل ذلك «هيلتون النيل» و«ميريديان جاردن سيتي» وغيرها من الفنادق شيدت في زمن ملهمه وأستاذه بـ «المراسلة الهوائية» عن طريق إذاعة صوت العرب وحيث لا قانون زكاة ولا تحريم خمر وميسر في ذلك الزمن...

وزمنذاك أيضاً كانت ثورة «الفتاح من سبتمبر» هي خط الهجوم العربي والإسلامي الأول ضد الشيوعية، ومن دون التفريق بين الاتحاد السوفياتي والصين كدولتين كبيرتين يمكن الإعتماد عليهما على نحو ما اجتهد عبد الناصر، وبين كون الدولتين صاحبتى عقيدة ماركسية عدوة بالمطلق للدين الإسلامي. وهو عندما لم يُتَح له الوقت لمقارعة الدولتين في الأشهر القليلة من حياة أستاذه عبد الناصر، وذلك حرصاً على عدم إحراج كونه الذي جعل الأقدام الشيوعية تغتسل بمياه البحرين الأحمر والمتوسط وكذلك بمياه قناة السويس من قبل أن تحتل إسرائيل ضفتها الشرقية وتمنع الملاحة فيها، فإنه إغتم

المرحلة الساداتية وما حفلت به أشهرها الأولى من إرتباكات في العلاقات مع الإتحاد السوفياتي، لبدأ حملة على الكرملين وصلت إلى حد مطالبة السادات بإلغاء المعاهدة مع الإتحاد السوفياتي، وهو ما كان وارداً في البال الساداتي لكن وارث الحقبة الناصرية كان يفضل عدم إقحام القذافي نفسه في المسألة كي لا يبدو إلغاء المعاهدة التي ألغاها (أي الرئيس السادات) بعد ذلك أنها من نتاج التحريض القذافي.

ثم تشاء الصدق وتوجب الضرورات أن يصبح السادات خصماً كبيراً للقذافي، وبمثل خصومة الحكم العراقي المتأمرک الحالي للحكم الثوري الإيراني الدائم التطلع والسعي إلى وفاق مع الإدارة الأميركية من الصعب أن يكون وفق رؤى القذافي، بعدما بدأ العمر الثاني يفرض عليه إعطاء سن الشيخوخة حقها من تقديم الحنكة على الحدة والمرونة على التشدد والسلامة على المغامرة.. أو بتعبير أكثر دقة إعتدال «القذافية» بدل «الصدّامية» ولو جاء ذلك نقضاً لأطروحات ومفردات ومواقف من بينها كلام سمعته مع ناشر «النهار» غسان تويني وزميلنا الوزير الحالي في الحكومة اللبنانية مروان حمادة خلال لقاء لاحق مطلع يناير (كانون الثاني) 1975 مع العقيد القذافي الذي قال جازماً «إن ليبيا لن تنتهي حال العداء مع إسرائيل... ولو أنهاها الآخرون». وهذا الكلام فيه كل الصدق كعاطفة. إلا أن القذافي الذي إكتوى بلسعات الحصار الظالم إستبدل الأفكار الرومانسية بالرؤى الواقعية.

وفي هذا السياق إرتأى أن يتوقف قطار رحلة العروبة والوحدة العربية في منتصف الطريق لينقل منه قفراً إلى قطار رحلة الهوية الأفريقية والتعاون مع القارة السوداء التي لحكامها الفضل في كسر الحصار الجوي على نظامه. وإرتأى في ضوء الذي جرى للعراق ونظامه الصّدّامي أن يُقفل كتاب التطلعات والطموحات من قبل أن يتحقق شيء منها. وفي سبيل السلامة العامة والخاصة إرتأى أن يفتدي بالمال ما يمكن أن يرد أذى العدوان والتدمير، خصوصاً أنه كان قبل النظام الصّدّامي وقبل الإيذاء الشاروني للحجر والبشر في فلسطين ذاق مرارة عدوان رونالد ريغان ومارغريت ثاتشر عليه وفي عقر داره الخاصة والمقر التاريخي لمجلس قيادة الثورة في «باب العزيزية».

ولأن بوابة مرحلة الترميم وإعادة النظر وإنهاء القضايا العالقة بدءاً من مظالم نشأت نتيجة الحذر

للتصحر الثوري الذي كاد يستشري في النفوس التواقفة إلى حياة سياسية متوازنة تسود العدالة في مفاصلها.. وبحيث يكون الدين لله والوطن للجميع. وعلى هذا فإن ما يمكن توقعه من القذافي الشيخ هو طبعة جديدة تعتمد الإضافة والتشذيب والتنقيح وكذلك التلقيح لنظريته الثالثة التي جرفت العولمة ضرورتها أو فرصة الأخذ بها.

كما أن ما يمكن توقعه أيضاً منه إلى جانب نبذ التدخل والمشاكسة وتشجيع التآمر، هو ترصين التسميات والرموز والمناصب بحيث لا يبقى علم البلاد عبارة عن قطعة قماش خضراء مع أن هلالاً برتقالي اللون على هذا العلم مع كلمات «كنتم خير أمة أخرجت للناس» من شأنها جعل هذا العلم على درجة من البهاء، وبحيث لا يبقى إسم البلاد هو جماهيرية وإنما «الجمهورية العربية الليبية» على نحو ما نصت على ذلك المادة الأولى من الإعلان الدستوري لـ «مجلس قيادة الثورة» الصادر بتاريخ 1969/12/11 وذلك لأن «الجماهيرية» حالة أو صفة وليست إسماً، ويعود القائد رئيساً و«الأمين» وزيراً والسفير سفيراً والسفارة سفارة، ويكون هنالك مستشارون يُستشارون ومجلس نواب وانتخابات نيابية وحرية إختيار وترشيح وهذه الأمور وغيرها كثير يُستحسن إعتمادها طوعاً بدل أن تُفرض فرضاً أو يأتي لبييون يتم إنزالهم بالمظلة الأميركية للأخذ بها، فضلاً عن أنها لا تنتقص من كبرياء التجربة الثورية التي باتت مع إنقضاء السنة الخامسة تجربة قذافية مئة بالمئة نتيجة أن الذين إنصرفوا، طوعاً أو بغير الحسن، من بين الرواد الفتية الذين شاركوا في الثورة كانوا أكثر من الذين أبقوا أو صمدوا. وحيث اننا هنا في معرض الحديث عن هذه الثورة لمناسبة ذكرها الخامسة والثلاثين فإن إستحضار أسماء أولئك الفتية من ثنانيا الذاكرة تبدو ضرورية. وهؤلاء الذين باتوا مثل كبيرهم في المرحلة الأولى من الشيخوخة هم: معمر القذافي. عبد السلام جلود. عبد المنعم الهوني. مصطفى الخروبي. أبو بكر يونس. الخويلدي الحميدي. بشير هوادي. محمد المقرئ. محمد نجم. مختار القروي. عوض حمزة. عمر المحيشي... إضافة إلى آدم الحواز الذي كان أول وزير دفاع للعهد الثوري قبل إعتقاله في ديسمبر (كانون الأول) 1969 بتهمة التخطيط لإنقلاب وموسى أحمد الذي إنصرف بعد الإفراج عنه إلى أعمال التجارة. والباقيون من الأعضاء

والشك في صفوف الجبهة الداخلية، وصولاً إلى حالات لها صفة الإلغاز ولا بد من علاجها مثل حالة مصير الإمام موسى الصدر ورفيقه، باتت مفتوحة بعد التسويات التعويضية مع أميركا وبريطانيا وفرنسا والمانيا، فإن القذافي الشيخ عازم على ما يبدو على أن يغادر الدنيا أو يُسلم المقاتلين إلى سلالة قذافية وقد بات كل شيء خالياً من الإشكالات التي تتعص حياة من سيحكم من بعده.

لقد ساعدت ليبيا كل حركات التحرر ولكن هذا التحرر لم يحدث. وطرحت ليبيا بكل زخم مشاريع وحدوية عربية لكن التقبل لها كان فاتراً. وساعدت ليبيا الإيرلنديين بغرض الضغط على الحكومة البريطانية لتفعل شيئاً للفلسطينيين لكن بريطانيا متمسكة بالظلم التاريخي الذي الحقه بلفورها بالشعب الفلسطيني. وفتحت ليبيا قنوات مع السود في أميركا بغرض لفت إنتباه البيض والشعر إلى سوء تعاملهم مع القضايا العربية لكن الإدارات الأميركية إزدادت إستهانة بنا. وفتحت ليبيا ابوابها للعرب والعجم والافارقة فكان الأخيرون هم العون والسند بينما غاب الأشقاء العرب وأغمض الأصدقاء العجم عيونهم. كذلك حاولنا إقامة إتحاد مغاربي فاعل فقطع الجيران المغاربة الطريق على شعبنا. وحاولنا إقامة وحدة سليمة مع تونس فهاجمني الحبيب بورقيبة داخل الأستوديو. وساعدنا إيران في حربها مع صدام علها تقتنع بعدم جدوى تصدير الثورة وكي لا يبدو الصراع عربياً - فارسياً لكنها أرادت الوصول إلى مكة. ووضعنا بتصرف الفلسطينيين إمكانيات لكنهم إقتتلوا بعضهم ضد بعض. وساعدنا مصر كثيراً فأرسل السادات الطائرات الحربية تخترق أجواءنا وتهدد أراضي تاركا وسائل الإعلام الساداتية تسميني «مجنون ليبيا». وحاولنا إستيعاب صدام لكن إخواننا رفضوا فتم إسقاط صدام وتضييع العراق في الوقت نفسه.

في إستطاعة القذافي أن يقول هذا الكلام ويسرد الكثير الكثير من الوقائع من باب الدفاع عن النفس أو إبراء الذمة. لكن الأمر الأكيد هو أنه عمل على بناء دولة ثورية في زمن التساقط الثوري ولم يعمل على بناء الدولة الحديثة. وإنشغل بالدور الإقليمي والخارجي أكثر من الإنشغال بالبناء الداخلي النفسي والتقني. ومع أن الزمن ليس دائماً لمصلحة أصحاب النوايا الطيبة فإن القذافي على نحو ما يجوز الافتراض سيسرع الخطى من أجل القيام بعملية إستصلاح

حتى الآن إلى جانب القذافي هم: جلود والخروبي والخيولدي وابو بكر يونس.

وتبقى من هذه التأمّلات عن ثورة «الفتاح من سبتمبر» الإشارة إلى أن الأخ معمر هو الوحيد بين الثوريين العرب الذي أطلّ عمر حكمه الثوري الحافل بالصدّات والمصادمات، وهو بالتالي الوحيد الذي عايش سبعة رؤساء جمهورية أميركان يتبادلون معه عدم الإرتياح هم ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد وجيمي كارتر ورونالد ريغان وجورج بوش الأب وبيل كلينتون وجورج بوش الابن، وهو بذلك يكون عميد الحكام العرب على نحو إطلاق هذه التسمية الشرفية عليه خلال مشاركته في القمة العربية الدورية الأولى في عمان يوم 2001/3/28 من قبل الملك عبدالله الثاني الذي كان ثالث الحكام الورثة الفتيّة الى جانب الملك محمد السادس والدكتور بشّار الأسد. وهذه التسمية الشرفية كانت حكراً على الملك الراحل الحسين الذي إستمرت عمادته 47 سنة بدأت عام 1952 وإنتهت مع رحيله عام 1999.

ولا يملك شخص مثل حالي عرفه كصحافي وكصديق سوى الخشية عليه من الذين أخضعوه للأمر الواقع.. خصوصاً هؤلاء ونعني بالذات الإدارة الأميركية والحليف البريطاني ومعهما الحليف الإيطالي، يتباهون بأن ما فعلوه بالعراق كان ضرورياً ومفيداً بدليل أن دوي تدمير بلاد الرافدين والنظام الصّدّامي سُمع جلياً في طرابلس وسرت وبنغازي ودمشق وطهران. والخشية سببها أن ليبيا طبق شهى على مائدة أولئك الجشعين الذين يحاولون إلتهام أصحاب التراث والثروات في الأمة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 4 سبتمبر (أيلول) 2004

* * *

لبنان.. تأملات في ظاهرة

الرئيس والترؤس

الآن وقد رجحت كفة الرغبة البشّارية على التحفظات البوشية - الشيراكية، وتم التمديد وفق الأصول الحكومية والبرلمانية اللبنانية الإضطرارية للرئيس إميل لحود، المتبقي على ولايته الحالية بضعة أسابيع، نصف ولاية مدتها ثلاث سنوات، أجزى لنفسه

كأول صحافي في لبنان يبادر إلى تأليف كتاب عن الرؤساء الذين حكموا لبنان بدءاً بالأول شارل دبّاس، في زمن الإنتداب الفرنسي، وصولاً إلى الرئيس شارل حلو الذي تسلم الرئاسة من الرئيس فؤاد شهاب يوم 23 سبتمبر (أيلول) 1958، وكصحافي يواصل الإهتمام منذ أكثر من أربعين سنة بالشأن العربي ومن المحيط إلى الخليج، وتسنت له متابعة طبائع الحكام وتقلبات الرؤساء والإنقلابات على بعضهم فضلاً عن إستفتاءات المبايعة ودائماً بنسبة تتجاوز التسعين في المائة... الآن وقد دقت ساعة الاستحقاق الرئاسي قي ظل لحظات مصيرية يعيشها لبنان، دون سائر دول المنطقة، والذي يتفرد بظاهرة تجمع بين الترتيس والترؤس في وقت واحد، أجد نفسي أوجز لقارئ «الشرق الأوسط» قضية الإنتخابات الرئاسية في لبنان، شارحاً في حدود المستطاع ظاهرة الترتيس بفعل الإرادة الخارجية، والترؤس بمعنى إرتضاء الترتيس، وألغاز حمى المعركة الرئاسية التي تتجاوز درجة حرارتها أحياناً درجة حرارة الصراع على البيت الأبيض، وبالذات بالنسبة إلى الرئاسة الحالية المتزامنة جولات الصراع عليها مع جولات الصراع على الرئاسة اللبنانية.

ومن المصادفات أن ولاية الرئيس اللبناني إميل لحود تنتهي مع إنتهاء ولاية الرئيس جورج بوش الابن، وأن الإثنين عازمان على أن تكون لهما ولاية رئاسية ثانية: ست سنوات للرئيس اللبناني وأربع للرئيس الأميركي.

بداية أرى ضرورة التوضيح بأنني قبل أربعين سنة، بحثت كصحافي يشق طريقه، عما يجيب عن أسئلة وتساؤلات تتعلق بالذين ترأسوا البلاد، خصوصاً أن كثيرين تنقصهم مثلي الإجابات. وعندما إقترحت على ناشر جريدة «النهار» غسان تويني، التي كنت بدأت العمل فيها، فكرة كتابة سلسلة تحقيقات مصورة عن رؤساء لبنان، شجع الفكرة وقال انه يفضل أن يكون هذا العمل هو مادة الكتاب الأول الذي يصدر في سلسلة «كتاب النهار» المنوي إطلاقها، وجعلني هذا أندفع في إتجاه الإسراع في تحضير المادة.

ولهذا الغرض أجريت لقاءات مع الذين كانوا ما زالوا على قيد الحياة، وهم الرؤساء بشّارة الخوري وكميل شمعون والفرد نقاش، يروي لي كل منهم كيف حكم ولماذا لم يقتنع بولاية واحدة (بشّارة الخوري وكميل شمعون) وكيف إستسلم للأقدار (الفرد نقاش) فإرتضى

أن يعمل كرئيس مصلحة، بعدما كانت سلطات الإنتداب الفرنسي عينته يوم 24 أكتوبر (تشرين الأول) 1941 رئيساً للجمهورية، وإستمر في منصبه حتى 18 مارس (آذار) 1943. وأما الأموات من الرؤساء وهم الرئيس الأول شارل دباس (من 26 مايو (أيار) 1926 إلى أول يناير (كانون الثاني) 1934)، واميل اده (من 1936/1/20 إلى 1941/4/4)، وبترو طراد (رئيس دولة من 7/22 إلى 1943/9/21)، فقد زرت منازلهم والنقبت بأفراد من عائلاتهم (أبناء. بنات. أحفاد. أقارب). كما إنني أمضيت ساعات أسأل رؤساء حكومات وشخصيات سياسية مرموقة عملوا مع أولئك الرؤساء أو ناصبواهم الخصومة، والنقبت أيضاً الذين كانوا على إحتكاك يومي بهم، مثل الحلاقين وصانعي القهوة والشاي وصانعي الطرايش التركية والقبعات الافرنجية والخياطين ومدراء المطاعم، وذلك لأنني كنت حريصاً على الأمور الإنسانية والشخصية للرؤساء الذين حكموا لبنان، حيث أن عقلية الرئيس تُعرف من خصاله الشخصية.. تماماً مثل الرسالة التي كما يقول المثل الشعبي تُعرف من عنوانها. وكنت أدون ما أسمع بدقة وأطلب من المؤرخ الثقة الدكتور يوسف إبراهيم يزيك، الذي وضع في تصرفي الكثير من الأوراق والوثائق والمعلومات، أن يؤكد لي صحة هذه المعلومات أو بعض التفاصيل عن تلك الواقعة. وفي نهاية الأمر وجدت امامي في المشهد الرئاسي أموراً كان يمكن أن تبقى مجهولة، لولا المبادرة المتعلقة بإلقاء الضوء على هؤلاء الذين حكموا سعيدين أو تعيسين. ومن جملة ما في المشهد المشار إليه أن الرئيس الأول شارل دباس كان أرثوذكسياً، ولم يكن مارونياً. ولعل هذه السابقة هي ما جعلت زميلنا ناشر «النهار» غسان تويني يتطلع إلى أن يكون رئيساً للجمهورية بعدما بات لبنان في زمن الإستقلال، إلا أن ما يتمناه الارثوذكسي في هذا الشأن، وكان جائزاً في زمن الإنتداب الفرنسي، لا يدركه في الزمن التالي بعد الإستقلال عام 1943، ثم بعد إتفاق الطائف الذي ثبت الرئاسات أدق تثبيت، وبما يشبه دق المسامير في البوابات الصعبة. وبهذا التثبيت ضاعت نهائياً على وليد جنبلاط، وكما ضاعت من قبل على والده، التطلعات بأن يتسلم رئاسة الحكومة أو رئاسة البرلمان، وهما رئاستان جرى أيضاً تثبيتهما بحيث أن رئاسة الحكومة للطائفة السنية، ورئاسة البرلمان للطائفة الشيعية.

ومن جملة ما في المشهد الرئاسي أيضاً أن زوجة

شارل دباس كانت فرنسية، وأن الإنتداب الفرنسي عينه مرتين رئيساً للجمهورية، على نحو تعيين سلطات الإحتلال الأميركي في الزمن الحالي للرؤساء في العراق، وأنه قبل تعيينه كان محرراً في جريدة تصدر بالفرنسية. ومن خصاله أنه كان يميل إلى العزلة وصاحب ضمير ومتقشف ويكتفي براتبه كرئيس للجمهورية، وأنه لم يستعمل سيارة الرئاسة إلا عند قيامه بالوظيفة، وقياساً بمواكب رؤساء أيامنا هذه، فإن الرئيس اللبناني الأول في تاريخ الجمهورية كان من نوع إستثنائي، من دون أن يعني ذلك أنه لم يتحمل الإبتعاد عن كرسي الرئاسة، بدليل أنه حتى وهو مريض في باريس عام 1935، كان يمني النفس بالعودة إلى لبنان رئيساً. مريض ويحلم بالعودة؟ يا لهذا الطمع في المنصب الذي لم يدم لأحد حتى يدوم لآخر.

من جملة ما في المشهد الرئاسي أيضاً من ملامح إنسانية وشخصية، ان الرئيس الثاني حبيب باشا السعد كان أول مسيحي في الشرق الأوسط يحظى من الباب العالي (أي تركيا ذات الشأن وليست تركيا مهبطية الجناح بعد ذلك) بلقب باشا. وهو بعدما بات «باشا» صار مسكوناً بالأسلوب التركي من حيث الأناقة والطربوش على الرأس، وبمثل أناقة آخرين من الجيل التالي أبرزهم: رياض الصلح وصائب سلام وتقي الدين الصلح وبطرس الخوري. وهو مثل الرئيس الخلف شارل دباس نأى عن جمع الثروة، بدليل أن أرملته عاشت بعد وفاته على معاش تقاعدي زهيد بالكاد يعيلها. وبعد حوالي 68 سنة على ترؤسه البلاد تحاول السلالة السعدية من خلال عضو البرلمان فؤاد السعد المنضوي تحت الزعامة الجنبلاطية الدرزية لجبل لبنان، طرح نفسه كمرشح لرئاسة الجمهورية خلفاً للرئيس اميل لحود، وضمن قاعدة أن كل ماروني مرموق له فرصة طرح نفسه كمرشح.. أما الفوز فمسألة أخرى.

بالنسبة إلى الرئيس الثالث في زمن الإنتداب الفرنسي اميل اده، فقد كان ابنه ريمون وابنُه الثاني بيار هما مصدر ما عرفته عن والدهما الذي كان الأول الذي يأتي إلى الرئاسة من البرلمان. وعندما دخل البرلمان كان لا يحسن التكلم بالعربية، إلا أنه بعد عشر سنين صار يرتجل بالعربية ويستشهد بالشعر العربي. وعلى رغم ما قيل عن الفرنسية الإديّة، والتي كان ينزعج الإبنان ريمون وبيار من المثيرين لها في مناسبات لها صفة الإفتعال، فإن ما يُحسب للرجل هو أن المعاهدة اللبنانية - الفرنسية التي تعترف بإستقلال لبنان، ومن

لبنان... الكبرياء والتكبر في الموضوع الرئاسي

حاولت الإدارة الأميركية منفردة إنهاء ظاهرة الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز الذي جاء إلى رئاسة إحدى أبرز دول «الأوبك» فما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وحسم ثناء الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر، الذي ترأس فريق الإشراف على الانتخابات، الأمر بشهادته التي تضمنت الإشادة بنزاهة العملية الانتخابية، واضطرت الإدارة الأميركية نتيجة ذلك إلى بلع الإخفاق والقبول بإستمرارية شافيز رئيساً بفعل الخيار الديمقراطي.. من دون أن يعني ذلك أن البوشيين في حال تجددت الولاية الرئاسية لهم لن يجربوا مرة أخرى إلحاق الأذى بالجنرال الأميركي اللاتيني، الذي أشهر عليهم التحدي المثلث الأطراف: تحداهم بعلاقة متميزة مع الخصم التاريخي الرئيس الكوبي فيدل كاسترو الذي يزداد حكمه لكوبا رسوخاً، كلما تقدمت به السن وازدادت اللحية شيباً. وتحداهم بإختراق العزلة الدولية على الحكم الصدامي خلال سنوات الحصار، عندما زار العراق من بوابة الزمالة النفطية، حيث أن البلدين عضوان في «أوبك» وحاول إشراك صدام شخصياً في القمة النفطية التي إستضافها في كراكاس، لكن التمثيل جاء على مستوى الرجل الثاني. وتحداهم بالترويج لثورية معتدلة ترتاح لها شعوب دول أميركا اللاتينية، وترى فيها غيفارية جديدة ومتجددة.. وهو ما لم يتحمله كواسر الإدارة البوشية. وقبل أيام إقتحمت الإدارة البوشية الحالة اللبنانية السورية، ونقلت موضوع الانتخابات الرئاسية اللبنانية إلى مجلس الأمن الدولي، الذي ناقش مشروع قرار أميركي - فرنسي مشترك، أحدث صدمة في نفوس أهل الحكم في سوريا ولبنان، رغم التعديل الذي تم إدخاله عليه مخففاً من خشونة مفرداته، لجهة إعتبار الوجود السوري في لبنان إحتلالاً، وتصنيف الدولة الشقيقة للبنان على أنها دولة أجنبية، وتحديد سقف زمني من أجل أن تنتهي في أيام علاقة عمرها ربع قرن. وكل ذلك لأن الحكم السوري إختار ضمن التقليد المتبع منذ تولية إلياس سركيس رئيساً للجمهورية يوم السبت 8 مايو (أيار) 1976، التمديد للرئيس اللبناني الحالي الجنرال إميل لحود. وإستوجبت ذلك إجراءات رسمية إتسمت بالسرعة القياسية، تمثلت في قرار

بنودها المادة 6 و6 مكرر التي تعني توزيع المناصب في الدولة على الطوائف بالتساوي وضعت في عهده. ورغم رفض البرلمان الفرنسي للمعاهدة، إلا أن الغمز من قناة الفرنسية الإذية إستمر قائماً وبالذات من جانب زميله المحامي الشيخ بشارة الخوري الذي ورث الرئاسة منه، وكان بذلك أول رئيس للبنان المستقل. وتثير الدهشة طبيعة الأحقاد في نفوس المتصارعين مثل الذي حدث بين بشارة الخوري وإميل اده، وإلى درجة أن الأول، وبعدما بات رئيساً للبلاد، منع الأهالي من تشييع جنازة الثاني من منزله في بلدة صوفر التي كان يصطاف فيها إلى مدافن العائلة في بيروت، وذلك بعد وفاته يوم 27 سبتمبر 1949.

ومن غرائب المصادفات، أن إميل اده وُلد في دمشق، وأنه بعد الحكم عليه بالإعدام هرب إلى مصر. وهذا الهروب هو ما كاد يحدث لإبنه ريمون الذي نبهه الرئيس أنور السادات إلى إحتمال إغتياله في بيروت عارضاً عليه الإقامة في مصر، إلا أن الإبن الذي كان إسمه في إستمرار وارداً، كأفضل مرشح لرئاسة الجمهورية أثر الإقامة بعيداً كثير البعد عن سوريا، ومن أجل ذلك إختار باريس مكاناً لإقامته، وفي فندق متواضع بقي فيه إلى أن وافته المنية وتم نقله إلى بيروت حيث جرى دفنه إلى جانب والده، بينما شقيقه بيار توفي ودفن في البرازيل. ولأن ريمون اده لم يتزوج فإن السلالة الثانية متمثلة بكارلوس اده نجل بيار اده هي التي تحاول أن تكون لها فرصة التروؤس ذات يوم. وتبقى في معرض الحديث عن بعض خصال الرئيس ما قبل الأخير في زمن الإنتداب، الإشارة إلى أنه كان من المحامين البارزين ووفياً لصادقاته وتلك صفة عمل الإبن ريمون على ترسيخها.

ولهذه التأملات حول الرئيس للبنان، بفعل الإرادة الخارجية والتروؤس بمعنى إرتضاء الرئيس، بقية تتعلق برؤساء مرحلة الإستقلال بدءاً من المرحوم بشارة الخوري، وصولاً إلى الرئيس الحالي إميل لحود، مروراً بالمرحوم كميل شمعون والمرحوم فؤاد شهاب والمرحوم سليمان فرنجية (الجد) والمرحوم إلياس سركيس والمرحوم بشير الجميل وشقيقه أمين الجميل والياس الهراوي.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 7 سبتمبر (أيلول) 2004

* * *

جاء إلى لبنان زائراً ومجتمعاً برئيسه، وأن فؤاد شهاب جاء إلى سوريا زائراً ومجتمعاً برئيسها؟ ومن الجائز القول إن مثل إحدى هاتين الخطوتين كانت ستجعل الصدور وقد خلت من الإحتقان. كما أنها كانت ستخفف الإحراج عن دولتين صديقتين مثل فرنسا وإسبانيا، بحيث لا تشارك الأولى في تحمل عبء مشروع قرار قد يؤسس لتوتر دائم في العلاقة، ولا تقف الثانية عند التصويت إلى جانب أميركا متتاسية الأفق الرحب الذي باتت عليه العلاقة السورية - الإسبانية، وبالذات في العهد البشّاري، فضلاً عن أن ظاهرة الرئيس كانت ستبدو أقل حدة مما جاءت عليه، بمعنى أن الإنطباع السائد بأن سوريا هي التي تختار أشخاص الرئاسة الثلاث في لبنان، الجمهورية والحكومة ومجلس النواب، ليس بالحدة أو الشغف كما طوال سنوات الرئيس بفعل القرار السوري، بدءاً من ترئيس إلياس سركيس ثم ترئيس إلياس الهراوي فترئيس اللواء جميل لحود.

وقد يكون الذي دفع بالرئيس بشّار، أو بالقابضين على ملف العلاقات مع لبنان، لعدم الأخذ بالخيارات المشار إليها، هو الخشية من مفاجآت كتلك التي رافقت إختيار بشير الجميل ثم شقيقه أمين الجميل ثم رينيه معوض لمنصب الرئيس، وإحتمال حدوث صدمات كتلك التي كانت ستظهر في برنامج بشير الجميل، ثم ظهرت في برنامج شقيقه في شكل إتفاق ساداتي المنحى مع إسرائيل، ما لبث أن تم إسقاطه بفعل الرفض السوري - اللبناني له، وكادت تظهر في برنامج رينيه معوض كتوجه إستقلالي يتطلع إلى العلاقة المتوازنة مع سوريا على نحو الرؤية الناصرية - الشهابية قبل 46 سنة.

خلاصة الأمر أن الحكم السوري أدار اللعبة على النحو المألوف عند تولية إلياس الهراوي رئيساً يوم الجمعة 24 نوفمبر (تشرين الثاني) 1989، ثم عند تولية اللواء إميل لحود قبل ست سنوات وتحت مظلة إتفاق الطائف الذي ما زالت قراءة أطراف المجتمع السياسي اللبناني له حافلة بالتفسيرات والإجتهادات. ومثلما تم التمديد ثلاث سنوات للهراوي، فقد تقرر أن يتم التمديد ثلاث سنوات للجنرال لحود. وبصرف النظر عن القبول والشكل وعملية الإخراج للقرار التاريخي، فإن هنالك أمور رافقت المسألة ومن شأن التوقف عندها بصيغة التأمل قراءة ما يمكن أن تحمله الأيام المقبلة بين ثناياها.

لمجلس الوزراء بتعديل مادة في الدستور يمكن في ضوئه التمديد ثلاث سنوات لرئيس الجمهورية، ثم في جلسة تصويت مماثلة على المشروع من حيث السرعة لجلسة مجلس الوزراء. وبعد هذه الجلسة ثم الجلسة الوقورة للبرلمان حيث صوّت 96 نائباً مع التمديد مقابل 29 عارضوا، بات التمديد حالة قائمة، ودخلت التحديات حلبة الصراع المحلي - الإقليمي على الحكم والصراع الدولي على لبنان. وكان لافتاً في هذا الشأن أن نوعاً من إنحسار سمة التميز في العلاقة السورية - الفرنسية، والسورية - الإسبانية قد حدث وهو ما بدا إنتكاسة للرهان على الموقف الأوروبي كنصير للخصوصية اللبنانية - السورية. ونقول ذلك على أساس أن نوعاً من التوحد غير القابل للتفكك حدث بين أميركا والدول الأوروبية، وأن هذا التوحد الذي لم يحدث بسبب الموضوع العراقي حدث بغرض إضعاف سورية كرقم صعب في الوضع الراهن في المنطقة، والذي جعل التحمل ممكناً للصدمة الناشئة عن الإنسجام المفاجئ للصديقين اللدودين الرئيس جورج بوش الابن والرئيس جاك شيراك هو أن سيناريو إختيار إميل لحود لنصف ولاية قد تمتد نصفاً آخر بحكم الأمر الواقع، والتعود اللبناني على ظاهرة البقاء الطويل للحاكم في سدة الحكم، وهي الظاهرة المألوفة في الجمهوريات العربية، لم يأخذ في الإعتبار الكبرياء اللبناني وبذلك بدا التكبر السوري طاغياً أكثر مما هو متوقع.

وهذه النقطة بالذات تجعلنا نتساءل:

ما الذي كان يمنع أن تقوم القيادة السورية بزيارة إلى لبنان، وتتخذ في رحاب السراي طوال يوم تشاوري طويل لقاءات مبثوثة مباشرة على الهواء، وتتعلق بالوضع الراهن والولاية الرئاسية الجديدة بحيث ينتهي التشاور إلى التمديد أو التجديد أو إختيار رئيس جديد، بدل الأسلوب الذي تم إعتماده، وهو إنتقال أقطاب الحكم ورموز «اللوبي» السوري في المجتمع السياسي اللبناني واحداً تلو الآخر إلى دمشق؟

وما الذي كان يمنع تقادياً للحساسية أن تتم معاودة الإستنباط الناصري الشهير الذي حدث عام 1958، عندما إرتأى جمال عبد الناصر رئيس دولة الوحدة المصرية - السورية أن يلتقي برئيس لبنان الجنرال فؤاد شهاب داخل خيمة منصوبة على الحدود، نصفها على أرض سورية ونصفها الآخر على أرض لبنانية، وبذلك يبدو الأمر وكما لو أن عبد الناصر

كانت هنالك في الأفق إضاءات من شأن إنتظار سطوعها، خلق مناخات تشاركية وفكرية وسياسية متجددة.

لقد واجهت المملكة العربية السعودية بعد رحيل المؤسس الملك عبد العزيز تحديات ومشاكلات جاءت في معظمها من بعض الأشقاء. وكانت المعالجة لها في إستمرار على قاعدة العتب يسبق الغضب، والتحمل يسبق الرد بالمثل. لكن الجديد في المواجهة أن بعض الأصدقاء - الحلفاء بدأوا يثيرون غباراً يحجب الرؤية، ومنطلق نوايا ليست طيبة على الإطلاق. ويختار المرء وهو يتأمل بعمق في المشهد الراهن هل ان هنالك ما يشبه السيناريو بين الذين أساءوا التحليل وبين الذين ضلوا السبيل؟ أي بما معناه هل أن الإكثار من التنظيرات والمطالب كان بغرض تشجيع الضالين على ضلالهم، أو أن الضالين كانوا يمهدون الطريق للأصدقاء - الحلفاء لكي يثيروا الغبار الذي يحجب الرؤية، وسحب الملفات ملفاً بعد الآخر من أدراج يظن حافظوها أن لعبتهم ليست مرصودة وليست مكشوفة.

ومع أن المملكة إعتادت على أن تكون بإستمرار، تلك الصخرة التي تنكسر عليها محاولات التكدير، وبذلك اكتسبت مناعة كتلك التي تكتسبها الأبدان فلا تتمكن من إيزائها «الفيروسات» على أنواعها، إلا أن الأشهر الأحد عشر التي سبقت المناسبة الوطنية الزاهية لهذه السنة كانت من الشراسة بحيث أن مواجهة تداعياتها لم تكن سهلة، لكن مع ذلك رأينا الإعصار ينحسر ويتواصل البذل من أجل تمكين البنيان من مواجهة أعاصير أكثر قدرة على الزعزعة. وحدث ذلك من دون أن تغيب معاناة الأخ الفلسطيني عن خاطر السعودي، لأن معاناة جديدة على الخاصة بدأت وجاءت أشد هولاً مما إعتاد الكيان عليه، ونعني بذلك الحالة العراقية التي تشابكت الخيوط فيها، وإلى درجة بات من الصعب تقادي الكثير من الندوب والصدمات. كما لم تغب عن خاطر تقاليد أعمال الخير التي أساءت بعض الجيوب غير النزينة في الإدارة الأميركية مفهوماً ومنطقتاتها، وإعتبرتها مجرد تبرعات لـ «الإرهاب» مثل التبرع اليهودي التقليدي في ديار الشتات لدعم الكيان الصهيوني الذي إغتصب فلسطين، وجاءت الحكومة السعودية فحسمت الأمر في مثل هذا الصيف قبل سنتين، من خلال التوضيح بأن العمل الخيري في المملكة والمتجسد في عشرات

منها هو أن القوى التي تناصر لحد تجيز له القول إنه يمثل الأكثرية اللبنانية. فأقطاب الطوائف المسيحية معه وثلاثة أرباع الشيعة متمثلين بـ «حزب الله» وحركة «أمل» معه، وربع الطائفة السنية معه، والمؤسسة العسكرية معه وثالث الطائفة الدرزية معه. ولو كان غلاة التشدد الماروني معه بنسبة أكبر لما كانت لأصوات هذا الضجيج الدولي والرفض المسيحي المحلي أن تعلو. ومن المهم الأخذ في الإعتبار أن عنصرين بالغين الأهمية لعبا دوراً في عدم تفجر الأزمة. العنصر الأول يتمثل بتفهم رئيس الحكومة رفيق الحريري للأمر وإرتضائه التمديد، مع انه كان يستطيع في حال إستمرار إلى النهاية على موقفه الراض التمدد أن يُشعل الوضع السياسي إرتباكاً، وذلك لأن الطائفة السنية كانت ستبدو منقسمة ضد التمديد ومعه. أما العنصر الثاني فيتمثل في بقاء الزعيم الدرزي وليد جنبلاط معارضاً إلى النهاية مشروع التمديد، وبذلك لم يعد غلاة التشدد الماروني هم وحدهم في الضفة الضد، الأمر الذي يعطي المعارضة بُعداً فتوياً طائفيّاً.

أما الأمر الآخر فهو أن يستبق الرئيس إميل لحود لحظة الخطر الذي قد يحدث بلبنان وسوريا، فينأى عن ممارسة التمديد مكتفياً بأنه حصل عليه. وتبقى لهذه التأملات بقية أخيرة حول القناعة بما قسمه الدستور وحول مخاطر عدم القناعة... ونكاد نقول إنتساب الإستثناء الرئاسي اللبناني إلى القاعدة الجمهورية العربية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 14 سبتمبر (أيلول) 2004

* * *

السعودية: إنشغال البال..

على مستوى الأمة

يحل العيد الوطني السعودي لقلعة الصمود العربي والإسلامي، وقد بلغ انشغال البال على مستوى الأمة ذروته، ومن دون أن تقتصر العزيمة في وجه إعتلى التحديات من حلفاء أساءوا التقدير، فأمعنوا تنظيرات ومطالب تقتقر إلى بُعد النظر والموضوعة وتتعلق بالتراث والتقاليد والخصوصية، وأشرس المشاكسات من أفراد ضلوا الطريق، فأمعنوا تخريباً وإرهاباً في وقت

الجمعيات وسطاً وشرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، إنما هو تقليد له خصوصيته وأصالته وأنه «نتاج تضافر الجهود الحكومية والأهلية، وصولاً إلى تحقيق الهدف النبيل والغاية الأسمى...».

المتأمل في الكلام السعودي الرسمي بعد كل جلسة لمجلس الوزراء أو جلسة محادثات لزائر رسمي مع أولي الأمر، وكذلك الكلام الذي يتضمنه تصريح يتم الإدلاء به في مناسبة رسمية أو تقفدية، يلاحظ أن إنشغال البال لا يقتصر على الشأن المحلي، وإنما يتلازم مع الشأن العربي والشأن الإسلامي، وتأتي مفردات الكلام الصادر عن الملك فهد أو عن ولي العهد الأمير عبدالله أو عن الأمير سلطان، حتى عندما كان على السرير في المستشفى قبل بضعة أسابيع، وعن بقية حلقات أهل القرار في المملكة، تعكس حجم إنشغال البال السعودي بسبب المحنة العراقية والمحنة الفلسطينية والمحنة الدارفورية، وكذلك إنشغال البال على سوريا التي تتعرض للتحرش، ولبنان الذي يريد الأشرار إلحاق الأذى به. ويحدث ذلك من دون أن تستوقف المملكة أساليب ملتوية تأتي من بعض الأطراف التي تفتعل إرتباكات في الموقف تقود إلى أزمات.

ومع أن معاناة المملكة من عقم النظرة الأميركية كانت كبيرة، إلا أن الأسلوب الذي ما زال ساري التطبيق في ترويض هذا الصديق - الحليف المتقلب المزاج، بسبب هواه التصهيني، أفاد في إبقاء الآمال على فسحتها وبذلك لم يعد التعايش العربي - الأميركي ضيقاً. ولو أن غضباً حاداً بنسبة قليلة أصاب رد الفعل السعودي على الإفتراءات والتحرشات والإستفزازات التي حفلت بها الأشهر الأحد عشر السابقة للعيد الوطني، الذي يحل يوم الخميس المقبل، لكان الموقف تبدل ولقي الإرتياح من جانب المتحرشين والمفتريين، فأوقفوا تحرشاتهم وتنظيراتهم، وإنحسرت نتيجة ذلك عن صدور إحتقانات مقلقة، ناشئة عن إلتقاء حالات من الضلال المحلي مع حالات من التضليل الأجنبي.. وبصرف النظر عما إذا كان الإلتقاء حدث عن قصد أو عن غير قصد. لكن ذلك سيأتي على حساب تطلعات الأمتين إلى مملكتهم، وعلى حساب دورها كحارسة لقلعة الصمود العربي، بعد أن تراخت هم حراس كثيرين. وهي كما إعتاد عليها أبناء الأمتين حريصة على إستمرار التطلعات و متمسكة بواجب الحراسة. ويبقى أن إنشغال البال على مستوى الأمة الذي

نشير إليه هو أحد نقاط الصمود العربي. ولأنه كذلك، فإن ما يريده المتصهينون هو أن لا يعود إنشغال بال المملكة على هذا الإتساع والشمول، بحيث لا تعود مهمة بقضايا تخص الأمتين. وبذلك تتحقق الأغراض الشريفة ما دامت القلعة لم تعد محروسة، وبالتالي تسهل عملية الإنقضاض على الجميع. ولقد تأكد ذلك وإلى درجة اليقين عندما لم تتجاوب إسرائيل، معتمدة على المتصهينين في الإدارة الأميركية، مع الرؤية السعودية المتجددة، بعد مشروع الملك فهد في قمة فاس، للصراع العربي - الإسرائيلي، والتي إستقبلها بالترحيب الملوك والرؤساء في القمة العربية الدورية الثانية في بيروت، وتعاملوا معها من منطلق أن من يطرح المبادرة هو المنشغل البال بإخوته بقدر إنشغاله بنفسه، وأن في ذلك كل الضمانة والطمأنينة.

يبقى أيضاً أننا نتمنى أن تحل ذكرى اليوم الوطني بعد سنة، وقد اطمأنت المملكة إلى أن المضللين خسروا الرهان، وعليهم فتح صفحة جديدة مع الأصدقاء عرباً ومسلمين، لأن صفحة الحرب والإستهانة والإهانة والتدمير وإنتهاك أبدان الرجال وسيادات الأوطان، وحق الشعوب في ثرواتها وفي اختيار أنظمتها وأسلوب حياتها، وحرصها على معتقداتها وتراثها وخصوصيتها، يجب أن تطوى ليبدأ التدوين في صفحة جديدة خالية من الشوائب والشرور. كذلك نتمنى أن تحل المناسبة بعد عام وقد إكتشف الضالون أنهم ضحية المتلاعبين بمشاعرهم والعبث بعقولهم، وأن يعودوا عودة المخطئ عن خطئه، لأن عودتهم عندئذ تصبح من الفضائل. وفي إنتظار ذلك يبقى حارس القلعة في كامل اليقظة، ويبقى إنشغال البال على مستوى الأمة أكثر التزاماً. وفي ذلك ما يبعث الطمأنينة في النفوس العربية والإسلامية المتقلبة بالهموم، وبعضها حزينة حتى الموت أحياناً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 21 سبتمبر (أيلول) 2004

* * *

لبنان.. من رئيس الإستقلال..

إلى رئيس الانفجار

لو أن التروؤس بدل التروؤيس هو ما كان يُفترض حدوثه في لبنان، وجرت إنتخابات من دون إشراف

الأمم المتحدة، أو جهة دولية محايدة على سير العملية الانتخابية، وذلك لأن انتخاب رئيس الجمهورية في لبنان يتم من خلال أعضاء المجلس النيابي، وليس من أفراد الشعب، لكان رئيس لبنان حتى العام 2010 هو العاشر منذ أن نال لبنان إستقلاله عام 1943، وكان، لو حدث الترتيب بدل الرئيس، سيدشن مرحلة رئاسية جديدة يأتي بموجبها رئيس الجمهورية بفعل الإرادة اللبنانية مع هامش لعوامل وتأثيرات خارجية.

ولكل واحد من التسعة الذين ترأس بعضهم، وتم ترئيس البعض، تاريخ تحفل صفحاته بالكثير مما يقال عن ظروف وصوله أو مقتضيات توصيله إلى سدة الحكم، وعن أسلوبه في إدارة شؤون البلاد ومصالح العباد، وعن مفاهيمه وبرامجه ونقاط القوة والضعف في شخصيته. وما سنأتي على ذكره في هذه المقالة هو القليل من الكثير... أو فلنقل انه من نوع «ما قل ودل».

كان الشيخ بشارة الخوري الرئيس الأول في عهد الإستقلال ظاهرة لم تتكرر في الحياة السياسية اللبنانية.

ومن الضروري التوضيح بأن كلمة الشيخ هنا لا تعني أنه من رجال الدين المسلمين، لأن بشارة الخوري مسيحي ماروني، وإنما هو لقب وجاهة حمله العشرات من بعض أفراد العائلات المسيحية، يمثل ما يحمله كذلك في دول الخليج فقط العشرات من بعض أفراد العائلات المسلمة. ولذا فإننا في لبنان نجد من اسمه «الشيخ انطوان...» أو «الشيخ ميشال...».

وقبل أن يصبح رئيساً للجمهورية من 19 - 9 - 1952 كان قد عمل محامياً في مكتب للمحاماة صاحبه اميل اده، الذي سبق أن شغل هو الآخر منصب رئيس الجمهورية في عهد الإنتداب الفرنسي. ومن المفارقات التي تثير الدهشة أنه عندما رشح بشارة الخوري نفسه لرئاسة الجمهورية، وهو ابن العائلة المارونية الممنوحة لقب «الشيخ» تميزاً عن سائر القوم من الناحية الإجتماعية، فإن أكثر النواب الموارنة في البرلمان رشحوا من باب الكيد له المسلم السني الشيخ محمد الجسر، والد زميلنا الكاتب السياسي المتألق باسم الجسر، منافساً له. وبطبيعة الحال فإن اللعبة السياسية الكيدية لم تصل إلى نهايتها.

وبعدما كان اللبنانيون يشيدون بالسلوك السياسي لرئيسهم بشارة الخوري، مع التركيز على أن له الفضل

في إعادة الحياة البرلمانية إلى البلد، فإن الرجل إستعذب مسألة الترتيب فقرر بعدما كانت ولايته قاربت الإنتهاء التجديد، ونشأ عن ذلك تكاثر أفراد الحاشية الباحثين عن المكاسب السياسية والمال، الأمر الذي جعل أطراف المعارضة تتوحد في سرب واحد، وتخوض وتحت تسمية «الجبهة الوطنية الإشتراكية» بعد ثلاث سنوات من التجديد «ثورة بيضاء»، أجبرت بشارة الخوري على إستدعاء قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب، والطلب منه إدارة الدفة، ثم أعلن إستقالته بعدما كان قضى نصف مدة الولاية المجددة.

وبعدما بات رئيساً سابقاً معزولاً بفعل الإرادة الشعبية، عكف على كتابة مذكراته متعاوناً في ذلك مع المؤرخ يوسف إبراهيم يزيك الذي كان طالما روى لي الكثير عن الذين شغلوا المنصب الأول ترؤساً أو ترئيساً، عند تأليف كتابي المعنون «رؤساء لبنان من شارل حلو إلى شارل دباس»، وهو الأول يصدر في لبنان حول هذا الموضوع. ومن جملة ما رواه لي مؤرخنا الثقة أن غصّة الموافقة على التجديد، خلافاً لما ينص عليه الدستور، رافقت بشارة الخوري إلى القبر، وأن هذا الإنسان الذي وصل إلى سدة الحكم بشكل طبيعي، أي انه ترأس ولم يتم ترئيسه فرضاً من طرف غير لبناني، كان بعدما توفيت زوجته يذرف الدمع عليها، وأن مدبرة المنزل كانت تلاحظ دوام تبلل مخدته عندما تقوم بترتيب سريره.

بعد الشيخ بشارة وعزوف قائد الجيش فؤاد شهاب عن الإحتفاظ بمنصب رئيس الجمهورية، الذي كان من السهل عليه الإحتفاظ به إنسجاماً مع ظاهرة الانقلابات العسكرية، التي كانت بدأت تزدهر في سوريا، تم إنتخاب كميل شمعون رئيساً للجمهورية. وجاء إنتخابه بالإجماع وهو ما لم يحصل لبقية الذين تعاقبوا على منصب رئاسة الجمهورية في لبنان. وهذا الإجماع سببه أن حميد فرنجية الشخصية المارونية المتميزة تنازل لمصلحة شمعون إنسجاماً مع أجواء الوفاق الوطني و«الثورة البيضاء» على بشارة الخوري. ومع أن كميل شمعون كان من الحاذقين في فن التحالفات السياسية وبناء العلاقات العروبية، إلا أنه جنح نحو لعبة التحالفات على المستوى الإقليمي، وجاهر بالتحدي للمد الناصري فكانت الثورة عليه حمراء بعض الشيء، ونقيض الثورة على سلفه بشارة الخوري. وبعدما بات خارج الحلبة لم يتحمل كميل شمعون العزلة وإشغال وقته بالصيد وقراءة الشعر

الجاهلي، وكتابة بعض مراحل تجربته السياسية، وإرتضى أن يشغل منصباً وزارياً في مرحلة عاصفة، ثم ركناً في حلف مسيحي كثير الحدة ضد الفلسطينيين وسوريا وحلفائها في لبنان. لكن السنوات المضطربة التي شهدتها لبنان بعد إنتهاء ولايته التي إستمرت من 23 - 9 - 1952 إلى 22 - 9 - 1958، جعلت قطاعات كثيرة من اللبنانيين تشيد بالسنوات الأولى للولاية الشمعونية، والتي كانت سنوات بداية إزدهار في لبنان.

وبسبب التداعيات الناتجة عن الثورة على عهد الرئيس كميل شمعون، وكان بطريك الطائفة المارونية إلى جانب شخصيات مسيحية مرموقة كثيرة من بين المشاركين فيها مباشرة أو بشكل غير مباشر، تم إنتخاب قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية.. وهو ما لم يحصل عليه جنرال السودان الزاهد عبد الرحمن سوار الذهب الذي كان في إستطاعته الحصول عليه، لولا تغليب الزهد في المنصب الأول على الطمع بالحصول عليه ويكون ترؤسه موضع القبول. وكانت تلك المرة الأولى التي يتراًس فيها لبنان جنرال من الجيش.

ومنذ ترؤسه لم يعد فؤاد شهاب يظهر على الإطلاق بالزي العسكري، كما انه وضع حجر الأساس للإصلاح السياسي والمالي. ومع إنتهاء سنوات ولايته من 23 - 9 - 1958 إلى 23 - 9 - 1964 كان ما بات يعرف بـ «الشهابية» و«النهج الشهابي» قد تكرر. لكن تجاوزات من جانب أجهزة أمنية في الحكم الشهابي أوجدت حالة من الحذر في النفوس. ثم جاءت المحاولة الانقلابية التي قام بها «الحزب القومي السوري» بتسهيلات من بعض ضباط الجيش تجعل فؤاد شهاب كثير الرغبة في الإبتعاد عن الحكم، ومن دون أن تُجدي نفعاً محاولات بعض نواب البرلمان بإيحاءات من مركز القوة الأمني في عهده والمعروف بـ «المكتب الثاني» لإقناعه بتعديل الدستور بغرض تمديد ولايته الرئاسية. ثم غادر الحكم وعزل نفسه عن الناس، مكتفياً بالإرتياح لما حققه على صعيد التنمية وبناء الدولة وإستقلالية القرار، متباهياً بأنه حتى في أيام المد الناصري لم يتصرف بما من شأنه إلقاء الظلال على هيبة رئيس لبنان، ومن هنا جاء لقاءه بعبد الناصر رئيس دولة الوحدة المصرية - السورية في خيمة نُصبت في منطقة الحدود على جزء من الأرض اللبنانية وجزء من الأرض السورية.

وفي سنوات العزلة الشبيهة بعض الشيء بعزلة الجنرال الآخر شارل ديغول رمز الإصلاح في نادي الحكام من أصول جنرالية، إستمر فؤاد شهاب متمسكاً بعزة النفس، رافضاً أي أبهة مالية أو إجتماعية مواصلاً تدخين سجائر من صنع لبناني متحاشياً الإجتماع بمن يدخنون السيجار الذي كان تدخين صائب سلام له من جملة أسباب عدم الإنسجام بينهما، عندما شغل سلام منصب رئاسة الحكومة في العهد الشهابي. وبعدما توفي أمضت أرملته ما تبقى لها من العمر في عزلة مماثلة لعزلته ومن دون أن يؤنس شيخوختها أبناء أو بنات أو أحفاد لأنها لم تتجب.

بعد فؤاد شهاب إستعاد المدنيون الرئاسة الأولى، وأمضى شارل حلو ست سنوات من الإستقرار النسبي بدأت يوم 23 - 9 - 1964، وإنتهت يوم 23 - 9 - 1970. وإن كان العسكريون الذين فاجأهم كبيرهم فؤاد شهاب بقرار عدم التجديد أو التمديد، حاولوا إستضعاف العهد الجديد والإستفراد ببعض المواقع، فضلاً عن أن إزدهار الشأن الفلسطيني في لبنان جعل الأمور تتعقد والأوراق تختلط. ووجد شارل حلو نفسه، وتحت وطأة مسيطرة عبد الناصر، وكذلك بفعل صفقات محلية بين ضباط وسياسيين من جهة، وحركة فتح من جهة أخرى، يبرم إتفاقاً عُرف بإسم «إتفاق القاهرة» أجاز بموجبه للمقاومة الفلسطينية إعتبار مناطق شاسعة في جنوب البلاد أرضاً خاضعة لسيادتها. وتلك كانت خطيئة في نظر البعض أسست للحرب الأهلية التي إندلعت مع العام ما قبل الأخير للرئيس الخلف سليمان فرنجية، الذي تسلم الرئاسة من شارل حلو بينما لبنان مزدهم بالتناقضات التي تشكل وقوداً للإنفجار.

ومع أن سليمان فرنجية فاز بصوت واحد، هو صوته كونه عضواً في البرلمان، إلا أن العلاقة التي بينه وبين سوريا التي كان حافظ الأسد بات رجلها القوي ورئيسها الممسك بمقاليد الشانئين البعثي والعسكري، جعلته يقف على أرض صلبة ويدير شؤون البلاد طوال أربع سنوات بحنكة ما لبثت أن إنحسرت أمام هبوب الإعصار الجارف متمثلاً بواقعة إستهدفت «الأوتوبيس» الفلسطيني في منطقة معبأة بالغضب والكراهية لمن هو فلسطيني، وأدت إلى مقتل وجرح عشرات من ركاب «الأوتوبيس»، وبعد ذلك حدث الإنفجار الكبير وإندلعت الحرائق ودخل لبنان في نفق

الحرب الأهلية.

ولمسألة الترتيب والترؤس في لبنان بقية تتعلق بالسلوكيات وأخلاق أهل السياسة، موالين ومعارضين.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 28 سبتمبر (أيلول) 2004

* * *

من يدخل نادي الديناصورات

الخمس في مجلس الأمن؟

بعد 59 سنة من التجربة المريرة، بات لا بد من إعادة النظر في مسألة الدولة ذات العضوية الدائمة في مجلس الأمن، بحيث تتم زيادة عدد الأعضاء غير الدائمين، وإعتماد التصويت على مشاريع القرارات من قبل الجمعية العمومية. وإما يتم إسقاط هذا التمييز الذي تحتكره الدول الخمس، أميركا وروسيا والصين وبريطانيا وفرنسا، والمتمثل بحق النقض، أو ما باتت مألوفاً تسميته «الفيتو»، ويصبح التصويت وفق قاعدة الأكثرية، وإما كسر هذا الإحتكار بحيث تنتسب إلى هذا النادي المتميز الدولة التي يمكن، في حال الإبقاء على حق «الفيتو»، أن تستعمله هذه الدولة في كل مرة يكون فيها مشروع قانون ضد مصلحة العالم الثالث المستباحة حقوقه وقضاياه وبعض أنظمتها. وحتى مجرد إمتلاك هذه الدولة لهذا الحق سيكون مفيداً، حيث أن المندوب الأميركي في المجلس، لن يعود يرفع اليد في كل مرة يكون فيها مشروع قرار من شأنه أن ينصف الأمتين العربية والإسلامية، للإعلان بأنه سيستخدم «الفيتو» لإسقاط هذا المشروع. كما أن هذا المندوب لن يطمئن كما الحال دائماً طوال ربع قرن، إلى أن مشاريع القرارات التي يريدها، وهي عموماً تستهدف دول العالم الثالث وبالذات الدول العربية والإسلامية، ستلقى الموافقة ما دام ليس في مجلس الأمن من يمثل الأمتين، لكي يرفع اليد في وجه اليد الأخرى. ونحن عندما نحصر إلى حد ما الأمر بالأمتين، فلأن من شأن إستحضار مشاريع القرارات التي صدرت، إعطاء فكرة واضحة عما يحدث، وكيف أن مجلس الأمن الخماسي العضوية، إنما أنشئ لصد أي شكوى عربية - إسلامية ضد إسرائيل، ولإستصدار قرارات يتم فرضها بالقوة على الأمتين.

قبل حرب 5 يونيو (حزيران) 1967 لم تكن هنالك تطلعات عربية أو إسلامية من أجل الحصول على عضوية دائمة في مجلس الأمن، ذلك أن هنالك دولتين مهمتين هما الهند واليابان تسعيان إلى الحصول على العضوية، ثم تراجعت الأهمية التي للهند بفعل الاضطرابات الداخلية ومحاولات إشتعال الفتنة الإسلامية - الهندوسية بين الحين والآخر، فضلاً عن ظاهرة الإغتيال التي إقتحمت الميدان السياسي. وفي هذه الأثناء كان الشأن الياباني يزداد حضوراً في المحيط الدولي. لكن مع ذلك باءت المساعي اليابانية بالإخفاق، وذلك لأن الديناصورات الخمس، أي الدول الدائمة العضوية، إبتقت ضمناً على أن يكون ناديم مقلداً أمام الآخرين، وذلك لأن إنتساب عضو سادس سيصبح سابقة تؤسس لإنتساب عضو لاحق، وهذا لا يناسب الخمسة الكبار المتحكمين بمصائر الآخرين.

لكن الذي حدث عقب الهزيمة وإستصدار القرار 242، الذي قضى بإنسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي إحتلتها، وكيف أن هذا القرار لم يأخذ طريقه إلى التنفيذ، وأسس ما يجوز إعتبره لـ «امبراطورية العدوان» على العرب، ونقصد بها إسرائيل، هو أن بذرة التأمل في هذا التلاعب زُرعت في العقول، وساعد على نموها السريع أن الديناصورات الخمسة، لم تقرر مجتمعة إجبار إسرائيل على تنفيذ القرار المشار اليه، والذي في الأصل صدر من أجل حمايتها وضمان بقائها. ولم يقتصر الأمر عند هذا الإخفاق وإنما بات مجلس الأمن أسير الأمر الواقع الأميركي - الإسرائيلي بحيث لا مجال لأي قرار إدانة في حق إسرائيل مهما بلغ حجم عدوانها.

الآن وفي ضوء تجارب الماضي المريرة، بات لا بد من أجل أن تستقيم الأمور من عضو سادس في هذا النادي المتميز، خصوصاً أن الخلل في التكوين كبير من أكثر من زاوية. فعلى الصعيد الديني يبدو الإسلام غير حاضراً في النادي، على رغم أنه هو القضية الأساس. وعلى الصعيد القومي يبدو العرب غير حاضرين في النادي، على رغم أنهم محور الهم الدولي. وعلى الصعيد الإستراتيجي فإن الأمتين العربية والإسلامية مغيبتان عن النادي، على رغم أنهما ساحة الصراع الدولي. وعلى صعيد الثروة فإنهما من ضفاف الأطلسي إلى أعالي القوقاز مروراً بسهولة السودان وصحارى الخليج حافلتان بالثروات، ومع ذلك

هذا الشأن، تتخلله بشكل خجول مطالبة من جانب مصر، وبالذات بعدما أبرمت إتفاقية كامب ديفيد، بأن تكون العضوية الدائمة لها. هناك ماراثون في هذا الصدد، وفي ضوء ذلك، يصبح من حق المتابع المتأمل مثل حالنا، لهذا «الماراثون» الجديد من نوعه من أجل الفوز بعضوية دائمة في مجلس الأمن الدولي، أو فلنسمّه «مجلس الفيتو» أن نتساءل: ما الذي يمنع مؤسسات العمل الرسمي العربي والإسلامي متمثلة بـ «منظمة المؤتمر الإسلامي» و«الجامعة العربية» و«مجلس التعاون لدول الخليج العربية» و«الإتحاد المغاربي» و«الإتحاد الأفريقي»، من التشاور وتوحيد الموقف والتفاهم على أن من حق الأمتين العربية والإسلامية، من دون غيرهما أن تكون لهما عضوية دائمة في مجلس الأمن الدولي. وبعد التفاهم تكون المطالبة. أما من هي الدولة التي يمكن أن تشكل نقطة الالتقاء للأمتين، فإنها المملكة العربية السعودية. ذلك أنها دولة المقدرات، ودولة التوافقات، ودولة المساندات، والدولة الجسر بين العالم الغربي والعالمين العربي والإسلامي، والدولة التي تملك رؤية واضحة لعلاقة العرب والمسلمين مع دول العالم بكل أطرافه وقومياته، ورؤية أكثر وضوحاً للصراع العربي - الإسرائيلي، والدولة الأكثر قبولاً لدى الدول الكبرى، والدولة التي بينها وبين دول العالمين العربي والإسلامي، من لبنان إلى اندونيسيا، وأصر علاقة قائمة على التفهم. والأهم من هذا كله، هو أنها في مجلس الأمن لن تكون مجرد دولة دائمة العضوية، وإنما ستكون ذات حضور بغرض التصحيح وجعل سمعة هذا التجمع المتميز على غير السوء التي هي عليه منذ ثلاثة عقود، أي بما معناه يصبح المجلس الذي ينصف ويعُدل وليس «مجلس الفيتو»... من أجل أن يُضام العرب والمسلمون ولا تصاب إسرائيل بإدانة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 5 أكتوبر (ت) 2004

* * *

قضيتنا الضائعة بين أميركا الحمراء..

وأميركا الزرقاء

تستوقف المرء المتأمل في المشهد الأميركي على

لا أثر لهما في الوسط الدولي. وعلى الصعيد الحضاري فإن الحضارات في كل من الأمتين تشكل حالة إشعاع إلى جانب حضارات أخرى. ولقد إستأنفت الهند المحاولة، لكن باكستان إنتقضت غضباً وإعتراضاً، وسمعنا رئيسها برويز مشرف العسكري. المدني، يعلن معارضته لأي إنتساب جديد ربما من أجل ألا تحظى الجارة اللدودة الهند بحظوة العضوية الدائمة، وبذلك تفقد باكستان شأنها النووي، وربما لأن الجنرال يرى أنه إذا كان لا بد من تعديل في الوضع الراهن للعضوية، فإن باكستان هي الأولى بها، ذلك أنها الجدار الفاصل بين أفغانستان غير المحسوم أمرها والهند غير الواضح طموحها، وهل هو في اتجاه حلف الأكثرية البشرية المحتمل اطلاقه ويضم الصين والهند، وربما لأن الجنرال مشرف يرى أن من حق باكستان أن تكون العضو السادس ما دامت دولة نووية وما دام نادي الخمسة مقتصرًا على الأعضاء النوويين، وأنه في إنتظار أن تنضج فكرة الإنتساب وبحيث لا يكون هنالك من أصحاب «الفيتو» أو من أحدهم «فيتو» على الإنتساب، فإن خير ما يفعله هو معارضة فكرة الإنتساب بالمطلق، وهذا ما فعله.

في الوقت نفسه، هنالك توجه لدى أميركا الجنوبية يرى أن من حق هذه الدول أن تكون لإعتبارات تتعلق بالتوازن والأهمية، متمثلة بإحداها كعضو دائم في مجلس الأمن الدولي. لكن الغيرة في الصف اللاتيني تجعل الفوزولي يعتبر نفسه أكثر أحقية من البرازيلي، على رغم ان البرازيل كادت تكون العضو السادس عام 1945، وتجعل الأرجنتيني يقدّم نفسه كحل وسط فلا يلقي القبول الكافي من الآخرين. وما يحدث بدافع الغيرة في القارة اللاتينية نراه يحدث أيضاً بين الأوروبيين، الذين لا يقتنعون بأنهم ممثلون بعضوين في المجلس هما بريطانيا وفرنسا ويريدون أكثر، وتبدو ألمانيا هي الأكثر سعياً، لكن سعيها غير مشكور من جانب إيطاليا التي ترى أنها الأحق بالإنتساب. والإثنان تحاولان إقحام نفسيهما بغرض قطع الطريق على إنتساب من هو جدير بالإنتساب. أما من هو هذا الجدير فإنه العربي. المسلم على وجه التحديد.

ولكن من الدول العربية - المسلمة المستحوذة على المواصفات التي تؤهلها لهذه العضوية وبحيث تكون ممثلة المليار ونصف المليار عربي ومسلم في نادي الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن؟

كان هنالك نوع من السكون العربي والإسلامي في

الصعيدين الرسمي والشعبي، بعض المواقف التي تثير الدهشة، ومنها موقفان تصادف حدوثهما في يوم واحد، ويتعلقان بالتصهين الأميركي بحجة تنظيرات وإفتراسات تتصل بالكنيسة وتصب في مصلحة إسرائيل.

الموقف الأول لاحظناه في كلام الزعيم الديني اليميني الأميركي المتطرف بات روبرتسون، الذي يتزعم فرعاً أصولياً نافذاً في الكنيسة الانجيلية الأميركية، قاله في مؤتمر صحافي عقده في القدس المحتلة يوم الإثنين 4 أكتوبر (تشرين الأول) الجاري، على هامش زيارة يقوم بها إلى إسرائيل على رأس مجموعة من أربعة آلاف من جماعته، في نطاق حملة لدعم إسرائيل بمناسبة «عيد العرش» اليهودي، والمشاركة في مؤتمر سنوي للتضامن مع إسرائيل وقطعان المستوطنين، تقوم بها منظمة تابعة للكنيسة الانجيلية الأميركية وتحمل اسم «السفارة المسيحية».

وخلاصة ما قاله روبرتسون «إن الكنيسة الانجيلية تؤيد تماماً الرئيس بوش بسبب سياسته المؤيدة لإسرائيل، لكن إذا ما مس القدس وغدت نيته لتحويل شرقي المدينة إلى عاصمة لدولة فلسطينية امراً جدياً فإنه سيفقد تماماً دعمنا له. فهذه نقطة مركزية، فأنا سنا لا يعرفون الكثير عن غزة ولكن القدس موضوع آخر تماماً...». ثم يضيف هذا الأميركي المتصهين الكلام، مطالباً بإلغاء وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) بحجة أن وجودها «يؤدي دوراً نشطاً في إبقاء مشكلة اللاجئين»، رافضاً إقامة دولة فلسطينية «لأن إقامة هذه الدولة تُعرض السلامة الإقليمية لإسرائيل للخطر، وذلك يتعارض مع مشيئة الرب»، معتبراً أن «رب المسيحيين واليهود مختلف عن رب المسلمين...» ومشدداً على «وجوب قيام الأردن ومصر والسعودية بتوطين الثلاثة ملايين ونصف المليون فلسطيني الذين يعيشون في الضفة الغربية وقطاع غزة على أراضيها...»، معتبراً أن العرب لا يريدون السلام وإنما تدمير دولة إسرائيل وإن الدول العربية معنية بإبقاء الصراع مع إسرائيل وهي مسؤولة عن معاناة الفلسطينيين في قطاع غزة....

وجاء كلام الأميركي المتصهين هذا، المنتمي إلى كنيسة تضم بضعة ملايين في أميركا ومثلها في بعض دول أوروبا ودول العالم، بعد قيادته «صلاة دعم من أجل شعب إسرائيل» شارك فيها حوالي خمسة آلاف انجيلي وصلاة أخرى أمام «الكنيسة»، أي البرلمان

الإسرائيلي، حمل فيها بشدة على حركة «حماس» وسائر فصائل المقاومة ذات التوجه الإسلامي مبرراً موقفه بأنه «ليس مسألة سياسة وإنما هي مجرد خطة الرب ولأن المسيحيين واليهود لديهم تراث مشترك مختلف عن رب المسلمين...».

هل هذا كلام أناس عاقلين؟ وهل نتجنى على الحقيقة إذا نحن إعتبرنا أن هذا التيار هو طابور خامس يأخذ على عاتقه إظهار الدولة الأعظم أميركا بأنها مسلوقة القدرة على أن تكون متوازنة وأن الإدارة التي تتولى شؤونها أسيرة أطروحات حاخامية تصب في مصلحة الصهيونية؟

وتستبد بنا الخشية عندما نقرأ ما بين سطور أكاديمي أميركي، كلاماً يضع فيه الإصبع على الجرح تاركاً إنطباعاً بأنه على ما يبدو لا أمل يُرتجى من أميركا في ما يتعلق بالحل العادل والموقف النزيه من الموضوع الفلسطيني، والذي هو الجامع المشترك للهموم العربية - الإسلامية. وهذا الأكاديمي هو الدكتور جون واتربوري الذي يرأس الجامعة الأميركية في بيروت، والتي هي أحد ملاحح الحضور المرغوب عربياً وإسلامياً، الذي إفتتح في اليوم نفسه للسقطه التي سَجَلها الأميركي المتصهين روبرتسون في القدس المحتلة (أي الإثنين 4 أكتوبر 2004) بخطاب من تسع صفحات فولسكاب، بدا كما لو أنه مطالعة أو محاولة لتبرئة ذمته كمواطن أميركي مستنير يترأس إحدى أهم جامعات أميركا خارج أراضيها. وفي هذا الخطاب سمعناه يقول: «الولايات المتحدة مقسومة أميركتين: حمراء وزرقاء تعود جذورهما إلى الحرب الأهلية. الحمراء محافظة وشديدة التدين وإنعزالية وعسكرية ومعتمدة على الذات، ولديها القواعد العسكرية العديدة وصناعات الأسلحة والجنود. أما سيد البيت الأبيض (جورج بوش الابن) فإنه أحد أفراد الكنيسة المسيحية الانجيلية التي تنمو بشكل يصعب تصديقه. كما أن المدعي العام هو من أفراد هذه الكنيسة التي تؤيد إسرائيل بقوة، لأنها تعتبر وجودها تحقيقاً لنبوءة توراتية. أما أميركا الزرقاء (يقصد الحزب الديمقراطي) فإنها أكثر مدنية وصناعية وإشتراكية ليبرالية، وكانت موئل التظاهرات المناهضة لحرب فيتنام الطويلة. وأميركا الزرقاء تفتخر بجامعاتها العريقة من «هارفرد» إلى «بركلي» وتدعم حق المرأة في إختيارها الحفاظ على حملها أولاً، وتتسامح مع اللواط والسحاق وتؤمن بالاندماج العرقي، ويتوفير الضمان الصحي للجميع.

العربي - الإسرائيلي، وما أفرزه هذا الصراع من دمار ودماء وعدوان وإنتهاكات، كانت تجربة مريرة جعلت الكراهية لأميركا بثقل الجبال، وأن رؤية ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز التي أقرتها القمة الدورية الثانية في بيروت، وباتت مبادرة عربية بالإجماع هي خير الحلول للجميع... خصوصاً أنها تأخذ في الاعتبار ما سبق أن ورد في خاطر الملك عبد العزيز حول فلسطين والأطماع الصهيونية، وسجله في مذكرته الشهيرة المؤرخة 10 مارس (آذار) 1945 إلى الرئيس الأميركي روزفلت، وكانت أميركا في زمنه ليست على الإحمرار الجمهوري والزرقاء الديمقراطية التي باتت عليهما، ثم ما قاله الملك الغائب - الحاضر في رسالة إلى رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل وفي مقابلة صحافية مع مجلة «تايم» قبل ذلك بسنتين. وفي العودة إلى مضامين المذكرة والرسالة والمقابلة الصحافية الشهيرة من خلال كتاب «لسرة الليل هتف الصباح»، الذي هو سيرة نوعية موثقة للملك عبد العزيز كتبها الشيخ عبد العزيز التويجري، ما من شأنه أن يجعل العربي والمسلم يتخذ وقفة متهيبة أمام أميركا الحمراء وأميركا الزرقاء... في إنتظار أميركا الخضراء.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 12 أكتوبر (ت) 2004

* * *

بن لادن الطليق وإيران النووية: لغز مفهوم.. وآخر عسير الفهم

تزداد بعض الحالات المرسومة فوقها علامات إستفهام وتعجب كثيرة غموضاً، إلى درجة أنها باتت تكتسب صفة الألغاز التي من الصعب سبر تعقيداتها. وكلما أمعن المرء تأملاً في هذه الحالات إزداد يقيناً بأنها من الألغاز المستعصية، شأنها في ذلك شأن لغز العملية الترويعية يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001 في كل من نيويورك وواشنطن، والتي أفرزت غازاً صغيرة مثل لغز موجبات الحرب على أفغانستان والعراق، ولغز إستفراد الشارونيين بالشعب الفلسطيني ومواصله مطاردهم إلى مشارف الحدود مع مصر، ولغز السكون العربي على الإستهانة التي تتال من الهيبة العربية، ولغز الإستدارة القذافية من أعلى درجة في الميزان الثوري إلى أعلى درجة في ميزان القبول بالأمر

كما أن أميركا الزرقاء تشكك بالشركات الكبيرة وتقلق من الضرر البيئي الناجم عن نظام السوق، وترتاب في المؤسسة العسكرية وإرتباطاتها بالشركات الكبرى. وهي عالمية التوجه وتدعم سياسات التعاون مع الحلفاء وتدين التفرد في إتخاذ القرارات العدائية الأحادية بالتدخل العسكري في الخارج...».

ثم يخلص إلى القول: «إن الإختلاف ضئيل بين أميركا الحمراء وأميركا الزرقاء إزاء الصراع العربي - الإسرائيلي والإنتفاضة الثانية وقيادة عرفات وأسلوب شارون والمستوطنات الإسرائيلية والجدار. كما أنه ضئيل في ما يتعلق بغياب أي رؤية أميركية لحل نهائي تفاوضي. وسواء كان بوش أو كيري في البيت الأبيض فإن الولايات المتحدة لن تقدّم مشروعاً لسلام عادل ودائم في الشرق الأوسط بين إسرائيل وجيرانها. ومن هنا فإنه منذ بدء تعاظمي الولايات المتحدة مع الشرق منذ الحرب العالمية الأولى لم يكن شعور الشرق أوسطيين تجاه الولايات المتحدة بعدم الثقة والغضب والنفور عميقاً كما هو اليوم...».

في ضوء هذا الكلام من الأميركي الأكاديمي المتجرد الدكتور جون وارتبوري الذي خاطب جمعاً عربياً ناقماً وتحت سقف أميركي على أميركا، وكلام الأميركي المتصهين بات روبرتسون في القدس المحتلة والذي جاء على رأس وفد كبير يمثل الكنيسة الانجيلية التي ينتمي إليها الرئيس بوش الابن والذي إشتط، وهو الأميركي وبعدم بات على الارض الفلسطينية المحتلة من جانب إسرائيل، على مواطنه بوش الابن إستمرار الوقوف الى جانب إسرائيل ونبد فكرة الدولة الفلسطينية إذا كان يريد تأييده في الإنتخابات الرئاسية.

في ضوء الكلامين تبدو قضيتنا الأساسية مرشحة للضياع حقبة أخرى من الزمن بين أميركا الحمراء إذا تحققت المفاجأة الكبرى وفاز بوش الابن بولاية رئاسية ثانية، وأميركا الزرقاء إذا حدثت المفاجأة الأكبر وجاء الفوز من نصيب الديمقراطي جون كيري، مع تفاوت الحدة بين موقف الحمر وموقف الزرق. ولن تستقيم الأمور إلا في حال باتت أميركا الخضراء هي البديل، وهو أمر وارد وولادة محتملة من الرماد الفلسطيني والرماد العراقي لحزب ثالث يطمئن العالم، من القطب إلى القطب، بأن أميركا لا يمكن أن تكون أسيرة هرطقات من جانب متصهينين، وإنما هي الدولة الأعظم التي ترى أن تجربة التعامل من جانب أميركا الحمراء وأميركا الزرقاء طوال نصف قرن مع الصراع

كونه يصدر عن هذا الجنرال الذي يؤكد بذلك تعميق حالة بن لادن كأحد اللغزَيْن اللذين نكتب عنهما.

اللغز الثاني يتعلق بـ «إيران النووية». فهي تتوعد أو تُحذر أميركا وكما لو أنها باتت على مشارف أن تكون مثل كوريا الشمالية نووياً. وهي في الوقت نفسه ومن أجل إستكمال المرحلة الأخيرة من خطة العمل على أن تكون نووية مارست كل أنواع المرونة مع أميركا في الموضوع الأفغاني ومارست في الوقت نفسه «لعبة القاعدة»، حيث أنها شجعت بعض كوادِر تنظيم بن لادن على اللجوء إلى إيران تفادياً للوقوع في الأسر الأميركي وبذلك بدت منسجمة مع نفسها في أنها دولة ثورية تتأصب «الإستكبار البوشي» العداء، ثم فتحت خطوطاً مع أميركا لتسليم الكوادِر مقابل عدم التعرض لمنشآت مُفاعِل «بوشهر» وردع إسرائيل كي لا تقوم بغارة على هذه المنشآت على نحو ما فعلت مع منشآت صدام.

بعد ذلك إرتفعت وتيرة المرونة مقرونة بالتصريحات النارية وبالذات بعدما بدأت أميركا ومعها الدول الأوروبية أسلوب محاسبة إيران وفق الإجراءات التي في إستطاعة «الوكالة الدولية للطاقة الذرية» إتخاذها، توطئة لنقل الموضوع إلى مجلس الأمن حيث إتخاذ قرار بالعقوبات أمر على درجة من السهولة، ما دامت روسيا لن تتصلب وما دامت الصين لا تتدخل. وكان لافتاً على صعيد المرونة ان الحكم الإيراني إكتفى بالإرتعاش الذي أصابه من جراء ما فعلته القوات الأميركية بالمرقد المقدسة في كربلاء والنجف، ولم ينجح حتى في عقد القمة الإسلامية الإستثنائية التي دعا إليها الرئيس خاتمي مرتين، من دون أن يلقي التجاوب من أي دولة إسلامية حتى لعقد مؤتمر لوزراء الخارجية يكون بديلاً عن القمة. ولكي يغطي هذا الإخفاق أعلن عن تجربة صاروخ «شهاب 3» البعيد المدى ولجأ إلى التصريحات النارية ثم لاحظ الحكم الإيراني إنضمام «المزود النووي» أي روسيا فجأة إلى أميركا والدول الأوروبية في شأن المطالبة بتعليق جميع الأنشطة الإيرانية المرتبطة بتخصيب الأورانيوم، وبدأ الرأي العام الإيراني يعيش حالة إحباط وهواجس ناشئة عن إحتمال أن يصيب إيران في الحد الأقصى ما أصاب العراق الذي ماطل نظامه كثيراً في موضوع التفتيش على أسلحة الدمار الشامل، محققاً لأميركا الذرائع في أن تشن الحرب، أو أن تتعرض المنشآت النووية في الحد الأدنى إلى عملية تدمير إسرائيلية

الواقع المتأمر، ولغز الإنشغال الجمهوري بالتوريث في أكثر من بلد عربي وتقديمه على واجبات وموجبات الإنشغال بهموم الوطن، ولغز قدرة أكبر بلد إسلامي وهو أندونيسيا على ممارسة عملية الإنتخاب الرئاسي بأسلوب في منتهى الديمقراطية ومن دون أن تراق نقطة دم مواطن أو يُزج بالخصوم والمعترضين في السجون، بينما هنالك في دول أخرى من عالمنا العربي إنتخابات رئاسية خارجة على الأصول الديمقراطية بمعناها الموضوعي وليس بمعنى الأمر الواقع الذي يتسم بالزخرفة.

ومع أن اللغز الفروع ليست بسيطة، إلا أن ما يستوقف المرء في المشهد العام لغزان أولهما يتعلق بتنائي بن لادن - الزرقاوي الذي هَزَم شكلاً «رامبو» في عقر داره: الدار الأفغانية - الباكستانية والدار العراقية. ومن حق المتأمل في التطورات التي تحدث منذ سقوط نظام طالبان إلى تساقط نظام صدام أن يتساءل: هل من الطبيعي أن القوات الأميركية على هذا العجز، وهي التي تملك من وسائل التكنولوجيا والقوة العسكرية ما يجعلها قادرة على أن تُمسك بالهاربين أو المتهربين منها، حتى إذا كانوا وسط الأدغال أو مخبئين في الكهوف، وذلك على أساس أن لكل دغل وسيلة إختراق ولكل كهف وسيلة إقتحام ومن دون أن يتأذى المهاجمون، بينما في إستطاعة الرئيس اليمني علي عبدالله صالح الفتك برجل الدين الخارج على طاعة النظام بدر الدين الحوثي معلناً سيطرة «الثورة السبتمبرية» على «الثورة الحوثية»، وبعد صولات وجولات سالت نتيجة لها دماء كثيرة فوق جبال مران وفي مناطق وتخوم كثيرة في محافظة صعدة.. التي سبق أن شهدت في الزمن الثوري الناصري الغابر إنهاكاً للقوات المصرية؟

وما يلفت الإنتباه أن «الظاهرة الحوثية» لم تصمد، ليس فقط لأن ميزان القوة كان يميل لمصلحة النظام، وإنما لأن الرئيس علي عبدالله صالح إرتأى أن بقاء «الحوثي» على قيد الحياة لا يفيد فقره إنهاء ظاهريته خلاف ما إرتأه الرئيسان بوش ومشرف اللذان وجدان مصلحة في الإبقاء على ظاهرة بن لادن والزرقاوي والظواهري ماثلة في الأذهان، ومن أجل ذلك فإن معالجتها تتم في منأى عن الحسم والإكتفاء بتوضيحات وتصريحات من بينها ما قاله كبير جنرالات أميركا في كابول الأسبوع الماضي «إن بن لادن على الأرجح حي...» وهو كلام يثير التعجب

تغض أميركا بطبيعة الحال الطرف عنها وتعتبرها دفاعاً مشروعاً عن النفس.

وكان لافتاً كشف صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية عن هذه الصفقة يوم 2004/9/21 وكما لو أنه رد مباشر على صاروخ «شهاب 3» وعلى التوجه العام الذي لخص ملامحه بعد أربعة أيام (الجمعة 25 سبتمبر الماضي) وزير الدفاع الأميرال علي شمخاني بالقول «إننا زودنا جيشنا بصاروخ إستراتيجي وباتت إيران في ضوء ذلك تملك الآن وسائل فاعلة للدفاع عن نفسها في وجه جميع التهديدات سواء كانت صادرة من المنطقة أو من خارجها...». وتزامن مع كلام شمخاني كلام آخر لخطيب صلاة الجمعة في طهران محمد إمامي كاشاني جاء فيه مخاطباً الرئيس بوش: «إذا كنتم تفكرون في شيء يمكن أن يمنع الأمة والنظام الإيرانيين من إمتلاك التكنولوجيا والتقنية النووية، فسيكون عليكم مواجهة قبضة الأمة الإيرانية...».

وعندما بثت وسائل الإعلام العالمية يوم الأربعاء 29 سبتمبر الماضي تصريحات لرئيس الأركان الإسرائيلي شاول موفاز المولود في إيران مبدياً فيها العزم على المواجهة بعدما كانت إسرائيل حصلت على كل، أو بعض، الخمسة آلاف «قنبلة ذكية» من أميركا والقادرة على تدمير أشد التحصينات الاسمنتية صلابه، وقوله «إن كل الخيارات لمنع إمتلاك إيران إسـلـحـة نووية سيتم بحثها» بات لا بد من نقلة نوعية في الرد. ومن هنا جاء تصريح قائد حرس الثورة الجنرال يحيى رحيم صفوي يوم الخميس 30 سبتمبر الماضي الذي قال فيه: «إن إسرائيل غير قادرة على شن حرب على إيران عن بُعد. ومن جانبنا فإننا توصلنا إلى الإكتفاء الذاتي في الصناعة العسكرية خصوصاً ما يتعلق بالصواريخ المتوسطة والطويلة المدى وفي مجال الطيران وتكنولوجيا السفن الحربية وصنع الدبابات والمدافع...». وفي إطار النقلة النوعية أيضاً جاء كلام الرئيس السابق هاشمي رفسنجاني الذي يشغل منصب رئيس «مجمع تشخيص مصلحة النظام»، والمحملة عودته رئيساً للجمهورية خلفاً لخاتمي في حال أمكن تجاوز ثغرة السن كون رفسنجاني بات في السبعين من عمره، خلال مشاركته يوم الثلاثاء 5 أكتوبر الحالي في مؤتمر في طهران حول موضوع «الفضاء وإستقرار الأمن القومي» نظمته «مؤسسة أبحاث الجو والفضاء» الإيرانية. ومما قاله رفسنجاني: «إننا نملك

الآن القدرة على إطلاق صواريخنا إلى مدى ألفي كيلومتر. أن الولايات المتحدة والنظام الصهيوني هما أعداؤنا، إلا أنه نظراً إلى تجاربها السابقة فإن الولايات المتحدة تدرك أنها يجب ألا تقحم نفسها في نزاع خطير معنا. وإذا هاجم الأميركيون إيران فسيتغير العالم وهم لن يملكو الجرأة على إرتكاب خطأ من هذا القبيل...».

بعد هذه الإضاءات على الحالة المتعلقة بـ «معجزة» بن لادن في عدم تمكّن الدولة الأعظم وحليفها الباكستاني من العثور عليه بالمقارنة مع حالة الحوثي التي حسمها الرئيس علي عبد صالح، والحالة المتعلقة بـ «إيران النووية»، نجد أنفسنا نستنتج بأن إستراتيجية الدولة الأعظم لربع القرن المقبل، تتطلب على ما يبدو من جملة ما تتطلب، أن تبقى حالة بن لادن الطليق على حيويتها، وبحيث لا يُضام الرجل و«ظواهره» وبعض كوادر «قاعدته»، وتستكمل إيران طموحها النووي لأن وضع اليد على إيران نووية على نحو القبول بـ «باكستان نووية» يشكل مفصلاً مهماً في الإستراتيجية المشار إليها. وبدل ضرب منشآت مُفاعل «بو شهر» الذي اعلنت روسيا وإيران يوم الخميس الماضي الإنتهاء من بنائه وأن هنالك بعض الأعمال لم تنته بعد ومتعلقة بتجميع بعض معدات الأمن والتحكم، يتم ضرب النظام عن طريق رفع درجة «الخلعة» التي بدأت منذ سنتين من أجل أن يتساقط ويتربع المتأمركون على قمة السلطة في إيران النووية التي تخيف بها عندئذ أميركا الجيران القريبين والأصدقاء البعيدين والحالمين الأبعدين وبالذات روسيا. ومن هنا إعتبار حالة إيران النووية لغزاً عسير الفهم على البعض بينما حالة بن لادن باتت لغزاً مفهوماً... وأكثر من أي وقت مضى.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 19 أكتوبر (ت) 2004

إستقالة الحريري..

أضاعوه وأي فتى أضاعوا

في الوقت الذي تستعد مجموعة من النخبة الأميركية والأوروبية ومعهم بريطاني من أصل عربي لعقد خلوة بعد أيام في احد القصور القديمة في البندقية يتوجون فيها لقاءاتهم التشاورية الدائرة منذ خمسة أشهر

بالإعلان عن ولادة «لوبي» من نوع غير مطروق يستهدف ترميم العلاقات التي تزداد حذراً بين العرب والمسلمين من جهة والغرب المسيحي من أميركا إلى أوروبا من جهة أخرى، وهذا ما أفادنا به أحد أفراد هذه المجموعة... في هذا الوقت ينتهي عدم القراءة المتأنية من جانب الثنائي اللبناني - السوري للتطورات التي تحدث إلى خطوة صاعقة تمثلت بتعطيل كل المحاولات الجدية والمخلصة من جانب رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري لترميم العلاقات التي اضطربت كما لم تضطرب من قبل بين لبنان وسوريا من جهة وأميركا وفرنسا من جهة أخرى، والتي كان قرار مجلس الأمن 1559 هو الملمح غير المطمئن للإضطراب وفي الوقت نفسه الخطوة ما قبل فرض عقوبات إقتصادية ومالية في الحد الأدنى، وتدخل عسكرياً في الحد الأقصى. وجاء التعطيل الذي نشير إليه من خلال عدم تمكين الحريري من تشكيل حكومة كل اللبنانيين وهذا ما سعى إليه وسجل في سبيل ذلك تنازلات ربما يقرر ذات يوم الإفصاح عنها.

بداية نشير إلى أن فكرة «اللوبي» الذي سيأخذ على عاتقه ترميم العلاقات العربية - الإسلامية - الأميركية - الأوروبية نشأت نتيجة تداعيات الحرب على العراق، وفي فترة التحضير لهذه الحرب لم يتنبه كثيرون إلى شخصيات أميركية وبريطانية لها تأثيرها أو حضورها في إتخاذ القرار قرروا ترك مناصبهم المرموقة حتى بالنسبة إلى الإدارات الأمنية حيث لا يتم الكشف عن أسماء مترسبيها والمسؤولين عن المفاصل والأقسام الأساسية فيها. وكانت حجة هؤلاء أن الحرب ليست الحل وأنها ستتسبب في نشوء مشاعر بالغة الحدة من جانب العرب والمسلمين تجاه الغرب المسيحي، بل حتى أن الأمور قد تتطور مع الوقت وتتسبب في حروب دينية من القطب إلى القطب وبحيث أننا سنسمع عن مسلمين أو عرب قُتلوا على أيدي مسيحيين أميركان أو أوروبيين وبالعكس. وهذا وزر يجب عدم تحميله للأجيال المقبلة التي سيتحول أفرادها إما إلى ضحايا وإما إلى قتلة. ومثل هذه الرؤية لم ترق للفريق الذي كان إتخذ قرار الحرب. ونتيجة ذلك حدث فراق وإرتأى كثيرون من هؤلاء المعترضين على مبدأ الحرب كحل أن يتقاعدوا متحمليين مع أن بين معظمهم وسن النقاد أكثر من عشر سنين. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر من غادر المنصب إنما كوفئ على ثاقب رؤيته وذلك بمنحه لقب «سير». أما الذين عرف الناس

بموافقهم ومن بينهم الوزير العمالي المرموق روبن كوك الذي أثار الابتعاد عن المنصب الرسمي، وهو الذي كان من بين المرشحين لتولي زعامة الحزب وترؤس الحكومة بعد طوني بلير، فإنهم إرتضوا العزلة وراحة الضمير على البقاء في نظر الناس جناة على الأجيال. ولم يقتصر الأمر على بريطانيا وإنما حدث شيء مماثل في أميركا ووصلت الحال بوزير الخزانة بول اونيل إلى الإستقالة.

هذه الإستقالات سواء التي أمكن الكشف عنها وتلك التي لا يجوز الكشف عنها، عملاً بقاعدة السرية المطلقة أثناء الوظيفة، أحدثت نوعاً من الصحو. ثم حدثت تطورات ولقاءات ومشاورات ومناقشات إنتهت إلى «خلوة البندقية» التي سنتطرق إليها لاحقاً.

أما خلوة بيروت (مساء الأربعاء 20/10/2004) التي دامت خمس دقائق بين الرئيس الأول اميل لحود والرئيس الثالث رفيق الحريري وإنتهت ببيان إستقالة أشبه ببيان الوداع من جانب الحريري للمنصب، فإن هذا ما إستوقعنا اليوم. ومع أن هذا الإنصراف للرجل يبدو طبيعياً، في ضوء ما حدث له منذ اللحظة التي تقرر فيها التمديد ثلاث سنوات لرئيس الجمهورية إميل لحود، إلا أن حدوثه في هذه الظروف بالذات أغفل مخاطر التصدع الذي سيشهده لبنان والعلاقة اللبنانية - السورية مع العالم.

وهذا ليس كل شيء. فإحتمالات عمل عسكري إسرائيلي ضد «حزب الله» واردة في أي لحظة. وإحتمالات الفتنة السياسية ممكنة. وإحتمالات إفتراس الدولار لليرة اللبنانية ليست مستبعدة. وإضطراب فرص الإستثمار وطموحات المستثمرين من جانب الخليجيين عرضة لصدمة بالغة الخطورة.

ويتساءل اللبناني الذي إستقبل الحدث الذي كان يتمنى لو لم يحدث: لماذا يا أهل الحكم في لبنان وفي سوريا تفعلون بوطنكم وبخصوصية العلاقة هذا الذي تفعلونه. ولماذا لم تفقدوا بشيء من المرونة ونكران الذات والنأي عن الكيدية والثأر وطناً هو في لائحة الأوطان المستهدفة بقرارات من مجلس الأمن نوع القرار 1559 أو بقرار أشد ايذاءً للناس؟

وتأملوا يا قوم في هؤلاء الذين من أجل صحوه ضمير تركوا المنصب والجاه وإبتعدوا، ثم ها هم سيلتقون على ضفاف مياه البندقية للبحث في الترميم بينما أنتم هنا في لبنان وسوريا تمعنون تصديعاً بعدما أضعتم رجل دولة لا ثاني لقدراته وعلاقاته... تماماً مثل

أولئك الذين أوجز الشاعر العربي حالهم بقوله:
أضاعوه... وأي فتى أضاعوا.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الجمعة 22 أكتوبر (ت) 2004

* * *

مخاض الانتخابات الأميركية..

موعد مع ولادتين

سنة أيام ويكون «الماراثون الأميركي الرئاسي» وصل إلى نهايته، فإما أربع سنوات أخرى لـ «أصحاب الفيل»، أي الحزب الجمهوري الذي شعاره ذلك الحيوان الثقيلة وطأة حوافره، لأن الأميركيين استمروا مقتنعين بأن الرئيس بوش الابن هو من سينقذهم بحربه الإستباقية من مفاجآت إرهابية ربما تكون كيماوية أو بيولوجية أو نووية، على نحو ما إرتأى ديك تشيني نائب الرئيس والعقل المخطط له، أو نائب الرئيس شكلاً الرئيس كإرادة إتخاذ قرار، إبلاغه للشعب الأميركي قبل 12 يوماً من نهاية «الماراثون».. وإما أن تحدث المفاجأة بمثل حدوثها عام 1992 - 1993 عندما إستطاع أهل الحمار، أي الحزب الديمقراطي الذي شعاره ذلك الحيوان الصابر، من خلال سياسي مغمور إسمه بيل كلينتون إلحاق هزيمة تاريخية بالرئيس الواحد والأربعين للولايات المتحدة جورج بوش الأب العائد من حرب الغنائم المالية والنفطية الناشئة عن إعادة الكويت إلى أهلها من خاطفها العراقي. وفي حال تكررت المفاجأة فإن لعنة الحرب، التي لا مبرر لها، التي أصابت بوش الأب، فلم يتمكن من الفوز بولاية رئاسية ثانية، ستصيب بوش الابن وتكون الرئاسة من نصيب جون كيري، الذي يختلف عن كلينتون من حيث التاريخ العسكري والقدرة المالية والثقافة السياسية، وتنقصه الكاريزما التي كان يتصف بها كلينتون وشكلت عاملاً من عوامل تحقيق النصر المبهز على جورج بوش الأب.

في حال جاء الفوز بعد ستة أيام من نصيب أهل الفيل، فهذا معناه أننا على موعد مع أربع سنوات وصول ويجول فيها المتصهينون في مفاصل الإدارة الأميركية، محاولين إستكمال برنامجهم الذي عشنا طوال ثلاث سنوات وويلاته الناشئة عن مآسي حرب أفغانستان وحرب العراق وحرب شارون المتفرعة

عنهما، إلا إذا كانت الإدارة البوشية ستري أن عليها تسديد الديون إلى العرب والمسلمين والفلسطينيين بشكل خاص، وذلك بتنفيذ ما وعدت به في شأن الدولة الفلسطينية، وتهدة الصراعات التي إفتعلتها في العالم من القطب إلى القطب. وفي حال حدث ذلك، فإن أربع سنوات بوشية جديدة ستلقى المغفرة من أممي المليار ونصف المليار عربي ومسلم ومن أمم العالم قاطبة، ولن تعود الذاكرة مزحمة بالإساءات الناشئة عن السنوات الأربع الماضية. أما في حال جاء الفوز من نصيب أصحاب الحمار، فهذا معناه أننا أمام مرحلة جديدة من الإختبار للنوايا متفائلين خيراً بأن بعض طروحات جون كيري التي خاض على أساسها السباق الرئاسي ستأخذ طريقها إلى التنفيذ، وإن كنا في الوقت نفسه على درجة من الحذر إزاء إحتمال أن يأخذ التصهين في عهد الحزب الديمقراطي طريقه إلى التغلغل في شكل مختلف..

ومن هنا فإننا عندما ننتظر اللحظة الحاسمة بفارغ الصبر، ومن سيكون رئيس أميركا بعد 2 نوفمبر (تشرين الثاني) 2004، فإنظارنا ليس هو إنتظار وصول الرئيس الأميركي المنقذ. فكلاهما حتى ساعة الإختبار من نسيج واحد، وهنا وعلى سبيل المثال، فإذا كان هناك تعاطف إيراني مع بوش عبّر عنه حسن روحاني رئيس المجلس الأعلى للأمن القومي، المسؤول عن الملف النووي، فلأن الأذى كان كبيراً من جانب أميركا في عهد أهل الحمار، قبل ربع قرن يوم كان جيمي كارتر هو الرئيس، ثم الأذى من جانب الأصحاب أنفسهم يوم كان بيل كلينتون يتراأس، ومارست إدارته على الحكم الإيراني ضغوطاً بالغة الخشونة، أعقبتها بعقوبات إقتصادية هائلة. وهذان التفضيل إلى جانب تفضيل الرئيس الروسي فلاديمير بوتين لبقاء بوش في ولاية رئاسية ثانية، بحجة أن تحديثات الإرهابيين واحدة للرئيسين، من شأنها أن تدعم فوز بوش، وفي الوقت نفسه ستبدو مجدية لو أنها مقرونة بتعهدات من جانب بوش بأن يرد على الجمائل بالمثل، وتكون التعهدات مثل تلك التي تحصل عليها إسرائيل ولا ترتضيها.. إلا إذا كانت مكتوبة على الورق وتحمل التوقيع الذي لا مجال للتراجع عنه.

بعد اللحظة الحاسمة والنتيجة التي ينتهي إليها السباق، من مصالحتنا كأكثر الأطراف تضرراً من السياسة الأميركية النظر بجدية إلى لوبي انجلو - عربي، بات على أهبة الإعلان عن نفسه بعد إعلان

مشكلة قد تجد لها الحلول المناسبة من الجهات التي تريد مخرجة للاستقرار أن يسود، والحكمة أن تترسخ، وللازدهار أن يأخذ طريقه من دون معوقات، مؤسسات خاصة كانت هذه الجهات أو فعاليات مقتدرة مالياً، أو حتى حكومات تضيق ذرعاً بالإنحياز. وفي أي حال أن ما بعد 2 نوفمبر (تشرين الثاني) المقبل، سيشكل ولادة حالة دولية لم نعهدها من قبل وولادة لوبي دولي غير مألوف. عسى ولعل تكون الولادتان بعد المخاض العسير الذي إستمر ثلاث سنوات خطوة على طريق الأخذ بالمنطق عند تسيير الأمور... وبالحكمة عند إتخاذ القرارات المصيرية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 26 أكتوبر (ت) 2004

* * *

ورحل زايد.. شيخ الحكمة وعميد الإخضرار

حتى الذين لم يعرفوا الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان عن قرب يرون أنهم فقدوا رجل الدولة الذي كان يشعروهم بالطمأنينة في كل مرة تهب الإعصارات على الأمة من المحيط إلى الخليج. أما الذين تسنى لهم مثل حالنا معرفة هذا الشيخ الجليل والعفوية التي كانت تتساقب في كل مرة يتحدث فيها لمن حوله في مجلسه داخل أبوظبي أو خارجها، فإنهم يشعرون أن الأمة فقدت واحداً من حكماء هذا الزمان العربي الصعب، ويتذكرون كم من مرة حاول هذا الرجل إستنباط العلاج للمعضلات، وبالذات منذ أن وضعت إيران ظلماً يدها على الجزر الثلاث وبعدها لم ترفع الثورة الإسلامية اليد عن هذه الجزر وأمعنت عناداً في إحكام القبضة، ثم بعدما اقتترف صدام حسين أم الأخطاء واضعاً اليد على الجارة الشقيقة دولة الكويت، ثم بعدما وضع العالم من خلال مجلس الأمن شعب العراق في أقفاص الحصار الظالم.

كان الشيخ زايد في إستمرار مثل حارس القلعة المهددة بالغزاة الطامعين في إستباحتها. وكان مثل الطبيب مداوم طوال أربع وعشرين ساعة في مركز الطوارئ الطبي. وكان مثل رجل الإطفاء الذي لا يخشى الإقتحام من أجل إنقاذ أطفال أو «شباب» أو نساء أقعدهم الدخان والهبوب والخوف فلم يقووا على المغادرة.

نتائج الإنتخابات الأميركية، ويضم نخبة من الذين سبق أن مارسوا في بريطانيا وأميركا وبعض الدول الأوروبية مسؤوليات رسمية مهمة. ويخشى هؤلاء ولأسباب تتعلق بالسلوك غير الصحيح للحكومات ازاء العالمين العربي والإسلامي، فضلاً عن خوفهم من مآل هذا السلوك إلى تكريس الصراع الديني الإسلامي من جهة والمسيحي - اليهودي من جهة أخرى، أن تصل الأمور إلى حرب أهلية على مستوى العالم.

ويرى هذا اللوبي، ومنطلق تجربة أعضائه الحاليين أنه لا بد من ترميم سريع لعلاقات أميركا وبريطانيا بالعالمين العربي والإسلامي، أخذين في الإعتبار أن سوء الفهم ناشئ عن عدم فهم متبادل لعوامل تتصل بالدين واللغة والثقافة والتقاليد، وأن المشكلة في نظرهم تكمن في الوسطاء، ومن هنا فإن اللوبي يرى إستبعاد أن يكون الوسيط أو (الميدل مان) بالتعبير الإنكليزي من هواة المتاجرة بالسلاح وبالنفط وبالرقيق السياسي، وإنما يكون من القادرين على التوفيق. وهم يرون أنفسهم على هذه المقدرة لإقتناعهم بأهمية التوفيق من جهة، ولتجربتهم العريقة في ميدان العمل الرسمي من جهة أخرى. ومن هنا فإن ميثاق هذا اللوبي يرى أن الإنحياز إلى جانب طرف ضد آخر مرفوض، كما أن تبرير محاربة طرف لطرف آخر مرفوضة أيضاً. وكأما يريد هؤلاء القول إنهم عندما إستقالوا من مناصبهم قبل أن تبدأ الحرب، ثم بعدما بدأت، فإنما إستقالوا لأن المراجع الرسمية على مستوى القمة لم تأخذ بالرأي القائل إن الحوار يبقى هو الأفضل حتى إذا طال وتعددت المحاولات. وهي نظرة منسجمة وربما متأثرة بوجهة نظر السعودية التي إستمرت حتى اللحظة الأخيرة تتمنى وتناشد وعلى كافة المستويات الأخذ بالحوار، بدل ترك الأمر للصواريخ والجنرالات. كما أنها بالنسبة إلى الصراع العربي - الإسرائيلي منسجمة مع رؤية ولي العهد الأمير عبدالله بن عبد العزيز التي باتت مبادرة عربية بالإجماع.

وفي تقديرنا أن هذا اللوبي سينمو بسرعة، وسيشكل مع الوقت ما يجوز إعتباره رديفاً لمنظمة الأمم المتحدة، كونه سيعظم نخباً من كافة دول العالم، مع فارق أن المنظمة الدولية أخفقت لأنها إنتهت منحازة وتحت سيطرة الدولة الاعظم أميركا بالتراضي مع الدول الاربع الأخرى الأقل عظمة، وهي الصين وروسيا وبريطانيا وفرنسا. لكن مشكلة إستقلالية وفعالية هذا اللوبي ستكون متصلة بالقدرة المالية. وهي

وهذه الأبيات التي كان مضمونها يتردد على لسان الشيخ زايد بأبيات مشابهة من الشعر النبطي هي ما كان يرى أن تكون محور العلاقة بين أبناء الأمة حكماً ومحكومين.

ويبقى أن الشيخ الحكيم سبق غيره في موضوع البيئة ورأى مخاطر التلوث من قبل أن يتكاثر الحديث عن مخاطر ثقب «الأوزون» ومن أجل ذلك طبق بصدق ما لم يستطع عبد الناصر تطبيقه متمثلاً بحجرة عبد الحليم حافظ يغني «نفوس على الصحراء تخضر». وإذا جاز القول فإن عميد الإخضرار الذي حوّل الصحراء إلى بقاع خضراء على مدى النظر رحل وفي القلب الكثير من الأسى لأن حلمه كشيخ للحكمة، في جمع الشمل على كلمة سواء، لم يتحقق على نحو ما كان يريد وإستمر يسعى من أجله وهو في حالة التأهب.. حتى عندما لم يعد يقوى على السير دون أن يتكئ على عصاه.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 3 نوفمبر (ت) 2004

* * *

من المحيط إلى الخليج.. مشهد أميركي عاصف.. و4 سنوات عجاف

في أيام متقاربة يرحل عن 86 سنة رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، الذي سيذكره تاريخ المنطقة على أنه صاحب مدرسة غير مسبوقة، في إدارة شؤون البلاد والعباد. وأنه بذل المستطاع من أجل ألا يصبح الخليج مقراً وممرّاً للعم سام، في شخص إدارة الرئيس بوش الابن، داعياً إلى الحوار بالحسنى كما حاله طوال ثلاثة عقود شاهانية وخمينية مع إيران...

ويسوء الوضع الصحي للرئيس الفلسطيني ياسر عرفات ابن الخامسة والسبعين، نتيجة إشتراكات في البدن الذي أرهقه الحصار، وربما نتيجة عملية تسميم أفضل الله مفعولها، يتم نقل «الختيار» إلى مستشفى تخصصي في باريس بمبادرة محفوظة في الوجدان الفلسطيني، للعلاج الذي ربما سيستغرق شهراً على حد توقعات بعض زوار «أبو عمار»، بينما إسرائيل تتحدث عن الوفاة في أي لحظة.. وبذلك تتلاشى همة الرئيس الفلسطيني في الصمود وتتحقق الرغبة

وقد لا يتسع المجال أمام الأسى من جهة وأمام النبأ المباغت عن الرحيل لذكر الوقائع التي تؤكد ما نقوله عن الشيخ زايد، لكن تحضرنا هنا واقعة محاولته الأخيرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه متمثلاً في مبادرته التي كانت ربما تغني العراقيين عذاب نار الحرب لو أن رئيسهم إرتضاها وتعامل معها بغير أسلوب المكابرة وما إرتآه رحمة الله عليه هو أن يستضاف صدام وأسرتة ورهط من الذين يريدونهم في دولة الإمارات وبذلك لا تنطق المدافع البوشية صواريخ ماحقة جعلت العراق لبناناً آخر.. وهو ما كان يخشاه بإستمرار الشيخ زايد ويقول أمامنا ما معناه: يا ولينا في هذه الأمة إذا أصاب أقطارها دولة بعد أخرى ما أصاب العراق. وفي كلامه هذا كان واعياً لما حدث ولما يمكن أن يحدث ولما ربما سيحدث. ولقد حدث.

في ساعة الشدة التي تعقب المحنة كان الشيخ زايد دائم الحضور. هكذا مع مصر بعد هزيمة 1967. وهكذا في مرحلة إعادة بناء ما فعلته صواريخ موشي دايان في مناطق عدة من مصر. وهكذا محاولاً إطفاء مشاعر الحدة الصدامية - البكرية عندما قررت القمة العربية الإستثنائية في بغداد إسقاط عضوية مصر. وهكذا بعدما تسلم حسني مبارك مقاليد الرئاسة. وهكذا مع لبنان ومع السودان الذي طالما رأى فيه أرض الخير بعد أن يتلاشى الإنكال على ثروة النفط العابرة. وهكذا مع الفلسطينيين يرد على التدمير ببناء البيوت وعلى التجريف بالمساعدة الفورية وعلى إمعان أرييل شارون في العدوان ومنع المصابين من التداوي ببناء المزيد من المراكز الصحية. وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

ومع أنه ليس وحده في كوكبة من هو حاضراً لنجدة الأخ في ساعة الشدة إلا أنه في أي حال في الصف الأول إلى جانب المنجد التقليدي المملكة العربية السعودية.

هل هو الحس القومي الذي يجعل هذه الشوائب تنشط في شخصه، وهل هي نظرته إلى العروبة والعمل العربي المشترك، أم أن الأمر هو الأريحية الوطنية التي تتجسد في النفس والتي يلخصها قول الشاعر مع بعض التعديل:

وإن الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

الشارونية - البوشية في إنصراف الرجل عن ساحة القرار الفلسطيني، وعندئذ تسهل خطط الإنقضاء على القرار...

ويحتدم الصراع في الولايات المتحدة على البيت الأبيض بين الرئيس الجمهوري جورج بوش الابن الذي هو في الثامنة والخمسين وبين المرشح الديمقراطي الستيني السناتور جون كيري، وتقتصر المبارزة على حزبي «الفيل» و«الحمار» فقط مع أن في الولايات المتحدة 360 حزباً، لكنها من نوع الأحزاب الكثيرة في مصر ولبنان وبوش والعراق والسودان وفلسطين وغيرها.. مجرد ديكور في المشهد الحزبي...

ويتواصل الانتظار اللبناني - السوري لمعرفة ما ستكون عليه الأحوال مع الإدارة الأميركية المتجددة بفوز الرئيس بوش وإخفاق الحزب الديمقراطي في إستعادة الرئاسة من الحزب الجمهوري والتي كانت في إنتخابات العام 2000 محسومة لمرشحه آل غور، ثم حدثت صفقة ليست عصية على الفهم بعد الذي مارسه ارييل شارون بتأييد من المتصهينين في الإدارة البوشية، وبات الثنائي الجمهوري بوش الابن - ديك تشيني متسيداً على المقادير الأميركية وإلى حد ما العربية في أكثر من موقع...

كذلك يتواصل الانتظار المصري لحسم مسألة التغيير الذي يتزايد الكلام في شأنه منذ سنتين في اتجاه التوريث، وبحيث يصبح جمال حسني مبارك في مصر رمزاً لإستمرارية الحقبة الطويلة من حكم والده، أو يقرر الرئيس المصري جعل الولاية الرئاسية الجديدة له بعد بضعة أشهر خاتمة لتلك الحقبة وفتح الباب أمام سباق على الرئاسة لا قيود عليه...

كذلك ينتظر السودانيون نظاماً وشعباً.. إنقاذيين ومتمردين.. ختميين وأنصارين.. شيوخيين وإسلاميين.. جنوبيين ودارفوريين وشماليين وغربيين، بفارغ الصبر ما ستقرره الإدارة الأميركية المتجددة بحيث لا تبقى قضية بلد المليون ميل مربع عالقة وقابلة للإلتهاج في أي لحظة...

وأما اهل العراق الغارق في الدم والتدمير والقتل والخطف والتفخيخ والإغتيال، فإنهم على حيرتهم تستبد بهم الخشية من الولاية المتجددة، بقدر ما إستبدت الخشية من الولاية الجديدة لو أن الفوز حالف جون كيري. فالمتجدد في نظرهم سيزداد شراسة، والجديد في النظر نفسه سيزداد تسويفاً وارتباكاً، وهم يريدون الخلاص بمثل حال إخوانهم اللبنانيين قبل أن تمتد

إلهم اليد السعودية وتشجعهم على التوافق وإستعادة الوطن والشرعية من خلال إتفاق الطائف...

والمغاربة من تونس التي إستبقت الحدث الأميركي ببضعة ايام وجددت لرئيسها ولاية رابعة تنتهي في العام 2010، إلى المغرب المترقب حتى بعد طول تحريض، وليبيا المنتظرة بعد كثرة تساهل، والجزائر المتحفزة بعد طول رهان، وموريتانيا المتباعدة بعد صفقة يشاركون المشاركة وبالأذات أهل الأردن الحائر قلقاً عميقاً.

ويبقى أهل الخليج الذين وضعتهم البوشية إبناً عن أب في الخيار الصعب امام الرئاسة المتجددة وفي الخيار الأصعب امام الرئاسة الجديدة لو كُتب الفوز للديمقراطيين. ففي الحالتين تبدو هذه الإدارة فاعرة الفاه تريد أن يكون الخليج الحل والكنز لوضعها المالي، الذي ليس بعيداً عن حافة الإفلاس بعدما تبين لها أن حال العراق مثل مغارة علي بابا التي نهبها النهابون. وهي من أجل تحقيق المأرب تمارس الضغوط والتحويل وتحذير الرعايا في إستمرار من السفر أو الإختلاط بالناس.

وحدها إسرائيل بين دول المنطقة بقيت مطمئنة منذ اللحظة الأولى وحتى اللحظة الأخيرة. فموجب أصول لعبتها السياسية، وبالأذات في زمن إنتخابات الرئاسة الأميركية، تضع المرشح الديمقراطي في الجيب الأيمن وتضع المرشح الجمهوري في الجيب الأيسر. وعلى هذا الأساس فإنها لم تترقب وهي قلقة نتائج الفرز ومن سيكون الفائز. فالمتنافسان دائماً إما الأول معها وإما الثاني ليس عليها.. أو بالعكس.

أما دول العالم حكومات وشعوباً فإنها وللمرة الأولى إعتبرت نفسها معنية بالسباق الأميركي، وربما لأن السنوات الأربع البوشية كانت عاصفة وإلى درجة أن شظايا التداعيات الناشئة عن الهيمنة الأميركية لم تترك اياً من هذه الدول يَسلم منها.. مع الفارق بأن الشظايا تنوعت وبحيث أن من لم يتضرر من الشظية الأكبر تضرر من الشظية الكبرى. وبذلك تعددت الشظايا والضرر واحد.

ما يعيننا كعرب هو أن خطوط البوشيين كانت سالكة إلينا كتدخلات أو كحروب أو كتهويلات أو كعود براقة شكلاً زائفة مضموناً، وأن خطوطنا مع الطرف الديمقراطي كانت غير سالكة على الإطلاق. ومن أجل ذلك لم يسجل هذا الطرف وقفة نزيهة واعدة معنا، لكي نتأسى ونواسي في لحظة محاسبة النفس.

عرفات اللبناني... ولبنان العرفاتي

أمضى الرئيس ياسر عرفات سنتين في «دولته» اللبنانية في حي «الفاكهاني»، يطرق بابه كل رجال السياسة، بصرف النظر عن يمارسها أو عن يطمح إليها ويحتاج الحصول إليها على رضى خاطر أبو عمار.

كان عرفات في لبنان، منذ أن وطأت أقدام الثورة الفلسطينية الأرض اللبنانية، واحداً من أهم رموز القرار اللبناني. فهو استقر به المقام بعدما احتضنه عبد الناصر وقدمه إلى زعماء الكرملين كرمز للثورة الفلسطينية التي كانت بدأت. ثم حظي بما لم يخطر في البال عندما إرتضى الرئيس شارل حلو إبرام إتفاق يجيز للمقاومين الفلسطينيين أن تكون لهم «أرضهم» في جنوب لبنان. وبموجب «إتفاق القاهرة» بات الفلسطينيون يتصرفون على أساس أنهم أصحاب حق مكتسب في الأرض. أي في السيادة، وتلك كانت الخطيئة الأولى في مسيرة العمل الفلسطيني في لبنان.

وبعدما بايع العرب، وعلى مستوى القمة، عرفات بالزعامة المطلقة من خلال إعتبار «منظمة التحرير الفلسطينية» الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، فإن الرجل رَحَلَ بمقاوميه وصواريهم ومدافعهم الى لبنان المستضعف المرفوض شعاره بأنه قوي في ضعفه، وبات إذا جاز التصنيف، الرئيس الرابع في لبنان بعد الرئيس الأول الذي هو رئيس الجمهورية، ثم الرئيس الثاني الذي هو رئيس مجلس النواب، ثم الرئيس الثالث الذي هو رئيس الحكومة. والذين عاشوا مثل حالي تلك المرحلة، وكانوا على مسافة قريبة جداً من القرار الفلسطيني ومن السلوك العرفاتي، يتذكرون كيف أن ياسر عرفات كان في استمرار محور تشاور الرئاسة الثلاث. ويتذكرون أيضاً كيف انه عندما قرر رشيد كرامي رئيس الحكومة عام 1975، وهو شقيق رئيس الحكومة الجديد عمر كرامي، الإعتصام في سراي الحكومة إحتجاجاً على عدم التجاوب مع نداءاته لوقف التصعيد الذي يزيد نار الحرب التي كانت بدأت إشتعالاً، فإن ياسر عرفات كان أحد الذين يستند بهم الرئيس المعتمَص من أجل مساعدته في تحقيق الموقف الأكثر تماسكاً.

وما كان يفعل عرفات جعله يصبح في نظر اللبنانيين وكأنما هو الخصم والحكم، وهو السند والسبب، وهو الحل والصراع، وهو الماء والنار، وهو البندقية وغصن

ومن هنا فإن ما لم نفعله كعرب وكمسلمين في الماضي من الواجب القيام به مستقبلاً، وبحيث تكون خطوطنا سالكة مع أطراف السباق إلى البيت الأبيض، ففي ذلك ما يتيح المجال لنا كي نصبح مؤثرين في اللعبة، وبمثل التأثير اليهودي الذي هو قوي لعدة عوامل من بينها إننا غائبون في صيغة التغيب.

خلاصة الأمر أننا في علاقتنا مع أميركا المتجددة بعد الفوز البوشي المُبهر على موعد مع أربع سنوات عجاف، أو أعجف على أساس أن الأربع المنقضية كانت هي العجاف... إلا إذا إنشغلت أميركا بنفسها بعدما أكدت جولات السباق الرئاسي وما حفلت به من مفردات وأساليب كيدية وسوقية، أن الإنقسام في الصف الأميركي بات قريب الشبه من الإنقسام في الصف العربي، وأن ما قالته صحيفة «نيويورك تايمز» قبل ستة عشر يوماً من الإنتخاب، وفي معرض إعلانها الجريء بتفضيل جون كيري على جورج بوش الابن، كان إشارة من طرف خفي إلى ما في طيات الأيام الآتية من مفاجآت غير سارة. ومما قالته هذه الصحيفة ذات التأثير وتبعتهما صحف أخرى مهمة وأقل أهمية (113 صحيفة مع كيري و71 صحيفة مع بوش) ان ولاية بوش كانت «كارثية» مضيفة الآتي: «إن جون كيري مسؤول تنفيذي أول عظيم مستعد لإعادة تقييم قراراته عندما تتغير الظروف، ولأنه يدهشنا قبل كل شيء كرجل ذي جوهر أخلاقي قوي. ونعتقد أنه مع تولي جون كيري للرئاسة سيكون أداء الأمة أفضل...».

ويبقى سؤال: هل أن العالم بعد الآن سيكون على أبواب حرب عالمية، أم ان الولاية الرئاسية المتجددة للشئائي الجمهوري بوش الابن - ديك تشيني وفوزه المثير أمام الشئائي الديمقراطي جون كيري - جون ادواردز، وبعد أطول مبارزة ظهرت فيها النيوب وتنوعت المكائد والدسائس والإتهامات الشخصية والعامة، ستنقل العالم إلى نعيم الإستقرار من جحيم الهيمنة واللهجة اليمينية المتصهينة. والجواب لن يكون على جانب من الوضوح قبل بضعة أشهر من إختبار النوايا... وبعد وضع الممارسات البوشية الأولية في الولاية الرئاسية الثانية تحت المجهر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 9 نوفمبر (ت) 2004

* * *

الزيتون. ومن دون أن يدري بات عرفات نتيجة ذلك في نظر أصحاب الدور السوري مبعوضاً ثم مرفوضاً ثم لا بد من تحجيمه، وإلا فإن الدور سيصطدم بإرتباكات وتعقيدات. وبدل أن يقرأ عرفات النظرة السورية ويتصرف على طريقته المعروفة عنه، وهي حرصه على عدم قطع شعرة معاوية مع أحد، فإنه قطعها مع الحكم السوري من خلال صدامات ومواجهات لم تقتصر على سقوط بضعة ألوف من القتلى والجرحى من الجانبين السوري والفلسطيني، وبينها بضعة ألوف من القتلى والجرحى اللبنانيين، وإنما وُضعت الزعامة العرفاتية في جدول الأطراف التي أُنعت رؤوسها وحنان قطافها. وعندما حانت الفرصة المناسبة وتبعثر الصف «الوطني والتقدمي»، الذي كان كمال جنبلاط مبتكره وراعيه وعزّابه، فإن ياسر عرفات لم يجد بعد الإجتياح الإسرائيلي للبنان من ينصره. بل حتى لم يجد المودعين الذين يلوحون له على أرصفة الميناء راحلاً مع مقاتليه إلى الملاذ اليوناني، مسجلاً بذلك قطيعة ما زالت إلى الآن متواصلة مع سوريا الأسد الابن بعد سوريا الأسد الأب لأنه إختار ميناء أثينا مرسى لباخرة الرحيل بدل ميناء اللاذقية الأقرب، وإن كانت تحدث بين الحين والآخر محاولات خجولة لرأب الصدع.

في غربته القسرية عن لبنان و«دولة الفاكهاني»، التي كانت عرينه ورمز عنفوانه وسلطانته، أمضى عرفات سنوات من العذاب النفسي الممزوج بوطأة الحنين إلى الشأن الذي كان عليه في لبنان. وعندما زلّ به اللسان قائلاً انه كانت له دولة في لبنان وبالتالي فإنه قادر على أن يترأس دولة في فلسطين، لم يكن أبو عمار في حالة التوازن المأمولة منه، خصوصاً أن «زلة اللسان» تلك، جعلت حتى أكثر اللبنانيين تعاطفاً مع محنة أبو عمار، يأخذون عليه كلامه هذا. وعندما لم يعتذر ولو لدوافع مصلحة وليس من باب الاقتناع والأخذ بقاعدة النقد الذاتي لتصحيح الشوائب، فإن بقايا تعاطف تطايرت في الهواء، وذلك لأن اللبنانيين يتطلعون إلى من يراعي مشاعرهم.

لقد أغنى عرفات بعض الأطراف اللبنانية وأمدّهم بجزء من المال العربي الذي كان يحصل عليه كمساعدات من أجل أن تبقى القضية التي هو رمزها على قيد الحياة. إلا أنه في الوقت نفسه مارس خلال وجوده في لبنان من الأساليب وأجاز بعض التصرفات وكان وراء بعض المناورات، ما جعل القضية تريح

وقد يقال إن المحنة كبيرة، وأن الرجل كان يحمل هموماً بقل الجبال. وانه منذ أن أصابته تورمات موجعة في دماغه نشأت عن حادثة سقوط طائرته في صحراء ليبيا، ثم بعدما إنتهى في الأسر الشاروني، بات يرى أن على الآخرين أن يتقهموا ظروفه ويغفروا له ما إقترفته قراراته وزلات لسانه، ويمدوا إليه السواعد التي تحقق قيام الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس. وهو من أجل ذلك إرتضى ذل الأسر على نعيم المنفى والإستضافة الرئاسية في مصر أو تونس على نحو ما جرت محاولات كثيرة في هذا الشأن بغرض عدم كسر قرار بوش - شارون بعدم التعامل معه من أجل إسقاطه كرمز للشرعية الفلسطينية وبذلك يسهل التلاعب بما تبقى من القضية ولا يعود «شعب الجبارين» قادراً على أن يفعل شيئاً.. ولا حتى ينتفض. لكن هؤلاء سيكتشفون، بعد غياب عرفات أن التسويات التي لها شكل الصفقة لا يمكن أن تصمد ولا السلام الذي يتسم بالتدليس يمكن أن يستقر. كما انني كواحد يعتز كثير الإعتزاز بـ «ختيار العرب»، حزنت لأنه كان كلما إلتقيناه، يعدنا بأزكى صلاة معه في المسجد الأقصى، وبأصفى قداس في كنيسة المهد. ومثل هذه الأمانى لم يعد أكثر من مجرد خواطر في القلب وفي الوجدان.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 23 نوفمبر (ت) 2004

في يوم واحد: مفاجأة "التايمس".. وإضاءة الأمير

على هامش الضجيج السياسي الذي هو الجامع المشترك لدول العالم من دون إستثناء، نتيجة إنتقال الولايات المتحدة على أيدي أفراد متصهينين في الإدارة البوشية المتجددة، من دولة تستقطب محبة الناس، إلى مشروع إمبراطورية مبعوضة من الجميع، تحدث في دنيا الإعلام مفاجآت وإضاءات تستوقف الإعلامي،

إذا كان من جيل «الإنترنت» والكمبيوتر والبث الفضائي، كما أنها تستوقف الإعلامي من أبناء جيلنا المخضرم الذي كابد من أجل أن يوصل المهنة إلى ما باتت عليه.

من المفاجآت التي تستوقف المرء أن صحيفة «التايمس» البريطانية، وما أدراك ما هي «التايمس» هدوءاً ومصداقية ووقاراً وإحتراماً لقارئها، ونأياً عن الفضائيات التي تقفز بالتوزيع صعوداً بضعة ألاف مع كل خبر مثير، أو نقطة أكثر إثارة، قررت أخيراً، وبعد فترة تجربة جمعت بين الحجمين «العادي والتابلويد» أن تختصر نفسها شكلاً وربما موضوعاً، من يدري؟ ويوم السبت 30 أكتوبر (تشرين الأول) الماضي صدرت الصحيفة العجوز، بمعنى عمر الصدور البالغ 216 سنة، بالحجم المعروف بـ «التابلويد»، وهو غير الحجم المألوف الذي هو مثل حجم «الشرق الأوسط».

فهل فعلت هذه الصحيفة ذلك لأن زميلة لها حديثة العهد، هي «الاندبندنت»، سبقتها إلى الصدور بالحجم النصفى أو الحجم المختصر، وحققت خطوة هذه الأخيرة نجاحاً وقبولاً؟ وهل فعلت ذلك في ضوء ظاهرة إرتياح البريطانيين وغيرهم من ركاب القطارات والأنفاق والحافلات، إلى الحجم المختصر، لأن تقلب الصفحات وهم في طريقهم إلى أعمالهم، وبالذات إذا كانوا واقفين، ومن دون أن يحول الوقوف دون القراءة، أسهل عليهم مما لو كانت الصحيفة بالحجم العادي؟ وهل فعلت ذلك لأن هنالك المزيد من الانحسار في المداخل الإعلامية، ومن الأفضل كإجراء وقائي، اعتماد الحجم التوفيري؟ وهل فعلت ذلك لأن صحف «التابلويد» الشعبية، إكتسحت سوق القراءة، وباتت الرصانة على أهبة الضياع في زحمة اللقطات المثيرة لصدور وسيقان العارضات، وفي خضم ما هو مثير من الأخبار، حتى إذا كانت تنطرق إلى خصوصيات الناس بمن فيهم مسلسل الأمير تشارلز وعشيقته، وأبناء الأمير والأخبار المتصلة بمراهقتهم، ومطلقات أمراء العائلة، وبالذات ما يتعلق بإحداهن التي لا تمانع في نشر صور بالغة الإثارة لها من أجل الكيد للبلاط البريطاني المحافظ والحصول على المال؟

قد تكون هذه «التايمس» الوقورة فعلت ذلك، أو فلنقل إقترفت إثم الإرتداد على 216 سنة من الصدور بالشكل الذي كانت عليه حتى يوم 30 أكتوبر 2004، لتصدر بدءاً من الإثنين الأول من تشرين الثاني

(نوفمبر) بالحجم المختصر، لواحد أو أكثر من الأسباب التي أشرنا إليها، أو لسبب هو مزيج من الأسباب إياها مجتمعة. وهذه الخطوة تجعلنا نتساءل: هل ستندم «التايمس» على ما فعلته، أم أن قارئها سيكون ممتناً لمجلس إدارتها على هذه الخطوة؟ وهل أن تجربة الصحيفة الفرنسية الأكثر رصانة، وهي «الموند» التي تصدر بالحجم المختصر المعروف بـ «التابلويد»، تؤكد أن المهم هو أن يكون الكلام رصيناً وأن حجم الصحيفة الناشئة، لن يؤثر في ذلك على الإطلاق.

ما هو مؤكد أن الخطوة الجريئة من جانب «التايمس»، ستجعل الأخبار تَحْذِي حذوها. وشيئاً فشيئاً تسود ظاهرة الصحيفة المختصرة شكلاً، وبحيث أن الحجم العادي يصبح هو الإستثناء، وأن الحجم المختصر «التابلويد» هو القاعدة. وهذه الإستدارة من حيث الحجم تجعلنا نتساءل: هل إننا في العالم العربي كمتأثرين بالظواهر الوافدة، وكمسارعين إلى التقليد، سنشهد في زمن ليس بالبعيد ظاهرة صحافة «التابلويد». من حيث المبدأ أو المألوف، يبدو القارئ العربي أكثر شغفاً بالصحيفة ذات الحجم التقليدي، وذلك لأنه يقرأها في ظروف لا تبدو شبيهة بظروف ركاب القطارات، فضلاً عن أن الحجم يقاس بغنى المطبوعة أو بفقرها. لكن على رغم ذلك وفي ضوء الحالة الإعلامية، حيث إجتاحت الفضائيات الجزء الأكبر من حصص معظم الصحف التي كانت في ذروة الإزدهار الإعلامي من جهة، ومواكبة تقليد المبادرين من جهة أخرى، لا نستبعد اليوم الذي تصدر فيه الصحف ذات الشأن في العالم العربي بحجم «التابلويد»، آخذين في الإعتبار أن هنالك تخمة واضحة المعالم في بعض الصحف، وإلى درجة أنها تصدر كصفحات بعشرة أضعاف ما يُستحب أن تصدر فيه.

هذا على صعيد مفاجأة «التايمس» البريطانية، التي نعتقد أنها ستجذب مفاجآت تأتي من غيرها. أما على صعيد الإضاءات فإن أكثرها جدية وبريقاً تلك التي أطلقها الأمير الدكتور فيصل بن سلمان بن عبد العزيز مصادفة، في اليوم نفسه لمفاجأة «التايمس» أي السبت 30 أكتوبر (تشرين الأول) 2004، وتتمثل في أن «المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق» التي يترأس مجلس إدارتها، قررت تأسيس «معهد الأمير أحمد بن سلمان للتدريب الإعلامي التطبيقي». وهذا المعهد غير مسبوق في العالم العربي، وسيخصص في التدريب التقني والفني والعملية لمختلف المستويات المتعلقة

المفاجآت في موعد العرب مع «الجوهرة» البوشية

لا ندري كيف سيكون التعامل المتبادل بين القادة العرب ووزيرة الخارجية الأميركية في الإدارة البوشية المتجددة كونداليزا رايس. ولولا أن هنالك تجربة تعامل سابقة متمثلة بمادلين أولبرايت وزيرة الخارجية في بعض سنوات حقبة الرئيس بيل كلينتون، لجاز الافتراض أن هذا التعامل سيكون على درجة من الصعوبة إستناداً إلى قاعدة حساسية الذكورية العربية، من اللواتي يطرقن بقوة بوابات دواوين أهل الحكم في العالم العربي.. وإن كانت رئيسة الحكومة البريطانية في التسعينات مارغريت ثاتشر، كسرت بعض الشيء من حدة هذه الحساسية، وكانت لها في هذا الأمر لقاءات ومبادرات شملت بعض أقطار الأمة بجناحيها الشرقي والمغربي.

واستناداً إلى أربع سنوات بوشية مضت ليس هنالك في آفاق التعامل المتوقع ما يشير إلى أن كونداليزا رايس ستكون على قدر من التفهم لواقع الحال العربي، وذلك لأنها في تلك السنوات كانت واحدة من الصقور، مع أنها كأنتى من المفترض أن تكون على شيء من الرحمة، فتعترض على النهج الحربي لمعالجة أمور عالقة، يمكن حلها بالحسنى سواء في الجبهة البوشية. الصدامية، أو في الجبهة الشارونية - العرفانية. لكنها كما أظهرت مواقفها وكما قرأنا سطور تصريحاتها وما بين سطور هذه التصريحات بدت إنسانة قاسية القلب، بل ذات قلب مجبول بالقساوة أين منه قلب مادلين أولبرايت التي كانت في ذروة لحظات الغضب والتشدد تختار من «البروشات» ما يشكل رمزاً لمشاعرها. وتنتكر إختيارها «بروش» الأفعى الذي وضعته على صدرها ناحية القلب لمواجهة دبلوماسية طارق عزيز، وإفهامه بأن إدارة كلينتون قادرة على أن تلتسع النظام الصدامي البعثي سماً لا ينفع فيه ترياق، في حال فاض الكيل معه. كذلك أن «الجوهرة السوداء» كانت من الغلظة بمثل القلب الغليظ الذي كانت عليه ثاتشر، ويحترق المرء الآن بعد انقضاء ثلاث عشرة سنة على حرب بوش الأب على العراق، ما إذا كانت هي من ورطه في عدم إتاحة المجال أمام حل يبتكره الأشقاء العرب للأزمة التي نشأت بين الشقيقتين العراقي والكويتي، أم انه هو من أراد السند البريطاني القوي

بصناعة الإعلام بشكل عام.

مثل هذا المعهد سأكمل ما تنتهي إليه الجامعة. وبعد الآن فإن الإعلامي الجامعي الذي سيتدرب مرة ثانية من المعهد سيكون، في حال جاء التدريب بروح الجدية والحماسة التي يريدها له الدكتور فيصل، إعلامياً بتميز وعليه بعد ذلك أن يصبح إعلامياً بإمتياز، وبحيث سيتباهى جيل الربع القرن المقبل من الإعلاميين، بأنهم تخرجوا مرتين بدل المرة الواحدة. التخرج الأول نتيجة الدراسة الإعلامية في الجامعة... وهو تخرج مهم، والتخرج الثاني نتيجة التدريب والتطبيق، وعلى أيدي أصحاب التجربة من معهد الأمير أحمد بن سلمان، الذي نفترض أنه سيكون أكثر شمولاً من مؤسسة طومسون البريطانية العريقة.

ويأتي هذا المعهد في الزمن الذي تتحسر فيه خصوصية الحالة الإعلامية في العالم العربي، ربما لأن الثورة التقنية والمعلوماتية جعلت الطامحين والطامحات إلى العمل في المجال الإعلامي، لا يكابدون بمثل المكابدة التي عاشها جيل الخمسينات والستينات مثل حالنا، الذين أضناهم السهر وأزكمت أنوفهم رائحة رصاص آلات الجمع، وتكسرت ضلوعهم من جرّاء الأسفار الشاقة، بحثاً عن خبر أو متابعة لحدث مهم، لا مجال للوقوف عليه إلا من خلال التحرك الميداني، وذلك لأنه لا وجود لتسهيلات مثل «الفاكس» و«الكومبيوتر» و«الإنترنت» والهاتف النقال.

ومع توافر هذه التسهيلات التي سيتم، بالنسبة إلى الإعلاميين العرب من الجنسين، تتويجها وصهرها وبلورتها من خلال «معهد الأمير أحمد»، سنكون على موعد مع جيل إعلامي عربي جديد يثري هذه المهنة حرفاً مطبوعاً أو كلاماً عبر الأثير ومن خلال شاشات الفضائيات.

وتبقى الإشارة في صيغة التمني، وهو أن يكون «معهد الأمير أحمد» لكل الإعلاميين العرب، وليس فقط لزملائنا وإخواننا السعوديين إشرافاً أو تدريباً، أو بتحديد أكثر دقة، يكون له مجلس أمناء عرب من أصحاب التجربة الإعلامية، ويكون بمثل رؤية حامل اسم هذا المعهد للحالة الإعلامية العربية عموماً... وهي رؤية ليست محصورة بالمملكة وحدها، وإنما تشمل أقطار الأمة من المحيط إلى الخليج.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 30 نوفمبر (ت) 2004

* * *

كل تحركاتها وجزءاً أساسياً من مفردات تصريحاتها في الشأن الفلسطيني.

الآن أمام كونداليزا ملف شرق أوسط حافل بالتعقيدات ما دامت باتت وزيرة للخارجية، فالموضوع العراقي شائك. والموضوع الفلسطيني عبارة عن حقول من الأشواك. والعلاقة بين أميركا والشعوب العربية والإسلامية تعيش حالة من البغضاء المشتركة لا مثيل لها. والأنظمة العربية عموماً غير مرتاحة للسياسة الأميركية، وفي الوقت نفسه هنالك نوافذ عربية وإسلامية للإنفراج ولتهذئة الأحوال والخواطر جرى فتحها، بدءاً من النافذة السورية التي أقدم الرئيس بشار الأسد على فتحها، متحماً إعتراضات وتحفظات ديناصورات ربع قرن من حكم الحزب الواحد، وبالذات الإعتراض والتحفظ على إعلانه القبول بالتفاوض مع إسرائيل من دون شروط، فالنافذة الإيرانية حيث رأى «نظام آيات الله» أن الإستدارة المحسوبة في الموضوع النووي، ومعه موضوع الحضور الثوري خارج إيران، وبالذات في لبنان حيث «حزب الله» هو الذراع الأقوى لهذا الحضور في العالمين العربي والإسلامي، تبقى أفضل إذا كان لا بد من حفظ الرؤوس سالمة، وصولاً إلى الموضوع الفلسطيني الذي بات على نحو ما كانت تريد الإدارة البوشية، بعدما إنتقل عرفات إلى رحمة الله، فإلى حالات أخرى تشمل المنطقة من المحيط إلى الخليج... وإلى ما بعد الخليج والمحيط من بقاع متأففة من السلوك الأمريكي.

السؤال الآن: هل تطوي «الجوهرة» البوشية السوداء الصفحات الماضية وتبدأ لسيدتها الكتابة في صفحات خالية سطورها ومفرداتها من البغضاء؟ أم انها ستواصل من حيث انتهت الولاية الرئاسية الأولى، وأن بدعة الوعد البوشي الجديد بقيام دولة فلسطينية في العام 2009، كانت من إبتكارها بمثل البدعة الأولى التي كانت من إبتكارها أيضاً، وبموجبها جاء الوعد البوشي بقيام هذه الدولة عام 2005، الأمر الذي لا يبشر بالخير.

في الحالتين يبدو العالمان العربي والإسلامي أنظمة وشعوباً، حكماً ومحكومين، حكومات وتنظيمات من نوع «القاعدة»، على موعد محفوف بالمفاجآت مع «الجوهرة» البوشية السوداء كونداليزا رايس، الخارجة من وعكة صحية ناشئة عن عملية جراحية. ومثل هذا الخروج من شأنه تجديد الحيوية في نفس الوزيرة رايس، والتي كان الرئيس بوش على نحو

للحل الحربي. ونقول ذلك على أساس أن تاتشر التي كانت المحرصة على الحل الحربي، كانت أيضاً المعترضة على عدم حسم الأمر مرة واحدة وإسقاط النظام الصدامي.. وهو ما فعله بوش الابن لاحقاً.

وقساوة قلب كونداليزا تثير الإستغراب ليس فقط لأنها أنثى، وإنما لأنها في الوقت نفسه ذات حس موسيقي. ومن كان على مهارتها في العزف على البيانو لا يعود طبيعياً منها أن تجنح إلى الحرب، ومن دون أن تستوقفها أهوالها والدمار الذي ينشأ عنها، بينما من كانت الحروب جزءاً من واجباته وتخصصاته مثل سلفها الجنرال كولن باول كان طوال السنوات الأربع البوشية باغضاً بعض الشيء للحل الحربي، ومن أجل ذلك مارس الدبلوماسية بالحذر الذي إنتهى به إلى أنه أخفق في إشباع شهية معسكر الصقور في الولاية الرئاسية البوشية الأولى، ولم يتمكن من إرضاء نفسه بما يكفي. ومن أجل هذا نراه يغادر المسرح البوشي من دون تصفيق ومن دون التأسف على مغادرته.

وقد تكون الدهشة الناشئة عن المفاجأة غير المتوقعة هي التي جعلت «الجوهرة البوشية السوداء» تتردد جنوحاً نحو الأخذ بالحلول الحربية. فهي لم تتوقع أن يضعها الرئيس بوش الابن في منصب «مستشارة الأمن القومي» الذي لم تشغله امرأة من قبل، وإن كانت دراستها الجامعية والتي إتسمت دائماً بالتفوق إستندت إلى إستيعاب مفردات إستعمال القوة، التي يحتاجها من يشغل منصب مستشار الأمن القومي في بلد مثل الولايات المتحدة. لكن على رغم ذلك فإن كونداليزا ذهبت بعيداً وإلى درجة أن دورها الإستشاري في موضوع الحرب على العراق كان أقرب إلى دور مارغريت تاتشر، وأن مفهوم التعامل مع النزاع العرفاتي - الشاروني، كان أقرب إلى المفهوم الذي وضعه أرييل شارون لهذا التعامل. وهنا نجد أنفسنا نستحضر الزيارة التي قامت بها كونداليزا في العام 2000 إلى إسرائيل، موفدة من الحملة الإنتخابية للمرشح الجمهوري جورج بوش الابن وحلولها ضيفة محاطة بكل الإهتمام على أرييل شارون، وكيف أن إقامتها لبضعة أيام هناك وتصريحها المبالغت بأن بوش الابن سينقل السفارة إلى القدس في حال فوزه، كانت إذا جاز القول تأشيرة إختيارها هي بالذات وليس غيرها لشغل منصب مستشارة الأمن القومي. وطوال السنوات الأربع كانت زيارة كونداليزا تلك حاضرة في

قوله وبصراحة، يصغي لنصائحها ويأخذ بها والتي...
كانها أخت الرجال في الملمات البوشية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأحد 12 ديسمبر (ك) 2004

* * *

الكويت فلسطين: عودة صغرى..

في إنتظار العودة الكبرى

أخيراً، وبعد ثلاث عشرة سنة من خيبة الأمل والمرارة والعتب والغضب في النفس الكويتية، أميراً وحكومة وبرلماناً ورأيًا عاماً، ها هي فلسطين بطبعتها الجديدة التي حطت قبل أيام الرحال في لبنان بعد سوريا، وحققت نجاحاً نوعياً كان الزوار والمزاران في حاجة إليه، قد حطت الرحال أيضاً يوم الأحد الماضي في الكويت لتجد أيادي قيادتها الإنتقالية أن اليد الكويتية ممدودة لها، ويشعر محمود عباس وأحمد قريع وروحي فتوح ونبيل شعث أنهم في الوطن الذي كان حتى عام 1990، بعدما إجتاحت القوات العراقية الوطن الثاني لهم، وأن رحلة التطبيع بدأت مع زيارتهم التي ربما تزيل القسم الأكبر من الإحتقانات التي في النفوس. ومع أن هذه الرحلة لن تكون سريعة، لكن مجرد البدء بها يشكل خطوة بالغة الأهمية على طريق الود المستعاد بين الكويت، ذات التراث المهم بالنسبة إلى الفلسطينيين كثورة وكملاذ معيشي ووظيفي، وبالنسبة إلى الكويتيين الذين إكتشفوا أن وطأة إبتعاد القيادة العرفاتية عن الكويت المظلومة، وإقترابها إلى درجة التحالف مع الخطوة العراقية الظالمة بغزو الكويت، لا تلغي حقيقة أن القضية الفلسطينية تعيش في جوهر الموقف الكويتي وفي وجدان المواطن، ولا تطمس الصفحات المضيئة من العلاقة الكويتية - الفلسطينية منذ أيام الأمير الراحل الشيخ أحمد الجابر والد الأمير الحالي.. أي في العهد «الحسيني»، يوم كانت عمامة الشيخ أمين الحسيني وعباءته بمثل كوفية الرئيس ياسر عرفات وبذلته العسكرية. وعند التأمل في ملفات أربعة عقود من العلاقة الكويتية - الفلسطينية يكتشف المرء كيف أن مدرسي جيلين من أبناء الكويت هم فلسطينيون، وأن بدايات البنية التحتية للدولة الحديثة الثروة النفطية تمت بمشاركة الألوف من الموظفين والمهندسين والأطباء الفلسطينيين، وأن القضية الفلسطينية كانت تتقدم على

سائر القضايا في الخطاب الكويتي.

وعندما تكون الحال على هذا النحو، فإن التباعد يصبح ثقيل الوطأة على الجانبين، ويصبح إنتظار الفرصة المناسبة لإستعادة الزمن الكويتي - الفلسطيني المضىء واقعاً مشتركاً.. أي بما معناه أن الجانب الكويتي جاهز لإغتنام الفرصة عند توافرها، وأن الجانب الفلسطيني تواق إلى هذه الفرصة. وتلك طبيعة من تجمعهم أواصر وجدانية متبادلة.

وعلى رغم إخفاق محاولات سابقة من أجل التصحيح بغرض التطبيع، ومنها محاولة المرحوم فيصل الحسيني الذي كان إختياره، لو أنه على قيد الحياة، لخلافة الرئيس ياسر عرفات سيقطع الطريق على التصعد الحالي والقابل للتنوع في الصف الفلسطيني، إلا أن الجانبين إستمرا على الإستعداد نفسه. ثم جاء الرحيل المفاجئ للرئيس عرفات وقيام الكويت بالواجب الرسمي يوم التشييع في شخص الشيخ فهد الأحمد، ليؤكد أن بوابة التصحيح والتطبيع معاً باتت غير موصدة. وجاء موقف رئيس الحكومة الشيخ صباح الأحمد عشية بدء زيارة الوفد الفلسطيني، وبالذات إجابته عن سؤال السائل حول شرط الإعتذار الفلسطيني وقوله «لماذا نتحدث عن الإعتذار؟ نحن نرحب بالأخ محمود عباس وبزيارته للكويت وبوجوده هو وإخوانه في الكويت»، وكما لو أنها تأشيرة دخول أميرية فريدة من نوعها، تحمل في طياتها التأكيد بأن القلوب على طريق الصفاء.

وهذه البادرة من جانب الشيخ صباح، والتي كان من السابق لأوانه صدورها عندما كان محمود عباس سيزور الكويت في آب (أغسطس) من العام الماضي، بعدما بات رئيساً للوزراء. لكن شرط الإعتذار ألغى الزيارة، معناها أن التحفظ كان على «العهد العرفاتي». وليس على القضية وأساليب السعي من أجلها دبلوماسياً، أو من خلال الجهاد والإنقاضة. أما وأن عرفات بات في ذمة الله، فإن كل شيء يصبح قابلاً للعلاج. وهذا ما حدث تماماً بالنسبة إلى العراق، حيث أن الكويت إستمرت حتى محاولة رأب الصدع خلال القمة العربية الدورية الثانية، على موقفها الراض لمصالحة نظام غزاها وإحتلتها. ثم جاءت حرب بوش - بلير وإسقاط النظام الصدامي لتجعل الأمور الصعبة على الكثير من اليسر.

السؤال الآن: هل ستكون المصالحة مقتصرة على حكومة الكويت و «العهد العباسي» الفلسطيني، أم أن البوابة الكويتية ستعاود الإفتتاح أمام الألوف من أبناء

الشعب الفلسطيني، الذين تسبب موقف الرئيس عرفات من الغزوة الصدامية في تشتيتهم؟ وهل سيحدث بين الكويت وفلسطين الجديدة ما سيحدث بين لبنان وهذه «فلسطين».. مع ملاحظة أن الجرح اللبناني من الحقبة العرفاتية، لم يكن أقل إبلاماً من الجرح الكويتي من الحقبة نفسها. ونحن عند التأمل في الأيام الثلاثة للزيارة الفلسطينية الى لبنان، وأي دفع في الإستقبال وفي مفردات التعبير عن المشاعر، وكذلك أي نتائج موضوعية تم التوصل إليها وفي مقدمتها رفع مستوى التعامل الى درجة سفارة، بما يعني إنتهاء ظاهرة السلاح والمسلحين، نرى في المشهد الأخوي اللبناني - الفلسطيني أمامنا ما يمكن أن نراه بالنسبة الى الكويت وفلسطين. أي أن الأمور تهون عندما يكون هنالك تبادل في الحقوق بين طرفين. وهذا التبادل قائم كحقيقة بين الكويت والفلسطينيين وبين لبنان والفلسطينيين. وهي حالة تقتصر على الأطراف الثلاثة دون غيرها من سائر الأطراف. ولأن تبادل الحقوق قائم، فإن العودة الصغرى بين الفلسطينيين وكل من الكويت ولبنان عادت بعدما تأخرت. والمهم الآن أنها باتت قابلة للإكتمال والتطوير في الإتجاه الإيجابي.

لعل وعسى تكون العودة الصغرى فاتحة خير للعودة الكبرى.. عودة الفلسطينيين إلى ديارهم وانتقال المنطقة من مدار جولات الإحتراب والصراع إلى مدار التعاون في ظل التعايش. وما حدث في الرباط قبل أيام متمثلاً بـ «منتدى المستقبل» يشكل لحظة إنفراج نوعية.. أو نقلة في الممارسة الموضوعية التي تتضاءل فيها نسبة الهيمنة وفرض الأمر الواقع والقبول بهما، مع إرتضاء دفع الثمن المعنوي الغالي على الطريقة القذافية... أو رفضهما بالعناد، ودفع الثمن الأعلى على نحو ما أصاب العراق الصدامي والذي ما زالت تداعياته تتوالى.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 15 ديسمبر (ك) 2004

* * *

رئاسات مسكونة بالهواجس...

ومخاوف التسميم

كان بعض رؤساء دول العالم، وبالذات الثالث من هذا العالم، يعيشون منذ اللحظة التي يجدون أنفسهم في قمة السلطة، هاجس الإنقلاب العسكري عليهم،

وذلك لأن كثيرين منهم جاءوا إلى الحكم بفعل حالة من حالات التآمر المحبوكة تفاصليه بدقة، أو بفعل إنقلاب عسكري. ومن أجل قطع الطريق على من قد يطمحون إلى الحلول محلهم، فإنهم كانوا إما يرسلونهم سفراء إلى دول بعيدة، أو يوكلون إليهم مناصب وزارية تعود بالنقمة الشعبية عليهم. وبذلك لا تعود لدى هؤلاء الورقة الجذابة للإنقضاض على أهل الحكم والحلول محلهم. وهنالك أيضاً أسلوب إغراق هؤلاء بالخيرات وتسهيل الحصول على الصفقات لهم ولأفراد يمتنون إليهم بصلة القرابة أو الصداقة. وبذلك تفوح روائح غير مستحبة مصدرها هؤلاء وينأى الرأي العام عن التمني برؤيتهم في قمة السلطة. ويبقى الأسلوب الحاسم الذي يتمثل بإفتعال محاولة تأمرية عن طريق التشجيع غير المنظور لهذه المحاولة، وعلى أساسها يتم إيداع هؤلاء «العصاة» على من هو في القمة في الزنازين لا يخرج منها هذا «المتنرد» أو ذاك ما دام الذي إختار له هذا المصير هو الحاكم الذي لا مجال لرفض أوامره.. هذا إذا لم يغادر «المتنرد» الزنازنة جثة هامدة، أو في الرمي الأخير من الحياة عليلًا، لا قدرة له على السير، ولا ينفع فيه علاج حتى في مستشفيات الدول المتقدمة.

وبعد هذه الأساليب الردعية، يشعر هذا المسؤول الأول أو ذاك، أنه بات محصناً ضد التمرد عليه، مع ان بعض الوقائع توضح امراً بالغ الأهمية، وهو أن التأديب بأنواعه الذي نشير إليه، لم يحقق الغرض المنشود، بدليل أن هنالك من عاد من الإبعاد، ليتسلم بالتدرج مناصب رسمية وصلت إلى مشارف القمة.

ونحن إذا كنا هنا ننأى عن المسميات، مكتفين بهذا الكلام الإيحائي، فلأن ضيق الصدور لا يتحمل التوضيح. كما أن هذا الضيق لا يتحمل إطلاق بعض التساؤلات من نوع: كيف يجوز أن يكون هذا الرئيس أو ذاك مالكاً كل السلطات المدنية والعسكرية في الوقت نفسه، وكيف يجوز أن هذا الرئيس أو ذاك يبدأ الحكم بوعد خلاصته انه لن يبقى في السدة الرئاسية أكثر من ولاية واحدة أو ولايتين في الحد الأقصى، ثم لا يلبث أن يتراجع عن وعده هذا، وكيف يجوز أن تكون لهذا الرئيس أو ذاك شخصيتان في وقت واحد، ولكل شخصية زئياً، أي أنه مدني بكامل الأناقة من حيث البدلة وربطة العنق والتسريحة والشعر المُسود، وعسكري بكامل الأبهة من حيث الأوسمة والعصا

والذي هو الآخر قد يكون ترحيلاً، وبفعل تسميم من نوع آخر لعبد الناصر، لما كان كل هذا الذي يحدث في المنطقة منذ الشهور الخمسة التي تلت وفاة عبد الناصر يوم 28 سبتمبر (أيلول) 1970 عن 52 سنة وإلى الآن وحتى إشعار آخر، أن يحدث. وقد يأتي يوم تتكشف فيه الوقائع ويتبين ان استعجال استصدار التقرير الطبي الشهير عن وفاة عبد الناصر، الموقع من خمسة أطباء، كان لقطع الطريق على أي إجتهاادات وتفسيرات.

ونحن عندما نخوض في غمار واقعة التسميم المتمم، لا يعني أننا لا نؤمن بأن لكل امرئ أجلاً، وأنه عند حلول موعد هذا الأجل فإنه لا يتأخر لحظة أو يتقدم لحظة. إلا أن ذلك يبدو امراً طبيعياً لمن هم عاديون، لكنه يبدو كاستثناء لمن هم في حال الإمساك المطلق بزمام السلطة، مثل الزاحلين عبد الناصر وعرفات وغيرهما من الأموات والأحياء، والذين هم قيد الاعتقال وعلى أهبة المحاكمة وأبرزهم الرئيس العراقي السابق صدام حسين. وما نغنيه بالإستثناء، هو أن هؤلاء عرضة لاستقدام أجلهم بفعل الإغتيال، على نحو ما سبق أن أصاب الرئيس الأميركي جون كينيدي في الستينات وما كاد يصيب الرئيس الآخر رونالد ريغان في السبعينات، أو إستقدام الأجل بإنهاء الحياة تسميماً، أو تعطيلاً للقدرات وتشويهاً للملامح على نحو ما أصاب زعيم المعارضة الأوكراني فكتور يوشينكو، الذي حسم أطباؤه النمساويون تشخيص حالته بالقول انه جرى تسميمه بمادة «ديوكسين» دسها أحدهم في كوب ماء أو شراب أو شاي أو قهوة، فتناوله الرجل الذي في إستطاعته ان يهزم الأمر الواقع الروسي في أوكرانيا، ويهز مهابة زعامة فلاديمير بوتين، الذي أراد فرض فكتور يانوكوفيتش رئيساً للبلاد، برغم إعتراض أكثر من نصف الناخبين في اوكرانيا البالغ تعداد سكانها 48 مليون نسمة، وهو ما كاد يتكرس لولا أن الضغوط تزايدت من أجل إعادة الانتخاب، والإبقاء على أبواب الصراع بين روسيا بوتين والإدارة البوشية مفتوحة على كل الإحتمالات.

والذي يلفت الإنتباه في تسميم فكتور المعارض من أجل الإبقاء على ترئيس فكتور الموالى لروسيا، ان المسممين إستهدفوا محيا هذا الرجل الذي كان قبل التسميم مثل نجوم السينما، وبات بعد التسميم بلامح تتسارع فيها وتيرة البشاعة، ومظاهر الشلل الجزئي في الوجه، على رغم كل أنواع العلاج المتطور الذي

المارشالية وتقطيب الوجه دلالة على الحزم والبأس. ومن قبل أن يصيب الرئيس ياسر عرفات الذي اصابه، كانت هنالك لدى بعض رؤساء دول العالم، وبالذات الثالث من هذا العالم، خشية من الطبيب الذي يداوي ومن الممرضين، الذين يكملون مهمة الأطباء ومن المدلّكين، الذين يريحون الأبدان وينعشون النفوس الرئاسية الممتلئة هواجس ومخاوف. ولطالما عاش هؤلاء جميعاً في أجواء من الشك والهلع الناشئ عن أن هذا الطبيب أو الممرض أو المدلّك، قد يرتكب عن سابق تصميم أو تكليف عملاً يؤثّر على صحتهم. وأما الخشية من الطباخين فكانت دائماً كبيرة، ومن هنا فإن بعض رؤساء الدول التي نعينها حرموا أنفسهم من طعام شهّي، لأنه لم يكن من إعداد الطباخين - الثقة.. مع الأخذ في الإعتبار أن أطايب الطباخين كانت أصلاً لا تدخل الأفواه والمعدات الرئاسية، إلا بعد أن يتذوقها الذواقون تدليلاً على أنها خالية من اي تسميم.

وحول الخشية نفسها هنالك عشرات الحالات التي يمكن ملاحظتها لدى بعض رؤساء دول العالم الثالث بالذات، ومنها على سبيل المثال لا الحصر عدم النوم في أسرة لا يحملونها معهم عند زيارتهم، وعدم التدنّس بملاءات وأغطية لا تكون ضمن حقائبهم، وعدم النوم على وسادات ليست في الحقائب نفسها. ومنها أيضاً التحوط من السلام على آخرين، وذلك بإستعمال قفازات نقي شر العدوى المفترضة، أو الوخز من خاتم هذا أو ذاك من الذين يتم تبادل السلام باليد عليهم.

ثم جاءت واقعة الرئيس ياسر عرفات لتؤكد أن الخشية مشروعة، وأن أسلوب التصفية تسميماً أمر وارد. ومع ان الأطباء الفرنسيين الذين تولوا علاج الرئيس الفلسطيني لم يجزمو بواقعة التسميم، ولم يستبعدوا ضمناً في الوقت نفسه حدوثها، إلا أن الواقعة إستمرت هي الأكثر إحتمالاً، وأن هنالك أكثر من حثية لتأكيد هذه الواقعة، من بينها ما حصل لمجرد أن بات عرفات في ذمة الله، وكيف أن الود الفلسطيني - الأميركي أستعيد على وجه السرعة، والمصالحة الكويتية - الفلسطينية حدثت بسهولة بعد المصالحتين السورية - الفلسطينية واللبنانية - الفلسطينية. وما جرى حتى الآن ليس كل شيء، إذ هنالك المزيد سيحدث بعدما تمت مواراة عرفات الثرى. وما يقال بالنسبة إلى الحالة العرفاتية، قيل أيضاً بالنسبة إلى الحالة المصرية، وكيف أنه لولا الرحيل المباغت،

خضع له في النمسا. ولكن مفعول التسميم كان خطيراً الى درجة لم ينفع فيها بما يكفي الترياق النمساوي للسّم البوتيني.

يطول الحديث وتتكاثر الوقائع في شأن ظاهرة التسميم، التي لولا الذي أصاب الرئيس عرفات، لما كانت ملفاتها لتُفتح، ثم جاءت واقعة الزعيم الأوكراني لتؤكدّها. وها هي الأنباء عن محاولة مماثلة تستهدف نائب رئيس أندونيسيا، تجعل مشهد التسميم يمتلئ شيئاً فشيئاً بالمزيد من الحالات والإحتمالات.

والأهم من هذا كله، هو أن العشرات من رؤساء هذا العالم، ونكرر القول: وبالذات العالم الثالث، لن يهنأ لهم تناول فنجان قهوة أو شاي أو كوب ماء أو شراب أو رشفة من حساء أو لقمة طعام، ما دام هنالك شك وخشية من ان التسميم محتمل الحدوث.

يا لبشاعة هذه الحياة إذا كانت على هذا النحو. ويا لهذا الثمن الباهظ يدفعه رؤساء مسكونون على مدار الساعة بالهواجس والمخاوف من التسميم، من أجل السلطة التي ما دامت في التاريخ لأحد حتى تدوم لغيره... وإن كانت هي طالت عما يجب أو يجوز بالنسبة إلى البعض.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 22 ديسمبر (ك) 2004

* * *

بشّار وأردوغان:

التصحيح المتبادل إقتباساً

في الوقت الذي كان «الصديق الأميركي اللدود» الرئيس جورج بوش الابن، يعقد يوم الاثنين 20 ديسمبر (كانون الأول) الحالي في واشنطن مؤتمراً صحافياً، يتضمن في سياق الهجمة التي تستهدف إخضاع الحكم السوري، التلويح بإتخاذ إجراءات إقتصادية، لها فغل الاجراءات الدبلوماسية، ومن بينها تجميد أموال، فيما أكثر واشنطن من الحديث حول خيارات عسكرية ضد سوريا، «لمنعها من إرسال أموال أو من تقديم أي شكل من اشكال الدعم الى المتمردين في العراق عن طريق أتباع لصدّام حسين يقيمون في سوريا»، وكان الملك عبدالله الثاني يواصل التنبيه، وفي كل الإتجاهات من مسألة «الهلل الشيعي»، ويشاركة قلقه من هذا الأمر الرئيس حسني مبارك

الذي لم يُخف الخشية من إندثار «عروبة العراق»... في هذا الوقت كان النجم الساطع في سماء العالم الإسلامي رجب طيّب أردوغان، على أهبة القيام بزيارة رسمية إلى سوريا، رافقتها بعض المصادفات الملحوظة من بينها أنها تأتي قبل أيام من إنتهاء العام 2004، الذي كانت بداياته شهدت زيارة بالأهمية نفسها قام بها الرئيس بشّار الأسد إلى تركيا. كما أنها تأتي وقد حدثت النقلة التاريخية لتركيا وفي زمن قياسي، حيث باتت في ضوء تصويت برلمان الإتحاد الأوروبي يوم الأربعاء 15 ديسمبر الحالي بغالبية 407 أصوات مقابل إعتراض 262 وامتناع 29 عن التصويت، على بدء مفاوضات إنضمام تركيا إلى الإتحاد، أوروبية الهوى من دون أن تفقد الجذور الإسلامية. وإلى ذلك فتزأمن الزيارة مع التطورات الراهنة يعطيها بُعداً بالغ الأهمية، وبحيث أن رجل تركيا الإسلامية - الأوروبية القوي، قد يصبح الوسيط الفاعل بين الحكم البشّاري وكل من الإدارة البوشية والحكم الشيراكي المنقلب على سوريا من أجل لبنان. كذلك يُحتمل أن يطرح نفسه كوسيط من نوع يحظى بالمصداقية والفعالية في الوقت نفسه بين ذاك الحكم وبين إسرائيل، خصوصاً بعدما حدثت خطوات وصدرت إيماءات من جانب الرئيس بشّار تشجع على تقريب ما كان صعباً تقريبه من وجهات نظر، وتعديل ما كان من المستحيل تعديله من ثوابت. فالرئيس بشّار أبدى إستعداداً للتفاوض ومن دون شروط من أجل تسوية النزاع السوري - الإسرائيلي، كما أنه طوى مسألة التوتر التي طالت وتركت ندوباً كثيرة على وجه العلاقات السورية - الفلسطينية، وأبدى كل الإستعداد لإضفاء بعض الدفء على العلاقة مع أميركا، وكل المرونة من اجل التوصل إلى إنهاء الإشكال المتعلق بالعلاقة مع لبنان، ولم يبق بعد إبداء حُسن النوايا سوى ترجمتها إلى خطوات.

ومن الجائز الإفتراض أن ما فعلته تركيا الأردنية وجد الكثير من التأمل لدى الرئيس بشّار، حيث أن كلاً منهما تسلّم الحكم في زمنين متقاربين، إلا أن إيقاع حركة الحسم لدى «حزب العدالة والتنمية» الذي تسلّم الحكم عام 2002، بعد فوز مبهر في الإنتخابات كان أكثر حيوية. كما أن كلاً منهما وصل إلى الحكم من خلال التوريث وإن إختلفت الصيغة والوسائل بعض الشيء. فالرئيس بشّار ورث حكماً حزبياً كان والده رئيسه، وكانت المؤسسة العسكرية

الموقف من العراق والحذر من إيران والترقب مع روسيا.. إلى المسألة الديمقراطية.. إلى تعاظم شأن المؤسسة العسكرية على حساب المؤسسات الدستورية.. إلى تقنين أسواق العمالة التركية في البلاد الأوروبية، يمكن أن تتلاشى في خضم الإنتماء الأوروبي، وبحيث يكون لكل حالة عالقة علاج ولكل مسألة مستعصية دواء، فان الرئيس بشار أوحى لزمّائه أن عهداً جديداً من العلاقة يمكن أن يبدأ على قاعدة التصحيح المتبادل، بصيغة الإقتباس وبالذات عقدة لواء الاسكندرون السليب الذي إذا كان إستحال على سوريا إستعادته من قبل، فكيف سيستعاد بعدما بات جزءاً من أرض أوروبية. خلال الزيارة طغت الإهتمامات الإقتصادية والوعد برفع قيمة الإستثمارات التركية في سوريا وعقد الإتفاقات السياحية على الهموم السياسية، بإستثناء التفاهم على الموضوعين العراقي والفلسطيني، وأبرم الجانبان إتفاقية للتجارة الحرة وإتفاقات على مشاريع تنمية قرب لواء اسكندرون، وعلى نهري العاصي ودجلة، وباتت سوريا جغرافياً متكئة على كتف أوروبي أهميته أنه مسلم وأنه صحّ نفسه بنفسه.. وهو تصحيح قد يتحول إلى أمثلة يحتذى بها بين بلدين جارئين، كادا يدخلان في حرب طاحنة عام 1998 بسبب إستضافة سوريا للزعيم الكردي عبدالله أوجلان، ثم هل الوفاق بترحيل أوجلان الذي إنتهى في القبضة التركية سجيناً حتى الآن. ولا بد ان الرئيس بشار يأخذ في الإعتبار أنه لو أن أردوغان لم يصحح ويعتمد النهج الإسلامي المرن خلاف النهج الأريكاني لما كان وصل، وأنه لو لم يواصل الخطوات بعد خطوة التصحيح الأساسية لما كان سيستسلم، ولكانت تركيا ستستمر على ما كانت عليه حائرة خائرة، وأنه لولا إرتضاء التسليم بسيادة قبرص لما كان إرتضى الأوروبيون إنتسابه إليهم.

وتبقى الإشارة إلى أن ميزة الصبر والدبلوماسية الهادئة والنأي عن الإنفعال التي جعلت المتحفظين الأوروبيين على إنتساب تركيا إلى ناديهم يتقبلون تطعيم مجتمعهم المسيحي ببضعة ملايين مسلم تركي، كقيلة بإقناع الإدارة البوشية والشريك الأوروبي شيراك والحليف الإضطرابي إسرائيل، بأن العهد البشاري لحظة مهمة في الحياة السياسية السورية، ومن المصلحة التقاطها والإستفادة منها وتوظيفها في الإتجاه الايجابي، وليس مواصلة التحرش بها وإستقرازها. بل قد نكتشف أن أردوغان أوفد وزير

النظامية والأمنية عماده. ورجب طيّب أردوغان جاء إلى الحكم على خلفية حزب إسلامي سبق أن وصل إلى الحكم بزعامة نجم الدين أربكان، لكن إصرار الرجل على التمسك بحرفية الثوابت وعدم مراعاة المعادلة الأتاتورية - العسكرية، بمعنى إعتبار إرث أتاتورك أمراً غير خاضع للطمس في الخطاب الإسلامي، وبمعنى إعتبار دور الجنرالات غير خاضع للإلغاء بالشعبية الإسلامية المتدفقة، وبما يشبه التدفق الإيراني وراء ثورة الخميني و«آيات الله» الوارثين له، وبمعنى إعتبار العلاقة المبنية على أسس إستراتيجية مع كل من أميركا وإسرائيل ثابتة ولا ضرورة لإستبدالها بإستراتيجية معدلة في الإتجاه العكسي، على نحو ما حاول أربكان أن يفعله من خلال إفتتاح حماسي على العراق وليبيا وسوريا وإيران، التي هي زمناك «قلاع المواجهة والرفض» مع أميركا وإسرائيل ... ان هذه الإصرارات من جانب أربكان إلى جانب أمور تتعلق بالحجاب والتقاليد وتقليص العلمانية والتشدد في النظرة الى الأجانب تسببت في إسقاط سريع للتجربة الإسلامية الأولى عام 1997 والتي جاء أردوغان، وعلى أنقاض مرحلة إنتقالية تولاهها مسعود يلماظ، ثم بولند اجاويد يرثها عام 2002، وبعد إدخال تعديلات جذرية على النهج والسلوك والتعامل مع الآخرين، وضمن مواءمات لا تُظهر الأردوغانية وكأنما هي «حركة مرتدة» وإنما هي «حركة تصحيح» بمثل «حركة التصحيح» التي تولاهما في سوريا الرئيس حافظ الأسد وحكم على أساسها ربع قرن. وهي حركة تأثر بها بعض الجيران ومنهم أردوغان الذي إستطاع من خلالها تحقيق النقلة التاريخية لتركيا، من دولة حائرة خائرة إلى دولة أوروبية الهوية ذات أصول إسلامية.

وبالعودة الى ما أشرنا اليه في شأن التأمل نقول إفتراضاً أن الرئيس بشار يمعن تأملاً في النهج الأردواني وقد يكون على أهبة التأثر به ومن دون أن يكون ذلك بصيغة الإستنساخ، وإنما حالة إقتباس على نحو ما فعل أردوغان، الذي لا بد إقتبس من الأسد الأب ما جعله يحكم آمناً وطويلاً.

جاءت زيارة أردوغان لسوريا في الوقت العصيب، وفي مرحلة يواجه فيها التوجه البشاري الخيار الأصعب. ولا بد أن الرئيس بشار عندما لاحظ كيف أن كل التناقضات التركية من الحالة الكردية العالقة.. إلى الحالة الإسلامية المتقاطعة مع الحالة العلمانية ذات الجذور الراسخة.. إلى العلاقة مع إسرائيل.. إلى

خارجيته عبدالله غول إلى إسرائيل لهذا الغرض، على أن يتولى هو الباقي لدى الرئيسين بوش وشيراك. وبعد الآن تبدو متابعة العلاقة البشّارية - الأردوغانية أمراً في غاية الأهمية، وبالذات ما يتعلق بالمقايضة التي يقال إنها موضع أخذ ورد.. أي بما معناه تتسامح سوريا في أحقية لواء الإسكندرون بدلاً معنوياً لتركيا عن تخليها عن أحقيتها بقبرص، وتتعهد سوريا بعدم البقاء في لبنان بدلاً إضطرارياً للتحرش السياسي والإقتصادي وربما العسكري الأميركي - الإسرائيلي بها، مع وعد بترتيبات على الأرض في ما يتعلق بالجولان وطبريا تحدث عند التوصل إلى تسوية ما فلسطينية - إسرائيلية. ونقول إن المتابعة أمر في غاية الأهمية لأنها مؤشر إلى حالة غير مسبقة في التعاطي مع القضايا العالقة وموجبات إقحامها في الوقت المناسب... لأنه وقت المخاطر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 28 ديسمبر (ك) 2004

* * *

كي لا يصيب الفلسطينيين

ما أصاب أوكرانيا

على هامش كارثة الفيضان التي هي من نوعية الكوارث الشارونية والصهيونية عموماً في حق الفلسطينيين، مع فارق أن هذه الكارثة التي تتواصل عملية إحصاء ضحاياها في زوار الفقر الآسيوي من صنع الطبيعة، بينما تلك الكوارث من صنع أربيل شارون والذين سبقوه في مسلسل القتل والتدمير، لإلغاء هوية شعب بعدما تم إغتصاب وطنه، فإن الشعب الفلسطيني على موعد يوم الأحد المقبل 9 يناير (كانون الثاني) 2005، لكي يسجل في إحدى صفحات كتاب الحُكم في العالم العربي، أنه إختار، ووفق الأصول الديمقراطية، من يقوده في المرحلة الإنتقالية التي تُراوح بين إستتباط دولة له، وبين مواصلة العبث بحقه، من جانب الدولة الأعظم الولايات المتحدة. وإذا سارت الأمور، وهذا هو المرجح، على نحو ما جاءت عليه الإنتخابات البلدية يوم الأحد 26 ديسمبر (كانون الأول) الماضي، ولم تقرر جماهير حركة «حماس» و «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» وبقية الفصائل التي لا تزال على إقتناعها، بأن الحل مع الإسرائيليين هو في المزيد من الحرص على البنادق ومعها حديثاً صواريخ القسام، إخراج محمود عباس، فإن هذا الرجل الذي سبق الإجماع الدولي والعربي عليه الإجماع الفلسطيني، بما في ذلك الإجماع من جانب أهل بيته.. أي «حركة فتح»، سيبدأ بالسياسة ما لم يتحقق بالمقاومة والعمليات الإستشهادية، معتمداً في ذلك على أن «الرئيس الخالد ياسر عرفات أوصى بالسلام وسننفذ وصيته»، على حد قوله للناخبين المتحمسين له، وعلى أن القوى الدولية والعربية باتت معه، بعدما كانت خذلته في الماضي، وتركته عرضة لأنياب بعض العرفاتيين، الأمر الذي أدى به إلى الإنصراف من العمل السياسي.. وكاد يؤدي به إلى الإعتزال، لأن خيبة الأمل من الرفاق قبل غيرهم، كانت أكثر من القدرة على التحمل.

وما نقصده بالإخراج، هو أن تصب أصوات «حماس» و «الجبهة الشعبية» وأصوات فصائل أخرى بقوة في صناديق الإقتراع، لمصلحة المرشح المنافس الدكتور مصطفى البرغوثي، وفي المقابل لا يكون

هنالك إندفاع بالحيوية نفسها من جانب جماهير «فتح»، وبالأذات جماهير الجيل الشاب من الحركة، والمصدوم من أن الضغوط تكاثرت من «ديناصورات» الحركة الأم، على المناضل مروان البرغوثي القابع في سجن الإحتلال لكي يسحب ترشيحه، وما أن حدث ذلك حتى تقدّم إلى الميدان البرغوثي الآخر، الدكتور مصطفى ليحاول من خلال وضع كوفية أبو عمار على كتفيه، إرضاء الأطياف الفلسطينية التي أعتبتها إنقسامات «فتح» وصراعات أقطابها، ومن دون أن يخطر في باله أن «الحماسيين» سيقفون معه، وأن إسرائيل من جانبها ستضفي من خلال ساعات إعتقال عابر له، مسحة نضالية عليه، قد يكون الغرض منها القول للبعض المحزون على حال مروان البرغوثي ما معناه: هذا هو مصطفى بدل مروان ويمكنكم إختياره.

وفي حال إنصبت الأصوات بكثرة من جهة، وتباطأت جماهير «فتح التسوية العباسية» في الإقبال على صناديق الإقتراع، فإن الذي قد يحدث، هو إلى حد ما مثل الذي حدث في أوكرانيا بين الفيكوتورين: الأول يانوكوفيتش الذي يصر عليه الجار القريب فلاديمير بوتين رئيساً للجمهورية، والثاني يوتشينكو الذي يريده الحليف النائي جورج بوش الابن، مع فارق أن الادوار مختلفة سياسياً هنا، حيث أن مصطفى البرغوثي من حيث التصنيف هو فيكتور يوتشينكو، وإنصابت الأصوات من جانب وتباطؤها من جانب آخر هو ما نقصده بالإخراج، ذلك أنه في هذه الحال لا تعود المسألة مجدية. وزيادة في التوضيح نقول انه إذا حدث على سبيل الإفتراض تقارب في النتيجة، فهذا يعني أن التسوية محفوفة بالإنتكاسات في حال أن الفائز ولو بنسبة بسيطة هو محمود عباس.. هذا إذا لم تأخذ اللعبة السياسية الإنتخابية مجراها ويتزايد الحديث حول خروقات وإحتسابات خاطئة للأصوات. لكننا ونحن نقول ذلك، لا نستبعد على الإطلاق مسألة أن يستعمل الفلسطينيون كل مقتضيات الفطنة السياسية، وبحيث يجعل هؤلاء من العملية الإنتخابية لقيادتهم الجديدة ورقة ضغط على الإدارة الأميركية والمجتمع الدولي.. أي بما معناه إستعمال الإخراج لإبلاغ من يهمهم الأمر بأن نصف أو ما يقرب هذه النسبة من غير المؤيدين إنتخاب محمود عباس، وفي الوقت نفسه إختيار منافسه مصطفى البرغوثي مؤشر إلى أن ما يطمح إليه مرشح الإجماع الدولي والعربي، مع نسبة

من الإجماع الفلسطيني، في شأن إنهاء عسكرة الإنتفاضة، ليس فقط لن يحدث، وإنما الذي ربما تنتهي إليه الأمور هو استمرار عسكرة الإنتفاضة، وإستقطاب المزيد من القبول بها، بما يعني المباشرة بعسكرة مجتمع التسوية.. أو إنسحاب بعض رموزه من الحياة السياسية عموماً.

في إنتظار الأحد الفلسطيني الذي ستشكل حصيلته الإنتخابية محطة حاسمة في تاريخ القضية لجهة حدوث نقلة في إتجاه التسوية إذا حظي محمود عباس وعلى أساس الإنتخاب الديمقراطي بنسبة أصوات، مثل التي يحصل عليها المرشحون للرئاسة في العالم العربي، على أساس الإنتخاب الجاهزة نتائجه سلفاً، من المناسب تسجيل بعض المؤشرات والمحطات التي ستسبق ذلك الأحد كونها تحمل في طياتها تفسيرات ومواقف تتصل مباشرة بجوهر القضية.

لمجرد مواراة عرفات الثرى، بدأ الانفتاح الدولي والعربي على محمود عباس، الذي تم إختياره خليفة لعرفات في رئاسة اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعلى أساس أنه عضو لجنة مركزية في حركة «فتح» منذ التأسيس عام 1964 وأمين سر اللجنة التنفيذية منذ العام 1996. وكان أول الوافدين وزير خارجية الولايات المتحدة كولن باول وتبعه وزير خارجية بريطانيا جاك سترود الذي نقل إلى محمود عباس يوم الخميس 25 نوفمبر (تشرين الثاني) موافقه إسرائيل على الإنتخابات الرئاسية. وفي ضوء الترحيب الدولي به قررت الكويت فتح صفحة عباسية مع الفلسطينيين، وكان يوم الأحد 12 ديسمبر (كانون الأول) مشهوداً في هذا الصدد حيث أن محمود عباس زار الكويت وقد إستقبلته بعبارة رئيس حكومتها ورجلها القوي الشيخ صباح الأحمد الصباح: «لا نتحدث عن إعتذار. بالعكس، نحن نرحب بالأخ محمود عباس ونعتبر أن الموضوع إنتهى». وهذا القول جعل محمود عباس يرد عليه في اليوم التالي بالقول: «نعم إنني بإسم شعب فلسطين أعتذر من الكويت». وهذه الزيارة وما رافقها ومن قبلها زيارة سوريا ثم لبنان وفيهما طويت صفحة الماضي العرفاتي لتبدأ صفحة الحاضر العباسي، التي تمهد للتعامل على أساس دولة قائمة مع دولة فلسطينية يؤمل قيامها، أضفت على الساحة الفلسطينية حيوية ملحوظة تجلت في الإختبار الأول لمراكز القوى حيث أن الإنتخابات البلدية أسفرت عن فوز «فتح» بحوالى الثلثين مقابل فوز «حماس» بنسبة

تقل عن الثلث.

مسألة واحدة في استطاعتها تدعيم وضع محمود عباس، وبحيث يأتي فوزه مبهراً، وبمثل فوز خاتمي في إيران، شرط أن يكون هناك إسراع في توظيف الإدارة البوشية لفوز عباس، كي لا يتكرر ما سبق أن فعلته مع خاتمي الذي أخرجته، فكاد «الآيات» يُخرجونه لولا صلابة إلتفاف شعبي حوله قائم على التقهّم وتقدير حُسن النية. وهذه المسألة هي في إستباق الأحد الفلسطيني الكبير بموقف اميركي يتسم بالصدق وإجراءات شارونية تتصف بالمرونة. ونقول ذلك على أساس أن كلام بوش بأنه «من الممكن قيام دولة فلسطينية بحلول نهاية ولايتي الثانية عام 2009» والذي صدر عنه خلال مؤتمر صحافي يوم الجمعة 12 نوفمبر (تشرين الثاني) الماضي عقده مع حليفه وصديقه رئيس الحكومة البريطانية طوني بليز، الذي كان أول زواره المهنيين بالفوز بولاية رئاسية ثانية، شكّل ما يشبه الصدمة في النفوس الفلسطينية والعربية عموماً، وكذلك في نفوس بعض أهل القرار الدولي، لأن ذلك معناه تأجيل البت في أمر كان من المفترض حسمه في الولاية الرئاسية البوشية الأولى. ويبدو أن هذا الحذر أو الصدمة، كان وراء التطمين اللاحق من جانب الرئيس بوش عندما قال للرئيس الباكستاني برويز مشرف، الذي كان أول رئيس من بين المسلمين والعرب يطأ البيت الأبيض للتهنئة بالفوز: «أكّدث للرئيس مشرف أن ثمة فرصة متاحة للعمل من اجل إنشاء دولة فلسطينية وإحلال السلام في الشرق الأوسط وأبلغته أن ذلك سيكون من أولويات إدارتي وأن الهدف هو دولتان تعيشان جنباً إلى جنب...».

هل يفعل ذلك الرئيس بوش وبذلك يحقق إلى جانب إنجاز السلام السوداني بين جنرالي السودان عمر البشير وجون قرنق ما يعوّضه عثرات الأحوال العراقية، حيث الإنتخابات عرضة لكل أنواع المفاجآت، والتي قد تتسبب في صدمة للولاية الثانية للرئيس بوش، الذي يعيش أهوال صدمات الولاية الأولى؟

عسى ولعل، خصوصاً ان كارثة الفيضان الآسيوي لم تترك فقط ضحايا بعشرات الألوف من بينهم اوروبيون بعشرات المئات، ودماراً بمثل التدمير الأميركي في هيروشيما ثم في العراق، والتدمير الشاروني في فلسطين... وإنما طرحت برسم أهل القرار، خصوصاً من كان بينهم عنيداً وشغوفاً بالهيمنة، ومسكوناً بالإحساس بالعظمة، حقيقة

أساسية، وهي انه ما من يد إلا يد الله فوقها. وهذا هو الفيضان سلاح من صنع الطبيعة، أقوى من أي سلاح من صنع البشر. كما أنه عبء... برسم من عليه أن يعتبر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 4 يناير (ك) 2005

* * *

سودان جديد... والبقية تأتي

في يوم واحد إختار الفلسطينيون رئيس «السلطة الوطنية» المؤمل، في حال برّ الرئيس جورج بوش الابن هذه المرة بوعده أن تصبح دولة، ووضع السودانان «سودان الإنقاذ» الذي يتقاسم الشأن فيه الرئيس عمر البشير وعلي عثمان محمد طه، الذي حل في التقاسم محل الدكتور حسن الترابي فكّ الله أسره وفرّج الله كربته، و«سودان التحرير» الذي ينفرد في قيادته الدكتور جون قرنق، التواقيع على إتفاقية السلام، وبذلك طوى الطرفان الصفحة الأخيرة من كتاب الحرب. وفي اليوم نفسه وهو الأحد 9 يناير (كانون الثاني) 2005 كانت الدبلوماسية الأميركية تتشبط كما لم تتشبط من قبل في إتجاه «عراق السنة» من أجل ألا يقاطعوا الإنتخابات البرلمانية في العراق وتحاول من خلال الحكم السوري، إبرام صفقة تجعله يستدير في الشأن العراقي وعلى نحو ما ترى الإدارة البوشية.

وإذا كان من المبكر الجزم بما سيحدث فلسطينياً وعراقياً، فإن ما حدث في السودان يستوجب وقفة تأمل عميق كون هذا الإتفاق الذي وقّعه «جنرال الإنقاذ» و«جنرال التمرد» يمكن أن يشكل نموذجاً لإتفاقات سلام كثيرة، بل قد يجوز القول إنه يصلح نموذجاً للحالة العراقية وللحالة الفلسطينية - الإسرائيلية وللحالة اللبنانية ولحالات عربية أخرى قد تتكون مستقبلاً، من دون أن يعني أن الظروف متشابهة أو أن هنالك مواجهات مشتعلة.

جاء الإتفاق بين «سودان الإنقاذ» و«سودان قرنق» بعدما كان الطرفان إقتتعا بأن المواجهة لن تؤدي إلى نتيجة عدا الاستنزاف البشري والمادي. وجاء بعدما إقترب «الإنقاذيون» من الإدارة البوشية يساعدهم على ذلك أنهم باتوا دولة نفطية، ومن كانت

هذه حاله فإن سعره يرتفع في بورصة السياسة الدولية. وجاء بعدما ضاقت صدور جيران السودان بالمعارضين. وجاء بعدما وجد «الإنقاذيون» ان دولة الشريعة ممكنة لو كان السودان ملة واحدة. وجاء الإتفاق بعدما اعاد هؤلاء ترتيب محتويات البيت وفض الشراكة التاريخية بين عساكر «الإنقاذ» وشيخهم حسن الترابي، مكررين في ذلك ما فعله الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد، عندما انزل احكاماً قاسية في حق مؤسس «البعث» ميشال عفلق، تحوّل «الاستاذ ميشال» بموجبها من شريك ومنظر وصاحب حق حزبي على اهل الحكم، إلى شخص مطارد، سرعان ما انتهى به المطاف في بغداد صدام حسين بعد اقامة عابرة في بيروت. وجاء الإتفاق بعدما قرر «الإنقاذيون» والفضل في ذلك إلى ان النائب الأول لرئيس الجمهورية علي عثمان محمد طه، اعتمد سياسة «خذ واعط» وليس فقط «خذ وطالب» على نحو ما كان يحدث في الماضي. وهذه السياسة وما رافقها من اسلوب في التخاطب مع الطرف الآخر، تسببت في استيلاء ثقة وعلاقة شخصية اجتماعية، حتى ان الدكتور جون قرنق وزوجته فوجئا بالنائب الأول وزوجته يهنئانهما قبل ايام بعيد ميلاد السيد المسيح، وقد يكونان ارفقا التهئة بصندوق من ادوات زينة شجرة الميلاد المنصوبة في منزل قرنق. وجاء بعدما اقتنع سودانيو «الإنقاذ» بأن درهم وقاية افضل من قنطار علاج كما يلخص الحال المثل الشعبي. والوقاية هنا بمعنى التنازل المتدرج تقادياً لرفع وتيرة المواجهة، بغرض اخضاع حركة قرنق إلى الأمر الواقع. وجاء الإتفاق بعدما قرأ «الإنقاذيون» في الوضع الراهن ان الإدارة البوشية تحتاج إلى «إنجاز» يعوّضها إخفاقات متتالية في العراق، وليس هناك مثل إتفاق السلام في السودان، ما من شأنه ان يعوّض ويترك انطباعاً بأنها ليست كما يظن الظنّيون دولة معتدية وتحتل دولا أخرى لمجرد الرغبة في العدوان والإحتلال، وإنما هي تريد للآخرين السلام والانصراف إلى التنمية. وفي ضوء هذه القراءة التي ثبتت صحتها، تسارعت وتيرة الإتصالات بين الحكم السوداني والإدارة البوشية، وتكاثرت مفردات الود وبرقيات التهنة، فضلاً عن تصريحات لوزير الخارجية السودانية الدكتور مصطفى اسماعيل بدا فيها حاذقاً في دغدغة المشاعر البوشية. وجاء الإتفاق بعدما إنفضّ الجمع المعارض ولم يعد كما كانت عليه الحال أيام عز المعارضة،

وكيف أن الرئيس الاريترى افورقي أجاز لهم إستعمال مبنى سفارة السودان مقرأ لإجتماعاتهم. كما أنه جاء بعدما عاد من عاد وبقي من هو على أهبة العودة، وإستسلم من كان صوته في زمن «العز الاريترى» أقوى من صوت قرنق نفسه، ونعني بذلك العميد عبد العزيز خالد. وجاء بعدما شجع التوجه نحو التسوية الجاران العاتبان على «حاكم الإنقاذ» مصر وليبيا، للذان شعرا بما يشبه الإستبعاد أو التهميش لهما، وحصر الإتفاق في الجانب الأفريقي فقط.

ولمجرد أن تم التوصل إلى الإتفاق ثم توقيعه، بدأت الإفتراضات تتوالى. فمن يرى في الإتفاق انه خطوة على طريق التجزئة. ومن يرى أنه بعدما حصل الجنوبيون على هذه المكاسب التي حصلوا عليها بفعل التمرد، لماذا لا يحدث الشيء نفسه في دارفور، ولماذا لا تحدث حالة تمرد أخرى في شرق السودان.. ولماذا.. ولماذا؟ ومن الإفتراضات أيضاً أن العبرة بالتنفيذ، وفي هذا السبيل فإن جون قرنق سيستفيد ما أمكنه الإستفادة خلال المرحلة الإنتقالية، التي هي مرحلة إختبار النوايا، وأنه سيعلم بعد ذلك قيام «دولته»، وبحيث تكون الدولة المسيحية الافريقية -

العربية الوحيدة، وهذا سيحقق لها «لوبي» دولي غربي عموماً وأوروبي في شكل خاص، وأنه بعد إعلان هذه الدولة يستطيع التحكم في مسألة مياه النيل، وإلى درجة أنه يصبح قادراً على تعطيش المائة مليون مصري، بإعتبار أن عدد سكان مصر سيصل خلال الخمس عشرة سنة المقبلة إلى هذا العدد.

أمام هذه الإفتراضات ما الذي يملكه من إجابة وإستقراء، متابع منذ أربعة عقود للشأن السوداني مثل حالي؟

إن ما يمكن قوله هو أن الإنفصال مستبعد، لأن لا مصلحة لأميركا في إستيلاء كيان صغير، يكون عبئاً عليها ما دام السودان بالكامل ككيان كبير بات في ضوء المستجدات لها.. أو في الحد الأدنى ليس ضدها. وأن ما فعلته الإدارة الأميركية بالنسبة إلى قرنق، لا يمكن أن يحدث في دارفور، ذلك أن الجنوب قضية في الإستراتيجية الأميركية في القارة الأفريقية، بينما دارفور وسيلة ضغط لا أكثر، جرى إستعمالها من أجل إنجاز إتفاق الحكومة السودانية وحركة التمرد. بل ليس مستبعداً القول إن إهتمام الإدارة الأميركية بموضوع دارفور، هو لإسقاط شبهة الإنحياز الديني، أي بما معناه أن إهتمامها بموضوع الجنوب

ليس لأنه مسيحي، وإنما لدواع أخرى، وأن دارفور مسلمة ومع ذلك هنالك إهتمام بأحوالها. وهذه النقطة بالذات تبدو بالغة الأهمية في وقت يتزايد الإقتناع لدى قطاعات عريضة من المسلمين في العالم، بأن الإدارة الأميركية تحارب الإسلام والمسلمين. أما مسألة أن يقوى شأن قرنق في حال إنتهازه الفرصة وإعلان «دولة الجنوب»، وإلى درجة تعطيش المائة مليون مصري، فإن العلاج الفوري لهذا الاحتمال، المستبعد اصلاً، هو في قيام سرب جوي مصري يحول «دولة الجنوب» في دقائق إلى أطلال.

ويبقى امران. الأول هو أن الحكم السوداني يمكن بهذا الإتفاق التأكيد بأنه «إنقاذ» إسماع على مسمى، ذلك أن السودان كان يمكن أن يضع، لولا هذه الحكمة في التصرف. وما هو أهم من هذا التأكيد هو تقاسم مكاسب الإنجاز مع بقية أقطاب المجتمع السياسي السوداني، خصوصاً أن هؤلاء سيراعون الإتفاق ليس مسaire منهم لـ «الإنقاذيين»، الذين أمعنوا فيهم تشريداً ومطاردة وإعتقالات ومدهامات، وإنما لأن بين هؤلاء والإدارة البوشية علاقات بالغة الأهمية، بعضها يندرج تحت بند «التأمر»»، وبعضها الآخر نتيجة قراءة واعية للتطورات في المنطقة. وهؤلاء وبالذات سيد طائفة «الختمية» محمد عثمان الميرغني وسيد طائفة «الأنصار» الصادق المهدي، وهم يرون ولا شك أن الإتفاق الذي تم التوصل إليه ثم توقيعه قبل يومين في نيروبي، ليس مثل ذلك الذي تم توقيعه في أديس أبابا عام 1972. ذلك أن أميركا ذلك الزمن لم تكن وحدها وإنما هنالك منافس قوي لها هو الإتحاد السوفيياتي. وبالنسبة إلى الإتفاق الجديد، فإنه سيكون إلى حد ما مثل «إتفاقية كامب ديفيد» بين الرئيس الراحل أنور السادات ورئيس وزراء إسرائيل الراحل مناحيم بيغن، بمعنى أنه ليس مسموحاً إلغاؤها وإن كل المسموح به هو إدخال بعض الشكليات عليها. ونقول ذلك على أساس أنها إتفاقية سودانية التوقيع أميركية الرعاية، تماماً مثل تلك التي أبرمها الرئيس الاسبق كارتر مع السادات وبيغن.

أما الأمر الثاني فهو أن الإتفاق حقق للإدارة الأميركية ما تتوخاه، وهو أن يكون «إسلام الإنقاذ» في السودان بمثل الإسلام الأردوغاني في تركيا. ولأن هذا الأخير مقبول، فإن الآخر يندرج بدوره مع الوقت في خانة القبول.

وخلاصة القول إننا امام سودان جديد، في إنتظار

عراق جديد وفلسطين جديدة وسوريا جديدة ولبنان جديد، بالحسنى حدث ذلك، كما فعل العقيد معمر القذافي، وكبديل للحل الحربي مثل الذي أصاب العراق، أو بالعقوبات الأميركية الجاهزة سلفاً، من خلال مجلس الأمن ومبالغة الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان في تلبية المطالبات الأميركية... وبالذات عندما تكون على حساب سيادات الآخرين وثرواتهم وإستقلالهم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 11 يناير (ك) 2005

* * *

أبو مازن.. وإقتباسات إضطرابية من السادات وعرفات

جاء فوز محمود عباس متوقعاً ومبهرأ في الوقت نفسه. ومن الطبيعي عندما يلقي إختياره هذا الإجماع الرسمي العربي والدولي عليه، أن يكون هناك إندفاع فلسطيني في إتجاهه. وهذا ما حدث وإن كانت «حماس» إعتبرت الفوز باهتأ، على أساس أن ما حصل عليه محمود عباس كان 65 في المئة من 60 في المئة من الناخبين، وهذا يعني - والرأي للشيخ حسن يوسف أحد قياديي «حركة حماس» -، إن الدعوة إلى مقاطعة الإنتخابات لقيت تجاوباً ملحوظاً. كما أن مدققين من داخل اللجنة الإنتخابية قالوا بعد ذلك، أن نسبة الإنتخابات لم تتجاوز 45 في المئة من مجمل الناخبين، وأن الذي ناله محمود عباس وعلى نحو ما تم إبلاغه به رسمياً يوم الأربعاء 12 يناير الحالي، كان 62.52 في المئة من الأصوات، مما يقلص إلى حد كبير من حجم التفويض الذي حصل عليه. وبصرف النظر عما إذا كانت «حماس» جئرت أم لم تجئر جزءاً من الـ 153516 صوتاً التي نالها المنافس مصطفى البرغوثي، فإن الرجل يستطيع القول إنه خاض المعركة من دون دعم أي من الذين ناصروا محمود عباس عربياً ودولياً وإسرائيلياً، ومن دون أن تكون «حماس» حازمة في موقفها تجاهه، ومن دون أن يكون المستقلون على بيّنة من أمرهم، بمعنى أن هذه الأجواء الترحيبية الإستباقية بمحمود عباس من كل حذب وصوب، قد تحققت للقضية شيئاً، في حين أن إستقلالية البرغوثي مع تقديرهم لها، لن تقيد في

شيء، خصوصاً أن ما يطرحه البرغوثي، وهو «التمسك بقرارات مؤتمر مدريد والشرعية الدولية»، في وجه ثوابت محمود عباس، وبالذات ما يتعلق بتنازلات أوصلو، ستعيد المداولة على مستوى القوى الكبرى إلى الوراء، فيما المطلوب خطوة إلى الأمام.

في ضوء واقع الحال، كيف يمكن للحالة الفلسطينية الجديدة أن تصمد، إذا كانت «حماس» وإستناداً إلى نظرة أحد كبار قادتها الدكتور محمود الزهار، ستبقى تلقى المزيد من علامات الإستقها، وستبقى ناقدة للسلوك ومشككة في النتائج، ولا تتوقع مردوداً إيجابياً في إسرائيل؟ وكيف السبيل إلى إنهاء عسكرة المقاومة، إذا كان رأي الزهار هو: «إننا سنسأل أبو مازن عن الجهة التي ستحمي الفلسطينيين من الإجتياحات التي سيشنها الإحتلال ومن سيحمي البيوت والأشجار والحدود؟ إذا كان هناك من سيحميها فسنشاركه في ذلك، لكن طالما بقي الإحتلال وبقيت الأرض محتلة وتتعرض للعدوان فلا يستطع أحد نزع سلاحنا...»؟ وكيف بالثقة «الحماسية» التي يمكن أن تتطور إلى حد المشاركة في حكومة جديدة، إذا كان محمود عباس الرئيس في نظر الزهار هو غير محمود عباس الذي جاء فوزه يبهز كل قادة العالم. وما يراه الزهار يتمثل بقوله: «إن أبو مازن لا يملك تفويضاً لوقف المقاومة ضد الإحتلال، وإذا أراد تفويضاً فعلياً إيجاد وسيلة لسؤال الفلسطينيين خارج الأرض المحتلة، وليس في الضفة وغزة فقط، ذلك أن أكثر من نصف شعبنا في الخارج، ومن ينجح سيكون رئيساً للسلطة فقط. هذه ليست إنتخابات رئاسة دولة، وإنما إنتخابات من أجل إدارة شؤون السلطة الداخلية...».

الإجابة عن ذلك هي في أحد إحتمالين: إما ان يستخدم محمود عباس الكثير من حذاقته مستحضراً في ذلك بعض مفاهيم عرفات وأساليبه في تقليم مخالب الآخرين، ويتمكن من إحداث إنشقاق في صف «حماس»، كتلك الإنشقاقات في كل الفصائل الفلسطينية، التي كانت لعرفات أنامل خفية فيها، وبذلك تصبح له «حماس» التي يتكئ عليها وتفيده في منافع أخرى. وإما أن يتسلح بإنجاز تنموي ووطني، ولو جاء يفتقر إلى السخاء من جانب إدارة الرئيس بوش والإتحاد الأوروبي والإقتدار العربي، ويضرب في هذه الحال «حماس» على نحو ما فعل الرئيس أنور السادات، بعد أقل من ستة أشهر، بأقطاب الحقبة الناصرية الذين رماهم في السجن بتهمة التآمر عليه

وعلى قضايا الشعب على حد ترويجه للحيثيات. وبعدها حكم وحيداً، وحارب على نحو ما يريد، ثم صالح أيضاً على النحو ذاته، ثم دفع حياته ثمن هذا السلوك، الذي لم يأخذ بأصول التعامل مع القضايا الكبرى، مفترضاً أن الوعود التي حصل عليها من أميركا عن طريق وسطاء الوقية، من شأنها أن تجعل عضلاته لا ترتخي وهامته لا ترتجف.

أما الحل الثاني، فهو في إعتبار نفسه «كبير العائلة» الفلسطينية بالمفهوم «العباسي»، وليس بالمفهوم «الساداتي»، ليدعو الذين نافسوه وكذلك الذين قاطعوه، إلى المشاركة في التجربة التي سيخوض دروبها الملأى بالألغام، وبحيث يكون شخص مثل البرغوثي وزيراً للخارجية، خصوصاً بعد ما أثبت مسألة أساسية، وهي أن البرنامج وما يحويه من مضامين، له الأهمية نفسها التي لهذا الفصل أو ذاك، وما هو مخزون لديه من أسلحة، ويكون خالد مشعل وتيسير خالد وآخرون كثيرون، أصحاب مسؤوليات رسمية في التجربة المشار إليها. ألم يلجأ شارون إلى هذه المعادلة، وإرتضى بموجبها شيمون بيريز، أن يكون «الوزير الأرفع مرتبة في الحكومة»؟ وحتى إذا كان هنالك رفض من هؤلاء، فإن الرجل يكون إجتهد وله الكثير من الأجر عند ربه ولدى الشعب الفلسطيني.

لكن تبقى مسألة العنف وكيف يتوقف، فلا يعود مصراً على موقفه من يرى ان العملية الإستشهادية العشوائية داخل المقاهي والمطاعم ومحطات «الباصات» تقرّبه من تحرير الوطن، ولا يعود الشارونيون على إستعدادهم للقتل والتدمير والإغتيال، وهي أساليب إستأنفوا إعتمادها لمجرد أن إنتهى الأحد الفلسطيني بالفوز المتوقع لمحمود عباس. وفي هذه الحال وما دامت هنالك مشاركة من الجميع في التجرب، فإن العمليات، عدا التي تستهدف قوات الاحتلال فقط، لن تحدث. وإذا إفترضنا أن الشارونيين ربما يستخدمون فلسطينيين لهذا الغرض، يغرونهم ثم يفجّرونهم أمام أهداف معيّنة، فإن النفي سيكون جاهزاً وسيلقى التصديق، خصوصاً أن التقليد الذي كان متبعاً هو المسارعة إلى الكشف بالصوت والصورة من جانب «حماس» أو «الجهاد» أو «كتائب شهداء الأقصى» للإستشهادي أو الإستشهادية. وحسماً للأخذ والرد في هذا الشأن، فإن اللجنة نفسها التي ترأسها جيمي كارتر، وشهدت بنزاهة إنتخابات الرئاسة الفلسطينية، يمكنها أن تتألف المهمة بمشاركة

جنرالات نزيهين وتصدر، بإفتراض إقامة مركز لها داخل الأراضي الفلسطينية، تقريراً تقول فيه: هذا الطرف هو المعتدي وذلك هو المعتدى عليه. وفي هذه الحال تقف الإدارة البوشية التي تقول إنها ستفعل ما لم تفعله في ولايتها الأولى، وتقف دول العالم معها، ومن خلال مجلس الأمن، ضد المعتدي ومع المعتدى عليه، وهو الموقف الذي إتخذه الجنرال ديغول بالنسبة إلى حرب 5 يونيو 1967، وكان بموجبه حكيماً وعلى خلق سياسي عال.

ونعود إلى ما بدأناه حول التمني، لو أن محمود عباس الذي فاز كان من القدس، وكان من مواليدها أيضاً البرغوثي الذي حل ثانياً، أو الآخرون الذين نزلوا إلى الحلبة، وبذلك بدا المشهد الديمقراطي الفلسطيني على كثير من الرقي. والذي يثير الإعجاب هو أن وراء هذا المشهد الكثير من الدم المراق والدمار، ومواكب الشهداء والإغتيالات والقهر والاذلال، والمعاناة طوال نصف قرن، مهورة سنواته بالإستهانة الدولية التي هي حلقة من مسلسل التآمر على الأمّتين. أما لماذا هذا التمني، فلأن هذا الأمر كان سيجد طريقه إلى الوجدان وسيستفز الشارونيين، الذين يرون أن القدس قدسهم، ولا مجال حتى لإبنها البار ياسر عرفات التمدد هائلاً بعدما أسلم الروح بين حبات ترابها، فكيف لرئيس يواصل من بعده وعلى هدي وصيته. ونقول ذلك من دون أن ننسى أن أبناء العواصم، نادراً ما باتوا رؤساء. فهذا جمال عبد الناصر من «بني مر» في قلب الصعيد، وهذا حافظ الأسد من «القرداحة» على الساحل السوري، وهذا أنور السادات من المنوفية و.. والقائمة طويلة. ويبقى أن ما أوردناه هو بعض التأمّلات، في إنتظار عودة التعقل الشاروني والوعي الأميركي، رداً على احتمال إستعادة الفلسطينيين الحكمة... وهذا ما بدأه يوم الأحد 9 يناير 2005 ومن مصلحتهم ومصلحة العالم أن يدوم طويلاً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 18 يناير (ك) 2005

* * *

المقايضة العادلة.. بين فلاديمير وبشار

تأتي زيارة الرئيس بشار الأسد إلى روسيا في وقت

تستند إلى رؤية ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز، التي إنتهت مبادرة عربية أقرتها بالإجماع القمة الدورية الثانية في بيروت. ثم أتبع الثنائي البوشي - الشاروني عدم التجاوب مع التوجه البشّاري بالتهويل، ثم بالتشويش على زيارة الرئيس بشّار إلى موسكو، وإعتبار الرغبة في الحصول على صفقة صواريخ «اسكندر A» والتي يتم حملها على الكتف بأنها تهديد لإسرائيل. ولم يكتف الشارونيون بتسميم أجواء الزيارة من خلال الكتابات والتصريحات والتلفيقات، وإنما وصلت إلى حد أن أرييل شارون أجرى إتصالاً بالرئيس فلاديمير بوتين، مستبقاً وصول الرئيس بشّار إلى موسكو أمس، يطلب منه عدم إبرام صفقة الصواريخ مع سوريا.

من حقنا أن نخشى إحتمال تجاوب بوتين مع شارون، الذي قال من طرف واحد إن محادثته الهاتفية مع بوتين «كانت طويلة وودية»، لكننا في الوقت نفسه نرى أن تخلي روسيا عن إيران، وهو ما لم يحدث حتى الآن، وتخلي روسيا عن سوريا، وهذا ما تريده الإدارة البوشية وحليفها شارون، معناهما خلع الأنياب الروسية وتقليم مخالب بوتين، وبحيث لا يعود في إستطاعته تحقيق تطلعاته القيصرية، وفي أن يكون نداً لأميركا في بعض المناطق، وبالأذات في دول الجوار الممتدة من أفغانستان إلى سوريا مروراً بإيران.

ولهذه المناسبة يمكن القول إن سوريا القوية والصامدة هي ورقة لمصلحة طموح بوتين وتطلعاته. ومثل هذه القوة لا تكون فقط بالجدولة الميسرة للديون الروسية على سورية والبالغة 13 مليار دولار، ولا برفع حجم التبادل التجاري الذي لا يتجاوز 210 ملايين دولار، ولا بتطوير التعاون في مجال الطاقة والري وبناء السدود وإستخراج النفط، وتنشيط البعثات الدراسية في المعاهد الروسية والتي وصلت إلى 35 ألف طالب، وإنما تكون، ما دامت هنالك أرض سورية محتلة، بالإصرار على تطوير التعاون العسكري ما دام ينحصر في الإتفاقات المبرمة، والذي لا تشكل صواريخ «اسكندر A» خرقاً لها، إلا إذا كانت الإدارة البوشية والحكومة الشارونية تريان أن مثل هذه الصواريخ ستحسم الموقف لمصلحة سوريا، في حال وصلت إلى المقاومين العراقيين وإلى «حزب الله» في لبنان، أو في حال نفذت الإدارة البوشية وعيدها لسوريا، وكررت معها ما فعلته بالعراق، وبذلك تصبح هذه الصواريخ رقماً صعباً ضد القوات الأميركية، إن

لم تتضح بما يكفي نوايا الإدارة البوشية تجاه سوريا، وإن كانت وتيرة التحذير والتهويل إرتفعت عشية تنويع جورج بوش الابن رئيساً لولاية ثانية، تستغرق أربع سنوات، ستكون عاصفة على الأرجح. فمن كلام كونداليزا رايس في شهادتها أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، قبل تثبيتها وزيرة للخارجية، إلى كلام سيد البيت الأبيض لمناسبة تنويعه، وكلاهما شديد التأثير بالمنظر الإسرائيلي بناتان شارانسكي، الذي يشغل منصب وزير الإسكان المسؤول عن توسيع المستوطنات الإسرائيلية على الأراضي العربية، ومؤلف كتاب «قضية الحرية»، الذي قرأه بوش وأوصى كونداليزا بقراءته، أو أن العكس هو الصحيح، إلى كلام ريتشارد ارميتاج نائب وزير الخارجية أيام كولن باول، عند لقائه بالرئيس بشّار الأسد قبل أسبوعين في دمشق، وهو كلام إتسم بقلّة الدبلوماسية واللياقة، إلى اوركسترا التهويل التي تواصل العزف بإدارة مايسترو متصهين... انه من كلام هؤلاء الذين نشير إليهم، ثم من النوايا المبيتة للرئيس بوش في خطاب التنويع، وإعتماده أسلوب «نشر الحرية في العالم» بمفهوم الإسرائيلي شارانسكي، نرى أن ما هو آت قد يكون أشد هولاً من الذي مضى، وأن الرئيس بوش في صدد فتح جبهات جديدة قد تكون سوريا أو إيران، أو دولاً عربية ليست في الحساب، يتم التغيير فيها من دون الحاجة إلى حروب كتلك التي إستهدفت العراق.

ومن الطبيعي عندما تكون الحال على ما هي عليه، أن يطرق الرئيس بشّار باب الصديق، طالباً منه ما هو أكثر من النطق، ما دامت حال هذا الصديق تُمكنه من تقديم النجدة، التي من شأنها تحقيق بعض التوازن.

ومع أن الرئيس بشّار حرص على أن يطرق البوابات الأوروبية خلال السنوات الثلاث الماضية، ومن قبل أن يطرق الباب الروسي، إلا أن الأوروبيين لم يكونوا عند حسن الظن، وتركوا الإدارة البوشية ومعها الحكومة الشارونية تمعان زعزعة في الموقف السوري، معتمدين في ذلك وسائل غير نظيفة على الإطلاق. بل إن الحال وصلت إلى حد إعتبار قبول الرئيس بشّار بالتفاوض ومن دون شروط، بأنه حالة ضعف وأن من الأفضل لهما الإنقضااض عليه بدل التجاوب مع دعوته إلى الحوار، وبنية من يريد مخلصاً إحلال السلام وفق تسوية موضوعية محل الصراع،

هي أوقعت سوريا في قبضة الإحتلال. ونقول ذلك على أساس أنها سهلة، ما دامت الأكتاف السورية تتحملها، وما دام السوريون مثل إخوانهم العراقيين لا يطبقون الإحتلال والمحتلين.

وأما إذا كانت هنالك ظروف ضاغطة على الرئيس بوتين، كي لا يبرم صفقة الصواريخ مع الرئيس بشار، فليكن البديل لذلك هو إصراره كقوة لها تأثيرها في الأمم المتحدة، كون روسيا من الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن، على أن يبدأ التفاوض من أجل التسوية، وعلى نحو ما أشار إليه بكل الوضوح قبل شهرين الرئيس بشار، الذي قال لمبعوث الأمم المتحدة أنه مستعد للتفاوض ومن دون شروط. وهذه مقايضة في الحد الأدنى.. وإلا فعلى تطلعات بوتين ومصادقية روسياه السلام.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 27 يناير (ك) 2005

* * *

سفراء... بلا حدود

من المهم التوضيح أولاً بأن عنوان هذه المقالة لا يندرج ضمن التسميات المألوفة لمنظمات وهيئات تسعى من أجل الخير العام وحقوق الانسان، مثل «أطباء بلا حدود» و«مراسلون بلا حدود» و«محامون بلا حدود».. الخ، وإنما القصد هنا هو أن هنالك سفراء يتصرفون بلا حدود.. أو بمعنى آخر أنهم يتجاوزون الحدود المسموح لهم بها والمتعارف عليها، وفي إطار خصوصية النظام في البلد الذي يعملون فيه.

وهذا النموذج من السفراء ليس جديداً على المجتمع الدبلوماسي، وبالحدة التي ظهر عليها في لبنان حيث تحولت ممارسة ثلاثة من السفراء إلى قضية خلافية، يقال في شأنها على صفحات الصحف ومن خلال شاشات الفضائيات ومحطات التلفزيون الأرضية كلام في غاية الخشونة، وإلى درجة يشعر المرء أحياناً وكما لو أن هذا السفير أو ذاك هو قطب من قطب السياسة المحلية.

الأكثر حيوية من هؤلاء السفراء هو السفير الأميركي جيفري فيلتمان، الذي تزامن تسلمه المنصب مع التمديد لرئيس الجمهورية إميل لحود ثلاث سنوات،

الأمر الذي أشعل بيت العلاقة اللبنانية - الفرنسية السورية - الفرنسية ناراً وأوجد للحليفين المتنافرين جورج بوش الابن وجاك شيراك موضوعاً مشتركاً إتفقا في شأنه كما لم يتفقا من قبل على أي موضوع. وبعدما إطمأن الرئيس بوش إلى أنه باق في الحكم أربع سنوات أخرى بات القرار المستصدر من مجلس الأمن ويحمل الرقم 1559 سقفاً للتعامل مع الحالة اللبنانية - السورية.

ومنذ صدور هذا القرار والسفير الأميركي يتصرف خارج الحدود. فهو يقابل من يريد ويوغر صدر من يرى جدوى من النفخ في صدره. وبعدما إتسعت الهوة بين أهل الحكم ومن حولهم نصيرهم وحليفهم الحكم السوري من جهة، والمعارضة اللبنانية التي تعاضد شأنها بالتحالف المتنامي بين وليد كمال جنبلاط والمجموعة السياسية المسيحية التي تطالب بتقليص الدور السوري إلى حد الإخراج، مطمئنة إلى أن الإدارة البوشية والحكم الشيراكي لن يتراجعا عن التنفيذ الحرفي للقرار 1559... انه بعد إتساع الهوة على النحو الذي إتسعت فيه بات صوت السفير الأميركي يعلو أكثر وأكثر، ووصل إلى حد أنه في إجتماعاته بكبار أهل الحكم في لبنان بدأ يقول كلاماً لا يجوز أن يقال، ويتجاوز بكثير السقف المسموح لرؤساء البعثات الدبلوماسية قوله، وإن أكثر ما يمكن الإقدام عليه هو أن يسلم السفير مذكرة من حكومته وبالطرق الدبلوماسية المتعارف عليها إلى وزير خارجية البلد العامل فيه. وفي واحد من هذه الإجتماعات المشار إليها، رأى رئيس الحكومة عمر كرامي أنه أمام سفير إسماء، إلا أنه أمام وزير خارجية الولايات المتحدة، أو أحد كواسر الإدارة البوشية كمضمون كلام، ذلك أن السفير الأميركي أبدى ما يشبه الاعتراض على لقاء عقده رئيس الحكومة مع الأمين العام لـ «حزب الله» حسن نصرالله، وعلى التصريحات التي أدلى بها كرامي بعد اللقاء. ويقال إنه عندما قال كرامي للسفير ما معناه أنه يتجاوز الأصول الدبلوماسية، وهو ما لا يفعله بقية السفراء ولا حتى سفراء أميركا في دول أخرى، فإن السفير الأميركي قال العبارة الحبيسة في صدره، وخلاصتها أنه يستغرب الاعتراض من جانب الحكومة اللبنانية على ما يقوم به، بينما هي توافق على تدخلات «المسؤول الأمني السوري الموجود في عنجر». وهذا الكلام أثار حفيظة كرامي البارد الأعصاب عموماً، فقال للسفير إن الشخص الذي

تشير إليه (اي العميد رستم غزالي) يمثل السلطة السورية التي تربطنا بها معاهدة وإتفاقات وتنسيق، في حين أنك تخالف بما تفعله الأصول الدبلوماسية. وبعدما لم تتفع عبارات كرامي وإستمر السفير الأميركي في التصعيد والكلام حول إنتخابات سيتم تزويرها وإنسحاب سوري يجب إنجازه فإن كرامي أشرك المجتمع الإسلامي السني في الأمر، وإغتتم مأدبة أقامها مفتي الجمهورية الشيخ الدكتور محمد رشيد قباني تكريماً له، وجمع فيها رؤساء الحكومة السابقين أمين الحافظ ورشيد الصلح وسليم الحص ورفيق الحريري، ليقول أمام هذا الجمع بصيغة المحتج والشاكي وغير القادر على كبح تدخلات السفير الأميركي جيفري فيلتمان: «أريد أن أشير إلى أن كرامتنا الوطنية تُستنزف كلما قابلنا سفيراً، وأن هذه التدخلات السافرة والوقحة في شؤوننا الداخلية أمر مرفوض، ولا أعتقد بأن أي لبناني وطني حر شريف يرضى بهذه التدخلات وبهذه الوقاحة والصفاقة...». وهذا الكلام من جانب كرامي، مع أنه إعتد التجريد ولم يسم السفير الأميركي بالإسم، جاء منسجماً مع كلام سبق أن قاله رئيس البرلمان نبيه بري الذي وصف السفير بأنه «المفوض السامي الأميركي»، وجاء فيه رداً على المطلب الأميركي - الفرنسي في شأن مراقبة الإنتخابات والعلاقة اللبنانية - السورية والمسؤول الأمني السوري في عنجر البلدة اللبنانية الحدودية التي هي مقر هذا المسؤول «لا يُعقل ان يراقب ابن أمس في الديمقراطية ابن آلاف الأعوام في ممارستها. ثم ان عنجر شقيق وجار وقريب وحليف وتوأم وأن فك التوأم لم ينجح ولو بعملية جراحية...». وعلى هامش هذين الردين من جانب بري ثم من جانب كرامي كانت هنالك ردود فعل كثيرة سجلها سياسيون يرتبطون بعلاقات مع سوريا، وطالب البعض بمقاطعة السفير الأميركي وطرده، لأنه يريد إستبدال عنجر، مقر رستم غزالي بـ «عوكر» إحدى ضواحي بيروت حيث مقر السفارة الأميركية. أما في سوريا فإن الكياسة والكلام المتأنى والألفاظ المنتقاة بعناية كانت الغالبة، على رغم أن ما قاله ريتشارد أرميتاج نائب وزير الخارجية الأميركية خلال لقائه بالرئيس بشار الأسد، كان بالخشونة نفسها التي إتسم بها كلام السفير فيلتمان في لبنان. وتأكيداً للأمر فإن السفير أقدم وبطلب من حكومته على خطوة غير مألوفة، حيث أنه في اليوم الذي إستقبله رئيس الجمهورية إميل لحود (الثلاثاء 4-1-2005) وزع بياناً يتضمن ما قاله أرميتاج للرئيس بشار، وهو التأكيد على

التطبيق الكامل للقرار 1559 والإنسحاب المسالم والمنظم للقوات السورية من لبنان ومراقبة الإنتخابات النيابية اللبنانية.

في الوقت نفسه دخلت فرنسا بقوة على الساحة من خلال سفير جديد، بدا إختياره بالذات وكما لو انه لتأكيد الحضور الفرنسي في المسألة اللبنانية - السورية، وبحيث لا تبدو الإدارة البوشية وحدها في الساحة. وهذا السفير برنار ايمييه يتميز عن السفير الأميركي بأنه أقل حدة وأكثر خبرة ولباقة، وبما لا يجعل الأطراف اللبنانية مستفزة من تصرفاته، كما أنه في الموضوع السوري أكثر تعقلاً من زميله الأميركي، وهذا يعود إلى أن الذي تريده فرنسا الشيراكية من سوريا ينحصر في الشأن اللبناني ولا تدخل فيه أمور أخرى على جانب من التعقيد مثل الموقف السوري من موضوع العراق، الذي هو أساسي في نظر الإدارة البوشية من الزاويتين المالية والأمنية، فضلاً عن أن ما هو وارد في «الأجندة» الأميركية بالنسبة إلى لبنان وسوريا و«حزب الله» وإيران، ليس موضع القبول الفرنسي وهنالك ما هو أكثر من التحفظات عليه.

لكن مع ذلك فإن إتصالات السفير الفرنسي ومن قبلها تصرفات السفير البريطاني جيمس واط تبقى ضمن ظاهرة «سفراء بلاد حدود»، مع الأخذ في الإعتبار أن السفير البريطاني يمارس التصرفات بالطريقة التي قد تثير الجدل، إلا انها مثل تصرفات السفير الإيراني مسعود ادريسي، تبقى ضمن الحدود، علماً بأن لهذا الأخير عمقاً جماهيرياً غير متيسر لأي سفير آخر، وبالذات للسفير الأميركي فيلتمان والسفير الفرنسي برنار ايمييه، ونقصد به العمق الناشئ عن أن جماهير «حزب الله» الألوفية، هي جماهير تدين بالولاء في بعض جوانبه للثورة الإيرانية التي يمثلها السفير في لبنان. ومثل هذا الشأن سبق ان حظي به في الخمسينات سفير مصر عبد الناصر لدى لبنان اللواء عبد الحميد غالب، الذي في الحقبة التي شغل فيها منصب السفير بُعثت عبارة «المنسوب السامي»، تذكيراً بأشخاص سياسيين أو أمنيين منذ أيام الحكم الفرنسي وحتى الآن، مثلاً بلادهم ومارسوا الشأن بما يتجاوز الحدود بكثير وكما لو أنهم «حكومة فوق الحكومة».

ومثل هذه المندوبية كادت تلتصق بسفير أميركي آخر، يحاول أن يكون دوره مثل دور زميله في لبنان. وهذا السفير هو ديفيد وولش السفير لدى مصر، والذي تثير تحركاته وإجتهداته ولقاءاته القلق في نفوس أهل

الآخر من «انتفاضة الأقصى».

ومنذ أن وقع الخيار الفلسطيني من جانب الأكثرية على محمود عباس، لكي يكون الرئيس الجديد للسلطة، التي تنتظر تحويلها إلى دولة، والإرتياح العربي والدولي متواصل إزاء هذا الخيار. وبدأت دول العالم العربي، ودول العالم الخارجي عموماً، وكما لو أنها كانت في حالة إنتظار ولادة، وأن المولود جاء على نحو ما يتمنى المنتظرون المتوقعون.

مثل هكذا رجل دولة ليس من السهل توافره، وبالذات عندما تكون الظروف الإقليمية والدولية والداخلية فلسطينياً وإسرائيلياً على النحو التي هي عليه. ومن هنا فإن مساندته وتدعيم التوجه الذي باتت ملامحه واضحة هما مسؤولية كل دول العالم وبالذات تلك المعنية بالصراع العربي - الإسرائيلي والنزاع الفلسطيني - الشاروني. بل أن هذه الدول مطالبة في كل مرة يفتعل الشارونيون أزمة، ويشيرون زوابع تحجب صفاء الرؤية، أن تسارع إلى التدخل والقول للشارونيين: كفاكم عريضة. نحن أمام فرصة للتسوية لن نسمح بإضاعتها.

ولكن عندما تتكاثر العراقيل والألغام الشارونية ومن قبل ان يستضيف الرئيس حسني مبارك اليوم (الثلاثاء 8 فبراير 2005) في شرم الشيخ مؤتمراً يضم الرئيس الفلسطيني محمود عباس ورئيس الوزراء الإسرائيلي ارييل شارون والعرب الأردني الملك عبدالله الثاني، إلى جانب العرب المصري الرئيس مبارك، فهذا مؤشر إلى أن الشارونيين عازمون على التسوية.. إلا إذا كانت وزيرة الخارجية الأميركية كونداليزا رايس في إطلالتها الأولى على المنطقة، ستقنع «شارونها» هذا، بأن الإدارة البوشية في الولاية الرئاسية الثانية تحتاج إلى لحظات من إلتقاط الأنفاس، وإلى إنجاز تدابي به الجرح العراقي، خصوصاً أن إنجاز السلام السوداني لا يفي تماماً بالغرض، وإن التحرش بإيران وسوريا ولبنان، على نحو ما نراه في المشهد العاصف، قد يتحول تقجيرات في الوجه الأميركي، هذا إلى جانب أن العجز في الميزانية الأميركية يتزايد، بحيث أن الخمسة مليارات دولار التي هي تكلفة الحرب على العراق شهرياً، ومعها المليار الذي هو تكلفة الحرب على أفغانستان شهرياً، باتت حالة إستنزاف تكاثرت تنبيهات أهل الحسابات وواضعي الميزانيات في شأنها، بل أن التنبيه بات نوعاً من إضاءة الضوء الأحمر لأن هؤلاء رأوا أنه إذا إستمرت الحال على ما هي عليه في

الحكم المصري، ذلك أنه يعتمد زيارة أي منطقة في مصر، والتحدث مع الناس في الأمور المحظورة. وما لقيه السفير فيلتمان في لبنان لقيه السفير وولش في مصر، حيث أن دعوات كثيرة صدرت تنادي بطرده. كما أن «ثورة» عارمة حدثت في صفوف التجمعات السياسية المعارضة أواخر ديسمبر (كانون الأول) الماضي، لأن الدكتور رفعت السعيد رئيس «حزب التجمع» والمتحدث الرسمي بإسم «التوافق الوطني للإصلاح»، الذي يضم ثمانية أحزاب، إستقبل السفير وولش الأمر الذي بدا خرقاً من جانب «حزب التجمع» وأحزاب أخرى لقرار بمقاطعة السفارة والسفير، والإعتذار عن تلبية الدعوات. بل أن أحزاب «التوافق» ومعها «الحزب الوطني» الحاكم بشخص أمينه العام صفوت الشريف، رأت في إستقبال السعيد للسفير أنه إستقبال لطرف أجنبي يتطلع إلى فرض الوصاية. وهو موقف ينسجم حتى مع محمد حسنين هيكل، الذي إستمر ممتنعاً عن اللقاء بالسفير إلى أن أخرج هذا الأخير خلال عشاء دبلوماسي، وإستتبغ الإخراج لقاء بين هيكل والسفير في منزل الأخير.

ويبقى القول إن هذا الذي يحدث من بضعة سفراء أميركان حتى الآن، ومن بينهم سفراء في مناطق أخرى من دول الخليج ودول الجناح المغربي من الأمة، هو على ما يبدو تمهيد لنوع خارج على أصول التعامل الدبلوماسي، سيتم الأخذ به في الولاية الرئاسية البوشية التي بدأت، ومتزامناً ذلك مع عيد الأضحى أعاده الله على الأمتين وقد كُتب لظاهرة «سفراء بلا حدود» أن لا تستشري لما فيها من إستهانة... هي في بعض جوانبها إهانة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 1 فبراير (شباط) 2005

* * *

على هامش قمة شرم الشيخ:

إجماعاً «الجهاد الدبلوماسي»

و«المبادرة الإسلامية»

حتى الآن يبدو التحرك الذي يقوم به الرئيس الفلسطيني محمود عباس، وكما لو أنه إذا جازت التسمية «المقاومة الدبلوماسية»، أو فلنقل إنه الوجه

العراق عشر سنين، كما تشير إلى ذلك التصريحات، فهذا معناه بالأرقام أن العجز في الميزانية الأميركية سيصل عام 2015 إلى 1400 مليار دولار. إلا إذا حدثت مفاجآت درامية وبات لا بد من زيادة في الإنفاق تواكب الإصرار على البقاء.

ولن يكون في الإمكان معرفة ما إذا كانت مهمة كونداليزا رايس لدى شارون هي إسداء النصيحة قبل أن تتعقد القمة الفلسطينية - الشارونية اليوم في شرم الشيخ، أم أنها ستكون لنفخ عضلاته على أساس أن هنالك مهمة مطلوبة منه، تتسجم مع ما يجري الاستعداد لخوض غماره بالنسبة إلى مواجهة مع إيران، تتم لمجرد إنجاز فك ارتباط الحكم السوري بنظام «آيات الله»، بما يعني إضعافاً للشأنين السوري والإيراني في لبنان، وهذا يتم لمجرد تحقيق انسحاب القوات السورية من لبنان، وبعبارة خارطة ميزان القوى بما هي عليه. وما نقصده بـ «إسداء النصيحة» هو أن يسترضي شارون الفلسطينيين، ويستعيد طمأنينة شريك العملية السلمية الأولى مبارك وعبدالله الثاني، اللذين كلما أرادا تجميل خيار التطبيع مع إسرائيل تجاوباً مع الرغبة الأميركية، يفاجئهما الشارونيون بإجراءات ومواقف تجعلهما يزدادان إبتعاداً. ومن هنا فإن قمة شرم الشيخ اليوم ستكون إختباراً كما انها قد تؤسس لمرحلة جديدة على طريق التهدئة. وفي هذه الحال فإن القمة الإسلامية التي دعا ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز إلى عقدها في الارض المقدسة مكة المكرمة، ستشكل نقلة نوعية في إتجاه التسوية الموضوعية، خصوصاً في حال خروج هذه القمة بـ «مبادرة إسلامية» يتم اتخاذها بالإجماع، وبمثل الإجماع على «المبادرة العربية» في القمة الدورية الثانية في بيروت.. وهي المبادرة التي بدأت في شكل رؤية من جانب ولي العهد ما لبث أهل القمة، التي إستضافها تجبيراً رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان رحمة الله عليه في لبنان، أن وجدوا فيها ما من شأنه ان يشكّل الجامع المشترك لما يدور في خاطر كل منهم.

وتبقى الإشارة إلى ان الذي كان ينقص «المبادرة العربية»، لكي تنطلق هو الرفض الشاروني لها، وعدم ممارسة الضغط البوشي على الشارونيين، وإصرار «الحماسيين» و«الجهاديين» على أن المقاومة المسلحة بالعمليات الإستشهادية ثم بصواريخ «القسام»، هي التي في إستطاعتها نيل المطالب.

وبعدما إستطاع الرئيس محمود عباس بلورة ظاهرة «الجهاد الدبلوماسي» وتحقيق إلتفاف فلسطيني حوله، وعلى قاعدة التفهم من جانب «الحماسيين» و«الجهاديين»، فإن خطوة ايجابية تخطوها إسرائيل في إتجاه التهدئة لدعم التوجه التسalmي الفلسطيني، الذي يأخذ للمرة الأولى شكل التوافق الشامل، وتأكيداً من جانب الإدارة البوشية بأنها تريد للتسوية أن تحدث، من شأنها أن تجعل القمة الإسلامية المرتقبة بأهمية القمة العربية الدورية الثانية من حيث الخروج وبالإجماع بـ «المبادرة الإسلامية» المشار إليها. وبهاتين المبادرتين المتخذتين بالإجماع ومعهما «الجهاد الدبلوماسي» المتخذ بالإجماع نسبياً، ولو مرحلياً من جانب كل الفلسطينيين، لا يعود العناد الشاروني مقبولاً حتى من الحليف الأميركي، الذي كرر الوعد بتحقيق الدولة الفلسطينية «القابلة للحياة»، قبل أن ينتهي اليوم الأخير من الولاية الرئاسية البوشية الثانية. وإذا كان ذلك لن يحدث، فستذهب الوعود البوشية مثلاً في التهرب.. أو فنقل التكاذب.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 8 فبراير (شباط) 2005

إغتيال الحريري .. الزلزال اللبناني .

«كربلاء سنية» بعد الحريري؟

يوم إستقالوه في خطوة لم يراعوا فيها أي حال هي عليه حال لبنان الدائم التوكل، قرأت في عيون الناس ملامح أسف لم أجد ككاتب ما يلخصها أفضل من قول الشاعر العربي «أضاعوه وأي فتى أضاعوا...». ومنذ ذلك التضییع ولبنان في تراجع متواصل من دون أن يكون هنالك فتية يعوضون الفتى المضيّع.

فجأة بدأ الإنكماش في الأسواق وبدأ الخوف يدق أبواب اللبنانيين على مدار الساعة. وبدأت لغة التخاطب بين أهل السياسة تتسم بمفردات في غاية البشاعة. وصار اللبنانيون يسمعون من أهل الحكم وأهل المعارضة كلاماً لا علاقة له بمناخ الحرية والتعددية والديمقراطية. فهذا المناخ لا يجيز لبعض هؤلاء القول انهم سيفعلون برؤوس خصومهم ما يفعله الذبّاحون بذبائحهم. لغة تتعارض مع التراث الأدبي والخلقي الذي طالما تغنى به اللبنانيون أحفاد جبران

العربي وبحيث لا تعود في المنطقة أموال وأثرياء. وهذه مهمة «مافيات» ربما يأتي يوم يتبين لنا فيه أن هنالك ممثلين لها داخل بعض أجهزة الحكم العربية. في ذمة الله رجل دولة كان دائماً رمزاً للأمل في بلد مسكون باليأس... ومع ذلك فإنه إستطاع وضع هذا البلد الذي إسمه لبنان في جدول أعمال أهل القرار الدولي في كل مرة يجتمعون. ويا لسوء عاقبة هذا البلد إذا كان الذي أصاب رفيق الحريري أو بالأحرى أصاب لبنان في شخص الحريري سيؤسس لـ «كربلاء سنية».

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 15 فبراير (شباط) 2005

* * *

مفاعيل القهر: من عبد الناصر إلى الحريري مروراً بعرفات

إستمرت جنازة الرئيس جمال عبد الناصر مضرب المثل في الجنازات الشعبية الحاشدة خمساً وثلاثين سنة، إلى أن جاءت جنازة رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري يوم الأربعاء 16 فبراير (شباط) الجاري، تشكل ما يشبه التوأم لتلك الجنازة، مع ملاحظة أن عبد الناصر فارق الحياة وهو رئيس للدولة العربية الكبرى مصر، بينما قضى رفيق الحريري وهو على صعيد المكانة الرسمية عضو في مجلس النواب اللبناني ورئيس حكومة سابق.

وبالمقارنة مع عدد سكان كل من مصر ولبنان، وكذلك عدد سكان القاهرة في السبعينات وعدد سكان بيروت الآن، يتبين لنا من حيث النسبة أن الاربعة ملايين الذين شاركوا في جنازة عبد الناصر هم مثل المليون الذين شيعوا رفيق الحريري. ولو أن «حزب الله» وحركة «أمل» لم يسجلا على نفسيهما أثراً عدم المشاركة الشعبية، والإكتفاء بالمشاركة على المستوى البرلماني بنواب الطرفين، وبذلك بدت المشاركة باردة الى درجة الصقيع، وأنها مجرد مشاركة نواب لزميل لهم... لو أن الطرفين لم يفعلا ذلك وشاركا شعبياً على نحو ما كان يُفترض حدوثه، خدمة منهما للتوحد الوطني في مناسبة مأساوية، لكانت الجنازة الحريرية من حيث المشاركة الشعبية تفوق الجنازة الناصرية بالمقياس النسبي. وفي الحالتين كانت هنالك جوامع مشتركة في مقدور كاتب مثل

خليل جبران وعبد الله العلايلي وكوكبة من أهل الفكر. وبعدهما كان الهم الأساسي هو أن يعود لبنان واحداً ولا يستمر لبنانيين، على نحو ما كان يخشى هذا المشهد في إستمرار الرئيس الراحل صائب سلام، بات لبنان بين تضییع رفيق الحريري كرئيس للبنان الذي هو موضع قبول العالم به ومن دون تحفظات هذه الدولة أو إعتراضات تلك، وبين سقوطه أمس مضرباً بالإنجازات المبهرة والمواقف البئاءة كما كل القادة الفرسان الذين يؤمنون بالحلول الواقعية وبالتعاطي الحضاري مع دول العالم، بضعة لبنان أو فلنقل ثلاثة: لبنان الذي لا يريد الفكاك عن سورية وإيران، ولبنان الذي يريد الاحتماء بالخيمة الأميركية - الفرنسية، ولبنان الحائر الذي يريد ضمناً وصلاً بأميركا وفرنسا ولا يريد ضمناً وخجلاً هجراناً للجارة السورية.

وفي ظل هذه اللبانات الثلاثة إستطاع رفيق الحريري أن يحافظ على التوازن الوطني والقومي ويُبقي على سعيه من أجل أن لا تذوي شمعة لبنان المقبول عربياً ودولياً والمتفهم للخصوصية اللبنانية.

كأنما من هم ظاهرة في الزعامة السنية مآلهم إلى الإستشهاد. فهذا رياض الصلح يقضي شهيداً وهو في عمان بعد نهاية زيارة هي من أجل لبنان الذي يجب أن يبقى قرة عين أشقائه وموضع قبول العالم به.

وهذا رشيد كرامي يقضي من أجل أن يستعيد لبنان صفاءه الوطني وتتوقف جولات الإحتراب والنحر على الحواجز وعلى الهوية. وهذا رفيق الحريري الظاهرة الأكثر تجدداً في الزمن الأكثر تعقيداً يقضي لأنه أراد خيراً بلبنان وتماسكاً لوحدة عاصمته بيروت وثباتاً على نهج إعادة لبنان البشر إلى وداعته بعدما قطع أصعب الأشواط في إعادة لبنان الحجر إلى رونقه.

جاء إستشهاد الرجل أمس يحمل في طياته نذير سوء بلبنان. وجاء في وقت تتكاثر فيه إحتمالات أن تحسم المؤسسة العسكرية الموقف بإنقلاب عسكري. وجاء يفرش دروب الوطن بالحق ويؤسس لـ «كربلاء سنية» أين منها بالنسبة إلى لبنان «الكربلاء الشيعية». ومن المصادفات ان الفاجعة اللبنانية بالحريري حدثت بينما مجالس العزاء العاشورائية على حيويتها المعهودة في المجتمع اللبناني الشيعي منذ ثلاثة أيام.

وما نخشاه، عدا الخشية على الإستقرار المهتر أصلاً والأحوال السنية أصلاً والبؤس الأخلاقي المستشري أصلاً، أن تكون من جملة دواعي انهاء ظاهرة الحريري هو الشروع في تدمير مؤسسات الثراء

حالي شارك في الجنازة الناصرية بصفة كونه مندوب جريدة «النهار» ومحرر الشؤون العربية فيها، والمتابع للتطورات المصرية في شكل خاص، وشارك في الجنازة الحربية مشاركة مواطن لبناني هزت وجدانه فاجعة إغتيال الحريري (يوم الإثنين 14 فبراير 2005)، أن يسجل بعض الانطباعات والملاحظات حول هاتين الجنازتين التاريخيتين التي جرت أولاهما قبل خمس وثلاثين سنة لزعيم عارك القهر قبل أن يختاره الله الى جواره متوفى بسكتة قلبية عن 52 سنة ولزعيم واجه بعد 35 سنة أثقلاً من القهر قبل أن يقضي شهيداً بتفجير لا مثيل له عن 61 سنة، وقد سبق الإثنان إلى الإستشهاد المقهور التاريخي ياسر عرفات، الذي رحل بفعل التسميم وهو على عتبة السبعين وجرت له كما جرت لعبد الناصر من قبل وللحريري من بعد، جنازة بحجم اهمية الزعامة النوعية لكل منهم وكذلك بحجم القهر الذي واجهوه.

جاءت جنازة عبد الناصر بعدما كاد القهر النفسي يبلغ المدى الذي يصعب تحمله. فالبلاد غارقة في تداعيات الوضع الناشئ عن هزيمة 5 يونيو 1967، وكيف أن الإحتلال الإسرائيلي جاثم على الضفة الشرقية لقناة السويس بمثل ما هو فاعل في الجولان على رغم إنقضاء 38 سنة على صدور قرار مجلس الأمن الدولي الرقم 242 الذي ينص على انسحاب إسرائيل الى حدود الرابع من يونيو 1967. وبسبب هذه التداعيات بدأ عبد الناصر يذبل صحياً، ويحاول ما استطاع استعادة المعنويات معتمداً في ذلك على الوقفة الشعبية السودانية معه، عندما توجه إلى الخرطوم بعد شهرين من حدوث الهزيمة، ومحاولة انقضاء بعض رفاق مسيرة الحكم عليه، وذلك للمشاركة في القمة العربية الإستثنائية، و متماسكاً نتيجة قرار المساندة الصادر عن تلك القمة وضمن وقفة متميزة من جانب المملكة العربية السعودية، تجاوز فيها الملك فيصل بن عبد العزيز الممرارة المتراكمة، دافعاً بذلك الكويت وليبيا إلى التكاثر مع السعودية للمساهمة في جمع المبلغ الذي يساعد على صمود مصر وسوريا والأردن لإزالة آثار العدوان. وفي محاولة شاقة من جانبه لإستعادة المعنويات كانت مشاركته يوم 26 سبتمبر (أيلول) 1970 في القمة الشهيرة المعروفة بـ «قمة الهيلتون» لوقف المواجهة الاردنية - الفلسطينية، مع أن وطأة المرض عليه كانت من القسوة بحيث انه كان عليه التواجد في

مستشفى، وليس المشاركة في إجتماع على مستوى القمة تتعارك داخله الأمزجة الصعبة، ثم ليس ممارسة طقوس توديع المشاركين في القمة وكما لو أنه بكامل الصحة والحيوية. وعندما نعاه الناعي وبكاه المصريون مع أنهم في أسوأ حال نفسية ومعيشية نتيجة تداعيات الهزيمة، فلأنه في نظرهم مظلوم ومقهور، ولأنهم كانوا على ثقة بأنه ما دام بينهم رئيساً فإنه سيصحح ما أمكنه التصحيح من خطايا النظام وأخطائه. وعندما نزولوا بالزخم الملاييني إلى الشارع لتشيعه فإن نزولهم هذا كان نزول من فقدوا الانسان الذي من الممكن أن يعيد الارض التي إحتلت، والكبرياء الذي انحسر وهجه كثيراً، وكان أيضاً نزول الخائف من المجهول غير المطمئن إلى أن في قدرة أحد غير عبد الناصر أن يحقق المطالب. هذا إضافة إلى أن الأربعة ملايين الذين نزولوا إلى الشارع للتشيع، كانوا في حالة معاناة أيضاً من القهر، ورأوا في الرئيس الذي رحل وهو في عز شبابه بعدما كان حقق لبضع سنوات مجداً معنوياً هائلاً لمصر على حساب الوضع المعيشي والإجتماعي والمناخ الديمقراطي، انه الرمز لمشاعر القهر المتأصلة في نفوسهم.

أما جنازة الحريري فجاءت على خلفية إدراك من اللبنانيين لمسلسل القهر والإستفزات التي واجهها الرجل، الذي قطع شوطاً كبيراً على طريق مشروع إعادة إعمار الوطن بدءاً بالعاصمة بيروت، ووضع لبنان في خارطة العربية والدولية، وهو ما لم يحدث لهذا الوطن منذ إستقلاله عام 1943، فضلاً عن أنه ألغى بالتدرج الحدة المذهبية في بلد كانت المشكلة الطوائفية فيه من النوع الذي يحول دون التقدم والتطوير. وعندما نقول ذلك فلأن جنازته كانت الأولى التي توحد فيها الحزن من كل طوائف لبنان على شخصية سياسية لبنانية، بعد إنقضاء نصف قرن على توحد مماثل حدث بعد سقوط أول زعامة سننية بحجم لبنان، ونعني به رياض الصلح شهيداً وهو في زيارة رسمية عربية الهدف إلى الأردن. ومثل هذا التوحد كان يبدو مستحيل الحدث منذ العام 1958 إلى أن جاءت الفاجعة الحربية والجنازة المهيبة اللاحقة، تؤكدان إمكانية حدوث هذا التوحد ليس فقط لأن الحريري بات قبل رحيله المفجع بأسبوعين أكثر إقتراباً، أو فلنقل أقل إبتعاداً عن المعارضة المسيحية، التي تريد فك إرتباط لبنان بالجار السوري، وإنما لأن الحريري كان في نظر المسيحيين كما في نظر دول

أخطار ما بعد إغتيال الحريري: يقظة سعودية حاضرة.. وفطنة سورية مغيبة

شعرنا ونحن، كوكبة من الكتاب والمفكرين والإعلاميين الآتين إلى رياض الجنادرية العشرين من كل الديار العربية، نستمتع يوم الجمعة 25 فبراير (شباط) إلى ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز «أبو المبادرة العربية» و«الأب المرتقب للمبادرة الإسلامية» ان القيادة السعودية، ولسان ولي العهد، تضع الإصبع على الجرح العربي - الإسلامي النازف وأنها مستحضرة، بكل البقطة المعروفة عن تعاطيها مع الخطير من مشاكل الأمة، الوضع الراهن في لبنان وكأنما هي تستشعر خطراً داهماً يمكن أن يحدث في حال لم يتم الأخذ سورياً ولبنانياً بالرؤية التي لخصها ولي العهد وبعدها كان أصغى إلى مناقشات بعيدة عن «ميكروفونات» الإذاعات والفضائيات بالقول: «يا إخوان، الإسلام الآن والعرب في ضيقة فعلاً ولا أحب أن أخوض في هذا الباب لأنه باب متشعب، ولا أحب إلا أن أكون معكم صريحاً لأنني لا أحب أن أجرح أحداً، ولكن واجب علينا جمع شمل الإسلام والعرب.. العرب جميعاً مسلمين ومسيحيين وغيرهم».

كأنما كان الأمير عبدالله يوجي بقوله هذا بأن السعودية، التي راعها هول الفاجعة بالإبن اللبناني السعودي رفيق الحريري، وقد استُبح دم من دون أن تستوقف الجناة خصوصيته كظاهرة من الصعب تعويض فعاليتها وحضورها وإيجابياتها، تدعو اللبنانيين والسوريين على حد سواء مسلمين ومسيحيين بشتى الأطياف المذهبية إلى أن يتقوا الله ويتنبهوا إلى ما قد يحدث في ضوء الذي حدث. وعندما يقول ولي العهد «إنني لا أحب ان أجرح أحداً» فلكي لا تتعقد الأمور أكثر مما هي معقدة بين شقيقتين باتا طرفين وتحولاً بسبب تغيب الفطنة من ساحة الحوار الهادئ الذي يهدي إلى سواء سبيليهما، أو السبيل الخاص بكل منهما، إلى ساحة المنازلة الكلامية الحادة والتعامل غير المتوازن على الصعيد السياسي.

ومن مظاهر تغيب الفطنة لدى الطرف المستهدف أميركياً وفرنسياً.. ودولياً إلى حد كبير، أي الحكم السوري، هذا الإسترخاء في التحرك السياسي المقنع وكأنما الأمور بخير. كما أن من مظاهر تغيب الفطنة

الغرب عموماً من أميركا إلى أوروبا مروراً بروسيا، هو نموذج السياسي المسلم الذي يحتاجه الوفاق الدولي، والذي من شأنه أن يبدد بالتدرج الأجواء الناشئة عن «القاعدة» و«القاعديين» والمتشددين إلى درجة العنف عموماً، وبعضهم إلى ارتكاب آثام الإرهاب في بعض دول العالم، ومن بينها دول عربية إسلامية مثل المملكة العربية السعودية. ومن هنا يجوز القول ان رفيق الحريري السعودي في لبنان والعالم اللبناني العالمي في السعودية، كان على الصعيد السياسي وبناء العلاقة الموضوعية والمتجردة، من أهم الإستثمارات السعودية - اللبنانية على الصعيد الذي نشير إليه. ولأنه بذلك حالة مسبوقة فإن فراغاً سينشأ ولن يكون من السهل ملؤه، يمثل ما انه سيكون صعباً جداً ملء فراغ الزعامة السنوية لبירות وللطائفة عموماً في لبنان. ونحن عندما نتأمل في وجوه رموز الطائفة في لبنان لا نجد أماناً من هم مشروع زعامة، ليس فقط لأن الحجم الذي كانت عليه زعامة الحريري كبير جداً، وبدا على حقيقته في الجنازة الحريزية المليونية، وإنما لأن للزعامة مواصفات إستطاع الحريري أن يجمعها في شخصه، بينما هي في أكثر رموز الطائفة السنوية باهتة أو منقوصة.

أما مسألة من يخلف الحريري كشخص يمثل الرجل وبيته السياسي، فإن واحداً من الإبنين بهاء الدين وسعد الدين وفي ضوء وصية الأب، إذا كان قد أوصى وأهل، وبالذات بعدما بدأ الشعور بالخطر يخالجه منذ أن إستقاله الثنائي إميل لحود - بشّار الأسد، يمكن أن يكون الشخص المطلوب المحسوم وعلى خلفية قول الشاعر العربي مع بعض التعديل «إن الفتى من يقول كان أبي.. ليس الفتى من يقول ها أنذا». وفي الأصل أن ما قاله الشاعر هو «إن الفتى من يقول ها أنذا.. ليس الفتى من يقول كان أبي». والأرجح أنه لو كان في زمن ذلك الشاعر شخص مثل رفيق الحريري، لكان جاء البيت الشعري على النحو الذي أوردها.

... وللحديث عن الزمن الحريري بقايا وإنطباعات في خاطر.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 22 فبراير (شباط) 2005

* * *

عدم إستباق التصعيد الدولي والتعويل على مهمة متأخرة الحدوث أصلاً قام بها الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى.

ومع تقديرنا للخطوة التي قام بها الأمين العام للجامعة العربية والمتمثلة بمبادرته إلى زيارة دمشق والإجتماع بالرئيس بشار الأسد، فإن الأمر كان وما زال يستدعي ما هو أكثر فعالية لمعالجة الأزمة اللبنانية - السورية ذلك أن هذه الأزمة هي بين شريحة عريضة من الشعب اللبناني وبين الحكم السوري.. أو على وجه الدقة شريحة من هذا الحكم. وفي هذه الحال فإن المسعى التقليدي الذي يستهدف التهدة لا يُحقق النتيجة المرجوة.

لقد إعتاد عمرو موسى على أزمات تحدث بين الحكومات العربية ومن أجل ذلك فإن المسعى يبقى في حدود أهل النظام بحيث أن زيارة يقوم بها الأمين العام ويجري خلالها محادثات مع طرفين متخاصمين قد تنتهي بتحقيق تهدئة أو إستئناف لصفاء القلوب، أو ربما لا تنتهي إلى الأمل المنشود أو النتيجة المرجوة لكنها تُبقي الأزمة عالقّة من دون حملات إعلامية متبادلة وهذا أمر جيد في دنيا الازمات.

لكن الأزمة اللبنانية - السورية مختلفة كونها حاصلة من قُبَل حدوث الفاجعة الحربية، ثم جاءت الفاجعة لتتقلها من حِيز المعارضة المسيحية الجزئية المعلنة مضافة إليها بعد ذلك المعارضة الدرزية الجنبلاطية المعلنة عقب محاولة تصفية النائب مروان حمادة إلى حِيز المعارضة الشاملة، أو على وجه التحديد لتجعل كفة المعارضة لسورية في ميزان المجتمع اللبناني تعلق على كفة الأطياف الأخرى التي تنتظر بعين التفهم للسلوك السوري بشقيه السياسي والأمني وإلى درجة أنها تغفر ما يصعب غفرانه من هذا السلوك. وهكذا فإن الأزمة باتت بين شريحة عريضة من الشعب في لبنان والحكم السوري ومن دون أن يفيد أهل الحكم اللبناني الحليف لزميله الحكم السوري في تهدئة الخواطر.. هذا إذا لم نقل إن بعض أركان الحكم اللبناني أضافوا في تبريراتهم وتنظيراتهم الحطب على نار إشتعلت بدل أن يمارسوا مهمة محاصرة اللهب.

وبطبيعة الحال فإن المسألة عندما تصبح على هذا النحو لا يعود يفيد فيها السعي التقليدي من نوع السعي الذي قام به عمرو موسى سواء جاء سعيه هذا بمبادرة منه أو بإيحاء من الرئيس حسني مبارك الذي ربما أثر

الإبتعاد شخصياً لأن الأزمة ليست بين نظامين وإنما هي بين شريحة عريضة من الشعب في لبنان وبين الحكّمين الحليقيّن اللبناني والسوري.

أما ما الذي يمكن أن يفيد وما كان من المحتمل جداً أن يفيد ولم يحدث قبل الفاجعة فعبارة عن خطوات ومبادرات نوعية. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإنه لو نظر الحكم السوري إلى الأزمة التي كانت على طريق الإستفحال قبل الفاجعة الحربية ولم يتعامل معها على نحو تعامل الإدارة البوشية مع أهل السلطة الوطنية الفلسطينية لكان ربما إحتوى قدر الإمكان الأزمة. إلا أنه بإيفاده وليد المعلم، مع تقديرنا لبراعة هذا الأخير في الإستقصاء والتفاوض، بدا كمن يبعث بزجاجة مياه قد تروي ظمأ عطشان، إلا أنها لا تطفئ حريقاً بدأ إشتعاله يتسع. ومن المؤكد لو أن الرئيس بشار فاجأ اللبنانيين بوصوله إلى بيروت وعقده مع الرئيس إميل لحود إجتماعاً في السراي الحكومي يشارك فيه الجميع من دون «فيتو» على هذا أو على ذلك ونوقشت الأمور بكل صراحة ثم صدر عنها بيان لا يُغفل شيئاً لما كان للإحتقان أن يستمر على نحو إستمراره في ضوء زيارة وليد المعلم. ونقول ذلك على أساس أن المسألة ليست أزمة دبلوماسية أو أنها خلاف على أمور تفصيلية وإنما هي مسألة مصير صيغة وعلاقة يدرك الرئيس بشار عمق تعقيداتها ولا يحتاج إلى من يذهب لكي يستقصي طبيعتها. وفي تقديرنا أن إنزال التعاطي مع المسألة الخطيرة من القمة إلى السفح أي من المستوى الرئاسي إلى مستوى نائب وزير خارجية زارها خطورة وجعل نسبة الإحتقان شبيهة بفيضان الأنهر عندما يتجاوز منسوب المياه الحد الإستثنائي.

وما لم يحدث مع الأسف قبل الفاجعة الحربية حدث ما هو أشد إستغراباً بعد الفاجعة. فلا الدولة السورية أعلنت الحداد مع ان من شأن هذا الإعلان قطع الطريق على إفتراضات وظنون كثيرة. ولا هي أرسلت وفداً عالي المستوى يقدم العزاء. ولا هي أوجت إلى السوريين بأن يتوجهوا الى بيروت للمشاركة في التشييع أو على الأقل يكون هنالك تشييع رمزي في دمشق وغيرها من المدن السورية للرجل الذي كان دائماً في صف الحفاظ على الشجرة التي يجب ألا تنقطع مهما كلف الأمر بين سوريا ولبنان. وهذا السلوك من جانب الحكم السوري وخلو وسائل الإعلام من صحف وإذاعات وتلفزيون من مشاعر تتسم

الذين من حق المملكة عليهم التذكر بأنه لولا إتفاق الطائف لكانت الحال أسوأ مما هي عليه الآن وأكثر سوءاً في حال إستمرت المنازلة قائمة، وبقيت الفطنة السورية على التغيبب التي هي عليه.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 1 مارس (آذار) 2005

آخر الدواء ... الإنتفاضة

في غمرة الإنبهار بـ «الإنتفاضة اللبنانية» التي تأخرت والتي ما كان لها على ما بدا كثير الوضوح أن تحدث لولا الفاجعة الحربية، غابت عن الذاكرة «الإنتفاضة السودانية» قبل أربعين سنة، والتي يجوز إعتبارها «أم الإنتفاضات» مقارنة بـ «الإنتفاضة البريطانية العمالية الحربية» قبل 240 سنة التي هي عميدة الإنتفاضات الشعبية، مع ملاحظة أن الحربية هنا تعود إلى أن العمال المتظاهرين كانوا يحتجون على غزو الحرير الفرنسي لبريطانيا، الأمر الذي يتسبب بكساد إنتاجهم.. تماماً مثل تظاهرات إحتجاج لاحقة في الزمن الراهن على منافسة النبيذ واللحوم والزبدة والحليب والخضار للإنتاج البريطاني المشهود لجودته.

أما الإنتفاضات التي تنتمي «الإنتفاضة اللبنانية» إلى طبيعتها وظروفها فإنها «الإنتفاضة الروسية» ضد الحكم القيصري، توفاً الى الحرية قبل مائة سنة، و«الإنتفاضة الغاندية الهندية» في النصف الثاني من الأربعينيات، بهدف تحقيق الإستقلال وجلاء الإنكليز عن البلاد، و«الإنتفاضة الفلبينية» عام 1986 ضد ماركوس وزوجته إميلدا هاوية إقتناء الأحذية والمجوهرات، وقبلها بست سنوات «الإنتفاضة البولندية» عام 1980 والتي هي إلى جانب اللطمة التي تلقاها الإتحاد السوفييتي زمن بريجنيف من الرئيس (الراحل) أنور السادات وتتمثل بإلغاء المعاهدة التي سبق أن وضع توقيعها على ورقها، كانت بداية التساقط التاريخي للدولة الكبرى وإنفراط عقد جمهورياتها، وإستبدال العقيدة الماركسية بعقيدة «الأمركة». ثم جاءت «الإنتفاضة الأوكرانية» العام الماضي تشكّل أول حالة حرب باردة من نوع جديد بين الإدارة البوشية وروسيا البوتينية، إنتهت بفوز

بالدفع فضلاً عن الإعياز إلى الألوف من السوريين العاملين في لبنان بالعودة إلى سوريا، تركت المجال أمام إحتمالين: إما أن الإخوان السوريين بريئون مما جرى لشقيقهم يوسف وأن الذئب هو الذي أكله تجبيراً رهيباً وليسوا هم الذين رموه في الجب بعد قتله، وإنهم رداً على هذه الهتافات والمواقف اللبنانية التي تنسم بعض مفرداتها بالتجريح قرروا إعتبار ما جرى شأنناً داخلياً لبنانياً مئة بالمئة على أن يقوموا بعد إنحسار عاصفة الغضب بتأدية واجبات العزاء وعلى افضل ما تكون عليه التأدية، وإما أن هنالك أجهزة إفتعلت شرراً بالحريري ومن دون أن تكون قمة الحكم على دراية بالأمر وفي هذه الحال فإن الرئيس بشّار إنهمك في معالجة الذبول وبصمت إلى جانب التأهب لمواجهة الحملة الدولية التي إتسع نطاقها وكما لم يحدث من قبل. وفي أي حال جاء السلوك الرسمي السوري قبل الفاجعة الحربية وبعدها يثير الإستغراب بسبب تغيبب الفطنة وإلى درجة الظن بأن الرئيس بشّار نفسه كان مستهدفاً الى جانب الرئيس الحريري مع فارق أن إستهداف بشّار كان بغرض إضعاف قدراته وشأنه وكبح نزوعه نحو المباشرة بتصحيح جذري للأمر فيما إستهداف الحريري جرى لإنهاء حياته وامبراطوريته المالية وبرنامجه العمراني وعلى الطريقة التي تم فيها من قبل إستهداف باسل الأسد شقيق الرئيس السوري في حادثة سيارة على طريق مطار دمشق تعددت فيها الإحتمالات... إلّا أنها كانت هي الأخرى مروعة كما الفاجعة الحربية.

يبقى القول إن الذي كان يجب ألا يحدث حدث ومن دون الأخذ في الإعتبار أن رفيق الحريري ليس فقط خطأً سعودياً أحمر إنما هو خط عربي - دولي. وهكذا ظاهرة تتطلب من الجميع وبالذات من السوري واللبناني التعاون لإبعاد الأذى عنها. وإذا كانت لم تحدث مبادرة عربية حتى الآن فلأن أهل القرار العربي الفاعل ما زالوا في حالة هي أكثر من العتب وأقل من الغضب، فضلاً عن التريث لمعرفة ما الذي سيُفضي إليه التحقيق الدولي في الفاجعة الحربية وهو تحقيق جاء متأخراً. لكن الحالة التي نشير إليها تتقدم على نحو ما قرأناه بين سطور كلام الأمير عبدالله للمشاركين في الجنادرية العشرين وما إستتجناه من كلام سَمعناه في الرياض في مجالس الذين إذا هم حللوا الحدث أصابوا وإذا هم قالوا الرأي يحرسون مثل ولي العهد على ألا يجرحوا أحداً... وبالذات أولئك

المشاغبة أو المشاكسة.

بعد التمديد والتمدد للفريق إبراهيم عبود وجنرالاته وشعور أباطرة الأحزاب بأنهم مهمشون، وأنه لا بد من التحرك لإنهاء هذا الإهمال لهم، تنادى هؤلاء إلى مؤتمر قرروا فيه تجميد صراعاتهم مع بعضهم البعض وخوض معركة مصيرية ضد الحكم الجنرالي، مستندين في تحركهم إلى طلبية الجامعة على أساس أن هؤلاء أكثر حماسة للتظاهر وإطلاق الشعارات، وأيضاً لأن السلطات الأمنية تحرص على عدم إيدائهم كي لا تصبح الأزمة الصغرى كارثة كبرى في حال جرى إطلاق النار على الطلاب والتسبب بمقتل البعض منهم. وهكذا رأينا كما الحال في لبنان الآن بعد العملية التروييعية التي أدت إلى إستشهاد رئيس مجلس الوزراء السابق رفيق الحريري، حزب الأمة وطائفته (أي الأنصار) كنفاً إلى كنف مع منافسه التقليدي الحزب الإتحادي وطائفته (أي الختمية) ومع الإخوان المسلمين والحزب الشيوعي، علماً بأن هؤلاء لا يتطابقون وكثيراً ما خاضوا صراعات سياسية حادة بين بعضهم تخللتها ألفاظ ومفردات في غاية الإهانة. وخلال أيام قليلة اشتعلت الساحة السياسية غضباً لا مثيل له. ثم حدث ما كان الجنرالات لا يريدون حدوثه وهو مقتل طالب جامعي برصاص خلال مواجهة مع رجال الأمن. ومع أن واقعة مقتل هذا الطالب ليست بأهمية واقعة المقتلة الحربية في قلب العاصمة بيروت يوم 14 فبراير (شباط) 2005، إلا أن زعماء الأحزاب السودانية، من الصادق المهدي إلى محمد عثمان الميرغني إلى إسماعيل الأزهرى إلى محمد أحمد محبوب إلى حسن الترابي إلى عبد الخالق محبوب إلى فاطمة إبراهيم إلى الشيخ علي عبد الرحمن، إستطاعوا ركوب الموجة الطلابية ثم أنزلوا أنصارهم إلى الشوارع حاملين العصي والحجارة مطلقين من الهتافات ما قلّت كلماتها وثقل مضمونها مثل «إلى الثكنات.. يا حشرات».

هنا يأتي دور الحكمة لمن هم أهلها، حيث أنه عندما سأل كبير الجنرالات، أي رئيس البلاد إبراهيم عبود عما يحدث وقيل له إنهم يتظاهرون ويهتفون، فإنه قال: هل إنهم يهتفون ضدي أم معي؟ وجاءه الجواب: إنهم يهتفون ضدك. ورد قائلاً: إذاً لننصرف ما دامت الحال على هذا النحو.

ولقد إنصرف الفريق عبود بالفعل ومن دون أن يتحدى، تاركاً أهل السودان يذكرونه في حياته ثم بعد

الأولى على الثانية بعدما كان فلاديمير بوتين إطمأن إلى أن فكتور يوشنكو الشخص الذي إختاره ليكون رئيساً للبلاد سيصمد، ثم جاءت «الانتفاضة الشعبية» تُسقط الرهان وتعيد فكتور الآخر (يوشنكو) رمز «الأمركة» إلى قصر الرئاسة، وبعد إعادة انتخاب بإشراف دولي. لكن يوشنكو إرتأى درءاً للمخاطر والصراع إحتواء مشاعر الصدمة الروسية، ونكاد نقول الهزيمة الناشئة عن سقوط خيار الكرملين، التوجه إلى موسكو وليقول للرئيس بوتين انه لن يكون الجار المؤذي ولا المتحدي، وبذلك أمكن لملمة المسألة وقطع الطريق على أي صراع حاد طرفاه روسيا البوتينية وأميركا البوشية. وهذا مأمول حدوثه من لبنان الجديد مع سوريا في حال لم تنته الأزمة إلى مفاجآت صاعقة في مرحلة ما بعد الإنسحاب المتوقع.. والذي لا بد منه لبنانياً بنسبة كبيرة وعربياً ودولياً بنسبة أكبر.

لن نغوص هنا في أعماق الصراعات وإنما نحصر المسألة في التركيز على أن الانتفاضة هي الحل ولو مؤقتاً وأنها تأكيد للقول الشائع «آخر الدواء الكي». كما أنه من المناسب إستحضار ملامح «أم الانتفاضات» التي هي «الانتفاضة السودانية» في أكتوبر (تشرين الأول) 1964، وذلك لأن أوجه الشبه كثيرة بين ما حدث في العاصمة المثلة (الخرطوم) قبل أربعين سنة، وما يحدث الآن في بيروت العاصمة المثلة هي الأخرى بالمفهوم التحزبي والطائفي وليس بالمفهوم الجغرافي كما حال الخرطوم. ونقول ذلك على أساس أن بيروت الشرق هي قلعة مسيحية وأن بيروت الغرب قلعة إسلامية سنية، وأن بيروت الضاحية هي قلعة شيعية أو المقر الرئيسي لـ «دولة حزب الله».

أما ما هي أوجه الشبه فإنها على النحو الآتي:
عام 1964 كان السودان محكوماً بجنرال هو الفريق إبراهيم عبود محاطاً ومطوّقاً في الوقت نفسه بمجموعة جنرالات متعددي الولاءات، هذا مصري الهوى، وذاك بريطاني الهوى، وهذان أميركيا الهوى بنسبة بسيطة. ثم هنالك من هو على أهبة إستكمال هواه السوفيياتي. وفي لبنان يبدو الحكم في بعض مفاصله قريب الشبه من حيث أن قبضة الجنرالات، الظاهر منهم والمستتر، قوية.. فضلاً عن أن الجامع المشترك بين جنرالات السودان زمناك وجنرالات لبنان بعد أربعين سنة هو ضيق الصدر من الحزبية

المنتفضين وإستقرازاتهم، بعدما أعطى الرئيس بشّار في خطابه الإستثنائي مساء يوم السبت الماضي إشارة المباشرة بالتصحيح؟ ذلك هو السؤال.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 10 مارس (آذار) 2005

* * *

خطاب الأب إيذاناً بالدخول.. وخطاب الإبن إعلاناً بالخروج

عشية الذكرى السنوية الأولى لحادثة 13 أبريل (نيسان) 1975 التي كانت الشرارة للحرب اللبنانية أو لحرب الآخرين على أرض لبنان، وبواسطة بعض أبنائه ومعظم ضيوفه الفلسطينيين، وكل الثوريين الأمميين الشاردين، أعلن الرئيس (الراحل) حافظ الأسد في خطاب القاه في جلسة إفتتاح «المؤتمر العام الثاني، لإتحاد شببية الثورة» الذي عُقد في دمشق، عن الاستعداد لإرسال قوات سورية الى لبنان.

كان الخطاب المكتوب خالياً من الفقرة التي تشير إلى ذلك. لكن الرئيس الأسد خرج عن النص ليهاجم «المتاجرين بالدين والسياسة والثورة وسفّاكي الدماء»، وليضيف القول: «إن سوريا مستعدة للتحرك إلى لبنان، لحماية كل مظلوم وضد كل ظالم...». وفي الخطاب أيضاً الذي قوطع 16 مرة بالتصفيق نبّه الفلسطينيين، الذين كانوا جزءاً أساسياً وبقيادة زعيمهم ياسر عرفات من مشروع الحرب، إلى خطورة المؤامرة، وقال إنه اتفق مع الرئيس اللبناني (زمناك) سليمان فرنجية (جد القطب الماروني الحالي سليمان)، على أن يستقيل درءاً للإنفجار الأكبر.

هذا الموقف من جانب الرئيس حافظ الأسد، جاء بينما كانت القوات السورية في الأراضي اللبنانية، وبعد مشاورات ومقايضات بدأت يوم 14 مارس (آذار) عام 1976، عندما أوكل الرئيس السوري إلى رئيس أركان الجيش، اللواء حكمت الشهابي (يعيش الآن في أميركا، حيث يعمل نجله طبيباً)، مهمة التباحث مع السفير الأميركي لدى سوريا ريتشارد مورفي، في إمكانية التدخل السوري عسكرياً في لبنان، بعدما كان الجيش اللبناني ينقسم إثنين ثم ثلاثة.. ثم تبعثر شر تبعثر.

رحيله بالخير. وتسلم قادة الأحزاب الحكم الذي لم يحافظوا عليه وجاز عليهم القول بعدما إنقض عليهم ضباط «ثورة مايو» 1969 بقيادة العقيد، زمناك، جعفر نميري مع مجموعة من الضباط برتبة رائد ما قالت تلك الأم لابنها ذلك الحاكم العربي الأندلسي بأنه يبكي كالنساء مُلكاً لم يحافظ عليه كالرجال. وهذا في أي حال ينطبق على ما جرى في العراق البعثي وما نتمنى ألا يتكرر حدوثه في الجناح البعثي الآخر أي الحكم السوري، إن هو لم يستوعب، كما يجب أن تكون عليه أصول الإستيعاب، المتغيرات الدولية والأوضاع الإقليمية.

وخلاصة القول إن الإنتفاضة تبقى أحيانا العلاج الذي قد يشفي في حال لم يحقق الدواء النتيجة المطلوبة بالنسبة الى حالة المرض عندما تصبح مستعصية، إلا أنها تؤدي إلى التبعثر في حال كانت وسيلة ومجرد إنتهاز فرصة أو مناسبة كما حدث لـ «الإنتفاضة السودانية»، حيث أن أباطرة الأحزاب أمعنوا بعدما باتوا في السلطة طعنوا بعضهم ببعض وضافت بهم رقعة التعايش وباتوا لا يتطابقون.. وهذا ما قد يحدث لأحزاب «الإنتفاضة اللبنانية» الآن في ضوء الخطوة النوعية التي خطاها الرئيس بشّار، والمتمثلة بالإعلان الذي طال تأجيله حول إنسحاب القوات السورية من لبنان. والمأمول من هذه الأحزاب تقدير الخطوة وليس التصرف بروحية إذلال الموقف السوري، ذلك أن هذا الإذلال قد يكون السبب خلال عهد الرئيس الأسد الإبن في إعادة الظاهرة الانقلابية في سوريا إلى ما كانت عليه حتى تسلم الرئيس الأسد الأب مقاليد الحكم، إذ كيف سيحل الحكم البشّاري مشاكل خمسة ملايين فم سوري كانت تعتاش من وجود الميعلين المليون في لبنان حيث لا قيود على وجودهم وحركتهم ولا ضرائب على دخولهم؟ وماذا سيفعل الحكم لألوف الضباط العائدين من لبنان أو الذين سبق وخدموا فيه تحت مظلة دور قومي وطني، هو مساعدة لبنان على إستتباب أمنه ومؤازرة «حزب الله» في المواجهة مع إسرائيل. وقد لا يقطع الطريق على الظاهرة الانقلابية التي لن تكون في أي حال لمصلحة اللبنانيين سوى ضخ المساعدات المالية العربية بسخاء إلى الحكم السوري، لإحتواء ما كان الوجود العسكري في لبنان يشكل الحل له. فهل من سيسخو، وبذلك يهدأ البال السوري ويهدأ بالتالي ضجيج «الإنتفاضة اللبنانية»، ومزايدات بعض

طالت المداولات السورية - الأميركية التي كان وزير الخارجية (زمذاك) هنري كيسينجر العنصر الفاعل فيها، وإنتهت إلى أن القوات السورية دخلت، ثم إنتشرت بموافقة الإدارة الأميركية، وشجع الإدارة على ذلك أن الرئيس الأسد أراد نصره الفلسطينيين المعتدلين والمسيحيين المحافظين، في وجه التجمع اليساري، الذي كان يقوده زمذاك الزعيم الدرزي كمال جنبلاط، وكان يتطلع من وراء ذلك إلى ثورة دستورية تنتهي بتروؤسه لبنان، وبذلك تنقلب المعادلة القائمة على أن رئيس الجمهورية، يجب أن يكون مسيحياً مارونياً، ويكون رئيس البرلمان مسلماً شيعياً، ورئيس الحكومة مسلماً سنياً. وكان جنبلاط الأب في تطلعه هذا، يستند إلى أنه الرقم الأكثر صعوبة في الحالة اللبنانية، كونه جعل الثوريين المعتدلين واليساريين المتشددتين ومن كل الأطياف اللبنانية، يلتقون حوله ويؤازرونه في الإلتفاف على الطموح السوري.

منذ ذلك الخطاب للأسد الأب والقوات السورية موجودة في كل لبنان. وبعدما تم التوصل إلى إتفاق الطائف الذي أذاع وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل وثيقته يوم الإثنين 18 سبتمبر (أيلول) 1989، أراد الرئيس الأسد إعطاء العلاقة السورية مع «لبنان الطائف»، صيغة الإرتباط بإتفاق أبادي، فكانت المعاهدة المسماة «معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق»، التي تم التوقيع عليها في دمشق يوم 22 مايو (آذار) 1991 من جانب الرئيس حافظ الأسد وأول رئيس في عهد «لبنان الطائف» الياس الهراوي. ونقول إنه الأول لأن من كان مفترضاً أن يكون الأول بالفعل، وهو رينيه معوض (التاسع في تاريخ رؤساء لبنان منذ الإستقلال عام 1973) لقي حتفه يوم الأربعاء 22 نوفمبر (تشرين الثاني) 1989 في عملية تفجير أقل هولاً من تلك التي إستهدفت الرئيس رفيق الحريري يوم الاثنين 13 فبراير (شباط) 2005. وجاء تفجير الرئيس معوض بعد دقائق من مغادرته الإحتفال، الذي اقامه في القصر الحكومي بذكرى الإستقلال، بحضور السفراء العرب والاجانب في طريقه إلى منزله.

ومثلما كان لافتاً أن الرئيس الأسد الأب إستعجل إبرام المعاهدة مع الياس الهراوي، الذي اختاره ليكون رئيساً للجمهورية، ولمجرد إنجاز العملية الإنتخابية، ولم ينتظر الى ما بعد أن يستقر البلد، ويبنى مؤسساته ويرمم ما فعلته الحرب، فإنه كان أيضاً لافتاً أن الممكن من التنبه والتحفظ سجله الجانب اللبناني قبل

وضع التواقيع على الورق. وعلى سبيل المثال فإنه عندما أراد الجانب السوري أن ينص البند الثاني من المادة الخامسة من المعاهدة، على «وحدة المصير والمصالح المشتركة القائمة بين البلدين»، فإن الجانب اللبناني المتهيب، أراد حذف كلمة «وحدة» وكان له ما أراد، حيث بات البند المشار إليه على النحو الآتي: «المصير المشترك والمصالح المشتركة القائمة بين البلدين...». وإذا كان الدافع إلى التهيب هو الإبقاء قدر الإمكان على نوع من الإستقلالية للقرار اللبناني، فإن التطورات التي أعقبت أربع عشرة سنة من سريان التعامل السوري مع لبنان، وفق المعاهدة التي حملت توقيع كل من الرئيسين الياس الهراوي وحافظ الأسد وتاريخ 22 مايو (أيار) 1991، أثبتت أن اليد السورية كانت عموماً هي الأقوى، وأن «لبنان الطائف» لم يقو على تخفيف حدة القبضة.

رحل الأسد الأب وبقيت المعاهدة مع لبنان جزءاً من الإرث، لا يدري ماذا يفعل به الأسد الابن. وبذل أن يساعده رموز الصفوف المتتالية في الحكم، على بلورة ما يمكن بلورته للمرحلة المقبلة، وتصحيح ما يجب تصحيحه، فإن البعض منهم خرج على الأصول في الموضوع اللبناني، إما من خلال الممارسة، وإما من خلال التحليل البغيض للموقف. وجاءت العملية الترويجية التي إستهدفت الرمز المقبول لبنانياً وعربياً ودولياً رفيق الحريري تشكل حالة صحوة، أثبتت أن العلاقة اللبنانية - السورية على نحو ما سارت عليه طوال 29 سنة، كانت تسير على قاعدة الطرف الأقوى والطرف المستضعف. ولأنها إستمرت كذلك، فإن أساليب اهل الأمن العنيف طغت على وجهات نظر أهل الرأي الحصيف. وهكذا وجد الرئيس بشار نفسه امام حالة غير مسبوقة، إبتعد فيها الأشقاء العرب عن الحكم السوري الواعد، وإصطف معظمهم جنباً إلى جنب مع الأصدقاء الدوليين اللاتمين الغاضبين، مشاركين في أضخم حملة ضغط على الحكم البشاري، بعد الحملة المماثلة التي إستهدفت الحكم الصدامي. ودرءاً منه لتحفيف حدة الحملة، كان خطابه مساء يوم السبت 5 مارس (آذار) 2005 معلناً فيه قرار الإنسحاب العسكري الشامل من لبنان.

ويبقى أن ما أردته من هذا الإستحضار للوقائع، هو تبصير أجيال شابة جديدة، إضافة إلى جيل الشباب، الذين وهنت ذاكراتهم الى جانب قواهم، بخلفية إجراء تاريخي يتمثل في خطاب الرئيس الأسد الأب،

رسائل لا ينقصها الوضوح، مفادها أن لبنان الحريري هو موضع الإرتياح، وأن مساندته ستستمر إلى أن يأخذ الوطن مكانه في مدار النهوض.

ومن محاسن الصدف أن هذه القمة الدورية بالذات، تتعقد في الجزائر، التي باتت في عهدة رئيس أثبت جدارة ملحوظة في ترويض التوجهات الإسلامية المتزمتة، والممارسات العسكرية المتشددة، فما عاد شيوخ تلك التوجهات على أصولياتهم التي أتاح المجال أمام حالات من صولات وجولات العنف، الذي إستمر لا سابق له في حياة الأمتين العربية والإسلامية، سبع سنوات من 1992 حتى 1999، إلى أن جاءت الحالة العراقية تزامت تلك الحالات، وما عاد جنرالات المؤسسة العسكرية، وبالذات كبيرهم الفريق محمد العماري رئيس الأركان، على قبضتهم وهمنتهم وإحتكارهم إختيار من يجب أن يتأسس البلاد، ومتى تيعن الرؤوس المدنية التي يجب قطافها قبل أن تتجاسر على الجنرالات. ونستحضر هنا واقعة تعكس قدرة بوتفليقة على التطويع وعلى أنه يستطيع «قطف» رأس العماري قبل أن يقوم هذا الأخير بـ «القطف». وخلاصة الواقعة ان العماري أراد أن يؤكد سطوته بعد ترئس بوتفليقة عام 1999 خلفاً للرئيس المستقيل يوم 11 سبتمبر (أيلول) 1978، طوعاً وقبل إنتهاء ولايته، اليمين زروال، فأدلى بتصريح قال فيه «إن إختيار بوتفليقة لتولي المنصب كان لسبب بسيط، هو أنه الأقل سوءاً من بقية الشخصيات التي جرى ترشيحها...». ومنذ ذلك التصريح قرر بوتفليقة «قطف» الرؤوس التي أينعت بدءاً برأس العماري، الذي إنتهى مُقَلاً من رئاسة الأركان. وهذا الكلام من الفريق العماري جاء رداً على ملاحظة كثيرة الخشونة من جانب بوتفليقة، سجّلها خلال زيارة إلى سويسرا، وخلاصتها أن قيادات المؤسسة العسكرية إعتمدت العنف وأوقفت مسار الإختيار عام 1992. كما أن الجزائر في عهدة هذا الفريق الأمين للرئيس الراحل هوارى بومدين، لم تعد عشية إنعقاد القمة رقماً مغاربياً شبه محذوف، يتقدم عليه الرقم الليبي القذافي أحياناً والرقم المغربي أحياناً أخرى، ويحاول الرقم التونسي خطف الحضور العربي والدولي منه في ساعات الشدة، وبما يبعث الرضى في النفس البوشية.

وها نحن نلاحظ من قبل الفوز المبهر للرئيس بوتفليقة بولاية رئاسية ثانية، حالة إرتياح عربي ودولي للرجل، ثم تزايدت نسبة الإرتياح بعد الفوز الذي جاء

إيداناً بالتدخل العسكري في لبنان، وإرسال قوات تمركزت في معظم المناطق اللبنانية، وفي ضرورات قرار، ربما كان لن يقدم عليه الرئيس الأسد الأب، لكن الرئيس الأسد الابن إتخذه، وكان إعلاناً بالخروج العسكري السوري من لبنان. ومع أن الرئيس بشار كان دون العاشرة من العمر، عندما إتخذ والده قرار الدخول العسكري إلى لبنان، الأمر الذي يعني أنه مجرد وارث لجملة قرارات وإجراءات وخطوات، إلا أنه في أي حال ربما يرى ذات يوم، انه بخطوته التي قضت بإعلان الخروج العسكري، لم يخرج على العهد بالمفهوم المبدئي، وإنما بدأ يؤسس لعهد الخاص به بالمفهوم الموضوعي.. وهو أمر مرغوب سورياً ومأمول عربياً ومرحّب به دولياً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 15 مارس (آذار) 2005

* * *

حالات إستثنائية في قمة عادية

تبدو القمة الدورية العربية التي تستضيفها اليوم وغداً جزائر بوتفليقة، كما لو أنها إستثنائية بإمتياز، لكثرة ما إستجد منذ القمة السابقة من تطورات ومفاجآت وصدمات، فضلاً عن الفاجعة الحريرية، التي ما زالت تداعياتها تتفاعل محلياً وإقليمياً ودولياً، والتي لن يتجاوزها التوجه العام للقمة، وإن كانت هذه الفاجعة ليست مدرجة كبند في جدول الأعمال، الذي هو عرضة لمباغطات ليست في الحسابان، من نوع المباغطة التي تتعلق بلهفة اردنية مندفعة في إتجاه التطبيع الكامل مع إسرائيل، منطلقة في ذلك من الإقتراح الذي يناهز بتعديل المبادرة العربية، التي هي في الأصل رؤية لولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبد العزيز، أقرتها بالإجماع القمة العربية الدورية الثانية التي جبرها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات (رحمة الله عليه) إلى لبنان، دعماً منه للتوجه النهضوي الذي بدأه الرئيس رفيق الحريري، ودفع حياته يوم 14 فبراير (شباط) الماضي ثمناً لهذا التوجه، الذي ساندته الرئيس الفرنسي جاك شيراك هو الآخر، وبمثل مساندة الشيخ زايد حيث انه، أي شيراك، جبر إلى لبنان الحريري القمة الفرنكوفونية، التي كانت إلى جانب الوديعة السعودية ومثيلات خليجيات لها،

على قاعدة الإنتخاب الحر، الذي خضع لإشراف دولي، وبذلك لا مجال لنسبة الفوز الأسطورية التسعة والتسعين في المائة، وإنما للفوز المحترم الذي لا إعتراض عليه من أحد.. عدا القلة المصدومة أو الحاسدة أو التي أخطأت التقدير في الحساب، وبذلك وقعت في شر تقديراتها.

كما اننا نلاحظ مدى حرص بوتفليقة بعد الفوز، أنه يريد انجاز خطة الترميم النفسي والمالي في البلد الذي كان منارة نضالية، فإذا به يتحول إلى ساحة إقتتال تعددت التفسيرات في شأن دوافعه، وفي شأن الذين يقفون وراءه تشجيعاً أو تسهلاً أو تغطية أو تمويلاً. ولقد حققت الخطة الكثير من بنودها. فما هي الديون التي كانت تشكو الجزائر من وطأتها والتي هي مثل الديون التي تتواصل شكوى اللبنانيين من ضخامتها تتناقص من 40 مليار دولار على نحو ما كانت عليه يوم بات بوتفليقة المهاجر بين أبو ظبي وسويسرا رئيساً للبلاد عام، 1999 إلى 19 مليار دولار حتى نهاية العام 2004. وما هي خدمة الدين التي كانت 30 في المائة تتراجع لتصبح 18 في المائة.

وما هي نسبة البطالة التي كانت عشية ترؤسه 32 في المائة باتت 22 في المائة. وما هي المؤسسة العسكرية التي كانت كلمتها هي الأعلى وكلمة عدا بقية الجزائريين هي السفلى، تتسحب مضطرة وأمام الحنكة البوتفليقية الحازمة إلى الخط الذي لا مجال بعد الآن كما الحال في الماضي لتجاوزه. وعندما يتبين لنا أن تلك الحنكة وذلك الحزم حقاً أكبر عملية تطهير في جيش عربي وربما غير عربي، وشملت ألف ضابط كبير، وبذلك لم تعد مؤسسة الجيش في الجزائر هي من يصنع رئيساً للبلاد، فإن التوقعات في شأن إستعادة الجزائر دورها الذي طمسته خمس عشرة سنة من الدوامات وعدم الإستقرار، إنما هي توقعات واردة في الحساب، وربما تنطلق من ترؤس بوتفليقة لمؤسسة القمة العربية من 22 مارس (آذار) 2005 إلى 22 مارس (آذار) 2006.

وفي تقديرنا أن بوتفليقة الذي بوع مطلع فبراير (شباط) الماضي بالرئاسة الشرفية لحزب «جبهة التحرير»، وضمن تعديلات جديدة في هيكلية الحزب، لن تكون سلامة ضيوفه الملوك والرؤساء العرب هي القضية الوحيدة عنده، كما هو المألوف بالنسبة إلى مستضافي القمم العربية، وإنما سيمارس في اللقاءات الثنائية، وهي عادة الأكثر أهمية كونها تجري وراء

الكواليس، دوراً مطلوباً ومقبولاً منه ويتعلق بحالات إستثنائية وفي منتهى الأهمية. فالحالة السورية حالة إستثنائية، ولعلها المرة الأولى في تاريخ ربع قرن من القمم العربية تشارك سوريا وهي في وضع بالغ الدقة. والحالة اللبنانية حالة إستثنائية، إنطلاقاً من العملية الترويحية التي إستهدفت الرئيس رفيق الحريري، وصولاً إلى مؤشرات تهدد الصيغة اللبنانية وقد تعصف بالمصير. والعلاقة اللبنانية - السورية حالة إستثنائية وتتطلب، شاء الملوك والرؤساء التعاطي أو أثروا الإبتعاد، الإهتمام السريع وتحتاج إلى علاج على مستوى القمة يتلزم مع العلاج الدولي. والحالة الفلسطينية حالة إستثنائية، منذ ان تم ترئيس محمود عباس، ثم بعدما أنجز الرئيس حسني مبارك في القاهرة خطوة توافقية فلسطينية قريبة الشبه بمؤتمر الطائف، الذي وضع حداً للإقتتال اللبناني وبقاء الشرعية اللبنانية بديلاً عن وطأة الميليشيات. وهذه الحالة لن تصمد من دون رعاية عربية نوعية لها، وإلى ساهر على هذه الرعاية من نوع بوتفليقة.

والأهم من هذا كله هنالك حالة المبادرة العربية التي يحاول الأردن الذهاب أبعد من الخط الأحمر في شأنها، وذلك من خلال تلقيحها ببند ينادي بهجمة عربية في إتجاه التطبيع، وهذا معناه عملياً أن يسبق مخطط الإستسلام مشروع السلام الذي تراه المبادرة. وهذه النظرة الأردنية تثير الدهشة، ذلك أنه إذا كان لا بد من تعديل للمبادرة، فإنه في إتجاه إما التفعيل أو التشدد قليلاً وليس العكس، لأن المبادرة شكلت في مضمونها ذروة المرونة، ومع ذلك فإن إسرائيل تعاملت معها بصلافة وإستهانت بمنطلقاتها، مع أن هذه المنطلقات كانت موضوعية وكانت صياغتها موضع الطمأنينة النسبية.

وخلاصة القول إن القمة الدورية، اليوم هي قمة إختبار قدرة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة على إيجاد صيغة للحالات العربية الإستثنائية، التي أوردنا نماذج منها تكون مثل قدرته على إستتباب صيغة للحالة الجزائرية التي كان علاجها من ضمن المستحيلات، لكنها وجدت بفعل الحنكة والحزم والإقرار بحق الآخر طريقاً إلى التهدئة على طريق الحل. تمنياتنا لـ «سي عبد العزيز» بأن يحالف التوفيق دوره المأمول.. وتتجج قمته كما لم تتجج قمة عربية من قبل.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 22 مارس (آذار) 2005

إنقضى الأربعون.. فمن بعد الحريري؟

الآن وقد إنقضى يوم الجمعة الماضي أربعون الرئيس رفيق الحريري، بات لا بد من النقلة الطبيعية في مثل هذه الحالات، وهي: مَنْ بعد الحريري زعيماً لبيروت، وَمَنْ بعد الحريري زعيماً للطائفة السنية في لبنان، وَمَنْ بعد الحريري مرجعية لصيغة مؤتمر الطائف. أما مَنْ بعد الحريري كرجل أعمال كثير التميز، فهذا أمر ليس بتعقيدات الحالة السياسية، ذلك أن رفيق الحريري رتب أمور الأعمال والمشاريع والمؤسسات المصرفية منذ أن نزل إلى المعترك السياسي رئيساً للحكومة، ثم معارضاً، ثم عودة للرؤس على جناحي زعامة شعبية لم تتحقق لقطب سياسي سني من قبل. وما يتعلق بأمور الأعمال لا يعنينا هنا، وإنما الذي يعنينا هو من سيرث الزعامة الحريية، أو من سيأخذ على عاتقه أمر الإستمرارية وهل هذا ممكن.

بداية من الضروري إستحضار ظاهرة توريث الزعامة السياسية في لبنان، كونها فريدة من نوعها في العالم العربي، بمعنى أن الأبناء يرثون زعامة الآباء، وكأنما هذه الزعامة هي ممالك، للأب صفة «الملك» وللابن البكر، أو لأحد الأبناء صفة «ولاية العهد». ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن التوريث ليس أمراً واجب الحدوث لكل قطب سياسي. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الشيخ بشارة الخوري، أول رئيس جمهورية، في عهد الإستقلال لم ينجح في توريث زعامته التي كانت تشمل ترؤس حزب إسمه «الكتلة الدستورية» وأن إبنيه خليل وميشال لم يكملوا المسيرة السياسية لوالدهما، كما أن شقيقتهم أنصرفت بعد زواجها من فرنسي إلى الإهتمام بمطعم ما لبثت أن أقفلته. أما أول زعيم سني مرموق لبيروت رياض الصلح، فإنه رحل ومن دون أن تقوم بناته بعد رحيله، خلال زيارة للأردن، بالحفاظ على ديمومته كزعيم سياسي، مع أن الإبنة الكبرى علياء تملك من قدرات العمل السياسي ما يؤهلها لمواصلة مسيرة والدها.

وفي المقابل نجد رئيس جمهورية لبنان في مرحلة ما قبل الإستقلال، إميل اده، يرحل وقد ترك إبنيين خاضا غمار العمل السياسي بجدارة. ومع أنهما لم يحققا الحلم في نيل منصب رئاسة الجمهورية، وبالذات «ولي العهد» ريمون الذي كان المنصب على مسافة قريبة منه أكثر من مرة إلا أنه مع شقيقه بيار شغلا

المنصب الوزاري بجدارة وحافظا على الحزب الذي أنشأه والدهما تحت إسم «الكتلة الوطنية». وبعدما رحل الإثنان، ولأن ريمون اده، المعروف لبنانياً وعربياً بـ «العميد»، وفرنسياً، حيث أقام في باريس بفعل الهجرة الإضطرابية بقية حياته إلى أن توفي، بـ «مسيو بريزيديان»، لم يتزوج فإن كارلوس، ابن الشقيق بيار، ورث الزعامة السياسية «الإدوية» وها هو بعد وفاة عمه يستقر في لبنان ويعيد تأهيل منزل العمر الذي طالما كان يشهد حضوراً سياسياً دائماً الحيوية، ويتخذ منه مسكناً ومقراً يلتقي فيه بزواره كما حال عمه «العميد» من قبل. كما ها هو يمارس شغف العمل السياسي المعارض تماماً كما كانت حال عمه من قبل، ويتأهب لخوض معركة الإنتخابات النيابية، وبذلك يكون حقق إستمرارية لتراث عمه وجده من قبل، وعلى نحو ما حدث مع كامل الأسعد الذي إستمر محافظاً على الارث السياسي لزعامة والده أحمد الأسعد إلى أن إنقلبت المعادلة بعدما باتت سوريا بدءاً من العام 1976 ونتيجة للحرب هي وحدها من تختار الزعامات السياسية اللبنانية وبالذات زعامة الطائفة الشيعية، وبذلك حل رئيس حركة «أمل» ورئيس البرلمان الحالي نبيه بري زعيماً سياسياً أوحده للطائفة الشيعية. ونقول ذلك على أساس أن «حزب الله» الأقوى شيعياً ما زال يتصرف على أساس أنه حركة مقاومة، ولا يتعاطى الشأن السياسي بالزخم الذي يملكه، لكن هذا الأمر سيتبدل جذرياً عندما سيقدر الحزب وفي ضوء التداعيات المحلية والهجمة الدولية عليه وعلى قلبه السوري ورثته الإيرانية، التحول إلى حزب سياسي.. وهو ما سيحدث أجلاً مع تغيير للتسمية لأن حزباً يحمل إسم «حزب الله» ليس أمراً مألوفاً لحزب سياسي.. فضلاً عن أن التسمية الحالية تترك إنطباعاً فورياً بأن الحزب عبارة عن شجرة جذورها في إيران، أما اغصانها وما تحمله من ثمار فإنها في لبنان الشيعي فقط.

وإذا كان الأمين العام لـ «حزب الله» السيد حسن نصرالله غير مشغول البال بمسألة التوريث، لأن الحزب الذي يقوده ليس تقليدياً من حيث إنشغال البال بأن يرث الأبناء زعامة الآباء، فإن نبيه بري يعمل على تأهيل أحد الإبنين لكي يواصل من بعده، يستوقعه في ذلك أسلوب الرئيس حافظ الأسد في مسألة التوريث، متحسباً لمفاجأة من نوع مفاجأة الرئيس زين العابدين بن علي في تونس، وأخذاً في الإعتبار النهج

عضو البرلمان عن صيدا هي من سيملاً الفراغ النيابي لشقيقتها كنان عن بيروت، ويحل محلها في مقعد صيدا النجل البكر بهاء رفيق الحريري، خصوصاً أن دوره المصرفي يفرض عليه التواجد في لبنان. وبذلك يبقى دور الإبن الثاني سعد الدين على ما هو عليه. وبهذه الصيغة يتم تأهيل بهاء بمثل تأهيل رفيق الحريري لشقيقته، وهو تأهيل أثبتت الفاجعة أهميته، ذلك أن بهية الحريري جمعت في شخصها بين قدرات سيدتين سبقتها في حالة من التوريث السياسي، هما أنديرا غاندي وبنظير بوتو. كما ان التأهيل سيساعد الإبن بهاء خلال أربع سنوات أو أكثر في إتجاه الزعامة السنية، يؤازره في ذلك أنه حامل الاسم الذي كان الأب الراحل يطيب له المناداة به، كما أنه إسم الجد الراحل الذي لم يورث زعامة سياسية وإنما أنجب ابناً طالما كان يتباهى بأنه ليس سليل بيت سياسي وإنما هو إبن إنسان بسيط ذاق مرارة العيش، وهي أمثلة أتقن الإبن رفيق حفظها وأبقاها حاضرة في وجدانه حتى بعدما بات أول عربي يغزو مجتمع أهل القرار الدولي من القطب إلى القطب، وتلك حالة نادرة تشبه مثيلتها عندما كان الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز أول عربي يغزو الفضاء.

يبقى القول إن لبنان في موضوع التوريث العائلي السياسي سبق ظاهرة التوريث على مستوى بعض الرئاسة في العالم العربي. وبالنسبة إلى من بعد رفيق الحريري فإن الأمر ليس تجبير الزعامة من شخص إلى آخر، وإنما هو حالة خاصة ليست بسهولة توريث الزعامات التي أوردنا بعضها على سبيل المثال، ذلك إننا هنا أمام زعامة متعددة الأبعاد ولكي يملك هذه الأبعاد شخص واحد يُفترض أن يكون مثل رفيق الحريري. وهنا نجد أن القول الشائع «يخلق من الشبه أربعين» لا ينطبق تماماً على الحالة الحيرية إلى أن يثبت القول الشائع الآخر «الإبن سر أبيه»... بهاء كان هذا الإبن أو سعد الدين.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 29 مارس (آذار) 2005

* * *

سوريا البشّارية.. خطوة خطوة

بات من الجائز القول فيما أرتال الآليات السورية

الجنبلطي والإرسلاني لدى الطائفة الدرزية في التوريث. فالإبن وليد ورث زعامة والده كمال جنبلاط الذي قضى إغتياًلاً، ويعمل على تأهيل إبنه تيمور لكي يواصل من بعده. وطلال ورث زعامة والده الأمير مجيد أرسلان، أحد رموز كوكبة الإستقلال. وهذا النهج الدرزي مشابه لنهج الزعامات المارونية حيث الحفيد سليمان فرنجية ورث زعامة الجد سليمان، الذي شغل منصب رئاسة الجمهورية حتى تاريخ إشتعال الحرب عام 1975 واضطراره للإستقالة قبل إنتهاء ولايته، وحيث الإبنان بشير وأمين ورثا الزعامة السياسية لوالدهما بيار الجميل، تماماً على نحو ما حدث مع الإبنين داني ودوري اللذين ورثا زعامة والدهما رئيس الجمهورية الثاني في عهد الإستقلال كميل شمعون.

الأمثلة كثيرة بالنسبة إلى ظاهرة التوريث السياسي العائلي في لبنان. وفي إستمرار كان هذا التوريث على شيء من السلاسة إلى أن جاءت الفاجعة الحيرية يوم 14 فبراير (شباط) 2005 تطرح في الساحة السياسية المحلية تساؤلات في شأن مسألة في غاية الأهمية تتمحور حول من سيرث الزعامة السياسية الحيرية، ومن سيواصل بعد الحريري. وهذه التساؤلات سببها أن رفيق الحريري ملأ في فترة زمنية قياسية فراغ الزعامة السنية في لبنان وهي زعامة كانت مغيبة من قبل أن يتراأس الرجل الحكومة ثم باتت هذه الزعامة ذات شأن كبير وفي مستوى الزعامة الشيعية، مع فارق أن زعامة الحريري باتت ذات أفق دولي مرحّب بها كل الترحيب وباتت أيضاً محط انظار السنة العرب عموماً، وبالذات حيث شأن أبناء الطائفة أقل مما يستحقون أو يتطلعون.

طوال أيام الحزن التقليدي الأربعين لم تغب مسألة التوريث الحريري عن البال، إلا أن حديث التوريث إستمر كلاماً في الهمس وفي اللحظات بين التأثير لغياب رفيق الحريري والتأمل في الفراغ الناشئ عن الرحيل المبكر. وعلى هذا الأساس فإنه بات من الطبيعي للكاتب المراقب والمتابع، مثل حالنا، أن يسبر غور الأمر ويفترض أن نوعاً من الخروج على قاعدة التوريث المألوفة في المجتمع السياسي اللبناني سيحدث وبحيث تكون هنالك صيغة قائمة على إستمرارية الخط وليس فقط على مجرد التوريث. وحيث أنه من الصعب، أو فنقل إنه من السابق لأوانه، تكوين من في قدرته ومواصفاته أن يملأ فراغ رفيق الحريري، فإن ما يمكن حدوثه هو أن بهية الحريري

تواصل الإنسحاب ليلاً ونهاراً من مواقع شملت معظم مناطق لبنان وتعاقبت على الخدمة فيها جيلان من الجنود والضباط السوريين، أن سوريا على أهبة كتابة صفحة جديدة يمكن ان تقود إلى مخرج للأزمة السورية - الدولية في حال تشجيعها دولياً مع قليل من الصبر، وكذلك في حال تسريع الخطى من جانب الحكم السوري في اتجاه التغيير بدل هذا التمهّل الذي نلاحظه والمتمثل في إعادة النظر خطوة خطوة.

ومن شأن إكمال الخطى ولادة «سوريا البشّارية» وبذلك تتراجع التهديدات وينحسر بعض الشيء التوجه الثأري من الرئيس بشّار على وضع ليس من صنعه وإنما هو من جملة الموروثات التي تركها الوالد الرئيس الراحل حافظ الأسد ومن دون التوضيح ما إذا كانت أمانة من واجب الرئيس الابن الوارث الحفاظ عليها أو مخلفات على هذا الابن تصفيتها بالتروي.

وسواء كان الأمر بفعل اللبنة أي حالة الصحة اللبنانية التي بدت كما لو أنها أصولية وطنية أو نتيجة أهوال الضغوط الأميركية.. أو أنها بفعل الرؤية التي هي في خاطر الرئيس بشّار الأسد منذ أن وجد نفسه على رأس الحكم في سوريا خلفاً لوالده الراحل، فإن ما يقوله الرئيس السوري المثقل بكل الهموم التي وقعت دفعة واحدة أمامه في شأن التغيير، هو نوع من البشائر التي من شأنها، وبعدما تنكشف حقيقة إغتيال الرئيس رفيق الحريري، تسهيل حلول الإرتياح النفسي محل القلق السائد لبنانياً وسورياً على حد سواء، وإستبدال المخاوف السائدة في صفوف البلدين وعلى المستويين الشعبي والرسمي بالإستقرار الذي يشعر الجميع بإهتزازه إلى حد كبير منذ العملية الترويحية يوم الإثنين 14 فبراير (شباط) الماضي التي فقدت من جزائها الأمتان العربية والإسلامية والمجتمع الدولي عموماً، رمزاً مضيئاً في سماء العمل السياسي والتنموي.

وفي معرض تلميح الرئيس بشّار إلى خطة التغيير المرتقبة يقول انه ستكون هنالك حرية حزبية وحرية ترشيح في الإنتخابات، مشيراً أيضاً إلى إنفتاح مرتقب على الصعيدين الإعلامي والإقتصادي. ويأتي التلميح هذا في وقت بدأ حزب البعث الحاكم الإستعداد لعقد مؤتمر قُطري مطلع يونيو (حزيران) المقبل يسبقه مؤتمر قومي للحزب سيكون الأول منذ 22 سنة. كما أن التلميح يبدو كعنوان لما يمكن أن يطرحه الرئيس بشّار، بصفة كونه يحمل المسؤولية

الأولى في الدولة والحزب، في المؤتمر المرتقب. وما دام الرئيس بشّار قال الذي قاله فهذا يعني انه من موقع السلطتين اللتين هو سيد القرار فيهما، وتتأغماً مع الظروف الاقليمية والدولية وتداعيات الحدث اللبناني، أشعل الضوء الاخضر أمام مرحلة جديدة يأمل من خلالها وضع كل الأمور حيث يجب أن تكون وبحيث تسود الطمأنينة في النفوس. وهذه الإضاءة هي التي جعلت البطريرك الماروني يلين بعد تشدد ويبدى عدم إرتياحه إلى بعض المفردات التي لا يليق قولها في حق سوريا.

وقد نجد من يقول إن الوضع السوري على درجة من التعقيد، ولذا فإن التصحيح وما من شأنه تحقيق الإستقرار لا يبدو سهلاً. والرد على ذلك أن التصحيح هو في النهاية فعلٌ قرار يتخذه في لحظة الضرورة والشدة من هو في قمة السلطة. وعندما قام حافظ الأسد في السبعينيات بـ «حركة التصحيح» التي توجّهته رئيساً فإن الوضع السوري الحزبي كان هو الآخر على درجة من التعقيد، لكن إرادة إتخاذ القرار أوجبت المخاطرة وفرضت في الوقت نفسه الحذر. والتصحيح عن إقتناع وضمن التروي بديلاً للتأجيل من شأنه أن يقي الخطوة التصحيحية المحاذير، فضلاً عن أن مثل هذا السلوك سيجعل لغة الوعيد الدولي والأميركي بالذات تتبدل قليلاً.

وفي تقديرنا أن أولويات التغيير لكي تكون «سوريا البشّارية» موضع الإرتياح الداخلي والقبول الدولي وعدم الحذر العربي، هي أن يطرح الرئيس بشّار أمام المؤتمر القُطري تسمية جديدة لـ «حزب البعث»؛ ذلك أن تجربة هذا الحزب على مدى نصف قرن لم تكن مجدية كما انها كانت متعارضة مع الهدف الثلاثي، فلا الحرية كانت للجميع كما هو المفترض ولا الوحدة كان السعي لها جدياً ولا الإشتراكية كانت تمارس ضمن الأصول، فضلاً عن أن البعث أوجد حالة قلق على مستوى العرب نتيجة دور «البعث السوري» في لبنان وإحتلال البعث العراقي للكويت إلى جانب الانطباع الراسخ في الوجدان العربي بأن البعث الذي لم يتصرف وحدياً في كل من لبنان والكويت ولم يتوحد ما دام بات الحاكم في كل من سوريا والعراق يتحمل المسؤولية الاساسية في ضرب الوحدة المصرية - السورية بدليل أن أهل البعث السوري كانوا السبّاقين إلى مباركة الإنفصال. ومن شأن تغيير التسمية وإستنباط حزب جديد على قاعدة العمل

الرسالة السعودية - الفرنسية:

لا لتأزم لبنان بعد الآن

سيكتشف اللبنانيون والسوريون معاً ذات يوم ليس بالبعيد، أن سعة الصدر لدى أهل الحكم السعودي وإعتماد الكلمة التي هي مثل الماء، الذي يطفئ حريقاً هي التي حققت ما بدا مستحيلاً تحقيقه، وإن زيارة ولي العهد النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني الأمير عبدالله بن عبد العزيز إلى الرئيس جاك شيراك، ثم إلى الرئيس جورج بوش الابن، كانت من أجل محاصرة أزمة في بلد عزيز على قلوب الثلاثة، وعقولهم قد تتفجر بقوة البركان وتقذف من الحمم ما من شأنه جعل المنطقة تقترب من تجدد العنف مرة ثانية.

وإذا جاز الإجتهد فإن ولي العهد رأى أن معالجة العقدة الفرنسية - اللبنانية - السورية أولاً من شأنها أن تساعد على ترويض الموقف الأميركي الحاسم والحاد من الموضوع اللبناني - السوري الذي يتجه نحو المزيد من التعقيد، وأنه في حال تبلورت صيغة مفهوم سعودي - فرنسي مشترك للوضع اللبناني الحكومي من جهة وللأزمة اللبنانية - السورية من جهة أخرى، فإن الإدارة البوشية لن تعترض على هذه الصيغة.. هذا إذا كانت لن تدعمها وذلك لأنها، على ما يجوز الاعتقاد، أحيطت بها من خلال التشاور ولأنها صيغة بين الجانب السعودي الذي هو موضع الثقة من قبل الإدارة البوشية، ومن الجانب الفرنسي الذي استعيدت الثقة به من قبل هذه الإدارة وإلى درجة الالتقاء على موقف موحد أزاء قضية إغتيال الرئيس رفيق الحريري والإنسحاب السوري من لبنان وإجراء الانتخابات في موعدها وهو موقف بدا راسخاً من خلال قرار مجلس الأمن 1559 وازداد رسوخاً من خلال القرار اللاحق 1595 والمتعلق بلجنة التحقيق الدولية في قضية إغتيال الحريري. وعند التأمل في طبيعة زيارة الأمير عبدالله إلى فرنسا وكيف أنها كانت إستثنائية بإمتياز وكذلك قراءة تصريحات الأمير والبيان المشترك عن الزيارة، وما حواه هذا البيان من مفردات تتجاوز المعنى الدبلوماسي إلى الصراحة التامة، يتضح للمراقب أن الزيارة كانت في الدرجة الأولى من أجل لبنان وسوريا، وأن مفردات التعبير الفرنسي إقتربت من مفردات التعبير السعودي، وعلى أمل إقترابهما من مفردات

القومي بحيث يتحمل مجاورة بقية الأحزاب أياً كان مؤسسوها أو وارثوها ما دامت وطنية وبصرف النظر عن هويتها العلمانية أو جذورها الدينية، أن تصبح سوريا وطن كل السوريين. ولنا في تجربة رجب طيب اردوغان في تركيا المثال على جدوى التغيير من خلال الخروج من عباءة حزب «الرفاه» ورئيسه المتشدد نجم الدين اربكان وإختيار «العدالة والتنمية» إسماً لحزب إسلامي الجذور حظي بإرتياح المؤسسة العسكرية الاتاتورية من جهة والإدارة الأميركية من جهة أخرى، فضلاً من أنه كان تأشيرة الدخول المريح لتركيا المسلمة إلى الإتحاد الأوروبي المسيحي.. وإن كان الأمر لم يسلم من بعض التحفظات والمخاوف التي أخذ الرئيس الفرنسي الأسبق فاليري جيسكار ديستان على عاتقه أمر الترويج لها.

ويبقى القول انه عندما ستأخذ البشائر التي يتحدث عنها الرئيس بشأراً طريقها إلى التنفيذ فإن طبيعة العلاقة اللبنانية - السورية ستصبح أكثر قبولاً ما دام الوضع في سوريا من حيث التعبير والممارسة السياسية والنهج الإقتصادي والمالي والتعدد الحزبي، سيصبح مثل الذي هو عليه في لبنان. وسيكون البلدان جارين متحابين ومتعاونين ما دام لكل شعب بلده المستقل وليس شعباً واحداً في بلدين كما طرح ذلك الرئيس الراحل الأسد الأب وجاءت الإنتقضة الشاملة من منطلق «إرفع عَلمَكَ يا أخي»، وإن لم نُفصح بعض الشرائح المنضوية تحت راية «حزب الله» عن ذلك وما قيل من كلام بعضه غير مستحب، تعكس واقعاً مريراً بعض الشيء ناشئاً عن ان السلوك البعثي تجاه الكويت كان خطأ يستوجب التصحيح لكن الحكم البعثي الصدامي لم يصحح دفع الثمن، وأن السلوك البعثي تجاه لبنان سار طوال ربع قرن في الإتجاه الخطأ وأن من مصلحة الرئيس بشأراً وربما من برنامجه تصحيح هذا الخطأ شرط ان يكون هناك إستعجال للخطى يعوّض ما فات ويدراً المخاطر. وبذلك تقوم «سوريا البشّارية» المقبولة في المعادلة الدولية - الإقليمية... إنما كرقم على درجة من السهولة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 13 أبريل (نيسان) 2005

* * *

التعبير البوشي. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن البيان المشترك تضمّن في موضوع الإنسحاب السوري القول، والارجح لرغبة الأمير عبدالله، «إن الجانبين أخذاً علماً بالالتزام سوريا الإنسحاب...» وليس «رحباً بالإنسحاب»، إلا أنه في الوقت نفسه كان حازماً في موضوع السيادة والاستقلال للبنان، وكذلك في موضوع التحقيق في جريمة إغتيال الحريري ومعاقبة المتورطين وليس فقط الفاعلين، وهو أمر طبيعي لإعتبارات عامة لأن ترسيخ الاستقرار والسيادة يتفق مع روحية إتفاق الطائف الذي هو مسؤولية سعودية تجاه لبنان، ولإعتبارات شخصية كون الحريري صديقاً متميزاً وإلى درجة الأخوة للطرفين السعودي والشيراكي.

وعندما تسير الأمور في لبنان في الإتجاه التيسيري على حكومة نجيب ميقاتي، فهذا يعني أن نوعاً من الإحياء أتى من القمة السعودية - الفرنسية المحاطة بطبيعة محادثاتها الإدارة البوشية ووجدت العقدة الحكومية من يفكها ببراعة رجال الدولة البعدي النظر، وهو ما لم تحظ به العقدة العراقية، ليس لأن أهل العراق ليسوا من الحذاقة السياسية بمكان، وإنما لأنهم وضعوا الأمر في يد واحدة هي اليد الأميركية، ومن يفعل ذلك، وإن متقال ذرة تعباً وقلقاً وعنفاً، يره.

وهكذا فالقول بأنه لا تأزم في لبنان بعد الآن، وبالحدة التي كان عليها هذا التأزم تستند معطياته إلى ما حدث وأوردناه كمؤشرات كان الوضع في لبنان يحتاجها، ثم جاءت بفضل همة صديقين تاريخيين لهذا الوطن المنخن بالجراح هما الأمير عبدالله بن عبد العزيز والرئيس جاك شيراك كل ما فعلاه هو أنهما قالا كلمة حق يراد بها التسوية، وإستباق تفجير كان وارداً حدوثه في أي لحظة.

ومثلما انه لا تأزم بعد الآن في الوضع اللبناني وبالحدة التي كان عليها هذا التأزم، فإنه لا تماثيل بعد الآن لا في لبنان ولا في أي بلد عربي.. وبالتماثيل التي جرى نصبها تملقاً أو بفعل إصدار الأمر الذي لا يحتمل مناقشة. واللافت للانتباه أن عناصر من الجيش اللبناني وعناصر من حزب البعث (السوري) بدأت حديثاً فك تماثيل للرئيس حافظ الأسد ولنجله باسل، الذي قضى في حادث سيارة مجهول الظروف على طريق مطار دمشق وكان يومها في صدد السفر إلى ألمانيا. ومنذ إتفاق الطائف إنتشرت في لبنان ظاهرة اقامة التماثيل للأسد الأب ولنجله البكر باسل، الذي كان الوالد عمل على تأهيله لكي

يتسلم الحكم منه، خصوصاً بعدما شعر الوالد بأن وضعه الصحي إلى تراجع. ولوحظ أن التماثيل شملت كل المناطق اللبنانية، إضافة إلى إنشاء المراكز الصحية والثقافية والرياضية التي تحمل إسم باسل الأسد مقروناً بـ «الشهيد»، الأمر الذي يوحي بأن الإبن قضى في عمل معاد إستهدفه، ربما لقطع الطريق على ان تواصل السلالة الأسدية الحكم في البلاد.

وقبل التماثيل كانت الصور الكبيرة الحجم، هي المعمول بها كما الحال في العراق الصّدّامي، حيث يتم تعليقها في اماكن إستراتيجية من العاصمة بيروت وبعض المناطق مثل المطار والواجهة البحرية أو مداخل العاصمة. وكانت هذه الصور مرفقة بعبارات الولاء والتمجيد للرئيس الأسد الأب، ثم أضيفت إليها عبارات مماثلة تتضمن الإشادة بالإبن بشار بعدما شاعت الظروف أن يكون هو من يرث الحكم من الأب. وعقب الذي جرى لتماثيل الرئيس صدام حسين في العراق تكاثرت إفتراضات مفادها أن الرئيس بشار سيغتنم الفرصة المناسبة، لكي ينهي ظاهرة الصور والتماثيل، لكنه تفادياً لتفسيرات العشيرة والرفاق، وبالذات لما قد يقال إنه ازال بنفسه تمثالاً لوالده أو لشقيقه وما ينشأ عن التفسير من صدمة نفسية لدى البعض الذين يقرأون الخطوة على عكس نظرة الرئيس بشار إلى الأمر، ترك المسألة إلى وقت آخر. ثم جاءت الإنتفاضة اللبنانية وما تخللها من شحن سلبي للمشاعر ضد الحكم الأسدي وضد الوجود السوري العسكري والمخابراتي والعالمي في لبنان، تدفع ببعض العناصر المعادية أو المنفعلة تكتب على الجدران عبارات ضد سوريا وتحطم صوراً وتماثيل للرئيس الأب. وهذه الوقائع، إضافة إلى إقتناع سابق لدى الرئيس بشار أوجبت الإقدام على ازالة تماثيل الأسد الأب وإبنه باسل حيث اقيمت. وهذا ما حدث ويشكل سابقة في تاريخ التماثيل الرئاسية، حيث أن الرئيس بشار طلب رسمياً من المراجع اللبنانية الرسمية فك التماثيل ونقلها إلى سوريا. وقد تولت المهمة عناصر من الجيش اللبناني وعناصر من حزب البعث (السوري) فك تماثيل مهمين للأسد الأب: واحد على مدخل مدينة صور وآخر على مدخل مدينة بعلبك، وبذلك لم تعد هنالك تماثيل أسدية سوريا في لبنان وبالتماثيل باسل الأسد الذي جرى نصبه في نقطة إستراتيجية على الطريق العام لبلدة شتورا وتمثل الإبن الراحل على صهوة جواد. وفي أي حال أن الخطوة

إستباقية وكريمة وتبقى أفضل من أن يصيب التماثيل الأُسدية ما أصاب التماثيل الصَّدّامية في العراق، وما سبق أن أصاب تماثيل لينين وستالين وماركس وكيم ايل سونغ وتشاوشيسكو. وبعد الآن لن يتطلع رئيس عربي إلى تخليد نفسه وهو حي وعن طريق مريديه أو انصاره وذلك بنصب تماثيل له.

وبتغيب التماثيل الأُسدية تبقى في لبنان المسلة المقامة على المدخل الجنوبي للعاصمة، عربون شكر للدور السوري وبضعة تماثيل لمبدعين أو لرموز سياسية لهم دور في الإستقلال والبناء. ومن هؤلاء رياض الصلح وبشارة الخوري وحبيب أبو شهلا ونَصَب رمزي لشهداء شفقهم السفاح التركي، وقريباً رفيق الحريري الذي سيكون تمثاله على أساس تكريم شهيد قضى من أجل أن يبقى الوطن ويتوحد الصف ويكتمل مشروع الإنهاض ويتلاشى الخوف ويضيق هامش التأزم ويتوارى القلق إلى حين.. أو إلى الأبد.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 19 أبريل (نيسان) 2005

* * *

زمن الحريري يتواصل مع سعد الدين

بإنتساب سعد الدين رفيق الحريري رسمياً إلى نادي أهل السياسة في لبنان، يوم الأربعاء 20 أبريل 2005، تتحسر علامة الإستفهام الكبرى حول مَنْ البديل وكيف سيتم ملء الفراغ، والتي إرتسمت في سماء المجتمع السياسي منذ أن حدثت الفاجعة ظهر يوم الإثنين 14 فبراير (شباط) 2005، وفقد لبنان رجل الدولة، الذي كانت الآمال معقودة عليه لإستكمال مشروع النهوض الذي بدأه منذ أن إنتقل من وراء الستارة السياسية، لاعباً ماهراً ساهم في إنجاز إتفاق الطائف إلى الصدارة، رئيساً للوزراء في عهد الرئيس الأسبق الياس الهراوي وعلى أفضل ما يكون عليه التعايش بين الرئاستين الأولى والثالثة، ثم رئيساً مهموماً في عهد الرئيس الحالي أميل لحود، وعلى أبغض ما يكون عليه الإنسجام بين هاتين الرئاستين. وبإنحسار علامة الإستفهام هذه، وحلول علامة الإعجاب وليس «التعجب» على الصيغة التي إرتأتها العائلة الحزبية لمرحلة ما بعد تغيب كبيرها، في عملية اجرامية هزت النفوس وزلزلت ما بدا أنها ثوابت

وغير قابلة للتعديل، ونعني بذلك الوجود السوري عسكرياً وسياسياً في لبنان، ومن خلال القبضة الأمنية المخابراتية.. بإنحسار العلامة المشار إليها متيحة المجال للعلامة الأخرى هذا البال البيروتي الذي كان لليوم السادس والسنتين على إغتيال رفيق الحريري مستغرقاً في التأمل، يحاول الإجابة عن أسئلة وتساؤلات كثيرة، ومن بينها هل ستكون للطائفة السُنية مرجعية سياسية كذلك التي كانت عليها في زمن الحريري؟ وهل أن البيت السياسي الحريري ستُغلق ابوابه وينصرف أهل البيت إلى أعمالهم وإستثماراتهم ومصارفهم وعقاراتهم وشركاتهم تاركين السياسة إلى غير عودة إليها، ما دامت هذه السياسة أفقدتهم من كان يملأ الحياة حضوراً ورونقاً؟ ومن بين الأسئلة والتساؤلات أيضاً، هل أن في إستطاعة «أخت الشهيد» بهية أن تملأ الفراغ وهي التي أثبتت حضوراً إنسانياً لافتاً، وحضوراً سياسياً متميزاً، منذ لحظة تشييع الأخ الشهيد حتى أواخر لحظات لملة الأحزان وتهدة خواطر الناس، وبالذات أولئك الذين أشعرتهم الجريمة بأن الأمل المنشود إنتهى ما دام رمز هذا الأمل بات في رحاب رحمة رب العالمين.

في هذه الأثناء كانت العائلة الحزبية ترسم معالم مرحلة ما بعد غياب كبيرها، وهو أمر ليس من السهل حسمه، ذلك أن ذاك الكبير كان رجل دولة من جهة، وكان دولة في رجل من جهة أخرى. والذي نغنيه بهذا التصنيف أن الرجل كان قطباً مالياً وإقتصادياً قبل أن يضيف القُطبية السياسية. وعن كل حالة من هذه الحالات الثلاث تتفرع عشرات المؤسسات الإستثمارية والخيرية والتعليمية والإعلامية، التي تبدأ في لبنان وتنتشر في عشرات الدول الأخرى من العالم. وكان بيان العائلة الحزبية مصوغاً بحيث أنه من الأهمية بمكان عدم إبقاء التكهانات هي السائدة في أوساط الناس، وجاء يحدد مهمات المرحلة من الناحيتين السياسية والإجتماعية بحيث يتولى الإبن الثاني سعد الدين «المسؤولية والقيادة التاريخية لجميع الشؤون الوطنية والسياسية» وتتولى «الأم السيدة نازك» وهو لقب صيغت كلماته بكل التأني «الإشراف والإدارة على جميع المؤسسات الخيرية والإجتماعية».

كان توزيع المهمات طبيعياً بالنسبة إلى أرملة الرئيس الحريري التي مارست طوال سنوات، وبتشجيع ملحوظ من جانبه لها، كل الأعمال الخيرية والإجتماعية شاملة كل الأطياف المذهبية، ومن دون

تليد يمكن أن تتبدد أهميته إذا كان لن يعزز الإبن الوريث ما انجزه الأب الشهيد على صعيد الزعامة، فخاض وليد جنبلاط الغمار وهو في السن التي يبدأ فيها سعد الدين الحريري إنتسابه إلى النادي السياسي، وحلّق لدرجة التألق في المجتمع السياسي المحلي والإقليمي والدولي؟ إن الاجابة مبكرة بعض الشيء على رغم الايحاءات التي تحمل في ثناياها تبشير النجاح.

وحتى الآن ما زالت اللكنة السعودية غالبية على سعد الدين رفيق الحريري. لاحظناها يوم أطل على الناس متحدثاً بعد ساعات من إستشهاد والده، وكيف أن «نحن» يلفظها «حنّا».. وغيرها من الكلمات التي من الطبيعي أن يكتسبها ما دام هو سعودي المولد والهوى والإقامة شبه الدائمة، حتى وقوع الإختيار عليه من العائلة لتحمل المسؤولية السياسية والوطنية. وتلك ورقة في أي حال لمصلحته وبمثل ورقة الإرتياح الفرنسي له.. وإلّا فما معنى أن يدوم اللقاء الأول له مع الرئيس شيراك يوم الأربعاء 20 أبريل (نيسان) 2005 ساعة كاملة، ثم يودعه على باب قصر الإليزيه مذكراً الجميع بتوحيده لوالده الرئيس، والتي كانت دائماً تتجاوز طقوس البروتوكول الفرنسي، ويتزامن اللقاء مع صدور بيان العائلة الحيرية محدداً المهمات. كما يأتي عقب أربعة أيام من لقاء الأمير عبدالله والرئيس شيراك في القصر نفسه، والذي كانت ترتيبات مرحلة ما بعد رحيل رفيق الحريري جزءاً من التشاور بين الصديقين الكبيرين لرفيق الحريري الغائب والسندين الفاعلين والراعيين لسعد الدين الحريري الحاضر.. والمستقبل.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 26 أبريل (نيسان) 2005

القيصر الصغير يجرب حظه

أعاد الرئيس فلاديمير بوتين عند وصوله إلى القاهرة يوم الثلاثاء الماضي، بادئاً منها جولة تشمل إسرائيل وأراضي السلطة الوطنية الفلسطينية، إلى أذهان المصريين ذكريات تجمع بين العنفوان والمرارة الناشئة عن خيبات الأمل مرتبطة بعلاقات دامت عشرين سنة بين الدولة ذات الشأن الدولي الكبير

أي تمييز بين الذين يحتاجون إلى المساعدات. أما بالنسبة إلى الشق السياسي والوطني، فمواصفات هذه المهمة تتطلب إلى جانب «الكاريزما» والإقتناع بأهمية الممارسة والإستعداد لتحمل النقد، حضوراً لدى أهل القرار العربي وبالذات في المملكة العربية السعودية، وأهل القرار الدولي وبالذات في أميركا وفرنسا وبريطانيا. ومثل هذه المواصفات وجدت حيزاً لها في شخص الإبن الثاني سعد الدين، وذلك لأن الإبن الأول بهاء الدين، كان منصرفاً إلى قطاع «البيزنيس» بين سويسرا ولبنان وما يتعلق بالجانب المصرفي والإستثماري من أمبراطورية والده. ولقد بدا سعد الدين نتيجة إستقراره في السعودية بين جدة والرياض التي أبصر النور فيها، وكما لو أنه واحد من أبنائها على صلة بالجميع وإرتياح كبار القوم له إرتياحهم لوالده الذي كان الإبن إلى جانبه في كل إجتماع يعقده أو زيارة يقوم بها إلى أولي الأمر في المملكة. وكان ذلك واضحاً للجميع الذين يرون على شاشة التلفزيون الإبن سعد الدين بعباءته و«شماغه» وعقاله ومشيته ولفظه ينحني وبكل الأدب وإتقان اللياقات للسلام على الملك فهد أو على ولي العهد الأمير عبدالله أو على النائب الثاني الأمير سلطان أو على الأمير سلمان وعلى بقية أبناء الملك عبد العزيز وأحفاده. وهذا التكرار للقاءات والزيارات جعلته مألوفاً في نظر أولي الأمر وجعله يستزيد إتقاناً في بناء العلاقة الجيدة على نحو إتقان والده، الذي بفضلها وصلت أحواله إلى الإزدهار الذي وصلت إليه، والإحترام الذي يتلازم مع ثقة أولي الأمر في السعودية ودول الخليج به.

والسؤال هل ينجح هذا الشاب فيضيف إلى تراث والده المزيد، أم يكون تقليدياً ومجرد وارث مجد سياسي كما بعض الورثة لا يلتزم التواضع وتبهره الإطراءات وينفق من ذلك التراث من دون أن يضيف إليه؟ وهل يعزز مع الوقت بإنتمائه إلى النادي السياسي الدور الذي أراده والده لبيروت عاصمة كل اللبنانيين، وللطائفة السنية التي خلت من المرجعية المهيبة الجانب، أم يكون مجرد طيف سياسي شاءت الأقدار أن تضعه في موضع تحمّل مسؤولية كبرى بتقل الجبال، شأنه في ذلك شأن من يجاليه في العمر الرئيس بشّار الأسد، وشأن المجاليل الآخر له في العمر جمال مبارك، إذا إنتهى الأخذ والرد في شأن أن يواصل بعد والده كرئيس لمصر، وشأن وليد جنبلاط الذي وجد نفسه أمام والد قضى شهيداً وقصر سياسي

المعروفة بـ «الإتحاد السوفياتي» والدولة الأكثر إثارة وتأثيراً في المنطقة المعروفة منذ ذلك بـ «الجمهورية العربية المتحدة». وبعد ذلك إنهار الاتحاد السوفياتي وتناثرت الجمهوريات لتبقى روسيا هي الأساس الذي كان يرتفع فوقه البنيان ثم تبين بعد ذلك الإنهيار أن هذا الأساس ليس بالصلاية المأمولة، وفي الزمن الذي كان الإتحاد السوفياتي يجمع جمهورية روسيا وبقية الجمهوريات الصغيرة حوله كان مثل هكذا كلام لا يقال، وكان إذا تجرأ مسؤول أميركي على قوله من شأنه تسخين الحرب الباردة.

جاء الرئيس بوتين إلى مصر وهو متقل بالتحديات والمحاولات الأميركية المستمرة التي تستهدف خلخلة أحلامه في أن يعود بالكرملين إلى سابق مجده على رغم إنكماش سطوته الجغرافية نتيجة التناثر الذي حدث لمجرد سقوط الإتحاد السوفياتي عام 1991، وليس في جعبته من الهدايا العسكرية التقليدية ما من شأنه أن يغري أهل الحكم المصري عدا بعض الإستهعداد لتزويد مصر بمعدات الطيران وأنظمة الصواريخ وقطع الغيار التي تفيد في إعادة تجهيز ما لدى مصر من سلاح سوفياتي، علماً بأن هذا السلاح لم يعد يشكل العصب الأساسي في الجيش المصري متراجعاً أمام السلاح الأميركي والمناورات المشتركة بين مجموعات من القوات المصرية وأخرى من القوات الأميركية. وما يريح مصر وروسيا ويبعد التحرش الأميركي والإسرائيلي عن موضوع تجديد التعاون العسكري هو أن مصر غير مهتمة بالتطوير النووي، وهذا لا يشغل بال المتحرشين وعلى نحو ما يفعله مع روسيا وإيران لكن إلى جانب الهدايا العسكرية هنالك مسألة التبادل التجاري الذي يزداد تراجعاً مع أن المفروض بالنسبة إلى التبادل بين دولتين هو أن يزداد لا أن يتراجع. وعلى سبيل المثال فإن هذا التبادل الذي كان 1200 مليون دولار يوم زار الرئيس حسني مبارك موسكو عام 2001 بات في العام الماضي 834 مليون دولار الأمر الذي يعني أن الزيارة مع أنها الأولى للرئيس مبارك إلى الكرملين، الذي لم يعد في القبضة الماركسية، لم تحقق الغرض المطلوب وأن العلاقة تحتاج إلى المزيد من الدفء، خصوصاً أن في النفوس بقايا مرارات ناشئة من الماضي عندما أصاب الخبراء السوفيات العاملين في الجيش المصري ما أصاب إلى حد ما القوات السورية العاملة في لبنان. وفي الحالتين كانت أميركا وراء الخطوتين، ذلك أن

إنهاء الرئيس أنور السادات لوجود الخبراء السوفيات تم بفعل صفقة أميركية - ساداتية جرى التحضير لها ثم انجازها وراء الكواليس، وإن إجبار الحكم السوري على سحب القوات من لبنان تم بفعل مماثل.. وإن كانت الأولى لم تأت على خلفية جريمة العصر المتمثلة بإغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري والتي دفعت إلى الامام بالمخطط الأميركي لإجبار الرئيس بشار الأسد على القبول بالقرار 1559 الصادر عن مجلس الأمن وإلحاح أميركي - فرنسي، والذي يجبر القوات السورية على الانسحاب من لبنان.

لكن في إستطاعة مصر أن تؤسس بعد الآن لعلاقة متطورة مع روسية تتسني الجانبين مرارات الماضي وإستبدالها بحلاوات المستقبل. وفي تقديرنا أن الرئيس بوتين يتطلع وضمن رؤية مبرمجة لهذه العلاقة، وهو من أجل ذلك قد يقرر في ضوء الإطالة التي قام بها أن يكون التزاور وعلى المستوى الرئاسي تقليداً أفضل بكثير من التقليد الذي بين مصر وأميركا. وما نقصده بذلك هو أن تكون هنالك زيارات وليس إطلاقات.. أي بما معناه، لا يأتي بوتين في الصباح إلى القاهرة ليغادرها مساءً، وإنما تكون الزيارة زيارة بالمعنى المتعارف عليه بحيث تستغرق في الحد الأدنى ثلاثة أيام، وتشمل على الأقل زيارة السد العالي الذي هو الإنجاز الوحيد الذي له في النفس المصرية تقدير للكرملين يفوق بكثير الإنطباع المتعلق بالتعاون العسكري. ومن مظاهر هذا التقدير أن الحكومة المصرية ولمناسبة زيارة بوتين أطلقت إسم المهندس الروسي الراحل نيكولاي ماليشيف على أحد شوارع اسوان، باعتبار أنه مصمم مشروع السد. أما إسم نيكيتا خروشوف الذي دشّن مشروع السد قبل 41 سنة فليس له شارع يحمل إسمه علماً بأنه يستحق مثل هذا التكريم خصوصاً أنه كان الوحيد بين زعماء الكرملين الذي وطأت قدماه أرض مصر التي لولاها لما إستطاع الإتحاد السوفياتي أن يصل إلى ضفاف البحرين الأبيض المتوسط والأحمر. أما القطب الثالث في الكرملين نيكولاي بودغورني فإنه جاء الى القاهرة ليوقع مع الرئيس أنور السادات يوم 27 مايو 1971 تلك المعاهدة التي تبين في ما بعد أنها لا تحمي علاقة، هذا اذا كانت لا تتسبب في عداوة وقبل مجيئه كان جاء القطب الكسي كوسيجين في الأسبوع الأول من أكتوبر 1970 فقط للمشاركة في تشييع جنازة عبد الناصر. خلاصة الأمر أن الرئيس بوتين، أو القيصر

الصغير على نحو ما يتطلع معتمداً في ذلك على أنه ما زال في أواخر ربيع العمر، جاء إلى القاهرة ليستطلع وانتقل إلى الجارتين اللودتين إسرائيل الشارونية وفلسطين العباسية في إطلالة مماثلة لإطلالته المصرية، مع فارق أنه في رام الله وضع إكليلاً من الورد على ضريح الرئيس ياسر عرفات متحاشياً أن يفعل الشيء نفسه في القاهرة بالنسبة إلى ضريح كل من الرئيسين عبد الناصر والسادات. وهذه الإطلالات التي كان كثير التنبه إلى ما قد يتخللها من إخفاقات، هي محاولة لتجربة حظه في أن يصبح زعيماً دولياً بمثل ما هو عليه جورج بوش الابن، الذي يجتاح كل الديار التي كانت محسوبة بنسبة أو أخرى على الكرملين ثم ها هي وبفترات زمنية قصيرة تصبح من حصة البيت الأبيض.

يفشل في سعيه أم يحالفه التوفيق؟ الجواب رهن بتحقيق فكرة المؤتمر الدولي الذي اقترحه في ختام زيارته للقاهرة أو بالأحرى إطلالته المصرية. فإذا كُتِب للإقتراح أن يتحقق فإن الحظ يكون بات مواتياً للقيصر الصغير، وبحيث تصبح المحاصصة الدولية ممكنة، ويكون ما للأمبراطور بوش للأمبراطور، وما للقيصر الصغير لهذا القيصر والذي يكون قد كُبر بعض الشيء من حيث التأثير وممارسة دور اللاعب وليس المتفرج. وإلى أن تتكشف نتائج الإطلالة، ستبقى الوقفة الإستعراضية للرئيس بوتين أمام تمثال أبو الهول رافعاً يمينه محيياً رسالة إلى من يهمهم الأمر مفادها أن أبو الهول الروسي سينطق قريباً... وهو غير أبو الهول الفرعوني الصامت أبداً.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 3 مايو (أيار) 2005

* * *

بعد السودان: صيف الإستفزاز للبنان وإيران..!

في الوقت الذي تزداد المخاوف من صيف إستفزازي حارق تعيشه إيران بصيغة الخلخلة، أو ربما أكثر من ذلك وينعكس على «حزب الله» في لبنان من خلال عدوان أو عمليات إغتيال وتفجيرات تشل مؤسسات الحزب، وكذلك على الحكم السوري من خلال تصعيد اللهجة الأميركية، وتنشيط الجيوب

المعارضة بغرض التطويع وليس إسقاط النظام... في هذا الوقت يحدث أمر في غاية الغرابة وهو أن الإدارة البوشية بدل تشجيعها العملية السلمية التي خطا الحكم السوداني في الشمال وشقيقه التمرد في الجنوب خطوات ملموسة على طريق تنفيذها، فإنها، وبالتنسيق مع حكومة توني بلير الخارج منتصراً كشخص منتكساً كحزب من الإنتخابات التي جرت الخميس 5 مايو 2005، إنتقلت من أسلوب اللاعب إلى أسلوب المتلاعب في الموضوع السوداني. وبدلاً من أن تكون مرتاحة للخطوات الجادة التي تحدث في «القارة السودانية»، وكيف أن جلسات لجنة صوغ الدستور الإنتقالي بدأت، والتقى في «قاعة الصداقة» في الخرطوم معظم رموز العمل الوطني والسياسي بمن في ذلك الخارجون والخارج. وكان لافتاً للانتباه أن تبادل الشوق واللهفة كان عفواً، وإلى درجة بدا فيها الإستهجان وارداً أزاء لحظات من العناق بين من كانوا في حالة إقتتال وتخوين، متبادلين ثم طوى هؤلاء الصفحة وإنتقلوا من جبهة الإحتراب إلى خيمة التصافي والعمل معاً من أجل سودان جديد، شعاره العام عفا الله عما مضى ولا رصاص بعد اليوم.

بدل الإرتياح لما يحدث والتباهي بأن التغيير الذي تريده الإدارة الأميركية يمكن أن يتحقق ومن دون عدوان كالذي إستهدف العراق، فإنها إنتهزت مناسبة الخطوة النوعية المتمثلة بجلسات لجنة صوغ الدستور وعممت كلاماً عن تعاون أممي أظهر «السودان الإنقاذي»، وكما لو أنه عربة من الدرجة الثالثة في القاطرة الأميركية، وأن كبار القوم في النظام هم مخبرون في خدمة العم بوش. ومثل هذا الكلام يناقض الحقيقة، ذلك أن التعاون المشار إليه حدث بإلحاح ورغبة من الإدارة الأميركية، وفي زمن سبق إنجاز العملية السلمية بزمان طويل، وتحديدًا عُقب العدوان الذي إستهدف «مصنع الشفاء» للدوية، بحجة أنه يحوي مواد كيماوية تتدرج في أسلحة الدمار الشامل، وأن أسامة بن لادن كان يخزنها في المصنع الذي هو في واقع الحال مصنع أدوية ينتج من الكميات لعلاج الملايا المستشرية في السودان ما يغني عن تعقيدات الإستيراد، كما أن معظم دول الجوار الأفريقي تستورد منه، وبذلك ينجو فقراء القارة السوداء من موت شبه مؤكد. وبعدما لم تقتنع السلطات الأميركية بحقيقة المصنع، فإن الحكومة السودانية لم تمنع في طلب هذه السلطات إفاد لجنة للتأكد. ويومها تعاونت

الحكومة إلى أبعد الحدود مع لجنة التحقيق الأميركية لأن المصلحة في ذلك مشتركة. وربما يتبين ذات يوم في حال أتيح المجال أمام تكشف الحقائق، أن ضرب المصنع كان من أجل إيفاد لجنة التحقيق المشار إليها، لكي يتم الإعلان في وقت لاحق عن أن التعاون المخبراتي بين السودان وأميركا هو على أرفع المستويات وأن بعض كبار القوم في «الحكم الإنقاذي» هم على نحو ما أشرنا «عملاء» للاستخبارات المركزية الأميركية.

ويشير الإستغراب هذا الإعلان، ذلك أنه في حال كان التعاون حقيقياً، فإن المصلحة تقتضي عدم الكشف عنه.. إلا إذا كان الغرض هو مقدمة لحملة إستفزازية ضد «الحكم الإنقاذي»، تلتقي مع حملة التحرش البريطانية والتي قد تزداد حدتها بعد فوز بلير بولاية رئاسية ثالثة. أما لماذا قد تزداد، فلأن بلير يتطلع إلى أن يختم عهده في العمل السياسي بعمل كبير يرتبط به شخصياً، ولا يكون فيه ملحقاً بآخر، على نحو ما هي حاله في الموضوع العراقي الذي تستأثر إدارة الرئيس بوش به كخيارات، وتتقاسمه مع بريطانيا وآخرين كإخفاقات. ومن الجائز القول إجتهداً أن الحملة الإستفزازية الأميركية ونظيرتها حملة التحرش البريطانية، حيث بلير وراء قرار مجلس الأمن 1593، تلتقيان عند غرض واحد، وهو إخراج الإسلاميين في السودان مقدمة لإخراجهم من دائرة شبه التحالف مع النظام الثوري الإسلامي في إيران، وذلك لأن بقاء هذين النظامين على حالة من الإستقرار من شأنه إنعاش التيارات الإسلامية في عدد من الدول العربية. هذا إلى جانب أن التحديات الكلامية السودانية والإيرانية وأصداها في مجتمع «حزب الله» في لبنان، ومجتمع حركة «حماس» و«الجهاد الإسلامي» في فلسطين، تُسبب إستفزازاً بالضد للإدارة البوشية ولحكومة بلير، مع الأخذ في الإعتبار أن مفردات التخاطب السودانية تُبقي في إستمرار على أبواب التحاور من أجل التفاهم مشرعة. ولقد بلغ التحدي السوداني أوجه يوم الخميس 28 أبريل (نيسان) 2005 متمثلاً بكلام قاله الرئيس عمر البشير في إحتفال نظمته الحزب الحاكم لمناسبة المولد النبوي الشريف، وهي مناسبة تجعل المتحدث، خصوصاً إذا كان رئيس البلاد، يختار التعابير بعناية أو يقرأ نصاً مكتوباً، لكن الرئيس البشير المنزعج أشد الإنزعاج من خيبات أمل نظامه بـ «الصديق الأميركي» المتلاعب

فعل العكس. وفي شأن القرار الدولي المتعلق بمحاكمة في لاهاي لشخصيات سياسية وأمنية سودانية بتهمة إرتكاب جرائم حرب في دارفور، قال أمام المحتفلين بالمناسبة الدينية الكريمة «والله العظيم لن نسلّم أي سوداني ليحاكم أمام أي محكمة خارج البلاد. لقد ظن البعض في السودان والعالم إننا نخشى أميركا وبطشها وأوروبا وقوتها والامم المتحدة وتجاوزاتها، ولكن الذي يخشى الله لا يخاف إلا منه. لقد خبر المجتمع الدولي حكومتنا لمدة ست عشرة سنة، ومارس عليها ضغطاً سياسياً وإقتصادياً ودبلوماسياً، وكيداً ودعماً عسكرياً لأعدائها... إلا أن النتيجة كانت الفشل. وبشهادتهم فإن سياسة الضغط والإحتواء لم تأتِ بثمار مع الخرطوم...». ثم أشار إلى أن الحكومة متمسكة بالقوانين الإسلامية، وإنها في صدد تعيين مدع عام وتشكيل محكمة وطنية لمحاكمة المتهمين في موضوع أحداث دارفور.

هذا بالنسبة إلى المفردات السودانية الإنقاذية. أما المفردات الإيرانية و«الحماسية والجهادية» وكذلك مفردات «حزب الله» فإنها، عكس المفردات السورية المطلقة، أشد حدة وإلى درجة تؤعد أميركا ومصالحها بـ «نار جهنم» إن هي جربت الإعتداء. ومع أن مسألة حلف اليمين عادية جداً بالنسبة إلى اللسان السوداني عندما تتعلق بالطلاق، كأن يقول المتحدث ولأبسط الإشكالات أو المناسبات، حتى إذا كانت دعوة إلى تناول القهوة أو الطعام أو قبول هدية «عليّ الطلاق...»، فإن حلف اليمين «بالله العظيم والقرآن الكريم والنبي الأمين» ليس أمراً بسيطاً على الحالف وبالذات على «الإنقاذي». ومن هنا فإن الرئيس البشير الذي يكرر للمرة الثانية وأمام ألوف الشهود حلف اليمين بـ «الله العظيم» بأنه لن يسلّم أحداً من المتهمين، يلزم نفسه وهو الإنقاذي والمتدين بكلام من الصعب عليه نفسياً وشعبياً العودة عنه، وبحيث انه إذا وجد أن لا مناص من فرض القرار الدولي على السودان وتسليم المتهمين، لكي يحاكموا في لاهاي على شاكلة الليبيين، فقد يفاجئ الشعب بإستقالته وبحيث يتولى الأمر من خلفه.. وبهذا يكون ثابتاً على العهد والمبدأ والقسم.

خلاصة القول إن الإدارة البوشية ومعها حكومة توني بلير تنتقم من نظام «الإنقاذ السوداني»، بدل أن تكافئ هذا النظام على حسن سلوكه في موضوع العملية السلمية. وهما على ما توضحه التلاعبات لا

السوري عدا «أغنياء الوجود في لبنان»، والذين هم مثل «أغنياء الحرب»، لقراراته المتجاوبة مع الإرادة الدولية، والدقة التي تميزت بها عملية الإنسحاب بالكامل من لبنان، سيخرج من المؤتمر المقرر عقده وقد أعطى الحكم ملامح جديدة، كفيلة بدرد مخاطر العقوبات وما هو أشد ضراوة منها، والتي كانت ستتقرر لو حدث تباطؤ في الإنسحاب.

وحتى الآن ليس واضحاً ما إذا كان البعض من أبناء الجيل الشاب من البعثيين في سوريا، وبالذات أولئك المبهورين ببشار الأسد، والذين لم يذوقوا طعم الحكم بعد، ومن أجل ذلك فإنهم يملكون القدرة على التمييز بين البعث كسلوك، والبعث كاحتكار للسلطة، قد يفاجيء المؤتمر بأفكار وإقتراحات غير مألوفة في المؤتمرات البعثية. وقد تتمك أحدهم الشجاعة ما دام الخوف من المبادرات التصحيحية لم يعد يسيطر على النفوس، متسبباً لمن يبادر بالجزءات الحزبية القاسية، فيطرح من الأفكار ما من شأنها أن تفاجيء المجتمع الدولي ويرتاح لها المجتمع السوري، ولا تأتي على حساب برنامج التجدد الذي يريده الرئيس بشار، ويفضل أن تأتي الإشارات الأولية إليه من صفوف القاعدة البعثية، بإيعاز منه أو من دون إيعاز، وليس من الذين في قمة السلطتين السياسية والحزبية. بل ليس من المستبعد أن نجد من يطالب بتغيير إسم الحزب، وليس في ذلك ما يضير في شيء، لأن سمعة «البعث» لم تكن من الصفاء في النية تجاه الآخرين، ولا من حيث الإيمان بحقوق الآخرين، على ما يوجب المحافظة على هذه التسمية. وها هو «الحزب الشيوعي» يقرر تغيير إسمه وهي مبادرة طيبة من شأنها تقريب الناس من أفكار الحزب الجديد. كذلك ليس من المستبعد أن يفاجيء أحدهم المؤتمر بالقول ما معناه أن تجربة نصف قرن بعثي، حافل بالإنقلابات والتصفيات والتصحيح والتكتلات، تحتاج إلى كلمة ناقدة للذات، تساعد على تنقية النفوس والصفوف من الشوائب، وهذا يتم من خلال أن تكون الساحة السياسية يرسم الجميع.. ومن دون أن يكون هنالك مجال لممارسة «الفيتو البعثي»، الذي كان في استمرار إزاء الآخرين عدا أطراف سياسية غير فاعلة، مثل «الفيتو الأميركي» الذي يندفع داخل الأمم المتحدة لمجرد أن تكون هنالك مجرد ادانة ولو شكلية لإسرائيل.

وما نفترض حدوثه ليس في أي حال ضد الرئيس

يريدان للسودان أن يتقدم.. تماماً كما أرادا للعراق أن يتأخر. كما أنهما على ما يبدو لا يريدان، ومنطلق مرض الإملاء والهيمنة، لصيغة التفاهم بين شمال السودان وجنوبه أن تتجح بالمفهوم السوداني الوطني، كي لا تصبح نموذجاً لإنهاء المشاكل العالقة في الدول الأفريقية بين أهل الوطن، وعلى قاعدة الشقيق لشقيقه في السراء والضراء، وفي هذه الحال يجد الإنقاذيون أن حالهم هو ما ينطبق عليه قول الشاعر العربي: «ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى .. عدواً له ما من صداقته بد». ونقول ذلك على أساس أن الأمور إنتهت إلى أن حبات المانغو السوداني (وهو هنا بدل البيض) وُضع في السلة الأميركية - البريطانية، ومن يفعل ذلك تتضاءل خياراته في لحظات الشدة والإستفزاز وما أكثرها هذه الأيام، مستهدفة السودان وإيران ولبنان وسوريا، وإلى درجة أن صيف 2005 بدءاً من شهره الأول سيكون إستفزازياً للأطراف المشار إليها وإمتداداتها مثل «حزب الله» و«حماس» و«الجهاد»، وحارقاً في شكل أو آخر في حال أن سيناريو ما بعد الفوز الرئاسي الذي يثير الإستغراب للحليفين بوش الابن - توني بلير، يستوجب حسم أمر يتعلق بأنظمة وتنظيمات إسلامية التوجه قبل أن يضطر الرئيس بوش إلى الأخذ بقرار لا يكمل فيه ولايته، ويضطر الرئيس البريطاني إلى الإنصراف على نحو ما أصاب مارغريت ثاتشر، أو الإنصراف إختياراً تحاشياً لما أصاب السيدة الحديدية الأولى في تاريخ بريطانيا بعد الملكة فكتوريا... والإستقرار مع عائلته في الديار الأميركية، إبتعاداً عن تداعيات قانونية قاربت على التبلور.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 10 مايو (أيار) 2005

* * *

هل يقتبس بشار تجربة مبارك؟

المتابعون للتفاعلات التي تحدث في المجتمع السياسي السوري، يلاحظون حركة غير مسبقة من حيث النوعية في صفوف أهل البعث، تسبق إنعقاد المؤتمر القطري للحزب بين السادس والتاسع من يونيو (حزيران) المقبل. ويمكن الإستنتاج من خلال هذه المتابعة أن الرئيس بشار الأسد الذي إرتاح الرأي العام

ما معناه: خلاص بقى حكاية البعث دي. مش كفاية اللي حصل لصدام. وهذا الكلام ما كان الرئيس مبارك ليقوله للأسد الأب، لكن بات من الضروري قوله للأسد الابن، لإعتبارات كثيرة بينها عامل السن وضيق ذات اليد الطويلة للحكم السوري في ضوء الذي حدث في لبنان.

خلاصة القول إن العد العكسي البشّاري بدأ لحظة الموافقة، بالرضى على ما نعتقد وليس بدافع الرضوخ، على قرار الإنسحاب من لبنان، ووصل إلى ما قبل النهاية مع اكتمال الانسحاب، وإن الرقم الأخير في هذا العد العكسي سيكون ماثلاً أمام المجتمع السوري، خصوصاً والمجتمع الدولي عموماً في النصف الثاني من يونيو، وبعدما تكون إتضحت تماماً في ضوء المؤتمر القطري لحزب البعث بين 6 و9 يونيو الطبعة الجديدة للحكم السوري، والتي ستكون منقّحة وأكثر قبولاً من قبل الداخل والخارج. ولا يعود من المستبعد الافتراض بأنه بعد هذا المؤتمر لن يكون هنالك المزيد من هذه المؤتمرات، وأن مؤسسات الدولة السورية وفق منظور التشراك على قاعدة التغيير النوعي، ومن دون «فيتو» من سوري على آخر، هي التي ستتبلور ملامحها. ومثل هذا المشهد سيكون درساً للبنانيين الغارقين منذ الإنسحاب السوري في متاهات القوانين الانتخابية وأبها المناسب والأفضل، وكيف أن المجادلة في شأنها وصلت إلى حد أن بعض رجال الدين المسيحي، والمفروض أن دورهم هو التهذئة، بدأوا يتصرفون وكما لو أنهم نواة «ميليشيا دينية مارونية» تؤسس لـ «ميليشيا دينية مسلمة». وإذا فالمسألة مرتبطة بالصراع على من هو زعيم هذا الشارع المسيحي، ومن هو زعيم ذاك الشارع المسلم. لا سامح الله المفتونون في الأرض اللبنانية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 17 مايو (أيار) 2005

إطمئن: أنت من مالكي «المجموعة السعودية»

سيشهد تاريخ الإعلام العربي لرئيس مجلس إدارة «المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق» الأمير الدكتور فيصل بن سلمان بن عبد العزيز، بأنه المبادر

بشّار بطبعته الجديدة، ذلك أنه بعد خطوته النوعية في ما يتعلق بالإنسحاب من لبنان، وقبل الموعد المحدد دولياً للإنسحاب، بات غير بشّار الأسد ما قبل الإنسحاب. بل أنه بخطوته هذه أكد أنه مع الأكثرية السورية التي رحبت بالخطوة، وبالتالي فإن الأقلية التي كانت ضد هذه الخطوة لن تكون معوقة برنامجه لإستكمال التغيير الذي يجعل المجتمع الدولي أكثر قبولاً للحكم السوري. والقول بأن الأكثرية السورية معه لا يستند إلى المسيرات والتظاهرات التي حدثت في بعض المدن السورية، وكانت رداً لا بد منه على تظاهرات التحدي اللبنانية، وإنما إلى الشعور بأن هذا الإنسحاب سيقلص شيئاً فشيئاً ظاهرة الأقلية المستفيدة والمستفوية على حساب الأكثرية المحرومة والمستضعفة، وظاهرة تصنيف المواطنة على أنها درجات. وهذا سيكون من خلال التركيز على الجبهة الداخلية وإعادة النظر في خطط التنمية، وفي السلوك بشكل عام وبحيث يصبح الحال السوري مثل الحال المصري، وكيف أن الرئيس حسني مبارك يمارس المسؤولية الرئاسية منذ ربع قرن، وقد أسقط الدور الخارجي وأمعن إهتماماً بالتنمية، ومن دون أن يستوقعه أن مصر الدولة العربية الأكبر، ليست صاحبة دور حتى في الشأن السوداني، كما أنها لولا بعض الظروف المرتبطة بالتسوية التي أبرم الرئيس أنور السادات صفقة حولها مع إسرائيل، وبرعاية الإدارة الأميركية في زمن الرئيس جيمي كارتر، لما كانت حتى بذلت هذا الذي تبذله في ما يخص النزاع الفلسطيني - الشاروني. ومن الجائز الافتراض أن الرئيس بشّار بدأ يتأمل أكثر من ذي قبل في تجربة الرئيس حسني مبارك، الذي سيجدد على أهون سبيل ولاية رئاسية جديدة، وبدأ يصغي إليه أكثر من ذي قبل، أي أيام كان الحكم السوري باسطاً نفوذه في لبنان عسكرياً وسياسياً. كما يجوز الاعتقاد بأن الرئيس مبارك قال للرئيس بشّار عند لقائهما قبل أيام في شرم الشيخ ما معناه، تأكد بأن لا أحد كان يحسدكم على هذا الإستثمار بلبنان... اللهم عدا الذين يريدون بكم العسر وليس اليسر، وتأكد أيضاً بأنك بعد هذا الإنسحاب تستطيع أن تحكم بهدوء، وترضي شعب سوريا حتى إذا كانت الإمكانيات على شيء قليل من الوفرة، وتفك هذه العزلة التي فرضتموها بأنفسكم على بلدكم. وليس من المستبعد أن يكون الرئيس مبارك وبأسلوب يجمع بين الجدية والظرف في الوقت نفسه قال للرئيس بشّار

هذا التأميم الذي إتسعت رقعة عدواه، لم يعد هنالك طموح يُذكر من أجل بناء مؤسسات إعلامية. ومن هنا فإنه عندما يصبح الخاص عاماً من خلال تحويل المؤسسة الى شركة، يتم تداول أسهمها في سوق المال، فهذا يعني أنه التأميم الايجابي الصحيح ما دام كل مواطن في إستطاعته لدواعي الشغف التجاري المجرد، أو من أجل الشعور في نظر الناس ونظر نفسه، انه من ملاك الجريدة وإن كانت هذه الملكية عبارة عن أسهم قليلة او كثيرة. وعندما يبدأ كما هو المأمول توزيع الأرباح وينال المساهم حصته منها، فإنه سيجد نفسه أمام تجارة مادية ومعنوية رابحة، فضلاً عن أن حالة من الغيرة على المؤسسة ستحدث في نفسه. أليس بات شريكاً في كل إصدارات هذه المؤسسة وبصرف النظر عما إذا كانت مساهمته بنسبة كبيرة من الأسهم، أو كانت حاله في هذه المساهمة يمثل ذلك الإنجليزي الفقير الحال، الذي سئل مرة عن حجم ثروته، فقال انه وملكة بريطانيا يملكان بضعة مليارات من الجنيهات الإسترلينية عدا العقارات والقصور والخيول داخل لندن وخارجها في طول الريف البريطاني وعرضه.

وأجد نفسي وأنا أتأمل بالكثير من الإهتمام خطوة «المجموعة السعودية»، وكيف أن الجديد والتجديد هما هاجس الأمير الدكتور فيصل منذ ترؤسه لها، حالة مشاركة كان من المؤمل وصولها إلى ما وصلت إليه الخطوة المشار إليها. ففي عام 1964 إرتأى التوينيون الأربعة غسان ووليد وفؤاد وسامي، ورثة ملكية جريدة «النهار» اللبنانية، التي كانت بدأت تسلك طريق التطور والتحول من جريدة ذات إهتمامات محلية في الغالب، إلى جريدة تهتم ميدانياً بالشؤون العربية من بعض المحيط إلى بعض الخليج، تحويل الجريدة إلى شركة مساهمة. والدافع الى هذه الخطوة أن الجريدة لكي تستمر وتتطور، تحتاج إلى المال، وأن خير سبيل وأقصره هو جذب بعض المقتدرين إلى إمتلاك أسهم في الجريدة. وهكذا أصبح عدد من هؤلاء من المساهمين إضافة إلى أن التويني الأول غسان الذي كان بدأ يرى نفسه في الصحافة أكثر منه في العمل السياسي، والمتأثر بعض الشيء بتجربة كمال جنبلاط الاشتراكية في موضوع التقليل من الملكية الخاصة، إرتأى أن يتحول المحررون في الجريدة إلى مساهمين، وأن تكون تعويضات الخدمة هي الأسهم التي يملكونها. وهي فكرة جذابة في أي حال، وإن كان

إلى إطلاق الخطوة التي يتهيأها مالكو المؤسسات الإعلامية العربية عموماً، والتمثلة في تحويل المجموعة بإصداراتها المتنوعة إلى ملكية عامة، بمعنى أن كل قارئ لجريدة «الشرق الاوسط» وبقية شقيقاتها من مجلات تصدر عن هذه المجموعة، يمكن ان يصبح مالكا فيها وليس مجرد قارئ. وليتصور المرء شعور هذا القارئ وهو يشترى جريدة العرب الدولية في الصباح بأنه كمن يُخرج المبلغ المقدّر للنسخة من الجيب اليمنى ويضعه في اليسرى، وذلك لأنه يملك بضعة أسهم من المجموعة. ومناسبة هذا الكلام ان الأمير الدكتور فيصل أبرم يوم الاثنين 16 - 5 - 2005 في الرياض إتفاقية مع عيسى بن محمد العيسى، عضو مجلس الإدارة المنتدب والرئيس التنفيذي لمجموعة «سامبا» المالية، لتتولى هذه الأخيرة مهام المستشار المالي وإدارة الإكتتاب في أسهم «المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق»، والمقرر طرحها في سوق المال السعودي العام المقبل. وتأتي الخطوة نتيجة وضع قوي وليس لمواجهة عجز مالي، الأمر الذي يعطي هذه الخطوة دلالة على الرؤية البعيدة النظر، وليس من أجل تعويم وضع مرتبك. وإستناداً الى الأرقام المذاعة فإن مبيعات إصدارات المجموعة خلال الربع الأول من عام 2005 بلغت ما قيمته 64.08 مليون ريال بزيادة نسبتها 23 في المائة بالمقارنة بالفترة ذاتها من عام 2004 كما بلغ صافي الأرباح للفترة نفسها 7.36 ملايين دولار بزيادة نسبتها 3.46 في المائة عن الفترة ذاتها من عام 2004. وهذه الأرقام تغري المختصين بإكتتاب الأسهم، وهي ما جعلت الرئيس التنفيذي لمجموعة «سامبا» المالية يقول بعد التوقيع «إن المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق تُعتبر إحدى أضخم الشركات في قطاع التسويق والنشر وتتمتع بمركز مالي قوي وفرص نجاحها مؤكدة وهي إضافة متميزة إلى سوق المال...».

وبالإضافة إلى انها خطوة غير مسبقة في العالم العربي، فإن طرح «المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق» للتداول في سوق الاسهم، تبدو خطوة عملية لدعم إستمرارية المؤسسة من جهة، ولتبييد ظاهرة طالما ألفت ظللاً على الإعلام العربي، وهي ظاهرة التأميم التي حدثت في زمن الستينات في مصر، والتي كانت شكلاً من أجل الشعب، إلا أنها جاءت ضمناً من أجل خدمة النظام الثوري. وبسبب

للكويتية بحقها السياسي: الأسلم هو أسلوب بهية وليس أسلوب توجان

في إستمرار كان هنالك في كل بلد عربي نصير للمرأة. وقبل أن تتال المرأة في مصر وبجهد ذكوري من قبل قاسم أمين وجهد انثوي من هدى شعراوي، والمرأة في لبنان وفي السودان وفي سائر الدول العربية بجهود مماثلة مع التنوع في المخاطبة والمعالجة، كان يخرج من بين الصفوف الذكورية على المترمتين أو المتشددين رجل مسؤول في موقع المسؤولية أو رجل له حضوره الفكري المتميز، معلناً على الملأ تحمّل مسؤولية أن تتال المرأة حقها، تماماً على نحو الجائع الذي يجوز له من وجهة نظر الإمام علي بن أبي طالب أن يخرج على الناس شاهراً سيفه.

في الماضي البعيد كانت الحقوق المطالب بها تنحصر في التعليم وفي الحجاب، وفي حرية نسبية للفتاة في أن يكون لها رأي في إختيار شريك حياتها. وفي بعض المجتمعات العربية كان إلغاء ختان الأنثى هو المطلوب. ومع أن بعض هذه «المحرّمات» ما زالت قائمة في بعض المجتمعات العربية، إلا أن المرأة غدت بعدما تعلّمت واثبتت كفاءات في ميادين عدة من بينها العلوم المتقدمة على أنواعها والعمل الدبلوماسي، ترى أن تكون لها حقوق لا مبرر لاحتكارها من جانب الرجل، أي بما معناه يحق لها أن تنتخب برلمانياً وبلدياً وترشّح نفسها للبرلمان ولللمجلس البلدي وتمارس المنصب الوزاري ومن دون أن يحول من دون ذلك انها في مجتمع إسلامي مستندة في ذلك إلى أن هنالك دولا إسلامية حافلة بالتيارات الاصولية أجازت للمرأة ان تكون حتى رئيسة للوزراء على نحو ما حدث في باكستان وبنغلادش واندونيسيا.. مع الأخذ في الاعتبار أن التروّس الذي حدث في الدول الثلاث المشار إليها كان بفعل التوريث ولأن الرئيس المورّث ليس له ابن أو الإبن الصالح لكي يرث المكانة السياسية من بعده، ولذا آلت المكانة بصيغة الزعامة ثم ترؤس الحكومة لفترات إلى بنظير بوتو في باكستان والشليخة حسينة في بنغلادش وميغاواتي ابنة سوكرانو في أندونيسيا.

أردنا من هذا التمهيد القول إن المرأة الكويتية التي نالت بعد طول إنتظار ما تطالب به في شأن ممارسة الحق السياسي ما كانت لتحصل على هذا الحق لو أن

مردودها معنوياً فقط كما إنتهت إليه الأمور. وهكذا وجدنا أنفسنا نحن مجموعة من الصحفيين والإداريين مساهمين في مؤسسة إستمرت عائلية، ولم تأخذ طريقها إلى أن تصبح شركة يتم تداولها في سوق الأوراق المالية، على نحو ما حدث مع «المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق» التي أسست بخطوتها لحالة إعلامية جديدة.

ومع ان هذه الخطوة تبعث على التساؤل حول ما يمكن أن يسببه المساهمون من إقلاق أحياناً لمجلس إدارة المؤسسة، إلا أنه عندما يكون هنالك حرص على الابتكار والتطوير فإن من يتراأس يصبح جاهزاً لكل حالات الإقلاق. ولنا في هذا الأمر حالة مؤسسات إعلامية دولية من نوع «نيويورك تايمس كومباني» التي تملك جريدة «الهيرالد تريبيون» وجريدة «نيويورك تايمس» ومحطات راديو، وكيف أنها غدت أكثر إستقراراً بعدما باتت مجموعة ذات أسهم يتم تداولها في البورصة، متيحة بذلك المجال أمام من يريد التملك بضعة أسهم كما «نيوز كوربوريشن» التي تملك عدة مطبوعات من بينها «التايمس» و«صن» وكذلك «سكاي تلفزيون» ذات الشهرة الذائعة الصيت، وأيضاً مجموعة «بيرسون» التي تملك جريدة «فايننشال تايمس» ودار نشر «بنغوين» وهي وغيرها مؤسسات تطورت أكثر وأكثر بفعل دخولها سوق الأوراق المالية. وخلاصة القول إن «المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق» دشنت بخطوتها هذه طريق الإستقرار أمام من يريد أن يستقر، وبدت بذلك كمن يوجي للآخرين بأن المشاريع الإعلامية الفردية، صحفاً أو فضائيات ومحطات تلفزيون، إلى إنقراض، وأن الحل في الاندماج الذي يؤدي إلى كيان اقوى، وأن هذا الكيان يأخذ فرصة من أجل البقاء إذا هو بات ملك الجميع، من خلال إمكانية شراء أسهم من سوق الأوراق المالية وبيعها عند الضرورة.

وهكذا فإن ما يمكن أن يقال بعد الآن لقارئ إصدارات «المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق»: إطمئن أنت من مالكي المجموعة... تماماً مثل القول الذائع: يتسم... أنت في الشارقة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 24 مايو (أيار) 2005

* * *

بعد العام 2007 نساء كويتيات في برلمان الدولة التي دشنت ومن قبل أربعة عقود تجربة التعددية والديمقراطية في منطقة الخليج، وإن كانت بعد ذلك تأخرت عن البحرين وقطر وعمان في موضوع منح المرأة بعض الحقوق المحجور عليها وبعض المناصب في الحكومة والإدارات الأساسية، كما سيكون لها بعد العام 2009 حق ترؤس مجالس بلدية. ومن الآن وحتى هاتين المحطتين ستكون مسألة الالتزام بالشرعية التي وردت في القانون الذي أقره مجلس الأمة الكويتي وجدت الكثير من الضمور، بحيث أن الأمر الواقع من جهة وسنّه التطور من جهة ثانية، فضلاً عن رد الفعل الهادئ يصدر عن المرأة الكويتية كي لا يحدث المزيد من الغبار الذي يحجب الرؤية على نحو ما فعلت توجان الفيصل في برلمان الاردن، ستجعل المتشددین الذين عارضوا لا يعودون على تشددهم فلا يقف أحدهم في البرلمان يستحضر مسألة الشرعية للرد على كلام أنثوي.

وخلاصة القول إن الشيخ صباح الأحمد الذي سبق أن تعهّد في افتتاح الجلسة التشريعية لمجلس الأمة يوم الثلاثاء 26 أكتوبر (تشرين الأول) 2004، بالعمل على إصدار قانون يتيح للنساء حق الترشيح والانتخاب وفي بوعده وفي فترة زمنية قياسية هي ستة أشهر ونصف الشهر. وفي تلك الجلسة أوضح أن هذا الأمر هو عنوان سياسة حكومته إلى جانب تطبيق الإصلاحات الإقتصادية العاجلة، بحيث تتنوع مصادر الدخل في البلاد التي تمثل مبيعات النفط ومنتجاته 90 في المائة من إيراداتها. وهذا في رأي الشيخ صباح على نحو ما لخصه في تلك الجلسة، يكون بالخروج من دائرة الإقتصاد الذي يعتمد على مورد أحادي ناضب، إلى إقتصاد منتج ومتعدد الموارد. وفي هذا الصدد فإن تعظيم دور القطاع الخاص وتحويله إلى عامل مؤثر في الإقتصاد الوطني يشكل - والرأي هذا للشيخ صباح - بوابة الدخول إلى المرحلة المقبلة. ويبدو أن الأمرين سيأخذان طريقهما إلى التنفيذ.

وهكذا فإن الشيخ صباح الذي سيجتمع في البيت الأبيض بالرئيس جورج بوش الابن مطلع يوليو (تموز) المقبل، سيجد أن الحديث مع الرئيس الأميركي سينطلق هذه المرة ليس من السؤال عن السر في أن الكويت دولة ديمقراطية ذكورية فقط، وهو ما كان يعيب التجربة الرائدة للدولة الصغيرة بحجمها وعدد سكانها، الكبيرة بالتجربة الديمقراطية

الظروف لم تهئ لهذه الخطوة، الرجل الذي أضاف إلى تاريخه السياسي العريق كعميد للدبلوماسية العربية صفة نصير المرأة. وقد يقال إن حسم هذا الأمر تأخر كثيراً وأنه حق مشروط نالته المرأة الكويتية. والرد على ذلك هو أنه لولا أن الشيخ صباح الأحمد لم يتسلم رئاسة الوزراء وبات في ضوء ذلك وفي ضوء الظروف الصحية للأمير ولولي عهده، هو رجل المرحلة الإنتقالية الراهنة لما كان لـ «الحق النسائي» أن يُنال.. هذا إلى جانب أن عدم نيل المرأة في الكويت الحق السياسي كان ثغرة في التجربة الديمقراطية الرائدة للدولة.

وبالنسبة إلى «الحق المشروط» والمتمثل في عبارة «يُشترط للمرأة في الترشيح والانتخابات الالتزام بالقواعد والأحكام المعمدة في الشريعة الإسلامية...» فإنه على ما يجوز الاعتقاد تخريجه من إحياءات الشيخ الرئيس صباح الأحمد، الغرض منها قطع الطريق على إعتراضات الإسلاميين والقبائليين من أعضاء مجلس الأمة، الذين كانوا في إستمرار معارضين لمسألة الحقوق هذه، ويرون أن الشريعة من جهة والتقاليد الإجتماعية من جهة أخرى لا تجيز مثل هذه الخطوة الجريئة، ومن دون أن يراعي هؤلاء أمير البلاد الشيخ جابر الذي لا يريد أن يقال بأن ولايته الأميرية التي هي الأطول في تاريخ البلاد لم تحسم هذا الأمر العالق. ومن المصادفات الطيبة أن الجلسة التاريخية للبرلمان الكويتي يوم الاثنين 16/5/2005 والتي تبئى فيها التعديل الذي بات بموجبه مسموحاً للمرأة بممارسة حقوقها السياسية في الإنتخاب والترشيح، عُقدت عشية سفر الأمير إلى نيويورك في زيارة علاج جديدة، على وقع ترحيب دولي بالخطوة وإبتهاج نسوي كويتي بها تشوبه بعض التحفظات إزاء محاولة البعض ربط الحق بأحكام الشريعة كما يفهمونها، وعلى وقع إرتياح ملحوظ من جانب ولي العهد الشيخ سعد العبدالله الذي بات أكثر إطمئناناً شأنه في ذلك شأن الأمير.

تبقى الإشارة إلى أن الحقوق السياسية التي حصلت عليها المرأة لم تحدث نتيجة قرار فردي وإنما بعد نضال مرير دام أربعة عقود وفي سياق عملية تصويت ديمقراطية، إنقسم فيها برلمان الكويت بين أكثرية نسبية مؤيدة وأقلية نسبية معارضة. وكان لافتاً أن رئيس البرلمان جاسم الخرافي إرتأى أن يكون مع الخمسة والثلاثين المؤيدين وفي الوقت نفسه مع الثلاثة والعشرين المعارضين، وذلك من خلال إمتناعه عن التصويت. كذلك تبقى الإشارة إلى أنه بموجب هذه الخطوة سيكون

عاجل للجمهوريات العربية: أهمية أن يكون للرئيس نائب أو أكثر

في سياق رؤيته الواقعية للامور، يقرر رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية محمود عباس انه من الضروري تعيين نائب له. وهو قرار يشبه بالمقارنة الصحية قرار المدخن العريق الذي أمضى سنوات يرفض نصيحة العائلة والأبناء والأحفاد ومعهم الأصدقاء من غير المدخنين، بوقف التدخين حفاظاً على صدره وصحته عموماً، ثم يستجيب فجأة ومتأخراً، لأن الطبيب كشف عليه وأنذره بضرورة التوقف فوراً عن التدخين. وهنا يلتزم بالإنذار، بعدما كان لا يعير النصيحة والتلميحات الإهتمام.

الذي حدث هو أنه بعد بضعة أشهر من المعاناة تلت الوفاة المباغتة، بفعل التدبير الشرير، ربما للرئيس ياسر عرفات، وأوجبت على الرئيس الخلف محمود عباس التحرك عربياً ودولياً والتحمل فلسطينياً وشارونياً، بات من الطبيعي أن يتعب القلب المتعب اصلاً والخاضع لعلاج طبي. وبعد الجولة التي قام بها محمود عباس قبل أسابيع وشملت عدة دول بعيدة من بينها الصين واليابان وأميركا لاحظ طبيب القلوب الفلسطينية في عمان، وبعد عملية قسطرة للقلب العباسي، أن الرئيس السبعيني مرهق أكثر مما يجب ومما يتحمل القلب هكذا إرهاقاً. وإنطلاقاً من هذه الحقيقة إرتأى الرئيس محمود عباس، أن يكون للسلطة نائب للرئيس، كي لا يتبعثر الصف الفلسطيني الذي كانت لملمته في الأصل معجزة.. وإن على الحد الأدنى.

وبصرف النظر عما إذا كان هذا التوجه حدث في ضوء التهدة التي أسفر عنها لقاء المصارحة بين الديكين الفتاويين التاريخيين محمود عباس وفاروق القدومي في تونس، قبل إنتقال الرئيس الفلسطيني إلى العاصمة الأردنية، فالإ العاصمة الفلسطينية المؤقتة رام الله، أم ان الظرف الصحي فقط هو الدافع، فإن ما سيقدّم عليه محمود عباس يبقى حالة إستباقية لأي أزمة تنشأ في حال انه، أي عباس، لم يعد قادراً على إدارة شؤون «الدولة الموقته» وحده، أو أن تعب القلب وصل، لا سمح الله، إلى درجة التوقف. وعندما يكون هنالك نائب للرئيس، ونائب اصيل وليس مجرد ديكور في كيان الحكم، فإن احوال هذا الحكم لا ترتبك ولا

والحياة البرلمانية المتميزة، وإنما سيشد على يديه مهناً بالخطوة لأنها حدثت من جهة ولأنه، أي الرئيس بوش، سيوظفها داخلياً مثل توظيفه لانقلاب القذافي على مفاهيمه الثورية والتوجه الغربي المتواصل من جانبه، وللتحول السوداني الإنقاذي في إتجاه الأمركة من أجل تحقيق التسوية السلمية لموضوع الجنوب، وللتعديل الدستوري الذي حدث في مصر وبات بموجبه في إستطاعة من يرغب بترشيح نفسه للرئاسة أن يترشح إنما بشروط قريبة النوعية من حيث طبيعتها الردعية، وإلى حد ما التعجيزية، بالشروط الذي جاء في القانون الكويتي وجعل بعض نساء الكويت ممن يتطعن إلى العمل في الشأن السياسي العام، يسجلن إحتجاجهن الذي لخصته رئيسة الجمعية الإجتماعية الثقافية النسائية شيخة النصف بالقول «لا أستطيع ان افهم ما هي هذه الضوابط. انها تضايقنا حيث انه لا يوجد شيء في الكويت ضد الشريعة...».

في انتظار الاصلاح السياسي والإقتصادي الموعود، تُسجل للشيخ صباح حنكته، إذ لولاها لبقيت المرأة الكويتية تطالب ولربيع قرن جديد بحقوقها السياسية. اما وقد حصلت عليها، فإن الخشية هي من ان تنصرف المرأة الكويتية، الصعبة المراس عموماً، بعد أن تمارس الحق السياسي، بعقلية من تريد الأخذ بالثأر من الذين حرموها الحق وانفردوا بالبرلمان والمناصب الوزارية وغيرها من المناصب الكبرى في إدارات الدولة، اربعة عقود ومن دون ان يخطر في بالهم ان المرأة «أخت الرجل وشريكته الفاعلة في حمل مسؤولية الأسرة والمجتمع وخدمة الوطن»، على نحو ما يرى ولي العهد الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح. ومن هنا فإن طريق السلامة والإستقرار والقبول بها بغير الإضطراب كمتعاطية في الشأن السياسي العام، هو أن تمارس الحق المحصول عليه بأسلوب اللبنانية بهية الحريري، وليس بأسلوب الأردنية الشركسية توجان الفيصل. وبالعودة الى وقائع ما حدث للإثنتين في حياتهما البرلمانية يمكن تلمس الفرق وتفهّم ما نقوله.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 31 مايو (أيار) 2005

* * *

المسؤولية.

وما يحدث في مصر دليل على ما نقول. كما أن ما قد يحدث في الجزائر وتونس هو أيضاً دليل على ذلك. أما في سوريا التي من المرجح أن يبدأ رئيسها الدكتور بشار الأسد فتح صفحة جديدة ونوعية في الحكم بعد إنتهاء أعمال المؤتمر القطري للحزب الحاكم، الذي بدأ أعماله أمس في دمشق، فإن إسناد منصب نائب الرئيس إلى غير بعثي، ومن دون أن يكون هذا الـ «غير بعثي» بالضرورة من الإخوان المسلمين، وإنما شخص يملك من إستقلالية الرأي ونظافة الكف ما يُطمئن المجتمع السوري والمجتمع الدولي في الوقت نفسه، يبدو من الضرورات ليس لدواعي إعتلال الصحة على نحو ما هي عليه حال الرئيس الفلسطيني محمود عباس، لأن الرئيس بشار في كامل الصحة وعنفوان الشباب، وإنما لأن مثل هذه الخطوة كفيلة بتحقيق طمأنينة نفسية وإستقرار في المجتمع. وهذا ما لم يفعله الرئيس مبارك بصيغة الرفض وما لم يفعله العقيد معمر القذافي والرئيس علي عبدالله صالح والرئيس عبد العزيز بوتفليقة والرئيس زين العابدين بن علي للصيغة نفسها.. وهو أمر يثير الإستغراب ويعزز فرضية أن الرفض هو لتحاشي أن يجنح نائب الرئيس في لحظة تطلعات تتسم بالطموح أو الطمع، نحو إتخاذ مواقف لا يحبذ الرئيس إتخاذها، أو أنها تتعارض مع رؤية الرئيس للأمور، وفي هذه الحال سيشعر الرئيس ان هنالك من ينافسه على الكرسي، أو لعله قد ينتهز اللحظة المواتية للإستحواذ على المنصب الأول، وهذا ما حدث مع صدام حسين الذي كان نائباً للرئيس أحمد حسن البكر ثم بات فجأة يوم 17 يوليو (تموز) 1979 متسلماً المسؤولية كاملة في الحزب والدولة، وبات الرئيس خارج السلطة بدواعي سوء الوضع الصحي حاملاً لقب «الرئيس الوالد». ولقد حدث ذلك مع أن صدام حسين كان الرجل الأقوى في النظام وأن دول العالم وبالذات فرنسا وإيران تتعاملان معه على هذا الأساس. إلا أنه كان يرى أن لقب «السيد الرئيس» يبقى أكثر وقعاً من لقب «السيد النائب».

وحدها تجربة «حكم الإنقاذ» في السودان أوجدت صيغة النائب الذي هو في غاية التجانس مع الرئيس، وبحيث أنه لن يكون هناك فراغ ولا صراع في حال غاب الرئيس بداعي الوفاة أو إضرطه الوضع الصحي للتوقف عن تأدية مسؤولية الرئاسة. وقبل أن يقضي

تنشأ صراعات على نحو ما حدث في الصف الفلسطيني، لأن الرئيس عرفات لم يحسم الأمر بما فيه الكفاية، ومن أجل ذلك فإن الرئيس الخلف، أي عباس، لم يأت بإرادة فلسطينية مجردة، وإنما بفعل إحياءات دولية الأمر الذي جعل حال رئيس السلطة الفلسطينية مثل حال رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة ورئيس البرلمان في العراق، ومثل حال رئيس الحكومة الحالية نجيب ميقاتي في لبنان.

وأهمية ان يكون هنالك نائب للرئيس في سلطة الحكم الفلسطيني - ليست فقط في حسم الأمور العالقة وإنما في التمهيد لصيغة لا يعود بموجبها التشدد الفلسطيني يغرد خارج السرب. وما نقصده بكلامنا هذا هو أنه في حال تم الأخذ بالفكرة، فإن إسناد منصب النائب إلى «حماسي» أو «جهادي» من شأنه جعل الحركتين النضاليتين الأكثر تشدداً جزءاً من اللعبة السياسية.. وهو ما قد يحدث قريباً في حكومة ما بعد الإنتخابات في لبنان، وبالذات عندما سيشكلها سعد الدين رفيق الحريري، في حال لم تتعطل الإنتخابات بعد العملية الترويحية يوم الخميس 2 يونيو (حزيران) الجاري، التي أودت بحياة الكاتب والصحافي سمير قصير، وفي حال حظيت اللوائح الإنتخابية في الشمال والبقاع وبعيدا - عاليه التي يرعاها الحريري الإبن، ويدعمها بالروحانية نفسها التي كان والده يراها، بنتائج مثل تلك التي تحققت في بيروت أو قريبة منها. وما يتطلع إليه الحريري الإبن ووليد جنبلاط هو إشراك «حزب الله» في الحكومة، وبذلك لا يعود الحزب كما حاله في الماضي ولا يشارك كي لا يلتزم بقرارات يتخذها أهل الحكم. ومن الجائز الإفتراض أن هذا التوجه سيكون موضع الرضا الدولي، ولأن «حزب الله» في هذه الحال سيطبق بخياره وليس فرضاً عليه أي قرارات دولية من نوع القرار 1559، مع الأخذ في الإعتبار أن هذا القرار قابل للتناهي الدولي، في حال إنخرط «حزب الله» في العملية السياسية وأسند سعد الحريري (المحتمل ترؤسه) إلى أحد حمائم الحزب، ممن جرى التوافق على إشراكهم في الحكومة، منصب وزير الدفاع.

ونبقى في موضوع نائب الرئيس في ضوء الخطوة الفلسطينية المتوقع إتخاذها، لنضيف القول إن ظاهرة تغيب منصب لنائب الرئيس في بعض الجمهوريات العربية، يشكل عامل عدم إستقرار في حاضر الرئيس أو لمجرد غيابه بفعل الوفاة أو العجز عن ممارسة

الرئيس محمود عباس في شأن تعيين نائب له، قد يكون سمعه كطلب أو كفكرة عابرة من الرئيس بوش الابن، عندما التقى به في البيت الأبيض قبل أيام، وجاء الكشف على القلب المتعب من خلال القسطرة التي أجريت في الأردن تجعل أبو مازن يرى ضرورة تسريع الخطوة... وربما على قاعدة خير البر عاجله.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 7 يونيو (حزيران) 2005

سورية والبعث.. جدلية التغيير والمخاوف والإقتباسات!...

إذا افترضنا أن نظلم الرئيس بشَّار الأسد، وبعد انعقاد المؤتمر القطري العاشر لحزب البعث (من 6 إلى 10 يونيو/ حزيران 2005)، لم يحقق التغيير الجذري في الحياة السياسية السورية. ونقول بذلك على أساس أن الأجواء الإقليمية والدولية التي سبقت انعقاد المؤتمر، والناشئة عن الحالة العراقية الصعبة والحالة اللبنانية الأكثر صعوبة، أوحى بأن الرئيس بشَّار، الذي وضعه المجتمع الدولي، أو فلنقل الضغوط الأميركية - الفرنسية، أمام معادلة في منتهى الدقة، وهي إما أن تُغيَّر أو تتغيَّر، سيجعل من المؤتمر مناسبة للتغيير الجذري، من دون أن يأخذ المفترضون في الاعتبار أن التغيير من دون التأكد من عدالة المقايضة، من شأنها أن تشكل مخاطرة غير مأمونة العواقب، شأنه في ذلك شأن رفض التغيير والإغراق في العناد، على نحو ما فعل البعث العراقي الذي كان ببعض الخطوات المرننة في إمكانه انقاذ رأسه.. أو على الأقل إرجاء مخطط الفتك به بضع سنوات، تحدث فيها تطورات من شأنها جعل الأمور أكثر إستقامة.

وما نقصده بالمقايضة هو اعطاء الحكم البعثي في سوريا ما من شأنه تبرير التغيير، والظهور بالمظهر الذي يؤكد به أنه لم يُفَرِّط ولم يستسلم وإنما قام بما يحفظ لسوريا هيبتها وللسوري مصلحته، وخصوصاً بعدما تأثرت الهيبة والمصلحة نتيجة التداعيات التي نشأت عن الفاجعة الحربية وأدت إلى إنسحاب القوات السورية من لبنان، وهو إنسحاب أشبه بإنسحاب القوات السوفياتية من أفغانستان، وإنسحاب القوات

النائب الأول اللواء الزبير محمد صالح في حادثة طائفة في الجنوب يوم 12/2/1998، كان الأمر محسوماً بأن هنالك من يواصل بعد الرئيس عمر البشير، وبالنهج نفسه ومن دون صراعات. وعند إختيار علي عثمان محمد طه نائباً أول، كانت الخطوة بالمعنى نفسه. وهذا الإختيار يجعلنا نستحضر كيف أن الرئيس البشير وتقديراً منه لصراعات محتملة في ما بعد، إرتأى تعيين علي عثمان وليس الدكتور حسن الترابي أو علي الحاج. وهذان الإثنان كانا من بين الأسماء الثلاثة التي رشحها مؤتمر الحزب الإنقاذي، وبعدما لم يتم إختيار واحد منهما فإن صراعهما مع البشير بدأ وإنتهى بهما الأمر إلى المعارضة مغردين خارج السرب ثم موضوعين داخل القفص. وقد تكون خشية الرئيس مبارك من حدوث ذلك في نظامه وما قد يسببه الأمر من صدام هو في غنى عنه، هي أنه يحكم على مدى ربع قرن من دون نائب للرئيس، ويبدو أحياناً من الأسباب ما يبدو بعضها غير مقنع، مثل قوله في إحدى المرات انه لم يجد من يعينه في هذا المنصب. وما دامت الحال سائرة على هذا النحو فلماذا تعيين النائب أو النواب؟ ولماذا وجع الدماغ على نحو ما كانت عليه أوجاع الرئيسين عبد الناصر ثم السادات قبل ذلك من هذا الموضوع؟

وبالنسبة إلى لبنان، فإنه لو كان إتفاق الطائف نص على أن يكون هنالك نائب للرئيس، لما كان لهذه الأجواء السياسية التي يعيشها البلد أن تتواصل على هذه الحدة التي هي عليها، ولكان رئيس الجمهورية تقادياً منه للمفاجآت ودرءاً لمخاطر الصراع، سلم الأمر لنائبه يواصل من بعده ويضع في الوقت نفسه حداً لهجمة المطالبة بإستقالة الرئيس. وقد نجد من يقول ان لبنان يسلك طريق فرنسا في هذا الأمر، حيث لا وجود لمنصب نائب رئيس الجمهورية، وأن ذلك مرتبط في الأصل بالزمن الذي كان فيه لبنان تحت الإنتداب وورث من فرنسا من جملة ما ورثه مفاهيم دستورية، إضافة إلى قوانين ما زال العمل سارياً فيها إلى الآن مع بعض التعديلات. وهذا صحيح، إلا أن الصحيح بالمقدار نفسه هو أن لبنان يتأمر، وأنه بموجب ما هو قائم في النظام الأميركي فإن نائب الرئيس جاهز دائماً للحظة الصادمة، ومن دون أن يتجاوز حدوده على حساب هيبة الرئيس. وما دام قطار «الإصلاح الأميركي» إنطلق في إتجاه بعض الأنظمة، فإن أهمية أن يكون لكل رئيس نائبه أو نوابه قائمة. وما قاله

المصرية من اليمن.. مع فارق أن اللسان اليمني كان أكثر رفقاً بالمصريين من بعض الألسنة اللبنانية التي تفلطت بحق أهل الحكم السوري ألفاظاً، كان مجرد الهمس بها قبل الإنسحاب يتسبب بالأذى للهامسين.

لم يأخذ المجتمع الدولي بالمقايضة التي نشير إليها تاركاً الحكم السوري ينتزع بيديه ما إستطاع الإنتزاع الشوك الناشئ عن إحتفاظه ببعض أوراق العلاقة مع التشدد الفلسطيني، وعدم فض الشراكة مع «حزب الله» في لبنان، وعدم تحويل نفسه إلى درع يحمي القوات الأميركية في العراق، هذا إلى جانب الورقة الأهم وهي التمسك بإستعادة الأرض السورية التي تحتلها إسرائيل. وبدا المجتمع الدولي في موقفه هذا كمن يقول للحكم السوري نَقْذْ ثم فاوض، الأمر الذي يعني أن يجلس إلى طاولة التفاوض منزوع الأوراق، عدا ورقة حُسن النية التي لا يجري تصريفها في بورصة الحقوق المصادرة.

في ظل هذه الاجواء عقد المؤتمر القطري العاشر لحزب البعث أعماله، فيما الأنظار شاخصة نحو «قصر الأمويين» حيث مكان الإنعقاد، لتعرف ما إذا كان الدخان البشّاري الأبيض (أي التغيير) سيخرج من المدخنة أم يستمر الدخان البعثي الأسود (أي التكلس) هو العاقب في السماء السورية. وجاء الإنعقاد بعد إنفراجات ملموسة على صعيد التعامل مع الإعلام الخارجي، بحيث لم يعد المراسلون أو المندوبون الأجانب يلقون المعاملة التي تتسم بالحذر والخشونة، وبات هؤلاء يتجولون ويصوّرون من دون رقباء، ويقابلون المسؤولين ويتحدثون إلى المثقفين والمعارضين، كما أنهم باتوا يدخلون البلاد من دون معوّقات، وأحياناً يحصلون في مطار دمشق على تأشيرة الدخول، وعزز هذا التحول الإيجابي في ما يخص الإعلاميين الأجانب إسناد إدارة الإعلام الخارجي إلى نوعية منفتحة ومتقفة وقادرة على قراءة ما تتوخاه القيادة، وتلقى التشجيع من المراجع الأعلى بدءاً بالوزير. وهي خطوة على تصويب المشهد الإعلامي كان الحكم السوري في أشد الحاجة إليها. ولقد سمعنا من بعض الزملاء الأميركيين والفرنسيين والإسبان الذين جاءوا مشدودين إلى مؤتمر البعث، إشارات حول السلوك الجديد للإعلام الخارجي ودينامية مدير هذا الإعلام الأستاذ الجامعي الدكتور نزار ميهوب، جعلتنا نفترض أن الحكم السوري متجه إلى مزيد من الإنفتاح على العالم، والتخلص من الحذر

الذي كان سمة المسؤول السوري أياً كان موقعه. كان خطاب الرئيس بشار مدروساً بعناية، ولم يكن ضرورياً على الإطلاق تصنيفه بأنه «خطاب توجيهي» على نحو ما إعتبرته صيغة النبا الرسمي، المنشورة في وسائل الإعلام الرسمية صبيحة يوم إنعقاد المؤتمر، ذلك أن معنى «التوجيه» أن رئيس الجمهورية والأمين العام للحزب، يخاطب جمعاً عليه واجب تنفيذ ما في الخطاب، وهذا يخطف من المؤتمر وهج المناقشة الرحبة والحرّة. لكن ذلك ليس الجانب الذي إستوقفني شخصياً كمتابع للمؤتمر، وإنما الذي إستغربته هو عدم بث جلسات المؤتمر عبر الفضائية السورية وبقية الفضائيات، وعدم بث خطاب الختام للرئيس بشار مثل بث خطاب الإفتتاح. ومثل هذا البث كان سيوحي للداخل والخارج على حد سواء، بأن لا شيء سيكون محجوباً عن الناس بعد الآن. كما انني من بين الذين ومن خلال التأمل في ما إنتهى إليه المؤتمر القطري من نتائج، يمكن القول ان هاجس إخفاق محاولة غورباتشوف في الإتحاد السوفياتي كانت حاضرة في بال الرئيس بشار، فجعلته لا يسبر غور إعادة النظر بما فيه الكفاية. فالذي فعله غورباتشوف هو أنه ساهم في إنهيار قوة عظمى هي الإتحاد السوفياتي إنتهت بالتدرج إلى أنها أصبحت دولة كبرى اسماً (روسيا)، إنما من دون أي تأثير يُذكر لها على القرار الدولي. كما أن هاجس الإنفتاح الذي أخذ به الرئيس (الراحل) أنور السادات جعل مصر دولة كبرى اسماً، إنما من دون أن يكون تأثيرها كما في الماضي في محيطها العربي وعلى الصعيدين الأفريقي والدولي عموماً. وعندما يكون هذان الهاجسان حاضرين، فمن الطبيعي أن يكون الرئيس بشار مترثاً بل ومتربداً مكتفياً بشيء من التغيير ذي الشكل الإقتباسي، مثل إستحداث «مجلس شوري» يشارك في إتخاذ القرار السياسي والإقتصادي في البلاد، و«مجلس أعلى للإعلام» كما في المملكة العربية السعودية، ومثل إضفاء ملامح جديدة على حزب البعث والحياة الحزبية عموماً، وربما بعد تغيير طفيف في التسمية بحيث يكون كما «الحزب الوطني» في مصر، وتكون الحياة الحزبية السورية كما الحياة الحزبية الراهنة في مصر أيضاً، هذا إلى جانب الإبقاء على قانون الطوارئ، «انما بعد مراجعة له» وتكون المرأة البعثية التي تتمثل في اللجنة المركزية للحزب بـ 18 امرأة من أصل أعضاء اللجنة الستة والتسعين، نالت دوراً مثملاً نالت المرأة الكويتية

حقاً.

رئاسيات ساخنة عربياً وإسلامياً

تتوالى الحمى الرئاسية في بعض ديار الأمتين، وكما لما تشهد هذه السخونة التي عليها من قبل. وقد يبدو المشهد ديمقراطياً من حيث الشكل إلا أنه في بعض مضامينه حالة عناد لدى البعض، وحالة ثأر لدى بعض آخر، ورغبة لدى قلة بأن تنتهي حياتهم وهم في موقع السلطة وليس خارجها.

وأكثر درجات هذه الحمى إرتفاعاً هي التي يعيشها لبنان هذه الأيام، فالرئيس الحالي إميل لحود، الذي أوقعه التمديد البشّاري له ثلاث سنوات إضافية في مأزق لا يتمناه، يخوض منذ إغتيال الرئيس رفيق الحريري يوم 14 فبراير (شباط) 2005 حرباً ضارية ضد الذين ينادون بإستقالته، ويرفقون مطالبتهم هذه بعبارات لا تليق برئيس يمسك بزمام السلطة الأولى في البلاد، فيرد عليها بلسان الجنرال الذي أمضى حياته في المؤسسة العسكرية ملتزماً بقاعدة تنفيذ الأمر وليس مناقشته. وهو كلما أطلق المنادون بإستقالته، وبالأذات الزعيم الدرزي وليد جنبلاط، التصريحات النارية، يرد بأنه باق حتى الدقيقة الأخيرة من السنة الثالثة من سنوات التمديد المبالغت لولايته الرئاسية. وكان لافتاً غياب الفطنة عن جنبلاط في موقفه هذا، الذي وإن كان يشاركه الرأي فيه بعض السياسيين المسيحيين، إلا أنه يبقى في واقع الحال مطلباً أتى من مرجعية سياسية درزية ضد مرجعية سياسية مارونية، وهذا يستحيل التجاوب الشامل معه، وبحيث أن ما سيحدث سيكون مثل الذي حدث مع جنبلاط الأب، الذي كان المبادر إلى المطالبة في بدايات الحرب الأهلية عام 1975 بعزل حزب الكتائب المسيحي الماروني، لكن هذا العزل لم يحدث لأنه كان مطلباً درزياً - إسلامياً، الأمر الذي أفقده موضوعيته. وما حدث هو أن حزب الكتائب تحوّل الى قلعة في لعبة شطرنج الحرب اللبنانية، كما ان رئيسه الشيخ بيار الجميل الذي كان يطمع في الرئاسة الأولى ولم يحالفه الظرف والعمر، غادر الدنيا وقد أوصل إبنه: الأصغر بشير إلى أن يصبح رئيساً للجمهورية، جرى إنتخابه رسمياً إلا أنه إغتيل قبل ان يتسلم رسمياً، والإبن الثاني أمين الذي ترأس وارثاً بعد شقيقه، وأمضى ست سنوات عاصفة، رئيساً للبنان المثخن بالجراح، والمتمخم بالأحقاد والمسلوب الإرادة ضمن توافق سوري - أميركي.

ويبقى ان ملامح التغيير كانت ستبدو أكثر وضوحاً، لو قُيِّض لنا أن نعرف ما لم يتم الكشف عنه من كلام الرئيس بشّار، ومضامين المداولات داخل الأبواب المغلقة، وهو ما كانت تحيطنا به الدكتوراة بثينة شعبان التي جاء الإبقاء عليها منبر تخاطب مع العالم، متحررة من القيود الحزبية، ولذا لم يتم إختيارها عضواً في القيادة القطرية الجديدة، أو لأن الرصيد الحزبي أوجب تعيين شهناز فاكوش، عضو قيادة فرع حزب البعث في دير الزور بدلاً منها. أما وان ذلك لم يحدث، فلذا لم نجد أماننا، ربما حتى إشعار آخر، سوى ما نقلته الدكتوراة بثينة عن أعمال جلسات الرفاق. ومن هنا نلاحظ أن رفاق حافظ الأسد باتوا متقاعدین ليحل محلهم رفاق بشّار الأسد في القيادة القطرية للحزب. كما نلاحظ أن ثقة أهل البعث بغير البعثي ما زالت غير مؤكدة، بدليل أن منصب رئيس السلطة التنفيذية، ومنصب رئيس السلطة التشريعية، لن يشغلهما غير البعثيين، الأمر الذي يعني أن كل الرئاسات في اليد الحزبية البعثية، مع إحتمال ترك نيابات الرئاسة إلى غير البعثيين ومنها نيابة رئاسة الجمهورية.

ونخلص إلى القول إن الرئيس بشّار بدأ الخطوة الأولى على طريق التغيير، وإنه يخطو بتريث الذي يعيش هاجس إخفاق محاولة غورباتشوف، إلا أنه أكثر إقتناعاً من أي وقت مضى بضرورة تصحيح وضع يعيش منذ بضعة عقود في حالة طوارئ، أوجببت إتخاذ قرارات يسخر العالم منا، حين يعرف طبيعتها، ومنها على سبيل المثال لا الحصر عدم السماح بفتح صالونات الحلاقة، وتنظيم الأعراس، وفتح فرن خبز ومطعم وغيرها من الممنوعات والمحظورات. وهي قرارات لو قيل لحافظ الأسد الحفيد ان حافظ الأسد الجد إتخذها وأن الوالد الرئيس بشّار لم يحذفها، لكان هذا الحفيد سيستغرب قائلاً: ما هذا الذي فعلتموه يا جدي، على نحو إستغراب جيل السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات داخل سوريا وخارجها لأنها صدرت كقرارات... وصمدت كل هذا الزمن فيما العالم يتقدم.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 14 يونيو (حزيران) 2005

* * *

ومع ان حدة المطالبة بإستقالة رئيس الجمهورية اللبنانية تراجعت بعض الشيء لأن البطريرك الماروني لا يوافق، ولأن «حزب الله» لا يؤيد، ولأن المرجعية الدولية المقصورة على الإدارة البوشية والحكومة الشيراكية لم تقرر بعد، إلا أن درجة الحمى الرئاسية على حالها وخصوصاً أن الجنرال الآخر ميشال عون الذي حقق فوزاً مسيحياً يُمنّي ضمناً النفس بأن تحدث الإستقالة الكريمة بدل الإقالة المهينة، وذلك لكي يُؤتى به رئيساً إنتقالياً، لأن المزاج النفسي عموماً لا يتحمل رئيساً بالحدة التي هو عليها الجنرال عون.. وإن كان اللبنانيون عموماً (وعلى نحو المثل الشعبي المصري الشائع: إسمع كلامك يعجبني أشوف أمورك أستعجب)، تواقين إلى طروحات عون بالنسبة إلى الإصلاح، لكنهم يُعجبون من هذا التعالي في شخصه، وكيف أنه - جنرالياً - من النوع الذي يصعب تحمّله. وما دامت هذه حاله، فلماذا لا يواصل الرئيس لحود الحكم وضمن صيغة ترضي الجميع وهي أن تكون هنالك حكومة قوية برئاسة سعد الدين الحريري، الذي بات موضع الإرتياح العربي - الدولي، وما دام حاز القبول الشعبي مسيحياً وإسلامياً سنيّاً وشيعياً ودرزياً، وهو القبول الذي سعى إليه والده من قبل.. وربما من أجل ذلك كان إغتياله، يتعهد لحود بعدم مشاكستها وعدم الحرص على ترؤس جلسات مجلس الوزراء كما حاله مع الرئيس رفيق الحريري.

ومثل هكذا حكومة كفيلة بجعل التهذنة السياسية تترسخ وتجعل التحقيق في الفاجعة الحزيرية يأخذ مجراه.. وإلى درجة الكشف عن حقيقة الذي جرى. ونخلص بالنسبة إلى الحالة الرئاسية اللبنانية والحمى التي تعيشها إلى أن مسارعة الزعيم الدرزي وليد جنبلاط، الذي تكرست زعامته للجانب الجنوبي من جبل لبنان أي الشوف - بعبد - عاليه، إلى المطالبة بإستقالة الرئيس إميل لحود خدمت بقاء هذا الأخير.. بل لعلها أحد الدوافع الى ان الرأي العام المسيحي إلتف حول الجنرال ميشال عون في الجانب الشمالي من جبل لبنان أي المتن - كسروان، وإلتف على بعض رموز الإعتدال المسيحي الماروني الراغب مخلصاً في التعايش الراقي والمتوازن مع بقية الطوائف الإسلامية. وهذا الذي إنتهى اليه الأمر وما يعكسه الصراع المحتدم بين جنبلاط - عون يلخصه مع بعض التعديل القول الشائع: تمخض الجبل فولد أسدين ضارين ظمأنين... مع ملاحظة أن جوع

الجنرال عون للسلطة وظمأه للثأر من الذين حرموه فرصة إمتلاكها وأبعده إلى المنفى الباريسي أشد مضاضة على النفس والمشاعر واللسان من جوع وليد جنبلاط الدائم الحاجة إلى ما يروي ظمأه.

وفي مصر المحروسة ترتفع الحمى الرئاسية يوماً بعد آخر، ويحدث فيها ما لم يحدث في تاريخها الرئاسي حيث أن الإحتجاج والتظاهرات لم تصل إلى الحد الذي وصلت إليه هذه الأيام، وإن كان الأمر يختلف عما هو حاصل في لبنان. فالذين تظاهروا وأطلقوا الشعارات لا يطالبون بإستقالة رئيسهم وإنما بعدم التجديد وعدم التوريث ويرون ضمناً أن تكون الفترة الرئاسية محددة لا تتجاوز دورتين رئاسيتين، ليس لأن الرئيس حسني مبارك لا يملك جدارة التروؤس وإنما خشية أن يتحول البقاء الطويل مستقبلاً إلى تقليد، أو عُرف، ما دامت هنالك سابقة في هذا الشأن. ومع أن سنوات الرئيس مبارك في الحكم كانت نسبياً سنوات الإستقرار مع تضحية ملموسة بالدور الذي يكون بحجم الدولة العربية الأكبر، إلا أن البقاء الطويل في الحكم هو الدافع الى التوريث على نحو ما حدث في سوريا مع الرئيس حافظ الأسد، وما سيحدث في ليبيا مع العقيد معمر القذافي، وما هو محتمل الحدوث مع الرئيس علي عبدالله صالح، إذ لو كان التروؤس ولاية واحدة كما هي الحال في النظام الرئاسي اللبناني أو في الحد الأقصى ولايتين لما كان في إستطاعة الرئيس أن يورث إنأ له، ولكان أقصى ما يمكنه فعله، إن هو لم يتعرض لإنقلاب أو يُتوفى فجأة، هو المشاركة في إختيار الرئيس الخلف. لكن طول البقاء يتزأمن مع حدوث أمرين أساسيين: الأول هو أن أحد الأبناء يكبر في السن وبحيث يصبح شغفه بالتروؤس يلتقي مع رغبة الأب في أن يبقى في دائرة الضوء الرئاسي ما دام سيغادر هذا الموقع. أما الأمر الثاني فهو أن طول البقاء يحقق إنبات مراكز قوى متعددة ذات مصالح تحقق للأب الرئيس الرغبة في توريث الإبن.

ومع أن الرئيس مبارك حقق خطوة نوعية عندما أجاز لبرلمانه الإقدام على بعض التعديلات الدستورية، وبحيث بات ممكناً لغيره ترشيح نفسه للرئاسة وإن بشروط تعجيزية، إلا أن الحمى الرئاسية تشهد درجة إرتفاع أحياناً ودرجة إنخفاض أحياناً أخرى. وتحدث على هامش هذا الوضع الذي يتسم بالقلق مفاجآت ليست في الحسبان، من نوع أن عضو مجلس الشعب

قائمة على مناقشات طرفها من هو مثل حالي، قومي عربي بامتياز وفي منأى عن العويل الثوري، ومن هم أمميون، بمعنى إنني قانع بالرقعة التي تمتد من المحيط إلى الخليج، فيما هم يحلقون في المدار الذي يمتد من بداية المشرق العربي إلى أعماق آخر نقطة في المعمورة. وهؤلاء كانوا كثيرين وكانوا من ذوي العقول النيرة والثقافة العالية. كما أن بعضهم كانوا أصحاب رصيد نضالي ونقابي، تشهد على أهميته تلك الإنجازات والمكاسب التي حققها هؤلاء من خلال النظائر أحياناً، والإلحاح في عرض المطالب معظم الأحيان.

ومع تساؤل نقاط الالتقاء في محصلة المناقشات التي طالت مع هؤلاء، والذين حالهم مثل حال إخواننا قادة الفصائل الفلسطينية، لا يطيب لهم النقاش إلا في الساعات المتأخرة من الليل، ويفضلون استمرارها حتى الساعات الأولى من الفجر، إلا أنني كنت أرى في المناقشات ما يشكل الكثير من الإغناء للتحليل.

وبقدر ما كان بين هؤلاء من هو مغرق في يساريته، أو إذا جاز التصنيف كان أصولياً في ماركسيته، فإن هنالك بينهم من كان جسراً يربط الممكن بالمستحيل، والحلم بالكابوس والقناعة بالمغامرة والوطنية بالأممية، وفي الوقت نفسه يحاول إبقاء بيوت الله من مساجد وكنائس بعيدة عن النظرة الماركسية إلى الدين، والقائلة بأنه «افيون الشعوب»، وهي نظرة تسببت، إضافة إلى إخفاقات في العمل القومي، في إنتعاش التوجه الإسلامي.

بين هؤلاء اليساريين ثلاثة إستقر حضورهم في ذاكرتي حتى بعد رحيلهم، وأحدثهم جورج حاوي الذي فقدته اليسار العربي المقبول وغير المستقر يوم الثلاثاء 21-6-2005، ليس منطلق الصداقة فقط التي إعتز بها، وإنما لأن الثلاثة كانوا على شيء من التغريد خارج السرب الماركسي المعروف بالكرملين تجاه المرجعية الدولية للماركسية، متمثلة بالكرملين قبل سقوط الاتحاد السوفياتي. وكان تغريدهم في إتجاه هموم عالمهم العربي أكثر بكثير من التزامهم المشار اليه، مع ما يسببه هذا التغريد من تصادمات عقائدية تحملها هؤلاء لأن الإنتماء العربي، أو فلنقل اليعربي، كان أقوى من الإنتماء الأممي. ومن هنا القول ان الثلاثة: عبد الخالق محجوب وجورج حاوي وبينهما لطفي الخولي، كانوا من سلالة اليسار المستعرب ليس تشبيهاً بـ «لورنس العرب»، ولا

المصري عن محافظة المنوفية طلعت السادات، أعلن يوم الخميس 16 يونيو (حزيران) نفسه منافساً للرئيس مبارك، وكان قرر إعلان الترشيح بالقرب من ضريح عمه الرئيس أنور السادات، لولا أن رجال الشرطة منعه، فإكتفى بوضع إكليل من الزهر على الضريح على أنغام فرقة «حسب الله» التي راح أفرادها يطبلون ويمزجون منشدين أغنية «يا حبيبنا يا سادات» التي إشتهرت أيام الرئيس المصري، الذي لقي حتفه وهو في المنصة يوم السادس من أكتوبر، يشهد عرضاً عسكرياً إحتفالاً بذكرى إنتصاره النسبي على إسرائيل. وجاء هذا الترشيح الفولكلوري في بعض ملامحه يقطع الطريق على مفاجأة كانت السيدة جيهان أرملة الرئيس السادات في صدد إطلاقها، في حال قرر الرئيس مبارك رسمياً توريث ابنه جمال، وتقضي بترشيح ابنها جمال السادات، وبحيث ينقسم الرأي العام المصري بين جمالين: جمال حسني مبارك وجمال أنور السادات. والمقربون من أوساط السيدة جيهان يؤكدون أن الحضور السياسي لها في الأوساط الأميركية ذات الفعالية في إتخاذ القرار يمثل دوراً في هذه الخطوة.

وتبقى الحمى الرئاسية الحاصلة في إيران. وهذه في حد ذاتها توجب على المتابع مثل حالنا للتطورات في آخر القلاع الثورية في الأمتين العربية والإسلامية، وقفة تأمل في ما ستسفر عنها النتائج النهائية للإنتخابات الرئاسية التي بدأت في «جمهورية آيات الله» يوم الجمعة الماضي... وعلى وقع صراع غير مألوف بهذه الحدة بين أصحاب العمام من الشيوخ وأصحاب اللحي من العلمانيين المستنيرين لوراثة الحقة الخاتمية التي لم تستقد منها أميركا وإيران على حد سواء.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 21 يونيو (حزيران) 2005

* * *

اليسار المستعرب شهيداً: من عبد

الخالق محجوب.. إلى جورج حاوي

على مدى أربعة عقود من متابعة الشأن السياسي العربي من المحيط إلى الخليج، تسنى لي أن أعرف الكثيرين من أهل اليسار بتنوع أطرافهم السياسية والمذهبية. ولم تكن العلاقة معهم عابرة، ذلك أنها

تحمل تسميته صيغة التساؤل وهي: الحزب الشيوعي السوداني. نحروه أم إنتحر؟ ولقد أن الاوان لكي أسبر أغوار الشتات الماركسي السوداني للإجابة عن هذا السؤال، وخصوصاً بعدما خرج الوريث الشرعي لـ «الخلافة المحجوبة» محمد إبراهيم نقد من مخابئه التي ذهبت مثلاً في دقتها وفي ضرورتها.. أو عدم الضرورة.

إن الكثير من الكلام يمكن قوله في أحوال اليساريين العرب المستعربين، من نوع عبد الخالق محجوب في السودان وجورج حاوي في لبنان وبينهما لطفي الخولي في مصر. لكن استشهاد عبد الخالق شنقاً عام 1971 وإستشهاد جورج حاوي تفجيراً قبل أسبوع، وإستشهاد لطفي الخولي كمدأ وقهراً وإحكاماً قاسية على إجتهداته في شأن الصراع العربي - الإسرائيلي، تجعلنا نستنتج حقيقة أساسية وهي أن لا كرامة لليساري المستعرب في أمته. وإلى ذلك نستنتج أمراً يكمل هذه الحقيقة وهي أن اليساري العربي المستعرب لا يصلح ان يكون في السلطة، وإنما دائم التحليق في أجواء المعارضة ومراقبة اهل السلطة. ودليلنا على ذلك تجربة عبد الخالق في السودان عندما ذهب بعيداً في موضوع النظرة إلى الحكم، فقرر الإستيلاء على السلطة، وبسبب هذه المغامرة ذبحوه وتسببوا بذبح آخرين ساروا في ركابه. وهذا السلوك نأى عنه تماماً جورج حاوي الذي رأى أن السلامة هي في التظاهر وإصدار البيانات ورفع الصوت عالياً، وفي إبتكار الصيغ التي تستهدف التحالفات. ومن أجل ذلك فإن الحزن عليه من جانب عموم الناس، كان يمثل حزن رفاقه عليه. اما تجربة توزيع الماركسي فؤاد مرسي حليف لطفي الخولي في الزمن الساداتي، فكانت بمثابة الحل الوسط، علماً بأن الرجل غدا ساداتياً وكأنما اراد القول، بصفة كونه هو الآخر من اليسار المستعرب المأمون الجانب، لرفاق العقيدة الماركسية: إياكم والتفكير بما هو أكثر من مواكبة الآخرين. وهو أمر إستوعبه تماماً جورج حاوي... ويبدو أن رفيق دربه محسن إبراهيم، سيأخذ به في ضوء الذي جرى لرفيقه المحزون عليه من كل عارفيه، وبمثل حال المحزونين على عبد الخالق محجوب ولطفي الخولي حتى الآن.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 28 يونيو (حزيران) 2005

* * *

بالآخرين الذين أطلوا على أمتنا كمستشرقين، وإنما لأن الثلاثة كانوا نموذجاً لمن لا يرى أي حرج في أن تتقاطع النظرة إلى قضايا الأمة مع نظرة المرجعية الاممية.. أي بما معناه أن خصوصية الثنائية السودانية - المصرية بالنسبة إلى عبد الخالق محجوب، كانت أولاً حتى بعدما إصطدم خروشوف بعبد الناصر، وأن عروبة مصر كانت أولاً بالنسبة إلى لطفي الخولي، عندما إصطدم الرئيس أنور السادات بالقيادة السوفياتية ووصل الإصطدام إلى حد إخراج الخبراء السوفيات من مصر بما يشبه الطرد، وإلغاء المعاهدة التي سبق أن أصر عليها الكرملين، ووضع السادات توقيعها عليها راضياً شكلاً متمتعاً ضمناً.

وبالنسبة إلى جورج حاوي فإن التقاطع في المواقف حدث أكثر من مرة وإن بصمت، ربما لأنه كان يتصرف بالحس العربي أكثر من التصرف بالحس الماركسي. وفي هذا الصدد نجد أوجه الشبه كثيرة بينه وبين عبد الخالق محجوب، وكيف أن هذا الأخير كان ناصرياً عند حدوث العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، بل أن موقفه المتمثل بالتطوع للقتال مع المقاومة المصرية ضد ذلك العدوان سبق الإدانة السوفياتية بكثير من حيث الفاعلية لذلك العدوان. وهذا الأمر نفسه نجده في شخص اليساري المستعرب الآخر جورج حاوي، الذي وجد نفسه صاحب موقف يتقاطع مع الأسلوب المتريث للكرملين، في مسألة العدوان الإسرائيلي على لبنان، ثم في العدوان الدائم على الدول العربية والشعب الفلسطيني.

وحتى في الموضوع الداخلي اللبناني فإن جورج حاوي وجد نفسه يتصرف كيساري مستقيم الرأي، ومرحّب بطروحاته وبالمعادلة التوفيقية التي يسعى إليها. وهو لو كانت له خلية في الجيش اللبناني، مثل تلك الخلية التي كانت للحزب الشيوعي السوداني في الجيش، لكان ربما غامر على نحو ما فعل محجوب متسبباً بمغامرته غير المأمونة العواقب بجراح لليسار السوداني، ما زال كيان الماركسيين السودانيين ينزف من جرائها حتى الآن. وهنا نجد أنفسنا نقول إنه لمن محاسن الأحوال أنه ليس للشيوعيين اللبنانيين خلية في الجيش مماثلة لخلية رفاقهم السودانيين، وإلا لكان هؤلاء اصابهم ما اصاب الرفاق السودانيين الذين تسببوا لحزبهم بحالة سبق لي أن لخصتها بكتاب

«السناتور» سعد...

وسوار الذهب اللبناني..!

سعد الدين الحريري إستطاع في فترة زمنية قصيرة أن ينتقل من رجل أعمال لا تهمة السياسة في شيء وإنما الذي يعنيه هو متابعة مشاريع البناء والأعمال الإستثمارية عموماً، ومن دون ان يضع نفسه في واجهة قائمة المشاهير الذين تلاحقهم العدسات لتكتب عن إنجازاتهم أو عن مغامراتهم أو عن فوزهم بمشاريع عادت عليهم بالوفير من المال. وهو ما كان ليتصور رؤية هذه النقلة في حياته لولا أن والده رفيق الحريري رئيس الحكومة اللبنانية أُغتيل مرتين، مرة على الباراد بالكلام والمماحكات والإتهامات وسوء الظن والحسد والغيرة، ومرة من خلال التفجير المروع الذي هز الوجدان اللبناني، وأيقظ مشاعر تؤخذ طالما كان الرئيس الشهيد يسعى إليها مستنداً في ذلك إلى إتفاق الطائف الذي بدأ منه حياته السياسية والذي من شدة تمسكه به وترجمته الى فعل العيش المشترك عوض التعايش المخادع الذي يمارسه اللبنانيون دفع حياته ثمناً باهظاً. ونتيجة لهذا الإغتيال شاءت الظروف حدوث النقلة التي نشير إليها ووجد سعد الدين الحريري نفسه مضطراً لا مختاراً يبدأ من حيث حدث يوم الرابع عشر من فبراير (شباط) 2005 عندما كان العالم يعيش مناسبة عيد الحب وتعيش أفراد العائلة الحريرية ومعها العائلة اللبنانية عموماً لحظة عاشورائية حزينة. فعندما بايعت عائلة الحريري الابن الثاني لفقيدها رباناً لقيادة السفينة التي تواجه عاصفة لا مثيل لها، كان هنالك نوع من الرهان على هذا الإختيار، ذلك أن سعد الدين الحريري لم يبلغ بعد الأربعين من العمر، ولم يُعرف عنه سوى أنه رجل أعمال ناجح.

وعلى الرغم من أن المال وفير والسمعة طيبة والعمر في عز الشباب و«الكاريزما» ملحوظة والثقافة شاملة والخلق عال والهمة قوية، إلا أن كل ذلك لا يكفي من دون العزيمة وتحدي الصعاب وركوب المركب الخشن للسياسة في بلد إشتهر بحيتان السياسة الذين يستأثرون بالبلد كمصالح ومن دون الترفق بالقضايا ذات البعد الوطني والظروف ذات النسيج الإجتماعي. وهكذا وجد سعد الحريري نفسه يتكئ على الرصيد المثلث الهائل لوالده، الرصيد الوطني والرصيد المالي والرصيد الإستشهادي، إنما من دون أن يتربح

في ديوانه وينتظر الناس يأتونه قوافل قوافل، وإنما قرر أن تكون له شخصية متميزة، أي أن يكون الفتى الذي يقول «ها أنذا» وفي الوقت نفسه «كان أبي» وعلى قاعدة أن خير الأبناء هو من كان باراً بوالديه. ولقد خدمت الإنتخابات النيابية سعد الحريري كونها جاءت توقظ فيه قدرات ما كان يعرفها حتى هو في شخصه. ولولا هذه الإنتخابات لربما إستسلم إلى الحزن الدفين على والده شأن الكثيرين الذين أصابهم تفجير الحريري في الصميم، وكيف أن الاشرار ألحقوا بالوطن أكبر الضرر بذلك الفعل.. وإن كان هذا الضرر أسس لحالة نهوض كان من المستحيل حدوثها من دون تلك الفاجعة حتى إذا تكاثرت القرارات الدولية من نوع القرار 1559 وتراكمت قوانين التحرش من نوع «قانون محاسبة سورية» وتزايدت عمليات تجريد أرصدة بعض رموز النظام السوري في أميركا على نحو ما أعلن رسمياً يوم الخميس الماضي (30 - 6 - 2005) بالنسبة إلى رمزي الوجود السوري المخابراتي في لبنان حتى يوم الإنسحاب اللواء غازي كنعان والعميد رستم غزالي.

طوال أيام التحضير للإنتخابات كان تعاطي سعد الحريري مع الناس لافتاً. قليل الكلام معتمداً المختصر المفيد الذي يوضح النية والخطوط العريضة للبرنامج. لا يفعل حتى عندما تتسع رقعة الإستفزاز له. وعندما يصل الإستفزاز إلى ما يشبه التجني فإنه يلتف على مستفزيه ببرودة أعصاب. ولقد إقترب من الناس ورأوا فيه شباب والده الذين أحبوه بعدما بدأ الرأس يشتعل شيباً. ولمجرد أن حقق فوزه الأول المبهر وباتت العاصمة بيروت في عهده وضمن خطوة متقدمة على صعيد العيش الإسلامي - المسيحي متمثلة بإشراك السيدة صولانج أرملة الشيخ بشير الجميل في اللائحة الحريرية، فإنه عمل على ان يكون ولي أمر المدخل الدولي البري لسورية وولي أمر المدخل الدولي الساحلي ومن هنا فوزه الشمالي المبهر وبحيث ان ما اراده تحقق حيث غدت العاصمة الثانية طرابلس ومنطقة الشمال عموماً حريرية برلمانياً وبدا فوزه هذا يكمل فوزه البقاعي المبهر هو الآخر. وفي الفوزين سقط كل السوري الهوى ليحل محلهم الحريريو التوجه. وكان لافتاً في معركته المزوجة هذه أنه تجاوز عقدة الخوف مما يمكن أن يصيبه فأقام في طرابلس محولاً الفندق العصري الوحيد فيها الى مركز لإقامته التي إستمرت أسبوعاً تعامل فيها مع الشماليين على الطريقة

التي يعتمدها المرشحون لمجلس الشيوخ في الولايات المتحدة التي تخرّج من إحدى جامعاتها.

خلاصة الأمر إن سعد الحريري حقق النصف الأول من عملية الثأر لوالده، وبات لوالده كتلة برلمانية يترأسها هو نيابة عن والده. وبهذه الكتلة استطاع رئيس البرلمان السابق نبيه بري أن يجدد الرئاسة للمرة الرابعة. كما أن سعد الحريري وبهذه الكتلة من النواب التي هي الأكبر في تاريخ الكتل النيابية، عيّن قبل رئيس الجمهورية إميل لحود، الشخص الذي يترأس الحكومة ونعني به وزير المالية السابق فؤاد السنيورة وبدا بذلك على درجة من بُعد النظر مسجلاً حالة جديدة في الحياة السياسية اللبنانية، وهي عزوف من يأتيه المنصب الثاني إليه، أي رئاسة الحكومة، لكنه لحسابات بعيدة النظر يرتأي تعيين من يمثله في هذا المنصب. وهو ببُعد النظر هذا يلتقي مع نجيب ميقاتي رئيس الحكومة الذي كان هو الآخر ظاهرة تشبه في بعض جوانبها ظاهرة الفريق عبد الرحمن سوار الذهب الذي بر بوعده لأهل السودان جيشاً وشعباً فحفظ مقامه وصان سمعته. وظاهرة سوار الذهب اللبناني تستحق وقفة لأنها الوجه الآخر لظاهرة «السناتور سعد».

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 5 يوليو (تموز) 2005

* * *

لمسات تنويرية حريية وشومانية

كانت هنالك أوجه شبه كثيرة بين شيخ الأعمار الرئيس رفيق الحريري، الذي قُضي عليه شهيداً ظهر يوم الإثنين 14 فبراير (شباط) 2005، وبين شيخ العمل المصرفي العربي عبد المجيد شومان الذي لقي وجه ربه راضياً مرضياً فجر الثلاثاء 5 يوليو (تموز) 2005 عن أربعة وتسعين عاماً. فالإحساس العالي بالقضية الوطنية والسخاء المالي، وبصمت على ما من شأنه أن يخدم هذه القضية، فالإثبات شكلاً ظاهرة في العالم العربي على صعيد التنوير والتطوير. وإذا كان الحريري رأى بعد مسيرة نجاح مالي أن أي برنامج للتطوير والإعمار والترميم لا يمكن أن يأخذ مداه الربح من دون الإتكاء على العمل السياسي، ومن أجل ذلك خاض هذا الغمار ودفع حياته ثمناً،

فبعد المجيد شومان إرتأى البقاء في الظل السياسي من ناحية الواجب الوطني، مع حضور دائم وإلى درجة التأهب للقيام بأدوار التوفيق في الأزمات الطارئة، وما أكثرها بين أطراف النضال الفلسطيني، من دون تغليب فصيل على فصيل وبين هذه الأطراف والبلاط الهاشمي، وهي أزمات كانت تتشعب فجأة ويكون «الاسعاف السياسي» متمثلاً بمجموعة من حكماء القضية الفلسطينية، الذين نسجوا علاقات عربية وإسلامية ودولية كثيرة التميز، حاضراً للتدخل من أجل فض نزاع سياسي عاصف أو تحقيق توفيق متعثر بين أبو عمار وبعض قادة الفصائل الفلسطينية، أو بين أبو عمار والملك حسين الذي كان مصغياً باهتمام إلى عبد المجيد شومان الذي إما كان ينصح أو يتمنى. وعندما يقرر الملك عبد الله الثاني دفن عبد المجيد شومان في المقابر الملكية، فإنه يفعل ذلك من منطلق هذه الحقيقة التي نشير إليها عن الرجل الذي يتجاوز دوره الأردني الإنجاز المصرفي، الذي جعل من عمان منارة مصرفية، ويكون دوره التوفيق بين الأردن الملاذ وفلسطين القضية من الأدوار البارزة في تاريخ المملكة الحافل بالصراعات والتحديات.

وبصرف النظر عما اذا كانت هذه المبادرة من جانب الملك عبد الله من وحي نظرة والده إلى الظاهرة الشومانية، أو أنها إجتهد محمود من جانبه أراد منه القول ما معناه أن مثل هكذا رجل ظاهرة يوارى الثرى إما في رحاب المسجد الأقصى، وهذا مستحيل بسبب شارون، وعلى نحو موارد الشهيد الرجل الظاهرة الأخرى رفيق الحريري الثري في رحاب «مسجد محمد الأمين» في قلب الوسط التجاري في العاصمة اللبنانية بيروت، أو في المقابر الملكية غير بعيد ضريحه عن ضريح الملك حسين، الذي طالما كان يعتز بالظاهرة الشومانية بدءاً من الأب عبد الحميد تواملاً مع الإبن عبد المجيد، الذي استطاع في سبع وعشرين سنة ترأس فيها المصرف الذي أسسه والده عبد الحميد في القدس عام 1930، يوم كانت المدينة التي يتوق إلى زيارتها أهل النخبة العربية، جعل العمل المصرفي صناعة وليس مجرد توظيف أموال تتسابق المصارف إلى من يعطي النسبة الأكبر من الفائدة على الإيداعات. بل قد يجوز الافتراض أن عبد الله الثاني رأى في عبد المجيد شومان أو الـ «شومان الثاني» ما سبق أن رآه جده الملك عبد الله ثم والده الحسين في الـ «شومان الأول» عبد الحميد، من انه «ملك العمل

التشكيلي أو ذاك، لأن رجل دولة مثل رفيق الحريري أوصل لوحاته إلى بيوت ومكاتب شخصيات عربية أو عالمية، هذا إلى جانب تنشيط عزيمة الرسم والتخفيف من المعاناة. كما للمرء أن يتصور أي طمأنينة تغمر نفس هذا المؤلف أو ذاك، لأن رمز تصنيع العمل المصرفي العربي عبد المجيد شومان كان إلى جانب الاهتمام بالمحافظة على ما أسسه والده وتطويره نحو الأحسن، مشغول البال بالهم الفلسطيني - الفلسطيني، والفلسطيني - الأردني، وبأن تكون في الوقت نفسه هنالك نافذة يطل منها على الشأن الفكري التألفي، فيتعامل مع هذا الشأن بالأريحية الشبيهة بأريحية رفيق الحريري مع الفنانين التشكيليين. وعلى هذا الأساس فإن الدنيا لبعض رموز النجاح في ميدان المال والأعمال ليست فقط بالضرورة أرقاماً ومشاريع وفروعا، وإنما هي لمسات ذات بُعد حضاري وتوحيدي. رحم الله الإثنين وألهم السلالة الخلف الوارثة السير على خطى السلالة السلف.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 12 يوليو (تموز) 2005

* * *

تأملات وجدانية: في الخميس الأسود و«الباص» الأحمر

لـ «الباص» الأحمر اللون بطبقتيه وتميزه عن سائر «باصات» العالم مكانة في ذاكرة من يدخل لندن بسلام آمناً، أو من تقرر عليه وطأة الظروف في الديار العربية من المحيط إلى الخليج العيش في هذه المدينة التي لا مثيل للحنان الذي تضيفه على كرامة الذي يحترم الأصول، وعلى صحته وعلى سلامته، وتُبعد عنه هواجس الخوف على مستقبل أبنائه إذا هو أجاد التربية والنصح.

ولـ «الأندر غراوند» المبرمج بحيث يصل ركابه إلى أعمالهم في الوقت المناسب، وإلى الشوارع التي تصطف على جانبيها المحلات والمراكز التجارية على أنواعها، ومن وإلى المطارات اللندنية مع مراعاة لما في الجيب، مكانة هو الآخر في ذاكرة من يزور ومن يغادر ومن ينتقل من منطقة إلى منطقة.

ولقد أدخل الآباء والأمهات البهجة إلى الأبناء والأحفاد عندما كانوا يتنقلون بـ «الباص» الأحمر

المصرفي»، وعلى هذا الأساس فإن مواراته في المقابر الملكية هو نوع من التكريم الممزوج بالجدارة والأحقية. وكما رفيق الحريري حتى ما قبل إستشهاده كان حريصاً على أمر لا يعرفه الكثيرون عنه، فإن عبد المجيد شومان بقي هو الآخر حتى ما قبل رحيله عن عمر مديد حريصاً على أمر مماثل. بالنسبة إلى الحريري كان الرجل يرى إستنهاض همم الرسامين التشكيليين، وذلك من خلال شراء لوحات منهم يزين ببعضها بيوته ومكاتبه، ويهدي زواره من الشخصيات العربية والأجنبية، وكذلك الذين يقوم هو بزيارتهم في العواصم الدولية من هذه اللوحات. وحيث أن زوار الحريري كثيرون، وكذلك الذين يزورهم فإن كمية اللوحات لرسامين تشكيليين التي أهداها كانت كثيرة. وحرصاً منه على مشاعر هؤلاء الرسامين فإنه كان يتصل بهم شخصياً ليسألهم عن الجديد لديهم، وعندما يأتي الجواب بأن هنالك على سبيل المثال خمسة أعمال جديدة، فإنه يقول للفنان: سيأتيك من يحمل إليّ اللوحات لأختار منها واحدة أهديا لأحد الشخصيات خلال زيارتي إلى هذه الدولة أو تلك. ثم يتصل هو أيضاً ليقول للرسام ما معناه انه رأى أن كل الأعمال جيدة وتستحق أن تُهدى وأنه لذلك سيحتفظ بها. وبهذا الأسلوب يدعم الرسام المبدع محافظاً في الوقت نفسه على كبريائه، وينقل الأعمال التشكيلية ذات الجودة بالطبع إلى أصدقائه من شخصيات عربية وأجنبية، يعلقون اللوحات في منازلهم أو مكاتبهم. وما لا يعرفه كثيرون هو أنه كان في صدد خطة طموحة ينتقل فيها الإبداع الفني اللبناني على صعيد الرسم والنحت من المعاناة، إلى النهوض المماثل لحالات نهوض حدثت في الزمن الغابر في فرنسا وإيطاليا.

أما بالنسبة إلى عبد المجيد شومان فإنه كان وفي الإطار نفسه شديد الحرص على الأعمال التأليفية الجدية. وكثيراً ما كان وبمراعاة ملحوظة لمشاعر هذا المؤلف أو ذاك، يطلب وبطريقة غير مباشرة، وأحياناً مباشرة، إرسال مؤلفه الجديد إلى الأشخاص الواردة اسمائهم في قائمة يبعث بها اليه، وتتولى الإدارة الحسابية تسديد ثمن هذه المؤلفات. وفي مجلسه كان لا يخفي أحياناً أنه إقتبس هذه الطريقة من صديقه رجل الأعمال الفلسطيني حسيب صباغ، الذي هو الآخر ينتمي إلى «مجموعة الحكماء الفلسطينيين» الذين أشرنا إليهم.

وللمرء أن يتصور أي سعادة تغمر نفس هذا الفنان

و«الأندر غراوند». وتزايدت البهجة إتساعاً مع شرائها في شكل نموذج مصغر، يأخذ مكانه في صدارة مقتنيات الذكريات الجميلة. وكم من مرة كان الأب يسأل طفله، أي هدية تريد من لندن، ويأتي الجواب بأنه يريد «الباص» الأحمر و«الأندرغراوند». وحتى من دون السؤال والجواب فإن هذه الهدية تتقدم على غيرها من الهدايا.

ومن دون أن يتعمد المرء افتعال مشاعر، فإن هذا «الباص» وذاك «الأندر غراوند» يتحول في نظر الذي يعيش في لندن طويلاً إلى حالة يشعر فيها المرء أن هاتين الوسيلتين ليستا مجرد قضاء حاجة للنقل، وإنما هما مثل البيت. ولذا فإن أهميتهما تصل إلى مرتبة الشعور بملكية معنوية لـ «الباص» أو «الأندر غراوند».

ومن هنا فإن الذي يصيب المرء وهو يسمع ويرى ما حدث في الخميس اللندني الأسود (2005/7/7)، ليس مجرد دهشة أو مجرد غضب، وإنما بأن جزءاً من ذكرياته الجميلة أصابه التهشم وعلى نحو تهشم لوحة أو مزهية جميلة. بل يشعر بأنه غداً مستهدف من خلال تقجير ذلك «الباص» الأحمر، وبأن الصغار الذين يقتنون «الباصات» الرمزية الصغيرة سيشعرون بأن هنالك من يريد سرقة أحلامهم من خلال التقجير، وإن الذي أصاب الذين في «الباص» الأحمر بالقرب من «راسل سكوير»، كان يمكن أن يصيبهم وعلى هذا الأساس فإنهم مستهدفون. ولو أن الذين وضعوا المتفجرات أدركوا أي حالة حزن سيعيشها الصغار من أخوة وأخوات وأبناء وبنات عاشوا متعة الانتقال من البيت إلى المدرسة، أو إلى إحدى حدائق لندن المترامية الإخضرار على مدار السنة، أو إلى التسوق مع الأهل لأنهم رأوا فجأة المشهد المروع، لما كانوا تجرأوا على الفتك بهذا الرمز الجميل وبذلك الأرواح البريئة. ولكن هؤلاء لم يدركوا وتناثروا اللحظات الجميلة من طفولتهم وإقترفوا الذنب الذي لا يغفره الله والرسول. ففي «الباص» الأحمر كان هنالك ربما بعض رفاق المدرسة التي تلقوا فيها العلم مجاناً على نفقة الحكومة، وفي «الأندر غراوند» كان هنالك ربما بعض المدرسين والمدرسات الذين علموهم وربما بعض الأطباء الذين عالجوا صحتهم على نفقة الحكومة وأمدوهم بالدواء والمقويات التي تمنع الهزال من الفتك بأجسادهم، وربما بعض الممرضات اللواتي سهرن في المستشفى الحكومي الذي لا يقل باباً في وجه مصاب غير

مشترب كما الحال في الكثير من ديار العالم الثالث، دفع مبلغ غير موجود أصلاً، وربما كان هنالك بعض الأهل والأقارب ذلك أن لندن شأنها شأن كل المدن والبلدان الريفية البريطانية فاتحة الأذرع في إستمرار للجميع يعملون وينشطون ويتظاهرون، ويتتقنون ويعوضون الحرمان الذي طالما قاساه الآباء والأجداد في البلد الأصلي. وبالأهمية نفسها للإحتمالات التي أوردناها ربما كان في «الباص» الأحمر أو في «الأندر غراوند» بعض رجال الشرطة الذين يسهرون على راحة الجميع من دون إستثناء أو تمييز بين أبيض وأسود وبين أشقر وأصفر، ذلك أنه بموجب الناموس البريطاني لا فضل لبريطاني على الآخرين، إلا بمراعاة الأصول وإحترام القوانين وعدم التهرب من الضرائب. وبالأهمية نفسها أيضاً ربما كان في «الباص» الأحمر أو في «الأندر غراوند» المئات من المتوجهين إلى المطار أو العائدين منه على خط «البيكاديلي»، وربما أيضاً بعض الموظفين العاملين في إدارة منح الجوازات البريطانية لغير أبناء المملكة المتحدة، ومن دون التأفف من أن حامل الجواز الممنوح من ملكة البلاد إليزابيث الثانية هو من أي من بلاد الدنيا بجهاتها الأربع. فنحن هنا في بريطانيا عاصمة شعوب العالم المغلوب على أمره وتحت شعار أهلاً بكم في وطنكم الثاني. ونحن هنا لا نتحدث عن حالات الإقامة كلاجئين سياسيين، وإنما عن الذين يصبحون خلال أربع سنوات من الإقامة الصالحة يحملون جواز السفر البريطاني الذي يغنيهم عن إهانات لا حصر لها.

لن نضيف المزيد من التأملات الوجدانية، الواقعية في الوقت نفسه، فهي كثيرة. ولكن الذي نستخلصه منها أمرين. الأول هو أن دور الأسرة الوافدة هو ترسيخ أهمية إحترام الحقوق التي للوطن الثاني في نفوس الأبناء الذين ينشأون في هذا الوطن أو يولدون فيه، وليس فقط إعتبار منافع المواطنة الثانية هي كل شيء. وعندما يترسخ إحترام هذه الحقوق في النفوس، لا يعود هذا الفتى أو ذاك يقتنع بأن النعيم الحقيقي ليس في «ليدز» أو «لندن»، وأن الموكب الملائكي سيزفه إلى «الخور العين» اللواتي ينتظره في رحاب رب العالمين، ومن دون الإلتزام بشرعية الزواج من أربع وتجاوز مسألة عدم العدل بينهما.. إنما مقابل أن يفجر نفسه داخل «الباص» الأحمر أو في محطة القطارات أو حتى داخل عربة من عربات «الأندر

غراوند» ومن دون أن يستوقفه أن هنالك أرواحاً حَرَمَ الله والأفيان والأنبياء قتلها. أما الأمر الثاني فهو أن العلاج النفسي للمسألة من جانب الحكومة البريطانية، والمشهود ببراعته للأخصائيين الإنجليز في الطب النفسي، هو المطلوب وقبل العلاج الإنفعالي وفورة الغضب، علماً بأن هذا الغضب مشروع، ولكن محاذيره كثيرة ما دامت حلقات غسل الأدمغة في باكستان وغيرها باقت على الإزدهار الذي نلاحظه، وبات فتية الجيل الجديد مستعدين لإستيعاب موجبات العمليات الإنتحارية، أكثر من توقعهم إلى رياضة «الكريكت» في ملاعب كراتشي وإسلام آباد ولندن وسائر بقاع الريف البريطاني.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 19 يوليو (تموز) 2005

* * *

الرئاسات العربية... بين الزهد والتعمير

تحدث بين عقد وآخر في مجتمعات الحكم في العالم العربي مفاجآت من النوع الذي يبعث الطمأنينة في نفوس الرعية التي لا تجد إجابة عن السر في أن بعض الذين يصلون إلى الحكم يتسمرون فيه ولا يعطون فرصة لغيرهم.

من هذه المفاجآت ما حدث ذات يوم في السودان عندما إنقلب البلد على رئيسه جعفر نميري، الذي كان يتحادث ويتداول في واشنطن وأنيطت السلطة بثنائي عسكري - مدني هو الفريق أول عبد الرحمن سوار الذهب والطبيب المتقاعد عن العمل السياسي الجزولي دفع الله. وعندما تعهد هذا الثنائي بتسليم الوديعة إلى الأحزاب بعد فترة إنتقالية لا تتجاوز السنة الواحدة، فإن الأمر بدا كما لو أنه نكتة إذ كيف سيسلم السلطة جنرال، وسمعة الجنرالات في موضوع الحكم تشير إلى أنهم يخوضون إنتخابات من أجل الحصول عليه. ولكن الذي حدث مع إنتهاء اليوم الأخير من المدة المحددة هو أن سوار الذهب قال لزعماء الأحزاب السودانية ما معناه أن الشعب ترك في عهدي أمانة وها أنا أعيدها إليكم. ومن شدة الدهشة التي أصابتهم فإنهم لم يترثوا في تسلّم الأمانة وجاءت مسارعته، ومن دون القول: ولماذا هذا الإستعجال، منطلق الشك في أن الفريق أول سوار الذهب قد يكون من المناورين.

لكن الرجل كان عند كلمته. وفي تقديري أنه إستعجل، وإن إبقاء الأمانة في عهده سنة أخرى أو أكثر، ما دام أثبت أنه على درجة من النزاهة وليس طالب سلطة كان سيفيد السودان أكثر. ونقول ذلك على أساس أن المرحلة التي تلت تسليم السلطة إلى الأحزاب كانت حافلة بصراعات وتناقضات أين منها تلك التي إشتهر بها لبنان والتي بلغت الذروة في هذه الأيام.

لم يخسر سوار الذهب شيئاً، ذلك أنه إتخذ قراره عن إقتناع، وأراد في الوقت نفسه دحض الإنطباع الذي ساد لبعض الوقت في المجتمع السياسي السوداني، وهو أن رئيس البلاد وثق به وأنه لم يلتزم بالقسم الذي أداه وأنه تصرف تصرف الإنتهازيين وكل ذلك من أجل أن يصبح رئيساً للسودان على أساس أن نميري ليس أفضل من سوار الذهب. وهذا الظن يتعب ضمير السوداني عموماً، وإتضح بعدما إنصرف سوار الذهب إلى الإهتمامات الدينية والعمل في إطار مؤسسات إسلامية، أن الرجل أراد إسقاط هذه الظنون من تفكير بني قومه وجاء رد الأمانة إلى الأحزاب، كمن يريد القول إنني لم أرتكب فعل الإخلال بالثقة ولم أقدم على الخطوة الإنتقالية على رئيس البلاد الموجود خارج البلاد من أجل أن أجلس مكانه، وإنما الذي فعلته كان قراءة من جانبي لما يريده الرأي العام.

والقول بأن سوار الذهب لم يخسر إنما هي حقيقة يؤكدها كلام الناس في إستمرار داخل السودان وخارجه، عن هذا الجنرال الذي أراد أن يكون حالة إستثنائية في المجتمع العسكري الإنتقالي، وبحيث يؤكد لبني قومه أن الحكم ليس بالضرورة أن يؤخذ غالباً، وأن التخلي عنه يمكن أن يتم بالرضا ومن دون دبابة تحتل الإذاعة لتذيع البلاغ رقم واحد... الخ. وبالمقارنة مع السيرة غير العطرة لبعض الجنرالات العرب فإن سيرة سوار الذهب هي موضع الاحترام. وتتساوى من حيث الإحترام مع سيرة جنرال آخر هو فؤاد شهاب الذي تأمنت له كل مستلزمات تجديد الرئاسة، لكنه عفّ وإرتضى أن يقال عنه في صفحة تاريخ الجنرالات العرب الذين وصلوا إلى الحكم أن التسمر فيه ليس أمراً مستحباً بل انه ليس ضرورياً على الإطلاق.

وعندما إلتقت الآراء والتشاور بين أطراف عربية ودولية على أن يتولى نجيب ميقاتي رئاسة حكومة تُجري الإنتخابات النيابية للبنان المثخن بكل أنواع الجراح، فإن الرجل فاجأ بني قومه بالتعهد أن حكومته

الساحة اليمنية كانت حتى مفاجأة الرئيس هادئة ثم جاءت الإضطرابات الناشئة عن رفع أسعار الوقود، ويمثل إضطرابات الأردن وتونس ومصر من قبل إحتجاجاً على رفع أسعار الخبز تغطي على إيجابيات تلك المفاجأة السارة.

ما الذي سيحدث يمينياً وعربياً حتى سبتمبر 2006؟

سيكون هنالك ترقب ورصد لمعرفة ما إذا كان الرئيس علي عبدالله صالح سئم بالفعل تكاليف السلطة، أم أن مقتضيات تحضير التوريث هي التي إستوجبت مثل هذه المفاجأة. وهذا الترقب ناشئ عن الشك في أن السودانين أمضوا سنة كاملة في حالة إنتظار للتأكد من ان الفريق أول عبد الرحمن سوار الذهب سيرد الوديعة إلى بني قومه، وأن اللبنانيين أمضوا بضعة أسابيع كأنها الدهر للتأكد من أن نجيب ميقاتي سيكون عند حسن التعهد بأنه لن يرشح نفسه للإنتخابات. وحال اليمني من حال الآخرين.

وأما في مصر التي حالها من حيث الرئاسة المعمرة مثل حال ليبيا وقريبة من حال تونس، فإن المسألة محسومة حيث ان الرئيس حسني مبارك على موعد مع ولاية رئاسية جديدة في سبتمبر المقبل... وبعدها يأتي التعهد على نحو ما فعل الرئيس علي عبدالله صالح.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 28 يوليو (تموز) 2005

الأب والإبن... والكيان

بين العام 1953 والعام 2005 ها هو التاريخ يعيد نفسه ويحدث للإبن ما حدث قبل 52 سنة للأب. وعلى نحو ما كانت عليه الأيام الأخيرة لوالده الملك عبد العزيز الذي رحل صباح يوم الإثنين 9 نوفمبر (تشرين الثاني) 1953 تاركاً كياناً موحداً وعلى خير ما يكون عليه التوحد في حال أن جيل الأبناء سيسهر ويحمي ويصون التراث، جاءت الأيام الأخيرة للملك فهد الذي رحل صباح يوم الإثنين أيضاً، كما والده، الأول من أغسطس (آب) 2005.

وحتى في الظروف الصحية كان هنالك ما يستوقف المتابع لمسيرة الأب الذي وجد والإبن الذي شاءت

ستحقق إنتخابات حرة ونزيهة. وتأكيداً منه لهذا التعهد قال إنه لن يرشح نفسه للإنتخابات. وإستقبل القوم هذا التعهد بالكثير من علامات الإستفهام والتعجب، ذلك ان ميقاتي رجل اعمال مقتدر مالياً ولا خوف عليه من السقوط في الإنتخابات إن هو خاض غمارها. وبقي اللبنانيون في حال من الترقب إلى حين تم تحديد مواعيد الإنتخابات ولم يرشح ميقاتي نفسه. وكان الرجل عند تعهده وخسر المقعد البرلماني كونه لم يشارك لكنه ربح إحترام الناس حيث أن الحديث حوله هو عن رجل سياسة وعد وصدق. ولم تقتصر الخسارة على المقعد النيابي وإنما شملت إمكانية أن يكون هو رئيس مرحلة ما بعد الإنتخابات، ما دام حقق هذا الرصيد العالي من ثقة الناس به. لكن المعادلة العربية - الدولية أوجبت أن تكون حكومة برلمان 2005 برئاسة من هو حريري مائة في المائة مثل فؤاد السنيورة وليس مجرد متعاطف مع قضية الحريري ونهجه مثل نجيب ميقاتي.

كانت حالة سوار الذهب وحالة نجيب ميقاتي من النوع العابر، أي بما معناه أن الإثنين لم يستمتعا كفاية بالسلطة ومن أجل ذلك فإن الاستغناء عنها يتسبب في خدوش نفسية وليس في جراح عميقة مثل التي تصيب من يبقون طويلاً في الحكم وإلى درجة

يصبح هؤلاء من فئة المعمرين رئاسياً. وجاءت المفاجأة اليمنية مكتملة في إعلان الرئيس علي عبدالله صالح يوم الاحد 17 يوليو (تموز) 2005 تطرح إمكانية حدوث حالة جديدة على صعيد الزهد في الحكم، وإن كان هذا الزهد بالنسبة إلى الرئيس اليمني الذي مضى على ترؤسه البلاد 27 سنة يبدو نوعاً من السأم من تكاليف السلطة، على نحو السأم من تكاليف العمر. فقد أعلن الرئيس علي عبدالله صالح أنه لن يرشح نفسه إلى ولاية رئاسية جديدة تُجرى إنتخاباتها في سبتمبر (أيلول) 2006 موضحاً حيثية هذا القرار بالقول: «نريد أن نؤسس نموذجاً للتداول السلمي للسلطة في اليمن ونربي أنفسنا وأجيالنا على مبدأ التداول، فقد ملّ الناس الزعامات الباقية طوال عمرها على كرسي الحكم».

وهذه المفاجأة من جانب رئيس عربي ما زال أفتى من آخرين تبعث على التقدير، فهي لم تأت رداً على «كفاية» يمنية حاشدة من نوع «كفاية» المصريين. وبإستثناء بعض الهمهمات الصادرة عن معارضين تقليديين وتحت شعار «لا للتמיד... لا للتوريث» فإن

من شأن. كما يرحل من دون أن يرضخ للإرهاب الذي إستشرى رداً على رفض المملكة التطبيع وتجاوز ما لا مجال لتجاوزه وفقاً لوصية الملك الوالد محدداً ما رآه ولي عهده عبد الله، الذي كان امثولة في الأمانة، سقفاً للنزال السياسي في الموضوع الفلسطيني والصراع العربي - الإسرائيلي، ونعني بذلك ما بات يُعرف بـ «المبادرة العربية» التي أقرتها بالإجماع القمة الدورية الثانية في بيروت عام 2002 ونقول السقف بمعنى أنه لا مجال لإختراقه كونه المظلة التي تحمي قضية الأمتين. وأما ذروة تسجيل الوقفة التي تتسم بالنخوة فتتمثل في جمع اللبنانيين على كلمة سواء وبعد مداولات رموز الشرعية خلال مؤتمر أراد الملك فهد مكاناً لإعقاده مدينة الطائف التي كانت آخر بقعة عاش فيها الملك عبد العزيز قبل أن يختاره المولى سبحانه وتعالى إلى جواره.

وخلاصة القول إن يوم الإثنين 9 نوفمبر (تشرين الثاني) 1953 يوم وفاة الملك عبد العزيز، والإثنين 1 أغسطس (آب) 2005 يوم وفاة الملك فهد بن عبد العزيز، سيبقيان في الذاكرة العربية يومين تاريخيين كونهما أكداً مقولة «التاريخ يعيد نفسه» أفضل تأكيد. فكما الأب الملك عبد العزيز كذلك الابن فهد بن عبد العزيز علامتان مضيئتان في الكيان الراسخ.. مملكة العرب والمسلمين.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 2 أغسطس 2005

السودان: تأملات في المشهد العاصف

يصعب تفسير قيام الدكتور جون قرنق بزيارة إلى بلد مجاور بعدما غدا في المنصب الثاني للسودان في المرحلة الإنتقالية من دون أن تكون الحكومة على معرفة بهذه الزيارة حتى إذا كانت مجرد زيارة شخصية. نقول ذلك ونحن نتأمل في المشهد السوداني العاصف الذي يبعث على القلق بدءاً من حادثة «الهليكوبتر» التي قضى فيها النائب الأول للرئيس السوداني يوم الاثنين 1-8-2005 مروراً بعاصفة العنف التي ضربت العاصمة المثلة (الخرطوم) وصولاً إلى مرحلة التشكيك بظروف الحادث والتوجه نحو قيام لجنة تحقيق دولية أو إقليمية تحسم الشك وتحدد السبب في

الظروف أن يكون دائم اليقظة وعلى خط الدفاع الأول عن الكيان الذي تزايدت الرهانات الإقليمية والدولية على صلابته. فكما أن الملك عبد العزيز رفض العلاج بعد الذبحة القلبية التي أصابته فيما كان يؤدي الصلاة في مسجد في الطائف تسببت بدوار بين الحين والآخر أوجب إستقدام طبيب من فرنسا أوصى بنقل الملك من الطائف إلى مكان منخفض أو إلى خارج المملكة لكن الملك رفض مردداً أمام أبنائه والأطباء المحيطين به «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، فإن الملك فهد كان يرى الأمر نفسه منذ أن أصابه التوعك قبل عشر سنين بمعنى رفض الإنتقال إلى الخارج للعلاج. ومثلما أن المرض بدأ يأخذ من همة الملك عبد العزيز وهو في السبعين من العمر لكنه يتحمل ما لا يتحمله انسان لكي يطمئن إلى سلاسة الصيغة التي أرادها بعد شعوره بدنو الأجل ومنها تأليف مجلس وزراء أصدر لأجله مرسوماً ملكياً يوم السبت 10 أكتوبر (تشرين الأول) 1953، فإن الإعتلال الصحي بدأ لدى الملك فهد في السن المقاربة لبدئه لدى والده الملك عبد العزيز. ومن هنا التشابه في القلق على الصيغة الأخرى التي إرتأها وقضت بأن يتحمل وطأة الوضع الصحي عشر سنين بغرض أن يطمئن على السلاسة التي على أساسها يتحمل ولي العهد الأمير عبدالله مسؤوليات الحكم. وعندما نتأمل في السلوك الرسمي والشعبي في المملكة طوال هذه السنوات وكيف أن الصيغة لم تتعرض إلى أي خلل يتأكد لنا أن الحفاظ على الكيان وإستمرارية التوحد لا تكون فقط بالسيف وإنما بالسلوك الذي أسقط رهانات كثيرة. وبدا هذا السلوك من الملك سعود إلى الملك فيصل إلى الملك خالد وصولاً إلى الملك فهد وتواصلاً مع خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبد العزيز أن الوصية أكثر منها كلمة السر أو مفتاح الحفاظ على السلطة. ولأنها وصية فإنها موضع الأخذ بها كونها تصد الأذى.

بعد 23 سنة يرحل الابن الملك فهد تاركاً بصماته على أكثر من ثلاثة عقود من ممارسة الحكم بإقتدار، عندما كان ولياً للعهد رصيده الأساسي وزارة المعارف ونشر العلم وإنشاء الوف المدارس وعشرات الجامعات وتوسعة لا تتوقف للباق المقدسة في مكة والمدينة. ويرحل وقد أبقى على المملكة آخر قلعة من قلاع الصمود العربي في وجه المغامرات السياسية ومحاولات بعثرة السیادات والکیانات، على ما هي عليه

سقوط الطائرة.. وهكذا يكون العالم في حالة ترقب للنتائج التي تتوصل اليها لجنتان هما: لجنة التحقيق التي تواصل مهمتها للوقوف على جريمة إغتيال رئيس الحكومة اللبنانية السابق رفيق الحريري، واللجنة المزمع تشكيلها لتوضيح طبيعة حادثة سقوط طائرة «الهليكوبتر» الرئاسية الأوغندية التي قضى فيها الدكتور قرنق. ونحن عندما نقول إن العالم يترقب فلأن الشخصيتين المغيبتين (رفيق الحريري وجون قرنق) لهما إمتدادات دولية. وإذا كانت دواعي الإهتمام بكل منهما تختلف عن الأخرى إلا أن الإثنين هما في الصفحة الأولى من الأجندة الدولية ودليلنا على ذلك كيف تعامل العالم وبالدرجة الأولى الإدارة الأميركية مع الفاجعة الحريرية، وكيف يتصرف العالم والإدارة البوشية نفسها مع واقعة الغياب المفاجئ للدكتور قرنق أو التغيب بمعنى التصريف.

كان لافتاً للإنتباه، بل وموضع الإستغراب الشديد، أن رئيس الدولة عمر البشير لا يعرف أن نائبه الأول في زيارة إلى رئيس دولة أخرى هو يويري موسيفيني ولا يدري إن هو إحتاج إليه لأمر طارئ كيف يعثر عليه. كما كان محرجاً أشد الإحراج للرئيس البشير أن يعرف من الرئيس اليوغندي أن النائب الأول (قرنق) كان في ضيافته في مزرعته (أي مزرعة الرئيس موسيفيني) وأنه قَلَبَ عليه بعدما بلغه أن الطائرة الخاصة به التي وضعها في تصرف قرنق لكي تنقله عائداً إلى الجنوب غير مرئية على شاشة المراقبة، الأمر الذي يعني أنها قد تكون تعرضت لمكروه.

بالقدر نفسه من الإستغراب ننظر إلى التداعيات التي نشأت عن الحادث وكيف أن الجنوبيين إنتشروا فجأة في بعض شوارع الخرطوم وأحيائها وأمعنوا تخريباً في منشأتها وقتلاً لأشخاص عاديين لمجرد أنهم شماليون. وكان من الجائز إعتبار هذه الهجمة الجنوبية أنها وليدة الصدمة الناشئة عن فقدانهم زعيمهم وسندهم الذي سيحقق لهم مكاسب من عملية السلام لن يحلموا بالحصول عليها ولو بعد نصف قرن من القتال، لو أنهم لم يخرجوا إلى الشماليين منتقمين حاملين ما أمكنهم حمله من سلاح أبيض خفيف يراوح بين السكاكين والعصي. ولكن طبيعة هذه الهجمة تركت إنطباعاتاً بأن هنالك بعض النفوس الأمارة بالسوء وأن السلام في السودان يحتاج إلى توعية وتربية كي لا تترسخ النظرة التي ترى أن الشماليين والجنوبيين شعبان في بلد واحد مؤقتاً وأنهما مستقبلاً إلى إنفصال

وبحيث تصبح للجنوبي دولته وللشمالي دولته.

والذي جعل الهجمة تحدث بالإيقاع السريع الذي حدثت فيه هو أن السلام الذي تحققت خطواته الأولى كان على مستوى القمة ومن دون توعية القاعدة وبالذات أولئك الذين كانوا منذ خوض مساعي التسوية بدأوا بتعزيز وجودهم في العاصمة المثثة مستندين في ذلك إلى أن التسوية آتية لا ريب فيها وأنها تستوجب منهم الوجود المكثف في العاصمة بحيث تكون شمالية - جنوبية وليست فقط عاصمة الشماليين.

ومع الإقرار بسرعة إشتعال مشاعر الجنوبيين لأن ظروف الحياة وقسوة التخلف وحيرة الإنتماء الديني وطبيعة العيش في الغابة تختلف عن ظروف الموابكين للتطور والمستقرين ثقافة وعيشاً وعقيدة دينية، إلا أن حملة تأهيل لمرحلة السلام كان يجب أن تواكب المحادثات وهو ما لم يتنبه إليه قادة حركة قرنق التي عبأت الناس في إتجاه أن الحركة هي شعبية وأنها لـ «تحرير السودان» بينما إنتهت المحادثات الشاقة والإتفاق على التسوية إلى أن المسألة ليست هكذا وأنه تبعاً لذلك من الضروري تحرير نفوس الجماهير الجنوبية من بعض الأوهام وليس تحرير السودان. ونجد أنفسنا هنا نلوم بعض إخواننا الشماليين الذين شكلوا حلقة إصطفاف دائري حول الدكتور قرنق أمثال الدكتور منصور خالد ذلك أن إساءة بعض النصح من جانبه كان سيفيد بالنسبة إلى ما نشير إليه.

وإشتعال مشاعر الجنوبيين اصلاً ليست جديدة على الذين يتابعون الشأن السوداني مثل حالنا. وننتذكر مثل كثيرين واقعة «السبت الدامي» عام 1964 وكيف أن إشاعة عن حادثة لوزير الداخلية كليمنت امبورو وإعتداء إثنين من الجنوبيين على بعض الشماليين، تسببت في مجزرة دفع ثمنها الباهظ الجنوبيون.. الذين كأنهم يردون بما فعلوه في بعض شوارع وأحياء الخرطوم بعد الذي بلغهم في شأن فقدان زعيمهم جون قرنق على تلك المجزرة، فضلاً عن الرغبة في التأكيد على أن الخرطوم غدت للجنوبي بقدر ما هي للشمالي. ولولا أن البوليس السوداني الذي تدخّل يوم الثلاثاء (2-8-2005) لردع الجنوبيين لكانت مجزرة على النمط العراقي حدثت لكن الذي أبعد إحتمال حدوثها هو أن البوليس بذل جهداً مضاعفاً بعد ذلك (الأربعاء والخميس) لردع الشماليين.

ونجد أنفسنا هنا لا نبرئ أطرافاً شمالية متضررة من إتفاق السلام الذي تحقّق. فهذه الاطراف غدت

الفوضى التي حدثت من خلال ضخ المزيد من الإشاعات عبر الهواتف النقالة. كما أن أطرافاً جنوبية مصابة بحالة جشع، بمعنى أنها تريد من المكاسب أكثر مما حصلت عليه، لجأت إلى الهواتف النقالة لتضخ بدورها التعليمات. وهكذا وجدت العاصمة المثالثة نفسها على مدى خمسين ساعة تحت رحمة فوضى تغذيها الهواتف النقالة وكما لو أن هذه الهواتف هي غرفة عمليات الفوضى المبرمجة.

وسط هذه الاجواء التي خفف بعض عقلاء القوم من سلاطين في الجنوب وحكام في الشمال بالكلام الطيب من سعيير نار الفوضى التي سادت تلك الاجواء، بات هنالك ما يجيز الافتراض بأن الذي حدث للدكتور جون قرنق يمكن أن يكون مجرد قضاء وقرر، ويمكن أن يندرج في سياق ما توضحه الآية الكريمة «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله»، ويمكن أن يكون كالذي حدث في لبنان عندما تم القضاء تقجيراً على بشير الجميل بعد إنتخابه رئيساً للبلاد وهو الخارج من حرب شبيهة في بعض جوانبها بـ «حرب جون قرنق» كي لا يتسلم منصبه رسمياً. كما يمكن أن يكون كالذي حدث للرئيس العراقي عبد السلام عارف ثم لوزير الدفاع العراقي الفريق عدنان خيرالله الذي كان هنالك سعي عربي - إقليمي - دولي لإحلاله محل زوج إخته الرئيس صدام حسين كمخرج لوقف الحرب العراقية - الإيرانية. كما أنه يمكن أن يكون مثل الذي جرى في باكستان لرئيسها ضياء الحق الذي لم يعد يتحملة الوفاق الاقليمي - الدولي، أو مثل الذي جرى لرئيس وزراء لبنان رشيد كرامي الذي أزعج اعتداله كثيرين في ساحة حافلة بـ «أمراء الحرب» المسكونين بالقتل والسطو على الممتلكات، أو مثل الذي جرى لملكة الأردن علياء الحسين التي أضناها مسلسل صراع الملكة الأم والملكة الزوجة. وهؤلاء الذين نشير إليهم على سبيل المثال لا الحصر قضوا في طائرات «هليكوبتر» كانت من النوع المصنوع أفضل صيانة. وهذا ما أشار إليه موسيقيني عن متانة وأهمية طائرته الرئاسية في معرض التشكيك بأسباب الحادث وقوله «إن البعض يرى أنه حادث لكن قد يكون الأمر كذلك وقد يكون شيئاً آخر...».

في إنتظار ما سيخلص إليه التحقيق الإقليمي - الدولي سيتبين ما إذا كان الكيان السوداني هو

المستهدف أم أن المستهدف هو «الإنقاذ الإسلامي» متمثلاً بأهل النظام الشريك في تحقيق السلام.. أم أن مرحلة ما بعد الإتفاق إستوجبت أن يصيب جون قرنق ما أصاب الرئيس أنور السادات وبحيث يقتصر دوره على أنه «بطل الحرب والسلام» مثل السادات فضلاً عن أنه بات للجنوب السوداني زعيم تاريخي يحج الجنوبيون إلى ضريحه ويضيئون الشموع ويتلون الأناجيل فيما الجنرال سالفاً اكبر، الأبرز دينكاًوياً من قرنق، هو من سيواصل... وعلى نحو مواصلة الرئيس حسني مبارك بعد الترحيل الساداتي.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 9 أغسطس (آب) 2005

* * *

واشنطن وطهران: هل هي مقدّمات لحرب الخليج الرابعة...؟

يبدو التعامل الأميركي مع أحدث النتائج الثوري محمود أحمدي نجّاد الذي فاز بجدارة برئاسة إيران، وضمن الحد المعقول من المناخ الديمقراطي بالنسبة إلى حكم معقود لرجال الدين بين «آيات» وشيوخ وسُيّاد، مثل الإشارة الضوئية المنصوبة عند تقاطع أربعة شوارع غاصة بالسيارات. فلمجرد فوزه المبهر امام الشيخ هاشمي رفسنجاني الذي كان تواقاً للعودة إلى الرئاسة التي سبق أن ذاق طعمها، أضاءت الإدارة الأميركية الضوء الأحمر وعطلت الضوءين البرتقالي والأخضر إلى حين، ونبشت في الإضبارات والوثائق والصور الموزعة على مواقع «الإنترنت» بحثاً عما يمكن أن يشكل أداة ضغط على الرئيس الفائز بجدارة وبنسبة من الأصوات سبق أن تحققت في الماضي للرئيس محمد خاتمي. وفي البداية شُبه لها أن هذا الـ «نجّاد» كان من بين المجموعة الطلابية التي إحتجرت في عام 1979 رهائن السفارة في زمن الرئيس جيمي كارتر ورأت أن يبقى الأحمر هو المضاء إلى أن يصبح اليقين هو البديل للظن.. مع أن الظن في نظرها ليس إثماً ولا داعي بالتالي لإجتنابه. ونتيجة هذه الإضاءة إمتلأ التقاطع بإزدحام لا مثيل له وبحيث غدا من الصعب تسهيل الأمور.

فجأة أضيء البرتقالي إستناداً إلى بعض التأكيدات التي برأت قليلاً محمود أحمدي نجّاد من «خطيئة»

محلها وأوجبت على الرئيس نجّاد المفترض فيه، ما دام بات من جماعة «البدلة» الأفرنجية وليس من معتمري العمامة ولابسي العباءة وأما اللحية فإنها على نمط ما هو التقليد المأخوذ به كـ «موضة»، أن يشكر مرشد الثورة بطريقة لم يحدث أن مارسها رئيس جمهورية حيث أنه إنحنى على يد خامنئي يقبلها.. وهي قبلة بدا فيها كما لو أن الإبن البار يقبل يد الأب الذي أحسن التربية والتوجيه.

يوم الخميس 11 أغسطس (آب) 2005 أضاء الرئيس جورج بوش (الإبن) الضوء الأخضر نصف إضاءة بالنسبة إلى هذا الـ «نجّاد» الذي هو نصف بوتين ونصف شافيز، حيث قال ان السلطات الأميركية ستسمح له بالمجيء إلى نيويورك بعدما كانت ترفض السماح، علماً بأن رئيس الدولة العضو في المنظمة الدولية يملك حصانة لا تجيز للولايات المتحدة منعه من المشاركة فضلاً عن أن الرئيس الإيراني السلف محمد خاتمي الذي أبقى على الضوء الأخضر طوال سنوات أمام الإدارة الأميركية، ومن دون رد على الإضاءة يمثلها وبذلك تستقيم العلاقات، شارك أكثر من مرة في دورات الجمعية العمومية، لكن مع ذلك في إستطاعة الحكومة الأميركية تجاوز هذه الحصانة من منطلق أن الطريق إلى المنظمة الدولية تمر عبر الأراضي الأميركية وهي الحيثية التي كان الإستناد إليها عند رفض منح تأشيرة دخول للزعيم الفلسطيني (الراحل) ياسر عرفات عام 1988 في عهد جورج بوش الأب وفي زمن كان رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية خارج محيط الذين هم موضع الرضى الأمريكي.

لكن هذه «المكرمة» البوشية بالسماح لرئيس الجمهورية الإسلامية في إيران ممارسة حق بدهي له، لا تلغي المخطط المرسوم لإخضاع إيران بالقوة أو بقرار من مجلس الأمن في ما يتعلق بالطموح النووي، ومن أجل ذلك نرى الرئيس بوش يقرن السماح لزميله في الرئاسة بممارسة حق الحضور بالقول «نحن لا نزال نحقق في الإتهامات التي تشير إلى احتمال أن يكون هذا الشخص (هكذا بإستعلاء من دون إعتباره رئيساً ومن دون حتى تسميته بالإسم) شارك في عملية إحتجاز الرهائن». وما يلفت الإنتباه أن نصف الإضاءة هذه تتزامن مع إعلان إيران رفض وقف تخصيب اليورانيوم والتتديد برضوخ الوكالة الدولية بإجماع أعضاء مجلس الحكام الـ 35 في الهيئة

إحتجاز الرهائن في السفارة الأميركية في طهران، الأمر الذي أثلج بعض الشيء صدر هذا الرئيس الذي يجمع شكلاً وعمراً وخلفية سياسية وعقائدية بين فلاديمير بوتين الذي إختاره الرئيس المخمور على مدى الأربع والعشرين ساعة يلتسين في أغرب عملية توريث غير ديمقراطية لكي يصون العهد ولا ينصرف إلى فتح الملفات، وبين الرئيس الفنزويلي هيوغو شافيز الذي خرج على قواعد اللعبة وقرر أن يكون «زاباتا» القارة الجنوبية الشقيقة للقارة الشمالية، وانطلق في كل الإتجاهات من أجل ذلك وإلى درجة أنه حط الرحال في بلاد الرافدين باهراً الرئيس صدام المحاصر أشد حصار مبهوراً بالتحمل العراقي لهذا الحصار، ثم حط الرحال بعد ذلك في ديار الثورة الخمينية باهراً بجرائته «آياتها» وشيوخها وسُيادها مبهوراً بهذا التجانس بين نظريتهم ونظريته إلى «العم سام» من أنه «الشيطان الأكبر».. وهي في أي حال نظرة لم تسترجع حقاً ولا صدّت خطراً وتبيّن أنها مثل النظرة الماوية التي إعتبرت أميركا نمراً من ورق فإذا بأنياب هذا النمر قاطعة وأن زئيره زلزل كل ما حواه «رأس مال» كارل ماركس وكتاب ماوتسي تونج الأحمر من أفكار وتطبيقات تهاوت أمام بدع الحرب الالكترونية التي إختبرتها الإدارة البوشية في العراق، وحققت بها ما أرادته ذئاب هذه الإدارة من إعادة العراق إلى العصر الترابي الأقل صلابة من العصر الحجري، بمعنى أن تتدنّ حضارة بابل وأحلام ميشال عفلق في إنبعاث التجربة الوحشية من العراق، بعدما ساهم حزبه في تحقيق إنفصال سوريا عن الوحدة التي قيل إنه «لن يغلبها غالب» فإذا ببعض دبابات ومصفحات الكزبريين وجمال وبناق الهجّانة يقوّضونها، وكأنما هي مجرد تمثال منصوب أسقطته ضربات المطارق في لحظة غضب.

في هذه الأثناء ونتيجة إضاءة اللون البرتقالي إرتأى الرئيس نجّاد ان يعيد ترتيب الفاظه منصوحاً من مرشد الثورة آية الله خامنئي بأن يكتفي بما قاله مباشرة بعد الفوز المبهر وهو «أن إيران لا تحتاج إلى أميركا» ذلك أن المطلوب، على الأقل إلى ما بعد الدورة السنوية العادية للجمعية العمومية للأمم المتحدة الشهر المقبل والتي هي مناسبة لإطلالة رئيس إيران الجديد على المجتمع الدولي من خلال المشاركة فيها، هو تهدئة خاطر الأميركي إلى حين إنجاز المزيد من الخطوات في المشروع النووي. وجاءت النصيحة في

التنفيذية بعد مفاوضات شاقة دامت ثلاثة ايام للإرادة الأميركية، الأمر الذي يعني انه ذروة التحدي بعد الخطوة الأولى على طريق التحدي متمثلة بنزع السلطات الإيرانية المختصة يوم الأربعاء 2005/8/10 الأختام الدولية عن مصنع تحويل اليورانيوم الأمر الذي يعني أن المصنع غداً جاهزاً للعمل بشكل كامل.

خلاصة القول إن الحالة المضطربة بين الإدارة الأميركية والثورة الإيرانية ستبقى على إرتباكها التي هي عليه. وما هذا التدرج في الإشارات الضوئية من الأحمر إلى البرتقالي إلى نصف الأخضر سوى دلالة على أن الإرتباك سيتطور إلى ما هو أعظم في حال أن إيران مصممة على المضي إلى النهاية في الموضوع النووي الذي لا يمكن أن ترتضيه أميركا لأن معناه أن يتحقق لـ «آيات الله» ما كان يتطلع صدام حسين إلى تحقيقه. فهو إعتبر أن من يضع يده على الكويت يصبح سيد الخليج بلا منازع. ونظام «آيات الله» يرى أن إمتلك القدرات النووية هو في حد ذاته خطف الخليج من اليد الأميركية خصوصاً أن العراق على أهبة النضوج شيعياً. ومثل هكذا خطف يعني في نظر الإدارة البوشية إبعاد أميركا إلى ما وراء المحيط وتقريب روسيا إلى ضفاف الخليج. ومن أجل ذلك فليس بالأمر المستبعد أن نصحو ذات يوم على ما يشير إلى أن حرب الخليج الرابعة بدأت... ومن غير اليسير معرفة إلى أين ستنتهي.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 16 أغسطس (آب) 2005

* * *

العالم وسبتمبر.. غير ذاك الذي في البال

لا جدال في أن الإدارة الأميركية تعيش أزمة تكاد تصل إلى مرتبة المأزق سببها التعقيدات السياسية العراقية المتلازمة مع خسائر يومية تبدو مؤرقة، لأنها بدأت تقترب من الخط الأحمر، وبدأ الربط بين العقدة الفيتنامية والعقدة العراقية محور بعض الكتابات والتحليلات والتصريحات في المجتمع السياسي الأميركي. وما هي ظاهرة الأم الثكلى سندي شيهان المرابطة في خيمة على بعد ثمانية كيلومترات من مزرعة الرئيس جورج بوش الابن في «كراوفورد» حيث

يقضي إجازته الصيفية، تأخذ شكل كرة الثلج التي تكبر يوماً عن يوم عندما تتدحرج، وما هي هذه الأم التي تصر على مقابلة الرئيس بوش لكي تبلغه رأيها كأم أميركية في الموضوع العراقي، تلقى المزيد من التعاطف معها وربما تتحول ظاهرتها إلى قضية عامة في المجتمع الأميركي وإلى فيلم سينمائي مستقبلاً يحمل تسمية «قضية سندي شيهان» ويقال عنه أنه مأخوذ عن مأساة واقعية كما هو المؤلف في دنيا الأفلام والحلقات التلفزيونية التي تجسد وقائع قضايا حية من المجتمع الأميركي تراوح بين الجريمة والإغتصاب والخianات السياسية والزوجية. أما رأي هذه الأم فأوردته في بيان وزعته على المتعاطفين معها وعلى الوسائل الإعلامية قالت فيه: «لقد قدّم أبنائنا التضحية النهائية ونحن نريد إجابات. وكل ما نطلبه هو أن يضحى بساعة من عطلة التي تمتد خمسة أسابيع ليتحدث معنا قبل أن تفقد الأم التالية إبنها في العراق. هو يقول إنه ينشر السلام فكيف يمكنك نشر السلام بقتل الناس».

هذه المرة لا يبدو موقف الرئيس بوش متعارضاً في المطلق مع موقف هذه الأم التي تجايله حيث إنها في الثامنة والأربعين من العمر، وأن إبنها الذي قضى في يونيو (حزيران) 2004 في بغداد في حرب لا معنى لها هو بعمر إبنتي الرئيس. فما يحدث يومياً في العراق بات يقلق الرئيس وتقلقه بالقدر نفسه تداعيات مطلب الانسحاب من العراق لأن معنى ذلك ليس فقط أن كل ما حدث كان مبنياً على خطأ، وإنما لأن مشهد ما بعد الانسحاب سيكون أكثر هولاً مما هو عليه الآن وسيثبت أن بلاد الرافدين تصومت بالفعل، خصوصاً أن الذي يحدث منذ سنتين على أرض العراق فيه بعض أوجه الشبه مما عاشه الصومال ولا يبدو أنه تخلّص منه.

ومن هنا فإن الرئيس بوش عندما يقال له إن أمماً أميركية لها ملامح والدته قبل ربع قرن، ترابط في خيمة وتقوم بأرقى عملية إحتجاج سلمي، فإنه يشعر على رغم جبروته كرئيس للدولة الأعظم في العالم أن ظاهرة هذه الأم تلمس كبرياءه وأنه عندما يقول «إنني حزين وقلبي ينفطر عند معرفة أن أسرة تبكي لفقد حبيب لها، كما أنني أتفهم الآلام المبرحة التي يشعر بها البعض لوفاته، لكنني لا أستطيع الخروج من العراق» فكأنما هو بكلامه هذا يشكو أمره إلى هذه الأم الثكلى. ولكنه صاحب القرار وفي إستطاعته أن يشكو

ويتخذ الخطوة التي يراها الرأي العام حلاً وإن كان صقور الإدارة لا يرون ذلك، في حين أنها أم لا قدرة لها سوى الشكوى كلمات ودموعاً ولوعة تكسر القلب وتضرعاً إلى الله.

إجازة الرئيس تقترب من الإنتهاء، والألم الحزينة داخل الخيمة على مسافة كيلومترات من الرئيس. ولا يرضيها أن الرئيس بعث لمقابلتها بمستشاره لشؤون الأمن القومي ونائب كبير موظفي البيت الأبيض. فهي في موقفها هذا تريد إجابة غير الإجابة التي لا تُنفع حتى الرئيس نفسه وهي على حد قوله «إن إنسحابنا سيكون خيانة للعراقيين وإن الإنسحاب قبل إكمال المهمة سيبعث برسالة إلى الذين يتساءلون عن مدى إلتزام الولايات المتحدة بنشر الحرية».

وخارج أميركا هنالك مئة وسبعون من ملوك ورؤساء وشيوخ ووزراء خارجية يستعدون منذ الآن للتوجه إلى نيويورك للمشاركة في الدورة العادية السنوية للجمعية العمومية للأمم المتحدة بمن فيهم المتحدي الأميركي الجنوبي هيوغو شافيز رئيس فنزويلا الذي يواصل من حيث لم ينته حليفه فيدل كاسترو ملوحاً بقطع النفط عن أميركا، في حال إستمرت إعتدائها على أميركا اللاتينية المستمرة منذ مئتي سنة. قائلاً بالحرف الواحد: «إن الناقلتين المحملتين بمليون ونصف المليون برميل من النفط الفنزويلي، واللّتين تتوجهان يومياً إلى الولايات المتحدة قد تتوجهان إلى مكان آخر وستتعرض علاقات فنزويلا مع الولايات المتحدة إلى الخطر إذا ما إستمرت واشنطن على موقفها ضدنا منذ العام 2002». ومن المتوجهين إلى نيويورك أيضاً المتحدي الشرق أوسطي الجديد محمود أحمددي نجاد الرئيس الإيراني المفاجأة شباباً وثورية، وصاحب مقولة «لا حاجة بنا الى أميركا» الذي سمحت له الإدارة البوشية بالمجيء بعدما كانت لن تمنحه تأشيرة دخول. وهنالك المضطر للتحدي الرئيس بشّار الأسد الذي خطفته منه الإدارة البوشية الغنيمة اللبنانية، ومن دون التكلفة التي تدفعها ثمن خطف العراق من العراقيين. وحيث أن أميركا في مأزق وعلى نحو ما أوردناه في سطور سابقة، وأن العالم من دون إستثناء متضرر من هذا المأزق، فإن مناسبة أيلول المنظمة الدولية هي المدخل العملي إلى الخروج بكدمات يمكن معالجتها، وقبل أن تشدّ وطأة المأزق ولا يعود هنالك وسيلة للخروج المشرف وإنما الخروج على نحو ما حدث في

«أغسطس الغزاوي»، الذي جسّد مسألة بالغة الأهمية وهي أن الإحتلال أمر مبعوض وبصرف النظر عما إذا كان لوضع اليد أو من أجل «نشر الحرية». وإذا سمعنا أن الرئيس بوش قرر أن يكون حضوره إلى المنظمة الدولية هذه السنة غير حضوره في العام الماضي، عندما جاء رافعاً العصا الغليظة في وجوه من لا يشاطرونه الرأي بصوابية ما فعله في العراق، فإن المشهد الدولي سيأخذ طابع التهدة ولملمة الاخطاء وإفساح المجال أمام طمأنينة يفتقدها العالم من القطب إلى القطب. والحضور المأمول من الرئيس بوش كما نتصوره هو أن يأتي ليجمع الناس حوله ويبنى مع المائة والسبعين المشاركين في الدورة طبعة منقحة من «النظام العالمي الجديد» بحيث يكون «النظام العالمي المتجدد» وفي إتجاه الخير بعيداً عن الهيمنة. وبذلك لا يعود هاجس سبتمبر 2001 مثل الوسواس الخناس في عقول ناس الإدارة البوشية وصدورهم، هو السائد والمستقر وإنما تحل محله طمأنينة ناشئة عن سبتمبر... غير الذي في البال.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 30 أغسطس (آب) 2005

وداعاً أيها الإستفتاء.. أهلاً أيها الإنتخاب

سيكون يوم غد الأربعاء 7 سبتمبر (أيلول) 2005 يوماً إستثنائياً في مسيرة نصف قرن من التاريخ السياسي الحديث لمصر، ذلك أنه في هذا اليوم سيمارس المصري حقاً طالما تمنى ممارسته، وستقلب بذلك ظاهرة إعتبار النظام الرئاسي الجمهوري قريب الشبه من النظام الملكي، بمعنى أن الرئيس يمكن أن يبقى في المنصب مدى الحياة، لا يغادره بالرضى ويكون البقاء بفعل أهون التخريجات، أي الإستفتاء على الولاية الرئاسية والذي يأتي دائماً إيجابياً لمصلحة تجديد الولاية.

ويسجل المصريون للرئيس حسني مبارك هذا التحول في الشأن المشار إليه، ذلك أنه قبل ثلاثة أشهر من إنتهاء ولايته الرئاسية الرابعة، ورغبة منه في ولاية خامسة وأخيرة، يكون بعد إنتهاء سنواتها الست في الثانية والثمانين من العمر، شجع على إستحداث تعديل للمادة 76 من الدستور فبات إنتخاب رئيس

ممانعة الحكم المصري للإشراف الرقابي الدولي على الانتخابات الرئاسية التي ستتم على قاعدة التعددية وبالإقتراع المباشر للمرة الأولى. ذلك أن الرقابة الدولية وعلى نحو ما سبق ان حدث على سبيل المثال في فلسطين والجزائر وقبل بضعة أسابيع في لبنان، دعمت مصداقية السلطة المحلية التي جرت الانتخابات في ظلها. ونذكر الآن حجم الإشادات الدولية التي حظي بها المسؤولون في الدول الثلاث المشار إليها لأن الانتخابات التي جرت في ظل سمع المراقبين الدوليين وبصرهم كانت نزيهة... وإلى حد ما مثالية. بل إن رئيس حكومة الانتخابات البرلمانية اللبنانية نجيب ميقاتي نال من الإشادات الدولية بحكومته التي جرت في عهدها القصير الانتخابات ما عوّضه بعض الشيء أنه لم يعد نائباً ولم يكافأ بإسناد رئاسة الحكومة بعد الانتخابات إليه على نحو ما كان يتوقع أو يأمل أو يطلب في صيغة التلميح.

وإستغرابنا للممانعة المصرية كما عبّر عنها الدكتور أسامة الباز المستشار السياسي المعمّر للرئيس حسني مبارك يوم السبت 13 أغسطس الماضي، مبني على أن الرئيس سيفوز بطبيعة الحال، ولا خوف عليه من مفاجأة تأتي مثل المفاجأة الإيرانية ولا حتى المفاجأة الجزائرية عندما خاض بن فليس معركة حامية ضد الرئيس عبد العزيز بوتفليقة إنتهت بفوز الأخير أبهر فوز، ذلك أن أبرز المرشحين المنافسين أيمن نور ليس مثل محمود أحمددي نجّاد الذي حقق فوزاً مبهرًا، فضلاً عن أن الرئيس مبارك ليس مثل الشيخ هاشمي رافسنجاني الذي كان مطمئناً إلى أنه عائد إلى رئاسة الجمهورية التي سبق أن إستمتع بأطايب مكاسبها طوال سنوات قبل أن يزيحه رجل دين أقل أهمية وأكثر تواضعاً وثقافة هو محمد خاتمي. وعندما نقول إن التشابه غير وارد بالنسبة للمتسابقين فإننا نعيد التأكيد على مسألة ولاء المواطن المصري للسيد الحاكم، أي بما معناه إن نسيج الشعب المصري يختلف عن نسيج الشعب الإيراني، حيث هذا الأخير شغوف بتحدي أهل الحكم في حين أن تقاليد الشعب المصري تؤكد مدى ولائه لمن هو في قمة السلطة. ولكن ذلك لا يعني أن الإستتساخ أو الإقتباس ليس وارداً كإستثناء، أي أن شرائح من المصريين ربما ترى الأخذ بمبدأ الإقتباس لعل وعسى يأتي التغيير بما من شأنه أن يحقق مطالب تخفف من وطأة المتاعب المعيشية والإجتماعية. وما نقصده من قولنا هذا هو

الجمهورية يتم بالإقتراع بين أكثر من مرشح، وليس بالإستثناء على المرشح الأوحّد من جانب حزب الدولة الحاكم. ومع أن الشروط لم تخل من بعض التعجيز، إلا أن بضعة أشخاص أعلنوا ترشيحهم.. وهي نقطة تُحسب لفكرة التعددية وإن كان بعض المرشحين إرتأوا خوض غمار هذه المعركة المحسومة النتائج سلفاً، مع أنهم يفتقرون إلى الجدية من جهة وأصوات الناخبين من جهة أخرى، بإستثناء إثنين من أصول وفدية هما المحامي أيمن نور الذي غادر «الوفد» ليؤسس «حزب الغد» والدكتور نعمان جمعة ابن «الوفد» الذي أجاز له النظام العمل السياسي. إستناداً إلى الخصوصية التاريخية لعلاقة المصري المحكوم بالمصري الحاكم يجوز الإفتراض بأن الرئيس مبارك الذي يخوض الإختبار المستجد، أي الإنتخاب خارج إطار الإستفتاء الذي تحسم وزارة الداخلية عادة نتائجه، ليس قلقاً من مفاجأة ذلك أنه يخوض الغمار وهو في سدة الرئاسة. وفي تاريخ الانتخابات الرئاسية بغرض التجديد من تجديد جورج بوش الابن ولاية رئاسية ثانية إلى تجديد جاك شيراك ولاية رئاسية مماثلة إلى تجديد فلاديمير بوتين ولاية رئاسية ثانية إلى تجديد توني بليز ولاية رئاسية ثالثة.. إلى آخرين كثيرين من طالبي تجديد الولايات الرئاسية، لم يحدث أن مُني رئيس بمفاجأة عدم الفوز، إذ كيف ستأتي الهزيمة وكل المقاليد بتصرفه والمفاتيح بين يديه. لكن الذي قد يشغل بال الرئيس هو أن نسبة الإقتراع ستكون ضئيلة من جهة وأن نسبة المقاطعين أيضاً كبيرة. ففي الأولى نوع من الإبتعاد عنه وفي الثانية نوع من الرفض له. كما أن الذي يشغل البال أكثر وأكثر هو أن تحدث هجمة أصوات إخوانية في إتجاه أيمن نور ليس حباً به لأن النقاط على صعيد العقيدة حاد، وإنما رداً على الرئيس مبارك الذي يواصل رمي الحرم على هذا التنظيم.

وبقدر الثناء على رحابة صدر الرئيس مبارك كونه الوحيد في نادي الرؤساء العرب الذي ترك المجال، ومن دون التلويح بسيف القضاء، أمام منتقدي سنوات حكمه، وبحيث أن الكتابات التي تنشرها بعض الصحف المصرية شملت حتى الأمور الشخصية والعائلية والأوصاف المستفزة، مع ملاحظة أن الصحف المشار إليها هي صحف العامة إذا جاز التصنيف وليست صحف الدولة أو ما يسمى بـ «الصحف القومية»... إننا بالقدر نفسه نستغرب

والذي يحكم كوبا منذ 46 سنة ومعمار القذافي ابن السابعة والستين الذي يحكم ليبيا منذ 37 سنة وحسني مبارك ابن السادسة والسبعين الذي يحكم مصر منذ 27 سنة... ومع ذلك فإن الثلاثة لم يسأموا تكاليف الحكم لأنهم إعتدوا قاعدة الإستفتاء بديلاً للإنتخاب والتعددية.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الأربعاء 7 سبتمبر (أيلول) 2005

* * *

قمة إستثنائية... عليها العوض

عندما إتفق القادة العرب على صيغة القمة الدورية مرة كل سنة وعلى مدى يومي 22 و 23 مارس (آذار) وحسب الترتيب الأبجدي، وبذلك لا يعود الإنعقاد حكراً على دول درجة أولى ومستبعداً بالنسبة إلى بقية الدول ذات الدرجة الثانية، فمن أجل أن تطوى نهائياً صيغة القمة الإستثنائية التي كانت بإستمرار تُربك الحكام العرب منطلق أنها ما دامت إستثنائية فلا مجال للتغيب عنها وما دامت إستثنائية فإن قراراتها يجب أن تكون إستثنائية بدورها. ونذكر كيف أن الجدل في شأن القمة الإستثنائية كان يرقى عقدها وتتكاثر في هذا الشأن الإجتهاادات التي يصل بعضها الى حد أن الإجراء كان يبدو متعمداً لتفادي إتخاذ قرارات إستثنائية.

وبالنسبة إلى مصر فإن جراحها المعنوية من صيغة القمة الإستثنائية تكاد لا تندمل، ذلك أن تلك القمة التي إستضافها العراق الصدامي من 2 الى 5 نوفمبر (تشرين الثاني) 1978 كانت القمة التي دشت مخطط إسقاط عضوية مصر من الجامعة العربية وعزلها عشر سنين.. أو فلنقل انها «قمة العقاب» في تاريخ القمم الإستثنائية بعد «قمة الثواب» التي إستضافتها الخرطوم من 29 - 8 الى 1 - 9 - 1967، ذلك أن هذه الأخيرة كانت نموذجاً للقدرة على السمو فوق الضغائن والإحتقانات الناشئة عن لغة تخاطب ملأى بالتجريح، وكانت أمثلة في إعتداد النخوة بديلاً للتشفي. وفي تلك القمة قرر المجروحون من الخطاب الإعلامي والسياسي المصري مداواة الجرح المصري الناشيء عن هزيمة 5 يونيو 1967 ووضخ مساعدات إلى مصر والأردن وسوريا ومنظمة

أن الإقتباس في حال حدوثه لن يكون لأسباب سياسية، لأن الرضى العام عن السلوك السياسي للرئيس مبارك الذي يتطلع إلى ولاية رئاسية خامسة وأخيرة، لا يشير إلى أن الرغبة في التغيير هي لأسباب تتصل بالنهج السياسي.

لكن في الوقت نفسه قد يكون الدافع إلى الممانعة هو أن تكون الإدارة البوشية أو بعض مراكز القوى في هذه الإدارة ستخترق طمأنينة أهل الحكم الحالي.. أي حكم الرئيس مبارك، من خلال هذه الإنتخابات التي أصلاً ما كانت لتتم وفق قاعدة التعددية والإقتراع المباشر لولا الضغوط الأميركية وتشجيع قوى سياسية في مصر على أن تعترض وتتنقد.. ثم تطالب بالتغيير ورفض التجديد والتوريث. والإختراق بمعنى أن تأتي النتائج باهتة وأن تكون تقارير المراقبين الدوليين داعمة لهذا التبهيت، وبذلك تكون الإدارة الأميركية حققت مأربها بالنسبة إلى حكم مبارك وبطريقة تختلف عما فعلته أو ما شجعت حدوثه بالنسبة إلى حكم زميله الموريتاني العقيد معاوية ولد الطابع.

وتبقى الإشارة إلى أن الذي شجع فكرة الرقابة الدولية على الإنتخابات الرئاسية بصيغتها الجديدة، هو أن حوالى ثمانية آلاف من قضاة مصر هددوا مطلع يوليو (تموز) 2005 بمقاطعة الإنتخابات الرئاسية ثم التشريعية في نوفمبر (تشرين الثاني) المقبل، إذا لم تحصل ضمانات لنزاهتها. كما أن الذي شجع هو أن الذين سيقاطعون الإنتخابات على ضالة نسبة حضورهم الشعبي، يشكلون حالة لافتة في المجتمع المصري. وفي ضوء هذه المعطيات ودفعاً لما قد يرتسم في الأفق السياسي المصري من علامات إستقهام كثيرة، نرى أن الإشراف الدولي على الإنتخابات الرئاسية يبقى أفضل من الممانعة، خصوصاً أن لا أحد من التسعة المنافسين للرئيس مبارك أمامه أي فرصة... عدا إدراج اسمه في لائحة التطور السياسي بأنه مرشح سابق لرئاسة مصر وهو لقب له وقعه الإجتماعي، مثل الوقع الذي يتباهى به المصري عندما يصبح «وكيل وزارة».

تبقى الإشارة أيضاً ونحن نتحدث عن الحالة الإنتخابية الرئاسية إلى أنه لا إستفتاء بعد اليوم، وإنما الإختيار من خلال الإقتراع المباشر، كما لا مرشح أوجد بعد الآن وإنما سابق بين أكثر من طامح. كما تبقى الإشارة إلى أن عمادة الرؤساء المعمرين مقتصرة حتى الآن على فيدل كاسترو إن التاسعة والسبعين

التحرير الفلسطينية وفي صيغة أقساط تساعد على إزالة آثار العدوان وبناء القوات المسلحة. وعندما كان الرئيس جمال عبد الناصر جاء إلى القمة مثقلاً بأجواء الهزيمة من جهة ومؤامرة المشير عبد الحكيم عامر وبعض كبار الضباط والتي إنتهت بإنتحار صديق العمر، فإنه عاد من القمة وقد إنتصبت قامته من جديد. وهكذا تكون لباقة الرئيس السوداني الراحل إسماعيل الأزهري وحذاقة رئيس وزراء السودان الراحل محمد أحمد محبوب حققت علاجاً أفاد مصر وساعدها على أن تخوض حرب إستنزاف أسست بعد ذلك للعبور، فتحرير سيناء... فالسلام مع إسرائيل. ولا نظن أن أهل اللباقة والحذاقة والأشقاء المنجدين وبالذات الملك فيصل والملك ادريس السنوسي كانوا يتوقعون أن تصل الأمور بمصر إلى ما وصلت إليه من حيث الإنفراد بالتسوية وترك الآخرين في حيرة ما بعدها حيرة لا هم يقدمون على الخطوة المصرية التي أنجبت خطوة اردنية وحالات تطبيع منقوصة وتثير الإستغراب، ولا هم يطرحون بدائل نضالية. وهذا هو واقع الحال أو ما يصح تسميته «لا رغبة في التطبيع.. ولا رغبة بالمقاومة».

قبل أن تثار مصر من «قمة العقاب» التي رعاها الحكم الصدامي وذلك بالقمة الإستثنائية التي دعا الرئيس حسني مبارك الى عقدها رداً على الإجتياح العراقي للكويت يوم الخميس 2 أغسطس (آب) 1990 وأسست للدور الأميركي الذي تمدد وتجاوزت مهمته بكثير مسألة تحرير الكويت لتشمل وضع اليد على العراق، كان الملك (الراحل) الحسن الثاني الذي إستأثرت مملكته بأكثرية القمم العربية، إستضاف قمة إستثنائية في الدار البيضاء (من 23 إلى 24 مايو (ايار) 1989)، سبقتها قمة إستثنائية إستضافها الرئيس الشاذلي بن جديد في الجزائر من 7 إلى 8 يونيو (حزيران) 1988 سبقتها قمة إستثنائية إستضافها الملك (الراحل) حسين في عمان من 8 إلى 11 نوفمبر (تشرين الثاني) 1987. وبعد الإتفاق على دورية القمة بدءاً بالأولى في عمان 2001 وصولاً إلى قمة الجزائر عام 2005 مروراً بالقمة الثالثة التي إستضافتها البحرين في شرم الشيخ على نحو تجبير دولة الإمارات القمة الثانية إلى بيروت فالرابعة التي كاد المزاج التونسي يبعثرها، سارت الأمور على النحو الذي يرى انه لا موجب للقمم الإستثنائية بعد الآن إلى أن باغت الرئيس حسني مبارك القادة العرب بدعوته الى قمة

إستثنائية محددًا المكان (شرم الشيخ وليس القاهرة) والزمان (الأربعاء 3 أغسطس/ آب 2005) وهو التاريخ الذي يجعل الذاكرة تستحضر ذكرى ثاني أيام الإجتياح العراقي للكويت أو يوم دشنت مصر حملة الإدانة لتلك المغامرة.. ولذا فهو نوع من تنشيط الذاكرة الذي يستهدف مباركة الخليجيين للقمة الإستثنائية المباحثة التي أرادها الرئيس مبارك إختباراً لقدرة مصر على ممارسة الدور العربي وعلاجاً معنوياً لتضميد الجراح الناشئة عن العملية الإرهابية في شرم الشيخ، التي تزامنت مع تحضير نفسه لإعلان تجديد رئاسته للمرة الخامسة ولولاية تنتهي عام 2011 يكون خلالها بلغ الخامسة والثمانين من العمر. لكن سرعان ما أرجئت القمة إحتراماً لمناسبة رحيل أحد النجوم الساطعة في مؤسسة القمة العربية الملك فهد بن عبد العزيز يوم الإثنين 1 - 8 - 2005، وإنتقال الملوك والرؤساء العرب والمسلمين مع قادة دوليين إلى الرياض لتقديم العزاء والمشاركة في التشييع.

بعد خمسة اسابيع على رحيل الملك فهد وبدء مرحلة عبدالله بن عبد العزيز الذي بوع ملكاً وبوع الأمير سلطان بن عبد العزيز ولياً للعهد، عاودت مصر إحياء إقتراح القمة الإستثنائية. وتزامن الإحياء مع إنعقاد الإجتماع التقليدي السنوي لوزراء الخارجية العرب ينطلقون بعده إلى نيويورك للمشاركة في الدورة التقليدية السنوية للجمعية العمومية للأمم المتحدة. وإعتبرت الخارجية المصرية أن التحفظات التي فرضت عدم الأخذ بإقتراح القمة الإستثنائية في شرم الشيخ على نحو ما طرحه الرئيس مبارك لم تعد قائمة. لكن الوزراء الذين صادف أنهم شهود للمرة الأولى على عملية انتخاب رئاسية تجري في مصر، انقسموا بين مَنْ يرى أن لا موجب للقمة الإستثنائية والاكتفاء بحسم الموقف من العراق كهوية وإرسال سفراء إلى بغداد على رغم كل المخاطر والمحاذير، وبين مَنْ يرى أنه ما دام الرئيس مبارك هو صاحب الإقتراح فمن اللباقة بمكان عقد هذه القمة، ولو بمن حضر لأن عدم الإنعقاد سيشكل سابقة بأن من يدعو إلى قمة إستثنائية بعد الآن عليه ان يتأكد بأن هذه القمة لن تتعقد ما دامت لم تتعقد تلبية لرئيس الدولة العربية الأكبر. ومن هنا جاء تصريح وزير خارجية البحرين الشيخ محمد بن مبارك آل خليفة عقب اجتماع مع الأمين العام للجامعة عمرو موسى ووزير خارجية الاردن فاروق القصراري، بأن القمة الإستثنائية ستعقد في بداية

أكتوبر (تشرين الأول) المقبل. وعزز هذا التصريح عمرو موسى الذي قال ان كلام الشيخ محمد هو الموقف وان وزراء الخارجية سيحددون اليوم (الخميس 8 - 9 - 2005) يومين من أكتوبر موعداً للإجتماع. لكن كفة عدم الإتفاق رجحت على كفة الإتفاق وناب مصطفى عثمان إسماعيل وزير خارجية السودان الذي لن يعود رئيساً لدبلوماسية بلاده بعدما إستقر الإتفاق على أن يتولى سوداني جنوبي منصب وزير الخارجية، عن زملائه الوزراء في الإعلان بأن القمة الإستثنائية لن تتعقد يومي 2 و3 أكتوبر وفي شرم الشيخ كما تريد مصر وإنما بعد شهر رمضان. وحيث أنه لا بد من تعليل لذلك فإن وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل الذي مزج بين تهنئة الرئيس مبارك بالولاية الخامسة وبين الإبلاغ اللائق بعدم توافر الإجماع المطلوب داخل إجتماع وزراء الخارجية على إنعقاد القمة مطلع أكتوبر على نحو ما إقترحت مصر أو أرادت، علل الأمر بالقول إنه من الضروري الإعداد للأفكار التي يتم طرحها على القمة الإستثنائية، سواء في ما يتعلق بالعراق أو فلسطين أو الإرهاب... وهي الموضوعات الثلاثة التي كانت مقترحة على جدول أعمال هذه القمة، موضحاً بأنه عندما يتم وضع إستراتيجية للموضوعات المشار إليها ستتم الدعوة إلى عقد القمة. أما عمرو موسى صاحب تعابير التشجيع الشهيرة للإجتماعات والمؤتمرات التي يغلب الإستعجال على طرحها أو عقدها من نوع عبارة «إن صيغة دول إعلان دمشق تترنح» فأبتكر للقمة المستعصية الإنعقاد عبارة «إن الزخم السياسي الذي تشهده المنطقة في الفترة المقبلة يجعل من الصعب عقد القمة العربية الإستثنائية». وهكذا بين ليلة وضحاها يتغير الأمر من حال الإستثناء الممكن إلى حال الإستثناء المستحيل.

بعد رمضان سيراتحاق القادة العرب. وبعد الراحة سيستعد بعضهم للقمة السنوية لـ «مجلس التعاون لدول الخليج العربية». وفي الفترة بين إنتهاء أعمال الدورة السنوية للجمعية العمومية للأمم المتحدة وقمة مجلس التعاون، قد يستضيف خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز ملوك ورؤساء الدول الإسلامية في قمة تتعقد في مكة المكرمة، وتكون مناسبة للإستفسار من أحدث المطبوعين الجنرال برويز مشرف عن هذا الذي باغت الأمة فيه، ويفسر لهم كـ «داعية تطبيعي» تبريره المتضمن قوله «إن بدء اتصالات بين اسلام اباد وتل أبيب ينسجم مع تعاليم الإسلام.

فالإسلام دين سلام وقد عاش في سلام وتناغم مع الأديان الأخرى على مدى قرون وفي وسعه أن يكون كذلك في المستقبل». وكأننا بالجنرال غدا «الشيخ مشرف» وإستبدل النياشين وعصا المارشالية بالسبحة، وأنه يلغي حقيقة أن «التناغم» الذي يريده حدث مع كيان أغتصب أرض الغير ويحتل المسجد الأقصى وأن هذا الإنفتاح من جانب «الشيخ مشرف» على اربيل شارون ينتسب إلى إنفتاح الرئيس أنور السادات على مناحيم بيغن.

وبعد القمتين المشار إليهما يكون القادة العرب ومعهم الشعوب إنشغلوا بتقرير لجنة التحقيق الدولية التي يتولاها الثعلب الألماني الثاني ديتليف ميليس أو «ثعلب المونتيفردي» بعد الثعلب الأول أو «ثعلب الصحراء» رومل، ويكون بدأ العد العكسي للقمة الدورية العادية في الخرطوم. وبذلك ربما يصبح على القمة الإستثنائية العوض وتكون تداعيات نتائج إنتخابات الرئاسة المصرية، وإنشغال البال بالانتخابات البرلمانية من بين حيثيات إنصراف مصر إلى قضايا داخلية إستثنائية لا قدرة لأي قمة عربية إستثنائية على علاجها، حيث إن لم الشمل المصري في هذه الحال يتقدم على لم الشمل العربي.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 13 سبتمبر (أيلول) 2005

* * *

من «تصدير الثورة»..

إلى تصدير «المعرفة النووية»

في محاولة من جانبه للتخفيف من الحملة الدولية التي تستهدف الطموح النووي لبلاده، عرض الرئيس الإيراني محمود أحمددي نجاد، الحديث العهد في الجلوس على قمة السلطة، يوم الخميس 15 سبتمبر (أيلول) الجاري بعد لقاء مع «الممول» النووي فلاديمير بوتين، والمرتعش من إيران النووية، رجب طيب أردوغان إستعداد الجارة الثورية لنقل تكنولوجياتها النووية إلى دول إسلامية أخرى. ومن باب النظمين خشية فهم العرض على غير حقيقته المسالمة، فإن الرئيس الإيراني قال «إننا مستعدون لنقل المعرفة الفنية النووية إلى هذه الدول».

ولقد إنزعجت الإدارة الأميركية من هذا العرض

وهو مطلب كان في الماضي حكراً على الثوريين العرب الذين إنقرضت أبهة بعضهم، وعلى أهبة التآكل أبهة البعض الآخر، ثم جاء الثوري الإسلامي الإيراني والثوري المسيحي الفنزويلي إلى نيويورك، ليطلق منها الثاني الاقتراح الجريء الذي هو أشد وقعاً في نفوس الرأي العام العالمي المسلم والمسيحي على حد سواء، وخلاصته أن تكون القدس مقراً للمنظمة الدولية، وبذلك تتأكد حيادية هذه المدينة، فلا هي «عاصمة الشعب اليهودي» لأكثر من ثلاثة آلاف عام، وعاصمة دولة إسرائيل إلى أبد الأبدين»، على نحو ما جاء في كلمة أرييل شارون التي حرص على القائها بالعبرية من على منبر الأمم المتحدة يوم الخميس 15 سبتمبر (أيلول) الجاري، ومن قبل أن تلعب «المصادفة» لعبتها متمثلة في لقاء المصافحة المشرفي - الشاروني علماً بأنها لم تكن مصادفة ولا مباغلة، وإنما هي حذقة السمسار التركي المهيب رجب طيب أردوغان الذي جمع بـ «الحرام» الرأس الإسرائيلي مع الرأس الباكستاني على المذخة البوشية والفرش الغزأوي، وبعد هذه «الصدفة» التي هي خير من ألف ميعاد، جاء لقاء حمد القطري بزميله سيلفان شالوم وعبدالله الأردني بالمغضوب عليه أرييل شارون، وكان الإعجاز الغزأوي هو سقف هذه اللقاءات التي لن يوقفها سوى معاودة طرح المبادرة السعودية التي اقترتها القمة العربية الدورية الثانية التي إستضافتها بيروت يومي 23 و24 مارس (آذار) 2002، بتجبير من الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رحمة الله عليه، على أن يتم إرفاق ذلك بنص يحرم على أي عربي الخروج على إطار هذه المبادرة خلصة أو بالعلن لا فرق. وإذا كان لن يحدث ذلك فإن التسلسل سيتكرر ما دام لا جزاء عليه أكثر من الذي يُجازى به اللاعب الذي يقترب خطأ ضربة تسلسل في مباراة كرة قدم.

ومع ان العرض الإيراني السخي لن يجد نظاماً إسلامياً يأخذ به بمن في ذلك ليبيا، التي كانت ذات يوم تدلل عمن يبيعها سلاحاً نووياً، ووجد العقيد معمر القذافي نفسه مستعداً للإرتباط الإستراتيجي بالصين، ان هي زودته ولو بقنبلة نووية صغيرة، إلا أنه سيبقى إلى فترة ليست قصيرة حديث المجالس الإسلامية بين التندر والإعجاب، وهذا ما سبق ان حدث مع الرئيس صدام حسين عندما اشتدت وطأة المماحكة عليه في المرحلة بين غزو الكويت وإنتراعها منه بقوة التحالف الدولي - الإسلامي - العربي، الذي قاده الرئيس

الإيراني السخي، رغم إقتناعها بأن «التصدير النووي» أكثر صعوبة من «التصدير الثوري» وأن الثورة الخمينية التي شقت طريقها إلى بعض الديار الإسلامية مثل الكويت والبحرين ولبنان والعراق والإمارات، وأمكنها زرع شتول سقتها بعناية، فغدا بعضها شجراً باسقا مثل «حزب الله» في لبنان، وبقي البعض الآخر شتولاً ضعيفة البنية جاءت التطورات المتلاحقة في المنطقة والمحاولات المستديمة لزعة المثلث السوري - الإيراني - اللبناني، تحول دون نموها على النحو المأمول. أما لماذا الإنزعاج فلأن العرض يلقي أذاناً صاغية في أوساط الرأي العام الإسلامي، وهذا بدوره يشكل ضغطاً من جانب الناس على حكوماتهم لكي يناصروا التوجه النووي الإيراني... وبالذات بعدما قرر ممثل العالم الإسلامي في النادي النووي الجنرال برويز مشرف ركوب موجة التطبيع مع إسرائيل، وتبادل التصافح في أروقة الأمم المتحدة مع أرييل شارون، وكما لو أنهما تواقان أو متلهفان إلى هذه المصافحات وتبادل العواطف وجاءت الخطوة الغزأوية مثل فتح بوابة محكمة الإغلاق دخل منها الحكم الباكستاني الحالي إلى ساحة التطبيع، مسقطاً حلم الرأي العام المسلم من أقاصي الصين إلى سفوح الجليل في فلسطين الطمأنينة إلى أن هنالك دولة إسلامية عريقة وصلبة المراس إسمها باكستان، أوصلتها وطنية وإسلامية محمد علي جناح إلى أنها غدت دولة نووية، قادرة في اللحظة الأكثر شدة على إستعمال الورقة النووية، وبذلك تعيد للعالم الإسلامي المسكين الحرّم الثالث، وتحرر بالتالي للعالم المسيحي المستكين كنيسة المهدي ودرب الجلجلة وغيرها، وكل بقعة مقدسة إرتضى المستكينون إحتلال إسرائيل لها، لأن بلفور الذي لا سامح الله وعده الذي وضع حجر الأساس للإغتصاب، ولأن الإدارة الأميركية بدءاً بالرئيس الثالث والثلاثين هاري ترومان، وصولاً إلى الرئيس الثالث والأربعين جورج بوش الابن، عززت ذلك الوعد بأن حجت عن إسرائيل أي إدانة لعدوان تقتربه بما في ذلك رفض إدانة إنتهاك المقدسات المسيحية والإسلامية على حد سواء.

كما أن الإنزعاج الأميركي يأتي على خلفية التناغم المتواصل بين الرئيس الجديد للجمهورية الإسلامية في إيران محمود أحمدي نجاد، والرئيس العنيد لجمهورية فنزويلا هيوجو شافيز أكثر رئيسين يطالبان بنقل مقر الأمم المتحدة من أرض أميركية إلى أرض محايدة..

الثلاثاء 20 سبتمبر (أيلول) الماضي إستيلاء «حكومة الوحدة الوطنية» في السودان، وتصاعدَ الدخان الأبيض بالمفهوم الفاتيكاني لإنجاز الإتفاق، من القصر الجمهوري. أما وفق التقاليد العربية عموماً فانطلقت «زغرودة» مرفقة بالقول الشائع: «مبروك جالك ولد». فالذي حدث كان معجزة من العيار الخفيف مثلها مثل معجزة الحمل بعد عُقم دام 21 سنة. والعُقم هنا هو حرب الشمال والجنوب التي فيها بعض ملامح زميلتها الأميركية قبل أن يستعاد الرشد في بلاد العم سام ويبدأ التأسيس لـ «الحلم الأميركي»، توأم «الحلم السوداني» الذي يعتقد إخواننا السودانيون انه سيحل بعد الآن محل الكوابيس المتلاحقة وسيعزز من شأنه أن النفط سيتدفق في ظل السلام وبحيث يصبح السودان أرض الطفرة الثانية في العالم العربي بعد الطفرة الخليجية، وعندها ستبدأ مرحلة التشاؤف السودانية رداً على مرحلة التشاؤف المصرية، أو تتوافق مع ذلك عودة الشتات السوداني إلى الديار التي هجرها هرباً من جور الزمن أحياناً، وجور بعض الحكام عليه أحياناً أخرى. ولأن النفط منذ أن بدأ ملء البراميل بالألوف، وسيصبح الرقم بعد ذلك بعشرات الألوف من البراميل، هو القضية التي تتقدم على سواها، فإن حرباً لا قعقة فيها للسلاح دارت رحاها من أجل الفوز بحقبة النفط التي هي «أم الوزارات». فالجنوبي يريد لها مستنداً إلى حيثيات تشبه في بعض جوانبها الحيثيات الكردية من برزانية وطالبانية بالنسبة الى كركوك، كما هنالك بعض أوجه الشبه لحيثيات سيّاد الطائفة الشيعية في العراق بالنسبة للجنوب عموماً. والشامي الإنقاذي يتمسك بها، لأن القدرة على إبقاء توازن القوى تحت السيطرة ستتلاشى مع الوقت وبحيث ان الشريك الجنوبي يصبح سيد اللعبة او الموقف ويصبح الشريك الشمالي أسيرها. ومثل هذه الحقيقة ليست من باب الإفتراض. أليس من يملك القرار النفطي من فنزويلا إلى السعودية إلى إيران إلى ليبيا إلى المكسيك إلى الجزائر إلى نيجيريا إلى بقية دول الخليج العربية فالعراق بعد أن يستعيد سيادته، هو اللاعب الأساسي عندما يكون هنالك تشاور على المستوى الدولي أو تكون هنالك حسابات على المستوى الاقليمي. ولكي لا تحدث أزمة ويتوقف الأمر عند حد تأخر الولادة فإنه كان لا بد من خطوات مشتركة في اتجاه المرونة وإستبدال الولادة الطبيعية وفي اليوم المحدد بولادة قيصرية مؤجلة لـ «حكومة

جورج بوش الأب، بعدما أجازت له ذلك القمة الإستثنائية التي دعا إليها الرئيس حسني مبارك وإستضافها في القاهرة يوم 10 أغسطس (آب) 1990، وتحقّظت على قراراتها اليمن وفلسطين والسودان وموريتانيا، وعارضتها تونس إلى جانب العراق، فيما لم تشارك تونس في تلك القمة. ففي مساء يوم الإثنين 10 سبتمبر (أيلول) 1990 أطلق الرئيس صدام مبادرة تضمنت «إستعداد العراق لتزويد المحتاجين من بلدان العالم الثالث ببترول العراق من غير ثمن.. وإذا ما تعدّر علينا نقل النفط في ناقلاتنا فعلى من يريد تدبير ذلك على حسابه الخاص». ولم يتمكن أحد من المحتاجين وهم بنسبة 99 في المائة من دول العالم الثالث من التزود بنفط العراق، إذ من سينقل ومن سيحمي الناقلات إن هي توفرت. وإنتهى الأمر بالمبادرة التي إستهدفت «النفط مقابل التأييد» إلى «النفط مقابل الغذاء»، مع ما رافق الصيغة الثانية من فضائح وسمسرات ونهب طالت نجل الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان، وعشرات من سماسرة لعبة الأمم والتلاعب بأقدار الشعوب.

وبعد خمس عشرة سنة وفي الشهر نفسه وتقريباً في الأسبوع نفسه، تحدث عملية إستتساخ من الجانب الإيراني للفكرة الصدامية، ويكون المستنسخ النجادي أكثر سخاء.. إنما من دون أن يكون في الإمكان تصدير «المعرفة النووية»، من عارفيها الإيرانيين إلى جاهليها الإسلاميين.

وفي إنتظار ما في الإمكان تصديره من المسلمين القادرين على التصدير، إلى المسلمين المحتاجين إلى الإستيراد، عدا «الثورة» التي لم تُطعم من جوع ولا أمنت من خوف، وعدا النفط الذي يمكن إهداؤه لفظاً و«المعرفة النووية» العسير نقلها، نتمنى لأمة المليار ونصف المليار رحمة رب العالمين، والإيمان بأن لحظة الإنفراج تأتي من عنده... وليست من عند أصحاب أكثر الإقتراحات إستحالة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 22 سبتمبر (أيلول) 2005

* * *

تأملات في السودان الإنتقالي

بعد طول إنتظار وصبر على التعجيزات تم يوم

الوحدة الوطنية». وفي نهاية الأمر إنطلق اللسان الإنقاذي الشمالي واللسان الجنوبي بـ «الزغرودة» التي أشرنا إليها وجاء المولود حكومة متجانسة، نال فيها حزب الإنقاذ، أي «المؤتمر الوطني» ما يمكن أن يعتبرها أمام الطيفين المدني والعسكري حصة الأسد، ما دامت وزارة النفط بقيت له وبقي فيها بالذات عوض الجاز الذي هو رديف الشيخ علي عثمان طه في نظر الإنقاذيين، من حيث القدرة على العمل الإستراتيجي.. فضلاً عن أن «عوض الإنقاذ» هذا حظي بقبول أهل الحكم في فترة توّعك الشيخ علي وسجل حضوراً مبهرًا في مجتمع النفط العالمي، سبق أن سجل في الحقبة النميرية حضوراً مماثلاً له مع إختلاف الظروف والمنطلقات الدكتور شريف التهامي. وإلى جانب النفط بقيت وزارة الدفاع ووزارة الداخلية ووزارة شؤون رئاسة الجمهورية من ضمن حصة الأسد. وأما الخارجية التي في إستطاعة سلفاكير الذي خلف جون قرنق غير المحسوم أمر حادثة الطائرة الأوغندية الرئاسية التي قضى فيها، أن يقول للجنوبيين لقد أخذوا وزارة النفط لكننا حصلنا في المقابل على وزارة الخارجية، فإنها في ظل زحمة المستشارين الذين ملأ الرئيس عمر البشير بهم قصر الرئاسة فباتوا كما لو أنهم حكومة داخل الحكومة أو «حكومة ظل» إلى جانب حكومة الأصل، ليست الطبقة الدسم على المائدة الجنوبية، إلا أنها مكسب له مردوده الجيد على الصعيد الدولي.. وهو ما يحتاجه الجنوبيون في المرحلة الإنتقالية وبعيداً عن الاتصالات التي ستتم مع المجتمع الدولي خلال السنوات الست لهذه المرحلة من شأنها تفعيل «لوبيات» كثيرة داخل أميركا والدول الأوروبية تناصر التوجه الجنوبي في مرحلة ما بعد الإستفتاء عام 2011.

ومما يلفت إنتباه المتابع مثل حالنا للشأن السوداني عموماً وللمراحل التي سبقت وأوجبت «حكومة الوحدة الوطنية» هي أنها من فئة الحكومات المحاصصة أو التخاصصية التي إشتهر بها لبنان دون غيره من الدول العربية، ولذا فإن نسبة الإستقرار فيها تتساوى مع نسبة الإضطراب والتعاضد. كما يلفت الإنتباه إلى أنها تبدو قريبة الشبه بـ «حكومة الأحزاب» التي جاءت على أنقاض سقوط عهد الجنرالات الذين قاد مجلسهم العسكري الفريق إبراهيم عبود. ولو أن القطبين الشغوفين بالمعارضة، السيد الصادق المهدي جارنا في صفحات الرأي الذي يرتضي التعددية في «الشرق

الأوسط» لكنه في تحركه كزعيم سياسي لـ «حزب الأمة» ومرجعية دينية لطائفة «الأنصار» لا يبدو متعاوناً، والشيخ حسن الترابي الذي لن يغفر لـ «تلامذة الإنقاذ» ما فعلوه بـ «أستاذهم وشيخهم وفقههم السياسي»، إنتسبا مع عميد الشيوعيين محمد إبراهيم نُقد إلى التسوية وشاركوا في الحكومة لكان المشهد التاريخي لـ «زعماء الأحزاب» عام 1964 الناشئ عن «ثورة أكتوبر» التي تشكل «الثورة البرتقالية» في أوكرانيا و«ثورة الأرز» اللبنانية إمتدادات لها أو بـ كلام آخر إن «البرتقالية» و«الأرزية» كانتا غصنين من تلك الشجرة السودانية، بدا وكما لو أنه يتكرر تماماً بعد 41 سنة وعلى قاعدة التاريخ السوداني يعيد نفسه. ومع ان هنالك حقيقتين تُركتا لـ «التجمع المعارض» ينالهما عندما يقتنع أن بعض الشيء سواء في الحكومة أو في البرلمان أفضل من لا شيء، إلا أن المسألة لا تبدو بهذا التبسيط. وسيبقى الأمر يقتصر على أن المرحلة الإنتقالية ستكون سجلات ومشاحنات لفظية فقط لا غير وتظاهرات ترفع الصيحات والعصي لا أكثر، بين القاعدة العريضة وبين المعارضين الذين آثروا البقاء على مسافة بعيدة من الوفاق الإنقاذي - الجنوبي ورأوا ان التغريد خارج السرب يؤسس لحضور ملموس في القاعدة الشعبية... إلا إذا خذلت القاعدة وبالذات الأجيال الجديدة السديين الأنصاري والختمي والرفيق الماركسي ورأت أن من حقها أن تواكب الركب فلا يصيبها ما أصاب جيل الآباء في الشتات أو داخل السودان نفسه.

وتبقى من الأمور اللافتة ظاهرة توزيع أحد المهمشين وهم مثل «بدون الخليج» مالك عقار أيار وزيراً للإستثمار، وظاهرة زحمة المستشارين الذين بلغ عددهم 12 مستشاراً قبل أن يصبحوا «أحد عشر كوكباً» بعزوف غازي صلاح الدين عن قبول المنصب منصرفاً هذا العتباتي العنيد إلى الدراسات والبحر السياسي، وظاهرة المحاصصة الجنوبية - الجنوبية وظاهرة نقل وزارة الداخلية من عهدة من ينتمي إلى الجنرالات إلى عهدة من ينتمي إلى الأكاديميين. فبالنسبة إلى الأولى يبدو الإكتار من المستشارين وإعتماد التنوع كما لو أن الرئيس البشير سيجعل من هؤلاء «غرفة عمليات السياسة الخارجية» بقيادة «المايسترو» الدكتور نافع علي نافع، خصوصاً أن معظمهم من أهل الخبرة ومنهم على سبيل المثال لا الحصر وزير

وتبقى الظاهرة الثالثة المتمثلة في إسناد وزارة الداخلية إلى الزبير بشير طه الذي لم يمنعه توجهه السياسي المستقل من أن يكون في موضوع الجنوب إنقاذياً أكثر من الإنقاذيين، بدليل أنه وهو الأكاديمي أستاذ الفلسفة في جامعة الخرطوم كان عندما شغل منصب وزير العلوم والثقافة يترك الوزارة من دون علم أحد لبضعة أسابيع يشارك فيها المقاتلين ضد حركة التمرد في الجنوب ثم يستأنف واجباته الوزارية بعد أن يعود ومن دون أن يجعل ما يقوم به مادة إعلامية. وعندما يتم إسناد منصب وزير الداخلية الى هذا الأكاديمي بدلاً من الجنرال عبد الرحيم محمد حسين الذي سبق أن إستقال من الوزارة بسبب حادثة من صُنِعَ القدر إلا أنه إعتبرها تقصيراً يوجب الإستقالة وإن لم يقبلها الرئيس البشير، فإن ذلك سيكون إيذاناً بسلوك جديد لوزارة تعتمد على البوليس في التعامل مع الناس.

يطول الكلام والتأمل في هذا العهد الجديد للسودان الذي يمكن بعد الآن إعتبره إنتقالياً لست سنوات. وللمرة الأولى سنعتبر هذا البلد وطناً للجميع وليس للبعض. وعندما يكون كذلك تصبح فرصة الإستقرار متاحة أكثر من ذي قبل... وربما منذ أن نال البلد إستقلاله ف «إستعمره» بنوه بالتداول وتحت تسميات مختلفة وبراقة.

صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 1 أكتوبر (ت) 2005

بوتين الصاروخي..

يكسر قاعدة الرؤاسات العربية

ما الذي يجعل الرئيس الروسي فلاديمير بوتين يرفق قوله يوم الثلاثاء 27 سبتمبر (أيلول) 2005 بأنه لن يجدد الرئاسة، مؤكداً أنه سيعارض تعديل الدستور الذي يتيح له تجديد الولاية الثانية، التي تنتهي عام 2008، بمفاجأة أورها على النحو الآتي: «نحن في صدد التخطيط وسنضع في الخدمة صواريخ إستراتيجية جديدة بالغة الدقة لا يملكها أي كان في العالم، حيث انها تفوق سرعة الصوت وقادرة على تبديل مسارها وإرتفاعها، وهي أنظمة صواريخ لا تُقهر عملياً، بما في ذلك بالنسبة إلى أنظمة الدفاع المضادة

الخارجية السابق مصطفى عثمان إسماعيل ووزير الخارجية الأسبق الدكتور منصور خالد الذي كان يتطلع إلى وزارة سيادية مثل التربية والتعليم والمحسوب على «الحركة الشعبية» كونه الوجه الثاني البارز إلى جانب ياسر عرفان عدل جون قرنق هما من الشماليين في حركة قرنق وكانا من القريبين منه لكن ليسا من القياديين.

ومع أن ظاهرة إزدحام دواوين الحكام بالمستشارين الفاعلين ليست مألوفة عدا ديوان الملك الراحل الحسين بن طلال ووارث عرشه نجله الملك عبدالله، إلا أنها خطوة إيجابية.. إنما في حال أن المستشار وجد من يطلب مشورته وفي حال أن المستشار أخلص في النصيحة وإبداء الرأي والتحليل الخالي من النفاق للحاكم. أما بالنسبة إلى ظاهرة المحاصصة الجنوبية فإن الذي يلفت الإنتباه أن الزعيم الجنوبي الأول سيلفاكير الذي خلف قرنق أرضى بني قومه قبائل الجنوب بما يهدئ من روعها فهو إختار لام اكول أحد وجوه قبيلة «الشلك» ثالث قبائل الجنوب ليكون وزيراً للخارجية ونياية رئاسة الجنوب لقبيلة «النوير». أما رئاسة الجنوب التي يتولاها فإنها للقبيلة الأهم «الدينكا». وتجدر الإشارة هنا إلى أن رئيس الدبلوماسية السودانية الجديد ليس طارئاً على عروبة الوزارة التي أسندت إليه بمثل إسناد وزارة خارجية العراق الى هوشييار زيباري وهو كردي. كما أن لام اكول الذي عاش كثيراً في الشمال وبدا بعد تركه وزارة النقل في حكومة الإنقاذ والانضمام إلى قرنق في الغابة انه من الجنوبيين البيض كمشاعر وكسحنة وذلك كون ملامح «الشلك» أقرب إلى أهل الشمال منها إلى الجنوبيين. وإلى ذلك فإن لام اكول كان لبعض الوقت جارا لكتّاب صفحات الرأي في «الشرق الأوسط». وكونه يتحدث العربية بطلاقة ويكتبها أيضاً فإن سفراء السودان وقناصله لن يجدوا مشقة في التعامل مع وزيرهم.. هذا مع الأخذ في الاعتبار أن الخارجية السودانية حافلة بعشرات السفراء والدبلوماسيين الجنوبيين وإن المنصب الأول نفسه سبق ان شغله وإن بصفة وزير دولة فرنسيس دينغ في زمن حكم نميري ويوم كان منصور خالد هو الوزير. وللتذكير فإن دينغ الذي يعمل الآن مستشاراً للأمين العام للأمم المتحدة للنازحين كان من حيث اللغة والقدرة على الترجمة من العربية إلى الإنكليزية وبالعكس أكثر براعة من شماليين كثيرين.

للسواريخ التي طورتها بعض الدول الشريكة، وأنه شارك أخيراً في تجارب لصاروخ بالغ الدقة يضرب دائرة واسعة...»؟

الذي يجعل بوتين يقول ذلك أحد أمرين:

الأول هو أنه يريد إبلاغ الشعب الروسي بأن رئاسته كانت مثمرة على صعيد شأن روسيا في مواجهة الدول الكبرى الأخرى، وأنه أعاد إلى الدولة هيبتها، فغدت مؤهلة لأن تكون عظمى؛ شأنها في ذلك شأن أميركا. كما أنه يريد إبلاغ الشعب بأن مبيعات الأسلحة الروسية التي بلغت عام 2004 ما قيمته خمسة مليارات دولار، إنما أنفقت على تطوير القوة العسكرية لروسيا. وكأنما قُصد من ذلك القول إن الكلمة هي للأقوى وليس للقوي في هذا الزمن، وأنه عندما تعود روسيا هي الأقوى، فإن الشأن الدولي لها سيصبح سهل المنال.

الأمر الثاني هو أن بوتين يريد من مفاجأته هذه القول ما معناه أنه لا يريد تسجيل سابقة تعديل الدستور من أجل تجديد ولاية ثالثة له، لأن معنى ذلك أنه سيحوّل نفسه إلى قيصر جديد، على أساس أن التجديد للمرة الثالثة قد يعقبه التجديد مرة رابعة وخامسة، ما دام في سن شابة، وما دام الأمر لا يحتاج إلى أكثر من تعديل دستوري جديد لن يكون صعباً، لأن التعديل الأول هو إنتهاك ما هو محرّم أو إفقاد للعذرية. أما وقد بات المحرّم محللاً ولم تعد العذرية عذرية، فإن تعديلاً جديداً على الدستور لن يكون مستهجناً.

لكن، في الوقت نفسه، نلاحظ أن رفاق بوتين وصفوا قوله هذا بالمفاجأة الصاروخية التي أشرنا إليها، قد يكون تكتيكاً ذكياً من جانبه يستهدف من ورائه جعل المواطن الروسي يقول بينه وبين نفسه: من الأفضل للبلاد؛ أن يبقى هذا الرجل في سدة الرئاسة، ما دام على هذه الثقة بالنفس والعزم على إعادة الشأن العسكري لروسيا.

ما يلفت الانتباه أن الرئيس بوتين يقول ما قاله في وقت هنالك ضعفة ملحوظة في الإدارة الأميركية، ناشئة عن المأزق الذي تعيشه في العراق وعن الإخفاق في مواجهة أعاصير الطبيعة، فضلاً عن أزمات عالقة بينها وبين كل من سوريا وإيران. كما يلفت الانتباه أن المفاجأة الصاروخية للرئيس بوتين تأتي في وقت يحدث انتعاش في التعاون السوري - الروسي على صعيد التسلح، متزامناً مع التعاون الإيراني - الروسي

النووي الذي لم ينقطع. ومثل هذه المفاجأة تشكل شبه طمأنينة للدولتين الحليفين سوريا وإيران، المستهدفتين من أميركا ومعظم الدول الأوروبية، لأسباب تتعلق بالأمن الإسرائيلي من جهة وبمعرفة ظروف واقعة إغتيال الزعيم اللبناني - العربي - الدولي رفيق الحريري، وما تلتها من عمليات إغتيال شملت سياسيين ولبنانيين.

وعلى هامش ما أوردناه، يبدو الرئيس بوتين من خلال مفاجأته الصاروخية وزهده غير المحسوم في مسألة التروؤس، يخطط لما هو أبعد من ذلك. ونفترض أن هذا «الأبعد» هو التقاعد الرئاسي الذي ربما يكون ترؤس مجلس الوزراء، في حال تحققت المفاجأة التالية؛ وهي توحيد الروسيّتين: روسيا الأم وروسيا البيضاء. وبطبيعة الحال فإنه عندما يحدث هذا التوحيد أن يكون رئيس الدولة بالتداول، أو يكون الرئيس من روسيا البيضاء، وفي صيغة من يملك ولا يحكم على نحو ما هو حاصل في بريطانيا وفي إسرائيل وغيرهما، ويكون منصب رئيس الوزراء هو الأقوى والفاعل. ومثل هكذا منصب يلي تطلعات بوتين خير تلبية. ومن هنا، يمكن تفسير مرامي قوله: «لا أعتبر أن مهمتي هي البقاء إلى الأبد في الكرملين لكي يبقى الوجه ذاته يظهر على التلفزيون. إن هدفي إيجاد ظروف لتنمية البلاد على المدى الطويل. ظروف يقود فيها البلاد مديرون شبان متعلمون وأكفاء. ولذا أعتقد أنه سيكون من الخطأ إحداث أي تغييرات كبيرة في التشريعات الحالية، وخصوصاً في دستور روسيا الاتحادية. وفي ما يخصني، فكما يقول العسكريون، سأجد لنفسي موقعا».

وتبقى الإشارة إلى أنها ليست المرة الأولى التي يتحدث بوتين باللغة الصاروخية، فقد سبق أن أشار إلى ذلك من قبل.. إنما من دون التأكيد على أن الصاروخ موضوع ذلك الحديث ليس مثل هذا الجديد الذي يصعب على أميركا قهره. لكن في الوقت نفسه تبقى المفاجأة ليست محسومة، ما دامت لا تزال في دائرة الكلام، وتبقى صواريخ بوتين إلى أن يعلن عن تجربة ناجحة لها مثل صواريخ إيران التي طالما هدد بها آيات الله أميركا وإسرائيل، ومثل صواريخ عراق صدام حسين التي لم تُستعمل على النحو المطلوب، فألحقت بعض الأذى بإسرائيل مقابل رمي العراق في المجهول على نحو ما يحدث منذ عام 1991، وما يصعب التنبؤ بنهايته.

الظروف والمعطيات والوقائع، بادئاً بالذي أوصل جون ميجور رجل الحسابات المصرفية المغمور الى رئاسة بريطانيا. ففي الوقت الذي كانت تانتشر في زيارة إلى فرنسا عام 1991 للتباحث مع رئيسها فرنسوا ميتران، والذي كانت تخوض معه مبارزة الزعامة الأقوى لأوروبا، أتاها من لندن أسوأ خبر في حياته وخلاصته أن تمرداً على زعامتها حدث داخل حزب المحافظين، وأن الحزب يرى أن تتنحى لأن في ذلك مصلحة لوحده التي كانت بدأت تتشقق نتيجة اندماج سياسي فوق درجة التوازن والتحمل بين تانتشر والرئيس جورج بوش الأب.

كان الخبر مثل أخبار الإستقالات التي يسمعها الوزراء في دول العالم الثالث من الإذاعة. كذلك كان الخبر دعوة عاجلة إلى تانتشر لكي تعود الى لندن لا لتحاول كما يحدث في دول العالم الثالث قيادة إنقلاب على الإنقلاب، فنحن هنا في بريطانيا، حيث الديمقراطية أهم من الأمزجة ومن كل النياشين على الصدور، وإنما لكي تجمع أوراقها وتغادر مقر رئاسة الوزراء.

غادرت السيدة الحديدية مقر رئاسة الوزراء (10 داوننغ ستريت) وقد جُرِّدت من حديدتها، وبعد الإنصراف الدرامي وجد البريطانيون أنفسهم أمام رئيس وزراء جديد دخيل على النادي السياسي، ذلك أنه كان مجرد وزير للخزانة في الحكومة التاتشيرية ولا وقت كافٍ لديه للتوغل في دهاليز العمل السياسي. لكنه في الوقت نفسه بارع في تدقيق الحسابات وصاحب خبرة مالية وليس مضطراً للمسايرة. عاش حياته في الظل لا تصل أشعة شمس العمل السياسي اليه. لا يوحى بالتحدي. وتضفي عليه النظارات الطبية بعض المهيبة. وخلال سنة شعرت بريطانيا معه بإستقرار نفسي كان غائباً نتيجة المعارك التاتشيرية في كل الإتجاهات من «حرب الفوكلاند» إلى «حرب العراق» الى ضجيج الحروب السياسية في الداخل وعلى المستوى الأوروبي عموماً. ومع السنة الثانية من توليه الرئاسة نجح جون ميجور في تهدئة الخواطر البريطانية ووضع أجندة ترشيد للإزدهار غير المدروس الذي كان من ظواهر الحقبة التاتشيرية. والأهم من هذا كله هو أن الرجل أوحى من خلال الممارسة بأنه لا يتطلع إلى الزعامة ولن يصارع أحداً في الحلبة الأوروبية، وأنه يفضل أن يغادر مشكوراً وليس مقهوراً، وعائداً إلى عالم الإستشارات الحسابية والمالية والمصرفية من دون أسف على منصب عال

تبقى الإشارة أيضاً إلى أن المفاجأة الصاروخية لم يعلنها بوتين في عرض عسكري تستوجب هيبة المناسبة تسجيل كلام يلفت الإنتباه، ويترك في الأفق الكثير من المشاعر القلقة لدى الآخرين، وإنما أعلنها في سياق لقاء تلفزيوني، وبذلك بدا كمن يعرض برنامجاً الرئاسي لما بعد عام 2008. كما أنه في مفاجأته هذه بدا كمن يعاود تشجير غابات الصواريخ الإستراتيجية التي سبق أن تقاهمت الإدارة الأميركية في عهد غورباتشوف وفي عهد يلتسين على تفكيكها، إنما هذه المرة بسلالة جديدة قد يفهمها العم سام أكثر من كونها بلغة «رامبو». وما يعيننا كدول عربية، ليست قلقة من الصاروخ الذي لا يُقهر لأنه لن يوجّه إلينا، من كلام بوتين في شأن التعديل الدستوري بغرض التجديد، هو أن «القيصر» الروسي الجديد يكسر قاعدة لها صفة القداسة في المجتمع الرئاسي العربي، وهو التمديد أحياناً أو التجديد المستمر إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. لذا له كثير الشكر... إن هو صَمَدٌ وَصَدَقَ.

صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 8 أكتوبر (ت) 2005

* * *

ميجور والسنيرة: المفاجأة البريطانية.. والمفاجأة اللبنانية

فاجأ رئيس الحكومة اللبنانية فؤاد السنيرة المجتمع السياسي اللبناني وأهل القرار العربي والدولي عموماً بأنه رجل يملك من الحذاقة في التعاطي مع القضايا الشائكة، وأحدثها موضوع السلاح الفلسطيني وإرتفاع صوت «الجهة الشعبية - القيادة العامة» على صوت الحكمة المطلوبة أكثر من أي وقت مضى، ما يجعله دائماً في مأمن السقطات. وحيث أنني من الذين عايشوا في بريطانيا على مدى سنوات تبديلاً صاعقاً في رئاستها غدت بموجبه السيدة مارغريت تانتشر خارج 10 داوننغ ستريت ثم خارج الحلبة السياسية، وحل محلها جون ميجور كرئيس للوزراء، فإنني أُجيز لنفسي وفي ضوء ما حدث للرئيس رفيق الحريري يوم الإثنين 14 فبراير (شباط) 2005 أن أرى في السنيرة أنه جون ميجور بطبعته اللبنانية.

مثل هذا التوصيف يستوجب إستحضار بعض

ضاح.

رفيق الحريري وإنما ترميم تصدعات سياسية ومالية وعلى نحو ما فعله جون ميجور في بريطانيا الذي لم ينشغل بإطفاء مصابيح الحقبة التاتشرية لكي يضيء مصابيح ولا هو إنشغل بالتخطيط لكي يحكم إحدى عشرة سنة كما حكمت تاتشر، وإنما ليعالج حالات بالغة التعقيد. ومثلما أن ميجور كان مفاجأة للبريطانيين وأمكنه رتق علاقة بريطانيا بالأوروبيين وإستطاع أن يبقى سبع سنوات رئيساً للحكومة، فإن فؤاد السنيورة الذي أوصلته ظروف مماثلة لبعض الظروف التي أوصلت جون ميجور أمكنه أن يشكل هو الآخر مفاجأة للبنانيين، بعد نجاحه في تهدئة العتب السوري، وتطمين المستثمر العربي وحسن مخاطبة الأشقاء من السعودية إلى الكويت إلى مصر إلى دولة الإمارات إلى الحضور المبهر في واشنطن بعد نيويورك إلى التعاطي مع موضوع السلاح الفلسطيني في المخيمات. ومثلما أن نقطة القوة في شخص ميجور كانت القناعة والإقتناع فإنها هي نفسها في شخص السنيورة.. أي القناعة بما يمكن أن يناله من سنوات في ترؤس الحكومة من دون التطلع إلى المزيد. والإقتناع بأنه رئيس حكومة لفترة إنتقالية يحافظ فيها على المنصب لسعد الدين الحريري الذي يتراءى بعده، ويهتم خلال المحافظة على المنصب بترتيب البيت الحكومي بحيث عندما يدخله سعد الحريري يكون في غاية التنظيم، بمعنى أن كل شيء في المكان المناسب والصحيح. وتلك حال من ينتسبون إلى دنيا المال والعمل المصرفي وميزانيات الدولة، ومن هؤلاء جون ميجور الذي وضع ميزانيات مستقيمة يوم كان وزيراً للمالية في حكومة تاتشر وفؤاد السنيورة الذي بذل المستطاع من أجل ميزانيات مستقيمة وما زال يأمل بذلك. لعله ينجح في تحقيق ما يتمناه عندما يعود وزيراً للمالية في أول حكومة يتأسسها سعد الدين الحريري... الذي يكتسب يوماً من الخبرة ما قد يقيه شر الصدمات.

صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 22 أكتوبر (ت) 2005

* * *

العراق: أفق المصالحة والوفاق.. محل

الشقاق والنفاق

جزعنا على الأمين العام عمرو موسى من ضيم يصيبه مثل الذي أصاب غيره من قبل وكاد يصيب

ما حدث في لبنان هو أن رفيق الحريري الذي كان ظاهرة لافتة في الحياة السياسية قضى في أفجع عملية إغتيال تحدث في العالم العربي. ومع أن السادات كان بطل حرب 1973 ورئيس الدولة العربية الأكبر إلا أن دوي إغتياله وهو على المنصة يحتفل يوم 6 أكتوبر (تشرين الأول) 1981 بذكرى الإنتصار الميهر والمثير للكهونات والدوافع والجدل، إلا أن تداعيات إغتياله لم تأت مصرياً وعربياً وإقليمياً ودولياً بالدوي الذي نشأ عن إغتيال الحريري يوم الإثنين 14 فبراير (شباط) 2005. بعد هذا الإغتيال حدث فراغ في الزعامة السنية لم يملأه أحد أعضاء نادي رؤساء الحكومات عمر كرامي رغم انه من بيت سياسي عريق وأنه شقيق رئيس حكومة هو رشيد كرامي وابن رئيس حكومة هو عبد الحميد كرامي. ثم جيء بنجيب ميقاتي ليرأس حكومة إنتخابات برلمانية جديدة إنتهت جولتها إلى فوز ما إصطُح على تسميته «تيار الحريري» وحلفائه بأكثرية المقاعد. وفيما ساد الاعتقاد بأن الشروط مستوفاة أمام سعد الدين الحريري الابن الثاني لرفيق الحريري لكي يتراءى هو الحكومة، فإن سعد الدين إرتأى ترك مسألة التروؤس إلى ما بعد إنتهاء لجنة التحقيق الدولية في إغتيال والده وإصدار قرار الإتهام. وهو في ذلك نجى نفسه من تجربة التروؤس المبكر وما تتسبب به من إرتباكات وإنتكاسات تؤثر على المسيرة السياسية مستقبلاً، وعلى نحو ما حدث للسيد الصادق المهدي في السودان الذي كان أول من يتراءى حكومة في السودان، وفي العالم العربي وغيره عموماً، وهو في العقد الثالث من العمر. وفي ضوء الحسابات وصوناً لما يمكن أن يحدث إختار الحريري الابن، فؤاد السنيورة الشخص الأكثر إقترباً مصرفياً من والده ليكون هو من يتراءى الحكومة الدائمة شكلاً، الإنتقالية ضمناً، أو بالأحرى من يحفظ له كرسي الرئاسة الثالثة إلى حين يتسلمها هو وقد حُسمت أمور كثيرة.. أو بمعنى آخر يتسلمها مع تسلّم رئيس جديد للجمهورية.

بات فؤاد السنيورة بعدما تسلّم رئاسة الحكومة بما يشبه «المبايعة البرلمانية» ظاهرة إستوقفت اللبنانيين والعرب والمجتمع الدولي. فهو إعتد المرونة ولغة التخاطب التي لا تستفز. وإستطاع أن يعيد الطمأنينة إلى المستثمرين العرب الذين كانوا بدأوا يفكرون بعد إغتيال الحريري بتجميد إستثماراتهم. وهو إلى ذلك لم يتصرف على أنه سيملاً الفراغ الذي نشأ عن تغيب

اللجنة التي أوفدها الرجل لتحضير الأرضية المناسبة للزيارة. ولكن عمرو موسى لم يصّب بغير شظايا كلامية طالما إعتاد عليها وجاءته مرة من الكويت وأخرى من الإمارات ووصلت إلى حد قول مقامات في الدولتين عبارة غير مستحبة هي: «مَنْ هو عمرو موسى». انه موظف عندنا بمنصب الأمين العام للجامعة وندفع له مرتبه». وإقتصار الضيم على تصريحات إستهدفته وبدت في خشونتها وإفتقارها إلى اللياقة مثل تلك التي إستهدفت الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودية ناقل المبادرة المدعومة من أبو المبادرات الطبية الملك عبدالله بن عبد العزيز، جعلتنا نرجّح كفة القبول العراقي الضمني بالسعي ليس بغرض التعريب لجهة انتزاع الحالة العراقية من القبضة الأميركية - البريطانية، فهذا أمر لا قدرة لأصحاب المبادرة على خوض غماره، وإنما لتخفيف الوطأة بعض الشيء عن الكاهل الأميركي المتقل بأرقام رسمية لضحاياه في العراق، علماً بأن ما أذيع هو أقل من الحقيقة بكثير بشهادة الذين تولوا رصد المغامرة الأميركية - البريطانية في العراق منذ اليوم الأول.

ولكن لندع أرقام الراصدين جانباً والتي ترى ضرب الرقم الرسمي بثلاثة أضعاف كقتلى وجرحى وأصحاب عاهات دائمة، ونتوقف عند الأرقام الرسمية التي كانت وصلت حتى بداية الثلث الأخير من أكتوبر (تشرين الأول) 2005 أي بعد سنتين ونصف السنة على إسقاط النظام الصّدّامي، إلى ألفي قتيل و15220 جريحاً بينهم أكثر من 7100 جندي أصيبوا إصابات بالغة تمنعهم على حد بيان توضيحي لـ «البنّاغون» من العودة إلى الخدمة. أما اللافت في البيان، والشبيهة صياغته من حيث التلميح والتحفّظ بالبيانات التي تصدر عن مؤسسات أمنية وعسكرية في بعض دول العالم الثالث، فهو تضمينه فقرة من بضع كلمات تقيد بأن هنالك آلاف آخرين من أفراد القوات الأميركية العاملة في العراق أصيبوا في حوادث لا تتصل بالعمليات القتالية، وهذا تأكيد للمعلومات التي طالما أفصحت عنها مصادر أميركية مطلعة، وجرى نشرها إلكترونياً وتتحدث عن حالات إنتحار بالجملة لجنود وضباط أميركان، وعن حوادث إطلاق نار من أفراد أميركان ضد زملاء لهم.

وبطبيعة الحال فإنه عندما يصل رقم القتلى إلى ألفين أن يضاء النور الأحمر علامة الخطر، وهذا أمر إعتاد عليه الأميركيون في الحرب العالمية ثم في حرب

فيتنام، حيث باتوا يرون أنه ما دام العدد غداً بثلاثة أصفار إلى جانب الرقم واحد، فهذا يعني أن الإحتساب سيتم وفق قاعدة الألف الأول والألف الثاني.. وهكذا. وبموجب هذا الإحتساب لا يعود النسيج الإجتماعي بالمتانة المطلوبة لتأمين الإستقرار المطلوب، فضلاً عن أن النظرة إلى المسألة ستتبدل، أو بحيث يقال إنه لو لم نخض الحرب وإكتفينا بسلاح الحصار الإقتصادي، لما كنا فقدنا في الأشهر الأولى بضع عشرات ثم في الأشهر اللاحقة بضع مئات ثم في السنة التالية المزيد من المئات، وهذا يعني أنه كلما بقينا في العراق فإن الخسائر ستترايد، ولن يكون رقم الخسارة مع إنتهاء سنة جديدة، أقل من خسائرنّا في الحرب العالمية أو أقل من خسائرنّا في حرب فيتنام.. هذا مع الأخذ في الإعتبار أنه لولا الإستتفار الطبي جواً وبراً وعلى مدار الأربع والعشرين ساعة، وكذلك لولا التزود بأفضل أنواع السلاح والتقنية العسكرية وبالذات على صعيد الإتصال، لكانت ربما الأرقام التي أذاعها «البنّاغون» عن الخسائر في العراق أكبر بكثير وحتى أكبر من الرقم غير الرسمي المعترف به من جانب جماعات محايدة ترصد الخسائر بدقة متناهية.

في ضوء هذا الواقع يصبح من الطبيعي الإفتراض بأن المبادرة التي يعمل على إنجازها عمرو موسى هي موضع القبول الأميركي والإرتضاء العراقي وإن بالتدرج. فهذه المبادرة قد تحقق المصالحة. والمصالحة معناها وقف العنف ونزع الالغام المزروعة في طريق الآليات الأميركية. ووقف العنف يعني أن يأخذ الدستور الذي أعلن في يوم ذكرى إستشهاد الإمام علي عن فوزه بموافقة 78.59 في المائة عليه من أصل المشتركين في الإستفتاء طريقه إلى المحطة اللاحقة، والفضل في ذلك لـ «النينويين» كون محافظة نينوى وبالذات عاصمتها الموصل، بدت مثل فلوريدا بالنسبة إلى فوز بوش الابن. ونقول انها مثلها كون هذه المحافظة تشكل العنصر الحاسم في فوز الدستور أو سقوطه عند إحتساب النتائج. وعندما تم فرز الاصوات مالت كفة الـ «نعم» للدستور بفضل النينويين الذين أثروا الحكمة والانسجام مع الأكثرية، حتى إذا قال عنهم سُنّة محافظة صلاح الدين ومحافظة الانبار انهم طبعه جديدة من الخواارج. ولن تلغي ظاهرة الإقبال الكردي والشيعي على أوراق الـ «نعم» حقيقة أن نقطة الضعف في هذا الإستفتاء أنه تم في ظل حالة

ويصيب حكم الأسد الابن بشّار ما أصاب حكم صدام، الذي إعتد الرفض والتحدي بدل الإنحناء التكتيكي أمام العاصفة. ويا أهل العراق. هذه لحظة إعتبار مقولة الحجاج انتهت... وحلت المصالحة والوفاق محل الشقاق والنفاق.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 8 نوفمبر (ت) 2005

* * *

من دمشق وطهران.. إلى باريس وعمان: ما هذا الذي يحدث؟

ليست حال الملك عبدالله الثاني بأفضل من حال الرئيس جاك شيراك. ومن يتأمل في ملامح وجه كل من الإثنين عقب الحرائق المخزية في باريس وتفجيرات الفنادق في عمان، وهي أيضاً مخزية، يمكنه قراءة ما يجيش في الصدر من غضب وآلام لا مثيل لها. ويمكنه، وهذا هو الأهم، الافتراض بأن الرئيس الفرنسي يتمنى لو كان في إستطاعته أن يقول بالصوت العالي من هي الأطراف الحقيقية التي تقف وراء هذه الفوضى وتغذيها، لكي تعصف بهيبة الحكم الشيراكي وتنقل فرنسا من دولة كبرى صاحبة دور في مجريات القضايا العالمية.. وبالذات ما يتعلق بالشرق الأوسط، إلى دولة مجروحة الكبرياء تحاول رئاستها وحكومتها لملمة آثار الصدمة الناشئة عن تحويل عاصمة النور إلى عاصمة النار. كما يمكن للمتأمل الافتراض بأن الملك عبدالله الثاني يتمنى لو كان هو الآخر في إستطاعته القول وبالصوت الأعلى من هي الأطراف الحقيقية التي تبغي من تفجيرات الفنادق تصوير الإسلام على أنه المشكلة كون بعض المسلمين لا يتورعون عن تفجير صالات في الفنادق يكون فيها إحتفال عائلي أو مناسبة زواج، ومن دون أن يشفق هؤلاء على أبرياء تُسَفح دماؤهم وعلى أرواح تفيض وأجساد تتلوى بشظايا التفجيرات.

قد نجد من يقول إستناداً الى ما حدث في ديار عربية وإسلامية كثيرة، ان هنالك من بين المسلمين افراداً أعمى الضلال بصيرتهم وانتزع من قلوبهم مشاعر الرحمة، يمكن ان يفعلوا الكثير ويقترفوا من الإجرام أشده، ولذا فلا موجب للتشكيك. والرد على ذلك هو أن هنالك نفوساً كثيرة أمّارة بالإجرام وفي ظن

إحتلال، وليس على سبيل المثال تحت رعاية الامم المتحدة ووجود قوات من المنظمة الدولية بدلاً من وجود قوات رمزية من دول حليفة. أما المحطة اللاحقة التي تشير إلى «عراق الدستور الأول بموجب الاستفتاء الشعبي»، فهي إجراء الانتخابات البرلمانية يوم 15 ديسمبر (كانون الأول). فقيام «حكومة الدستور» المرجح أن يستعيد إباد علاوي ترؤسها بتزكية أميركية - بريطانية وبحيث يُشرك فيها وجوهاً بعثية سنية قد يساعد الحزم العلاوي من جهة والتمثيل البعثي المتأمر من جهة أخرى في الحكومة على تحقيق شيء من التوازن المفقود، وبحيث لا يعود الصوت الشيعي والصوت الكردي وهما صوتا الضرر من الحقة الصدامية هما الأعلى. وهذا التوازن يساعد بدوره على تحقيق تهدئة نوعية، وعلى إنحسار متدرج للنفور السني الذي تتم ترجمته إلى أعمال عنف تحرق الاخضر ومن دون رحمة.

تتحقق المصالحة المرجوة وتستضيف القاهرة المؤتمر المأمول، أم يصيبها ما سبق محاولة مماثلة قام بها لتخفيف العزلة والحصار عن العراق الصدامي رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ومحاولة في الإطار نفسه سعى إليها رئيس اليمن علي عبدالله صالح؟

والرد على ذلك أن للمبادرة العربية التي يتولاها عمرو موسى فرصة الفوز بالنجاح النسبي القابل للتطوير ما دامت ستخفف من الأثقال عن الكاهل الأميركي، وتحقق في الوقت نفسه الإستقرار النسبي في العراق الغارق بدماء أبنائه ومعهم جنود العم سام. وسلفاً نقول إن الأطياف العراقية ستشارك في مؤتمر المصالحة، لكن هذه الأخيرة لن تثمر إتفاقاً مثل إتفاق الطائف إذا كان عراقيو الزمن الأميركي سيمارسون أسلوب الإلغاء الذي سبق ان مارسه الزمن الصدامي عندما ألغى غير البعثيين ليستأثر البعثيون بكل مفاصل السلطة. ولذا فإن القبول بالبعثيين كشريك هو المدخل إلى الإستقرار، خصوصاً أن هؤلاء إستوعبوا على ما نظن ضرر الإلغاء ورأوا ما الذي إنتهت إليه محاولة في لبنان في النصف الثاني من السبعينيات، استهدفت الغاء فريق لآخر وعزله سياسياً. فبسبب تلك المحاولة العنيدة دامت الحرب ست عشرة سنة. ومن هذه البوابة دخلت سوريا الأسد الأب ليخرج منها مضطراً الأسد الابن، وقد يعقب عناد مرحلة ما بعد الخروج الإضطرابي أن يصيب سوريا ما أصاب لبنان،

عملوا على إصابة هيبة الرئيس المستتسخ جاك شيراك. وهناك الكثير من الأسباب الموجبة لكي تفعل الجهة نفسها بالرئيس شيراك ما فعلته بالرئيس ديغول، مستخدمة هذه المرة الصدمة اليمينية المتطرفة المتمثلة بشخص جان ماري لوبن. وليس على ما يبدو أفضل من توظيف «الإرهاب الإسلامي» لهذا الغرض ما دامت آلة الإعلام الغربي نجحت في تصوير الإسلام بأنه دين «إرهاب» وأن الإسلامي المتدين هو سلاح من أسلحة التدمير الشامل للحياة المضنية، مثل باريس، أو لبهجة الناس يحتفلون بزفاف الأبناء أو البنات في فنادق العاصمة الأردنية. ومن هنا فإن التنبه في مثل هذه الحال ضروري بمثل ما إن الاستكار ضروري أيضاً، إنما في الوقت نفسه البحث في المشهد آمناً عن أطراف مختبئة تقتل الحادث بإشعال عود الكبريت بيد إسلامية، ثم ترمي النار بالمزيد من الحطب بأيدي اجنبية ومتصهينة.

وأخشى ما نخشاه بعد سماعنا ومشاهدتنا الرئيس بشار الأسد يلقي خطاب الاعتزاز الإضراري بالنفس يوم الخميس 10 نوفمبر (تشرين الثاني) الجاري من على منبر جامعة دمشق، أن يجن جنون المجتمع الدولي المنساق وراء الإدارة البوشية، ويفسر بعض عبارات الرئيس بشار في خطابه على نحو تفسيره في الماضي لعبارات خطب الاعتزاز بالنفس الصدامية على أنها دعوة للمنازلة. ومن هذه العبارات على سبيل المثال لا الحصر: «إن عصر الوصايات الذي كان سائداً في بداية القرن الماضي ولّى»، و«إذا كنا صمدنا منذ البداية فإننا سننتصر في النهاية» و«إنني لن أكون الرئيس الذي يحني رأسه أو رأس شعبه لأي كان»، و«إذا حصل ضرر ما فلن يصيب سوريا فحسب، بل بلداناً أخرى أيضاً، وكذلك العملاء الذين أتوا بالمستعمر...». وفي حال جاء التفسير على نحو ما نشير إليه فإن المنطقة ستكون بالفعل على كف العفريت البوشي. حمى الله سوريا من جموح هذا العفريت.

وخطاب الرئيس بشار من على منبر جامعة دمشق يجعلنا نستحضر خطاب الرئيس الإيراني محمود أحدي نجاد يوم الأربعاء 26 أكتوبر (تشرين الأول) الماضي من على منبر جامعة طهران لمناسبة «يوم القدس»، ودعا فيه إلى «إزالة إسرائيل من الوجود» معتبراً أن هنالك معركة تدور «بين الأمة الإسلامية وجبهة الكفر، وستنتهي إلى عالم خال من أميركا

أصحابها أن هذا الذي يفعلونه هو نوع من الجهاد في سبيل الله، لكن في الوقت نفسه من الضروري أن نبحث عن الذين يوظفون هذه العمليات الإجرامية لمآربهم الخاصة والتي هي مأرب شريرة. وعند البحث سيكتبن لنا أن المخططين هم الأكثر خطورة وأن الفاعلين هم اشخاص مغرر بهم.. هذا فضلاً عن بعض المؤشرات التي تفسر لنا أموراً كثيرة. وعلى سبيل المثال لا الحصر ما أوردته صحيفة «هآرتس» من معلومات مفادها أن قوات الأمن الأردنية أخلت عدداً من الإسرائيليين من فندق «راديسون» قبل ساعات التفجيرات التي تعرض لها الفندق بعد تحذير أمني، وأن قوات أمن اردنية رافقت الإسرائيليين خلال أعادتهم إلى إسرائيل. وإذا صح هذا الكلام يجوز عندها التساؤل: هل أن مصدر التحذير جهة إسرائيلية؟ وإذا كانت ليست كذلك، أي انها جهة اردنية، فلماذا حرصها على ترحيل الإسرائيليين وعدم حرصها على بقية ساكني الفندق؟ ولماذا لم يتم إخلاؤه على الفور وإلغاء حفلة الزفاف وأي حفلات إستقبال أخرى وضرب طوق أمني حول الفندق وبحيث لا تعود هنالك كارثة كتلك التي حدثت؟

ونستحضر ونحن نتأسى على المئات الذين قتلوا أو أصيبوا بجروح في «أيلول الاسود» النيويوركي عام 2001، كيف أن العاملين والموظفين اليهود في مكاتب شركات في مركز التجارة العالمية في نيويورك لم يأتوا دون غيرهم من سائر العاملين والموظفين يوم العملية الترويعية، التي إستهدفت برجى المركز، وبذلك نجوا من الموت لأن هنالك من أبلغهم بما سيحدث، فيما العشرات سقطوا ضحايا.

لن نغوص إلى القاع في موضوع ترجيح نظرية المؤامرة الصهيونية ونحن نرى ما يحدث في عمان، ونخشى أن يتكرر في تونس خلال قمة المعلوماتية نتيجة مشاركة إسرائيل فيها وسط إحياءات تونسية في إتجاه التطبيع، وما لا يزال قابلاً للإشتعال في باريس لمجرد رفع حالة الطوارئ خصوصاً أن وزير الداخلية ساركوزي لم يتعامل ببعد نظر مع إنتفاضة «بدون» فرنسا، الأمر الذي إستوجب صدور لوم خشن له من جانب شيراك ربما بغرض حذفه كمرشح للخلافة الشيراكية.

إلاً أننا في الوقت نفسه نرى أن الذين أصابوا الجنرال ديغول في هيئته من خلال ما سُمي «ثورة الطلاب» التي قادها كوهين باندت، هم أنفسهم الذين

قمة السلام والسلامة للأمتين في رحاب مكة

بعد مبادرته التي هي الحل الذي لا حل غيره، تأتي القمة الإسلامية الإستثنائية التي أراها مزيجاً من الروحانية والسياسة، ومن أجل ذلك حدد مكة المكرمة مكاناً لإنعقادها يومي 7 و8 ديسمبر (كانون الأول) الحالي، لتكون قمته بالمعنى التاريخي للكلمة. وهكذا فإن عبدالله بن عبد العزيز الذي أمكنه كولي للعهد جمع الملوك والرؤساء العرب في القمة الدورية الثانية (أواخر مارس/ آذار 2002) التي إستضافها تجبيراً الرئيس الإماراتي (الراحل) الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في بيروت، يسعى منذ أن غدا الملك وحامل صفة خادم الحرمين بعد المغفور له الملك فهد بن عبد العزيز لجمع الأمة الإسلامية على كلمة سواء، تكون في الحد الأدنى مثل الإجماع العربي على أمر من النادر تحقيق إجماع عليه.

زمن إنعقاد القمة الدورية العربية الثانية كانت الحالة العراقية هي المشكلة الطارئة، إضافة إلى الحالة الفلسطينية التي هي المشكلة الدائمة التي تتوارثها الاجتماعات والمؤتمرات العربية منذ أكثر من نصف قرن حافلة سنواته بالصدمات والمغامرات والمؤامرات. ومع ذلك وإستناداً إلى الحنكة والحكمة والإحتكام إلى الرؤية الموضوعية لواقع الحال الإقليمي والدولي أمكن عبدالله بن عبد العزيز إضفاء التهدة على المشاعر من جهة وتقليص نسبة المرارة في النفوس من جهة أخرى، فجاء الإجماع على رؤيته للصراع العربي - الإسرائيلي لتكون مبادرة لا تحفظات عليها ولا تراجع عنها، يؤكد فعالية الإحتكام إلى الموضوعية في العلاج. كما جاءت لحظات خاطفة من العناق والمصارحة مع العراق الصّدّامي تشكل بداية محاولة لتقليص نسبة المرارة في النفس الخليجية الناشئة عن الإجتياح العراقي للكويت يوم الخميس 2 أغسطس (آب) 1990 وما تلا الإجتياح من إجتهدات وإقتراعات. وقد تمثلت اللحظات الخاطفة المشار إليها في شخص عزت إبراهيم الدوري، الذي كان عجز الدولة الأعظم عن العثور عليه بينما رفاقه الآخرين، وعلى رأسهم كبيرهم صدام قيد المحاكمة، يشكل علامة إستفهام كبرى الى جانب علامة الإستفهام الأخرى المتعلقة بالعجز المتواصل عن العثور على بن لادن

والصهيونية». والإستحضار بمعنى أن جهوداً شاقة سيبدلها الرئيس بشّار لترطيب الأجواء الدولية والمشاعر اللبنانية والصدمة المصرية والسعودية والخليجية عموماً الناشئة عن بعض المفردات التي وردت في خطابه. وهنا نجد أنفسنا نقول إنه على رغم الغضب المتراكم في نفس الرئيس بشّار مما آلت إليه الأمور، فإنه لو وزع نسخاً من خطابه على بعض الذين يريدون له الخير والذين إذا هم نصحو اسدوا النصيحة المخلصة والخالية من الغرض، لكان هؤلاء أوصوا بحذف مقاطع كثيرة من الخطاب، ولكان صاحبه سيرى خيراً في هذا الحذف، ولكان أيضاً سيتحاشى الخروج على أي كلمة مكتوبة وبعد التعديل أو الحذف. وهو الشيء نفسه الذي كان سيحدث مع الرئيس الإيراني الذي بالغ في الصراخ وجعل بقية دوائر صنع القرار الإيراني تحاول لملمة الآثار السلبية الناشئة عن المفردات النجّادية، التي لا تختلف عن مفردات «زاباتا» القارة اللاتينية الجديد شافيز.

أما وإن ذلك لم يحدث وبدا الخطاب وكأنما هو مكتوب بقلم الرئيس الأسد الأب، ومن نوع الخطابات الصادمة والمحنة شأنه في ذلك شأن الخطاب النجّادي، فإن التلطيف حتى من الذين يشكلون العمق الأسدي في لبنان وبعض الدول العربية لن يكون بذلك الأمر اليسير.. وبالذات تلك المفردات التي لمس فيها الرئيس بشّار الحالة الحربية أباً وابناً مع نوعيت ظالمة، طالت رئيس الحكومة اللبنانية فؤاد السنيورة الحريري الهوى والإلتزام ووصفه بأنه «عبد مأمور عند عبد مأمور». ومن الطبيعي الإفتراض بأن كثيرين سينظرون إلى التجنيات البشّارية على الحربية والحريريين على أنها في بعض جوانبها نوع من الحسد، كون أبواب العرب والعالم مفتوحة على مصاريعها أمام سعد الدين الحريري، مع أنه ليس رئيس دولة وموصدة أمام رئيس سوريا تلك الدولة التي تشكل الرقم الصعب... والتي غدت على نحو الإستنتاج الذي نخرج به من القراءة المتأنية لخطاب الرئيس بشّار مستهدفة حتى لو نفذ رئيسها ما يمكن تنفيذه لدواعي الإضطراب، وما لا يجوز إلزاماً بوصايا الوالد الرئيس الراحل التساهل فيه، وإعتقاد سياسة حافة الهاوية إذا تطلّب الأمر ذلك... وهذا ما حدث.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الثلاثاء 22 نوفمبر (ت) 2005

* * *

في الخليج ويُقنع الإماراتيين بضرورة اعتبار الجزر المحتلة من إيران يمثل الإسكندرون المقتطعة من سوريا مستعملاً عبارة تتضمن قوله إنه بهذا الإرضاء «كمن يتجرع السم»، وبعد رحيل الرئيس الأسد الأب الذي إرتضى مشاركة أميركا بوش الأب الحرب على العراق مقابل التسليم الدولي بالدور السوري في لبنان والتراضي برعاية أميركية دولية في ما يتعلق بالجلولان المحتل. والقول بأنهما يتقاطعان لأن الإدارات الأميركية المتعاقبة أخلت مع إيران على نحو إخلالها مع سوريا، فهي لم تكف بعدم ترجمة الوعد إلى عهد، وإنما قررت على ما أفادت التطورات حذف الطرفين السوري والإيراني كرقمين ثوريين ووطنيين صعبين أو أمركتهما بالرضى. ومن هنا جاءت القمة الإسلامية الإستثنائية أو قمة عبدالله بن عبد العزيز الذي إغتتم مناسبة موسم الحج الماضي لإطلاق الدعوة إليها لتشكل فرصة من المهم الإستفادة منها، وذلك لأن الحالتين السورية والإيرانية هما المشكلة كما أنهما المدخل إلى الحل. وفي تقديرنا إن هذه القمة هي طريق السلامة للرئيس بشار وللحكم الإيراني عوض الإستسلام الذي قد يتم فرضه على كل منهما وبأسلوب يختلف عن الآخر، خصوصاً أن الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي الذي كان دعا إلى قمة إسلامية إستثنائية تحقق السلامة المشار إليها ويمكنه توريثها إلى من يخلفه لم تتعد وأثبت عدم إنعقادها رفض الأكثرية الإسلامية للتوجهات الإيرانية وبالذات للحدة في مقارعة أميركا والمجتمع الأوروبي عموماً. وهذه السلامة تحتاجها إيران الراهنة أكثر بكثير من إيران الخاتمية التي هي بالمقارنة مع ما يطرحه الرئيس محمود أحمدي نجاد تبدو صاحبة رؤية تسالمية بينما إيران الراهنة تجنح نحو التحدي المستند إلى فورة شبابية أحياناً. أما بالنسبة إلى الحكم البشاري فإن قمة عبدالله بن عبد العزيز هي قمة إنقاذ من شأنها أن تشكل له الغطاء الذي يصونه من القرارات الدولية التي ليس من السهل مواجهة ذبولها، خصوصاً أن التعويل على القمة العربية الإستثنائية التي كان حليفه الرئيس حسني مبارك يريد عقدها في شرم الشيخ وبدا الإنعقاد على شيء من الإستحالة العربية، جاء صادمًا على قمة لم تتعد وبمثل التعويل الصادم على قمة لا تتعد، ونعني بها القمة الإستثنائية التي كان الرئيس بشار يتطلع إلى عقدها في دمشق لتغطي قرار الإنسحاب العسكري من لبنان وتطفئ نيراناً تتعلق بالفاجعة

والظواهري. ثم جاء لغز إفتعال إعلان وفاة الرجل في مكان ما لم يتم تحديده، وهل هذا المكان في العراق أو سوريا وتزايد الشكوك في الإعلان، الذي تزامن مع الخطاب التصعيدي للرئيس بشار الأسد ضد الثنائي الوارث للزعامة الحزبية فؤاد السنيورة وسعد الدين الحريري، ليشكلاً علامة الإستفهام الأكبر. أما في زمن إنعقاد القمة الإسلامية الإستثنائية، فإن الحالات تكاثرت وغدا المضاف من هذه الحالات بخطورة الحالتين السابقتين. هناك الحالة الحزبية، والحالة اللبنانية الداخلية، والحالة اللبنانية - السورية، والحالة السورية الداخلية، والحالة السورية - العراقية، والحالة السورية - الإيرانية، والحالة الإيرانية - النووية، والحالة التركية. كما هنالك الحالة الباكستانية والحالة الاندونيسية والحالة الماليزية والتي تشكل بداية إختراق للصمود الإسلامي أمام الهجمة الأميركية - الإسرائيلية التي تستهدف إستكمال التطبيع العربي مع إسرائيل من خلال البوابة الإسلامية. وعلى هذا الأساس، فإن قمة عبدالله بن عبد العزيز مفروشة طرقاتها بالأشواك إلى جانب السجاد الأحمر الذي سيسير فوقه أهل القرار في أمة المليار ونصف المليار، بمن فيهم الرئيس بشار الذي أشعلت بعض مضامين خطابه يوم الخميس 10- 11 - 2005 بداية حرب باردة مزدوجة: لبنانية - سورية وسورية - دولية، والظاهرة الإيرانية الجديدة الرئيس محمود أحمدي نجاد الذي ألهب المشاعر الدولية بالكلام الذي أطلقه يوم الجمعة 28 أكتوبر (تشرين الأول) 2005 في إحتفال خطابي في جامعة طهران لمناسبة «اليوم الخميني للقدس»، الذي إختاره الزعيم الديني الراحل عام 1979 وبحيث يكون يوم الجمعة اليتيم من شهر رمضان. وفي هذه المناسبة قال الرئيس نجاد أمام حشد من أهل القرار الإيراني يتقدمهم مرشد الجمهورية آية الله خامنئي، وبعدما كان قبل يد المرشد للمرة الثانية بعد التقبيل الأول يوم تأدية اليمين الدستورية، ان الحل هو في إزالة إسرائيل. وكما أن الرئيس بشار كان في خطابه ملتزماً كل الإلتزام بمفهوم والده الرئيس الراحل حافظ الأسد للعلاقة اللبنانية - السورية، فإن الرئيس محمود أحمدي نجاد كان ملتزماً بنظرة الإمام آية الله الخميني للوجود الإسرائيلي. وهما إلتزامان يتقاطعان مع الظروف والتطورات والتداعيات في المنطقة بعد رحيل الإمام الذي إرتضى وقف القتال مع العراق مقابل تطبيع للعلاقات مع أميركا يأخذ في الإعتبار الوزن الإيراني

الحريرية، وما يقال حول صلات سورية أمنية وسياسية فيها.

أما كيف تشكل قمة عبدالله بن عبد العزيز السلامة لكل من الوضعين السوري والإيراني، فمن خلال مبادرة إسلامية تكون توأماً للمبادرة العربية، يطرحها خادم الحرمين الشريفين وتحمل في ثنايا مفردات كلماتها أو بنودها وبالذات ما يتعلق بالعراق ولبنان والفلسطينيين والتسوية العاقلة للصراع مع إسرائيل، ما يجعل المجتمع الدولي يرحب بها. وبطبيعة الحال فإن هذه المبادرة عندما تحظى بالإجماع، وهذا لمصلحة الكل وبالذات لمصلحة الحكمين السوري والإيراني، يخرج الجميع من القمة المنعقدة في رحاب مكة المكرمة، حيث الكعبة المشرفة مطمئنين إلى أن الأمور لن تتطور نحو الأسوأ، حامدين الله الذي أنعم عليهم بالتروي والتعقل شاكرين لعبدالله بن عبد العزيز قمته الإسلامية بمثل شكر العرب منهم عام 2002 لرؤيته التي إنتهت مبادرة تبناها بالإجماع، وكانت كفيلة برأب الصدع الذي من دونه لا أمل يرتجى بالإستقرار والتعايش مع الواقع.. وعلى قاعدة السلام والسلامة للجميع.

صحيفة "الشرق الأوسط" - السبت 3 ديسمبر (ك) 2005

* * *

كلام القادة في المنتديات: ما قل.. ولا دل!

بعد متابعة في دبي عن قرب لـ «منتدى القادة»، الذي شارك فيه بعض المسؤولين الدوليين السابقين، ومعهم بعض راسمي الإستراتيجيات الإقتصادية في العالم، وإستضافته إمارة دبي في الأسبوع الأخير من نوفمبر (تشرين الثاني) المنصرم إستوقفني أمران:

الأمر الأول: هو مدى الجدوى من هذا المنتدى، الذي يقول فيه المتحدثون عكس ما كان عليهم قوله وهم في السلطة، سواء على القمة أو يحيطون بالذي هو في القمة من مستشارين أو وزراء، ويقول فيه مستشارون وخبراء إستراتيجيون الكلام الذي نتمنى أن يقولوه لو شاءت الظروف أن يصبحوا ممسكين بمسؤوليات رسمية في دولهم.

الأمر الثاني: هو أن هؤلاء يحظون بمكافأة مالية لقاء مشاركتهم في المنتدى، بينما لا يتاح لمئات

الخبراء والمستشارين الحصول على مكافأة مماثلة، كما لا يتاح لهم المشاركة في منتديات داخل أميركا، يقولون فيها الحقيقة وتنتشر وتبث لهم وسائل الإعلام هناك ما يقولونه.

في «منتدى القادة» الذي إستضافته دبي، سمعنا كلاماً قليلاً لكن ليس من نوع الكلام الذي يدل بالمعنى الإيجابي لأحوالنا، فضلاً عن أنه يبعث الأسى في ما قاله الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون، وخلاصته انه يرى إنسحاب القوات الأميركية من العراق، ليس من أجل أن تعود إلى من حيث أتت، وإنما «أن تتوجه إلى دول مجاورة - يقصد سوريا أو إيران أو الأردن - أو إلى منطقة الأكراد شمال العراق». أما لماذا هذا الإتحاف في الكلام الذي قبض ثمنه مالا كثيراً فلأن من شأن ذلك، والكلام له، مستعملاً المثل القائل «ضرب عصفورين بحجر واحد»، فمن أجل سلامة القوات الأميركية ومساعدة الحكم القائم في العراق على تأسيس دولة ديمقراطية. ثم يضيف ما معناه أن وجود هذه القوات في دول مجاورة هو الذي سيساعد على تأسيس الدولة الديمقراطية في العراق.

تفسيرنا الذي لا يحمل أي إعتراض لأن الكلام واضح كل الوضوح، هو أن كلينتون يقترح إما نقل العدوان إلى سورية أو إيران، وإما نقل القوات الى الاردن على نحو نقل القوات من السعودية الى قطر. فهل يتم الإستنجاد بكلينتون كواحد من القادة لكي يقول لنا هذا الكلام المقبوض الثمن؟

أما وزيرة خارجية عهده مادلين أولبرايت التي تحدثت بصفة كونها «واحدة» من القادة فإن «سيدة البروشات» هذه، بعدما باتت مسؤولة سابقة، إنتقضت إنسانية وإلى درجة انها كادت تذرف الدمع، وهي تتحدث على ما آلت إليه أحوال أطفال العراق، ومما قالته أمام المنتدى «يجب علينا كقادة ومسؤولين، أن نندم ونعتذر عما يدور منا، وكان نتيجته قتل أطفال أبرياء لا شيء يبرر إستباحة دمائهم. كما أن الوجود الأميركي في العراق هو السبب في عدم الإستقرار هناك، وما أحداث سبتمبر عام 2001 في كل من نيويورك وواشنطن سوى نتيجة الوجود العسكري الأميركي والخليج....»، ثم طرحت أولبرايت حيثية جديدة حول كراهية العرب والمسلمين لأميركا تمثلت بقولها: «إن كثيرين يكرهون الولايات المتحدة لإعتقادهم بأنها دولة غنية..»، مضيفة أيضاً: «إن ياسر عرفات فوّت فرصة كبيرة ونادرة لحل المشكلة

الفلسطينية، نتيجة رفضه العرض الذي تقدّم به الرئيس كلينتون في مفاوضات كامب ديفيد»..

كلام الرئيس الأميركي السابق ووزيرة خارجيته، كان يمكن أن يفيدنا لو أنه جاء خالياً من دعوة كلينتون تعديل جغرافية الاحتلال بدل إنتهائه، وكانت إنتقاداته ستفيدنا لو أنه أوردتها في لقاءات مع الرأي العام الأميركي، وليس مع ضيوف عرب إلى المنتدى. كذلك كانت تنظيرات مادلين أولبرايت ستفيدنا، لو أنها أوردتها امام حلقات مناقشة عبر المحطات الأميركية، وإن كان إعتذارها يتضمن لمسة خجل مما شاركت فيه عندما أكملت مع كلينتون ما سبق أن إنتهى إليه الرئيس الأسبق بوش الأب.

وعموماً أن المسؤولين الأميركيين، لا يسجلون المواقف التي هي على نسبة من الموضوعية والإنصاف لقضاياها، إلاّ عندما لا يعودون في مواقع السلطة، مع أن وقفة منصفة من جانبهم، وهم في موقع إتخاذ القرار من شأنها أن تبدد مشاعر الكراهية المستشرية في نفوس العرب والمسلمين، ليس لأنهم ينظرون إلى أميركا على أنها غنية وهم فقراء، على نحو ما خرجت به أولبرايت، وانما لأنهم مظلومون ومغبونون الحقوق، وهي الظالمة والغابنة بشكل مباشر أو من خلال الوقوف مع الطرف الأظلم والأغبن. إسرائيل. ولو طلبت الإدارة الأميركية من مركز للدراسات والإستطلاع إجراء دراسة محايدة في هذا الشأن، لوجدت أن الأكثرية الساحقة من العرب والمسلمين كراي عام وليس فقط كأنظمة تتمنى لو أن أميركا الأمس غير البعيد والحاضر والمستقبل هي أميركا الأمس البعيد، أي أميركا ايزنهاور، وأن هذا الرأي العام تَوّاق إلى لحظة يستعيد مشاعر الود والطمأنينة نحو أميركا، ومن دون اي حسد يتصل بالغنى.

وتبقى الإشارة إلى أن الإشادات من جانب المشاركين في المنتدى بالتطور الذي تشهده دبي هو كلام منهم يراد به الحق ولا شيء غير الحق، عكس الكلام الآخر من البعض وبالذات من كلينتون وأولبرايت، حيث كان معظم كلامهما يراد به الباطل بالنسبة إلى الأول والتكفير المتأخر جداً بالنسبة إلى الثانية عن أعمال كافرة في حق أبرياء سقطوا ضحية الخيار الأميركي المستجد، والمتمثل بإنتقال الولايات المتحدة من دولة الحريات إلى دولة تريد في القرن الواحد والعشرين ممارسة أدوار إستعمارية حفل بها

القرنان التاسع عشر والعشرون، وعفى عليها الزمن. والقول بأن الكلام عن التطور الذي تعيشه دبي، هو كلمة حق يراد بها الحق يستند إلى أن الذي حدث خلال عقدين من الزمن في دبي على ايدي الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، هو نظير ما حدث في ماليزيا على ايدي مهاتير محمد. والتجربة متواصلة ويبدو أن افق الطموح أكثر رحابة مما نرى بدليل أن الشيخ محمد، الذي هو من نسيج الرئيس رفيق الحريري رحمة الله عليه، وأطال عمر الشيخ محمد، أسمع جماعة المنتدى السياسي — السياحي كلاماً خلاصته ان ما هو حاصل على صعيد التطوير والعمران، ليس شيئاً امام ما هو آت.. وربما خلال أقل من عقدين قادمين.

صحيفة "الشرق الأوسط" - الخميس 22 ديسمبر (ك) 2005

* * *

